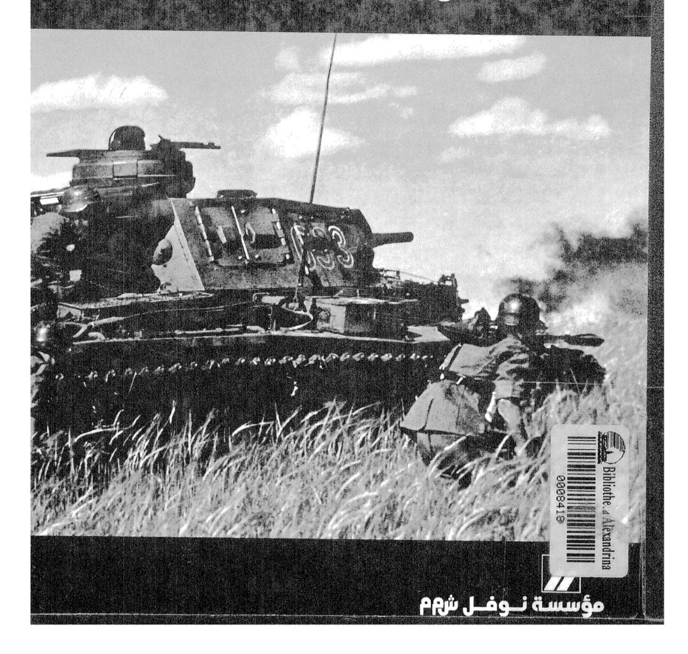
ريمون كارتييه

الحرب العالمية الثانية

الجزء الأول



مؤسسة نوفل ش.م.م



الحرب العالمية الثانية

الجزء الأول

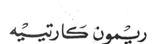
١٩٣٩-١٩٤٢

نقله الى العربية
سهَيل سماحة وانطوان مسعود
باشراف
جبران مسعود

الطبعة العربية الثانية ١٩٨٣ ©
مؤسسة نوفل ش.م.م.
بناية نوفل — شارع المعماري
ص.ب ١١/٢١٦١ تلفون ٣٥٤٨٩٨
تلكس ٢٢٢١٠
بيروت، لبنان

NAUFAL GROUP SARL
B.P 11/2161
Beyrouth, Liban





الحرب العالمية الثانية

« يهينونني بإصرارهم على ا
إنني أسعى إلى الحرب . أمجنون
وهل كانت الحرب يوماً ل
المعضلات ؟ لا ! ما الحرب إلا
على العالم . فإن هي نشبت فست
أجناسنا – وهي النخبة في الأجنا
وأدّى الأمر . في المدى الأبـ
إلى سيطرة « آسيا » على قارت
وإلى انتصار « البولشفية » .

(من حديث «هتلر» مع ف
بريون سنة ١٩٣٣ .)

ـساب المستشارية

« لاروس » و« باري - ماتش »
باريس

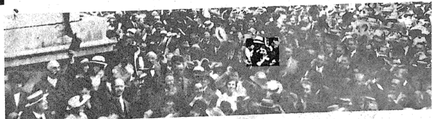
هوذا « أدولف هتلر » النمساوي الذي انتشلته التعبئة من يد الفاقة وألحقته بالجيش البافاري .



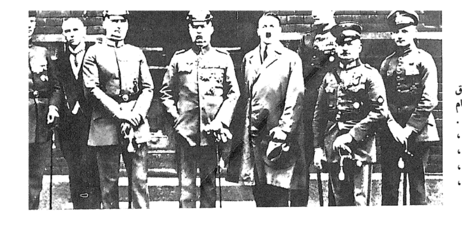
إنّه لمثال الجنديّ الذي لا تعوقه عن جنديّته علاقة من العلائق العاطفيّة : فلقد غادر « مونيخ » وليس له فيها أمّ ولا زوج ولا ولد ولا صديق ، فإذا بالحرب خير مربٍّ ومدرّب لذلك الرسّام المخفق : علّمته النظام والانضباط اللذين كان بهما شغوفاً ، ودرّبته على مجابهة الحقائق التاريخيّة ، ولقّنته أسرار الغوص على خفايا نفسيّة الجماهير . ولقد بلغ به انضباطه أنّه لم يطلب خلال الحرب الطويلة سوى إجازتين : واحدة للذهاب إلى « ليل » في الأرض المحتلّة ، وأخرى للذهاب إلى « برلين » عشيّة الهزيمة . أمّا موقفه من رؤسائه فكان مطبوعاً بتهذيب نمساويّ اعتبره أصدقاؤه البافاريّون على شيء من المداراة ومراعاة الخواطر . ولمّا أطلّت الهزيمة على « ألمانيا » كان واحداً من قلائل أدركوا يقيناً أنّ أسباب الكارثة كامنة في الدعاية الناقصة ، ممّا جعل الشعب الألمانيّ لا يعرف لماذا يحارب .

(« هتلر » إلى اليسار معتمراً خوذة).





جماهير غفيرة متحمّسة محتشدة في إحدى ساحات « مونيخ » ، في أوّل أيّار ١٩١٤ . وبعد مضيّ عشرين عاماً على هذا التاريخ اتّضحت أمام الناس معالم ذلك الشابّ ذي الشاربين القصيرين الأسودين : إنّه « أدولف هتلر » .



بعد انقلاب أوّل أيّار ١٩٢٣ المخفق في «مونيخ» يقف المتآمرون أمام عدسة المصوّر ذكرى للأجيال الآتية. إنّهم من اليسار إلى اليمين: «فيبر»، و«فريلك»، و«كريبل»، و«لودندورف»، و«هتلر»، و«بروكنر»، و«روهم»، و«فاغنر».

عاد «هتلر» إلى «مونيخ» بعد تسريحه، وما لبث أن انضمّ إلى «الحزب الشعبيّ الألمانيّ». وفيما كانت القوميّة والاشتراكيّة حتى ذلك الحين نظامين متباينين متضادّين، إذا بهما يتّحدان لغزو الجماهير ولتشييد صرح «ألمانيا الكبرى». ولقد أبدع «هتلر» في المهمّة الدعائيّة التي عهد بها إليه الحزب، إنْ ببلاغته المثيرة، أو بأحاديثه الحميمة مع الناس.



«هتلر» المستشار الجديد



«هتلر»، المستشار الجديد. لقد ألقى خطاباً تاريخيّاً جاء فيه: «إنّي أُقسم لأبذلنّ ما في طاقتي لخير الشعب الألمانيّ، ولأحترمنّ دستور «ألمانيا» وقوانينها، ولأقومنّ بواجباتي على هدي الضمير، ولأعاملنّ الجميع بتجرّد وعدالة».



لم يَسبق لمبدَا «عبادة الفرد» أن بلغ

بات الشعب الألمانيّ يشعر بأنّه وزعيمه « الفوهرر » يؤلّفان وحدة لا تنفصم لها عرى ، فكان كلّ عيد من أعياد ميلاده في العشرين من نيسان مناسبة للعديد من مظاهر الإجلال والتقدير يحيطه بها الشعب : فما كنت ترى على سلّم المستشاريّة إلا أكداساً من الزهور حملها إليه النساء والأطفال . ذلك أنّ « هتلر » لم يبقَ المحرّك السياسيّ الذي عرفوه بالأمس ، بل أمسى الرجل الذي أوكلت إليه العناية الإلهيّة أمر تطهير « ألمانيا » وبعثها . إنّه ، بحقّ ، ذلك الزعيم الذي وهب الشعب صوته .





« إنّني أتولّى منذ الساعة قيادة القوّات المسلّحة كلّها بنفسي . وتخضع إدارة القوّات المسلّحة المركزيّة لقيادتي المباشرة ، فتكون بمثابة أركان حربي العسكريّة » .

في تموز ١٩٣٩ . ويبدو « هتلر » في جولة تفتيشيّة في خطّ « سيغفريد » تجاه خطّ « ماجينو » .



« فون ريبنتروب » يوقّع باسم « ألمانيا » المعاهدة الألمانيّة — السوفياتيّة ، ووقف « ستالين » وراءه وقد افترّت شفتاه عن ابتسامة . في تلك اللحظة أدرك العالم أنّ ما من قوّة تستطيع تدارك الكارثة .

« هنالك لفظة ما عرفتها في حياتي قط ، ألا وهي " الهزيمة "... سوف لن أخلع بزّتي العسكريّة إلاّ بعد تحقيق النصر... » (من خطاب " لهتلر " في المجلس النيابي الألماني في ١ أيلول سنة ١٩٣٩)



ألفصل الأوّل

أيلول ١٩٣٩

سحق بولونيا

استهلال

الساعات الأخيرة من آب ١٩٣٩ تسير سيرها المعتـاد . والليل قد بسط جناحه بارداً صافيـاً من جبال « الكربات » حتى « البلطيق » . الأحوال الجويّة على خير ما يرام : فإنّ ما تلبّد من الضباب في قاع الأودية لن يلبث أن ينقشع مع الشمس المشرقة، ولسوف يأتي النهـار ساكناً مشمساً وهو أنسب ما يكون للطيران .

أمّا الأرض، وقد أيبسها الصيف وأحفاها الحصاد، فليست بأقلّ من السماء موأتاة للدبّابات . جداول كثيرة جفّت . وغدا عبور مجاري المياه الكبيرة . « كالناريف » و « البوغ » و « الفيستول » . على الأقدام ممكناً في كلّ مكان تقريباً . حتى لكأنّ الظروف كلّها قد تضافرت لتؤمّن لاختبار أساليب الجيش الألمانيّ الجديدة في القتال أفضلَ ما يمكن من الشروط .

أطلق على العمليّات بمجملها اسم « المشروع الأبيض » . ولقد جرى تجهيز الوحدات العسكريّة بطريق الاستدعاء الفردي، مع تحريم التفوّه بلفظة « التعبئة » . لم يصل الأمر بتنفيذ المخطّط المرسوم إلى أركان حرب وحدات الجيش إلاّ في الساعة السابعة عشرة ، وعلى الشكل التالي :ي = ١٠٩٠٤٠٤٥ ومعنى ذلك أنّ نقطة انطلاق الحرب ، وساعة الزحف التي يتوقّف عليها مصير « ألمانيا » والعالم ، هي الساعة ٤،٤٥ من صباح ١ أيلول .

وتحرّكت، أجهزة الاتّصال لإبلاغ قرار « أدولف هتلر » إلى فصائل المشاة المنتشرة على الحدود البولونيّة . لقد كانت المهلة من القِصَر بحيث أنّ بعض الوحدات لم يبلغها القرار في الوقت المناسب . فلمّ تخض الحرب إلا لدى سماعها طلقات المدافع .

ومع هذا ، فإنّ بعض القوّاد الذين أصدروا الأمر وقفوا على أهبة الاستعداد لإصدار الأمر المعاكس . كان ذلك هو موقف الكولونيل جنرال « غرت فون روندشتاد » ، آمر جيوش الجنوب ، وموقف رئيس أركان حربه الجنرال ليوتنان « اريك فون مانشتاين » . ذلك أنّهما كانا يخشيان تكرار ما قد جرى لأيّام ستّة خلت . ففي ٢٥ آب . في تمام الساعة ١٥،٢٥ — ولمّا يمضِ على تسلّم « روندشتاد » القيادة غير ساعات ثلاث — تلقّى مقرّهما العامّ أمراً بمباشرة الأعمال الحربيّة في الساعة الرابعة والنصف من اليوم التالي ، وكانت القيادة إذ ذاك في قرية على ضفاف « النيس » . وفيما كانا يتناولان بعض الطعام في الثامنة والنصف أدركهما بلاغ آخر ، يأمرهما فيه الفوهرر ، القائد العامّ ، بإلغاء أمر الهجوم وإيقاف تحرّكات الجيوش . في تلك الأثناء كانت فيالق ثلاثة قد تحركت ، ممّا حتّم المسارعة إلى تجميد زحفها . وكذلك في منطقة جبال « التاترا » ، لم تتوقّف تحرّكات فيلق آليّ أوشك أن يجتاز الحدود إلاّ بفضل تضحية ضابط من ضبّاط الاتّصال هبط بطائرته على قارعة الطريق أمام طلائع الجيش .

وهكذا بات القائدان ينتظران حتى منتصف الليل ، وقد اتّخذا الحيطة اللازمة لإيقاف الهجوم . وفي اعتقادهما أنّ الأمر لا يتعدّى التهويل والخدعة . وعند انتصاف الليل ، نهض « روندشتاد » قائلاً : « أمّا الآن فقد قُضي الأمر ، وأرى أن نصيب من الراحة ساعة أو ساعتين » .



«لقد كُتبت الهزيمة على الجيش البولونيّ قبل أن يخوض غمرات القتال ، نظراً لطبيعة تكوينه بالذات ... »



جنود ألمان يحطّمون حاجزاً من حواجز الحدود قرب « سوبوت » في ١ أيلول . لقد زالت « بولونيا » من الوجود !

« أريد أن أتجنّب تدخّل الإنكليز » (هتلر)

إنّ مُهلة الأسبوع تلك التي مُنحها السلم المحتضر صادفت قيام « هتلر » بمحاولة أخيرة لحصر النزاع . ففي صباح ٢٥ آب رنّ جرس الهاتف في مكتب « غورنغ » . سمع الرايخ مارشال صوت الفوهرر يقول : « إنّني أجمّد كلّ شيء » ــ آه ! (وتنفّس الصعداء) وهل الأمر نهائيّ ؟ » أجاب « هتلر » : « كلاّ ، أريد أن أرى ما إذا كانت هنالك وسيلة لمنع الانكليز من التدخّل » . ذلك أنّ النزاع حول « دانتزغ » وممرّها كان يهدّد بما لم يكن « أدولف هتلر » يريده بعد ، ألا وهو الحرب العالميّة . كان يحاول للمرّة الأخيرة حصر القتال بينه وبين « بولونيا » . وفي ٢٣ أيّار كان « هتلر » قد أعلن لقوّاده عزمه على القضاء على « بولونيا » عسكرياً بقوله : « لا تتوقّعوا أن يحدث هنا ما حدث في « تشيكوسلوفاكيا » . فهذه المرّة ، أيّها السادة ، لا مفرّ من الحرب ... » كان لهذه الحرب أن تبدأ قبل نهاية آب ، بعد الحصاد ، لتنتهي قبل أمطار الخريف وفصل الوحول . وأضاف : « لو كان الكولونيل جنرال « براوشيتش » قد صرّح بأنّه يتوقّع حرباً طويلة ، لما أقدمت عليها ، ولكنّه وعدني باحتلال « بولونيا » في بضعة أسابيع » . وكان من المحتمل ألاّ تتدخّل « فرنسا » و « انكلترا » . ثم قال : « لقد خبرت قادتهما في مونيخ : فما « دالادييه » و « تشامبرلين » غير دودتين ! » أمّا الاتّحاد السوفياتيّ فقد كان له في شخص « ستالين » قائد يرى فيه « هتلر » صنواً له ، إلاّ أنّ الجيش الأحمر كان قد أضعفه التطهير العسكريّ الذي أودى بأكثريّة قوّاده . وأنهى هتلر كلامه قائلاً : « وعلى كلّ حال لا يُستبعد أن تقف « روسيا » من تدمير الدولة البولونيّة موقف اللامبالي . . . » هذه الجملة الأخيرة المدوّنة في محضر الليوتنان كولونيل « شموندت » ، مرافق الفوهرر ، تتضمّن نواة التحالف الهتلريّ ــ السوفياتيّ ، ومفاجأة ٢٣ آب .

بدأ التقارب بإرسال بعثة ألمانيّة إلى « موسكو » مكلّفة بإجراء مفاوضات لعقد اتّفاق تجاريّ . في تلك الأثناء كانت « فرنسا » و « انكلترا » تتباحثان في العاصمة السوفياتيّة مع الروس بغية إقامة تعاون عسكريّ ضدّ الرايخ الثالث . وجرت مفاوضات الفئتين جنباً إلى جنب ، الأولى متكتّمة سلسة ، والثانية مشحونة بالأزمات . وفي ٢٥ تمّوز توصّل الفرنسيّون والبريطانيّون والروس ، بعد جهد ، إلى اتّفاق سياسيّ مبدئيّ ، عقبه وصول بعثة عسكريّة إلى « موسكو » يرئسها الجنرال « دومنك » والأميرال « بلانكت » . وما لبثت هذه البعثة أن اصطدمت بعقبة كأداء : لم تكن للاتّحاد السوفياتيّ ولألمانيا حدود مشتركة ، وكان البولونيّون يرفضون بعناد أن يجعلوا من وطنهم ميدان قتال للجيش الأحمر . وقد ذهبت محاولات الضغط على « فرصوفيا » أدراج الرّياح .

في ذلك الحين وصلت « موسكو » برقيّة من « هتلر » يطلب فيها من « ستالين » أن يستقبل على جناح السرعة وزير خارجيّته « يواكيم فون ريبنتروب » . وصعقت العواصم الغربيّة لهذا السفر ، في ليل ٢٢ ــ ٢٣ آب . وكان ليلاً حارّاً ، محموماً ، مذهلاً . وقد وُصفت البرقيّات الدبلوماسيّة القليلة التي أشارت إلى احتمال تقارب بين النازيّة والشيوعيّة بأنّها غير معقولة . أمّا « ادوار دالادييه » رئيس الوزارة الفرنسيّة فقد أجاب بصوت ناعس ، وقد أيقظه وزير خارجيّته من نومه : « عليك بالتثبّت من أنّ هذا الخبر ليس مجرّد إشاعة صحافيّة » . ولكنّ اليوم التالي حمل ، ويا للأسف ، بلاغات مظفّرة من « برلين » و « موسكو » تعلن أنّ اتّفاقيّة عدم اعتداء قد وُقّعت بين الاتّحاد السوفياتيّ والرايخ الألمانيّ ؛ فلم يبقَ أمام البعثة العسكريّة الفرنسيّة ــ البريطانيّة إلاّ أن تعود أدراجها .

كانت الخيبة في « انكلترا » مريرة ، وكان الاضطراب في « فرنسا » يفوق الوصف . أمّا في « ألمانيا » فقد بلغ الارتياح أقصاه . وقد زال الشكّ عن كثيرين ممّن كانوا يرتابون من عبقريّة الفوهرر . وظنّ بعض الألمان أنّ الحرب غير واقعة ، إذ أنّ المساعدة السوفياتيّة لن

تتوافر للديموقراطيّات الغربيّة . فيما اعتقد آخرون أنّ الحرب واقعة بعدما زال كابوس فتح الجبهتين في آن معاً، فما ان يتمّ إخضاع « بولونيا » المستضعفة حتّى تتّجه « ألمانيا » بكامل قواها ناحية الغرب .

في « موسكو » سار كلّ شيء على ما يرام ، فلم يكن على « ريبنتروب » أن يحلّ أيّة عقدة . وقبل « ستالين » على الفور ألاّ يكون ميثاق عدم الاعتداء العلنيّ سوى ستار يحجب الميثاق الحقيقيّ ، ألا وهو التقسيم الرابع « لبولونيا » . ولقد جرى الاتّفاق على الحدود المشتركة بسهولة : نهر «الناريف»، ونهر «الفيستول»، ونهر «السان» . ولم يقتصر التقسيم على « بولونيا » بل امتدّ إلى بلاد البلطيق ، فإذا « لألمانيا » « ليتوانيا » . وإذا « لروسيا » « ليتونيا » و « استونيا » و « فنلندا » ، فضلاً عن « بيصارابيا » التي كان على « رومانيا » أن تتخلّى عنها . كان الثمن يبدو باهظاً بلا ريب : فحاجز الدول الذي أنشأته اتّفاقيّات ١٩١٩ سدّاً حول البلشفيّة قد طُرح أرضاً . والمراكز الأماميّة القديمة للجرمانيّة في « كورلاندا » و « ليفونيا » قد تقلّصت . كان الثمن باهظاً وتافهاً في آن معاً . فالاتّفاق كان مشوباً بسوء النيّة المتبادل . لأنّ « ستالين » وقّعه طمعاً في الفائدة المباشرة وكسب الوقت ، و « هتلر » وقّعه وفي نيّته أن يمزّقه يوماً ؛ فقد كان يصرّح للمقرّبين إليه أنّ هدفه ليس إعادة « دانتزغ » وإزالة ممرّها، ولا هو تدمير الدولة البولونيّة، بل احتلال السهول الروسيّة لتأمين مستقبل الشعب الألمانيّ . وأمّا التضحيات التي قبل بها فقد كانت موقّتة ، وبالتالي وهميّة .

بيد أنّ الغد حمل إلى « هتلر » غضباً ومفاجأة وخيبة . وأمّا الغضب فمبعثه « إيطاليا » التي كانت قد وقّعت مع « ألمانيا » في أيّار تحالفاً عسكريّاً مطنباً أسمته دوائر الدعاية « الحلف الفولاذيّ » . ولكنّ الفولاذ لان منذ التجربة الأولى . وكان « تشيانو » و « موسوليني » قد اكتشفا بجزع وذهول أنّ الحرب وشيكة الوقوع . فتوسّلا إلى « هتلر » أن يؤخّرها بحجّة عدم استعداد بلدهما ، وبحجّة المعرض الدوليّ الذي كان مقرّراً أن يُقام في « روما » سنة ١٩٤٠، والذي أنفقا عليه مالاً كثيراً . ولم يكن النصر الدبلوماسيّ الذي أُحرز في « موسكو » ليطمئنهما؛ فبعد انقضاء ساعات معدودات على عودة « ريبنتروب » كان « هتلر » يصغي بوجه متجهّم إلى السفير « اتوليكو » وهو يتلو عليه رسالة مرتبكة من « موسوليني » تعلن عن رغبته في تبنّي موقف عدم الاعتداء . وما ان أُقفل الباب على أعقاب السفير حتّى انفجرت اللعنات : الإيطاليّون غير أهل للثقة ، جبناء ، ضعفاء ، خونة ! . . وأمّا البلاغ الرسميّ فقد أعلن أنّ عدم الاعتداء لا يعني الحياد ، وأنّ الفوهرر يوافق على موقف « إيطاليا » ، وأنّ « الحلف الفولاذيّ » أقوى ممّا كان عليه في أيّ وقت مضى :

أمّا ما أصاب « هتلر » من مفاجأة وخيبة فقد كان مصدره « لندن » . ففي « باريس » ، حيث ثبّط الاتّفاق الألمانيّ — السوفياتيّ العزائم ، كان الرأي العامّ يدرك أنّ إنقاذ « بولونيا » بات مستحيلاً ، وأنّ حرباً من أجلها لا تجدي فتيلاً . ولم يكن الرأي العامّ الانكليزيّ يدرك هذه الحقيقة على ما يبدو، ولذا أتت ردّة الفعل الحكوميّة بلاغاً جافّاً يقول إنّ ما جرى في « موسكو » لا يؤثّر في التزامات « بريطانيا العظمى »، فهي ما تزال مصمّمة على الوفاء بها . وبعد ساعات عادت الحكومة توضّح تصريحاتها وتدعّمها . وهكذا، وفي اليوم ذاته، أضحى الضمان الذي أُعطي للحكومة البولونيّة في أيّار اتّفاقاً للمساعدة المتبادلة : فقد أخذ كلّ من الطرفين المتعاقدين على نفسه عهداً بتقديم أقصى العون للطرف الآخر إذا اقتضت الضرورة أن يصدّ بقوّة السلاح أيّ اعتداء على استقلاله ، مباشراً كان أو غير مباشر . لم يسبق قطّ للانكليز أن يلتزموا مثل هذا الالتزام الحاسم ، ولم يسبق لهم أن يسلّموا مثل هذا التسليم بأمر يشبه توقيعاً على بياض . يا لغرابة الانكليز ! ففي السنة الفائتة ، في « برشتشغادن » و « بادكوديسبرغ » و « مونيخ » ، كان « تشامبرلين » ، الرجل ذو المظلّة والعنق الطويل الضامر ، قد بدا لفوهرر الألمان الجبّار سيّداً كهلاً مضطرباً ، تكفي غضبة مصطنعة أو صيحة محكمة لتثير الرعدة في فرائصه . فإذا « تشامبرلين » هذا يلقي بالقوّة البريطانيّة كلّها بين « بولونيا » المحكوم عليها و « ألمانيا » الشاكية السلاح، من غير أن تبدر منه عبارة تافهة أو زفرة واحدة ! أكان الأمر خدعة؟ أكان ذلك قراراً يائساً؟ ألم يكن ذلك على الأصحّ عدم تفهّم، أو بطءاً اختصّت به الجزر البريطانيّة في تقدير شؤون القارّة؟ لم يكن أحد يعلم . ومن أجل ذلك كان « أدولف هتلر » قد قرّر تأجيل الزحف في ٢٥ آب قبل ساعات من اللحظة الحاسمة .

إلاّ أنّ أيّام تلك المهلة التي منحها « هتلر » لم تحفل بغير مفاوضات مبهمة ، فقد أخفق دهاؤه حيال الحذر الانكليزيّ المشروع . آمن

لقد زحفت الأسلحة الآليّة الألمانيّة الضخمة . ويبدو في الصورة مدفع مضادّ للطائرات عبر ممرّ « دانتزغ » في طريقه إلى الجبهة .

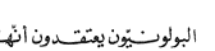
الانكليز باتّفاق « مونيخ » المعقود في السنة الفائتة . ولكنّ « هتلر » مزّق ذاك الاتّفاق بعد أشهر ستّة ، وضمّ « تشيكوسلوفاكيا » بعد ما تعهّد باحترام حطامها . فسخر من طيبة قلوبهم وبدّد بالتالي أوهامهم . وعبثاً راح يُقسم من بعد بأنّ « دانتزغ » ومرّها هما مطلباه الأخيران .

عند غياب شمس ٣١ آب كانت لا تزال هناك بقيّة من مفاوضة . فمن ناحية قبل « هتلر » أن يستقبل المفوّض المطلق البولونيّ ، ومن ناحية أخرى دعا « موسوليني » إلى مؤتمر دوليّ لتسوية المشاكل الأوروبيّة المتنازَع عليها . نامت « أوروبا » تلك الليلة نوماً أهنأ من الذي عرفته في الليالي السابقة . وكلّها يقين بأنّ أشدّ نقاط الأزمة تعقيداً قد سُوّي ، وأنّ السلام لن يموت .

عندما بزغت شمس ١ أيلول اجتازت المصفّحات الألمانيّة الحدود وانهالت القنابل على المدن البولونيّة . وهكذا عاد « هتلر » فكذب : لم تكن استعداداته السلميّة الأخيرة إلاّ حيلة منوّم . وكان الأمر بالزحف على « بولونيا » قد صدر مساء تلك الليلة . أمّا حادث الحدود الرائع الذي ابتدعه « هيملر » — وهو أن يهاجم جهازَ الإرسال في « جلايفتز » مساجينُ مجرمون متنكّرون بزيّات بولونيّة زائفة — فكان في طريق الإنجاز . ولمّا تصدّى الليوتنان كولونيل « شتاينمتز » ، القائد العسكريّ المحلّي ، لهذا المكر ، أُسكت بهذا القول : « إنّه أمر الفوهرر » . وأخذت الإذاعة الألمانيّة إذ ذاك تعلن أنّ حرمة الأراضي الألمانيّة قد انتُهكت ، وأنّ الأقلّيّة الألمانيّة في « بولونيا » ذهبت ضحيّة مجزرة مريعة ، وأنّ تدخّل الجيش الألمانيّ بات ضروريّاً . لم يكن أمر إعلان الحرب وارداً : كانت القضيّة قضيّة حملة زجريّة !

لقد تدحرج حجرا الزهر ، إلاّ أنّ « هتلر » قد ألقى بهما قبل أن يتمكّن من الإجابة عن ذاك السؤال الذي يفسّر تأجيل ٢٥ آب : أتكون شجاعة « انكلترا » مجرّد خدعة ؟





البولونيّون يعتقدون أنّهم سَيَحتلّون « بـرلين » !

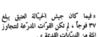
القنابل التي أيقظت « بولونيا » فجر ١ أيلول لم تروّعها . كانت « بولونيا » تنتظر الحرب فإذا الحرب راهنة .

أكانت « بولونيا » تكتفي بانتظار الحرب؟ هل كانت تستدعيها؟ من يدري . كانت موجة من التعصّب الوطنيّ تعصف بالبلاد ، وكان الكثيرون يخشون أن تفوت سياسيّيهم فرصةُ تلقين الألمان درساً لا ينسونه . وما دام « هتلر » يريد زوال ممرّ « دانتزغ » ، فإنّ « بولونيا » ستزيله على طريقتها ، وذلك باسترداد « بروسيا » الشرقيّة حيث لم يكن حكم الألمان إلاّ اغتصاباً . كانت « برلين » على بعد مئة كيلومتر من الحدود ، وفي « برلين » نفسها سوف يُحسم النزاع وتُوقّع معاهدة السلام ! هذا من جهة ، أمّا الرجال المسؤولون فكانوا ينافسون الوطنيّين القصيري النظر في قلّة إدراكهم : ففي ١٥ آب قام « لوكاسيفيتش » ، السفير البولونيّ في « باريس » ، بزيارة وزير الخارجيّة « جورج بونيه » ، فأسرّ إليه هذا بقول « هتلر » « لكارل بوكهارت » المفوّض السامي في « دانتزغ » : « سأحتلّ « بولونيا » في ثلاثة أسابيع بقوّاتي الآليّة » ، فما كان من « لوكاسيفيتش » إلاّ أن شال بكتفيه قائلاً : « يا لها من حماقة ! نحن من سيحتلّ « ألمانيا » حال ابتداء العدوان ! » أمّا السفير « ليبسكي » ، المقيم في « برلين » ، والذي كان يشهد عرض القوى الألمانيّة كلّ يوم ، فكان على يقين من أنّ الحرب ستُحدث ثورة في « ألمانيا » ، وأنّ الجيش البولونيّ سيدخل إذ ذاك « برلين » دخول الظافرين .

عشرون سنة كادت تنقضي على انبعاث « بولونيا » . ولو أنّ حكمة الانكليز تغلّبت إذ ذاك ، لكانت الدولة التي بُعثت حيّة من رماد التاريخ قد اكتفت بحدودها الجغرافيّة ، ومُنحت في « دانتزغ » حقوقاً بحريّة عاديّة . إلاّ أنّ الحميّة الفرنسيّة والرومنطيقيّة المساندة للقضيّة البولونيّة أطاحتا هذا الموقف الرصين المتعقّل وملأتا « بولونيا » بأقلّيّات وطنيّة وبسطتاها على « روسيا البيضاء » و « أوكرانيا » . وفتحتا عبر « ألمانيا » ذاك المنفذ المصطنع الذي سُمّي « ممرّ دانتزغ » .

كانت نظريّة أصدقاء « بولونيا » أنّهم يبنون في ظهر « ألمانيا » دولة سلافيّة كبيرة تحلّ في محالفة « فرنسا » محلّ « روسيا » المبلشفة . ولكنّهم ما كانوا يغذّون غير الأوهام .

وإذا الحليف المدلّل حليف جاحد ، وغدا الانحطاط الفرنسيّ موضوعاً تلوكه « فرصوفيا » كما تلوكه « روما » و « برلين » . وهكذا انتصبت « بولونيا » المعتمدة على ٣٣ مليوناً من السكّان ، ثلثُهم بولونيّون بالقوّة ، إزاء « فرنسا » ، كدولة مرشّحة لخلافتها ، ورفضت أن تنضمّ إلى نظام التحالف الذي أقامته الديبلوماسيّة في « أوروبا » الوسطى تحت اسم « الاتّفاق الصغير » . وراحت تطالب بحصّة لها في المستعمرات الفرنسيّة ، فطلبت أن تُمنح جزيرة « مدغشقر » مدّعية أنّ من حقّ الأمم الصغيرة الكثيرة الإنسال أن تطالب باقتسام العالم على أسس جديدة . وكانت تثور حانقة ، بتأثير الكبرياء والحذر ، على كلّ ما كان يجعل منها في نظر الغير تابعاً « لفرنسا » ، وحتّى على تلك الشهرة التي نعم بها الجنرال « ويغان » كمنقذ لها من الاحتلال الروسيّ عام ١٩٢٠ . وتعدّدت في « فرصوفيا » المظاهراتُ المعادية « لفرنسا » ، فمن الناحية الميدنيّة كان التحالف الفرنسيّ البولونيّ ما يزال قائماً ، ولكنّ علاقات الحليفتين كانت في الواقع تتّسم بطابع التجافي حتّى عهد اتّفاقيّة « مونيخ » وما بعده .



« فيما كان جيش الخيّالة العتيق يبلغ ٣٧ فوجاً ، لم تكن القوّات المدرّعة لتتجاوز المئة من الدبّابات القديمة » .



صرّح وزير الحربيّة البولونيّة « كاسبريزيكي » بقوله : « إنّ عبقريّتنا العسكريّة كامنة في الهجوم ، ولسوف ننتزع النصر به » . في الصورة : عربات مصفّحة بولونيّة صغيرة .



رائحة البطولة تفوح من جلد ورُوث ... لم تكشف الحرب بعد عن وجهها الحديد . فرق بولونيّة تقلّها عربات صغيرة من طراز ١٨١٥ في طريقها لمجابهة موجة عارمة من نار وفولاذ .

وعكس ذلك كان يجري في « ألمانيا » . وفيما كانت « ألمانيا » تغذّي نزاعاً مستمرّاً في « دانتزغ » تعرّضت الأقلّيّات الألمانيّة لضغط مكشوف لئيم . ومع ذلك فقد كانت حكومة « هتلر » تلاطف الحكومة البولونيّة ملاطفة كانت هذه الأخيرة تتقبّلها على أنّها اعتراف بقوّتها . فالمارشال « غورنغ » ، صيّاد الرايخ الكبير ، كان يأتي لصيد الأوعال في غابة « بيالوفييزا » ، تحفّ به حاشية ضخمة ، وكان يعلن في كلّ مرّة أن الرّايخ بحاجة إلى « بولونيا » قويّة ، وأنّه لا وجود لخلاف هامّ بين البلدين . وكان « جوزف بك » ، صنيعة البطل القوميّ « بيلسودسكي » ، يدفع سياسة التقارب إلى أبعد حدودها . ففي أزمة « مونيخ » جعل « بولونيا » تقف إلى جانب « ألمانيا » ، وانتزع من « تشيكوسلوفاكيا » اقليم « تيشن » . وحين كان يقال للبولونيّين أنّهم لا محالة لاحقون بالتشيكيّين ، كانوا يشمخون مردّدين باعتداد : « نحن لا نهاب شيئاً لأنّهم يخافوننا . . . »

وفي ٢٦ كانون الثاني ازدانت « فرصوفيا » بالأعلام الألمانيّة احتفاء بـ « ريبنتروب » الذي جاء يردّ زيارة قام بها « بك » لـ « هتلر » . كان ذلك بصيصاً أخيراً لصداقة مدروسة من الجانب الألمانيّ ، موهومة من الجانب البولونيّ؛ فلم يمض على زيارة « ريبنتروب » شهران حتى أعلم السفير البولونيّ بأنّ « ألمانيا » تطالب باسترجاع « دانتزغ » وإقامة منفذ خارجيّ ضمن الممرّ . ولكنّ « بولونيا » رفضت هذه المطاليب ، فاشتدّ النزاع .

ولم يكن الخطر الوشيك ليجعل البولونيين يقدّرون القوّة الألمانيّة على حقيقتها . فقد حطّم الطلاّب زجاج السفارة الألمانيّة هاتفين : « إلى برلين ! » وغالى العسكريّون في تبجّحهم؛ كان « كاسبريزيكي » وزير الحربيّة يقول : « لقد أشبعونا نصائح وإرشادات فاسدة ، ولذلك لن نعمل بها . يشيرون علينا بالتحصّن، بالمقاومة، بالتراجع، بالصمود على خطوط الماء . لن نفعل شيئاً من ذلك . خطّتنا هي الهجوم ، وبالهجوم نحقّق النصر » . في ١ أيلول كانت التعبئة في بدايتها ، وكان الجهاز الستراتيجيّ تافهاً . وفي سبيل تغطية أرض الوطن كلّها بالحماية ، وزّع القائد العامّ « ريدزميجلي » على طول الحدود سبع مجموعات دُعيت جيوشاً ! ووضع قوّات ضخمة في فخّ ممرّ « دانتزغ » وأوعز إليها باحتلال « بروسيا » الشرقيّة ، فيما حشد على قرنة « بوزن » ، التي تعتبر منطلق الهجوم على « برلين » ، قوى تفوق الأولى ضخامة ، وهي جيوش « كوترزيبا » و « بورتنوفسكي » . أمّا الغرب فقد كان يقدّر قوّة « بولونيا » ، استناداً إلى عدد سكّانها ، بثمانين فرقة ، بينما لم تكن تملك في الواقع غير ثلاثين ، منها ٢٣ عُبِّئت في بداية العدوان . وحتى لو كان العدد أضخم لما غيّر في الوضع شيئاً ، ولم يكن إلاّ ليزيد الخسارة فداحة . أمّا هزيمة البولونيّين فلن يكون سببها قلّة العدد ، ولا النقص في استعداد القيادة ؛ إنّ واقع حال الجيش البولونيّ هو الذي كتب عليه الهزيمة قبل أن يخوض غمار الحرب .

ويعود عهد سلاح الجيش البولونيّ إلى الحرب العالميّة الأولى ؛ فالقوى الجوّيّة تتألّف من ٤٢٠ طائرة بينها بضع مقاتلات من طراز ب ــ ٢٤ تعتبر حديثة نسبيّاً . والخيّالة قديمة تضمّ ٣٧ فيلقاً ، وسلاح المصفّحات يقتصر على بضع مئات من الدبّابات العتيقة ، والمدفعيّة بكاملها تجرّها الخيل ، ومعدّات الإرسال بدائيّة ، والسلاح المضادّ للطائرات يكاد لا يُذكر . الهجوم هو الشعار المفضّل ، إلاّ أنّ قواعد العمليّات تقليديّة ثقيلة ؛ الرجال يرزحون تحت أحمالهم ، وتقوم عربات الفلاّحين الصغيرة مقام قطارات الميدان والنقل . لم يكن الجيش يعتمد على المحرّكات ، فكان بالتالي ، في منطق المفهوم البولونيّ ، ليّناً ، موافقاً لطبيعة البلاد ، يجهل قضايا التموين والتحرّك والإصلاح وما تتطلّبه من آليّات .

مناورات عامّة تهدف إلى تركيز الهجوم المقبل باتّجاه الغرب . أمّا سلاح الدبّابات الألمانيّ الكاسح فقد أتى « ثورة في عالم المصفّحات » في مفهوم الفنّ الحربيّ .

دبابات ، وطائرات "شتوكا"، وجنرالات متآمرون

. . . وفي الناحية المقابلة ينتصب جيش « هتلر » .

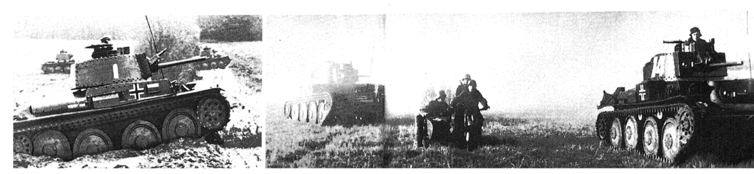
إنّه وليد أمس . ففي ١٩٣٩ كانت « ألمانيا » ما تزال خاضعة لاتّفاقيّة « فرساي » على الرغم من بعض المخالفات التافهة : مئة ألف جنديّ محترف ، موزّعين على عشر فرق صغيرة للمشاة والخيّالة ، محرومين من المعدّات المصفّحة ، والمدفعيّة الثقيلة ، والطيران ، ومن هيئة أركان عامّة . ولم يأمر « هتلر » بإعادة الخدمة الإجباريّة ، وبإنشاء جيش وطنيّ يتضمّن ٣٦ فرقة، إلاّ في ١١ آذار ١٩٣٥ . وقد قدّر القائد الأعلى « فون فريتش » أنّ هذا العدد كبير واستفزازيّ ، وصرّح بأنّ ٢٤ فرقة تكفي للدفاع الوطنيّ الألمانيّ . ولكنّ « هتلر » تخطّى هذا الاعتبار .

وقد داعب الجيشَ الألمانيّ حنينٌ إلى الدبّابات خلال الخمس عشرة سنة من عمره ، فكان يجسّدها في المناورات بشاحنات « مصفّحة » بالقماش ، أو بشكل نماذج يحملها جنديّان على طريقة مهرّجي السيرك داخل خيول من الورق المقوّى . وراحت العقول الخلاّقة التي أثقلها الواقع تدرس تلك الآلة نظريّاً، فأيقنت أنّها تشكّل ثورة عسكريّة توفّق بين عاملَي القوّة والسرعة اللذين كانت حرب المواقع قد فكّكتهما . وانطلاقاً من هذا الواقع الملموس تمخّضت في الفكر العسكريّ الألمانيّ حربٌ جديدة ، يقلّ فيها استعمال المعدّات ، وتخفّ المجازر الطويلة القاتمة التي لطّخت بالعار الفنّ العسكريّ بين ١٩١٤ و١٩١٨ . فالدبّابات التي تؤلّف وحدات كبيرة ، والتي تعمل بأقصى سرعتها ، لا ترتبط بجيش المشاة البطيء ، بل تستطيع أن تخرق وتناور وتطوّق معيدةً إلى الحرب النشاط والارتجال والذكاء .

وفي ميدان الطيران كان التفكير العسكريّ الألمانيّ متأثّراً بمذهب الجنرال الإيطاليّ « دوهيه » المبشّر بتفوّق الطيران الستراتيجيّ الذي تقتصر به الحرب على القصف المروّع . ولكنّ الفكر الألمانيّ لم يعمل بهذا المذهب ، بل راح يخطّط لبناء طيران تعاونيّ تتمشّى مبادىء استعماله مع ثورة المصفّحات وتكملها . وكان المعتقد آنذاك ــ وهو معتقد الفرنسيّين حتى اليوم ــ أنّ الدبّابات لا تستطيع خوض المعركة إلاّ بحماية المدفعيّة التي ترسم لها دائرة عملها بفضل مجال مرماها .

وعاد الفكر العسكريّ الألمانيّ فجدّد المشكلة باستبدال الطائرة بالمدفع : فالقاذفات العموديّة « شتوكا » تقصف الهدف بدقّة تفوق تلك التي توفّرها المدافع . والحرب بهذه الشروط تتبدّل سرعةً وعمقاً ، إذ أنّ الطيران ، تلك المدفعيّة السابحة في الفضاء ، يساند وحدات الدبّابات الكبيرة التي تشكّل كتائب الخيّالة المصفّحة . وأمّا الجنرالات الذين حصّلوا خبرتهم في الميادين الراكدة وفي أركان الحرب المتحجّرة خلال النزاع السابق ، فلم يوافقوا على هذه البدع إلاّ بعد لأي ؛ فقد كانت قوّة المشاة في نظرهم تشكّل السلاح الأساسيّ الذي تسخّر له الأسلحة الأخرى . وذلك وفقاً للقاعدة المعروفة في نظام مناورات الجيوش كلّها . كانوا يريدون الدبّابة خادماً من خدّام الجنديّ الراجل، ترافقه، وتشقّ له الطريق، وتحميه بدرعها ، وتدفعه بعد ذلك إلى أمام تحميها المدفعيّة . أمّا أن تجعل الدبّابة من المشاة تابعين يقتصر دورهم على التقاط الأسرى ، فذاك ما اعتُبر تهوّراً فكريّاً أحدث في الجيش الألمانيّ ذعراً هائلاً . وقد عارض هذه الفكرةَ طويلاً قادةٌ عسكريّون أفذاذ من أمثال « بك » ، « هالدر » .

وهنا مثّل « هتلر » دور الحكم . وقد نشأت بعد الحرب مناقشات واسعة حول كفاءاته العسكريّة ، ففيما رفعه البعض إلى مصافّ العباقرة من كبار قوّاد التاريخ ، حطّه البعض الآخر إلى مستوى هاوٍ ذي تصرّفات ارتجاليّة مفكّكة مشوّشة . ويليق بنا بقدر المستطاع أن ندع الوقائع تتكلّم : فخلال هذا البحث الطويل سنرى « هتلر » في صراعه مع عقبات الحرب يحرز تارة انتصارات محكمة ، ويسبّب طوراً نكبات رهيبة . أمّا الاجتهاد والدأب اللذان أكبّ بهما على الفنّ العسكريّ في مظاهره المختلفة فحقيقة لا جدال فيها؛ فهو قد درس النظريّات الستراتيجيّة الكلاسيكيّة بكاملها ، وتعرّف إلى قوّاد الماضي الكبار ؛ وكان يعرف بالتفصيل ما تستعمله الجيوش من معدّات، وكان يتتبّع بنشاط تطوّر المذاهب، فيميل إلى نصرة الجديد في الصراع الدائر بين القديم والجديد . وقد أتى عزم « غوديريان » وأتباعه على بناء جيش سريع مواتياً لما يعتمل في صدر ذلك الرجل من



مآرب كبار ، فعمل بكلّ قواه على تثبيته .

وحتى ١٩٣٨ كان للقوّات المسلّحة الألمانيّة رؤوس ثلاثة : وزير الحربيّة « فرنر فون بلومبرغ » ، والقائد الأعلى للجيش « فرنر فون فرتش » ، ورئيس الأركان العامّة « لودفيغ بك » ، وثلاثتهم من أنصار توازن الأسلحة ، والستراتيجيّة الدفاعيّة — الهجوميّة ، والسياسة الخارجيّة الحذرة . فحطّم « هتلر » الأوّلين في فضائح أخلاقيّة رنّانة . وحاول الثالث ، الراهب — الجنديّ «بك» ، أن يتصدّى للتيار الهتلريّ ، مبيّناً مسؤوليّة الأركان العامّة تجاه الأمة ؛ ولمّا تحطّم هو الآخر أيقن أن لا مناص من قلب « هتلر » بالقوّة ، فقام لتوّه يتآمر عليه . ولكنّ «هتلر» استطاع أن يتخلّص من الجنرال الوحيد الذي مكّنته شجاعته من التصدّي له . وبعدما انتزع « هتلر » من جنوده قسَماً بالولاء لشخصه ، قام ، وما من معارضة تؤخّر سعيه ، ببناء الجهاز الذي سنأتي على ذكره تكراراً في الصفحات الآتية : « القيادة الحربيّة الألمانيّة العليا » ، التي تجمع ، تحت سلطة الفوهرر — المستشار المباشرة ، الجيشّ ، والبحريّةّ ، والطيرانّ ، وصناعات الأسلحة ، والدعايةّ ، وما إليها من طاقات عسكريّة في الأمّة . وأمّا نتائج حصر القيادة فقد أتت متعدّدة بليغة ، وفيها الحسنات الفائقة والسيئات الخطيرة . ولكنّ « هتلر » كان قد انتصر في قضيّة الحرب الثوريّة حين نصّب نفسه قائداً عامّاً .

في بدء الحملة البولونيّة كانت الفرق المصفّحة ستّاً ، رقّمت أقدم خمس منها من ١ إلى ٥ ، وحملت أحدثها الرقم ١٠ . وكانت هذه الفرق تتألّف من لواء دبّابات ، ولواء قنّاصة منقولين ، وكتيبة هندسيّة ، وكتيبة اتّصال ، وسرب للاستطلاع ، وفوج واحد للمدفعيّة عيار ١٠٥ بعضه مجرور وبعضه متحرك ذاتيّاً . وكان نصف الدبّابات الـ ٢٨٨ ، التي تشكّل عدّة فرق عاديّة ، من طراز ب ز . ك ف.١ ، وهي دبّابات عُرفت بـ « علب السردين » تزن الواحدة منها ٦ أطنان ، رقيقة التصفيح ، مزوّدة بمدفعين رشّاشين . وأمّا دبّابات ب ز.ك ف.٢ ، ووزنها ٩ أطنان ، والمزوّدة بمدفع من عيار ٢٠ ، فإنّها تكاد لا تفوقها كثيراً . ولن تبلغ الدبّابات قوّة حقيقيّة ، إلاّ بالـ ب ز.ك ف.٣ التي تزن ١٥ طنّاً ، والـ ب ز.ك ف.٤ التي تزن ٢٠ طنّاً ، والمزوّدة بمدافع عيار ٣٧ و ٧٥ . إلاّ أنّ عدد الـ ب ز.ك ف.٤ لم يكن يتعدّى الـ ٢٤ في كلّ فرقة . وقد كان على « هتلر » أن يفرضها فرضاً على الأركان التي كانت تعتبرها غاية في الثقل .

تلك كانت فرق الدبّابات الألمانيّة الشهيرة التي أحدثت ثورة في فنّ الحرب ، والتي مكّنت « هتلر » من السيطرة على « أوروبا » . وفيما بعد أصبحت أربع فرق خفيفة مرقّمة من ٦ إلى ٩ فرقاً مصفّحة بعد أن ضُمّ إليها بعض العتاد التشيكيّ ؛ ولكن ، بدلاً من أن تضم لواءً كاملاً ، لم يكن لها إلاّ فوج من الدبّابات مؤلّف من ثلاث كتائب . وإذ ننظر إلى الماضي ، يبهرنا ضعف تلك القوى ، لا بالنسبة لعدد الآليّات التي ستظهر خلال السنين التالية فحسب ، بل وحتى بالنسبة للإمكانات العسكرية لذلك العصر . فالأثر الذي أحدثته فرق الدبّابات تلك ، والنجاح الذي أحرزته ، جعلا الناس يغالون في تقديرها . وطبيعيّ أن يزول مثل هذا التضخيم في التقدير بعد مرور ربع قرن ؛ فثورة المصفّحات لم تكن تكمن في وزن الآليّات وعددها ، بل كانت تكمن في طريقة استعمالها ، وفي الجرأة التي رافقت تطبيق هذه الطريقة في ميادين القتال . وسنرى أنّ الحرب العالميّة الثانية ستبدأ بانتصارات يحقّقها الذكاء .

كان الطيران الألمانيّ أقوى من سلاح المصفّحات . فمنذ ١٩٣٤ تسنّى له أن يتخطّى أمراضه الطفوليّة ويرفع إمكانات إنتاجه السنويّة من ٩٠٠ إلى ٦٠٠٠ طائرة ، كما أنّه أنجز نماذج من الطائرات ستفرض سيطرتها على الجوّ إلى أن تتمكّن الصناعة الأميركيّة من إثبات قوّتها . من هذه النماذج المطاردات مو — ١٠٩ ، والمدمّرات مو — ١١٠ ، والقاصفات الانقضاضيّة يو — ٨٧ ، والقاصفات الأفقيّة يو — ٨٨ . وهو — ١١١ ، ودو — ١٧ . وعند بدء الحرب كان في سلاح الطيران ٧٧١ مطاردة ، و٤٠٨ مدمّرات ، و٣٣٦ شتوكا ، و١١٨٠ قاذفة ، أي ما مجموعه ٢٦٩٥ طائرة . وتلك ، لعمري ، قوّة جوّيّة لم يكن لأيّ بلد في العالم أن يمتلك ما يوازيها إلاّ بعد شهور طوال .

هذا ما كان من أمر الطيران والمصفّحات . أمّا الجيش الألماني فلقد تمّ إعداده وفقاً للأنظمة التقليديّة . كانت الآليّات فيه ضعيفة : فلم يكن هناك غير ٤ فرق من المشاة المجهّزة بالآليّات تعمل مع سلاح الدبّابات . أمّا ما تبقّى فيشكّل ٣٦ فرقة مقاتلة ، و٣ فرق للعمليّات الجبليّة ، و٣٧ فرقة احتياط ، و١٤ فرقة مساندة . هذا مع العلم بأنّ الفئتين الأخيرتين قد بُعثتا من العدم خلال الأسابيع القليلة الأخيرة .

أمّا المعدّات فكانت على تفاوت بيّن : فالمدافع من عيار ١٠٥ و١٥٠ تفوق المدافع الفرنسيّة من عيار ٧٥ و١٠٥ و١٥٥ ، ولكنّ بطّاريّات كثيرة كانت لا تزال مجهّزة بمدافع ٧٧ القديمة التي ترقى إلى عهد غليوم الثاني . ثمّ إنّ الطيران نفسه كان يفتقر إلى قوّاد مجموعات ، وقد بدأ غاراته معتمداً على ذخيرة من القنابل لا تكفي لأكثر من ثلاثة أسابيع . أمّا الجيش الذي تمّ ارتجاله في خمس سنين فلم يكن يطمئنّ إليه أولئك الجنرالات الذين تدرّبوا في الجيش المثالي زمان الامبراطوريّة .

أكثر هؤلاء القوّاد كانوا يسعون جهدهم في ألا يكونوا إلاّ جنوداً . بعضهم كان « هتلريّاً » ، وجلّهم كانوا مناهضين « لهتلر » ، لا يحبّونه ولا يحبّهم . ولن تبلغ الحرب نهايتها إلاّ ويكون أكثر من خمسين قائداً بين مارشال وجنرال وأميرال قد أعدموا رمياً بالرّصاص أو شنقاً أو خنقاً أو دفعاً إلى الانتحار تنفيذاً لمشيئة الفوهرر المستشار .

أمّا التآمر فلقد عشّش في هذه القيادة المعدّة لمثل تلك المجزرة . فقبل « مونيخ » أهمل المكتب الثاني الفرنسيّ بازدراء إخباريّة نقلها إليه أحد العملاء مفادها أنّ جنرالاً ألمانيّاً كان يستعدّ للزحف على « برلين » في فرقة من المصفّحات ؛ اسم هذا الجنرال « هوبنر » (ولسوف يموت هو الآخر على يد الجلاّد) ، ولقد ظلّ يرقب طوال ليل بكامله ، في معسكره في « ثورنغ » ، إشارةً كان من المفروض أن يتبلّغها من المتآمرين المجتمعين عند الكولونيل — جنرال « هالدر » ، وبينهم الكولونيل — جنرال « بك » ، والكولونيل — جنرال « فون فيتزلبن » ، والجنرال « فون شتولبناجل » ، والأميرال « كاناريس » ، وقائد شرطة برلين ، وغيرهم . . .

« إذا خسرنا هذه الحرب فليكن الله بعوننا ! »

كان المتآمرون ينوون القاء القبض على « هتلر » في اليوم التالي ، لدى عودته من المؤتمر القوميّ – الاشتراكيّ في « نورنبرغ » . ولم يمض على توقيع الأوامر طويلُ وقتٍ حتى أعلن الراديو أنّ « تشامبرلين » في طريقه إلى « برختشغادن » لمقابلة الفوهرر . . . ولقد أوضح « هالدر » فيما بعد موقف جماعته بقوله : « لقد انهار ركن مؤامرتنا المادّيّ بعدول « هتلر » عن العودة إلى « برلين » ، وكذلك الركن الأدبيّ ، إذ أنّه كان بوسعنا أن نعتقل رجلاً متهوّراً يقذف «بألمانيا» في حرب كُتب لها الإخفاق الذريع ، بيد أنّه ما كان بوسعنا أن نعتقل مستشاراً يفاوض رئيس وزارة « بريطانيا » في عودة ألمان إلى الرايخ بطريقة سلميّة . . . »

ومنذ « مونيخ » لم تسنح للمتآمرين فرصة أخرى ، إلاّ أنّ المؤامرة لم تمت . فـ « فيتزلبن » ، وهو أحد المتآمرين ، كان يقود جيشاً في الجبهة الغربيّة ، و « كاناريس » كان مديراً للجاسوسيّة الألمانيّة ، و « هالدر » نفسه كان رئيس الأركان العامّة والساعد الأيمن للقائد العامّ « فون براوشيتش » ! . . . وهكذا تندلع شرارة الحرب العالميّة وفريق من أركان القيادة الألمانيّة العليا في حالة معارضة تناهض قائد الجيش ورئيس الدولة . ولسوف تنتج عن ذلك مضاعفات غريبة .

أمّا القوّاد الذين لم تكن لهم ضلع في المؤامرة فكانوا يفتقرون إلى الحميّة . إنّ أحداً منهم لم يكن ليقبل بوضع « دانتزغ » وممرّها ، ولا بتخطيط الحدود الشرقيّة الاعتباطيّ ، ولا بخضوع مليون من الألمان للنير البولونيّ ، ولكنّهم كانوا يرون أنّ الجيش الألمانيّ لم يُعِدّ الإعداد الكافي لمجابهة نزاع أوروبّي جديد . فقبل « مونيخ » وقّع القوّاد ، ما عدا الهتلريّين « بوش » و « رايخناو » ، مذكّرة كتبها الجنرال « بك » لتحذير الفوهرر من الأخطار التي تتعرّض لها «ألمانيا» ، نتيجةً لسياسته المتهوّرة . ومع أنّ الاتّفاق الألمانيّ – السوفياتيّ قد طمأنهم بعض الشيء ، إذ أنقذهم من كابوس حرب روسيّة كانوا يدركون مدى أهوالها ، فإنّهم بقوا قلقين ، ذلك أنّ الحرب تفجأهم وهم ليسوا لها بمستعدّين .

أمّا معنويّات الأمّة فقد كانت ، شأن معنويّات القوّاد ، أبعد ما تكون عن الهوس والاندفاع . ففي آب ١٩٣٩ لم يكن هنالك شيء يضاهي سيل الحماسة العارم والاستبسال اللذين عرفهما تمّوز ١٩١٤ . وكان « هتلر » على علم بذلك ؛ فقبل « مونيخ » ، في العام المنصرم ، قام بتجربة لم يجرؤ على تجديدها هذه السنة ، ألا وهي عرض فرقة من المصفّحات في « برلين » . كان ينتظر أن يثير العرض عاصفة من الوطنيّة ، ولكنّه لم يُحدث في الحقيقة غير الذهول ! ففي مدى ثلاث ساعات تدفّقت المصفّحات عبر العاصمة وسط سكوت ذاهل ، وكأنّها جيش معاد في مدينة محتلّة ، فيما انتصب « هتلر » على شرفة المستشاريّة ينتظر من غير جدوى سماع جلبة الحرب في صفوف الناس عند مرور ضواريه الفولاذيّة الضخمة . ولدى انتهاء العرض دخل إلى مكتبه وتهالك على أحد المقاعد ، شاتماً الشعب الألمانيّ – كما سيشتمه بعد سنوات ستّ وهو يحتضر في المكان ذاته ، بعد أن ضلّله وأذلّه .

وبدأ زحف الجيوش من « البلطيق » إلى « الكربات » . كانت خطّة العمليّات التي أوعز « هتلر » بتعديلها وتوسيعها ، تُمسك بخناق « بولونيا » . فالجناح الأيسر كان يتألّف من مجموعة جيوش الشمال ، ويقودها الكولونيل جنرال « فون بوك » . أمّا الجناح الأيمن فقوامه مجموعة جيوش الجنوب التي يقودها الكولونيل جنرال « فون روندشتاد » . تتألّف المجموعة الأولى من جيشين : الجيش الثالث (بقيادة « كوخلر ») وقد قدم من « بروسيا الشرقيّة » ، والجيش الرابع (بقيادة « كلوغي ») وقد قدم من «بوميرانيا» ، وتشمل بمجملها ٢١ فرقة من أصلها ٩ فرق مقاتلة بينها فرقتا مصفّحات . وتشمل المجموعة الثانية جيوشاً ثلاثة : الجيش الرابع عشر (بقيادة «ليست») محتشداً في «الكربات» ، والجيش العاشر (بقيادة «رايخناو») محتشداً في « سيليسيا العليا » ، والجيش الثامن (بقيادة «بلاسكوفيتش») منطلقاً من منطقة «بريسلاو» ، ويبلغ مجموع تلك الجيوش ٣٦ فرقة من أصلها ٢٨ فرقة مقاتلة بينها ٤ فرق مصفّحة . ففيما يمحو فريق الشمال ممرّ « دانتزغ » ويقتحم خطّ نهر « الناريف » ويحتلّ « فرصوفيا » من الوراء ، يبدّد فريق الجنوب أكبر جزء من القوى البولونيّة غربي نهر « الفيستول » . وقد بلغ من ازدراء الألمان خصومَهم أنّهم لم يتركوا ، بين هاتين المجموعتين من الجيوش ، إلاّ سلسلة من خفراء الجمارك لحماية « برلين » من نخبة الفرق البولونيّة !

وصل الطرّاد المدرّع « شليسفيغ – هولشتاين » إلى « دانتزغ »



هجمة الخيّالة !

عشيّة ذلك اليوم ، وفي الساعة ٤،٤٥ أطلق نيرانه على البولونيّين . وأقلعت المجموعات الجويّة ، فيما عبرت مصفّحات « غوديريان » و « هوبنر » و « فون كلايست » الحدود ، تحت جنح الضباب ، وانقضّت على البولونيّين النائمين .

كان ٢ أيلول يوماً موفّقاً بالنسبة « لهتلر » ؛ الأخبار العسكريّة على خير ما يرام . فقد صعقت المفاجأة القيادة البولونيّة التي كانت تنظر إلى القتال بمنظار ١٩١٤ : ١٥ يوماً لحشد الجند ، يتخلّلها بعض المناوشات على الحدود . أمّا هذه الحرب التي انطلقت في سرعتها المذهلة فقد دهمتها على حين غرّة . الجنود يقاتلون ، ولكنّ المصفّحات الألمانيّة تخترق خطّ المقاومة الهزيل ، وتتابع زحفها إلى الأمام ، مضعضعة المؤخّرات ، معطّلة وسائل الاتّصال ، شالّة عمل القيادة . أمّا الطيران الألمانيّ فيسحق طائرات الخصم وهي في مطاراتها ،



ما أقلّ المدافع المضادّة للدبّابات ، وما أكثر الدبّابات الألمانيّة !

لقد أبت « بولونيا » المغلوبة على أمرها إلاّ أن تتابع النضال ، فإذا بجنودها يدافعون عن مدنهم وقراهم بيتاً بيتاً ، مختفين وراءهم الأنقاض ، كما حدث في « سوشاكوف » ، وكما حدث في « فرصوفيا » فيما بعد .

المدفعيّة الألمانيّة تدكّ طرق المواصلات لتحول دون تراجع المدافعين عن « فرصوفيا » .

ويعطّل القيادات العامّة ، ويدمّر بانقضاضه مراكز المقاومة ، ويعرقل مؤخّرات الأعداء إذ يشرّد في الطرقات جماهير غفيرة من المدنيّين المروّعين .

في الشمال برزت الفرق الألمانيّة من « بروسيا الشرقيّة » ، وهاجمت موقع « ملافا » الذي يحمي « فرصوفيا » . وتلاقى الجيشان الثالث والرابع في ممرّ « دانتزغ » . أمّا العاشر ، وهو بمثابة سنان الرمح من مجموعة « روندشتاد » ، فقد بلغ « الفرتا » قاطعاً مسافة ٨٠ كلم في ٣٦ ساعة . وفي أقصى الجنوب اقتحمت فرق « ليست » الجبليّة ممرّ « بابلونكا » الذي كان مسرحاً لمعارك كثيرة في الحرب السابقة ، وانتهت إلى ضواحي « كراكوفيا » . حقّاً لم يكن بالإمكان أفضل ممّا كان !

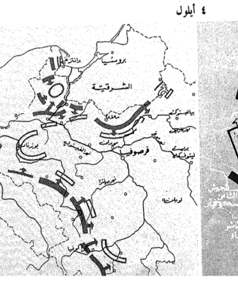
ولكنْ ، ما كان من أمر « انكلترا » و « فرنسا » ؟ لقد انتظرتا حتى الساعة التاسعة والنصف مساء لتُعلما حكومة « الرايخ » بأنّ تماديها في العمليّة العسكريّة يفرض عليهما الوفاء بتعهّداتهما إزاء « بولونيا » . فنظرت الخارجيّة الألمانيّة بامتعاض إلى هذا الاجراء المتأخّر ، وسأل « ريبنتروب » : « أهذا تهديد ؟ » فأجاب السفيران : « كلاّ ، إنّما هو إنذار » .

قامت بين « باريس » و « لندن » مشادّات خطيرة . ففيما كان « جورج بونيه » وزير الخارجيّة الفرنسيّة يتشبّث بالعرض الإيطاليّ الـداعي إلى مؤتمر رباعيّ ، كانت « لندن » تتّهم « فرنسا » بالتهرّب . وقد وصل « رادزينسكي » ، سفير « بولونيا » ، إلى وزارة الخارجيّة الانكليزيّة حانقاً، صارخاً، مصرّحاً أنّ « بونيه » أعلن لزميله البولونيّ في « باريس » أنّه لن يدفع بنساء « فرنسا » وأطفالها إلى الهلاك كرمى لعينْ « بولونيا » . لقد كان هؤلاء البولونيّون أحسن تقديراً للأنانيّة المقدّسة ، يوم اعتصموا بها سنة ١٩٣٨ ، في موقفهم من التشيكيّين ! وما كان النوّاب الانكليز أقلّ من البولونيّين استنكاراً وضيق صدر ، فراحوا يندّدون عالياً بتصريح ضعيف « لتشامبرلين » يمكن إيجازه على هذا النحو : « لقد اعترضنا ، وها نحن ننتظر جواب « هتلر » . وقيل في الأروقة إنّ تراخي الحكومة ناتج عن تخاذل « فرنسا » ، وانّ « انكلترا » ستسير وحدها ، وانّها ستسقط « تشامبرلين » لتستبدل به « تشرتشل » .

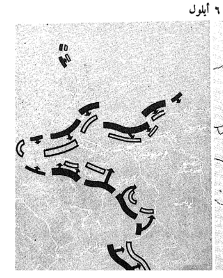
وفي « برلين » كان « هتلر » يقضي سهرته مع بعض المقرّبين إليه ،

١ أيلول

٤ أيلول



٦ أيلول



في ردهة الموسيقى في المستشاريّة الجديدة ، وهو يقرأ بصوت ملؤه الحبور بلاغات الظفر التي تصله من الجبهة البولونيّة . وفي « فرنسا » أعلنت التعبئة العامّة عشيّة اليوم السابق ، وكان ذلك يعني ، في نظر المكتب الثاني الألمانيّ، أنّ ٨٠ فرقة على الأقلّ ستُحشد من بحر الشمال حتى « سويسرا »، في حين لم تترك «ألمانيا» في الغرب إلاّ ١١ فرقة مقاتلة ؛ ولا بدّ من عدّة أسابيع لتبلغ فرق الموجة الثالثة والرابعة الـ ٣٥ ، التي ستساندها ، تماسكاً جدّياً . وتثير الشائعة القائلة إنّ للفرنسيّين يعبرون « الرين » عاصفةً ذعر في بعض مدن الحدود « كفريبور — ان — بريسغو » ؛ أمّا الفوهرر فيحتفظ برباطة جأشه ، ويشير إلى أنّ البرلمان الفرنسيّ ، حين قرّر الاعتماد العسكريّ الإضافيّ البالغ ٨٥ مليارا من الفرنكات ، لم يذكر كلمة « حرب » . وهكذا يثبت الحدس الهتلريّ من جديد صواب تقديره : ان « فرنسا » و « انكلترا » لا تتحرّكان .

ولكنّ هتلر كان مخطئاً . إذا كانت عزيمة الفرنسيّين خائرة ، فإنّ القرار « الانكليزيّ » حازم : فحين اتّصل الكونت « تشيانو » باللورد « هاليفاكس » هاتفياً ، أجابه هذا بأنّه يتعذّر البحث في عقد أيّ مؤتمر ما لم تسحب « ألمانيا » قوّاتها من الأراضي « البولونيّة » ؛ وقد علّق « موسوليني » على هذا الجواب بأنّه لا يستطيع نقل هذا الشرط إلى الفوهرر . وهكذا انقطع خيط السلام الواهي .

في الساعة الرابعة من صباح ٣ أيلول تلقّى السفير « نوفيل هندرسن » من « لندن » أمراً بمقابلة « ريبنتروب » في الساعة ٩ . ولكنّ الخارجيّة الألمانيّة كانت غارقة في سبات عميق وكأنّ شيئاً لم يكن ، فبات لزاماً على « هندرسن » إيقاظ طائفة من المرؤوسين لبلوغ غايته . وقد قيل له إنّ الاجتماع « بريبنتروب » لن يكون ممكناً في الصباح ، وان « بول شميدت »، مستشار السفارة والناطق العاديّ باسم « هتلر » ، مفوّض بتسلّم أيّة مخابرة ترد من حكومة صاحب الجلالة . وهكذا اضطرّت « بريطانيا » أن تسلّم إلى موظّف من الدرجة الثانية انذارها الأخير القائل : « ما لم تتلقّ « بريطانيا » في الساعة ١١ ، أي بعد ساعتين ، ضمانات حاسمة حول انسحاب الجيوش الألمانية الفوريّ، فإنّ حالة الحرب تعتبر قائمة بينها وبين « الرايخ » الألمانيّ . . .

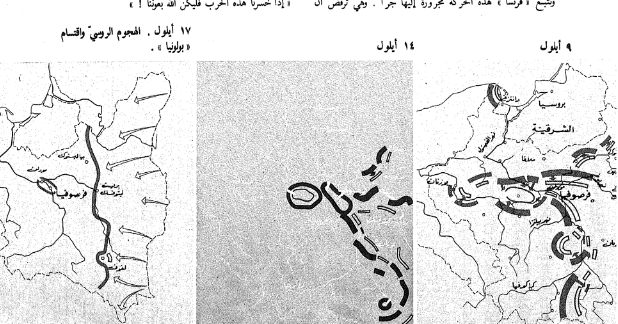
وتتبع « فرنسا » هذه الحركة مجرورة إليها جرّاً . وهي ترفض أن



مفاجأة في قطار — مستشفى في « بولونيا » :
« هتلر » يعود الجرحى !

تقدّم إنذارها مع الإنذار البريطانيّ ، وتصرّ على أن لا تنقضي مهلته إلاّ في ٤ أيلول ، متحاشية استعمال لفظة « حرب » . فلقد كتب « جورج بونيه » يقول : « وقد ترى الحكومة الفرنسيّة نفسها مضطرّة إلى الوفاء بالتعهّدات التي قطعتها « لبولونيا » والتي تعرفها الحكومة الألمانيّة . . . » وبعد مضي ثلاث ساعات على مقابلة السفير « هندرسن » سلّم السفير الفرنسيّ « كولندر » الخارجيّة الألمانيّة هذا التصريح الذي يشبه إلى حدّ إعلاناً للحرب . أمّا إعلان « انكلترا » فلقد حمله « شميدت » فوراً إلى ديوان الفوهرر ، وكان « هتلر » إذ ذاك جالساً إلى مكتبه ، فيما كان « ريبنتروب » واقفاً أمام إحدى النوافذ . وترجم «شميدت» الإنذار بتؤدة ، فبدا « هتلر »، مصعوقاً ، وظلّ جامداً إلى حين ، ثمّ أدار نحو وزير خارجيّته نظرة رجل مخدوع حانق وقال : « والآن ؟ » فبادر « شميدت » إلى الخروج .

في تلك الأثناء تجمّع في غرفة الانتظار رهط من المرافقين العسكريّين ومن كبار رجال الحزب ، فأطلعهم «شميدت» على مضمون الإنذار البريطانيّ . وساد صمت آخر رهيب قطعه صوت « غورنغ » معلناً : « إذا خسرنا هذه الحرب فليكن الله بعوننا ! »



٩ أيلول

١٤ أيلول

١٧ أيلول . الهجوم الروسيّ واقتسام « بولونيا » .

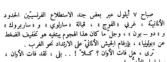
جماعة من اليهود يحفرون الخنادق في ضواحي «فرصوفيا» ، فيما راحت الطائرات الألمانيّة تمطر المدينة الشهيدة وابلاً من قنابلهـا .



فرنسا تهاجم... ولكن بعد فوات الأوان!

«فرصوفيا» الشهيدة :

إنّ آثارنا تدلّ علينـا فانظروا بعدنا إلى الآثار !



صباح ٧ أيلول عبر بعض جند الاستطلاع الفرنسيّين الحدود الألمانيّة ، غربي «الفوج» ، قبالة «سارلوي» و «ساربروك» و «دو – بون» ، وجلّ ما كان هذا الهجوم يبتغيه هو تخفيف الضغط عن «بولونيا» ، بإرغام الجيش الألمانيّ على الارتداد نحو الغرب .

ترى ، هل فات الأوان ؟ كـلاّ ! . . بلى ، لقد فات الأوان ، ويا لهول التأخّر !

كان هذا التدخّل ، والتعبئة في يومها الخامس ، مشرّفاً بالنسبة لعقليّة ١٩١٤ . فلقد بُدىء أوّلاً بحشد الجيوش وراء خطّ الدفاع . وعندما تمّ هذا الحشد أمكن القيام بعمليّة هجوم . إنّ اتّفاقيّة الأركان الفرنسيّة – البولونيّة المشتركة ، التي بحثت في أيّار ولم يوقّع عليها لعدم حصول أيّ اتّفاق سياسيّ ، أتت منسجمة وهذا المفهوم الكلاسيكيّ . فقد كانت روح الاتّفاقيّة تنصّ على أن «تقوم «فرنسا»

تدريجيّاً بعمليّات هجوم محدودة ، عند اليوم الرابع من التعبئة ، ثمّ تقذف بقوّاتها الثقيلة إلى الميدان عند اليوم الخامس عشر ، «فيما لو اشتدّ الضغط الألمانيّ على «بولونيا» .

إذاً ، لم تتأخّر «فرنسا» لا بالنسبة لبرنامجها العسكريّ ، ولا بالنسبة لشبه الاتّفاقيّة التي تقيّدت بها . ولكن بالنسبة لعقليّة ١٩٣٩ ، أتى التدخّل الفرنسيّ متأخّراً إلى حدّ بات معه عديم الجدوى . صحيح أنّ «بولونيا» كانت ما تزال تقاتل . إلاّ أنّ اندحارها قد تمّ . فيوم ٧ أيلول الذي شهد دخول الطلائع الفرنسيّة الحذرة إلى «السار» . شهد في «بولونيا» انهيار المقاومة النظاميّة ، إذ أحاط الجيش الألمانيّ الرابع بـ «الفيستول» حتى «تورن» . وبعدما نجح الجيش الثالث في فتح ثغرة في «ملافا» احتل «فرصوفيا» من خلف ، فبادرت الهيئات الدبلوماسيّة والحكومة والقيادة إلى مغادرتها ، إلاّ أنّ الجيش الرابع عشر قطع عليها طريق الهرب نحو الجنوب الشرقيّ ، في تقدّمه نحو الحدود الرومانيّة بعد احتلاله «كراكوفيا» .



فريق من الجنود يستسلمون عند مدخل حصون «فرصوفيا» .

فريق من الأسرى البولونيّين في شوارع «فرصوفيا» .

وغربي «الفيستول» حاول الجيش البولوني المتمركز في قلعة «بوزنان» (وهو الجيش الذي كان عليه أن يزحف إلى «برلين» !) أن ينقض على الجانب الأيسر من الجيش الألماني في حركة التفاف. ولكن «روندشتاد» عاد فعدل وجهة الجيش العاشر، وقذف بالفيلق الخامس عشر الآلي والفيلق السادس عشر المصفح إلى مؤخرة «بورتنوفسكي». ولن ينتج عن إجفال البولونيين إلا التطويق الأول الكبير الذي شهدته الحرب، في جيب «بزورا» الذي أسرت فيه ١٩ فرقة بولونية.

أما في الجانب الألماني فقد تجاوزت الآمال أبعد حدودها. ولن تكتشف نقاط الضعف المقلقة، في جيش كان ما يزال طري العود، إلا فيما بعد، حين حكت العمليات بمحك النقد الدقيق. لقد فاقت عمليات الوحدات المصفحة والجوية كل تقدير. أما في الجانب البولوني فلقد ألفى المشاة والخيالة أنفسهم عاجزين عن صد هجوم الدبابات. وفقدت المدفعية خيلها جميعاً تحت ضربات الطيران. كما قطع القصف الانقضاضي المواصلات وضعضع المؤخرات. ويبدو أن الطقس نفسه كان هتلرياً: فالأمطار قد تأخرت. وظلت السماء صافية وكأنها تتآمر مع الطائرات والدبابات.

إنها حقاً لحرب جميلة. نضرة. ضاحكة! فالخسارة ضئيلة والفرق غير الآلية تكاد لا تسنح لها فرصة القتال. وتأتي شخصيات العهد البارزة لمشاهدة «هذه المناورات الكبرى». ومنها «ليني ريفنشتال» الذي وصل فجأة إلى مقر قيادة «روندشتاد» وفي وسطه مسدس صغير، وفي إحدى جزمتيه خنجر. أما «هتلر» فقد انتقل إلى أول مقر للأركان له في الميدان. إلى كازينو أوتيل «سوبوت» على شاطىء «دانتزغ». لم يكن يتدخل في تفاصيل العمليات. بيد أنه راح يستخلص النتائج الناجمة عن هذه الحرب التي آمن بها دون المحترفين من أربابها.

كان ممثلو القيادة البولونية في «لندن» و «باريس» يطالبون. متوسلين تارة. وشاتمين طوراً. ببدء العمليات الجوية، فكانوا يجابون بأن الطيران الملكي البريطاني ينطلق كل ليلة لإلقاء المنشورات على «ألمانيا». وأن الحكومة «الفرنسية» لا ترى الظرف مناسباً لتعريض صناعات الحرب فيها لعمليات انتقامية، إن هي جدت في عمليات القصف العنيف. وفي «السار» تتقدم وحدات، تمثل عشر فرق. خطوة خطوة، أما أوامر القيادة فكانت من البساطة بمكان: كانت الخطة ترمي إلى «احتلال خط «سيغفريد» بين «هاردت» و «موزيل». بنظام وتدرج». على أن تشرك مداهمة التحصينات لوقت لاحق. إذا ما دعت إليها الحاجة. وقد أتت مقاومة العدو على قدر هذا الهجوم الضعيف، تنفيذاً لأوامر «هتلر» الذي أوعز برد الضربات بمثلها. ومع هذا صادف الفرنسيون مفاجأة مريرة: الألغام! فالأرض تنفجر تحت العربات. والجحافل تتقدم عبر الحقول وتلج مربعات الموت. ومن تقدم من الرجال لفتح باب أو لالتقاط شيء مهمل تناثر أشلاء وهباء. أما الألغام، فيكاد الجيش الفرنسي الموقوف على الدفاع لا يعرف ما هي.

هجوم تافه لا معنى له ما دامت «فرنسا» لم تعدل جيشها وفقاً لوضعها كحامية للمعاهدات. ولم تنشىء جيش ميدان مصفحاً قادراً على مهاجمة «ألمانيا» واجتياحها. ولقد أدرك الجنرالسيم «غاملان» تمام الإدراك أن العملية لا تتعدى كونها مناورة في صالح «بولونيا» المقضي عليها. فمنذ ٩ أيلول لفت نظر الجنرال «جورج» مساعده في الجبهة الشمالية الشرقية إلى الهزائم البولونية. مشيراً إلى أن المهمات الدفاعية هناك باتت أولى. وأن عهد الهجوم بالنسبة «لبولونيا» قد انقضى.

وفي ١٧ أيلول خرجت «موسكو» عن صمتها. وأعلن «مولوتوف» أن الحكومة البولونية أمست في حكم المفقودة. وأن الجمهورية البولونية قد زالت. ونتيجة لذلك باشر «الاتحاد السوفياتي» احتلال الأقاليم التي سلمها الاتفاق المعقود مع «الرايخ» بأنها مناطق نفوذ تابعة «لروسيا». على أنه سيطرأ على هذا الاتفاق تعديل في ٢٨ أيلول: فمقابل تخلي «ألمانيا» عن «ليتوانيا» ستنتقل الحدود الألمانية ـ السوفياتية الجديدة نحو الشرق، حتى نهر «بوغ».

وتتعاقب معارك متفرقة فيها من البطولة نفحات: فالجنرال «فكتور توم» يقاوم منعزلاً في قلعة «مودلين». والجنرال «بروغار ـ كاتلينغ» يعتصم في غابة «ايانوف». ومنها ينطلق ببعض كواكب الخيالة لينقض على فرقة من الدبابات نفد وقودها. والأميرال «أونروه» يدافع حتى ٢ تشرين الأول عن مرفأ «هيل» العسكري الصغير، الواقع في طرف لسان رملي ممتد في جون «دانتزغ». ومن ناحية أخرى نرى «البطل» المارشال «ريدز سميغلي» يفر إلى «رومانيا» بلا سلاح حاملا أمتعة هامة! ولا تزال «بولونيا» تحمر خجلا لتلك الحادثة!

حوصرت «فرصوفيا» التي كان يدافع عنها جنرال بولوني يدعى «رومل». فاقترح الجنرالات الألمان أن يدوم الحصار حتى الاستسلام، اعتقاداً منهم بأن كل مقاومة منظمة قد انتهت. ولكن «هتلر» أجاب بأن «فرصوفيا» موقع حصين، وأمر بأن تدك بالطيران والمدفعية؛ وهكذا كان. وقد استسلمت المدينة في ٢٧ أيلول بعد قصف دام أربعة أيام. ولسوف تنشب بين «هتلر» وقواده مشادات أخرى: فقد انقضت «فرق الصاعقة» و «الغستابو» على «بولونيا» في أعقاب الجيش الظافر، واحتج الجنرال «بترل» آمر حامية «بوزنان» على قتل اليهود، وأعلن الجنرال «فون كوخلر» «كوخ»، حاكم «بروسيا» الشرقية العسكري، «أن الجيش الألماني ليس بؤرة ومسرحاً لعصابة من المجرمين». وقد قضى الجنرال «بلاسكوفيتش»، قائد فرق الاحتلال، بالموت على رجال من فرق الصاعقة متهمين بارتكاب الفظائع. فما كان من «هتلر» إلا أن نقض الحكم ووجه إلى الجنرال تأنيباً سوف يودي بوظيفته. وهكذا سيمضي سخط «هتلر» على العسكريين المحترفين في ازدياد مستمر، لأنهم كانوا في زعمه أسرى نظريات خلقية بالية.

إلا أن هؤلاء العسكريين المغضوب عليهم قد حققوا للفوهرر نصراً مبيناً. فإن «بولونيا» التي تنبأت الأركان الغربية بمقاومتها سنة كاملة سحقت في ١٩ يوماً، مخلفة ٦٩٤.٠٠٠ أسير في أيدي الظافرين. فضلا عن ٢١٧.٠٠٠ التقطهم الروس. ولم تبلغ خسارة الجيوش الألمانية إلا ١٠.٥٧٢ قتيلاً، و ٣٠.٣٢٢ جريحاً، و ٣.٤٠٩ مفقودين.



«أما أنا فقد أوضحت المعضلات بتبسيطها غاية التبسيط. ولقد فهمت الجماهير ما عنيت!» (هتلر).

ألفصل الثاني

أيلول - كانون الأول ١٩٣٩

انتظار وترقب

يا لها من حرب غريبة ! تمرّ القطارات بالعشرات كلّ يوم على ضفّة «الرين» اليمنى ، وعلى بعد ٥٠٠ متر من الأسلحة الأوتوماتيكيّة الفرنسيّة المتمركزة عند جسر «شالمبي» : أمّا الحرّاس المراقبون فيكتفون بتعداد العربات وتقديم المحاضر !

يا لها من حرب غريبة



وبحمل فيضان النهر بعض القوارب . فتبحث الأركان عن وسيلة أمينة لإغراقها من سراديب الضفّة . من غير أن تصيب القذائف الضفّة الألمانيّة ... الجنود الألمان يعملون في الهواء الطلق تحت لافتات تعلن أنّهم لن يكونوا البادئين بإطلاق النار .

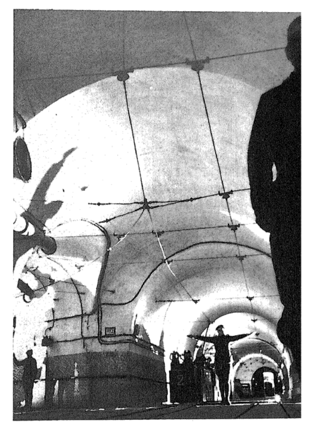
وتحوّم طائرة الاستكشاف في دوريّتها المعتادة محدثة صوتاً يشبه صوت الدرّاجة البخاريّة الأبحّ . وتصيح مكبّرات الصوت أن الانكليز سيقاتلون حتّى آخر رجل فرنسيّ : وما من أحد يحاول تفريق العمّال . أو إسقاط الطائرة . أو إسكات ذاك الصوت الذي يثبّط العزائم . إنّها لحرب مضحكة !

وهكذا نرى جيوشاً تعدّ مئات الألوف من الرجال تختم محاضرها اليوميّة على هذا الشكل : «خسائر العدوّ : لا شيء — خسائر ناتجة عن الحوادث : كذا (رقم مرتفع) » أمّا في مقرّ القيادة العامّ فالقسم الأنشط هو قسم مسرح الجيش ! إنّها لحرب مضحكة !

أمّا الجبهة . إذا صحّ استعمال هذه اللفظة . فقد استغرقت في سبات عميق . توقّف الهجوم من أجل «بولونيا» في ١٢ أيلول لأنّ «بولونيا» كانت قد زالت . وفي ٣٠ أيلول اتّخذ قرار يقضي بانكفاء القوّات إلى الأراضي الفرنسيّة . وفي ١٦ تشرين الأوّل شُتّتت الحاميات التي تُركت في المراكز المحتلّة بناء لأمر أصدره «هتلر» بتحرير الأراضي الألمانيّة . وعلى سبيل الاحتياط أخلى الفرنسيّون فجأة مرتفع «فورباخ» حيث امتدّت مناجم الفحم الحجريّ الغنيّة . ذلك لأنّ المبدأ الأوّل في ديانتهم العسكريّة الدفاعيّة يقول بأنّه لا يجوز القتال على جبهتين . وهكذا أخضع كلّ شيء لحماية خطّ «ماجينو» . وهو مركز المقاومة الأساسيّ الذي به يتم النصر بعد صدّ هجوم الأعداء !

ذلك أنّ خطّ «ماجينو» يوحي للرأي العامّ الفرنسيّ بثقة مقدّسة . ولكنّ أقلّ ضباط الأركان شأناً يعرف مساوىء «جحر الثعلب» هذا . إنّه في الواقع «خطّ» . أي مركز لا عمق له . فهو لا يصلح إلاّ لقتال يقف فيه الجنود وجهاً لوجه ؛ فالتحصينات سيّئة الالتصاق . والذين بنوها أهملوا وجود الطيران كلّ الإهمال . لم يأخذوا بعين الاعتبار القصف الانقضاضيّ الذي بوسعه أن يدمّر المدرّعات الأرضيّة كما يدمّر المدرّعات البحريّة . كما أغفلوا الفرق التي تنزلها الطائرات الضخمة . فالحاجز المضادّ للدبّابات هزيل جدّاً . والفرجات سريعة العطب . وميادين الرماية يمكن تعطيلها بقصف المدفعيّة . وأخيراً . إنّ مقدرة هذه التحصينات الناريّة ضئيلة بالنسبة لضخامتها ولنفقاتها . فخطّ «ماجينو» ملجأ ممتاز . إلاّ أنّه في القتال جهاز ضعيف . ومن الحمق أن يقال إنّه منيع . وسيثبت ذلك بالبرهان منذ ١ أيّار ١٩٤٠ ، ففي ذاك النهار احتلّ الألمان حصن «إيبن — إمايل» في مدى ٤ ساعات بعد هجوم جوّيّ . مع العلم أنّ حصن «إيبن — إمايل»

كبار قوّاد الجيش الفرنسيّ في شارع من شوارع «فردان» . ويبدو الجنرال «جيرو» إلى اليسار قرب الجنرال «هونتزيغر» .



في أعماق خطّ « ماجينو » .

كان يعتبر الركن الشماليّ في الدفاع عن « لياج » . وهو من أقوى المنشآت الدفاعيّة في نظر الفرنسيّين .

لم يغرب عن الأدمغة العسكريّة الفرنسيّة أنّ خطّ « ماجينو » ينتهي في « مونميدي » كما غرب عنها اختراعُ الطائرة . فقد وُضعت تصاميم تمديده حتّى البحر . وتزويده بخطّ ثان يحول دون الوصول إلى الحوض الباريسيّ . ولكنّ هذا المشروع لم ينفّذ لأسباب ماليّة من جهة . ومن جهة ثانية لأنّ إتمام خطّ « ماجينو » وازدواجه من شأنه أن يبتلع الجيش الفرنسيّ . هدف التحصينات هو توفير الرجال . وهنالك عادة قديمة قدم الحرب تقضي بإسنادها إلى فرق من الدرجة الثانية . أمّا خطّ « ماجينو » فكان ، على نقيض ذلك ، يتطلّب لحمايته فرقاً عديدة مختصّة . وأضحى رؤساء دفعات الحربيّين في « سان — سير » لا يتخرّجون « في الصفّ » بل في الاسمنت . بين « بال » و « سيدان » ، كانت ٢١ فرقة من فرق النخبة تزدحم في السراديب ، عديمة الحركة ، مفتقرة إلى وسائل النقل ، فلم تكن بالتالي صالحة للعمل خارج شرنقتها . فكان تمديد خطّ « ماجينو » إلى ثلاثة أضعافه يعني نقل هذا الشلل إلى ثلثي الوحدات الكبيرة .

ليس هذا فحسب ، بل إنّ خطّ « ماجينو » الذي أُنشيء ليحمي كان هو ذاته بحاجة إلى حماية . فإزاء كلّ فرقة من فرق التحصينات كان لا بدّ من تجهيز فرقة أو فرقتين لحماية الفسحة . وكان هذا الوضع يضاعف افتقار الجيش الفرنسيّ إلى المرونة والحركة — ومع هذا كان الإيمان بخطّ « ماجينو » يفرض على أصحاب الرتب العسكريّة المختلفة كعقيدة راسخة . وحدث أنّ قائد أحد الفيالق راح يخفّف من حماسة الدوق « وندسور » العائد من زيارة الخطّ . فعرف « غاملان » بالأمر خلال مأدبة أقامها للدوق . فنهض وبادر إلى الهاتف يعفي القائد « الهرطوقيّ » من قيادته !

كان خطّ « ماجينو » يمتدّ على مسافة ١٢ كلم تقريباً داخل « فرنسا » . كانت كلّ فرقة ترسل إلى المقدّمة مجموعة استطلاع ترافقها كتيبة أو كتيبتان . وكانت هذه القوّة ستاراً دفاعيّاً ضعيفا ينقسم هو نفسه إلى خطّ تجمّع . وإلى سلسلة من مفارز الأمان تكون في النهاية وحدها على خطّ الاحتكاك . حيناً في سكون تامّ . وحيناً في ظروف حرجة . شذّ عن هذه الهدنة الصامتة التي ارتضاها الطرفان قطاع أو قطاعان . كقطاع « آباخ » على مقربة من حدود « لوكسمبورغ » . والقطاع القلق المضطرب الواقع جنوبي « فورباخ » . هنا كان الألمان يقومون ببعض الهجمات والمناوشات فيستولون على مدافع رشّاشة أو هاون . ويحتلّون بعض المواقع . فيما كان الفرنسيّون يكتفون بنصب كمين هنا وهناك يقع فيه عدو عاثر الحظّ بين الفينة والفينة . على هذا الأساس كان الفرنسيّون يأسرون ١٠٠ رجل مقابل ٣٠٠٠ يأسرهم الألمان ! أمّا القيادة فكانت تقول إنّها لا تريد أن تنزلق في دوّامة من الاشتباكات حول المواقع الأماميّة . فالمصلحة تقضي بأن لا يدور القتال إلاّ في جبهة واحدة !

والغريب في الأمر هو ذاك الفراغ الصحراويّ الذي كان يمتدّ بين مفارز التغطية والخطّ ذاته . لقد أُجلي السكان كلّهم . بينما ترك الألمان المدنيّين على مقربة من الحدود . وإنّك لتكاد لا ترى في القرى المسلوبة بشكل معيب — نتيجة ضعف النظام — غير بعض عناصر الهندسة المكلّفة بعمليّات النسف . أُخليت المدن والقرى . ومنها « ستراسبورغ » التي غدت مدينة الصمت تحميها من السلب حواجز من رجال الدرك . وهكذا بات أبناء « الألزاس » و « اللورين » المبعدون إلى جنوبيّ غربيّ « فرنسا » يلتهبون حقداً على فرنسيّين لا يرضيهم أن يتكلّم بعض الفرنسيّين الآخرين اللغة الألمانيّة .

تهطل الأمطار ، وتتكاثر التساؤلات : هذا الذي يُدعى حرباً وليس بحرب ، ترى ، هل هو سوء تفاهم ؟ ففي ٦ تشرين الأوّل عرض « هتلر » في المجلس النيابيّ الألمانيّ بعض عروض للسلم . فرفضها الفرنسيّون والانكليز ؛ إلاّ أنّ توقّف المعارك كليّاً أثار الاعتقاد بأنّ هنالك مفاوضات تجري سرّاً . ومهما يكن من أمر فلقد كان راسخاً في الأذهان أنّ خطّي « ماجينو » و « سيغفريد » هما من المناعة بحيث أنّ أيّ جيش يغامر في شنّ الهجوم يسير حتماً إلى كارثة . فلا يمكن للنزاع ، والحالة هذه ، أن يتعدّى مظهر النزاع الفكريّ والاقتصاديّ ، فلابدّ بالتالي للدعاية والحصار من أن يُخضعا « هتلر » !

لقد تشبّث الخمول بالجيش الفرنسيّ نتيجةً للشك والسأم . وإنّ المراقبة البريديّة التي أُجريَت على الرسائل لتصوّر رجالاً طائعين ، ولكن خاملين لكونهم على يقين من أنّهم سيسرّحون قبل أن يقاتلوا . وإذا كان للمعسكرات أن تشكو سوء الحال عامّة ، فإنّ التغذية القانونيّة والإضافيّة كانت سخيّة فائضة . فالضبّاط ، الذين يخضعهم القانون الألمانيّ لنظام « المطبخ السيّار » ، يعيشون هنا في تخمة ، ولم يكن لمقرّات القيادة أن تلومهم في ذلك : فهي تتخاطف رؤساء كبار المطاعم الباريسيّة ، وترسل سيّاراتها في طلب السمك

النهريّ من « الفوج » ، أو « الشبوط » في بلدة « بولونيا » . وإنّ أحد مطاعم مراكز القيادة قد حمل معه خموره في طرقات الهزيمة وأفرغها بعد الهدنة في « مونتوبان » .

لهذه الشهوانيّة تعليل ، هو أنّ الدماء لا تجري . وإنّ الأمّة التي لم تنسَ نزف ١٩١٤ — ١٩١٨ لتشكر للقيادة فضلها في ذلك ؛ وإنّ حرب المواقع هذه لا عهد لها بالمجازر الحمقاء ، وبكفاح الجبابرة من أجل تلاع أرض ، ولا بالهجمات التي عرفتها الحرب السابقة ، وما كان يقصد منها إلاّ تسطير البلاغات الطنّانة . كان على الجيش الفرنسيّ أن يستغلّ فترة الاستراحة التي مُنحها ليضاعف قوّته ومناعته . ولكنّ العكس تماماً هو الذي جرى ؛ لقد تلقّى درساً مجّانيّاً كان عليه أن

رفع الفرنسيّون على إحدى ضفّتي نهر « الرين » دمية تمثّل « هتلر » مشنوقاً . وقد أرادوا بذلك الردّ على سخرية المعسكر المقابل من مظلّة « تشامبرلين » .

يفيد منه ، حين قدّم له الجيش الألمانيّ في « بولونيا » عرضاً لأساليبه في القتال . كان الدرس ثميناً ولكن من غير جدوى !

فمنذ تشرين الأوّل شرع المكتب الثاني يدرس حملة « بولونيا » درساً نقديّاً . ولكنّه نظراً لتأثّره بالتجمّد العسكريّ الفرنسيّ ، ومراعاة لنظريّات القوّاد الكبار ، لم يرتفع إلى الاستنتاجات البسيطة القويّة التي وصل إليها الفريق الثاني في دراسات مماثلة، وهي : إفلاس نظريّة الدّفاع المعتمد على الخطوط إفلاساً تامّاً ، وتفوّق السرعة على قوّة النار ، الخ... ومع هذا ، عدّد التقرير تعداداً صحيحاً مميّزات الحرب الألمانيّة الجديدة، فأظهر أنّ فضل الانتصار على « بولونيا » يرجع إلى الفرق المصفّحة العاملة مع الطيران ، وأبرز بوضوح أنّه لم يكن هناك في الواقع جيش ألمانيّ واحد، بل جيشان : جيش قوامه المشاة والمدفعيّة، وآخر قوامه الدبّابات والطيران، وكلّ منهما يعمل بسرعته الخاصّة بمعزل عن الثاني . ودخل المكتب الثاني في التفاصيل فحلّل تحرّكات فرقتين من فرق الدبّابات : الثالثة التي اقتحمت « ملافا » ثمّ دارت على نفسها لتطهير ضفّتي نهر « الناريف » قبل أن ترتدّ نحو « فرصوفيا » فتداهمها من خلف ، والخامسة التي أطلّت من « سلوفاكيا » كانسة « غاليسيا » ، ومحتلّة « لفوف » على بعد ٣٠٠ كلم من نقطة انطلاقها ، ومرتدّة من ثمّ إلى « فرصوفيا » . لم يفت التقرير أيّة ملاحظة جوهريّة : لا نتائج القصف الانقضاضيّ على معنويّات الجند، ولا استخدام المظلّيين ، ولا شلّ التحرّكات العسكريّة بسبب تدفّق جماعات اللاجئين على الطرقات . وقد حال بطء انتقال الأوراق العسكريّة دون وصول ذلك التقرير إلى بعض الأركان إلاّ خلال معركة أيّار . فلم يكن له من فائدة سوى التأكّد من صحّته !

رفضت القيادة الفرنسيّة أن تعير هذه التعاليم المستخلصة من حملة « بولونيا » أيّ اهتمام، ممّا ثبّط همّة الضبّاط الذين قاموا بدرسها. وأعلن المكتب الثالث، صاحب السلطة العليا الحاسمة، أنّه لا يصحّ اعتبار ما جرى في « بولونيا » أساساً لتدريب الجيش الفرنسيّ في الشتاء . فالظروف تختلف كلّ الاختلاف : في « بولونيا » صادفت « ألمانيا » جيشاً بدائيّاً، ضعيف القيادة، ضعيف العتاد، مرغماً على تأمين جبهــات تفوق طاقته في أرض تفتقر إلى التنظيم الدفاعيّ . أمّا في « فرنسا » فأمام « ألمانيا » جيش حديث يقوده تلميذ لـ « جوفر » ، كامل العدّة، قد تمركز في ميدان مجزّأ مقطّع ، واعتمد على جهاز دفـاعيّ حصين لم يشهد التاريخ نظـيره مناعة ، ألا وهو خطّ « ماجينو » . وأفضل دليل على اختلاف الوضعين هو أنّ « هتلر » لا يهاجم . لقد انقضّ على « بولونيا » انقضاضاً . بيد أنّه ، أمام « فرنسا » ، يتريّث .

جنديّ ألمانيّ يُعنى بالحمَام .





المطر يسوق "هتلر" ويجمّده

في ٢٧ تشرين الأوّل وقّع الفوهرر أوّل أمر له بالهجوم على ذلك الجيش الذي توافرت فيه القيادة الحسنة. والعتاد. والمراكز. والحصون، وخطّ « ماجينو » ! وكان مفروضاً أن يبدأ الهجوم في ١٢ تشرين الثاني . قبل طلوع الشمس بربع ساعة .

كان قرار هزم « فرنسا » منذ ١٩٣٩ قد اتُّخذ قبل انتهاء الحرب البولونيّة . ولمّا صرّح « هتلر » بذلك أمام قوّاد الجيش الألمانيّ البارزين في ٢٧ أيلول . كانت « فرصوفيا » ما تزال تقاوم . ورفض الجنرالات أن يعيروا هذا العزم اهتمامهم الكامل لأنّه بدا لهم غير متناسب مع إمكاناتهم الراهنة . ولكنْ . بعد جلسات عديدة عُقدت في دار المستشاريّة الجديدة . وعقب صدور التعليمات رقم ٦ المتعلّقة بسير الحرب . وأخيراً بعد صدور أمر ٢٧ تشرين الأوّل . اقتنعوا بأنّ الفوهرر ينوي فعلاً أن ينقضّ على « فرنسا » مطبّقاً في الغرب طرق القتال التي أسفرت عن نجاح باهر في الشرق .

أخذت الجيوش الألمانيّة العائدة من « بولونيا » بالقطارات وبالسيّارات تتجمّع على نهر « الرين ». وقام « براوشيتش » يتفقّد مراكز قيادته . فوجد أنّ الآراء فيها مجمعة على أنّ الهجوم الذي يريده « هتلر » أمر محال . وأنّ أمر الهجوم في ١٢ تشرين الثاني جنون . فاعتبر « براوشيتش » أنّ واجبه كقائد أعلى يحتّم عليه أن يعارضه .

أمّا الخامس من تشرين الثاني فكان تاريخاً هامّاً : كان من المنتظر أن يتقرّر ظهراً تثبيت الهجوم أو إلغاؤه . توجّه « براوشيتش » صباحاً إلى دار المستشاريّة وطلب أن يجتمع بـ « هتلر » في مقابلة خاصّة . فاستجاب « هتلر » لطلبه مكرهاً . وراح « براوشيتش » يتلو عليه مذكّرة حشد فيها الاعتبارات العسكريّة التي تدعو إلى عدم الهجوم غرباً : الجيش الفرنسيّ قويّ جداً . والجيش الألمانيّ تنقصه الصلابة الضروريّة . وتنقصه المدفعيّة الثقيلة والذخائر اللازمة لمهاجمة التحصينات الفرنسيّة . والانتصار الذي تحقّق في «بولونيا» على عدوّ واهن يجب ألاّ يخدع أحداً ؛ ولذلك هو ينصح باستغلال التفوّق السياسيّ الذي أحرزته « ألمانيا » للتفاوض من أجل السلم العامّ بشروط مؤاتية . كان « هتلر » يصغي واجماً بادىء ذي بدء . ولكنّه انفجر غاضباً حين أتى الكولونيل جنرال على ذكر الشوائب الأخلاقيّة التي كشفتها الحملة البولونيّة في الجيش الألمانيّ الجديد ، ربيب النظام الهتلريّ .

فقد قال « براوشيتش » : « لم يبرهن المشاة عن روح هجوميّة كالتي تميّزوا بها في الحرب السابقة ، ناهيك عن أعمال العصيان في بعض الفرق المقاتلة . . . »

لم يتسنّ لـ « براوشيتش » متابعة القراءة ، بل خرج إلى غرفة الانتظار بادي التأثّر ، مرتجفاً، مما جعل مرافقه يظنّ انه سيُغشى عليه. كان « هتلر » قد انقضّ عليه وانتزع الورقة منه فمزّقها وداسها ، ثمّ نادى « كيتل » وراح يزمجر وراء الباب المبطّن لاعناً غباوة الجنرالات وجبنهم . وعندما خرج « كيتل » كانت الساعة قد تجاوزت الظهر . وكان الكولونيل « فارليمونت » ينتظر بباب الفوهرر ، فذكّره بأنّ الموعد المحدّد لتثبيت الهجوم قد فات . وهكذا، في ثورة الغضب، كان « هتلر » وخادمه الجنرال قد غفلا عنه .

وعاد « كيتل » فدخل عرين الأسد، ثمّ خرج منه بعد لحظات وهو يقول إنّ أمر ٢٧ تشرين الأوّل قد ثُبّت . وحين اتّصل « فارليمونت » هاتفياً بأركان « براوشيتش » لإبلاغ القرار أبدى الضابط الذي تلقّى الرسالة دهشته قائلاً : « ولكنّ الكولونيل جنرال قد ذهب ليشرح للفوهرر تعذّر الهجوم » . فأجاب « فارليمونت » : « لقد أخفق الكولونيل جنرال في إقناع الفوهرر ... » وإذ قدّم « براوشيتش » استقالته أجابه « هتلر » بأنّ الجنود العاديّين ، في الخنادق ، لا يستقيلون . فبقي « براوشيتش » في منصبه مرغماً لتحضير خطط كان يعارضها .

أمّا خطّة هجوم ١٢ تشرين الثاني فقد وضعتها أركان الجيش في ١٩ تشرين الأوّل : كان على الجيش الألمانيّ بموجبها أن يدخل البلدان الثلاثة التي كان « هتلر » قد وعد باحترام حيادها لشهر مضى ، وهي « هولاندا » و « بلجيكا » و « لوكسمبورغ » . وقد اعتُبرت « لياج » مركز الثقل . كان على مجموعة جيوش « فون بوك » (المجموعة ب) أن تغزو شواطىء البحر الشماليّ كي توفّر للبحريّة وللطيران قاعدة عمليّات جوّيّة وبحريّة ضدّ « انكلترا » . وخُصّت مجموعة جيوش « فون روندشتاد » (المجموعة أ) بدور هجوميّ أصغر . وهو عبور « الأردين » وخرق نهر « الموز » . وأمّا مجموعة الجيوش الثالثة (مجموعة ج) . وعلى رأسها « فون ليب » . فقد كان عليها أن تحافظ على الجبهة الممتدّة من « لوكسمبورغ » إلى « سويسرا ».

غير أنّ هذه الخطّة لم تحز على رضى « هتلر » التامّ . وقد قام « هتلر » لمرافقيه « كيتل » و « جودل » : « إنّهم يحذون حذو « شليفن » » . وقد سبق له أن نبّههم إلى أنّ تأثير المفاجأة الذي أحدثه توسيع الجناح الأيمن الألمانيّ عام ١٩١٤ . لا يمكن أن يتكرّر. فالقيادة الفرنسيّة تتوقّع الهجوم من جهة « بلجيكا » هذه المرّة . وهي قد وزّعت قوّاتها من « الأردين » حتى البحر الشماليّ . ولئن تجدّدت خطّة « شليفن » فستكون نتيجتها معركة جبهيّة .

غير أنّ « هتلر » قبل بتطبيق خطّة الأركان العامّة . كان متزيّناً بحدس ستراتيجيّ قويّ . ولكن، على حدّ قول الجنرال الفرنسيّ « كولتز » . « لم يكن له الاختصاص الذي يمكّنه من الإفصاح منذ الوهلة الأولى عن فكرة العمليّات المتولّدة في نفسه » . والواقع أنّ « هتلر » لم يكن يتصرّف بصفته قائداً حربيّاً فحسب . بل بصفته « هتلر » الذي كان يتمخّض عن أفكار غامضة ثمّ يوضّحها بتأمّلات منفردة وبأحاديث متفكّكة ؛ فإنّ فكرة اختراق ممرّ « سيدان » قد طرأت عليه باكراً، ولكنّها بقيت مدّة طويلة في طور اختمار وافتراضات

« لم يسبق لحدود أن خضعت لما خضعت له الحدود الفرنسيّة الألمانيّة من دراسات وتجارب ستراتيجيّة عسكريّة عبر الأجيال : فقد دُرست كلّ ظاهرة من ظواهر الأرض فيها ، وكلّ مرتفع من مرتفعاتها ، وكلّ مجرى من مجاري مياهها . . . »
(« ونستون تشرتشل » في مذكراته)



ما بالهم لا يهاجمون ؟ ماذا ينتظرون ؟ هذا ، وفي الجهة الأخرى من نهر « الرين » همسات تسري : « لقد فات «هتلر » « المركبُ » !

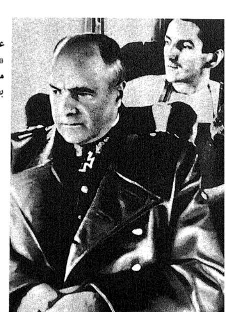
في ٧ تشرين الثاني أجّل « هتلر » إلى ٩ قرار الهجوم . ثمّ أجّله مجدّداً في ١٣ و١٦ و٢٠ . وهنا ساورت « هتلر » الظنون . ولذلك أصرّ على أن يتولّى الطيران الألمانيّ إصدار نشرتين جويّتين في النهار الواحد . ظنّاً منه بأنّ قوّاد البرّ قد يقدمون على رشوة موظّفي الأحوال الجويّة . ولكنّ القيّمين على هذه الأحوال من رجال الطيران لم يكونوا أقلّ تشاؤماً من رجال البرّ . وتتابعت تأجيلات الهجوم : من ٢٧ إلى ٢٩ تشرين الثاني . ثمّ من ٤ إلى ٦ إلى ١٢ كانون الأوّل .

عجيبة هي هذه الحرب ! المطر ينهمر بغزارة . والرجال في معسكراتهم في « الألزاس » و « الأردين » يقوّسون ظهورهم تحت وابل المطر المستمرّ، وقشّ الأسرّة يتعفّن في مخازن الحصيد . وأمّا خيول المدفعيّة فقد هلكت بالألوف . إمّا بنتيجة مرض خسفيّ أصابها . أو بنتيجة إهمال سوّاسها . وأتت رداءة الجوّ مبرّراً لإلغاء التمارين ولتعليق أعمال تنظيم الميدان . فكانت مقاهي القرى تغصّ بالجنود الذين يقضون أوقاتهم في ضجر .

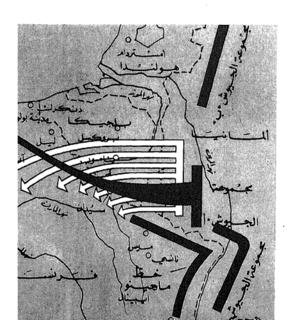
منقلبة . وسنتطرّق إلى تطوّر هذه الخطّة الفذّة في الفصل القادم .

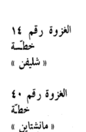
في ٢٣ تشرين الثاني، عقب إهانة « براوشيتش »، وجّه « هتلر » إلى قوّاد الجيش المجتمعين في المستشاريّة توبيخاً عنيفاً . قال « هالدر » : « لقد نبح « هتلر » في وجه الجنرالات . هذا ما حصل في الواقع » . ومع ذلك بقي بعضهم على معارضتهم . وبلغ الأمر بـ « ليب » أن اقترح أن تُضرب القيادة العليا بغية خنق مشروع الهجوم . ولكنّ نظام الطاعة . وقسم الإخلاص لشخص الفوهرر . كانا يقيّدان الأكثريّة العظمى من أولئك الجنود .

ولعبت السماء دورها في تأجيل الهجوم نحو الغرب . كان « هتلر » يتطلّب طقساً جيّداً كي تأتي منجزات الطيران والمصفّحات لائقة شبيهة بما كانت عليه خلال الصيف البولونيّ الباهر . ولكنّ خريف ١٩٣٩ أتى متقيتاً، فقد حمل تشرين الثاني أمطاراً غزيرة . فتضخّمت الأنهار . وألقت الفيضانات في السهول حواجز تعترض سبيل الدبّابات . وأعلنت النشرة الجويّة أنّ غيوماً كثيفة قادمة من الأطلسيّ تنذر بطوفانات جديدة في الأيّام المقبلة .



عودة الجنرال « فالتر فون براوشيتش » من « بولونيا » وبرفقته بعض الجرحى .





الغزوة رقم ١٤ خطّــة « شليفن »

الغزوة رقم ٤٠ خطّة « مانشتاين »



قال « هتلر » لقوّاده في آب ١٩٣٩ : « ما ان تنطلق شرارة الحرب حتى يصبح النصر هو الكلام الفصل ، لا الحقّ » . وقال أيضاً : « كلّ شيء يجري على ما يرام لأن الوقت مناسب ومؤات لنا . وفي غضون ستة أشهر قد يتغيّر كلّ شيء . أمّا العامل الأكبر في ذلك كلّه فهو — وأقولها بكلّ تواضع — أنا : إنّ وجودي ضروريّ ، وما من عسكريّ أو مدنيّ يستطيع أن يقوم مقامي » .

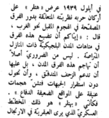


حواجز مضادّة للدبّابات تمتدّ أمام خطّ « سيغفريد » . ولن يكون لهذه الحواجز أيّة فائدة ، كما لن يكون للحفر وغيرها من الحواجز الممتدّة أمام خطّ « ماجينو » أيّة فائدة . ولكنّ الأسباب هنا تختلف عنها هناك . ويبدو أنّ إله الحرب يتلذّذ دوماً في تخطئة ما يذهب إليه العسكريّون من تكهّنات وتصوّرات .

من مجال العقيدة إلى حيّز التنفيذ



كان لا بدّ « لهتلر » من أمثال هذا العرض العسكريّ ، لم يكن به غنى عن هتافات « هايل هتلر » تدوّي بها حناجر جنود يزحفون تحت لوائه إلى احتلال « أوروبا » . كان أولئك الجنود يمثّلون في نظره شعب « ألمانيا » ، بينما كان قوّادهم الكبار يمثّلون « ألمانيا » القديمة ، وعلى الأخص تلك الأرستوقراطية الريفية التي كان يكرهها .



في أيلول ١٩٣٩ عرض « هتلر » على أركان حربه نظريّته المتعلّقة بدور الفرق المصفّحة في الهجوم المقبل نحو الغرب ، قال : « إيّاكم أن تضيع هذه الفرق في متاهات المدن البلجيكيّة ذات المنازل المتراصّة . ليس من الضروريّ أصلاً أن تهاجم هذه الفرق المدن ، بل عليها أن تدعم الزحف المتدفّق ، وأن تحول دون استقرار الجبهات فتشنّ هجمات عنيفة على المواقع الضعيفة الدفاع » . فكأنّي « بهتلر » هو ذلك المخطّط العسكريّ الذي يرى العبقريّة في الارتجال المتطرّف .



ولكن لا غرابة في الحرب البحريّة

وهنا انبثقت حجّة قويّة تدعم آراء القائلين بأنّ الحرب العالميّة الثانية ستكون اقتصاديّة وعالميّة أكثر منها أوروبيّة؛ ففيما كانت العمليّات العسكريّة البرّيّة منعدمة . كانت العمليّات البحريّة قد بدأت شديدة منذ اليوم الأوّل . فمنذ ٣ أيلول . في الساعة ٢١ . وعقب إعلان حالة الحرب بعشر ساعات . حدث انفجار دمّر سفينة النقل الانكليزيّة « أثينيا » من فئة ١٣,٥٠٠ طن إذ كانت في طريقها إلى « نيويورك » . فبلغ عدد الضحايا ١١٢ . منهم ٢٨ راكباً أميركيّاً . وتذكّرنا هذه الحادثة بغرق السفينة « لوزيتانيا » في الحرب العالميّة الأولى . وفي اليوم التالي اتّهمت المراجع الألمانيّة « تشرتشل » بأنّه هو الذي أغرق الـ « أثينيا » معرّضاً للخطر أرواح ١,٥٠٠ من الناس . بغية إثارة النزاع بين « ألمانيا » و « الولايات المتّحدة » (وكان « تشرتشل » قد عاد إلى المنصب الذي احتلّه سنة ١٩١٤ كلورد أوّل للأميراليّة) . وقد اعترض « تشرتشل » بشدّة . ولكنّ اعتراضه لم يأتِ مُقنعاً كلّ الإقناع . والحقيقة أنّ المراجع الألمانيّة كانت تكذب؛ فـ « تشرتشل » لم يغرق الـ « أثينيا » . بل أغرقها الليوتنان « لمب » قائد الغوّاصة الألمانيّة « أو ٣٠ » . وقد فضحت وثائق محاكمة « نورنبرغ » هذه العمليّة فيما بعد : فقد زوّرت البحريّة الألمانيّة سجلّ السفينة . وجعلت البحّارة يقسمون على حفظ السرّ . وفرضت على « لمب » عقاباً تأديبيّاً لأنّه بدأ العدوان بنسفه سفينة النقل من غير إنذار .

وبعد يومين أُغرقت سفينة ثانية هي « رويال سبكتر » . وعلى الأثر وجّه قائد الغوّاصة الألمانيّة « أو ٤٨ » . الليوتنان الشاب « هربرت شولتزي » إلى « تشرتشل » إعلاماً مباشراً يقول فيه : « بلّغوا السيّد « تشرتشل » أنّنا أغرقنا السفينة البريطانيّة « رويال سبكتر » في الموضع كذا . الرجاء التقاط البحّارة . » وبهذا تكون الـ « أثينيا » والـ « رويال سبكتر » في رأس لائحة طويلة تضمّنت ٢,٦٠٣ سفن أتلفتها غوّاصات « هتلر » ما بين ١٩٣٩ و١٩٤٥ .

كان قوّاد البحريّة الألمانيّة، مثلهم مثل قوّاد الجيش، يعتقدون أنّ الحرب أتت سابقة لأوانها . « فألمانيا » لا تمتلك بعد غير أسطول عائم ضعيف مؤلف من ثلاث بوارج صغيرة هي « ادميرال غراف شبي » ، و « ادميرال شير »، و « دويتشلند » ، وقد بُنيت وفقاً لشروط اتّفاقيّة « فرساي » (١٠,٠٠٠ طن)، ومن طرّادين حمولة الواحد ٢٦,٠٠٠ طن هما « شارنهورست » و « غنازناو » . ومن طرّاد ثقيل هو « برنتز أوجين » ، ومن خمس طرّادات خفيفة و ٢٢ مدمّرة . وفي تلك الأثناء أُنجِز بناء البارجتين « بيسمارك » و « تيربيتز » . حمولة ٣٥,٠٠٠ طن. وبوشر العمل في بناء سفينتين أخريين أسميتا موقّتاً « هـ » و « ي » . هذا ما كان يؤلف الأسطول الألمانيّ الذي أعيد تنظيمه حديثاً. والذي لم يكن له أن يدّعي السيادة في البحار .

أمّا سلاح الغوّاصات فلم يعد إلى الظّهور إلاّ في ١٩٣٥ . حين أوجد القائد « كارل دونيتز » الأسطول الصغير « فيدنجن » المؤلّف من قطع صغيرة ثلاث . وفي ١٩٣٩ بلغ عدد الغوّاصات ٥٧ . ولكن نصفها كان مؤلّفاً من قطع خفيفة من دون فئة ٢٥٠ طن . غير صالحة للاستعمال في الأطلسيّ . ومنها ما كان ناقص التدريب . وانقضت أسابيع عديدة قبل أن يكون « لألمانيا » في البحار ثلاث غوّاصات أو أربع في آن معاً .

ومن ناحية الحلفاء . كان أسطول ١٩١٤ البريطانيّ . المؤلّف من ٨ عمارات بحريّة ، ومن ٨ سفن قتال ، قد زال . وقد بوشر تنفيذ منهج لإعادة التسليح البحريّ، ولكنّ البوارج من فئة « الملك جورج الخامس » ، وكذلك حاملات الطائرات من طراز «الّوستريوس » . لن تبدأ عملها إلاّ في سنة ١٩٤١ . وكان الأسطول الثقيل مؤلّفاً من ١٣ قطعة تعود إلى الحرب العالميّة الأولى : ١٠ بوارج ، و٣ طرّادات ، فضلاً عن ٦ حاملات للطائرات منها خمس كانت في الأصل بوارج ، ومن السفينتين الوحيدتين اللتين بنيتا منذ ١٩١٩ وهما « نلسون » و « رودني » .

وأمّا ملاك العمارات البريطانيّة الصغرى فكان ما يزال مهيباً : ١٥ طرّاداً من فئة الـ ٨ بوصات، و٤٩ طرّاداً من فئة الـ ٦ بوصات ، و١٨٤ مدمّرة ، و٣٨ سفينة شراعيّة، الخ. ولكن كان على « انكلترا » أن تحرس طرقات بحريّة تشمل الكرة الأرضيّة، وأن تحمي حركة نقل ناشطة كانت تتمثّل بـ ٢,٥٠٠ سفينة تجاريّة بريطانيّة تجوب البحار يوميّاً .

ولو أنّ « إيطاليا » دخلت الحرب، لكان على « بريطانيا العظمى » أن تحسب حساب قوّة بحريّة قديرة حديثة مؤلّفة من أربع بوارج جديدة من بينها « فيتوريو فينيتو » و « ليتوريو » ، حمولة ٣٥,٠٠٠ طن، و٧ طرّادات ثقيلة، و١٢ طرّاداً خفيفاً، و٥٩ مدمّرة، و٦٩ زورقاً نسّافاً، و١٠٥ غوّاصات . غير أنّ موقف « موسوليني » غير العدوانيّ قد جمّد هذا الأسطول المتوسّطيّ الضخم، وأتاح للأسطول الفرنسيّ الذي كان قد جُدّد بكامله أن ينضمّ إلى القتال ضدّ « ألمانيا ». ففضلاً عن ٣ بوارج قديمة، كانت للأسطول الفرنسيّ سفينتان كبيرتان من فئة ٢٦,٠٠٠ طن هما « دنكرك » و « ستراسبورغ » . وكان





الـ « ريشيلو » والـ « جان — بار » من حمولة ٣٥٫٠٠٠ طن قيد الإنجاز في المصانع الفرنسيّة . وقد اعتُبرت هاتان العمارتان أقوى عمارات العصر . فيما كانت الطرّادات الـ ١٨ الثقيلة الجديدة تشكّل قوّة متجانسة . وأمّا مطاردات النسّافات الـ ٢٨ (فضلاً عن ٢٤ منها قيد البناء) فقد كانت في اعتبار الانكليز طرّادات خفيفة . إنّ الاستمرار في البناء ، ومهارة وزير البحريّة الراحل «جورج ليك » ، وكفاءة رئيس الأركان « فرنسوا دارلان »، تبيّن أنّ « فرنسا » ، في غسقها العسكريّ الأكبر ، كانت تمتلك أكبر قوّة بحريّة لها منذ عهودها الملكيّة .

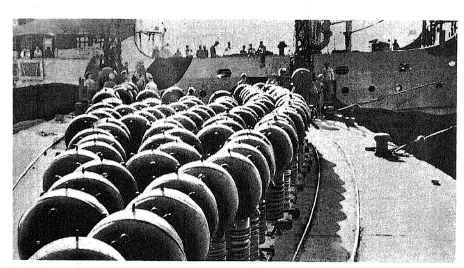
وفي ذلك الوقت كانت « انكلترا » تحت وطأة مفاجأة تقنيّة . فعلى طول الشواطىء ، وفي مصبّات الأنهار ، كانت السفن تدمَّر بصورة غامضة . ففي نهر «التاميز » انفجرت ست سفن نقل الواحدة تلو الأخرى، وأعطبت البارجة « نلسون »، أقوى بوارج الأسطول، لمدّة أسابيع . وفي ذات مساء استقبل «تشرتشل » لورد البحر الأوّل الأميرال السير « دادلي باوند » الذي صرّح له ، وهو بحالة عصبيّة شديدة ، بأنّ في حوزة الألمان سلاحاً سرّيّاً يسبّب هذه الخسائر المقلقة . فلم يكن معقولاً ، والحالة هذه ، القيام بأيّة عمليّات ما لم يُكشف النقاب عن طبيعة هذا السلاح .

ومرّت أيّام مضطربة . وفي ٢٢ تشرين الثاني وصل من « ساوث اند على البحر » ، وهي مدخل « التاميز » ، نبأ يقول : إنّ طائرة ألمانيّة تصدّت لها المدفعيّة المضادّة للطائرات ، قد أفرغت بسرعة « أشياء » عديدة ضخمة استقرّ أحدها في وُحول «شوبوربنيس»، ثمّ ظهر بعد حركة الجزر . وفي الحال غادر « وولويتش » اختصاصيّان في الألغام هما « أوفري » و « لويس »، فاهتديا إلى الآلة وقاما لتوّهما بنزع فتيلة الإشعال ، مستعينين بإنارة ضعيفة، وسط ليل جليديّ . وهنا يقف الذعر واجماً أمام هذين الرجلين اللذين راحا يتجسّسان النواتىء الرهيبة ، بينما بدأت حركة المدّ تعدّ عليهما اللحظات . وشاء الحظّ أن يلعب دوره في هذا الموقف الحرج، إذ اتّضح أنّ الألمان قد نسوا إشعال جهاز التدمير الذاتيّ في الآلة بعد ما داهمتهم نيران المدفعيّة . وهكذا ربح « أوفري » و « لويس » الجولة ، فعادا إلى « ساوث اند » حاملين لغماً مغنطيسيّاً وهو أوّل سلاح سرّيّ هتلريّ . فلم يبقَ على المسؤولين سوى إبطال مغنطة السفن حتّى يتعذّر على هذه الألغام الجهنّميّة المزروعة في المياه القليلة العمق صدم هياكلها المعـدنيّة .

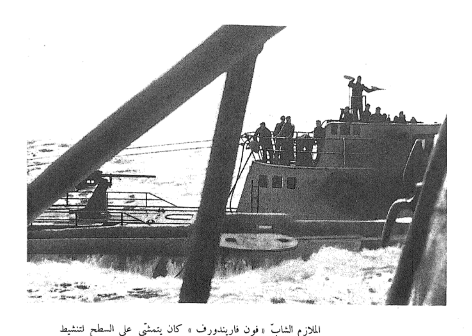
ويبدو هنا وكأنّ حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ لم تتوقّف قطّ : كان على البحريّة البريطانيّة أوّلاً أن تحمي عبور القوّات البريطانيّة إلى « أوروبا » ، وقد تمّت العمليّات فلم تقع فيها أيّة خسارة؛ وثانياً أن تفرض الحصار على « ألمانيا »، فبوشر تنظيم حول الألغام الشاسعة التي زُرعت في ١٩١٨ بين « سكوتلاندا » و « النروج » . وعُدّلت « الدوريّة الشبح » ، وهي سفن نقل حُوّلت إلى طرّادات مساعدة تقوم بالحراسة في المياه المضطربة في خطّ العرض الـ٦٠ . وفي ليل ٢٣ تشرين الثاني ، تبيّنت « روالبندي » ، وهي إحدى هذه السفن المجنّدة، شبح سفينة حربيّة كبيرة على بعد ٨٠٠٠ ياردة . وما هي إلاّ لحظات حتّى كانت « روالبندي » تغرق ، بعد دفاع مستميت ، تحت ضربات الـ « شارنهورست » .

وابتدأت حرب الغوّاصات انطلاقاً من المستوى الذي كانت عليه سنة ١٩١٦ ؛ فالقوافل تعود للظهور ، قطعاناً من السفن يقودها راع أو اثنان من البوارج والطرّادات ، بينما تدور المدمّرات وقوارب الصيد المسلّحة والقوارب الشراعيّة الحربيّة حولها كالكلاب . ومع ذلك فقد بدأت الخسائر تتكاثف : ٤١ سفينة في أيلول، و٢٧ سفينة في تشرين الأوّل ، و٢١ في تشرين الثاني ، و٢٥ في كانون الأوّل ، أي ما مجموعه ١١٤ سفينة و٤٢٠٫٠٠٠ طن، في هذا الجزء من سنة ١٩٣٩ الذي شملته الحرب، وهي سرعة في التدمير تشبه تلك التي حدثت في ١٩١٦ . وقد نالت السفن الحربيّة نصيبها من هذا التدمير ؛ ففي ١٧ أيلول ، وفيما كانت الـ « كوريجوس » تنعطف في اتّجاه الريح تمهيداً لعمليّة هبوط الطائرات على متنها ، فاجأتها الغوّاصة « أو ٢٩ » بقيادة الكومندان « شوهارت »، ولم يمض ربع ساعة حتّى كانت البحريّة البريطانيّة قد خسرت أوّل حاملة للطائرات .

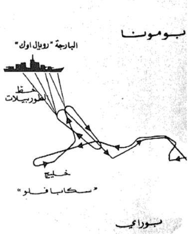
« ما ان سدّدت إلينا الألغام المغنطيسيّة أولى ضرباتها حتى تملّكني همّ شديد . ولمّا قمنا نعدّ العدّة للدفاع عن أنفسنا منها ، كنت دائم التفكير بوسيلة تمكّننا من الانتقام والثأر » .
(« ونستون تشرتشل » في مذكّراته)



الكابتن « هربرت شولتزي » راجعاً من مهمّة في البحر . وقد قلّده الفوهرر « صليب الفرسان مع أوراق السنديان » .



غوّاصتان ألمانيّتان
تتبادلان
التحيّات والرسائل في
« المحيط الأطلسيّ » .



ما أشبه اليوم بالأمس ! ففي ١٧ تشرين الأوّل ١٩١٤ تسلّلت غوّاصة ألمانيّة إلى خليج « سكابا فلو » فأحدثت ردّة فعل عنيفة في صفوف الأسطول البريطانيّ . وفي ١٤ تشرين الأوّل ١٩٣٩ تسلّلت غوّاصة ألمانيّة أخرى إلى المكان نفسه وأغرقت فيه البارجة البريطانيّة « رويال أوك » . وتمثّل هذه الخارطة الطريق التي سلكتها الغوّاصة الألمانيّة « أو ٤٧ » ذهاباً وإياباً .

وتاريخ ١٤ تشرين الأوّل يشهد مأثرة فريدة؛ ففي الساعة ٠٠,٥٩ ، فيما كانت البارجة « رويال أوك » راسية في خليج « سكابا فلو » ، إذا بصدمة عنيفة تهزّها . فهبّ الربّان من نومه ظانّاً أنّ ما حدث لا يعدو كونه انفجاراً ضعيفاً ، ونزل إلى جوف البارجة للتحقيق . وفي تلك الأثناء ، وعلى مسافة أقلّ من ميلين ، كانت الغوّاصة « أو ٤٧ » ، بقيادة الليوتنان « غونتر برين » ، تعيد حشو أنابيبها النسّافة لتكرار الهجوم . وقد جرت هذه العمليّة عند الفجر ، على سطح الماء ، وسط الحوض النائم تحت سماء صافية ، في جوّ من الطمأنينة ، حتّى أنّ الملازم الشابّ « فون فاريندورف » كان يتمشّى على السطح لتنشيط ساقيه ، ممّا جعل قائده يؤنّبه بصوت مختنق . وفي الساعة ٠١,٢٧ ، بعد مرور ٢٨ دقيقة على الهجوم الأوّل ، انطلقت الطوربيدات ثانية فشقّت بطن الـ « رويال أوك » . وفيما كانت البارجة تغرق حاملة معها ٢٤ ضابطاً و٨٠٩ من البحّارة ، عاد « برين » أدراجه في سيره الصامت ؛ وبعدما بلغ عرض البحر توجّه شطر « ألمانيا » حيث كان المجد بانتظاره .

إنّ أوجه الشبه بين بداية هذه الحرب وأيّام ١٩١٤ هو الدور الضعيف الذي مثّله فيها الطيران ؛ فقد أصدرت الحكومة البريطانيّة أمراً يمنع قصف السفن الألمانيّة داخل المرافىء ويسمح به في عرض البحر . وعملاً بهذا الشرع قام بعض تشكيلات « ولنغتون » و « بلنهيم » بجولة في عرض « فيلهلمشافن » . ولكنّها لم توفّق إلاّ بإصابة الـ « ادميرال شير » بخدوش ؛ ومقابل ذلك قام الطيران الألمانيّ بمهاجمة « سكابا فلو » ، وكانت النتيجة أن جنحت السفينة « ايرون ديوك » التي كانت قد حوّلت إلى بطّاريّة عائمة . وقد استنتج القائد الأعلى للبحريّة البريطانيّة ، الأميرا ال سير « تشارلز فوربز » ، أنّ التخوّف من التهديد الجوّيّ مبالغ فيه . لكنّ ثمن هذا الحكم المتسرّع سيكون باهظاً .

وآخر وجه للشبه مع ١٩١٤ هو : المُغيرون . فقد أحيت مطاردة الـ « غراف شبي » تلك التأثّرات التي رافقت ، لخمس وعشرين سنة خلت ، مطاردة السفينتين « كونيكسبرغ » و « امدن » . ففي ١ تشرين الأوّل علمت الأميراليّة أنّ البارجة « غراف شبي » في الأطلسيّ ، وأنّها قد أغرقت السفينة التجاريّة « كليمان » قرب « البرازيل » . وبعد عشرين يوماً وصل إلى الـ « أوركاد » بعض الناجين من السفينة التجاريّة النروجيّة « لورنتز هانسن » ، فصرّحوا بأنّ البارجة « دويتشلند » هي التي دمّرت سفينتهم . إذن فقد كانت هنالك بارجتان صغيرتان تعملان ناشطتين ، الواحدة في الأطلسيّ الشماليّ ، والثانية في الأطلسيّ الجنوبيّ . كانت هاتان البارجتان تحفة البناء البحريّ ، وكانتا مزوّدتين بمدافع من عيار ١١ بوصة ، وبصفائح كثافتها ١٠ سنتمترات ،

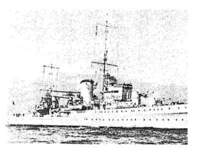
وبمحرّكات تولّد سرعة ٢٨ عقدة ، فهما بالتالي تشكّلان خطراً شديداً يحدق بالبحار يجب إزالته مهما بلغ الثمن .

كانت السفينتان متشابهتين ، ولكنّ ربّانيهما مختلفان . فقائد الـ «دويتشلاند» كان شديد الحذر ، وقد عاد إلى « فلهلمشافن » منذ ١١ تشرين الثاني ولمّا يصب صيداً وافراً . أمّا قائد الـ «غراف شبي» ، الكابتن «لانغسدورف» ، فقد كان يعمل بفطنة وعناد ، ولكنْ ليس في تصرّفه ما يشين : فهو لا يغرق السفن إلاّ بعد أن يتمّ إخلاؤها تماماً ، ثمّ يحسن معاملة قوّادها الأسرى على ظهر سفينته ، ويدبّر أمر بحّارتها بالّتي هي أحسن على السفينة « ألتمارك » الّتي كانت ترافق بارجته لتموينها . وكان « لانغسدورف » يفخر بكونه لم يُرق حتّى ذلك الوقت نقطة دم واحدة .

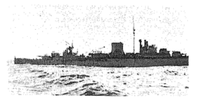
جنّدت الأساطيل الحليفة قوى جبّارة لمقاتلة المغيرين الاثنين بادىء ذي بدء ، ومن ثمّ لمجابهة « غراف شبي » بمفرده ؛ فوُزّعت على قطاعات مختلفة تمتد من « سيلان » إلى « الانتيل » ثماني فرق بحريّة مؤلّفة من بوارج وطرّادات وحاملات للطائرات . وفي ٢٢ تشرين الأوّل ، على أثر استغاثة صادرة عن البا ة « تريفانيون » ، بدت

أبصر مراقبوها دخاناً ، فأمر « لانغسدورف » بالتوجّه إلى المكان لاقتناص الضحيّة الجديدة . وبعد ثماني دقائق تبيّن عن بعد سفينة حربيّة . كانت الأوامر تحتّم عليه أن يتجنّب القتال ، ولكنّ هربه كان صعباً في صبيحة ذلك اليوم من أيّام الصيف الطويلة . واعتبر « لانغسدورف » أنّه من السهل عليه القضاء بسرعة على الطرّاد الخفيف الذي بدأت معالمه تتّضح في الأفق . وعلى الأثر ظهرت سفينتان أخريان ، فبات الهرب محالاً . الشمس في وجه الألمانيّ تبهر نظره ، ولكن الرؤية ممتازة ، والهواء معتدل ، والمياه تنساب هادئة في الاتّجاه الشماليّ الشرقيّ .

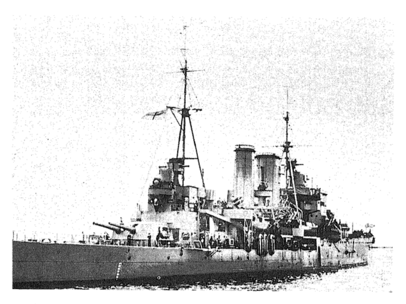
وأوّل طرّاد أبصرته « غراف شبي » هو « أجاكس » ، من فئة الـ ٦ بوصات . وأمّا الثاني فقد كان الطرّاد النيوزيلانديّ « أخيل » من الفئة نفسها . وكان الـ « اكسيتر » ثالثهما ، وهو مسلّح بمدافع من فئة الـ ٨ بوصات . وكانت هذه الطرّادات تشكّل ، تحت إمرة الكومودور « هاروود » ، القوّة « ج » ، وهي من القوّات الضعيفة لأنّها لا تضمّ بوارج ولا حاملات طائرات ، كما أن الطرّاد « كامبرلاند » ، رابع سفن هذه الفرقة ، كان آنذاك يتزوّد في « فولكلاندز » . كان



الطرّاد النيوزيلنديّ « أخيل » .



الطرّاد « أجاكس » الذي كان السبّاق إلى رؤية «غراف شبي»



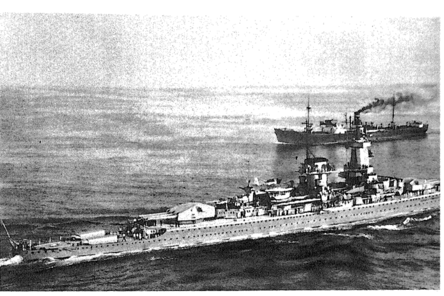
الطرّاد «اكسيتر» وقد ضُمّدت جراحه بعد اشتباكه مع «غراف شبي» في قتال مرير .

الفرصة سانحة لإطباق الخناق على البارجة المنفردة . ولكنّ الأيّام والأسابيع مرّت من غير أن يُعثر «للغراف شبي» على أثر في البحار الشاسعة.
ثمّ قام « لانغسدورف » بعطفة واسعة في المحيط الهنديّ لتضليل ملاحقيه ، فعاد إلى الأطلسيّ غير راضٍ كليّاً بما جنى حصاده : فقد أخذت موارده بالنفاد ، وهو منذ ٣٠ أيلول لم يدمّر غير ٩ سفن شحن حمولتها مجتمعة ٥٠،٠٠٠ طن ، وتلك منجزات ضئيلة لسفينة قويّة كسفينته . لذلك كان يطمح ، قبل العودة إلى « ألمانيا » ، أن يحقق صيداً حسناً في مياه « ريو دي لا بلاتا » الّتي تعجّ بالسفن . وفي الساعة ٠٦،٠٨ ، فيما كانت « غراف شبي » على ١٥٠ ميلاً من «مونتيفيديو »

« لانغسدورف » في ذلك الوضع ينعم بتفوّق ملحوظ على كلّ من أخصامه الثلاثة ، فهو بالتالي يأمل أن يدمّرها الواحد تلو الآخر من غير أن تلحق به أضرار جسيمة .

بدأ إطلاق النار في الساعة ٠٦،١٤ ، على مسافة ١٩،٠٠٠ م. ولم تمض ساعة ونصف حتّى كانت العمليّة قد انتهت : فقد أصيبت ثلاثة من أبراج « اكسيتر » الأربعة فمال مُثقلاً إلى اليسار ، وترك القتال محاولاً جهده أن يصل إلى «بورت ستانلي » ؛ وأمّا الطرّادان الآخران فقد قاتلا بعناد عجيب ، مشتبكين ، على مسافة قصيرة ، مع خصم كانت مدفعيّته الثانويّة تضاهي مدفعيّتهما الرئيسية ، مغتنمين فرصة تطاحن

«إنّني أواجه الموت مؤمناً إيماناً لا يتزعزع بالقضيّة وبمستقبل بلادي وزعيمي».
(آخر رسالة وجّهها الكابتن «لانغسدورف» قائد «غراف شبي»)



«غراف شبي» و «اكسيتر» لإصابة بارجة العدوّ إصابات متعدّدة. وقد أصيبا بجروح كانت خفيفة بالنسبة لـ «أخيل»، وثخينة بالنسبة لـ «أجاكس» ولكنّهما بقيا في الميدان. ولا معين لهما في وجه سفينة جبّارة لم تصب قوّتها الهجوميّة بأيّ أذى، إلاّ ما يتفوّقان عليها به من سرعة؛ فباستطاعة «غراف شبي» إذاً أن ترغمهما على الفرار. ولكن «غراف شبي» هي التي فرّت!! فالأضرار التي لحقت بها كانت جسيمة، وإنْ غير خطرة: فإنّ مطابخها قد أتلفت، وحدثت ثغرة في هيكلها، وغدا قسم من مدفعيّتها غير قابل للاستعمال، وكانت إلى ذلك مثقلة بالجرحى. ولو أنّ «لانغسدورف» كان أكثر عناداً وتعصّباً لانسحب إلى عرض البحر محاولاً الإفلات هائماً في أطراف المحيط الخياليّة. ولكنّ قائد «غراف شبي» الإنسانيّ، الذي كان مقتنعاً بأنّ الحرب حماقة، لم يفكّر إلاّ بإيجاد مرفإ لإصلاح سفينته وإنزال جرحاه. وبما أنّ «مونتيفيديو» كانت قريبة فقد يمّم شطرها، فكانت له فخّاً، إذ وقف له الطرّادان الصغيران المنتصران بالمرصاد بمحاذاة المياه الإقليمية الأوروغويّة، وانضم إليهما الـ «كامبرلاند» على جناح السرعة ليساندهما.

حسمَت الأيّام الثلاثة التالية العالم؛ وأطرت الأميراليّة البريطانيّة قتال الطرّادات الثلاثة المظفّر، وبات النّاس في فضولهم يرقبون بفارغ صبر التطوّرات المقبلة. أمّا «هتلر» فقد كاد الغيظ أن يخنقه، فراح يمطر «لانغسدورف» وابلاً من البرقيّات يتّهمه فيها بالجبن ويشكّك بولائه. كان يريد أن تخرج «غراف شبي» من «مونتيفيديو» وأن تغرق عالية الجبين. ورفض «لانغسدورف» أن يضحّي برجاله، مقاوماً سفير «ألمانيا» في «أوروغواي»، والعملاء النازيّين الذين هبّوا قادمين من «بيونس ايرس». وانتهت مهلة الـ ٧٢ ساعة التي منحته إيّاها الحكومة الأوروغويّة، فلم يبقَ أمامه إلاّ أن يغادر «مونتيفيديو»، أو أن يقبل بالحجز وهو أمر يحظّره الفوهرر تماماً.

وفي الساعة ١٨ من ١٧ كانون الأوّل، كانت جماهير غفيرة تحتشد في جادّة البحر في «مونتيفيديو» فيما كانت «غراف شبي» تغادر المرفأ. وحتّى ذلك الوقت لم تكن أيّة امداد حليفة قد وصلت إلى الطرّادات «أخيل» و «أجاكس» و «كامبرلاند». التي وقفت على أهبة القتال. وكان «لانغسدورف» قد أنزل معظم بحّارته، فلم يبقَ معه سوى فرقة للتدمير والإغراق أبحرت بالسفينة الرائعة عند الغروب. وبعد ذلك حصل انفجاران مدوّيان أو ثلاثة، تلاشت بعدها «غراف شبي» في مكان قليل العمق بقي حطامها فيه ظاهراً مدّة طويلة. وكان «لانغسدورف» آخر من غادر السفينة الغريق. وفي اليوم التالي أقدم على الانتحار.

وهنا خامر «هتلر» خوف ووسواس: فما حدث لـ «غراف شبي» كان يمكن حدوثه لـ «دويتشلاند»، ولو حدث هذا لنظر العالم إلى «ألمانيا» بهزء وهي تغرق بخزي وعار. فأمر بتغيير اسم تلك البارجة إلى «لوتزوف».

في «فنلندا»: نزول الجيش السوفياتيّ إلى الميدان

في ذلك الحين كانت أحداث عميقة المدى تقع في الشرق، ذلك أن «روسيا» لم تتوانَ البتّة عن الإفادة من تحالفها مع «هتلر». فهنالك، على ضفاف «البلطيق»، تقوم دويلات ثلاث كانت سابقاً أقاليم في الامبراطوريّة القيصريّة: «استونيا»، وهي صغيرة جدّاً (عاصمتها «تالّين») و «ليتونيا» القويّة (عاصمتها «ريجا») و«ليتوانيا» الريفيّة (عاصمتها «كوفنو»). فهذه المراكز الأوروبيّة الأماميّة، المتشابهة والمختلفة في آن، كانت تبارك اليوم الذي حرّرها من سلطة «روسيا» معتبرة «ألمانيا» حارساً لاستقلالها. فما كان من «هتلر» إلاّ أن أعادها إلى سابق عهدها.

ومنذ ٢٨ أيلول فرضت «روسيا» على «استونيا» معاهدة للتعاون المتبادل. واستخدمت الخطّة نفسها مع «ليتونيا» في ٥ تشرين الأوّل، ومع «ليتوانيا» في ١١ تشرين الأوّل. وتشاورت الحكومات متناقشة بشأن الشروط، وجلّ مُناها أنّ تنقذ استقلالها الداخليّ على الأقلّ. ولكنّها لم تَنْجُ من الاحتلال العسكريّ، فحُوّلت جزيرتا «داجو» و «أوسي»، وحُوّل مرفأ «فندو» و «ليبو»، إلى قواعد عسكريّة

سوفياتيّة . وللمرّة الأولى دخل الجيش الأحمر مدناً غربيّة تنعم بالرخاء والغنى . وقد ترامى إلى دوائر الاستعلامات الحليفة تقرير أثار ضحكها : ففي « ريجا » ذهبت نساء الضبّاط الروس لحضور حفلة في الأوبرا وقد لبسن قمصاناً للنوم اعتقدن أنّها ثياب للسهرة !

بقي بلد بلطيقيّ واحد – نصف بلطيقيّ ونصف سكانديناڤي – لم يذعن للشروط السوفياتيّة ، هو « فنلندا » . وأهمّيّة « فنلندا » تفوق قليلاً أهمّيّة الدويلات الثلاث الأخرى : فهي تعدّ أربع ملايين نسمة ، وأرضها الشاسعة تنفذ إلى المحيط المتجمّد الشماليّ . وقد اكتسبت هذه الدولة خبرة طويلة بالروس ومقدرة وراثيّة على كسب احترامهم : فيوم كانت إقليماً قيصريّاً يمتدّ حتّى أرباض « سان بطرسبورغ » بقيت محتفظة بحرّيّتها السياسيّة وامتيازاتها العسكريّة . وفيما بعد ، عقب الاستقلال ، نشأ في « فنلندا » احتقار عميق للروسيّ المبلشف ، وراحت في الوقت نفسه تطالب بـ « كاريليا » بحجّة تقارب اللغة والعادات ، ذاهبة إلى أنّ « الامبراطوريّة الفنلنديّة » لا يحدّها إلاّ جبال « أورال » ولكنّ « الاتّحاد السوفياتيّ » كان يطلب من هذا البلد الفخور التخلّي عن قسم من ساحله الشماليّ ، فضلاً عن قاعدة عسكريّة في شبه جزيرة « هانجو » ، وتراجع حدوده لإعطاء « لينينغراد » بعض الفسحة .

ولو استجابت الحكومة لرغبة الشعب وحده لكان جوابها « لا » قطعاً . ولكنّها استجابت كذلك للعقل ، فرضيت بالتضحية ببعض الجزر ، ووجدت في « باسيكيوي » مفاوضاً محنّكاً قاوم « ستالين » وتمكّن من إضحاكه في آن معاً . وأمّا الروس فقد ألحّوا وهدّدوا ، وفي ٢٧ تشرين الثاني ، على أثر حادث حدود ، أعلنوا أنّ معاهدة عدم الاعتداء مع « فنلندا » قد وُقّعت . لم توقّع المعاهدة مع حكومة « هلسنكي » المغتصبة ، مع المارشال الرجعي « مانيرهايم » رئيس الجمهوريّة الفنلنديّة المزعومة ! بل وُقّعت مع حكومة المواطن « كوسينين » الشرعيّة التي كان « الاتّحاد السوفياتيّ » قد أقامها موقّتاً في بلدة صغيرة على مقربة من الحدود . ولقد طلبت هذه الحكومة نفسها من الروس أن يتدخّلوا لتحرير « فنلندا » ، فاستجاب الروس لرغبتها في ٣٠ تشرين الثاني بهجوم في برزخ « كاريليا » .

كانت عصبة الأمم ما تزال قائمة إلى حدّ ، بعد ما فقدت عضويّة « ألمانيا » و « ايطاليا » و « اليابان » ، وترمّلت بابتعاد « الولايات المتحدة » عنها منذ ولادتها ؛ كانت تعيش على ضفة بحيرتها الجميلة ، وعلى هامش الحرب الواسعة الناشبة ، فاتّهمت « الاتّحاد السوفياتيّ » بالعدوان . وتعجّب « الاتّحاد السوفياتيّ » ! فعلاقاته مع « فنلندا » لم تكن أفضل ممّا كانت علية في ذلك الوقت ، والبرهان أنّ « كوسينين » و « مولوتوف » قد وقّعا معاهدة صداقة . وبصراحة ، فإنّ « الاتّحاد السوفياتيّ » لا يفهم ما يقصدون ! وهكذا أُسقطت عضويّته . وأمّا عصبة الأمم فقد هلكت للحال وقد أنهكها هذا العمل .

وهناك في الشمال ، كانت الحرب قد ابتدأت ؛ كانت الخطّة السوفياتيّة الأولى بسيطة تتلخّص في السير رأساً إلى « هلسنكي » لتنصيب المواطن « كوسينين » فيها . واستخفّت القيادة الروسيّة بالتعبئة ، فاكتفت بتسيير وحدات عسكرية من « لينينغراد » . بيد أنّ المقاومة التي واجهتها سمّرتها في مكانها . لم يكن « لفنلندا » غير جيش نظاميّ مؤلّف من ٣ فرق تضمّ ٣٣،٠٠٠ رجل ، ومن ٦٠ دبّابة قديمة ، ومن ١٦٠ طائرة أكل الدهر عليها وشرب ! ولكنّ التعبئة الفوريّة لشعب كامل ضاعفت إمكاناته ، فإذا « بفنلندا » تجنّد أكثر من ٣٠٠،٠٠٠ رجل ، مشكّلة ٧ فرق جديدة و٨ ألوية ذات سيادة ذاتيّة لم يكن ينقصها غير تسليح على مستوى شجاعتها . وفي برزخ « كاريليا » ، هذه البقعة الجليديّة التي تمتدّ بين خليج « فنلندا » وبحيرة « لادوغا » ، جُهّزت سلسلة متواضعة من منشآت الجبهة مؤلّفة من حصون وملاجىء بُنيت من الحطب ، فعُرفت بخطّ « مانرهايم » . وقد صدّ هذا الخطّ الهجمات كلّها ، وأنزل الروس الدبّابات إلى الميدان ، ولكنّ المدافعين اهتدوا إلى نقطة الضعف في درعها المصنوع من صفائح كانت قوّة اندفاع المحرّك تحمّيها حتّى الاحمرار ، فراحوا يحرقونها بزجاجات البنزين . وبعد اسبوع توقّف الهجوم ، ودوّى اسم « فنلندا » في العالم دويّ الملاحم .

وعادت « روسيا » إلى استعداداتها العسكريّة ، فأسلمت المارشال « تيموشنكو » قياد الحرب ، واستدعت من « أوكرانيا » و « القفقاس » فرق النخبة . وإذ كان خطّ « مانرهايم » يقاوم ، فقد قرّر الجيش الأحمر مهاجمته من الواجهة الشرقيّة من « فنلندا » ، في المنطقة التي تمتدّ على ١،٦٠٠ كلم بين بحيرة « لادوجا » والمحيط المتجمّد الشماليّ ، مستخدماً تفوّقه في العَدد والعُدد . وزحفت عن طريق « مورمانسك » نحو الشمال ثلاثة جيوش هي الثامن والتاسع والرابع عشر ؛ وبدأ الثلج يتساقط ، فغدا النقل عمليّة لا نهاية لها ، ومات جنود كثيرون من البرد ضمن القاطرات ، ومع ذلك كلّه تمّ التمركز بسرعة نسبيّاً . وهذه المرّة أيضاً كانت الخطّة بسيطة : الغابات الفنلنديّة العميقة تخترقها طرقات عشر ، فتُسيَّر عبر كلّ واحدة منها فرقة روسيّة واحدة ، فرقة روسيّة ثقيلة مثقلة بالمدفعيّة والدبّابات ؛ وتتّجه هذه الفرق كلّها نحو الغرب ، فتأخذ خطّ « مانرهايم » القويّ من الخلف ، بينما يتمركز الجيش السابع قبالته .

في ١٧ كانون الأوّل بدا الجوّ وكأنّ الخطّة الروسيّة ستنجح ؛ فقد بلغ أحد الأرتال « كورسو » ، على طريق « كيميارفي » ، على ١٥٠ كلم من خليج « بوتني » ؛ وبلغ رتل آخر « سويوموسالمي » ، مفتاح القطاع الأوسط ؛ وكانت أرتال أخرى تتوغّل في منطقة بحيرة « لادوغا » . وواجهت الأركان الفنلنديّة احتمال إخلاء « لابونيا » ونقل الدفاع إلى خطّ يمتدّ بين « أولو » و « فيبوري » . وكان يبدو أنّ الساعات الأخيرة من المقاومة الفنلنديّة قد دنت .

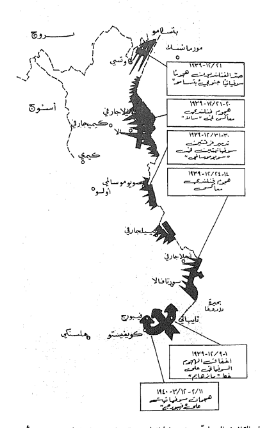
غير أنّ الذي طرأ على الوضع كان مفجعاً : كانت الأرتال السوفياتيّة المنتشرة على الطرقات الفاسدة عاجزة عن التقدّم ، بينما كانت العناصر الفنلنديّة السريعة ترهق جنباتها . أمّا الثلج المتراكم ، والأشجار الباسقة الغضّة ، وجذوع الأشجار المقطوعة المسنّنة ، فقد كانت تشلّ حركة الدبّابات . وكان الفنلنديّون قد ارتدوا ثياباً بيضاء ، وانتعلوا المزالج ، واتّخذوا الحليب غذاءهم الوحيد ، وراحوا يقطّعون قوافل الدبّابات التي تغامر القيادة السوفياتيّة بإرسالها . وعلى طريق « سويوموسالمي » دُمّرت فرقة المشاة الـ ١٦٣ بكاملها . وإذ أُرسلت الفرقة الـ ٤٤ لإنقاذها ، وهي واحدة من أفضل فرق الجيش الأحمر ، واجهت المصير نفسه . وكانت وحدات الجيش الثامن تحاول الالتفاف حول بحيرة « لادوغا » ففُصلت عن مؤخّراتها وأُبيدت الواحدة تلو الأخرى . واستقر الروس في بقاع جرداء من الغابة ، موقفين دبّاباتهم في شكل دائرة ، وراحوا يموتون بثبات من البرد والجوع . ولم يأسر الفنلنديّون جملةً أكثر من ألفي جنديّ ، ولكنّهم كانوا يلتقطون الأحياءَ واحداً واحداً بعد أن يكون الضعف قد أسقط الأسلحة من أيديهم .

وكانت الرسائل أكثر المغانم قيمةً : فقد وجد الفنلنديّون مع الأسرى وفي جيوب القتلى آلافاً من الرسائل ؛ كان أكثر الجنود من الفلاّحين وكانت تلك الرسائل تتحدّث إليهم عن وسائل العيش الصعبة . ومن

بين كلّ ثلاث منها كنت تجد اثنتين على الأقلّ تتحدّثان عن البقرة ، البقرة التي لم يبقَ بالامكان إطعامها ، أو البقرة التي ستبيعها العائلة لشراء القوت . فكأنّ الشقاء الروسيّ قد تجسّد في ساحة القتال الغريبة تلك . حيث كان أبناء الأرض الروسيّة يؤثرون الموت بأفظع مظاهره على الاستسلام .

وفي العالم كان الإعجاب « بفنلندا » عظيماً ، ولكنّ اللهفة لمساعدتها لم تكن شديدة . كان من المنتظر أن يسفر التضامن السكاندينافي عن تدخّل « اسوج » . ولكنّ « اسوج » كانت تقدّم المال والسلاح وتسمح بتنظيم فرق المتطوّعين ، وترفض التخلّي عن الحياد المقدّس . وقدّمت « الدانمرك » ٨٠٠ متطوّع ، و « نروج » ٢٠٠ بينما قدّمت « المجر » ضعف هذا الرقم . ولكن التضامن السكاندينافيّ ههنا لم يُجدِ فتيلاً ، فالمحاربون وحدهم يستطيعون مساعدة « فنلندا » : وفي الواقع كان كثيرون من الألمان يتحرّقون شوقاً للمساعدة ، بيد أنّ « هتلر » لم يكن ليستغني عن التحالف الألمانيّ السوفياتيّ . غير أنّ مثل تلك القيود لم تكن لتكبّل أيدي « فرنسا » و « انكلترا » : لقد أثّرت فيهما الخيانة الستالينيّة إلى أقصى حدّ ، فباتتا تعتقدان أنّ « ألمانيا » إنّما تجد سبيلا للخلاص من حصارهما بفضل خزّانات الموادّ الأوّليّة الروسيّة . فمساعدة « فنلندا » إذاً تعني إضعاف « الاتّحاد السوفياتيّ » ، وبالتالي تقويض « هتلر » .

وقد أتى الاعتبار الستراتيجيّ يقوّي العطف الغربيّ على الفنلنديّين الأبطال ؛ كانت مساعدة « فنلندا » تشكّل ذريعة للحلفاء للاستقرار في « سكندينافيا » : فالسيطرة على « اسوج » تحرم « ألمانيا » من معدن الحديد الذي لا غنى لها عنه ، والسيطرة على « نروج » تجعل الحصار مُحكماً . وفي ١٢ كانون الأوّل كتب « تشرتشل » مذكّرة بليغة حثّ فيها على توثيق عرى التحالف ، وأيّد إنزال قوّات في « نروج » ضارباً

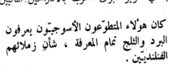


بشروط القانون الدوليّ عرض الحائط . وقد اختتمها بقوله : يجب أن نتّخذ من الإنسانيّة ، لا من الشرعيّة ، حَكَماً .

ولكنّ الأفكار كانت تختمر ببطء في شتاء ٣٩ــ٤٠ الجليديّ . والعمل الإيجابيّ الوحيد الذي قامت به « فرنسا » و « انكلترا » بالنسبة « لفنلندا » هو تزويدها بالأسلحة . ويا لها من أسلحة غريبة عجيبة ! فقد أخرجت « فرنسا » من مخازن مخلّفاتها ٥،٠٠٠ بندقيّة رشّاشة فاسدة من صنع ١٩١٥ ، ومعدّات مدفعيّة طراز « ذي بانج » كانت قد حُسّنت سنة ١٩١٤ . وأرسلت البحريّة ١٢ مدفعاً عتيقاً عيار ٣٠٥ من مخلّفات اسطول « رانجل » كانت مطروحة للصدأ على أرصفة « بنزرت » منذ ١٩٢٠ . وقدّمت « انكلترا » بعض مدافع الهاون من طراز « برانت » ، و ٢٥ مدفعاً مضادّاً للدبّابات ، وبعض البنادق الرشّاشة طراز ٢٤ ، وبعض الطائرات . ولكنّ شعور الخيبة الذي أحدثته تلك الأسلحة في « فنلندا » كان كبيراً .

وفي الأركان بدأت المشاريع الضخمة تبرز إلى حيّز الوجود ؛ كان الشعور السائد أنّ « ألمانيا » ثابتة لأنّها تتوكّأ على « روسيا » ، وأنّ حرب « فنلندا » قد أظهرت ضعف « روسيا » ، فكان يمكن بالتالي تقرير مجرى الحرب بالاقتراحين التاليين : القضاء على « ألمانيا »





كان هؤلاء المتطوّعون الأسوجيّون يعرفون البرد والثلج تمام المعرفة ، شأن زملائهم الفنلنديّين .

جثث الجنود السوفياتيّين في الجليد ، وقد قبعت الدبّابات قربها عاجزة .



بالقضاء على « روسيا » ! وأوعز « دومنك » ، الرئيس الجديد لأركان الجيش الفرنسيّ ، بدرس الإمكانات المناسبة . وقد بحث على هذا الضوء احتمال قصف « باكو » لاستنزاف البترول الروسيّ ، واحتمال دفع شعوب « القفقاس » إلى العصيان ، ومهاجمة « مورمانسك » وإنزال لواء أو لوائين من قنّاصة الجبال . وقد دُوِّنت هذه التخيّلات النابوليونيّة الصبيانيّة في وثائق عسكريّة دقيقة ، ولكن هوائيّة .

وأتت محاولات تقدير قوّة الجيش الأحمر ، على ضوء معارك المصفّحات أكبر تقنيّة وعلماً ، إن لم نقل أكثر رصانة . وسنكتفي بذكر الاستنتاجات التي تضمّنتها دراسة الأركان الألمانيّة المقدّمة إلى الفوهرر ، نظراً لما كان لها من تأثير على مجرى الأحداث في المستقبل :

« من حيث الكميّة : جهاز عسكريّ جبّار . التنظيم والعتاد وأساليب القيادة : بين بين . مبدأ القيادة : جيّد . القيادة نفسها : فتيّة ، تنقصها الخبرة . الاتّصال والاشارة : سيّئان . قاعدة النقل : سيّئة . الجيوش : متفاوتة ، مجرّدة من روح المبادرة . الجنود العاديّون : روح جيّدة ، يكتفون بالقليل القليل . مزايا الجند القتاليّة : مشكوك بها . والرصيد : أنّ الأمّة الروسيّة ليست خصماً قويّاً في وجه جيش مجهّز وفقاً للطريقة الحديثة وذي قيادة متفوّقة . »

تاريخ هذا المستنَد : ٣١ كانون الأوّل ١٩٣٩ . وهنا تنتهي سنة التمهيدات المخيّبة ليُرفع الستار عن سنة المفاجآت الرنّانة .



أوّل وثيقة وصلت إلى « الولايات المتّحدة » تشهد على تدمير الفنلنديّين الفرقة الرابعة والأربعين السوفياتيّة .

كانون الثاني - أيار ١٩٤٠

ليلة السلاح

في الغرب كانت الحرب في حالة ركود أكثر من أيّ وقت مضى .
ولكنّ الجهاز العسكريّ قد أطلق الآن بكـــامله .

كان المجهود العسكريّ الفرنسيّ لا يقصّر عن المجهود المبذول سنة ١٩١٤ ؛ فقد جنّدت « فرنسا » خمسة ملايين رجل ، أي ثمن مجموع سكانها، وهي نسبة ضخمة، بل مفرطة، متى اعتبرنا حاجة صناعة الأسلحة لليد العاملة . ثمّ انّ العجز في الولادات ، وفقدان الكثيرين في المجزرة السابقة ، ينعكسان بوضوح على الإحصاءات العسكريّة الفرنسيّة . يقول إحصاء أعدّ بتاريخ ١ آذار ١٩٤٠ إنّ ملاكات جيش البرّ قد نقصت ٤١٥,٠٠٠ رجل عمّا كانت عليه في ١ أيار ١٩١٧ .

في بداية الحرب جهّزت « فرنسا » ١٠٨ فرق أو قطاعات حصون . وكانت كلّ فرقة تتضمّن مجموعة للاستطلاع ، و٣ أفواج للمشاة، وفوجين للمدفعيّة ، وسُمّيت ٦٥ فرقة فرقاً مقاتلة : ٢١ منها عاديّة للمشاة، و٤ من مشاة المستعمرات، وفرقتان خفيفتان آليّتان، و٥ للخيّالة ، و٢١ فرقة أو قطاعات حصون . أمّا الباقية ففرق تشكيلات ، ٦ منها في « أفريقية الشماليّة »، و٣٧ في « فرنسا » . وتنقسم هذه الفرق الأخيرة فئتين : ١٩ من الفئة «أ» كوّنت حول الخلايا العاملة الناشطة ، و١٨ من الفئة «ب» لا يتمثّل فيها الجيش العامل إلاّ برؤساء القطع . ومن أجل أن تكسب الوحدات الكبيرة تجانساً وتماسكاً في خطّ النّار كان يجدر أن تخضع لتدريب قاسٍ ، ولانضباط صارم .

أمّا وحدات الخدمة التي تكمل الجيش الفرنسيّ المعبأ فكان عددها يفوق الحصر . وإليك فيما يلي تعداداً جزئيّاً يزوّدنا بفكرة عن التنظيم القويّ وعن المعدّات الفائضة التي خاضت بها « فرنسا » القتال : ٤٠ كتيبة دبّابات ، ٨ سريّات لنقل الدبّابات ، ١٩ كتيبة رماة رشّاشات ، ٧٨ كتيبة و ٥ أفواج للمشاة غير فرقيّة ، ٥٦ فوج مدفعيّة ، ١٠١ بطّاريّة مواقع و٧٨ بطّاريّة متحرّكة لمدفعيّة الحصون ، ١٨٨ سريّة تنقل بالسيّارات ، ٣٢ سريّة تجرّها الخيل و ٢٧ سريّة بغّالة ، ٤ أفواج خيّالة هجوم ، ٨ كتائب نقّابين - لغّامين ، ٧ كتائب مرمّمي طرقات ، ١٢ قسماً كهربائيّاً ، ٢٢ فريق جسور ، ١٧ وحدة جسور ثقيلة ، ٩ سريّات بحريّة ، ١٦ كتيبة نقّابي خطوط حديديّة ، ٨ سريّات لتركيب الأكواخ الخشبيّة ، ١٠ سريّات من اختصاصيّي الغابات، ٣٣ مجموعة إشارة، ١٤ مخبزاً للميدان ، ٦٠ سريّة من موظّفي الإدارة وعمّالها ، الخ . . .

ومن ناحية الوزن كان سلاح هذا الجيش يفوق سلاح الجيش الألمانيّ : فالمدفعيّة أغزر بكثير ، وهي في مجملها أقوى بكثير ، ولكنّ معظمها من مخلّفات ١٩١٨ ، وطريقة استعمالها تتناسب وحرب الخنادق والمواقع . وكانت معدّات المدفعيّة المضادّة للطائرات غير كافية ،



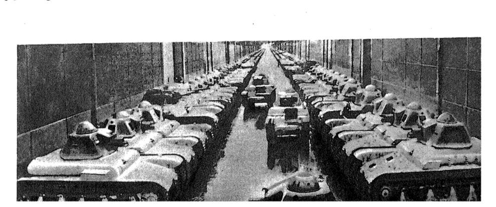
نيسان ١٩٤٠ : « ما العدوّ إلاّ هذا الضّجر .. »
(بول فرلين)

على الرغم من أنّها تضمّ أفضل مدفع عصريّ مضادّ للطائرات وهو من عيار ٩٠، ولكنّ لم يُصنعْ منه غير بطّاريّات معدودة بسبب التطاحن السخيف القائم بين جيش البرّ والبحريّة . وقد تضمّن سلاح الدفاع ضدّ المصفّحات نوعين من المدافع : مدفعاً جيّداً من عيار ٢٠ ومدفعاً من عيار ٤٧ يُعتبر بحقّ أفضل أسلحة نوعه . وكانت أسلحة المشاة مرضية ، وهي تتضمّن بنادق من طراز عتيق ، وبنادق رشّاشة ممتازة ، ورشّاشات ثقيلة جيّدة من الحرب السابقة ، ونوعين لائقين من مدافع الهاون . إلاّ أنّ المشاة الفرنسيّين كانوا محرومين من المسدّسات الرشّاشة ، وهي أسلحة الاشتباك ، ومن السلاح الدفاعيّ المثاليّ ، ألا وهو اللغم الأرضيّ المضادّ للأشخاص الذي كانت صناعته سهلة كصناعة صحون التنك ! وثمّة نقائص أخرى ناجمة عن العقليّة السائدة في الجيش الفرنسيّ : فقد استولى الألمان فيما بعد على مخزونات هائلة بينما كان المحاربون تنقصهم الثياب والأحذية والأغطية وأجهزة قياس البعد وغيرها ! . .

وتُعتبر المقارنة في مجال الدبّابات طريفة؛ ولكنّ ضابط الأركان الذي أُوكل إليه أمرها في مطلع سنة ١٩٤٠ لم يكن يشعر بأيّ قلق إذا ما أخذ قوّة المحرّكات وحدها بعين الاعتبار ؛ ففي كلّ فئة كانت المصفّحات الفرنسيّة أقوى درعــاً وأحسن تسليحاً من الدبّابـات الألمانيّة : فسيّارات الرشّاشات من وزن ٧ أطنان ، وتلك التي من وزن ١٢ طنّاً ، تتفوّق بسهولة على الـ « بـز.كـ و١ » و « بـز.كـ و٢ » الألمانيّة ، وسيّارات الرّشّاشات من وزن ١٥ طنّاً ، والـ « د ١ » من وزن ١٦ طنّاً ، والـ « سوموا » ووزنها من ٢٠ إلى ٢٢ طنّاً ، تضاهي الـ « بـز.كـ و٣ » . وأمّا في الفئة الأثقل فالدبّابات الألمانيّة « بـز. كـ و٤ » (وزنها ٢٠ طنّاً وكثافة صفائحها ٤٠ مم) أضعف بكثير من دبّابات ٣٣ – ٣٠ طنّاً ، وهي دون مستوى الـ « ب ١ » ، و«ب ١"» التي تبلغ كثافة تصفيحها بين ٦٠ و٧٠ مم . ومميّزات المصفّحات الألمانيّة الوحيدة هي بعض التفوّق في السرعة ، ومدى أوسع في العمليّات . وبالنسبة للعدد فالمقارنة مشرّفة : فقد أكّدت الوثائق القاطعة أنّ « ألمانيا » لم تنزل قطّ إلى الميدان الـ ٨،٠٠٠ دبّابة التي ذُكرت في محاكمة « ريوم » ، حتى ولا الـ ٥٢٩٠ دبّابة التي ذُكرت في تقدير لاحق . فهنالك وثيقة أركان ألمانيّة ، مجرّدة من الغرض والهوى، تذكر بالتفصيل عدد الدبّابات التي استُخدمت في ١٠ أيّار ١٩٤٠ وأنواعها : المجموع ٢٥٧٤ ، بما فيها دبّابات الإشارة والقيادة، منها ٢٧٨ من فئة « بـز.كـ و٤ » . وأمّا الفرنسيّون فقد استخدموا ، فضلاً عن مخلّفات الحرب العالميّة الأولى ، ٢٤٧٥ دبّابة ، منها ٢٧٠ من فئة «ب» وزن ٣٥ طنّاً ، يضاف إليها ٢٤٠ سيّارة رشّاشات مقاتلة و ٦٠٠ مصفّحة انكليزيّة على وجه التقريب . وبذلك أمّن الفرنسيّون التفوّق من جهة عدد المصفّحات وتصفيحها ووزنها ومدفعيّتها . ولكنّ هنالك عوامل أخرى ستؤدّي إلى سحقهم .

وإذ نتطرّق إلى الميدان الجوّيّ نرى أنّ المقارنة ليست في صالح الفرنسيّين : فالطيران الفرنسيّ كان قد بدأ يتسلّق المنحدر الذي كان يتردّى فيه حتى عام ١٩٣٨ ، ولكنّه كان ما يزال بعيداً عن مضاهاة طيران « هتلر » . وهل كان له أن يضاهيه ؟ فقد اعترف « ادوار دالاديه » بالواقع قائلاً : « في بلد يبلغ عدد سكّانه ٤٠ مليوناً يصعب قيام جيش كبير ، وبحريّة كبيرة ، وطيران كبير ، في آن معاً » .
وهنا تنطق القوّة الصناعيّة بالبرهان : فبين ١٩٣٧ و١٩٣٩ أنتجت « ألمانيا » ٤٧٤،٠٠٠ طنّ ألومينيوم ، في حين أنتجت « فرنسا » منه ١٤٠،٠٠٠ طنّ ؛ وأنتجت « ألمانيا » ٦٥ مليون طن من الفولاذ ، ولم تنتج منه « فرنسا » غير ٢٠ مليوناً . ولم يكن من سبيل للّحاق « بألمانيا » إلاّ بتنسيق مناهج التسليح الفرنسيّة الانكليزيّة منذ أيّام السلم ، واللجوء إلى المساعدة الأميركيّة . ولكنّ التنسيق لم يتمّ . وحين أوصى وزير الجوّ الفرنسيّ الصناعة الأميركيّة على طائرات أُصيب بالخيبة المريرة : فقد كانت طاقة المصانع ضعيفة ، وكان الإنتاج بطيئاً ، وكانت العقبات الإداريّة جمّة؛ وأخيراً، بسبب تصويت « كونغرس » جاهل مانع في قضيّة الأسلحة ، جُمّدت دفعة من الطائرات مؤلّفة من ١٠٠ مطاردة من طراز « كورتيس » ب – ٣٩، و٢١٥ قاذفة قنابل من طراز « جلن مارتن » كانت جاهزة : « فأميركا » تحرّض « فرنسا » و « انكلترا » على القضاء على الهتلريّة ، وإذا بها تستتر بحيادها فترفض أن تقدّم لهما يد المعونة .

وإذا أحصينا القوّات الجوّيّة الفرنسيّة البريطانيّة ، اكتشفنا أنّ ضعفها النسبيّ، مجتمعة، أقلّ ممّا ظُنّ فيما بعد استناداً إلى تصريحات جنود أقسموا بأنّهم لم يشهدوا قطّ طائرةً صديقة واحدة تحلّق في السماء . فقد توافر « لإنكلترا » و « فرنسا » ، في بدء معركة أيّار ، ٣،٤٥٠ طائرة حديثة ، نصيب « فرنسا » منها ١،٧٣٠ ، مقابل ٤،٥٠٠ طائرة ألمانيّة تقريباً . ولكنّ الجمع عمليّة خادعة . فأكثر القانصات البريطانيّة ، وخصوصاً السبيتفاير الحديثة ، كانت موقوفة للدفاع عن « انكلترا » ، ولم يكن من شأنها التدخّل في معارك القارّة . أمّا من الناحية الفرنسيّة فقد كانت تشكيلات القصف ضعيفة للغاية ، والقصف الانقضاضيّ الذي لم تكن القيادة تؤمن به لم يكن إذ ذاك معروفاً إلاّ على شكل نماذج؛ وسيلاحظ بذهول أنّ جزءاً هامّاً من إمكانات الطيران الفرنسيّ لم يُستخدَم ، وأنّ عدد الطائرات الجاهزة كان في ٢٤ حزيران ، أي في تاريخ الهدنة ، أهمّ ممّا كان عليه في ١٠ أيّار .
ولكنّ أهمّ ما شكا منه الجيش الفرنسيّ هو تقصير في أدمغة قوّاده . فدستور القيادة المقدّس كان يقول بوضوح إنّ الحرب



ما من شكّ في أنّ « فرنسا » كانت تملك الكثير من الدبّابات . ولكنّ وجهات النظر في طرق استعمالها كانت متضاربة .



« ليس للدبّابة أن تشكل خطراً وهي التي تجري بلا هوادة كاليهودي التائه » .
(الجنرال شوفينو)

المقبلة ستكون امتداداً للحرب السابقة . ومن مبادئه : « إنّ مجموعة المبادىء التي وضعها ، عقب الانتصار ، قوّاد بارزون ، يجب أن تبقى الوثيقة الكبرى في استخدام وحداتنا استخداماً فنياً » . فلا يحقّ للدبّابات خصوصاً أن تخدع أحداً : « فالسلاح المضادّ للدبّابات ينتصب في وجهها كما انتصبت الرشّاشات ، خلال الحرب الماضية ، في وجه المشاة » . وإذا حاول العدوّ فرض حرب الحركة والسرعة فالمعتقد السائد أنّه لن يتمكّن من ذلك بفضل ميدان القتال المحصّن ، وبفضل النيران المتراصّة المنويّ صدّه بها . وهكذا نجد بعض المنطق في أن ترفض القيادة الفرنسيّة الاتّعاظ بحملة « بولونيا » . ثمّ ، أيّة منفعة ترُجى من تعكير أذهان المنفّذين وإشاعة الشكّ في تفوّق المبادىء التي يُطلَب منهم تطبيقها ؟ !

على أنّ الآراء لم تُعْدَم ؛ فمنذ ١٩٢١ رسم الجنرال « إتيين » ، الملقّب « بأبي الدبّابات » ، صورةً سبّاقة دقيقة لما ستكون عليه حرب المصفّحات التي سيشنّها الألمان بعد عشرين سنة . وحوالي ١٩٣٠ أخرج بعض المجدّدين الدبّابة من إطار المشاة الضيّق ، وبعد محاولات متعدّدة أنشأوا الفرقة الآليّة الخفيفة ، ابنة الخيّالة ، ولكنّها بقيت أداة استطلاع أكثر منها أداة قتال . والنسخ الثلاث التي كانت جاهزة في أيّار ١٩٤٠ بقيت أفضل ما زُوّد به الجيش الفرنسيّ .

أمّا الجدل الحادّ فقد دار حول جيش المصفّحات ؛ ففي ١٩٣٥ طالب به الكولونيل « ديغول » في كتابه « في سبيل جيش محترف » : طالب بـ ٦ فرق مصفّحة يضمّ كلّ منها ٥٠٠ دبّابة قادرة ، في حال خرق المعاهدات ، على أن تحمل الحرب فوراً إلى أرض العدوّ . وفي ١٥ آذار ١٩٣٥ حمل « بول رينو » النظريّة الديغوليّة إلى منصّة المجلس النيابي طالباً الأخذ بها . إلاّ أنّ نوّاب الأمّة كانوا يتعمّدون تجاهل القضايا العسكريّة متّكلين على كفاءة الأركان . ولم يجد « دالادييه » ، الناطق باسم المجلس ، أيّة صعوبة في رفض الطلب .

وبلغت مقاومة مناوئي السلاح المصفّح عنفاً ملحمياً . فالحصان ، رفيق الإنسان القديم في الميدان ، قد وجد طغمة من هواة الخيل تصطفّ إلى جانبه مفضّلة الوقود القوميّ ، أي الشعير ، على الوقود المستورَد ، أي البنزين ! وقد أثبت هؤلاء بالبُرهان ، معتمدين على تجربة محققة ، أنّه يستحيل استخدام الوحدات الآليّة الكبيرة التي يطالب بها الحالمون ، لأنّ ألوف العربات التي تضمّها تمتدّ على الطرقات أرتالا تبلغ ١٠٠ كلم طولا . وإذ هبّ الجنرال « شوفينو » ، وهو أحد أساتذة المدرسة الحربيّة للردّ على « ديغول » ، وجد في المارشال « بيتان » ، ممثّل أعلى سلطة عسكريّة فرنسيّة ، شخصاً موافقاً يقدّم لكتابه « هل الاجتياح ممكن بعد ؟ » وقد أتى الجواب عن هذا السؤال واضحاً في قول « شوفينو » : « ليس للدبّابة أن تشكّل خطراً ، وهي التي تجري بلا هوادة كاليهوديّ التائه » . ويستشهد قولَ « بيتان » : « ليست الجبهة المتماسكة عرَضاً زائلاً يمكن التخلّي عنه كما يُتخلّى عن عادة ضارّة » ، ويشيد بمقدرة البلاد على صدّ أيّ عدوّ يطمع في اغتصاب حدودها على أنّها « أفضل ضمانة للسلم » . وقد طُبع الكتاب في « فرنسا » ، نيسان ١٩٣٩ !...

وأتت محاضر المناقشات التي جرت في المجلس الحربيّ الأعلى حول إنشاء فرقة مصفّحات (٢٩ نيسان ١٩٣٦ ، ١٥ كانون الأوّل ١٩٣٧ ، ٢ كانون الأوّل ١٩٣٨) تُظهِر بجلاء ما ولّدته تيك « البدعة » ، في قيادة عليا محافظة ، من مخاوف عائدة إلى إمكانيّة فقدان السيطرة على توجيه القتال بسبب مجموعة لا تتكيّف بسهولة وفقاً لتجزئة الوحدات الكبرى التقليديّة . ويطرح الجنرال « دوفيو » السؤال التالي : « ماذا يحصل لو امتدّ عمل فرقتكم المصفّحة إلى جبهة تفوق جبهة فيلق ؟ » كان القانون الخاص باستخدام الدبّابات يعتبرها ، بكثير من الحذر والدقّة ، خادمة مسخّرة ، ويجزم بأنّها « جزء لا يتجزّأ من جهاز المشاة » ، وأنّها ليست إلاّ « جهازاً إضافياً وُضع في خدمة جيش المشاة بصورة موقّتة » ، وأنّ اتّصالاً « وثيقاً مستمراً » لا بدّ منه ، وأن أفضل طريقة لتأمينه هي « إخضاع وحدات الدبّابات لقوّاد المشاة ... » . تلك كانت مبادىء القتال النظاميّ الرصين الذي يسهل الإشراف عليه من بعيد ، انطلاقاً من مراكز القيادة الواقعة خارج نطاق النّار ؛ تلك كانت المبادىء التي أتى بعض المجدّدين « المتهوّرين » يهدمونها ، ذاهبين إلى حدّ إركاب الجنرالات في عربات للقيادة مصفّحة ، وحتّى في طائرات ، كي تتسنّى لهم مشاهدة القتال ، فعل « بونابرت » في « أركول » ! أضف إلى ذلك أنّ العنوان الذي أطلقه « ديغول » على كتابه أتى يزيد في إثارة النفور . ثمّ إنّ القوّاد القدامى رأوا أنّهم سيكونون مُبعَدين في قيادة جيش ثانويّ فيما يعتز القوّاد الجدد بقيادة الجيش الآليّ ، ولذا تشبّثوا بكتائب الدبّابات ، سلاح الحرب الرزينة القويّ المطواع . ومع هذا كلّه رأت القيادة الفرنسيّة ، بعد سحق « بولونيا » ، أنّه لا بدّ من القيام بعمل ما ، فأمرت في ١٦ كانون الثاني ١٩٤٠ بإنشاء فرقتين من المصفّحات ، ثمّ أنشأت فرقة ثالثة في ٢٠ آذار ، وفي أسابيع قلائل برزت من العدم تلك الوحدات الآليّة الثقيلة التي طال حولها الجدل العقيم سحابةَ سنوات ، واصطفّت إلى جانب فرق الآليّات الخفيفة ، لتشكّل ما يشبه جيش المصفّحات المقاتل الذي كان يطالب به « هراطقة » ما قبل الحرب . ولكن شتّان ما بين هذه وتلك في الروح والتنظيم والأهداف ! لم تكن فرق المصفّحات الفرنسيّة أسلحة تقرير مصير يصلح استغلالها حربياً شأن



الملك « جورج السادس » والجنرال « غاملان » في الجبهة ، في ١١ كانون الأوّل ١٩٣٩ .

فرق « غوديريان » ، بل كانت أعتدة صالحة للمقاومة ولإعادة تنظيم الجبهات .

كان الجيش الألمانيّ حديث عهد ، وليد أمس ، ولكن سرعان ما خرجت براعمه وراح ينمو ! حتّى أنّ الكابتين « غلين » ، المكلّف بمراقبة تنظيم جيش العدوّ في مقرّ القيادة الفرنسيّة العامّة ، اتُّهم بالهوس لكثرة ما كان يعدّد من الفيالق الألمانيّة الجديدة . إلاّ أنّ تقديراته كانت غاية في الدقّة : ففي ١٠ نيسان ١٩٤٠ ذكر أنّ على الجبهة الغربية ١٣٧ فرقة ألمانيّة ، وأثبت الواقع أنّها كانت تبلغ ١٣٦ فرقة ونصفاً ! أمّا من الجانب الفرنسيّ فقد كانت إنشاءات الشتاء تافهة ، يُضاف إليها فرقتان بولونيّتان . وفيما كانت « ألمانيا » تغرف رجالها من خزّان لا ينضب ، رأينا « فرنسا » وقد استنفدت عمليّاً ثروتها البشريّة كلّها .

وأكبر مساعدة تلقّاها « غاملان » كانت المساعدة البريطانيّة ؛ وقد ارتفع عدد فرق الحملة البريطانيّة من ٤ في أيلول ، إلى ١١ في أيّار ، فبلغ عدد أفراد الحملة إذ ذاك ٣٩٤,١٩٥ رجلاً . وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا العدد يفوق ما كان السير « جون فرنش » قد قدّمه « لجوفر » سنة ١٩١٤ ، ولكنّه أقلّ بكثير ممّا وضعه السير « دوغلاس هيغ » تحت تصرّف « فوش » سنة ١٩١٨ . وهكذا نرى أن المجهود العسكريّ الذي بذله كلّ من الحليفين كان لا يزال متبايناً : فبينا جنّدت « فرنسا » واحداً من ثمانية من سكّانها ، لم تجنّد « انكلترا » غير واحد من أربعين .

إستقرّت قوّات الحملة البريطانيّة في قطاع يقع شرقيّ « ليل » ، بين « مولد » و « هلوان » ، فيما استقرّت قيادتها في « آراس » . أمّا مشكلة القيادة الموحّدة ، التي كاد أمر حلّها يستعصي أثناء الحرب العالميّة الأولى ، فلقد حُلّت بسهولة ، إذ قبل الجنرال فيكونت « غورت » فوراً بأن يكون خاضعاً لأوامر « غاملان » . وراح « غورت » ، وهو مثال حيّ للتفاؤل ، يرسل إلى « لندن » محاضر حافلة بالرضى ، إلاّ أنّ مساعديه السير « جون ديل » و « ألان بروك » كانا يمتازان بنظرة ناقدة ثاقبة . وهكذا رأينا الثاني لا يفتأ يذكر للسيّدة « بروك » ، في كتاب يوميّاته ، بوادرَ التخاذل التي يلمحها في الجيش الفرنسي ؛ ومن ملاحظاته : « دعاني « كوراب » لزيارة الجيش التاسع . شدّ ما صدمني مشهد الجند الذين عرضوهم أمامي ! رجال لم تُحلق ذقونهم ، خيل مهملة ، بزّات وبراذع غير محكمة ، عربات قذرة ، وافتقار كلّيّ إلى الروح العسكريّة . وعندما صدر الأمر بالتحيّة « الرأس ، يساراً ! » لم ينصع للأمر غير بعض الرجال هنا وهناك ... » أمّا وجبات الطعام التي كانت تُقدّم في مراكز القيادة الفرنسيّة فكادت تتخمه : « ٣١ تشرين الأوّل : غذاء مع الشامبانيا . لزمنا المائدة حتّى الساعة الثالثة ؛ سلّور ، جراد البحر ، فراريج ، باتيه طيور ، أجبان ، مثلّجات ، فاكهة ، مشروبات ، الخ ... هؤلاء الرجال النهمون يفسدون معدتي ويزعجونني في عملي... » .

أمّا أخطر أسباب الضعف الفرنسيّ وآخرها فكان تنظيم القيادة : لا شيء في « فرنسا » يشبه المركزيّة التي توفّرها « لألمانيا » القيادة العليا فضلا عن مزاج « هتلر » . سينعم « الاتّحاد السوفياتيّ » بمثل تلك المركزيّة عند حصر السلطات في يدي الجنرالسيم « ستالين » ، وستنعم « انكلترا » و « أميركا » برؤساء ذوي سلطة مطلقة ، الأولى بفضل شخصيّة « ونستون تشرتشل » الفذّة ، والثانية بفضل دستور « الولايات المتّحدة » الذي يجعل من الرئيس قائداً عامّاً للجيوش . ولن يشذّ عن مبدإ الخلاص العامّ هذا غير « فرنسا » !

هناك وزارة للدفاع الوطنيّ هي وزارة الحربيّة سابقاً ، وهناك رئيس حكومة هو « إدوار دالادييه » . وغنيّ عن البيان أنّ فكرة تمتّعه بالقيادة العليا على غرار « هتلر » أو « روزفلت » أمر لا يتلاءم والمفاهيم الفرنسيّة . وهنالك الجنرال «غاملان» ، ولكنْ ما من عالم في المشاكل العسكريّة كان يستطيع تحديد صلاحيّاته . هو رئيس لأركان الدفاع الوطنيّ ، وبصفته هذه يُفرض أن تكون قطاعات القوى العسكريّة الثلاث تحت إمرته . ولكنّ شيئاً من ذلك لم يكن : فالبحريّة والطيران مستقلاّن لا يطيقان عن استقلالهما بديلاً . ثمّ أنّه ، بصفته قائداً أعلى للقوّات البرّيّة ، كان يمكن أن يكون « كجوفر » في ١٩١٤ ، الرئيس الأوحد على الجبهة الرئيسة ، الجبهة الشماليّة الشرقيّة . ولكنّ الأمر لم يكن كذلك : فقائد الجبهة الشماليّة الشرقيّة الأعلى كان الجنرال « جورج » ، فلا بدّ أن يكون « جورج » سيّد مسرح العمليّات في قطاعه . ولكن لا ! فقد احتفظ « غاملان » لنفسه بحق إجراء تنقّلات الضبّاط الكبار ، فأقام مع مرؤوسي « جورج » علاقات مباشرة لا تتمشى ومبادىء التسلسل في الرتب . إذاً ، كان للجيش الفرنسيّ قائدان أعليان ، ومعنى ذلك أنّه كان بلا قائد .

وتمتدّ هذه البلبلة إلى الأركان ؛ فمنذ شهر كانون الثاني ١٩٤٠ انفصلت أركان « جورج » عن أركان « غاملان » ، فبقيت الأولى في « لافرتي — سو — جوار » ، فيما انتقلت الأخرى ، إلى جوار « مو » . وحلّ « غاملان» نفسه في حصن « فنسين » ، على أبواب « باريس » ، حيث يكمن الخطر ، أعني بالقرب من الحكومة والبرلمان والصالونات السياسيّة . إنّها لإقامة كئيبة ، وإنّه لجوّ قاتم : فسراديب الحصن القديم ترشح بالنطرون والسأم ، أمّا حُفَره فلقد شهدت قوافل المحكومين بالإعدام ، من الدوق « دنجين » إلى « ماتاهاري » . ولم يكن لحصن « فنسين » محطّة راديو ، حتّى ولا برج حمام في زمن كانت الرؤوس

الفرنسيّة الكبيرة فيه ما تزال تؤمن بالحمام الزّاجل ! وعندما اقترح أحد الضبّاط استعمال الآلة اللاقطة الطابعة سئل عمّا إذا كان يعتبر الأوامر العسكريّة نتائج سباق الخيل ! ولسوف يدرك الشعب الفرنسيّ في شهر أيّار مدى تلك العزلة وذينك الجهل والعجز التي اكتنفت الرجل الذي ظنّ أنّه يتولّى إمرة الجيوش .

ظنّ الكثيرون ممّن تقرّبوا إلى « غاملان » أنّ الرجل كان يخفي تحت مظاهر العذوبة والمداهنة معرفةً صادقة للواقع ، وإدراكاً لهول التفوّق الألمانيّ ، وأنّه قد استسلم للأقدار متنصّلاً من مسؤوليّاته ، اعتقاداً منه بأنّ أيّ تقويم للأوضاع بات مستحيلاً . أمّا وقد فجع بالهزيمة أكثر من « بازين » . أمّا ولم يبقَ لديه شيء ينقذه ، فإنّه سينبذ ذاك التأويل المتسامح : « أقرّ بأنّني كنت أؤمن بالغلبة... » ولكنّنا نقرّ له بالذكاء ، بيد أنّه كان يتخلّى عنه تلقائيّاً . ولسوء الحظّ لم يكن لأحد أن يؤمن بالنصر ما لم يكن ضحيّة لقلّة المعلومات أو لضعف الإدراك والتمييز .

«ميشلين - سور - موز» : هبوط اضطراريّ يوقف هجوم «هتلر»

ضباب وجليد . كان يوم ١٠ كانون الثاني قارس البرد . تجمّد نهر « الموز » فجلس جنود أحد مواقع الحدود البلجيكيّون يصطلون النار في عنبر خشبيّ في ضواحي « ميشلن » . وفجأة يُسمع أزيز طائرة تُحلّق على انخفاض . فيخرجون مسرعين . وتهوي الطائرة خلف صفّ من الأشجار وقد بُتر جناحاها . وعلق محرّكها في سياج . وإذا برجل يرتدي معطفاً رماديّاً طويلاً ينتصب محدّقاً بذهول إلى حطام الطائرة ؛ ويرتفع خلف السياج خيط من دخان . فإذا برجل آخر قد ارتدى معطفاً أغبر يُحرق بعض الأوراق . ويهرع الجنود مطلقين النار إرهاباً ، ويكبّلون الطيّارين ، ويخمدون النار . ولسوف تذوق تلك الأوراق لذعة النيران مرّة أخرى : فما كاد « راينبرغر » . الضابط الألمانيّ المقبوض عليه ، يدخل العنبر ، حتّى انتزعها من يدي الكابتن كومندان «رودريك» ودسّها في الموقد . فما كان من «رودريك» إلاّ أن انتشلهـا من النار محرقاً يديه . فأمسك الألمانيّ بمسدّس الضابط البلجيكيّ ورفعه إلى فوده ؛ وعندما انتُزع منه السلاح بادر إلى لطم رأسه بالجدار قائلاً : « لقد أذللت ، فدعوني أنتحر » . أمّا الألمانيّ الآخر ، ميجر الاحتياط « هونمنز » . فلقد صمت واجماً .

وإليك القصّة بالتفصيل : لقد استخدم الميجور « راينبرغر » ، المنتمي إلى فرقة المظلّيّين السابعة ، طائرة الاتّصال التي يقودها « هونمنز » ، خارقاً بذلك أوامر الأمن كلّها ، ليعود إلى « كولونيا » من مهمّة قام بها في « منستر » . ولكنّ الطائرة تاهت ونفد وقودها ، فهبطت حيث تيسّر لها ذلك . وكان في حوزة «راينبرغر» وثائق سريّة للغاية ، فوقعت في أيدي مَن لم تكن موجّهة إليهم !

وفي اليوم التالي وصل من « بروكسيل » إلى « فنسين » الملحق العسكريّ الفرنسيّ وسلّم الجنرال « غاملان » مذكّرة من الجنرال « فان أوفرشترين » المستشار العسكريّ للملك الجنرالسيم ، توجز في صفحات عشر القسمَ الذي أمكن إنقاذه من وثائق « ميشلن » ، وهي تتضمّن خطّة لهجوم ألمانيّ كبير سيشنّ على « هولندا » ، وعلى « الأردين » البلجيكيّة التي رُسمت عبرها عدّة خطوط تحدّد مسيرة الجيوش ، وعلى معابر نهري « الموز » و « السامبر » التي أوكل أمر احتلالها إلى الفرقة السابعة المنقولة جوّاً . ولم تكن هنالك إشارة إلى يوم بالذات ، ولكنّ البلجيكيّين كانوا على يقين من أنّه بات وشيكا . وهكذا طُرحت فجأة على بساط البحث مشكلة التدخّل الفرنسيّ — البريطانيّ في « بلجيكا » .

قبلت القيادة الفرنسيّة في ٢٤ تشرين الأوّل مبدأ التدخّل . كان التصميم إذ ذاك يقضي بالتقدّم حتى نهر « ايسكو » بغية تأخير الجحافل الألمانيّة الزاحفة على تحصينات الحدود الفرنسيّة . ولكنّ الأهداف اتّسعت فيما بعد : فبالنظر إلى أنّ الجيش البلجيكيّ كان يتقوّى ، وإلى أنّ تحصينات جدّيّة كانت في طريق التنفيذ ، وإلى أنّ الأمل في رؤية البلجيكيّين يواجهون المعتدي بمقاومة أشدّ بات كبيراً ، ما الذي كان يمنع من الذهاب إلى أبعد من عمليّات الدفاع التأخيريّة ؟ لماذا لا تدخل الجيوش إلى « بلجيكا » فتتمركز فيها ؟ كانت المغريات كثيرة : فمن الناحية الأدبيّة يضع الفرنسيّون والانكليز بنجدتهم البلجيكيّين حدّاً لإهمالهم الدولَ الصغيرة التقليديّ الذي بدأوه في « تشيكوسلوفاكيا » وتابعوه في « بولونيا » ؛ ومن الناحية الاقتصاديّة يتسنّى إنقاذ أقاليم صناعيّة ثمينة في « بلجيكا » وفي شماليّ « فرنسا » ؛ ومن الناحية السّتراتيجيّة يبعد التهديد الجوّيّ البحريّ عن « انكلترا » ، من جهة ، ومن جهة أخرى ، يقترب الحلفاء من منطقة « الرور » فيحقّقون خطوةً هامّة في تقدّمهم نحو مستودع ذخيرة العدوّ . أضف إلى ذلك أنّ انضمام عشرين فرقة بلجيكيّة



ملك « بلجيكا » بين جنوده ، ويبدو إلى يمينه الجنرال « دوني » وزير الدفاع .

إلى جيوش الحلفاء من شأنها أن تعدّل ميزان القوى . إلاّ أنّ الآراء المعاكسة لهذا المشروع لم تكن ممّا يُهمل : فإنّ التوغّل في « بلجيكا » يخرج الجيش الفرنسيّ البريطانيّ من تحصيناته ومن ميدان القتال الذي عمل على إعداده منذ الخريف ، ويعرّضه (في السهول البلجيكيّة المواتية للدبّابات) لما تحرّمه القوانين الفرنسيّة : أي لمواقع الالتحام . ويردّ البعض مؤكّدين أن لا علاقة للأمر بهذه الهرطقة ، وأنّه لا يتعدّى نقل معركة المقاومة إلى الأمام لتلقّي صدمة العدوّ خارج أرض الوطن . ولكن ، أيسمح الوقت بحفر الخنادق ، وإنشاء الحواجز المضادّة للدبّابات ، وتركيز المدفعيّة ، وتنظيم خطط الحرب ؟ إنّ قوّاد الفرق الكبيرة المعنيّة يقدّرون المهلة اللازمة لتحقيق تنظيم دفاعيّ قادر على الصمود بفترة ما بين ثمانية أيّام إلى خمسة عشر يوماً . ترى أكان ذلك ممكناً ؟ كان الجواب متوقّفاً على عاملين : الموقع الذي سيجري اختياره ، ونوع الإسهام الذي يقدّمه البلجيكيّون للحلفاء . أمّا المركز فكان نهر « إيسكو » ، ويقتضي الوصول إليه مناورة سهلة قصيرة نسبيّاً : فالعدوّ بعيد ، ويكفي أن يقوم أقصى الجناح الأيسر بحركة التفاف حول « مولد » . غير أنّ هذا الحلّ ضعيف لأنّه يترك للعدوّ « بروكسيل » والجزء الأكبر من « بلجيكا » . يضاف إلى ذلك أنّ « ايسكو » حاجز سيّىء : فالزوارق هي من الكثرة بحيث أنّها ، حتى وان أغرقت ، تشكّل في كلّ مكان معابر صالحة للمشاة . أمّا حسنات الحلّ الثاني ، وهو ترعة «ألبير » ، وسيّئاته ، فهي مناقضة للأولى : فقفزة واحدة تكفي لإحلال الجنود على مقربة من الحدود الألمانيّة ، فلا يضحّى إذ ذاك إلاّ بجزء يسير من « بلجيكا » ، ثمّ يتمركز الجند في أفضل حفرة أوروبيّة مضادّة للدبّابات مؤلّفة من مسطّح من الأرض غمرته المياه ، متّسع عميق ، وضفاف قُطعت بشكل عموديّ ، وتحصينات ثابتة تدعمها المعسكرات المتحصّنة في « أنفير » و « لياج » . ولكن كان يترتّب على القوّات الحليفة ، قبل الوصول إلى الترعة ، أن تقطع مسافة تساوي خمسة أضعاف ما كان على القوّات الألمانيّة أن تقطعه .

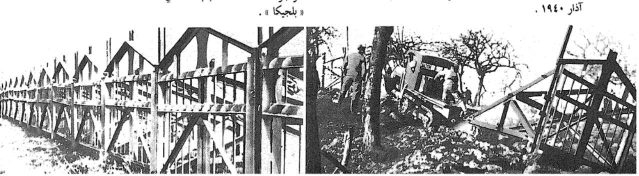
وبين هذين الحلّين المتطرّفين وُلد حلّ وسط ، رُسم بخطوطه الأولى في ٥ تشرين الثاني ، ثمّ أُحكم في ١٤ تشرين الثاني في المذكّرة الشخصيّة السرّيّة الثامنة التي وجّهها « غاملان » إلى « جورج » ، وتنصّ على ما يلي : تتمركز القوّات الحليفة على خطّ « أنفير — لوفان — فافر — نامور » . فتتلقّف الجيش البلجيكيّ المتقهقر بعد أن يكون قد حاول تأخير العدوّ على ترعة « ألبير » ؛ وبوسع الفرق الآليّة أن تحتلّ الموقع في يومين ، وتبلغه فرق المشاة في أربعة . هذا فيما ترسل الخيّالة إلى الأمام برفقة فرقتين آليّتين خفيفتين يقودهما الجنرال « بريو » ، قصد مكاتفة البلجيكيّين وتأخير وصول الألمان . وبفضل هذا التخطيط كان الحلفاء يأملون أن يتنفّسوا براحة أسبوعاً ، وهو مهلة لا بدّ منها لتنظيم الميدان ولو إلى حدّ محدود .

أمّا حسنات هذا المشروع فلا تحتمل جدلاً : إذ أنّه يُبقي على « بروكسيل » ، ويختصر الجبهة بمقدار ٧٠ كلم بالنسبة لمشروع « إيسكو » ؛ أمّا العقبة الأساسيّة فهي ضعف الحواجز الطبيعيّة : فنهر « ديل » ، أحد سواعد « إيسكو » ، الذي كُلّف الانكليز بالدفاع عنه ، هو جدول متوسّط يتفرّع إلى أذرع كثيرة مُدّ فوقها ما لا يقلّ عن ١٢٠ جسراً . ومن « فافر » إلى « نامور » تمتدّ بطاح « الهزبي » القليلة الأخاديد ، كما تمتدّ فرجة « جانبلو » ، وهي أرض لا يعترضها شيء يمكن الاعتماد عليه في تثبيت المقاومة . صحيح أنّ البلجيكيّين كانوا ينوون حفر خندق مضادّ للدبّابات ، وإقامة حاجز من الشبّاك المعدنيّة ، إلاّ أنّهم كانوا يرفضون الإفشاء بأيّة معلومات تتعلّق بمواقع منشآتهم أو بمدى تقدّمها . لقد اكتفوا بإعلام الفرنسيّين والانكليز ، سرّاً ، أنّهم يستنجدونهم في حال تعرّضهم لهجوم .

وبانتظار تلك الساعة ، كان الحياد يحتّم عليهم أن يخفوا كلّ شيء عن حلفائهم العتيدين .

وتتّصل المشكلة الهولنديّة بالمشكلة البلجيكيّة . فمعجزة ١٩١٤ ما كانت لتتكرّر على ما يبدو ، والاعتقاد السائد هو أنّ الزحف الألمانيّ لن يوفّر « هولندا » . ولذا كانت مذكّرة ١٤ تشرين الثاني ترى أن يُصار إلى إنجادها ، وأن يُبذل أقصى الجهد في وصل جيوشها بالقوّات البلجيكيّة على ترعة « ألبير » أو على « إيسكو » . وفي ما بعد وُضع للعمليّة تصميم مُفصّل تُحتلّ بموجبه الجزر الزيلنديّة (« بيفلند » و « فالشرن ») ، ثمّ تُقبل القوّات من « أنفير » وتحاول وصل المعقل الوطنيّ ، أي مثلّث « أمستردام — لاهاي — روتردام » ، بمواقع الحلفاء العامّة . ولسوف يُكلّف بهذه المهمّة الجيش الفرنسيّ السابع بإمرة « جيرو » الحادّ النشيط .

وهكذا ، عند حصول الزحف الألمانيّ — ذلك الحدث المرتقب المنشود — لن يكون أمام القيادة الفرنسيّة إلاّ أن تختار : فهنالك مشروع ترعة « ألبير » في أفضل الظروف ، ومشروع « إيسكو » في أسوأ الحالات ، ثمّ مشروع « ديل » في أقرب الحالات توقّعاً .



إنشاء حفرة مضادّة للدبّابات في آذار ١٩٤٠ .

حواجز مضادّة للدبّابات في « بلجيكا » .

يضاف إلى هذه المشاريع الثلاثة مشروع «بريدا»، وهو الزحف على «هولندا».

نجمت عن هذه المشاريع المختلفة نتيجة واحدة، وهي ضرورة الإلقاء بمجموع القوى المتحرّكة دفعة واحدة في الميدان. كان الجيش السابع هو الجيش الوحيد المحتَجَز، فأُرسل إلى «هولندا». وكان فوج الخيّالة الآليّ هو العامل الأوّل في صدّ هجوم المصفّحات الألمانيّة، ولكن اجتُزئت منه فرقة آليّة خفيفة أُرسلت إلى «هولندا»، فيما أُرسلت الفرقتان الأخريان إلى «تونجر» و«هانوت» لتأخير الهجوم على خطّ «أنفير — نامور». أمّا فرق المشاة الآليّة فلقد اقتحمت الميادين منها ستُّ فرق من أصل سبع منذ اليوم الأوّل. وهكذا التزمت الستراتيجيّة الفرنسيّة خطّة المقاومة والردّ، تاركة أمر المبادرة للعدوّ؛ أمّا أساليب الردّ فقد قرّرتها القيادة منذ اليوم الأوّل.

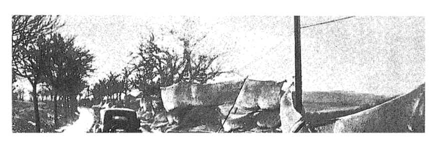
وبرزت في وجه ذلك اعتراضات كثيرة: فأكثر قوّاد الفرق الكبرى يعارضون فكرة الدخول إلى «بلجيكا». وقد قال «لالورنسي» قائد الفيلق الثالث: «حين عُرض علينا مشروع «ديل» استحوذت علينا كلّنا فكرة واحدة: ليتنا لا نضطرّ إلى تنفيذها! ...» وكان الانكليز أشدّ معارضة لها على الرغم من حرصهم على سلامة شاطىء بحر الشمال؛ فلقد أعلنت لجنة رؤساء أركانهم: «ما لم يتبدّل موقف البلجيكيّين، فنحن نعتقد أنّ الهجوم الألمانيّ مرتقب حصوله من ناحية مواقع الحدود الفرنسيّة المحصّنة ...»

والواقع أنّ موقف البلجيكيّين لم يتبدّل. ففي أيلول ١٩٣٩ وجّه البلجيكيّون ثلثي قوّاتهم ناحية «فرنسا» خوفاً من هجوم تشنّه هذه على «الرور» عبر أراضيهم. ولجأ البلجيكيّون إلى قلب هذه الأوضاع تدريجيّاً وهم على خوف من أن توفّر أيّة هفوة يرتكبونها حجّة يتّخذها الألمان ذريعة لمهاجمتهم. غطّت الحواجز الحدود الفرنسيّة، وانقطع كلّ اتّصال بين الأركان. ولو جدّ ما يفرض على «فرنسا» الدخول إلى «بلجيكا»، فسوف تخبط خبط عشواء، في أحرج ظروف لمعركة الالتحام هذه. أمّا الأمل الذي داعب خيال الفرنسيّين غير مرّة في أن يستدعيهم البلجيكيّون على سبيل الاحتراس لاستباق الهجوم الألمانيّ، فلقد يئس منه أكثرهم تفاؤلاً.

إلاّ أنّ هبوط الطائرة الاضطراريّ في «ميشلن — سور — موز» جعل ذلك الأمل يتخضوضر في إبّان الشتاء! فإنّ الوثائق المحتَجَزة لا تدع مجالا للشكّ: القيادة الألمانيّة تضمر خرق حرمة الحياد البلجيكيّ. وتوفّر بذلك للبلجيكيّين حجّة استدعاء الفرنسيّين والانكليز؛ والظاهر أنّهم قد بدأوا يفكّرون بذلك طالما أنّهم طلبوا من «باريس» و«لندن» ضمانة تكفل الحفاظ على كيان «بلجيكا» ومستعمراتها «الكونغو» بعد الحرب. وبينا يبدي الانكليز حذراً، يبدي الفرنسيّون إلحاحاً. ويكلّف «غاملان» من يقول للحكومة البلجيكيّة: «قد يكون لكلّ ساعة تمرّ عواقب وخيمة». ورُوي فيما بعد أنّه قد أصيب «بخيبة مريرة» عندما خاطبه مساعده «جورج» وقال إنّه قد فكّر مليّاً وتساءل «ما إذا لم يكن من الأفضل نصح البلجيكيّين بالامتناع عن طلب النجدة»؛ ولكنّ الشتاء كان يهاجمهم بضبابه وثلجه وزمهريره. فتتألّم الرجال والبهائم، وتتأذّى المحرّكات. أمّا البلجيكيّون فقد أزالوا حواجز الطرقات وأداروا جند المراقبة نحو الشرق. وفي ليل ١٣–١٤ كانون الثاني حضر ملحقهم العسكريّ الجنرال «دلفوا» إلى حصن «فنسين» حاملاً رسالة من الملك تقول: «أخطروا الجنرالسيم بأنّ الهجوم واقع لا محالة اليوم، الأحد ١٤ كانون الثاني»؛ فأجاب «غاملان» بأنّه على أتمّ الاستعداد. وأنّه لا بدّ من الإسراع، لأنّه لا يستطيع أن يترك جنده معرّضين لتقلّبات الطقس القاسية.

كان «هتلر» في تلك الأثناء يرغي ويزبد. ويقول «كيتل» تعليقاً على ذلك: «لقد شهدت أروع عاصفة رأيتها في حياتي ...» فالهجوم الذي كان بعض ضبّاط الأركان الفرنسيّة يرفضون تصديقه، كان قد أُمر به في الواقع، لا لـ ١٤ كانون الثاني كما ظنّ البلجيكيّون، ولكن لـ ١٧. كان «هتلر» يطمع في الإفادة من البرد القارس الذي ييبس الأرض ويجمّد الأنهار ويضاعف حظّه في مداهمة العدوّ. وكان لا بدّ من إعلامه بأنّ طائرين أرعنين قد هبطا في «بلجيكا» يحملان مخطّطات تكشف مشروعه! ومرّ شبح الإعدام رهيباً: أُوقف أفراد أُسرتَي «راينبرغر» و«هونمنز» وأُخضعوا لتحقيق «الغستابو». وأُقيل قائد الأسطول الجوّيّ الثاني، وارتعدت فرائص «غورنغ» نفسه. ثمّ عاد «هتلر» إلى هدوئه يدرس الموقف: أيُبقي على أمر الهجوم؟ أم يؤجّله؟ كان الأمر كلّه متوقّفاً على ما اذا كان الطيّاران قد أتلفا الأوراق التي كانا يحملان أم لا.

ووصل من «بروكسيل» ملحق الجوّ الألمانيّ الجنرال «فون فننجن». كان البلجيكيّون قد سمحوا له بمقابلة طيّارَي «ميشلن» على انفراد. ولكنّهم كانوا قد أخفوا مذياعاً في الغرفة التي تمّت فيها المقابلة. فسمعوا «راينبرغر» يقسم بشرفه العسكريّ مؤكّداً أنّ الوثائق كلّها قد أُتلِفت. وحمل «فننجن» إلى «الفوهرر»



ضباب، وثلج، وبرد. البشر، والحيوانات، والمحرّكات، تتضايق وتتأذّى.

ذاك النبأ . ولكنّ إفادة أخرى قد وصلت : كان المكتب الثاني الألمانيّ يشير إلى أن الفرقتين الفرنسيّتين الآليّتين ٩ و ٢٥ قد احتشدتا على الحدود ، وأنّ البلجيكيّين يرفعون الحواجز عن الطرقات . إذاً فلقد كُشف السرّ ! ومع ذلك فإن هجوماً سريعاً كان لا يزال يبشّر بنتائج كبيرة . فاستشار « هتلر » أخصائيّي الرصد الجوّي فاعترفوا بأن الطقس الجيّد الذي وعدوا به قد أخلف الوعد . وعادت الثلوج تنهمر بغزارة جاعلة العمليّات الجويّة مستحيلة . واضطرّ « هتلر » أن يُذعن أمام تعنّت السماء ، فأُرجىء الهجوم إلى أجل غير مُسمّى .

وألغى الثلج كذلك القرار البلجيكيّ ، ففي ١٥ كانون الثاني أعلن « فان دن برجن » رئيس الأركان البلجيكيّة للملحق العسكريّ الفرنسيّ أنّ الثلج جعل الهجوم غير محتمل الوقوع ، ثمّ أمر بالتالي بإعادة الحواجز ، وحدّد أمره إلى الجند بأن يصدّوا بالقوّة كلّ محاولة تقوم بها الجيوش الفرنسيّة والانكليزيّة بالدخول إلى « بلجيكا » ! وصرّح الملك في اليوم ذاته بأنّه لا يستطيع أن يأخذ على نفسه مسؤولية فتح حدود بلده حتّى ولو على سبيل الوقاية . فما كان من الفرنسيّين إلاّ أن عادوا إلى معسكراتهم .

« هتلر » أم « مانشتاين » وضع خطّة « سيدان » ؟

لو حصل الهجوم الألمانيّ في ١٧ كانون الثاني ١٩٤٠ لما أتى مطابقاً للهجوم الذي حصل بعد أربعة أشهر ، ولأتى مغايراً ، إلى حدّ بعيد، الهجومَ الذي كان « هتلر » قد أمر به لـ ٧ تشرين الثاني ١٩٣٩ . ذلك أنّ فكرة مناورة « سيدان » كانت قد وُلدت .

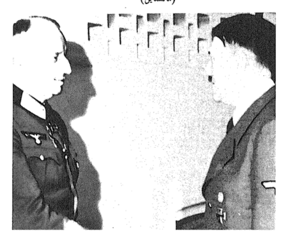
لقد نوقشت طويلاً أبوّة هذه المناورة . فالمعتقد السائد يقول إنّها ابنة الجنرال « اريك فون مانشتاين » ، وقد عُرضت على « هتلر » فتبنّاها . غير أنّ دراسة الوثائق ومقارنة التواريخ لا تجيز اعتماد هذا التفسير . لا شكّ في أنّ فكرة خطّة « سيدان » قد خطرت « لمانشتاين » ، بيد أنّه لم يتمكّن من عرضها على « هتلر » ، ولم يطّلع الفوهرر على فكرة الجنرال إلاّ في وقت لاحق ، بعدما كان الفوهرر قد أمر باتّخاذ الاحتياطات والاستعدادات المتعلّقة بالخطّة . ولسوف يقول « كيتل » و « جودل » ، في محاكمات « نورنبرغ » : « كان « هتلر » بارعاً في رسم الخطط الحربيّة » . ولقد اعترف « مانشتاين » نفسه بأنّ من المعقول أن تكون فكرة « هتلر » قد سارت في خطّ موازٍ لفكرته ، وأنّه على كلّ حال غير واثق من أنّه قد ألهمه إيّاها . ولقد درس الجنرال الفرنسيّ « كولتز » هذه القضيّة في كتابه « كيف قُرّر مصيرنا » فأثبت ، مع اعترافه بفضل « مانشتاين » الذي امتاز بمؤهّلات عسكريّة عالية ، أنّ صاحب خطّة « سيدان » الحقيقي هو الكابورال « أدولف هتلر » .

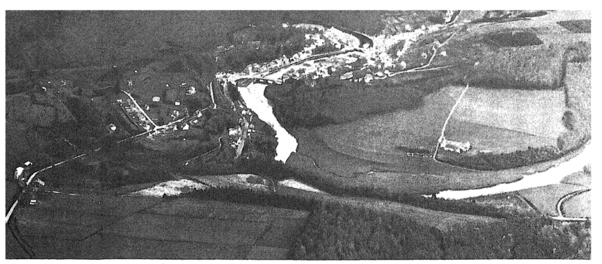
كان « مانشتاين » رئيس أركان مجموعة جيوش « روندشتاد » أثناء الحملة البولونيّة . وما ابث أن انتقل إلى الجبهة الغربيّة محتفظاً بالوظيفة نفسها . استقرّت قيادته في « كوبلنس » ، في ساحة قديمة صغيرة أُبقي فيها على نصب أُقيم تخليداً لمرور « نابوليون » وهو في طريقه إلى « موسكو » . لم يلتق « مانشتاين » « هتلر » قطّ ، ومع أنّه لم يشترك في المؤامرة العسكريّة ضدّه ، فإنّ موقفه من الاشتراكيّة القوميّة كان موقف أبناء جماعته . وهو نفسه لم يكن موضوع حبّ أقرانه ، لأنّه كان يتدفّق ذكاء ومقدرة .

في أواخر تشرين الأوّل وصلت تعليمات قيادة جيش البرّ بتنفيذ خطّة الهجوم التي أمر بها الفوهرر . كانت على مستوى الأهداف المتواضعة التي حدّدتها مذكّرة ٩ تشرين الأوّل : احتلال الشاطىء البلجيكيّ تمهيداً لعمليّات جويّة بحريّة هدفها « انكلترا » . ذهل « مانشتاين » لبساطة هذا التصميم : كانت العمليّة تشبه خطّة « شليفن » نظراً لاتّساع حركة الالتفاف ولقوّة الجناح الأيمن . ولكنّ ذلك لم يكن خطّة « شليفن » نفسها إذ أنّ الهدف كان احتلال الأراضي لا إبادة العدوّ . كان « شليفن » . الذي عدّل « مولتكي » سنة ١٩١٤ خطّته . يقضي بالوصول إلى حوض نهر « السين » الأسفل . لمحاصرة الجيش الفرنسيّ وأسره . ولكنّ خطّة « شليفن » التي تبنّاها « براوشيتش » كانت ترمي إلى الاستيلاء على مرافىء بحر الشمال . وفي هذا المخطّط كان دور مجموعة « روندشتاد » (المجموعة أ) ثانوياً : كان عليه أن يهاجم باتّجاه نهر « الموز » معتمداً على جيشين وعلى فرقة مصفّحة . وذلك بغية حماية عمليّات الفريق (ب) وتسهيلها .

في ٣١ تشرين الأوّل كشف « مانشتاين » عن معارضته . وحمل « روندشتاد » على التوقيع على اقتراحين مضادّين . ينصح أوّلهما بالتخلي عن الهجوم : فبدلاً من أن يبادر الجيش الألمانيّ إلى الهجوم . يترك العدوّ يهاجمه . متوسلاً بالقصف الجوّي إلى إرهاق « انكلترا » . ثمّ يبادر إلى سحق العدوّ الذي يكون قد خرج من تحصيناته . أمّا الاقتراح الثاني فيجري تطبيقه في حال الإبقاء على خطّة الهجوم : طلب « مانشتاين » تقوية المجموعة (أ) على حساب المجموعة (ب) التي تحتفظ إذ ذاك بثلاثة جيوش للقيام بالمهامّ المسندة إليها . فيما يخرج الفريق (أ) بجيوشه الثلاثة الإضافيّة من دور الحارس الجانبيّ البسيط . قال « مانشتاين » : « إذا ارتكب العدوّ خطأ الزّجّ بقوّاته كلّها في « بلجيكا » . وذلك خطأ ضعيف الاحتمال . فقد تستطيع المجموعة (أ) أن تدفع بجيش من جيوشها قُدُماً في اتّجاه نهر « السوم » . وفي هذه الحال سوف يقوم بهجوم معاكس على الهجوم المعاكس . بدلاً من الاكتفاء بصدّه .

« هتلر » والجنرال « مانشتاين » .
« لست أدري ما إذا كان « هتلر » على علم بمخطّطنا أم لا ، ولكن لا بدّ من الاعتراف بأنّه قد أدرك نظريّاتنا بسرعة مدهشة».
(مانشتاين)





نهر « الموز » يجري هادئاً متهادياً قبل العاصفة .

لم تكن هذه المناورة ، بعدُ . هي مناورة « سيدان » ، تلك الثغرة المدهشة على نهر « الموز » . ومهما يكن من أمر فإنّ « مانشتاين » لم يكن ليرعى أوهاماً : فقد أرسل مذكّرته إلى « براوشيتش » بطريقة نظاميّة وهو لا يتوقّع أن يلقى لديه تفهّماً أو تعاوناً ، فلم يتلقّ منه أي جواب . ولكن « روندشتاد » ، الذي أرسله « مانشتاين » لإقناع « براوشيتش » ، تمكّن بجهد كبير ، وعقب مناقشات عاصفة ، من الحصول على فرقة مصفّحة ثانية فُصلت من احتياطيّ قيادة جيش البرّ لتُلحق بمجموعة جيوشه . ولكنّ شيئاً لم يتبدّل في مهمّتها .

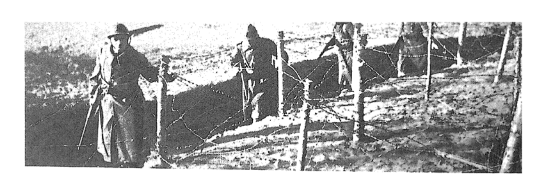
في ١٢ تشرين الثاني حصلت مفاجأة كبرى . فقد وصلت إلى أركان المجموعة (أ) المذكّرة التالية : « تُنشأ على وجه السرعة ، في جناح الجيش الثاني عشر ، مجموعة ثالثة ، تُستخدم في المنطقة الجرداء الممتدّة إلى جانبَي « ارلون – تينتيني – فلورانفيل » ، وتضمّ الفيلق التاسع عشر وفوجَي الدبّابات الثاني والعاشر، فضلاً عن فرقة آليّة ، وفوج « ألمانيا الكبرى » . أمّا المهمّة المسنَدة إلى هذه المجموعة فهي التالية : « عليها أن تحتلّ ، على حين غرّة ، ضفّة « الموز » الغربيّة في « سيدان » أو في جنوبيّها الشرقيّ بغية خلق ظروف مؤاتية لمتابعة العمليّات » .

مرّة أخرى لم تكن هذه المناورة هي مناورة « سيدان » ، ولكنّنا بتنا منها على قاب قوسين . كان الفوج الثالث بقيادة « غوديريان » ، وهو أوسع قوّاد الوحدات المصفّحة الكبيرة خبرةً وأكثرهم إقداماً . ولقد جاء إلحاقه بالمجموعة (أ) خطوة حاسمة في تحوّل نقطة الثقل (شفر بونكت) إلى « الأردين » . وهكذا تظهر للمرّة الأولى فكرة الهجوم المباغت ، وتظهر نقطة تحقيقه ، « سيدان » ، في تنظيم العمليّات . وما كان ينقص هذه الخطّة هو الاستثمار العمليّ الذي تمّ فيما بعد بانفصال المصفّحات في سهول « فرنسا » الشماليّة إلى فئتين . وبإغارة الخيّالة الآليّة على الجيش الفرنسيّ تُفكّك عراه في بضعة أيّام ...

وراح « مانشتاين » يبحث عن مصدر الوحي الذي هبط على الفوهرر . لم ينسبه قطّ لمذكّرته في ٣١ تشرين الأوّل الّتي كان يعرف أنّها لم تتخطّ حاجز قيادة جيش البرّ . ولكنّ الجنرال « بوش » ، قائد الجيش السادس عشر ، كان قد حظي بمقابلة « هتلر » لأيّام خلت ، ويعقل أن يكون قد أطلعه على الخطط الّتي توضع في « كوبلنس » . ولا يستبعد « مانشتاين » أن يكون « هتلر » قد اهتدى إلى هذه الخطّة بنفسه . يقول : « كان « هتلر » يمتاز بنظرة تكتيكيّة حادّة ، وكثيراً ما كان يحدّق إلى الخرائط مستلهماً » . لعمري إنّ في هذه الشهادة لتنازل المحترف يقرّ بفضل الهاوي !

في الواقع لم يكن « لبوش » يد في قرار ١٢ تشرين الثاني . ونحن نعرف ، بفضل اعترافات « كيتل » و « جودل » ، أنّ « هتلر » أبدى ملاحظة شبيهة بملاحظة « مانشتاين » ، إذ قال لدى وقوفه على مخطّط قيادة جيش البرّ : « لقد انتعلوا حذاء « شليفن » ، وهم يقتفون خطاه » . ولقد عاد « هتلر » يدرس القضيّة ويطيل التحديق في الخرائط ، محاولاً الإفلات من السيطرة الّتي بسطها على التفكير العسكريّ الألمانيّ منظّم خطط الحرب الكبير في عهد « غليوم الثاني » . فأتت عملية إلحاق « غوديريان » بـ « روندشتاد » أوّل ردّة فعل له على سيطرة الجناح الأيمن. وفضلاً عمّا تقدّم، وفي حال إسفار مداهمة « سيدان » عن نتائج باهرة ، أمر « هتلر » بدرس إمكانيّة نقل الفرق المصفّحة كلّها ، خلال العمليّات ، من مجموعة (ب) إلى مجموعة (أ) ، ذاك أنّ فكرة إحداث ثغرة في الجهاز الفرنسيّ ، وشنّ معركة يظفر منها بصدع الجبهة الوسطى ، كانت تملك عليه تفكيره .

وراح « مانشتاين » من جهته يرسل المذكّرات الواحدة اثر الأخرى : ٢١ و ٣٠ تشرين الثاني ، ٦ و ١٨ كانون الأوّل ، ١٢ كانون الثاني . ففكرة اختراق الجبهة الوسطى كانت تبدو له أكثر إغراءً يوماً بعد يوم ؛ إنّها لتشكّل ثورة بالنسبة لتخطيط مبنيّ على التفاف الجناحين ، على اسلوب موقعة « كانا » الشهير ، الذي كان ما يزال ، بعد ثلاثة وعشرين قرناً ، يُخضع الجنرالات الألمان لتعاليم « هنيبعل » . إنّها من هذه الناحية لتشتمل عنصر المفاجأة ؛ أمّا عنصر المفاجأة الثاني ، فهو تكتيكيّ يعتمد على طبيعة « الأردين » الّتي اعتُبرت خطأً غير صالحة للدبّابات . لقد حدّق « هتلر » في الخارطة



فاتّضح له أنّ منفرجات « ارلون » و « تينتيني » و « فلورانفيل » تسمح بالوصول إلى « الموز » ، فلا تعترض الغابات الباسقة سبيل الزحف. وكان « مانشتاين » من جهته يدرس المناورة ، ويرى بوضوح متزايد أنّ بلوغ مصبّات « السوم » مباشرة أمر ممكن ، هذا مع العلم بأنّه ما كان يعتقد أنّ الغباء سيبلغ بالفرنسيّين والانكليز حدّ تعريض أنفسهم لحركة تطويق في « بلجيكا » . أمّا أن يكون قد ألهم « هتلر » فهذا غير صحيح . وكيف يلهمه وهو لم يلقه بعد ، فضلاً عن أنّ اعترافات ضبّاط قيادة جيش البرّ « كجودل » و « فارليمونت » و « لوسبرغ » تثبت أنّ مذكّرة من مذكّراته لم تبلغ قطّ مكتب الفوهرر ؟ وعلى كلّ حال فقد انتهت فترة إلحاقه بالأركان ، وأُسندت إليه في ٩ شباط ، قيادة فيلق جديد ، فعاد إلى « بوميرانيا » لتكوينه .

ذهب « مانشتاين » ، بيد أنّ إعداد مخطّط « سيدان » بقي مستمرّاً. وبتاريخ ١٣ شباط يسجّل « جودل » في يوميّاته أنّ الفوهرر يعود إلى موضوع « نقطة الثقل » ، ويشير إلى أنّ مصفّحات كثيرة جدّاً تخصّص بلا مبرّر لقطاعات ثانويّة : « ولسوف يفتقر إليها الجيشان ١٦ و ١٢ . فينبغي إرسالها إلى « سيدان » حيث لا يتوقّع العدوّ أن نبذل جهدنا الأكبر » . وتعود قيادة جيش البرّ إلى تعديل أجهزتها وفقاً لهذه الإرشادات ، فتلحق بالمجموعة (أ) ثلاث فرق دبّابات جديدة هي الأولى والخامسة والتاسعة . ولم يبقَ « لبوك » ، الذي خصّه التصميم الأوّل بتسع فرق من أصل عشر ، غير ثلاث . أمّا « روندشتاد » ، الذي ما كان له غير فرقة واحدة أصلاً ، فقد آلت إليه الآن إمرة سبع فرق ، تمركزت خمس منها قبالة « سيدان » مباشرة ؛ أضف إلى ذلك أنّ الجيش الرابع (فون كلوغي) سُحب من إمرة « بوك » ليلحق بقيادته . وهنا يقول « جودل » : « وهكذا بلغت قوّاتنا ، جنوبي « لياج » ، ثلاثة أضعاف القوّات المتمركزة شماليّها » .

وفي ١٧ شباط ، حظي « مانشتاين » أخيراً برؤية « هتلر » . لقد دُعي إلى المستشاريّة الجديدة بصحبة قوّاد الفيالق الجدد أمثال « غير فون شفبنبورغ » ، « شميدت » ، « راينهاردت » ، « غلومي » ، يضاف إليهم « رومل » و « جودل » و « كيتل » طبعاً . وبعد العشاء طلب « هتلر » إلى « مانشتاين » البقاء ، واقتاده إلى غرفة مجاورة ، وسأله رأيه في تنظيم الهجوم على « فرنسا » . وهنا تقول يوميّات « جودل » : « قال « مانشتاين » : « أنّ مصير الهجوم لن يتقرّر غربيّ « الموز » بل على « الموز » ذاته ، في منطقة « سيدان — شارلفيل » . فإمّا أن تحتشد هناك قوى مصفّحة ضخمة ، أو لا يحدث هناك شيء . وكل ما يُترك في المؤخّرة لن يصل إلى ميدان القتال في الوقت المناسب .. » وقد روى « مانشتاين » هذه المقابلة في كتابه « انتصارات وهزائم » ، قال : « لست أدري ما إذا كان « هتلر » على علم بمخطّطنا أم لا ، ولكن لا بدّ من الاعتراف بأنّه قد أدرك نظريّاتنا بسرعة مدهشة ». أجل ، كان بوسعه أن يدركها، وهو الذي كان يعيش في جوّ نظريّات مماثلة منذ شهور ، وهو الذي كان قد أصدر عشيّة اليوم السابق أوامره بتنفيذها .

نضج مخطّط « سيدان » وبات من الضروريّ تنظيم تنفيذه بدقّة ، مع ما يعترض ذلك من صعوبات هائلة . فاجتياز « الأردين » تعترضه عقبات ، لأنّ الطرقات نادرة ضيّقة متعرّجة تحيل الفرق المصفّحة والآليّة أرتالاً ضخمة ، ممّا يفرض توزيع الفرق صفوفاً وإرسالها على الطرقات ذاتها واحدة بعد واحدة ، وتحديد مهلة انسيابها بدقّة ، وتسيير كلّ ما ليس أساسيّاً في دروب الغابات. ذلك أنّ أقل خطأ، أو مقاومة، أو قصف ، قد يسبّب في وسط الأحراج بلبلةً لا توصَف ، فلا تبلغ « الموز » غير وحدات متفكّكة . ولقد بات بعضهم والحال هذه يتساءل : « ترى، أليس من فساد التفكير والمنطق اقتفاء أثر الخنازير البرّيّة لمهاجمة الجيش الفرنسيّ ، فيما تبدو سهول « البرابان » المكشوفة الصلبة وكأنّها قد خُلقت لمعارك الدبّابات ؟ »

وفي أحد الاجتماعات ، في ١٥ آذار ، انفجر « فون بوك » صائحاً : « أتنزلقون على بعد ١٥ كلم من خطّ « ماجينو » وتتخيّلون أنّ الفرنسيّين سيكتفون بالتفرّج عليكم ؟ أترسلون مصفّحاتكم دفعات على دروب « الأردين » النادرة وتنسون أنّ الطيران موجود ؟ ! أتتصوّرون أنفسكم تعبرون « الموز » في نهار واحد وتركضون نحو البحر في جبهة جانبيّة يبلغ طولها ٣٠٠ كلم ؟! ولكن ما عساكم تفعلون إذا حوصرتم بين الحدود ومعبر النهر ؟... أو إذا لم يدخل الفرنسيّون « بلجيكا » ؟... أو إذا تركوكم تعبرون « الموز » ببعض قواكم ثمّ هبّوا بما لديهم من قوى مجتمعة فشنّوا عليكم هجوماً معاكساً ؟.. صدّقوني ! إنّكم



ما فتىء « هتلر » ، منذ تشرين الأوّل ١٩٣٩ ، يقرّر القيام « بالعمليّة الصفراء » ثمّ يلغيها غير مرّة . وفي تلك الأثناء كان الجنود على ضفّتي نهر « الرين » يتمشّون !

لتحلمون ! ... »

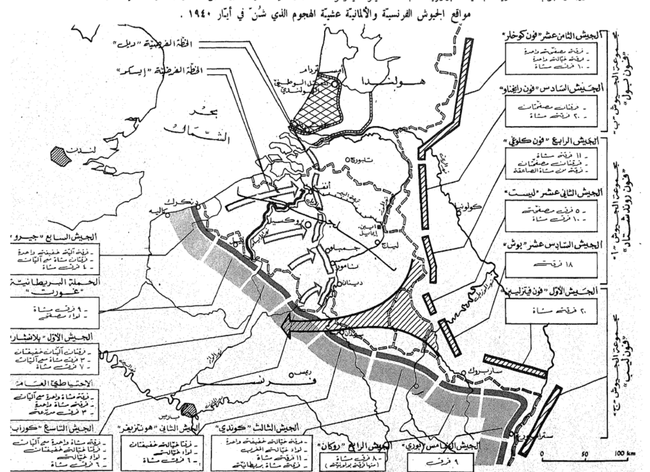
يمكن اتّهام « بوك » بالنقمة والمرارة ، بعدما انتُزع منه الدور الأوّل ، غير أنّ « روندشتاد » نفسه ، قائد المجموعة (أ) ، يشاطره هذا القلق بقوله : « إنّ « غاملان » لذو حنكة ، فلا تنسوا ذلك !... » و « هالدر » ، ذاك الجنديّ الممتاز ، يطالب على الأقل بالتوقّف على نهر « الموز » ريثما يلتحق جيش المشاة بالمصفّحات لتنظيم صفوف الهجوم العامّ . أمّا « جودل » ، ذاك « الجنرال الخادم » الذي سيطر عليه إعجابه « بهتلر » وأغرته بساطة المناورة العبقريّة ، فيصرّ على التنصّل من المسؤولية . يقول : « لقد قدّمت للفوهرر تقريراً أشير فيه إلى أنّ التوغّل عبر « سيدان » درب تحفّ به الأسرار ، ولقد يفاجئنا فيه إله الحرب بما نكره » . وكان « غوديريان » هو المنفّذ الوحيد الذي وثق بالخطّة الهتلريّة ثقة وطيدة ؛ فبينا كان في اجتماع ١٥ آذار يعرض خطّته في عبور « الموز » بخمسة أيّام ، سأله « هتلر » : « وماذا تفعل بعد ذلك » ؟ فأجاب : « سأتابع زحفي نحو الغرب في اليوم التالي ما لم يردّني أمر معاكس . وليس لي من القيادة غير مطلب واحد ، هو تعيين الوجهة التي أتّخذها : أتكون « أميان » أم « باريس » ؟

ويشرف إعداد الخطّة على نهايته ، ويعدّ « هتلر » شخصيّاً الضربات الصاعقة التي سيوجّهها إلى شماليّ الميدان ، فيلفت بها اهتمام قيادة العدوّ إلى تلك الناحية . ففرقة المظلّيّين السابعة لن تُنزل على معابر « الموز » و « السافر » وفقاً لمخطّطات « ميشلن » المفقودة ، بل ستنقضّ على « هولندا » ، وعلى ترعة « ألبير » ، وعلى تحصينات « لياج » . ويجتاز أبواب المستشاريّة الجديدة البرونزيّة ضبّاط عاديّون فيدرسون مع الفوهرر طريقة انقضاضهم على جسر « فرونهوفن » ، وطريقة إنزالهم على مرتفعات قلعة « ايبن » — امايل » من غير أن يثيروا انتباهاً ؛ فيما تتسلّل الدبّابات نحو « سيدان » عبر غابة « الأردين » بأقصى سرّيّة ممكنة .

حلّ الربيع فإذا بالنشاط العسكريّ يتضاءل على جبهة « اللورين » حيث أخذت البراعم تحلّ محلّ الثلوج . كانت التقاليد الألمانيّة تقضي بمباشرة عمليّات الهجوم في أوائل السنة : ٢١ شباط ١٩١٦ في « فردان » ، ٢١ آذار ١٩١٨ على « السوم » .. فاستخلصت الأركان العامّة الفرنسيّة من ذلك أنّ الهجوم لن يقع ، وأنّ « ألمانيا » لا تريد أن تجازف بتحطيم ذاتها على صخرة الجيش الفرنسيّ . وهكذا تتحوّل هذه الحرب الغريبة سلاماً طويل الأمد ! ويسفر هذا الاستنتاج غن خيبة أجمعت الشهادات كلّها على إثباتها : « فغاملان » يتمنّى هجوم الألمان وهو على يقين من أنّ حظّ الدفاع في الغلبة أوفر من حظّ الهجوم في الظروف الراهنة ، وأنّه مُوقف حتماً أيّ هجوم ألمانيّ يُشنّ على جبهته المتراصّة ، ويقول : « إنّي لأبذل ملياراً من الفرنكات في سبيل أن أهاجَم . » وينظر بقلق إلى احتمال بقائه طوال ربيع ١٩٤٠ وصيفه مع جيش ضخم مُقعَد يتأكّله الضجر .

ولكنّ الحقيقة التي لم تخطر ببال أحد هي أنّ « هتلر » قد اختار خطّة أخرى من شأنها أن تفسح لأوهام الفرنسيّين مهلة شهرين إضافيّين . فبعد أن تردّد وبدّل رأيه مراراً ، قرّر أخيراً ، في ٣ آذار ، تنفيذ « تمرين فيزر » قبل « المشروع الأصفر » ، أي اجتياح « نروج » قبل الإجهاز على « فرنسا » . وبات على الحرب أن تقوم بجولة في الدائرة القطبيّة قبل أن تعود إلى موعدها في « سيدان » .

مواقع الجيوش الفرنسيّة والألمانيّة عشيّة الهجوم الذي شُنّ في أيّار ١٩٤٠ .



امتاز شهر كانون الثاني في «فنلندا» بتباطؤ العمليّات الحربيّة : فلقد أتعبت الفنلنديّين انتصاراتهم فراحوا يتنفّسون مستريحين ، فيما راح الروس يحشدون عتاداً ضخماً بغية تنفيذ مخطّطهم الأوّل وهو اقتحام خطّ «مانرهايم» .

بدأ الهجوم في أوّل شباط وهدفه الاستيلاء على «فيبورج» ، الدعامة الشرقيّة في الدفاع عن برزخ «كاريليا» ؛ ولعبت المدفعيّة الدور الرئيس قاصفة المواقع الفنلنديّة قصفاً متجمّعاً محكماً . إلاّ أنّ الدفاع الفنلنديّ أتى رائعاً . كانت القيادة الروسيّة تؤمل الاستيلاء على «فيبورج» في اليوم الثالث، ولكنّ حلّ أوّل آذار وهي ما تزال أمام المدينة ، فيما أبيدت فرقتان كانتا تحاولان الالتفاف حول بحيرة «لادوغا» . ولكنْ بلغ الإجهاد بالجيش الفنلنديّ كلّ مبلغ ، إذ فقد ٢٠٪ من رجاله ، ولم يكن استبدالهم ممكناً لأنّ الوحدات كلّها كانت على الجبهة تعمل على صدّ عدوّ يفوقها ثلاثة أضعاف عدّاً . وكان التعب المضني ينتزع الأسلحة من أيدي المحاربين .

أمّا في «فرنسا» و«إنكلترا» فكانت المناقشات ما تزال محتدمة ، فيما كان الاهتمام يتحوّل باستمرار ناحية المسرح السكندينافيّ الذي كان يحيط به جهل يكاد يكون مطبقاً . لم تكن المعلومات الجغرافيّة المتوافرة لدى أركان الجيش تتعدّى خارطة حائطيّة عاديّة ؛ أمّا الآن فلقد أخذوا يدرسون الأودية النروجيّة ، والخطوط الحديديّة الاسوجيّة، والخطط الفنلنديّة، والتجهيز والتغذية الملائمين للجنود العاملين في أقصى الشمال . وإذا بحادث بحريّ يسهم في تسليط النور على الشمال : كانت باخرة التموين الألمانيّة «ألتمارك» ، التي نجت من كارثة «غراف شبي» ، تحاول العودة إلى «ألمانيا» خفيةً وعلى ظهرها ٢٩٩ بحّاراً من البحريّة التجاريّة البريطانيّة الأسرى . فتمكّنت المدمّرة «كوساك» من أسرها ، بأمر من «تشرتشل» ، في المياه الإقليميّة النروجيّة . وكان بوسع «نروج» أن تحتجّ ، سيّما وأنّ تعدّيات أكثر خطورة كانت تحضّر في الخفاء ، وأنّ النيران الحليفة والألمانيّة أخذت تتجاهل حيادها .

كان الحلفاء قد تخلّوا عن دعم «فنلندا» بإنزال قوّاتهم في «بتسامو» ، مستعيضين عن «بتسامو» بـ«نرفيك» . كانت مسافة ٥٠٠ كلم من أرض «لابونيا» ، فضلاً عن حياد اسوجيّ مدعوم بجيش قويّ ، تفصل المدينة الصغيرة عن الأراضي الفنلنديّة ، وكان الأمل ضعيفاً في أن تتمكّن الحملة المزمع إيفادها من مدّ يد المساعدة إلى جنود المارشال «مانر هايم» التلفين . غير أنّ «نرفيك» كانت المرفأ الرئيس الذي تستورد منه «ألمانيا» الحديد الاسوجيّ الخام . وإذا استولى الحلفاء عليه فلن يبقى لتصدير الفولاذ الهتلريّ غير «لوليا» على خليج «بوتني» ، الذي يحول الجليد دون الملاحة فيه طوال ستة أشهر في السنة . وهكذا كان توفير العون «لفنلندا» مبرّراً شريفاً لحرمان «ألمانيا» من حديدها .

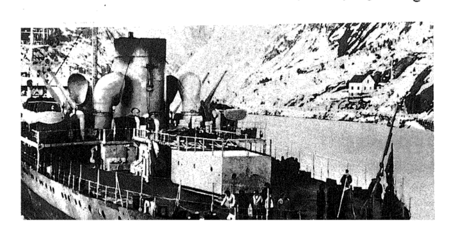
أمّا من الناحية الألمانيّة فقد كان اعتبار المصلحة الألمانيّة وحدها فوق كلّ اعتبار . كان الأميرال الكبير «ريدر» يطالب باحتلال «نروج» منذ زمن بعيد ، وكان ، في ١٤ كانون الأوّل ، قد قدّم إلى الفوهرر الوزير النروجيّ السابق «كويسلنغ» الذي أتى يستدعي القوى الألمانيّة لإقامة نظام قوميّ - اشتراكيّ في بلاده .

أمّا «هتلر» فقد تجاهل اقتراحات الأميرال وعروض الخائن . لانهماكه إذ ذاك بمشروع غزو «فرنسا» ، إلاّ أنّه عاد إليها بعدما تأجّلت الحملة الغربيّة اثر حادثة «ميشلن - سور - موز» .

في ٢٠ شباط عُيّن الجنرال «فون فالكنهورست» قائد الفيلق ٢١ ، قائداً للحملة ، فاستُدعي من «كوبلانس» ، وأبلغه الفوهرر بنفسه قرار تكليفه باجتياح «نروج» مشدّداً على أنّ الأمر بالغ الخطورة بالنسبة لسير الحرب . ولدى خروجه من المستشاريّة ابتاع دليلا وشرع يدرس جغرافية البلاد التي أوفد إليها لجمع أكاليل الغار .

في تلك الأثناء كان الروس يتقدّمون خطوة خطوة في برزخ «كاريليا» ، ولم يرَ الفنلنديّون الخارقون ، الذين أذلّوا الامبراطوريّة السوفياتيّة ، من واجبهم أن يموتوا حتى آخر رجل . وتدخّلت «أسوج» ، وفي ٦ آذار ، والقتال على أشدّه ، ذهب وفد فنلنديّ إلى «موسكو» للمفاوضة . سقطت «فيبورغ» في ١١ آذار ، ووقّع على اتّفاق السلم في ١٣ ، فتخلّت «فنلندا» عن برزخ «كاريليا» ، وعن نصف شبه جزيرة الصيّادين ، وأجّرت «هنجو» راضخة بذلك لشروط أقسى من تلك التي كانت قد رفضتها لثلاثة أشهر خلت . بيد أنّها ظلّت محتفظة بأثمن كنوزها ، ألا وهو الاستقلال.

كان سلام «موسكو» ينتزع من أيدي الحلفاء مبرّر النزول في «نرفيك» ، بيد أنّه لم تتوافر لديهم فكرة التخلّي عنه ولا الحداد عليه . فألحقت بقوى الحملة البريطانيّة في «فرنسا» فرقتان كانتا مخصّصتين «لنروج» ، ولكن بقيت ١١ كتيبة على قدم الاستعداد تحسّباً للطوارىء .



سفينة التموين «ألتمارك» التي أسرت ، في المياه الإقليميّة النروجيّة .

أمّا في « فرنسا » فلم يتبدّل ، نتيجة للسلام في « فنلندا » ، غير عامل الإلحاح . وظلّت « فرنسا » و « بريطانيا » تتبادلان المذكّرات وتعيدان درس القضيّة وتنسيق الخطط .

وأعادت الدولتان تشكيل حكومتيهما ، فاحتفظ رجلا « مونيخ » ، « تشامبرلين » و « دالاديه » ، بمركزيهما ، رغم هزيمة الآمال التي كانا يجسّدانها ، وبعدما جرّا إلى الحرب بلاداً كانا يتبجّحان بالسهر على سلامها وأمنها . إلاّ أنّهما لم يُجريا ، ولم يكن بوسعهما أن يجريا ، التبديل الشخصيّ المناسب لتبدّل الآراء ؛ فهما يرأسان وزارتين ضعيفتين متنافرتي الأعضاء ، ويشرفان على إدارات تسير سير أيّام السلم . ففي هذه الحرب الغريبة لم تكن الجيوش وحدها متوقّفة عن القتال ، بل السلطات العامّة أيضاً .

ولم تنظّم التعبئة الصناعيّة في « فرنسا » رغم عظات ١٩١٤ . فقد التحق العمّال الاختصاصيّون بالجيوش كغيرهم ، وثبت أنّ استرجاعهم أمر عسير ما دام القوّاد يعارضون . هذا ، وقد اعترض نوّاب المناطق الريفيّة ، التي كانت في الحرب السابقة قد قدّمت أبناءها فريسة للمدافع ، على امتيازات الطبقات العاملة في الصناعة ، محاولين اكتساب هذه الامتيازات لناخبيهم . وحين قال أحد أولئك النوّاب في قصر « بوربون » : « إنّ وزير التسليح مهندس ، وهو لا يعرف أنّ الموسم موسم البذار » ، قاطعه الوزير المستجوَب « راوول دوتري » مجيباً : « كلّ ما أعرفه هو أنّ هذا هو موسم القنابل ... » أمّا العقبات التي صادفها الوزير في حصاده فبعضها مضحك وبعضها فاجع : ففي مصنع البارود في « انغوليم » رفض ٤٠٠٠ ملحق خاصّ ، بعد إنقاذهم من مخاطر القتال ، صنع « الميلينيت » مدّعين أنّها تورث الصلع ! وفي مستودع ذخيرة « مون لوسون » عطّلت إحدى عمليّات التخريب ١٢٠ مدفعاً مضاداً للدبّابات . وأخذ الحزب الشيوعيّ الممنوع ، والذي راح يعمل سرّاً ، يحارب من أجل « هتلر » ، حاملاً على هذه الحرب الاستعماريّة ، متمثّلاً « بالاتّحاد السوفياتيّ » الذي عقد مع « الرايخ الثالث » معاهدة سلام أخويّة . ثمّ إنّ فئات يمينيّة ويساريّة ضخمة كانت تحبّذ « هتلر » مدفوعة بتيّار الحكم الفرديّ الجارف ، أو متأثّرة بسحر الاشتراكيّات الدكتاتوريّة . أمّا الرأي العامّ فكان يترجّح بفعل دعاية فاسدة نوعاً وتوجيهاً ؛ كان يرضيه ألاّ تتعرّض أرض الوطن للغزو ، وألاّ يُراق الدّم . ولكنّه كان لا يدرك على الإطلاق سبباً لتجميد العمليّات العسكريّة . ولقد أضحى فريسة القلق يقضّ مضجعه بين الفينة والفينة . وينتاب الأمّة ، التي لا تعرف أفي حرب هي أم في سلام ، اضطرابٌ عنيف ينذر بالكوارث الكبار .

ولم تكن المعنويّات في « انكلترا » بأحسن حالاً ؛ فقانون التجنيد ، الذي جاء تقريره متأخراً ، لا ينطبق بعد إلاّ على العزّاب الفتيان ، فيما يمتدّ جدول الإعفاءات من أجل المصلحة العامّة حتى يشمل الكثيرين . وتناضل نقابات العمّال ، يتزعّمها كهل غليظ هو السير « ولتر ستّرين » ، كي لا تُستخدم حالة الحرب مبرّراً لتمديد ساعات العمل . ويذهب بعضهم إلى « فرنسا » للتبشير بمبدإ الحدّ من التسلّح . يقول « دوتري » : « لقد لامني ممثّلو النقابات الانكليزيّة بعنف بسبب استدعاء النساء إلى العمل وتشغيل الرجال أكثر من ٧ ساعات في اليوم ! » هذا ، وكان تسرّب التأثير النّازيّ إلى الطبقات المهيمنة ، والتخاذل الوطنيّ ، خطيرين في « انكلترا » كما في « فرنسا » .



« كويسلنغ » : اسم علَم بات رمزاً للخيانة !

كانت صحيفة « كليفدن ست » ، خاصّة « الليدي أستور » ، مسالمة نظراً لميلها اليساريّ ، أمّا « الديلي ميل » ، خاصّة اللورد « روثر مير » ، فكانت قد كتبت تقول : « إنّ فتيان النازيّة الألمان الأشدّاء هم حصننا في وجه الشيوعيّة. » وبعدما استعادت «انكلترا» وحدتها فيما بعد تحت قصف القنابل ، بتنا نشعر اليوم بأنّ الانهزاميّة كانت وقفاً على « فرنسا » . أمّا التاريخ المتجرّد فعليه أن يعلن بأنّ شيئاً من ذلك لم يكن .

سقط « دالاديه » في ١٩ آذار اثر تأليف لجنة سرّيّة لدرس أحداث « فنلندا » . وكان سقوطه في الواقع نصف انهزام ، لأنّه احتفظ بوزارة الدفاع الوطنيّ ، واحتلّ سدّة رئاسة الوزارة « بول رينو » الذي كان يعتبر رمز « القتال حتى الموت » و « تشرتشل » « فرنسا » . ولكنّ فوزه بالثقة أتى صعباً : نال ٢٦٨ صوتاً ضدّ ١٥٦ صوتاً ، وامتناع ١١١ . ففاز بأغلبيّة صوت واحد . وتداول الوزراء ثلاث ساعات في أمر قبول هذه الثقة الرخيصة ؛ ثمّ قبلوا بها لإيمانهم بأنّ الإتيان بتشكيلة أفضل محال في الظروف الراهنة . وفي ذلك ما فيه من صورة واضحة لانقسام البلاد وبلبلتها .

« النروج » تكلّف البحريّة الألمانيّة غالياً

في ٥ شباط اتّخذ قرار مبدئيّ فرنسيّ بريطانيّ بإرسال حملة مؤلّفة من ثلاث فرق أو أربع إلى « سكندينافيا » . وتبعه القرار الهتلريّ المماثل بعد شهر واحد ، ولكنّ الاجراءات هنا كانت تسير بسرعة مختلفة ؛ فقد كلّف « هتلر » القيادة الحربيّة العليا – أي هو – بتنظيم الحملة ، وفي ١٥ آذار ، بعد ما هدّأ « هتلر » « غورنغ » وعنّف « براوشيتش » اللذين احتجّا على إبعادهما عن السلطة ، حدّد خطّته بصورة نهائيّة : احتلال « الدانمرك » ، والنزول في « أوسلو » و « كريستيانسوند » و « ستافانجر » و « برغن » و « تروند هايم » و « نرفيك » . وفي ١٤ استقبل « هتلر » « ريدر » الذي جاء متراجعاً ، مشيراً عليه بتأجيل احتلال « نروج » إلى ما بعد الانتصار على « فرنسا » ، فصرفه « هتلر » بعدما أجابه بأنّ قراره قد اتّخذ ، وبأنّه لن يبدّل فيه حرفاً .

وقطع « هتلر » اهتمامه بـ « نروج » في ١٧ آذار ليقابل «موسوليني» في ممرّ « برينر » ، وكان هذا أوّل لقاء للدكتاتورين منذ بداية الحرب .

كان الألمانيّ قد استاء من التخاذل الإيطاليّ في أيلول ، وشعر بالاستياء ثانية على أثر رسالة لم يجب عنها وجّهها إليه « موسوليني » في ٤ كانون الثاني ونصحه فيها بالتفاوض ، منبّهاً إيّاه إلى أنّه يخدع نفسه حين يظنّ أنّه سيرغم « فرنسا » و « انكلترا » على الركوع أمامه . وقد ذهب « هتلر » إلى ممرّ « برينر » وغايته أن يثبت لحليفه المتردّد عكس ما كان يظنّ .

ذهب « هتلر » إلى موعده قويّاً : فقد حمل معه ملفّاً عسكريّاً ضخماً ، وخصوصاً خارطة تبيّن مواقع الـ ٢٠٧ فرق الألمانيّة التي تألّفت أو التي كانت قيد التأليف . وعلى علوّ ١،٤٠٠ متر في محطّة الحدود الصغيرة التي يغطيها الثلج ، وقف القطاران الخاصّان جنباً إلى جنب ، يشلاّن حركة السير بين « ألمانيا » و « إيطاليا » ساعات طوالاً ، في حين جلس « أدولف » في صالون قطار « بنيتو » يتكلّم بمفرده . ولم يجد « موسوليني » مفرّاً من الإصغاء إلى الرواية المفصّلة عن حملة « بولونيا » ، وإلى تحليل الخطط العسكريّة الألمانيّة



« موسوليني » يصغي إلى « هتلر » وهو يسرد عليه تفاصيل الحملة على « بولونيا » .

الجديدة ، وإلى عرض لمجمل مظاهر التفوّق المادّيّة والمعنويّة التي تضمن « للرايخ » الوطنيّ الاشتراكيّ نصراً سريعاً على دول غربيّة متوتّرة . وأمّا « تشيانو » ، الذي كان قد أصغى إلى الرواية من قبل ، فقد كان يتساءل عن التأثير الذي ستخلّفه تلك الطريقة في حميه الذي كان دوره يقتصر على الإصغاء .

وكان التأثير غير منتظر : فقد دبّت الحماسة في « موسوليني » . وانسابت القوّة في كيانه وأثارت فيه حميّة الحرب فقال : « ليست « إيطاليا » بحالة تمكّنها من خوض حرب طويلة . ولكنّني أشاطرك الاعتقاد بأنّ مصير « فرنسا » قد تقرّر . وبأنّ كلّ ما قد يحدث فيما عدا ذلك ليس بذي أهميّة . لقد اتّخذت قراري . أتسمع أيّها الفوهرر .. » ويتمّ الاتّفاق على أن تدرس الأركان نقل ٢٠ فرقة إيطاليّة إلى نهر « الرين » تمهيداً لهجوم منظّم نحو « ديجون » ! وكتب « جودل » فيما بعد يقول : « عاد الفوهرر متهلّلاً من « برينر » ؛ وما لبثت حملة « نروج » أن عادت تشغله وتأخذ عليه حواسّه كلّها .

كان أوّل نيسان يوم مراجعة عامّة ؛ جمع « هتلر » في مكتبه في المستشاريّة جميع ملاكات الحملة . وكانت خرائط كبيرة قد رُكّزت على الحائط ، فوقف الضبّاط أمام قطاعاتهم المعنيّة . وقام « هتلر » باستجوابهم الواحد تلو الآخر : ما هي مهمّتهم ؟ وكيف ينجزونها ؟ واستمرّ على هذا النمط من الساعة الحادية عشرة حتّى التاسعة عشرة ، يجادل ويوافق ويصحّح من غير كلل ، متوقّفاً مرّة أو مرّتين ليأمر بإحضار بعض « السندويتش » . وأخيراً أعلن عن ارتياحه التامّ ، وحدّد نهار ٩ نيسان تاريخاً للنزول في « نروج » . وكانت الخطّة تقضي بأن تشكّل الفرقة الثالثة الجبليّة ، وفرق المشاة رقم ٦٩ ، و ١٦٩ ، و ١٩٦ ، أول موجة ، تلحق بها لتعزيزها الفرقة الجبلية الثانية وفرق المشاة ١٨١ و ٢١٤ .

وفي المعسكر الآخر اجتمع مجلس أعلى في « لندن » في ٢٨ آذار . فقرّر أن تزرع الألغام في المياه الاقليميّة النروجيّة في منفذ ممرّ « نرفيك » الجليديّ لشلّ حركة نقل الحديد الخام . وفي الوقت نفسه كان يجب تنفيذ عمليّة « رويال مارينز » ، إحدى خطط « تشرتشل » المفضّلة . وهي تهدف إلى إلقاء ألغام هائمة في « الرين » غايتها نسف الجسور وعرقلة الملاحة . وحُدّد يوم ٥ نيسان تاريخاً للتنفيذ .

ولكن . يا للأسف ! لقد أصاب الذعر القيادة والحكومة الفرنسيّتين ، فقد خشيتا أن تدعو عمليّة « رويال مارينز » الألمان إلى تدابير ثأريّة ضدّ المصانع والمدن الفرنسيّة ؛ وهكذا لم تقرّ وزارة الحربيّة الموافقة التي أعطاها « بول رينو » على العمليّة . واغتنمها « تشامبرلين » سانحة للتباطؤ في العمل . فأجّل عمليّة « ولفرد » ، أي زرع الألغام في المياه النروجيّة . وهرع « تشرتشل » إلى « باريس » للدفاع عن القضيّة . ولكنّه اضطر إلى التخلّي عن ازدواجيّة مشروعي « رويال مارينز » و « ولفرد » قانعاً بالعمليّة الثانية التي عُيّن لتنفيذها يوم ٨ نيسان . وفي اليوم نفسه تكلّم « تشامبرلين » في اجتماع للمحافظين الشبّان قال : « لقد فات « هتلر » القطار » . وهذا القول لا يزال يتردّد على الألسنة .

وفي الوقت الذي كان فيه « تشامبرلين » يتكلّم . كانت أولى السفن الألمانيّة في حملة « نروج » — وهي مدمّرات ثلاث — قد أبحرت شطر « نرفيك » . ولم تستطع أيّة مصلحة من مصالح المخابرات الحليفة العديدة أن تكشف أمرها .

وفي « برلين » كان الأسبوع التالي حافلاً بالقلق ؛ فالبحر تغطيه السفن المزوّدة بأوامر دقيقة : كان عليها أن ترفع الراية البريطانيّة ، وألاّ تجيب إلاّ بالانكليزيّة ، وأن تعطي عن رحلاتها تفسيراً مدروساً ، بينما يختبىء الجنود في قعر السفينة . وكان على سفن الحرب نفسها أن تتّخذ هويّات عمارات بريطانيّة معيّنة : فالـ « كولن » مثلاً تتلبّس شخصيّة السفينة الملكيّة « كايرو » ، و الـ « كونيغسبرغ » تصبح « كالكوتا » ، وهلمّ جرّاً . ومع هذا كلّه كانت إمكانات فضح العمليّة عديدة . وبتاريخ ٨ عند الظهر نسفت الغوّاصة البولونيّة « أورزيل » الناقلة « ريو دى جانيرو » أمام « كريستيانسوند » . وأنقذت قوارب الصيد رجالاً بالبزّات العسكريّة صرّحوا بأنّهم كانوا متوجّهين إلى « برغن » للدفاع عنها ضد هجوم انكليزيّ . وصلت هذه المعلومات إلى الأميراليّة البريطانيّة في مطلع الليل ، فوُضعت في سلّة القضايا الجارية ، لم يرّها الضابط صاحب العلاقة إلاّ في صبيحة اليوم التالي عند بدء عمله .

غير أنّ الانكليز كانوا مستعدّين . فقد تجمّعت في « كلايد » قوافل النقل إلى « نرفيك » و « تروند هايم » . وفي « روزيت » بدأت القوّات بالتجمّع منذ ٧ نيسان على ظهر الطرّادات « ديفونشاير » ، و « بيرويك » و « يورك » و « غلاسكو » التي تستطيع اجتياز المسافة إلى « ستافانجر » باثنتي عشرة ساعة ، وإلى « نرفيك » بنهار

واحد . ولكن كان قد تقرّر أن تسير الأعمال بالتدريج . في ذلك الوقت كانوا يكتفون بزرع الألغام . أمّا إذا بدرت من الألمان ردّة فعل فإن جواب الانكليز يكون خاطفاً كالبرق .

والبريق الذي بزغ مع فجر ٩ نيسان هو بريق لحرب من نوع جديد . ففي الوقت الذي كانت فيه الجيوش تعبر الحدود ، وفي الوقت الذي دخلت فيه السفن إلى المرافىء ، كان سفيرا « ألمانيا » في « كوبنهاغن » و « أوسلو » يوقظان رئيسي الوزارة ويطلبان منهما أن يذعنا للأمر الواقع . فخضع الرئيس الدانمركيّ ، وأمّا النروجيّ فقد كان ممكناً أن ينقاد بدوره لو لم تكن لدى السفير الألمانيّ « بروير » تعليمات بفرض « كويسلنغ » رئيساً للحكومة . ولكنّ هذا التصلّب في الشروط ، ومقاومة الدفاع الساحليّ ، مكّنا الملك ووزراءه من مغادرة العاصمة واللجوء إلى الغابات . ثمّ الذهاب إلى شمالي البلاد بعد شدّ الطيران والمصفّحات في أثرهم .

عند الظهر كانت المرافىء النروجيّة جميعها في أيدي الألمان . أمّا النتائج الأوّليّة فقد أتت كما يلي : فقد الألمان الطرّاد المدرّع

القوّات التي كانت قاصدة إلى « نروج » . ثمّ انطلقت إلى القتال . فأمّا الأميرال « فوريس » القائد الأعلى فقد مخر العباب طوال الليل إلى الشمال . ثمّ عاد أدراجه إلى الجنوب مضيعاً في عرض البحر نهار الـ ٨ الحاسم . البحّارة يفكّرون تفكير البحّارة ، ولذلك سيطر عليهم وسواس سفن الأعداء الكبيرة . وقد أثبت تدمير « غلو وورم » وجودها في البحر . فراحوا يبحثون عنها في ذلك النهار العاصف .

وفي صباح التاسع انقشعت الغشاوة بالمعنى الحقيقيّ والمعنى المجازيّ : فقد تحسّن الطقس . واتّضحت مقاصد العدوّ . فبقي للانكليز . والحالة هذه ، أمل واحد ، هو أن يهاجموا الألمان في المرافىء أثناء قيامهم بعمليّات الإنزال . وفكّر « فوربس » بالأمر ولكنّ الأميراليّة منعته لأنّها لم ترضَ التضحية بسفن لا تعوّض ، في حين لم يكن معروفاً ما إذا كانت مراكز الدفاع الساحلية باقية في أيدي النروجيّين أم لا . وأعاد انقشاع الجوّ الحياةَ إلى الطائرات : فقد أحاطت تشكيلة من الطائرات الألمانيّة بالبوارج الانكليزيّة ، ولكنّها لم تغرق غير المدمّرة « غورخا » . وعقب ذلك بساعات

الملك « هاكون السابع » ووليّ العهد الأمير « أولاف » في الغابات النروجيّة بعد الغزو الألمانيّ .

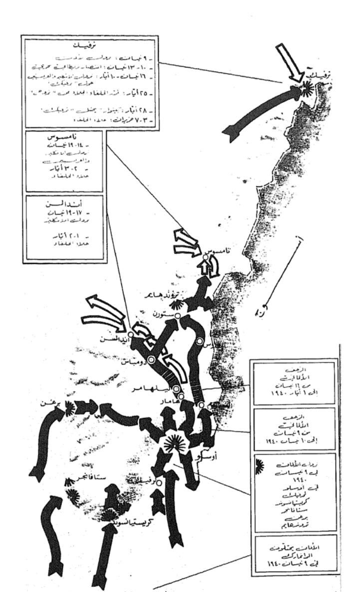
« بريسلاو » قرب « أوسلو » ، وأُصيب الطرّاد الخفيف « كونيغسبرغ » بأضرار قرب « برغن » ، وفي « تروند هايم » اعتصم أحد الضبّاط في حصن قديم . غير أنّ المفاجأة كانت شاملة في الأماكن الأخرى ، فلم تلقَ عمليّات الإنزال أيّة مقاومة .

وابتدأت الحرب في البحر . الطقس رديء ، والأمواج صاخبة ، والرؤية سيّئة وسريعة الزوال ، يتخلّل ذلك عواصف ثلجيّة . ومن أجل حماية سفن النقل الـ ٢٠٠ توزّع الأسطول الألمانيّ في ستّ مجموعات ، ممتدّة من جزر « لوفوتن » إلى جزر « بلتس » . وكان زارعو الألغام البريطانيّون يعملون بحماية سفينة كبيرة واحدة هي « الرينون » ، وفرقتين من المدمّرات . وصادفت إحدى هذه المدمّرات الـ « غلو — وورم » ، الطرّاد الثقيل « هيبر » ، فحاولت أن تصدعه بمقدّمتها ، ولكنّ المدافع الألمانيّة أغرقتها . وفي مطلع اليوم التالي تبادلت « الرينون » النارَ مدّة عشر دقائق مع السفينتين « شارنهورست » و « غنايزيناو » اللتين ظهرتا وسط بحر مزبد ، فشاءت الصدف أن تصاب أسلحة « غنايزيناو » الرئيسة وتتعطّل . ثمّ فصلت بين المتقاتلين ستائر من ثلج .

وأمّا الأميراليّة البريطانيّة فقد عدمت البصيرة والحذر ؛ فحين غادر الأسطول البريطانيّ « سكابا » و « روزيت » كان مقتنعاً بأنّه سيلتقي بالأسطول الألمانيّ في الأطلسيّ ، فراحت الطرّادات تفرغ

أقلع من « أوركاد » سرب المقاتلات الانقضاضيّة « سكواس » بقيادة الكابتن « بارتردج » ، وفيما كان يعمل في الحدود المرسومة له بصر بـ « كونيغسبرغ » الذي كانت البطّاريّات الساحليّة في « برغن » قد أصابته ، فأجهز عليه . وهذه أوّل سفينة حربيّة كبيرة في تاريخ الحروب البحريّة يغرقها الطيران .

وأثار ظهور الألمان في « نرفيك » ، على بعد ١٠٠٠ ميل بحريّ من الـ « ألب » ، دهشة وحيرة . فاعتُقد لأوّل وهلة أنّ التباساً قد حصل مع اسم « لرفيك » ، وهو مرفأ صغير لصيد الحيتان قريب من « أوسلو » . وقُدّر بعدئذ أنّ سفينة شحن قد قامت خلسة بنقل مفرزة إلى تلك النقطة الشماليّة النائية . وتلقّى القائد البحريّ « وووربرتون — لي » أمراً بالدخول إلى « الا وفوتفيور » بتشكيلته المؤلّفة من المدمّرات « هاردي » و « هانتر » و « هافوك » و « هوتسبور » و « هوستيل » للقضاء على تلك السفينة المنفردة ، ولاسترجاع « نرفيك » إذا أمكن . وفي عشيّة ٩ توقّف في محطّة الإرشاد في « ترانوي » للاستعلام ، فقيل له إنّ ستّ سفن حربيّة أكبر من سفنه هي التي غزت مرفأ الحديد ، وليست سفينة شحن منعزلة . وأبرق الخبر إلى الأميراليّة التي رفضت أن تُرسل سفينة كبيرة للموازرة ولكنّها أطلقت لـ « ووربرتون — لي » حريّة التصرف كاملة قائلة : « بإمكانك اتّخاذ القرارات التي تجدها مناسبة ، ونحن نحميك في كلّ الحالات » .



وكان جوابه الفوريّ «سأخوض المعركة في الحال».

في اليوم الثاني عاد الطقس إلى رداءته ، وغاصت قمم «لوفوتن» الجليديّة في الغيوم . وكان الثلج يفرّ متناثراً أمام الهواء العاصف . قاد «ووربرتون — لي» تشكيلته عبر الممرّات الصخريّة كالأعمى يتلمّس طريقه ، وأثار ظهوره المفاجيء أمام مرفأ «نرفيك» دهشة عظيمة . وعلى الأثر أغرقت نسّافاته المدمّرتين «فلهم هايد كمب» و «انطون شميدت» ، وأصابت ثلاثاً أخرى بأضرار . وإذ عاد «ووربرتون — لي» إلى الهجوم ، أبصر ثلاثة أعداء جدد يتصدّون له ، فثبت لهم ، ولكنّ مدمّرتين ألمانيّتين أخريين خرجتا إليه فحوصر بين نارين .

ولم تكن السفن التي دخلت «الاوفوتفيور» ستاً كما ظنّ مرشدو «ترانوي» ، بل كانت عشر سفن ألمانيّة صغيرة قويّة تكدّس تحت جسورها الضيّقة ألف جنديّ !

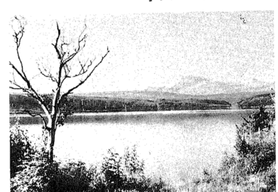
لم تكن المعركة الجديدة في صالح الانكليز . فقد قُتل «ووربرتون — لي» وهو على أحد جسور «هاردي» التي غرقت على الأثر . ولقيت «هانتر» المصير نفسه . وأمّا «هاتسبور» فقد أصيبت بأضرار جسيمة فخرجت من المنطقة بعناء تواكبها زميلتاها السليمتان . وتخلّى الألمان عن فرصة الإجهاز على التشكيلة الانكليزيّة بسبب رداءة الأحوال الجويّة من جهة ، وخوفاً من التقاء «الرينون» من جهة ثانية . وأهملوا كذلك سانحة إنقاذ الـ «راوينفلز» التي كانت تقلّ للمفرزة البريّة أسلحتها الثقيلة . فقامت «هافوك» بإغراقها في طريقها . فكان لفقدان شحنتها أثر سيّىء على أولئك الجنود التائهين في «نرفيك» .

وقرّرت الأميراليّة ألاّ تقف عند هذا الحدّ . فبعد ثلاثة أيّام ، كانت تسع مدمّرات جديدة تدخل إلى «الاوفوتفيور» يرافقها محارب قوي قديم هو «وورسبايت» الذي اشترك بمعركة «جتلاند» سنة ١٩١٦ . فاختبأت المدمّرات الألمانيّة . ثمّ ركنت إلى الفرار حتى الحدود الاسوجيّة . ولكنّ قنابل «وورسبايت» أدركتها وسحقتها . فجنحت جميعها وراحت تحترق على ضفّة المياه المتجمدة . تشاركها الغوّاصة «أو ٦٤» المصير ذاته . ومع ذلك بقيت «نرفيك» في أيدي فرقة جبليّة تحت إمرة الكولونيل «ديتل» . ولم يحاول البحّارة الانكليز أن يكمّلوا نصرهم بانتزاعها منه .

وبالنسبة لبحريّة «هتلر» التي كانت تمتلك ٢٢ مدمّرة . اعتُبرت خسارة المدمّرات العشر في «نرفيك» خسارة فادحة . خصوصاً بعد تدمير «بلوخر» و «كارسلو» و «كونيغسبرغ» التي أغرقت في ٩ نيسان . وأمّا «هيبر» و «شارنهورست» و «غنازيناو» . وبالأخصّ «لوتزوف» الذي بقي قيد الترميم عاماً كاملاً . فقد أصيبت كلّها بأضرار جسيمة . حقّاً إنّ «نروج» قد كلّفت البحريّة الألمانيّة غالياً . فلم يبقَ لديها في ١٥ نيسان إلاّ طرّادان خفيفان و ٤ مدمّرات .

في «باريس» كانت المرارة عارمة : كيف ترك الانكليز العدوّ يفاجئهم ؟ وهل كان جهاز استعلاماتهم الشهير الـ «انتلجنس سرفيس» ينام ؟ وفي اجتماع عقد في صبيحة الـ ٩ ، اجتمع الوزراء العسكريّون ورؤساء القيادة العليا وراحوا يتناقشون . فأجمعوا الرأي على أنّ أفضل ردّ على غزو «نروج» يكون بالدخول إلى «بلجيكا» والاستقرار على ترعة «البير» . وتقرّر السعي لدى البلجيكيّين لإقناعهم بأنّ الفرصة سانحة إذ أنّ قسماً كبيراً من الطيران الألمانيّ كان منهمكاً بحرب «سكندينافيا» . ولكنّ الحكومة البلجيكيّة

في أطراف ممرّ «نرفيك» الجليديّ .



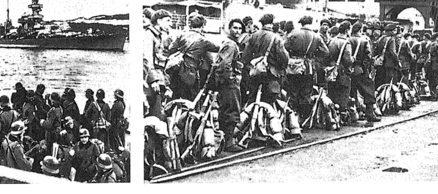
اعتبرت أنّ اتّساع الحرب في « سكندينافيا » كان يخفّف من خطر العدوان على أراضيها . وأنّ حجتّها في تمسّكها بحيادها باتت أقوى من ذي قبل .

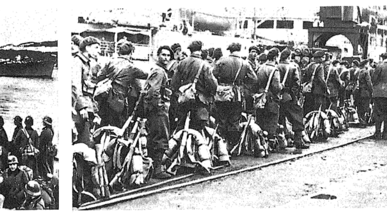
وعلى أثر ارفضاض الجلسة سافر « رينو » و « دالاديبه » إلى « لندن » . كان سعيهما يقضي باحتلال المرافىء النروجيّة . ولكنّ « تشرتشل » أبدى في هذا الموضوع اعتدالاً . فآثر أن يقتصر الأمر على « نرفيك » وحدها ، ممّا أثار الفرنسيّين . فلم لا تُسترجع « تروند هايم » كذلك ؟ إنّ فيها خليجاً شاسعاً ، ومرفأ كبيراً هو عقدة طرق المواصلات بين جنوب « نروج » وشمالها . فالسيطرة على « تروند هايم » تعني تحويل النجاح الألمانيّ إلى هزيمة . إنّ ساعة الجرأة قد أزفت . والحرب الحقيقيّة قد ابتدأت . وهكذا تقرّر استرجاع « نرفيك » و « تروند هايم » في آن معاً .

كان وضع الألمان في مرفأ الحديد حرجاً جـــداً . لم يكن لـ « ديتل » غير فرقته الجبليّة . وبطّاريّتين جبليّتين صغيرتين كادت قذائفهما تنفد . وتملّك « هتلر » الرعب عندما فكّر بأنّ تلك الفرقة الألمانيّة الضعيفة قد ترغم على الاستسلام . فقرّر أن يفرض على « ديتل » التراجع نحو « تروند هايم » . ولكنّ ضابط ارتباط الجيش في القيادة العليا للجيوش البرّيّة . الليوتنان كولونيل « فون لوسبرغ » ، أخذ على عاتقه عدم إرسال البرقيّة . وبلغت به الجرأة بعد ذلك أن يذهب لمقابلة « كيتل » و « جودل » ويلومهما على إصدارهما أوامر ليس بالإمكان تنفيذها . فما كان من « كيتل » إلاّ أن انصرف بشمم وهو يقول أنّ كرامته لا تسمح له بمناقشة ضابط شابّ يكلّمه من عل . ولكنّ « جودل » أجاب بطريقة معسولة بأنّ الأمر محال في الواقع . وأنّه مع ذلك لم يكن يستطيع أن يقول هذا للفوهرر الذي كان في حالة عصبيّة شديدة . فأجاب « لوسبرغ » بوقاحة أنّ على مستشاري الفوهرر المتخاذلين أن يتخلّوا عن مراكزهم لأناس ذوي شخصيّات أقوى . وتذكّر « جودل » عندئذ أستاذاً من « انشبروك » خبيراً بالجبال النروجيّة ، فأتى به إلى « هتلر » ليقنعه بالبرهان بأنّ التراجع على طول ١٠٠٠ كلم فوق كتل الجليد أمر محال . وأعاد « هتلر » النظر في الأمر الذي أصدره ، من غير أن يعرف أنّه لم يبلّغ قط ، فأمر « ديتل » بأن يثبّت في مكانه ، وأن يلجأ إلى طلب الحجر في « أسوج » إذا اضطرّ إلى ذلك . واعتبر الناس أنّ القضيّة قضيّة ساعات . وأنّه يمكن اعتبار قضيّة « نرفيك » بحكم المنتهية .

بيد أنّ الانكليز كان ينقصهم الإلهام . فبدل أن ينقضّوا على « نرفيك » قام اللواء الذي أرسلوه بحراً في ١٢ نيسان بالنزول في مرفإ « هارشتاد » الصغير في جزيرة « هينوي » . وكان الهدف على بعد ١٠٠ كيلو متر ، خلف جبال يضاهي عبورها عبور « الجبل الأبيض » صعوبة . أرسل « تشرتشل » بحّاراً حازماً ، الأميرال لورد « كورك اند أوريري » ، ولكنّ « تشرتشل » كان يمثّل البحريّة فحسب ، في حين كان الجنرال « ماكيزي » ، قائد القوّات البريّة ، خاضعاً لوزارة الحربيّة ، فلقيت منه نصائح زميله البحريّ الصارمة أذناً صمّاء . ولعبت السماء دورها فأنزلت من الثلج الجديد ما قدره متر ونصف المتر . فقال « ماكيزي » : « سأنتظر ريثما يذوب الثلج » . وأمّا « نرفيك » فلم تبق قضيّتها وقفاً على عمليّة حربيّة محليّة مفاجئة ، بل على حملة كبيرة.

في المعسكر الحليف لم يؤل العمل إلى التجانس ، فبقيت العلاقات الفرنسيّة الانكليزيّة جافّة . واتّصفت العلاقات داخل الدوائر القياديّة الفرنسيّة بالطابع نفسه . وأثار ارتجال الحملة النروجيّة غضب « بول رينو » الذي راح يرهق « غاملان » بالتأنيب في اجتماع المجلس الحربيّ المنعقد في ١٢ ، فما كان من « دالاديبه » إلاّ أن غادر مكانه كنائب لرئيس المجلس وجلس إلى جانب الجنرال في طرف الطاولة ، وكأنّه محام أمام موكّله . وبعد الجلسة كتب « غاملان » رسالة ضمّنها استقالته ؛ ولكنّ « دالاديبه » حمله على تمزيقها بعدما أخبره بأنّ أيّام وزارة « بول رينو » باتت معدودة .





في الصورة إلى هذا الكلام : في ١٢ نيسان غادرت الطرّادات الفرنسيّة «الجزائر» و «المنصور» و «القنطرة» و «مدينة وهران» مرفأ «بريست» على أنغام نشيد « سيدي إبراهيم » تعزفها موسيقى البحّارة . أمّا وجهة هذه السفن فكانت مجهولة .

في الصورة الصغيرة : نزول الألمان في «نروج» في ٩ نيسان ١٩٤٠ .



الجنرال « ديتل » يقول : « لقد عرفت « بيتوار » في « جارميش » أثناء الألعاب الأولمبيّة الشتويّة . إنّه لرجل ! »



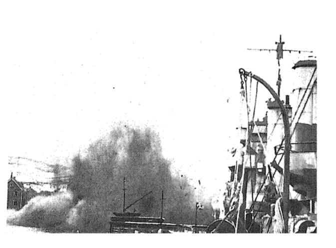
« نرفيك » تحت نيران الأسطول البريطانيّ .

في « لندن » كانت خطّة عظيمة للهجوم على « تروند هايم » قيد الإعداد ، وبموجبها يدخل إلى الممرّ الجليدي أسطول قويّ كامل ، وتكون « فاليانت » و « رينون » و « غلوريوس » و « وورسبايت » بالمعيّة ، فضلا عن ٤ طرّادات مضادّة للطائرات ، و٢٠ مدمّرة ، وعدد كبير من الناقلات ، بينما تجوب الجوّ مئة طائرة ، وينزل في المدينة مباشرةً لواء من الجيش النظاميّ ، وكتيبة كنديّة ، يلحق بهما لواء فرنسيّ للمساندة . ويتّحد مع هذه الغارة تحرّكان تابعان ، الأوّل منطلقاً من «نامسوس» على بعد ١٥٠ كلم إلى الشمال، والآخر من «اندالن» على بعد ٢٠٠ كلم إلى الجنوب . وأتى الأميرال سير « روجر كيز »، وكان ما يزال شاباً يطفح ثقة ، يتوسّل للحصول على قيادة الأسطول . وكان التاريخ قد سجّل اسم هذا الرجل يوم شلّ مرفأ « زيبروج » سنة ١٩١٨ . وها هو اليوم يتكفّل بالنصر في « تروند هايم » . وحُدّد تاريخ الهجوم « هامّر » بيوم ٢٢ نيسان . وفي ١٥ و١٧ ، نزلت طلائع إلى « نامسوس » و « اندالن » من غير أن تلقى مقاومةً . وفي ١٨ أعاد مجلس روساء الأركان النظر في عدد السفن التي سيضحّى بها . وفي قيمتها ، فقرّر إيقاف عمليّة « هامّر » ؛ فحزن « كيز » لهذا الأمر حزناً شديداً ، واقترح أن يقود إلى « تروند هايم » أقدم القطع في البحريّة الحربيّة والتجاريّة ؛ ولكنّ اقتراحه رُفض، فقد تقرّر الاستيلاء على المدينة بطريق البرّ دون سواها، بوصل شعبتي الكلاّبة التي تؤلّفها « نامسوس » و « اندالن » .

وأثار نزول القوّات المزدوج اضطراب « هتلر » ؛ فالوضع في « تروند هايم » مماثل لوضع « نرفيك » ، إذ أنّ القوّات التي تحتلّ المدينة ، والتي تتألّف من ٥،٠٠٠ رجل على الأكثر ، منعزلة عن باقي القوّات الألمانيّة التي نزلت في منطقة « أوسلو » . وأصدر « هتلر » أوامره بإغاثتهم مهما كلّف الأمر ، مواجهاً احتمال تدخّل البحريّة بإمكاناتها التي باتت محدودة . وأخيراً صبّ غضبه على النروجيّين الذين أعاقوا تقدّم فرقتي المشاة ١٦٣ و ١٩٦ نحو « تروند هايم » بفضل مقاومتهم وتخريبهم في « جود برانسدال » . لقد حاول في البدء استمالتهم بالحسنى فردّوا عليه بالسلاح ، ولذلك قرّر أن يستدعي سفيره من « نروج » وأن يستبدل به حاكماً عسكريّاً هو « تربوفن » القاسي البطّاش .

ولكنّ قلق « هتلر » الشديد لم يكن في محلّه ، لأنّ سير الأمور كان سيّئاً بالنسبة للحلفاء . كان الهجوم مواجهةً هو الوسيلة الوحيدة للاستيلاء على « تروند هايم » ، ولكنّ روساء الأركان اعتبروا أنّ في الأمر كثيراً من المجازفة . أمّا التحرّكات البرّيّة الطويلة عبر طرقات يبلغ عرضها ٣ أمتار ، وسط الثلج والوحول ، عرضة لطيران عدوّ متفوّق ، فلم تكن بميسور قوّات كان عتادها وتدريبها فاسدين .

« نامسوس » : هي بلدة صغيرة ومرفأ للصيد صغير جدّاً . كان تنظيم الحملة فاسداً لدرجة أنّ المدفعيّة المضادّة للطائرات كانت موجودة في قافلة النسق الثاني ، وخصوصاً في سفينة النقل « مدينة الجزائر » التي لم تكن تستطيع الدنوّ من المرفأ بسبب غاطسها . وأفسح



قنابل الطائرات الألمانيّة تنفجر على مقربة من السفينة البريطانيّة « اردنت » في إحدى الغارات التي شنّتها الطيران الألمانيّ على « هارسياد » في « نروج » .

الألمان مجال النزول للقوّات الّتي كانت تتألف من لوائين انكليزيّين ومن فرقة فرنسيّة خفيفة ، ثمّ أقبل الطيران الألمانيّ فأحرق المدينة . ومع ذلك فقد تحرّك الجنرال «كارتون دي وايرت» بجنوده الانكليز ، بينما تمكّث الفرنسيّون في «نامسوس» . كان الطقس مروّعاً . وأمّا القوّات الّتي كانت تعاني من البرد القارس فقد بلغت «ستينكجر» في رأس ممرّ «تروند هايم» الجليديّ ، ثمّ ما لبثت أن تراجعت أمام البرد والعقبات لا أمام مقاومة العدوّ .

«اندالن» : المدينة أصغر من «نامسوس» ، والوادي الذي ينتهي إليها كثير الوعورة . وظنّ الانكليز في البدء أنّهم طائرون إلى النصر : فقد عبروا ممرّاً جبليّاً ارتفاعه ١،٥٠٠ متر وخرجوا منه إلى الـ «جودبرانسدال» محور المواصلات النروجيّة وثروتها . ومن «دومباس» كانت طريق تتّجه نحو «تروند هايم» ونحو الجنرال «كارتون دي وايرت» ، ولكن قبل التفكير باللقاء كان يجب تقوية حماية الجانب الأيمن بمساندة وحدات الجنرال «روج» النروجيّة الّتي تسدّ الـ«جودبرانسدال» في «ليلهامر» . وبالفعل سارع اللواء ٤٨ إليها سالكاً الطرق والسكك الحديديّة ، وتبعه اللواء ١٥ القادم من «فرنسا» بقيادة الجنرال «باجي» . ولكنّ الاصطدام بالقوّات الألمانيّة وضع حدّاً لما بدا وكأنّه بداية لاستعادة «أوسلو» بطريقة مظفّرة . وقد خلّف اللواء ١٤٨ في أيدي العدوّ قائده ووثائقه ، وساق الأدلّة الّتي تثبت أنّ «هتلر» قد سبق الانكليز في «نروج» . وأمّا «باجي» فقد عاد بحطام حملته إلى «اندالن» .

في ٣٠ نيسان تهلّل «هتلر» بشراً : فقد قامت قوّاته في «جود

برانسدال» بتحقيق الاتّصال مع المدافعين عن «تروندهايم» . وبعد ذلك بيومين لم يكن قد بقي في «نروج» الوسطى فرنسيّ أو انكليزيّ واحد . لقد رحلوا جميعاً تحت قصف القنابل ، مخلّفين أسلحتهم ، متكبّدين خسائر في السفن ، مظهرين بالدرس الذي لقّنوه أنّ سيادة البحر تصبح لغواً باطلاً ما لم ترافقها سيادة الجوّ .

وحول «نرفيك» لم يكن الثلج قد ذاب بعد . وكانت استعدادات ضخمة قيد التحضير ؛ فقد وفّق «تشرتشل» إلى جعل الجنرال الحجول «ماكيزي» تحت إمرة الأميرال «كورك» النشيط . وأمّا الفرقة الفرنسيّة الّتي كان يقودها بحزم الجنرال الشابّ «بيتوار» الذي غادر «فرنسا» برتبة من منطقة «بروتانيا» في «فرنسا» ، وذلك أملاً بأن ينجوا من الإعدام أربع كتائب بولونيّة ، ومن كتيبتين من الفرقة الأجنبيّة وصلتا من «سيدي بلعبّاس» . وكان جنود هذه الفرقة الأجنبيّة جميعهم من المتطوّعين ، وإذ كان بعضهم ألماناً ، فقد منحوا هويّات تثبت أنّهم من منطقة «بروتانيا» في «فرنسا» ، وذلك أملاً بأن ينجوا من الإعدام إذا ما وقعوا في أسر مواطنيهم . وكانت خطّة الهجوم جاهزة : يتمّ



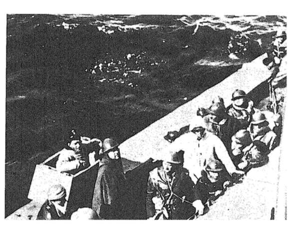
إلى اليسار :
الجنرال «بيتوار» قائد الحملة الفرنسيّة في «نروج» .

النزول في «بجيرفيك» ، ويأتي احتلال «نرفيك» أثناء عبور الـ «رومبا كسجفيور» . وكان ١٢ أيار هو اليوم المحدّد لبدء العمليّات .

وجهد الألمان من جهتهم في تعزيز فريق «ديتل» . كان «هتلر» يفكّر بخرق الحياد الاسوجيّ . ولكنّ «غورنغ» ، الذي كان قد تلقّى رسالة شخصيّة من «غوستاف الخامس» ، توصّل إلى ردّ «هتلر» عن غيّه . ومقابل ذلك كان الاسوجيّون يغضّون الطرف عن مرور الذخائر وبعض الأمداد المموّهة . ونقل الطيران الألمانيّ أمداداً أخرى إلى الفرقة الجبليّة الثالثة ؛ وفي البرّ بذلت جهود جبّارة لتحقيق اتّصال بين «تروند هايم» و «نرفيك» ، وأقامت القوّات الجبليّة سلسلة من مراكز التموين . ولكنّ العمليّة كانت عبارة عن حملة في جبال عالية أكثر منها عمليّة عسكريّة على حدّ قول القائد الأعلى «فالكنهورست» . وممّا قاله : «إنّ العمل الذي على مفرزاتنا أن تقوم به شبيه بتسلّق الـ «نانجاباربات» .

كلّ شيء معد لمعركة «طريق الحديد» . ففي «فرنسا» صرّح «بول رينو» بأنّ هذه الطريق قد قطعت ، وفي «انكلترا» أكّد «ونستون تشرتشل» أنّ حملة «نروج» ستؤول إلى النصر إذا استطاع الحلفاء احتلال «نرفيك» والاحتفاظ بها .

ولكنّ الأحداث الّتي تلت جعلت مسرح العمليّات السكنديناڤيّ تافهاً . فقد أطلّ شهر أيّار ١٩٤٠ .

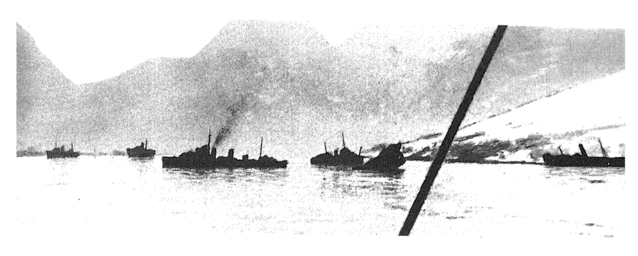


الجنرال «بيتوار» ينتقل إلى اليابسة .

في ممر "نرفيك" مساء العاشر من نيسان :
انتصار ينتهي إلى كارثة

« سبح الناجون من بحّارة السفينة الغريق « هاردي » إلى الشاطىء حاملين معهم جثّة قائدهم الذي مُنح فيما بعد وسام « صليب فكتوريا » تخليداً لذكراه ! فقد أنزل ذلك القائد ورجاله بالعدوّ ضربات لا يمحى أثرها وسجّل في تاريخ البحريّة الملكيّة البريطانيّة صفحة مجيدة » .

(« ونستون تشرتشل » في مذكّراته)



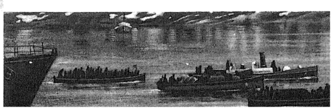
مرفأ "نرفيك"

لم يُكتب لهذا المرفأ الصغير المطمئنّ على هامش المعارك أن يهنأ بعزلته طويلاً . ففي ١٣ نيسان ١٩٤٠ انهالت عليه قذائف السفن البريطانيّة الثائرة لما أصابها من هزيمة في العاشر من نيسان .

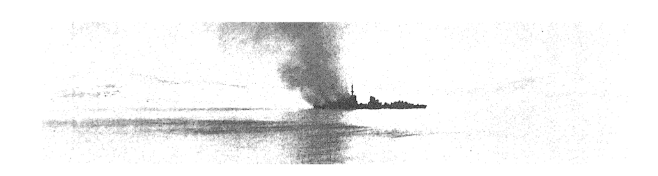




نسّافة انكليزيّة تقذف المواقع في « بييرفيك » . الوقت : منتصف الليل ، ولكن النهار طالع فيه .



بدأت المرحلة الثانية من تلك المعركة البحريّة تحت شمس منتصف الليل، ساعة هاجم الأسطول البريطانيّ بلدة « بييرفيك » على طريق « نرفيك » .





« إن أنسَ لا أنس صيحات الفرح والنصر التي انطلقت آنذاك من حناجرنا ؛ فمن إحدى سفن العدوّ علت شعلة صفراء أعقبها عمود هائل من دخان وماء ... »

(من كلام الناجي الوحيد من بحارة «أكاستا» النسافة الغريق في المياه النروجيّة)

القنّاصة الفرنسيّون

إنّهم هنا وكأنّهم في بلادهم : ثلج ، وبرد ، وبحيرات يعلوها الجليد ، وفلوات مترامية الأطراف تتكسّر في أرجائها أصداء الطلقات الناريّة ...



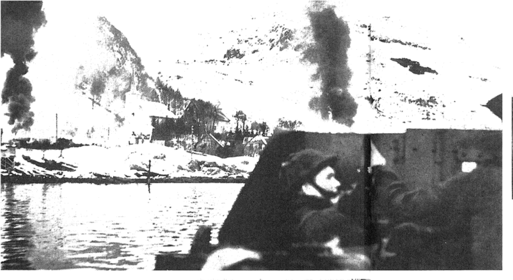




المشاة الألمان يحاربون القوّات الجبليّة النروجيّة

على طرقات « نروج » : راكبو الدرّاجات الألمان ينطرحون أرضاً بعدما أصلتهم المدفعيّة نيرانها .

تمّ الجلاء عن مَدينَـة "نامسُوس"
وَلم تسَجّل خسائِر في الأروَاح .





أغرقت المدمّرة الفرنسيّة «بيزون» والسفينة البريطانيّة «افريدي» في عرض البحر بعدما كانتا تحميان عمليّات الجلاء .

إنسحَاب الإنكليزمن "نرفيك"

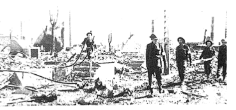
«هنالك أمر بالغ الأهميّة وبعيد الدلالة يتجلّى في خضم هذه الخسائر وهذه الهزائم ، وهو أنّ الألمان قد قضوا على قوّتهم البحريّة في صراعهم اليائس مع البحريّة البريطانيّة» .

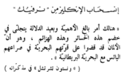
(«ونستون تشرتشل» في مذكّراته)



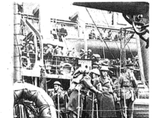
جنود انكليز سقطوا في أيدي الألمان في «نروج» على أثر الهزيمة النكراء التي أصيبوا بها في هجومهم على «تروندهايم» في نيسان ١٩٤٠ .

أطلال مَدينة "نامسُوس"





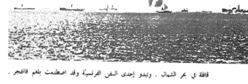
بحّارة ألمان وخونة نروجيّون يُساقون إلى السفن البريطانيّة معصوبي الأعين . لقد كُتب عليهم أن يقضوا ما تبقّى من مدّة الحرب في معسكرات الأسرى .



الجلاء عن «نامسوس» : سفينة فرنسيّة مكتظّة بالجنود الانكليز والفرنسيّين تستعدّ للإقلاع إلى «انكلترا» .

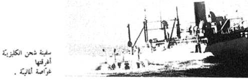
ضابط بحريّ فرنسيّ بين أنقاض «نامسوس» .





قافلة في بحر الشمال . وتبدو إحدى السفن الفرنسيّة وقد اصطدمت بلغم فانفجر .

في تشرين الثاني ١٩٣٩ ألقى الألمان في المعترك سلاحاً جديداً من أسلحتهم السريّة هو الألغام المغنطيسيّة التي كانت تبثّها في المياه طائرات بحريّة . وقد أصاب البحريّة البريطانيّة من هذه الألغام أذى كبير . في حين فقد الفرنسيّون بها قارب الصيد المسلّح «سانت كلير» وسفينة الشحن «فلوريدا» قرب «دنكرك» .



سفينة شحن انكليزيّة
أغرقتها
غوّاصة ألمانيّة .



مجموعة من
العمارات البريطانيّة
تجوب البحار فجراً
في مهمّتها اليوميّة
المعتادة
بحثاً عن
غوّاصات العدوّ .



في البحار...

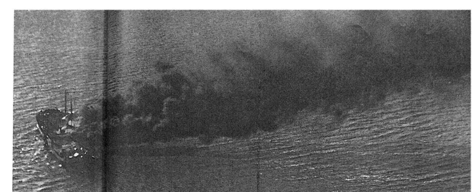
كانسو الألغام الألمان على أهبة الاستعداد لمواجهة إحدى الغارات الجوّيّة .

في حين يصمت السلاح في أرجاء «أوروبا» ، يحوّم الموت على سطوح البحار . ففي المتوسّط وقف ركّاب إحدى البواخر الإيطاليّة واجمين أمام هذا الوحش الغريب الحذر الذي أطلّ عليهم من الأعماق ، والذي لم يبتعد إلا بعد مفاوضات طويلة .

«النسّافات ، والمرافقات ، والطائرات ، والغوّاصات ، وكانسات الألغام ، وغيرها من الوحدات البحريّة ، تسعى كلّها في عمل دائب مستمرّ بأعمال الدوريّات ، أو بحراسة البواخر التجاريّة . إنّها لمهنة شاقّة ! إذ ليس من السهل أن تحافظ سفينة لا تتعدّى حمولتها ٦٠٠ طنّ على سرعتها وخطّها في أيّام الشتاء العاصفة في خليج «غاسكونيا» مثلاً ، في حين تبلغ حمولة السفن المحميّة عشرة أضعاف حمولتها أو خمسة عشر ضعفاً ، فهي بالتالي أقدر على مجابهة الأحوال القاسية» .

(الأميرال «بولو» ، في كتابه «البحريّة الفرنسيّة في حملة ١٩٣٩ – ١٩٤٠») .

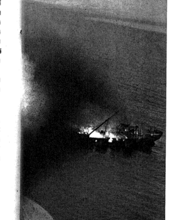




ألحرب في البحار

أخذت صور هذه الصفحة كلّها من مصادر ألمانيّة . في الصورة تحت هذا الكلام : الأميرال «دونتز» واقفاً أمام خارطة تسجّل تحرّكات غوّاصاته ، وإلى يمينه الكابتن ليوتنان «شني» ، وإلى يساره الكابتن «زور شي غودت» .

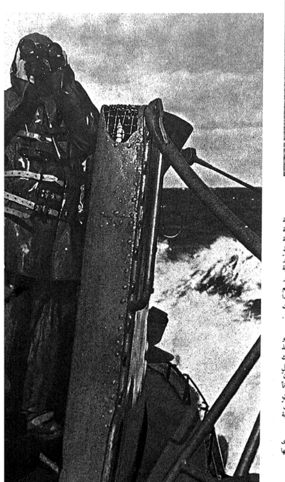




منذ بدء العمليّات الحربيّة أظهرت القوّات البحريّة البريطانيّة تفوّقاً على البحريّة الألمانيّة . ولكنّ نشاط الغوّاصات الألمانيّة كان يضطرّ الطرّادات الانكليزيّة إلى حماية قوافل البواخر التجاريّة عبر الطرق البحريّة في انحاء العالم كافّة . وفي الصورة ، إلى هذا الكلام ، إحدى الغوّاصات الألمانيّة في المحيط الأطلسيّ .

«الفخ الأسود» ... هذا هو الاسم الذي أطلقه الانكليز منذ قيام العمليّات الحربيّة على تلك البحار الشاسعة التي كانت القوافل تمخر عبابها بلا حراسة ، لأنّ الطرّادات كانت عاجزة أحياناً عن تأمين الحراسة الكاملة في مدى الرحلة الطويل . ولعلّ هذه السفينة قد تلقّت الضربة القاضية في ذلك الفخّ .

صورة التقطها العدوّ لإحدى السفن المنكوبة ، وهي تمثّلها مدفوعة إلى الشاطىء .



١٠-١٨ أيار ١٩٤٠

مأساة «سيدان»

كان «تشامبرلين» أوّل ضحايا شهر أيّار ١٩٤٠ .
في ٢٧ أيّار وقع نقاش حادّ في مجلس العموم حول هزيمة «النروج» ، وكان المجلس يهتزّ تحت وطأة الإذلال والغضب . وانبرى «كيز» و«اميري» و«داف» و«كوبر» و«لويد جورج» ، والنائب الذي كان شبه مجهول «أرنولد ولسون» – كان يعمل كرام رشّاش في ذيل إحدى قاذفات القنابل وقضى نحبه أثناء قيامه بهذا العمل فيما بعد – فمزّقوا رئيس الوزارة إرباً .

وأمّا «تشامبرلين» عجوز «مونيخ» . فقد دافع عن نفسه بعناد مستميت . ولكنّ نداء التكاتف الذي وجّهه إلى المحافظين كان في غير محلّه في جوّ الوطن المهدّد بالخطر . وعند الاقتراع على الثقة انضمّ ٣٠ محافظاً إلى المعارضة وامتنع ٦٠ منهم عن التصويت . فتدنّت الأكثريّة من ٢٠٠ إلى ٨٠ صوتاً . وكان «ليو اميري» قد أنهى خطابه اللاهب الطويل بالتعنيف الذي واجه به «كرومويل» المجلس سنة ١٦٥٣ قُبيل حلّه . قال : «لقد بقيتّ هنا أكثر من اللزوم بالقياس إلى الخير الذي أدّيته . ولذا أقول لك: إذهب . بربّك ! إنصرف عنّا !!..» واستجاب «تشامبرلين» لهذا النّداء المسرحيّ فخرج وهو يتعثّر بأقدام وزرائه ، وقبل مغادرته القاعة التفت يرمق المجلس بنظرة ملؤها السخط والمرارة .

وفي خارج المجلس تمالك «تشامبرلين» روعه . ولكنّه استمرّ في عناده . وبما أنّه بات من المستحيل أن يحكم كرئيس محافظ . فما عليه . والحالة هذه . إلاّ أن يسعى إلى الحكم كرئيس يستقطب الفئات كلّها . ولذلك طلب إلى العمّال مساندته . ولكنّهم رفضوا . ولم يبقَ أمامه إذ ذاك إلاّ أن يسعى إلى تعيين خلف له علّه يوفّق إلى إقصاء «تشرتشل» عن المنصب . فوقع اختياره على «هاليفاكس» . ولكنّ «هاليفاكس» كان لورداً يحظّر عليه دستور «بريطانيا» دخول مجلس العموم . وهكذا اتّجهت الأنظار نحو «تشرتشل» .

كان الكثيرون يتريّثون في قبول هذا الحلّ لأنّهم يرون في «تشرتشل» ذلك الجنديّ الثائر . ورجل «الدردنيل» العنيف . ووزير ماليّة ١٩٢٣ المخفق . والمسؤول المباشر عن النكبة النروجيّة الأخيرة . أليست أميراليّته هي التي أدّى تقاعسها وإهمالها إلى ظهور عشر قوافل ألمانيّة في آن معاً في مرافىء «النروج» كلّها . من «أوسلو» إلى «ترفيك» ؟ أمّا «تشرتشل» فقد حمّل نفسه خلال المناقشة وزر ما حدث . غير أنّ «لويد جورج» العجوز رفع رأسه الأشيب وقال : «لا يحقّ لهذا السيّد الوقور أن يحوّل نفسه إلى ملجإ يقي زملاءه شظايا الغارات . . » وقام فريق من المتحمّسين يساند الرجل الذي كان الرأي العامّ الانكليزيّ يرى فيه . باقتناع متزايد . الحيويّة التي كانت «انكلترا» بأمسّ الحاجة إليها . فيما بذل آخرون طاقتهم لمنعه من الوصول إلى سدّة الرئاسة . وأقام «تشرتشل» ينتظر بفارغ الصبر .

وفي «باريس» وقعت أزمة مماثلة . ولكنّها كانت أكثر خطورة لأنّها تتعلّق بالحكومة والقيادة في آن معاً . «فبول رينو» يرفض وجود «غاملان» رفضاً باتّاً . وقد شجّعته على هذا الموقف رسالة جريئة أرسلها إليه الكولونيل «ديغول» متجاوزاً الأصول المرعيّة في النظام الطبقيّ العسكريّ . وممّا ورد فيها : «إنّ الجهاز العسكريّ . بسبب انقياده الطبيعيّ للتقاليد . لا يُمكن أن يُصلح نفسه بنفسه . . إنّ إصلاحه



معركة نهر «الموز» . الألمان يركّزون مدفعاً مضادّاً للدبّابات .

وقف على رجل دولة . فيجب أن تأخذه أنت على عاتقك . وأنا لا أطمح في شرف أعلى من خدمتك في هـذا العمل الأساسي . . . » .
غير أنّ « دالاديّيه » كان ما يزال متضامناً مع « غاملان » . وهو الذي عيّنه بنفسه . وكان ما يزال يرى فيه إشعاع العبقريّة الهادئة . وفي اجتماع الوزارة في ٩ أيّار . رفض تنحية « غاملان » عن قيادته . وردّاً على هذا الرفض أعلن « دالاديه » استقالة الوزارة . وطلب من زملائه أن يُبقوا هذا القرار سرّاً إلى الغد . الجمعة في ١٠ أيّار ١٩٤٠ .

في ١٠ أيّار تدفّقت سيول الرجال والدبّابات عبر طرق « الأردين » إلى وهدة « سيدان » .



عمليّة السّندان والمطرقة

وإذ كان « هتلر » منهمكاً في الحملة النروجيّة . لم يعد إلى التحدّث عن « الخطّة الصفراء » إلاّ في ٢٧ نيسان . حين أعلن « لكيتل » و « جودل » عن عزمه على مهاجمة « فرنسا » بين الأوّل والسابع من أيّار .

كان كلّ شيء جاهزاً . والخطّة العامّة التي وُقّعت في ٢٤ شباط لم يطرأ عليها أيّ تغيير . وكانت وحدة النيّة والفكرة قد قامت بين القيادة الحربيّة العليا والقيادة العليا لجيش البرّ . أي بين « هتلر » وقوّاده . أمّا الوثيقة فقد كانت روعة في الاعتدال والوضوح : كان على مجموعة الجيوش (ج) (١٩ فرقة بقيادة « فون ليب ») أن تقوم بدور سلبيّ فتحافظ على الجبهة بين « سويسرا » و « لوكسمبورغ » . وتقتسم مجموعتا الجيوش الأخريان (ب) (فون بوك) و (أ) (فون روندشتاد) الدور العمليّ الفعليّ .

وكان دور المجموعة (ب) ما أسمته القيادة الألمانيّة « هجوم التمركز » ؛ وقد حُدّد بما يلي : « يجب على هذه المجموعة أن تحتلّ « هولندا » بسرعة . وأن تحول دون اتّصال القوّات الهولنديّة والقوّات الانكليزيّة ـ البلجيكيّة . وأن تحطّم بعملية سريعة صاعقة خطوط الدفاع عن الجبهـة البلجيكيّة » . وقد أُفرد لهذه المهمّة ٢٩ فرقة ؛ وجيشان هما الـ ١٨ (بقيادة « فون كوخلر ») والـ ٦ (بقيادة « فون رايخناو ») . وهي قوّات تفتقر نسبيّاً إلى الوحدات المصفّحة الكبيرة . ولكنّها تملك أكبر طرفة عسكريّة عرفها العصر . ألا وهي مشاة الجوّ : يهبط مظلّيّو الجنرال « شتودنت » وطائرات الجنرال الكونت « شبونيك »

الشراعيّة من السماء ويحطّون رحالهم في المطارات والأوتوسترادات . ثمّ يستولون على جسور « الموز » و « الرين » الكبيرة . ويهاجمون التحصينات بالأساليب الثوريّة التي تخيّلها الفوهرر . وكان يُرجى من هذا العمل المبتكر . وهذه الضربات الكبيرة الرنّانة . أن يتحوّل انتباه قيادة العدوّ إلى شماليّ المعركة . فتسيّر في ذلك الاتّجاه معظمَ قوّاتها . وعند ذلك تنطلق المجموعة الألمانيّة إلى « بلجيكا » فتضغط على الجبهة الحليفة .

« فبوك » إذاً هو « السندان » . و « روندشتاد » هو المطرقة ؛ فقد أوكلت الخطّة إلى « روندشتاد » أمرَ الهجوم الأساسيّ وزوّدته بما تقتضيه خطورة المهمّة : ٤٥ فرقة . منها سبع مصفّحة . ورُسمت خطوط عمليّته بما يلي : اقتحام ممرّ « الموز » بين « دينان » و « سيدان » بأسرع وقت ممكن . ثمّ التوغّل بكلّ ما يتيسّر من إمكانات وسرعة في اتّجاه مصبّ « السوم » بغية الاستيلاء من الخلف على المنطقة المحصّنة في شماليّ « فرنسا » . وقد تقاسمت هذه المهمّة ثلاثةُ جيوش : الـ ٤ (بقيادة « فون كلوغي ») الذي يشنّ الهجوم على جبهة واسعة بين « أوبين » وشماليّ « لوكسمبورغ » . والـ ١٢ (بقيادة « ليست ») الذي يهاجم على جبهة ضيّقة جدّاً في اتّجاه « سيدان » ؛ وأخيراً الجيش الـ ١٦ (بقيادة « بوش ») الذي يحمي جنبات الجيش الزاحف من كلّ ردّة فعل فرنسيّة قد تأتي من الجنوب .

والميزة الفريدة لمجموعة « روندشتاد » هي اشتمالها على الوسائل الهادفة إلى تصديع جبهة العدوّ . « فكلوغي » كان الوحيد الذي احتفظ بقيادة مصفّحاته مباشرة . وكانت مؤلّفة من فرقتي الدبّابات الـ ٥ والـ ٧



« من حسنات الدبّابة أنّها تجمع إلى الحماية حركةً وفعالية ، فهي بذلك شبيهة الأفيال التي اتّخذها خلفاء « الاسكندر » في حروبهم ، وشبيهة « دبّابات التروس الواقية » التي كان الجنود الرومـــان يستعملونها » .

(« يونجر » ، الكاتب العسكريّ الألمانيّ)

التي تشكّل الفيلق المصفّح الـ ١٥ بقيادة الجنرال « هوث » . أمّا العناصر السريعة الأخرى من مجموعة الجيوش فكانت محصورة في « زاوية مصفّحة » واحدة فُرض عليها أن تتوغّل نحو « سيدان » على أنساق ثلاثة بسبب قلّة الطرقات . وكانت هذه الفئة من المجموعة مؤلّفة من فيلق « غوديريان » الـ ١٩ ، (فرق الدبّابات الـ ١ و٢ والـ ١٠) ، ومن فيلق « راينهارد » الـ ٤١ (فرقتا الدبّابات ٦ و٨ ، وفرقة المشاة الآليّة الثانية) ومن فيلق « فيتّرشايم » الـ ١٤ (المؤلّف من الفرقتين الآليّتين الـ ١٣ والـ ٢٩) . وسُلّمت قيادة هذه الزاوية الحديديّة إلى الكولونيل ـ

زحف المصفّحات الألمانيّة بين ١٠ و٢٧ أيّار ١٩٤٠ . ←

جنرال « فون كلايست » . والنزعة التي ارتسمت معالمها في « بولونيا » . وهي تجزئة الجيش الألماني إلى جيش سريع وجيش بطيء . إلى جيش ثوري وجيش تقليدي . وجدت لها تحقيقاً منظماً في عملية « سيدان » .

ففي غضون أربعة أشهر . وبفضل فن الأركان الممتاز . تحول حدس « هتلر » وبصيرته إلى خطة رائعة البساطة فائقة الجرأة . فإذا بها إحدى التنظيمات الستراتيجية الأكثر إحكاماً مدى العصور كافة .

ولكن صبر « هتلر » كاد أن ينفد . لأن مهل التأجيل تراكمت . في ٣ أيار كانت التقديرات الجوية سيئة فتأجل الهجوم إلى ٨ . في عشية ٧ . وبعد تدقيق في خارطة الأحوال الجوية . حصل تأجيل آخر نزولاً عند طلب « براوشيتش » . فقال « هتلر » : « إنني أذعن لآخر مرة . لن يكون هنالك تأجيل آخر » . وكان الأمر الذي صدر عن القيادة الحربية العليا في صبيحة ٩ أيار شبيهاً بالأوامر الـ ١٥ السابقة التي أضحت مثار الشك والسخرية لتكرارها . وأما هذه المرة فالخبر لم يكن مرفقاً كالمعتاد بعبارة « تأجل الهجوم » . وقد وقعه « كيتل » . رئيس القيادة الحربية العليا .

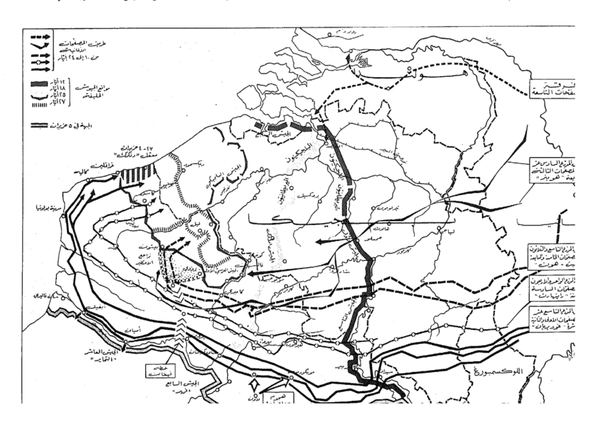
وفي ٩ . في الساعة ١٦.٤٨ . غادر قطار الفوهرر الخاص « برلين — فنكنبرغ » . فوصل إلى « أوسكيرشن » قبل الفجر . كان الجو حالكاً . رطباً . بارداً . وكان بعض أرتال المشاة يعبر المدينة الصغيرة بسكون . واستغرق الصعود إلى « فيلسنست » نصف ساعة ؛ وهي أحد مراكز القيادة الأربعة التي جهزت لسيد الحرب . وحين وصل « هتلر » وضباطه الـ ١٤ إلى مجموعة المباني المتناثرة في الغابة . كانت الشمس تبزغ فوق الأشجار السوداء التي يكتنفها الضباب ؛ وكان الهجوم الغربي قد ابتدأ لدقائق خلت ! »

بعد غزو « هولندا - القلعة » ، سقوط ترعة « ألبير » منذ الصباح الأول

انقلاب فجائي في « هولندا » . . فمنذ الفجر أطبق المظليون على « روتردام » و « لاهاي » ؛ وعلى جزيرة « دوردرخشت » قرب مرفإ « مورديجك » الكبير . لقد سقطت « هولندا — القلعة » منذ الدقيقة الأولى للقتال .

خلال الشتاء قامت عدة محاولات لتنظيم دفاع مشترك بين « بلجيكا » و « هولندا » . ولكنها لم تسفر عن أية نتيجة . وإذ لم يبق أمام الهولنديين إلا الاعتماد على قواهم الخاصة فقد أقلعوا عن فكرة الدفاع عن حدودهم . واكتفوا بتركيز اهتمامهم على المثلث « امستردام — لاهاي — روتردام » مستنجدين بحليفهم التاريخي . ألا وهو الفيضان . وأما الجزيرة الاصطناعية التي كانوا يعتزمون خلقها في وجه الغزاة فكانوا يأملون أن تتلقى المساعدة من الانكليز . وأن يجري إيصالها بالمراكز العامة للحلف بواسطة جيش فرنسي يأتي من « أنفير » .

ولكن عملية مد الفيضان كانت تتطلب مهلة أربعة أيام . وفي سبيل كسب هذه المهلة حشد الهولنديون فرقهم العشر : في الشمال كان على الفيلقين الرابع والثاني أن يدورا بأبطإ ما يمكن حول « أرنهيم » . وفي الشرق كان على الفيلق الثالث . ومعه فرقة متخصصة . أن يدافعا شبراً شبراً عن الموقع الممتد على طول مستنقع « بيل » ؛ وأما الفيلق الأول . الذي كان مجال عمله من « الرين » إلى « الزيدرزي » . فقد



كان عليه أن يستقبل العناصر المنسحبة ، وأن يضمن حرمة المعقل الوطنيّ . ولكنّ أمر الغزاة الهابطين من السماء لم يخطر ببال !

حارب الهولنديّون بعزم لا يلين ، فصمدوا في مواقع عدّة . ولكنّهم لم يُوَفّقوا إلى استعادة مطاراتهم ، وإلى تطهير قلب بلادهم . وذهبت الاستغاثات التي وجّهوها إلى الطيران الانكليزيّ والفرنسيّ سدى . فيما كانت أسراب « كسلرنغ » تسيطر على الجوّ : فبعد ما أنزلت ٤,٠٠٠ رجل من فرقة « فليغر » الـ ٧ ، راحت تزوّدهم بالمؤن وتساندهم ، مُعملةً الفوضى في صفوف العدوّ بقصفها المستمرّ . وفي تلك الأثناء أعلن الهولنديّون غير مرّة أنّهم استعادوا السيطرة ، ولكنّهم كانوا يعلنون بعد ساعات أنّ بقعة الزيت الألمانيّة تتّسع وتتفشّى . . .

وكما في « هولندا » كذلك في « بلجيكا » ؛ فعلى بعد كيلومترات غربيّ « ماستريخت » تمتدّ ترعة « ألبير » بعرض ٦٠ متراً بين ضفّتين عموديّتين ، وتُعتبر أمنع خندق مضادّ للدبّابات في « أوروبا » . وأمّا الجسران اللذان يقطعانها ، وهما جسر « فيلدويزيلت » وجسر « فرووِنهوفن » ، فقدْ لُغما بدقّة . ويعلو هذين الجسرين برجان مصفّحان . وكان ثلاثون كيلومتراً من الأراضي الهولنديّة تقف حاجزاً بين الأراضي الألمانيّة ومراكز الدفاع البلجيكيّة . وحين أُطلق الإنذار



في فجر العاشر من أيّار هبط المظلّيّون الألمــان مدينة « روتردام » وأرباضهـــا .

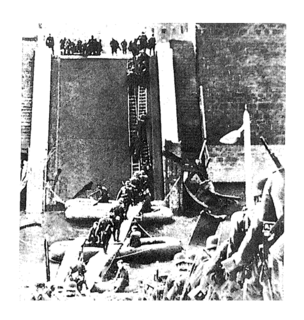
في فجر ١٠ أيّار ، كان فوج المشاة الـ ١٨ مقتنعاً بأنّ لديه متّسعاً من الوقت لصدّ الهجوم ، ولكن بعد مضيّ أربع ساعات كانت طلائع العدوّ تمرّ بسرعة على الجسرين اللذين لم يُصابا بأذى !

ولكن، كيف كان ذلك ؟ بدأت العمليّة بقصف جوّيّ عنيف قضى على المدافعين ، وبعد ذلك هبطت الفصائل المنقولة جوّاً وراء التّرعة فهاجمت الجسرين من الخلف . وأمّا حرّاس الحدود فقد قُتل بعضهم ، وأُسر بعضهم ، وتملّك الباقين الذعرُ فلم يتمكّنوا من استعمال جهاز التفجير ! وعلى الأثر قام المشاة الذين أقلّتهم الطائرات بقمع ما اعترضهم من مقاومة ، وصمدوا بانتظار رؤوس الأرتال القادمة من « ماستريخت » . إذاً ، لم يبقَ من وسيلة تسدّ على الغزاة معابر التّرعة إلاّ مدفع « إبين — إيمايل » : فقد كان هذا الحصن مزوّداً بـ ٨ مدافع عيار ٧٥ ، وبمدفعين عيار ١٢٠ باستطاعتهما تصويب النار

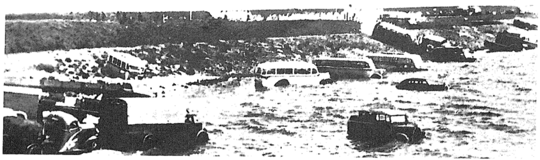
في كلّ الجهات ، ولكنّ الحصن بقي ساكتاً . لم يكن العدوّ قد استولى عليه بعد ، إذ أنّ حاميةً مولّفةً من ألفِ رجل كانت ما تزال تقاوم في معاقله . والحقيقة أنّ الحصن قد دُمّر . فقد دخل إليه النقّابون المظلّيّون من فرقة الليوتنان كولونيل « ميكوش » ونسفوا مراكز المراقبة والرّماية بالموادّ المتفجّرة في ظرف ١٧ دقيقة . لقد كان هذا الهجوم ممهوراً بطابع « هتلر » ، كان من تصميمه ووحيه وتوجيهه !

هذه الأحداث كلّها تشهد للألمان بنفاذ الرأي ، فها انّ محور الدفاع البلجيكيّ ينهار في ساعات ، وها انّ الخندق المضادّ للدبّابات ، الذي كانت الآمال تُعقد على صموده أيّاماً ، يعبره العدوّ في صبيحة واحـــدة .

كان الجيش البلجيكيّ يتألّف من ٢٣ فرقة ؛ والخطّ الذي كان يعتزم أن يخوض عليه معركته الأولى يمتدّ على « الموز » من « جيفي » إلى « لياج » ، وعلى ترعة « ألبير » من « لياج » إلى « أنفير » . وكانت تتخلّل هذا الخطَّ مواقعُ حصينة ثلاثة : « نامور » و « لياج » و « أنفير » ؛ وقد تمّ الحشد خصوصاً قبالة « هولندا » ، كأنّ المدافعين كانوا يرون الخطر محدقاً من « تيلبورغ » و « بريدا » أكثر منه من « إيكس لا شابيل » و « ماستريخت » ؛ فعلى التّرعة التي كانت تفصلها عن الحدود مسافات تتراوح بين أربعين كيلومتراً وعدّة أمتار ، ربضت إحدى عشرة فرقة . ومع أنّ الجهاز الدفاعيّ كان معرّضاً للخطر فلم يزوّد بالقوّة الدفاعيّة الملائمة . وفيما كانت الفرق العشر الأخرى تدافع عن قطاعات تمتدّ على عشرة كيلومترات تقريباً ، كانت الفرقة السابعة ، وهي فرقة « فرووِنهوفن » و « فيلدويزلت » ، تحتلّ وحدها ضعف هذه المساحة : فقد اعتُبر أنّ هذه الفرقة كانت محميّة بموقـــع « لياج » ، وبحصـــن « إبين — إيمايل » ، وبنهـــر « الموز » ، يعزّزها خندق التّرعة بوعورته الفائقة . ولم يخطر ببال المدافعين أنّ العدوّ الذكيّ قد ينسف دفعة واحدة مفاصل جبهـــة الخصم . وتبيّن أنّ مناورة « سيدان » قد تكرّرت في « إبين — إيمايل » ، إذ باءت بالإخفاق المحاولاتُ التي بُذلت لإنقاذ الحصن واسترجاع الجسور . . . ففي الساعة الـ ١٧ بدأت فرقة الماجور جنرال « ستيفر » بعبور أفضل خندق مضادّ للدبّابات في « أوروبا » ، على الرغم من



١٠ أيّار . الغزاة يعبرون جسراً مرتجَلاً في إحدى المدن الهولنديّة .



سيّارات هولنديّة مغرّقة في نهر « ريلدرزي » .

تأخرُّها في « ماستريخت » حيث كانت جسور « الموز » قد نُسفت ؛ وقامت محاولات جويّة ثلاث للإنقاذ ، الأولى بلجيكيّة ، والثانية فرنسيّة ، والثالثة انكليزيّة ، ولكنّها أخفقت كلّها ، فما كان من « إيبن — إيمايل » إلاّ أن استسلمت ، فازدادت الثغرة اتّساعاً .

وفي الساعة ١١ في ١١ أيّار ، في قلعة « برندونك » العتيقة ، بين « أنفير » و « بروكسيل » ، اجتمع الملك « ليوبولد الثالث » القائد الأعلى ، والجنرال « ميكييلز » رئيس أركانه الجديد ، ورئيس وزارته الجنرال « أوفير ستراتن » وقرّ رأيهم على أن وضع تغطية ترعة « ألبير » قد انقلب ، فلم يتبقّ سوى إصدار أمر بالتراجع العاجل إلى موقع المقاومة الرئيس . كانوا يتوقّعون القيام بهذه الخطوة بعد أسبوع . وإذ بهم يُرغَمون عليها منذ صبيحة اليوم الثاني . وهذا الموقع يمتدّ أمام العاصمة البلجيكيّة ، وقد أقام فيه البلجيكيّون بعض الحصون ، وبنوا حاجزاً مضادّاً للدبّابات . وكان على الجيوش الفرنسيّة البريطانيّة أن تأتي فتصطفّ إلى جانبهم على طول هذا الحاجز . فهل تصل في الوقت المناسب .

كيف تسير الجيوش الفرنسيّة البريطانيّة إلى القتال

في « انكلترا » أدّى الهجوم الألمانيّ إلى حلّ الأزمة الحكوميّة ؛ وفي « فرنسا » تجمّدت الأزمة بسببه . ففي صبيحة ١٠ أيّار شكّل « تشرتشل » الوزارة التاريخيّة ، وزارة النصر ، المؤلّفة من : « أتلي » و « هاليفاكس » و « بيفن » و « ايدن » و « بيفربروك » وغيرهم . وتراجع « بينو » عن الاستقالة التي كان قد قدّمها ، وتبادل مع خصمه « غاملان » ، بعض العبارات الرنّانة ، فقال له : « أمّا الآن فإنّ النصر هو هدفنا الوحيد » . فأجاب « غاملان » : « أنا لا أرى غير جواب واحد : « فرنسا » . إلاّ أنّ هذه الكلمات لم تقف حائلاً دون الانهيـار .

في الساعة ٧,٣٠ دخلت طلائع الجيش الفرنسيّ إلى « بلجيكا » . وكانت العمليّة التي ستنفّذ هي عمليّة « ديل » . ولكنّ المنفّذين لم يكونوا جدّ مقتنعين بحكمتها ، حتّى ان « بريو » ، قائد فيلق الخيّالة ، و « بلانشار » ، قائد الجيش الأوّل ، طالبا بالالتجاء إلى عمليّة « إسكو » . ولكنّ « بيّوت » و « غاملان » عارضا الفكرة . لقد فات الأوان !

وقام الجيش الفرنسيّ البريطانيّ بالالتفاف ، ومحوره قلعة « جيفي — سور — موز » القديمة الصغيرة ، فتحرّكت مجموعة مؤلّفة من مليون رجل تقطع السهول التي حفلت سجلاّتها التاريخيّة بأسماء معارك لا تُحصى : فمن صخور « الأردين » إلى مناطق « زيلاندا » الخصبة كان الجيش الفرنسيّ البريطانيّ يسعى نحو مصيره .

كان الجناح الأيسر مؤلّفاً من الجيش السابع . وقد تُرك في الاحتياط ، على أن يكون مستعدّاً لهجوم مضادّ . وقد تمّت تحرّكاته بسرعة وفقاً لمخطّط الجنرال « جيرو » الدقيق . ومنذ عشيّة الـ ١٠ دخلت إلى « هولندا » الفرقةُ الآليّة الخفيفة الأولى ، وفرقةُ المشاة الآليّة الـ ٢٥ ، واقتربت من « بريدا » ؛ وإلى يمين « جيرو » تحرّكت فرق اللورد « غورت » التسع ، فتمركزت بين « لوفان » و « فافر » محيطة بالبلجيكيّين الذين كان ينبغي على جبهتهم أن تمتدّ حتّى « أنفير » . وإلى يمين الانكليز سار الجيش الفرنسيّ الأوّل ، وهو أفضل الجيوش الفرنسيّة إطلاقاً ، المؤلّف من ٨ فرق مشاة وفرقتين خفيفتين آليّتين . وكان على هذه الفرق التي تؤلّف فيلق الخيّالة أن تناوش في منطقة « سان تروند » ، فيما تستقرّ القوّات الباقية عبر ثغرة « جمبلو » التي تُعتبر الطريق التقليديّة للغزوات . وأبرز برهان على أنّ القيادة الفرنسيّة كانت تتوقّع الصدمة الرئيسة في ذلك المكان ، هو في نوعيّة الفرق التي اختارتها ، وفي ضيق الجبهات التي عيّنتها . فقد كانت كلّ فرقة من فرق الجيش الأوّل مزوّدة بالمدفعيّة والأسلحة المضادّة للدبّابات ؛ ومهمّتُها حماية جبهة لا تتجاوز ٥ أو ٦ كيلومترات . وكانت الفرق الخفيفة الآليّة في مقدّمتها ، وفرق المصفّحات السريعة القويّة في مؤخّرتها . وأمّا قائد الجيش ، الجنرال « بلانشار » ، فقد كان ضابطاً مفكّراً عالِماً ، تنعته الأركان العامّة العليا بأنّه « ذكيّ ، ولكنْ متشائم » .

وبجوار « بلانشار » وقف « كوراب » . إنّه قائد من نوع آخر ، تكلّل بأكاليل الغار حين أسر الأمير « عبد الكريم » بعد ما طارده خطوةً خطوةً في جبال « الريف » المغربيّة . ولكنّ الجيش الذي يقوده لم يكن في بداية الحرب سوى مفرزة جيش « الأردين » ، أمّا الأمداد التي تلقّاها فقد بقيت شحيحة ؛ وكان على فرق الخطّ الأوّل الخمس التي يقودها أن تحافظ على « الموز » من « نامور » إلى جوار « سيدان » ، فتصمد اثنتان منها في التحصينات التي أقامتها ؛ بينما تتمركز الثلاث الأخرى في الأرض البلجيكيّة . كانت الجبهات شاسعة الآفاق . ومهمّة كلّ فرقة أن تدافع عن ١٥ أو ٢٠ كيلومتراً من الأراضي وأكثر . وفضلاً عن ذلك لم تكن المعدّات كاملة ؛ وإليكَ المثلَ : لم يتوافر لفرقة المشاة الـ ٦١ إلاّ ١٢ مدفعاً من عيار ٢٥ بدلاً من ٤٨ ؛ وفيما كان ينبغي أن يتوافر ٧٢ مدفعاً للفرقة ١٠٢ التي كانت على جبهة

تبلغ الـ ٤٥ كلم . كان ينقصها منها ٢٩ . ويجدر بنا ههنا أن نوفّي « كوراب » حقّه : فقد طالب بالمزيد منها غير مرّة ، مشيراً إلى ضآلة قوّاته وضعف نوعيّتها ؛ ولكنّ هذه الشكاوى كادت أن تكلّفه قيادته . إذ يظهر أن جنرال « الريف » هذا لم يفهم أنّه قد كُلّف بجبهة سلبيّة المصير : شقوق عميقة . صخور عالية ، أحراج كثيفة : شبكة مواصلات ضعيفة . . . وهذا لا يعني أنّ العدوّ لم يكن ليقوم بعمليّات في ذلك القطاع . وخصوصاً في « دينان » حيث كان قد مرّ سنة ١٩١٤ . أو في اتّجاه « ميزيير » ، وهي نقطة التقاء طرقات كثيرة . ولكنّ كلّ عمليّة هامّة يسبقها حشد الإمكانات ، وتراكم المدفعيّة ، وهذا لا يتمّ بأقلّ من ١٥ يوماً . ولا يمكن أن يبقى سرّاً . فبفضل فرقتين احتياطيّتين . وفرقة الخيّالة الّتي تنضمّ إليه بعد إنجاز مهمّتها . يتوافر لـ « كوراب » ما يمكّنه من مواجهة عمليّة محليّة . وأمّا في حال ظهور تهديد ذي بال في تلك الناحية . وهو أمر بعيد الاحتمال ، فستقوم القيادة بالعمل المناسب !

« كوراب » ، ثم « هونتزيغر » . فبعد الجيش التاسع يأتي الجيش الثاني الذي تمتدّ جبهته من ترعة « الأردين » حتى « لونغويون » . وكان لهذه الجبهة في « سيدان » رأس جسر صغير قالت وثائق الأركان العامّة « إنّه مضمون الحماية بفضل أحراج « مارفي » المُحيقة بها » . ففي حال قدوم دبّابات العدوّ من غابة « سيدان » فإنّها لن تستطيع النزول إلى الوادي إلاّ عبر طرقات معرّضة للنيران المركّزة على مرتفعات الضفّة الشماليّة . وفي سبيلٍ تأمين الدّفاع الأوّليّ ، وحماية جنبات النهر أُقيمت البيوت المحصّنة ، والحصون ، والملاجىء . صحيح أنّ البعثة البرلمانيّة الّتي يرأسها ضابط من الحرب الأولى ، الليوتنان « بيار تيتنجر » ، قد لفتت النظر إلى الحالة « البدائيّة لتنظيمات الدّفاع حول « سيدان » ، وأضافت أنّ اعتبار « الأردين » و « الموز » حواجز طبيعيّة أمر مبالَغ فيه ، ولكنّ قائد الجيش الثاني أمر أركانه بتحضير « جواب ساخر اللهجة » . فممّا قاله « تيتنجر » : « إنّ ويلات كثيرة تنتظرنا في تلك الأراضي ، وفي سبيل دفن الذكريات



عُهِد إلى الجنرال « كوراب » بنقل الجناح الأيسر من جيشه من « جيفي » إلى « نامور » .

المؤلمة الّتي أحيتها زيارة « سيدان » يجب اتّخاذ إجراءات حاسمة وسريعة » . فأجاب « هونتزيغر » : « لاأرى دافعاً لاتّخاذ إجراءات سريعة لتدعيم قطاع « سيدان » . فنحن لم ننتظر قدوم السيد « تيتنجر » لكي نعمل » .

والحقيقة أنّ « هونتزيغر » كان غير مسؤول : فقد عرض « غاملان » جيشه وأعرب عن ارتياحه ؛ ولا مسؤوليّة عليه بالنسبة لتوزيعه القوى المتوافرة لديه : فالقيادة العليا قد عرفت به ووافقت عليه . وكانت التعليمات الشخصيّة السرّيّة الّتي تلقّاها من هذه القيادة تفرض عليه أن يحافظ على حرمة خطّ « ماجينو » ، وأن يحول دون التفاف الأعداء حوله . وعلى هذا الأساس أقام في جناحه الأيمن ، في رأس جسر « مونميدي » ، أمتنَ قوّاته ، وهي أفضل أربع فرق لديه : فرقة المشاة الـ ٤١ ، وفرقة مشاة المستعمرات الثالثة ، وفرقة المشاة الأفريقيّة الشماليّة الثالثة ، وفي الخطّ الثاني فرقة مشاة المستعمرات الأولى ؛ فلم يبقَ لديه سوى فرقتين ، وكلتاهما من الفئة (ب) ، وهما فرقتا المشاة الـ ٥٥ والـ ٢٧١ ، وجنودهما من الاحتياطيّين القدامى الذين كان تسليحهم ناقصاً وتدريبهم سيّئاً وروحهم منهارة . هؤلاء أقامهم في ميسرته في منفذ « سيدان » .

وهنا تبلغ الحالة منتهى اللاّمعقول : فخطّ « ماجينو » يكسف « فرنسا » ! لم يبقَ هذا الخطّ تحصيناً يقتصد في العتاد والأعداد ، بل أمسى إسفنجة تمتصّها . فقد سلب الجيشَ الفرنسيّ خيرةَ عناصره وجعل منها فرقاً شلاّء عاجزة ؛ بل لقد قضى على المنطق السّتراتيجيّ ، وحتى على المنطق البسيط العاديّ ؛ كانت الغاية الأساسيّة إيجاد صلة وثيقة بين الجيوش المتحرّكة والجيوش الساكنة . لتكون للحركة في « بلجيكا » مفصّلة متينة ؛ وبديهيّ أن يكون هذا الأمر قد استلفت النظر . ولكنّ وسواس « ماجينو » كان يتسلّط على العقول ويغشّيها . وكان مفروضاً أن يُوجّه « هونتزيغر » انتباهه نحو اليسار ، نحو العمليّة الدقيقة الّتي كان يحمي جنبها ؛ ولكنّ الجهة اليمنى ملكت عليه حواسّه . فجرّد جيشه لصالحها . وصبّ من الإسمنت في قطاع « مونميدي » المحصّن أكثر ممّا فعل في قطاع « سيدان » المفتقر إلى التحصين . لا يفكّر إلاّ بتدعيم ما كان قويّاً ! ولم يتدخّل لا « جورج » ولا « غاملان » لتقويم اعوجاجه ! فكأنّي بـ « جورج » و « غاملان » قد نسيا أنّهما لاحظا ، قبل بدء الحرب بأشهر قليلة ، أنّه ليس من المستحيل عبور المصفّحات « الأردين » ، وأنّ باستطاعة ثماني فرق من فرق العدوّ أن تبلغ « الموز » في ثلاثة أيّام . ويظهر أنّ « جورج » و « غاملان » كانا يعتقدان بنشوب معركتين منفصلتين الواحدة في السهول البلجيكيّة ، والأخرى على خطّ « ماجينو » . تفصل بينهما منطقة هادئة تكفي لحمايتها بضع فرق متوسّطة ومخفّضة .

وهكذا استمرّ اللامعقول ! ففي « اللورين » و « الألزاس » ، وراء ترس خطّ « ماجينو » زادت كثافة القوّات . وكانت جيوش أربعة تنتظم صفوفاً من « لونغويون » حتى « سويسرا » ، وهي الجيوش ٣ و ٤ و ٥ و ٨ — ومجموعها أربعون فرقة — ومدفعيّة جبّارة ، ومئات من الدبّابات . ولم تكن القيادة الفرنسيّة لتجهل أنّ القوّات الألمانيّة في الجهة المقابلة مؤلّفة من عشرين فرقة ، كلّها من الدرجة الثانية ، وغير مزوّدة بالآليّات المصفّحة ؛ فهي بذلك قد حقّقت تفوّقاً عدديّاً بمعدّل ٢ ونصف مقابل ١ . بينما كانت في وضع لا تُحسد عليه في المجالات الأخرى .

وصـــول « غوديريـــان »
إلى « ســـيدان »

كان يوم ١٢ أيّار موافقاً أحد العنصرة . فغصّت المدن والقرى في « فرنسا » و « ألمانيا » بالفتيات المُقبلات على المناولة الأولى . الرافلات في فساتين الأورغاندي . أمّا في « هولندا » و « بلجيكا » فكانت مشاعل الحرب تصبغ السماء بلونها الفاحم .

ولكنّ أمراً كان قد تقرّر : غدا فكّ الحصار عن « هولندا — القلعة » مستحيلاً . فبعد ما انطلق « جيرو » انطلاقه الصاعق . امتنع عن المجازفة بقوّاته في شماليّ « الإسكو » . مكتفياً بإرسال الفرقة الآليّة الخفيفة الأولى . ومجموعات الاستطلاع التابعة لفرقتيه الآليّتين . نحو « بريدا » . وترك الطيران الألمانيّ الأرتال الفرنسيّة تصعد نحو الشمال فلم يتدخّل خلال يومي ١٠ و١١ أيّار ، ثمّ نشط فجأة إلى العمل . فإذا التبدّل باد للعيان : كانت مسيرة الأمس ظافرة تغمرها الزهور . أمّا اليوم فغاراتٌ عنيفة . وشاحنات تلتهب ، ودماء تجري أنهاراً على طرقات حفرتها القنابل ، وإذا بالجيش السابع يتلقّى معموديّة الدم بإباء . وسرعان ما بدا التوغّل عديم الجدوى ، فما حلّ المساء حتى صدر الأمر بالتراجع إلى ما وراء « الإسكو » .

وفي ١٢ أيّار عُقد مؤتمر انكليزيّ — فرنسيّ — بلجيكيّ في قصر « كستو » على مقربة من « مونس » ، فاصطحب القوّاد الكبار هذه المرّة إلى اجتماعهم صوراً ناطقة واقعيّة عن الحرب . ففي «بلجيكا» كما في «هولندا» . حوّل تدخّل الطيران مسيرة الأمس الظافرة إلى مأساة : فالقرى تلتهب . والطرقات يُصليها العدوّ وابلاً من الرصاص . والذعر الذي بذره هبوط المظلّيّين أثار اشتباكات عنيفة دامية . مثّل « دالادييه » « فرنسا » . يرافقه الجنرالات «جورج» و «بيّوت» و « شمبون » ؛ ومثّل « انكلترا » موفدُ اللورد « غورت » ، ومثّل « بلجيكا » مليكُها . كانت الصدور تضجّ بالتذمّر والتقريع : فالفرنسيّون لم يجدوا موقع « ديل » على ما كانوا يتمنّون من التجهيز ، ولم يكن بوسعهم . مهما تظاهروا بالتهذيب ، أن يخفوا استغرابهم من مبادرة البلجيكيّين إلى التخلّي عن ترعة « ألبير » . هذا مع اعترافهم بقوّة سلاح الطيران الألمانيّ . ومع أنّ « ليوبولد » قد صرّح « لأوفر ستراتن » في السيّارة التي تُقلّه إلى مقرّ القيادة قائلاً : « يبدو لي الأمل في النجاح محدوداً » . فقد قبل بسلطة الجنرال « بيّوت » المكلّف بتنسيق عمل الجيوش الحليفة في الجناح الأيمن . وهكذا تقرّرت وحدة القيادة . بيد أنّها لن تقوى على الصمود في وجه العثرات والتقلّبات .

أسرع فيلق الخيّالة في التمركز أمام « جمبلو » . وكانت مهمّة فرقتيه الآليّتين الخفيفتين إيقاف زحف العدوّ مدّة أربعة أيّام . ومع أنّ الاشتباك أتى عنيفاً قاسياً . فقد كانت الأخبار الأولى التي تفد إلى مركز القيادة تبعث على الرضى . وبدت المعركة مطابقة لما قدّرته القيادة الفرنسيّة : اصطدام بعض الطلائع جنوبيّ « لياج » . يعقبه تمركز على مواقع « أنفير — نامور » . إلّا أنّ سرعة الزحف وعنفه فاقا ما كان متوقّعاً .

تسلّطت الأنظار كلّها على « جمبلو » . لم يحدث ما يعكّر صفو الأمن في « اللورين » وعلى « الرين » . أمّا في « الأردين » فقد اضطرّت فرق الخيّالة الخمس الخفيفة ، التي أرسلت في مقدّمة الجيشين التاسع والثاني . إلى التقهقر بسرعة . وأمكن التعرّف إلى وحدات ألمانيّة مصفّحة على مقطع « السوموا » . بيد أنّ القيادة لم تشأ أن تخلص من ذلك إلى نتائج مقلقة : « فهونتزيغر » متمركز في المواقع التي سبق إعدادها . ووصل جناح « كوراب » الأيسر إلى « الموز » بين « جيفي » و « نامور » ، وهكذا ظلّ الاقتناع الذي بُني عليه جهاز الدفاع الفرنسيّ قائماً : فالعدوّ لن يركّز جهده الرئيس في منطقة « الأردين » الوعرة .

مساء ١٢ أيّار ظهرت فجأة في سماء « بويون » مجموعة طائرات حليفة . وانهالت القنابل . وطارت نوافذ فندق « بانوراما » شظايا . كان الفندق ينتصب بإباء فوق وادي « السوموا » المحصور بين ضفّتيه المتعرّجتين . كانت أجيال من الصيّادين قد ملأته غنائم . فأخذت ريح القنابل الساخطة تنثرها وتبعثرها . وإذا برأس خنزير برّيّ ثقيل يهوي فيتحطّم على الطاولة على بعد سنتيمترات من جنرال قد عكف على خارطته يدرسها . وإذا بشظايا باب زجاجيّ تنهال عليه . وفي الخارج أصابت القنابل قافلة ذخائر . فأخذت القنابل تنفجر واحدة بعد واحدة محدثة دويّاً تأتلف أصداؤه في الوادي الضيّق كقرقعة طبول مدوّية !

أمّا الجنرال الذي أوشك خنزير ميت أن يصرعه فهو « غوديريان » . انتفض أوّلاً ثم ضحك . لم يكن قد وصل إلى فندق

وجّه الرايخ الثالث قيادته العسكريّة وجهة جديدة . فبات القوّاد يقودون جيوشهم شخصيّاً . والصورة تمثّل « غوديريان » قائد الفيلق المصفّح التاسع عشر يقود الهجوم باتّجاه « سيدان » .



« بانوراما » إلاّ منذ نصف ساعة . وكان رئيس أركان حربه . الكولونيل « نهرنغ » ، قد اتّخذ من هذا الفندق مقرّاً لقيادة فيلق المصفّحات . غير آبه لوجود جسر قريب قد يجتذب قنابل المُغيرين . فقال « غوديريان » : « أفضّل أن ننتقل إلى مكان آخر يا « نهرنغ » . فلا يليق بنا أن نموت اليوم . . . » لم تكن « بويون » . آخر مدينة صغيرة في الأرض البلجيكيّة . إلاّ على بعد ٥ كلم من الحدود الفرنسيّة . التي كانت قد عبرتها في الساعة ٩.٣٠ صباحاً طلائعُ فرقة الدبّابات الأولى . وهي دبّابات خفيفة اتّخذت ورقة السنديان شعاراً لها ؛ ثمّ توغّلت على الفور في غابة « سيدان » . وكانت في تلك الساعة تعبر تلّة « ايلي » وتطلّ على الميدان الشهير الذي منه أشرف « غليوم » ملك « بروسيا » . في ١ أيلول ١٨٧٠ . على الهجوم اليائس الذي شنّه قنّاصة « غاليفة » الأفريقيّون . كانت المدفعيّة الفرنسيّة تصلي العدوّ ناراً حامية من مواقعها في الضفّة الشماليّة . إلاّ أنّ « سيدان » المشتعلة ما كانت تبدو محميّة . إذاً فلقد بلغت الجيوش نهر « الموز » ولمّا تنقضِ ٦٠ ساعة على مغادرتها قواعدها في « ايفل » .

لم يكن الأمر سهلاً يسيراً . فقد لجأ البلجيكيّون إلى أعمال نسف عاقت الزحف . وناضلت الخيّالة الفرنسيّة بضراوة . مع أنّها لم تصمد قط حيث هي إلاّ تقيّداً بمهمّتها التأخيريّة البحتة . كان من شأن خطّة كهذه أن تزيد في اضطراب الوضع خطورة . سيما وأن فرقة واحدة فحسب من الفرق الثلاث المصفّحة التابعة للفيلق ١٩ . وهي الفرقة الأولى . قد حافظت تماماً على التوقيت المفروض . أمّا الفرقة العاشرة فقد بلغت « بازيل » بصعوبة خلال الليل . فيما بقيت الثانية متأخّرة على نهر « السوموا » .

في قرية « نوار فونتين » . بالقرب من مركز القيادة الجديد . هبطت طائرة ألمانيّة صغيرة ، وأرسل الكولونيل جنرال « فون كلايست » . آمر المجموعة المصفّحة . في طلب « غوديريان » لتبليغه الأمر المتعلّق ببرنامج اليوم التالي . وبعد نصف ساعة كان « غوديريان » يصغي بذهول ، ولا يصدّق أن يكون أحد الرّجال قد بزّه في الجرأة : في ١٣ أيّار ١٩٤٠ . وفي تمام السادسة . كان عليه أن يعبر « الموز » عن جانبيّ « سيدان » . وأن يقيم رأس جسر باستيلائه على المرتفع ٢٤٧ . وعلى قرية « فاديلنكور » وغاب « مارفي » . واعترض « غوديريان » بحجّة أنّ قوّاته لم تتجمّع بعد ، وأنّ إحدى فرقه كانت لا تزال متخلّفة . وأنّ فوج الانقضاض المدعوّ « ألمانيا الكبرى » لم يجتز « بويون » . وأجاب « كلايست » أن لا حيلة له في تدبّر الأمور : فالأمر ليس صادراً عنه . ولا عن « فون روندشتاد » قائد مجموعة الجيوش . ولا عن « فون براوشيتش » القائد الأعلى . إنما هو صادر عن « أدولف هتلر » اللّجوج ؛ فمعركته تسير بشكل مُرضٍ . والعمليّات المتعلّقة « بهولندا » و « بلجيكا » . والّتي وضع خططها بنفسه . قد أحرزت نجاحاً باهراً . وفضلاً عن المُنجزات العسكريّة الصرفة التي حقّقتها هذه الضربات الصاعقة . فقد كان له فضل تحقيق أحد الأهداف التي كان الفوهرر يسعى إليها ، ألا وهي توجيه الاهتمام ناحية « لياج » و « روتردام » لإبعاده عن « دينان » و « سيدان » ؛ كما أنّه أمر بإبراز هذه الأهداف في البلاغات الرسميّة قصد إحاطة زحف المصفّحات عبر « الأردين » بالتكتّم التامّ . كان يريد أن يقذف الفرنسيّون بقوّاتهم إلى « بلجيكا » ، وقد فعلوا . فكأنّهم بذلك ينفّذون هم أيضاً أوامره ! وقد لاحظ « هتلر » ذلك إذ قال : « لم يكتشف العدوّ بعد الهدفَ الأساسيّ من تحرّكاتنا . ألا وهو توغّل مجموعة الجيوش الأولى . فهو ما يزال يحشد قوّات ضخمة ناحية خطّ « أنفير — نامور » . ويهمل القطاع المواجه للمجموعة الأولى » . على أنّه لم تتوافر مساء ١٢ أيّار شروط معقولة للتسرّب والتوغّل عبر طرق « سيدان » . طلب « غوديريان » التريّث قليلاً . ولو لبضع ساعات . ريثما يستطيع حشد جيشه . وكان رؤساؤه المباشرون يشاطرونه هذا الرأي . بيد أنّهم ما كانوا ليتحمّلوا مسؤوليّة إجراء أيّ تعديل في التوقيت الذي حدّده « هتلر » .

عقب حرّ النهار ليلٌ صافٍ كالماس . بارد كالصقيع . وضلّت الطائرة التي كانت عائدة « بغوديريان » إلى مركز قيادته طريقها فترة من الزمان . فوق الخطوط الفرنسيّة . واستمرّت المدفعيّة الفرنسيّة في قصفها . وأشارت محاضر ذلك اليوم كلّها إلى دقّتها وفعاليتها . وبدا واضحاً أنّ اقتحام موقع كموقع « سيدان » . تحميه مدافع محكمة كهذه . أمر يتطلّب سلاحاً مضادّاً عنيفاً . ولم تكن المدفعيّة التي ستتوافر « لغوديريان » في الساعة ١٦ من اليوم التالي لتسمح له بذلك . شيء واحد كان يطمئن « غوديريان » . هو أنّ « شبيرل » . قائد الأسطول الجوّيّ الثالث . كان يحضر حديثه مع « كلايست » . ولقد وعده بأكبر عون كان يمكن أن يحلم به جيش من الجيوش .

ألطـيّران يجتـاح ، وَجـيش المشـاة يحتـلّ

لقد بدأ الوعد الذي قطعه « شبيرل » يتحقّق في الحادية عشرة . وقبل لحظات كان الجنرال « غرانسار » . قائد الفيلق العاشر . يقول لمساعده الجنرال « لافونتين » . قائد فرقة المشاة الـ ٥٥ : « طالما قلت لك إنّ هجوماً ألمانياً لا بدّ أن يستغرق إعداده أسابيع أو أشهراً . فنحن الآن ما نزال في مرحلة الاتّصال التي تسبق المعركة . وأمامكم فترة استراحة تمتدّ ٨ أيّام في أقلّ تعديل » .

وفي الواقع لم يكن هناك ما يبرّر تشاؤم محارب من المدرسة القديمة . صحيح أنّ وصول الألمان إلى « الموز » بهذه السرعة أمر مدهش . ولكنّ المبدأ الفرنسيّ يقول إنّ رحى القتال لا تدور بعنف إلاّ في ميدان واحد هو ميدان المقاومة الرئيس . إذاً . فكلّ ما حصل في المراكز الأماميّة خلال الأيّام الثلاثة الأخيرة لم يكن إلاّ لُماظة ومقبّلات ! صحيح أن الألمان قد وصلوا بدبّاباتهم . بيد أنّ الدبّابات لا تُحسن السباحة : فقد نُسف جسر « الإكلوز » . وهو آخر جسر على « الموز » . في التاسعة من مساء اليوم السابق . بعد ما نُسفت جسور أخرى عديدة . ومهما يكن من أمر فإنّ تقدّم العدوّ السريع قد أقلق القيادة . فأصدرت أوامرها بتوجيه بعض وحدات الاحتياطيّ العامّ نحو « سيدان » . فالتحق بالفيلق العاشر فوجا المدفعيّة ٣١٤ و٣٦٩ . وتوزّع على المرتفعات غربيّ « سيدان » مئتان من فوّهات النار تختلف عياراتها بين ٧٥ و١٥٥ . كان للفوضى التي سادت منطقة الفيلق ما يبرّرها . فلقد اتّخذت القيادة قراراً بإيفاد فرقة المشاة ٧١ على الفور إلى خطّ النار بدلاً من الاحتفاظ بها في قوى الاحتياط ؛ كانت قد أتت من بعيد . فأحدث تمركزها العسير بعض الاضطراب في الفرق المجاورة التي اضطرّت إلى أن تضمّ صفوفها لتفسح لها مجالاً للرماية . وإن تمّ

المناورة قبل ليل ١٤ــ١٥ . وسيكون لها فضل تضييق الجبهة التابعة لفرقة المشاة ٥٥ . كانت الفرقة تشكو من مواطن ضعف صارخة شائعة في وحدات مجموعة (ب) . وكان لا بدّ من أن تقاتل على علاّتها . مع العلم أنّ في القتال في ميدان أُعدّ منذ شهور تفوّقاً لا شكّ فيه .
كان مركز قيادة الفرقة في « فونداغو » . على بعد ١٠ كلم من الخطوط الأماميّة . وكان قائد اللواء . « هنري جان لافونتين » . ذا شاربين كثّين . وله من العمر ٥٨ سنة . وكان . بخلاف « غرانسار » . يعتقد أنّ الألمان سيشنّون هجوماً سريعاً جدّاً : فقد وصف له بحزان « موس » الملحق العسكريّ السابق في « فرصوفيا » . حملة « بولونيا » . فبات بالتالي يعتقد أن « الموز » لا تشكّل حاجزاً في وجه جيش عبّر نهري « البوغ » و « الفيستول » بسهولة . وقد أنذر «هونتزيغر » بذلك حين تسلّم قيادة فرقته . بيد أنّ «هونتزيغر » هزّ كتفيه ولسان حاله يقول : « بولونيا » هي « بولونيا » . أمّا هنا فنحن في « فرنسا » . أيّها الجنرال !



«وسط الغابات الكثيفة ، حيث لا إيناس ولا ضيافة ، وحيث لا ينجو المحاربون ولا تسلم الأسلحة إلاّ بعد عناء شديد » .

كانت فرقة المشاة ٥٥ ترابط على « الموز » . من « ترعة الأردين » إلى « بون موجي » . تدعمها كتيبة رشّاشات . وبعض عناصر مشاة القلاع . بعدما بُتِر منها أحد أفواجها . الفوج ٢١٣ . وإلى يسارها يعمل الجيش التاسع التابع للجنرال « كوراب » . وإلى يمينها فرقة المشاة ٧١ التي يقودها الجنرال « بوديه » . والنهر يجري في قاع وادٍ عريض حاضناً مرتفعات ضفّته اليسرى التي تمركزت فيها فرقة المشاة ٥٥ ومنها تطلّ أبراج مراقبتها على غابة « الأردين » حيث كان العدوّ يتغلغل عبر طرقات متعرّجة . ماراًّ « بسان ــ مونج » و « جيفون » . وفي المدن الأقرب تنبسط المراعي الفسيحة الرطبة التي تحيط « ببازيل » . و « دونشيري » . وشبه جزيرة « إيج » المستطيلة التي يرسمها « الموز » بعد اجتيازه « سيدان » . أمّا المدينة فقد كانت مهجورة تلتهمها النيران . كان هجر شبه جزيرة « إيج » . التي لا يمكن الدفاع عنها بسبب شكلها المستدير . تدبيراً حكيماً غايته نقل المقاومة إلى الترعة التي يبلغ طولها ١.٥٠٠ متر . وفيما عدا ذلك كانت الأوامر تقضي بالدفاع عن « الموز » ذاته بتسليط حاجز من النّار المتّصلة على مجراه . وقد أُقيمت لهذه الغابة خمسون كتلة من الإسمنت المسلّح زُوِّد كلّ منها بمدفع رشّاش ومدفع من عيار ٢٥ أو ٤٧ . بحيث لا يبقى شبر واحد من مجرى النهر بمنأى عن النيران .

اتّخذ القطاع شكل قوس وترُها غاب « مارفي » الصغير بين « الموز » و « البار » . كان الوصول إليه صعباً . وكان سفحه الشماليّ يوفّر الحلقة « سيدان » حقول رماية ممتازة . هناك جُعل خطّ التوقّف . وقد أسف بعضهم لأنّ نقطة المقاومة الرئيسة لم تُجعل فيه . بعد التخلّي عن الحلقة التي كان الدفاع عنها أصعب من الدفاع عن المدينة المهجورة . ولكنّ المبدأ الدفاعيّ التقليديّ كان يصرّ على وجوب الالتصاق بخطوط الماء . وهي الخنادق التي وفّرتها العناية لمقاومة الدبّابات .

ذاك كان ميدان فرقة المشاة ٥٥ العاثرة الحظّ . وكان الطيران الألمانيّ قد اختارها دون سواها من فرق الجيش الفرنسيّ كلّه ليمزّقها إرباً إرباً في مساء ١٣ أيّار . فقد امتدّ القصف الجويّ الذي وعد به « شبيرل » حتى شمل قطاعها بكامله . فسحق القرى الأماميّة . وقصف المؤخّرات . ومفارق الطرقات . ومعاقل المدفعيّة . وقرى عديدة . وهاجم السراديب التي نسّفت بعضَها القنابلُ . فيما حجب التراب منافذ بعضها الآخر ومراميه . كانت أسراب العدوّ تعمل بنظام . في مجموعات تضمّ كلّ منها ٣٠ طائرة . فتنقضّ راسمةً دائرة تتطاير منها سهام « الشتوكا » المولولة بشكل روّع الألمان الذين كانوا يضيّقون الخناق في اتّجاه « الموز » . وكاد يثير شفقتهم . ولقد ذكر الكومندان « فون كيلمانسغ » في سجلّ الميدان ما يلي : « لا شكّ في أنّ نتيجة هذا القصف مخيفة ! فلقد صمتت المدفعيّة الفرنسيّة .. » .

ولكن ماذا كان من أمر الطيران الفرنسيّ ؟ لقد قام في ١٠ و ١١ أيّار بمطاردة أحرزت بعض النجاح . ثم ظهر في ١٣ وأسقط ثلاث طائرات فوق « الموز » . وكانت تلك آخر مناسبة تغلّبت فيها الصناعة الخفيفة على الصناعة الضخمة ! وبعد ساعات ظهرت في الجوّ دوريّة فوجدت أمامها ٨٠ طائرة « مسر شميت » تواكب ٥٠ قاذفة قنابل . ففقدت الدوريّة طائرة واحدة وأسقطت طائرتين . وانتهى بذلك تدخّل الطيران الفرنسيّ في ذلك اليوم .

في تلك الأثناء كان المهاجمون يحتشدون . وكانت طرقات « الأردين » في وهدة « سيدان » تغصّ بجحافل من الرّجال وسيول من العتاد . كان الحرّ لاهباً . والغبار جافّاً . والعطش محرقاً . أمّا موعد الهجوم العامّ فقد حُدّد للساعة ١٦ ؛ بذا قضى أمر الفوهرر . وكان لا بدّ من التقيّد بهذه السرعة الهائلة . كان فوج « ألمانيا الكبرى » المكلّف بالدور الأساسيّ في الهجوم ما يزال . في مطلع النهار . في الأرض البلجيكيّة . على بعد ٤٠ كلم من نقطة انطلاقه ؛ وأخذت الشاحنات تقذف برجاله على تخوم غابة « سيدان » . على أن يسيروا بعد ذلك مسافة ٧ كلم حاملين على ظهورهم قوارب المطّاط وعتاداً ضخماً . إنّها لمسيرة محمومة تُثقل الكواهل . أمّا المدفعيّة الفرنسيّة . التي كانت بالأمس تقصف السفوح المقابلة . فقد صمتت الآن . كانت النيران تلتهم « فلوويننغ » فوجب اجتيازها تحت ألسنة اللهب . وأخيراً ها هو « الموز » يجري بلونه الداكن تحت جدران مصنع للنسيج متهدّم . الساعة : ١٥ . بقيت هناك ساعة واحدة لإعداد عمليّة هي إحدى أصعب العمليّات في الفنّ العسكريّ : ألا وهي عبور نهرٍ في وجه عدوّ متحصّن . وقد قال الكابتن «لوثار جترمان» بهذا الصدد :



« نحن المحاربين القدامى نعرف ما يتحلّى به الجيش الفرنسيّ من روح التفاني ومهارة التخطيط . ومع ذلك فلسنا مطمئنّين كلّ الاطمئنان . أمّا ضبّاطنا وجنودنا الشبّان فهم على ثقة عمياء بتفوّقهم » .

والحقيقة أنّه كان من شأن ما يجري تحت أبصارهم أن يدعم اقتناع هؤلاء الشبّان وكبرياءهم : فقد حشد « غوديريان » ما توافر لديه من معدّات قليلة . وجمع في الكيلومترين الفاصلين بين « سيدان » وشبه جزيرة « إيبج » معدّات القصف العائدة لفرقة الدبّابات الأولى . أي : مدفعيّة المصفّحات . والمدفعيّة ذات التحرّك الذاتيّ . والمدفعيّة المضادّة للطائرات . والمدفعيّة المضادّة للمصفّحات ؛ واتّخذت فرقة الدبّابات العاشرة الاحتياطات ذاتها : فالمهمّ هو القصف . أمّا الإعصار الجوّيّ . وانقضاض الطائرات المزمجرة التي تبدو وكأنّها تصوّب نيرانها إلى كلّ رجل على حدة . فقد حطّما المقاومين . سنة ١٩١٦ كان يقال : « المدفعيّة تجتاح . وجيش المشاة يحتلّ » . أمّا اليوم فقد غدا الاجتياح من شأن الطيران . هذا هو الجوهر المهمّ .

أمّا ما تبقّى فتفصيل وشكليّات عرَضيّة .

بدأ الزحف المستحيل في الموعد المضروب . ولم يستغرق عبور « الموز » غير لحظات . لم يشلّ نشاط المدافعين كلّهم . بل بقي بعضهم يقاوم بضراوة . وقد تمكّن أحد المواقع من إيقاف المهاجمين قرب قصر « بلفو » . ولكنّ المهاجمين تسلّلوا وأحاطوا بالحامية وقضوا عليها بمدفع من عيار ٨٨ . وفي الساعة ١٩ كانت الشمس ما تزال تسطع في السماء ؛ وقبل أن تعبر « الموز » مصفّحة واحدة وصل فوج « ألمانيا الكبرى » إلى المرتفع ٢٤٧ . وهو الهدف المعيّن لذلك اليوم . ثمّ اجتازه من غير توان أو كلَل متوغّلاً في غاب « مارفي » .

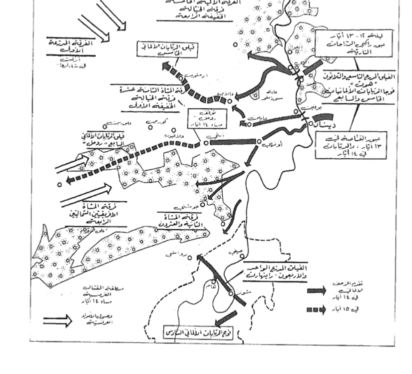
اعترضت فرقةَ الدّبّابات العاشرة جنوبيّ « سيدان » مقاومةٌ شديدة . فلم يعبر الليوتنان « همبور » والفيلد فيبل « روبرث » التابعان لفوج القنّاصة رقم ٨٦ . إلى الضفّة اليسرى إلاّ في الساعة ٥ . أي بعد جنود النخبة من فوج « ألمانيا الكبرى » بأربعين دقيقة . وقد أُحصي عدد الرجال الذين تبعوهم . فإذا هم أربعون . وبأعجوبة

مواقع الجيوش جنوبيّ « سيدان » وغربيّها في ١٣ و١٤ أيّار ١٩٤٠ .

دبّابة تنفجر لدى اصطدامها بلغم .



« يقيني أنّ السلحفاة قد بالغت في مدّ رأسها خارج درعها ... »
(من رسالة وجّهها « تشرتشل » الى الجنرال « جورج » في ١٩ ايّار ١٩٤٠)



زحف مصفّحات « رومل » في منطقة الجيش الفرنسيّ التاسع .

أبقت على خطّ هاتفيّ واحد ، انتقل الخبر إلى المراجع الفرنسيّة العليا معلناً أن ٤٠ ألمانياً تمكّنوا من عبور « الموز » في « فاديلنكور » ..

ألقى الجنرال « غوديريان » بنفسه في أوّل زورق وعبر إلى الضفّة اليسرى حيث استقبله الليوتنان كولونيل « بالك » هاتفاً : « إنّ ملاحة التسلية ممنوعة على « الموز » !.. » . أمّا في الجانب الفرنسيّ فقد انتقل الجنرال « هونتزيغر » من مركز قيادته في « سينوك » الواقعة على بعد ٥٠ كلم من الجبهة ، إلى مركز قيادة الفيلق العاشر في « برليير » على بعد ٢٥ كلم . ثمّ عاد إلى « سينوك » فبلغها في الساعة ١٩ ، وقدّم له العشاء فيها خدّم يلبسون قفافيز بيضاء ... حقاً إنّ بين هذين المفهومين في القيادة لهوّة سحيقة ! فبالنسبة للألمان ، كان التنظيم الحربيّ العتاريّ يقضي بأن يكون القائد دوماً في الطليعة ، يستقلّ طائرة إذا احتاج إلى الرؤية ، وشاحنة فيها جهازُ إرسال إذا شاء أن يصدر الأوامر ، ويتدخّل شخصياً في القتال كلمّا دعت إلى ذلك الحاجة. أمّا بالنظر للمفهوم الفرنسيّ الموروث من حرب ١٩١٤ ، فالقائد يدير ، عن بعد ، حرباً تكاد تكون نظريّة بسبب بعده الزمنيّ والعقليّ عن ميدان المعركة ، فلا تتأثّر قراراته باحتدامها ومجراها . كان الخبر الوحيد الذي بلغ « سينوك » في المساء ، قائلاً إنّ ٤٠ ألمانياً قد عبروا « الموز » ، يبدو وكأنّه يصف حادثاً محلّياً . ووُجد من يقول « لهونتزيغر » مداعباً : « لا بأس ! فذلك يوفّر لنا أربعين أسيراً .. » .



مشاة آليّة فرنسيّة في « سيدان » : « اليوم بات على الطائرة أن تحتلّ » .

لقد حوّل الذعر المفاجأة إلى كارثة .

إنهار جناح الجيش الثاني دفعة واحدة . فعبور « الموز » قد لا يكون بحدّ ذاته إلاّ حادثاً محلّياً ، كأيّ حادث تتعرّض له الجيوش كافّة في مثل هذه الأحوال ، إلاّ أنّ موجة الذعر الناتجة عن التدهور المعنويّ الشامل قد جعلت منه كارثة مستعصية ، وفاتحة لانهيار الأمّة .

وتشير التقديرات إلى أنّ ريح التخاذل والانهزام قد عصفت من « بلسون » ، تلك القرية المتواضعة الرائعة في ظلّ غاب « مارفي » : سكّان يبلغون المئة ، وكنيسة لا كاهن لها ، وبضع عشرة مزرعة « أردينيّة » ذات أروقة مستديرة ومزابل فائضة على الدروب . كان بعض رجال المدفعيّة قد تمركز في أهرائها خلال أشهر الانتظار التسعة : فالمنطقة موحلة مظلمة ، والطقس رطب بارد لا يلائم الرجال ، وهو أقلّ ملاءمة للجياد التي كانت تموت جماعات من غير أن يُعرف لموتها سبب . كان السأم والكسل يتأكّلان فرقاً فقد ضبّاطُها طعم القيادة كما فقد رجالُها نظام الطاعة . صحيح أنّ المدافع الطويلة المدى من عيار ١٠٥ قد استقرّت في موقع قريب من المعسكر ووجّهت فوهاتها نحو منافذ غابة « سيدان » ، إلاّ أنّ رجال هذا الفوج من المدفعيّة الثقيلة كانوا قد فقدوا ، منذ أمد بعيد ، كلّ أمل بإطلاق قنبلة واحدة على الأعداء .

حدث هذا الأمر غير المعقول في ١٢ أيّار ، فنظر إليه رجال المدفعيّة نظرتهم إلى حدث جديد يخرج بهم من نمط حياتهم الرتيبة . فالمعنويات كانت حسنة ، وقد بقيت كذلك . صباح ١٣ ، إلى ساعة راحت طائرات « شتوكا » تغير على البطّاريّات . كانت الخسارة تافهة ، إلاّ أنّ الرجال هجروا مدافعهم وتشتّتوا في الغاب . جرى ذلك في الوقت الذي كان فيه الألمان يزحفون نحو « الموز » ، فيما كان الجنرال « لافونتين » يشهد ، من مقرّ القيادة ، طائفة من الدبّابات تجتاز الهضبة المنتصبة قرب النهر . إنّه لمرمى رائع ! بيد أنّ المدفعيّة الفرنسيّة كانت قد فقدت السواعد التي تحرّكها !

واستعاد بعض البطّاريّات وعيه إذ مالت العاصفة الجويّة إلى الهدوء ، فتمكّنت مدافع عيار ١٥٥ من تدمير خمس دبّابات ألمانيّة بدت عند أطراف « بالان » . بادرة واحدة صغيرة ربّما كانت كافية ليعود أولئك الرجال المشتّتون المذعورون فيلتقوا حول مدافعهم ، ويشعروا بنشوة القتال ، ويجدوا في المدفع اللاهب ذاك الضمير المهنيّ الذي هو ركن البسالة الأسطوريّة التي امتاز بها رجال المدفعيّة . لم يعبر « الموز » إلاّ بعض عناصر المشاة ، لم تعبره بعد دبّابة واحدة ، ولن تعبره قبل الغد ؛ فلو أنّ المدفعيّة تستعيد وعيها لأمكن عزل تلك الحفنة من الأولاد الطائشين الضالّين وأسرهم .

ولكنّ المدفعيّة لم تستعد وعيها ، بل ولّت هاربة ، فملأت الطرق بين « بلسون » و « ميزنسيل » ، وبين « بلسون » و « شومري » . أولئك هم مدفعيّو الأفواج ٤٥ و ٩٩ و ١١٠ و ١٤٥ و ٣١٠ الذين فرّوا جارفين في تيّارهم جنود المؤخّرات ، وجنود الجرّ ، والممرّضين ، وعمّال الهاتف . أمّا تحت ، في الوادي ، فكان القتال ما يزال ناشباً .

ما انفكّ بعض المواقع صامداً ، وما زال بعض الضبّاط يقاومون في مركز القيادة . وكما تندلع النار في الهشيم ، هكذا انتشر الذعر في صفوف رجال لم يروا صورة لعدوّ . « الدبّابات الألمانيّة في بلسون ! » – صرخة رعناء ، إلاّ أنّها تبلغ الأركان ، فتعمّمها الأركان بأجهزة الاتّصال التي لديها . ويبادر بعض مراكز القيادة إلى الرحيل . ويغادر بعض الأفواج تحصيناته لينكفىء بلا نظام . مع أنّه لم يُصَب بقنبلة واحدة . مثال ذلك ما أقدمت عليه أفواج فرقة المشاة الـ ٧١ . وينطلق على رأس الهاربين ضبّاط باسلون من ضبّاط الحرب الماضية – ولسوف يُقدم أحدهم بعد ذلك على الانتحار خجلا ؛ ويجرف التيّار بعض الوحدات الشديدة النظام ، كمدفعيّة فرقة المصفّحات الخفيفة الخامسة ، فتفرّ حاملة معدّاتها ، وفي يقينها أنّها تنصاع لأمر بالتراجع . وينتهي النهار في هدوء سحريّ : فالطائرات قد اختفت . وجلبة القتال الدائر على منحدرات غابة « مارفي » تكاد لا تُسمع . هذا . والجيش الفرنسيّ ما زال سليماً : مئات الكتائب ، وألوف المدافع



« سيدان » في ١٣ أيّار .

والدبّابات . ومجد تليد يرقى إلى قرون تخفق به قلوب شعب كريم أبيّ . ولكن ، ما فائدة ذلك كلّه ؟ لقد هُزم الجيش الفرنسيّ . وكلّ ما بذله من جهود بعد ذلك ، طوال ستة أسابيع ، لم يكن غير انتفاضات الموت . لقد فُصمت عقدة واحدة ، فإذا النسيج كلّه ينحلّ .

وطفا بعض العزائم ، والحقّ يقال ، على وجه هذا السيل العرم ؛

فما انطلقت صرخة الذعر الأولى حتى استشاط كولونيل الدرك « سوران » غيظاً وهرع إلى الطرقات يقيس فداحة الخطر ... في الحرب الأخيرة كانت تقام على حدود المؤخّرات حواجز من رجال الدرك والخيّالة . تتولّى إيقاف مثل هذه الجماعات من الفارّين ، فتعيدهم إلى ميادين النار تحت طائلة المحاكمة في المجلس الحربيّ . إلاّ أنّ الأيّام تبدّلت . وطيف المجلس الحربيّ تبدّد ، مع أنّ الظرف العصيب كان أحوج ما يكون إليه .

ومنذ أن جُهّز الجيش بالمحرّكات والآليّات غدت الطريق أداة عسكريّة من المرتبة الأولى ، وغدا من الواجب مصادرتها وتطويقها وحراستها وتخصيصها للتنقّلات العسكريّة ، والإبقاء عليها مفتوحة بالوسائل المختلفة ، وحتى بالقوّة والإرهاب إذا دعت الحاجة . والواقع أنّ طريق « الخلاص العامّ » هذه قد أُبيحت للمدنيّين الهاربين ، وللعربات الأردينيّة الطويلة تجرّها الجياد الضخمة ، ولسيل السيّارات المحشوة بالفرش ، أبيحت لعربات الأولاد ، ولعربات اليد تحمل الأسمال والعجز أحياناً ، وأخيراً لقطعان الماشية التي عمد بعض القرويّين السذّج



ما من أحد يعرف حقّ المعرفة ما جرى في « سيدان » ، إذ أنّ الذي يعرفه الناس هو أنّ هنالك خيانة قد حصلت فأورثت ضياعاً وهلاكاً .

إلى اصطحابها في طريق المنفى. وساعة انهال الذعر العسكريّ الوافد من « سيدان » على ذلك السيل من المدنيّين غدت تحرّكات الجند والنجدات مستحيلة ، فقد تعرّضت القيادة للشلل ، والجيش للهزيمة ، و « فرنسا » للدمار . لأنّ دماً بشريّاً متجمّداً قد سدّ جهاز الطرقات الدمويّ !



إنّ الحـــاضر أشبه بالماضي من الماء بالماء ! هذا الذي يحصل اليوم قد حصل عام ١٨٧٠، وعام ١٩١٤، ولكنّه اليوم أقرب إلى الهجرة الجماعيـّـة .

لقد بات « سوران » ورجاله القلائل عاجزين عن إتيان أيّ عمل ؛ فلقد استحال الذعر انهياراً يغذّي بعضه بعضاً . لم يسمع المدنيّون ولا العسكريّون الهاربون للقتال أيّة ضجة ولو بعيدة ؛ فقد كان يوم ١٣ أيّار بالنسبة لهم كغيره من الأيّام . لم يكد يتميّز إلاّ بهذا الهجوم الألمانيّ الذي لا يصدّق البعض وقوعه بعد . وفجأة ملأت الوادي صيحة الهزيمة المنكَرة . ومضت تستحثّ ذاك التخاذل المتستّر المخجل الذي كان يغرق القلوب منذ بدء هذه الحرب التي ما كانت الأمّة تشعر بضرورتها . جهل الجميع ما حدث في « سيدان » . غير أنّ الجميع أدركوا أنّ هنالك خدعة وخيانة . وأنّ الأمر قد قُضي ، وأنّ الهزيمة لا محالة واقعة .

« روميل » في « دينان »

ولكنّ هناك رجلاً قد فاق « غوديريان » سرعةً ، هو « روميل » . فمنذ الساعة ١٦ من نهار الـ ١٢ . كانت طلائع فرقة دبّاباته السابعة قد بلغت « الموز » في « دينان » . تلك البلدة الصغيرة المعشّشة في فجوة صخريّة على ضفّة النهر اليمنى . فتمّ احتلالها من غير قتال . وقد كادت السيطرة على الجسر أن تتمّ من غير أن يمسّه سوء . ولكنّه تفجّر لدى بلوغ المصفّحات الأولى اليه .

وفي مجرى « الموز » . على بعد ٥ كلم من « دينان » . تقع جزيرة « هو » . وهي قطعة مستطيلة من الأرض المحرّجة يبلغ طولها ١٫١٠٠ متر وعرضها ٥٠ متراً . وفي تلك الناحية تتباعد الجروف وتنفرج جاعلة بينها حوضاً عميقاً . أمّا الضفّة الشرقيّة فكانت منحدرات صلبة وعرة . وصخوراً عموديّة . وكان السدّ رقم ٥ يقطع النهر . فلم ينسفه الفرنسيّون كي لا يسبّب انخفاض المياه نقصاً في فعالية دفاع الجبهة العليا من « الموز » . ولا هم حصّنوه ، وبلغ بهم الاستهتار أنّهم لم يهدموا الجسر الضيّق الذي كان فوقه . وقد وُضع عليه بعض الحواجز المشبّكة يدعمها رشّاش خفيف لمنع الوصول اليه

وقبالة فرقة الدبّابات الألمانيّة السابعة تمركز الجناح الأيسر لجيش الجنرال « كوراب » . وهو مؤلّف من فرقة المشاة الآليّة الخامسة . ومن فرقة المشاة الـ ١٨ . وأمّا فرقة المشاة الآليّة الأولى فقد كانت على وشك بلوغ مواقعها جنوبيّ « نامور » . وكانت فرقة المشاة الثانية تكدّ جاهدة في الطرقات ؛ لم يكن رجالها جنوداً سيّئين . ولكنّ كانت تنقصهم الحماسة في تلك الحرب الغاشمة . ومع ذلك فقد كانوا مهذّبين ومنضبطين . على ذمّة التقارير الرسميّة . وكان الكيس المقيت الذي يحملونه يرهقهم فتختنق منهم الأنفاس وهم يرزحون تحت عبثه . يا له من كيس ! لم تتمكّن آليّات القرن العشرين كلّها من أن تخلّص المشاة منه ! انطلق هؤلاء الجنود من منطقة « هيرسون » يقطعون مسافة ١٠٠ كلم لبلوغ مراكز القتال المعيّنة لهم . أي قدر المسافة التي كان على « روميل » أن يقطعها بفرقته الآليّة . وفضلاً عن ذلك فقد دخل « روميل » إلى « بلجيكا » منذ الفجر . بينما لم تبدأ فرقة المشاة الفرنسيّة الـ ١٨ باجتياز الحدود إلاّ في نهاية النهار ، وكان ٢٠ بالمئة من رجالها متخلّفين عن الصفوف لحصولهم على إجازات تراكمت منذ فصل الشتاء . والجنرال نفسه ، واسمه « دوفي » . كان في منزله في « بيزانسون » ، ولم ينضمّ إلى فرقته إلاّ في اليوم التالي .

حقّاً إنّ التناقض كان مفجعاً ؛ فقد زحف الجيش الفرنسيّ إلى قتال كانت الدلائل تشير إلى أنّه سيكون سريعاً وقاسياً . ومع أنّ الأركان العامّة الفرنسيّة كانت تضمّ الجنرال « دومنك » ، وهو الذي ارتجل في الحرب السابقة خطّة تموين « فردان » بواسطة شاحنات « الطريق المقدّسة » (هذا اسم أطلق على طريق التموين الوحيدة من « بار — لو — دوك » إلى « فردان » عام ١٩١٦) ، فقد أهمل المسؤولون ، خلال الشتاء الطويل ، التفكير بالوسائل اللائقة الكفيلة بجعل حملة « بلجيكا » تسير بالسرعة التي تناسب متطلّبات العصر . وكان أحد أوامر الأركان ينصّ على ما يلي : « على فرقة المشاة الـ ١٨ أن تسلك طريق البرّ ... » فكان على هذه الفرقة بالتالي أن تقطع ٣٠ أو ٤٠ كلم في اليوم ، لتصل إلى ساحة الشرف في ثلاثة أيّام !



ليست الشجرة سوى ملجإ وهميّ يتقّي به هذا البائس طائرات « شتوكا » !

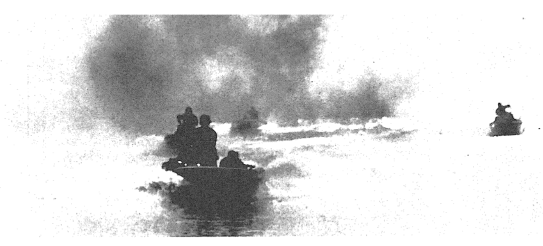
وقام الطيران يزيد الطّين بلّة ؛ ومع أنّه لم يعق سير الكثير من الأرتال ، إلاّ أنّه دمّر محطّة التموين في « هيرسون » فبات وصول المؤن مستحيلاً . وهكذا عادت القطارات النظاميّة فارغة ، ممّا حدا الجنود إلى التسوّل أو النهب للحصول على الطعام . وبدا فجأة أنّ التقدّم في البقاع الجرداء الملساء لا يمكن القيام به من غير حماية جوّية ، ومدفعيّة ملائمة مضادّة للطيران ؛ فقد اكتُشف هذا الأمر في الوقت الذي أُطلق فيه لخوض حرب الحركة جيشٌ قد أُنشىء أصلاً للحرب الراكدة . ولكنّ الأوان قد فات.

أُرسلت إلى الأمام فرقتا خيّالة خفيفتان ، وهما خليط من الوحدات الركيكة ، لتوقفا العدوّ بمقدار ما يلزم لتركيز المشاة على « الموز » . وألحقت الشاحنات بهما كتيبتين إحداهما من فوج المشاة الـ ٦٦ ، والثانية من فوج المشاة الـ ٧٧ ، على سبيل المساندة والتغطية . ووصل الجنرال « دوفي » بدوره وراء هاتين الكتيبتين ، فاتّضحت له في الحال صعوبة مهمّته : فإنْ هو تمركز في المنحدر لا يبقى بإمكان مراقبيه أن يشرفوا على قعر الوادي الوعر ، ولا تعود أسلحته الأوتوماتيكيّة قادرة على أن تضرب سطح الماء . فكان عليه إذاً النزول إلى الضفاف ، وبالتالي التعرّض لإشراف العدوّ عليه . وفي سبيل السيطرة على القطاع ، ومراقبة مسالك الضفّة اليمنى ، وصبّ النار من غير انقطاع على المنعرجات العديدة ، كان ضروريّاً أن تتوافر إمكانات تفوق بالأضعاف طاقات فرقة مشاة عاديّة . فعلى الخارطة كانت وهدة « الموز » تبدو موقعاً دفاعيّاً ممتازاً ، ولكنّ الواقع هو أنّ الغابات الكثيفة فيها ، والمنحدرات الوعرة ، وتعرّجات الأرض التي تسهّل عمليّة التخفّي ، أكثر ملاءمة للمهاجم منها للمدافع . زد على ذلك أنّ العدوّ كان هناك ! فقد سبق وصوله تقديرات الفرنسيّين بأربعة أيّام . كان قائد فرقة المشاة الـ ١٨ الفرنسيّة يظنّ أنّ لديه متّسعاً من الوقت لإراحة جنوده ولوضع مخطّط القتال ؛ وكان ينتظر أن توفّر هذا المتّسع أعمالُ التدمير البلجيكيّة ، وقتال قنّاصة « الأردين » في تراجعهم ، وعمليّات التأخير التي تقوم بها فرقتا الخيّالة الخفيفتان الأولى والرابعة ؛ وكان منتظراً كذلك أن تكون عمليّات العدوّ أقلّ ضراوة في هذه المنطقة الصعبة . غير أنّ حساب الحقل أتى مخالفاً حساب البيدر : فإنّ التدميرات البلجيكيّة لم تكن فعّالة ، وقنّاصة « الأردين » كانوا في موضع آخر ، وأمّا الفرقتان الخفيفتان فقد تراجعتا بسرعة فائقة ؛ فتوجّب على الجنرال « دوفي » ، والحالة هذه ، أن يحمي بكتيبتيه الناقصتين جبهة طولها ٢٠ كلم ، ريثما تبلغ « الموز » كتائبُه السبع الأخرى المنهوكة القوى . وطلب « دوفي » المساعدة ، فوجدها : فبدل أن تعود فرقة الخيّالة الخفيفة الأولى إلى الوراء للتجمّع ، تبقى في القطاع لتسهم في الدفاع عنه ، وتعير فرقة المشاة الآليّة الخامسة جارتها كتيبة واحدة . وفي عشيّة الـ ١٢ ، وراء الجسور المدمّرة ، بدأ شيء من التنظيم يتجسّد على الورق : في الجنوب بعض سريّات القنّاصة وخيّالة الهجوم؛ وفي الوسط ، مقابل « دينان » ، كتيبتا الفوجين الـ ٧٧ والـ ٦٦ ؛ في الشمال الكتيبة التي أعارتها فرقة المشاة الآليّة الخامسة ، والفرقة الثانية من فوج المشاة الـ ٣٩. وهكذا بات باستطاعة « دوفي » أن ينام ملء جفنيه في مركز قيادته ، وهو مطمئنّ إلى أنّه قد بذل ما في وسعه .

وامّا « رومل » فقد استراح قليلاً عند المخافر الأماميّة . وفي الساعة الرابعة من صباح ١٣ أيّار مشى عبر طريق ضيّق يرافقه ضابط واحد ، وكمن في حرج صغير يراقب رماة الفوج الـ ٧ وهم يحاولون عبور « الموز » على أطواف من مطّاط . وكان الفرنسيّون يصوّبون نيرانهم بدقّة فأغرقوا بعض هذه الأطواف ، وراح جريح ألمانيّ يستغيث ، ثم انجرف مع مجرى الماء وقضى تحت نظر قائده . إذ ذاك أمر « رومل » بإحراق بعض المنازل في محاولة لبسط ستار من الدخان ، ثمّ ركب إحدى المصفّحات وراح يجوب الضفّة حاثّاً على السرعة في الهجوم . وفي « ليف » تمكّنت سريّة من النزول إلى الضفّة اليسرى حاملة جرحاها ، ولكنها تسمّرت في مكانها بعدما أصيبت بخسائر فادحة . كان يمكن أن تكون بداية ذلك النهار سيّئة لولا وجود جزيرة «هو». ولم يبقَ موقع الفرنسيّين منيعاً ، فقد صُدع السدّ وأخذت المياه تتسرّب .

وإليك تفاصيل ما حدث : لم تكن دفّة السدّ رقم ٥ محروسة ، إذ أنّ كتيبة فوج المشاة الـ ٣٩ لم تكن قد استقرت في مراكزها بعد . ولم يتنبّه أحد لثغرة الضعف هذه ، إلاّ كتيبة الدرّاجات الناريّة الألمانيّة رقم ٧ : فعند حلول الليل بدأ رجالها باجتياز « الموز » واحداً واحداً على حافّة السدّ ، ويبدو أنّ أحد الفرنسيّين قد شعر بالتسلّل (والروايات هنا مضطربة للغاية) ، بدليل أنّه طُلب إلى المدفعيّة أن تتدخّل لإيقاف المتسلّلين ، فصبّت على جنوبي الجزيرة ١,٢٠٠ قذيفة، ولكنْ من غير جدوى ؛ ففي مطلع النهار تسلّق المهاجمون منحدرات الحوض الحرجيّة ، وشتّتوا بعض الفصائل المبعثرة ، ثمّ استولوا على قرية « غرانج » ، ودخلوا غابة « سورانفو » الصغيرة . هذا ، والعمليّات الجويّة ضعيفة ، وراكبو الدرّاجات الناريّة حفنة صغيرة ، ولكنّ المقاومة التي واجهتهم كانت مفقودة . وبالنتيجة راح المهاجمون يتوغّلون غرباً تساندهم مجموعات من الرماة .

وفي سبيل تطهير الضفّة اليسرى أمر الجنرال « دوفي » بشنّ ثلاث هجمات معاكسة متتالية . أمّا عناصر الهجومين الأوّلين فلم يتح لها أن تتجمّع ، وانطلق الثالث متأخراً جداً ، في الساعة ٢٠ ، تشنّه كتيبة من فوج المشاة الـ ٣٩ ، وسريّة دبّابات ، وتدعمه ثلاث مجموعات من المدفعيّة ؛ فبات ضروريّاً ، والحالة هذه ، أن يقضي هذا الهجوم على عدوّ لم يكن قد حصل بعد لا على مصفّحات ولا على مدافع مضادّة للدبّابات . وأمّا « رومل » فقد كان وسط المعمعة ، وكان قد قطع دفّة السدّ في « هو » ، فأمر بأن تُصبّ على دبّابات العدوّ نار آليّاته كافّة ، بما فيها أسهم الإشارة . ولكنّ هذا لم يمنع الدبّابات من التقدّم ، فبلغت « الموز » ، غير أنّ الجنود المشاة لم يلحقوا بها لسبب بقي مجهولاً ، فما كان منها إلاّ أن تراجعت ، فأخفق بذلك الهجوم المضادّ ، وبقي رأس جسر « هو » في أيدي الأعداء .



وسط الضباب المشمس ، صبيحة يوم جميل من أيّام الربيع : تدفّق زوارق الاحتلال .

وفي الوقت نفسه أقامت فرقة الدبّابات الألمانيّة السادسة ـ التابعة لفيلق « راينهارت » ـ رأس جسر ثالثاً ، بين « جيفي » و « ميزيير » . وكان هذا المكان من أكثر مناطق « الموز » وحشة . فالوادي فيه كثير الوعورة ، والأحراج بالغة الكثافة . وصل راكبو الدرّاجات الناريّة الألمان عن طريق « جيفي » الكبرى تتبعهم سيّارات الرشّاشات . وكانوا قد تعرّضوا لنيران المدفعيّة البعيدة . ثمّ نزلوا الوادي واحتلّوا بلدة « مونترمي » الصناعيّة . ووراء النهر كانت سريّة واحدة ، نصفها من جنود « مدغشقر » ونصفها الآخر من الفرنسيّين . وهي جزء من اللواء الـ ٤٢ الذي يضمّ رماة المستعمرات . تحتلّ رقعة يبلغ انعطافها ٧ كلم . فشلّ حركتها قصفٌ جوّيّ عنيف . وما كان من الألمان إلاّ أن اجتازوا النهر على الجسر الذي دُمّر جزئيّاً . وثبّتوا أقدامهم في الانعطاف الذي ذكرْنا بعد ما أبادوا حاميته .

وصلت أنباء هذا النهار المفجعة إلى المقرّات العامّة ملطّفةً . ففي « فرفان » ، عند « كوراب » ، ثار الغيظ لكون هجوم « هو » المضادّ لم ينفّذ ؛ وفي « سينوك » ، عند « هونتزيغر » ، لم يكن « القلق شديداً » ؛ وفي « فرتي » ، عند « جورج » ، انتظروا الساعة ٢٣,٤٥ للتثبّت من « الحوادث الجدّيّة في جهات سيدان » . وعلى الأثر نُقل الخبر على الوجه السابق إلى « فنسين » ، مركز قيادة « غاملان » ، مع هذه الإضافة المسكّنة : « إنّنا هادئون مطمئنّون ههنا . » ولكنّ هذا الهدوء لم يدم طويلاً . فقد اتّضح بعد قليل أنّ جماعات من الجند كانت قد تشتّتت . وهذا ما أدّى إلى تلك النتيجة .. وفي سبيل تيسير مهمّة « بيّوت » قرّر « جورج » أن يضع « هونتزيغر » تحت إمرته المباشرة : لم يكن قلقاً على مجموعة الجيوش الأولى التي بدأت تشعر بأنّ مواصلاتها مهدّدة بالخطر ، بل على خطّ « ماجينو » الحبيب ؛ فأمر « هونتزيغر » بأن يمنع احتلاله من الوراء وتطويقه مهما كلّف الأمر ، وبأن يكون كُلاباً دفاعيّاً يوقف العدوّ بأيّ ثمن . وأنهى تعليماته قائلاً : « إنّ مصير الحرب رهن بهذا العمل » .

حقّاً إن هذا الوسواس لم يكن في محلّه ؛ فالالتفاف سيحدث، بالطبع ، ولكن في وقت آخر ، وبطريقة مختلفة ، أمّا الآن فلم يكن خطّ « ماجينو » يثير اهتمام القيادة الألمانيّة أكثر ممّا تثيره الـ « رواندا أوروندي » ! وأضحى العمل الوحيد الذي يمكن للقائد الأعلى أن يقوم به ينحصر في عمليّات الاحتياطيّ . ولكنّ الاحتياطيّ هذا ضعيف لأنّ التحرّك نحو نهر « ديل » قد ابتلع الجيش السابع وأكثر الفرق السريعة . وهكذا لم يبقَ في متناول « جورج » غير ١٧ فرقة مشاة ، والفرق الثلاث المدرّعة . فبهذه الموارد الضئيلة كان عليه أن يحاول تقويم الوضع ومواجهة مفاجأة ثلاثيّة : تكتيكيّة ، وتقنيّة ، وستراتيجية . وهذا ، لعمري ، ما لم يكن بوسع أيّ قائد أن ينجزه .

هذا مع العلم بأن التدابير المتّخذة في ليل ١٣—١٤ لم تكن ملائمة لخطورة الوضع ؛ فقد بدت حادثة « سيدان » خطيرة ، وولّد التهديدُ الذي قد تشكّله على خطّ « ماجينو » قلقاً شديداً . ومع ذلك لم تكن ركاكة الجيش التاسع ، وصلابة القوّات التي احتشدت متصدّية له ، لتحدثا ، حتّى الساعة ، قلقاً ذا بال . وبنتيجة ذلك وُجّهت إلى « هونتزيغر » الوحدات الكبرى كلّها : الفيلق الـ ٢١ ، وفرقة المشاة الـ ٦ ، وفرقة المشاة الآليّة الـ ٣ ، والفرقة المدرّعة السريعة الـ ٣ ، تحرّكها كلّها القيادة العليا . كانوا يعتبرون أنّ « كوراب » لم يُصب بأذى بالغ ، وأنّ لديه فرقتين احتياطيّتين : فرقة المشاة الـ ٥٣ ، وفرقة المشاة الأفريقيّة الشماليّة الـ ٤ ، وهي إحدى فرق النخبة في الجيش الفرنسيّ . وقد قال له «بيّوت» : «أنا لست قلقاً على مصيرك ، إنّني قلق على مصير «هونتزيغر» .

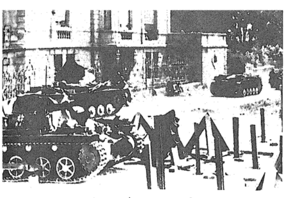
كانت النواة الفولاذيّة لقوى الاحتياط العامّة مؤلّفة من الفرق المدرّعة الثلاث التي كانت مهمّتها ، حسب المذهب العسكريّ الفرنسيّ ، إعادة تماسك الجبهات . وكانت الفرقتان الأوليان قد وُضعتا تحت تصرّف الجيش الأوّل لتأمين مناعة ثغرة « جمبلو » . فوصلت إحداهما ، وهي فرقة فيلق الاحتياط الأولى التي تحرّكت منذ الأمس ، إلى منطقة تجمّعها ناحية « شارلوروا » ؛ وأمّا الثانية ، وهي فرقة فيلق الاحتياط الثانية ؛ فكان انطلاقها من منطقة « شالون » ؛ ولكنّ قواعد النقل الغريبة الفريدة المرعبة الإجراء قد مزّقت شملها قبل أن تنطلق . وانتقلت العناصر ذات الزناجير بواسطة السكك الحديدية ، وانتقلت العناصر ذات العجلات — بما فيها الشاحنات الصهاريج — عبر الطرقات . وأمّا الذين فكّروا بهذا الازدواج فقد كانوا يستلهمون

حرب ١٤ — ١٨ ، حين كان طيران القصف ما يزال جنيناً . وحين كانت الجبهات المتّصلة وبطء العمليّات الهجوميّة تؤمّن سلامة المؤخّرات . أمّا في ١٩٤٠ فإنّ كلّ قطار يجري ، وكلّ قافلة تعبر الطرقات ، يشكّلان هدفاً سهلاً للطيران الألماني .

وحتى مساء الـ ١٣ لم يكن قد تغيّر شيء بعد بالنسبة لمهمّة الفرقتين المدرّعتين السريعتين الأولى والثانية . وأمّا الثالثة ، التي لم يكن قد مضى على ولادتها خمسون يوماً ، فقد تلقّت أمراً بشنّ هجوم معاكس لسدّ ثغرة « سيدان » .

ثمّ ، هل كانت هذه الوحدات المصفّحة الكبرى ، التي ولدت بعد مخاض عسير وسريع ، كاملة العدّة جاهزة ؟ إنّ كلّ واحدة منها تضمّ كتيبتين من مصفّحات « ب ١ » و « ب١ مكرّر » (٦٦ دبّابة) وكتيبتين من مصفّحات « هـ ٣٩ » (١٢٠ دبّابة) ؛ فليس من العدل إذاً أن يُقال إنّها لا تساوي غير ثلث الفرقة الألمانيّة التي يتراوح عدد دبّاباتها بين ٣٢٤ و٢١٨ ، وهي إجمالاً من وزن أخفّ . ومن جهة ثانية ، لم تكن دبّابات « هـ ٣٩ » مزوّدة إلاّ بمدافع من الحرب السابقة ، لأنّ المدافع ذات قوّة الخرق الكبيرة التي تمكّن الدبّابة من مواجهة أختها لم تكن المصانع قد سلّمتها بعد . ويمكن القول كذلك إنّ أجهزة الإرسال كانت فاسدة ، وإنّ الحظر السخيف على الإرسال اللاسلكي قد جعل الراديو عديم الفائدة . يضاف إلى ذلك كلّه أنّ المدفعيّة المضادّة للطائرات لم تكن كافية ، وأنّ وسائل التموين كانت فاسدة للغاية ، وأنّه لم يكن ثمّة تعاون بين الفرق المدرّعة السريعة وسلاح الطيران . وأخيراً ، إنّ هذه الوحدات كانت تخضع بإذعان تامّ لرؤساء لم تكن لديهم أدنى فكرة عن معركة المصفّحات ، في حين كان قوّادها أنفسهم ، من أمثال « برونو » و « بروشي » و « بروكار » ، يفتقرون إلى النظر الثاقب ، والخبرة ، والنشاط ، والمبادرة الشخصيّة ، وهي مميّزات يتحلّى بها أمثال « رومل » و « غوديريان » . وحين كان « استيان » و « هيرينغ » و « ديغول » يطالبون بفيلق مدرّع ، كانوا يعنون قوّة مستقلّة الإرادة ، تعمل مجتمعة وبتلاحم وفقاً لسرعتها الخاصّة ، بإمرة قيادة مبدعة . وأمّا الفرق المدرّعة السريعة الفرنسيّة التي نحن بصددها فلم تكن لها واحدة من هذه المميّزات ؛ فبعد الخطإ الأوّل الذي ارتُكب يوم رفض المسؤولون تكوينها ، حدث خطأ ثان يوم خُلقت متأخّرة وفاسدة . فلو بقيت كتائب دبّاباتها في نطاق المشاة ، كما في ١٩١٨ ، لما أتت النتائج أسوأ حالاً مما أتت عليه !

وانقضى ليل ١٣—١٤ أيّار . وفي المعسكر الألماني راحت الأرتال الآليّة الطويلة تقطع « الأردين » وقد أضاءت مصابيحها كافّة . وعلى ضفّة « الموز » كان القوّاد الذين لا يعرف التعب اليهم سبيلاً ، وهم « غوديريان » و « رومل » و « ستيفر » و « شال » ، يشرفون بأنفسهم على بناء الجسور التي ستحمل الدبّابات إلى الضفة الأخرى في فجر اليوم التالي . وأمّا في المعسكر الفرنسيّ فقد بدأ الخوف والبلبلة يعيثان خراباً . وفي « بلجيكا » توجّهت فرقة المشاة الأفريقيّة الشماليّة إلى ساح القتال سالكةً طريقاً يعجّ بخليط من الفارّين . وانطلق الذعر في اتّجاه « رامس » كالسيل يقحم الليل . وأمّا رجال الفرقة المدرّعة السريعة الـ ٣ ، وهم كلّهم ذوو حنكة ودراية ، فقد وجدوا صعوبة فائقة في شقّ طريقهم . وعلى جسر « مونغون » ، على ترعة « الأردين » ، أقامت شرطة الجيش التابعة للفرقة سدّاً لإيقاف الجنود المشتّتين ، ولو بالقوّة ؛ ولكنّها عادت ففتحته أمام تشكيلة مدفعيّة كانت تتقدّم بنظام وعلى رأسها ضبّاطها ، ولكن لوحظ أنّ الخيول لم تكن تجرّ المدافع ، وأنّ رباطات الجرّ الأماميّة كانت مقطوعة . ياخجل « فرنسا » من عار تلك الليلة !



الدبّابات تستريح في « سيدان » .

وفي القيادة العامّة دُوّنت أحداث يوم ١٣ على الوجه التالي : « من « نامور » إلى « ميزيير » (حيث الجيش التاسع) تمكّن العدوّ من إقامة رأسي جسر صغيرين ، الأوّل في « هو » ، شماليّ « دينان » ، والثاني في « مونترمي » . وأقام كذلك رأساً ثالثاً أكثر أهمّيّة في غاب « مارفي » قرب « سيدان » (حيث الجيش الثاني) . وقد صدرت الأوامر بشنّ هجومين معاكسين لإلقاء العدوّ في « الموز » ... » .

الدبّابات تصبح حارسة طرقات

في صبيحة ١٤ أيّار انتهت المعركة في « هولندا » . وفي اليوم التالي ألقى الجيش الهولنديّ سلاحه على أثر غارات وحشيّة على « روتردام » أمر بها « كسلرنغ » . وأجريت محاولة لإنقاذ « أنفير » ، إلاّ أنّ الجنرال « جورج » كان قد قرّر استدعاء فرق الجيش السابع السريعة . لم تكن المعركة عنيفة في قطاع البلجيكيّين والانكليز ، بيد أنّها كانت أعنف في ثغرة « جمبلو » حيث قامت الفرق الخفيفة الآليّة بالتراجع إلى ما وراء جبهة الجيش الأوّل بعد ما أرهقت وحداتها . ولكنّ موقع المقاومة كان قيد التنظيم ، وكان الوضع الاجماليّ مرضياً في ذلك القطاع .

وفي طرف الجبهة الآخر كانت الحرب الغربية مستمرّة . فقد وقفت الجيوش الثامنة والخامسة والرابعة جامدة لا تبدي حراكاً ولا تطلق على القطاع العدوّ رصاصة ! وصدّ الجيش الثالث هجوماً ضعيفاً ، ولكنّه ، مع ذلك ، أخلى بعض مواقعه لتقصير جبهته ! وأمّا الجناح الأيسر للجيش الثاني ، الذي كان رأس جسر « مونميدي » يحميه بشكل فعّال ، فقد عاش ساعات خالية من الاضطراب . ولم تكن المأساة تذرّ قرنها إلاّ على « الموز » ، من جدول يُدعى « الايموانس » حتى أسوار « نامور » القديمة .

أمام « سيدان » — أو بالأحرى وراءها — كانت التدابير التي أمرت بها القيادة الفرنسيّة ثلاثة . أوّلاً : تُنشأ جبهة دفاعيّة وجهتُها الشرق ، على ترعة « الأردين » وعلى نهر « بار » ؛ ثانياً : يجري شنّ هجوم معاكس ، باتّجاه الشمال ، انطلاقاً من غابة صغيرة تدعى « جبل الله » ؛ ثالثاً : تدمّر المعابر التي يسعى العدوّ بإنشائها على « الموز » ، بقصف جوّيّ عنيف . وكانت هذه التدابير الثلاثة وحدة لا تتجزّأ . فبالأوّل يُكبَح تقدّم العدوّ ؛ وبالثاني تجري تعمية الثغرة التي فُتحت بالأمس ؛ وأمّا الثالث فيحول دون توطّد الألمان على الضفّة الشماليّة ، ويُحكم على العناصر التي اجتازت النهر بالفناء . إنّها عمليّة لا تشوبها شائبة . ولكن بقي أن تُنفّذ .

وأمّا « غوديريان » فكان يعلم أنّ انتصاره ما زال طريّ العود . وكان عليه أن ينتقل بسرعة إلى وراء « الموز » لتحطيم ردّة الفعل الفرنسيّة ولمباشرة السير توّاً إلى «أميان» ؛ ولهذا السبب رأيناه يعجّل عبور فرقة الدبّابات الأولى بصورة خاطفة ، ويأمر رئيسها الجنرال « كيرشنر » بأن يشنّ الهجوم في الحال ، وبأقصى السرعة ، وبخطّ مستقيم نحو الغرب . وكانت مهمّة فرقة الدبّابات العاشرة ، التي عبرت مصفّحاتها «الموز» من جهة «سيدان» العليا ، أن تتّجه نحو الجنوب ، مقابل « جبل الله » و «ستون» ، لتحمي جناح رفيقتها . ولم يبقَ غير فرقة الدبّابات الثانية ، التي كانت قد تأخّرت على «السوموا» ، فانتقل «غوديريان» إليها . ولم يكن قد فكّر بعد بالمهمّة التي سيعهد بها إلى وحدته الكبيرة الثالثة هذه .

وقام الطيران الفرنسيّ البريطانيّ بمهاجمة الجسور ببطولة ؛ فتوالت تشكيلاته كالأمواج الثائرة . ولكنّ مدفعيّة الكولونيل « فون هيبل » المضادّة للطائرات أحرزت في ذلك النهار نصراً مبيناً ، فأسقطت مئة طائرة ، وحالت دون أيّ قصف مُحكَم . وفي غمرة عاصفة من الفولاذ صاخبة ، أقبل رجل هرم ، هو قائد مجموعة الجيوش « روندشتاد » ، يتنشّق عبير البارود . فلحق « بغوديريان » على مدخل جسر «دونشيري» وبادره قائلاً : « أهذا دأبكم في كلّ يوم يا « غوديريان » ؟ فأجاب « غوديريان » : أجل يا سيّدي الجنرال . » !

وبعد انصراف القائد الأعلى وقف « غوديريان » متردّداً . وإلى جانبه « فايل » قائد فرقة الدبّابات الثانية ينتظر الأوامر . فيمَ يستعمل فرقته المصفّحة ؟ ألمواجهة الغرب ، للتعجيل في انتصار فرقة الدبّابات الأولى التي احتلّتَ لتوّها « شيميري » وراحت تهاجم الترعة ؟ أم لمواجهة الجنوب ، لتدعيم فرقة الدبّابات العاشرة ضدّ الدبّابات الفرنسيّة التي أُعلن أنّها تتجمّع بكثرة في منطقة « جبل الله » ؟ وإذ وجد « غوديريان » نفسه في حيرة بين الإقدام والحذر ، طلب مشورة ضبّاطه . فما كان من الماجور «فنك» إلاّ أن أجاب مردّداً شعار « غوديريان » نفسه : « فلتكن ضربتكم قاضية ، إيّاكم والضرب الخفيف ! » فرجحت بهذه العبارة كفّة الإقدام . وهكذا أمر «فايل» بإدارة دبّاباته ناحية الغرب .

وتشاء الأقدار أن تصل الفرقة المدرّعة السريعة الثالثة الفرنسيّة إلى منطقة عملها منذ الساعة السادسة صباحاً ، ومن غير أن تفقد قطعة واحدة . فتقدّمت مجموعات الاستكشاف فيها حتّى أطراف « جبل الله ». فوجدت أمامها حوضاً مستنقعاً يقطعه جدول ، وخلفه أرض متعرّجة تحجب قرية « شيميري » التي هاجمتها فرقة الدبّابات الألمانيّة الأولى وهي تولّي الفرقة المدرّعة السريعة الثالثة ظهرّها . ولم يكن العدوّ غفيراً ، ولم يكن نشاطه قويّاً . وإزاء هذا الوضع كان باستطاعة أيّ قائد أن يغتنم الفرصة السانحة فينقضّ على خصم ما زال متفرّقاً ، فيما تهبّ إلى نجدته وحدات نشيطة من فرقة المشاة الآليّة الثالثة الفرنسيّة . ولكنّ الجنرالات الفرنسيّين متخلّفون عن مقدّمات جيوشهم ، بعكس الجنرالات الألمان ، فأنّى لهم أن يستوحوا الظرف والمكان خططهم ؟ كان « بروكار » ، قائد الفرقة المدرّعة السريعة الثالثة ، في « بوتيق أرمواز » ، على بعد ١٢ كلم من « جبل الله » ، يتجادل مع رئيسه الجنرال « فلافينيي » قائد الفيلق ٢١ ؛ فقد طلب « فلافينيي » من « بروكار » أن يهاجم في الحال ، فأجاب « بروكار » بأنّه بحاجة إلى مهلة عشر ساعات لتحضير عمليّته وتموين دبّاباته ، ولم تؤثّر فيه الأوامر والتهديدات . وحين باشر سيره كانت الساعة تشير إلى الـ ١٤ تقريباً ، وكانت المصفّحات الألمانيّة قد بدأت تتدفّق عبر « الموز » منذ زمان طويل .

وهكذا أفلتت الفرصة المثاليّة ؛ فقد أوقف « فلافينيي » تقدّم الفرقة المدرّعة السريعة الثالثة إنْ صواباً أو خطأ ، وأقامها على صورة سلك دفاعيّ بطول ٢٠ كلم ، من مستنقع « بابرون » حتّى «ستونّ» . وبعد ما جُزّئت أجزاء مختلطة يتألّف كلّ منها من دبّابتين «ه» ودبّابة واحدة «ب» ، وقفت تسدّ طرقات الغابة ؛ وهكذا آل أمر هذه الآلات الرائعة التي وُجدت للحرب الملحميّة ، وللاقتحامات الضخمة ، إلى حراسة الطرقات والمواصلات !

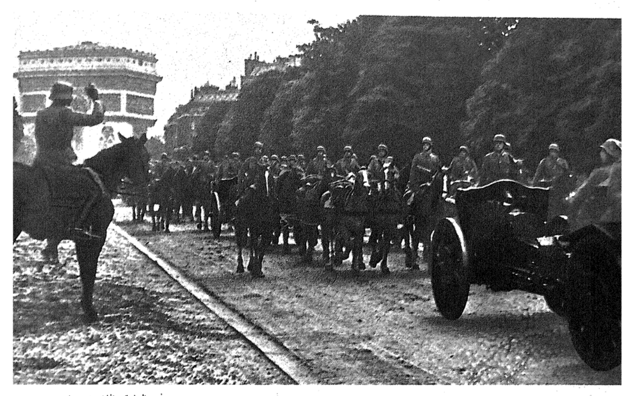
وفي الحال انتهى دور الجيش الثاني في معركة « الموز » . فبما أنّ ضغط دبّابات العدوّ كان قد وُجّه إلى ناحية أخرى ، فقد بات بميسور هذا الجيش أن يتابع مهمّته في حماية خطّ «ماجينو» حتّى شهر حزيران . وبعد الحرب مثل رئيس أركانه الغافل أمام لجنة تحقيق ، فوقف وكأنّه يطالب بأن تتوّج هام جيشه بأكاليل الظفر . قال : « إنّني مقتنع بأنّ تراجع الجيش الثاني يعتبر تافهاً لو لم يكن هناك اسم « سيدان » » .

وأمّا على نهر « البار » فقد كانت المعركة أشدّ . بُذلت جهود يائسة لإقامة خطّ إيقاف عبر الثغرة التي أحدثها تبخّر فرقتي المشاة الـ ٥٥ والـ ٧١ . وأمّا فرقة المشاة الـ ١٤٨ فكانت تسيطر على الزاوية التي يؤلّفها « الموز » و « البار » . وكان فرسان فرقة الخيّالة الخفيفة الخامسة ، ولواء الخيّالة الثالث ، ولواء فرسان شماليّ أفريقيا الثالث ، يتكفّلون بالدفاع عن الترعة ويحاولون إعادة الصلة مع الجيش الثاني في ناحية قريسة «لاكاسين» . وإذ وصلت فرقة المشاة الـ٥٣ التابعة للجنرال «اتشيبيريغاري» ، وهي آخر احتياطيّ الجيش التاسع ، من معسكر « سيسون » ، حيث كانت قيد التدريب ، فقد أُرسلت للمساندة في المنطقة الحرجيّة الممتدّة بين نهري « البار » و « الفانس » . وكانت هذه الوحدة الكبيرة من وحدات الفئة (ب) شقيقة الفرقة ٥٥ التوأمة ، وقد وصلت منهوكة القوى ، فوجدت نفسها ممرّغة في زوبعة من الأوامر والأوامر — المعاكسة التي كانت تفضح جهل القادة الكبار واضطرابهم . وأخيراً استرخت الكتائب حيث كانت ، في منطقة مساحتها ٤٠٠ كلم مربّع ، في غمرة الليل ، وسط الأحراج . وقد أظهر بعضها فيما بعد حزماً مشكوراً ، فيما تفكّك البعض الآخر عند الصدمة الأولى .

وخلال نهار الـ ١٤ وقفت وحدات قليلة في وجه فرقتي الدبّابات الألمانيّتين الأولى والثانية . وكان الدفاع يتقلّص إلى أعماق أحراج المنطقة الغابيّة وممرّاتها ، وعلى صرد «شارلومان» ، وفي قرى « مالمي » و « فاندريس » و « أوميكور » . وفي المساء أُنشئ خطّ مقاومة جديد على « الفانس » . وهكذا لم تكن طريق « اميان » مفتوحة كلّيّاً أمام « غوديريان » .

وكان من الضروريّ ، والحالة هذه ، تدعيم هذه الجبهة المتداعية التي باتت تتلقّى ضغط الهجوم القويّ المتدفّق من « سيدان » . ولكنّ وحدات الاحتياط العامّ كانت قد وُجّهت إلى نواحٍ أخرى ، وجيش « توشون » السادس ، الذي كُلّف بإعادة الاتّصال بين الجيشين التاسع والثاني ، لم يكن في ذلك الوقت غير جهاز قياديّ . وأمّا فرقة المشاة الـ ١٤ ، القادمة من « ريتيل » بقيادة «دي لاتردي تاسينيي » النشيط ، فكانت وحيدة ، وقد دفعت حتّى « الفانس » كتيبة من فوج المشاة ١٥٢ . ولكنّها كانت صرخة في واد !

ومن ناحية أخرى كانت الفرقة المدرّعة السريعة الثانية عنصراً قتاليّاً قويّاً ، وهي تشكّل مدداً أبلغ أثراً . وفي الساعة ٩ من ١٤ أيّار صدر أمر من مقرّ الأركان العليا بسحب هذه الفرقة من الجيش الأوّل ووضعها تحت تصرّف الجيش التاسع . ثمّ صدر أمر ثان بتوجّهها إلى « سينيي لابي» . فوضعها ، كما رُسم على الورق ، كان يخوّلها أنّ تبرز فجأة وسط دبّابات « غوديريان » وتشتبك معها في معمعة ما

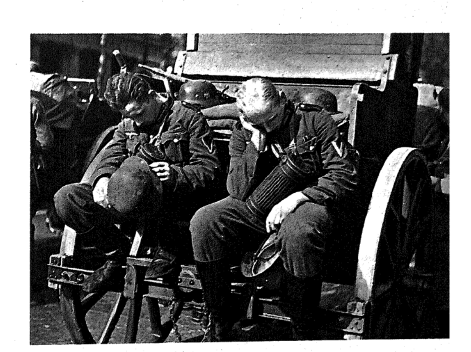


في الساعة الخامسة والنصف من صباح ١٤ حزيران بلغت الطلائع الألمانيّة باب « فييت » وتوغّلت في شارع « الفلاندر » ، وتبعتها على الأثر عدّة أرتال . وعند العشاء تدفّقت الجيوش عبر جادّة « الشانزيليزيه » ودارت حول قوس النصر المجلّل بالعلم الألمانيّ .

في الصورة فوق هذا الكلام : الجنرال « فون بريسن » يعرض جيوشه .

—

كُتب في أسفل هذه الصورة الألمانيّة : « معارك لا نهاية لها ملأت على الجنود أيّامهم ولياليهم ، تخلّلها سير حثيث مضنٍ . أمّا وقد بلغ جنودنا عاصمة « فرنسا » فإنّهم يتوقّفون في عجالتهم لينالوا قسطاً من راحة » . وإنّ هذين الجنديّين الألمانيّين المتهالكين على تلك العربة العسكريّة العتيقة ليحملان إلى المخيّلة صور « السنة الرهيبة » في حرب ١٨٧٠ . التاريخ يعيد نفسه !



هؤلاء السُّعاة الذين يتلمّسون طريقهم لن يروا في العاصمة الفرنسيّة إلا مَواتاً : فقد لفّها كَفَن من دخان ، دخان خزّانات الوَقود التي أمر الحاكم العسكريّ الجنرال «هيرنغ» بإحراقها .

—



المناوشات المتفرّقة تؤخّر الزحف الألمانيّ في ضواحي « باريس » . وتمثّل الصورة إلى هذا الكلام انفجار قنبلة وسط مفرزة من الجنود الألمان .

خلقت الفرق المصفّحة إلاّ لمثيلاتها . وكان منتظراً . على الأقلّ . أن تعرقل الزحف الألمانيّ . وأن توفّر للقيادة استراحةً تتيح لها إعادة تنظيم هذه المعركة التي بدأ خوضها على أساس مغلوط . وهذا . لعمري . ما كان يستحقّ التضحية بكلّ دبّابة . ولكنّ طريقة النقل السخيفة قد أفسدت كلّ شيء . وإذ كانت أرصفة السكك الحديدية مفقودة . فقد أنزلت الدبّابات في « هيرسون » . على بعد ٦٠ كلم من منطقة التجمّع المفروضة على الفرقة ! وأمّا العناصر ذات العجلات . وهي تضمّ خصوصاً أقسام التموين والتصليح . فقد ضاعت في خضمّ الطرقات وبلبلتها ؛ وحين وصلت بعد جهد جهيد إلى « سينيي » . أدركت أنّها أقرب إلى العدوّ منها إلى الوحدات المقاتلة الفرنسيّة التي كان عليها أن تخدمها ! وهكذا كان الوقود في واد . والدبّابات في واد ! وقد اعترف « بروشي » . قائد الفرقة المدرّعة السريعة . بقوله : « يمكن القول إنّ الفرقة المدرّعة قد زالت من الوجود ظهر يوم الـ ١٤ . وإنّ ما تبقى منها ما كان يعدو وحدات متفرّقة راح القادة المحلّيّون يتنازعونها ... » . وهناك عامل آخر كاد أن يعطي الفرنسيّين مهلة للتنفّس . هو العدوّ . فقد أصدر « كلايست » . قائد المجموعة المصفّحة . أمراً إلى « غوديريان » بالتوقّف عند رأس جسر « سيدان » والتحصّن ريثما يتاح لفرق المشاة أن تنضمّ إلى الدبّابات . فسارع « غوديريان » إلى مقرّ قيادة رئيسه معترضاً . مبيّناً أنّ ثمار المفاجأة معرّضة للضياع . ولكنّ « كلايست » أجابه بلهجة قاطعة بأنّ الكارثة له بالمرصاد . لأنّ فرقه المصفّحة التي كانت تتقدّم على غير هدى في سهول شماليّ « فرنسا » ستتلقّى هجوماً خلفياً يقطّع أوصالها إرباً . ولم يكن « غوديريان » ليطيع مثل هذا الأمر . فعاد إلى فيلقه وتابع زحفه قدماً ؛ فما كان من « كلايست » إلاّ أن أعفاه من قيادته . وفي الحال أخبر « روندشتاد » « هتلر » بالأمر . فأعاد « هتلر » « غوديريان » إلى منصبه توّاً . ولم يستغرق حسم هذا النزاع غير ثلاث ساعات .

وتابع مدافعو « الفانس » قتالهم سحابة نهار الـ ١٥ بعد ما تُركوا لحالهم . فكان على الدبّابات الألمانيّة أن تبذل قصارى جهدها في تعقّبهم . وأن تطلب باستمرار تدخّل طائرات « شتوكا » لتحطيم أعشاش المقاومة . وبقيت « لاهورن » تقاوم حتّى الساعة ١٧ تحميها كتيبة الفرسان الجزائريّين الثانية وكتيبة الفرسان المغاربة الثانية . وهما لا تملكان مجتمعتين غير مدفع واحد من عيار ٢٥ ! وبقيت « شانيي » تقاوم وهي تشتعل حتّى الساعة ١٩ تحميها كتيبة القنّاصة الثامنة ؛ وبقيت « بالونس » و « بوفيلمون » تقاومان حتّى منتصف الليل . ثم قامت بقايا فوج المشاة الـ ١٥٢ بخرق دائرة العدوّ ولحقت بالكتيبة المدرّعة الـ ١١ التي كانت ما تزال تقاتل في « جوفيل » . يا له من تناقض عجيب : هنا . على « الفانس » . بطولة وأشاوس . وهناك . على « الموز » . جبن ورعاديد ! وإنّه لمن سخرية القدر وقسوته أن تبقى صور الجبن قائمة على الدوام !

في صباح الـ ١٦ عاد « غوديريان » يشقّ طريقه ؛ فالثغرة قد أُحدثت . وزالت كلّ مقاومة منظمّة . وتقدّم الألمان بسرعة ٨٠ كلم في الساعة وهم يدركون أرتالاً طويلة من الفارّين . ويرغمونهم على إلقاء الأسلحة الباقية لديهم ثم يسحقونها بدبّاباتهم . ويعيّنون لهم أقفاص الأسر التي عليهم الالتحاق بها . وعاد الألمان يتمتّعون بسياحتهم العسكريّة . فجلسوا على هياكل دبّاباتهم يتشمّسون مكشوفي الصدور . معتمرين قبّعاتهم السوداء . وراحوا ينفخون في « الأرمونيكا » ونشوة النصر تخدّر تعبهم . وبعد انقضاء ربع قرن على هذه الأحداث كان بعض أولئك الألمان — وقد بدأ شعرهم يشتعل شيباً — يقولون إنّهم لم يعرفوا قطّ رفاهية كتلك التي عرفوها في أيّار ١٩٤٠ ... ولكنّ الألمان دفعوا ثمن تلك اللذّة غالياً فيما بعد .

إنهيار الجيش التاسع

بقي الوضع غريباً على « الموز » . شمالي « سيدان » . نهار ١٤ أيّار بطوله ؛ فأرتال المصفّحات المنطلقة على طرقات « الأردين » كلّها كانت تفد النهر تباعاً في أوقات تختلف باختلاف الحواجز التي تعترض سبيلها . وكانت الفرقة تصل إلى النهر فتشنّ رأساً هجومها حيث تستطيع ، وكما تستطيع ، على طريقة « رومل » بالأمس . فتلقي برجالها إلى الماء في قوارب من مطّاط ، أو على ألواح ، أو على حزم القشّ ، ويعمد إلى السباحة من يقوى على السباحة . وبقيت نواح كثيرة تنعم بالهدوء . لاسيّما قطاع فرقة المشاة الفرنسيّة السادسة المتمركزة إلى جانبي « فومي » . أمّا النواحي الأخرى فقد فتحت فيها القوّات الألمانيّة ثغرات ضيّقة اقتحمتها الدبّابات عنوةً . بعد ما مهّدت لها الطريقَ غاراتٌ جويّة مدوّية : عبرت فرقة الدبّابات الخامسة « الموز » في « ايفوار » ضمن قطاع فرقة المشاة الآليّة الـ ٥ . وعبرته فرقة الدبّابات السادسة في « شوز » ، قرب « جيفي » ، في قطاع فرقة المشاة الـ ٢٢ . وكانت القيادة الفرنسيّة تتوقّع هجوماً عنيفاً يتّخذ شكل عمليّة ضخمة « مدروسة » . ولكنّ العدوّ لم يحترم سابقات ١٩١٨ ، فإذا بالجبهة تتصدّع وتنهار اثر ضربات متتابعة مرتجلة .

إستأنف « رومل » القتال منذ الصباح الباكر ، عند رأس الجسر الذي أقامه ، إلاّ أنّه لم يستطع أن ينقل إلى الضفّة الشرقيّة غير ١٥ دبّابة ؛ وأقصى ما كان يستطيع القيام به أوّلاً هو الإقدام على مناوشات خفيفة في حوض « هو » ريثما تصل النجدات . ولحسن حظّه ، أتت ردّة الفعل الفرنسيّة خفيفة متقطّعة ؛ فما كاد بعض الوحدات الفرنسيّة يصل إلى ميدان القتال بعد مسيرة ليليّة مضنية حتى شُتّت بلا مقاومة . أمّا سريّتا المصفّحات « ه ٣٥ » الموفدتان لتنفيذ خطّة الهجوم المعاكس الذي أُوعز به للمرّة الثانية نهار أمس ، فإنّهما لم تلقيا أيّ أثر لجيش المشاة الذي كان عليهما أن ترافقاه . فعادت الدبّابات على أعقابها ، ووُزّعت كالعادة على شكل حاجز دفاعيّ لحماية الطريق بين « فيليبفيل » و « دينان » !

كان ضغط « رومل » يشتدّ ويعنف كلّما وصلت إليه الأمداد . إحتلّ « أونهيه » الكولونيل « فون بسمارك » قائد فوج الرماة السابع . وما لبث أن أقبل الكولونيل « روثنبورغ » ، قائد فوج الدبّابات ٢٥ ، لدعمه . واستقلّ « رومل » دبّابة « ب ز . ك ٣ » ما لبثت أن تدهورت في أحد الشعاب اثر ضربة محكَمَة أصابتها ، وخرج « رومل » من دبّابته حبواً على يديه ورجليه ، وقد شقّت خدّه شظيّةٌ ، فبدا أشبه ما يكون بأحد جنرالات الامبراطوريّة يتفلّت من جواد صُرع تحته فهوى . في هذا الوقت بالذات شنّ الطيران الألمانيّ غارة كنس بها طريق « دينان — فيليبفيل » التي عرقلتها عربات المدفعيّة ، فما كان من الجياد المقرونة إلاّ أن قطّعت أحزمتها ، واختلطت بخيل فرقة الخيّالة ، وراحت ، وقد خبّلها الذعر ، تعدو في كلّ اتّجاه . ومع هذا جرت محاولة كادت تنذر « رومل » المقدام بالخطر : فها هي فرقة المصفّحات الأولى تقبل مسرعة .. كان قد بلغها أثناء الليل أمر

تمهيديّ . فرض عليها أن تتأهّب للقيام بمهمّة جديدة . وأن تهبّ لمساندة الجيش التاسع . وما حان وقت الظهر حتّى صدر الأمر بالتنفيذ . أمّا الوجهة « ففلورين » ،وأمّا المهمّة فطرحُ المصفّحات الألمانيّة في « الموز » الذي عبرته . لم تكن المسافة شاسعة : ٣٠ كلم فحسب . ولو كان « برونو » قائداً للدبّابات كفوءاً ، لاستقلّ إحدى دبّابات « ب ١ » واقتحم بفرقته بار المعمعة ؛ فالمعركة لا تزال مترجّحة . وما أدراك ما يكون عليه الانقلاب المادّيّ والمعنويّ الذي قد تحدثه مئتان من تلك الفيلَة الفولاذيّة تبرز إلى الميدان على حين غرّة ؟!

ولكنْ شتّان ما بين « برونو » و « رومل » ! « فبرونو » جنرال ينتمي إلى المدرسة الفرنسيّة القائلة بأنّ هجوماً معاكساً « لا بدّ أن يُدرَس ويُهيّأ » في مركز قيادة وضمن إطار واضح المعالم صارم . أخذ « برونو » يبحث عن الجنرال « مارتان » قائد الفيلق الحادي عشر ليضع نفسه تحت إمرته ، ثمّ بحث عن هاتف ليطلب من الجنرال « كوراب » تعديل أوامر الجنرال « مارتان » ؛ ثمّ عاد يبحث عن الجنرال « مارتان » الذي غادر مركز قيادته في « فلورين » إلى جهة غير معلومة . وفي تلك الأثناء وصلت كتائب الدبّابات التابعة له إلى نقطة الانطلاق كاملة العتاد قويّة المعنويّات . ولكنّ الوقود كان قليلاً في خزّاناتها ، وما من أحد كان يعرف مركز الشاحنات الصهاريج . ولن يتوصّل أحد إلى معرفة ذلك يوماً ، رغم التحقيقات التي أجريَت عقب الحرب . ولن يستطيع أحد يوماً أن يفسّر كيف أنّ أفضل فرق المصفّحات في الجيش الفرنسيّ قد شنّت هجومها ذاك من غير أن تستحوذ على رئيسها فكرة إرسال الوقود في أثرها . ينبغي ، لفهم ذلك ، أن نلمّ بالأفكار التي لم تكف أربعة أيّام من الحرب الصاعقة لتبديدها ، ألا وهي الجبهة المتماسكة ، والمؤخّرات المنظّمة ، وتأمين المواصلات وفسحة الوقت ...

أرخى الليل سدوله ، وما برح « برونو » يبحث عن « مارتان » فلا يجده . أمّا الرجال فكانوا واثقين مطمئنّين ، بعضهم ساهر ، وبعضهم نائم على أقدام دبّاباته المخبّأة في الأحراج . كانت « فلافيون » و« كورين » و « فلورين » تبدو هالات محمرّة ، وكانت جلبة المعركة آخذة في الخفوت . وتوصّل بعض قوّاد الوحدات إلى اكتشاف وقود مدنيّ فملأوا خزّاناتهم منه رغم « القوانين المقدّسة » التي تجزم بأنّ الدبّابات لا تسير إلاّ بوقود الطائرات . أمّا الضبّاط الذين أرسلوا في طلب البنزين فقد عادوا يائسين ، ومنهم من لم يعد ... ومع هذا ، أتى في الخامسة صباحاً من يطلع الجنرال مرّة أخرى على أنّ فرقته صحيحة سليمة ؛ وأنّ دبّابة واحدة فقط لم تبقَ صالحة للاستعمال نظراً لتعطّل محرّكها . وأغار « رومل » ، وانتصر ، مع أنّه قد واجه قوّة قوامها ٧،٠٠٠ رجل من جنود النخبة و ٥،٠٠٠ طنّ من الفولاذ . فما أحلى أن يكون المرء جنرالاً ألمانيّاً سنة ١٩٤٠ !

وفيما فرقة المصفّحات السريعة الأولى تترقّب كان الجيش التاسع ينهار ، وكانت معركة « الموز » تبلغ نهايتها .

وفي الساعة ١٩ تخاذلت أعصاب قائد الفيلق ؛ فالأخبار التي ترده مريعة ؛ لقد اتّسعت الثغرات في كلّ مكان ، وتفكّكت فرقة المشاة ١٨ ، أمّا الفرقة ٢٢ فمدبرة هاربة في اثر رئيسها ، وأمّا المؤخّرات فمرتدية ثوب الهزيمة : هنا اشلاء من عربات المدفعيّة ، وهنا سيّارات إسعاف ، وهناك عناصر معزولة وظهرها إلى الشرق . ولم يرَ الجنرال « مارتان » غير وسيلة واحدة لإنقاذ فيلقه : الإدبار والفرار ؛ فأصدر أمراً بالتراجع حتّى خطّ « فلورين — فيليبفيل — مارينبورغ » ؛ ومع أنّ أوامر كثيرة لم تكن تبلغ أهدافها ، فإنّ هذا الأمر قد طار بسرعة البرق !

إنّها لغلطة قاضية : كانت الفرصة الوحيدة لإنقاذ البقيّة الباقية من الفوج ١١ تقضي بأن يتشبّث الجند بالأرض . وفيهم مَن كان يستبسل في الكفاح . ولكنّ الأمر بالتراجع أتى يحلّ كلّ ما تبقّى من عرًى . لقد انقرضت فرقتا المشاة ١٨ و ٢٢ ، كما انقرضت بالأمس في « سيدان » الفرقتان ٥٥ و ٧١ . لن يتوقّف منها عنصر واحد على خطّ الانكفاء ، أي الطريق العاديّ الذي عيّنه « مارتان » . وعبثاً راح قائد الفرقة ١٨ يبحث عن بقايا فرقته هناك . وعبثاً تابع بحثه على طرقات الهزيمة كلّها ؛ فما كان منه . في نهاية المطاف . إلاّ أن عاد إلى « باريس » ليقول للوزير إنّه من أصل ١٥،٠٠٠ محارب لم يبقَ في الميدان غيره ! أمّا بعض القوّاد الآخرين فقد فضّل الانتحار . ومنهم : « بوفّه » . قائد الفوج الثاني . و « تييري درجنليو » . وهو شقيق الراهب — الأميرال العتيد . و « اوجيرو » . قائد قوّات الجيش الجويّة ؛ فبعد تحطّم آخر طائرة له انضمّ إلى المحاربين واستشهد في الدفاع عن مركز بلديّة « الكاتله » ، والبندقيّة في يده.

أمّا في « فرفان » . في مقرّ قيادة الجيش التاسع . فلقد أحدث الأمر بتراجع الفيلق ١١ مفاجأة كبيرة وسخطاً عنيفاً أخذا يشتدّان وبلغا إلى القوّاد الكبار ؛ فلقد احتدمت بين « كوراب » و « بيّوت » مشادّة هاتفيّة صاخبة . ردّ فيها الأوّل بخشونة على تقريع الثاني الذي حمّله مسؤوليّة خسارة خطّ « الموز » . وفي اليوم التالي استُبدل « جيرو » « بكوراب » ؛ ولسوف يحمّله « بول رينو » أوزار الكارثة كلّها بظلم له من الظروف بعض ما يبرّره .

بعد ما ندّد « كوراب » و « بيّوت » بتصرّف « مارتان » ، عادا ففعلا فعله . ففي الساعة ٢،٣٠ من ١٥ أيّار تلقّى الجيش التاسع أمراً بالتراجع قصد التمركز على خط « « مارسينل » (وهي ضاحية من ضواحي « شارلروا ») ، « كليرفونتين » ، «مارينبورغ » ، «روكروا» ، « سينيي لابيي » ، على أن يقاتل الجند هنالك حتّى النهاية وبعزيمة لا تفتر . كلمات طنّانة فارغة ! فلقد بات التراجع المنتظم ، بالنسبة لأجناد مضعضعة كهذه ، أصعب بكثير من الاستشهاد حيث هي . إذ قد تفكّك كلّ شيء ، وانهار كلّ شيء : أمّا فرقة المشاة الآليّة الخامسة فقد عادت في شاحناتها إلى « فرنسا » ، وأمّا فرقة المصفّحات الخفيفة الأولى التي سمّرها في مكانها افتقارُها للوقود ، فلقد أبيدت كلّها ؛ وتبخّرت فرقة المشاة ٦١ ، فيما اضطُرّت فرقة المشاة الأفريقيّة الشماليّة الرابعة إلى أن تعود من حيث أتت مساء اليوم السابق ، ثمّ ما لبثت أن انهارت ضنكاً . وكانت المقاومة في « فيليبفيل » و « كليرفونتين » شبه مقاومة ، فهاجمهما « رومل » شخصيّاً واحتلّهما ، ثم جمع في « فيليبفيل » الضبّاط الفرنسيّين المستسلمين ؛ وحين استأذنوه بالاحتفاظ بخدّامهم وباسترجاع عربات المؤن ، اكتفى بأن أدار لهم ظهره . ونشب بين الحين والآخر قتال ضدّ بعض الدبّابات أو المدافع المضادّة للدبّابات ، ولكنّه سرعان ما كان ينتهي بإبادة جيوب المقاومة . وللمرّة الأولى وُضعت طائرات « شتوكا » تحت تصرّف فرقة الدبّابات السابعة ، فراحت تنقضّ على العدوّ ، ثمّ تصعد عاوية تتبعها انفجارات قنابلها المتلاحقة . وكانت أعمدة الغبار ترتفع عالياً مجسّدة مسيرة مفارز المصفّحات الألمانيّة الزاحفة بسرعة ٦٠ كلم في الساعة ، وسط عدوّ متفكّك الأوصال .

وأغرب ما في الوضع أن يكون يوم الهزيمة هذا (١٥ أيّار) يوم تفاؤل في مراكز القيادة الفرنسيّة ؛ فإذا بمكتب « جورج » ينقل إلى مكتب « غاملان » تقريراً عابقاً بالتفاؤل : « لا جديد يُذكر ...

تسلّلات تافهة في « ميزيير شارلفيل » ... ترميم في « سيدان » يظهر أنّ الزحف قد أوقف ... وإنّ لأسرى جميعهم يشيرون إلى عياء الجنود الألمان ... » وكذلك الأمر في « فرفين » عند « كوراب » ، فما زالت أخبار الجبهة تعتبر « مطمئنة إلى حدّ ما » : فالفيلقان يتراجعان « بنظام » ويستقرّان على خطّ التوقّف ؛ وكذلك عُرض الوضع مساء في « لافرتي ـ سو ـ جوار » . فإذا النتيجة توحي بالثقة : « يوم ٥ يسجّل بعض الهدوء . وجبهتنا المضعضعة آخذة في الاستقرار رويداً رويداً ... » ففي نظر الأدمغة العسكريّة الفرنسيّة كان لا بدّ من أن يعقب ذاك الجهدَ الذي بذله العدوّ منذ ١٠ أيّار . وذاك التقدّمَ الذي أحرزه . فترةُ توقّف يُعاد فيها تنظيم الوحدات والمواصلات. ريثما تصل المدفعيّة . وهكذا نرى أنّ تحليلات مراكز القيادة تصف الموقعة كما كان « كورنيل » يصف البشر : أي كما يجدر بهم أن يكونوا ، لا كما هم في الواقع .

لم يكن للقوّاد الكبار علم بواقع الحال ؛ هذا ما أثبتته التصريحات كلّها . قال نائب رئيس أركان الجيش التاسع : « كنّا نفتقر إلى المعلومات افتقاراً تامّاً . فيوميّات مسيرة الجيش لا تذكر شيئاً من أحداث ١٥ أيّار . » وعاد أحد ضبّاط « غاملان » إلى « فنسين » يقول : « كان النهار خاوياً فارغاً ... » ولن تُكشف حقيقة اختراق الجبهة النهائيّ ، في هذا المستوى الرفيع من « فرنسا » العسكريّة ، إلاّ يوم ١٦ أيّار في الساعة ١١ ، أي بعد مرور ٢٤ ساعة على الحدث ؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى أحد ضبّاط الإقليم الثاني الذي بادر بشكل غير مألوف إلى الاتّصال هاتفياً بمقرّ القيادة لينبئها بتدفّق العدوّ من كلّ حدب وصوب . وفسّرت إخباريّة ثانية بلغت « فنسين » ، انكفاء المدّ العسكريّ الفرنسيّ بأنّه نتيجة أمر أصدره كابتن اسمه « دي فولونج » ، فجرى البحث عنه لإعدامه . ولكن تبيّن أنّه شخص وهميّ ! لم تتوافر للضبّاط الكبار ولا لمساعديهم فكرة موضوعيّة حسّيّة عن المعركة ، وكذلك لم تتوافر لهم عناصر الاستعلام الضروريّة لتوجيه المعركة . فالاتّصالات بطيئة للغاية ، والقرارات تطبّق باستمرار على أوضاع تخطّاها الزمن ، وإفلاس القيادة تامّ ذريع ، إذ أنّها قد شُكّلت من أجل حرب الخنادق ، حتّى لم يبقَ لها تيك المرونة وتلك السرعة اللتان امتازت بهما بداية الحرب السابقة ونهايتها .

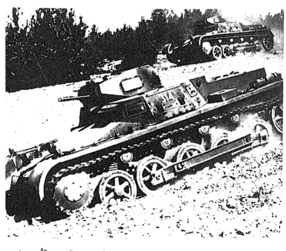
مساء ١٥ أيّار حلّ « جيرو » محلّ « كوراب » في « فرفين » ، فإذا بأوامره الأولى بالغة القساوة : المقاومة واجبة في كلّ مكان ، وحتّى في مراكز قيادة الجنرالات الذين لا يحقّ لهم أن يتراجعوا مهما كان المبرّر . ولقد عزم هو نفسه على الانتقال إلى مستوى ضبّاط الكتائب حيث يجدر أن توجّه معركة كهذه ، على حدّ زعمه . ولسوف يفعل ذلك معتمراً قبّعته المطرّزة ، وعلمه يخفق على سيّارته ؛ وقد بقي على هذه الحال إلى يوم أرغم على الاستسلام كجنديّ بسيط .

وانتشرت في مقرّ القيادة الذاهل إشاعة حملها « فيرون » نائب رئيس الأركان إلى قائد الجيش التاسع الجديد : وصلت المصفّحات الألمانيّة إلى « مونكورنيه » على بعد ٢٠ كلم من « فرفين » ، في منتصف الطريق الممتدّ بين « الموز » و « الواز » ، على طريق « لاون » و « باريس » ! فما كان من « جيرو » إلاّ أن استشاط غيظاً ؛ ذاك غير معقول ! ذاك محال ! لا بدّ أنّها إشاعة من إشاعات طابور خامس ! وقد حرّم على أيّ كان أن يحدّثه بها ، وأمر بخنق هذه الإشاعات الهدّامة ... أيأتي من يخبر بوجود المصفّحات الألمانيّة في « مونكورنيه » ، ورحى القتال دائرة على « البار » ، على بعد ١٥ كلم من « سيدان » . يخوض غمارَه جيشٌ جديد هو الجيش السادس. تحت إمرة الجنرال « توشون » ؟

الأمر مؤسف ... ولكنّ الألمان فعلاً هناك ... فبعد ما أوقفت فرقة الدبّابات الألمانيّة السادسة برهة في ضواحي « مونترمي » . تمكّنت أخيراً من ثقب ثغرتها . وانطلقت في زحفها حتّى بلغت المدينة الصغيرة الّتي سجّل احتلالها انهيار جبهة « الموز » النهائيّ . وما لبث « غوديريان » أن وصل إليها قادماً من « سيدان » . فاستقبله في ساحة البلدة زميلُهُ الجنرال « كمبف » . وكان قد سبقه إليها . وإذا بمئات الأسرى يخرجون ذاهلين من البيوت المجاورة .

ألقرار الذي فرض نفسه في ١٦ أيار

كان نهار ١٥ أيّار حاسماً . فقد سجّل أوّل انعطاف كبير في مجرى الحرب . وتحكّم بمصير المأساة الفرنسيّة خلال سنوات طويلة ... لم يبقَ هنالك مجال للوهم الخادع . فالفارق الطبيعيّ بين الجيش الألمانيّ والجيش الفرنسيّ ـ وهو ما كان بعض المفكّرين المنفردين يشعرون به ـ قد غدا أمراً واقعاً . فيوم تكون للجيشين طبيعة واحدة . فإنّ إلهام القيادة . وعزم الجند . وحتّى الحظّ . تلعب دورها في تقرير مصير المعركة ؛ ولكن . حين تكون لكلّ جيش طبيعتُهُ المميّزة . لا يمكن لأيّ عامل أن يغيّر مجرى المعارك أو نتيجتها . ففي ١٩٤٠ لم يكن ثمّة أمل بإنقاذ الجيش الفرنسيّ ؛ فلو لم يدخل « غاملان » إلى « بلجيكا » . ولو أنّ « جورج » دافع عن « الأردين » بصورة أفضل . لتغيّرت ظروف المعركة ومدّتها . ولتكبّد الألمان خسائر أفدح . ولواجهوا مشقّات أكثر . ولكنّ النتيجة ما كانت لتتبدّل . ولو كان « برونو » و « بروكار » من القوّاد الملهمين . لأصبحت السانحات الضائعة في « سيدان » و « دينان » صفحات مجيدة في التاريخ العسكريّ . ولكن لا مجال للريب بأنّ المقدرة العمليّة الّتي تتميّز بها الدبّابات الألمانيّة . وتفوّق الطيران الألمانيّ. ما كانا إلاّ ليرجّحا الكفّة لصالح الجيش الألمانيّ . وكان ممكناً أن يجد الجيش الألمانيّ نفسه



حرب الحركة الّتي تنبّأ بها « شارل ديغول » .

مرهقاً . مضطرباً . ومرغماً على بذل أقصى الطاقات . ولكن لم يكن له إلاّ أن ينتصر .

مساء ١٥ أيّار . بعد قتال دام ستّة أيّام . بات مؤكداً أنّ الجيش الفرنسيّ لا يستطيع لا الصمود على جبهة متّصلة . ولا الردّ بسرعة على الحركة الألمانيّة الهائلة . وبعبارة أخرى . كان تدميره أمراً لا مفرّ منه . وبات غزو الأرض الوطنيّة بكاملها أمراً واقعاً .

وهبّت رومنطيقيّة ١٩١٤ تثور في وجه هذا الواقع : فالألمان في تلك السنة كانوا قد بلغوا « لوزارك » . والرّماحون شاهدوا الـ «ساكري كور» . وكان الفيلق الـ ١٥ قد انهار في « مورانج » كما انهار الفيلق العاشر في « سيدان » منذ برهة . وكانت المدفعيّة الثقيلة قد فاجأت المقاتلين ذوي السراويل الحمراء . كما فاجأت طائرات « شتوكا » جنود ١٩٤٠ منذ أيّام . وكان « جوفر » قد جرّد عشرات من الجنرالات من قيادتهم كما جُرّد الآن « كوراب » و « مارتان » و « بروكار » وغيرهم . ومع ذلك عادت « فرنسا » إلى



الجنرال « فيغان » خارجاً من « الإيليزيه » .

النهوض . يقولون إنّ الألمان قد وصلوا إلى « لاون » . وما شأن ذلك ؟ فهم قد ظلّوا فيها أربعة أعوام ؛ أو إنّهم قد بلغوا « السوم » ؟ لا بأس . فإنّ في ساحاتها لقاء آخر مع الصلابة الفرنسيّة . ولم تفقد « فرنسا » الأمل على « المارن » . فلماذا تفقده الآن وجيوشها ما تزال على « الإسكو » ؟

من الناحية العاطفيّة كانت هذه الحجج قويّة . وأمّا من الناحية العسكريّة فكانت لغواً باطلاً . ففي ١٩١٤ كان الجيشان الفرنسيّ والألمانيّ من نمط واحد حسب التعبير العسكريّ القديم . فقد كان « لجوفر » من ناحية مؤخّرته مجال كاف للإفلات والثبوت رغم بدايته السيئة . أمّا اليوم فقد تضاءلت أمام المحرّكات ساحات القتال وعوامل أخرى . وقد بقيت السّتراتيجيّة الدفاعيّة قائمة على التضحية بالأرض لاكتساب الوقت . ولكنّ الأرض قد فقدت اليوم مقداراً هائلاً من قيمتها . « فروسيا » وحدها تستطيع أن تطبّق هذا المبدأ ضمن أراضيها . ولكنّ بلداً صغيراً « كفرنسا » . يلائم تمام الملاءمة حرب المصفّحات . لا يمكنه الاعتماد على ذلك .

والنتيجة المستخلصة من هذه الحقائق هي أنّه لم يكن بالإمكان أن تُستأنف على أرض الوطن غير معركة ذات مدّة وجيزة . وأمّا الموقف الواقعيّ الوحيد الذي كان يمكن اتّخاذه فكان التالي : إجراء مفاوضات والسلاح في الأيدي . أو البتّ بحزم بأنْ لا مفاوضات . وفي حال استقرار الرأي على رفض مبدإ المفاوضة كان ينبغي إجراء التدابير المناسبة لحمل الحرب إلى ما وراء البحار ؛ عندئذ يصبح لمعركة « فرنسا » معنى . فتتّخذ طابعاً وقائيّاً بإرسال أكبر عدد ممكن من الرجال والإمكانات إلى « انكلترا » و « أفريقيا الشماليّة » .

ربّما كان ذلك مستحيلاً . فقد لا يكون بمقدرة شعب من الفلاّحين أن يقوم بما قام به الأثينيّون يوم هاجمهم « كسركسيس » . أو بما كان يمكن أن يقوم به الأنكليز لو تمكّن « هتلر » من غزو جزيرتهم . وربّما كان التفكير بإخلاء « فرنسا » فيما كانت جيوشها ما تزال على أقدامها أمراً مستعصياً وغير مقبول . أو قُلْ انتهاكاً لحرمة البلاد . وما دام الوضع على هذه الحال . فإنّ هدنة حزيران تكون قد فرضت نفسها منذ أيّار . أو . بصورة أعمّ . تكون قد نجمت عن طبيعة شعب لم يكن يستطيع أن ينقل مقدّساته على سفنه .

لقد بلغ الألمان « مونكورنيه » وأمست طريق « باريس » مفتوحة. ولم تكن لدى المقرّ العام للأركان فرقة واحدة يعترض بها سبيل الغزاة . وقد أبلغت الحكومة أنّ المصفّحات الألمانيّة قد تصل إلى باب « فبيت » . أحد مداخل « باريس » . في غضون ساعات . فتقرّر أن يرحل الوزراء في منتصف ليل الـ ١٦ . وأُضرمت النيران في الوثائق في باحة « الكي دورسي » . وانطلق الدخان يمطر حيّ « سان جرمان » وابلاً من الأسرار الدبلوماسيّة . ومع ذلك كلّه لم يكن الجنرال « نوغيس » . دكتاتور « أفريقيا الشماليّة » العسكريّ . ولا حكّام المستعمرات . قد أُحيطوا علماً بخطورة الموقف . أو بإمكانيّة دعوتهم في اليوم التالي إلى الوقوف في الخطّ الأماميّ . ولم يكن رؤساء الجيش الكبار بأكثر منهم إحاطة بالقضيّة واستعداداً لمواجهة الأحداث . على حدّ شهادة الجنرال « جورج » الذي أعلن أنّه لم يسمع باحتمال مواصلة القتال في « أفريقيا الشماليّة » إلاّ في النصف الثاني من حزيران .

وفي مساء ١٦ كان الفيلق المصفّح الـ ٤١ قد وصل إلى « أوبنتون » . بين « ميزيير » و « غيز » . ووصل الفيلق الـ ١٩ إلى « مارل » على بعد ٢٠ كلم من « لنس » . وقام « رومل » بقفزة ليليّة جبّارة . فاجتاز موقع الحدود على ضوء القمر . وخلّف وراءه « موبوج » . ثمّ انطلق كالسهم عبر الطرقات المكتظّة . وراح يوقظ أفواجاً كانت تظنّ أنّها تبعد ٢٠ فرسخاً عن العدوّ فيأسرها . واستولى على « افين » . و « لاندريسي » . و « لوكاتو » . وزرع في مؤخّرات الجيش الفرنسيّ الأوّل اضطراباً مميتاً . وحين توقّف في صبيحة الـ ١٧ كانت فرقته قد قطعت ١٢٠ كلم . وخسرت ٣٥ قتيلاً و ٥٩ جريحاً . وأسرت ١٠،٠٠٠ رجل . واستولت على مئة دبّابة . وفي الوقت نفسه كان « غوديريان » يجتاز « الواز » ويصل إلى « سان كوينتان » . وأمّا في المعسكر الفرنسيّ فقد كان مفروضاً أن يشهد نهار ١٦ العمليّة الكبيرة التي وضعها السّتراتيجيّ « جورج » بنفسه . وكانت تقضي بأن تُطبق كُلاّبة آليّة على مؤخّرة الدبّابات الألمانيّة ؛ ففي الشمال كان على « جيرو » أن يتولّى قيادة الفرقتين المدرّعتين السريعتين . الأولى والثانية . تدعمهما سريّات من دبّابات « سوموا » . وأن يهاجم باتّجاه الجنوب ؛ وفي الجنوب كان على الفرقة المدرّعة السريعة الرابعة أن تهاجم باتّجاه الشمال . وأمّا القائد الأعلى للجبهة الشماليّة –

الشرقيّة فقد كان يجهل أنّ الفرقة المدرّعة السريعة الأولى قد دُمِّرت برمّتها . وأنّ الثانية قد تقطّعت أوصالها ، وأنّ قائد الجيش «جيرو» لا يقود شيئاً .

ولكنّ الفرقة المدرّعة الخفيفة الرابعة كانت موجودة . وإنْ جزئيّاً . منذ زمان وجيز . فحين وصل رئيسها الكولونيل « ديغول » إلى مقرّ قيادته في « لاون » في ١٥ كان وحيداً . وكان أوّل الجنود الذين التقاهم مجموعة من الكيماويّين تقتصر أسلحتهم على البنادق القصيرة . فضمّهم إليه . وأقامهم بشكل خطّ وقائيّ وراء ترعة « سيسون » . وخلال نهار الـ ١٦ بدأ بتنظيم العناصر التي وُضعت تحت تصرّفه لتأليف فرقته . ولم تكن خطّة « جورج » قد نُقلت إليه . وكانت المهمّة المُبهمة التي كُلّف بها من النوع الدفاعيّ . ولو كان الأمر في يد عسكريّ آخر لوقف ينتظر ريثما يُوفّق إلى تجميع إمكاناته . ولكنّ « ديغول » « كان يتّقد غيظاً » مذ بلغه أنّ الألمان يسحقون أسلحة الجنود الفرنسيّين . ثمّ يتابعون السير وهم يصيحون بأن لا وقت لديهم ينفقونه في أسرهم . وفي الليل أخذ على نفسه العهد التالي : « إذا قُيّض لي أن أعيش ، فإنّي سأقاتل حيث يجب أن أقاتل ، من غير توقّف . حتى يندحر العدوّ . وتمّحي لطخة العار » . وهكذا قرّر أن يشنّ هجومه عند الفجر بالقوّات التي تكون قد انضمّت إليه . مهما كانت أحوالها . وعلى كلّ حال فقد كان حدسه العسكريّ ينبئه بأنّ العدوّ كان يعزّز قوّته بسرعة تفوق سرعته . وأنّه خاسر في الانتظار والتريّث .

وعند الفجر كانت الفرقة المدرّعة السريعة ما تزال مؤلّفة من كتيبة دبّابات واحدة من فئة « ب » . ومن كتيبتين من فئة « ر٣٥ » . ومن مجموعة مدفعيّة ، ولم يكن فيها جنديّ واحد من المشاة المنقولين . أو قطعة واحدة مضادّة للدبّابات . أو رشّاش واحد مضادّ للطائرات . وقاد « ديغول » هذه الفرقة المرتجلة حتى «مونكورنيه » . في غارة على ٣٠ كلم في مؤخّرات العدوّ . فطهّر المحلّة . ودمّر القوافل . ثمّ رجع في المساء يحمل ١٢٠ أسيراً وسط عرض ضخم من طائرات « شتوكا » . وفي اليوم التالي أعاد الكرّة في ناحية « مارل » . وبعد هذا بيومين في ناحية « فيم » . وعندئذ استدعاه « جورج » وكلّفه بمهمّة أخرى . فهذه الغارات البسيطة لم توقف تقدّم الدبّابات الألمانيّة ، ولم تبلبل عمليّات العدوّ . ولكنّها أكّدت فعالية التأثير الذي يحدثه فيلق مدرّع إذا هو انقضّ على جوانب العدوّ . كما أكّدت مقدار النتائج الجزئيّة التي تحصل عليها الفرق المدرّعة الخفيفة في إمرة رؤساء أشدّاء .

وخلال يومي ١٧ و١٨ اطمأنّت « باريس » : فهجوم المصفّحات لم يكن موجّهاً إليها . ولذلك أُلغي أمر انتقال الحكومة . وأُشيع أنّ نذير الخطر كان خاطئاً . وأنّ « هتلر » لم يبلغ مشتهاه . وتسلّم « بول رينو » وزارة الحربيّة . ثمّ استدعى المارشال « بيتان » من سفارته في « مدريد » . والجنرال « فيغان » من قيادته في الشرق . فأتى الأوّل يدعم الوزارة كنائب للرئيس . وتسلّم الآخر القيادة العليا . وفي « لافرتي » أنشأ « جورج » جبهةً على نهر « الإين » وترعة « كروزا » . ومدّد جيش « توشون » السادس الذي كان ما يزال جنيناً ، بجيش « فرير » السابع الذي كان ما يزال وهميّاً ، وأصدر أمراً إلى الجيش التاسع — وكان يظنّ أنّه ما يزال في حيّز الوجود — بالمحافظة على « السامبر » المحوّل إلى ترعة . وعلى الترعة من « سامبر » حتى « الواز » . وخطّط موقعاً كان يؤمن بأنّ المصفّحات الألمانيّة ستنتهي إليه مرهقة فتتوقّف عنده . وجاءت خارطة الحرب المتعلّقة بهذا التخطيط مرضية أكثر من مثيلتها سنة ١٩١٤ : فالميمنة الفرنسيّة مستندة إلى « الرين » تمنع الغزو من اجتياح أجزاء هامّة من « بلجيكا » ومن شماليّ « فرنسا » . ولكنّ « جورج » كان يجهل أنّ « السامبر » قد هُجر . وأنّ العدوّ قد اجتاز « الواز » .

في ١٩ أيّار استولى الفيلق الألمانيّ المدرّع الـ ١٩ على « بيرونّ » . واستولى الفيلق الـ ١٤ على « بوسينيي » . واحتلّ الفيلق الـ ١٥ « كامبري » . وفي الفيلاّ الريفيّة الساحرة « بوندون » . وهي مقرّ الجنرال « جورج » . ظهر « غاملان » فجأة . وباليد التي كتبت جدول أعمال معركة « المارن » نصّ منشوراً يتمنّى فيه على « جورج » (لم يكن له أن يأمر « جورج » لأنّ « جورج » هو آمر الجبهة الشماليّة — الشرقيّة) أن يهجم على مؤخّرات الدبّابات الألمانيّة . ولو أنّه أوعز باحتلال « برلين » لما كان الأمر أصعب . لأنّ محاولات مخفقة عديدة قامت منذ ثلاثة أيّام في سبيل إنجاز العمليّة التي ذكرها . وفيما بعد سيظلّ « غاملان » حتى موته يؤكّد بأنّه كان بالإمكان إنقاذ « فرنسا » لو أنّ « جورج » أذعن لتعليماته يوم ١٩ ! وفي اليوم التالي . ٢٠ أيّار . وصل « فيغان » إلى « فنسين » كامل النشاط بالرغم من سنيه الـ ٧٣ . وبالرغم من رحلته المضطربة التي استغرقت يومين : فقد استجاب لدعوة « رينو » فغادر « بيروت » قبل يومين على متن قاذفة قنابل « غلن مارتن » . ولكنّه فوق منطقة « طرابلس الغرب » عاد أدراجه اضطراراً وقضى ليلة في « تونس » . ثمّ عاد فطار فوق « المورفان » طيراناً منخفضاً . ووصل أخيراً إلى « إيتامب » . ولكنّ عجلات طائرته تحطّمت أثناء الهبوط فاحتُجز الركاب بعض الوقت في الطائرة . وفي العشيّة نفسها . بعد زيارة وجيزة « لجورج » . قبل « فيغان » منصب القيادة العليا . ولم يحاول « غاملان » أن يخفي دهشته لدى وقوفه على نبإ النقمة التي حلّت به . وبعد ما قضى ليلة لم يعرف فيها طعماً للرقاد ، قام بتسليم السلطة إلى خلفه بما توحيه المناسبة من وقار وأصول.

في ذلك الوقت كان الجنرال « ماكسيم فيغان » في غمرة النشاط الجسديّ والفكريّ . ولم يكن هنالك مجال للارتياب في حميّته ، وخصاله . وغرابة أطواره . وسلطته . ووطنيّته المتأجّجة . ولكنّه كان قد خدم ككولونيل للفرسان سنة ١٩١٤ . وكان قد تولّى رئاسة أركان « فوش » طوال الحرب العالميّة الأولى . وها هو الآن يعود إلى الظهور في عصر مختلف . فقبل الحرب كان قد هاجم النظريّات الديغوليّة المتعلّقة بالفيلق المدرّع . في مقالين نُشرا في « مجلة العالمين » . وكان ، قبل أسابيع من وقوع العدوان . قد خطب في مهرجان للفروسيّة مؤكّداً « لفرنسا » أنّ جيشها لم يكن يوماً أكمل تسليحاً وأفضل قيادة ممّا هو عليه . وهو الآن مقتنع بأنّه إنّما دُعي هذه المرّة لمواجهة أزمة شديدة . ولإصلاح موقف خطير حرج . ولذلك قبل بنبل . بلا قيد أو شرط . تلك المسؤوليّة الجسيمة التي أُلقيت على عاتقه . ولكنّه كان غافلاً عن الوضع اليائس الذي آلت إليه المعركة . ولم يكن ليخطر له ببال . خصوصاً وأنّ «رينو» لم يطلعه على الأمر . أنّه من الممكن نقل الحرب التي فُقدت في « فرنسا » إلى ما وراء النطاق الأوروبيّ . وفي سبيل تحقيق تلك العمليّة الرؤيا كان « ديغول » هو رجل الساحة المطلوب ، لا « فيغان » .

وفي الوقت الذي تسلّم فيه « فيغان » القيادة . كان « هتلر » يتلقّى النبأ الحاسم : لقد تمّ الاستيلاء على « أبفيل » . وتمّ الوصول إلى « المانش » . وباتت ٤٥ فرقة حليفة محاصَرة في « الفلاندر » ؛ وكتب « جودل » يقول : « إنّ الفوهرر ينتفض فرحاً » . وصرّح « هتلر » بأنّ الهدنة ستوقّع في حرج « روتوند » . وأنّ « فرنسا » ستُرغم على أن تُعيد « لألمانيا » كلّ الأراضي التي سلبتها إيّاها منذ ٤٠٠ سنة » .



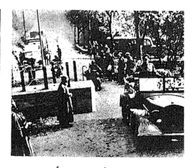
هذه الصورة التي تمثّل « هتلر » وسمّاعة التلفون إلى أذنه نشرتها أجهزة الدعاية والإعلام في أيّار ١٩٤٠ . وكانت الغاية من نشرها أن تطبع في الأذهان صورة الفوهرر وهو يقود جيوشه بنفسه . فعلى أثر الانتصار الساحق الذي أحرزه « هتلر » على « فرنسا » حيّا فيه أرباب دعايته وأهل بطانته « رأس القوّاد العسكريّين عبر الدهور » . ولكنّ بعض النّاس وقف منه موقفاً مناقضاً تماماً إذ لم يرّ فيه في هذا المضمار إلا هاوياً . صحيح أنّ « هتلر » قد سجّل بحدسه السّتراتيجيّ إصابات رائعة ، إلاّ أنّه ما لبث أن ارتكب أخطاء فادحة في « روسيا » مردّها إلى سعيه الحثيث وراء النفوذ ، وإلى إيمانه الأعمى بفعالية الإرادة .



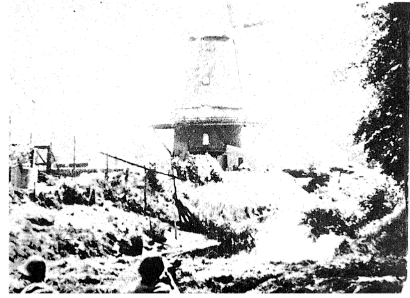
حواجز ألمانيّة مضادّة للدبّابات على نهر « الرين » بين « لوتربورغ » والحدود السويسريّة .

أيّار ١٩٤٠ : الحرب تنطلق مسعورة من عقالها . وتفيق « هولندا » المسالمة من غفوتها وقد نسيت عهد الحروب بعد « نابوليون » . فهل تردّ عنها مياهها غائلة الكارثة ؟ قد تعوق المياه تقدّم الدبّابات ، ولكنّها لا تعوق الطائرات ، ولا فرق المشاة البرمائيّة المزوّدة بزوارق المطّاط .

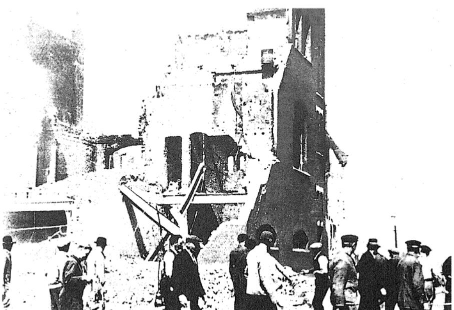
لن يترتّب على هؤلاء الجنود القابعين في خنادقهم أمام إحدى الطواحين أن يطلقوا طلقة واحدة من بنادقهم : فقد مرّت الطائرات فوقهم كأسراب متتابعة من البطّ البرّيّ تهتدي بأسراب ، وألقت في قلب البلاد حمولتها من الجيوش المنقولة . وفي غضون ثلاثة أيّام كان كلّ شيء قد انتهى .

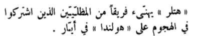


صباح العاشر من أيّار قطع الألمان حدود « اللوكسمبورغ » التي كان الفرنسيّون قد غادروها على ظهور الخيل .



قُصفت «روتردام» بالقنابل في ١٤ أيّار فسقط فيها ٣٠ ألف قتيل ، فيما كانت المفاوضات حول استسلامها قائمة على قدم وساق مع الجنرال «شتودنت» قائد القوّات الألمانيّة المنقولة جوّاً ؛ وكانت إحدى فرقه قد احتلّت أحياء الضفّة اليسرى من نهر «الموز» . وقد لاحظ الرّتل الجوّيّ الأيسر ، بقيادة الليوتنان كولونيل «هوهني» ، الإشارات الحمر القاضية بالامتناع عن القصف ، فعاد على أعقابه . أمّا «كسلرنغ» ، قائد الرتل الأيمن ، فقد زعم فيما بعد أنّه لم يرَ إشارة قطّ . ومهما يكن من أمر فإنّه لم يكن ثمّة ما يوجب مثل هذا القصف الهائل الذي أمر به «غورنغ» .





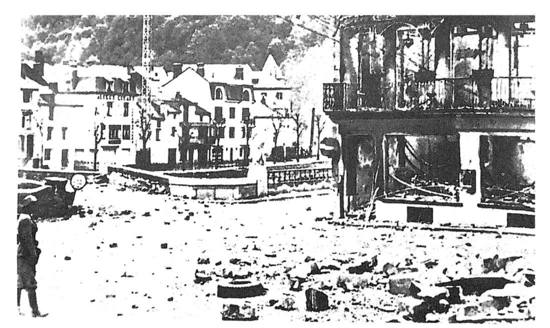
« هتلر » يهنّىء فريقاً من المظلّيّين الذين اشتركوا في الهجوم على « هولندا » في أيّار .



« أضحى الجيش جماعات من الجند منهوكة القوى ، فاقدة العدّة احياناً . وكان الناس يرون إلى هؤلاء الجنود الذين يجرّرون أقدامهم في انهزامهم وهم متجمّعون أحياناً في ما يشبه الزمَر » .

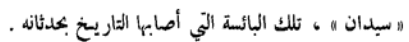
(الكولونيل « دوبارديس » في كتابه « حملة ١٩٣٩ - ١٩٤٠ »)



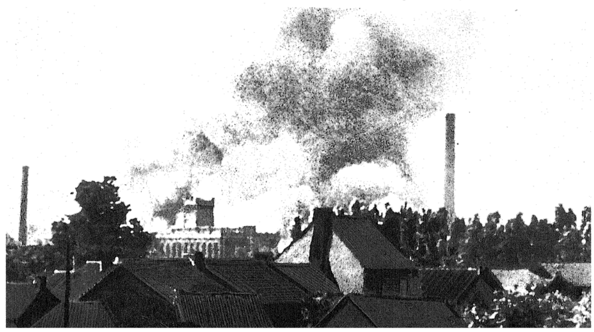


في « الأردين » : جنديّ ألمانيّ يقف بأطلال إحدى المدن .

"إعلان الحرب هو رهن الإرادة ، أمّا إيقافها فهو رهن التقادير"



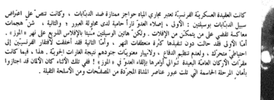
« سيدان » ، تلك البائسة التي أصابها التاريخ بحدثانه .



في ١٣ أيار، الساعة الرابعة بعد الظهر...

خلال الحملة البولونيّة عبرت فرق المشاة الألمانيّة بعض الأنهار الهامّة مثل «الناريف» و «البوغ» و «الفيستول» بسهولة . فأذهل الأمر أركان الحرب الفرنسيّة. ولم تجد الأركان لهذه الظاهرة المدهشة إلاّ تفسيراً واحداً ، هو أنّ صيف ١٩٣٩ كان شديد الجفاف ، فكانت كميّات المياه في الأنهار بالتالي قليلة . وفي أيار ١٩٤٠ لم يلقَ الألمان في عبور نهر « الموز » صعوبة تُذكر ، فكانت مفاجأة الفرنسيّين أدهى وأشدّ من ذي قبل ، ممّا حداهم إلى القول إنّ الجسور التي أمروا بنسفها لم تُنسف، فاستعملها الألمان . والحقيقة هي أنّ الجسور قد نُسفت كلّها ، وخاصّة في «سيدان»، إلاّ جسراً أو جسرين . وممّا قاله الفرنسيّون في تعليل عبور الألمان الأنهار أنّهم استخدموا قوارب هجوم قويّة ، ولكنّ الواقع يشهد أنّ الوسيلة الفضلى التي لجأوا إليها كانت قارب المطّاط .

... عبور نهر "الموز"



كانت العقيدة العسكريّة الفرنسيّة تعتبر مجاري المياه حواجز ممتازة ضد الدبّابات ، وكانت تنصّ على اعتراض سبيل الدبّابات بوسيلتين : الأولى ، إصلاء العدوّ ناراً حامية لدى محاولة العبور ؛ والثانية ، شنّ هجمات معاكسة تقضي على من يتمكّن من الإفلات . ولكنّ هاتين الوسيلتين مُنيتا بالإفلاس الذريع على نهر « الموز » . أمّا الأولى فقد حالت دون تنفيذها كثرة منعطفات النهر ، وأمّا الثانية فقد أخفقت لافتقار الفرنسيّين إلى احتياطيّ متحرّك ، ولعدم تنظيم الدفاع ، ولانهيار معنويّات جنودهم نتيجة الغارات الجويّة . هذا ، فيما كانت مقرّات الأركان العامّة البعيدة تُوالي أوامرها بإلقاء العدوّ في « الموز » ! ففي تلك الأثناء كان الألمان قد اجتازوا بأمان المرحلة الحاسمة التي تلت عبور عناصر المشاة المجرّدة من المصفّحات ومن الأسلحة الثقيلة .



التّصوّرات الواهمة توحي بأنّ الحرب ستكون قصيرة



المشاة الألمان يتقدّمون مخلّفين وراءهم جريحاً .

إنّه لصعب على المرء أن يحكم بموضوعيّة ووضوح على مجرى الحرب في الجبهة الغربيّة خلال شهري أيّار وحزيران سنة ١٩٤٠ ؛ فإنّ تواتر الهزائم السريعة ، وعدد الأسرى الضخم ، والمدن المفتوحة ، وما إليها ، قد أوحت إلى العالم المشدوه بأنّ « فرنسا » لم تقاوم قطّ . هنالك حقيقة لا مجال للشكّ فيها ، هي أنّ الجيش والأمّة لم يبديا من ضروب البسالة ، في هذه الحرب التي لم يستعدّا لها ، ما أبدياه في حرب ١٩١٤ ؛ ولكنّ هنالك حقيقة أخرى حرص هذا الكتاب على إثباتها ، وهي أنّ هذه الحرب لم تعدم معارك بطوليّة دامية تخلّلتها إلى يوم الهدنة .

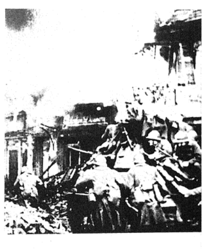


ما أشدّ عبث الحرب ! عربة فرنسيّة ذات سلاسل تستقرّ في حفرة حفرها الفرنسيّون للدبّابات الألمانيّة !

أسرى فرنسيّون يساقون إلى حصن « شارلمون » في « جيفي » .



أسرى فرنسيّون تقلّهم دبّابة ألمانيّة .



مشاة فرنسيّون يسعون بحماية دبّابة .



المعارك البطوليّة تضيع في غمرة الهزيمة النّكراء

الفصل الخامس

٢٠ أيّار - ٥ حزيران

مأثرة «دنكرك»

بين البحر و «نامور» يتساءل الجند المنهزمون لـمَ هم يتقهقرون ؟
كانت المسيرة مضنية بالنسبة للجيش الأوّل ، لأنّ التقدّم الألماني السريع أرغمه على حثّ الخطى . ولكنّ الأجناد الفتيّة كانت تستعيد نشاطها بسرعة .

في مساء ١٤ أيّار صفّ «بلانشار» فيالقه الثلاثة (٣-٤-٥) في فجوة «جمبلو» . ونشب القتال في اليوم ذاته . ولكنّه ما كان يشمل غير قلب الجيش الأوّل . أي ١٢ كتيبة من أصل ٨٢ . أمّا الفريق المهاجيم فهو الفوج المصفّح ١٦ بقيادة الجنرال «هوبنر» الذي كاد فيما مضى يزحف على «برلين» لإسقاط «هتلر» . وتمكّن الفوج الرابع الفرنسيّ من صدّ الهجمات الألمانيّة كلّها . وقام فوج الخيّالة بهجوم معاكس دحر به الألمان . وبلغت الثقة بالقيادة حدّاً فكّرت معه بتنظيم استبدال الجنود . وباستدعاء عازفي «السكسوفون» و «الأكورديون» لتشنيف آذان المحاربين في استراحتهم . وما أقبل الغد حتى كانت المعركة قد انتهت ! ففي الساعة الثانية صباحاً تلقّى جناح الجيش الأوّل الأيمن أمراً بالالتفاف حول «جمبلو» بعد ما كشفته هزيمة الجيش التاسع . وفي السادسة مساء استحال هذا الأمر بالتراجع الجزئيّ أمراً بالتراجع العامّ . لقد أمر الجيش الأوّل بالانكفاء على ترعة «شارلروا» بين «السامبر» و «تونيز» والصمود أمامها «بلا تفكير بالتراجع» . وامتدّ الأمر بالتراجع حتى بلغ جنود الحملة الانكليزيّة . فإذا بالذهول ينال منهم ما لم ينله من الفرنسيّين : قطعوا عدواً مسافة ٦٠ ميلاً ليصلوا إلى موقع قيل لهم إنّه سيكون ميدان الاشتباك النهائيّ الحاسم . فإذا بهم يعودون أدراجهم من غير أن يلقوا عدواً ! ولم يدرِ الجنود الانكليز . ولا جنود الجيش الأوّل . بالانهيار الذي حدث في ميمنتهم. ولم يكن بوسعهم أن يتصوّروا أنّ أمر التراجع السريع . الذي يمتثلون له متذمّرين . قد جاء متأخّراً بالنسبة للأوضاع القائمة : فساعة وُقّع عليه في مركز قيادة مجموعة الجيوش الأولى في «فولنبري» كانت المصفّحات الألمانيّة قد وصلت إلى «مونكورنيه» . وبلغ تأخّر جيوش الشمال مقدار مرحلتين بالنسبة للمجموعات الآليّة التي تجاوزتها . هذا . ولم تدرك القيادة خطورة الحركة التي ترتّب عليها القيام بها للإفلات من الطوق .

كان «جوفر» عشيّة موقعة «شارلروا» . في ٢٢ آب ١٩١٤ . قد أمر جناحه الأيمن بالتراجع العامّ . ولقد ظلّ هذا التراجع . في ذهن من قام به من الجنود . أشدّ ذكريات الحرب هولاً وإيلاماً . ولكنّ هذا القرار الفوريّ قد أنقذ الجيش يومذاك . وفي أيّار ١٩٤٠ كان بالإمكان إنقاذ مجموعة الجيوش الأولى من الحصار والتطويق بفضل قرار سريع كذلك . إلاّ أنّ الموقف كان يفرض في القوّاد، وهم المدرّبون على الحرب الجامدة . سرعة تقدير باتوا لا يعرفونها .
وحين وصلت المصفّحات الألمانيّة إلى مصبّ «السوم» في ٢٠ أيّار . كان الجيش الأوّل يقاتل حول «موبوج» ومهمّته الدفاع عن تحصينات موقع الحدود «بلا تخاذل أو تراجع» . ولم يتعرّض

جنود انكليز يصوّبون بنادقهم إلى السماء بحركة غريزيّة دفاعيّة لا شعوريّة أثناء تحليق القاذفات الألمانيّة .

الانكليز والبلجيكيّون لهجوم عنيف . فبقوا مصطفّين وراء النهر . ولقد قُطعت الاتّصالات جميعها مع « فرنسا » . أمّا فرق المصفّحات الألمانيّة . وقد حمتها من الجنوب قوى الحاميات الجانبيّة التي أقامت رؤوس جسور فوق « الإين » و « السوم » . فقد مضت صعداً نحو الشمال مهاجمة «اراس» و «كاليه». ضاغطة على قعر الجيب الذي تعج فيه ٤٦ فرقة حليفة (مليون من البشر) يضاف إليهم مليون من اللاجئين . إنّه في الحقيقة لَوضع يحاكي أفظع الكوارث العسكريّة التي عرفها التاريخ ؛ « فنابليون » نفسه لم يحقّق . في ما قام به من حملات . تطويقاً في مستوى هذا التطويق !

إلاّ أنّ « فيغان » الذي عُيّن عشيّة ذلك اليوم . قام يحاول تحطيم هذا الطوق الفولاذيّ . فلم تمض ٢٤ساعة على تسلّمه زمام القيادة حتّى عاد فاستقلّ طائرة حملته هذه المرّة فوق ميدان القتال . فلقد أدرك أنّ اتّصالاً شخصيّاً بجيوش الشمال لا بدّ منه ؛ أمّا مقرّ القيادة . المتخلّف عن الأحداث كالعادة . فكان قد أعدّ له رحلة بالقطار أو بالسيّارة . ولكنْ تبيّن له في اللحظة الأخيرة أنّ الخطوط الحديديّة والطرقات قد قُطعت . فقرّر « فيغان » إذ ذاك اعتماد طريق الجوّ رغم معارضة « بول رينو » الذي كان يخشى أن يفقد قائده الجديد . وهكذا أقلع من مطار « بورجيه » على متن قاذفة قنابل يحفّ بها سرب من المطاردات .



تحت التفّاح ، ضبّاط فرنسيّون وانكليز يتداولون الموقف .

بهذه الوسيلة ارتسم الوضع الستراتيجيّ في الأذهان جليّاً واضحاً ؛ فقد فُصلت الجيوش الحليفة شطرين نتيجة لزحف المصفّحات الألمانيّة . أمّا الشطر الشماليّ فقد شُدّ عليه الخناق وبات مهدّداً بالإبادة ؛ وأمّا الشطر الجنوبيّ فلن يسمح له ضعفه المريع من الصمود في وجه الألمان . وإذا لم تُوفَّق القيادة في رفء الصدع فالهزيمة واقعة لا محالة .

كانت المسألة خطيرة ملحّة ؛ ولقد ختم « غاملان » توجيهاته عشيّة اليوم الأسبق بالكلمات التالية : « القضيّة قضيّة ساعات » . وقد أصاب بهذا القول كبد الحقيقة . إذ أنّ قوّات العدوّ التقليديّة كانت تندفع بأقصى سرعتها في تلك الثغرة التي فتحتها لها القوّات الآليّة . وأشارت تقارير الطيران إلى « فراغ تامّ في مثلّث « لاون — مونكورنيه — نوشاتيل » . وأكّد الهاربون الوافدون من منطقة « موبوج » أنّهم لم يصادفوا ألمانيّاً واحداً خارج الطرقات . بيد أنّ وضع العدوّ المضطرب كان في تحسّن . فيما كان حظّ الحلفاء في إعادة لحمتهم . قبل إنشاء الجبهات الصامدة المنيعة . سائراً إلى الفساد بسرعة مخيفة . حقّاً كانت القضيّة قضيّة ساعات .

لم تكن المناورة التي نصح بها « غاملان » بالأمس خاطئة من حيث المبدإ . فبديهيّ أنّ حظّ الطرفين في اللقاء موفور شرط أن يسير كلّ منهما باتّجاه الآخر . لم يكن بوسع « فيغان » إلاّ أن يتبنّى فكرة سلفه . وهي فكرة قد تخطر ببال أيّ طفل يلقي نظرة على خارطة . إلاّ أنّ « غاملان » . المطوِّف في فلك النظريّات . كان يرى الأشياء من علياء المجرّدات والخيال . ويرى إصلاح الفساد عند أصله بالذات . أي استعادة ممرّات « الموز » بهجوم يشنّه الجيش الثاني باتّجاه « سيدان » و « ميزيير » . أمّا « فيغان » فكان يدرك بواقعيّة أنّ الجيش الثاني المتقلّص على رأس جسر « مونميدي » لم يبقَ موضوع بحث . فهو لا يرى فكّ الحصار عن جيوش الشمال ممكناً إلاّ بهجوم ينطلق من « السوم » لملاقاة الزحف الذي تقوم به جيوش الشمال نفسها باتّجاه الجنوب . ولذا رأيناه يطير فوق ميادين « الفلاندر » التي عمل فيها مع « فوش » . لـ ٢٦ سنة خلت . على تنظيم التحام الجيوش .

كان من شأن الظروف التي أحاطت بوصوله أن تعطيه فكرة بيّنة عن الفوضى الضاربة أطنابها في جيوش الشمال ؛ فقد اضطُرّت طائرته إلى الهبوط في « نورنت — فونت » بعد تعرّضها لنار المدفعيّة فوق مدينة « بولونيا » . فإذا المطار خال . إلاّ من جنديّ « قذر جدّاً » . على حدّ قول القائد الأعلى . مكّنه من ركوب شاحنة صغيرة . وامرأةٍ طيّبة القلب عرفته من صورة له كانت قد رأتها . فأعدّت له بيضاً مقليّاً . وكولونيلِ أركان نصحه بأن يتابع سفره حتّى « كاليه » . وطار ثانية ثمّ حطّ في أرض كان دخان القنابل ينبعث منها . وإذا بالصدفة السعيدة تجمعه في دار البلديّة بالجنرال « شامبون » ضابط الاتّصال بالجيش البلجيكيّ . فيعلمه « شامبون » بأنّ مكان الاجتماع هو دار بلديّة « إيبر » حيث « ليوبولد » و « غورت » و « بيّوت » بانتظاره . وأسرع « فيغان » إلى المكان المعيّن . ولشدّ ما كانت دهشته عظيمة حين رأى أنّه أوّل الحاضرين !

وصل الملك بعد ساعة . فعرض عليه « فيغان » خطّته : ينبغي . بأيّ ثمن . بتر إصبع القفّاز التي مدّها الألمان حتّى بحر « المانش » . فعلى « غورت » و « بيّوت » أن يزحفا جنوباً . فيما يزحف « فرير » شمالاً . أمّا مهمّة الجيش البلجيكيّ فهي تغطية هذه العمليّة بتحرير أكبر قسم ممكن من القوّات الفرنسيّة والبريطانيّة . فعلى الجيش البلجيكيّ بالتالي أن يتراجع حتّى « الإيزر » بغية تقصير الجبهة . ولكنّ « فان أوفر ستراتن » خالف هذا الرأي تماماً : فالجنود البلجيكيّون منهوكون . وإن لم تتوافر لهم استراحة يومين على الأقلّ تفاقمت بوادر التفكّك التي أخذت تظهر في صفوفهم . أضف إلى ذلك أنّ التراجع حتّى « الإيزر » يعني التخلّي عن اراضي الوطن كلّها تقريباً . مع أنّ غاية البلجيكيّين هي الدفاع عنها . وقد ترك الملك مستشاره العسكريّ يتكلّم . مكتفياً بالإشارة إلى أنّه سيعلن قراره في ما بعد .

كان اختلاف الآراء بين الزعماء البلجيكيّين واضحاً . وقد خلّف أثراً عميقاً في التاريخ البلجيكيّ . فقد اشتبك « بيارلو » رئيس الوزارة .

و « سباك » وزير الخارجيّة . الحاضران في « إيبر » . مع العاهل البلجيكيّ في نقاش حادّ أعقبه في اليوم التالي تبادلُ رسائل مريرة اللهجة . كان رجلا الدولة يؤكّدان أنّ تحالف « بلجيكا » مع الدولتين اللتين استنجدت بهما يتعدّى المعركة الفاشلة التي نشبت دفاعاً عن أرضها . أمّا رأي « فان أوفرستراتن » فكان . على نقيض ذلك . يزعم أنّ خسارة المعركة . والعجز الفرنسيّ البريطانيّ عن حماية « بلجيكا » من الغزو . يسهلان عودة « بلجيكا » إلى سياسة الحياد . وفي اليوم التالي ندّد الملك في رسالته إلى « بيارلو » « بتلك السرعة السخيفة » التي سافر بها عدد من الوزراء إلى « فرنسا » ؛ وما كان له أن يلومهم . سيّما وانّ المواصلات قد قُطعت بعد مرورهم بساعات قلائل . ما كان يشجبه « ليوبولد » . إذاً هو مبدأ الرحيل بالذات .

وصل « بيّوت » بدوره بعد ما بحث عن « فيغان » في « كاليه » و « دنكرك » من غير جدوى . لم يكن في الجيش الفرنسيّ من يضاهيه حذقاً ونشاطاً . بيد أنّ هزيمة القيادة . الناتجة عن اعتماد أساليب حربيّة لم تكن قطّ في الحسبان . لم توفّر أحداً . كانت قيادة مجموعة الجيوش الأولى . المفرطة الاتّساع والتعقيد . ضعيفة . ولم يعر قائدها جيشي الجناح الأيمن ٩ و ٢ ما يستحقّانه من الاهتمام . على اعتبار أنّهما جيشان جامدان . مهمّتهما الدفاع عن جبهة سلبيّة . ولم تظهر ضخامة المناورة الألمانيّة إلاّ في اللحظة الأخيرة . حين أوشكت على بلوغ هدفها . ألا وهو البحر . وشكا الانكليز الذين قبلوا بقيادة « بيّوت » من أنّهم لم يتلقّوا منه أيّ أمر خلال أربعة أيّام متتالية . والواقع أنّ جهاز الاتّصال الماديّ بكامله . وجهاز توجيه المعركة الذهنيّ . كانا قد نُظّما تأهّباً لحرب بطيئة . فإذا بالحرب البالغة السرعة التي فرضتها عبقريّة « هتلر » تفسد كلّ شيء .

لم يكن في اللوحة التي رسمها « بيّوت » عن مجموعة الجيوش الأولى ما يطمئن أو يشجّع . فبعد ما أخلى البلجيكيّون « بروكسيل » منذ ثلاثة أيّام . تخلّوا عن مجرى «الإسكو » الأسفل . وانثنوا على ترعة « ترنوفن » . فيما بقي الانكليز عند النهر ومدّوا خطّ دفاعهم حتى « أراس » . كان الجيش الأوّل الفرنسيّ . الذي اختلط به حطام الجيش التاسع . أشبه بفتق بالنسبة لمجموعة الجيوش الباقية ؛ لقد تخلّص بجهد من منطقة « موبوج » وأخذ يتمركز على جبهة شبه مستديرة من « كوندي » إلى « دووي » . وهو يناضل في ظروف دامية صعبة . نظراً لانكشاف جبهته اليمنى المستمرّ . ومع هذا فإنّ فرقتين تزحفان اليوم . ٢١ أيّار . نحو « كامبري » . فيما تهاجم الفرقتان ٥ و ٥٠ البريطانيّتان . المنسحبتان من « الإسكو » . قرب « أراس » بقيادة الجنرال « فرانكلين » . كانت هاتان العمليّتان المزدوجتان تهدفان إلى الحدّ من اتّساع الثغرة المفتوحة بين خطّ « السوم » ومجموعة الجيوش الأولى . إذاً كانت المناورة التي أتى « فيغان » لتنظيمها قد انطلقت إلى حيّز التنفيذ . ولكنّ « بيّوت » لم يكن يعلّق على نجاحها أملاً كبيراً .

كان الحاضرون ينتظرون « غورت » . ولكنّ « غورت » . ويا للأسف . لم يحضر . فالأمل بفتح ثغرة كان معقوداً على الجيش الانكليزيّ . والجيش الانكليزيّ كان ما يزال سليماً كاملاً . لم يحارب إلاّ قليلاً . ولم يفقد أكثر من ٥٠٠ رجل . وهنا خامر « فيغان » بعض الشكّ : تُرى . ألم يتخلّف اللورد « غورت » عن الموعد عن سابق تصميم ؟ وكان هذا الشكّ نفسه قد خامر « بيّوت » منذ أيّام . فأعلم مقرّ القيادة منذ يومين بأنّ « غورت » ينوي الانكفاء بفيلقه والإبحار من « كاليه » . وهكذا يكون الانكليز قد دبّروا خطّتهم وقرّروا التخلّي عن رفقائهم في السّلاح الذين علقوا في الشبكة . لم تكن الهزيمة يوماً لتوثّق الأحلاف . ولذلك لن يكفّ الحذر المتبادل . بعد اليوم . عن التضخّم . ولن تكفّ علاقات الحلفاء عن التردّي والانهيار .

الساعة تشير إلى السابعة . كان « فيغان » قد وعد « رينو » بالعودة مساء اليوم ذاته . فإذا بمكالمة هاتفيّة صادرة عن « كاليه » تخبره بأنّ المطار غير صالح . وبأنّ المهالك تحفّ بأيّ سفر جوّيّ جديد . وعرض عليه « أبريال » . « أميرال الشمال » . قائد موقع « دنكرك » وبحريّتها . نسّافة تقلّه إلى « شربور » . فقبل . وعادت الطريق التي قطعها من « إيبر » إلى « دنكرك » تزجّ به في واقع كان يجهله تمام الجهل : واقع تلك الجموع الغفيرة ؛ وذاك الخليط من العسكريّين والمدنيّين . وذاك الشلل الذي أصيبت به المؤخّرات فعطّل فعالية القيادة . أمّا في « دنكرك » فكان الطيران الألمانيّ ينشط :



في « بلجيكا » ، أيّار ١٩٤٠ . دبّابة فرنسيّة متوجّهة إلى الميدان تلتقي جماعة من اللاّجئين .

هنا انفجارات تدفع الناس في دوّامة رهيبة . وهناك تندلع النار في صهريج مازوت فتملأ الليل الطالع لهيباً ؛ وتعبر سفينة « فيغان » الصغيرة « فلور » بين سدّين خشبيّين تأكلهما النيران . لم يقم القائد بعمل يُذكر خلال نهاره المتعب الخطر ، ولكنّه ، على الأقلّ ، رأى الحرب عن كثب ، وقاس مدى اليأس الذي توحي به .

وما انقضت ساعة على إبحار « فيغان » حتى وصل « غورت » إلى « إيبر » . كان مركز القيادة الفرنسيّة قد أغفل إخطاره بموعد الاجتماع ، فلم يعرف به إلاّ عن طريق « لندن » بعد فوات الأوان . عرض عليه « بيّوت » مشروع مناورة « فيغان » ؛ أمّا « غورت » ، الذي فقد ثقته بالجنرالات الفرنسيّين تماماً بعد ما كان يمحضهم إيّاها خالصة عمياء، فلم تبدر منه حماسة تُذكر . لم يكن صحيحاً أنّه قد أمر بإبحار جيشه ، ولكنّه كان في الواقع يفكّر بالأمر ، وكان قد اقترح ذلك على حكومته ، لأنّه لا يؤمن بإمكانيّة شقّ طريق تفضي به إلى « السوم »

عاد كلّ أدراجه ، فاستقلّ « بيّوت » سيّارته . ولكنّ شاحنة تابعة لقطاع « الفلاندر » المحصّن صدمت سيّارته قرب « بايول » . ففارق الحياة بعد يومين في مستشفى « إيبر » من غير أن يصحو من غيبوبته.

قـرّر « غـورت »
ترحيل قوّات الحملة البريطانيّة

أصبحت « أراس » من المعركة في الصميم . وهي ، في خضمّ الزحف الألمانيّ ، كرأس داخل بحر ، أو إصبع ممدودة نحو الجنوب وكأنّها تشير إلى اتّجاه الجهود . نظّمت هذه البلدة مركزاً للمقاومة ، فتلقّت حامية مؤلّفة من عناصر حديثة الولادة كان « غورت » قد تجنّب اصطحابها إلى « بلجيكا » . ومنذ ذلك الوقت انهالت على البلدة غارات عنيفة جرّحتها وشوّهتها ، فركن سكّانها المدنيّون إلى الفرار . ولكنّ الحامية بقيت تقاوم ، في حين انضمّ إليها الجنرال « فرانكلين » لتوّه مع فرقتي المشاة ٥ و٥٠ . وكانت المسافة التي تفصله عن الخطوط الفرنسيّة على « السوم » ٤٠ كلم ، وهي عبارة عن حاجز كان ينبغي قطعه لتقع في الفخّ الفرقُ المدرّعة الألمانيّة التسع التي تغلغلت في تلك المنطقة فتغدو منقطعة عن خطوط تموينها ، شلاّء ، مسمّرة إلى الحضيض .

في ذلك الوقت كانت الأفكار في القيادة الفرنسيّة العليا قد اتّضحت معالمها ؛ فما ان وصل الجنرال « فيغان » إلى « فنسين » بقطار « شربور » حتى دوّن جدول عمليّاته رقم «١٠» ، قال : « إنّ عناصر العدوّ الخفيفة التي تحاول بذر الاضطراب والذعر في مؤخّراتنا يجب أن تلقى فيها حتفها . ففرق الدبّابات الألمانيّة التي غامرت بجرأة في الدخول إلى هذه الحلقة المقفلة يجب أن تُحبَس فيها وألاّ تجد منها مخرجاً » .

وبعد ما تسلّم الجنرال « بوسون » قيادة جيوش « توشون » و « فرير » قال : « لم يبقَ الدفاع كافياً ، يجب أن نهاجم ، نهاجم . » وقد بات جليّاً أنّه لا يمكن التصدّي للهجوم الآليّ إلاّ بدفاع يضاهيه سرعة . وهكذا ، عادت الحقيقة العسكريّة صافية إلى الأذهان في الوقت الذي تلاشت فيه الإمكانات التي كان يمكن أن تدعمها !

ومع ذلك كلّه لم تكن سماء النصر فوق « هتلر » صافية تماماً ؛ فأمواج التهلّل والقلق الشديد كانت تتعاقب في مقرّ قيادته في « مونشتيرايفيل » . كان رؤساء الجيش أهدأ روعاً من « هتلر » . ولكنّهم في الوقت نفسه كانوا قلقين ؛ فالقوّات السريعة قد بلغت « المانش » ، ولكنّ القوّات البطيئة لم تتعدّ مقطع « السامبر » . وهذه نقطة فصل شاسعة كان بإمكان خصم ماهر أن يستغلّها ليقيم بها للجيش الألمانيّ يومَ مأتم . وكذلك كانت فرَق المشاة تسير سيراً حثيثاً ولا تتقدّم إلا ببطء بالغ . وفي الثغرة ، وفيما عدا المصفّحات ، كانت عناصر مقدّمة الجيش الرابع هي الوحيدة المشتبكة حول « موبوج » ؛ وكان الجيش الـ ١٦ منبسطاً جنوبيّ « سيدان » ؛ وكان الجيش الـ ١٢ ممدّداً على « الرين » . أمّا جيشا النسق الثاني ، الثاني والرابع ، فلم يكونا قد خرجا من « ألمانيا » بعد ؛ وعلى « السوم » كانت فرق الفيلق الـ ١٤ الآليّة منصرفة إلى حراسة الجوانب مسيطرة على رؤوس الجسور ، بدلاً من أن تقاتل إلى جانب الدبّابات التي بدأت تنهار لفرط ما ناضلت . وقد ترامى من مجموعة « فون كلايست » أنها فقدت نصف دبّاباتها ؛ فالقوّات الألمانيّة ممغوطة ، متفرّقة ، مرهقة ، فهي لقمة سائغة في فم فيلق مدرّع لم يكن لحسن حظّها موجوداً .

وفي مساء الـ ٢١ ، جاءت الأخبار تحمل الذعر إلى القيادة الألمانيّة العليا . وللمرّة الأولى بدا لهذه القيادة أنّ نجاح العدوّ ممكن ؛ فقد وقعت فرقة الدبّابات الألمانيّة السابعة في مأزق حرج : كانت على وشك الوصول إلى جنوبي شرقي « أراس » في « بوران » ، ولكنّ فوج الرماة المنقولين لم يلحق بها . فاضطرّت الدبّابات أن ترتدّ على أعقابها بعد ما تكبّدت خسائر فادحة . وكاد « رومل » نفسه أن يقع في الأسر : فقد بقي مع ضابط الإرسال ساعة كاملة وسط ضجيج المصفّحات الفرنسيّة . وعاد طيف ١٩١٤ إلى الأذهان ، طيف « المارن » ، طيف الانتفاضة الجبّارة التي وصفها وغنّاها « فون كلوك » . وراح القوّاد الألمان يتساءلون عمّا إذا كانوا في عشيّة تحوّل يشهده وجه المعركة . وكتب « هالدر » في سجلّه اليوميّ : « إنّه ليوم مضطرب . المصير يتقرّر حول « أراس » . فإذا استطعنا الصمود ربحنا المعركة ... »

وفي الواقع لم يكن لمخاوف الألمان ما يبرّرها ؛ فإخفاق فرقة الدبّابات الألمانيّة السابعة لم يكن غير حادث محلّيّ طارىء . فالنشاط الفرنسيّ الانكليزيّ المشترك كان ضعيفاً للغاية ، سيّىء التنسيق إلى حدّ بات فيه لا يشكّل أيّ خطر جدّيّ على المصفّحات الألمانيّة . وإذا كان قوّاد الجيش الألمانيّ قد فقدوا رباطة جأشهم ، فما ذلك ، إلاّ لأنّ عظمة نجاحهم قد أذهلتهم إلى حين .

وأمّا الهجوم الذي شنّه الفيلق الخامس الفرنسيّ باتّجاه « كامبري » في ٢٢ فقد تلاشت قواه قبل أن يبلغ المدينة . وفي « أراس » لم تكن « لفرانكلين » لا القوّات ولا التعليمات اللازمة كي يجعل من ضربته المفاجئة فاتحة لإنقاذ جيوش الشمال ؛ فأخلى أطراف البلدة ثمّ احتجز نفسه فيها ، تحفّ به مخاوف يثيرها تحرّك المصفّحات الألمانيّة الجامح بين « المانش » وبينه . وفي عشيّة ٢٣ ، بعد يومين من القتال العنيف ، تلقّى من « غورت » أمراً بالتشبّث « بأراس » « حتى آخر طلقة » . وفيما كان الجنود الانكليز يقومون بسدّ المنافذ وصل إلى «فرانكلين» أمر جديد : إخلاء « أراس » تحت جنح الليل ، وإعادة الفرقتين ٥ و٥٠ إلى ترعة « دول » العلويّ لمساندة جانب خطّ المقاومة الذي ينظّمه «غورت» على مجاري الماء في الشمال . فبعد ما فكّر قائد الحملة البريطانيّة بترحيل قوّاته راح يجمع شملها رافضاً أن يغامر بها في عمليّة لا مخرج منها . هذا الانسحاب عن « أراس » ، وهذا التراجع على ٣٥ كلم ، وهذا التخلّي عن مركز السانحة الأخيرة ، أمور أدّت إلى مجادلات

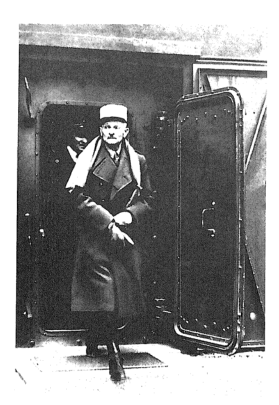
مسمومة ، فقد أكّد البعض أنّها ـ حقت خطّة « فيغان » وقرّرت مصير جيوش الشمال ، بيد أنّ الوقائع لا تتيح مجال الموافقة على هذا الرأي . ولكن يمكن تبرير غضب القائد الأعلى الذي علم في صبيحة الـ ٢٤ أنّ قاعدة عمليّته الأساسيّة قد دُكّت من غير أن يعلم بالأمر . وقد كتب « فيغان » يقول : « مع أنّني اليوم بتّ أعرف أعذار لورد « غورت » ، فأنا لا أستطيع أن أفسّر تخلّفه عن تبليغي قراره ... » .

وهكذا عاد تجهيز القيادة الحليفة إلى الانهيار مرّة أخرى . وعجز « بلانشار » ، القائد الجديد للفيلق الأوّل ، أن يحيي في الانكليز ثقتهم بموهبة القوّاد الفرنسيّين . فالأفكار والإرادات كانت مختلفة . وبعد ما تخلّى « فيغان » عن فكرة الثغرة ، تشبّث بفكرة رأس جسر في « الفلاندر » يجري تموينه من « كاليه » و « دنكرك » و « أوستوند » لإرساء مقاومة طويلة الأمد بفضل السيطرة على البحر . وفيما كان يعدّ لهذا المشروع عدّته كان الانكليز قد قرّروا الرحيل .

إنّ صاحب قرار الرحيل هو لورد « غورت » نفسه . ما من قائد تعرّض للنقد الشديد منذ بداية الحرب كهذا الرجل العابس. الأبيض القلب ، فالميزة العسكريّة الوحيدة التي لم ينكرها عليه أحد هي بسالته الشخصيّة التي استحقّ بها مدالية « صليب فكتوريا » أمام « كامبري » سنة ١٩١٧ . أمّا ما تبقّى من صفاته فقد أُدين به : تفاؤل ساذج جعله يبعث إلى « لندن » بتقارير طُبعت بطابع الرضى الهادىء حتى في أحرج المواقف . وطاعة عمياء دفعته إلى تقبّل التعليمات الفرنسيّة كافّة على علاّتها . وعجز إداريّ جعل من مقرّ قيادته مثالاً للفوضى . وقلّة دراية في قيادة الوحدات الكبرى. كان يظنّ ــ شأن زملائه القوّاد الفرنسيّين ــ أنّه سيخوض ، ضمن قطاع محدود ، معركةً مركّزة . وإذ به في مقرّ قيادته يعيش وسط اللغط والفوضى . كان الليل يهتزّ بالانفجارات ، والسماء تشتعل بنار الحريق ، وكانت المواصلات ضعيفة جدّاً أو مقطوعة . إذ كانت مفارق الطرق والمحطّات تعاني من هول الغارات المتكرّرة . وخُفّضت حصص جنود الحملة البريطانيّة في الطعام إلى النصف ، ولم يتبقّ للمدفعيّة من ذخيرة غير مؤونة عشرة أيام . حتّى القائد الأعلى نفسه شعر بضغط العدوّ عن كثب ، فأمر بتنظيم مركز قيادته في نقطة ارتكاز مغلقة ، وقلّما وجد قائد نفسه في ظروف سيئة أو غير منتظرة كهذه .

ولو درس « غورت » الوضع من الناحية التكتيكيّة لما استطاع تفاؤله المعهود أن يخفي عنه سوء الأوضاع وتدهورها ، فالحملة البريطانيّة قد تفكّكت أوصالها . وفرقها الـ ٤ والـ ٣ والـ ١ والـ ٤٢ تقاوم في الشمال . في تحصينات الحدود ، وفرقها الـ ٤٨ والـ ٤٤ والـ ٢ والـ ٤٦ منبسطة على طول « خط الترعة » في الجبهة الجنوبيّة الغربيّة. وبدل أن تدعم الفرقتان الـ ٥ والـ ٥٠ هذا الحاجز الدقيق بعد انسحابهما من « أراس » ، انطلقتا صعداً نحو « إيبر » في زحمة الطرقات ، ذلك أنّ الجيش البلجيكيّ كان هو الآخر يتفكّك . فالتراجع إلى « الإيزير » ، الذي كان الملك « ليوبولد » قد أقرّه في النهاية ، لم يبقَ ممكناً ، فضلاً عن كونه قد فقد معناه مذ تخلّوا عن محاولة شقّ طريق لبلوغ « السوم » . زد على ذلك أنّ الجيشين الألمانيّين الـ ١٨ والـ ٦ قد انتقلا إلى الهجوم في اتّجاه « رولر » و « ديكسمود » و « دنكرك » . أمّا أن يقاوم البلجيكيّون حتّى النهاية ، أو أن يستسلموا ، فأمران أحلاهما مُرّ ، ولا طائل تحتهما . وهكذا كان جناح « غورت » الأيمن معرّضاً بكامله للخطر .

ومن جهة ثانية كان الفرنسيّون يسيطرون على طرفي الجبهة الجنوبيّة ، فكان معظم الجيش الأوّل محصوراً في جنوبي شرقي « ليل » في رقعة ضيّقة مخنوقة . وأمّا فيلق الخيّالة فكان مشتّتاً : فقد توجّهت



« علينا أن نقاتل بضراوة ، وأن نهاجم كالكلاب ، للقضاء على الدبّابات الألمانيّة المنهوكة القوى ... »

(من كلام للجنرال «فيغان» إلى الجنرال «بيّوت» أورده الجنرال «روتون» في كتابه « سنوات حاسمة »)

إحدى فرقه الخفيفة الآليّة إلى الشمال لدعم الانكليز ، فيما راحت الأُخريان تُسهمان في الدفاع عن تُرعة « الإير » في « الباسي » . في الغرب ، كانت تحمي الساحلَ بقايا الفيلق السادس عشر وفرقتان من الفئة (ب) (الـ ٦٨ والـ ٦٠) . وقد ألقت الدبّابات الألمانيّة بثقلها في هذا القطاع الذي كانت خسارته تعني قطع الطريق البحريّة والتطويق المحتّم . وكانت مدينة « بولونيا » قد أُخذت في ليل ٢٤ المنصرم . على الرغم من مساندة فوج الحرس الذي أُرسل من إنكلترا ، وأمّا « كاليه » التي تلقّت أمراً بالصمود إلى النهاية فقد هوجمت بعنف . ثمّة باب واحد بقي مفتوحاً : « دنكرك » . ولكنّه كان جليّاً أنّ الاستيلاء عليه لا يستغرق إلاّ أيّاماً معدودة .

كان « غورت » قد فكّر بالجلاء جدّيّاً ، وطلب رأي الأميراليّة البريطانيّة بهذا الصدد . ولكنّ الجواب قد ثبّط عزيمته . فعاد إلى الثغرة باتّجاه « السوم » ، ولمّا وجد أنّ الأمر مُحال تحرّكت فيه غريزة القنفذ . فرأى أن يتحصّن وراء خطّ الترع الذي فكّر به « فيغان » مؤخّراً . ولكنّ رأس الجسر لم يكن صالحاً ، فلم يبقَ أمام « غورت » ، والحالة هذه ، إلاّ أحد أمرين : فإمّا القبول بالأسر الكريم ، أو الهرب باتّجاه البحر ، وفي هذه الحال تُخلّف الأسلحة والأعتدة بكاملها في أرض « الفلاندر » الكئيبة تلك ، وتعمل البحريّة البريطانيّة على التقاط ما يتيسّر لها من رجال ، تماماً كما تنتشل مدمّرةٌ الناجين من

MINISTÈRE
DE LA
DÉFENSE NATIONALE
ET DE LA GUERRE.

Cabinet
du Ministre

TRÈS SECRET

Paris, le 19

Copie du télégramme adressé par M.CHURCHILL à M.REYNAUD pour le Général WEYGAND(Déchiffré à 5 a.m.,le 24 Mai 1940)

-:-:-:-:-:-:-:-:-:-:-:-

Général GORT wires that co-ordination on the northern fr
is essential with the armies of the three different nations.H
says that he cannot undertake this co-ordination as he is alr
dy fighting north and south and is threatened on his lines of
communication.At the same time Sir Roger Keyes tell me that
to 3 p.m. today,May 23rd.,the Belgian Headquarters and the Ki
had received no directive.How does this agree with your state
ment that Blanchard and Gort are main dans la main? Appreciat

نسخة برقيّة أرسلها «تشرتشل» إلى «رينو» موجهّة إلى الجنرال «فيغان». وقد تمّ حلّ شيفرتها في الساعة الخامسة من صباح ٢٤ أيّار ١٩٤٠ ؛ جاء فيها : «أبرق إليّ الجنرال «غورت» يخبرني بأنّ التنسيق بين الأمم الثلاث ضروريّ في الجبهة الشماليّة ، ويقول إنّه ليس بإمكانه تحقيق هذا التنسيق ما دامت جيوشه تحارب في الشمال والجنوب ، وما دامت خطوط مواصلاته مهدّدة . ومن جهة ثانية أخبرني السير « رودجر كيس » أنّ القيادة البلجيكيّة وملك «بلجيكا» لم يكونا قد تسلّما أيّة توجيهات حتّى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم ، ٢٣ أيّار . فكيف يمكن التوفيق بين هذا الواقع وما سبق وأكّدتموه من أنّ «بلانشار» و «غورت» سيعملان معاً يداً واحدة ؟»

بحّارة بارجة أغرقها العدوّ .

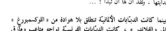
وقد قرّ رأي « غورت » على هذا المخطّط عشيّة الـ ٢٥ . في مقرّ قيادته في « بريميسك » . وفي الغد الباكر . وكان يوم أحد . توجّه نحو «أتيش» حيث مقرّ قيادة الجنرال «بلانشار» . وكان هذا الأخير قد هيّأ أمراً بالتراجع على ثلاث مراحل مع الإبقاء على خطّة رأس جسر دائم حول « دنكرك » . ولم يطلّع « غورت » رئيسه الإسمي على القرار الذي توصّل إليه في الليلة الماضية . وعلى أثر عودته إلى « بريميسك » وجد رسالة من « إيدن » يبلّغه فيها رسميّاً أنّ اعتباره سلامة الحملة البريطانيّة يجب أن يكون فوق كلّ اعتبار . إنّ المرافىء في شرقيّ « غرافلين » يجب أن تُستخدَم مُنطَلَقاً للجلاء . وسيؤمّن الطيران الملكيّ مساعدة كليّة . وستوفّر البحريّة أسطولاً من السفن والمراكب الصغيرة لهذا الغرض . وهكذا كان الاتّفاق عفويّاً وتامّاً بين الحكومة البريطانيّة وقائد حملتها في « فرنسا » .

في « دوفر » قام الأميرال « برترام رامسي » بجمع سفن « المانش » التجاريّة ، والزوارق الهولنديّة ، ويخوت « التاميز » ، وسنابيق سفن النقل من « ساوثمبتون » ، وسفن القطر من مرفإ « لندن » ، وقوارب صيد « هال » ، و « غريمسبي » . وقد قال « تشرتشل » بأسلوبه الشاعريّ العاطفيّ : « نحن على أتمّ الاستعداد لنمخر عباب الماء نحو شواطىء « دنكرك » لإنقاذ جيشنا العزيز » . وبهذا عرفت عمليّة « دينامو » بدايتها . ولقد آن لها أن تبدأ ! ...

بينما كانت الدبّابات الألمانيّة تنطلق بلا هوادة من « اللوكسمبورغ » إلى « الفلاندر » ، كانت الدبّابات الفرنسيّة تواجه متاعب ومآزق لا حصر لها بسبب الخلل الميكانيكيّ أو بسبب نفاد الوقود !



نقّاب ـ لغام بريطانيّ يستعدّ لنسف أحد الجسور في « لوفان »



رتل انكليزيّ مصفّح يتراجع صوب « دنكرك » .

منطقة الحدود قبل النكبة .





لقد أنقذ "هتلر" و "روندشتاد" الجيش الإنكليزي

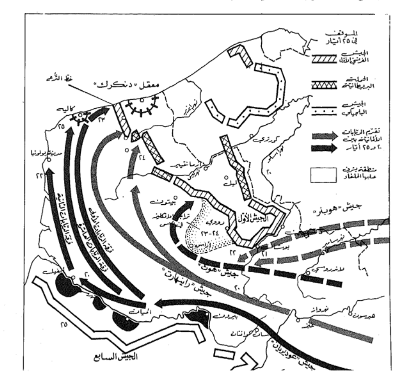
لم تعق أزمة «أراس» زحف الدبّابات الألمانيّة، بل أصبحت الفرق العشر بكاملها على السفح الجنوبيّ من الجيب. فبعد ما سُحبت الفرقة ٩ من الجيش ١٨، جاءت تساند مجموعة «فون كلايست» (المؤلّفة من الفيلقين المدرّعين الـ ١٩ والـ ٤١، ومن ستّ فرق) التي كانت تعمل بين «سان بول» والبحر. وكانت مجموعة «هوث» (المؤلّفة من الفيلقين المدرّعين الـ ٣٩ والـ ١٦ وأربع فرق) تقاتل بين «سان بول» و «لنس». فلم يكن بإمكان الحلفاء أن يواجهوا هذا الدفق من الدبّابات بغير بقايا فرقتين اثنتين من الفرق الآليّة الخفيفة.

وفي ٢٣ أيّار، توقّف في محطّة «بولش»، قرب «مونستيرافل» قطار حديديّ جُهّز فيه مقرّ عامّ قياديّ، وصعد منه المارشال «غورنغ» إلى مركز قيادة الفوهرر. كان يحقّ له أن يفخر: فقد أثبت سلاح الطيران أنّه، أكثر من الدبّابات، السلاح الحاسم في المعارك الرائعة الجارية منذ ١٠ أيّار. ومع ذلك راح «غورنغ» يتذمّر: فطيرانه لم يشترك في النصر بالمقدار الذي يليق به؛ لقد سلبه أكاليلَ الغار ذلك الجيشُ الرجعيّ الذي كان قوّاده يمقتون الثورة القوميّة – الاشتراكيّة! وطلب «غورنغ» أن يأخذ العدل مجراه. جُلّ مُناه أن يكلّف بمهمّة الإجهاز على الجيش البريطانيّ الذي وقع في الفخّ في «الفلاندر» فيرغمه على الاستسلام بتدمير مرافئه.

ولكنْ بالنسبة «لهتلر» كانت معركة الشمال قد انتهت. «فالمخطّط الأصفر» قد نُفّذ. وها هو الآن يجهّز «المخطّط الأحمر»، أي المرحلة الثانية من الحملة الغربيّة وفيها هزيمة «فرنسا» النهائيّة واجتياحها. إنّه يعتزم أن يشنّ على «الرين» و «السوم» – منذ ٣١ أيّار، هجوماً عنيفاً لخرق الجبهة التي أُعيد إنشاؤها، وأن يُطبق من الوراء على الجيوش الفرنسيّة التي لم تكن بعدُ قد مُسّت بسوء في اعتصامها وراء خطّ «ماجينو». ولكنّه، كالمعتاد، اصطدم بمعارضة العسكريّين الذين يرون ضرورة إعادة تنظيم الجيش وتجهيز الفرق المدرّعة قبل القيام بسلسلة جديدة من العمليّات. غير أنّ «هتلر» أبَى أن ينتظر، مع اعترافه بأنّ إجهاد فرق الدبّابات كان يشكّل مصدراً للقلق.

وهنالك اعتبار آخر كان يشغل بال «هتلر»: فطبيعة الأرض التي كانت تحارب عليها الدبّابات في ذلك الوقت لم تبقَ مؤاتية. وقد كتب بنفسه، في ٩ تشرين الأوّل، مذكّرة عن طريقة استعمال الدبّابات يقول فيها خصوصاً إنّه يجب ألاّ تورَّط هذه الدبّابات في «متاهات القرى والمدن البلجيكيّة الشاسعة». أمّا في «الفلاندر» فقد كانت هنالك عقبات إضافيّة من الترع والفيضانات. واستعاد الكابورال «أدولف هتلر» ذكرياته لوصف هذه الأرض الرطبة التي لم يعرفها إلاّ خلال أمطار الخريف وحرب الخنادق؛ أمّا الآن، في شهر أيّار، فالأمر يختلف. ورغب «هتلر» إلى «كيتل» أن يبدي رأيه، فكانت وجهة نظره، بطبيعة الحال، تثبيتاً ودعماً لنظريّة سيّده.

وقفل «غورنغ» عائداً وهو يحمل وعداً بأن يكون نصيب سلاح الطيران في الظفر أوفر. وفي اليوم التالي، ٢٤ أيّار، توجّه «هتلر» إلى «شارلفيل» مركز قيادة «فون روندشتاد»، فوجدها تتخبّط في اليأس: فقد وصل أمر من القيادة العليا يعلن سحب جيش «فون كلوغي» الرابع من المجموعة (أ) ابتداء من منتصف الغد، وإلحاقه بإمرة الخصم «فون بوك» مع الفرق المدرّعة بأكملها، وذلك بحجّة توحيد سير المعركة. واغتاظ «هتلر» لهذا الأمر يتمّ على غير علم منه، فأبطلْ أمر «براوشيتش»، وهنّأ «روندشتاد» مؤكّداً له ثقته الشخصيّة به، وقال: «لقد تفهّمت فكرتي بصورة رائعة ...» وبعدئذ عاد إلى



في ٢٠ أيّار كانت تسع فرق دبّابات ألمانيّة من أصل عشر تصرف همّها إلى تطويق القوّات الحليفة في «الفلاندر». وفيما كانت طلائع المشاة تضغط في جهات نهري «إسكو» و«ليس»، كانت البقيّة الباقية من فرق الرجّالة تتبع على شيء من التأخّر.

« هتلر » مزاجَهُ العذب ، فراح يصغي إلى بيان العمليّات التي قامت بها مجموعة الجيوش يتلوه عليه رئيس أركانها « فون سوندرسن » خليفة « فون مانشتاين » : عاد الوضع ممتازاً كسابق عهده ، فقد استولى « هوث » على القمم المشرفة على حوض « لنس » . واحتلّ « كلايست » مدينة « بولونيا » وراح ينجز ، بصعوبة ، احتلال « كاليه » ؛ وبلغت فرقة الدبّابات الألمانيّة الأولى نهر (آ) ، وهو نهر ضئيل مترّع يصبّ في البحر في « غرافلين » . فـ « غوديريان » إذاً على بعد ١٦ كلم من « دنكرك » ، آخر صلة للجيوش الفرنسيّة البريطانيّة مع العالم الخارجيّ . ١٦ كلم فحسب ، وهي مسافة تقطعها الدبّابات الألمانيّة بساعة واحدة ! فكأنّ التطويق قد تمّ من الوجهة العمليّة ، فلم يبقَ هنالك أيّ سبب للعجلة . وعلى هذا الأساس وافق « روندشتاد » على طلب « كلوغي » بمنح الوحدات المدرّعة استراحة يوم كامل . وقد صدر هذا الأمر في الساعة ١٨,١٠ من عشيّة الليلة الفائتة . ولم يقف « هتلر » عند حدّ الموافقة على الاستراحة بل ساندها بحزم ، مؤكّداً أنّه يليق استعمال الدبّابات بصورة معتدلة ، وأنّه يجب ألاّ تُعرَّض لأيّة خسارة ؛ وقال : « إنّ طيراني سيُجهز على الانكليز . . . » وأتى أمر « هتلر » يعمّم ذلك الذي صدر عن « روندشتاد » ، وهو ينصّ بصراحة على ما يلي : « يجب أن تُترك « دنكرك » لسلاح الطيران » . وعلى هذا يستمرّ الهجوم البرّيّ بمجموعة « فون بوك » وفرق الجيش الرابع العاديّة ، شرط ألاّ تتعدّى المدرّعات خطّ « لينس — بيتون — إير — سانت أومير — غرافلين . . » إنه أمر الفوهرر !

وما ان انصرف « هتلر » حتى تلقّى « روندشتاد » من القيادة العليا أمراً بمتابعة الهجوم بشدّة شماليّ خطّ الترّع ، فلم يعر هذا الأمر اهتماماً ؛ غير أنّه في اليوم التالي ، ٢٥ ، تلقّى رسالة أخرى عجيبة من القيادة العليا يُطلب إليه فيها أن يقوم بدور الحكَم ؛ ذلك أنّ « هتلر » و « براوشيتش » قد اصطدما ثانية ! « فبراوشيتش » مقتنع بوجوب توجيه أعنف ضغط ممكن على جانب الجيب الجنوبيّ ، والمضيّ قدماً في أسر العدوّ باحتلال « دنكرك » بأسرع ما يمكن . ومن « غرافلين » أرسل « غوديريان » يقول إنّه يرى البلدة ، وإنّه يضرب السفن ، وإنّه يشهد عمليّات إبحار بالجملة . ويطلب إذناً بالانقضاض على العدوّ الذي سادت في أرجائه الفوضى . فوافق «براوشيتش » ، ولكنّ « هتلر » اعترض معيداً إلى الأذهان الأسباب التي تدفعه إلى توفير الدبّابات . وقد اهتدى في النهاية إلى وسيلة جديدة يُذلّ بها « براوشيتش » ، فقال : « لن أقرّر بنفسي ، بل سأطلب إلى « روندشتاد » أن يعطي حكمه في الموضوع » . وهكذا طُلب إلى قائد مجموعة الجيوش (أ) أن يقف حكَماً بين قائده الأعلى والفوهرر ! فسارع « روندشتاد » إلى تصويب رأي « هتلر » .

وفيما بعد أضحى هذا الخطأ الجسيم موضوعاً لمناقشات لا نهاية لها . وقد تمّت القضيّة على النحو التالي : أوقف الكابورال الستراتيجيّ زحف المصفّحات على « دنكرك » ضارباً بآراء قوّاده عرض الحائط . وهناك نظريّة تقول إنّه فعل ما فعل لأسباب سياسيّة : فقد كان يفكّر بالتفاوض مع « انكلترا » ، ولذلك أراد أن يجنّبها الإذلال الذي يصيبها بأسر جيشها ؛ غير أنّ هذا التعليل يفتقر إلى شهادة تدعمه . والواقع أنّ الأمر في غاية البساطة : لقد ارتكب « هتلر » أوّل أخطائه التكتيكيّة الكبرى إزاء « دنكرك » . ولكنّ « لروندشتاد » نصيباً من مسؤوليّة ما وقع ، إذ أنّه استبق أمر « هتلر » ، ثم ثبّته .

٢٧ أيّار : عاهِل البلجيكيّين يستسلم

يوم ٢٧ أيّار يوم ضربته الأقدار لتُنزل بالحلفاء عقاباً صارماً قد استحقّوه يوم اقترفوا غلطتهم الثانية الكبرى بدخولهم أرض «بلجيكا » : فإذا بالجيش البلجيكيّ يستسلم في ساحة الوغى ، وإذا بجانب مجموعة جيوش الشمال ينهار كجدار قد تداعى .

سبق قرارَ « ليوبولد » مشادّةٌ عنيفة . ففي يومي ٢٥ و٢٦ ، في قصر « وينينديل » ، أحرج « بيارلو » وثلاثة من وزرائه الملكَ ، وحمّلوه مسؤوليّة ما قد يحدث . فالحكومة ترى بالإجماع أنّ ما رُزئت به الجيوش لا يُحلّ « بلجيكا » من الالتزامات التي أوجدتها هي نفسها يوم استنجدت « بفرنسا » و « انكلترا » ، ولذا فالحكومة مصمّمة بالإجماع على متابعة النضال خارج حدود الوطن . وطلب « بيارلو » من عاهل البلجيكيّين أن يحذو حذو ملكة « هولندا » ودوقة « اللوكسمبورغ » فيغادر البلاد إنقاذاً لمبدإ السيادة . فأجاب « ليوبولد » بخشونة وعنف أنّه قد قُضي على الحلفاء ، وأنّ « فرنسا » ستستسلم بعد أيّام ، وأنّ « انكلترا » لن تستطيع متابعة الكفاح إلاّ في مستعمراتها البعيدة ، وأنّ دور « بلجيكا » بالتالي قد انتهى ، فلم يبقَ إلاّ أن يُحفَظَ لها بعض الحياة الوطنيّة ضمن إطار من الاستقلال المحدود . أمّا هو فلا يترتّب عليه غير واجب واحد ، ألا وهو مشاطرة شعبه آلامه . وبلغ التوتّر حدّاً توسّل معه الوزراء الذين كانوا واقفين في أن يُؤْذَنَ لهم بالجلوس ، فيما أُغمي على « سباك » من شدّة الأسى . وهكذا تصلّب كلا الطرفين في موقفهما ، وفي غضون ٢٤ ساعة غادر « بيارلو » «بلجيكا » ، واستسلم « ليوبولد » للأعداء .

لم يكن وضع الحملة البريطانيّة ، ولا وضع الجيش الفرنسيّ الأوّل ، بأقلّ من وضع الجيش البلجيكيّ مدعاةً لليأس : فإرهاق الرّجال ، وفوضى المؤخّرات ، واختلاط الوحدات ، وذوبان القوّات الاحتياطيّة ، وانعدام التموين ، والافتقار إلى الذخيرة ، هي نفسها هنا وهناك . ولم تكن الثغرة التي فُتحت بين « تيالت » و « رولر » أكثر اتّساعاً أو خطراً من التي انفتحت في اليوم ذاته بين « كاسل » و « هازبروك » . كان بوسع الجيش البلجيكيّ أن يُسهم ، في مدى يومين أو ثلاثة على الأقلّ ، في الدفاع عن رأس الجسر الذي كان يُعتبر الفرصة الأخيرة السانحة لإنقاذ الجنود الذين استجابوا لنداء ١٠ أيّار ؛ ولكنّ « ليوبولد » لا يرى مبرّراً للتضحية برعاياه من أجل قضيّة باتت غريبة بالنسبة لهم نتيجة للمصيبة التي ألمّت بهم . ولسوف يكتب رئيس أركانه : « ففي مدى ١,٧٠٠ كلم مربّع من أرض تمتدّ بين جبهتنا والبحر كان يتكدّس ، فضلاً عن ٤٥٠,٠٠٠ جنديّ ، ٨٠٠,٠٠٠ شخص من أهل المنطقة ، يضاف اليهم عدد ضخم من اللاجئين يقدّر بـ ٨٠٠,٠٠٠ ؛ وكان على الألمان أن يتابعوا زحفهم وسط هذه الجموع المروّعة ، حاصدين منهم بقدر ما يحصدون من الجند ... »

في الساعة الخامسة مساء تقدّم الجنرال « ديروسو » ، نائب رئيس الأركان العامّة ، عبر الخطوط الألمانيّة في سيّارة ترفع علَماً أبيض ، فانهال عليها الرصاص بجوار « تيالت » ، ثمّ سيقت من مركز إلى مركز حتى بلغت مقرّ « رايخناو » قائد الجيش السادس ؛ فأعلن « ديروسو » أنّه أتى يفاوض في أمر وقف القتال ، فأجاب « رايخناو » بأنّه لا يقبل إلاّ بالاستسلام . وإذ وقف « هتلر » على الأمر أعلن

رأيه قاطعاً : استسلام بلا قيد ولا شرط . وكان بالتالي على الجيش البلجيكيّ ، الواقع بحكم الأسر جملةً ، أن يُخلي الطرقات ليتيح متابعة العمليّات ضدّ الفرنسيّين والانكليز . وسُمح « لليوبولد » ، نزولاً عند رغبته ، بأن يتشرّف بمشاطرة جنوده الأسر . وبعد ما أمر البروتوكول رقم ١ صراحة بتسليم الأعلام والرايات ، وُضع بتصرّف الملك قصر « ليكن – لي – بروكسيل » ليقيم فيه مع حاشيته التي تضمّ « عشرين من الضبّاط والأشراف ، وما يقارب المئة من الحشم » .

لم يفاجىء الاستسلام البلجيكيّ الانكليز تماماً ؛ فمنذ ٢٥ كان « ليوبولد » قد بعث برسالة إلى ملك « بريطانيا » ينبئه فيها بتوقّع إلقاء السلاح . وفي صباح ٢٧ أعلم الأميرال « كيس » ، ممثّل « تشرتشل » لدى ملك البلجيكيّين ، لورد « غورت » بأنّ طلب الهدنة قد يقدّم بين لحظة وأخرى ؛ أمّا « فرنسا » فلم تُحَط بالأمر علماً . وقد وقع الخبر على « فيغان » وقوع الصاعقة . قال : « ما من شيء وما من خبر أو إشارة جعلتني أتوقّع قراراً كهذا » .

بدا مصير القوّات الفرنسيّة الانكليزيّة المطوّقة محتوماً . ولقد زاد الوضع تأزّماً خلال يوم ٢٧ أيّار . فبعد ما تبيّن « لهتلر » أنّ الفرق العاديّة لا تبرح مكانها ، ألغى الأمر الذي أصدره في ٢٤ وأوعز إلى المصفّحات بأن تضرب الضربة القاضية ، قبل أن ترتدّ نحو « السوم » و « الإين » .

على نهر « الآ » استأنف « غوديريان » زحفه رأساً باتّجاه « دنكرك » . وتحت إمرته فرقة الدبّابات الأولى ، وفوج « ألمانيا الكبرى » ، والفرقة النموذجيّة « أدولف هتلر » . وتصدّت لهذا الزحف فرقةُ المشاة الفرنسيّة ٦٨ ، وهي فرقة من الفئة (ب) شبيهة بالتي تشتّتت في ساحة المعركة المشؤومة . قاتلت بعناد ومهارة في جبهة متماسكة ، وفي آخر النهار استعادت تنظيمها على ترعة « مرديك » . وثبت أنّ عمليّة الاستيلاء على المرفإ دفعة واحدة غير ممكنة ، كما ثبت في الوقت ذاته أنّ جنود الاحتياط الفرنسيّين مساوون لجنود الحرب السابقة ، ما داموا قد تغلّبوا على المفاجأة التي أحدثتها الدبّابات وطائرات « شتوكا » . وفي ذلك دليل آخر على خطإ المسؤولين الكبار ، الأدعياء ، الكسالى ، الجهلة ، الذين لم يعرفوا كيف يدرّبون جندهم على مجابهة التجارب التي هيّأها لهم القدر .

أوقف « غوديريان » ، ثمّ جمّدته الفيضانات ، إلاّ أنّه كان على بعد ٨ كلم من « دنكرك » ؛ أخذت مدفعيّته تقصف المدينة مساندة أسراب « غورنغ » ، فدمّرت دار البلديّة ودار البريد كما دمّرت أحواض المرفإ . واندلعت النيران في خزّانات النفط وسط دخان خانق كانت الريح تسوقه نحو المدينة ؛ أُصيب المرفأ بأضرار فادحة ، وبدت عمليّة الترحيل مخفقة لا محالة . كانت الأميراليّة البريطانيّة تحاول إرجاع ٤٥,٠٠٠ رجل إلى « انكلترا » ، أي ما يعادل عشر القوّات المطوّقة ! إلاّ أنّ عمليّات النهار الأوّل أتت تشكّك في إمكانيّة تخليص مثل هذا العدد . وأوّل سفينة بلغت الرصيف كانت الباخرة « موناز آيل » التي نجت من القنابل بأعجوبة ، ولكنّ بطّاريات « غرافلين » قصفتها وهي في طريق العودة فقتلت ١٠٠ من ركّابها الـ١,٤٠٠ . واضطرّت خمس سفن نقل أخرى إلى أن تعود على أعقابها قبل أن تبلغ « دنكرك » ؛ ولم يبلغ مجموع الرّجال الذين أمكن ترحيلهم خلال ذاك اليوم غير ٧,٦٦٩ .

وعلى كلّ حال لم تكن المشكلة كلّها في النزول إلى البحر ، فالمشكلة هي أوّلاً في وصول الرجال إلى « دنكرك » . كم رجلاً سيُكتب له الحظّ في ذلك ؟

منذ الصباح الباكر عُقد اجتماع فرنسيّ بريطانيّ في « كاسل » . أمّا « غورت » ، وقد صمّم على المضيّ في الخطّة التي انتهجها من غير أن يكترث للتحالف المحتضر ، فقد تخلّف عن الحضور . حضر الاجتماع « بلانشار » الذي غدا نظره أشبه ما يكون بنظر سجين يحدّق في جدار سجنه ، والأميرال « أبريال » الذي عاب عليه الانكليز فيما بعد انعزاله في معقله تحت ١٠ أمتار من الإسمنت المسلّح ، وهناك الجنرال الفرنسيّ « فاغالد » والجنرال الانكليزيّ « آدمس » آمرا قطاعيّ رأس الجسر الغربيّ والشرقيّ ؛ وهناك أخيراً الجنرال « كولتز » الذي ارسله « فيغان » ليسعى في إعادة تنظيم القيادة الموحّدة. عرض « كولتز » فكرة رئيسه ، وهي : استعادة « كاليه » تسهيلاً لتموين مجموعة الجيوش. ولكنّ سوء التفاهم كان فظيعاً ؛ « ففيغان » كان ما يزال عند فكرة إقامة رأس جسر دائم ، فيما أمر « بلانشار » بالدفاع عن « الليس » إلى النهاية . لم يصارح ممثّل « غورت » الفرنسيّين بأنّ فكرة النهوض بمقاومة طويلة الأمد قد تخلّى عنها رئيسه كما تخلّت عنها حكومته . ولم يكاشفهم بأنّه لم يبقَ هناك غير موضوع واحد هو الإسراع في ترحيل أكبر عدد ممكن من الرجال ، ولو أدّى ذلك إلى فقدان العتاد كلّه .

تشرف « كاسل » ، المبنيّة على تلّة صغيرة ، على السهل الفلامنديّ الخصب الذي كان يبدو ، في ضوء الصباح الفتيّ ، سليماً لم يُمَسّ . وإذ بقصف زلزال يدوّي فجأة ناحية « دنكرك » : لقد قصفت المدينةَ أولى موجات قاذفات القنابل في ذاك اليوم ، وارتفعت عند الأفق الشماليّ الغربيّ سحب كثيفة . ولم يلبث السهل الساكن أن اضطرم في الجنوب. وقد شهد الجنرالات من دار البلديّة في « كاسل » القرى وقد استحالت باقات من اللهب واحدة بعد واحدة . كانت فرقة الدبّابات ٦ ، والفرقة الآليّة ٢٠ ، تزحفان جنباً إلى جنب ، فيما راحت فرقة الدبّابات ٨ تمدّد حركة الهجوم نحو غاب « هازبروك » . ولن يأتي المساء إلاّ وتكون تلّة « كاسل » قد رزحت تحت الضغط المسلّط عليها من الشرق والغرب ، ويكون الممرّ الضيّق الذي تنساب فيه الأجناد الفرنسيّة – البريطانيّة قد ضاق بمقدار ١٥ كلم عن ذي قبل . وما تزال هناك فرق انكليزيّة على الحدود بين « كومين » و « بورغيل » ، كما أنّه لا تزال هناك فرق فرنسيّة جنوبي « ليل » ناحية « سوكلن » و « كارفن » ، تفصلها كلّها عن « دنكرك » مسافة ١٠٠ كلم ، سلّط عليها « غوديريان » حمم مدافعه ؛ ١٠٠ كلم ، مقابل ٨ كلم تفصل الألمان عن المدينة !

وانسابت على الطرقات ببطء مميت أربعةُ أرتال أو خمسة من العربات والسيّارات ، وأخّر الطيران الألمانيّ ذاك التقهقر حين راح يدكّ بيوت المدن والقرى فيطرحها على الطرقات القديمة ؛ وقد فتح القصف مأوى للمجانين في « أرمنتيير » ، فاختلط نزلاؤه بالهاربين وقد بلغ بهم الهيجان كلّ مبلغ . وظهر المطر بعد ما احتجب عن « فرنسا » منذ ١٠ أيّار ، فكان من حسناته أنّه حدّ من فعالية الطيران الألمانيّ ؛ ولكنه بلّل الهاربين ، وضاعف التعب ، وثبّط العزائم . وفي مساء ٢٧ أيّار بدت عمليّة إجلاء رأس الجسر في « دنكرك » على حقيقتها أشبه ما تكون بأضغاث أحلام. ولن تمرّ ٢٤ ساعة إلاّ ويكون الألمان قد سدّوا المنافذ .

تطويق «ليل» والدفاع عنها

السبب الأوّل الذي من أجله تعدّى نجاح عمليّة «دنكرك» في النهاية كلّ الآمال يكمن في البلبلة التي تسرّبت إلى القيادة الألمانيّة. كانت القيادة قد عملت بدقّة خارقة منذ بدء الحملة، فإذا بها تتعطّل وتفقد بعضاً من ثمار «سيدان».

أخطأ «روندشتاد» بإيقاف مصفّحاته عند أبواب «دنكرك». وارتكب «فون بوك» خطأً مماثلاً: فقد فتح الاستسلام البلجيكيّ أمامه طرقات «الفلاندر» كلّها، بيد أنّه أضاع الوقت وانساق حول «إيبر» إلى اشتباك مع الفيلق الانكليزيّ، وسمح لفرقة المشاة الفرنسيّة ٦٠. التي كانت تساند البلجيكيّين، بأن تتملّص. وأن تصل إلى رأس الجسر فتبادر إلى تنظيم الدفاع في قطاعه الشرقيّ. وهكذا ضاعت على الألمان فرصة احتلال «دنكرك» على حين غفلة.

لم يكن عمل القيادة الألمانيّة في الجنوب والشرق أوفر نجاحاً؛ فلقد اختلط الجيشان ٦ و٤ في ضواحي «ليل» وتشاجرا. وقضى فريق «روندشتاد» يوم ٢٨ الحاسم بكامله لا يتلقّى أمراً واحداً، فقد اعتقد رئيسه أنّ دوره قد انتهى منذ أن وصل إلى البحر وطوّق الجناح الأيسر الحليف. وعاد «هتلر» من ناحيته يهمل معركة «الفلاندر» فلم يأبه لهرب الجنود الحلفاء وإلقائهم أسلحتهم. لقد اتّجه تفكيره كلّه نحو «المشروع الأحمر»: ما العمل لهدم الجبهة الفرنسيّة الجديدة بضربة واحدة؟ ما الأفضل يا ترى: حشد القوّات السريعة كلها في الجناح الأيمن أمام «السوم» كما يقترح «براوشيتش»، أم حشدها في الوسط. في «شمبانيا». كما يميل هو؟ و«باريس»؟ كيف تعامَل «باريس»؟ أتُجعَل الهدف الأوّل؟ أم تُهمَل ريثما تُباد الجيوش المعادية؟ كان الفوهرر يناقش هذه المسائل مع مستشاريه العسكريّين في اجتماعات طويلة؛ «فدنكرك»، في نظره، قد دخلت في ذمّة الماضي.

تراخى الحصار منذ يوم ٢٧، ولم تُستغلّ الثغرة التي فُتحت في قطاع «كاسل – هازبروك»؛ واتّجهت فرق الدبّابات الألمانيّة ٢ و٩ و١٠ نحو «السوم»، فيما تلقّت الفرق المصفّحة الأخرى أوامر تمهيديّة للقيام بحركة مماثلة. وهكذا وفّر «هتلر» للانكليز بضيق صدره، وبتسرّعه في توجيه الضربة القاضية «لفرنسا»، فرصةً جديدة للفرار.

وتدور رحى الموقعة الجدّيّة الوحيدة حول «ليل»، أي في منطقة لم تبقَ لها أهميّة تُذكر بالنسبة للظافر. وكان العمل منوطاً «برومل». ولقد كتب إلى امرأته «لو» يقول: «أنا منهمك في تطويق الفرنسيّين في «ليل». أمّا في ما يتعلّق بثيابي وغيرها، فكلّ شيء على ما يرام...» إقتحم «رومل» ترعة «باسي» في «جيفنشي»، وبعد ما شدّ أزرَه لواءُ المصفّحات الإضافيّ، انطلق رأساً نحو منافذ المدينة الكبيرة. وعندما أرخى الليل سدوله، أفاده الكولونيل «روثنبورغ» بأنّه قد قطع طريق «أرمنتيير» عند «لوم»، بإزاء مدينة «ليل». ولكنّ الأوان قد فات؛ فإنّ مجموعة الجيش الثالث الفرنسيّ، وفرقتَي المشاة ١٢ و٣٢، وقسماً من فرقة المشاة الآليّة الأولى، قد أفلتت من الطوق بقيادة الجنرال «دي لا لورنسي» ووصلت إلى «دنكرك» مبدية ضروباً من البسالة. وفاتت الألمانَ فرصةُ أسر الجنرالين «إيم» و«رينه ألتماير» قائدي مجموعتَي الجيوش الرابعة والخامسة اللذين قد سبقا جيوشهما على «الليس» بمراحل. بيد أنّ الفرق الستّ التي خلّفاها وراءهما وقعت في الشبكة التي نُصبت شرقيّ «الدول»، لأنّ الانكليز الذين كانوا يمنعونها من الانطباق قد رحلوا من غير إنذار. وهكذا أدّى انقسام القيادة الحليفة إلى حرمان الجنود الذين كانوا يحاربون بعيداً عن البحر فرصتَهم الأخيرة في النجاة.

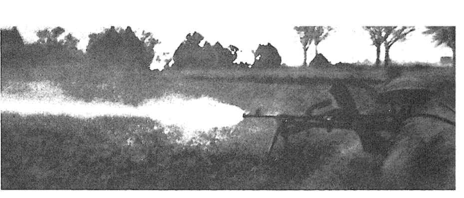
تدافعت الأحداث في «ليل» بسرعة غريبة، فإذا المدينة تغرق في بلبلة مذهلة؛ فمنذ يومين أسقطت المدفعيّة المضادّة للطائرات طائرتين من طراز مجهول كانتا تدنوان من المطار. ثمّ تبيّن أنّهما طائرتان من طراز «غلين مارتن» تسلّمتهما «فرنسا» من «الولايات المتّحدة» حديثاً، وقد أتتا تحملان ملايين الفرنكات التي طلبها محافظ الشمال من وزير الماليّة لإنقاذ خزينته! ... والآن يدخل على مكتب محافظ الشمال «فرنان كارل» ضابط ألمانيّ طالباً منه النزول إلى الشارع لاستقبال جنراله؛ فيجيب داعياً الجنرال للصعود إليه. وإذ صعد الجنرال الظافر قال: «قبلت الصعود إليك لأنّك أوّل موظّف فرنسي أجده في وظيفته ...»

فيما كان العدوّ يتوغّل في الجبهة الوسطى، كان ١٠٠,٠٠٠ رجل يتوجّهون نحو «ليل» قادمين من «أورشي» و«بون أمارك»، و«دووي»، و«أتيش». كانت قرى الضواحي المتلاصقة، وقوافل العربات التي تملأها، والجموع التي تغصّ بها، تزيد الوحدات بلبلةً وفوضى. وكان ليل ٢٧ – ٢٨ حالك السواد، فتجمّدت الجموع الغفيرة في ظلمة يثقلها القلق، واختلطت الأرتال، فأوقفت عرقلة السير جموعاً بشريّة تمتدّ مسافة كيلومترات. لم يكن أحد يدرك لمسيرة العميان هذه وجهةً أو هدفاً، ولكنْ شاع بين النّاس أنّ طريق العودة قد قُطع. وسقط رجال كثيرون حيث كانوا، وسط المعدّات السائبة والجياد الميتة.

وصل الجنرال «جوان» قائد فرقة المشاة الآليّة الـ ١٥ عند الفجر أمام «هوبردان» حيث كان ينوي عبور «الدول»؛ فحالت جموع هائلة بينه وبين الجسر. وتخلّص من المأزق سائراً بجنوده عبر الحقول، ثمّ عاد أدراجه واستقرّ في خطّ دفاعيّ عبر الضواحي الجنوبيّة «فاتيني ليليل» و«رونشان» و«لابريسو» وإذ تعرّضت فرقته للهجوم بعد ساعات ارتدّ وهو يقاتل إلى ضاحية «البوسط» وضاحية «أراس».

وتشكّلت في الغرب مراكز دفاعيّة أخرى؛ فهناك «لمبر سار» و«كنتلو» حيث أخذ الجنرال «ميلييه»، قائد الفرقة المغربيّة الأولى، يجمع شتيتاً من العناصر المختلفة؛ وهناك «لوس» حيث وزّع الجنرال «جانوده»، على شكل مربّع، ما تبقّى من رجال فرقة المشاة الآليّة الأولى الذين لم يتمكّنوا من اللحاق بمجموعة جيوشهم الهاربة؛ وهناك خصوصاً «هوبوردان» حيث احتشدت قوّات ضخمة تمركزت وراء ترعة «الدول»، من فرقة المشاة الآليّة ٢٥، وفرقتي المشاة الشماليّين الأفريقيّين ٢ و٥. وتسلّم «مولينييه»، وهو أقدم أولئك الجنرالات عهداً، قيادةَ الموقع، محاولاً تنسيق المقاومة التي كانت تنظّمها بقايا الجيش الأوّل المشتّتة.

كان أحد جسور «هوبوردان» ما يزال سليماً؛ فطالب الجنرال «دام»، قائد فرقة المشاة الشماليّة الافريقيّة الثانية – وهو أحد أفتى قوّاد فرق الجيش – بمحاولة شقّ ثغرة أو منفذ؛ فجرت المحاولة في الساعة ١٩,٣٠، إلاّ أنّ المناوشين لم يفلحوا. واهتدى بعض العناصر إلى معابر أخرى على نهر «الدول». ولسوف يتمكّن قائد الكوكبة المركيز «ديموستيه»، نائب «الدوبس»، وقائد مجموعة الاستكشاف التابعة لفرقة المشاة الآليّة ١٥، من الوصول بجنوده إلى «دنكرك»، ولكنْ بعد اشتباكات خطيرة مع الانكليز الذين كانوا يضرمون النار في الشاحنات الفائضة مفضّلين التضحية بها على أن يسمحوا لحلفائهم السيّئي الطالع باستعمالها. واستمرّ القتال في «ليل» طوال ثلاثة أيّام



لقد أحدث التراجع صوب « دنكرك » ردود فعل قويّة . ويبدو في الصورة رشّاش يقذف حممه ، فيما تلوح في الأفق نيران أشعلتها المدفعيّة في ركام من القشّ .

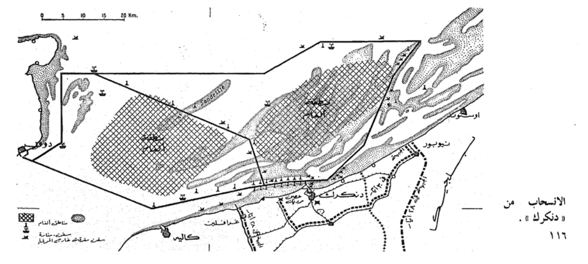
تمكّنت خلالها فصيلة من فوج المشاة ٣٨ من أن تأسر الجنرال الألمانيّ « هانكي » ، ووجدت بحوزته لائحة بالفرق الألمانيّة السبع التي كانت تهاجم المدينة . وكان بعض الجنود السكارى ، والأشقياء ، يختلطون بالمقاتلين الذين يدافعون بعناد عن مراكز المقاومة . وامتنع الجيش المهاجم من عمليّات القصف الثقيل حفاظاً على السكّان المدنيّين ، وراح يكثر من إرسال المفاوضين . ويلقي فوق المدينة منشورات تعلم المدافعين عن المدينة بأنّ مقاومتهم غير مجدية ، وبأنّ حلفاءهم الانكليز الأعزّاء قد تخلّوا عنهم وأبحروا . وأخيراً ، في ٣١ أيّار ، طلب الجنرال « فوغنر » من الجنرال « مولينييه » أن يستسلم بشروط تحفظ له كرامته ، فقبل بها « مولينييه » ؛ وفي أوّل حزيران مشى في مقدّمة الجنرالات « دام » و « مسمي » و « جانودبه » في ساحة « ليل » الكبرى ، متقلّداً سيفه ، لابساً قفّازيه الأبيضين ، على رأس كتيبة شرف أدّى لها الظافرون التحيّة . يا له من مشهد مدهش غير مألوف ! ولقد أعرب « هتلر » في اليوم التالي عن استيائه الصريح منه إذ بادر إلى إقالة « فوغنر » من قيادته .

أسطول السّنابيق ينقذ قوّات الحملة البريطانيّة

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه معركة « ليل » اليائسة ، كان الوضع يتحسّن في « دنكرك » بالنسبة للانكليز . فقد راح عدد الرجال المرحّلين يزداد يوماً بعد يوم : ١٧.٨٠٤ في ٢٨ أيّار ، ٤٧.٣١٠ في ٢٩ ، ٥٣.٨٢٣ في ٣٠ ، ٦٨.٠١٤ في ٣١ . لقد كان ادّعاء « غورنغ » باطلاً : فسلاح الطيران الألمانيّ يبدو عاجزاً عن أسر ذلك الجيش .

كانت الخسائر فادحة ؛ فهياكل السفن المبقورة تملأ المرفأ والأحواض . ومن أصل السفن البريطانيّة الـ٦٩٣ ذات الحمولات المختلفة ، التي أسهمت في الإجلاء ، دُمّرت ٢٢٦ ، ومن جملتها السفينة التجاريّة « كوين أوف ذي شانل » و٦ مدمّرات . ولكنّ حركة الترحيل استمرّت ليلَ نهار : فالإبحار كان متواصلاً على الرصيفين الغربيّ والشرقيّ ، وعلى الشواطىء حيث كانت السفن ترسو بصعوبة فائقة بسبب حطام السفن ، أو تتوقّف عن هذه العمليّة عند بلوغ القصف الجوّيّ ذروة العنف . وقد اصطفّ هناك جمع غفير من الرجال وأقدامهم في الماء ينتظرون قافلة الزوارق التي ستقلّهم إلى السفن الراسية . وأمّا البحر ، صديق « انكلترا » القديم ، فقد كان هادئاً في ما يشبه الأعجوبة : فأقلّ تموّج كان يمكن أن يمنع استخدام الشواطىء مخفضاً بذلك إمكانات الإجلاء إلى النصف .

وعلى تلك الشواطىء بالذات كان ذلك الأسطول الصغير العجيب المتطوّع يعمل مستجيباً لنداء الأمبراليّة ؛ وكان مؤلّفاً من الصيّادين وبحّارة اليخوت ، وبحّارة التجارة ، والبحّارة المتقاعدين . وقد نُقلوا بجهد إلى الساحل الفرنسيّ الذي كانت تغطّيه سحب الدخان ، وتدوّي فيه الانفجارات . كان المشهد خليقاً بأن تنفطر له قلوب الرجال الشديدي المراس : فطائرات شتوكا تنقضّ على السفن ، وشظايا المدفعيّة المضادّة للطائرات تمطر البحر وابلاً من الفولاذ ، وجثث القتلى تتراقص في الخطوط التي تخلّفها السفن وراءها . وباتت قيادة المراكب المثقلة تتطلّب



الانسحاب من « دنكرك » .

جهوداً جبّارة . لم يُعرف قطّ عدد أولئك الرجال وتلك السفن التي استبسلت على ذلك النحو ، فقد أهمل الكثيرون من أولئك المتطوّعين أن يسجّلوا أسماءهم مكتفين بالذهاب إلى هضاب « دنكرك » والعودة من ثمّ إلى « انكلترا » حاملين الجنود .

وفي السماء لم تتوقّف المعركة الجويّة لحظة واحدة ؛ فقد عرّضت « انكلترا » أثمن كنوزها للخطر في تلك العمليّة . عنيت القوّات الجويّة التي كانت بها ضنينة فكانت تحافظ عليها بعناية فائقة للدفاع عن جزرها . فأوكلت إلى ١٦ سرباً من المقاتلات أن تؤمّن فوق « دنكرك » حماية مستمرّة من الفجر حتى المغيب . وقد أسقطت هذه الأسراب ٢٦٢ طائرة ألمانيّة وفقدت ١٣٣ من طائراتها .

وبقي الرّكود الألمانيّ المحيّر على حاله . فقد غدا باستطاعة الفيلق الثالث الفرنسيّ ، والفرق الانكليزية القاصية ، أن تنجو من وضع كان يبدو متعصياً . وفي آخر يوم الـ ٢٨ كانت الفرقتان الـ ٤ والـ ٤٢ ما تزالان في خطوطهما على « الليس » ؛ ولكنْ، عشيّة الـ ٢٩ ، عادت إحداهما إلى المعسكر المحصّن ، وباتت الثانية بمأمن من الخطر وراء « الإيزير » . وأمّا الفرقتان الـ ٥٠ والـ ٥ اللتان حمى نقلهما من « أراس » الى « إيبر » الاستسلامَ البلجيكيّ وخلّص قوّات الحملة البريطانيّة ، فقد بعدتا عن الخطر ، بعد ما اعتُبرتا في السابق هالكتين . وهنالك وحدات أخرى وُفّقت إلى الإفلات جزئيّاً من مخالب العدوّ بعد ما كانت متورّطة بشكل مقلق ، مثال اللواء الـ ١٣٥ الذي كان محاصراً في « كاسل » ، والفرقة الـ ٤٤ التائهة بين « هايزبروك » و « ميرفيل » . وأمام « دنكرك » كان الألمان في البدء يشهدون الإبحار وكأنّهم يتفرّجون ؛ فقد وصف الجنرال « برينيكي » ، رئيس أركان الجيش الرابع ، المشهدَ لرئيسه « فون كلوغي » بقوله : « السفن ترسو قرب الأرصفة وتتدلّى منها العبّارات في الحال . ويسرع الرجال بالصعود إليها مخلّفين وراءهم عتادهم بكامله . ولكنّني أشعر بقشعريرة كلّما فكّرت بأنّنا سنعود لمجابهة هؤلاء الرجال بعد أن يُعاد تسليحهم . . . »

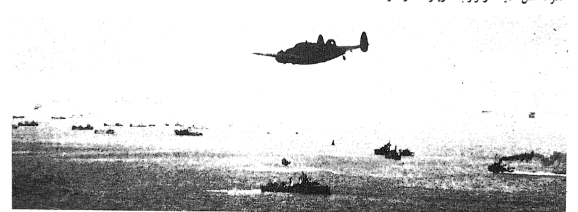
في عشيّة الـ ٣٠ كان الجميع قد عادوا إلى رأس الجسر . وكانت تحدّ هذا الرأس ترعة « مرديك » القديمة ، وترعة « كولم » العليا والسفلى ، والترعة الممتدّة من « برغ » إلى « فورن » ، وترعة « نيوبور » . وعند المنافذ تكدّست كميّات هائلة من العربات كانت الوحدات قد تخلّت عنها قبل دخولها المعقل . وفي تلك الأثناء كانت المدينة ما تزال تشتعل . وتابع الطيران الألمانيّ قصفه ، ومع ذلك قويت وتيرة عمليّات الإبحار : فالفيلق البريطانيّ الثالث قد انصرف . والفيلق الثاني على وشك الانصراف . وكان الفيلق الأوّل ما يزال موزّعاً في القطاع الشرقيّ . ولكنّ رأس الجسر اختُصر في اليوم التالي بالانسحاب من « فورن » والتراجع إلى ترعة « شا » . وأمّا اللورد « غورت » فقد غادر مركز قيادته في « لابان » مباشرة إلى « لندن » تاركاً « لألكسندر » قيادة القوّات الانكليزيّة الباقية . وقد تجاوز النجاح الآمال : فقد تمّ إجلاء ١٢٦,٠٠٠ رجل . وبلغ هذا العدد ٢٠٠,٠٠٠ في اليوم التالي . ولكنّ عدد الفرنسيّين في هذا المجموع لم يكن قد بلغ بعد غير ١٥,٠٠٠ .

في « فنسين » شهد نهار ٢٤ أيّار انقشاع الغمامة . لقد أدرك « فيغان » أنّه لن يتمكّن من إنقاذ جيوش الشمال ؛ وكان يعرف حقّ المعرفة أنّه لن يتمكّن من الصمود في وجه هجوم ألمانيّ ثان بما تبقّى لديه من قوّات . وقد عبّر عن حسرته الشديدة لسكرتير وزارة الحربيّة « بول بودوان » . فقال له والدمع يترقرق في عينيه : « أنا من قال إنّه لا يحقّ لأيّ قائد منهزم أن يعيش . فيا ليتني قُتلت نهار الأحد ، أثناء هبوط الطائرة العنيف في « إيتامب » .

وبعد ما دُمّرت جيوش الشمال بقي « لفرنسا » نحو خمسين فرقة . وكان في حوزة الألمان لمواجهتها ١٥٠ فرقة من المشاة ، وعشر فرق مدرّعة ؛ وهذا يعني أنّ نسبة الرجال في المعركة الجديدة ستكون واحداً ضدّ ثلاثة ، ونسبة الطيران والدبّابات واحدةً ضدّ خمس .

وراح « فيغان » يقلّب الموضوع مراراً وتكراراً ؛ إنّ خمسين فرقة ، ممتدّة على جبهة طولها ٥٤٠ كلم ، لا يمكنها إلاّ أن تشكّل ما يسمّيه « حاجزاً رملياً » . فقد خُفّض جيش الألب إلى أدنى درجة ممكنة ، وكان في الخطّ يواجه « إيطاليا » التي بات دخولها الحرب متوقّعاً في أي وقت . وأمّا « أفريقيا الشماليّة » فكانت ما تزال تحتفظ ببعض الفرق ، ولكنّ « فيغان » تردّد في استخدامها ، بالرغم من اعتراضات « نوغيس » . وكان « بول رينو » أوّل من قال له : « يجب أن نجنّد في المعركة ضد الألمان كافّة الإمكانات المتوافرة . وأنّه يرى أن نجرّد « أفريقيا الشماليّة » لصالح الوطن الأمّ » . وبالنتيجة استدعى « فيغان » من مدينة الجزائر فرقتي المشاة الـ ٨٤ والـ ٨٥ ، وطلب أن تعاد إلى الوطن قوّات « نرفيك » بعد ما استولى « بيتوار » على المدينة ، وأمر بأن نجهّز منها مع الناجين من « سيدان » والهاربين من « دنكرك » فرقٌ خفيفة . ولكنّ مجمل هذه الموارد لم يكن ليوفّر له القوّات اللازمة لإنشاء

تجمّعت في مرفإ « دنكرك » طائفةٌ ضخمة من السفن الحربيّة وبواخر النقل ، فرنسيّة وانكليزيّة ، انضمّت إليها على السرعة سفنُ صيد ، وقوارب ، ويخوت ، وقاطرات .



جبهة متينة . ولم يكن ليشكّل الاحتياط اللازم لشنّ هجوم معاكس على العدوّ .

وبما أنّ « فيغان » لم يكن قادراً على تدعيم جبهته فقد حرص على تقصيرها . ومن الحلول حلّ كان يقضي بالتخلّي عن خطّ « ماجينو » لحماية « باريس » والساحل . ولكنّ هذا الحلّ يضحّي بأقوى الإمكانات العسكريّة المتبقّية « لفرنسا » ويفتح وادي « الرون » للاتّصال الألمانيّ الإيطاليّ . أمّا الحلّ المعاكس فكان يقضي بهجر « باريس » والساحل لإعادة تجميع القوّات الفرنسيّة حول جيوش الشرق التي لم يصبها أذى الحرب . ولكنّ هذا الحلّ يؤول إلى انقطاع الصلة مع الدول البحريّة ويقود حتماً إلى التطويق . وإزاء هذا الوضع المتأزّم لم يبقَ أمام « فيغان » إلاّ أن يختار أخفّ الشرّين . فقرّر أن تصمد القوّات حيث كانت . أي على « الرين » وخطّ « ماجينو » و « الإين » و « السوم » . أمّا شعاره في المعركة اليائسة المرتقبة فكان : « فنّ في القتال ليّن . وستراتيجيّة صلبة » .

وبعد هذا القرار رأى « فيغان » من واجبه إطلاع الحكومة على خطورة الموقف . وفي مجلس الحرب المنعقد في ٢٥ أيّار عرض مفهومه للمعركة المقبلة . وأوضح بأنّ خسارتها تعني نهاية المطاف . وقال : « يمكن أن تحلّ بنا هزيمة شنعاء . وفي مثل هذا الوضع ينبغي على بقايا الجيش أن تحارب حتى استنزاف قواها . لكي يسلم الشرف الرفيع . . . » وفي ٢٩ أيّار كرّر إنذاره بمذكّرة وجّهها إلى رئيس المجلس . جاء فيها : « قد تأتي ساعة لا تبقى فيها « فرنسا » قادرة على متابعة قتال فعّال لحماية أرضها . تلك الساعة سينذر بها التصدّع النهائيّ للجبهات التي تلقّت الجيوش الفرنسيّة أمراً بالقتال فيها حتى النهاية . »

وهكذا خيّم شبح الهزيمة على المجالس الحكوميّة مثيراً أخطر المعضلات . فبموجب اتفاقيّة حديثة لم يكن المجلس قد أقرّها بعد . أخذت كلّ من « فرنسا » و « انكلترا » على عاتقها ألاّ تُجري مع العدوّ مفاوضات منفردة . وقد أثار رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة « ألبير لوبران » هذه القضيّة في مجلس الحرب المنعقد في ٢٥ أيّار ، من غير أن يعترض على الناحية القانونيّة فيها . فأشار إلى « الشروط المؤاتية نسبيّاً » التي تعرضها « ألمانيا » ، وصرّح بأنّ شروطاً كهذه جديرة بأن « يُنظر فيها عن كثب ، بتبصّر وراحة » . وقد تساءل : « أليس البحث في هذه الشروط أنسب الآن ، قبل القضاء على الجيوش الفرنسيّة ؟ » وأمّا أن تكون كلمة «هدنة» قد ذُكرت أولاً في تلك المناقشة ، أمّا أن نتساءل عمّن تفوّه بها لأوّل مرّة . فتلك أمور ثانويّة . المهمّ هو الواقع الراهن : إنّ « فرنسا » سائرة إلى الهزيمة لا محالة ، وعليها أن تستعدّ لمواجهة عهد ما بعد الهزيمة . وقد تجمّعت في ذلك الظرف عناصر المناقشات الصاخبة التي جرت في الشهر التالي .

إنّ مأساة الجيش قد أطاحت التكاتف بين الحلفاء وقوّضت الوحدة الوطنيّة الفرنسيّة . ففي غمرة الحمّى ، والانهيار ، والغضب ، والإذلال المحرق الناتج عن الكارثة . أُثيرت قضيّة المسؤوليّات ، فراح العسكريّون والسياسيّون — وكلّهم في الذنب سواء — يتراشقون التهم . أمّا « بيتان » ، الذي كان قد طمأن الفرنسيّين إلى أنّ الغزو غير ممكن . فقد استشاط غيظاً حين بلغته مذكّرة صادرة عن رئاسة الوزارة تعلن أنّ حوالي ١٥ جنرالاً قد أُقيلوا من قياداتهم ، وقال : « لا أسمح بتحميل الجيش عبء أخطاء السياسة . . . » وأمّا « فيغان » ، الذي كان قد صرّح لسنة خلت بأنّ الجيش الفرنسي كان أفضل من أيّ وقت مضى . فقد أشار إلى أنّ « فرنسا » قد ارتكبت « خطأ جسيماً بدخولها الحرب وهي تفتقر إلى العتاد وإلى المذهب العسكريّ اللازمين » !
ولم يكن القوّاد الكبار مخطئين في الظنّ بأنّ السياسة المقيتة ، وفوضى السلطة . ومراوغة الحكم المستمرّة ، كانت سبباً في إضعاف القوّة الوطنيّة وفي تشويه القلوب ؛ ولكنّ الجيش لم يكن أخفّ من السياسة وطأة . فقد أسهم في الكارثة بانحطاطه الفكريّ وبتعلّقه الكسول بشعارات النصر الزائفـــة .

وهنالك شواغل أخرى ولّدتها الهزيمة ؛ فقد عارض « بيتان » مبدأ القتال المستميت قائلاً : « إنّه لأمر سهل واعتباطيّ أن نجزم بأنّنا سنقاتل حتى آخر رجل ؛ أوّلاً لأنّ هذا لن يكون ، وثانياً لأنّ في هذا التصرّف جريمةً . كفانا ما تحمّلناه من خسائر في الحرب الأولى . وكفانا ما نعانيه من نقص في نسبة الولادات . . . » وكان يسيطر على « فيغان » وسواس الثورة فقال : « يا ليتني أعلم علم اليقين أنّ الألمان سيتركون لي قوّات كافية لتوطيد الأمن . . . » . وعلى الصعيد السياسيّ كانت نظريّة القتال حتى الموت تقزّز النفس : فالمقاومة الوحيدة الممكنة بعد تدمير الجيوش هي العصيان الوطنيّ الذي يجعل من كلّ منزل حصناً ، ومن كلّ سكّين سلاحاً ، ومن كلّ فرنسيّ بطلاً . ولكنّ البلاد ما كانت يوماً أقلّ استعداداً لهذا الانتحار الوطنيّ ممّا كانت عليه آنذاك ؛ وأمّا الذين راحوا يبشّرون به بإلحاح ، فهم أولئك الذين زرعوا بذور المادّيّة والارتياب واللاّمبالاة في الأمّة . وقد أجاب « بول رينو » على مذكّرة « فيغان » فاستبعد فكرة الاستسلام ، وقال : « إنّني أطلب منك أن تدرس إمكانيّة إقامة معقل وطنيّ للمقاومة حول أحد المرافىء الحربيّة . . . على أن يكون هذا المعقل الوطنيّ مجهّزاً وممونّاً كما تكون القلاع ، وعلى أن يضمّ خصوصاً شبه الجزيرة « البروتونيّة » ؛ وأردف « بول رينو » قائلاً : «إنّني أعتزم إنشاء صفّين أرسلهما إلى« أفريقيا الشماليّة »ليُسهما في الدفاع عنها بأسلحة نشتريها من الخارج . . . » .

وهكذا تحدّدت خطّة رئيس الوزارة بما يلي : إنشاء معقل في « بروتانيا » تلجأ إليه الحكومة ، والاستعانة « بأفريقيا الشماليّة » على تجهيز إمكانات الثأر بفضل السيطرة على البحار . لم يكن هذا الرأي . في الواقع ، تافهاً أو مردوداً ، فقد كان يجب الأخذ به منذ البداية . قبل انطلاق شرارة الحرب ، لو كان المسؤولون قد لمسوا النقص العسكريّ الفرنسيّ الهائل وما يبيّته من هزيمة حتميّة على أرض الوطن الأمّ ؛ أو ، على الأقلّ ، كان يمكن الأخذ به على أثر العبر والعظات التي تجلّت في ثغرة « سيدان » لأعين الحكومة والقيادة الفرنسيّتين . بعد ما فاتهما من عبر الحملة البولونيّة وعظاتها . أمّا الآن فقد سبق السيف العذل : فالموارد الرئيسة قد دُمّرت ، و « فرنسا » تعاني تفكّكاً كاملاً . وفلول قوّاتها مجمّدة تقاوم في أماكنها . وكان تصدّع هذه المقاومة يعني أنّ الطرقات جميعها ستنفتح حتى أقصى المناطق وأبعد المرافىء . . .

في ٣١ أيّار قدم « تشرتشل » إلى « باريس » برفقة « أتلي » و « دلّ » و « إزمي » ؛ فلفت « رينو » انتباهه إلى أنّ عدد ١٥,٠٠٠ فرنسيّ ، من مجموع ١٦٥,٠٠٠ رجل نقلوا من « دنكرك » ، ضئيل . وقد يكون وقعه سيّئاً على الرأي العامّ الفرنسيّ . وأجاب « تشرتشل » بأنّ القيادة الفرنسيّة هي المسؤولة الأولى : فقد تلقّى الانكليز أمراً صارماً وجليّاً بالإبحار ، فيما بقي الفرنسيّون يترجّحون بين الذهاب والبقاء . وأمّا « فيغان » الذي حضر الاجتماع فقال إنّه لن يغادر رأس الجسر إلاّ إذا هلكت الفرق الفرنسيّة في « ليل » . وأجاب « تشرتشل » بأنّ كلّ أمل قد فُقد لسوء الحظّ ؛ وأردف قائلاً وهو يبكي إنّه أمر بتأخير

إبحار الجرحى كي يتسنّى إنقاذ أكبر عدد ممكن من المقاتلين الأصحّاء. وأنّه يأمل أن يتمّ إجلاء ٢٠٠,٠٠٠ . مع العلم بأنّ العتاد – بما فيه ألف مدفع – هو في حكم المفقود . ولو أنّ قوّة ألمانيّة صغيرة نزلت في « بريطانيا العظمى » لما واجهتها غير مقاومة السكّان المدنيّين الضارية . وكان وقع هذا الكلام على « فرنسا » كوخز الإبَر . إذ أنّ سكّانها المدنيّين لم يكونوا يفكّروا قطّ بأيّة مقاومة !

واتّفق الطرفان على أن يبقى رأس الجسر قائماً . ما دام الأمل ببلوغ الفرق الحليفة البحر لم يُفقد كليّاً . وقد غلب التأثّر العاطفيّ على جوّ الاجتماع حين قام الفرنسيّون والبريطانيّون يتنافسون في كرم الأخلاق : فقد أصرّ « رينو » على أن يُدوَّن في المحضر حرصُه على جلاء الإنكليز أوّلاً ؛ واعترض « تشرتشل » بأريحيّة فقال بلكنته الفرنسيّة : « كلاّ ! كلا ! في وقت واحد . معاً . وأيدينا في أيديكم » . والتمس أن يُمنح الجيش الانكليزيّ شرف حماية عمليّات الجلاء الأخيرة .

ولكنّ هذا التساهل قد استحال تصلّباً وتعنّتاً حين طلب « رينو » و « فيغان » من رئيس الوزارة الانكليزيّة أن يلقي بسلاح الطيران الملكيّ كاملاً في المعركة الحاسمة التي بات نشوبها على الأرض الفرنسيّة وشيكاً . ولم يكونا يعلمان أنّ المسألة قد انتهت بالنسبة للانكليز : فلأيّام خلت طلب قائد سلاح الطيران البريطانيّ . السير « هيو دودنغ » . أن تستمع الوزارة إليه . فكان له ما أراد . كان منذ البدء يعارض في إرسال طائرات مقاتلة إلى « أوروبا » ؛ وقد بيّن في الاجتماع أنّ حملتَي « نروج » و « فرنسا » قد كلّفتاه ٤٠٠ طائرة « هاريكان » . أي ١٦ سرباً . وطلب « ألاّ تستمرّ التضحية بسلاح الطيران على مذبح التضامن الفرنسيّ البريطانيّ » . ففي سبيل حماية الجلاء عن « دنكرك » يرخص كلّ غال . حتّى طائرات « سبيتفاير » العزيزة . وأمّا في مجال الاعتبارات الأخرى فلا . وكان السير « هيو » ينتظر أن يصطدم بالوزراء . وخصوصاً « بتشرتشل » الذي كان رسول التحالف وداعيته . وكم كانت دهشته عظيمة حين اعترف الوزراء رأساً بصواب رأيه .

وفيما عدا قضيّة سلاح الطيران كان التحالف الفرنسيّ البريطانيّ يبدو سليماً إجمالاً . ولكنّ الأمر لم يكن كذلك في « دنكرك » . فقد تكرّرت الحوادث بين الحلفاء المتفكّكين . وقوبل الجنود الفرنسيّون . وهم من أوائل القادمين إلى رصيف الإبحار . بمظاهرة عدائيّة عنيفة . ولم يكن القوّاد متّفقين فيما بينهم ؛ فقد حصلت مشادّة بين «ألكسندر» و « أبريال » (الذي لقّبه الانكليز « بأميرال أبري » أي « الأميرال الملجأ ») . وصرّحت الأميراليّة البريطانيّة بأنّها تعتزم إنهاء عمليّات الإجلاء في أوّل حزيران بعد أن يكون قد تمّ جلاء الانكليز جميعاً . واعترض « فيغان » و « بول رينو » على هذا الأمر مصرّين على أن تظلّ الإمكانات البريطانيّة تحت تصرّف القوّات الفرنسيّة لبضعة أيّام أخرى ؛ ولكنّ الأميراليّة لم تذعن إلاّ لأمر من « تشرتشل » .

وفي تلك الأثناء كان الفرنسيّون يقاتلون بشجاعة . وعلى الرغم من نيّات رئيس الوزارة البريطانيّة الكريمة ، كانوا هم الذين يؤلّفون آخر حصن في « دنكرك » لا الانكليز . فللّه وقت ذوّب الغشّ نارُه . فتخاذل من تخاذل . ولم يبقَ في الساح إلاّ الأبطال الصناديد ! فهنالك في هضاب « مالو – لي – بان » وكهوفها . زُمر من الجنود ألقوا أسلحتهم . وضبّاط تخلّوا عن جنودهم ؛ أولئك قوم حطّمت الصدمة أعصابهم . فباتوا والمعركة على أشدّها يخبطون خبط عشواء بانتظار الفرج . وآثر الكثيرون منهم الأسر على اقتحام بحر يغطّيه الحطام وجثث الغرقى ؛ أمّا الشجعان الـ ٥٠,٠٠٠ الذين راحوا يدافعون عن رأس الجسر فهؤلاء لم يبقوا فراريّي « دينان » و « سيدان » : لقد صقلتهم الحرب صقلاً عسكريّاً جديداً .

في الغرب بقي الاحتياطيّون القدامى في فرقة المشاة الـ ٦٨ . فئة (ب) . محافظين على مواقعهم لغاية ١ حزيران . ولم يخسروا في يوم ٢ غير قرية « سبيكر » . وفي عشيّة ٣ كانوا ما يزالون مسيطرين على جبهة كالزاوية تمتدّ من « مرديك » إلى ضواحي « دنكرك » ؛ وإلى يسارهم كان قطاع « الفلاندر » المحصّن . الذي يسانده فوج المشاة الـ ٣٧ . قد بدأ بالدفاع عن تحصينات « بيرغ » القديمة جنباً لجنب مع كتيبة بريطانيّة. وبعد رحيل الانكليز تراجع خطوة خطوة نحو برزخ « نوتردام دي نيبج » . ومن الخلف أقامت فرقة المشاة الـ ٢١ على ترعة « الشا » بعد استراحة قصيرة اثر السير الحثيث الذي قامت به منذ « ليل » . وراحت تغطّي بمفردها الجهة الشرقيّة من رأس الجسر ؛ وأمّا قائدها . الجنرال « جانسن » . فقد قُتل في مقرّ قيادته في قلعة «الدون». ولكنّ الفرقة قاومت بضراوة خلال أيّام ١ و٢ و٣ وكانت أرض المعركة الصغيرة تلك غريبة : مسطّحة . إسفنجيّة . يُغرق الفيضان قسماً منها . ويغطّيها الدخان وكأنّه ضباب اصطناعيّ . وفضلاً عن «دنكرك» التي كانت النيران تتأكّل كلّ جزء فيها . ابتلعت الحرائق مصنع الفولاذ في « فير ميني » . وبلدة « بيرغ » . والمستودعات التي تكدّس فيها الجيش . كما راحت تبتلع أكداس العتاد المخلّفة . يرافق ذلك كلّه تفجّر الصناديق . وأمّا الألمان الذين كانوا يستعجلون النهاية . فقد هاجموا بشجاعة وثبات . وراحوا يبحثون عن ثغرة ينفذون منها إلى « دنكرك » بفرقهم الستّ ؛ ولكنّهم لم يكونوا يملكون سوى دبّابات قليلة . وإذ أنّ الرّجال كانوا قد اعتادوا على طائرات شتوكا . فقد وافقت طبيعة القتال تلك الأفواجَ المبسوطة حول « دنكرك » . وهو القتال الذي كان الجيش الفرنسيّ محضّراً لخوض غماره . ولكنّ العدوّ كان يفوق الفرنسيّين بنسبة ٣ لـ ١ . فراح يتقدّم . ولكنّه لم يتمكّن من إحداث ثغرة في أيّ مكان .

في ٢ حزيران غادر آخر ٤,٠٠٠ انكليزيّ الأرض الفرنسيّة . وبالنسبة لترحيل الفرنسيّين أُعطيت الأفضليّة لفيلق الخيّالة الذي كان قدومه منتظراً بفارغ صبر لمعركة «السوم» الوشيكة. وكانت سحب الدخان المخيّمة فوق « دنكرك » تشكّل أفضل حجاب ضدّ الطائرات . غير أنّ الخسائر بقيت مرتفعةً جدّاً ، فاستمرّت العمليّات في المرفإ ليلاً . وأمّا عمليّة الإجلاء من ٢ إلى ٣ فقد شهدت مجهوداً انكليزيّاً جبّاراً : توجّهت نحو « دنكرك » ١٣ سفينة تجاريّة ، و١١ نسّافة ، وسفينتا شحن ، و٥ سفن ذات عجلات ، وعدد كبير من السفن الصغيرة والشاحنات التي تقطر صفّاً طويلاً من المراكب ؛ وكانت ترافق هذا الحشدَ البحريّ الضخم بعضُ العمارات الحربيّة ، ومئة سفينة صيد فرنسيّة . ولكنّ الإجراءات المتّخذة كانت لسوء الحظّ فاسدة ؛ فتُرك رجالٌ كثيرون في خطّ النار . فيما راحت سفن عديدة تنتظر ساعات طوالاً من غير طائل ثمّ عادت أدراجها فارغة . كان منتظراً أن يتمّ نقل ٣٥,٠٠٠ رجل . ولم ينقل في الواقع غير ٢٦,٠٠٠ .

واستغرقت عمليّات الجلاء ليلة أخرى ، وكانت أشدّ الليالي هلعاً . فأعاد الأسطول الخليطُ كرّته منطلقاً من « دوفر » . كان النشاط الجوّيّ ضعيفاً . ولكنّ مشاة الأعداء باتوا على أقلّ من ٣ كلم من المرفإ والشواطىء . وفي الليلة السابقة كانت الأميراليّة البريطانيّة قد أمرت بإغراق سفينتين تجاريّتين بين الأرصفة ، ولكنّ هذا السدّ لم ينجح إلاّ جزئيّاً . وعادت سفن الإنقاذ مرّة أخرى تحتلّ مراكزها على طول

الرصيف الشرقيّ ورصيف المتنزه في « مالو » . وقد اتُخذت إجراءات دقيقة لتأمين انكفاء قوّات الجبهة إلى « دنكرك » بحماية نسقين من الجنود يتمّ ترحيلهما بعد انتهاء كلّ شيء . واستمرّ بعض المدافع والرشّاشات يطلق النار تمويهاً . وقد نُزعت مغالق الأسلحة فطُرحت في البحر مع الذخيرة . أو طُمرت في الرمل ، وأُطلق سراح ما تبقّى من الخيول ، وغادر الرجال مواقعهم وساروا بسكون في أرتال صغيرة متوجّهين نحو المرفإ . وكان الهدوء التامّ يخيّم على الجبهة : فقد استسلم الألمان للرقاد بعد ما أنهكتهم المعارك الضارية التي خاضوا غمارها .

ثمّ بدأ سير العمليّات بالتباطؤ لأنّ السفن باتت تجد صعوبة فائقة في رسوّها بسبب العرقلة الجزئيّة وأكداس الحطام . ومع أنّ الجلاء كان يتمّ بسرعة نسبيّة . فقد كان معظم الصاعدين إلى السفن من المجموعات المنعزلة ، وأمّا المقاتلون المدافعون عن « دنكرك » . والمشاة والمدفعيّون والنقّابون التابعون لفرقة المشاة الـ ٦٨ وغيرها . فقد كانوا يتعثّرون وراء حائط بشريّ : بينما كانت ساعات الليلة الأخيرة الثمينة المعدودة تنقضي بسرعة .

كانت أوامر الأميراليّة البريطانيّة صارمة : يجب أن تتوقّف العمليّات في الساعة ٣,٣٠ . إنّ ليالي حزيران قصيرة . ولا قِبَل للانكليز بتحمّل المزيد من الخسائر . ولكنّ رأس الرتل من فرقة المشاة الـ ١٢ لم يبلغ مدخل الرصيف الكبير إلاّ في الساعة الثالثة . فوجد أمامه جموعاً غفيرة تتقدّمه متمتّعة بحقّ الأسبقيّة في الجلاء لتبكيرها في الحضور . وأمّا الجنود الذين خُلّفوا على أبواب « دنكرك » حتى آخر لحظة . فقد كانوا ما يزالون خلف الحشود على أرصفة المرفإ المكتظّة . وكان متوقّعاً أن ترحل فرقة المشاة الـ ٦٨ مع عناصر الفرقة الـ ٣٢ التي حاربت معها . ولكنّ دوائر الجيش الأوّل كانت تعجّ في جنبات الرصيف . وكان الأمل والقلق يتجاذبان الرجال في آن معاً : فها هم في المكان المنشود . والليل ساجٍ . والبحر هادىء ، ولكنّ تبّاً لهذا التعثّر ! . .

وعلى طول الأرصفة بدأت السفن تستعدّ للإقلاع . ورفع البحّارة العبّارات . وكان الربابنة يعلمون أنّ السير في المرفإ سيصبح مستحيلاً في الساعة الرابعة . وأنّهم سيجدون أنفسهم محتجَزين ما لم يبحروا قبل تلك الساعة . وأمّا الفجر الوليد الذي امتزج بحمرة الحرائق المتأجّجة . فقد عكس بريق آلاف الخوذات على الشاطىء . خوذات الرجال الذين كُتب عليهم أن يبقوا على اليابسة . . .

وفيما بعد وصف الكومودور « هـ . ر . تروب » . الذي كان يشرف على الجلاء . هذا المشهدَ الهائل ، وممّا ذكره أنّ الجنرال « ألوران » . الذي قاد آخر مرحلة من الحماية . قد وصل لتوّه إلى الرصيف الشرقيّ برفقة ضبّاط أركانه . فوقفوا ينظرون إلى حاجز المياه السوداء وإلى جدار سجنهم الذي سيدوم عدّة سنوات . وهو يتّسع شيئاً فشيئاً بين حائط الرصيف وهيكل النسّافة . فوقف الجنرال وضبّاطه إذ ذاك وقفة تأهّب . وأدّوا التحيّة للحرّيّة المبتعدة . وبعد ذلك بدقائق بدأ تفجير السفن التي كان من شأنها أن تغلق منافذ المرفإ ، وكان هذا إيذاناً بأنّ العمليّة « دينامو » قد انتهت .

لقد فاق نجاح هذه العمليّة الآمال المعقودة ، فبدلاً من أن يتمّ إنقاذ ٤٥,٠٠٠ رجل كما كان منتظراً في البداية . انتُشل من الجيب حوالي ٣٤٠,٠٠٠ بينهم ١١٥,٠٠٠ فرنسيّ . وقد كانت آخر ليلة ناجحة كسابقاتها . إذ أنّ ٢٦,١٧٥ رجلاً قد أبحروا من مرفإ مهدّم . وفي مدى ما يفصل الغسق الصيفيّ عن الفجر . وأمّا التخلّي الفاجع عن المدافعين الآخرين . تلك الهديّة المؤلّفة من ٣٤,٠٠٠ أسير

أسرى التي قُدّمت للعدوّ . فقد أتى نتيجة خطإ في تقدير عدد القوّات . ونتيجة عجز في التنظيم أدّى إلى إبحار سفن الرابع من حزيران وعلى متونها ١٠,٠٠٠ مكان فارغ .

وراحت الدعاية الحليفة تملأ الدنيا فخاراً لنجاح عمليّة الجلاء . لقد استُخدمت المأثرة لمحو الهزيمة . والسحق . والإفناء . التي ذهبت ضحيّتها جيوشٌ فرنسيّة ثلاثة . وجيش « بريطانيا » . وجيش « بلجيكا » . وجيش « هولندا » . فقد أمر « هتلر » بأن تُدقّ أجراس الرايخ ثلاثة أيّام متتالية . معلناً . بلا مبالغة . أنّه دمّر ٧٥ فرقة واستولى على عتادها . وأنّه قتل أو جرح أو أسر ١,٢٠٠,٠٠٠ جنديّ من الأعداء مقابل ١٠,٢٥٥ قتيلاً و ٨,٦٤٣ مفقوداً و٤٢,٥٢٣ جريحاً من الألمان . وهو ثمن بخس للغاية . وتجاهل الحلفاء هذه الأرقام الرهيبة ليبرهنوا أنّه لا أهميّة للتطويق بالنسبة للأمم البحريّة . وأنّ السيطرة على الأمواج هي الكلمة الفصل في الستراتيجيّة .

ولربما كانوا مصيبين بالنسبة « لانكلترا » . ولكنّ « فرنسا » كانت قد أصيبت بجرح مميت .

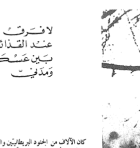


طائرات « شتوكا » تغير على مرفإ « دنكرك » وشاطئها .

صور الأيّام الأخيرة

فقدت البحريّة الفرنسيّة والبحريّة الانكليزيّة في عمليّة الجلاء عن « دنكرك » ثلث السفن المستعمَلة فيها ، وبينها ٨ مدمّرات و ٩٧ قطعة حربيّة صغيرة .





لا فرق عند القذائف بين عسكريّ ومدنيّ

كان الآلاف من الجنود البريطانيّين والفرنسيّين يتقدّمون أو يتراجعون وفقاً لحركات المدّ والجزر، وهم ينتظرون على شاطىء «مالو – لي – بان» أن تقلّهم القوارب. وقد بات هذا الانتظار محفوفاً بالخطر في الأيّام الأخيرة بعد ما قامت المدفعيّة تساند الطيران.



أوائل الأسرى الإنكليز في الجبهة الشماليّة





شواطىء « دنكرك » بعد الجلاء .

ماكان أحد ليحلم بمثل هذه النتيجة

في صبيحة ٤ حزيران دخل الألمان إلى « دنكرك » فإذا بهم أمام أنقاض . كان مرأى الشواطىء المثقلة بالأسلحة و الثياب والقوارب يبعث على الأسى والهلع . لقد أتى الجلاء على مستوى الحرب الحديثة ، ولكنه كان جلاء ناجحاً إذ فاقت نتائجه ما كانت تُعقد عليه الآمال .



مُخلّفات بلا فائدة تغطّي رمال الشاطىء .



جنود بريطانيّون يودّعون الساحل الفرنسيّ . ولما بزغ فجر ٢ حزيران كانت القوّات البريطانيّة كلّها قد أبحرت ، فيما بقي نحو ٤٠ ألف فرنسيّ ينتظرون دورهم في ركوب البحر .



جنود فرنسيّون ينزلون في أحد الموانىء البريطانيّة . « ليست هذه الحرب وقفاً على أرض بلدنا البائس ، ليست الكلمة فيها لحرب «فرنسا» وحدها ... »

(شارل ديغول)

الألمان في "دنكرك"

« انتهت المرحلة الأولى من الحرب ، فاستسلمت « بلجيكا » و« هولندا » ، وقُضي على القوّات الفرنسيّة والانكليزيّة . لقد سجّلنا أعظم انتصار عرفه التاريخ ... »

(من تصريح «هتلر» بعد احتلال «دنكرك»)



الطـائرة تفصـل في النـزاع المسلح أكثر من الدبـابـة



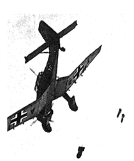
طائرات من سرب «كلاب البحر» طُليت وزُيّنت فبانت وكأنها في احتفال مسخيّ تهريجيّ. يا لغرائب الزمان! كم تستقي الحرب الحديثة من أساليب الحروب الماضية، يوم كان المحاربون يلجأون أحياناً إلى وسائل غير السلاح يهوّلون بها على أعدائهم، كالصراخ، والجلبة، والأقنعة المُخيفة.



مصوّر إحدى شركات الدعاية الألمانية يلتقط الصور في شوارع «دنكرك» التي دمّرتها القنابل. وقد قال «كيتل» فيما بعد: «لم أرَ في حياتي قطّ ما رأيته هنالك من أكوام الأعتدة المخلّفة».

في حرّ حزيران اللاّهب: طائرات «شتوكا» تحلّق فوق «فرنسا» في تشكيلات رائعة النظام، وهي تسخر من عجز المدفعيّة المضادّة للطائرات.

في فجر العاشر من أيّار هاجم الطيران الألمانيّ فجأة أرض الحلفاء. مطبّقاً بإخلاص ما طبّقه في «بولونيا» من مبادىء وخطط وضعها العسكريّون الألمان.



قنابل سوف تحملها طائرات «شتوكا» من سرب «كلاب البحر».



توقّع مقرّ القيادة الفرنسيّة العامّ أن يشنّ الألمان هجومهم على « السوم » و « الإين » في ١٠ حزيران . إلاّ أنّ العدوّ قد استبق التاريخ هذه المرّة أيضاً . في الساعة الخامسة من صباح ٥ حزيران أطلقت المدفعيّة نيرانها . وانقضّت طائرات « شتوكا » على المواقع الفرنسيّة . وبرزت الدبّابات إلى الميدان في المنطقة الحرام . وهكذا بدأت المرحلة الثانية من الحملة الغربيّة . ألا وهي موقعة « فرنسا » .

إحتضار « فرنسا »

في الجانب الفرنسيّ كانت المعركة معركة قنوط . فلقد نُكبت « فرنسا » على « الموز » وفي « بلجيكا » بفقد ٣٠ فرقة . يُضاف إليها ٩ فرق انكليزيّة . صحيح أنّ ما سُحب من قوّات « الألب » . وقوّات النجدة الأفريقيّة . وما أُعيد تأليفه من الوحدات . قد رفع عدد الفرق على الجبهة الشماليّة الشرقيّة إلى ٦٦ ؛ إلاّ أنّ هذا المجموع بقي أقلّ ممّا كان عليه في ١٠ أيّار بمقدار ٢٣ فرقة — مع العلم بأنّ الفرق التي أُعيد تشكيلها كانت من النوع الخفيف . تضمّ فوجين من المشاة بدلاً من ثلاثة . ومجموعتين أو ثلاثاً من المدفعيّة بدلاً من خمس . زد على ذلك أنّ الوحدات الكبرى المصفّحة كانت تشمل فرقة آليّة خفيفة حديثة النشأة . وفرقتين مصفّحتين سريعتين غير كاملتين. وثلاث فرق خيّالة خفيفة ضعيفة؛ وهذه كلّها لا تساوي مجموعة فرقتين من فرق المصفّحات الألمانيّة .

مقابل هذا الجيش المبتور يقف الجيش الألمانيّ وهو في وضع أنسب من الذي كان عليه في ١٠ أيّار . كان يزحف إذ ذاك عبر منطقة وعرة. بقوّاته السريعة وحدها . فيما تلحق بها مجموعات المشاة على مسافة تتّسع رقعتها شيئاً فشيئاً . أمّا اليوم فقد صار بوسع المشاة أن يخوضوا غمار المعركة برفقة المصفّحات، فبإزاء ٢٧ فرقة فرنسيّة موزّعة بين « الرين » و « المانش » ينشر الجيش الألمانيّ ٤٥ فرقة . ومقابل ٢٢ فرقة احتياطيّة يحتفظ بها « فيغان » تملك « ألمانيا » للساعة الحاسمة ضعفها أو يزيد . لقد تهيّأ لها التفوّق في معركة العدد وفي معركة السرعة على السواء .

ومع هذا نلحظ أنّ معنويّات الجنديّ الفرنسيّ قد ارتفعت عشيّة هذا النزاع غير المتكافئ، فالجيش يشعر للمرّة الأولى بأنّ له قيادة فعّالة، فالتعليمات التي يوجّهها « فيغان » تمتاز بالذكاء والقوّة والوضوح : يجب التخلّي عن الدفاع الخطّيّ . والانتظام في صفوف عميقة . والمحاصرة ضمن نقاط ارتكاز مغلقة . كما ينبغي عدم الاستسلام للخوف في حال التخلّف عن الدبّابات . إستعاد المحاربون ثقتهم . إلاّ أنّ الذين أدركوا نسبة قوى الخصمين على حقيقتها ما كانوا فريسة للأوهام .

وفي المعسكر الألمانيّ يتولّى القيادة أولئك القوّاد الكبار الذين قاموا بتنفيذ الحملات السابقة : يقود « فون بوك » الجناح الأيمن الممتدّ من « السوم » إلى مرتفع « سان غوبان » والذي يضمّ الجيوش ٤و٦و٩، ويقود « فون روندشتاد » الجبهة الوسطى بين « سان غوبان » و « مونميدي » على رأس الجيوش ٢ و١٢ و١٦؛ أمّا « ليب » فلا يزال يشغل الجبهة الممتدّة من « اللوكسمبورغ » إلى « سويسرا » . على رأس الجيشين



« إنّكم تظنّون أنّ « هتلر » هو « غليوم » ، ذلك السيّد العجوز الذي رضي منكم « بالألزاس » و « اللورين » . لا . ما « هتلر » إلا « جنكيزخان » ..

(من حديث « لغاملان » التقطه « أناطول ذو مونزي »)



دبّابة فرنسيّة ثقيلة من طراز « ب » متخفّية في الغابة بانتظار ساعة الهجوم .

١ و٧ . بيد أنّ عليه أن يخرج من سلبيّته هذه المرّة لينظّم حملتين . الأولى إلى « اللورين » والثانية إلى « الألزاس » .

كان « هتلر » قد حدّد ٣١ أيّار موعداً للزحف ، إلاّ أنّ عرقلة الموْخّرات ، وتضعضع أرتال المصفّحات ، قد أرغماه على القبول بتأجيل الزحف ستّة أيّام . كانت العمليّات تشمل مرحلتين : في المرحلة الأولى تقوم مجموعة « بوك » بصدع جبهة « السوم » . وفي المرحلة الثانية تشنّ مجموعة « روندشتاد » هجومها على « شامبانيا » فتداهم جيوش الشرق من خلف بحركة التفاف تمتدّ حتى « دول » و « مونتارلييه » . أمّا مجموعة « بوك » فتفتح كروحة ، فيستولي قسم منها على « باريس » ثم يتّخذ طريق « تروا » و « ديجون » و « ليون » ملتفّاً حول « الألب » حتى يبلغ البحر المتوسّط . ويُخضع القسم الثاني مقاطعة « بروتانيا » ويتمكّن من شاطىء المحيط الأطلسيّ حتى جبال « البيرينيه » .

إنّه لمخطّط جبّار ، وضعه « هتلر » من غير أن يعرف فيه التردّد والترجّح اللذين رافقا وضع مخطّط « سيدان » . لم يحسب المخطّط حساباً لأيّة ردّة فعل ممكنة ، فكأنّي بالخطّة أقرب إلى برنامج مسيرة عسكريّة منها إلى تدبير موقعة . ولم يكن للقيادة الألمانيّة في هذه الجرأة فضل لأنّها كانت على بيّنة من وضع بقايا الجيش الفرنسيّ ؛ فلو أقدمت في أيّار على مثلها لكان عملها مجازفة . أمّا في حزيران فما كانت لتخشى عدوّاً !

كان الوضع في الجانب الفرنسيّ موتّراً فاجعاً ، وخصوصاً في حالة « فيغان » ، ذاك القائد الشيخ المرتدي من المجد جلباباً ، والرازح تحت وطأة العجز ، والمختلي كلّ مساء بطيف المارشال « فوش » يستمدّ منه الإلهام والمعجزة ! لقد ركّب جيوشه الهزيلة في مجموعات ثلاث : المجموعة الثانية بقيادة « بريتيلا » (تضمّ الجيوش ٨ و٥ و٣) أُقيمت على حراسة جبهة لم تُمسّ بعد تمتدّ من « بال » إلى « لونغويون » . وأُسندت قيادة المجموعة الرابعة إلى « هونتزيغر » ، هزيم « سيدان » . وكانت تضمّ الجيشين ٢ و٤ ، ومهمّتها أن تقطع طريق « شالون » . وأخيراً المجموعة الثالثة ، وهي أطولها وأكثرها وهناً ، وكانت تضمّ الجيوش ٦ و٧ و١٠ وتمتدّ من « رامس » حتى البحر . وكان « فيغان » يعرف حقّ المعرفة أنّ جبهته تزداد ضعفاً كلّما استطالت نحو الغرب . وأنّ

لا بدّ له من مهلة أيّام ليتمكّن من توزيع قوّاته توزيعاً أفضل . نظراً لعمليّات القصف ولازدحام الطرقات باللاجئين . وقد رتّب قوّات الاحتياط خلف خطّ القتال الهزيل هذا . بحيث أتت مجموعات « بوتييه » و « أوده » خلف مجموعة الجيوش ٣ . ومجموعة « بويسّون » خلف مجموعة الجيوش ٤ ، وهي تشمل أربع فرق مشاة . ونصف فرقة مصفّحات انكليزيّة . يضاف إليها كلّ ما تبقّى من الفرقة الآليّة الخفيفة . وفرقة المصفّحات السريعة . والفرقة الخفيفة المصفّحة . وبلغت هذه القوّة من التفاهة حدود المأساة . إلاّ أنّ المحاربين لم يكونوا يدركون ذلك ؛ ففي مساء ٥ حزيران سطع شعاع من الأمل الأسطوريّ في مراكز القيادات الكبرى : فلقد وصل ضبّاط الاتّصال قادمين من الجبهة ملائكةً متفائلين . وقالوا إنّ خطّة القنفذ قد فُهمت على حقيقتها وطُبّقت ؛ فالجيوش تقاتل بعناد كلّيّ متحصّنة في القرى . وهي تفسح الطريق أمام الدبّابات ثمّ تحصد مجموعات المشاة التي تسير في أعقابها . وبفضل ذلك غدت الثغرات التي فتحتها المصفّحات



دبّابة ألمانيّة تجاه « فانو — لي — دام » المشتعلة .

ممرّات ضيّقة ، كالممرّ الذي سار فيه « رومل » بين « أبفيل » و « أميان » ، وكالممرّ الذي نجحت في فتحه فرقة الدبّابات العاشرة في منطقة « نوايون » . الحرّ شديد ، والنهار لا ينتهي ، وليس في القرى غير بعض الجنود والكلاب المهملة . ولا يعكّر سكون الجوّ في الفترات التي يتوقّف فيها القتال إلاّ خوار الأبقار تدعو من يحلبها . فشتّان ما بين هذه الحرب ، وحرب الخطوط يقف فيها الجنود كتفاً إلى كتف ، تلك التي كانت تراود الأحلام أيّام « غاملان » ! ولكن سرعان ما يألف الجنود الفرنسيّون هذا النوع الجديد من القتال ، فلا يسجّل عليهم أيّ تخاذل . ويتّفق القوّاد الألمان الذين رووا أخبار الأيّام الأولى من موقعة « فرنسا » على الإشارة إلى العناد والمهارة اللذين اتّصفت بهما المقاومة الفرنسيّة ؛ فقد كتب « رومل » يقول إنّ الفرنسيّين كافحوا مستميتين ؛ وذكر « تيبلكرش » أنّ العدوّ « يبرهن للمرّة الأولى عن أنّه يعرف كيف يقود معركة دفاعيّة » . أمّا « فون مانشتاين » فلم يجد تفسيراً لتوقّف فيلقه الـ ٣٨ الدامي أمام

« بيكينيي » إلاّ حين علم أنّ الجنود الفرنسيّين هم « ألزاسيّون خدم آباؤهم في حرس قيصر « ألمانيا » أو في بحريّته » . لم تخلّف بسالة القوّات الفرنسيّة في تاريخ الحرب العالميّة أثراً يُذكَر . بعد هزيمتي « سيدان » و « دينان » الحاسمتين ، ومع ذلك يبدو من الإجحاف تجاهلها .

ولكنّ خطّة « فيغان » لم تُجدِ فتيلاً إذ لم يكن تدمير أرتال المصفّحات التي تتسرّب عبر مربّعات نقط الارتكاز ممكناً ، إذ لم تكن حفنة من الدبّابات موزّعة بين « القوح » و « المانش » لتفلح في هذا العمل .

كان نهار ٦ حزيران صورة للنهار السابق ، ففيما مضت المعركة في التوغّل قدُماً . سقطت طريق « دام » . ولكنْ بقيت مجموعة الجهاز الدفاعيّ سليمة .

كان عمل العدوّ غربيّ « أميان » أقلّ عنفاً ممّا كان عليه بالأمس . ومع هذا فقد بانت هناك أولى علائم الإعياء المقلقة .



أيّار ١٩٤٠ . جنود يتقدّمون إلى الجبهة ، ومدنيّون مهاجرون يسلكون الاتّجاه المعاكس .

كانت الفرقة البريطانيّة ٥١ هي الفرقة البريطانيّة الوحيدة في الميدان . تساندها فرقة المشاة الفرنسيّة ٣١ الخاضعة لها . فراحت تستبسل في الدفاع عن جبهة تبلغ ٦٠ كلم طولاً . أمّا قائدها الجنرال « فورتشون » . الذي استبدّ به القلق لما أصاب وحداته من تمدّد وخسائر . ولم يطّلع الاطّلاع الكافي على مفاهيم القتال الدفاعيّ الجديدة . واستولى عليه خوف الانقطاع عن مرافئه ، فقد أمر بالتراجع العامّ حتى « بريل » .

يوم ٧ حزيران واصلت المعركة الدفاعيّة سيرها الموفّق . في ميمنة المجموعة الثالثة وقلبها . ولكنّ الكارثة حلّت بالميسرة ؛ فقد انقضّ فيلق المصفّحات بقيادة « هوث » (الفرقتان ٥ و٧) بإمكاناته كلّها على هضبة « هورنوا » . ولم يحدث ذلك القرار اللاواعي الذي حدث في « سيدان » . بل . على العكس . انتظمت في وجهه مقاومة عنيدة . كلّ ما في الأمر أنّ القماش المهلهل الرقيق قد مزّقته القبضة الجبّارة !

أمر « رومل » بتحاشي نقاط الارتكاز والقرى والطرقات وبالتقدّم عبر الحقول ، وهكذا توغّل بعيداً عبر الخطوط الفرنسيّة . ووقع فجأة على الفرقة الخفيفة ١٧ خلال إنزالها إلى البرّ . فتجاوزها ولم يتوقّف . لقد فتحت الثغرة وتحقّق التوغّل . ولشدّ ما كانت دهشة مدينة « فورج » عظيمة حين شاهدت الدبّابات الألمانيّة المغبرّة تتفيّأ ظلالها الوارفة الجميلة !

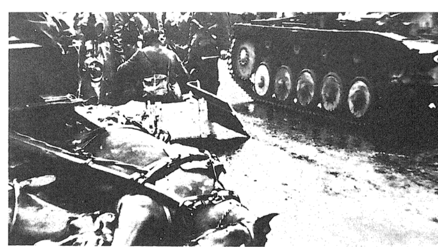
فُتحت طريق « روان » . وشُطر جيش « روبير ألتماير » الفرنسيّ العاشر شطرين . وعُزل الفيلق التاسع الذي كان يؤلّف ميسرته بين « السين » السفلى والبحر . ولسوف تكون قصّته قصيرة : فقد تمكّن مئات من رجاله من الإبحار في « الهافر » وفي « سان فاليري انكو » . واستسلم الباقون في ١٢ حزيران بما فيهم « إهلر » قائد الفيلق . والقائد الانكليزيّ « فورتشون » .

في تلك الأثناء . في يوم ١٠ . أعلن « موسوليني » الحرب على « فرنسا » و « انكلترا » ؛ وعبرت مجموعة « فون بوك » نهر « السين » . فاستولت على « غاليون » و « لوفييه » . وتابعت زحفها باتّجاه « إفرو » . وتراجعت إذ ذاك ميمنة المجموعة الثالثة الفرنسيّة ، بعد ما كشفتها نكبة الميسرة ، نحو الضاحية الباريسيّة الكبيرة . وقد فقدت جزءاً من مدفعيّتها أثناء عبورها « الواز » . فبدأت بذلك مرحلة الزحف الألمانيّ الثانية . وتحرّك « فون روندشتاد » في ٩ ، الساعة ٤،٣٠ ، متّجهاً من « سواسون » إلى « الأرغون » : فكانت الضربة القاضية .

قاتل الجنود الفرنسيّون ببسالة المستميت اليائس . كما فعلوا على « السوم » . فحطّمت فرقة المشاة ١٤ التي يقودها الجنرال « دي لاتر دي



يواجه الألمان في زحفهم مقاومة غير منتظرة .




في حزيران، قرب «شاتو — تييري»

تاسينيي» الغارة الألمانيّة في «ريتيل». وصدّ الجيش السادس فوج المصفّحات ٤١ أمام «فيم»، وفقد الفوج المصفّح الألمانيّ ١٩ توازنه برهة اثر هجوم معاكس شنّته الفرقة المصفّحة السريعة ٣ والفرقة الخفيفة الآليّة ٧. غير أنّ الجيش الألمانيّ الممتدّ من «الإين» إلى «الموز» كان يشمل ٦ فرق مصفّحات و٢٧ فرقة مشاة من النسق الأوّل، و١١ فرقة من النسق الثاني، و١٥ فرقة احتياط مباشر، يقابلها في الجانب الفرنسيّ ٢٣ فرقة بما فيها قوّات الاحتياط. إذاً لم يبقَ بوسع جيوش «فيغان» طبيعياً أن تضع حدّاً لتقدّم العدوّ.

سقطت «رامس» كما سقط «جبل رامس». واجتاز الألمان «المارن». وجرت دبّاباتهم فرحةً مبتهجة في بطاح «شامبانيا» المسطّحة الجامدة، تتبعها جموع المشاة وقد أسكرها الغبار والظفر والحرّ. فإذا بالاحتمال الذي أتى على ذكره الجنرال «فيغان» في مذكّرة ٢٩ أيّار، «تصدُّع مواقعنا النهائيّ»، أمر حاصل...

في «بريـار» انفصمت عرى التحالف

حدثت في ١١ حزيران تلك الظاهرة التي ترافق الكوارث العسكريّة الحديثة كلّها؛ فقد هطل على «باريس» رذاذ من أوساخ الدخان الذي انعقدت سحائبه في الجوّ بعد احتراق مستودعات الوقود. كانت الحكومة قد انتقلت إلى «تور» في اليوم السابق؛ وأعلنت منشورات تحمل توقيع الجنرال «هيرنغ»، الحاكم العسكريّ، أنّ «باريس» قد غدت مدينة مفتوحة. كان «فيغان» قد اتّخذ هذا القرار اعتقاداً منه بأنّ التضحية بالمدينة التي تدفّق عليها العدوّ من الشرق ومن الغرب باتت لا تحمل، عسكريّاً، أيّة فائدة. ولكنّ الألمان أعلنوا بالراديو أنّهم لا يعترفون بحياد المدينة إلّا إذا أقلع الفرنسيّون عن كلّ مقاومة شماليّ خطّ يمتدّ من «سان جرمان» إلى «فرساي» «فجوفيزي» «فسان مور» «فمو»؛ فأذعن الفرنسيّون.

وحين أعلن أنّ «باريس» قد سلمت من أهوال القتال، دوى، على خلاف ما كان منتظراً، ما يشبه نفير ذعر: فقد تدفّقت من أبواب «فونتينبلو» و«أورليان» سيول متدافعة من الجموع سوّدها الرماد المتساقط من السماء، وراحت تتكدّس في كلّ ما صادفته من عربات ممكنة، وتدفع أمامها عربات اليد الصغيرة وحتّى عربات الأطفال، وهي تحمل الرضّع والصرر، ثمّ مضت تضخّم الحشود الغفيرة الوافدة من شماليّ «فرنسا»، وتنصبّ كالسيل العرم على الأرض التي ما برحت حرّة.

فيما كانت الحكومة تبلغ «تور» تراجع مقرّ القيادة العامّ إلى «بريار» حيث وصل «تشرتشل» مساء ١١ على متن طائرته الخاصّة تواكبه ١١ طائرة من طراز «هاريكان». فسيرّ به إلى مقرّ الجنرال «فيغان»، وهو بناء زهريّ اللون يحمل هذا الاسم الريفيّ الجميل «قصر زنابق الوادي»، حيث كان «رينو» و«بيتان» و«فيغان» في انتظاره، وبرفقتهم الجنرال «ديغول» الذي عيّنه «رينو» في التشكيلة الوزاريّة الأخيرة نائب وزير دولة لشؤون الحرب. وكان مع «تشرتشل» «إيدن» والجنرالات «ديل» و«إسمي» و«سبيرس». ولقد تضافر النهار المحتضر، والغيوم المتراكمة، والعاصفة المنذرة، وضوء الشموع الباهت، لتُضفي على هذا اللقاء الفرنسيّ — البريطانيّ، الذي لم يسبق له مثيل في العنف، جوّاً عابساً مشؤوماً.

أصيب الإنكليز بالوجوم والذعر إذ قام «فيغان» يعرض الحالة العسكريّة الراهنة. وقد علّق «سبيرس» على ذلك قائلاً: «لقد جفّ فمي...» إلّا أنّ «فيغان» لم يشأ تسويد الجوّ، فأشار إلى أسباب تدعوه إلى التفاؤل، إلّا أنّها كانت في الحقيقة مناقضة لواقع الأمر؛ لم يبقَ في الاحتياط كتيبة واحدة، ولا يحمي الـ ١٣٥ كلم من قطاع «السين» الأسفل غير خمس فرق لا تضمّ اثنتان منها غير فوجين من المشاة، ولا يحمي الـ ٤٤ كلم الممتدّة من «أوريك» إلى «المارن» غير فرقة واحدة. إلّا أنّ «فيغان» أردف قائلاً: «ولكنّ مجموعة الجيوش الثانية نجحت في إعادة تنظيمها. ولا شكّ في أنّ العدوّ قد أنهكه التعب، والسباق الآن قائم بين طول نَفَسه واستنفاد قوانا. وإله الحرب هو الذي سيقرّر النهاية...» ولكنّ إله الحرب كان، ويا للأسف، قد اتّخذ قراره! فنصف فرق المشاة الألمانيّة أو أكثر لم تكن قد خاضت المعمعة بعد، والدبّابات الألمانيّة كانت لا تزال تحتفظ بنَفَس طويل يمكّنها من بلوغ «البيرينيه» بسهولة تامّة!

تكلّم «فيغان» بمزاجه العصبيّ الحادّ. وما كان «تشرتشل» يحبّه قطّ. فطلب الاستماع إلى «جورج» إذ كان يعرفه شخصيّاً ويمحضه ثقته، فإذا «بجورج» المقتضب الكئيب أدعى إلى اليأس من القائد العامّ؛ فالحالة لا تُطاق، وقد استنفدت «فرنسا» طاقتها كلّها.

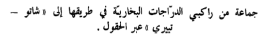
وما كان « تشرتشل » ليقبل بهذا الوضع فراح يجادل بما وسعته بلاغته : سيل من الكلام، خليط مدهش من اللهجة الانكليزيّة الفرنسيّة لا يُفقه له معنى وهو مع ذلك واضح صاف . وتعبير بالوجه ينتقل من السخط إلى الإقناع ومن التضرّع إلى الانفجار ؛ غير أنّ حججه بقيت بالغة الضعف إزاء زحف يجري جريان السيل في بلد مغلوب على أمره . بودّه لو أنّ « ألمانيا » تنقضّ على « انكلترا » فتوفّر «لفرنسا» استراحة قصيرة ، ولكنّ الجيش الألمانيّ لم يكن يمتثل لأوامره هو ؛ بودّه أن تستمرّ المقاومة في حرب عصابات شاملة شعواء ، ولكنّ حرب العصابات تولد تلقائيّاً ولا تقرّر بين جدران قصر ؛ هو يعد بمساعدة انكليزيّة ، ولكنّ ما بين يديه لا يساوي شيئاً : فرقة ترسل في الحال « مزوّدة بـ ٧٢ مدفعاً » (أعلن ذلك التفصيل بصوت خافت كما لو كان يفشي سرّاً منقذاً !) ويعد بـ ٢٥ فرقة « تقوم بهجوم معاكس في فصل الربيع » . هذا . والعدوّ على أبواب « باريس » ، وهو يتقدّم بسرعة ٥٠ كلم في اليوم !

طلب « بيتان » أن يتكلّم . وقد وصف « سبيرس » موقفه ، قال : « كان وجهه قد امتقع حتى غدا كقناع من جصّ » . أخذ يتكلّم ونظرُه إلى يديه اللتين بسطهما أمامه على الطاولة . أشار « بيتان » إلى أنّ « تشرتشل » قد ذكر منذ لحظة أنّ الحرب السابقة عرفت ساعات يأس ، وأنّ دولاب الحظّ عاد فانقلب ساعة كان الأمل قد فُقد تماماً ؛ وأشار إلى أنّ الجنرال « فيغان » أجاب بأنّ الوضعين يختلفان كلّ الاختلاف ، لأنّ إسهام الدبّابة والطائرة قد بدّل سير الحرب في حين لم يكن له دور في حرب ١٤–١٨ ؛ وقال «بيتان» إنّه يريد أن يضيف ما يلي : لقد أرسل في آذار ١٩١٨ عشرين فرقة لإنقاذ جيش « غاف » الذي كان قد دُحر على « السوم » ، وألحقها بعشرين فرقة أخرى يوم أتى السيّد « تشرتشل » للاجتماع به في مقرّه العامّ . ثمّ ختم كلامه ، من غير أن يرفع جبينه المصفرّ ، بهذا القول : « كان « لانكلترا » في « فرنسا » يوم ذاك ٦٠ فرقة ... »

أمّا الآن فلم يبقَ « لانكلترا » فرق ، بيد أنّها كانت تملك طائرات . وغنيّ عن القول أنّ مصير المعركة كان متوقّفاً قبل كلّ شيء على الطائرة . طالب « رينو » بإسهام سلاح الطيران الملكيّ كاملاً ، فانكمش « تشرتشل » على نفسه ، وأخذ الفرنسيّون يدافعون عن وجهة نظرهم . فروى « فيغان » أنّه شهد قصفاً جويّاً تعرّض له منذ أيّام في مقرّ قيادة «روبير ألتماير» ، واستنتج أنّ الوسيلة الوحيدة الّتي يستعيد بها الجنود الفرنسيّون حميّتهم هي تطهير السماء من هذه الطائرات الّتي تلاحقهم بغاراتها وتقضي على معنويّاتهم ؛ ولا يتمّ ذلك إلاّ بتدخّل المطاردات البريطانيّة الجماعيّ ؛ فالظرف حاسم ، ولا يزال الوقت مناسباً . وعمّا قليل يفوت الأوان .

أمّا « تشرتشل » فقد كان ذا وجهين : كان في « انكلترا » يخاطب « دودنغ » القائد الأعلى للطيران بما كان يخاطبه به « فيغان » ، ومتى وُجد أمام الفرنسيّين خاطبهم بحجج طيّاريه . كلاّ ، لم يكن الوقت ولا المكان حاسمين ؛ أمّا الزمان فهو الذي يعيّنه « هتلر » يوم يلقي بسلاح طيرانه على « بريطانيا العظمى » ، ميدان الحرب الحاسم . فلا بدّ من توفير سلاح الطيران الملكيّ لتلك الوقعة الّتي ستقرّر مصير العالم ؛ فإن انتهت بهزيمة ، ضاع كلّ شيء ، وإن انتهت بالنصر أُنقذ كل شيء ، وحتى « فرنسا » . قال : « إذا تمكّنّا من السيطرة على الجوّ ، وإذا تمكّنّا من إبقاء البحار مفتوحة ، أعدنا لكم ما خسرتموه . . . » .

إنفجرت العاصفة في السماء ، وأخذ المطر يهطل غزيراً على جموع اللاجئين المحصورين على طول الطريق رقم ٧ . انتهى المؤتمر الفرنسيّ البريطانيّ وكأنّه لم يكن . وعُقد في اليوم التالي اجتماع قصير تناول المواضيع ذاتها فلم يسفر عن حلّ ولم ينته إلى قرار . فقد أتى المجتمعون عرَضاً على ذكر المعقل البروتونيّ الذي كُلّف الجنرال « ألتماير » بتنظيمه ، إلاّ أنّه لم يؤتَ على ذكر استمرار المقاومة الفرنسيّة في « أفريقيا الشماليّة » ، مع أنّ إمكانيّة اشتراك البحريّة البريطانيّة فيها أمر حيويّ . وعلى كلّ حال اصطدم « بول رينو » بصعوبات غير منتظرة حين أراد أن ينفّذ فكرته بإرسال صفّين من الفتيان إلى « أفريقيا الشماليّة » ؛ فقد أجابه « نوغيس » ، القائد الفرنسيّ فيها ، معترضاً بأنّه يفتقر إلى الثكنات والمدرّبين ، وبأنّ الوضع الصحّيّ غير ملائم ، وبأنّ الحرّ شديد . . . وفي النهاية قبل « نوغيس » بتردّد استقبال ٢٠,٠٠٠ من الجنود الفتيان ، ويا لتفاهة العدد ! ولقد صرّح مساعدوه الأقربون بأنّه ما كان يتصوّر خطورة الموقف الراهن ، وأنّ الهزيمة قد صعقته .



جماعة من راكبي الدرّاجات البخاريّة في طريقها إلى « شاتو — تييري » عبر الحقول .



قُضي على التحالف . وانقطع الحوار . « فبريطانيا » لا تُلام على احتفاظها بسلاحها الأخير وقوامه ٢٥ مجموعة من المطاردات ؛ إلاّ أنّ « تشرتشل » كان أوّل من فهم ذاك الموقف المناقض للمنطق الذي يفرض على « فرنسا » أن ترضى بالاجتياح يشمل أراضيها كلّها . وبإبادة سكّانها كلّهم أو أسرهم ، فيما يحتفظ هو لنفسه بحفنة الطائرات التي قد يستطيع تدخّلها تغيير مجرى الأحداث ! ولسوف يقول في مذكّراته : « تملّكني الأسى طوال تلك المناقشة الحقيرة ، وأنا أفكّر بعجز « بريطانيا العظمى » عن تأمين إسهام حربيّ ذي شأن . وبكون « بريطانيا » قد ألقت حتّى ذاك التاريخ بتسعة أعشار الجهود وبتسعة وتسعين بالمئة من الآلام على عاتق « فرنسا » وحدها . . . » غير أنّ هذه الحركة العاطفيّة . وذاك الندم الشريف ، ما كانا ليردّاه عن الخطّة الرئيسة الأوّليّة ، ألا وهي سلامة بلاده .

سافر قرب الظهر في طائرته الصغيرة الخاصّة غير هيّاب ، ولم تسمح السماء الغائمة لطائرات « الماريكان » بمواكبته . فحلّق مجازفاً فوق القوّات الألمانيّة المتفشّية كبقعة زيت . وما ان حلّق فوق « الهافر » المشتعلة حتّى تمزّق حجاب الغيوم الذي كان يحميه ، فاضطرّ إلى أن يتابع سفره على علوّ ٣٠ متراً فوق « المانش » ليفلت من مطاردات الأعداء . وكانت خلاصة التقرير الذي قدّمه لوزارة الحرب مساء ذاك اليوم هذه العبارة : « لقد قُضي على « فرنسا » .

أسطورة المعقل البروتونيّ

في الساعة الواحدة والربع ، ولمّا يمضِ على رحيل « تشرتشل » المؤتمر غير ثلاث ساعات ، وقّع الجنرال « فيغان » أمراً بالتراجع العامّ كان قد أعدّه في اليوم السابق . كانت الغاية من هذا التدبير المحافظة على تماسك الجيوش التي بات تصدّعها وتفكّكها وتطويقها قضيّة ساعات إذا ظلّت متمسّكة بمواقفها . كان عليها أن تتراجع حتى خطّ توقّف يمتدّ من « سويسرا » إلى البحر مارّاً « بروس » ، و «الشمبانيول» ، و «دول» ، و «الكوت دور » ، و « مرفان » ، و « اللوار » من « بريبار » إلى « تور » ، و «ألونسون» و « كان » . أمّا مشكلة خطّ « ماجينو » فقد بُتّ فيها: لقد تقرّر التخلّي عنه ! كان الجنرال «بريتيلا» ، قائد مجموعة الجيوش ٢ ، قد عرض تيك الفكرة منذ أيّام ، بيد أنّ « فيغان » فضّل تأجيل تلك التضحية خوفاً من سوء عاقبتها على المعنويّات العامّة ، فترك وراء درع « فرنسا » التي باتت بلا نفع ثلاثةً جيوش سليمة هي ٣ و٥ و٨ . وها هو الآن يتّخذ قراراً بسحبها على وجه السرعة إلى محور « ساربور — إبينال — ديجون » . وقد كُلّفت مجموعات العمليّات بتغطية التراجع قبل أن تلتحق بمعظم الجيوش . وهكذا هُجر الخطّ المشؤوم بلا قتال بعد ما استنفد إنشاؤه مليارات من الفرنكات كانت تكفي لتأمين تكاليف فيلق من فيالق الميدان ، وبعد ما عطّل التفكيرَ العسكريّ الفرنسيّ برمّته .

إنسحب الجيشان ٢ و٤ في الجبهة الوسطى نحو « تروا » و « نوفير » ، وتفكّكت مجموعة الجيوش التابعة « لبوسون » في الميسرة . أمّا الجيش ٧ (بإمرة « فرير ») وجيش « باريس » (بإمرة « هيرنغ ») وهو طيف جيش لا أكثر ، فاتّجها نحو « أورليان » دائرينَ حول العاصمة التي أُعلن حيادها . ووُضع الجيش ١٠ (بإمرة « ألتماير ») تحت تصرّف مقرّ القيادة العامّ المباشر . كان انسحابه يسير وفق محور خارج عن نقطة الارتكاز ماراً « بروان » و « أرجنتان » و « رين » ، وقد أُسندت إليه مهمّة مزدوجة تقضي : أوّلاً بالتمسّك بطرف خطّ التوقّف الغربيّ ، وثانياً بتنظيم المعقل البروتونيّ وحمايته .

الجيش ! إنّها لكلمة فضفاضة ! معناها مقرّ قيادة جليل ، ومصالح مختلفة ، ووحدات قتال متعدّدة قويّة ، ومجموعات أركان تنقل قرار القائد من نسق إلى نسق . لم يبقَ من الجيش غير الاسم ، فهو أشبه ما يكون بواجهة قائمة أمام بناء مهدوم . أُبيد نصف الفرق ، وأكثر ما تبقّى منها لا يضمّ غير ثلاث كتائب ، أو أربع ، ونواة مدفعيّة صغيرة . ومن شاء من الجنود هرب : يكفيه لذلك أن ينضمّ إلى سيل اللاجئين فيجرفه في تدفّقه . أمّا ممارسة القيادة فأمر كاد يمسي مستحيلاً نظراً لازدحام الطرقات ولفقدان وسائل الاتّصال ؛ فالأوامر التي كان يُحتّم نقلها بالشيفره باتت تُنقل بواسطة شبكة الهاتف المدنيّ المزدحمة المعطّلة القديمة . لم يكن مقرّ القائد العامّ في « بريبار » يتّصل بالجيوش وبالعالم إلاّ بجهاز هاتف حائطيّ موضوع أمام أبواب المراحيض ، وهو يتوقّف عن العمل بين الساعة الثانية عشرة والرابعة عشرة حين تتناول الموظّفة غداءها ! ولن يكون بوسع المكتب الثاني ، بعد أيّام ، أنّ يستعلم عن تقدّم العدوّ إلاّ عن طريق الاتّصال بالمدن المهدّدة بواسطة جهاز حائطيّ آخر موضوع في مكتب مدير مدرسة « أسّل » الابتدائيّة العالية ! وهكذا ستقضي « فرنسا » أيّام نزاعها الأخيرة خارج معالم الحقيقة ، في ظلّ قيادة وهميّة تحاول أن تُسبغ على ضباب من الجيوش شكلاً متماسكاً .

لم يسمع الجنرال « ألتماير » بمعقل الدفاع الوطنيّ البروتونيّ إلّا في ١٢ حزيران ، حين أُوعز إليه بتأسيس « جبهة دفاعيّة على خطوط « الرانس » و « فيلين » لحماية « رين » على مستوى « فيتري » . لم يكن قد بقي من جيشه سوى فرقتين ، بعد وقوع جناحه الأيسر في الأسر ، فأرادت القيادة أن توفّر له المزيد من القوّة ، فوضعت فرق الفيلق ١٦ الأربع تحت تصرّفه . وأهمّ ما كان يشين هذه الفرق أنّها لم تكن موجودة ! فلقد انتزع رجالها وقوّادهم والجنرال « فاغالد » من « دنكرك » انتزاعاً ، فكان لا بدّ من إعادة تنظيمهم وتسليحهم من قمّة الرأس إلى أخمص القدم . كان عددهم يقدّر بـ ٥٠,٠٠٠ رجل ، وهم خليط من حطام ١٧ فرقة ، إلّا أنّ كتيبتين أو ثلاثاً كانت على استعداد للقتال بتاريخ ١٣ حزيران ؛ وفي ١٦ ما كان يمكن الاعتماد على أكثر من ١٢ كتيبة ، و٨ بطّاريّات من عيار ٧٥ ، و٤ بطّاريّات من عيار ٢٥ . وما كان ذلك كلّه ليساوي فرقة من النموذج العاديّ ، في ما عدا فرق المشاة .

كان يوهن مجموعة « فاغالد » ضعفٌ آخر ، وهو أنّها لم تكن في المعقل البروتونيّ ، بل في « نورمانديا » ، في ضواحي « ألونسون » ؛ فبدلاً من أن تعمل على تنظيم « خطوط الرانس وفيلين » — التي لم يكن فيها متر واحد من الأسلاك الشائكة — كان عليها أن تنسحب أمام عدوّ يفوقها عشر مرّات سرعة ؛ ففي ١٧ حزيران تقدّم « رومل » بسرعة ٢٤٠ كلم ، فيما تقدّمت حامية المعقل البروتونيّ سيراً على أقدامها الدامية . كيف ، والحالة هذه ، لا تصل الدبّابات قبلها إلى « رين » و « برست » ؟ !

غدت « تور » عاصمة « لفرنسا » ، وتوزّعت الوزارات في مختلف قصور « التورين » . كانت الاتّصالات صعبة نظراً لبعد المسافات وازدحام الطرقات ؛ كان لا بدّ من مرور أسابيع قبل أن تعود الحكومة لمزاولة أعمالها بصورة شبه طبيعيّة ؛ هذا فيما عيّن نهر « اللوار » جبهة

نهائية تجري عليها محاولة إيقاف الزحف . وتمنّى بعضهم لو تُتّبع سابقة ١٩١٤ فيجري القفز إلى « بوردو » دفعة واحدة . إلّا أنّ « تور » كانت طريق « برست » . فوقفت الحكومة في حيرة أمام بوصلة المنفى .

أصبح قصر « كنجي » ، على ضفة نهر « الشير » ، مقرّاً لرئيس الجمهوريّة الفرنسيّة المهزوم . ففيما كان « تشرتشل » يطير نحو « لندن » استقلّ « رينو » و « بيتان » سيّارة أقلّتهما إلى «إليزيه» الشؤم هذا. وتبعهما «فيغان». فوصل إليه وكان مجلس الوزراء منعقداً في ردهة ليس فيها طاولة ! كانت الساعة السابعة . والشمس تسطع عالياً ، و «الشير » الكسول يجري في أعماق واد أخضر .

أتى العرض الذي أدلى به « فيغان » أفجع من الذي أدلى به بالأمس أمام « تشرتشل » ، وأقرب إلى الواقع المرير . فلم تلمع فيه بارقة أمل واحدة ؛ صحيح أنّ الجيوش لم تتفكّك بعد ، وهي ما تزال في قبضة قوّادها ، ولكن لن تمرّ أيّام إلّا وتغدو عصابة تهدّد النظام العامّ بالخطر . فمتابعة العمليّات العسكريّة أمر محال . وبات طلب



تمثّل الصورة من اليسار إلى اليمين : الجنرال « فيغان » ، و « بول بودوان » نائب أمين سرّ رئاسة مجلس الوزراء ، و « بول رينو » رئيس مجلس الوزراء ، والمارشال « بيتان » نائب رئيس مجلس الوزراء . وقد التقطت هم الصورة لدى خروجهم من وزارة الحربيّة ، في أواخر أيّار .

شروط الهدنة من العدوّ واجباً نحو الجيش والبلاد .

ما كان الوزراء مهيّئين لتلقّي الصدمة . فقد كانوا على جهل بالأمور العسكريّة ، مُبعَدين بعناية عن سير العمليّات . فريسة لدعايتهم بالذات ؛ فقد كانوا ما يزالون في غمرة الاحتفال بالجلاء عن « دنكرك » ، كما لو كان الجلاء نصراً يعطّل انتصار العدوّ المفاجىء في « الأردين » ! فمعركة « فرنسا » ما زالت دائرة ، وفرق المصفّحات الألمانيّة ينال منها العياء . ولم تسقط « باريس » بعد .

ووراء « باريس » يبقى « اللوار » حيث تتوقّع القيادة تلقّي الصدمة الحاسمة . خاطب « فيغان » أولئك المدنيّين الذين يعتبرهم المسؤولين الكبار — وكان قد برّح به التعب والأرق والقلق والهوان — بلهجة غاضبة وانفعال جعله يمزج بين كارثة الوطن وسوء طالعه الخاصّ . كقائد كبير يهوي من أعلى قمم المجد إلى أحطّ دركات المذلّة ؛ فانتفض المدنيّون في ذهول . ماذا ؟ القبول بالهزيمة ؟ طلب الهدنة ؟ لن يدرك الرأي العامّ ما قد يحدث . ولا « فرنسا » . ولا العالم . . . وأخذ « رينو » يناقش. تكلّم «فيغان» كعسكريّ . بيد أنّ الموضوع ليس عسكريّاً صرفاً . لا جدوى من طلب الهدنة : « فهتلر » ليس « كغليوم » الثاني . رجلاً ظريفاً لطيفاً . بل هو « جنكيز خان » . لا يرى في الحرب غير إبادة المهزومين ؛ فالأفضل مواصلة القتال والتحصّن داخل المعقل البروتوني . وبعده الانتقال إلى مدينة « الجزائر » . وعند اللزوم إلى « دكار » وإلى « فور — دي — فرانس » . ريثما ينتهي الأميركيّون من صنع الدبّابات والطائرات التي ستسحق العدوّ المشترك .

وتنتهي المناقشة في جوّ من البلبلة . ويغادر « فيغان » مقرّ الاجتماع . عارض فكرة الهدنة عدّة وزراء. عارضها بعضهم بحرارة . وبعضهم بفتور . وعارض وزير الأنباء «جان بروفوست » فكرة التخلّي عن أرض الوطن . ولم يوافق على طلب الهدنة بصورة جازمة غير المارشال « بيتان » . وهكذا لم يُتّخذ أيّ قرار . وطلب « رينو » من « تشرتشل » أن يعود إلى « فرنسا » ليشترك مع الحكومة الفرنسيّة في بحث الوضع بحثاً جديداً . إذ لا بدّ من الإصغاء إلى كلمته قبل الإقدام على ما قد يستحيل إصلاحه .

وصل « تشرتشل » إلى « تور » في موكب « الهاريكان » في تمام الواحدة من ١٣ حزيران . لم يكن أحد في انتظاره على المطار الذي كان قد قُصف مؤخّراً . وجد سيّارة فاستقلّها وراح يهيم في المدينة الغاصّة باللاجئين . يرافقه اللوردان «هاليفاكس» و « بيفربروك » ؛ ففتح الفندق الكبير لرئيس الدولة مطعمه الذي كان قد أُغلق نظراً لفقدان الموادّ الغذائيّة ، وأُعدّ له غذاء أعلن « تشرتشل » بوقاحة أنّه كريه . وفيما كان يتناول طعامه كانت الحكومة الفرنسيّة تبحث عنه ؛ قد عثر عليه « بول بودوان » فيما كان يغادر المائدة ، واقتاده إلى دار المحافظة حيث كان « بول رينو » في انتظاره . وبدأ النقاش فوراً : أعلن « رينو » أنّه يقوم بما كلّفه به مجلس الوزراء . وهو معرفة ما عسى أن يكون عليه موقف « بريطانيا العظمى » فيما لو نزلت « بفرنسا » الداهية الدهياء ، واضطرّت إلى الانسحاب من ميدان القتال المشترك ، تحت وطأة التفوّق الألمانيّ الساحقة . تريّث « تشرتشل » في جوابه ؛ وراح يعيد على الأسماع خطاب« بريبار » الباهر . ويكرز بشجاعة اللحظة الأخيرة ، ويعود إلى فكرة حرب عصابات تجعل من « فرنسا » مقبرة الجيش الألمانيّ . ولكنّه ، ويا لغرابة الأمر ! لم يأت على ذكر الأسطول الفرنسيّ ، وهو السلاح الأساسيّ ، إلّا لماماً . ولم يذكر شيئاً عن الامبراطوريّة الفرنسيّة ، موقع الانسحاب الشاسع الذي قد تتهيّأ للتعاون الفرنسيّ الانكليزيّ فرصة القيام عليه . وذاك الاغفال يعني أنّ ما يكرز به مُحال؛ فحرب العصابات تولد من تلقاء نفسها ضدّ عدوّ مستضعف ، ولا تبرز في وجه عدوّ ظافر .

لم تأت البلاغة بفائدة لأنّ الهزيمة كانت واقعة . ثمّ أعلن « تشرتشل » أنّ « انكلترا » لن تلوم « فرنسا » ولن تعاتبها ، وأنّها في حال انتصارها ستعيد بناء « فرنسا » في كرامتها وعظمتها » . غير أنّ حلّ « فرنسا » من المعاهدة التي التزمت فيها بالامتناع عن التوقيع على سلام وهدنة منفصلين ، بتاريخ ٢٨ آذار ، لم يكن موضوع بحث ؛ فالقبول بالأمر الواقع شيء ، والموافقة على شرعيّته شيء آخر .

إنتصف النهار ، وحجبت الغيوم السماء ، فإذا بالنقاش يغرق من جديد . لم يخفِ الانكليز — وهم كتلة متماسكة من تسعة أشخاص ، في وجه « رينو » و « بودوان » — خيبتهم إزاء ما لمسوه (والكلمة هنا « لسبيرس ») من « سياسة جديدة انهزاميّة » يعتنقها « بول رينو » . وحين طلبوا رفع الجلسة للتفاوض فيما بينهم ، خرجوا يطوفون بهواجسهم

الكثيبة حول حوض الماء الآسن . في حديقة المحافظة . كان « بيفربروك » أعنفهم ؛ فقال « لتشرتشل » : « علينا ألّا نتقيّد بشيء . نحن نضيع وقتنا سدى . فلنرحل ! » وحين استؤنفت الجلسة أعلن رئيس الحكومة أنّ المشاورة التي أجراها مع وزرائه لم تبدّل رأيه في شيء ؛ وأضاف أنّه سوف ينضمّ إلى « بول رينو » في توجيه نداء رسميّ إلى الرئيس « روزفلت » . وأنّ « انكلترا » ستواصل مساندة الجيوش الفرنسيّة خلال الـ ٢٤ ساعة المقبلة . وختم قائلاً : « ربّما كانت هذه الساعةأحلك الساعات التي سنعيشها. غير أنّي واثق كلّ الثقة من تدمير النظام الهتلريّ » . فأجاب « رينو » : « لو فقدتُ هذه الثقة . لما بقي لحياتي معنى » .

كان الوزراء ينتظرون في حديقة « كنجي » وهم على أحرّ من الجمر ؛ فلم يتمالكوا من إبداء دهشتهم لدى رؤيتهم « بول رينو » يخرج وحده ؛ فذكّره أحدهم . وهو « بوتيلييه » . بأنّ الحكومة كانت قد اتّفقت بالأمس على أن تستمع إلى «تشرتشل» بكامل أعضائها. فأجاب «بول رينو» بعصبيّة قائلاً إنّ «تشرتشل»كان مضطرّاً للإسراع بالعودة إلى « لندن » . وإنّ حضوره إلى « كنجي » لم يكن ضروريّاً ما دام اتّفاق الحكومتين تامّاً على النقاط كافّة . فاحتجّ « بوتيلييه » و « شوتان » قائلين : « وكيف تمّ الاتّفاق طالما أنّ مجلس الوزراء قد علّق قراره ؟ » .

وعاد « فيغان » يتكلّم . كانت اللوحة التي رسمها عن الوضع العسكريّ أكثر سواداً . ولم تكن المطالبة بوقف مجزرة الجيش الفرنسيّ إلّا أكثر إلحاحاً . وحين أثار قضيّة مصير الأسطول اقترح إرساله الى مرافىء «أفريقيا» ليكون بمأمن من العدوّ. وذلك قبل أن يُتقدّم بأيّ طلب للهدنة . أمّا مشروع انسحاب الحكومة إلى ممتلكات ما وراء البحار . فقد أعلن أنّه « مقيت وغير معقول » ؛ وأردف قائلاً : « أمّا أنا . فلن أغادر الأرض الفرنسيّة حتّى ولو حُملت على ذلك بالقيود والأصفاد » . ثمّ استأذن في العودة إلى مقرّ قيادته . وهو في أشدّ الحالات عصبيّة. وفيما هو خارج صرّح برأيه في السياسيّين بلهجة عسكريّة جافّة . قال : « يمدّدون تضحية الجنود من غير جدوى . فيما هم راتعون في مقاعدهم » .

حلّ الأصيل في ثوب من الرذاذ الناعم . وامتلأت الحديقة ظلالاً . واختفى وادي « الشير » . فاستأذن المارشال « بيتان » بقراءة تصريح . إلّا أنّ الكلمات أظلمت على ورقته فاضطرّ إلى الاقتراب من النافذة لتبيّن حروفها . وساد صمت عميق أضفى على صوت الشيخ المتحطّم نبرةً مأتميّة . قرأ : « يستحيل على الحكومة الفرنسيّة أن تغادر الأرض الفرنسيّة . وإلّا عُدّت مهاجرة أو فارّة . . . يجب أن ننتظر انبعاث بلادنا ببقائنا فيها ، ولن ننتظر من مدافع الحلفاء أن تعيد فتح أراضينا في ظروف وخلال مهلة يستحيل التكهّن بها . . . سأبقى مع الشعب الفرنسيّ في الحكم أو خارجه أشاطره آلامه وبؤسه ؛ فالهدنة في نظري هي الشرط اللازم للإبقاء على « فرنسا» الخالدة » . . .

وهكذا وقع الخيار الكبير الذي لا مفرّ منه ، وانتصبت وجهاً لوجه وطنيّتان مختلفتان ، تعتقد الواحدة بإمكان نقل الجذوة الوطنيّة خارج حدود الوطن ، وتؤمن الأخرى بأن لا قوّة ولا حقيقة إلّا في الأرض الأمّ ؛ الأولى مستعدّة لأن تضحّي بالحاضر كلّه وتسلّم الأمّة لذمّة العدوّ ، حفاظاً على مبدإ الصمود كاملاً ، وبغية المطالبة بتعويض شامل غير منقوص في مستقبل يحيط به الغموض ، وترى الأخرى من واجبها تخفيف الويلات عن « فرنسا » والحؤول دون وقوع الجيش كلّه في الأسر ودون وقوع « فرنسا » في قبضة حاكم عسكريّ ألمانيّ .

ما من طبقة . وما من حزب . وما من أسرة انتمت بكاملها إلى واحد من هذين المفهومين المتناقضين ؛ ساند الشيوعيّون الهدنة بكلّ قواهم فعل « فيغان » و « بيتان » ؛ وكان « ديغول » ينتمي إلى الأوساط الدينيّة المحافظة ذاتها التي أيّدت مبدأ وقف القتال ؛ وحارب « لويس ماران » . ذاك الوطنيّ اليمينيّ القديم . فكرة الهدنة بكلّ اندفاع . ولكنّه لم يكن ليفوق في الوطنيّة أو اليمينيّة أو الاندفاع المحاربَ القديم البسكيّ « جان ايبرنوغاري » .الذي سلّم بها كجنديّ نظاميّ ؛ قبل بها الراديكاليّ « شوتان» فيما ناهضها الراديكاليّ « هريو » بشدّة . ومن الذين حبّذوا الهدنة فريق أُخذوا بمذهب الحكم الفرديّ، واستهوتهم الثورة القوميّة الاشتراكيّة . ولكنّ الآخرين . وفي طليعتهم « فيغان » . كانوا من ألدّ أعداء « ألمانيا » . فكانوا لا يرون في الهدنة غير هدأة يعدّون فيها العدّة لحمل السلاح ثانية . وتبلغ حجج هؤلاء وأولئك درجة من القوّة يبدو معها هذا الصراع الضميريّ العنيف جديراً بكلّ احترام . ولكنّ الأحداث أتت تسفّه الفريقين على السواء . صحيح أنّ الذين ذهبوا قد عادوا تكلّل رؤوسهم هالات الظفر ! ولكنْ ما كان عساهم يجدون لولا العمل الذي نهض به من فضّلوا البقاء ؟ أمّا الاتّهامات الحادّة التي ما زالوا يتراشقون بها منذ ربع قرن فستفقد معناها في نظر الأجيال اللاحقة . إذ لن ترى هذه الأجيال فيهم لا خونة ولا أبطالاً . لا مستسلمين ولا مغامرين . بل فرنسيّين قد مزّقهم خلاف مريع .

في اليوم التالي لم يُتّخذ أيّ قرار سوى قرار الفرار إلى « بوردو » . كان « بول رينو » في اجتماع « كنجي » الأوّل قد أجّل البحث في طلب الهدنة بسبب المقابلة المرتقبة بينه وبين « تشرتشل » في اليوم التالي . وتسلّح في الاجتماع الثاني بالنداء الذي اتّفق مع « تشرتشل » على توجيهه إلى الرئيس « روزفلت » لتبرير تأجيل آخر ؛ فمنذ ١٠ حزيران . وقبل مغادرة « باريس » بدقائق . كان « رينو » قد التفت نحو رئيس « الولايات المتحدة » طالباً منه . باسم تكاتف الديموقراطيّات ، أن يهبّ لنجدة « فرنسا » و « انكلترا » بكلّ ما ملكت يداه « ما عدا إرسال حملة عسكريّة » . ثمّ ذهب إلى أبعد من ذلك . فطلب من « روزفلت » أن يزجّ « بأميركا » في الحرب فوراً . ولذلك قال لوزرائه : « علينا أن ننتظر جواب الرئيس قبل أن نقرّر ما إذا كنّا سندخل في مفاوضات مع العدوّ، أو ننقل النزاع الى ما وراء البحار . . . »

وفي صباح ١٤ حزيران الباكر غادرت السيّارات الوزاريّة وادي « اللوار » ميمّمة شطر « بوردو » ؛ وفي الساعة ذاتها تقريباً دخل الظافرون مدينة « باريس » . دخلوا من باب « مايو » ، ثم داروا حول قصر النصر واتّجهوا ناحية ساحة « الكونكورد » وحطّوا رحالهم في الثكنات المهجورة . ما كانوا من جنود المصفّحات ، بل جنود إحدى فرق المشاة التابعة للجيش الرابع ، فأثارت معدّاتهم التي تجرّها الخيل دهشة الباريسيّين الذين ما كانوا يسمعون إلّا بالمصفّحات خلال الأسابيع الستّة المنصرمة . لم تكن العاصمة خالية تماماً رغم الجلاء ؛ فهناك مقاهٍ مفتوحةٌ ، وهناك في « الشانزيليزيه » داران من دور السينما أو ثلاثٌ . . . وسرعان ما أخذت الإذاعة المصادَرَة تذيع نشيد « ألمانيا فوق الجميع » ونشيد « هورست فيشل » . لقد بدأت«باريس» تعاني أسرها . وأوقفت يدٌ مجهولة ساعة محطّة « سان لازار » على الساعة ٧،١٠ ، وأُبقي علم فرنسيّ خفّاقاً في قمّة برج « إيفل » ، فما كان من الجنود الألمان الذين تسلّقوا البرج أوّلاً إلّا أن انتزعوه وحملوه تذكاراً .

كانت القيادة الفرنسيّة تعتمد على « انكلترا » في الدفاع عن المعقل

البروتونيّ ، فما زال لها في « فرنسا » بعض الجيوش . وخاصّة مجموعة « بومان » . وهي حطام تبقّى من موقعة « السوم » . والفرقة ٥٢ التي ساقتها مسيرتها من خطّ « ماجينو » . حيث كانت في ١٠ أيّار . إلى « كوتنتان » . لقد أرسلت فرقتها المصفّحة الأولى والوحيدة . فاستنفدت قواها . وأرسلت كذلك فرقة كنديّة هي البقيّة الباقية من القوى البريطانيّة المتأهّبة للقتال . ووصل « آلان بروك » قائد الحملة البريطانيّة الجديدة إلى « شربورغ » مساء ١١ . على متن سفينة شحن هولنديّة قديمة صغيرة . وكان موعد إقفال المرفإ قد مرّ . فلم يؤذَن له بالنزول إلى اليابسة حتّى بواسطة قارب المرشد . وبعد يومين تجشّم مشقّة السفر إلى « بريبار » ليتّصل « بفيغان » و « جورج » .

كان اجتياز « فرنسا » عبر أرتال اللاجئين الهابطين من الشمال تجربة مضنية ذليلة ؛ غدت مدينة « أورليان » كتلة جامدة من السيّارات . واستحالت الفسحات حول محطّات البنزين الفارغة مقابر للسيّارات المهجورة . قطعان من النساء والأطفال . وقد أذهلهم العياء ، حطّوا رحالهم في الأحراج ؛ وفي القرى انتظمت أرتال طويلة وقفت أمام الأفران والعيون . وتدفّق السيل من غير أن ينضب ، جارفاً في تيّاره الجنود والمدافع كما تجرف الأنهار الأتربة . فعدل « بروك » عن اجتياز طريق « فيرزون » . وقام بدورة كبيرة تقوده إلى « سولون » ، ولكنّه ألفى النهر البشريّ أمامه . ولم يتسنّ له اجتيازه إلّا بعد ما أقام من الضبّاط القلائل الذين كانوا برفقته حاجزاً . ووصل أخيراً إلى « بريبار » منهوكاً بعد سير استمرّ ١٢ ساعة .

إطّلع الجنرال الانكليزيّ في اليوم التالي على مهمّته . فإذا هي الإسهام في الدفاع عن المعقل البروتونيّ الذي قرّر إنشاءه مجلس الحلفاء الأعلى ؛ وأخرج « بروك » بركاره من جيبه من غير أن ينبس ببنت شفة ، وقاس على الخارطة طول الجبهة المقترحة ، فإذا هو ١٥٠ كلم . فقال : « أنتم بحاجة لخمس عشرة فرقة . فأين هي؟» فهزّ « فيغان » و «جورج» كتفيهما مستسلمين . ثمّ قال الأوّل : « أعرف ذلك . إن الوضع لفظيع ! » وأردف الثاني : « إنّه لرومنطيقيّ » .

كانت طريق العودة تعادل طريق الذهاب صعوبةً . وما وصل « بروك » إلى « مانس » حيث أقام مركز القيادة حتّى اتّصل هاتفياً بالسير «جون ديل » . وصرّح له بأنّه يرى « مشروع المعقل البروتونيّ غريباً وغير قابل للتنفيذ » . وأنّه لا يرى عملاً يقوم به خيراً من إعادة قوّاته إلى « انكلترا » . فدُهش رئيس الأركان العامّ : لم يكن له علم بمشروع بروتونيّ ! وبعد فترة اتّصل « ببروك » هاتفياً وأخبره أنّه شاور « تشرتشل » . فأكّد له « تشرتشل » أنّه لم يعقد أيّ اتّفاق في « بريبار » حول دفاع مشترك عن « بروتانيا » ؛ فبات على « بروك » بالتالي أن يعيد إلى « إنكلترا » كلّ من لا يحارب إلى جانب الجيش الفرنسيّ التاسع من جنوده ، أي الفرقة الكنديّة ، وثلثي الفرقة ٥٢ ، والمصالح والخدمات كلّها ، وصدرت في الحال الأوامر المناسبة ليُصار إلى تنفيذها .

رنّ جرس الهاتف من « لندن » عشاءً . فإذا « بديل » يصل « بروك » المشدوه برئيس الوزراء . وكان يكلّمه للمرّة الأولى ؛ كان الخطّ سيّئاً ، ومع هذا كان صوت « تشرتشل » يجلجل مقنعاً . لقد طلب من « بروك » أن يوقف عمليّات الجلاء ، فلا بدّ من التقيّد بالتزامات التحالف حتّى النهاية ، ومساندة المقاومة الفرنسيّة بكلّ الإمكانات ؛ فأجاب « بروك » بخشونة بأنّ إحياء الجثث محال .وامتدّ الحديث على هذه اللهجة الحادّة طوال نصف ساعة ، رغم صفير الخطّ الهاتفيّ وقرقعته . وما كان من الليوتنان جنرال « آلان بروك » في النهاية إلّا أن وقف وقفة التأهّب قائلاً : « نعم ، سيّدي . . . »

ومع هذا كان هو الذي تغلّب . إذ تمكّن من إقناع « تشرتشل » ، وأُعيد تبليغ الأمر بالجلاء منذ صباح اليوم التالي . وتبلّغ مقرّ القيادة العامّ في « بريبار ». وهو على همّة الانتقال إلى مقرّ آخر ، مذكّرة من السير «جون ديل » تفيده علماً بأنّ الجنرال « بروك » لم يبقَ خاضعاً له . وهكذا راح الـ ١٥٠,٠٠٠ انكليزيّ ، فضلاً عن الـ ٢٥,٠٠٠ بولونيّ والـ ١٨,٠٠٠ فرنسيّ ، يحتشدون للإبحار في موانىء « شربورغ » و « برست » و « سان نازير » و « نانت » و « الروشيل » و«فردون» و « بايون » . ولم تغب المأساة تماماً عن مسرح الرحيل هذا : فلقد أغرق الطيران الألمانيّ الباخرةَ «لانكاستريا » ، وقد ازدحم فيها ٥,٨٠٠ رجل ، إذ كانت خارجة من مصبّ « اللوار » . ولسوف يلفظ المدّ إلى الشاطىء جثثاً إنكليزيّة طوال أسابيع .

المعقل البروتونيّ لن يكون . باءت المحاولات التي بذلها «ألتماير » لتنفيذ الأمر الرومنطيقيّ بالإخفاق الذريع . ولقد وُفّق إلى إقامة مركز قيادته في « رين » يوم ١٦ حزيران ، ولم تمرّ على ذلك ساعات حتى وقع في الأسر في المدينة نفسها . لم يبقَ من الجيش العاشر غير الفيلق الثالث بقيادة « لا لورنسي » العنيد ، وقد نجا من الفخّ البروتونيّ عن طريق « نانت » وانكفأ مقاتلاً نحو « لاكروز » .

أمّا الرجاء المعقود على إنشاء خطّ للتوقّف على مجرى « اللوار » فلم يتجسّد في مكان ، لأنّ المدن القريبة من ضفّتيه ، ومعابر النهر كلّها ، قد تعرّضت لقصف عنيف، فيما جموع هائلة من مدنيّين وعسكريّين تزدحم وتقتتل لعبوره . حتّى انّ أعضاء القيادة العامّة أنفسهم كادوا يقعون في الأسر أمام جسر « لا شاريتي — سور — لوار » . ولم تنجُ وثائق القائد العامّ المحمّلة في عربة من عربات الشحن ، بل وقعت في أيدي العدوّ ؛ ولسوف يجد « هتلر » فيها ٣,٠٠٠ وثيقة سرّيّة للغاية تفضح خصوصاً التدابير الفرنسيّة البريطانيّة المتّخذة لانتهاك حرمة الحياد النروجيّ ، ولعرقلة « الدانوب » ، ولنسف آبار البترول الرومانيّة ومهاجمة « باكو » .

لجأ إلى « الماسيف سنترال » كلّ من أفلت من قبضة العدوّ ، وأخذت أرتال طويلة من الشاحنات المزمجرة تتسلّق منحدرات «الليموزان» و « الأوفرن » القاسية . وصلت القيادة العامّة إلى « فيشي » فألقت بمنتجعي فندق « البارك » على الأرصفة ، وأخذت ترتّب أمورها هناك كما لو كانت تقيم في المدينة أبداً . ولكنّها سارعت إلى رحيل في اليوم التالي لأنّ الألمان قد بلغوا « لاباليس »، وتوقّفت في «لابوربول»٢٤ ساعة ، ثمّ استأنفت فرارها حتّى « مونتوبان » ، وهي خاتمة المطاف .

أمّا في « الألب » فقد أخذت عجلة الحرب تتحرّك ببطء . مرّ على إعلان « إيطاليا » الحرب يومان ، ولم يشر الجيش الصغير الذي يقوده الجنرال « أولري » (وهو يضمّ ٣ قطاعات محصّنة وفرقة واحدة من فرق المستعمرات ، و٣ فرق مشاة من فئة ب) إلّا إلى « اتّصالات حبيّة » بين دوريّات جنود الألب الإيطاليّين والفرنسيّين . أمّا « موسوليني » ، وقد كان حريصاً على أنّ يؤمّن لنفسه بعض الضمانات ، فقد أمر رئيس أركانه الجنرال « بادوليو » بشنّ الهجوم . فاعترض «بادوليو» قائلاً : «ليس للجيش الإيطاليّ حتّى القمصان». فأجابه « موسوليني » مؤنّباً : « ألا تدرك إذاً أنّي بحاجة لبضعة آلاف من الضحايا لأتمكّن من حضور مؤتمر السلام ؟ » وهكذا حشدت الجيوش الإيطاليّة ١ و٥ و٧ على الحدود بانتظار الهجوم العامّ المقرّر ليوم ١٨ حزيران .

حاولت جيوش الشرق في « اللورين » و « الألزاس » و« فرانش

كونّي » أن تنفّذ أمر الانسحاب الصادر في ١٢ . كان عليها أن تقطع ٢٥٠ كلم تقريباً قبل أن تلتئم في منطقة « ديجون » . والواقع أنّ « غوديريان » كان قد فتح لنفسه . منذ يوم ١١ . ثغرة بين ميمنة الجيش الفرنسيّ الرابع وميسرة الجيش الثاني . ثمّ اندفع ليقطع على مجموعة الجيوش الثانية طريق التّراجع . فإذا بالكابوس الذي كان يُقضّ مضاجع الأركان الفرنسيّة . ألا وهو تطويق خطّ « ماجينو » . يتحقّق هو أيضاً . ولم تكن العمليّة إلّا لتزيد الطين بلّة . ولتزيد عقاب « فرنسا » إيلاماً .

في ١٦ حزيران وصل « غوديريان » . إلى ضفاف « السون » . فدفع بالحامية الضعيفة الّتي نُصبت بسرعة في وجهه وقتل قائدها الجنرال «دي كوسون». وبتلك المرونة التكتيكيّة العجيبةالّتي امتاز بها قوّاد الجيوش السريعة الألمان . جعل فيلقه الـ ٤١ يستدير على نفسه حول « غري » ليقذف به من ثمّ على « الموزيل » بين « شارم » و « ريميرمون » . فيما انقضّ هو على « بيزانسون » و « بونتارلييه » على رأس فرقة الدبّابات الثانية .

عمّ الاضطراب الفرنسيّين وسادت الفوضى. انطلق الجنرال « بريتيلا » حتّى « جيكس » . بحجّة تركيز مجموعة جيوشه في أماكنها؛ وقد ادّعى فيما بعد أنّه قد حاول العودة لمشاطرة جنوده مصيرهم . فلم يوفّق . أمّا قوّاد جيشه الثلاثة . « كوندي » و « بوريّ » و « لور » . الذين أمسوا وحدهم في الميدان . فلم تكن لهم عن الوضع إلّا فكرة غامضة . لم تكن الحركات المنسّقة الّتي أمروا بها قابلة للتنفيذ ؛ وانقضّ عليهم الطيران الألمانيّ بعد ما كان قد تجاهلهم . فتداخلت أرتالهم وجمّد بعضها بعضاً . ثمّ اجتاز الجيش الألمانيّ السابع نهر « الرين » وبدأ يجتاح « الألزاس » . فيما كانت عدّة فرق ، مع الفيلق العشرين بكامله. ما تزال في منطقة «مس». وتشير المحاضر إلى أنّ العدوّ قد برز فجأة على خطّ تراجع مجموعة الجيوش ، وما من أحد كان يصدّق هذه الأخبار . فوجّه « بوريّ » و « كوندي » إلى مقرّ القيادة العامّ برقيّة مفعمة بالقلق : « الوضع حرج للغاية ، ٢٣ وحدة كبيرة قد صُدعت جزئيّاً . ٧ عناصر عضويّة من الفيالق مع مقرّين عامّين لقيادة الجيش مهدّدة بالتطويق . التّراجع قصد التمركز مستحيل . اللاجئون جماعات جماعات . القصف في كلّ مكان . نسألكم لفت نظر القائد العامّ والحكومة في الحال » . فأجاب « جورج » بأنّ على مجموعة الجيوش الثانية أن تمضي في تنفيذ المناورة المقررة . ثمّ تحدّث عن « إنقاذ شرف العَلَم » . فكان ذلك إشارة لا تخطىء إلى أنّ الأمر قد قُضي .

بعد ساعات من تبادل البرقيّتين اليائستين . دخل « غوديريان » إلى « بونتارلييه » . وقد أثار تقريره برقيّة جوابيّة بتوقيع « هتلر » تقول : « ما من شكّ في أنّ في برقيّتك خطأ . ولا بدّ أنّ المقصود هو « بونتايبي — سور — سون » . فأجاب « غوديريان » : « ليس هناك خطأ . فأنا بنفسي في « بونتارلييه » . على الحدود السويسريّة » . وهكذا طُوّقت مجموعة جيوش الشرق .

"أقول لكم والأسى يفطر قلبي : لابدّ من وقف القتال"

في « بوردو » حلّ مكانَ التشتّت الحكوميّ الذي عُرف في «تور» خليطٌ عديم الترتيب . فقد أصبح شارع « فيتال كارل » شارع السلطات العامّة ؛ وأقام « بول رينو » مقرّ رئاسة الوزراء في فندق المنطقة ١٨ . ونزل رئيس الجمهوريّة في دار المحافظ المجاورة . بينما نزل « جورج ماندل » وزير الداخليّة في دار المحافظة في شارع « إسبري دي لوا » . وأمّا سفير « انكلترا » الذي حاولوا حشره في قصر «ميدوك» فقد آثر أن يقيم في زحمة مع موظّفيه في القنصليّة في شارع «مونتسكيو». وكان منزل « بول بودوان » نقطة ستراتيجيّة أخرى في شارع « سان جينيس » ، حيث كان أصدقاء « فيغان » يجتمعون . كذلك أمست دار البلديّة في ساحة « بي برلان » نقطة ستراتيجيّة ، إذ وضع محافظ « بوردو » ، « أدريان ماركي » ، الذي انقلب من الاشتراكيّة إلى الفاشستيّة ، دوائرَها تحت تصرّف « بيير لافال » . إنّ هذا المثلّث ، الذي ستمثَّل على مسرحه آخر مآسي الجمهوريّة الثالثة، لا يبلغ قياس ضلعه ١,٠٠٠ متر . وما تزال الأهواء الّتي تفشّت فيه طليقة العنان تتأجّج، إلى اليوم ، في عروق الأمّة .

والتفّت حول هؤلاء الممثّلين جماهيرُ جمّة ؛ إنّها تضمّ أحقر اللاجئين وأكبر الأرستوقراطيّين ، فضلاً عن أصحاب المواهب والمال ؛ فقد وحّدت المصيبة بين هذه الطبقات الاجتماعيّة المتفاوتة إذ وضعتها أمام معضلات مشتركة ، نذكر منها المأوى والغذاء . وهما من أشد هذه المعضلات تعقيداً وأكثرها مدعاةً للقلق ؛ فقد راح « غولبنكيان » ، أحد ملوك البترول ، يستجدي بعض ليترات من الوقود كي يتسنّى له متابعة طريقه إلى « اسبانيا » ! أمّا القلق الرهيب ، والخوف من مصير لا يعرف الرحمة ، فكانا متشبّثين بأناس كانوا يرتعون على الدوام في نعيم الأمن والقوّة ؛ كان أكثرهم حذقاً ، وأكثرهم حقارة ، يجهلون ما إذا كانت لدى المنتصر درجة من نكران الذات كافية لحمايتهم من انتقامه . وأتت الحرارة والتعب والانتظار والقلق والغمّ تسهم في خلق ضباب الوهم الذي كانت تتخبّط فيه جماهير الهزيمة هذه . لقد بدا هذا الضباب جليّاً في الأنباء الّتي تواترت عن أيّام « بوردو » .

وفي صبيحة ١٥ سدّد الأميرال « دارلان » إلى « بول رينو » أولى الضربات المتتالية الّتي ستقضي عليه ؛ فحين سمع « دارلان » ذكر الهدنة ثارت ثورته وقال : « إذا تجرّأوا على ذلك ، فإنّي أرحل بالأسطول . . . خذوا بذلك علماً . » إنّها لرؤيا عظيمة ! فلو نفّذ « فرنسوا دارلان » وعيده ، لو انّه دخل المرافىء الانكليزيّة على رأس عماراته ، لأمسى أشهر الفرنسيّين وأبعدهم صيتاً . وقد لا يعرف أحد يوماً الأسبابَ الّتي جعلته ينكص عن عزمه. وعلى أثر دعوة من « رينو » حضر من « رويان » وهو عابس الوجه ، ليُعلم رئيس الحكومة بأن نقل ٨٧٠,٠٠٠ رجل إلى « أفريقيا الشماليّة » أمر محال . كان خيار « دارلان » قد تمّ في الواقع . فانهار بذلك كلّ شيء ؛ كان يمكن أن يوقف رحيلُ الأسطول على هذا الوجه تحقيقَ الهدنة ، وأنّ يجر الامبراطوريّة إلى السرّاء أو الضرّاء ، إلى حرب ذات مجرى مختلف .

ثم جاء دور « بيتان » . فبعد انقضاء دقائق على رحيل الأميرال دخل المارشال إلى غرفة رئيس الوزراء وطلب أن يُدعى مجلس الوزراء إلى الانعقاد في الساعة ١٦ ، وصرّح بأنّه سيقدّم استقالتَه إذا أُرجىء طلب الهدنة أكثر من ذلك .

ثمّ جاء دور « فيغان » . انطلق ببطء من مقرّ أركانه العامّة الموقّتة في « فيشي » ؛ وكانت الرسالة الّتي تدعوه إلى منزل « بودوان » في « بوردو » في الساعة الـ ١٠,٣٠ ، تحمل توقيع المارشال « بيتان » — ولم تكن « لبيتان » أيّة سلطة مباشرة على القائد الأعلى . وأعلم « فيغان » « بول رينو » بذلك بطريقة لبقة . فأجابه « رينو » بعبارة التهذيب المألوفة : « أهلاً وسهلاً بك في أيّ وقت . »

وقد خطر « لفيغان » أن يقوم بسفرته في قطاره الخاصّ علّه يصيب

فيه شيئاً من الرقاد ، ولكنّ حقوق الأفضليّة التي ينعم بها كقائد أعلى لم تُجده نفعاً على شبكة خطوط حديديّة قطّعت الغارات أوصالها ؛ ففي الساعة السابعة صباحاً . بعد انقضاء ١٢ ساعة على بدء رحلته . كان ما يزال في « شاتورو » . على بعد ١٥٠ كلم من نقطة انطلاقه . بعد ما توجّه إلى الشمال بدلاً من التوجّه إلى الجنوب ! وقد بُذلت جهود جبّارة لإعادته إلى وجهته الصحيحة. ولكنّه لم يصل إلى محطّة « بوردو – باستيد » إلّا بعد الظهر . وكان الجنرال « لافون » قائد المنطقة الـ ١٨ في انتظار قائده وصديقه ووجهه مبلّل بالدمع . وهو مكلّف بالتوجّه به إلى رئيس الوزارة .

كان « فيغان » متضايقاً . ولكنّه أخذ على نفسه عهداً بأن يبقى هادئاً ؛ ولكنّه لم يفِ بالعهد ! أبلغه « رينو » القرار الذي انتهى إليه وهو . أن تحذو « فرنسا » حذو « هولندا » : تغادرالحكومة « فرنسا » . ويستسلم « فيغان » مع الجيش . وكاد الغيظ أن يخنق الجنرال . فصاح : « إنّ ما تبحثون عنه هو التملّص من المسؤوليّات . لقد أخذت الحكومة على عاتقها مسؤوليّة الحرب . فعليها تقع مسؤوليّة الهدنة » . وعبثاً حاول « رينو » تطمين « فيغان » بإعطائه الضمانات اللازمة . فقد أجاب القائد الأعلى بأنّه لن يسمح بأن تلطّخ أعلام الجيش الفرنسيّ بالعار . فهو لذلك يرفض الانصياع للأوامر .

وهنا يتحوّل إدراك الواجب إلى مجريين متناقضين : فرفْض «فيغان» يتجاوب وقانون الشرف كما تفهمه أكثريّة الضبّاط الساحقة . وبعد مرور سبع سنوات على تلك الأحداث قام الجنرال « جورج » . وهو الثاني رتبةً في الجيش الفرنسيّ . بتصويب موقف رئيسه تصويباً كاملاً . أمام لجنة تحقيق مفعمة بروح المقاومة الصادقة . قال : « إنّ قرار استمرار القتال أو توقّفه يعود إلى الحكومة . . . والاستسلام في الأرض العراء يعود على قائد الجيش بالعار . فضلاً عن أنّ قوانيننا تشجب مثل هذا التصرف بصورة صارمة . والمادّة ٢٣٤ من قانون القضاء العسكريّ تعاقب فاعله بالموت مع تجريده من الرتبة العسكريّة... »

في الساعة ١٦,١٥ افتُتحت جلسة المجلس التي طلب « بيتان » عقدها . ولكنّ المارشال لم يكن حازماً كما كان لساعات خلت . بسبب التعب . أو بسبب التردّد . واستمرّ « رينو » في مخطّطه يُعمل دهاءه . فأشار إلى أنّ الهدنة تتطلّب مفاوضات تستغرق أيّاماً عديدة . أمّا وقف إطلاق النار فيمكن حصوله في الحال . وقبل « بيتان » بمواجهة « فيغان » علّه يصدّق على هذه النظريّة . فوجده ينتظر في الحديقة الشتويّة بعد ما كان قد انتهى من تبليغ آخر التطوّرات العسكريّة . وعاد المارشال بعد ربع ساعة بخفّي حنين : لم يقع « فيغان » في الفخّ !

لقد أخفقت هذه المحاولة الثانية لحمل الجيش على الاستسلام وحده .

وأثناء الجلسة قام « شوتان » يلعب دوره بحذق ؛ لم يعارض نظريّة « رينو » القائلة بأنّ شروط « هتلر » لن تكون مقبولة . ولكنّه اقترح أن تُطلب منه هذه الشروط للتأكّد من نيّتها ؛ فإن رفض أن يمنح الهدنة . وإذا بدا أنّه سيملي شروطاً منافية للشرف – كأنْ يسلّم إليه الأسطول مثلاً – فإذ ذاك تتّضح معالم الطريق وتصبح متابعة المعركة وراء البحار أمراً ضروريّاً . وأحسّ « رينو » بمغزى هذا الاقتراح فهاجمه . ولكنّ عمليّة جسّ نبض سريعة أظهرت له أنّ ١٣ من وزرائه كانوا يوافقون عليه مقابل ستّة كانوا يعارضونه ؛ فنهض وصرّح بأنّه مستقيل . ولكنّ « ألبير لوبران » وُفّق إلى إقناعه بالبقاء .

كان فيغان ما يزال في الحديقة الشتويّة . فتوجّه « رينو » إليه بخطاه القصيرة الوطيدة وقال : « أيّها الجنرال . إنّ مجلس الوزراء يوافق على استسلام جيش البرّ بمفرده . وعليك أنت أن تطلب هذا الاستسلام » . واعترض « فيغان » بعنف . وطلب أن يُعزل من منصبه ، مُقسماً أنّه لن يُرْغم على القيام بهذا العمل المخزي الذي من أجله استُدعي من مقرّه البعيد . وهكذا أخفقت المحاولة الثالثة المفاجئة للتفريق بين مصير الجيش ومصير البلاد .

أقبل الليل . وجلس « بول رينو » إلى مكتب محافظ « الجيروند » المصنوع من خشب الأبنوس والمزخرف بأوراق الزهر المذهّبة . وهناك انضمّ إليه زائران هما السفير البريطانيّ « كامبل » والجنرال « سبيرس » ؛ وحُملت إلى رئيس الوزارة برقيّة تجهّم لها وجهه . وقال لزائريه : « لقد ذهب نداؤنا أدراج الرياح . فالأميركيّون لن يعلنوا الحرب . » فقد تضمّنت البرقيّة تشجيعاً ووعداً بمساعدات ماديّة . ولكنّ «روزفلت» اختتمها بهذه الكلمات : « أظنّ أنّكم تدركون أنّ تصريحاتنا هذه لا تلزمنا بأيّ تعهّد على الصعيد العسكريّ . فالكونغرس وحده قادر على اتّخاذ مثل هذا التعهّد » .

وفي اليوم التالي . الأحد ١٦ حزيران . تلا المارشال « بيتان » في مجلس الوزراء رسالة استقالته . ولكنّ تضرّعات « ألبير لوبران » اليائسة حملته على تأجيل هذه الخطوة التي كانت تُعرّض الحكومة للانحلال . وأعلن « رينو » بعدئذ إخفاق مسعاه لدى « روزفلت » ؛ وقد تضاعف ذعر الوزراء حين أعلن « رينو » رفض الحكومة البريطانيّة

فريق من المشاة الألمان يهاجمون عشّاً من أعشاش المقاومة الفرنسيّة بعد تحطيم جبهة « الفوج » .



التصديق على هدنة يعقدها الفرنسيّون منفردين . وأضاف « رينو » أنّه طلب من الرئيس البريطانيّ أن يقابله في اليوم نفسه في « نانت » للتداول في المسألة .

ودارت الأحداث في دوّامة ، وعاد « كامبل » يعلن أنّه قد تمّ اتّخاذ موقف جديد تبلّغه من « لندن » هاتفيّاً : فإنّ « انكلترا » توافق على أن تستعلم « فرنسا » عن شروط العدوّ للاستسلام ، شرط أن يذهب الأسطول الفرنسيّ إلى المرافىء الانكليزيّة وأن يبقى فيها ريثما تتمّ المفاوضات. وعاد السفير بعد لحظات حاملاً إلى « بول رينو » نصّ الاقتراح البريطانيّ . وقُبيل الساعة ١٦ وصل السفير للمرّة الثالثة وأعلن أنّه قد تلقّى أمراً جديداً يقضي بأن يَسحب من رئيس الحكومة الفرنسيّة نصّ الاقتراح الذي كان قد سلّمه إيّاه ! ولمّا سئل عن السبب أجاب بأنّه لا يعرفه .

وقبل أن يستأذن السفير بالخروج دقّ جرس الهاتف ينقل إلى « بول رينو » مخابرة من « لندن » . كان « ديغول » هو الذي يخاطبه ؛ وقد نقل إليه نبأ رائعاً مفاده أنّ « انكلترا » السليمة تعرض الاتّحاد على « فرنسا » الخائرة القوى . وقد نصّ المشروع على ما يلي : « لن تكون « فرنسا » و « بريطانيا العظمى » بعد اليوم أمّتين مختلفتين ، بل تؤلّفان اتّحاداً فرنسيّاً بريطانيّاً ؛ كلّ مواطن فرنسيّ ينال في الحال الجنسيّة البريطانيّة ، وكذلك يصبح كلّ فرد من الرعايا البريطانيّين مواطناً فرنسيّاً ؛ وتقوم وزارة حربيّة واحدة تخضع لها القوّات البرّيّة والبحريّة والجويّة كلّها ؛ ويجنّد الاتّحاد طاقاته لمقاتلة العدوّ حيثما تنشب المعركة ؛ بذا يُكتب لنا النصر ! . . . »

إنّه لمشروع جبّار خليق « بتشرتشل » ! غير أنّه ، في الواقع ، لم يكن صادراً عن « تشرتشل » ؛ لقد صدر عن رجل كان يبدو في الظاهر بارداً كالقطب الشماليّ هو اللورد « هاليفاكس » ، وعن ديبلوماسيّ عتيق كجرّة يونانيّة قديمة هو السير « روبرت فانسيتارد » . والمشروع مستوحى من فكرة « لجان مونيه » . وقد أقرّ المجلس هذا المشروع بحماسة بالغة ؛ قال « تشرتشل » : « لقد دهشت حقّاً حين رأيت هؤلاء السياسيّين الرصينين ذوي الخبرة ، يتورّطون في هذا المشروع الضخم الذي لم تكن شروطه ونتائجه قد دُرست بتبصّر . . . » إنّ هذه الظاهرة لدليل على اضطراب الضمائر الذي أثارته المأساة الفرنسيّة في « انكلترا » . « انكلترا » التي شهدت بعد هزّة « دنكرك » المؤثّرة صيفاً آمناً : فلم تسقط عليها قنبلة واحدة ، وبقيت شواطئها المعرّضة للغزو تغصّ بالسابحين . وكان « ديغول » قد وصل إلى « انكلترا » من بلده المصلوب « فرنسا » فذهل لما رآه في « لندن » من صفو ، ولمنظر الحدائق العامّة تعجّ بالمتنزّهين ، وللحجّاب الأنيقين على أبواب الأندية . ولكنّ قلب الأمم معقّد كقلوب البشر . فواجهة اللامبالاة هذه كانت تحجب اضطراباً عميقاً ، وهذا الاضطراب هو الذي أوحى بوثبة الخيال القويّة التي حاولت الجمع بين الأمّتين في مستقبل واحد .

ولكنّ « لندن » هي « لندن » ، و « بوردو » هي « بوردو » . إنّ الهزيمة النكراء تخيّم على العقول فتجعلها لا تفقه لغير الواقع المباشر معنى . فهنالك خطر جديد بات يهيمن على الجماهير الزاحفة هو الجوع . وقد أشار الجنرال « جورج » إليه بقوله : « الساعة ١٧ . زاد الوضع تأزّماً . صعوبات بالغة في تموين الجند والسكّان المتراجعين . الضرورة تلحّ في اتّخاذ قرار بهذا الشأن » . وقد وحّد الرأيَ العامّ الوطنيّ شعورٌ واحد تسلّط على القوّاد الكبار الذين أسقمتهم الشدّة ، وعلى أضعف المقاتلين ، وعلى اللاجئين الذين كانوا يتضوّرون جوعاً ، وعلى المارشال « بيتان » العجوز الذي كان يرفض العودة إلى مجلس الوزراء : هو التخلّص من الوضع الراهن . إنّ الاتّحاد الفرنسيّ البريطانيّ خيال واسع ، وأمّا الواقع فهو هذه الزوبعة التي لا تحمل اسماً !

وللمرّة الأخيرة جلس أعضاء وزارة « رينو » وجهاً لوجه . عرض رئيسهم مشروع الاتّحاد ، وصرّح بأنّه يقبل به ، وبأنّه اتّصل هاتفيّاً «بتشرتشل» وتمّ الاتّفاق على أن يجتمعا في «كيبورون» أو «كونكارنو» . ولم يخلّف هذا التصريح إلّا دهشةً وتحفّظاً وتهجّماً ؛ فقال « إيبارنوغاري » إنّ « إنكلترا » تريد أن تجعل من « فرنسا » إحدى ممتلكاتها . وأمّا « شوتان » ، الذي كان يبكي لوقوفه على نبإ قصف مدينته « بلوا » ، فقد صرّح بأنّ الحلّ الوحيد هو وضع حدّ للمجزرة . وعلى أثر ملاحظة قاسية أبداها « ماندل » إذ قال : « المجلس فئتان : شجعان ، وجبناء . . . » تعالت في القاعة صيحات الغيظ . وأمّا « رينو » فقد أصرّ بعناده المألوف على أن يستسلم الجيش وحده ، وأن تنتقل الحكومة إلى المنفى لتعمل على بناء المستقبل بتحقيق التعايش الفرنسيّ البريطانيّ الذي اقترحته « لندن » . ولكنّ أكثريّة وزرائه كانت قد تخلّت عنه ، فبات حتماً عليه أن يستقيل ، على أن يكلّفه رئيس الجمهوريّة مهمّة تأليف وزارة جديدة ، وأن يتخلّص من « بيتان » ، وأن يعزل « فيغان » . ولكنّ وسائل هذه العمليّة الجذريّة كانت تنقصه، خصوصاً وأنّ « ألبير لوبران » كان يضطرب ويبكي متلاشياً . ولم يكن مستبعَداً والحالة هذه أن تنشب في المدينة ثورة عاميّة ، وأن تقوم جماهير اللّاجئين المعادين للنّظُم البرلمانيّة بتأييدها ، وأن تتألّف حكومة ثوريّة لوضع حدّ للقتال .

وبعد ساعتين كان « بول رينو » قد استقال . وفي أوّل الليل كُلّف المارشال « بيتان » بتأليف الحكومة الجديدة . وحين طلب رئيس الجمهوريّة من الرئيس المكلّف أن يعجّل في مهمّته ، أخرج من محفظته قصاصة ورق كُتبت عليها أسماء وقال : « هاك حكومتي ! » وبعد نصف ساعة من منتصف ليل ١٧ حزيران ، أُوقظ سفير «إسبانيا» « لوكيريكا » من نومه ، ورغب إليه « بول بودوان » ، وزير الخارجيّة الجديد ، أن ينقل للحكومة الألمانيّة طلب « فرنسا » الهدنة .

وعند الظهر انطلق على أمواج الأثير صوت رجل في الثمانين كسّرت السنّ نبراته ، فأسال من الدموع أنهاراً ، ولكنّه في الوقت نفسه بعث في القلوب فرجاً خسيساً ؛ قال المارشال « بيتان » في إذاعته : « لقد وهبت نفسي « لفرنسا » علّني أخفّف شقاءها . وبقلب يفطره الأسى أقول لكم : لا بدّ من وقف القتال . . . »

" ديغول " يطير إلى الثأر

وتوقّف القتال في كلّ مكان ؛ فقد بلّغ القوّاد أنّ الأفواج راحت تتفكّك ، وأنّ الجنود غادروا خطّ النار . ورفع العدوّ رايات بيضاً وهو يصيح بأنّ الحرب قد انتهت ، وراح يأسر الآلاف بالإقناع ، فإذا بالكثيرين منهم يؤاخون المنتصرين أحياناً ! واتّضحت للمسؤولين فداحة الخطإ ، فراحوا يبثّون الرّسالة على وجه آخر هو : « يجب أن نحاول إيقاف القتال . . . » وقد سمحت الفرصة بإيقاف عدد من الوحدات ، ولكنّه كان جليّاً أنّ فكرة العمليّات أو الجبهة المتّصلة باتت هباء . وحُصر الجهد العسكريّ في إعاقة التقدّم الألمانيّ بإقامة سدود أو حواجز تنازع العدوّ ممرّات الجسور أو مداخل الأماكن الآهلة ؛ وكانت السلطات المدنيّة والعسكريّة أحياناً هي التي تحطّم عزائم

آخر المدافعين عن الوطن : فقد أقبل بعض المختارين وهم يلبسون وشائحهم الرسميّة ، وأنذروا قادة المفارز بالرحيل عن أرض منطقتهم كما لو كانوا دخلاء مشرّدين ! ووقف « هريو » ، محافظ « ليون » ، موقفاً مغايراً للمفهوم الوطنيّ ، إذ عارض في تدمير جسور بلدته الحبيبة ، مع أنّ الإبقاء عليها كان يشكّل خطراً على جهاز الدفاع الجنوبيّ الشرقيّ . ولكنّ التخاذل الوطنيّ قد بلغ ذروته في الغرب المقلّد المحافظ ؛ فقد أعلم الجنرال « لالورنسي » ، الذي كان يتراجع من « برش » إلى « أنجو » . الجنرالَ « بوسون » بأنّه « يقاتل في جوّ من التفكّك الوطنيّ » ؛ ففي « أنجي » دعاه المختار إلى ترك الدفاع عن المدينة كي يجنّبها فظاعة القصف ، ووجد نفسه عاجزاً عن الدفاع عن « نانت » حيث رفض زميله الجنرال « غريفو » ، قائد المنطقة الـ ١١ ، الأمرَ بنسف الجسور .

وفي « سومور » تأهّب بعض طلّاب مدرسة الخيّالة ، تساندهم حفنة من طلّاب مدرسة المشاة ، لحماية « اللوار » ؛ ولكنّ المختار راح يجوب الطرقات في سيّارة تحمل مكبّراً للصوت وهو يعلن بأنّ « سومور » بلدة مفتوحة يجب أن لا يُدافَع عنها . وقد وقعت حوادث مماثلة في « تور » وفي « بواتييه » وفي « شولي » ، وفي كلّ جزء من « بروتانيا » و « المين » و « أنجو » و « بواتو » وغيرها ، حيث تزيّنت المدن والقرى بالرايات البيض . وأمّا انضباط الجيش الألمانيّ ، ومظهر جنوده الكريم ، فقد ولّدا ارتياحاً ، بعد ما كانت الدعايات والشائعات تعلن عن ظهور عصابات الألمان السفّاحين مشعلي الحرائق ! وفي كثير من الأحيان قام الغزاة بإسعاف اللاجئين الذين كانوا في ضيق وعسر . وقد عُلّقت في الأماكن المحتلّة إعلانات كبيرة تمثّل طفلاً يحتضنه جنديّ ألمانيّ ، وقد كُتب عليها : « أيّها السكّان الذين غُرّر بهم ، ثقوا بالجنود الألمان ! » وتحوّلت الغضبة الوطنيّة عن الجيش الألماني وعن « ألمانيا » المنتصرة ، إلى السياسيّين المسؤولين عن الكارثة ؛ فقد تعرّف بعضهم إلى « بول رينو » وهو في طريقه من « بوردو » فشتموه ؛ وفي قلب « بوردو » ، حيث تحوّلت الطرقات إلى مخيّمات تفتّت الأكباد ، لم يجرؤ النوّاب على الاجتماع في دور السينما التي وُضعت تحت تصرّفهم مخافةَ أن يُعتدى عليهم .

وأوّل عمل قامت به الحكومة الجديدة هو إعلان كلّ مكان آهل يفوق عدد سكّانه الـ ٢٠,٠٠٠ بلداً مفتوحاً ؛ كان يجب بالتالي ألّا تنظّم على حدود هذه الأماكن أيّة مقاومة ، وأن تتجنّب التشكيلات المقاتلة دخولها . وعبثاً حاول القوّاد أن يثبتوا أنّ هذا القرار يحول بصورة قاطعة دون الدفاع عن البلد . ولكن ، بالنسبة لما آلت إليه الحرب ، لم يبقَ للاعتبارات العسكريّة وزن يُذْكَر !

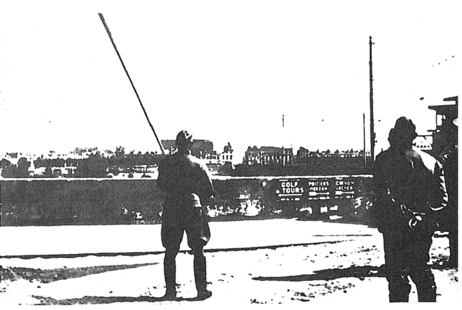
سقطت « برست » في ١٩ ؛ وفي اليوم نفسه استولى « رومل » على حصون « شربورغ » وقلعتها وبلدتها ومرفئها العسكريّ ، وهو لا يملك غير مدافعه السيّارة . ومنذ ١٦ حزيران قُطع نهر « اللوار » في نقطة « لاشاريتي » ، وما لبث أن قُطع على طول مجراه في ١٩ و٢٠ ؛ ثمّ سقطت المقاطعات التي لم تعتد الغزو قطّ ، « كبيري » و « بواتو » . وفي الشرق كان وضع مجموعة الجيوش الثانية يائساً ؛ فقد حاول الفيلق الـ ٤٥ الفرنسيّ أن يفتح ثغرة في اتّجاه « بونتارلييه » ولكنّه أخفق ، فالتجأ إلى « سويسرا » وسلّم نفسه . وقد دُمّر الجيش الثامن كلّه حول « جيرارمير » . ولقي الجيش الخامس المصير نفسه حول « سان ديي » . وبعد ما تقطّع الجيش الثالث بين « الموز » و « الموزيل » أعلن أنّه لا يملك الخبز الكافي لإطعام الـ ١,٢٠٠,٠٠٠ عسكريّ ومدنيّ المتكدّسين في المنطقة . وكان ثلث الجيش الفرنسيّ المنحلّ يلفظ آخر أنفاسه بين « بيزانسون » و « ميس » . وفي الوقت نفسه ، من « موريين » إلى « كيراس » كانت ٢٢ فرقة إيطاليّة تشنّ الهجوم الذي طالما تاق إليه « موسوليني » سعياً وراء أكاليل النصر .

في ١٧ حزيران وقع في مطار « ميرينياك » حدث بسيط : فقد أقلعت طائرة صغيرة خفيّة ، ثمّ حلّقت فوق مرفإ « لاباليس » المشتعل ، وفوق « بروتانيا » التي ابتلعتها النيران ، وتوقّفت قليلاً في « جرسي » ثمّ حطّت في « كرويدون » . كانت تحمل ركّاباً ثلاثة : الجنرال « سبيرس » ، والملازم « جوفروا دو كورسيل » ، والجنرال « ديغول » ؛ وكان هذا الأخير في طريق عودته إلى « لندن » ، بعد ما غادرها في الليلة السابقة ، ليفي بالقسَم الذي قطعه على نفسه في سهول « الإين » : القتال حتى النهاية ، وحيثما اتّفق ، لغسل عار اللطخة الوطنيّة .

وفي «لندن» توجّه «سبيرس» مع «ديغول» مباشرة إلى «داوننغ ستريت» ، وكان « تشرتشل » يرتاح في حديقته بعد عمله اليوميّ . أوضح « ديغول » لرئيس الوزارة البريطانيّة أنّه قادم لمتابعة القتال إلى جانب « الانكليز » ، وأنّه يعتزم إنشاء لجنة وطنيّة تضمّ الشخصيّات التي ستنضمّ إليه ، وأنّه يرغب أوّلاً في أن يوجّه نداء إلى الفرنسيّين الأسرى يحثّهم فيه على الاحتفاظ برباطة جأشهم ، وإلى الفرنسيّين الأحرار يدعوهم إلى الانضمام إليه في مسعاه . فهنّأه « تشرتشل » وشكره ، ووضع الإذاعة البريطانيّة تحت تصرّفه . وبعد ما انصرف « ديغول » استدار نحو « سبيرس » ووجهه يطفح غيظاً ، وقال : « لماذا أتيتني بهذا الجنرال المجهول ؟ ماذا تريدني أن أفعل به ؟ لماذا لم تأتني بسياسيّ مثل «ماندل» ، أو أيّ شخص ذي شهرة يجتمع حوله الفرنسيّون ؟ »

وفي اليوم التالي ، ١٨ حزيران ، طار أوّل نداء « ديغوليّ » عبر الإذاعة الانكليزيّة . لم يكن يتضمّن الجملة الخالدة « لقد خسرت « فرنسا » معركة واحدة ، ولكنّها لم تخسر الحرب » ، التي عُلّقت بعد أيّام قليلة على جدران « لندن » ؛ فبعد ما شرح الجنرال المجهول بعض الاعتبارات الفنيّة المتعلّقة بالهزيمة ، دعا الفرنسيّين الموجودين على الأرض البريطانيّة إلى الاتّصال به لاستئناف القتال . كانت اللهجة باردة ، ولم يكن الصوت محرِّضاً . فالذين سمعوه في خضمّ لاجئي الهزيمة وجنودها يشهدون بأنّ هذا النداء أثار السخرية والسخط والشتائم أحياناً أكثر ممّا أثار التأييد . جرى هذا كلّه في الوقت الذي كان فيه صدى نبرات «بيتان» المؤثّرة ما يزال منطبعاً في القلوب : « لقد وهبت نفسي « لفرنسا » علّني أخفّف شقاءَها . . . »

كان الاضطراب يخيّم على « بوردو » لأنّ وصول الجواب الألمانيّ قد تأخّر . وهنا بدأ القلق يشتدّ : « فهتلر » لم يمنح الهدنة لا « للنروج » ولا « لهولندا » ولا « لبلجيكا » ، بل كان في كلّ مرّة يفرض الاستسلام بلا قيد ولا شرط . فطبيعيّ أن يضمر المصير نفسه لعدوّته الألدّ « فرنسا » . وعادت فكرة الرحيل إلى « أفريقيا الشماليّة » تراود المخيّلات . كان « بيتان » مرتبطاً بالعهد الذي قطعه على نفسه بأن لا يغادر أرض الوطن في أيّ حال ، ولكنّ رئيس الجمهوريّة كان راغباً في الذهاب . وقد فكّروا بأن يرافقه إلى مدينة « الجزائر » قسم من أعضاء الحكومة على رأسهم نائب رئيس الوزارة « كميل شوتان » ، في حين يبقى « فيغان » و « بودوان » و « بوتيلييه » مع المارشال « بيتان » . كان على « لوبران » أن يبحر من « بورفاندر » بعد توقّف وجيز في دار بلديّة « ربينيان » حيث كانت شقّة مزهرة قد جهّزت لاستقباله . وأمّا أعضاء المجلس النيابيّ الذين كانوا يرغبون في الذهاب مع حكومة المنفى النصفيّة فقد حُجز لهم مئتا محلّ على ظهر سفينة النقل «ماسيليا»



إستسلمت مدينة « تور »
بعد ما غادرتها الحكومة.

التي كانت على أهبة الإقلاع في « فردون » .

وأخيراً ، في ١٩ ، الساعة الـ ٦,٣٠ صباحاً ، أيقظ « لوكيريكا » « بودوان » وأعلمه بأنّ الحكومة الألمانيّة قد أعلنت استعدادها لوضع شروطها لوقف القتال . وهي تطلب إيفاد المبعوثين المفوّضين ، وتقترح أن تتّصل « فرنسا » « بإيطاليا » للغرض نفسه .

كان المفروض أن تكون البعثة جاهزة ، ولكنّها لم تكن . وللحال تألّفت بعثة من السفير « ليون نوويل » ، والوزير المفوض « روشا » ، والأميرال « لولوك » ، والجنرالين « باريزو » و « برجوري » ؛ واختار «فيغان» لرئاسة هذه البعثة الجنرال « هونتزيغر » ، فاستدعاه من مجموعة جيوشه . وانطلق من عينَي « هونتزيغر » الزرقاوين بريق العذاب حين كشف له وزير الحربيّة الجديد سبب استدعائه . وأمّا التعليمات الوحيدة الصارمة الواضحة التي أُعطيت للبعثة فقد نصّت على ما يلي : قطع المفاوضات رأساً إذا طلب الألمان تسليم الأسطول . وقد بُلّغت هذه التعليمات القاطعة لثلاثة من الانكليز المضطربين هم اللورد « لويد » ، والأميرال الأوّل « الكزندر » ، والأميرال السير « دادلي باوند » . الذين كانوا قد وصلوا إلى « بوردو » لتوّهم . وأضاف « دارلان » على هذه التعليمات قَسَماً بأن يمنع أيّة سفينة حربيّة فرنسيّة من الوقوع في الأيدي الألمانيّة . ولكنّ « تشرتشل » لم يُخف ارتيابه في قسمه .

وأخيراً تحرّكت البعثة في الساعة ١٤ من يوم ٢٠ ، وكان الذعر والانحطاط المعنويّ اللذان غرقت فيهما « بوردو » قد بلغا حالة تفوق الوصف ؛ فخلال الليل قصفت طائرات ألمانيّة العاصمة الموقّتة فقتلت ما يقارب ٢٠ شخصاً ، وكان هذا القصف الضعيف كافياً لأن يبعث الهلع في النخبة المزعومة من رجال السياسة والاجتماع في « فرنسا » . واستؤنف الجلاء باتّجاه « تولوز » ، وباتّجاه « بايون » التي اجتاحها خليط من الجماهير لم يعرف له ذلك العصر الجهنّميّ مثيلاً . أمّا سقوط القنابل على « بوردو » ، واستمرار التقدّم الألمانيّ الذي بلغ « لاروش سور إيون » و « نيور » و « بواتييه » ، فكانا يبرهنان على أنّ «ألمانيا» لم تكن تنظر إلى الهدنة بعين الجدّ . وراح « ألبير لوبران » يصرّ على الذهاب إلى « بربنيان » ليبحر من ثمّ إلى « أفريقيا الشماليّة » . ولكنّ « بيار لافال » اقتحم مقرّ رئيس الجمهوريّة على رأس فريق من أنصاره وحظّر عليه الهرب ما لم يقدّم استقالته . وكان « لافال » مستعداً للجوء إلى العنف إذا اقتضى الأمر . وبعد برهة تردّد ، قرّر «بيتان» أن يمنع المسؤولين الحكوميّين جميعهم من الابتعاد عن « بوردو » ؛ وسأله « بودوان » : « ولكن ماذا يحصل إذا تجاهل « لوبران » هذا الأمر ؟ » فأجاب « بيتان » : « إنّني آمر بتوقيفه » . وهكذا لم يرحل إلّا حفنة من البرلمانيّين ، ومن بينهم الوزير السابق « ماندل » ، صعدوا إلى ظهر السفينة « ماسيليا » ، وتعرّضوا مذعنين لإهانات البحّارة الذين كانوا يرون فيهم فراريّي النكبة التي كانوا هم وراءها .

في ٢١ حزيران ، بعد سفر مُضن في الطرقات المزروعة بحطام الهزيمة ، أُدخلت بعثة « هونتزيغر » إلى قاطرة المارشال « فوش » التي أُتي بها من متحف « كامبيين » ، والتي وُضعت في الموضع الذي كانت فيه في ١١ كانون الأوّل ١٩١٨ ، وذلك حسب تعليمات « هتلر » الشخصيّة . في رأي « فيغان » كان موضع توقيع الهدنة وسط الأحراج وسيلة لمداراة الكبرياء الألمانيّ ، ولكنّ نيّة « هتلر » كانت ترمي إلى طعن الكبرياء الفرنسيّ في صميمه . فالصحافة العالميّة حاضرة ، والإذاعة الألمانيّة تنقل وقائع الحفلة . وكان « هتلر » يقطع الغاب بوجه شيطانيّ ، وتوقّف برهة يضحك ساخراً أمام اللوحة التذكاريّة التي كانت تتكلّم «على الكبرياء الألمانيّ المجرم الذي هزمته الشعوب الحرّة بعد ما كان يطمع في استعبادها . » وبعد ما أمر بإتلاف تذكار الهزيمة الماضية صعد إلى القاطرة وتربّع في المقعد الذي كان قد احتلّه « فوش » سنة ١٩١٨ . وقام « كيتل » إذ ذاك بتلاوة رسالة عنيفة اللهجة تتّهم «فرنسا» بالتهجّم والعدوان ، ثمّ تسلّم المنهزمون بياناً بشروط الهدنة ؛ وقد أُعلموا بأنّ المناقشة ممنوعة . وبأنّ جلّ ما يستطيعون طلبه هو الإيضاحات . وعبثاً حاول « هونتزيغر » أن يذكّر بأنّ الفرصة قد أُتيحت للمفاوضين الألمان سنة ١٩١٨ بمشاورة حكومتهم قبل أن يوقّعوا في ذيل الشروط الحليفة ، فإنّه لم يحصل إلّا على خطّ هاتفيّ يتلو به على « فيغان » نصّ المذكّرة . ولكنّ الخطّ كان يصفّر ويشوّش . وكان « فيغان » يملي الجمل على ضابطه المرافق الكابيتين « غلازر » . وبهذا الشكل تبلّغت الحكومة الفرنسيّة اتّفاقيّة عبوديّتها .

وعاد مجلس الوزراء مرّة أخرى للانعقاد . فتبيّن له أنّ الأسطول قد سلِم ، إذ لم ترِد في الاتّفاقيّة أيّة فقرة منافية للكرامة ، سوى تلك التي تقضي بتسليم اللاجئين السياسيّين الألمان . ولكنّ قساوة الشروط كانت خانقة : يشمل الاحتلال ثلاثة أخماس البلاد ، ويخفّض الجيش إلى ١٠٠,٠٠٠ رجل ، ويبقى الأسرى في أسرهم . وصرّح « لوبران » و « دارلان » و « شوتان » ذاته بأنّ هذه المتطلّبات غير مقبولة ، وأعادوا إلى بساط البحث قضيّة متابعة القتال في « أفريقيا الشماليّة » . ولكنّ عرض « فيغان » الوقائعَ قد ثبّط العزائم : ففي « المغرب » الذي كان قد أُرهق واستُغِلّ لدعم معركة « فرنسا » لم يبقَ من الجيش غير فرق أربع مختلطة ضعيفة ، لا تملك مدفعاً واحداً مضادّاً للطائرات ، ولا دبّابة واحدة من الدبّابات المصنوعة بعد ١٩١٨ . وقدّر القائد الأعلى أنّه كان بإمكان الألمان أن يستأنفوا مجرى انتصاراتهم في الناحية الأخرى من المتوسّط . وأنّ المقاومة التي تتصدّى لهم حينذاك تكون يائسة لا تجدي فتيلاً .

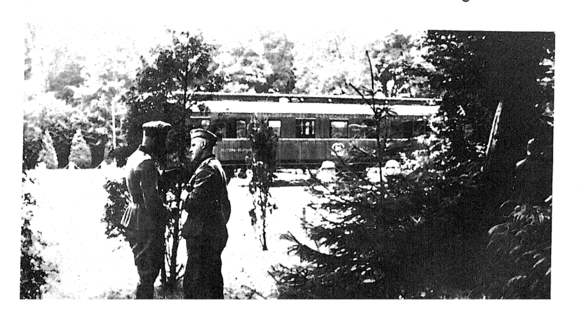
وأخيراً ، ومع أنّ الألمان قد حرّموا المناقشة ، تقرّر أن يقوم « هونتزيغر » بمجهود أخير كي يمنع عن « باريس » الاحتلال فتظلّ إدارة « فرنسا » أمراً ممكناً . ولكن لم يكن أحد ليأمل أن يقتنع « هتلر » أو أن يلين .

خلال المذاكرة الوزاريّة كان « رونالد كامبل » ينتظر في الردهة حانقاً . وقد فرّج غمّه لدى رؤيته « بودوان » فقال له إنّه ينتظر منذ ساعتين ، وإنّ له ملء الحقّ ، بكونه سفيراً لدولة حليفة ، بأن يحاط علماً بما يجري ، وبأن يُستشار . ولم يكن جواب « بودوان » شافياً ؛ فقد قال له إنّ الألمان يفرضون على الفرنسيّين إعطاء الجواب في الساعة التاسعة صباحاً . فلا وقت لديه لحديث مطوّل . وفي اليوم التالي غادر السير « رونالد » « بوردو » على متن آخر سفينة انكليزيّة . وبهذا تكون العلاقات الديبلوماسيّة الفرنسيّة — البريطانيّة قد انقطعت .

لقد بلغت الحالة غاية الانحطاط . في « كومبيين » رفض « كيتل » طلبات التخفيف كلّها . فإمّا أن يجري التوقيع وإمّا أن ينفض الاجتماع . وأمّا مجلس الوزراء فقد قرّر بالإجماع أن يُصدر إلى « هونتزيغر » أمراً بالتوقيع فامتثل هذا الأخير للأمر في الساعة ١٨,٣٠ من نهار ٢٢ حزيران . ولكنّه كان قد أدلى بتصريح أخير ؛ فالمادّة ٢٣ تنصّ على أن تنفيذ الهدنة منوط بقيام هدنة مماثلة مع « إيطاليا » . فكان على البعثة الفرنسيّة والحالة هذه أن تسافر إلى « روما » بلا تأخّر . ولكنّ « هونتزيغر » أصرّ على توضيح ما يلي : إنّ « فرنسا » لن تقبل من « إيطاليا » التي لم تقاتل قطّ بالشروط التي قبلت بها من « ألمانيا » المنتصرة ؛ وقال : « ففي حال فرض « إيطاليا » متطلّبات كهذه علينا ، ترجع إلينا حريّة التصرّف . إنّ بحريّتنا وطيراننا لم يمسّهما سوء . و « فرنسا » قد وجدت نفسها من قبل في ظروف مماثلة . فإنْ هي وقّعت الهدنة نفّذت بنودها بإخلاص . ولكنّ هذا لا يخوّل « روما » حقّ إشباع شهوات لا مبرّر لها . . . »

وبينما كان « هونتزيغر » يتكلّم بصوت حازم ومكابر ، لم يكن يدرك أنّ قضيّته قد وجدت نصيراً لها بشخص رجل اسمه « أدولف هتلر » ! فما ان علم « هتلر » بطلب الهدنة حتّى دعا « موسوليني » إليه للبحث في موقف مشترك . وحدثت المقابلة في « مونيخ » ، في الغرفة نفسها التي جرت فيها المحادثات مع « تشامبرلين » و « دالاديه » سنة ١٩٣٨ . وجاء « الدوتشي » وهو يمنّي النفس بمتطلّبات خياليّة ، مع أنّ قوّاته لم تباشر عمليّاتها إلّا منذ برهة وجيزة . كان يريد ضمانات قطريّة في « تونس » وفي « كورسيكا » ، واحتلال « فرنسا » حتّى نهر « الرون » ، وتسليم الأسطول الفرنسيّ ؛ ولكنّ « هتلر » خيّب فأله إذ أوضح له أنّه لا يريد أن يفرض على « فرنسا » سلماً إفنائيّاً ؛ وقد حاول إقناع « موسوليني » بأنّ مطالبه تشدّد عزم الحكومة الفرنسيّة على متابعة القتال في مستعمراتها . وأصرّ « الدوتشي » على أن تفرض قوّات المحور على الأقلّ تسليم الأسطول الفرنسيّ . فأجابه « هتلر » بأنّ هذا الشرط بالذات هو الذي يفسد كلّ شيء .

وانصرف « موسوليني » غاضباً . وفيما كانت بعثة « هونتزيغر » تتفاوض في « روما » في جوّ من المجاملة ، راح « موسوليني » يحرّض « بادوليو » على أن ينال « نيس » على الأقلّ . فيكسب بقوّة السلاح



حافلة « روتوند » .

حتى احتلال المدينة الكبيرة . ولكنّ سعيه ذهب سدى . إذ لم يتعدّ الغزو الإيطاليّ أواسط «مانتون» ، أمّا الخسائر الفرنسيّة فكانت تافهة . وفي « الألب » كان إخفاق الهجوم تامّاً . لأوّل مرّة صدقت نبوءة « غاملان » إذ قال : « إذا أعلنت « إيطاليا » علينا الحرب فلا أحتاج إلّا لأربع فرق لمجابهتها » . وبالفعل لم يكن لدى الجنرال « أولري » غير هذا العدد !

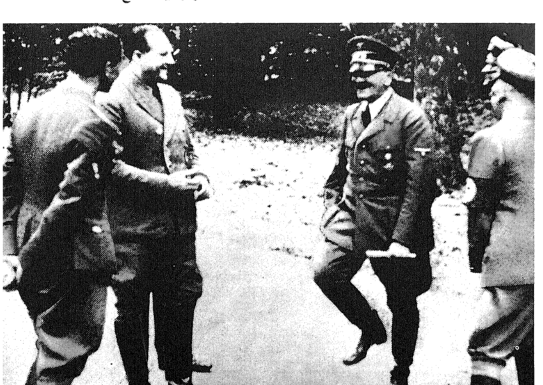
ولكنّ الألمان استولوا على « ليون » في ١٩ . وراحوا ينصبّون من « كولوز » في ٢١ . فزحفوا على « شامبيري » و « غرونوبل » . وفي وادي « الرون » وصلوا حتّى « تورنون » . كانت المقاومة التي تقابلهم بها الوحدات الضئيلة المستقتلة تسبّب لهم الخسائر . ولكنّها لم تكن لتقف حاجزاً مانعاً في وجههم . وعندما وقّعت هدنة « روما » . معلنة بذلك دخول هدنة « روتوند » حيّز التنفيذ . كان جيش « الألب » قد طُوّق تماماً من الوراء .

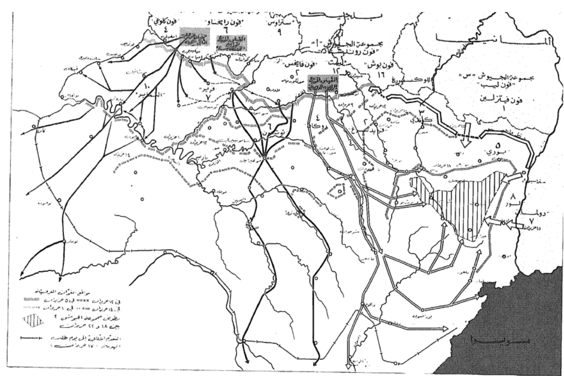
وفي منتصف ليل ٢٥ حزيران توقّفت العمليّات العسكريّة . وكان الخطّ الأقصى الذي بلغه الجيش الألمانيّ يمرّ « ببلغارد » و « إيكس لي بان » و « فوارون » و « تورنون » و « سانت إتيان » و « كليرمون — فيران » و « لا شاتر » و « مونموريون » و « أنغوليم » و « رويان » ، فكان عليه أن يرجع إلى الوراء في كلّ مكان تقريباً للعودة إلى الخطّ الفاصل . وعلى خطّ « ماجينو » رفضت مجموعات من الجند الرضوخ للإنذارات الألمانيّة . ولم تستسلم إلا في بداية تمّوز . وقد قام قوّاد كثيرون . أمثال الليوتنان كولونيل « شفارتز » . قائد قطاع « هاغونو » .



الكولونيل جنرال « كيتل » ، رئيس أركان الجيش الألمانيّ ، الذي تلا على المبعوثين الفرنسيّين نصّ شروط الهدنة .

« هتلر » السعيد الراقص ! لقد تبلّغ منذ لحظات قرار القيادة الفرنسيّة بإلقاء السلاح .





معركة « فرنسا » بين ٥ و ١٧ حزيران ١٩٤٠

بكتابة مذكّرات اعتراض يذكرون فيها أنّ وسائل دفاعهم لم يمسّها أذى ، وأنّهم إنما يخضعون لإنذار وجّهته الحكومة الفرنسيّة لا لتفوّق العدوّ .

كانت خسارة الأرواح في الجيش الفرنسيّ فادحة : أكثر من ١٢٠,٠٠٠ قتيل ، وهو رقم مرتفع جدّاً بالنسبة لحملة استغرقت ٤٥ يوماً . وتكبّد الهولنديّون ٢,٨٩٠ قتيلاً ، والبلجيكيّون ٧,٠٠٠ قتيل، والانكليز ٣,٥٠٠ قتيل . وفي المعسكر الألمانيّ كانت الخسائر خفيفة للغاية : ٢٧,٠٧٤ قتيلاً ، و ١١١,٠٣٤ جريحاً ، و١٨,٣٨٤ مفقوداً . وقد أبدى « إيدي بوير » ، الخبير العسكريّ السويسريّ ، الملاحظة التالية : منذ ١٠ أيّار حتّى ٤ حزيران ، وخلال أحداث « سيدان » و « دنكرك » ، بلغ معدّل الخسائر اليوميّة الألمانيّة ٢,٤٤٩ رجلاً فحسب . ومن ٥ إلى ٢٥ حزيران ، وعلى الرغم من أنّ المعارك قد تضاءل عنفها بشكل ملموس ابتداء من ١٧ ، ارتفع هذا المعدّل إلى ٤,٧٦٤ رجلاً ؛ وهذا يؤكّد احتدام الدفاع الفرنسيّ بعد معركة « السوم » ، حين أطاح تفاوت القوى كلّ أمل باق .

وهكذا يكون أوّل فصل كبير من الحرب العالميّة الثّانية قد انطوى ؛ فقد أُزيلت « فرنسا » إزالة كاملة من مجموعة الدول الكبرى ، وغدا « هتلر » سيّد القارّة الأوروبيّة من « الفيستول » حتى المحيط الأطلسيّ. ولكنّ الهدنة التي ارتضاها ، والتي سينتابه بصددها ندم مرير ، قد جعلت « أفريقيا الشماليّة » بعيدة عن الألمان ، فهيّأتها بالتالي لتكون مركز الانطلاق لاستعادة البلاد . وربّما كان في ذلك تبرير للفرنسيّين الذين قبلوا بها على مضض ، أو ، على الأقلّ ، حجّة تدعم ما ذهبوا إليه .



مصفّحات ألمانيّة تغطّيها الأغصان تخترق مدينة فرنسيّة في زحفها إلى الغرب .

أُلفصل السّابع

تموّز - تشرين الأوّل ١٩٤٠

قلق وترقّب

عقب سقوط « فرنسا » سكوتٌ طويل . فقد صمت المدفع . وتوقّفت عجلة الحرب . وراح العالم يتساءل عن تلك الفاجعة الشاملة التي لم تكن متوقّعة

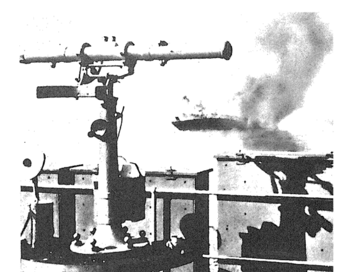
معركة « انكلترا »



في « المرسى الكبير » .
مدافع الأسطول البريطانيّ تفجّر البارجة الفرنسيّة « بروتانيا » وتغرق البارجة « بروفانس » .

قام بعض الخبراء بحلّل الأسباب التقنيّة للهزيمة الفرنسيّة . فأثبت أثر المفاجأة الصاعق الذي أحدثه التناسق في عمليّات الطائرة والدبّابة . ولكنّ الرأي العامّ العالميّ لم يسجّل غير الحرب الخاطف الذي أقدمت عليه جيوش بكاملها . وغير الانهيار الخسيس الذي أصاب شعباً عُرف في الماضي بشجاعته وعزّته . ففي مستهلّ معاهدة الهدنة سجّل المنتصر ما يلي : « إنّ « فرنسا » . بعد مقاومة بطوليّة تجلّت في سلسلة مستمرّة من المعارك الدامية . قد هُزمت وتداعت . وليس في نيّة « ألمانيا » أن تضفي على شروط الهدنة طابعاً مذلّاً حيال خصم شجاع كهذا ... » وقد تجاهل الناس تحيّة السلاح هذه ، ورسخ في أذهانهم خلال سنوات طويلة أنّ « فرنسا » لم تقاتل . فتضخّمت الحقيقة الجزئيّة حتى أمست حقيقة مطلقة أثّرت بصورة واضحة في معنويّات الأمّة . وما تزال تؤثّر .

وأمّا « هتلر » فكان في أوج مجده . لأنّ نصره كان كاملاً : أوّلاً بالنسبة لعدوّته البغيضة « فرنسا » التي باتت تحت رحمته . ثم بالنسبة لقوّاده الذين كانوا جميعاً قد حذّروه من خصم فائق القوّة . ومن مغبّة حرب طويلة تُهرق فيها دماء غزيرة . لقد جعله النصر مرحاً . وحتى طيّب القلب ، فغادر مركز قيادته الريناني العابس وأقام في قرية « برولي دوبيش » على الحدود الفرنسيّة البلجيكيّة . على مقربة من « روكروا » . لقد نال مأربه في الثأر . وها هو الآن يرتاح ، وقام بصحبة اثنين من رفقاء السلاح القدامى بزيارة ساحة معركة ١٩١٤ — ١٩١٨ . و « الفلاندر » . و « شامبانيا » . حيث قاسى مرّ العذاب . وبعد ما غادر « برولي دوبيش » . التي لم تكن طبيعتها المسطّحة لتلائم مزاجه الرومانطيقيّ . استقرّ في منطقة « الغابة السوداء » السياحيّة قرب « فرويدنشتاد » . هناك ، كانت « الألزاس » على قيد أنملة منه . فقام بزيارتها نشوان بطابعها الألمانيّ . مظهراً عطفه حيال السكّان العائدين من الأسر الفرنسيّ في « بيريغور » . وفي « ستراسبورغ » أصبح اسم ساحة « كليبير » ساحة « أدولف هتلر » . وفي « مولوز » ألحق مظهر الشرف نفسه بشارع « سوفاج » في جوّ عابق بالابتسامات . وقد اعترضت حكومة « فيشي » الفرنسيّة فيما بعد على ضمّ « ألمانيا » هاتين المقاطعتين اللتين لم يرد ذكرهما في المعاهدة . وعلى طرد سكّان « اللورين » الناطقين باللغة الفرنسيّة ؛ ولكنّ « هتلر » لم يحفل بذلك ، فمطامعه تتعدّى استعادة حدود « ألمانيا » كما كانت ١٨٧١ . ففضلاً عن « مس » و « ستراسبورغ » كان يريد مدينتي « فردان » و « تول » الألمانيّتين القديمتين وأن يعيد إلى « الرايخ » « ألمان البحر » الهولنديّين . وأن يُرجع « بورغونيا » إلى أحضان الجرمانيّة بأن يُسكن فيها جاليات ألمانيّة مؤلّفة من سكّان « ترانسيلفانيا » و « التيرول » . ولكنّ كشف



احتضار البارجة الفرنسيّة «بروتانيا» .

النقاب عن هذه الخطط الضخمة كان سابقاً لأوانه ؛ كان يجب إخضاع «انكلترا» أوّلاً .

كان «هتلر» واثقاً من أنّ «انكلترا» ستطلب الصلح ؛ فالانكليز واقعيّون . وها هم قد فقدوا درعهم القاريّة وهي الجيش الفرنسيّ ؛ وليس لهم أن يتوقّعوا المعونة من «أميركا» التي كانت الحرب السابقة قد أفقدتها رغبة التدخّل في «أوروبا» ؛ وليس لهم أن ينتظروا المساعدة من «روسيا» ، «فهي تنظر إلى انتصاراتنا الكبرى بعين دامعة» ، ولكنّ قوّتها لا تمكّنها من مهاجمة «ألمانيا» ، فضلاً عن أنّ «مولوتوف» قد بادر إلى تهنئة الفوهرر لانتصاره على «فرنسا» . «فإنكلترا» ، والحالة هذه ، وحيدة في الساح ؛ فمن الخُرْق والجنون أن تستمرّ في القتال في حين كانت تعلم أنّ «هتلر» لا يريد بتجارتها ولا بامبراطوريتها شرّاً . قال «هتلر» «لجودل» : «ستحصل «انكلترا» على السلام متى شاءت ؛ فلتطلبه ، وأنا مستعدّ . . . » الأمر الوحيد الذي يُطلب منها هو أن تطلق «لألمانيا» حريّة تنظيم «أوروبا» من جديد ، والتوسّع نحو الشرق .

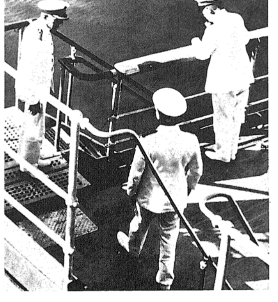
وطوال شهر حزيران لم تسقط على «انكلترا» قنبلة واحدة ؛ وفي تمّوز كان النشاط الجوّيّ ما يزال مقتصراً على مهاجمة المرافىء . وأعلن



«هتلر» عن تسريح جزئيّ في الجيش الألمانيّ بحلّ ٣٥ فرقة ، وأمر بإصدار أوامر إلى بعثاته الدبلوماسيّة بقبول أيّة عروض مفاوضات يقدّمها العملاء الانكليز . وكانت أحاديثه مع مقرّبيه تدور جميعها على نمط واحد : سيفاوض الانكليز ، إنّ الحملة الغربيّة قد انتهت .

وإذ ذاك وقعت حادثة مفجعة . فقد دمّر الانكليز جزءاً من الأسطول الفرنسيّ ، معلنين بطريقة رنّانة عن عزمهم على متابعة القتال بكلّ وسيلة ممكنة .

لقد أمسى الأسطول الفرنسيّ ، الذي كانت الأميراليّة قد أبعدته بقدر الإمكان عن المياه الإقليميّة الفرنسيّة ، شغل «انكلترا» الشاغل . لجأ قسم ضخم منه إلى المرافىء البريطانيّة وكان مؤلّفاً من بارجتين ، وثماني مدمّرات ، ومن الغوّاصة الجبّارة «سوركوف» ، ومن نحو ٢٠٠ عمارة ثانويّة . وكان جزء آخر منه ، مؤلّف من بارجة واحدة و٤ طرّادات بقيادة الأميرال «غود فروا» ، راسياً في مرفإ «الإسكندريّة» .



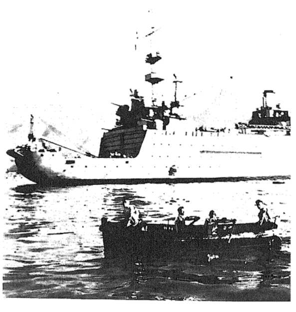
«هولاند» يغادر ظهر الطرّاد الفرنسيّ «دنكرك» بعدما سلّم القائد الفرنسيّ إنذار الأميرال «سوميرفيل» .

وفي «الأنتيل» كانت منه حاملة طائرات واحدة وطرّادان . وأمّا الطرّادان الكبيران «جان بار» و«ريشوليو» ، وحمولة كلّ منهما ٣٥,٠٠٠ طنّ ، فقد غادرا مصنعهما على اثر غزو «بروتانيا» بينما كانا قيد الإكمال ؛ ولكنّ الأوّل ، الذي كان ما يزال بلا سلاح ، انتهى إلى «الدار البيضاء» ، بينما وصل الثاني إلى «دكار» إذ كان قد زُوّد بمدافعه من فئة ١٥ بوصة . وكانت ٧ طرّادات راسية في مدينة «الجزائر» ؛ وأمّا «القوّة الضاربة» ، وهي أقوى العمارات ، فقد

«المرسى الكبير» ، في ٣ تموز ، الساعة ١٨ ، حين أعلن الأميرال «سوميرفيل» أنّ المعركة حامية الوطيس .

كانت راسية في مرفإ « المرسى الكبير » . وكانت تضمّ البارجتين « بروتانيا » و « بروفانس » . وناقلة الطائرات « كومندان تيست » . و٦ مدمّرات من مرتبة « التيريبل » . وأخيراً طرّادي القتال الثمينين «دنكرك» و«ستراسبورغ» . وقد أثار هذان الطرّادان مخاوف الانكليز : فلو تمكّنت « ألمانيا » من ضمّهما إلى « الشارنهورست » و«الغنايزناو» لأقامت خطّاً للقتال لا يُستهان به . أو لألّفت فريقاً للقرصنة يجنّد له الأسطول الانكليزيّ برمّته . وكانت المادّة ٧ من اتّفاقيّة الهدنة . وقسّم الأميرال « دارلان » . الضمانتين الوحيدتين اللتين تحميان «بريطانيا العظمى» من هذا المهلك .

ما تزال الظروف التي أحاطت بعمليّة « المنجنيق » القاضية بتعطيل الأسطول الفرنسيّ غامضة ؛ فالأميراليّة البريطانيّة لم تشجّعها . وأمّا « تشرتشل » فقد فرضها . ويبدو أنّ الأسباب العسكريّة في قراره كانت لا تُعتبر إذا ما قيست برغبته في أن يؤكّد بطريقة حازمة إرادة



فريق من رجال الإنقاذ يبحثون على مقربة من ناقلة الطائرات « الكومندان تيست » عن الناجين من بحّارة البارجة « بروتانيا »

الانكليز في القتال المستميت . قال مؤرّخ « فيشي » النزيه « روبير آرون » : « إنّها لطريقة إنكليزيّة فذّة : إحراق السفن البريطانيّة للتضحية بسفن الآخرين» ؛ وقد شبّه « تشرتشل » في مذكّراته نفسه « بدانتون » إذ قال : « المطلوب الجرأة . . . إنّ الملوك المتضافرين يهدّدوننا ، فلنردّ عليهم بأن نطرح لهم رأس ملك ... » لم يكن الشبه واقعياً ؛ وبالإجمال أسفرت عمليّة « المنجنيق » عن نتائج غير مستحبّة . ولكنّ عرض العضلات الناتج عنها قد خلّف ما كان يرتجيه واضعها من صدى .

في « انكلترا » سارت عمليّة « المنجنيق » من غير أن تعترضها عقبة ؛ فقد فوجىء البحّارة الفرنسيّون وهم نيام . واقتصرت الخسائر على قتيل انكليزيّ واحد وبعض الجرحى . وفي « الإسكندريّة » سمح الأميرال « غود فروا » بشلّ مفعول سفنه التي كان الصدأ يتآكلها في المرفإ بعد ما نفد وقودها . وبعد ما كُدّست مغالق مدافعها على اليابسة ؛ وفي « دكار » أصيب الطرّاد « ريشوليو » بعطل . ولكنّه بقي صالحاً للاستعمال . وأمّا في « المرسى الكبير » فقد بلغت الفاجعة حدّاً رهيباً .

إستجابةً لشروط الهدنة كانت « القوّة الضاربة » الفرنسيّة تعمل على نزع سلاحها . كانت السفن الخمس الكبيرة راسية جنباً إلى جنب إلى الرصيف الذي لم يتمّ بناؤه . وكانت المدمّرات الستّ موجودة في الناحية الأخرى من الحوض . وفي أسفل الرابية العالية التي تشرف على المرفإ كانت الأنوار قد أُطفئت . فيما انهمك البحّارة في نقل الذخيرة إلى اليابسة .

في الساعة السابعة من صباح ٣ تمّوز وصلت القوّة « ه » يقودها الأميرال « سوميرفيل » . كانت تضمّ طرّاد قتال واحداً . وبارجتين . وحاملة طائرات ؛ فبدأت بزرع الألغام في المضيق . ثمّ حمل القائد « ك . س . هولاند » إنذاراً إلى الأميرال « جانسول » . كان الإنذار يتضمّن سلسلة من العروض تترك للفرنسيّين فيها الخيار : ١) أن تبحر السفن الفرنسيّة مع العمارة الانكليزيّة لمتابعة القتال ضدّ «ألمانيا» و « إيطاليا » ؛ ٢) أن تتوجّه إلى أحد مرافىء « بريطانيا » بعدد مخفّض من البحّارة وتحت الإشراف البريطانيّ ؛ ٣) الذهاب إلى « الأنتيل » حيث توضع السفن تحت رقابة « الولايات المتّحدة » حتى نهاية الحرب ؛ ٤) إغراق السفن ؛ ٥) رفض الإمكانات السابقة . وقد أعلن الأميرال الانكليزيّ أنّه . في مثل هذا الاحتمال الأخير . يملك القدرة الكافية والصلاحيّات الضروريّة لتدمير السفن الفرنسيّة . وقد مُنح الأميرال الفرنسيّ مهلة ستّ ساعات للاختيار . وقال « جانسول » فيما بعد : « بكوني بروتستانتياً . وبما أنّي كنت مناصراً للانكليز . كانت رغبتي الشخصيّة تدفعني إلى الذهاب معهم» ؛ ولكنّه تنبّه إلى أنّه قد يسبّب بعمله هذا نقض الهدنة واحتلال « أفريقيا الشماليّة » ؛ فأعلم « سوميرفيل » بأنّه سيقابل القوّة بالقوّة . وحين صدر الأمر بإضاءة المحارق صفّق البحّارة ابتهاجاً . ظنّاً منهم أنّهم عائدون إلى القتال ضدّ الألمان !

ومع أنّ عشرة أيّام كانت قد انقضت على الهدنة . فقد بقيت المواصلات مفكّكة تماماً . في البدء كان « دارلان » قد سحب إلى « روبان » مركز القيادة النموذجيّ الذي كان قد أنشأه في « مينتونون » بالقرب من « باريس » . ثمّ نقل حطام أميراليّته إلى مدينة « نيراك » البيرينيّة الصغيرة حيث وضعت أخته تحت تصرّفه مسكناً يوفّر له ولصحبه إيواءً موقّتاً . وأبرق إليه « جانسول » يقول بإيجاز . من غير أن يشير إلى العروض كافّة . إنّ قوّة بحريّة انكليزيّة جبّارة قد أمهلته ستّ ساعات ليُغرق سفنه . وإنّه يعتزم أن يقاوم بالقوّة . وقد تلقّى جواباً لم يكن ينتظره . وذلك قبل إطلاق الطلقة الأولى بخمس دقائق : إنّ الأميراليّة الفرنسيّة توافق على موقفه وتأمره برفض الإنذار .

ولقد خُيّل « لجانسول » قبل لحظة أنّه سيتمكّن من تفادي الكارثة ؛ فقد آلى على نفسه أن يطلع « هولاند » على التعليمات السريّة التي زُوّد بها قوّاد البحريّة الفرنسيّة . وهي تعليمات بثّها الأميرال « دارلان » بالشيفرة تذكيراً بأنّ واجب القائد يقضي بأن يدمّر سفينته على أن يدعها تقع في أيدٍ غريبة . وتلقّف « هولاند » الفرصة . وهو صاحب الثقافة والهوى الفرنسيّين الذي كانت مهمّته تمزّقه تمزيقاً ، فأسرع بالعودة إلى « سوميرفيل » . وعجّل « سوميرفيل » بإعلام «لندن»

بحصوله على برهان يثبت أنْ لا مجال لوقوع السفن الفرنسيّة في أيدي العدوّ . وأظهر لوردات الأميراليّة البريطانيّة استعدادهم لقبول الوعد الفرنسيّ ؛ ولكنّ « تشرتشل » كان يريد تحقيق ضربة معلّم : ففي الساعة ١٦,٢٦ تلقّى « سوميرفيل » هذا الأمر التشرتشليّ المختصر ، بعد ما كان قد مدّد تلقائيّاً مهلة الانذار : « يجب على الفرنسيّين أن يغرقوا سفنهم وإلّا فعليكم أن تغرقوها قبل الليل . »

وقبيل الساعة الخامسة والنصف غادر « هولاند » السفينة « دنكرك » حاملاً لأميراله آخر رفض فرنسيّ ؛ وحين مرّ أمام « البروتانيا » قدّم له ضابط النوبة الربعيّة التحيّة الرسميّة ، وكان قد كُتب عليه أن يموت بعد دقائق . وبدأ قصف المدافع في الساعة ١٧,٥٤ . وبما أنّ السفن الفرنسيّة لم تكن قد أقلعت بعد ، فقد كانت تشكّل هدفاً سائغاً . ولكنّ « ستراسبورغ » والنسّافات المضادّة « التيربيل » و « التيغر » و « الفولتا » انتزعت صناديق ربطها وتوجّهت إلى عرض البحر وسط الألغام التي زرعها الانكليز ، والنيران المحدقة بها ، والطائرات التي تطاردها . أمّا « دنكرك » الذي قام بالمحاولة نفسها فقد جنح بعد ما أطلق ٤٠ قذيفة على « الهود » ؛ وأمّا « البروفانس » التي أُصيبت بشدّة فقد ارتمت على الشاطىء وهي تطلق نيران مدافعها جمعاء . وأصابت قذيفة من عيار ١٥ بوصة المدمّرة « موغادور » فحطّمتها شرّ تحطيم . وانفجرت « البروتانيا » بعد ما أصابتها أوائل النيران . وتوقّف إطلاق النار حين أعلن « جانسول » أنّ سفنه جميعاً باتت غير صالحة للقتال .

وفي اليوم التالي حاولت دفعات ثلاث من الطائرات النسّافة . من غير جدوى ، الإجهاز على « الدنكرك » الذي كان قد أُصيب بأضرار طفيفة . عملاً بإرشادات صادرة عن « لندن » ، فرفعت عدد الضحايا الفرنسيّين في « المرسى الكبير » إلى ١٢٩٧ بينهم ٩٧٧ من بحّارة « بروتانيا » وحدها . كان هذا العدوان كفيلاً بإشعال الحرب بين « فرنسا » و « إنكلترا » ؛ وهنا توقّفت عجلة القدر برهة عن الدوران . وصرّح « دارلان » بصوت يخنق التأثّر نبراته : « لقد خانني إخوان لي في السلاح ؛ إنّهم لم يثقوا بالوعد الذي قطعته على نفسي » . وبناء على أمره توقّفت السفن عن عمليّة نزع سلاحها . وقد أصدر أمراً بشنّ هجوم عامّ معاكس تقوم به « الستراسبورغ » وطرّادات « الجزائر » ؛ وتقرّر قصف « جبل طارق » من الجوّ . ولكنّ « بول بودوان » ، وزير الخارجيّة ، وُفّق إلى تأجيل التدابير الزجريّة وإلى حصر الردّ المعاكس بقطع العلاقات الديبلوماسيّة التي كانت مقطوعة سلفاً . غير أنّ حقد البحريّة والأمّة الفرنسيّة لم يهمد إلّا بعد زمان طويل .

" إنكلترا " تستعدّ لمواجهة الغزو

من « كاليه » يستطيع الألمانيّ أن يرى الشاطىء الانكليزيّ . ولذا تساءل العالم طوال صيف ١٩٤٠ : متى وكيف ، يا ترى ، سيحاول النزول عليه ؟

والواقع أنّه لو حاول ذلك ، بُعيد هزم « فرنسا » ، لما لقي مقاومة بريّة تُذكَر ؛ ففي مطلع تمّوز ، يوم قام « تشرتشل » بدورة تفتيشيّة قرب « دوفر » ، في جون « سانت – مارغريت » ، وهو أكثر شواطىء « انكلترا » تعرّضاً للغزو ، لم يجد غير ثلاث قطع مضادّة للدبّابات لحماية خمسة أميال من الشواطىء . عاد من « دنكرك » ٢٢٤,٠٠٠ جنديّ ، وأُعيد ١٤٤,٠٠٠ إلى وطنهم مؤخّراً بعد موقعة « فرنسا » . ولكنّهم لم يحملوا من عتادهم إلّا ٩ دبّابات من أصل ٦٠٠ ، و١٢ مدفعاً من أصل ألف ! ولم يكن بحوزة « انكلترا » سوى ٧٨٦ مدفع ميدان ، و١٦٧ مدفعاً مضادّاً للدبّابات ، و١٧٨ دبّابة خفيفة ، و٨١ دبّابة متوسّطة . وبشطحة قلم ضُمّت إلى الفرق الاثنتي عشرة الناقصة التدريب التي لم تغادر « انكلترا » اثنتا عشرة فرقة تمّ إنقاذها من القارّة الأوروبيّة . فكان من الضروريّ إعادة تجهيزها تجهيزاً تامّاً . رَسم قائد القوّات المحلّيّة البريطانيّة « أيرونسايد » – الذي حلّ محلّه بعد قليل « آلان بروك » – على الخارطة خطّاً للدفاع ينطلق من تُرعة « بريستول » ، ويدور حول « لندن » صاعداً حتّى « الواش » . ثمّ يمتدّ إلى مصبّ « التيز » ، لحماية « الميدلندز » . إلّا أنّ هذا الخطّ وهميّ كالمعقل البروتونيّ الطيّب الذكر ! ثمّ إنّ غريزة أهل الجزيرة تدفعهم للدفاع عن الشاطىء ذاته ، إذ أنّ تمكين العدوّ من إرساء رأس جسر عليه هو بمثابة انتحار لهم ، لأنّ القوّات المتحرّكة لا تكفي مطلقاً لإعادته إلى البحر . إذاً فعلى الشواطىء ينبغي أن تُحشد معدّات الدفاع . ولكنّ هنالك أكثر من ٥٠٠ ميل صالحة لنزول العدوّ ؛ أمّا نقاط الضعف فتزيد على الألف ، ويتطلّب تحصينها كمّيّات هائلة من الألغام والأسلاك الشائكة والإسمنت المسلّح . ولذا كان لا بدّ من الاكتفاء ببعض مناطق « كنت » و « سوسكس » ، التي يجعلها دنوّها من القارّة أكثر تعرّضاً للخطر والعطب . وهكذا تمّت وقاية ٧٠ ميلاً من الشاطىء تقريباً بشبكات من الأسلاك الشائكة ، وحقول الألغام ، والشباك العموديّة . أمّا ما تبقّى من الشاطىء فظلّ أعزل عارياً .

ورد في كتاب « جيبون » أنّ البيزنطيّين كانوا يحرقون البحر ؛ وقد أغرت الفكرة اللورد « هنكي » ، فراح يعمل على إحياء النار الإغريقيّة بأساليب جديدة ، فأحدث لهذه الغاية « دائرة النفط الحربيّة » . غير أنّ التجارب أظهرت أنّ الطريقة باهظة التكاليف وإن لم تكن وهميّة تماماً . ولسوف تنشأ عن هذه الفكرة أسطورةُ الزحف الذي ستوقفه سيول اللّهب ، وحكاياتٌ ما فتئت تكرَّر بلا هوادة عن ألوف الجثث المكلّسة تغطّي الشواطىء وتعرقل المرافىء .

كان ما يتّصف به الشعب الانكليزيّ من بلادة وعدم اكتراث أحد المخاوف التي أقضّت على الوطنيّين مضاجعهم . ولقد دارت على هذا الموضوع تمثيليّات متعدّدة ، وروايات مختلفة ، وأهاجيّ مضحكة ، منهـا :

نزل الألمـان إلى البرِّ — فهوى الأجناد من الذّعرِ

أمّا الأسطول ففي جحرِ — يا عيب الشوْمِ ويا خُسري

عار الأوطان غدا يسري — ويعطّل لعبي «بالغولف»

ولم تكذّب الأحداث تكهّناً كما كذّبت هذا التكهّن ! ولكنّنا لا نغالي فنقول إنّ « انكلترا » قد هبّت إلى السلاح ، إذ لم يكن لديها سلاح ! غير أنّ حركة التطوّع لخدمة الوطن المهدّد بالخطر كانت شاملة . وجّه « أنطوني إيدن » نداءه الأوّل في ١٤ أيّار ، معلناً احداث فيلق من «المتطوّعين للدّفاع عن الوطن» مهمّته الإسهام في الدفاع عن المدن والقرى في حال تعرّضها للغزو . ولم تمض ثلاثة أيّام حتّى كانت الكتائب الأولى تقوم بدوريّاتها على الشواطىء ، ولم يمض أسبوع حتّى وقّع على طلبات الانضمام ٢٥٠,٠٠٠ متطوّع . ولا يغربنّ عن

البال أنّ كارثة « دنكرك » والهزيمة الفرنسيّة قد زادتا حركة التطوّع نشاطاً . ويوم اتّخذت هذه القوّات المحلّية اسماً جديداً هو « الحرس الوطنيّ » كان عدد رجالها قد أربى على المليون .

توافرت الرجال ، ولكن أين الأسلحة ؟ الواقع أنّها كانت نادرة بالنسبة للجيش النظاميّ ، فإذا هي جدّ نادرة بالنسبة للحرس الوطنيّ ! وُجّه إلى الشعب نداء عامّ لجمع الأسلحة فتجمّع منها في مراكز الشرطة ما يقارب العشرين ألف بندقيّة من كلّ نوع ، بما في ذلك بندقيّات « إنفيلد » العائدة لحرب الانفصال . والتي كان « درووري لين » يستخدمها في تمثيليّاته التاريخيّة . وقد حملها طوعاً إلى مذبح الوطن ! ولكنْ من أين لهذه الأسلحة أن تكفي لتزويد رجال الحرس الوطنيّ ؟

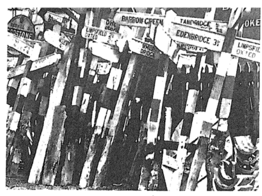


الدكتور « جوسلين بركنز » القيّم على كنيسة « وستمنستر » يتدرّب على استعمال البندقيّة .

ولذا راح البعض يبحث عن وسائل غير رسميّة ؛ فغدا مفجّر الألغام . وهو من مخلّفات الحرب الأهليّة الإسبانيّة ، مدرّباً مرغوباً فيه . كما أن بعض رجال القانون أو المعلّمين شرع يتدرّب على استعمال « كوكتيل مولوتوف » لإحراق الدبّابات ؛ وانصرف آخرون إلى صنع الرّماح مستعينين بعصيّ المكانس . ممّا جعل العامّة تطلق على هذه المؤسّسة الجليلة لقب « جيش عصيّ المكانس » ؛ ولكنّ شيئاً لن يحول دون خروجها من هذا الوضع الحقير وإنهائها الحرب وسلاحُها المدفعيّة والدبّابات .

لقد غدا المظلّي فزّاعة . فأُسكِتت أجراس الكنائس موقّتاً عن الدعوة إلى الله كيما تعلن أصواتها عن هبوط العدوّ الجويّ . واستبدّ





انتُزعت شارات الطرق وكُدِّست . لن يهتدي الغزاة إلى طريقهم بسهولة !

الذعر بسلاح الطيران الملكيّ نظراً للمصير الذي يتهدّد طيّاريه الذين تُصاب طائراتهم . فأصدر إلى « الحرس الوطنيّ » أمراً يقضي بالامتناع عن مهاجمة المظلّيّين ما لم يبلغ عددهم الستّة على الأقلّ ، إذ كان معلوماً أنّ أيّة طائرة حربيّة بريطانيّة لا تُقِلّ أكثر من خمسة رجال . وزُرعت الملاعب بالحواجز والعقبات ، والطرقات بالقناطر . اتّقاء لشرّ الطائرات الشراعيّة .

كانت السفن هي تحصينات « انكلترا » وأسوارها التقليديّة ، بيد أنّ القوّة الجويّة الألمانيّة في سماء « المانش » وبحر الشمال كانت تحدّ كثيراً من الدور الذي تمثّله البحريّة في صدّ أيّ غزو . ولذا انتقل الدور الأوّل في الدفاع إلى سلاح الطيران الملكيّ ، ذاك أنّ مصير آخرِ خصمٍ يتصدّى « لهتلر » كان متوقّفاً على مدى سيطرته على الجوّ .

وهكذاً كانت « مونيخ » جليلة الفائدة في ميدان الدفاع الجوّيّ ؛ فقد استيقظت « بريطانيا » يومذاك على قلق ، ولكنّها لم تعد إلى النوم ، بل راحت تعدّ لمعارك الجوّ قيادةً أرضيّة جبّارة . بُعث النشاط من جديد في هيئة المراقبة التي خدّرها النعاس خلال أيّام السلم الوهميّ . وضوعف عدد المطارات وجُمعت فيها كمّيات من الموادّ اللازمة لإصلاح أيّ عطل يلحقه بها القصفُ الجوّيّ . وتمّ ضبط « الجهاز » بمعاونة مكتب البريد العامّ السرّيّة ! و « الجهاز » عبارة عن شبكة لنقل المعلومات تستخدم الأجهزة المدنيّة . وتصل ما بين الأجهزة المشتركة في المعركة الجوّيّة فتؤمّن لها قيادة مركزيّة . إذاً فلا مندوحة عن التعرّف إلى وجود هذا الهيكل الخلفيّ الواسع ، لفهم تطوّر المعارك التي نشبت في السماء البريطانيّة ؛ فلن تكون الاشتباكات الجوّيّة مبارزة عمياء يقوم بها بعض فرسان الجوّ ، لأنّ « القليل عَديدُهم » الذين تحدّث عنهم « تشرتشل » (ويعني بهم الطيّارين البريطانيّين) سيعتمدون جماعةً أرضيّة ضخمة من الموظّفين تعمل على مضاعفة فعاليتهم . هذا . ولسوف يُسخّر لخدمة الطيران اختراعٌ خطير ؛ ففي ١٩٣٥ تحرّى وزير الجوّ عن « شعاع الموت » مستفهماً عن جدوى استخدامه ضدّ قاذفات القنابل المعادية ، فأجاب « واتسون وات » أحد علماء المختبر الفيزيائيّ الوطنيّ بأنّ شعاع الموت ليس قابلاً للتحقيق على النحو المطلوب ، ولكن يمكن استخدامه لتتبّع مركبة فضائيّة خارج نطاق النظر البشريّ ، بفضل انعكاس الموجات الكهربائيّة المغنطيسيّة على شاشة الإيون . ومن هذا الجواب نشأ الرادار ؛ وهكذا امتلكت « بريطانيا العظمى »

في حزيران ١٩٤٠ زار الملك « جورج السادس » مصنعاً للأسلحة وجرّب أحد الرشّاشات .

وحدها . سنة ١٩٤٠ . شبكةً مزدوجة للتتبّع والتحرّي : « الشبكة المحلّية » . وهي الرادار العاديّ . و « شبكة الطيران المنخفض » لتعقّب الطائرات التي تطير على انخفاض . وهكذا كانت أجهزة الحراسة السحريّة عيناً ساهرة على « المملكة المتّحدة » من « شتلند » إلى بلاد « الغال » . ولولا هذه الحراسة الساهرة لما تحقّقت مآثر معركة «بريطانيا» المجيدة .

يُقسم سلاح الطيران ثلاثةَ فروع : فرع الاستطلاع . وفرع القصف ، وفرع المطاردة ؛ كان لفرع المطاردة أن يلعب الدور الحاسم . ولذا يستحقّ الرجل الذي تولّى قيادته . وهو جنرال الجوّ «هيو دودنغ». أن يستوقفنا لحظة . كان تحت إمرته ألمعُ فرع من فروع الطيران . وكان هو مع ذلك أبرد شخصيّة فيه ! لُقّب « بستوفي » . أي « المصبِّر » ؛ كان يكره البزّة العسكريّة . مفضّلاً أن يظهر بلباس محام محافظ في « مقهى لنكولن » . ويعيش في عزلة وكأنّه يناجي الأرواح ، فيتحدّث مع طيّاريه الذين يسقطون في ساحة الوغى . ولكنّ مقدرته الفنيّة وصلابة إرادته جعلتا منه قائداً فذّاً . فإليه يرجع فضل « بوتقة سلاح المطاردة » ، وهو الذي تزعّمه في أحرج فترات القتال وأضراها .

قبل الحرب كان « ستوفي » قد طالب بإلحاح بأن تُعطى المطاردات الأفضليّة في صناعة الطائرات . ثمّ ناضل بكلّ قواه من أجل اعتماد برنامج لصنع ٥٧سرباً، تُخصّص ٥١ منها « لبريطانيا » دون المستعمرات . ثمّ حثّ على اعتماد نوعين من المطاردات هما «هاريكان» و « سبيتفاير » . وإذ تبيّنت له أفضليّة هذا النوع الأخير مال بالمجهود الصناعيّ كلّه نحوه . في بدء الحرب لم يستطع أن يجنّد أكثر من ٣٩ سرباً ، غير أنّه بذل أقصى طاقته للابقاء عليها في « انكلترا » ؛ وهو القائل : « لقد بدأت معركة « لندن » بالنسبة لي في أيلول ١٩٣٩ ». وهكذا أتاحت له « أنانيته المقدّسة » أن يواجه فترة العزلة البريطانيّة الكبرى بـ٤٤٦ مطاردة ، منها ٣٣١ « هاريكان » و « سبيتفاير » جاهزة للعمل . كان ذاك سلاحاً ضئيلاً في الدفاع عن « المملكة المتّحدة».

وكان إلى جانب « دودنغ » : « بيفربروك » . ولقد أبدى «تشرتشل» جرأة فائقة بتنصيبه على رأس وزارة « صناعة الطيران » المنشأة حديثاً . إذ وقف سلاح الطيران الملكيّ في وجه الوزارة والوزير على السواء : فالوزارة تفصل الإنتاج عن القوّات العاملة . والوزير موضع انتقادات جمّة : فهو كنديّ اسمه « ماكس ايكن » . لقّب بلورد «بيفربروك». وهو رجل عصاميّ . أحد كبار تجّار ورق الصحف . ومؤسّس « الديلي إكسبرس » ؛ ولكنْ لم تكن له أيّة صفة فنيّة تؤهّله لأن يغدو باني طائرات . أضف إلى ذلك مزاجه العصبيّ . وطبعه الحادّ . وكبرياءه العاتي الذي كان ينذر بأسوإ الخلافات بينه وبين السلطات العسكريّة والمدنيّة . راهن « تشرتشل » على نشاطه الخارق وعلى مخيّلته العجيبة ؛ راهن فكسب الرهان . ولسوف يصرّح « دودنغ » قائلاً : «لا يمكن وصف الأثر الذي أحدثه وصول اللورد «بيفربروك» إلاّ بكلمة واحدة : إنّه لأثر السحر ! » فمنذ أيّار علمت الأركان بذهول أنّ الوزير الجديد سيسلّمها ٣٢٥ مطاردة بدلاً من ٢٦١ ؛ وخلال الأشهر التالية فاقت الدفعات التي سلّمها العددَ المرتقّب بمقدار الثلث . وهكذا عوّض عن الخسائر التي وقعت في « النروج » و « بلجيكا » و « فرنسا » ، وزوّد السير « هيو دودنغ » ، في ١١ آب ، أي عشيّة



« إنّنا لواثقون من حسن المصير ... »
(من خطاب « لتشرتشل » في ١٧ تموز ١٩٤٠)

الموقعة الحاسمة . بـ ٧٠٤ مطاردات . من أصلها ٦٢٠ من طراز « هاريكان » و « سبيتفاير » . أي ضعفي ما كان لديه في شهر أيّار !

أمّا من الناحية التكتيكيّة فقد قُسم سلاح المطاردة أربعَ فئات : الأولى . (رقم ١٠) . ومقرّ قيادتها في « باث » . تحمي جنوبي غربيّ « بريطانيا » ؛ والثانية . (رقم ١٣) . ومقرّ قيادتها في « نيوكاستل اون ــ ذي ــ تاين » . تحمي «سكوتلاندا» والولايات الانكليزيّة الشماليّة ؛ والثالثة . (رقم ١٢) . ومقرّ قيادتها في « نوتنغهام » . تحمي قلب البلاد الصناعيّ . أي « الميدلاند » ؛ أمّا الرابعة ، (رقم ١١) . وهي أهمّها على الإطلاق . ومقرّ قيادتها في « أوكسبردج » في « المدلسكس » . فتحمي « لندن » والمقاطعة الجنوبيّة الشرقيّة التي ترقّب الغزو .

كان الانكليز يتوقّعون الغزو . وكان « تشرتشل » يعمل على استعجاله . قال : « انتهت موقعة « فرنسا » وبدأت موقعة « انكلترا » . وكانت خطبه تارة استفزازيّة مبتذلة : « نحن في انتظاركم . والأسماك كذلك ! » وطوراً ملحميّة : « سنقاتل على سواحلنا . سنقاتل على تلالنا . سنقاتل في مدننا وقرانا . ولن نستسلم أبداً . » ولكنّ حديثه كان يدور دوماً على المحور ذاته : لن تربح « ألمانيا » الحرب ما لم تخضع « انكلترا » . ولن تستطيع أن تخضعها . كان يريد أن يهيّىء الشعب « الانكليزيّ » للمحنة التي تنتظره . وأمله أن لا تظلّ « أميركا » مكتوفة الأيدي إذا تعرّضت أمّ ديمقراطيّتها ومهد حضارتها لهجوم البربريّة النازيّة ؛ حتى انّه ليتمنّى ، إذ ينظر إلى سماء تمّوز النقيّة . أن تمتلىء بالصلبان الألمانيّة السوداء . فيحمل انهيار « كانتربري » و « أوكسفورد » و « وستمنستر » إلى « الولايات المتّحدة » نفير خطر داهم . كان يكتب إلى « روزفلت » يوميّاً طالباً منه السلاح يائساً . وقبل منه هبة ٩٠٠ مدفع فرنسيّ قديم من عيار ٧٥ يرقى عهدها إلى الحرب العالميّة الأولى . وتوسّل إليه أن يعيره ٥٠ مدمّرة قديمة ؛ « فأميركا » هي النجمة الهادية التي لن تتوقّف أفكار « تشرتشل » عن التوجّه نحوها خلال كفاحه الطويل المنعزل .

كان هو نفسه يتأهّب ويعدّ للمستقبل عدّته . فقد هُيّىء لرئيس الحكومة ملجأ في زاوية حديقـــة « سان جيمس » . تحت بنـــاية « ستوريز غيت » . زاره « ونستون » فألفاه قاتماً كئيباً . فأمر بتوسيعه وإعادة تأثيثه . وتزويده بحجرة للمشروبات . وبجناح خاصّ به وبالسيّدة « تشرتشل » . وقال : « إمّا أن أخرج من هنا خروج منتصرٍ مظفّر . وإمّا أن أخرج ورجلاي إلى الأمام إذا حالف النصرُ «هتلر». ثمّ أمر بنشر ما قالته الملكة « فكتوريا » أيّام معاكسات حرب «البورز»: « أرجو أن تفهموا أن لا مجال للتشاؤم في هذ البيت ؛ نحن لا نحسب حساباً لإمكانات الهزيمة . فهي غير واردة » .

أجل . قبل « تشرتشل » بالخطر . بيد أنّه لم يقبل بشظف العيش ؛ ففي « منازل الميدان » هذه تابع حياته المترّفة ، واستهلاكه العاديّ من لفائف السيجار المدموغة باسمه . ووجباته السخيّة . وعمله في الفراش في ثوب غرفته القرمزيّ المذهّب ؛ ولكنّه كان إلى ذلك على استعداد دائم لتفقّد مواطن الخطرِ . وللتحليق في جِواء تغصّ بالأعداء. ولتحدّي مخاطر الحرب التي يتهرّب منها أكثر زعماء الشعوب وقادتها .

ولكنْ . ألم يكن هذا الصمود البريطانيّ يشكو أيّ تصدّعٍ ؟ إنّه وأيم الحقّ . لسؤال محرِج. فطالما جرت الأمور في مجراها الطبيعي لم تظهر الانهزاميّة بوضوح. ونحن مع ذلك نعلم أنّ الأرستوقراطيّة ، والأوساط الماليّة. وعالم الأعمال، وكنيسة « انكلترا »، قد عرفت بعض المفكّرين الواقعيّين القائلين بالانحناء أمام الأقدار . الراغبين في توقيع سلم . أو هدنة استجمام على الأقلّ . ونعلم كذلك أنّ الجزر الانكليزيّة النورمنديّة . وهي الأرض البريطانيّة الوحيدة التي احتلّها الجيش الألمانيّ ، لم تستقبل المجتاحَ بحرب العصابات المستقتلة اليائسة التي نصح بها « تشرتشل » الفرنسيّين ، بل استقبلته بمظاهر الاحترام والحفاوة . و « تشرتشل » نفسه لم يستسلم قطّ للأوهام ؛ كان يفتخر بأنّ موضوع سلم ذي حلّ وسط لم يرد البتّة في مخطّط الحكومة، ولكنّه كان يكتب الى اللورد « لوثيان » ، سفيره في « واشنطن » ، يقول : « لا تُقلع البتّة عن إقناع الرئيس بأنّ هذا البلد سيشهد حكومة خونة متخاذلين في حال تعرّضه للغزو والاحتلال ، تسعى إلى إحلال السلام وتحويل «انكلترا» إلى محميّة ألمانيّة . . . » ودرءاً لهذا الخطر الناجم عن تخاذل النخبة ، أخذ يعتمد على الإباء الذي اتّصفت به الجماهير من أهل الجزيرة ، وعلى روح الصمود التي صبّها التاريخ في عروق الشعب الانكليزيّ .

كان يتعمّد المغالاة في ثقته واطمئنانه طمعاً في نشرهما وتعميمهما ؛ بيد أنّه كان أدرى الناس بأنّ بضعة آلاف من المظلّيّين يهبطون في المطارات فاتحين الطريق أمام الغزو الجوّيّ ، قد يخلقون في « انكلترا » أوضاعاً شبيهة بالتي سبّبت تضعضع الدفاع الهولنديّ في ساعات وأدّت إلى استسلام « هولندا » في مدى أيّام ؛ فكان كلّ صباح يمضي بسلام يُعتبر مهلة مباركة ميمونة .

فيما كان « تشرتشل » يهلّل لفترة الاستراحة هذه ، أخذ « هتلر » يدرك ميزة الواقعيّة البريطانيّة . إذا لم تقرّر « انكلترا » طلب السلم ، فلا مناص من إرغامها على ذلك بقوّة السلاح . وقد خلقت هذه الحالة وضعاً جديداً غير منتظر ؛ لقد رفض الكثيرون طويلاً الاقتناع بأنّ «هتلر» ، وقد وصل إلى مضيق « كاليه » ، لم يفكّر بغزو «انكلترا» ؛ والحال أنّ ما ظُنّ غير معقول كان الحقيقة بعينها . كان الرجل قد ابتدع من خياله أكثر المشاريع غرابةً وجرأة . ولكنّه لم يفكّر قطّ بإنزال جنوده على شواطىء « كنت » . أي على بعد ٣٠ كلم من «كاليه» ! لم يكن قد أعدّ لهذا الأمر عدّته . وقد أشار في المذكّرة رقم ٦ الصادرة في ٩ تشرين الأوّل ١٩٣٩ إلى أنّ من أهداف الزحف على « فرنسا » ، « احتلال مركز ملائم للعمليّات البحريّة والجوّية العتيدة ضدّ «انكلترا». ولكنّها أغفلت ذكر العمليّات البرّيّة . وفي ٢١ أيّار ، يوم بلغت دبّاباته مدينة «أبفيل». لفت الأميرال الكبير «ريدر» نظره لضرورة إعداد مشروع للنزول إلى البرّ الانكليزيّ . على سبيل الحيطة ؛ وأسرّ إلى الأميرال « شنيفند » رئيس أركانه قائلاً : « إنّ الفوهرر لا يؤمن بذلك. ولا يأبه له . » ثمّ أعاد « ريدر » الكرّة في ٢٠ حزيران . فلم تلقَ نصيحته أذناً صاغية .

وأخيراً . في ٢ تمّوز . فكّرت القيادة الألمانيّة لأوّل مرّة بالأمر . فقد ورد في مذكّرة لها يومذاك : « لقد قرّر الفوهرر أنّه إذا توافر له بعض الشروط . وأهمّها تحقيق السيطرة الجوّيّة . قد يفكّر بالنزول على البرّ الانكليزيّ . إذاً ينبغي أن تبدأ الاستعدادات في الحال . مع العلم بأنّها لا تعدو كونها استعدادات مبدئيّة . يُلجأ إليها تمهيداً لعمل محتمل . . . » وهبّت مؤتمرات الأركان إلى العمل . ولكن . وهنا الغرابة ، لم يعرها « هتلر » اهتماماً . مع أنّه ، يوم غزو «نروج». قرّر بنفسه أصغر التفاصيل . ويوم اجتياح « بلجيكا » وضع هو نفسه خطّة احتلال حصن «إيبن إيمايل» وترعة «ألبير»؛ أمّا الآن، وموضوع البحث عمليّة جبّارة ، فإنّ « هتلر » لم يعره غير اهتمام سطحيّ متبرّم ! كان في الواقع يأمل أن يتلقّى برقيّة سلام انكليزيّة . وفي ١٦ تمّوز أصدر مذكّرته رقم ١٦ وقال فيها : « طالما أنّ « انكلترا » لم تُبْدِ أيّة بادرة من بوادر التفهّم ، مع ما هي عليه من وضع ميؤوس منه ، فقد

قرّرت إعداد العدّة للقيام بعمليّة بريّة ضدّها . ولتنفيذها إذا دعت الحاجة . . . »

كان يوم ١٩ تمّوز يوم نصر مشهوداً ؛ فقد راحت القوّات ، لأوّل مرّة منذ ١٨٧١ ، تمرّ صفوفاً صفوفاً تحت بوّابة « برند بورغ » ، فيما تحوّلت « برلين » بحراً من الأعلام . وبدا « هتلر » في « أوبراكرول » بأبهى مظاهر الظفر . يحفّ به موكب مجيد يضمّ ، فضلاً عن « غورنغ » وقد رفّعه إلى منصب « مارشال الرايخ » الجديد ، ١٢ مارشالاً جديداً هم : « كيتل » و « براوشيتش » و « روندشتاد » و « بوك » و « ليب » و « رايخناو » و « ليست » و « كلوغي » و « فيتزلبن » و « فيلخ » و « كسلرنغ » و « شبيرل » . واتّصف الخطاب الذي ألقاه باعتدال مثاليّ . إذ مدّ « لإنكلترا » غصن زيتون كبيراً . قال : « يحتّم عليّ ضميري أن أدعو « انكلترا » إلى التعقّل ؛ وأراني قادراً على توجيه هذا النداء لأنّني لست مغلوباً يستجدي بل غالباً لا يطمع في شيء . لا أرى على الإطلاق موجباً للمضيّ في هذا النزاع ، فأنا أبكي الضحايا التي يسبّبها وأودّ توفيرها . ربّما خطر للهرّ « تشرتشل » أن يرى في هذا النداء دليل تخوّفي من النتيجة الأخيرة ؛ ولكنّ ضميري مرتاح » . كان لهذا الخطاب دويّ خارق ، فظنّ الشعب الألمانيّ لحظة أنّ المعجزة واقعة . أنّ « انكلترا » ستلقي سلاحها وقد قهرتها مروءة الفوهرر وشهامته ؛ بيد أنّ « هاليفاكس » أجاب في اليوم التالي قائلاً : « ستنال « ألمانيا » السلام إذا جلت عن الأراضي المغتصبة كلّها . وأعادت الحرّيات السليب ، وتقدّمت بضمانات كافية للمستقبل . »

غادر « هتلر » « برلين » مختلياً بنفسه في « برختشغادن » ، وعاد إليه تجهّمه وقلقه . اعتزل يفكّر ، ويقوم بنزهات طويلة يرافقه كلبه ؛ وفجأة استدعى « كيتل » وطرح عليه السؤال التالي : « أتعتقد أنّني أستطيع القضاء على « روسيا » قبل الشتاء إذا ما هاجمتها في الحال ؟ » لم يكن « كيتل » قد تعوّد معارضة « هتلر » ، إلاّ أنّ السؤال كان من المفاجأة والخطورة بحيث قطع عليه تنفّسه . فتنازل « هتلر » وبسط له فكرته : كان لا بدّ من إيجاد تفسير لموقف « انكلترا » الغريب ؛ فلو ظلّت وحيدة في وجه « ألمانيا » لقُضي عليها ، وهي تعرف ذلك حقّ المعرفة . إذاً فصمودها العنيد يعني أنّها تتوقّع العثور على حليف ؛ ومن عساه يكون . « أميركا » ؟ كلاّ : « فأميركا » عاجزة عن النهوض بحرب . لم يبقَ إذاً سوى « روسيا » ؛ فاستمرار « انكلترا » في رفض عروض السلم السخيّة يفسّره أملها في تدخّل « روسيا » ، وترقّبها له . إذاً في القضاء على « روسيا » قضاء على كلّ شيء ، وتجريد « انكلترا » من هذا السند المعنويّ الذي يحدوها إلى التصلّب ، كما أنّ في ذلك كسباً للمدى الحيويّ الذي تناضل « ألمانيا » من أجله . فالمسألة الوحيدة المطروحة هي مسألة التوقيت . « فهتلر » لا يريد إلاّ حروباً قصيرة خاطفة . أفيستطيع القضاء على « روسيا » قبل الشتاء ؟ إنّه يطلب رأي رئيس القيادة الحربيّة بالموضوع .

واستعاد « كيتل » أنفاسه . إنّ تمّوز يكاد ينتهي ؛ والجيش بكامله موزّع في الغرب . ولا بدّ من ستّة أسابيع في أقلّ تعديل لتحويله وجهة الشرق . فلا يمكن أن يُباشَر بحملة « روسيا » قبل النصف الثاني من أيلول . ويصادف ذلك الوقت فصل الأوحال . ومهما كان الجيش الأحمر ضعيفاً فإنّ اتّساع المسافات ، والطرقات الوعرة ، تحول دون إبادته قبل فصل البرد والصقيع .

لم يمرّ يومان على استئناس « هتلر » بهذا الرأي حتّى استدعى في ٣١ تمّوز قوّاد الجيش والبحريّة إلى « برغوف » . أُعطيت الكلمة للأميرال الكبير « ريدر » . الذي راح يشرح بعض الآراء المتشائمة حول غزو « انكلترا » ، ويعيّن ١٣ أيلول كأقرب موعد ممكن لتحقيقه . ثمّ اقترح تأجيله حتّى ١٩٤١ مبيّناً أنّ شهري أيّار وحزيران هما أنسب من مطلع الخريف . وبدلاً من أن يثور « هتلر » على فتور بحّاره الأوّل ، أعلن أنّ حرباً تعتمد سلاح الطيران والغوّاصات تستطيع قهر « الانكليز » في « مدى سنة أو سنتين » . ثمّ ترك موضوع « انكلترا » ليتحدّث عن « روسيا » . وهنا تبدّلت لهجته . فإذا عدم المبالاة يستحيل هوى جارفاً . وأعاد « هتلر » طرح المشروع الذي بسطه « لكيتل » : مفتاح كلّ حلّ هو في القضاء على « روسيا » . وخير الفرص عاجلها . كاد تحقيق هذا الهدف أن يكون ممكناً في سنة ١٩٤٠ ، ولكن ، ما دام الفصل قد تقدّم كثيراً ، فليكن موعد الهجوم ربيع ١٩٤١ ؛ ستشترك بالزحف ١٢٠ فرقة ، فيما تسهر ٦٠ فرقة على الأمن في الغرب ، ممّا يؤدّي إلى استحداث ٢٠ فرقة جديدة . ولسوف يحجب هذه الاستعدادات نشاطٌ يبذله الجيش الألمانيّ في حوض المتوسط ، فضلاً عن متابعة إعداد مشروع النزول على الشاطىء الانكليزيّ . ومتى أُبيد الجيش الأحمر شُطبت الدولة البلشفيّة من الوجود وجُزّئت « روسيا » . . .

يثبت ما تقدّم كلّه أكثرُ الشهادات وأوفرُها اتّفاقاً : من إفادات « كيتل » في محاكمات « نورنبرغ » ، إلى يوميّات « هالدر » ، إلى رواية « غراينر » مؤرّخ القيادة الحربيّة العليا . لم ينشأ أيّ نقاش حول هذا الموضوع الذي قلب مُعطيات الحرب رأساً على عقب ، وفتح أمام « ألمانيا » هوّة سحيقة من المخاطر . ومع أنّ « براوشيتش » كان قد قال « لهالدر » قبل ذلك بأربع وعشرين ساعة : « يجب الحفاظ على صداقة روسيا » ، فقد لزما الصمت في « برغوف » . ذلك أنّ أحداً لم يكن ليناقش « هتلر » . ولسوف يفسّر « غورنغ » ذلك بقوله : « لو أنّ أحد الجنرالات قام يعارض رأياً من آراء الفوهرر لأُعدم رمياً بالرّصاص ؛ ليس هذا فحسب ، بل لاعتبرته مجنوناً . . »

إنّ اجتماع ٣١ تمّوز أساسيّ لتفهّم الأحداث المقبلة . ستتّسع الحرب وتتشعّب ، وستجري أحداث جسيمة مدويّة فتستأثر باهتمام العالم ، بيد أنّ هذه اللوحة الضخمة الدامية لن تكون ، على حدّ قول « هتلر » ، غير تغطية واسعة ، أو سلسلة من الأعمال الثانويّة . لقد اتّجهت فكرة « هتلر » اتّجاهاً نهائيّاً لا يعرف المرونة ، وغدا كلّ ما لا يؤدّي إلى إبادة « روسيا » ثانويّاً في نظره .

بين « انكلترا » و « روسيا » وجهة أخرى هي البحر المتوسّط . فدخول « إيطاليا » ميدان الحرب جعل منه مسرحاً للعمليّات دوّت عليه الطلقات الأولى في ١١ حزيران ، يوم أسرت السيّارات المزوّدة بالرشّاشات والتابعة للكولونيل « كومب » ٧٠ إيطاليّاً لم يكن لهم علم بدخول زعيمهم الحرب ؛ وأبحر في الوقت نفسه أسطول « الاسكندريّة » البريطانيّ فأسر ١٣٠,٠٠٠ طن من السفن الإيطاليّة ، فأثبت الإنكليز تفوّقهم برّاً وبحراً .

كانت مواقع « إيطاليا » السّتراتيجيّة ممتازة ؛ فهي تخنق حوض المتوسّط بفضل « صقلية » ، وتسيطر على حوضه الشرقيّ بفضل « رودس » ؛ أمّا « مالطه » التي أُهملت خلال السنوات السلميّة الطويلة فكانت عرضة لأيّ سطو جوّيّ ، إذ لم يكن لها غير ثلاث طائرات بريطانيّة مزدوجة الجناح سُمّيت الإيمان ، والرجاء ، والمحبّة ! أمّا في « أفريقيا الشرقيّة » فكان « لإيطاليا » ، في ١ حزيران . ٩١,٢٠٤ جنود إيطاليّين و١٩٩,٢٧٣ جنديّاً من أهل البلاد . ولم

يكن للإنكليز بإزائهم غير ٢٢.٠٠٠ رجل منتشرين في « السودان » و « الصومال » و « كينيا » . أمّا في « أفريقيا الشماليّة » فقد سمح السلم للمارشال « بالبو » بأن يبسط في وجه « مصر » ١٤ فرقة ، أي ١٦٠.٠٠٠ رجل ، مقابل رجال الجنرال « أوكونر » . قائد جيش « النيل » . البالغ عددهم ٣٦.٠٠٠ ؛ وكان رئيس « أوكونر » . السير « أرشيبالد ويفل » . يضمّ في قيادة الشرق الأوسط التي يديرها ٩ بلدان . وقطاعاً جغرافياً يبلغ ٣.٢٠٠ كلم طولاً و٢٧٠٠ كلم عرضاً . وليس له في هذه الأقطار الشاسعة المختلفة سوى فرقتين من المشاة وفرقة مصفّحات غير تامّة ، ومجموعتين من الألوية المستقلّة، وفيلق من الهجّانة يضمّ ٥٠٠ رجل ؛ فكان بوسع « إيطاليا » إذاً أن تأخذ بخناق « مصر » في شبه ملزمة ، وأن تحتلّ « السويس » وتغلق منفذ المتوسّط الشرقيّ . كان المنفذ الغربيّ يحمل اسم « جبل طارق » الرهيب . ولكن ما من أحد كان يجهل ضعف هذه القلعة القديمة التي يحاصرها ويُطالب بها نظامُ الحكم الاسبانيّ الجديد . وقد اعتُبر الوضع هناك ، بعد هزيمة « فرنسا » . من الخطورة بحيث تدارس رؤساء الأركان في ٢٢ تمّوز قضيّة إجلاء الأساطيل البريطانيّة كلّها عن المتوسّط . ولم يُرفض هذا التدبير المريع بل أُجّل تأجيلاً . إذ اتُخذ قرار بالتريّث قليلاً لمراقبة الأحداث .

فهل تستطيع « ألمانيا » . والحالة هذه . أن تتدخّل لتؤمّن اندحار الانكليز النهائيّ في المتوسّط ؟ أجل ، إنّها لتستطيع . كان « جودل » أوّل من اتّخذ من هذه القضيّة موقفاً واضحاً . فقد كتب مذكّرة عنوانها : « إجتياح أم لا ؟ » وقدّمها للفوهرر فأوضح بالبرهان أنّ محاولة النزول في « انكلترا » مجازفة تحفّ بها المخاطر ، لا يُلجأ إليها إلاّ في الضرورة القصوى . ثمّ اقترح أن تُستبدل باحتلال « جبل طارق » . وإقفال المتوسّط . وبامتلاك جزر « الكناري » و « الآسور » . وإرسال وحدات مصفّحة إلى « ليبيا » لمساندة الإيطاليّين في احتلال « السويس » . وهكذا قام في وجه المغامرة الانكليزيّة والمغامرة الروسيّة معاً مشروعٌ متوسّطيّ عُرف بالمخطّط « السعيد » أو العمليّة « السعيدة » .

أمّا القوّاد المجتمعون لدرس غزو « انكلترا » فلم يتوصّلوا إلى اتّفاق ، فطالبوا بتحكيم « هتلر » . وضع « براوشيتش » مخطّطاً رحباً جدّاً يُشرك به مجموعة الجيوش «أ» (فون روندشتاد) ومجموعة الجيوش «ب» (فون بوك) ، فينطلق « روندشتاد » لمهاجمة «انكلترا» بالجيشين ١٦ (بقيادة بوش) و٩ (بقيادة شتراوس) ؛ يبحر الأوّل بين « تكسل » و « مدينة بولونيا » ، ثمّ ينزل ٦ فرق في مناطق ثلاث هي : «رامسغيت — دوفر ، فولكستون — دنجرنس، راي — هاستنغز» ، ويبحر الثاني من « الهافر » وينزل ٤ فرق في جون « برايتون » وفي جزيرة « وايت » . أمّا المجموعة «ب» فتقدّم الجيش ٦ (بقيادة رايخناو) الذي يبحر من « شربورغ » ثمّ ييمّم الشاطىء في جون « لايم » غربيّ « بورتسماوث » . ثمّ تنغلق كمّاشة السّتراتيجيّة الألمانيّة مرّة أخرى : تؤمّن المجموعة (أ) محطّة انطلاق بين « ساوثمبتون » و « غريفسند » . وتتحاشى الانزلاق في الأحياء اللندنيّة ، ثمّ تتحرّك بجناحها الأيسر وتستدرج الانكليز إلى المعركة الحاسمة على مجرى « التاميز » الأوسط . ناحية « أوكسفورد » . وبعد أن تنتزع المجموعة (ب) مدينة « بريستول » تستدير ناحية الشرق وتداهم مجموعة القوّات المعادية من الخلف ، والأمل كبير في أنّها ستنهار سريعاً ، وإذ ذاك يصبح احتلال « المملكة المتّحدة » إجراء شكليّاً .

هبّت البحريّة تناهض ذاك المشروع مدّعية أنّها تفتقر إلى وسائل النقل الضروريّة لتنفيذه . وإلى القوّات الكافية لحمايته . وإلى المهلة اللازمة لإعداده . طالب « ريدر » بفترة ١٠ أيّام لنقل الدفعة الأولى المؤلّفة من ١٣ فرقة ، ولم يستطع أن يتعهّد بشيء فيما يتعلّق بالدفعات التالية . وكان عليه أن يحسب حساباً لغارات الأسطول الانكليزيّ اليائسة ، وأمّا حقول الألغام التي يجري زرعها في بحر « المانش » وبحر الشمال ، لحماية جنبات العمليّة . فكانت تقلقه أكثر ممّا تقلق جنوداً يجهلون تقلّبات البحر ومخاطره . لذلك اقترح تضييق جبهة الغزو كثيراً : أن يُكتفى بالنزول بين « بيتشي هيد » و « دوفر » . أي على ذاك الجزء من الشاطىء الانكليزيّ المقابل لمضيق « كاليه » ؛ فإذا بمشروعه هذا لا يعادل ربع المشروع الذي اقترحته أركان الجيش .

عاد « براوشيتش » يعرض خرائطه ويدافع عن خطّته : لن يُكتب للغزو نجاح إلاّ إذا هوجمت « انكلترا » على جبهة فسيحة ؛ ثمّ انّ مخاوف رجال البحريّة تُفقد الجيش كلّ إمكانيّة في التحرّك، وتقذف به على الأجراف، وترغمه على النزول بدبّاباته في أراضي « الكنت » الكثيرة المستنقعات ، وتدفعه إلى معركة تجابُه يُريد تلافيها ؛ و«جودل» محقّ في قوله إنّ عمليّة الإنزال مجازفة ، ولكنّ الجرأة وحدها تستطيع أن تحدّ من خطورة المجازفة . لعب « هتلر » دور الحكم ، ولكنّه ، على غير عادته ، اتّخذ جانب الحذر ؛ فجبهة الغزو لن تتعدّى « برايتون » ، والنزول في جزيرة « وايت » يُلغى ، وكذلك يُلغى فتح « ساوثمبتون » . وأُوقفت عمليّة مجموعة « فون بوك » وحركة التفاف الجيش السادس . وأشار « هتلر » بوضوح إلى الشرط الأوّليّ اللازم المحتّم الذي لا بدّ من أن يسبق العمليّة : فلن يصدر الأمر بتنفيذ الغزو ما لم يدمّر الطيران الألمانيّ الطيرانَ الملكيّ . ليس هذا فحسب ، بل كان لا بدّ للطيران الألمانيّ ، بعد شلّ خصمه ، من أن يحتفظ بقوّات كافية ، فيبقى قادراً على القتال لمساندة جيش البر العامل على الأرض الانكليزيّة . وبعد اجتماع ٣١ تمّوز الحربيّ أملى « هتلر » مذكّرته رقم ١٧ : يبدأ الهجوم الجوّيّ العامّ على « بريطانيا العظمى » في ٥ آب ، ويكون هدفه القضاء على الطيران الخصم ؛ فينبغي أن تُوجّه الضربات إليه وإلى منشآته البرّيّة ، وإلى مصانع إنتاجه وتصليحه . أمّا الغارات المطّردة على المدن ، في عمليّات قصف تهدف إلى بثّ الذعر ، فممنوعة .

كانت القوّات التي تعتمد عليها « ألمانيا » للنهوض بهذه المهمّة تتألّف من ثلاثة أساطيل جوّية ؛ الأوّل ، رقم ٥ ، ويقوده الكولونيل جنرال « ستومبف » ، يتمركز في « سكاندينافيا » ولن يتدخّل إلاّ شماليّ الجزر البريطانيّة ؛ والثاني ، رقم ٢ ، بإمرة الجنرال فيلد مارشال « كسلرنغ » ، قد استقرّ بين « زيديرزي » و « السين » ، فيما أقامت أركانه العامّة في « بروكسيل » ، وأقام مركز قيادته الأماميّ في رأس « غري — ني » ، وقد أُوكل إليه خصوصاً أمر « انكلترا » حتى خطّ « بورتسماوث — أوكسفورد — مانشستر » ؛ أمّا الأسطول الأخير فهو الأسطول رقم ٣ الخاضع لإمرة الجنرال فيلد مارشال « شبيرل » الذي أقام أركانه في « باريس» ومركز قيادته في « دوفيل » ؛ كانت قاعدته « بروتانيا » و « نورمانديا » ، ومهمّته مهاجمة الولايات الجنوبيّة الغربيّة .

كان مجموع عدد الطائرات يبلغ ٢,٦٦٩ ، توزّع على الشكل التالي: ١,٠١٥ قاذفة قنابل أفقيّة ، دو — ١٧ ، دو — ١٧٢ ، دو — ٢١٥ هيل — ١ ، يو — ٨٨ ، وكلّها من ذوات المحرّكين ؛ و٣٤٦ «شتوكا» (أو قاذفة قنابل انقضاضيّة) يو — ٨٧، ذات محرّك واحد ؛ و٩٣٣

مطاردة مي — ١٠٩ ذات محرّك واحد ؛ و٣٧٥ مدمّرة مي — ١١٠ من ذوات المحرّكين : ٢.٦٦٩ جهازاً طائراً لإخضاع أوسع الامبراطوريّات وأعزّها على الإطلاق . يا للمأساة المؤثّرة المريعة !

ألطّيران الألمانيّ والطّيران البريطانيّ وجهًا لوجه

تأجّلت البداية الرسميّة للهجوم الجوّي على « بريطانيا العظمى » في ١٣ آب بسبب رداءة الأحوال الجوّية . إلاّ أنّ يوم ١٢ كان اليوم الحاسم الأوّل : فقد هاجمت تشكيلات من قاذفات القنابل ستّ محطّات رادار جنوبيّ « انكلترا » ، فدمّرت محطّة جزيرة «وايت» تدميراً كاملاً ؛ وقد قُدِّر الوقت اللازم لاستبدالها بـ ١٥ يوماً .

كانت هذه الضربة مقلقة ؛ فمنذ الاشتباكات الأولى اتّضح أنّ الرادار من أسلحة الدفاع البريطانيّة الأساسيّة . فبفضله يرى الانكليز مهاجميهم وهم يؤلّفون التشكيلات ويتّجهون إلى أهدافهم . ويرون الخطط التي يدبّرونها . ومحاولات الخداع التي يقومون بها . فتقلع المطاردات البريطانيّة وتنتشر قبل أن يبلغ العدوّ جروف «ألبيون» . لذلك باءت بالإخفاق محاولاتُ سحق الطيران البريطانيّ في مطاراته . بعد ما تكلّلت بالنجاح في « بولونيا » وفي « فرنسا » . أمّا وقد شرع العدوّ بشنّ هجومه على الرادار . فهذا يعني أنّه يدرك أهمّيته . ولكن ما السبيل إلى إخفاء هذه الأهداف التي تفضحها أبراج معدنيّة يبلغ علوّها ٣٠٠ قدم ؟

وفي اليوم التالي لم تتعرّض أيّة محطّة رادار للهجوم . لم يعرف العدوّ بتدمير محطّة جزيرة « وايت » . بدليل أنّ تقاريره قد أشارت إلى أنّ هجماته لم تكلّل بالنجاح . وما دامت مراكز الرادار أهدافاً ضيّقة وصعبة . فقد أمر « غورنغ » طيرانه بالسعي إلى تحقيق منجزات أفضل على أهداف أخرى .

أُضفي على يوم ١٣ آب اسم اصطلاحيّ ظافر : « يوم النسر » اكتُشفت أوّل تشكيلة ألمانيّة فوق « أميان » الساعة ٥.٣٠ . واجتازت تشكيلة أخرى الساحل فوق « دييب » . ووصلت ثالثة قادمة من « شربورغ » : إتّخذ الهجوم شكل كلاّبة كما لو كانت العمليّة عمليّة بريّة . فامتدّ ساعد منها إلى « انكلترا » على محاذاة «التاميز» . وخرق الآخر الأجواء البريطانيّة من مصبّ « السولنت » . كانت أهدافها أراضي « كنت » و « هوكنج » و « مانستون » . فضلاً عن مؤسّسات الطيران في « فارنبورو » . وعند الظهر . ثمّ الساعة ١٦ . عاودت الأسراب الألمانيّة الكرّة وفقاً للخطّة نفسها . وأعلن البلاغ الألمانيّ أنّ النتائج باهرة . ووعد بأن يُستأنَف الهجوم حتى يتمّ سحق العدوّ . والحقيقة أنّ عمليّات ذلك اليوم ما عرفت نجاحاً ! فلم تصب « فارنبورو » بأذى ؛ والأراضي التي أُصيبت تمّ إصلاحها في عشر ساعات ؛ وأمّا تنسيق عمل القاذفات والمطاردات فقد كان فاسداً . فقد الألمان ٤٥ طائرة . والانكليز ١٣ طائرة و٧ طيّارين فحسب . ومنذ ذلك الحين برزت نقاط الضعف الكامنة في الطيران الألمانيّ : فطائرات « مسر شمت — ١٠٩ » لا تقوى على البقاء فوق «انكلترا» أكثر من ٢٠ دقيقة . و « مسر شميت — ١١٠ » صعبة القياد ثقيلة الحركة إذا ما قيست « بالسبيتفاير » ؛ و « اليو — ٨٧ » . بطلة معارك « فرنسا » . كانت تتعثّر بحواجز البالونات فتقع فريسة سهلة للمدفعيّة المضادّة للطائرات المحافظة على رباطة جأشها . كما كانت لقمة سائغة في فم المطاردات نظراً لبطئها ؛ وأمّا الأنواع الأخرى فلم تكن حمولتها لتزيد على ٥٠٠ كيلوغراماً من القذائف . ولم تكن أجهزة التسديد فيها مضبوطة بحيث تمكّنها من قصف دقيق . لقد غذّت الانتصارات في « بولونيا » وفي « فرنسا » المخيّلات بالأحلام . وبقيت تغذّيها . لذلك لم يكن « غورنغ » وقوّاده ليدركوا أنّ فعل المفاجأة قد زال . وأنّهم يهاجمون الآن خصماً توافرت لديه وسائل الدفاع ؛ فقد أصرّوا على الوفاء بالوعود التي قطعوها « لهتلر » بتدمير الطيران البريطانيّ خلال أسبوعين . وبتوجيه جهود الطيران الألمانيّ من ثمّ إلى تحضير عمليّة الغزو المباشرة .

في ١٤ آب عرقل الطقس السيّء سير العمليّات . وفي ١٥ وقعت معركة حامية . اشترك فيها الأسطول الجوّيّ الألمانيّ رقم ٥ القادم من « نروج » . وقد تصدّت له المجموعتان ١٢ و١٣ في عرض «نيوكاسل» بطريقة كانت غاية في التركيز حيّرت الألمان . إذ أنّهم كانوا يجهلون إمكانات الرادار . وبما أنّ الـ « ١٠٩ » لم تكن تملك المدى اللازم للعمل فقد قامت الـ « مسر شميت — ١١٠ » وحدها بالمواكبة . وقد ثبت عجزها كما أسلفنا . وراحت القاذفات الألمانيّة تفرغ قنابلها في البحر الشماليّ . وسارعت إلى الاحتجاب بالغيوم عائدة أدراجها إلى « نروج » ؛ ومنذ ذلك الحين لم يشترك الأسطول الجوّيّ رقم ٥ في المعارك إلاّ ليلاً .

في الجنوب كانت المعركة متكافئة ؛ فقد أُصيبت المنشآت البريطانيّة بأضرار جسيمة . ولاحظ «دودونغ» بقلق أنّ مهابط الطائرات في « كنت » لن تبقى صالحة للاستعمال . ممّا يحدّ من نتاج سلاح المطاردات . فأوعز بأن يُعلن البيان الرسميّ أنّ خسارة الألمان بلغت ١٨٠ طائرة . و٥٣ أخرى يُعتقد أنّها أُسقطت . محدثاً بذلك تهليلاً شعبيّاً . بينما بلغت الخسائر الألمانيّة الحقيقيّة ٧٥ طائرة فحسب . وكان الألمان من جهتهم يبالغون في تقدير خسائر العدوّ . ليس في بياناتهم فحسب . بل كذلك في مؤتمرات الأركان العامّة . وهو أمر بالغ الخطورة ؛ فقد قدّروا عدد المطاردات الانكليزيّة الباقية بـ ٣٠٠ . في حين أنّ المتبقّي منها لدى « دودنغ » كان يبلغ ضعف هذا العدد .

في ١٧ آب . سُحبت الـ « شتوكا » من قوى الهجوم لكونها سريعة العطب . وفي ٢٤ غيّر الألمان خطّتهم . فخفّضوا عدد القاذفات بالنسبة للمطاردات . ولكنّهم ركّزوا ضرباتهم على مراكز قيادة المعركة الجوّيّة . فعطّلوا عن العمل عدداً من المراكز الحسّاسة لسلاح المطاردات البريطانيّ . وعاد القلق إلى الظهور في مقرّ « دودنغ » حيث كان يدير قوى الاحتياط ويغذّي القتال . إنّه لا يعرف بالضبط مدى إصابات الطيران الألمانيّ . ولكنّه يعرف حقّ المعرفة أنّ سلاحه الجوّيّ كان يتضاءل . وقد اتّضح له بالمقابلة بين الخسائر في كلا الجانبين أنّ ثمّة تحسّناً لصالح العدوّ ؛ وإذا استمرّ الهجوم على المراكز الحسّاسة بالشدّة نفسها أسبوعاً . فسيجد نفسه مرغَماً على سحب المجموعة رقم ١١ إلى شماليّ « لندن » . وهذا يعني أنّ تدخّل المطاردات البريطانيّة سيكون أبطأ . وأنّ العائق الذي يشكّله عبور « المانش » بالنسبة للطيران الخصم سيتضاءل . وفي الوقت نفسه اهتدى الألمان إلى نقطة الضعف في الجهاز البريطانيّ : يكفي أن يتسمّروا بالضرب في الأماكن نفسها حتى يضعوا الطيران الجوّيّ الملكيّ في مأزق حرج .

ولكنّ الألمان عادوا فغيّروا خطّتهم ؛ فتدمير سلاح المطاردات البريطانيّ . وهو شرط أساسيّ لتحقيق الغزو . قد أُحيل إلى مرحلة لاحقة ؛ وحلّ في المرتبة الأولى التعطّشُ للثأر وبذر الرعب . ففي عشيّة ٢٤ آب انصبّ على « لندن » للمرّة الأولى وابل من القنابل . ولكنّها لم

تكن محكمة . فأصابت أماكن متباعدة من المدينة ؛ وقد حصل ذلك خطأ . إذ أنّ الغارة كانت تهدف أصلاً إلى قصف خزّانات الوقود في « تيمسهافن » ومصانع الطيران في « ريتشموند » ؛ ولكنّ آلات التوجيه في القاذفات أُصيبت بخلل فألقى الطيّارون قذائفهم على غير هدى . وصعد « تشرتشل » إلى سطح بناية « الامبيريال كيميكال » فرأى الحرائق تستعر في « لندن » ؛ وكانت ردّته سريعة : ابتداءً من يوم غد تردّ القاذفات البريطانيّة الكيل فتهاجم « برلين » .

حمل ليل ٢٥ آب مفاجأة عاصفة للبرلينيّين ؛ فقد أغارت على « برلين » ٨٠ طائرة بريطانيّة عادت منها ٤٢ قبل بلوغها الهدف . وأُصيبت طرقات ثلاث في حي « فيلهلمشتراسي » على قيد أمتار من مسكن « هتلر » . وقُتل نحو عشرين شخصاً . بيد أنّ التأثير المعنويّ كان أقوى من الأضرار المادّية ؛ فقد كان « غورنغ » يقول : « إذا استطاعت طائرة انكليزيّة أن تخترق دفاعنا الجوّي . وإذا سقطت قنبلة واحدة على « برلين » ، فلن يكون اسمي « غورنغ » . وعاودت الطائرات الانكليزيّة الكرّة خلال ليال متعاقبة من غير أن تُسقط منها المدفعيّة الألمانيّة المضادّة . أو المطاردات الليليّة . طائرة واحدة . وقد قيل إنّ الطائرات البريطانيّة كانت مطليّة بدهان يحجبها عن الأنظار ! وفي الوقت الذي كانت فيه الصحافة تهلّل لاحتضار « انكلترا » . كانت هذه الأخيرة تثبت سيطرتها الجوّية فوق عاصمة « الرايخ الكبير » !

في ٤ أيلول جرى افتتاح حملة الإنقاذ الشتويّة في قصر الرياضة . وراح « هتلر » يزأر قائلاً : « لقد حاولت أن أترفّق بالانكليز . فظنّوا أنّ بي ضعفاً . وقابلوا إنسانيّتي بقتل نسائنا وأطفالنا . سأقوّض مدنهم وأجعلها خراباً ... » وأوّل مدينة انكليزيّة أنفذ « هتلر » فيها

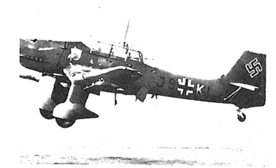


قنبلة مجنّحة تحمّل على إحدى طائرات « شتوكا » .

وعيده الرهيب كانت « ليفربول » : فقد قُصفت بالقنابل المحرقة وأُصيبت بأضرار جسيمة . وجاء دور « لندن » في ٧ أيلول الساعة ١٧ . فكانت المفاجأة شاملة . فإذ كانت المجموعة رقم ١١ تتوقّع هجوماً جديداً على « المراكز الحسّاسة » فقد تفرّقت تأهّباً له ؛ وما كان من ٣٠٠ قاذفة ألمانيّة ، تواكبها ٦٠٠ مطاردة ، إلاّ أن اخترقت نطاق المدفعيّة اللندنيّة المضادّة للطائرات ، وصوّبت نيرانها خصوصاً على مصنع أسلحة « وولويتش » وعلى أحواض السفن . فلم تأت الغارة غارة ترويع بكلّ معنى الكلمة . ولكنّ الأحياء المجاورة الآهلة بعدد كبير من السكّان قد أُصيبت بشدّة . وما ان أرخى الليل سدوله حتى انعقدت فوق « التاميز » قبّة من النار تنير الجسر والبرج .

وتلقي على طرقات المدينة انعكاسات هائلة . وقد جذب هذا المشعل الجبّار القاذفات الليليّة التي راحت تصبّ حمولتها في ذلك الأتّون المتأجّج .

رأت القيادة الانكليزيّة في هذا القصف دليلا على غزو مُحدق . وبرهاناً على صحّة المعلومات المتجمّعة لديها منذ أيّام ؛ فقد أظهرت الصور الجويّة تجمّعات هائلة لأسطول الغزو بين « امستردام » و « شربروغ » : ١٦٨ ناقلة . و ١٠٦٠٠ زورق تسير بالمحرّكات ، و ٤٠٠ قاطرة . و ٢٠٠٠٠ زورق نهريّ مزوّدة بأرصفة إنزال . وهاجم الطيران البريطانيّ هذا الأسطول المرتجل . ولكنّ المدفعيّة الألمانيّة المضادّة للطائرات كانت دقيقة . فأتت نتائج الهجوم تافهة



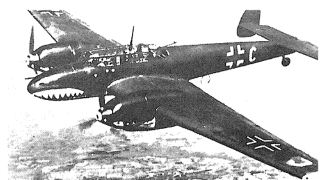
طائرة « شتوكا » تغير على « انكلترا » .

بالنسبة للخسائر . وراحت القوّات الألمانيّة تقترب من الشاطىء . وفي « ألمانيا » كانت القوّات الجبليّة البافارية تتمرّن على جروف « غربي ني » لتسلّق جروف « انكلترا » ؛ وقد عُيّن « ديكس » ، أحد قوّاد فرق الصاعقة . رئيساً لفرق الصاعقة في « بريطانيا » ؛ وطُبعت رزم كبيرة من الإعلانات تهدّد المدنيّين الانكليز بأسوأ العواقب إذا هم اشتركوا في القتال ؛ وجُهّزت لائحة اعتقالات تحمل ٢٠٠٠٠ اسم ، ودوّنت في لائحة أخرى أسماء المؤسّسات والمحافل الماسونيّة وجمعيّات الكشّاف والهيئات الدينيّة التي كان يجب حلّها أو إخضاعها لرقابة قاسية . كان كلّ شيء في الواقع جاهزاً للغزو .

في الساعة ٨،٠٧ بعد الظهر . وفيما كانت الحرائق تعصف بقلب « لندن » ، قرّر رؤساء الأركان أن يُطلقوا كلمة السرّ « كرومويل » التي كانت تعني « أنّ الغزو متوقّع خلال الأربع والعشرين ساعة » ؛ فالبحر هادىء ، والنشرة الجوّية تنبىء بأحوال حسنة ، وحركة المدّ والجزر مؤاتية : هذه كلّها اعتبارات تجعل من ٨ أيلول يوم الغزو النازيّ المرتقب ...

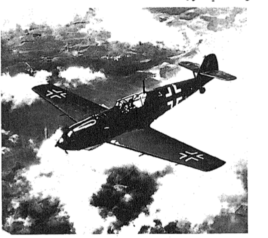
حمل البريطانيّون السلاح ؛ وقد أدّت الجهود المبذولة منذ تموز إلى تجهيز ٣٠ فرقة ، منها ثلاث مدرّعة ، ولكنّ أربعاً منها لا أكثر كانت مزوّدة بالعتاد الكامل ، بينما وُصف عتاد ٨ فرق أخرى بأنّه جيّد نوعاً . كانت ١٢ فرقة تحرس « أولستر » و « سكوتلاندا » ومقاطعات الشمال والجنوب ؛ وكان على ١٣ فرقة، منقسمة إلى جيشين ، أن تخوض قتال الشواطىء من « كورنواي » إلى « ووش » . وفي شمال « لندن » وجنوبها كان الفيلقان ٤ و ٧ ، اللذان يضمّان معاً فرقتين مدرّعتين ، وفرقة كنديّة ، وفرقتين انكليزيّتين ، وبعض الألوية المستقلّة ، يؤلّفان الاحتياط المتحرّك للقائد الأعلى

المراكز الحسّاسة . وفي المعسكر الألمانيّ كان « كسلرنغ » و « شبيرل » ، قائدا الأسطولين الجوّيين المَعنيّين ، قد تنبّها للوضع كذلك . فحاولا أن يبيّنا « لغورنغ » أنّهما كادا ينتصران على الطيران البريطانيّ ، وأنّ تحويلهما عن أهدافهما العسكريّة لإنزال العقاب « بلندن » قد أفسد عليهما الفرصة السانحة ؛ ولكنّ « غورنغ » كان في حالة حماسة جنونيّة : كان يذهب بنفسه إلى الطيّارين العائدين من الغارات ويستقي منهم المعلومات مباشرة ، ثمّ يذيع من دار الإذاعة تفاصيل « نيرونيّة » عن « لندن » المشتعلة كانت تصدم حواس القوّاد



قاذفة القنابل « مسر شميت — ١١٠ »

« آلان بروك » . فهذه القوّات لم تكن إلاّ نقطة في بحر الجيش الألمانيّ المهيّأ للغزو . ولكنّها كانت تستطيع أن تثبت وجودها في وجه حملة الغزو الألمانيّة التي لا تستطيع مباشرة المعركة إلاّ تدريجيّاً ؛ فالوقت المثاليّ للغزو قد فات الألمان .



المطاردة « مسر شميت — ١٠٩ »

وفي القرى الانكليزيّة أحدثت كلمة السرّ « كرومويل » هياجاً شديداً ، فأطلقت أماكن آهلة عنانّ أجراسها مؤذنة بنزول قوّات العدوّ ، وتحصّن بعض القرى ، وبلغ الهلع ببعض السلطات حدّاً دفعها إلى نسف الجسور . أمّا « تشرتشل » فقد وجّه لرجال الحرس القوميّ الأمر التالي : « كونوا على أهبة الاستعداد » ، فما كان منهم إلاّ أن وقفوا على سلاحهم وباتوا ينتظرون .

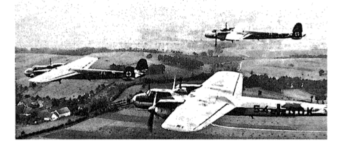
في الواقع ، كان قصف « لندن » وتحويل هدف الطيران الألمانيّ خطأً جسيماً . وقد تنبّه « دودنغ » للأمر في الحال ، فلم يمنعه حزنه على « لندن » المعذّبة من الانشراح لهذه الاستراحة التي مُنِحتها



طيّار وملاّح ألمانيّان في طريقهما إلى « لندن » .

الألمان أنفسهم ؛ ولذلك أبلغ قائديه أنّ وحياً عبقريّاً جديداً قد ألهم « هتلر » فألجأه إلى القصف الكفيل بإزالة المخاطر التي تحفّ بعمليّة الغزو .

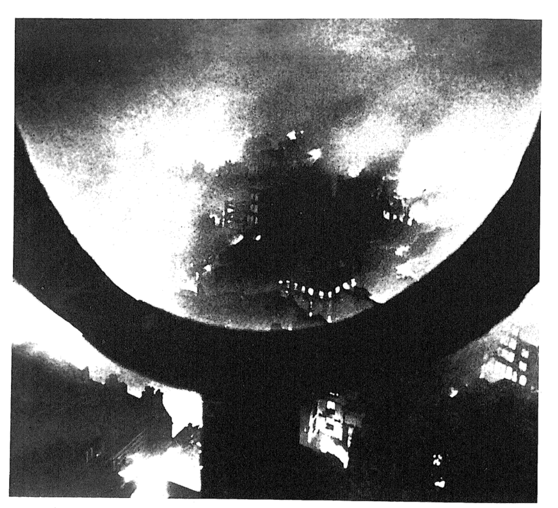
وفي الأيّام التالية باتت « انكلترا » تنتظر الغزو وهي على أهبة الاستعداد . وفي ١١ اتّضح للمجلس الحربيّ المنعقد في « برلين »



تشكيلة من القاذفات الألمانيّة تحلّق فوق الريف الانكليزيّ .

أنّ ضعف سلاح المطاردة البريطانيّ لم يكن كافياً للتفكير بالشروع بالغزو ؛ ولكن في ١٤ كانت الأنباء أفضل : فقد وصلت من السفارة الألمانيّة في «واشنطن» نشرة إخباريّة تقول إنّ الوضع في «لندن» مفجع : فقد بدأت الثورة تختمر ، وراحت الجماهير تنزح من الطرف الشرقيّ إلى الطرف الغربيّ وتطالب باستقالة «تشرتشل» وبإحلال السلام في الحال ؛ فكان ممكناً والحالة هذه أن تنهار

يركن إلى حسن طالعه في عبور «المانش» ، مع أنّ حدسه كان يحذّره منه خصوصاً لكون أكثر قوّاده قد وافقوا عليه ! وقد تمّ الاستعداد لشنّ هجوم لم يسبق له مثيل على «لندن» ، في اليوم التالي . وكان الأمل كبيراً بأن يتلقّى الطيران البريطانيّ الضربة القاضية في دفاعه عن العاصمة ، وكان الرجاء معقوداً على أن توقف «انكلترا» الغزو باستسلامها .



«منذ ١٥ تشرين الأوّل اخترع الألمان سلاحاً جديداً هو القنبلة المحرقة . وعلى أثر استعمالها بات السكّان يصيحون لدى قدوم الطائرات المغيرة : «إلى السطوح !» فيما كانوا سابقاً يصيحون : «إلى الملاجىء!» وقد شُكّلت على جناح السرعة هيئة مراقبة وتحرّ ضمّت الرجال والنّساء على السواء ، مهمّتها القضاء على الحرائق في المهد . وقد سجّلت هذه الهيئة نجاحاً باهراً» .

(«تشرتشل» في مذكّراته)

الأعصاب الانكليزيّة بين لحظة وأخرى . وأجّل «هتلر» القرار إلى ١٧ . وبما أنّ عشرة أيّام من التحضيرات كانت لازمة ، فقد تأجّل الغزو مبدئيّاً إلى ٢٧ . ولكنّ أحوال القمر والمدّ والجزر لم تكن لتسمح بإجراء المحاولة قبل الثامن من تشرين الأوّل . ونبّه رجال البحريّة إلى أنّ هذا الموعد متأخر إذ يعقبه مباشرةً موسم الضباب وعواصف الخريف ؛ ولكنّ «هتلر» لم يأبه لذلك ، فهو

« سأنتظر حلول الربيع »

بدأ يوم ١٥ أيلول . الذي أصبح فيما بعد تاريخاً تذكارياً لمعركة « انكلترا » ، بصباح زاه ؛ فالمعلومات التي جمعها العاملون في هذا الكتاب تُجمع على هدوء الطبيعة يومذاك ، وهو أمر يغلب حدوثه على عتبة الخريف . بزغت الشمس فوق بحر صاف ؛ وعلى « المانش » ، باتجاه « دوفر » و « هيث » و « هايستنغز » ، كان القصف المتكرر وتشابك الأسلاك الشائكة على غرار ما يجري في ساحات القتال القارية ؛ ومع ذلك يذكر مراقبو « هيئة المراقبة » ، الذين كانوا في نوبتهم عند الفجر ، تغريد العصافير في ذلك اليوم .

قبل الساعة ١١ بثوان قام «تشرتشل» بزيارة إلى «أوكسبردج» ، مركز قيادة المجموعة ١١" ؛ قال للموجودين : «اليوم أحد كما في « واترلو »؛ ما الذي يجري ههنا أيها السادة ؟ » وأجاب أحدهم : « لا شيء في الوقت الراهن » . وقال ضابط آخر : « سيدي ، التدخين ممنوع ، فتكييف الهواء لا يسمح بذلك ، وربما شب حريق » ، فألقى « تشرتشل » بسيجاره بطيبة خاطر ، وأطفأه بقدمه ، ولم يخطر له ببال أن أحد الموجودين سيلتقطه ، وأنه سيظل شعار فأل في مركز القيادة حتى نهاية الحرب . وراح « تشرتشل » ينظر بفضول إلى نشاط « غرفة العمليات » ، وفيها بطاريات كهربائية ملونة تشير الى مواقع الأسراب ودرجة استعدادها لتلبية الأوامر ؛ وكانت ٢٥ صبية ينقلن أقراصاً خشبية فوق خارطة كبيرة بواسطة عصي . كان دفاع « لندن » برمته مركزاً في ذلك المكان .

كان « تشرتشل » على وشك الانصراف حين استوقفته إشارة حمراء ؛ وإذا بالهاتف يعلن أن تشكيلة ألمانية مؤلفة من اكثر من ٤٠ طائرة قد اجتازت الشاطىء الفرنسي متجهة نحو « نيوهيفن » . بذلك بدأت معركة ١٥ أيلول . كان الانكليز متفوقين منذ بداية هذه المعركة ؛ فقد كانت قواتهم تحلق في الجو ساعة اجتاز العدو خط الشواطىء . أقلعت من « كانتربوري » و « دوفر » و « ميدستون » خمسة أسراب « سبيتفاير » فهاجمت المقاتلات ؛ ثم أقبلت ستة أسراب أخرى من شمال « لندن » تحل محلها . أما « المسر شميت ١٠٩ » فكانت تعود أدراجها وحيدة بعد انقضاء عشرين دقيقة ، وهي مهلة طيرانها المسموح بها فوق « انكلترا » ، فتمسي فريسة سهلة تتلقفها طائرات « هاريكان » . وفوق أراضي الريف الهانىء كنت ترى بريق المقاتلين كالأسفاط في وهج الشمس ، وكنت ترى أحياناً مظلة تهبط من السماء . وتلقت « لندن » بضع قنابل ، ولكنها تُعتبر تافهة بالنسبة للفيضان الناري الذي اجتاحها نهار الأحد السابق .

وبعد الظهر تلبدت سماء « كنت » و « سوسكس » بغيوم كثيفة ؛ وعاد الألمان بتشكيلات ضخمة ثلاث مجتازين الشاطىء بين « دانجينيس » و « دوفر » . ولكن واحدة من هذه التشكيلات تشتتت فوق « كانتربوري » ، وبلغت الأخريان « لندن » حيث جرت المعركة الجوية . وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرقيب الطيار « هولمز » ، الملقب بـ « أرتي » ، قد استقر به المصير في وعاء الأقذار بعد ما هبط بمظلته ! وكانت طائرته قد أصيبت من جراء انفجار



طيارون بريطانيون يهبون إلى طائراتهم لدى سماعهم نذير الخطر .

طائرة « دورنير » الألمانية التي أسقطها . وأحدثت القنابل الألمانية أضراراً فادحة ، فتفجر خزان للغاز وسط باقة من اللهب عجيبة ، ودُمر مركز للهاتف ؛ وقد أُصيبت « وستمنستر » و « فليت ستريت » وقصر « باكنغهام » ؛ ومع هذا لم تتم السيطرة على سلاح الجو البريطاني ؛ فقد هاجمت العدو في عودته فوق البحر أربعة من أسراب الاحتياط البريطانية .

وفي المساء راجت في « انكلترا » شائعة نصر قوية ، فقد بلغت خسائر العدو المتراكمة رقماً خارقاً . وفي طرقات « لندن » المحترقة تعالت صيحات بائعي الجرائد وكأنها الثأر عينه ، عارضة على المارة الأعداد الخاصة التي تذكر أن العدو قد خسر ١٩٥ طائرة مقابل ٢٦ فقدها البريطانيون . ولكن هذا الرقم كان خطأ هذه المرة كذلك ؛ فالخسائر الألمانية لم تتعد ٦٠ طائرة . وعلى كل حال فقد انقضى ذلك النهار مخلفاً شعوراً بالنصر مُسكراً .

وفي المعسكر الألمانيّ كان الشعور معاكساً . إذ سيطر الاستياء على الطيّارين . فبالنسبة لتحليلات الأركان كان الطيران الجوّي الملكيّ قد دُمّر غير مرّة . ولكنّ الطيّارين الألمان كانوا يجدون أمامهم على الدوام أخصاماً جدداً . أمّا « غورنغ » ، وقد أفلس ثانية بعد « دنكرك » ، فقد راح يرهق المقاتلين بالتأنيب متّهماً إيّاهم بالتقصير في القتال ممّا يجعلهم مسؤولين عن القاذفات التي سُحقت ؛ فما كان من البطل « غالند » ، الذي كان له من انتصاراته الأربعين ومن ميداليّته الحربيّة ما يدعمه ، إلاّ أن راح يدافع عن رفقائه ؛ وحين سأله « غورنغ » عمّا يجب اعطاؤه لكي يكون راضياً أجاب بجرأة : « أعطني سبيتفاير » . وفيما بعد شكا « غالند » للفوهرر من الدعاية التي كانت تسيء إلى الطيران الألمانيّ إذ كانت تَسِم الخصم بالجبن ؛ وكم كانت دهشته عظيمة حين أيّد « هتلر » كلامه وأثنى على الانكليز ثناء حارّاً .



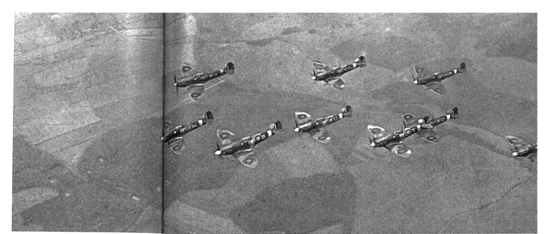


طائرات « سبيتفاير » تقوم بدوريّة .

سرب من المطاردات البريطانيّة « هاريكان » .

في ١٧ لوحظ في اجتماع المستشاريّة أنّ قوّة الطيران البريطاني القتاليّة لم تتحطّم على أثر المعركة التي جرت أمس الأوّل ؛ فالشرط الأساسيّ لمحاولة الغزو لم يتوافر إذاً . ولذلك تقرّر الاستمرار بالهجوم الجوّيّ على ان يقتصر مبدئيّاً على القصف الليليّ . وفي الليلة السابقة كانوا قد اتخّذوا قراراً آخر ، ورد في سطر واحد في يوميّة عمليّات القيادة الحربيّة العليا : « على المجموعة (ب) أن تنتقل شرقاً ... » ومنذ ٢٦ آب كانت عشر فرق للمشاة ، وفرقتان مصفّحتان ، قد تلقّت أوراق سيرها نحو « بولونيا » الجنوبيّة بحجّة حماية حقول النفط الرومانيّة من الخطر السوفياتيّ . والآن تسير نحو الشرق مجموعة جيوش كاملة كان مقرّراً اشتراكها في غزو « بريطانيا » !

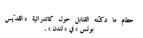
طائرات « سيتفاير » تابعة للسرب البولوني ٣٠٣ تحلق في عمليّة دوريّة فوق الجزء الجنوبيّ الشرقيّ من « انكلترا » . وقد أسهمت هذه الطائرات ببسالة في الدفاع عن « لندن » .





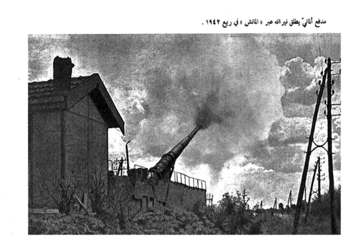
طائرة « مسرشميت » وطائرة « سيتفاير » تتجاولان في سماء « انكلترا » الغائمة .

لقد أخذ الطيران الألماني على عاتقه أن يحطم معنويات الشعب الأكثر عناداً في العالم



حطام ما دكته القنابل حول كاتدرائية « القدّيس بولس » في « لندن » .

مدفع ألمانيّ يطلق نيرانه عبر « المانش » في ربيع ١٩٤٢ .

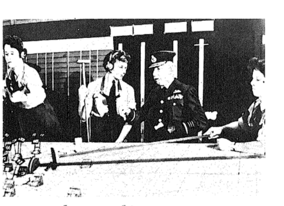


ملاّحو قاذفة بريطانيّة من طراز « لانكستر » .

صُوَرٌ مِنَ الحَربِ الجَوّيّة

كان يقود المعركة الجوّية في « انكلترا » عددٌ من مراكز القيادة الّتي كانت تجمع ما أمكنها من المعلومات حول نشاط العدوّ .

قاذفة ألمانيّة متحطّمة .



لوحة تمثّل سير العمليّات ، تشرف عليها جماعة من النساء الملحقات بسلاح الجوّ .

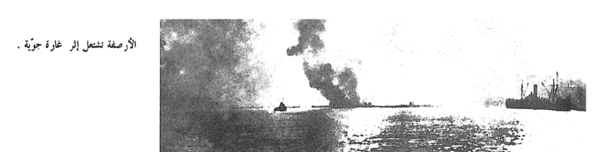
طيّارون بريطانيّون ينعمون بغفوة يقظة أمام طائراتهم . إنّهم على أتمّ الاستعداد للإقلاع في مدى دقيقة واحدة .





طيّارون ألمان قفزوا من طائرتهم المشتعلة ووقعوا أسرى في أيدي البريطانيّين .

الأرصفة تشتعل إثر غارة جويّة .



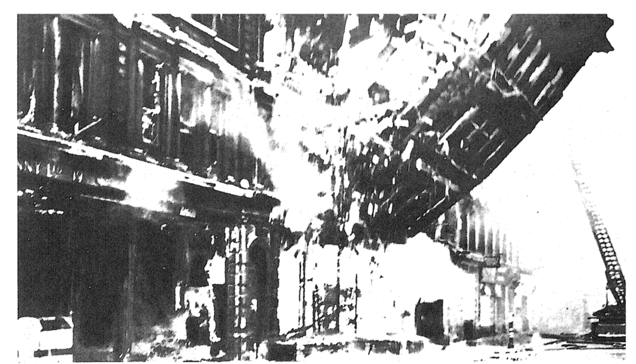
ذاقت "لندن" مرّ القنابل طوال ٨٦ ليلة على التوالي



«في تلك الليلة شبّ ألف وخمس مئة حريق ، فأصابت النيران ثماني كنائس ؛ ولم تسلم كاتدرائيّة «القدّيس بولس» من ألسنتها إلا بفضل الجهود الجبّارة المبذولة ...»

طائرتان من طراز «سبيتفاير» بعد معركة مع طائرات «هاينكل ١١١».





بناية في شارع «الملكة فكتوريا» تنهار على أثر الغارات التي شُنّت في ١١ أيّار ١٩٤١.

فيما يستريح الفلاسفة في أسرّتهم ...

في كلّ ليلة كان اللندنيّون يحوّلون «المترو» إلى قاعات نوم.





«إلزموا الصمت» ! علّ رجال الإنقاذ يوفّقون إلى سماع نبضة حياة تحت الأنقاض !

عائدة من الموت !



حقّاً إنّ «هتلر» لم يوفّر هذه السيّارة !

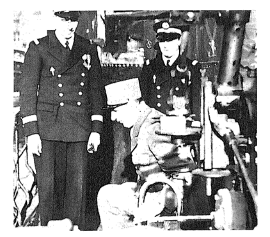


إنقسام الفرنسيّين

« ديغول »

أقام «ديغول» زعيم «فرنسا الحرّة» مقرّه في «كارلتون غاردنز» .
ويبدو الجنرال في الصورة في مقابلة صحافيّة .

قام الجنرال «ديغول» ، يرافقه الأميرال «موزولييه» ، بتهنئة قائد إحدى الغوّاصات الفرنسيّة وبتقليده أحد الأوسمة في أحد مرافىء «سكوتلاندا» .





في ٢٤ آب ١٩٤٠ قام الملك «جورج السادس» ، يرافقه الجنرال «ديغول» . بتفقّد الجنود الفرنسيّين الذين لبّوا النداء .

«لم نقل كلمتنا الأخيرة بعد . الأمل ما يزال ينير قلوبنا ، والهزيمة ما كانت يوماً لتدوم . صدّقوني إذا قلت لكم إنّ أمر «فرنسا» لم ينته ، فأنا أعلم علم اليقين أنّ «فرنسا» ليست وحدها في الميدان ...

«أنا ، الجنرال «ديغول» ، المقيم حاليّاً في «لندن» ، أدعو الضبّاط والجنود الفرنسيّين الموجودين في «بريطانيا» ، أو الذين قد ينتقلون إليها ، للاتّصال بي .

« ومهما يكن من أمر فإنّ شعلة المقاومة الفرنسيّة لن تنطفىء » .

L'EVENEMENT LE PLUS IMPORTANT DEPUIS L'ARMISTICE

Entrevue Adolf Hitler-Pierre Lava

DES DEGREVEMENTS FISCAUX SONT ORDONNES PAR LE GOUVERNEMENT

5.000

Le premier dans la presse, le Petit Parisien a annoncé hier que la situation précaire de nombreux contribuables n'avait pas échappé au ministère des Finances et que celui-ci préparait d'importantes

LE COMMUNIQUE DU D. N. B.

Hier matin, le D. N. B. a communiqué l'information suivante :

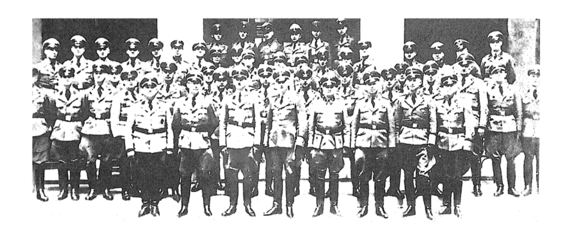
Au cours d'un bref séjour en France, le Führer a reçu M. Pierre Laval, vice-président du Conseil français.

Le ministre des Affaires étrangères du Reich, M. von Ribbentrop, assistait à cette conversation.

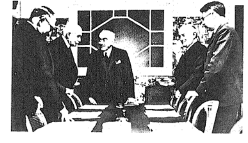
LA RADIO NATIONALE DECLARE...

D'autre part, dans sa première émission matinale,

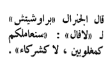
فيما انسحب بعض الصحف الفرنسيّة ، مثل « التان » ، و «الفيغارو»، و «باري — سوار»، إلى المنطقة غير المحتلّة ، وخضع لرقابة حكومة «فيشي» ، عاد بعضها مثل «الأوفر» ، و «ماتان» ، وغيرهما، إلى «باريس». خاضعاً للرقابة الألمانيّة .



وجوه يذكر الفرنسيّون بعضها . إنّها وجوه فريق من رجال «الغستابو» ، وفيهم المستنطقون والاختصاصيّون في فنّ انتزاع المعلومات !



حكومة «فيشي» . ويبدو (الثاني من اليمين) الأميرال «دارلان» الذي احتلّ منصب نائب رئيس الوزراء بعد صرف «لافال» ؛ وقد عُيّن فيما بعد خلفاً «لبيتان» .



قال الجنرال «براوشيتش» لـ «لافال» : «سنعاملكم كمغلوبين ، لا كشركاء» .



«بيتان»



في الساعة الثانية عشرة والنصف من نهار الاثنين ١٧ حزيران وجّه المارشال «بيتان» إلى البلاد من دار الإذاعة النداء التالي : «نزولاً عند رغبة رئيس الجمهوريّة قمت أتولّى منذ اليوم مهامّ الحكم في «فرنسا» .

«وإنّي إذ تحدوني الثقة بعطف جيشنا الرائع ، الذي يحارب بشجاعة نادرة خليقة بتقاليده العسكريّة العريقة عدوّاً يفوقه عدداً وعدّة ، والثقة بأنّه قد بذل في نضاله جهد طاقته متحمّلاً مسؤوليّاته كاملةً حيال حلفائنا ، والثقة بتأييد المحاربين القدامى الذين كان لي شرف قيادتهم ، والثقة بالشعب الفرنسيّ بكامله ، أقدّم «لفرنسا» شخصي هبةً علّني بذلك أخفّف من حدّة شقائها .

«وبقلب ملؤه الأسى أقول لكم : لقد بات من واجبنا اليوم أن نلقي السلاح .

«وليقف الفرنسيّون صفّاً واحداً متراصّاً حول الحكومة التي أرأس في هذه المحنة الشاقّة ، وليطمئنّوا معتمدين على إيمانهم بمصير الوطن» ...





«أوتو أبتز» . كان مرشّحاً لتولّي منصب سفير «الرايخ» في «باريس» نظراً لما كان يتمتّع به من رفعة في آداب السلوك ، ومن صداقة لبعض الفرنسيّين ذوي الهوى الألمانيّ أمثال «دوبرينون» و «جان لوشير» ، ومن حظوة لدى «هتلر» . وقد كُلّف بإجراء الاتّصالات في سبيل «تعاون رسميّ» بين «ألمانيا» و «فيشي» .

لقد أقبل الخريف . إنّ الدفاع عن الجزر البريطانيّة قد توطّد بالضباب والعواصف . وعمليّة الغزو لم تبقَ ممكنة قبل ١٩٤١ . ولكنّ العقاب الذي كان «هتلر» ينزله بالانكليز قد ازداد عنفاً .

خريف ١٩٤٠ المشؤوم

تضاءلت الغارات النهاريّة . إلاّ أنّ الغارات الليليّة قد ازدادت ، فبين أيلول ١٩٤٠ وكانون الثاني ١٩٤١ قُصفت «لندن» ٨٦ ليلة متتالية . باستثناء ليلة ٣ تشرين الثاني . فأحدث صمت صفّارات الإنذار فيها لدى اللندنيّين دهشة ونوعاً من القلق . بلغ معدّل الطائرات التي كانت تزور العاصمة كلّ ليلة ١٦٠ . وبلغت زنة القنابل التي تصبّها كلّ شهر ٦٠٥٠٠ طنّ . وقد أُصيبت الأحياء والمحطّات جميعها . وكانت تعصف بالمدينة ٩٠٠ حريقة منها تسع كبار . وكانت إصابات المدينة والأحواض جسيمة . وحول الأحواض المحرّقة كنت ترى منازل لا حصر لها تمتدّ مقطوعة الرؤوس على كيلومترات عديدة . وكانت قبّة «القدّيس بولس» تنتصب فوق بحر من الأنقاض . وفي كلّ مساء . بينما كان الفلاسفة يلازمون أبراجهم العاجيّة . كانت جموع الناس تلجأ إلى «المترو» حاملة أغطيتها وفرشها وأثمن ما لديها من ممتلكات . وفي كلّ صباح كان الكثيرون منهم يجدون منازلهم وقد تحوّلت أثناء الليل إلى أنقاض بالية .

كان الصمود الانكليزيّ يتحدّى العناد النازيّ . وكانت ردّة الفعل الإنكليزيّة على هذه الحرب الصاعقة الألمانيّة : «باستطاعة «لندن» أن تتحمّل» . و : «لينصرف كلّ إلى عمله» ، فتكرار الهجمات . والصور التي تُظهر عواصف اللهيب . وشهرة الأماكن المصابة ، من قصر «باكنغهام» إلى متحف «مدام توسو» . قد أحدثت شعوراً عميقاً بالاستياء في العالم بأسره ، ومع ذلك كان كلّ إنسان مطّلع يعلم أنّ جهود الطيران الألمانيّ باتت لا تُجدي . ففي سبيل تدمير «لندن» كان حتماً على «ألمانيا» أن تجنّد قوى تفوق القوى الراهنة عشرين مرّة . وأن تجنّد أضعافها في سبيل تحطيم العزم البريطانيّ ؛ وكان «هتلر» أعجز من أن يمتلك هذه الإمكانات الجوّية .

وفي الوقت الذي واظبت فيه القاذفات على إرهاق «لندن» كلّ يوم . راحت تتفرّغ دوريّاً لأهداف معيّنة ؛ في البدء تلقّت مصانع الطيران في «ولستون» و «ويبردج» و «فارنبورو» هجمات منتظمة . غير أنّ الألمان لم يرضوا بالنتائج . ولذا راحوا يصبّون جام غضبهم على المدن الصناعيّة الكبرى ، وعلى مصانع الأسلحة في «مدلاندز» . وفي ليل ١٤-١٥ تشرين الثاني قامت ٢١ قاذفة بالإغارة على «لندن» . بينما كُلّفت ٥٠٩ قاذفات بقصف «كوفنتري» . وقد استعملت الطائرات الألمانيّة جهاز التوجّه الجديد «إكس جيرات» . ولم تمنع محاولات التشويش كافّة من وصول ٤٤٩ طائرة إلى أهدافها .



في إحدى المحطّات : لقاء «هتلر» و «بيتان» .

وبعد انقضاء ساعة كانت «كوفنتري» اتّوناً متأجّجاً ظاهراً للعيان في دائرة تبلغ المئة ميل. وقد تقطّع وسط المدينة إرباً، وهو شاهد ثمين على الماضي الانكليزيّ. فيه كاتدرائيّة مهيبة ترجع إلى القرن الرابع عشر لم يبقَ منها غير أنقاض؛ وقد أمسى فعل «كَفَنْتَرَ» المشتقّ من اسم المدينة المنكوبة يدلّ في اللغتين الألمانيّة والانكليزيّة على إفناء مدينة بكاملها بغارة واحدة. في الواقع لم يتعدَّ عدد القتلى ٥٥٠؛ ومع أنّ ٢١ مصنعاً قد دُمّر، فإمكانيّة «كوفنتري» الإنتاجيّة في صناعة السيّارات لم تتدنّ بشكل خطير. أمّا الطيران الألمانيّ فقد اكتفى بما جنت يداه في تلك الغارة ظنّاً منه أنّ الأضرار التي ألحقها كانت قاضية. ووجّه جهوده نحو مدن أخرى، وخصوصاً «ليفربول». ولكنّ النشاط المتفرّق لم يكن يمنع التسلّح البريطانيّ من اطّراد النجاح، فبات عدد الطائرات المصنوعة يفوق عدد الطائرات المفقودة.

وفي البحر تأزّمت الحرب؛ فقد قام الأميرال «دونتز». في مقرّ قيادته العامّة في «باريس»، بوضع خطّة جديدة لغوّاصاته. لن تهاجم هذه الغوّاصات بعد اليوم منفردةً، بل في مجموعة؛ ما ان تلتقي غوّاصة بقافلة سفن حتّى تلاحقها من غير أن تتعرّض لها، ثمّ تطلب من زميلاتها المجاورة أن تنضمّ اليها، وحينذاك يقوم قطيع الذئاب بشنّ الهجوم ليلاً وعلى سطح الماء؛ وقبل بزوغ الفجر تغيب الذئاب عن الأنظار مقتفية خطى القافلة، كي تعود إلى الهجوم في الليلة التالية؛ وهكذا تصبح كلّ رحلة بحريّة معركة مستمرّة، مرهقة، مميتة.

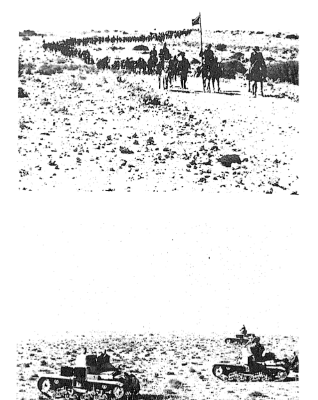
وهنا فوجىء الانكليز مرّة أخرى. ففي ٢٠ أيلول حشد «برين» خمس غوّاصات في وجه القافلة البريطانيّة «ه إكس ٧٢» التي كانت تضمّ ٤٧ سفينة، فأغرق منها ١٢ في ليال ثلاث؛ ولكنّ، لحسن حظّ الانكليز، لم تكن لدى «دونتز» غيرُ غوّاصات قليلة لا تمكّنه من تطبيق ابتكاره بصورة فعّالة؛ فقد باشر عمليّاته بـ ٥٧ غوّاصة، ولم يتسلّم بين أيلول ١٩٣٩ و أيلول ١٩٤٠ غير ٢٨ غوّاصة جديدة، ولكنّه في الفترة نفسها فقد ٢٨. هذا فيما كان يحتاج إلى ٣٠٠ غوّاصة ليهدّد نقليّات «بريطانيا» البحريّة بخطر قاتل.

كان هذا الشتاء الثاني للحرب مرحلةً سوداء بالنسبة «لانكلترا»؛ فقد كان القلق والوحدة يثقلان كاهل الأمّة. فمنذ انهيار «فرنسا» لم يظهر في الأفق أيّ بريق أمل بحليف جديد؛ بقيت «أميركا» على صداقتها البعيدة، وكانت العلاقات الروسيّة الألمانيّة ما تزال ممتازة؛ وألبست الحرائق «لندن» ثوبَ الحداد، وأحدق بها الخوف من انتشار الوباء بسبب الأضرار التي أصابت المجارير، ولكثرة السكّان المتراصّين في الملاجىء ليلاً. إلاّ أنّ الوباء لم يظهر، ولكنّ الجموع اللندنيّة أصبحت خائرة القوى، متعبَة، متوتّرة. وفي الخارج لم يكن ضحايا الدعاية النازيّة وحدهم يظنّون أنّ «انكلترا» لا محالة منهزمة؛ كانوا يرون إلى الجروح السطحيّة، ولا يرون أنّ البلد لم يُمسّ في جوهره بأذى؛ كانت مؤسّسة «لويد» ما تزال تؤمّن على السفن التي تعبر الأطلسيّ، وتسدّد قيمة التأمين كلّما سقطت ضحيّة جديدة من ضحايا غوّاصات «دونتز»؛ وأمّا إمداد الجزر بالمؤن، وتزويد الصناعة بالموادّ الأوّليّة، فقد استمرّ تأمينهما بظروف مرضية. ولم يكن النشاط البريطانيّ كلّه وقفاً على الصناعات الحربيّة، فقد خُصّ قسم منه بتغذية الصادرات الضروريّة حتّى لا تشعر الخزينة الحربيّة بعجز سريع؛ ولكنّ موارد الخزينة كانت، مع ذلك، تتضاءل، ممّا أضفى على المستقبل جوّاً من القلق. ولكن ألم يواجه «بت» المعضلة نفسها في معركته ضدّ «نابوليون»؟ لقد احتلّ الغزاة القارّة الأوروبيّة، ولكنّ حالة من التوازن قامت على «المانش»، فيما راحت التطوّرات المشؤومة تتحكّم بالمستقبل في مناطق أخرى من العالم.

في شرقيّ «أوروبا» سار التوطّد الروسيّ باطّراد؛ فالدول البلطيقيّة الثلاث، التي كانت أحلامها عالقة بسيادة ذاتيّة داخليّة، قد أصبحت جمهوريّات سوفياتيّة؛ وفي «رومانيا» عادت الجيوش الحمراء إلى احتلال «بيسارابيا» عملاً بالاتّفاق المعقود بين «مولوتوف» و «ريبنتروب»، مستولية في الوقت نفسه على «بوكوفين». ووقف «هتلر» ساخطاً إزاء هذا التطاول؛ فقد أقلقه مصير النفط الرومانيّ؛ كان يقول: «لا تستطيع «ألمانيا» متابعة القتال إلاّ بهذا النفط. يجب علينا أن نضعه في مأمن من مطامع «روسيا»». وكان يرى كذلك إكمال تقسيم «رومانيا» لأنّ «المجر» و«بلغاريا» كانتا تطالبان به. واجتمع «تشيانو» و «ريبنتروب» في «بلفيدير» «فيينا» للحكم في هذه القضيّة. وفي ٣٠ آب، حين اطّلع وزير الخارجيّة الرومانيّة «مانويليسكو» على الخارطة التي تخطّط الحدود الجديدة، وقع مغشيّاً عليه؛ فقد أعادت «ألمانيا» و «إيطاليا» إلى «المجر» شماليّ «ترانسيلفانيا»، وإلى «بلغاريا» جنوبيّ «دوبرودجا»، مكبّدة بذلك «رومانيا» خسارةَ ثلث سكّانها وأراضيها في أقلّ من سنة. وهبّت في وجه هذا العمل اعتراضات شعبيّة عنيفة، فما كان من الملك «كارول» الذي رذله شعبه إلاّ أن تخلّى عن العرش وفرّ مع محظيّته المشؤومة «ماجدا لوبيسكو». وكان ابنه، الملك «ميشال»، ما يزال فتيّاً، فسلّم «هتلر» مقاليد السلطة إلى المارشال «انطونيسكو» القدير، وعرض عليه أفضل الضمانات دون توسّع الروس: الاحتلال الألمانيّ؛ فقبل «انطونيسكو» العرض لتوّه.

وعلى المسرح المتوسطيّ كانت الحرب بطيئة. كان باستطاعة الإيطاليّين أن يحصلوا على «مالطا» لو أنّهم مدّوا يدهم لأخذها! ولكنّهم تركوا الفرصة تفوتهم، فما كان من حاملة الطائرات البريطانيّة «أرك رويال» التي أبحرت من «جبل طارق» إلاّ أن أمدّت الجزيرة بسربين من مقاتلات «هاريكان». ولكنّ أحدهما هلك بكامله في البحر ضحيّة للرياح المعاكسة. وعلى متن السفينة «وورسبايت» استمرّ الأميرال «أندرو كاننغهام» بدوريّاته في المتوسّط، وأرغم الأسطول الإيطاليّ على اللجوء إلى «تارنتو». وفي «ليبيا» قُتل المارشال «بالبو» إذ أسقطت طائرته مدفعيّتُه المضادّة للطائرات! وتلقّى خلفه المارشال «غرازياني» من «موسوليني» أمراً بالدخول إلى «مصر» في اليوم الذي يطأ فيه أوّل جنديّ ألمانيّ أرض «انكلترا». وبما أنّ غزو «انكلترا» لم يحدث، فقد قرّر «الدوتشي» أن يسبق الجيش الألمانيّ. ولكنّ «غرازياني» توسّل إليه طالباً مهلة. وإذ تلقّى «غرازياني» تهديداً بإقالته قام بشنّ هجومه في ١٣ أيلول. وتراجع الانكليز. وتوغّل الإيطاليّون في بقاع تنفث في وجههم لهاثاً محرقاً وسط عواصف من الغبار كانت تجفّف الرجال وتجعلهم كالمومياءات. وتخلّى «غرازياني» عن عمليّة الجناح التي كان يبغي تطبيقها عبر الصحراء، واكتفى بدفع ميسرته على طول البحر حتّى قرية «سيدي برّاني». وتوقّف هناك وبلّغ بأنّه لا يستطيع الاستمرار في التوغّل قبل أن ينظّم تموين الجند بالماء. وهكذا شُلّت حملة «السويس» على بعد ٥٠ كلم من نقطة انطلاقها.

«وتوغّل الإيطاليّون في بقاع تنفث في وجههم لهاثاً محرقاً وسط عواصف من الغبار ...» (ر. ك.)



في المحيط الهادئ : إتّساع بقعة الزيت اليابانيّة .

إنّ الحرب العالميّة الثانية ، التي نُرجع تاريخها إلى أوّل أيلول ١٩٣٩ ، قد بدأت في الواقع قبل ذلك بعامين ؛ فالنزاع بين « الصين » و « اليابان » ، الذي انبثق في ٧ تمّوز ١٩٣٧ على أثر حادثة جسر «ماركوبولو» ، يؤلّف جزءاً منها لا يُجزّأ . وفي الوقت الذي اشتعلت فيه « أوروبا » كانت « الصين » فريسة للنار منذ أشهر طويلة ؛ فقد احتلّ اليابانيّون المقاطعات الشرقيّة كلّها ، وأقاموا في « نانكين » حكومة موالية على رأسها « وانغ تشنغ وي » أحد رفقاء « تشانغ كاي شك » السابقين . ومع أنّ الأميركيّين كانوا يمتنعون عن اتّخاذ تدابير العنف ، إلاّ أنّهم راحوا ينظرون بحقد إلى اتّساع بقعة الزيت اليابانيّة ، ويبذلون ما في وسعهم لمساندة المقاومة الصينيّة .

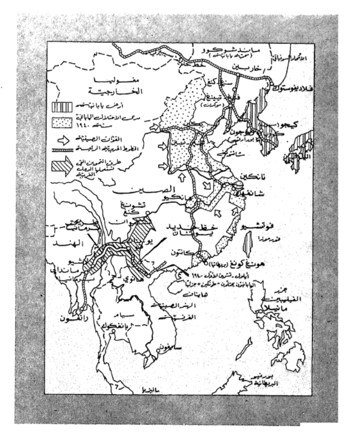
كانت « تشونغ كينغ » هي عاصمة المقاومة الصينيّة ، وأمّا ركائزها فقد كانت مؤلّفة من مقاطعتَي « سيتشوين » و « يونّان » ؛ بيد أنّ الاختناق كان يهدّد هاتين المقاطعتين البعيدتين عن البحار ، إذ لم تكن هنالك غير طريقين صعبتين وبطيئتين تزوّدهما بالوسائل الكفيلة باستمرار القتال : طريق « ماندالي » الوعرة التي تخترق منعرجات « برمانيا العليا » الجبّارة . والخطّ الحديديّ الذي ينطلق من « هايفونغ » حتّى « يون نان فو » .

وطرح سقوط « فرنسا » على بساط البحث معضلة هذين الرابطين الركيكين ؛ باتت « الهند الصينيّة » فريسة سهلة لا تستطيع « فرنسا » البعيدة المقهورة أن تدافع عنها . وكان اليابانيّون يرون في احتلالها تعطيلَ الخطّ الحديديّ وتهديد الطرقات ؛ لذلك وصلت إلى « هانوي » بعثة عسكريّة برئاسة الجنرال « إيساكو نيشيهارا » ، فوجدت الوضع فيها مضطرباً وقد وقف فيها حاكمان عامّان وجهاً لوجه : الجنرال « جورج كاترو » ، وكان على وشك الانضمام إلى « ديغول » ، والأميرال « جان ديكو » الذي عيّنه « بيتان » ليكون خلفاً « لكاترو » . واعتزل « كاترو » منصبه في ٢٠ تموز ، فبدأ الضغط على « ديكو » : طلب « نيشيهارا » منه حقّ استخدام « هايفونغ » والخطّ الحديديّ ضدّ « الصين » ، وإلاّ فالغزو اليابانيّ بالمرصاد .

أتت الأوضاع في « الهند الصينيّة » تحرج موقف الحكومة الفرنسيّة المحاطة بألف معضلة ومعضلة . كانت الحكومة قد وصلت إلى « فيشي » في أوّل تموز قادمة من « بوردو » ، وهي مقتنعة بأنّها لن تقيم في بلدة المياه المعدنيّة تلك إلاّ بضعة أسابيع تنتقل بعدها إلى « باريس » . وأمّا « بيار لافال » الذي كان قد أُبعد أيّاماً ، فقد دخل الوزارة كنائب لرئيس الوزراء ، وفي جعبته مخطّط يقضي بدمج « فرنسا » في النظام الديكتاتوريّ المنتصر . وإذ به يدغدغ أحلام « بيتان » الخفيّة ، فيحمل مجلس النوّاب ومجلس الشيوخ مجتمعين على تكليفه بمهامّ حكومة

الزحف الإيطاليّ في «مصر»





اليابانيّون في «الصين» في اواخر سنة ١٩٤٠

الجمهوريّة ، مع تفويض بإعلان دستور جديد للدولة الفرنسيّة . كان « لافال » مقتنعاً بأنّه سيقود « فرنسا » إلى مصيرها الجديد متستّراً وراء جنديّ « فردان » العجوز .

كان على حكومة «فيشي» أن تعالج مشكلات حسّاسة فوريّة : إعادة اللاجئين إلى ديارهم ، وإطعام الفرنسيّين ، وإعادة تنظيم الإدارة ، وتنظيم الحياة الاقتصاديّة ، وإخلاء سبيل الأسرى ، ووضع مخطّط للتعايش مع المنتصر . وفضلاً عن هذه الفروض التي حُقّق بعضُها بكفاءة وشجاعة ، كانت هنالك قضيّة المحافظة على الممتلكات الفرنسيّة وراء البحار ، بما فيها « الهند الصينيّة » البعيدة . وهنا قامت نظريّتان متناقضتان : فالجنرال « بورير » ، رئيس الأركان العامّة لقوّات المستعمرات ، قد أقنع «فيغان» و «بيتان» بضرورة مقاومة التهديد اليابانيّ مبيّناً أنّ في «الهند الصينيّة» ١١٠،٠٠٠ رجل وكميّة من الذخيرة تكفي لثلاثة أشهر ؛ واعترض «بودوان» متذرّعاً بأنّ طيران «الهند الصينيّة» مؤلّف من ١٤ مطاردة و ٢٨ قاذفة فاسدة ، وأنّ كلّ تصدّ للقوّة البحريّة اليابانيّة يُعتبر وهماً . واستمرّت المفاوضات ، ولكنّ «ديكو» كان يتخبّط في «هانوي» في جوّ من التهديدات الطاغية . وفي ٣ أيلول أعلن التعبئة بعد ما رفض إنذاراً أخيراً وجّهه «نيشيهارا» ، وأقفل مرفأ «هايفونغ» ، ثمّ أبرق إلى «فيشي» يقول : «من المستحسن أن نفقد «الهند الصينيّة» محاربين بدلا من أن نفقدها خائنين» .

ولكنّ اليابانيّين تردّدوا ، وما لبث « نيشيهارا » أن خفّف من حدّة إنذاره الأخير ؛ وعادت المفاوضات ، وعُقدت اتّفاقيّتان ، الأولى سياسيّة ، والثانية عسكريّة ، تعترفان بسلطة « فرنسا » على « الهند الصينيّة » ، وتحدّدان مجموع القوّات اليابانيّة التي يمكن قبولها في « تونكان » بـ ٢٥،٠٠٠ رجل . غير أنّ جيش « كوانتونغ » تجاهل قرارات « طوكيو » ، فهاجم « دونغ دانغ » و « لانغسون » في ٢٢ أيلول ؛ وتشتّت من جرّاء ذلك شمل المناوشين الأنّاميّين ، ومزّقت كتيبتان من الفرقة الأجنبيّة إرباً ، وقُتل ٨٠٠ رجل من بينهم الكولونيل « لوفي » والكولونيل « لوبا » ؛ ولكنّ الامبراطور أمر بإيقاف القتال ، فعاد مفعول الاتّفاقيّتين سارياً . وبذلك عرفت « الهند الصينيّة » نظاماً لقيطاً : إدارة فرنسيّة ، واحتلال يابانيّ . وسيبقى هذا النظام سائداً فيها حتى ١٩٤٥ .

كان وضع « انكلترا » دقيقاً ؛ فقد بقيت لمدّة طويلة حليفة « اليابان » . وبعد ما فضّت هذا التحالف تحت الضغط الأميركيّ بقيت تحاول على الأقلّ الإبقاء على علاقات ودّية معها . كانت حريصة على السلام في المحيط الهادىء ، إذ كان محالاً عليها أن تستدعي جيوشها الممتازة في « أوستراليا » و « نيوزيلاندا » ما دام الخطر الأصفر يهيمن على ذينك البلدين . وفي حزيران ضربت « انكلترا » باستياء « أميركا » عرض الحائط ، وقرّرت أن تقطع طريق « ماندالي » ، ثمّ عاد « تشرتشل » إلى فتحها في أيلول ؛ وفي الظاهر لم يكن هذا القرار غير قرار ثانويّ ، اتُّخذ في أحرج مراحل معركة « لندن » ، ولكنّ هذا القرار الثانويّ كان يشير في الواقع إلى تطوّر جذريّ : فقد اختار « تشرتشل » أنّ يوفّق بين سياسة « بريطانيا العظمى » وسياسة « الولايات المتحدة » ، مقامراً بمصيره على التدخّل الاميركيّ الذي كان يُعتبر غاية الغايات في سياسته ؛ إلاّ أنّ هذا الرجاء كان يبدو وهماً ، لأنّ « أميركا » كانت لا تفكّر بالتدخّل .

منح « تشرتشل » « أميركا » ثماني قواعد في « الأنتيل » وفي « الأرض الجديدة » ، وحصل منها على خمسين مدمّرة عتيقة . ولكنّ مبدأ « الدّفع نقداً وعداً » كان الطريقة المتّبعة في تسليم الأسلحة « لانكلترا » ؛ وهذا يعني أنّ الانكليز كانوا مرغمين على التسديد فوراً ، وتأمين النقل بأنفسهم ، إذ أنّ « أميركا » قد رفضت تعريض سفنها للخطر . وفي الواقع كانت كمّيّة الأسلحة التي تُسلّمها تافهة بالنسبة لحاجات الانكليز ؛ ففي المناورات الكبرى التي كان جيش « أميركا » نفسه يقوم بها ، كانوا يستعيضون عن الدبّابة بالجرّارات الزراعيّة ، وعن مدافع الهاون بمدافع من خشب !

بدأت الحملة الانتخابيّة الأميركيّة ، وراح « فرانكلين روزفلت » يسعى سعياً حثيثاً إلى ولاية حكمه الثالثة متجاهلاً بذلك تقاليد « واشنطن » ؛ ورشّح الجمهوريّون في وجهه منافساً حديث عهد بالسياسة هو « وندل ويلكي » ، وراحوا يسلّطون عليه أضواء دعاية مصطنعة ؛ ولكنّ المتنافسين كانا متّفقين على نقطة واحدة : فقد أقسما على إبقاء « أميركا » في معزل عن الحرب . ولكنّ « ولسون » كان قد أقسم القسم نفسه سنة ١٩١٦ ، الأمر الذي أيقظ ريبة الانعزاليّين من المرشّحين . وأما « جوزف كندي » ، سفير « روزفلت » الخاصّ في « لندن » ، فقد أوعز إلى « أميركا » في أن تعقد اتّفاقاً مع « هتلر » بدلاً من أن تساند « انكلترا » في حربها السخيفة ؛ فكان على « روزفلت » أن يستدعيه على الرغم من قوّته



على أثر توقيع المعاهدة الثلاثيّة وقف سفير «اليابان» في «برلين» ، «كوروزو» ، يلقي خطابه.
ويبدو في الصورة من اليسار إلى اليمين : «كوروزو» و «تشيانو» و «هتلر» .

الانتخابيّة وثروته الطائلة . ورحل « كندي » حاملاً معه صفّارة من صفّارات الدفاع السلبيّ قائلاً إنّها ستكون أداة عمليّة لدعوة أطفال آل « كندي » إلى الطعام ! فصفّارات « لندن » التي كانت تنذر بالخطر ، والآلام ، والموت ، والدفاع السامي عن القيم بتولاّه أناس بسطاء تهدّمت منازلهم ، هذه الصفّارات قد عبث بمعانيها سياسيٌّ قويّ بثروته ، يبغض الانكليز ، يكاد يكون إعجابه « بهتلر » إعجاباً سافراً !

ولو لم تعبث الانتصارات الألمانيّة الكبيرة بالروس في « طوكيو » لاكتسبت الانعزاليّة الأميركيّة سلطة أقوى . كانت الحكومة اليابانيّة الجديدة ، التي سيطر عليها الحزب العسكريّ ، تعتزم اغتنام الفرصة التي توفّرها حرب « أوروبا » لبلوغ أهداف « اليابان » الوطنيّة . وذلك على الرغم من تعقّل رئيسها الهرم الحكيم الأمير « كونويي » ؛ وما كان من المنفّذ الديبلوماسيّ وزير الخارجيّة « ماتسووكا » إلاّ أن دبّر مع « ألمانيا » و « إيطاليا » حلفاً ثلاثيّاً وقّعه « كوروزو » ، سفيره في « برلين » ، مع « ريبنتروب » و « تشيانو » في ٢٧ أيلول . وكان هذا الحلف يتعلّق بتقسيم للعالم ؛ فقد اعترفت « اليابان » بالدور القياديّ العائد « لألمانيا » و « إيطاليا » في تنظيم « أوروبا » تنظيماً جديداً ؛ واعترفت « ألمانيا » و « إيطاليا » بحقّ « اليابان » في أن تتمتّع بالسلطة نفسها في آسيا الشرقيّة الكبرى . « فانكلترا » ، والحالة هذه ، قد هزمت ، إذ لم يوتَ على ذكرها قطّ ؛ وبتصفية « انكلترا » كان الحلف الثلاثيّ يوجّه إنذاراً إلى « أميركا » : ففي حال تعرّض أحد الموقّعين على الحلف لعدوان دولة لم تكن قد اشتركت بعد في الحرب ، كان على الموقّعين الآخرين أن يتكتّلا حالاً ضدّ هذه الدولة . وعلى الأثر كتب « تشرتشل » إلى « روزفلت » يقترح عليه إرسال اسطول أميركيّ إلى « سنغافورة » ردّاً على هذا التحدّي ؛ ولكنّ ردّة الفعل الأميركيّة كانت فائقة الضعف : فالحملة الانتخابيّة على أشدّها ، وسيرك « ويلكي » الانتخابيّ يتنقّل من ولاية إلى أخرى . في حين يصرّح « روزفلت » بأنّ انهماكه في « البيت الأبيض » بموضوع الدفاع عن الحياد الأميركيّ يمنعه عن القيام بالجولات الدعائيّة المماثلة ؛ وأمّا « تشرتشل » فقد بنى السياسة البريطانيّة كلّها على اشتراك « أميركا » في الحرب ، ولكنّ هذا الأمل كان يشعّ كنجمة ضئيلة بعيدة في أقاصي السماء .

إخفاق إنكليزي - ديغولي في "دكار"

في « لندن » أقام « شارل ديغول » أوّل مركز له في بناية تجاريّة من « الإمباركمنت » هي « بناية ستيفانس هاوس » . كانت عاصمة « فرنسا الحرّة » هذه تتألّف من ثلاث حجرات اثاثها بضع طاولات وبضعة صناديق مقلوبة . وقد اصطدمت محاولات التجنيد الأولى التي قام بها الجنرال الشاب المتمرّد بمضايقات الانكليز أنفسهم : كانوا يمنعونه من دخول معسكرات الفرنسيّين المتأهّبين للعودة إلى وطنهم ، كما جرى في « هايدوك » و « اينتري » ، أو يطوفون بعده بالمتطوّعين ليطلعوهم على أحد بنود اتّفاقيّة الهدنة الذي يعتبرهم متمرّدين ويعرّضهم للإعدام . وفي عيد ١٤ تمّوز الوطنيّ – ويا بئس العيد المؤلم المؤثّر ! – لم يعرض « ديغول » غير حفنة من الرجال ، فيما اناشيد التبجيل والمودّة تتصاعد نحو « بيتان » في « فرنسا » .

في ٨ آب عقد بين « تشرتشل » و « ديغول » اتّفاق ينظّم وضع متطوّعي « فرنسا الحرّة » وشروط استخدامهم . وقد نصّت إحدى فقراته على ما يلي : « لا يحقّ لهذه القوّة أن تشهر يوماً سلاحها في وجه « فرنسا » » . إلاّ أنّ رسالة سرّيّة وجّهها « تشرتشل » إلى « ديغول » وأيّدها « ديغول » برسالة جوابيّة سرّيّة أوضحت أنّ المقصود هو « فرنسا متمتّعة بحرّيّة تقرير مصيرها ، وغير خاضعة لنير « ألمانيا » المباشر أو غير المباشر » . وهكذا كان يلغي الاتّفاق العلنيّ رسالةٌ معاكسة سرّيّة ، فوسمت الحركة الديغوليّة منذ نشأتها بطابع البلبلة .

لم يكن النداء الموجّه لممتلكات « فرنسا » ما وراء البحار بأقلّ من النداء الموجّه للمتطوّعين مرارةً خيبة . فلم ينضمّ إلى « ديغول » من حكّام المستعمرات الكبار سوى «كاترو» بشخصه لا بولايته .

وبعد ما وصل الجنرالان « نوغيس » و « متلهاوزر » إلى عتبة الانفصال في « أفريقيا الشماليّة » و « سوريّا » عادا فتراجعا لسبب واحد هو أنّ أحداً لم يتبعهما . وكانت « الهبريد الجديدة » ، وهي نصف مستعمرة تافهة واقعة تحت السيطرة الفرنسيّة — الانكليزيّة المشتركة ، أوّل من انضمّ إلى الحركة الديغوليّة ؛ ولا عجب ، فوضعها لم يكن يسمح لها بغير ذلك . ولم تلبث مؤسّسات « الهند » الخاضعة للسيطرة البريطانيّة أن انضمّت هي الأخرى ؛ كما أنّ بعض ذوي النفوس الأبيّة نظير « إيبوي » ، والجنرال « دي لارمينا » ، والكومندان « أورنانو » . والكابيتان « دي هوتكلوك » المعروف « بلوكلير » ، هبّوا لفرض السلطة الديغوليّة على ممتلكات « أفريقيا الاستوائيّة » الفرنسيّة الشاسعة ، الممتدّة من « تشاد » إلى « غابون » ؛ ففي مطلع آب انفصل عن سلطة « فيشي » مليونان من الكيلومترات المربّعة ، معترفة « بلجنة فرنسا الحرّة » ، وبالجنرال « ديغول » ممثّلاً للوطن الأمّ .

بيد أنّ مساحة هذه البقعة على الخارطة لا يمكن أن تخدع أحداً ؛ فهي خلو من الموارد ، وتكاد تكون خلواً من البشر أيضاً : فسكّانها ٣ ملايين من أهل البلاد وأقلّ من ٦،٠٠٠ رجل أبيض . وهكذا لن يكون للامبراطوريّة الديغوليّة شأن ما لم تمتدّ إلى مستعمرات « أفريقيا الغربيّة » ، وهي أوفر ثروة وأحسن موقعاً . كان « ديغول » يفكّر بالأمر ويعتقد أنّ باستطاعته أن يستولي على « غينيا » كما استولى « لوكلير » على « الكامرون » ؛ فمن « كوناكري » ينطلق نحو «دكار » خطّان ، أحدهما معبّد والثاني حديديّ ، والمدينة موقع ستراتيجيّ عالميّ ، وهي المركز الإداريّ والاقتصاديّ الفرنسيّ في « أفريقيا الغربيّة » الفرنسيّة . فلو تسنّى « لديغول » أن يبسط نفوذه على « دكار » لاستطاع دخول الحرب كدولة، ولاستطاع أن يجمع جيشاً ويثبت أنّ لحركته من الجاذبيّة ما يوازي الإخلاص « لفيشي » ، وبالتالي أنّ الاعتراف بالسيادة الذي يطالب به يرتكز على ما هو أعمق من شخصه .

وفجأة تدخّل « تشرتشل » ؛ ففي ٦ آب برهن لرئيس الفرنسيّين الأحرار في مكتب الوزارة في « دونينغ ستريت » أنّ خطّته في الزحف البطيء على « دكار » لا تتناسب وخطورة المشروع . وما دامت « انكلترا » نفسها بحاجة إلى « دكار » لتخفيف وطأة معركة الأطلسي ، فهي على استعداد للاشتراك في الحملة بأسطول ضخم ، ولكن بشرط واحد ، وهو ألاّ تجمّد هذه القوّة البحريّة الاّ لفترة قصيرة جدّاً . كان لا بدّ إذاً من توجيه الاهتمام نحو « دكار » مباشرة . كان « تشرتشل » محتدّاً ، يمزج في غضبه الانكليزيّة بالفرنسيّة ، ويرسم بيده البليغة التعبير على الخارطة البحريّة المبسوطة أمامه لوحةً لما كان يظنّ أنّه سيحدث ، وصفتها مذكّرات الجنرال « ديغول » كما يلي : « تستفيق « دكار » ذات صباح كئيبةً متردّدة ، ويبصر السكّان تحت نور الشمس المشرقة بحراً تغطّيه السفن . أسطول ضخم هائل ! مئة من سفن القتال أو الهجوم . وينطلق من هذا الأسطول الحليف قاربٌ مُسالم يحمل علم المفاوضين الأبيض، وينزل رسل الجنرال «ديغول» إلى البرّ فيُفهمون الحاكم أنّ عليه أن يترك الجنود ينزلون ، وإذ ذاك ينسحب الأسطول الحليف ولا يبقى إلاّ أن تتّفقوا فيما بينكم . وربّما خطر للحاكم أن يطلق بعض الطلقات من المدافع حفاظاً على الشرف ، إلاّ أنّه لن يتمادى إلى أبعد من ذلك . وإذا حلّ المساء شارككم عشاءكم وشرب نخب الظفر ... أمّا إذا قاوم فإنّنا نسحقه سحقاً ... » ولكنّ « ديغول » تردّد : فالعمليّة ، التي أرادها فرنسيّة صرفة ، تبدّلت معالمها بسيطرة وسائل التهويل البريطانيّة الضخمة التي قد تستحيل وسائل قتال إذا دعت الحاجة . بيد أنّ أهميّة المجازفة تغلّبت على تردّده ، فكانت بذلك غلطته الكبرى .

طُبعت الحملة منذ بدايتها بطابع سوء الحظّ ؛ فقد عمل بعض أخطاء التنظيم على تأخيرها ، وفُضح بعض أسرارها ، مع العلم بأنّ طبيعة هذه الأخبار لم تثبت قط ؛ والمقول أنّ بعض الضبّاط الديغوليّين الفتيان قد شربوا نخب « إلى دكار ! » ، في أحد المقاهي ؛ ويقال إنّ « ديغول » قد وصّى أحد الخيّاطين بصنع بزّات عسكريّة خاصّة بالمناطق الحارّة ، أو أنّه قد أطال التحدّث هاتفيّاً إلى « جاك دي سيياس » ممثّله في « نيويورك » . وربّما أردفت قلّة التحفّظ خيانةٌ . فسواء كان لهذه التفسيرات أسّ أو لا ، فلقد لزمت « فرنسا الحرّة » ريبة لن تفارقها حتّى النهاية ، مثيرة تعصّبات شديدة ، مولّدة شكوكاً شائنة .

لم يتحقّق شيء ممّا تصوّره « تشرتشل » ؛ فلم يضمّ الأسطول ١٠٠ سفينة ، بل ما يقارب العشرين ، منها بارجتان قديمتان هما « برهام » و« ريزوليوشن »، وحاملة طائرات هي « آرك رويال » . وحتّى لو كان الأسطول أكثر عدداً لما تسنّى لسكّان « دكار » أن يروا « في نور الشمس المشرقة بحراً تغطّيه السفن » ، ذاك أنّ ضباباً قاتماً كان يحجب كلّ شيء . ولم يُقتد المفاوضون إلى الحاكم كما كان متوقّعاً بل تصدّى لهم على الرصيف ضبّاط أشدّاء أمروهم بالعودة إلى البحر ؛ وقد امتثلوا للأمر فيما انهالت عليهم طلقات رشّاش جرحت حفيد المارشال « فوش » . ثم أطلقت مدافع « الريشوليو » الضخمة النار ثائرة لعدوان ١٠ تموز ، فعطّلت الطرّاد « كمبرلاند »، رغم الرؤية السيّئة . وسأل الأميرال « جون كاننغهام » البرّ : « لِمَ تطلقون النار عليّ ؟» فأجابه البرّ : « إنسحب إلى بعد ٢٠ ميلاً » . وحاول « ديغول » إذ ذاك إنزال الكتيبة الأجنبيّة في مرفإ « روفيسك » ، بيد أنّ مقاومة عنيفة صدّته .

ورفض « بيار بواسون » ، الحاكم العامّ ، إنذارين تعاقبا في ٢٤ و ٢٥ آب ، فقصف الأسطول الانكليزيّ المدينة ، ولكنّ المدينة دافعت عن نفسها ؛ وتسلّلت الغوّاصات الصالحة إلى خارج المرفإ ، فغرقت إحداها ، ولكنّ غواصة أخرى نسفت « الريزوليوشن » ، فأشرفت البارجة على الغرق وعلى ظهرها ٦٠٠ رجل بين قتيل وجريح ، إلا أنّها قُطرت إلى « فريتاون » . عند ذاك قرّر « كاننغهام » إيقاف العمليّات . ثمّ انقشع الضباب وابتعد الأسطول في غسق مهيب رائع .

« أدولف هتلر »
بين الشرق والغرب

كان بوسع مغامرة « دكار » أن تغيّر مجرى الحرب ؛ فبعد ما أهمل « هتلر » مبدئيّاً غزو « انكلترا » أخذ يعيد النظر في ستراتيجيّته . قرّ رأيه على محاربة « روسيا » ، إلاّ أنّه كان يفكّر بمرحلة انتقاليّة قد تكون اجتياح حوض البحر المتوسّط . ولو قُيّض للحملة الانكليزيّة الفرنسيّة أن تكلّل بالنجاح لمالت كفّة الميزان إلى ناحية أخرى ، ولسبّبت ردّة فعل في « أفريقيا الشماليّة » .

بعد « جودل » ومذكّرته « اجتياح أم لا ؟ » راحت عوامل التأثير والضغط المنصبّة على الفوهرر تدفعه نحو البحر المتوسّط . كان أهمّ هذه العوامل الأميرال الكبير « ريدر » ، الذي كان له بفعل بزّته البحريّة

من التأثير على « هتلر » ما لم يكن لأحد جنرالات جيش البرّ ، فقد تجرّأ وسأل « هتلر » عن نيّاته ، وتمكّن خلال لقائين متتاليين من الصمود في وجهه في نقاش عامّ دار على الوجهة الجديدة التي يجدر إعطاؤها للحرب. وقد كرّر « هتلر » زعمه بأنّ مفتاح العقبات كلّها هو « روسيا » ، ولكنّه ، مع ذلك ، سلّم بأنّ المتوسّط يشكّل مسرحاً لعمليّات مفيدة يقوم بها الجيش الألمانيّ خلال استراحة الشتاء .

أمّا في اتّجاه « السويس » فدور « ألمانيا » ثانويّ حتماً ؛ ذاك أنّ « موسوليني » كان يعتبر شرقيّ المتوسّط ميداناً خاصّاً به ؛ فلا بدّ إذاً من البحث عن ميدان لعمل القوّة القوميّة الاشتراكيّة الألمانيّة غربيّ المتوسّط . فهناك يقوم « جبل طارق » ، وهو أكثر الأهداف إغراءً .

كان « لجبل طارق » في نفس « هتلر » وقع خاصّ ؛ فمنذ الاستيلاء على « إيبن إيمايل » بات يعتبر نفسه أكبر الاختصاصيّين في الاستيلاء على التحصينات ، وتستهويه فكرة استخدام عبقريّته للاستيلاء على الصخرة الشهيرة . ويبدو له احتلال جزر « الأسور » و « الكناري » في ما بعد أشبه ما يكون بإقامة مراكز أماميّة أوروبيّة في وجه تهديد أميركيّ بعيد ، ولكنْ متوقّع . ثمّ ان إغلاق المتوسّط ، وتأمين المرور إلى « المغرب » ، يوفّران له سبيل الضغط على « فرنسا » . لم تكن هذه الأهداف طبعاً هي التي من أجلها ألقت العناية « بأدولف هتلر » في مصير الشعب الألمانيّ ! إلاّ أنّها مشاريع هامّة ، جليلة ، جديرة بأن تشغل فترة الشتاء .

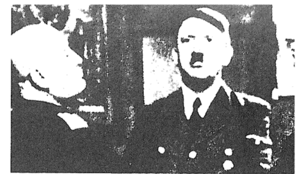
بدأت التمهيدات الدبلوماسيّة في أيلول . وفي تشرين الأوّل رتّب « هتلر » مقابلة له مع موسوليني في « برنّر » ؛ ووقف القطاران الخاصّان في محطّة الحدود كما فعلا في آذار ، ولكنّ ألوان الخريف المائلة إلى الحمرة كانت هذه المرّة تكسو منحدرات الجبل ، لا ثلوج الشتاء . وعرض « هتلر » على شريكه تصميمه على احتلال « جبل طارق » وحاجته بالتالي إلى دفع « فرنكو » إلى الحرب ، وقال إنّه رتّب سفر « سرّانو سونر » ، صهر « فرنكو » ، إلى « برلين » ، تحقيقاً لهذه الغاية . إلاّ أنّ تحفّظات « سونر » أثارت سخطه ، فبات يرى البحث المباشر مع « فرنكو » ضروريّاً ، ولذا فقد صمّم على الذهاب حتّى عتبة « اسبانيا » ، حتى « هنداي » ، ليدلّل بوضوح على الأهميّة التي يعلّقها على هذا اللقاء . وقال إنّه ودّ أن يطّلع « الدوتشي » على الأمر ، وإنّه يعتمد على تأييده .

ووافق « موسوليني » ؛ ولكنّه أبدى قلقه حين أعلن له « هتلر » عن رغبته في إقحام « فرنسا » في التحالف الأوروبّي ؛ ولم يكد يخفي غضبه لدى اطّلاعه على التدابير العسكريّة التي اتّخذتها « ألمانيا » في « رومانيا » من غير علمه ؛ « فرومانيا » في نظره هي زبونة « إيطاليا » . ولا يقبل بأيّ شكل أن يدّعي الألمان حقّ جعلها محميّة لهم . وقال « لتشيانو » تعليقاً على ذلك : « يضعني « هتلر » أمام الأمر الواقع . ولكن لا بأس ، فلأكيلنّ له بالكيل الذي يكيل به ، ولأتركنّ للصحف مهمّة اطلاعه على دخولي « اليونان » ... »

أمّا المفاوضات مع « فرنسا » فقد ارتدت طابع التكتّم ، وكان يحرّكها « بيار لافال » . كان « بيتان » يمقته ويحتقره ، ويعيب عليه ماضيه السياسيّ وثراءه الذي تحفّ به الشكوك ، وغلاظته ، ومظهره المهمل ، وقذارته ، وأسنانه المسودّة ، والدخان الذي كان ينفثه في وجهه . ورائحة التنباك والخلاعة التي يخلّفها وراءه . ولكنّ « لافال » جرف المجلس النيابيّ في ١٠ تموز إلى ذاك الاقتراح المظفّر (٥٦٩ صوتاً ضدّ ٨٠) ، الذي جعل من « فيليب بيتان » أكثر من ملك « لفرنسا ». وكانت سياسة الشيخ الهرم من الخبث بحيث لم يسمح لسفينته أن تميل إلى جانب واحد . كانت الوزارة بمثابة وكر معاد « لألمانيا » فجمّر فيه وزير الدفاع « مكسيم فيغان » أمله في الثأر ؛ أمّا « لافال » فقد اتّخذ الموقف المعاكس تماماً ، مقرّراً أنّ انتصار « ألمانيا » لا مردّ له . وأنّ لا مستقبل « لفرنسا » إلاّ في التعاون التامّ مع الظافر .

لم يكن تحقيق الاتّصال مع الظافر بالأمر اليسير ؛ فشروط الهدنه التي املاها في « روتوند » جائرة رهيبة ، وهو مع ذلك يلوم نفسه على أنّها قد أتت خفيفة ويعمل على زيادة وطأتها ، فيضمّ محافظات الشمال و « با دي كاليه » إلى الإدارة الفرنسيّة في « بروكسيل » ، وينقل الأسرى الباقين في « فرنسا » إلى « ألمانيا » ، ويخصّص للمدنيّين حصصاً في الإعاشة أقلّ من التي فُرضت على ألمان ١٩١٨ . كما يعيّن نفقات الاحتلال اليوميّة بمبلغ ٤٠٠ مليون فرنك ، وهو مبلغ يشكّل في الواقع تعويض حرب مرهقاً ، اعتباطيّاً ، وغير محدود الأجل . وبعد ما أدرك الخطأ الذي ارتكبه في الاستخفاف « بأفريقيا الشماليّة » ، ها هو يطالب بثماني قواعد جوّيّة في « المغرب » ، وبحقّ استعمال الخطّ الحديديّ بين « الدار البيضاء » و « تونس » . وقد أجابت حكومة « فيشي » بأنّ هذا المطلب يناقض اتّفاق الهدنة ، وراحت تحسب لشرّ الويلات حسابها . والغريب في الأمر أنّ « ألمانيا » لم تلحّ ولم تصرّ !

ولكنّ « لافال » مضى في تنفيذ خطّته ؛ فحين قام بسفرته الأولى إلى « باريس » في تموز ، لم يكن بعد يدري أيّ مسلك يتّبع ، بيد أنّه كان يعتمد على حدسه وعلى حسن طالعه . كان المارشال « فون براوشيتش » ، قائد الجيش العامّ ، وحتّى الجنرال « شترتشيوس » ، حاكم « فرنسا » العسكريّ ، سلطتين عاليتين بالنسبة له يستحيل الاتّصال بهما ، ولذا تعلّق بشخصيّة من المرتبة الثانية هي « أوتو أبتز » ، الذي عهد اليه نظام الدعاية والإفساد الهتلريّ ، قبل الحرب بإغراء المفكّرين الفرنسيّين ؛ ترك « أبتز » نائبَ رئيس الوزارة الفرنسيّة ينتظره ساعات طوالاً ، إلاّ أن « لافال » تحمّل الإهانة وقال : « كنت على استعداد لأن أنتظره طوال الليل ، وحتى في الساقية ، إذا اقتضى الأمر » . وأخيراً سُمح له بالدخول ، فراح يصغي بخشوع إلى « أبتز » وهو يقول : « أبصرت النور في « كارلشروهي » ، وكنت لا أزال طفلاً يوم قصفت طائراتكم مدينتي في عيد الجسد سنة ١٩١٦ ؛ فأقسمت لأكرّسنّ حياتي لتحقيق التقارب الفرنسي الألمانيّ ، الخ ... » ثمّ عرض الرجلان الأوضاع في بحث عامّ ، وخلصا منه إلى أنّ كفاحاً مشتركاً ضدّ « انكلترا » يوفّر أفضل قاعدة للتعاون الفرنسيّ الألمانيّ . لم تكن « لأبتز » صفة رسميّة ، ولم يكن في يده أيّ تفويض ؛ بيد أنّه أعلن أنّه ذاهب في الحال إلى « برلين » لإقناع المسؤولين بالأفكار التي جرى تبادلها . وعاد « لافال » إلى « فيشي » مدرّعاً بالخيلاء متّشحاً بالغموض ، وراح في الحال يسعى في إقصاء « فيغان » و « بوتيلييه » و « إيبرنيغاري » و « بودوان » و « نويل » و « فرنسوا — بونسي » ، قائلاً للمارشال : « أنا في انتظار عودة السيد « أبتز » ، وأحسب أنّه سيحمل « لفرنسا » الوعد بتلطيفات كبيرة ؛ ولكنْ عبثاً تأمل « فيشي » في تحقيقها إذا ظلّت آهلة برجال يرجون علناً هزيمة « ألمانيا » ... »



في ممرّ «بريغر» ، في ٤ تشرين الأوّل ١٩٤٠ : «موسوليني» ، و «هتلر» ، و «ريبنتروب»



«أوتو آبتز» و «لافال»

وطال الانتظار . إلاّ أنّه انتهى بالفوز . فقد عاد «أبتز» من «برلين» إلى «باريس» في ٥ آب سفيراً «لألمانيا» فيها ؛ لقد خدمه الحظّ بشكل عجيب ، فإذا بالمهمّة التي انتدب نفسه لها توافق رغبة «هتلر» في جعل «فرنسا» تُسهم في القتال ضد «ألبيون» . وأقنع «أبتز» رؤساءه بأنّه رجل تلك السياسة ، بفضل امرأته الفرنسيّة والعلاقات التي كانت له في «فرنسا» ، وخاصّة بفضل وحدة الرأي التي أرساها مع رجل الدولة الفيشيّ الأوحد . وهكذا حمل «لافال» «أبتز» كما حمل «أبتز» «لافال» . كانت قد بدت في «فيشي» بعض التحفّظات بشأن هذه الشخصيّة المجهولة التي علّق ترقّبُ حضورها من «برلين» مفاوضات الحكومة . فإذا بتفويضه يثبت أنّ نائب رئيس الحكومة لم يعتمد على دجّال ولا على مغامر .

ومنذ ذاك الحين أطلق «لافال» لغطرسته العنان ، فتكاثرت رحلاته إلى «باريس» . إستقبله «براوشيتش» في ٢٨ آب ، فعرض عليه «لافال» دخول «فرنسا» الحرب ضد «انكلترا» ، فأجابه ذاك العسكريّ الذي لا يعرف المحاباة بأنّ « «ألمانيا» ليست بحاجة إلى العون الفرنسيّ ، لأنّ هذا العون ليس بذي بال ...» عاد «لافال» إلى «فيشي» حاملاً ببرودة هذا الرفضَ الجافّ وتابع تطهير حكومته . وفي ٤ أيلول خرج «بيتان» ، ذاك الرجل الغريب الذي امتزج فيه الضعف بالعناد والوهن بالخبث ، إلى شرفة فندق «البارك» مصطحباً «فيغان» ، فأعلمه بأنّه لم يبقَ بحاجة إلى خدماته في الوزارة ؛ ولكنّه أرسله إلى مدينة «الجزائر» كمفوّض عامّ في «أفريقيا».

ولن تمرّ أيّام إلاّ ويضرب «بيتان» ضربة أخرى ؛ ففي ٢٠ أيلول استقبل المارشال في جناح «سيفينييه»، حيث كانت الرقابة عليه أضعف من الرقابة في فندق «البارك» ، استقبل الجامعيّ الأديب «لويس روجييه» ، وهو أستاذ في كلّية الآداب في «بوزانسون» كان قد أخذ على عاتقه مهمّة إصلاح ذات البين بين «فيشي» و «لندن» معتمداً على علاقاته الانكلو سكسونيّة . لم تكن «لبيتان» معرفة بهذا المفاوض ، بيد أنّه – استناداً إلى رواية «روجييه» – أسرّ إليه بتصريحات جريئة ، قال : «قل للانكليز إنّي أرسلت «فيغان» إلى «شمالي أفريقيا» ، بعيداً عن نظر الألمان ، ليقوم بمهمّة إعداد جيش يتولّى خدمتنا في ما بعد ... السيد «لافال» هو أحقر الرجال في نظري ، بيد أنّي ما أزال بحاجة إليه . ولسوف أتخلّى عنه . أطلع الانكليز على ما قلت لك ...» ثمّ سلّم «روجييه» رسالة توصية ثمينة تقول: «إنّ المارشال «بيتان» ، رئيس الدولة . يوصي بالسيّد الأستاذ «روجييه» ممثّلينا الدبلوماسيّين والقنصليّين ، ويتمنّى عليهم أن يحيطوه برعايتهم . التوقيع «فيليب بيتان». في ٢٠ أيلول ١٩٤٠» وهكذا سارت سياسة «فيشي» بخطى امرأة قرويّة حملت سلّتين ثقيلتين ، وراحت تعرج تارة من ساقها اليمنى وطوراً من ساقها اليسرى ، كي لا تحيد عن قارعة الطريق.

"هنـــداي" و"مونـــتوار"

لم تكن «لهتلر» شجاعة شخصيّة ؛ فما كان يبتعد عن ملاجئه الحصينة إلا وتساوره المخاوف ، وكان يصرّ على الاّ يتوقّف قطاره الخاصّ إلاّ بجوار نفق. وهكذا لم تحتلّ قرية «مونتوار – سر–لوار» مكاناً في التاريخ إلاّ لوجود نفق بالقرب منها ، على الخطّ الصغير الواصل بين «فاندوم» و «بون دي براي» .

إقتاد «أبتز» «لافال» إلى هناك في ٢٢ تشرين الأوّل . كان «لافال» يظنّ أنّه سيجتمع «بريبنتروب» ، ولمّا عرف أنّه سيلتقي بالفوهرر أصيب – على حدّ قوله – باضطراب جعله عاجزاً عن التعبير عن «دهشته وتأثّره» ، وقال إنّه ، «كفرنسيّ» ، يتمنّى هزيمة الانكليز من كلّ قلبه . فتنشّق «هتلر» طيب هذا البخور بملء صدره ، وأعلن أنّه واثق من الغلبة ، كما أعلن أنّه لا يسعى إلى إقامة سلم انتقاميّ . وأنّ جلّ ما يتمنّاه هو أن يحمّل «انكلترا» نفقات الحرب . ثمّ كشف عن رغبته في استقبال المارشال «بيتان» بعد يومين ، فأجاب «لافال» بأنّ رئيس الدولة الفرنسيّة لا يحلم بما هو أسعد من ذلك .

وما انتهت المقابلة حتّى انطلق قطار الفوهرر الخاصّ – ذاك المعقل السيّار المزوّد بقطع المدفعيّة المضادّة للطائرات – يجري باتّجاه «هنداي» ، مكان الاجتماع «بفرنكو» . وهناك راح «هتلر» كعادته يتكلّم بإسهاب ، فطلب من «فرنكو» إقحام «اسبانيا» في الحرب في ١٠ كانون الثاني ١٩٤١ ، ووعده بأن تحتلّ قوّاته المختصّة «جبل طارق» في ظرف أيّام قلائل بفضل تطبيق الخطط التي ابتدعها هو . «هتلر» ، ثمّ تعيده إلى الأمّة الإسبانيّة . أصغى «فرنكو» إلى الخطاب الهتلريّ الطويل، جامداً واجماً ، مكتّف اليدين والرجلين ، وقد علا الشحوب وجهه ، ثمّ تكلّم . لا ريب في أنّ «اسبانيا» تريد بإجماع الرأي استعادة «جبل طارق» ؛ إلاّ أنّ طابع الإلحاح الذي ارتداه هذا المطلب القوميّ كان يفرض أن يسترجع الإسبان أنفسهم ذاك المعقل ، وألاّ يؤخذ كهبة من دولة غريبة ولو صديقة . كان لا بدّ إذاً من إعادة تسليح الجيش الإسبانيّ ، وترميم الخطوط الحديديّة التي خرّبتها الحرب الأهليّة ؛ كان لا بدّ لشعب قليل التغذية من استعادة قواه بغذاء صالح ؛ كانت «اسبانيا» تعتمد على إسهام «ألمانيا» للنهوض بهذه الأعباء كلّها ، بيد

أنّه ما كان بوسعها أن تكون على أهبة الاستعداد خلال المهلة القصيرة التي حدّدها فخامة الفوهرر .

عرض «هتلر» مشروعه بإسهاب وغزارة . وحاول «فرنكو» أن يضاهيه إسهاباً وغزارة ؛ ولكنّ «هتلر» لم يكن بالرجل الهادىء البارد . فاذا به ينهض فجأة ويقول : ما دام الأمر كذلك فلقد تجشّم مشقّة الانتقال سدى ، ولم يبقَ له إلاّ أن يعود . فانتظر «فرنكو» سكوت «هتلر» ثمّ عاد فتابع تحليله بصوت هادىء . واستأنف «هتلر» الكلام واندفع في تلميحات يهدّد بها الذين لا يفهمون أنّ وضع «انكلترا» ميؤوس منه ، وأن انتصار «ألمانيا» ، إذا تأجّل قليلاً ، فلن يكون غير أكمل وأشمل . وإذ ذاك أجاب «فرنكو» بأنّ الانتصار «الألماني» حاصل في الواقع ، إنّما في البرّ فحسب ؛ ولا ريب في أنّ غزو «انكلترا» ممكن ، وقد يتمّ ، ولكنّ الأسطول البريطانيّ في هذه الحال سيرحل إلى «كندا» ويتابع الكفاح معتمداً على العون الأميركيّ ؛ أمّا هو ، رئيس الدولة الاسبانيّة ، المسؤول أمام شعبه وأمام التاريخ ، فعليه أن يحسب حساباً لحرب طويلة الأمد ، وعليه أن يقيس مسؤوليّات التدخّل ومزالقه . وأيّاً كانت الأحوال ، كانَ لا بدّ « لاسبانيا » من أن تحظى بمكاسب كافية لإنعاش حميّة القتال في شعب بات لا يطمع إلاّ بالراحة . فطالب «بموريتانيا» ، و «بالمغرب» كلّه ، وبمقاطعة «وهران» ، أي بأفضل جزء من «أفريقيا الشماليّة» الفرنسيّة . في الوقت الذي كانت فيه «ألمانيا» تحلم بجرّ «فرنسا» إلى جانبها !

دامت المباحثات سبع ساعات . وقد قطعها «هتلر» على أن تُترك لوزيري الخارجيّة مهمّةُ وضع مشروع للاتّفاق . وفيما هو خارج من عربة الاجتماع قال «لكيتل» : « إنّني أفضّل أن تُقلع لي ثلاث أسنان على أن أستأنف هذه الجلسة ...» وبعد عشاء فخم صامت استؤنف البحث بين «سرّانو سونر» و «ريبنتروب» ؛ فضخّم «ريبنتروب» امتعاض سيّده ، وانساق إلى تهديدات رخيصة . وفي منتصف الليل صرّف «سونر» بعد ما دعاه للحضور في الغد ، قبل الساعة الثامنة ، وبحوزته مشروع اتّفاق لائق . ولكنّه لم يرَ في الموعد المضروب سوى مساعد أمين سرّ الدولة ، «اسبينوزا دي لوس مونتيروس» ، وهو يحمل نصّاً تافهاً . فما كان منه إلاّ أن استقلّ طائرة للّحاق «بهتلر» الذي كان قطاره يجري مسرعاً نحو «مونتوار» ونحو «بيتان» . يقول الترجمان «بول شميدت» : «لم يكفّ «ريبنتروب» طوال الرحلة عن صبّ جام غضبه على «سونر» اليسوعي» ، وعلى «فرنكو» الجبان الجاحد الذي يدين لنا بأشياء كثيرة ...»

في «فيشي» سبق مقابلةَ «مونتوار» مشادّةٌ عنيفة؛ فقد ثار «لافال» حين أعلن «بيتان» عن عزمه على اصطحاب «بودوان» ، وقال : «إذا كُلّف أحد غيري من أعضاء حكومتك بحضور المقابلة ، فالمقابلة لن تجري» . كان وعيده باطلاً ، ما دام الفوهرر هو الذي طلب المقابلة ، وما دام ادّعاء «لافال» بأنّه موزّع نِعَم «هتلر» على «فرنسا» لم يثبت بعد . ولكنّ «بيتان» تخاذل جبناً .

نحن لا نعرف ما جرى في «مونتوار» وما جرى في «هنداي» قبلها إلاّ بواسطة إفادات متقطّعة . بوسعنا أن نمرّ مرور الكرام بالاحتفالات الخارجيّة التي رافقت المقابلة والتي استغلّتها دعاية «فيشي» حتّى التخمة . وحين كان «بيتان» يسأل في ما بعد عمّا جرى في «مونتوار» ، كان يجيب بذكاء زائف : «لا شيء» . والمرجّح أنّه قد اضطُرّ إلى سماع سرد للذُنوب والآثام التي اقترفتها «فرنسا» منذ ١٩١٨ ، ثمّ الخطاب الهتلريّ التقليديّ الذي يدور على مناعة الجيش الألمانيّ التامّة ، وعلى هزيمة «انكلترا» الوشيكة . ثمّ سأل «هتلر» ما إذا كانت «فرنسا» مصمّمة على الدفاع عن امبراطوريّتها ضدّ الهجمات الانكليزيّة ، واستعادة الأراضي المنشقّة . فأجاب « بيتان » بأن ما أصاب «فرنسا» من الويلات والآلام المادّيّة والمعنويّة لا يسمح لها بأن تندفع في نزاع جديد ؛ فأردف «هتلر» معلناً أنّ شروط السلم ستتوقّف على مدى المساعدة التي توفّرها له «فرنسا» . وحين سمع «بيتان» لفظة «سلم» انتفض متسائلاً : لماذا لا توضح «ألمانيا» «لفرنسا» مصيرها ؟ لماذا لا تبرهن لها عن أنّها لا تضمر رغبة في الانتقام منها ؟ لماذا لا تسهّل لها طريق العودة إلى الحياة بتخفيض نفقات الاحتلال ، وتليين خطّ الهدنة ، والإفراج عن الأسرى؟ ... وتكلّم «لافال» بدوره فأقرّ بأنّ إعلان الحرب على «انكلترا» مستحيل في الوقت الحاضر ، وبأنّ من الواجب إعداد الرأي العامّ أوّلاً ؛ وقال إنّ إقامة تعاون مع «ألمانيا» في الميادين غير العسكريّة أمر مرغوب فيه . وخلاصة الكلام أنّ ما برز في «مونتوار» كان لفظة «التعاون» هذه فحسب ، وقد غدت فيما بعد وصمة عار وجريمة ، في حين لم تكن في تشرين الأوّل ١٩٤٠ غير وسام لا قيمة له .

بدأت الحرب الإيطاليّة اليونانيّة

هنالك حدث أخير جعل من شهر تشرين الأوّل ١٩٤٠ أحد أشهر الحرب المشؤومة وعطفةً حاسمة فيها . فبعد ما قابل «هتلر» «بيتان» بقي يومين آخرين في «مونتوار» . لم يكن قد حدّد قراراته بعد بشكل نهائي ؛ فهنالك أمل بالرجوع إلى فكرة غزو «انكلترا» ، كما أنّ خيبة الأمل التي مُني بها في «هنداي» لم تقضِ على فكرة غزو «جبل طارق» ؛ فبالإمكان تحويل «فرنكو» عن عناده إمّا بالإقناع وإمّا بالتهديد . وكان فريق صغير من ضبّاط القيادة الحربيّة الألمانيّة العليا يدرسون مخطّطاً لحملة ضدّ الروس ، في جوّ من السرّيّة الكاملة ، حتّى لقد حُظّر عليهم أن يدوّنوا شيئاً على ورق . ومن جهة أخرى كان «ريبنتروب» حريصاً على سلامة التحالف الألمانيّ السوفياتيّ ، فكان قلقاً بشأن التوتّر الذي أصاب العلاقات الألمانيّة السوفياتيّة بسبب دخول القوّات الألمانيّة إلى «رومانيا» . وحين اقترح على «هتلر» أن يقابل «ستالين» أجاب «هتلر» : «أمجنون أنت! أنت تعلم أنّ «ستالين» لن يرضى أبداً بالقدوم إلى «برلين» ، فهل تراني مستعدّاً للذهاب إلى موسكو! ؟» وقال «ريبنتروب» فيما بعد : «إنّ الإذن الوحيد الذي حصلت عليه هو أن أكتب إلى «ستالين» كي يرسل لنا «مولوتوف» . إذاً كانت السبل جميعها ما تزال مفتوحة أمام «هتلر» . ولكنّ أمراً واحداً كان يشغله : فقد تسلّم من «موسوليني» رسالة مقلقة ، يتذمّر فيها «الدوتشي» من تحدّيات «اليونان» . ولكنّ على رأس «اليونان» ديكتاتوراً شديد المناصرة للألمان هو «جان ميتاكساس» ، وهو خرّيج الأكاديميّة العسكريّة في «بوتسدام» ، وكان الحلفاء قد أوقفوه سنة ١٩١٧ ، وهو يعطف عطفاً شديداً على الدول الدكتاتوريّة . يضاف إلى ذلك أن «هتلر» كان يريد أن يتجنّب المشاكل في «البلقان» خصوصاً لعدم تنفير «روسيا» في الوقت الحاضر . وهو يرى أنّ ما قام به حتّى ذلك اليوم في سبيل صيانة البترول الرومانيّ الثمين كان أمراً مبالغاً ! فكان عليه بالتالي أن يكبح جماح «موسوليني» من غير أن يكشف له النيّات الألمانيّة .

ومن «مونتوار» اتّصل «ريبنتروب» هاتفياً «بتشيانو» يعلمه بأنّ «هتلر» يرغب في الاجتماع «بالدوتشي» في إحدى مدن «إيطاليا» الشماليّة. وفي اليوم التالي وصلت الموافقة بإجراء المقابلة في «فلورنسا» يوم الاثنين في ٢٨، إذا لم يرَ الفوهرر مانعاً من ذلك.

ولكنّ «هتلر» كان لا يدرك مدى قضيّة الشرف التي كانت تدفع شريكه إلى وضعه أمام الأمر الواقع؛ ففي ١٤ تشرين الأوّل كان «موسوليني» قد سأل رئيس أركانه، المارشال «بادوليو»، عن عدد القوّات اللازمة والوقت المقدّر لدحر اليونانيّين؛ فأجاب المارشال بأنّ عشرين فرقة وثلاثة أشهر تفي بالغرض. ثمّ تجرّأ فسأل «موسوليني» عن موقف الألمان من مشروع حملة على «اليونان»؛ فاغتاظ «موسوليني» وسأل ما إذا كان «هتلر» قد استشاره حين هاجم «بولونيا»، و«النروج»، و«فرنسا». وهل اهتمّ باعتبارات حليفه الشرعيّة؟ هو، «موسوليني»، يؤمن بوجوب ضمّ «اليونان» إلى فلك «إيطاليا» الستراتيجيّ، ولذلك سيعمل على ضمّ «الإيبير» و«كورفو» والجزر الإيونيّة، وسيثبّت قدميه في «سالونيك»، شاء الألمان أم أبوا! فيجب بالتالي أن تبدأ العمليّات في ٢٨ تشرين الأوّل كحدّ أقصى. وطلب إلى القوّاد أن يتأهّبوا. وراح «بادوليو» يصارع خلال ثمانية أيّام، فحصل من رؤساء البحريّة والطيران على آراء مضادّة للحرب. وقد اعترض محتجاً بموسم «الإيبير» غير المناسب وبثلوجه، وبأنّه لم يكن لديه في «ألبانيا» سوى ٨ فرق، وبأنّ أوضاع المرافىء لم تكن لتسمح بنقل الفرق الـ ١٢ الباقية بسرعة. وما كانت هذه الاعتراضات كلّها إلاّ لتزيد في غضب «الدوتشي». فراح يصرخ قائلاً إنّه يؤثر أن يصبح يونانيّاً على أن يظلّ رئيساً لإيطاليّين يهابون اليونانيّين. وقال «لتشيانو» إنّه سيقبل استقالة «بادوليو» فوراً إذا تقدّم بها. ولكنّ المارشال تمنّع عن تقديم الاستقالة بعدما بلغه حديث «موسوليني». فالحرب، إذاً، كانت على أهبة الانطلاق.

غادر «هتلر» «مونتوار» في ٢٧. وفي «إيفوارسور موز» أوقف القطار وسُلّم «هتلر» رسالةً شخصيّة من «موسوليني». كانت الرسالة قد وصلت إلى السفارة الإيطاليّة في «برلين» منذ ٤٨ ساعة، ولكنّ السلطات الألمانيّة رفضت أن تسمح لأحد أفراد السفارة الإيطاليّة أن يسلّمها «لهتلر». كانت الرسالة تتضمّن قرار «موسوليني» النهائيّ القاضي بإعلان الحرب على «اليونان» في الحال. وعاد القطار فانطلق بعجلة؛ وفي «مونيخ» تسلّم الفوهرر برقيّة يذكر فيها الأمير «بسمارك»، القائم بالأعمال في «روما»، أنّ «تشيانو» قد استدعاه ليقرأ عليه نصّ الإنذار الأخير الذي سيوجّه إلى الحكومة اليونانيّة في الساعة الثالثة صباحاً. ورَد في الإنذار أن «إيطاليا» مستاءة من تآمر «اليونان» مع «انكلترا»، وأنّها تبغي احتلال الأراضي التي تختارها بغية وضع حدّ لهذا الأمر؛ وقد أُعطيت الحكومة اليونانيّة مهلة ثلاث ساعات لاتّخاذ قرارها: ففي الساعة السادسة يبدأ الزحف الإيطاليّ إن لم تعلن «اليونان» خضوعها التامّ.

وقد وصف الدكتور «شميدت» الجوّ قائلاً: «كنّا متجهّمين بعد إخفاقنا في «هنداي» وفي «مونتوار»؛ وأمّا الخبر الذي تلقّيناه بشأن قرار «موسوليني» فقد زاد الطين بلّة. كنّا نهرع إلى مكان الإجتماع في «إيطاليا» كما يهرع الشرطيّون إلى مكان الجريمة كالمعتاد بعد فوات الأوان».

في «فلورنسا» كانت المحطّة ترتدي زينة رائعة، وقد جلس فيها «موسوليني» منتظراً. وما أن استقبل «هتلر» حتّى أعلن: «أيّها الفوهرر، لقد زحفنا. إنّ قوّاتي قد دخلت «اليونان» مظفّرة في الساعة السادسة من صباح هذا اليوم»؛ وبعد ما رأى علامات الاستياء مرسومة على وجه حليفه، أضاف: «لا تقلق. ففي ظرف ١٥ يوماً، يكون كلّ شيء قد انتهى...» وبعد ١٥ يوماً كانت القوّات الإيطاليّة قد مُنيت بهزيمة شاملة!

وفاقاً للخطّة المرسومة، كان على الجيش التاسع أن يزحف إلى «سالونيك» ماراً «بفلورينا» و«ايديسا»؛ ولكنّ اليونانيّين أفادوا من طبيعة الأرض الوعرة، ومن الزوايع الثلجيّة، فشنّوا عليه هجوماً معاكساً، ثمّ استولوا في مؤخّرته على عقدة طرقات «كوريتزا»؛ فانسحب الجيش الإيطاليّ بسرعة فائقة، وهذا ما نجّاه من الأسر الشامل.

وكانت مهمّة الجيش الحادي عشر أن يغزو «الإيبير»، وأن ينحرف بعد ذلك إلى اليسار باتّجاه «أثينا». ولكنّ مقاومة اليونانيّين بقيادة الجنرال «الكسندر باباغوس» كانت حاذقة وعنيدة في آن معاً؛ فقد تكيّفوا في الحال على حرب الجبال، وطبّقوا غريزياً خطّة التسلّل، مواجهين بقوّة آفات الطقس التي كانت تشلّ الإيطاليّين؛ وهكذا لم يوفّق الإيطاليّون حتّى إلى الاقتراب من «يانينا». وفي ١١ تشرين الثاني كانت هزيمتهم كاملة، فتراجعت قوّاتهم بفوضى على سلسلة من المرتفعات بين بحيرة «أوكريدا» والبحر، محاولة تغطية «فالونا» و«تيرانا».

في ١١ تشرين الثاني نفسه كان الأسطول الإيطاليّ يستتر آمناً في «تارانتو». كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً، والقمر في ربعه الأخير؛ وكانت البوارج كلّها، وعددها سبع، راسية في الجزء الشرقيّ من الخليج الصغير الخارجيّ، في «مارغرانديّ»، وفي جملتها البارجتان «ليتوريو» و«فيتوريو فينيتو» الجديدتان، وحمولة كلّ منهما ٣٥،٠٠٠ طن. وكانت الحماية مكوّنة من صفّ حواجز مائيّة، ومن خطّين من الشباك، ومن ثلاثة حواجز من البالونات. وكانت بوارج عديدة أخرى تحمي جنبها المعرّض. ولم يكن قد شُنّ على هذه القاعدة المحمية الحصينة أيّ هجوم بحريّ أو جوّي. وفجأة زعقت صفّارات الإنذار، ودوّت المدافع المضادّة للطائرات، وشعّ الشاطىء بالنور. وغابت الظلمة عن المرفإ؛ فقد أطلقت طائرتان بعض الأسهم المضيئة فأضاءت السفن بنورها الساطع؛ وأقبلت تطير على مستوى الماء، قادمةً من الغرب، ١٢ طائرة «سورد فيش»، وهي طائرات ذات سطحين، أحاديّة المحرّك، ومن ذوات العجلات الثابتة؛ فبعد ما أعيت الحيلة الأميرال «أندرو كاننغهام» في استدراج الأسطول الإيطاليّ إلى القتال وجهاً لوجه، قرّر أن يضربه في جحره.

إنطلق الهجوم من حاملة الطائرات «إيلوستريوس» التي انضمّت إلى الأميرال «كاننغهام» لبضعة أسابيع خلت؛ وكان متوقّعاً أن تشترك بالعمليّة حاملة الطائرات «إيغل»، ولكنّها كانت بالية لدرجة أنّ القنابل الإيطاليّة التي تطايرت حولها في عرض «الكالابر» في ٩ تموز كانت كافية لجعلها عديمة الفائدة؛ وتحطّمت ٣ طائرات في حادث اصطدام، فجمع «كاننغهام» ما تبقّى لديه منها، ومجموعها ٢١ طائرة، على ظهر «إيلوستريوس»، وقسمها دفعتين يقودهما

«وليمسون» و «هيل» . ثمّ قام بنقلهما إلى مكان يبعد ١٨٠ ميلاً عن «تارانتو» . وفي الساعة ٨،٤٠ مساء أقلعت الدفعة الأولى المؤلّفة من ١٢ طائرة . ولم تمضِ ساعتان حتّى كانت طوربيدات «السوردفيش» تصيب البارجتين «كافور» و «ليتوريو». ورسمت الحرائق المتصاعدة منهما سير الدفعة الثانية التي انطلقت بعد الأولى بخمسين دقيقة وهي مؤلّفة من ٩ طائرات . وأخطأت طوربيدات هذه الطائرات «فيتوريو فينيتو» . ولكنّها بقرت هيكل «دويليو» . وأصابت «ليتوريو» بجرح آخر أرغمها على الجنوح في الخليج الصغير . وبذلك يكون نصف الأسطول المدرّع الإيطاليّ قد دُمّر . هذا ولم تتخلّف غير طائرتين انكليزيّتين عن قاعدتهما على ظهر «الايلوستريوس» .

في ٥ تشرين الثاني أُعيد انتخاب « فرانكلين روزفلت » رئيساً «للولايات المتحدة» بـ ٢٧ مليون صوت مقابل ٢٣ مليوناً نالها خصمه «ويلكي» . كان «روزفلت» يجاهر دوماً بالحفاظ على الحياد . ولكنّ بقاءه على رأس «أميركا» كان يشكّل . في رأي الجميع . تهديداً «لألمانيا» ورجاء وخلاصاً «لانكلترا» . قال «تشرتشل»: «لقد تلقّيت نبأ تجديد ولايته بانفراج لا يوصف» ؛ وأمر «غوبلز» صحافته بأن تعالج هذا الحدث بازدراء تامّ . ولكنّ أحد الدبلوماسيّين الإيطاليّين دوّن في يوميّاته ما يلي : « لقد رأت الأوساط الرسميّة الألمانيّة في التجديد لسيّد البيت الأبيض إنذاراً بأنّ «أميركا» ستدخل الحرب في أجل قريب» .

وأمّا مصائب «إيطاليا» فقد سبّبت «لألمانيا» معضلات جديدة ؛ فقد عاد الجنرال قائد الدبّابات الألمانيّة «فون توما» من «أفريقيا» بتقرير مثبّط للعزائم عن قيمة الجيش الإيطاليّ . وبشكاوى لاذعة عن البغض الذي أظهره له الإيطاليّون ؛ وأمر «هتلر» بإيقاف عمليّة تجهيز فرقة الدبّابات الرابعة لحرب الصحراء ، وفي ٥ تشرين الثاني دعا الأركان العامّة للجيش إلى درس التدابير التي قد تغدو ضروريّة بسبب انقلابات الأوضاع الإيطاليّة في «ألبانيا» . وبعد أيّام قليلة وصل « بادوليو » إلى «انشبروك» . وهو شديد الكمد . لبحث مستقبل التعاون العسكريّ الألمانيّ الإيطاليّ . فكان أن حلّ وسط جوّ من الزهو المتكابر . قال له «كيتل» : «لقد ربحنا الحرب ، ولم يتبقّ غير انجازها بإرغام «انكلترا» على الاعتراف بأنّها قد خسرتها ». وبعد ذلك رسم أمام «بادوليو» لوحة مشعّة عن الجيش الألمانيّ : ٢٣٠ فرقة منها ١٨٥ من فئة الخطّ الأوّل ، ومنها ٢٠ فرقة مدرّعة و١٢ فرقة آليّة . وإزاء عرض القوّة هذا اعترف «بادوليو» بأنّه أرسل إلى «ليبيا» كلّ ما كان يمتلكه من الدبّابات ومجموعها ٧٤ ؛ وطلب ، بالنيابة عن «الدوتشي» . أن يعطيه الألمان ٧٠٠ دبّابة فرنسيّة كان قد تمّ الاستيلاء عليها . ولكنّ «كيتل» رفض متذرّعاً بأنّ هذه الآليّات ضروريّة لتجهيز وحداته الألمانيّة المدرّعة الجديدة . ولكنّه ، من جهة أخرى ، أعاد اقتراحه بإرسال فرقة دبّابات ألمانيّة إلى «ليبيا» ، فرفض «بادوليو» متقيّداً بالتعليمات الصارمة التي تلقّاها . فقد سبق «لموسوليني» أن قال له : «إذا قبلت بأن يدخل الألمان إلى ديارنا ، فلن يخرجوا منها أبداً» .

كان يوم ١٢ تشرين الثاني يوم قرارات بالغة الأهميّة . فقد وضع «جودل» بين يدي الفوهرر تقريراً يُستخلص منه تعذّر غزو «انكلترا» ؛ وقبل «هتلر» بالأمر ، وقام بتحرير مذكّرته رقم ١٨ ؛ وقد برز فيها مخطّط جديد كامل للحرب . كانت الفقرة الأولى منها تتعلّق «بفرنسا» يقول فيها : «إنّ هدف سياستي حيال «فرنسا» هو التعاون معها لمواصلة الحرب ضدّ «انكلترا» ... فأكثر مشاغل الفرنسيّين إلحاحاً هي حماية ممتلكاتهم في المستعمرات بصورة دفاعيّة هجوميّة ضدّ «انكلترا» والحركة الديغوليّة . وانطلاقاً من هذه المشاغل الأوّليّة يُحتمل أن تعود «فرنسا» فتشترك في الحرب ضدّ «انكلترا» . »

وتطرّق «هتلر» بعد ذلك إلى «إسبانيا» فقال : «إنّ هدف التدخّل الألمانيّ في شبه الجزيرة الإيبيريّة هو طرد « انكلترا » من المتوسّط الغربيّ . ولذلك يتوجّب الاستيلاء على «جبل طارق» وإقفال المضيق...»

وقد حلّت قضيّة جزر الأطلسيّ في المرتبة الثالثة . كتب «هتلر» في مذكّرته : «يجب على رؤساء القيادات البحريّة والجوّية أن يدرسوا كيفيّة تدعيم الدفاع الإسبانيّ في جزر «كاناري» وكيفيّة احتلال جزر «كاب فير». وأنا أطلب كذلك أن تُدرس عمليّة احتلال «ماديرا» و «الآسور» بحسناتها وسيّئاتها» .

وأمام هذه الوثيقة ظنّ «جودل» وكلّ من آزره في الستراتيجيّة المتوسّطيّة أنّ قضيّتهم رابحة . وازداد «هتلر» ولعاً . فراح يخطّط لاحتلال «جبل طارق» أمام تصميم كبير للقلعة . ويتكلّم باستمرار على غزو الأرخبيلات التي كان طيّاروه وبحّارته يظنّون أنّهم يستطيعون احتلالها ولكنّهم يشكّون بمقدرتهم على الاحتفاظ بها . وكتب «هتلر» إلى «موسوليني» رسالة مسهبّة أعلن فيها عن أسفه لوصوله إلى «فلورنسا» بعد فوات الأوان ؛ وقال إنّ العود إلى معاتبات الماضي لم يكن ضرورياً . وإنّه كان معتزماً على إزالة الخطر الانكليزيّ في «اليونان» . ولكنّه يخضع للواقع الذي يثبت أنّ كلّ عمليّة ذات أهميّة في «البلقان» لم تكن ممكنة قبل شهر آذار ، في حين كانت قضيّة إغلاق المتوسّط ممكنة في الحال. وقال بهذا الصدد : «يجب أن تصفّى قضيّة المتوسّط في هذا الشتاء . إذ أنّ استخدام القوّات الألمانيّة يكون أنسب واجدى في هذا الفصل عينه» .

ولكنّ العائق الأساسيّ كان ما يزال متجسّداً في تعصّب «فرنكو» للحياد . قال الفوهرر «للدوتشي» : «يجب أن تقتنع «إسبانيا» بالدخول في الحرب حالاً» . ولكنّ وسيلة الإقناع لم تكن قد أُوجدت بعد . وسافر «سرّانو سونر» من جديد إلى «ألمانيا» فكانت نتيجة سفره أن ازداد استياء «هتلر» وغضبه وعجزه .

حُدوث تشقّق في التحَالف الألمانيّ الرّوسيّ

وصل مفوّض الشعب «فياشيسلاف مولوتوف» إلى «برلين» وسط الزهور والمناجل والمطارق في الزيارة التي طلبها «ريبنتروب» ؛ ولكنّ هذا الأخير لم يكافأ على بادرته : فخلال المحادثات لم يقل «مولوتوف» غير كلمات معدودة ، فيما راح «ريبنتروب» يجهد مردّداً أنّ ما من قوّة تستطيع منع الهزيمة الانكليزيّة ؛ ولكنّ نظرة الروس الحازئة الثاقبة كانت تغبط الألمانيّ المدّعي . ولكنّ الحال اختلفت مع «هتلر» . فقد ناقشه «مولوتوف» الحساب بعنف ، متذمّراً من دسائس «ألمانيا» في «فنلندا» ومهدّداً بالعودة إلى القتال فيها إذا استمرّ تسلّل القوّات الألمانيّة إليها . وتذمّر كذلك من دخول القوّات الألمانيّة إلى «رومانيا» وهدّد بإجراء اتّفاق مع «بلغاريا» مماثل لاتّفاق الحماية الذي جرّت «برلين»

«رومانيا» إلى توقيعه. وطلب الحقّ في مراقبة مضيقي «الدردنيل» و «البوسفور» بإقامة قواعد بحريّة وجويّة سوفياتيّة في «تركيا». وقطع على «هتلر» بلاغته الخطابيّة حين حاول هذا أن يحوّل أنظار زائره نحو «الخليج الفارسيّ» و «الهند» قائلاً إنّه لم يكن يهتّم بغير القضايا الأوروبيّة. وأمّا «هتلر»، الذي كاد يختنق من الغيظ في «باد غودسبرغ» لأنّ المرحوم «تشامبرلين» (توفيّ منذ زمان قصير) قد تجرّأ على أن يطرح عليه سؤالاً. فقد تحمّل بصبر عجيب أجوبة «مولوتوف» ذي النظّارات والعين الفولاذيّة. ولم تكن حصيلة المناقشات لتظهر البتّة أي اختلاف بين «روسيا» السوفياتيّة و «ألمانيا» الهتلريّة؛ ودوّن البروتوكول أنّه قد تمّ الاتّفاق على المواضيع كافّة، بما فيها المطامع الروسيّة في المضائق. ولو أخذنا الوثيقة بحذافيرها لظهر وكأنّ التحالف الألمانيّ السوفياتيّ لم يتغيّر وجهه.

ولكنّ المظاهر كانت خدّاعة. فالشهادات كلّها تثبت أنّ «هتلر» قد خرج من مقابلتيه مع «مولوتوف» في حالة هياج شديد. قال «بول شميدت»: «إنّني مقتنع بأنّ «هتلر» قد اتّخذ قرار مهاجمة «روسيا» على أثر ذلك مباشرة». وقال «كيتل»: «لقد رأى الفوهرر في كلام «مولوتوف» طُعماً لعمليّة كبيرة ترمي إلى تطويق «ألمانيا». وقد قرّر أن يَحُول دون حدوثها.»

وهنالك أسباب جديدة كانت تدفع «هتلر» إلى محاربة «روسيا»: فقد تلاشى كلّ أمل في أن يكون القتال ذا أجل قصير. نظراً لمُعْطَيات النزاع الراهنة؛ فقد غدا من الصعب مهاجمة «انكلترا» لأنّها تحصّنت في جزيرتها، وباتت العمليّات في المتوسّط محدودة الفعالية. أمّا «أميركا» فلم تكن ذات بأس عسكريّاً، ولكن كان بإمكان قوّتها الاقتصاديّة أن تزوّد «انكلترا» بموارد متزايدة. هذا، ولم يبقّ «لألمانيا» سوى مصدر كبير وحيد للموادّ الأوّليّة هو «الاتّحاد السوفياتيّ». وقد خمّن «هتلر» أنّ «مولوتوف» كان يدرك هذا الوضع. وهذا ما يفسّر ثقته بنفسه، وهي ثقة تختلف تماماً عن تصرّفه المتواضع عام ١٩٣٩. فان لم تتنبّه «ألمانيا» لهذا الوضع وجدت نفسها مقيّدة «بالاتّحاد السوفياتيّ» أكثر فأكثر، بينما كان أحد الأهداف العميقة للثورة القوميّة الاشتراكيّة القضاء على البولشفيّة. كان التحالف مع السوفيات حيلة سياسيّة مرهونة بمرحلة معيّنة من الحرب، وهو الآن قابل لأن يصبح قاتلاً إذا تعدّى بقاؤه الأسباب التي أوجبته أصلاً.

إنّ طبيعة الرجال كثيرة التعقيد. وقلائل هم الرجال الوقحون الخلّص. وليس «هتلر» بواحد من هؤلاء؛ فتقرّبه من «موسكو» قد سبّب له طوال هذه المدّة حرجاً دفيناً؛ وكثيرون هم القوّاد والأرستقراطيّون الألمان، ممّن ترعرعوا في كنف التقليد البيسماركيّ. الذين كانوا يقبلون بهذا التقارب برضى تامّ. ويقدّرونه جهاراً أكثر من ذلك النمساويّ السوقيّ الذي كانت معاركه الأولى اشتباكات وحشيّة مع الجبهة الحمراء. وسيعمل «هتلر» على تصفية ضميره بخوضه معركة ضدّ العدوّ العقائديّ الذي كانت الستراتيجيّة والسياسة قد قرّبتاه منه. أمّا بالنسبة «لموسوليني» فقد كان التكاتف العقائديّ ممزوجاً بالإعجاب وبالصداقة التي ولّدت في قلب «هتلر» كنزاً من التسامح. والشعور الأكثر إنسانيّة الذي يتميّز به هذا القلب العجيب هو الألفة والتآخي مع المشرّدين؛ فمنذ ثلاثة أشهر كانت خيبة «ألمانيا» المتكرّرة، وهزائم المحور جميعها. صادرة عن «إيطاليا» التي لم يبقّ «هتلر» يرتجي منها خيراً؛ ومع ذلك فهو لم يتذمّر مرّة واحدة من مؤسّس الفاشستيّة، بل كانت المصائب التي يتخبّط فيها «موسوليني» تهزّ مشاعره بصدق، حتّى انه ليكاد يذرف الدمع أحياناً بسببها. وقد روى «تشيانو» قائلا: «لقد ترقرقت في عيني «هتلر» دمعتان كبيرتان حين طلب منّي أن أخبر «الدوتشي» أنّه سيقف إلى جانبه بكامل قواه». وكان يرغب في أن يجتمع إلى شريكه البائس، ولكنّ «موسوليني» كان ينفر من المقابلة بفظاظة؛ فقضاياه تزداد سوءاً باستمرار؛ وقد غيّر قوّاده. وحرّر قائد الجبهة الألبانيّة «سودّو» من قيادته، (وهو الذي كان يكتب موسيقى أحد الأفلام أثناء معركة «يانينا»!) وانفصل عن «بادوليو» نفسه، وأحلّ مكانهما «كافاليرو» المتفائل ونصير الألمان الذي رأى في نفسه المقدرة الكافية على القيام بأعباء الأركان العامّة وقيادة الحرب الألبانيّة في آن معاً! ولكنّ الوضع العسكريّ لم يتحسّن؛ فقد احتلّ اليونانيّون «أرجيرو كاسترو» ومرفأ «سانتا كوارانتا». ولم تبقّ المشكلة الإيطاليّة متوقّفة على احتلال «سالونيك» و «أثينا». فقوامها. والحالة هذه. هو البقاء في «ألبانيا» المجتاحة الثائرة.

وفجأة حجبت الانقلابات الألبانيّة أحداثٌ أخرى؛ فقد انفجر الوضع في «أفريقيا». مهدداً بانهيار «إيطاليا». فبعد ما تقدّم الإيطاليّون بحذر حتّى «سيدي برّاني». أقاموا في نحو عشرة معسكرات بين البحر ومنحدرات «صفافي» الوعرة. وكانت تحصيناتهم وحمايتهم سيّئة. ولم يكونوا ليجرؤوا على إرسال عناصر الاستطلاع إلى أبعد من مدى مدافعهم؛ وكان تسليحهم ناقصاً، وأمّا دبّاباتهم الصغيرة «فيات» التي هي من زنة ٢ طن فلم تكن غير توابيت للعاملين فيها؛ وكان مستوى المعنويّات بمستوى التسليح؛ ولم تكن طبيعة الصحراء القاسية لتوطّد التقارب بين الضبّاط المُترفين والجنود المحرومين. وأمّا موضوع الزحف إلى «مرسى مطروح»، وهي رأس خط «الاسكندريّة» الحديديّ، فقد أسقط من الحسبان؛ فبعد ما رفض الجيش الإيطاليّ مساعدة المصفّحات الألمانيّة، انطوى على احتلاله التافه وبات ينتظر. وملّ «ويفل» الانتظار؛ كان قد حضّر معركة دفاعيّة، ولكنّه قرّر أن يهاجم عدوّاً لم يكن ليهاجم، كما فعل الأميرال «كاننغهام» من قبل. وكانت «لغرازياني» سبع فرق، ولم تكن لدى «ويفل» غير فرقتين: الفرقة الهنديّة الرابعة، والفرقة المصفّحة السابعة. وفي فجر جليديّ في ٩ كانون الأوّل قام الانكليز بالالتفاف حول معسكر «نبيوه» الإيطاليّ، فقتلوا قائده وهو في ثياب النوم. واستولوا عليه في ظرف ساعتين، واستولوا بالطريقة نفسها: بعد أربعة أيّام من القتال. على «تمّار» الغربيّة، و «تمّار» الشرقيّة. و «مقتلة»، و «سيدي برانيّ»، وغيرها؛ ودُمّرت في المعركة أربع فرق إيطاليّة. وبلغت الخسائر البريطانيّة ٦٢٤ رجلاً بين قتيل وجريح ومفقود. وبلغ عدد الأسرى الإيطاليّين ٣٨،٣٠٠ رجل!

لم يكن «ويفل» قد حلم بانتصار كهذا؛ وهو لم يتحضّر مسبّقاً لاستغلال هذا الانتصار، حتّى أنّ الفرقة الهنديّة كانت تهاجم وهي مزوّدة بأمر الاتّجاه إلى «السودان» على أثر انتهاء الغارة على «سيدي برّاني». وفي ١٢ كانون الأوّل، وعلى الرغم من اعتراضات «أوكونور» قائد الجيش، ثُبّت أمر تحرّك الفرقة الهنديّة الرابعة. وكان مفروضاً أن تحلّ محلّها بالتدريج الفرقةُ الأوستراليّة السادسة لتعتاد على قتال الصحراء. ولم يكن هذا غير مثال أوّل للأخطاء الفادحة التي ارتكبها الانكليز في قيادة الحرب في المتوسّط، في الوقت الذي أرسل فيه «غرازياني» زوجه إلى «موسوليني» لتمطره وابلاً من الشتائم، وفيما

كان يريد التّراجع حتى «طرابلس الغرب» في قفزة واحدة معلّلاً ذلك بقوله : «الأفضل أن تظلّ الراية الإيطاليّة ترفرف على الأقلّ فوق قلعة واحدة في «أفريقيا الشماليّة » .

«لافال» في عزّه وفي سقوطه

خيّبت «إيطاليا» رجاء «هتلر» . ولسوف تسبّب له «فرنسا» خيبة أخرى . كانت فكرة احتلال «جبل طارق» تقوم على استدراج حكومة «فيشي» إلى الحرب بحجّة استعادة المستعمرات الفرنسيّة . ففي ٢٩ تشرين الثاني ، وبعد انقضاء خمسة أشهر على هدنة «كمبيان» ، ضمّ مجلسٌ عسكريّ في دار السفارة الألمانيّة ، وبحضور «لافال» و «أبتز» . الجنرالَ «هونتزيغر» والأميرال «دارلان» ومساعد «جودل» الأوّل . الجنرال الفنّي «فارليمونت» . دار النقاش حول خطّة احتلال «التشاد» واستعادته من الديغوليّين ، فضلاً عن تأمين عربون في الحصول على «نيجيريا» البريطانيّة . وكان «هتلر» قد قبل بسخاء أن يعوّض على «فرنسا» خسارتها «تونس» بتسليمها هذا البلد الشاسع . استؤنف المؤتمر في ١٠ كانون الأوّل، وكان «فارليمونت» راضياً عن النتائج . فأمر بشراء ٥،٠٠٠ خارطة تمثّل «أفريقيا الاستوائيّة الفرنسيّة». وباتت «ألمانيا» ترتقب حصول العمليّات الهجوميّة على «التشاد» في أعقاب فصل الأمطار .

في هذا الوقت بالذات جرت الاستعدادات لعمليّة أخرى رمزيّة ؛ فلقد تبنّى الفوهرر فكرة النازيّ الفرنسيّ «بينوا — ميشان» ، واتّخذ قراراً بنقل جثمان الدوق «دي رايخشتاد» ، ابن «نابوليون» ، إلى «الأنفاليد» . أمّا الباريسيّون المرتعشون في مطلع شتاء قارس ، فقد قابلوا هذه الفكرة الكبيرة بعقوق ساخر قائلين : «هم ينتزعون منّا الفحم ويعيدون إلينا الرماد ...» إلاّ أنّ محبّذي التعاون راحوا يفكّرون بإقامة احتفالات كبيرة بالمناسبة : يأتي «بيتان» إلى «باريس» فيتسلّم الذخر الغالي ، ولعلّه يبقى فيها فلا يعود إلى العاصمة الموقّتة . وعيّن موعد الاحتفال في ١٥ كانون الأوّل ، الموافق الذكرى المئويّة لعودة رفات «نابوليون» نفسه . يالشهامة الفوهرر ! فإنّ يده المجيدة تجمع الأب والابن في ضجعة الموت ذاتها ! .. وفيما الاستعدادات قائمة على قدم وساق ، أُعلن في ١٣ كانون الأوّل نبأ صاعق مذهل : طُرد «لافال» من الحكومة وأوقف في «فيشي» ! ولكن سرعان ما أفرج عنه الألمان ؛ فقد سارع إليه «أبتز» ببعض السيّارات المزوّدة بالرشّاشات ، فأفرج عنه وقاده إلى فندق «البارك» ، في حضرة «بيتان» ، فما كان من «لافال» إلاّ أن انهار على العجوز بالسباب والشتائم . ولفظ إذ ذاك الجملة التي حكم عليه بالموت بسببها : «بعد اليوم سأجد بين الألمان أصدقائي» . ثمّ خرج. وقد امتقع وجهه حنقاً، وعاد إلى«باريس» في سيّارة «أبتز» نفسها.

كادت النتائج المترتّبة على إقصاء «لافال» أن تكون خطيرة مفجعة بالنسبة «لفيشي» . ولكنّها أتت في الواقع ضعيفة ، فلم تفقد «فرنسا» في ذلك حتّى رفات الدوق المسكين ، بل تسلّمتها في الموعد المقرّر ، إنّما في احتفال بارد لم يحضره «بيتان». ولكن عُلّق الإفراج عن بعض فئات من الأسرى ، وأُحكم الخطّ الفاصل بين «فرنسا» المحتلّة و «فرنسا» غير المحتلّة إحكاماً تامّاً ، ومُنع الوزراء كلّهم من دخول «باريس» . واستُدعي الأميرال «دارلان» خليفة «بيار لافال» في خلافة «بيتان» لمقابلة «هتلر» ؛ وقال فيما بعد تعليقاً على هذا اللقاء : «لقد وُبّخت كما لم أوبّخ في حياتي أحداً» . بيد أنّ التشفّي وقف عند هذا الحدّ . كلمة من «هتلر» كانت كافية لإزالة حكومة «فيشي» ، أو لإنشاء حكومة معاكسة نازيّة في «باريس» يؤلّفها الأنصار أمثال «بريئون» و « ديا » و «دوريو» و«لافال» . ولكنّه لم يفعل . ولم يُفهم هذا الموقف في حينه . أمّا اليوم فقد أضحى السبب واضحاً : ذاك أنّ التعاون مع «فرنسا» بات لا يثير اهتمام «هتلر» . فلقد أعرض فجأة عن الستراتيجيّة المتوسّطيّة التي صادف فيها عقبات وتعقيدات جمّة ، وتخلّى ، أو كاد ، عن خطّة الاستيلاء على «جبل طارق» لأنّه لم يستطع إقناع «فرنكو» ولم يكن له قبَل بمحاربته . وخرجت «الآسور» و «التشاد» و «دكار» من محيط تأمّلاته . وبعد تردّد دام أربعة شهور قرّ قراره وتركّزت أفكاره : فالسهول الروسيّة وحدها ستوفّر له فرصة تقرير المصير . إذاً فإليها سوف يسعى !

وقّع «هتلر» في ١٧ كانون الأوّل على مذكّرته رقم ٢٠ المعروفة «بماريتا» ؛ إنّها لمجرّد تدبير وقائيّ ، قال فيه : «يبدو لي جليّاً أنّ الإسهام الإيطاليّ معدوم . إلاّ أنّ موقع «إيطاليا» الستراتيجيّ من الخطورة بحيث لا أستطيع أن أرضى بخروجها من الحرب منهارة . إذاً ستتدخّل القوّات الألمانيّة في الربيع عن طريق «رومانيا» و «بلغاريا» ، للإجهاز على «اليونان» ووضع حدّ لحرب «البلقان» . وفي اليوم التالي وقّع «هتلر» مذكّرته رقم ٢١ المعروفة «ببربروسا» ؛ إنّ هذا النصّ الواقع في ثماني صفحات ، والذي عُرض في محاكمات «نورنبرغ» ، هو أهمّ نصوص الحرب كلّها على الإطلاق ؛ فهو يرسم الخطّة العامّة التي ترمي إلى إبادة الجيش السوفياتيّ في حملة صيفيّة قصيرة ، ويقرّر «لألمانيا» حدودها الجديدة ، أي الخطّ الممتدّ بين «استراكان» و «ارخنجلسك» ، ويدفع «بألمانيا» إلى زوبعة من الهزائم وإلى سلسلة من الويلات . على أنّ المقطع الأخير يتضمّن التحفّظ التالي : «ولا يغربنّ عن البال أنّ الأوامر الصادرة بناء لهذه المذكّرة ليست إلا تدابير وقائيّة تنفّذ فيما لو بدّلت «روسيا» موقفها منّا ...» «فهتلر» ، على عادته ، لا يرتبط ارتباطاً قاسياً ملزماً ، بل يبقي باب الاحتمالات كلّها مفتوحاً أمامه .

في الشتاء فقد «هتلر» ، الذي أتخمته الانتصارات ، هدفه الأوّل ، ألا وهو إحراز النصر الأخير في ١٩٤٠ . أتى الشتاء كزميله السابق بالغ القساوة . كان «موسوليني» ينظر إلى الثلج المنهمر على «روما» ويقول «لتشيانو» إنّه يودّ لو يشتدّ البرد ويزيد عنفاً «ليشدّ عزيمة الشعب الجبان السافل الذي قيّض لي أن أقوده» . أمّا «فرنسا» ، التي مُنيت بهزيمة لم تعرف لها مثيلة ، فقد انطوت على بؤسها وهوانها . وأمّا الطيران الألمانيّ الذي كاد يعفّ عن «لندن» في ٢٥ ، فقد أنزل بها في ٢٩ أعنف الغارات التي عرفتها وأضراها ، فكان حصيلتها ١،٥٠٠ حريقة ، وإحالة «الجيلد هول» إلى رماد ، وتدمير ٨ كنائس . وفي البحر دمّرت الغوّاصات ، رغم العواصف ، ٣٦٠،٠٠٠ طن من السفن التجاريّة خلال شهر .

في «أميركا» ألقى «روزفلت» في ٢٤ كانون الأوّل بحديث شديد اللهجة حيال دول «المحور»، وتنبّأ بسحقها ؛ ولكنّ بعض المقرّبين القلائل فهموا الفكرة التي اختمرت في ذهنه خلال رحلة صيد السمك التي قام بها بعد انتخابه . فلقد قال : «يعير الجار خرطوم الماء لجاره الذي تندلع النيران في بيته ...» وراح يبحث عن وسيلة يقرض بها «انكلترا» الأسلحة التي أوشكت مواردها الماليّة الآفلة أن تكون عاجزة عن شرائها .

الفصل التاسع

كانون الثاني - أيّار ١٩٤١

كوارث إيطاليّة، وانتصارات ألمانيّة

في ٣ كانون الثاني ، قُبيل مطلع الفجر ، انهال على القطـــاع الوسيط لدفاع « البردية » قصفٌ تمهيديّ . لقد بدأت أولى معارك سنة ١٩٤١ .

إنّ مظهر المكان منقبض متجهّم : سلسلة الجبال الساحليّة تنحدر نحو المتوسّط متراكمةً . والمرفأ خليج صغير تافه ، أمّا طريق «طبرق» وهي نقطة سوداء فوق الصحراء الصهباء . فتنحدر نحو المدينة الصغيرة عبر بعض المنعطفات الخطيرة . ثمّ تتّجه صُعُداً وسط النّجد باتّجاه حصن «كابوتزو» والحدود المصريّة . وكان الإيطاليّون قد تراجعوا إلى هذا الموقع الهزيل بعد هزيمتهم في «سيدي برّاني» وخسارتهم «سلّوم» ، كان «غرازياني» يرغب في التراجع أكثر من ذلك . إلاّ أنّ صوت «موسوليني» تعالى مهتاجاً : إنّ فداحة الهزائم الإيطاليّة تمنع منعاً باتّاً أن يجري التخلّي عن شبر واحد من الامبراطوريّة . فيجب بالتالي الدفاع عن «البردية» حتى النهاية .

لم يبقَ أمر الهجوم مفاجأة . لأنّ الإيطاليّين باتوا يعلمون أنّ السّتراتيجيّة البريطانيّة قائمة على سحقهم . وفيما كان الانكليز يحافظون على موقفهم الدفاعيّ حيال «ألمانيا» كان خطر الغزو الألمانيّ قد زال . ولذا لم يتردّدوا في إرسال قوّات ضخمة بعيداً عن جزيرتهم لينهالوا بها ضرباً على أضعف أعضاء «المحور» : فبين شهرَي آب وكانون الأوّل تمّ إرسال ٧٦,٠٠٠ جنديّ من «المملكة المتّحدة» إلى «مصر» . وكانت السفن الأربع : «كوين اليزابيت» . و «كوين ماري» . و «أكويتانيا» و «موريتانيا» . قد حملت من «أوستراليا» و«زيلاندا الجديدة» . في رحلة واحدة. ٥٠,٠٠٠ جنديّ من آخر المعمور. ذاقوا الأمرّين من جرّاء الحرارة الشديدة أثناء عبورهم «البحر الأحمر» . وفي الوقت نفسه كان ٨٠,٠٠٠ رجل ، بينهم ٢٧,٠٠٠ أفريقيّ جنوبيّ، يتجمّعون في «السودان» وفي «كينيا» في وجه المستعمرتين الإيطاليّتين «اليوبيا» و «ايريتيريا» . كان «موسوليني» يتوهّم أنّه يدخل الحرب لهدف واحد وهو الجلوس إلى طاولة مؤتمر السلام . إلى جانب المنتصرين . ولكن اتّضح له أنّه كان عليه أن يتحمّل من الحرب حملها الأثقل . في حين كان شريكه الألمانيّ لا يفقد غير بعض ملاّحي الطائرات وبحّارة الغوّاصات .

في «البردية» ، كانت القوّات الإيطاليّة فائضة ، وفي دائرة محصّنة يبلغ نطاقها ٣٠ كلم . ويتعذّر إمدادها من الأرض أومن البحر . انحجرت فرقتا «القمصان السود» الأولى والثانية. وفرقة «مارما ريكا» الثانية والستّون . وفرقة «سيرين» الثالثة والستّون . وفرقة «كاتانتزارو» الرابعة والستّون . أي ٤٥,٠٠٠ رجل . بقيادة الجنرال «برغونزولي» . وكان فيها خطّان من نقط الارتكاز



الهزيمة الإيطاليّة في «ألبانيا»

لقد رفض الإيطاليّون مساعدة المصفّحات الألمانيّة فاطمأنّوا إلى فتحهم الهزيل وراحوا ينتظرون .

يحميان خندقاً مضاداً للدبّابات وشبكة من الأسلاك الشائكة ، تدعمهما حقول مزروعة بالألغام . ولكنّ الماء كان مقنّناً بشكل صارم ، وكان التسليح عادياً ، وأمّا المعنويّات فكانت منهارة .

وقام المهاجمون البريطانيّون بخوض معركتهم الأولى ؛ كانوا يؤلّفون فوجين (أي لوائين حسب الاصطلاح الانكليزيّ) من المشاة الأوستراليّين تساندهم الدبّابات كلّها وعددها ٢٣ ، وهي قوام الفرقة المصفّحة السابعة . إذاً كان الأوستراليّون يهاجمون بنسبة ١ ضدّ ٥ . ولكنّهم كانوا قد تمرّسوا بالقتال بفضل التدريب العمليّ الذي تلقّوه في « فلسطين » . وفي الساعة ٨,٣٠ ، أي بعد انقضاء ثلاث ساعات على بدء الهجوم ، اقتحم اللواء السادس عشر خطّ الدفاع وأخذ ٨,٠٠٠ أسير ؛ وقام اللواء السابع عشر بالهجوم على القطاع الشرقيّ ، بينما كانت السفن الحربيّة تشلّ القطاع الغربيّ بوابل من قذائفها . وفي المساء كانت الدائرة الإيطاليّة المحصّنة قد شُقّت شقّين . وفي اليوم التالي قام الأوستراليّون بالإجهاز على فلول المقاومين تساندهم الدبّابات الستّ المتبقّية لديهم . ورفض «برغونزولي» الاستسلام ، فسلك طريق الصحراء إلى « طبرق » . ووقع ٤٠,٠٠٠ إيطاليّ في الأسر . وأمّا المنتصرون فقد خسروا ٤٥٦ رجلاً بين قتيل وجريح .

في « إيطاليا » عاد الحديث ثانية عن قتال البرغوت الإيطاليّ ضدّ الفيل البريطانيّ ، فقال « موسوليني » بمرارة : « إنّه لبرغوت فريد من نوعه هذا الذي كان لديه ألف مدفع بين «طبرق» و«سيدي برّاني» ! »

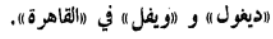
ولكنّ النصر البرّيّ البريطانيّ تكدّر قليلاً بحدث بحريّ مُخيف ؛ ففي ١٠ كانون الثاني تحرّكت قافلة سفن لتموين «مالطا» ، وفجأة ظهرت أربعون طائرة ألمانيّة وانقضّت على سفن الحراسة الكبيرة بحزم لم تكن قد عهدته في الطيّارين الإيطـــاليّين من قبل. ولم يُصَب « الوارسبايت » ، بل نجا من القنابل بأعجوبة ؛ ولكنّ حاملة الطائرات « إيلوستريوس » ، بطلة « تارانتو » ، أُصيبت ستّ مرّات متتالية ، فاشتعلت فيها النيران . ولكنّها تمكّنت من بلوغ « لافاليتا » عاصمة « مالطا » حيث حاولت القاذفات أن تجهز عليها من غير جدوى . وأمّا الطائرات المهاجمة فكانت من التشكيلة العاشرة التي نُقلت من « نروج » إلى « صقلية » . بذلك ظهرت القوّات الألمانيّة في المتوسّط للمرّة الأولى .

في « ألبانيا » كانت الحرب فظيعة ؛ ففيما كان الإيطاليّون لا يلبسون غير ملابس خفيفة كان اليونانيّون شبه عراة ، وكانت أسلحتهم من صنع فرنسيّ أو ألمانيّ ، وقد صادف تبديل الذخائر صعوبات جمّة . وأرسل لهم الانكليز ١٨٠,٠٠٠ زوج أحذية ، و ٣٠٠,٠٠٠ زوج جوارب ، و ٢٠٠,٠٠٠ غطاء ، والعتاد الذي استولوا عليه في « سيدي برّاني » و « البردية » ، فأطلقوا المدافع الإيطاليّة على صانعيها . وأرسلوا كذلك ، بقيادة نائب مارشال الجوّ « دالبياك » ، قوّة جويّة صغيرة مؤلّفة من ٣٩ مقاتلة و ١٨ قاذفة ، فانتقلت لتوّها من رمال الصحراء إلى عواصف الثلوج . ولم تكن هذه المساعدة لتَحُول دون تجمّد الأوصال بالألوف ، ودون تباطؤ القتال بسبب انعدام الوسائل التي تغذّيه .

بقي الجنرال « الكسندر باباغوس » ، ذو العينين المتوقّدتين ، الذي كان يقود الجيش اليونانيّ ، شديد الحميّة . لم تكن قوّاته تتعدّى ١٣ فرقة في الوقت الذي كان الإيطاليّون يملكون فيه ٢١ فرقة ، بينها واحدة مدرّعة ؛ ومع ذلك أصرّ على غزو « فالونا » و « تيرانا » آملاً أن يطرد الإيطاليّين من «ألبانيا» حين تمكّنه الأحوال الجويّة من ذلك ، بمساعدة سكّان الجبال الثائرين . أمّا سبب هذه الرغبة في الانتهاء العاجل فهو الخطر الألمانيّ الداهم الذي كان اليونانيّون يشعرون به ؛ فقد علم « باباغوس » أنّ الضبّاط الألمان ، ومن جملتهم الكولونيل « زيتزلر » رئيس أركان المجموعة المصفّحة الأولى ، كانوا يقومون بتحرّيات في « بلغاريا » وهم يرتدون الثياب المدنيّة ، وأنّ الاستعدادات كانت على قدم وساق لبناء جسور على « الدانوب » . وقد حاول رئيس الوزارة البلغاريّة « بوغدان فيلوف » أن يقاوم الضغط الألمانيّ ، فأقال وزير الزراعة « باغرياموف » الذي كان شديد الميل للألمان . ولكنّه في الواقع لم يكن يلقى من « موسكو » السّند الذي يرتجيه ، ولذا فقد راحت « بلغاريا » تنحاز تدريجياً إلى « المحور » . وقد طلب منها « هتلر » ثلاثة أمور : أن تنضمّ إلى الحلف الثلاثيّ ، وأن تفتح أراضيها للقوّات الألمانيّة لمهاجمة « اليونان » ، وأن تمثّل دوراً فعّالاً في العمليّات . وراح الملك « بوريس » يماطل في « برغوف » حين دُعي إليها في ١٣ كانون الثاني ، متذرّعاً بعدم استعداد بلده ، وبمخافته من تدخّل تركيّ ، وبالخطر الروسيّ ، وبضرورة إنشاء جناح ألمانيّ قويّ في « دوبرودجا » ؛ ولكنّه قبل مبدئياً بالتحالف . وفي ٢٢ ، قام رئيس أركانه « بويديف » بوضع تفاصيل التعاون مع ممثّلي القيادة الألمانيّة ، وذلك خلال مؤتمره السرّيّ المنعقد في « بريديال » وسط الغابات الترانسيلفانيّة .

وهكذا كانت الانتصارات اليونانيّة ركيكة ركاكة « اليونان » نفسها . فالبلد يضمّ ٧ ملايين نسمة ، وهو وحيد في القتال في وجه قارّة كاملة . . . ولم يكن سيّد هذه القارّة ، « هتلر » ، ليرضى بهزيمة حليفه « موسوليني » ، أو ليسمح بأن يصبح طرف شبه الجزيرة البلقانيّة مطاراً يهدّد آبار النفط الرومانيّة التي لا غنى له عنها .

أمّا « تشرتشل » فقد كان يرى حلماً ؛ كان يرى في « اليونان » العتبة القاريّة التي بإمكان « انكلترا » ، بفضل سيطرتها على البحار ، الانطلاق منها في الغزو المعاكس ، ولذلك أوعز إلى السير « أرشيبالد ويفل » أن يستعدّ لمساندة اليونانيّين بما لديه من إمكانات . فقلق « ويفل » أشدّ القلق : كانت قيادة الشرق الأوسط التي يرئسها تحارب في جبهتين ، الواحدة في « أفريقيا الشرقيّة » ، والأخرى في « أفريقيا





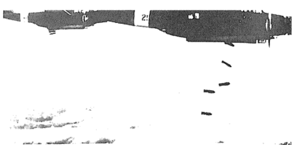
«ديغول» و «ويفل» في «القاهرة».

« ميتاكساس » و « باباغوس » . فعرض عليهما فوجين من المدفعيّة . ونحو ستّين دبّابة ؛ ولكنّ اليونانيّين رفضوا هذا العرض . كانوا مستعدّين لقبول عشر فرق . ولكنّ فوجين وحفنة من الدبّابات كانت بمثابة دعامة تافهة قد تعجّل في التدخّل الألمانيّ بعد أن توفّر له العذر . وتمّ الاتّفاق على أن يُستدعى الانكليز للنجدة ، إذا اجتازت القوّات الألمانيّة « الدانوب »، لأنّ اليونانيّين كانوا مصمّمين على القتال حتى آخر رمق ، حتى ولو لم يتلقّوا أيّة مساعدة . وعاد « ويفل » إلى « القاهرة » وهو يطفح بشراً لإخفاقه !

وبدأت العمليّات في « أفريقيا الشرقيّة » . دخل رتل إنكليزيّ هنديّ إلى « إيريتيريا » بقيادة الجنرال « بلات » ، ودخل رتل انكليزيّ — جنوبيّ أفريقيّ إلى «الصومال» بقيادة الجنرال السير «ألان كاننغهام» . وكان دوق « أوستي » ، ابن عمّ ملك « إيطاليا » ، يحكم المقاطعات الشاسعة ما بين «البحر الأحمر» وبحيرة «رودولف»،وهو يحمل لقب « نائب ملك » ، ولديه نحو مئة كتيبة . ولكنّ إخضاع «اثيوبيا» لم يكن قد تمّ بعد . كما أنّ ضابطاً سياسيّاً إنكليزيّاً ، هو الكولونيل « ساندفورد » ، كان يجوب البلد محرّكاً الفتنة ومعلناً عن عودة الامبراطور « هيلاسيلاسي » . فكان بمفرده يضاهي جيشاً عدوّاً كاملاً . ولم يكن « موسوليني » نفسه منخدعاً بالوضع الراهن ، لذلك أطلق يد « أوستي » قائلاً له إنّ مصير « أفريقيا الإيطاليّة » لن يتقرّر إلاّ في « أوروبا » نفسها .

كان « هتلر » ينتظر قدوم « موسوليني » على رصيف محطّة جبليّة صغيرة بالقرب من « سالزبورغ » ، وقدماه غارقتان في الثلج . وكان « الدوتشي » قد حاول التهرّب من هذه المقابلة غير مرّة ، إذ أنّ عجرفته في «فلورنسا» (قال يومذاك : «فوهرر ، سأكون في « أثينا » بعد ١٥ يوماً»!) كانت تثقل كاهليه ، وإذ كان يخشى شماتة « هتلر » أكثر مما كان يخشى عقابه وتأنيبه . وفي القطار راح « موسوليني » يصبّ على الأمّة الإيطاليّة لومه ؛ فواجهة القوّة والشجاعة التي شادتها الفاشستيّة قد انهارت، والانكليز يحاصرون « طبرق » ، وفي « ألبانيا » أُصيبت إحدى فرق النخبة التي أُرسلت للمساندة بالهزيمة فور وصولها إلى الجبهة . ولكنّ « هتلر » تصرّف تصرّف السيّد الكريم المتسامح ، فأتى استقباله متّسماً بالودّ والاعتبار ، ولم يُظهر ما كان يكنّه لشريكه الإيطاليّ من مرارة الخيبة .

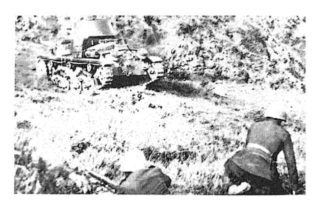
وجرت المناقشات بين الحليفين على مقربة من خلجان « برغوف »



قاذفات قنابل إيطاليّة من طراز «ألتشيوني» تحلّق فوق جبال «الإيبير» .



مدافع إيطاليّة من عيار ١٥٢ مم تعمل في الجبهة اليونانيّة الألبانيّة في آذار ١٩٤١ .



دبّابة إيطاليّة من الفرقة «سيينا» في الجبهة اليونانيّة الألبانيّة.



بمثل هذا السلاح القديم تمكّن اليونانيّون من إيقاف الزحف الإيطاليّ في الجبهة الألبانيّة .

الشماليّة » . وبعد ما نبّه « ويفل » إلى الخطر الناجم عن تبديد القوّات سأل مجلس رؤساء الأركان عمّا إذا كان واثقاً من أنّ التحرّكات الألمانيّة في « البلقان » لم تكن خدعة . ووصله الجواب حاملاً توقيع « تشرتشل »: «إنّنا نتوقّع ونطلب منك أن تتقيّد بدقّة ، ومن غير توان ، بقراراتنا التي نتحمّل مسؤوليّتها كاملة . »

في ١٣ كانون الثاني كان « ويفل » في « أثينا » يتباحث مع

الشاسعة التي أغدق عليها الجبل المغطى بالثلوج وشاحاً ساحراً . وكان الكسب الوحيد الذي جناه الألماني من وضعه المتفوق هو حق شرعي في ثرثرة أوغرت صدر الثرثار الآخر غيظاً ! وقد قال «موسوليني» «لتشيانو» فيما بعد : «إن "هتلر" مغتبط لكونه "هتلر" . وهذا ما يسمح له بالكلام طوال الوقت» ؛ ولكن دفق «هتلر» الشفوي كان يحجب صمتاً يفوق الكلام أهمية . إنه لم يفه بكلمة أمام شريكه الذي بات مقيداً بمصيره عن مخطط «بربروسا» ؟ ومع هذا فقد كان الاستعداد له في أوجه . وقد حُدّد شهر أيار موعداً لبدء العمليات، بعد أن يتيح تصلّب الأرض للمصفحات مجال العمل في السهول الروسية .

ولئن بقي «هتلر» صامتاً لا يفصح عن نياته حيال «روسيا» . فهو لم يخف عن شريكه أنه تخلى عن غزو «انكلترا» قال : «إن مَثَلي كمثل من له بندقية فيها طلقة وحيدة ، فهو يبقى قوياً ما دام محافظاً عليها ، وإن هو أطلقها وأخطأ الإصابة وجد نفسه مجرداً من السلاح . أنا الآن أشل "انكلترا" بإبقائها تحت التهديد والخطر ، في حين أن إخفاق غزوها يفسح لها حرية العمل لوقت طويل . . . » ومن جهة أخرى كان من الضروري الاستيلاء على «جبل طارق» . وتابع «هتلر» قائلاً : «إن إغلاق مضيق "صقلية" تدبير احتياطي ضعيف للمخطط الذي وضعتُه والذي حطّمه جحود "فرنكو" . ولكن الفرصة لم تفت بعد ؛ فإذا كان باستطاعتك اليوم أن تقنعه بدخول الحرب ، تكون قد أديت لحلفنا خدمة جليلة ؛ فبفضل ذلك ينقلب الوضع في المتوسط كلياً» .

كان الإيطاليون يشعرون بألم مبرّح في حضرة الألمان ؛ فالجنرال «غوتزوني» ، وهو صغير القامة ، يعتمر شعراً مستعاراً ويلبس مشداً . قد شعر بمركبات نقص هدامة حين راح يعرض على «كيتل» المتعاظم وضع الأحوال الإيطالية على الجبهتين . لقد طلب أن يذهب القناصون الجبليون البافاريون إلى «ألبانيا» للمساندة . وطلب مساعدة الفرقة الألمانية المدرعة التي كان «موسوليني» قد أمر «بادوليو» برفضها لأسابيع خلت ! لقد تخاذل الكبرياء الفاشستي . وقام «هتلر» يبلغ الإيطاليين الرفض الألماني المزدوج ؛ قال : «نحن لسنا بعدُ بحالة حرب مع اليونانيين.فإن نحن أرسلنا قوات إلى "ألبانيا" وأبقيناها في المؤخرة كان مشهد الألمان في وضعهم السلبي ذا تأثير معنوي محزن في الوقت الذي ينهض فيه الإيطاليون بالقتال ؛ وإذا خاضت هذه القوات القتال ، فإنها قد تسبب تدخل الأتراك ، وامتداد الحرب إلى "البلقان" في ظرف سابق لأوانه.. ونحن لن نرسل إليكم فرقة مدرعة إلى "أفريقيا" ، لأن مسؤولياتنا كبيرة للغاية ، ويتعذر علينا أن نرسل وحداتنا الممتازة إلى حيث لا تستطيع أن تأتي بالنتائج الباهرة المعهودة» . وقام «هتلر» بعد ذلك يعرض الخطوط الكبرى لعملية «ماريتا» ، مؤكداً أن الحرب في «البلقان» ستنتهي عند حلول الربيع ؛ ولكن «موسوليني» قطب وجهه ذلاً حين أعلمه «هتلر» بأنه يعتزم إشراك اليوغوسلافيين في دحر اليونانيين ؛ كان «موسوليني» ينوي أن يجزّىء «يوغوسلافيا» ويهدمها، وها هو «هتلر» يقترح أن تكون حليفة له ! وطلب «الدوتشي» ألا يسمح بتدخل حكومة «بلغراد» قبل أن يجري على الأقل إصلاح الوضع في «ألبانيا» بهجوم الربيع المعاكس . ثم راح يصغي إلى شروح «هتلر» وتوجيهاته ، ومنها : كيف يجب على الإيطاليين أن يحسّنوا مدفعيتهم المضادة للطائرات ، وأن يتغلبوا على خوفهم من الدبابات ، وأن يزرعوا حقول الألغام ويستعملوا غواصاتهم الكبيرة لتموين «طبرق» ، وغير ذلك . . . وأخفى «موسوليني» ملله وراء وجه جامد القسمات . في حين طفح «غوتزوني» حماسة إزاء عبقرية الفوهرر العسكرية !

"غرازياني" يفقد "برقة"

غادر «موسوليني» «سالزبورغ» و «طبرق» ما زالت تقاوم ؛ ولدى وصوله إلى «روما» سقطت «طبرق» ! إلا أن مسيرة الاقتراب التي تجشمها الانكليز كانت شاقة ؛ فلقد هبت عليهم عاصفة رملية طمرت الفرقة السابعة المصفحة طوال أربعة أيام ، وانخفضت حصة الماء اليومية إلى نصف غالون . أما الموقعة فكانت ، على الرغم من مقاومة إيطالية شديدة في بعض النقاط ، نسخة طبق الأصل عن موقعة «البردية» : نظّف النقابون الانكليز أحد حقول الألغام قبل الفجر ، وفتحوا ثغرة ضيقة آمنة اندفعت فيها الفرقة الأوسترالية ٦ داخل المحيط المحصّن ، فأسر الجنرال «بيتاسي مانيلا» قائد الحامية في اليوم الأول ، وفي فجر اليوم الثاني استسلم الجنرال «دلاّ مورا» ، قائد فرقة «سيرتي» ٦٦ . خسر البريطانيون ٤٠٠ رجل بين قتيل وجريح ، وأسروا ٢٥,٠٠٠ إيطالي ، واستولوا على منشآت مرفئية سليمة ، وكميات كبيرة من الماء والوقود ، ومحطة لتوليد الكهرباء مزودة بالفحم .

واستمرت المطاردة ، بيد أن معالم البلاد تغيرت ، إذ حلت محل الصحراء القاحلة المتاخمة للحدود المصرية منطقةُ «الجبل الأخضر» الذي نشط الاستعمار في استثمار أطرافه ، وأوديته ؛ وانكشفت للانكليز الذاهلين معجزةُ المزارع الإيطالية بأخاديدها العميقة ، وبيوتها الوردية وعجلات مضخاتها الهوائية . إلا أن بسمة الحضارة هذه لم تمحُ العقبات من طريقهم ، إذ أغرقتهم الأمطار الغزيرة بذاك العنصر الذي كادوا ينسونه ، ألا وهو الوحل : فالدبابات تغوص وتغرز ، ومدارج هبوط الطائرات تنحل ، وخطوط المواصلات تستطيل ، وخشونة الجبل ووعورته تهيجان حنين الجنود إلى تلك البطاح المسطحة التي تمتد على تخوم «مصر» وهي أشد ما تكون مؤاتاة للدبابات !

تكبد الإيطاليون خسائر فادحة ، ولكن بقيت لديهم قوات كثيرة . وكان «الجبل الأخضر» يشكل معقلاً دفاعياً ممتازاً ، يبدأ بمرتفع «درنة» ويمتد حتى «المخيلي» بقمة حادة ، ثم ينحني شرقاً بغرب فيغطي «بنغازي» عاصمة «أفريقيا الشمالية» الإيطالية . غير أن «غرازياني» سئم الهزائم فعجز تهديد «موسوليني» ووعيده عن إبقائه في ثؤلول الجبل الذي كان يبدو له تطويقه من البر والبحر محتوماً ، ولم يكن في الواقع مخطئاً في تقديره ؛ ففي ٣ شباط أمر بالتراجع العام إلى «طرابلس الغرب» ، وغادر هو نفسه مقر سلطته ، مدينة الزهو تلك ، التي طالما تمنت الفاشية أن تنافس بها مدينة «الجزائر» .

وانطلقت الفرقة المصفحة ٧ بقيادة الميجر جنرال سير «ميكل أومور كريغ» تشق طريقها عبر الجبل بغية قطع الطريق على العدو المتقهقر بإزاء البحر ، فقطعته على درب محفر متابعة سيرها في ضوء القمر ، مجتازة مسافة ١٥٠ كلم في ٢٤ ساعة ، فإذا بها تطل في صباح ٥ شباط على الرتل الإيطالي الطويل المنساب ببطء . قطع فوج الخيالة بقيادة «كومب» الطريق قرب «برقة البيضاء» ، فيما انقضت معظم قوات الفرقة المصفحة على جنبات العدو . وحاول الإيطاليون طوال يومين أن يفتحوا لهم منفذاً ، ولكنهم ، وقد داهمتهم من خلف الفرقةُ الأوسترالية ٦ القادمة من «بنغازي» المحتلة ، ألقوا سلاحهم واستسلموا ، فإذا هم ٢٥ ألف أسير ، وإذا بعدد أسرى هذه الحملة يرتفع إلى ١٥٠,٠٠٠ . وقُبض على الجنرال «تلّيرا» قائد الفيلق ٢٣

وقد أصيب بجرح مميت . كما وقع في الأسر الجنرال « برغوندزولي » النشيط الذي كان قد فرّ من « طبرق » ومن « البردية » .

قلق « هتلر » قلقاً شديداً هذه المرّة . وراح يحسب حسابه لفقدان « أفريقيا الشمالية » برمّتها . كما أخذ يتحسّب لاحتمال آخر تُرغِم فيه « انكلترا » « إيطاليا » على الانسحاب من الحرب ؛ فصرّح لكبار قوّاد جيشه قائلاً : « ربّما كان هذا التخاذل مقبولاً من الوجهة العسكرية . ولكنّ عاقبته المعنوية ستكون وخيمة مريعة ؛ فموقع « إيطاليا » الستراتيجيّ هامّ . وجناحنا في جنوب « فرنسا » ضعيف ، فلا بدّ إذاً من دعم « إيطاليا » . وقبل « هتلر » إذ ذاك أن يقدّم « لموسوليني » القوّات المصفّحة التي كان قد رفض تسليمها منذ أيام . بيد أنّه وضع لذلك شروطه : فعلى الإيطاليّين أن يقلعوا عن الحرب الجامدة . وعن فكرة الانكماش في « طرابلس الغرب » . وعليهم أن يرسلوا إلى « أفريقيا » فرقتهم المصفّحة « آريتي » . وأن يقبلوا بضمّ

دخول الألمان إلى «بنغازي» ، عاصمة «برقة» ، في كانون الثاني ١٩٤١ .

الوحدات السريعة كلّها ووضعها تحت إمرة جنرال ألمانيّ يخضع مبدئيّاً للقيادة الإيطاليّة العليا . ويحتفظ بحقّ اللجوء إلى قيادة الجيش الألمانيّ العليا في حال اختلاف وجهات النظر . وإذا لم تقبل حكومة « روما » بهذه الشروط فلن تُقدم « ألمانيا » على أيّ عمل . إذ أنّها تفضّل الامتناع على المغامرة بقوّاتها بشروط ليس وراءها أمل بالنجاح .
وأسرع « موسوليني » إلى إعلان قبوله ، بل مضى إلى أبعد من ذلك فأعلن أنّ المارشال « غرازياني » قد استُدعي من « أفريقيا » ولن يعود إليها . وأنّ الجنرال « غاريبولدي » سيخلفه في منصبه .

كان « هتلر » قد شكّل من أجل « أفريقيا » فرقةً خامسة خفيفة . فألحق بها فوجاً من الدبّابات ؛ ورغبة منه في إتمام الجيش الألمانيّ الأفريقيّ قرّر أن يضيف إليها فرقةً مصفّحة حديثة التشكيل ، هي فرقة الدبّابات ١٥ . كان الجنرال « فون فونك » أوّل قائد فكّر به « هتلر » . ولكنّ « فونك » عاد من رحلة استطلاعيّة إلى « طرابلس الغرب » شديد التشاؤم . ممّا جعل الفوهرر يصرف عنه النظر ؛ ففكّر إذ ذاك « بإرفين رومل » رئيس أركانه أثناء الحملة البولونيّة . وبطل ثغرة « دينان » ؛ فاستُدعي « رومل » إلى « برلين » في ٦ شباط حيث تلقّى تعليماته . ثمّ انتقل إلى « روما » . ومنها كتب لامرأته « لو » يقول إنّ اتّصاله بالإيطاليّين كان ممتازاً ؛ وفي ١٢ وصل إلى « طرابلس الغرب » . وفي ١٥ قام برحلة جويّة حتّى الحدود الليبيّة بغية الاطّلاع على الأوضاع التي تنتظره في القارّة الجديدة .

غير أنّ نقل جنرال بطريق الجوّ أسهل بكثير من نقل فيلق ! كان نقل الفرقة ٥ الخفيفة بطريق البحر متعذّراً قبل ٢٠ آذار . أمّا نقل فرقة الدبّابات ١٥ فقد تأخّر إلى أيّار ؛ إذاً كان لا مفرّ للإيطاليّين من مواجهة الانكليز وجهاً لوجه خلال أسابيع طويلة . وفي الواقع كان وضعهم مريعاً ! فقد فقدوا عتادهم . وانكسرت شوكتهم . وتفشّت الانهزاميّة في صفوفهم . وظهر . فضلاً عن خطر جيش « النيل » ، خطرٌ مبهمٌ آخر أشدّ هولاً من الأوّل . قادمٌ من أقاصي الصحراء : إنّه خطر الجيش الانكليزيّ « لونغ رانش باترول » . وخطر الفرنسيّين الأحرار الذين انطلقوا من « التشاد » وأخذوا يهدّدون « مرزوق » . وخطر السنوسيّين الذين هبّوا إلى الثأر . كان موعد النجدة الألمانيّة بعيداً . بينما كان الخطر داهماً . وهكذا سقطت مقاطعة « طرابلس الغرب » بعد سقوط « برقة » .

في مقرّ « خليج سدره » . وهو أبعد نقطة جنوبيّ المتوسّط . احتلّ الانكليز « العقيلة » . حيث عادوا فاصطدموا بالقحط التامّ . والريح المجفّفة . ومشكلة الماء . ولو أنّهم تقدّموا مسافة ٥٠٠ كلم بعد لدخلوا من جديد في منطقة استعمار يعتزّ الإيطاليّون بأنّهم قد غرسوا فيها ٣ ملايين ونصف المليون من أشجار النخيل . لم يكن يعوق تقدّمهم غير الصحراء ؛ وكان قوّاد الوحدات يقولون ساخرين : «مشكلة الرمل في الموزّعات الكهربائيّة في السيّارات والآليّات أهمّ بكثير من خطر الإيطاليّين . » لقد تهرّأت الدبّابات . ولكنّ نشوة الظفر كانت تلهب الرجال : ٥٠٠ كلم تفصل «العقيلة» عن «سرت» . و ٥٠٠ كلم أخرى تفصل «سرت» عن «طرابلس الغرب» . ولن يبقى سوى ٢٠٠ كلم للوصول إلى الحدود التونسيّة . إذاً بات إخضاع

وصول «إرفين رومل» إلى «طرابلس الغرب» . ويُرى في استقباله الجنرال الإيطاليّ «غاريبولدي» .



«أفريقيا الشماليّة» الإيطاليّة بمتناول الانكليز .

إلا أنّ الوسواس اليونانيّ تغلبّ ؛ ففي ٢٩ كانون الثاني أودى السرطان بالدكتاتور اليوناني الألمانيّ النزعة «جان ميتاكساس» ، فرأى «تشرتشل» في هذا الأفول زوالَ العقبة الكبرى التي كانت تَحُول دون تنفيذ مخطّطه البلقانيّ . غادر «إيدن» لندن في ١٢ شباط يصحبه السير «جون ديل» ، وانضمّ إليهما «ويفل» و «لونغمور» قائد قوّاته الجويّة. كان على البعثة المهيبة هذه أن تنتقل إلى «أثينا» «فأنقره» «فبلغراد» لتقيم في وجه «المحور» تحالفاً يمتدّ من بحر «إيجه» إلى «الدانوب» ، تدعمه ٥٠ أو ٦٠ فرقة ، وتكون لُحمته القوّات والدبّابات والطائرات والمصفّحات الانكليزيّة . ولكنّ الخوف من «ألمانيا» قد جمّد القلوب كلّها ؛ فرفضت «بلغراد» استقبال رجال البعثة، واستقبلتهم «أنقره» ولكنّها رفضت أن تعيرهم أذناً صاغية ، بل ذهب الأتراك إلى حدّ رفض أسراب «الهاريكان» و «البلنهايم» التي أمر «لونغمور» بتقديمها لهم ، مدّعين أنّهم سيدافعون عن أنفسهم إذا ما هوجموا ، إلاّ أنّهم يأبون اجتذاب الصاعقة بانخراطهم في جبهة معادية «لألمانيا» .

في «أثينا» حلّ محلّ «ميتاكساس» «اسكندر كوريتزيس» رئيس البنك اليونانيّ . وقد وصف الوضع للمبعوثين الانكليز على أنّه رهيب : اليونانيّون يستنفدون قواهم في «ألبانيا» ، ولم يبقَ لهم في «تراقيا» سوى ٣ فرق يجابهون بها الهجوم الألمانيّ المحتمَل وقوعه ؛ «فبلغاريا» تغصّ «بسيّاح» من الجيش الألمانيّ يخطّطون مراحل الانتقال . ويدرسون متانة الجسور ، ويعدّون مدارج للطائرات . وأكّد «كوريتزيس» نيّة اليونانيّين في الدفاع عن أنفسهم أيّاً كانت جنسيّة المعتدين ومهما كان عددهم ؛ ولكنْ لم يكن أحد يرى في هذا التصميم غير انتحارٍ قوميّ رائع .

إلاّ أنّ الضعف اليونانيّ والتهرّب التركيّ الصربيّ لم يردّا «تشرتشل» عن مشروعه البلقانيّ؛ ولذا مُنع «أوكونر» من الدخول إلى مقاطعة «طرابلس الغرب» ، وأُمر «ويفل» بتأليف قوةّ احتياط متحرّكة قوامها ٤ فرق ومقرّها «دلتا النيل» . وهكذا قفلت الفرقة المصفحّة ٧ ، والفرقة الأوستراليّة ٦ ، المدرّبتان أحسن تدريب على معارك الصحراء ،عائدتين إلى «الاسكندريّة» ، مخلّفتين بعض العناصر التي ستشكّل نواةً لفرقتين كبيرتين جديدتين هما المصفّحة الثانية والأوستراليّة التاسعة . وسرعان ما أقامتا سلسلة من المراكز والتفتّا بحواجز من الأسلاك الشائكة ، فإذا بهما تفقدان نعمة الحركة في الوقت الذي ظهرت فيه على أرض «أفريقيا» عبقرية الحركة المتجسِّدة في «رومل» . وهكذا تخلّى «تشرتشل» عن التفوّق الستراتيجيّ الذي أوشكت أن تؤمّنه له سيطرتُه على الساحل الأفريقيّ ، من أجل مغامرة أوروبيّة حكَم عليها بالإخفاق سلفاً تفاوتُ القوى . ففاتتهفرصة تسديد المسدّس الذي كان يخشاه «هتلر» إلى قلب «إيطاليا» .

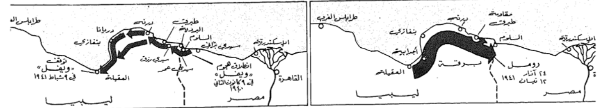
قانون الإعارة والتأجير ، ذخر الديموقراطيّات

في النصف الأوّل من آذار عرَف البلد ، الذي ما انفكّ يتمتّع بالسلام الكامل ، أحدّ أضخم أحداث الحرب : ألا وهو اقتراع كونغرس «الولايات المتّحدة» إلى جانب قانون الإعارة والتأجير ؛ وقد اكتسب هذا القانون الشهير طابعه القانونيّ الرسميّ في ١٠ كانون الثاني ، حين أقدم أمين سرّ مجلس النوّاب على ختم النصّ الذي أرسله البيت الأبيض ، وقام حوله نقاش قوميّ بلغ من الاتّساع درجة غير معهودة لأنّ المشروع يشكّل خطوة حاسمة خطيرة . ولم تكن البلاغة التي أحاطت بالمشروع ، والتأكيدات التي تثبت أنّ غاية القانون إنّما هي تحاشي إرسال الشباب إلى ميادين القتال ، لم تكن هذه كلّها إلاّ ستاراً من دخان ؛ إذ قد تبيّن لكلّ بصير أنّ مبدأ الإعارة والتأجير هو إعلان للحرب موقوتٌ ، ومدخل إلى تطوّرات ذات نهاية محتومة .

أتى المشروع الذي نصّه المحامي «كوكس» مدهشاً خارقاً . ورد فيه : «يحقّ للرئيس أن يبيع ، أو ينقل ، أو يقايض ، أو يؤجّر ، أو يعير ، أو يمنح ، بأيّ شكل يراه ، أيّ سلاح دفاعيّ يراه مناسباً لكلّ أمّة يبدو له أنّ أمر الدفاع عنها حيويّ بالنسبة للدفاع عن «الولايات المتّحدة»». ويحقّ له أن يرضى بتسديد ثمن هذا السلاح «بأيّة فائدة يراها كافية ، مباشرة كانت أو غير مباشرة» ؛ فقد تُركت له الحريّة الكاملة في تعيين الأمم المفيدة من هذا القانون ، ولم يُفرض أيّ حدّ على طبيعة هذه المساعدة أو قيمتها ، الأمر الذي جعل أحد شيوخ «التكساس» يطرح السؤال التالي : «إذاً فهذا القانون يسمح بنقل ملكيّة البارجة «تكساس» إلى جمهوريّة السوفيات ؟» أجل ، ذاك هو عين الصواب ، فالقانون يسمح به .

ألّب هذا التجديد المدهش ضدّه القوى السلميّة والانعزاليّة والمناهضة «لروزفلت» كلّها ، فانضمّ كردينالان كاثوليكيّان ، وكلاهما إرلنديّان ، وهما «أوكونل» و «دوغرتي» ، إلى كنيسة

العمليّات الحربيّة في «ليبيا» خلال شتاء عام ١٩٤٠ — ١٩٤١



«الكويكرز» لشجب انزلاق «أميركا» نحو الحرب ؛ وأسّس رجل الأعمال الجنرال «روبرت ا. وود» . رئيس محالّ «سيرز وروباك» الكبرى . لجنة «أميركا أوّلاً» . وجمع أموالاً طائلة لمحاربة المشروع ؛ كان زعيم المعارضة البرلمانيّة «بارتون ك. ويلر» . أحد شيوخ «مونتانا» . أمّا بطلها الكبير فكان الكولونيل «ليندبرغ» . الذي أقنعته بميزة الانتصار الدكتاتوريّ المحتوم زياراتُه «ألمانيا» . وإعجابه بالحيويّة النازيّة فيها ومشهد الطيران الألمانيّ . وإثباتاً منه لهذا

أيّ وقت مضى . ضمّ الموادّ الروسيّة إليه . واعتماد مقاييس جديدة في النزاع الآخذ في الاتّساع .

لم تكد تمرّ ساعات ثلاث على الاقتراع حتى قبل «روزفلت» بأن تُنفّذ من قانون الإعارة والتأجير أمنيّتان : أولاهما هي «انكلترا» التي تتسلّم بموجبه ٢٨ زورقاً حربيّاً متيناً من قاذفات الطوربيد ، وثانيتهما هي «اليونان» التي تعطيها «أميركا» عتاداً هامّاً للمدفعيّة . وهكذا بدأ مخزن سلاح الديمقراطيّات يعمل . بيد أنّ هذا العمل أتى متأخّراً بالنسبة



عبور نهر «الدانوب» .



دخول الألمان إلى «بلغاريا» .

الاقتناع كتب كتابه «موجة المستقبل» وذهب فيه إلى أنّ على «أميركا» أن تتحصّن في بلادها ببناء أسطول من ١٠,٠٠٠ طائرة لتدرأ عنها كلّ خطر .

تعاقب الخطباء أمام لجان المجلسيّن المختصّة . بين محبّذين لفكرة التدخّل وصادفين عنها ؛ وأخذت كفّة مناصري القانون ترجح شيئاً فشيئاً . فكانت نتيجة التصويت الأوّل الذي أجراه مجلس النوّاب في ١٨ شباط : ٢٦٠ صوتاً لصالح المشروع و ١٦٥ ضدّه . ثمّ أيّد مجلس الشيوخ هذا التصويت في ١١ آذار بستّين صوتاً مقابل ٣١ . ولمّا أعيد المشروع إلى مجلس النوّاب للاقتراع النهائيّ حصل على أكثريّة ساحقة : ٣١٧ مقابل ٧١ . وأعلنت شخصيّات كثيرة كانت قد عارضته . وعلى رأسها الشيخ «فندنبرغ» . أنّها تدعم تنفيذه بكلّ قواها بعدما غدا قانون البلاد .

كانت ردّة الفعل العالميّة قويّة جداً ؛ إزدانت مدن الامبراطوريّة الانكليزيّة كلّها بالأعلام الأميركيّة . واستفاق «ديغول» الذي كان يقضي نهاية الأسبوع في «شيكرز» باكراً جداً . وقد أيقظه ما يشبه تنّيناً أحمر مذهباً لم يكن غير «تشرتشل» الذي اقتحم غرفته وهو يرقص فرحاً . ولمّا يزل في لباس النوم ؛ إلاّ أنّ «هتلر» أعلن بسخرية أنّ الماليّة الدوليّة هي التي أملت هذا القانون . وأنّ سحق «انكلترا» لا مردّ له . غير أنّه كان لا يجهل قيمة الوزن الذي ألقي في كفّة الميزان المقابلة لكفّته . بل استخلص من ذلك أنّه قد بات ضروريّاً ، أكثر من

«لليونان» ؛ ففي أوّل آذار انضمّت «بلغاريا» إلى الحلف الثلاثيّ . خاضعة «للمحور» بعد «رومانيا» و «سلوفاكيا» و «المجر» ، فشرعت القوّات الألمانيّة في اليوم التالي تعبر «الدانوب» على جسور بنتها في مدى ٤ أيّام .

كانت القوّات المتدفّقة نحو «اليونان» مخيفة ساحقة. : فهناك الأفواج ١١ و ١٤ و ١٨ و ٣٠ و ٤٠ التي تؤلّف الجيش ١٢ ؛ وهناك مجموعة «فون كلايست» المصفّحة المؤلّفة من فرق الدبّابات ٥ و ٩ و ١١ ، فضلاً عن فرقة الدبّابات ٢ الملحقة بالفوج ٢ ؛ وهناك الفيلق ٨ الجويّ يقوده الجنرال «فون ريشتوفن» ؛ يضاف إلى ذلك فرق فنّية مختلفة ، نخصّ بالذكر منها وحدات الخطوط الحديديّة المكلّفة بتوفير أكبر فائدة ممكنة من شبكة الخطوط البلغاريّة الضعيفة . أسندت القيادة أوّلاً إلى المارشال «فون كلوغي» أمهر التكتيكيّين الألمان ، بيد أنّ «هتلر» استبدله في اللحظة الأخيرة بالمارشال «ليست» ، الرصين المتزن. وفسّر «هتلر» هذا التدبير بقوله : «البلقان جبال ، ولا بدّ لها من جبليّ ! » .

إذا كان الغرض من هذه الضربة هو سحق الجيش اليونانيّ الهزيل الملتحم مع ٢٤ فرقة إيطاليّة ، فإنّها لضربة جبّارة ؛ ذلك أنّ «ألمانيا» تأبى المجازفة ، فربّما ساندت البريطانيّين حملةٌ انكليزيّة ، وقد أراد «هتلر» أن يعطي البريطانيّين البرهان على أنّهم لن يطأوا أرض القارّة

الأوروبيّة إلاّ وتبيدهم صواعقه . وربّما خطر للأتراك أيضاً أن يتدخّلوا . ولذا أراد «هتلر» أن يكون قادراً على سحقهم . أمّا من ناحية «يوغوسلافيا» فما كانت ميول بعض الوزراء في حكومة الأمير «بول» ، وليّ العهد ، لتقلقه . فلقد مُنيت المساعي الانكليزيّة بالإخفاق ، والمفاوضات جارية لتنضمّ «بلغراد» بدورها إلى المثلّث «برلين — روما — طوكيو» .

وعلى كلّ حال لم تكن «لهتلر» أيّة رغبة في القتال ، فهو يتقدّم باشمئزاز في حلبة بلقانيّة لم يجرّه إليها إلاّ العدوان الأرعن الذي قام به «موسوليني» ضدّ يونانيّين ليس «للمحور» عليهم مأخذ . وهذه القوّات التي تعبر «الدانوب» قد خُصّصت في الأصل لغزو «أوكرانيا» ، ولم يأمرها «هتلر» بالتوجّه إلى «البلقان» إلاّ مرغماً مضطراً . كان ما يزال يأمل بأن يلجأ اليونانيّون إلى «الرايخ» سائلين أن يفصل بينهم وبين الإيطاليّين ، ولذلك لم يكن زحف القوّات الألمانيّة يتمّ إلاّ ببطء وبشكل هو أقرب إلى العرض منه إلى مسيرة حرب صاعقة . ذلك أنّ «هتلر» كان يريد أن يوفّر لليونانيّين فرصة التفكير والتأمّل .

أثار الموقف الألمانيّ سخط «روما» الشديد . فقال «غوزوني» : «يحاول الألمان دخول «اليونان» سلماً فيما جنودنا يحاربون ويموتون» . وفي شباط حقّق الإيطاليّون أوّل نجاح نسبيّ ، إذ صدّوا الهجوم اليونانيّ الذي هبط نحو «فالونا» بعد احتلال مرتفعات «تيبيلانا» . وحاول «موسوليني» أن يستغلّ هذا الفوز الدفاعيّ البسيط . وتمنّى لو أنّه يستبق التدخل الألمانيّ ، فذهب إلى «ألبانيا» يلهب حميّة جنوده . إلاّ أنّ الهجوم الشامل الذي شُنّ في ٩ آذار صُدّ في ١١ منه . فلم يبقَ أمام الإيطاليّين إلاّ أن ينتظروا النصر الذليل يأتيهم على أيدي حلفائهم.

وتمادت المباحثات الانكليزيّة اليونانيّة ، وقد بيّن السير «جون ديل» أنّه يستحيل الدفاع عن الأراضي اليونانيّة برمّتها ، وطلب التخلّي عن «سالونيك» وانكفاء جيوش «الإيبير» وتنظيم الدفاع على خطّ قصير يمتدّ من مصبّ نهر «الآليكمون» إلى جبل «كجماكتان» ، فرفض اليونانيّون هذه العروض . ورفضوا التضحية بخطّ «ميتاكساس» الذي يحمي الحدود البلغاريّة . ولكنّهم قبلوا بتقليص الجبهة الألبانيّة ووعدوا بوضع ٢٣ كتيبة على خطّ «آليكمون» . وكان «ويفل» مصمّماً على أن يوفد إلى «اليونان» الفرقة النيوزيلنديّة ، والفرقة الأوستراليّة ٦ ، ولواء من المصفّحات . ثمّ يُتبعها فيما بعد بالفرقة الأوستراليّة ٧ وبلواء بولونيّ . أمّا قائد هذه الحملة الصغيرة فكان الجنرال السير «ميتلند ولسن» الملقّب «بجومبو» .

ولم يسَع اليونانيّين أن يقبلوا بالتخلّي عن الفتوحات الألبانيّة التي سقوها بدمائهم . وعلم «ديل» في ٤ آذار أنّ اختصار الجبهة لم يجرِ الأمر به ، وأنّ «ولسن» لا يقدر أن يعتمد إلاّ على ١٦ كتيبة بدلاً من الـ ٢٣ التي وُعد بها . أمّا جيش «مقدونيا الوسطى» الذي كُلّف بحماية مسيرة خطّ «آليكمون» فلم يكن غير فيلق هزيل يكاد يكون بلا مدفعيّة . وهكذا بدا إرسال الحملة البريطانيّة ضرباً من الجنون ، فاتّفق رؤساء الأركان في «لندن» على النصح بإلغائها من جديد .

وقع «تشرتشل» في حيرة من أمره . ولكنّ الاحتجاجات المستنكرة راحت تفد إليه من «أثينا» ، فأبرق سفيره «باليري» مستغرباً : «كيف يحقّ لنا أن نتخلّى عن «اليونان» ؟ لو فعلنا لشمت بنا العالم بأسره» . وطلب «إيدن» من جهته احترام التعهّدات المقطوعة . وهكذا عادت البديهيّات العسكريّة والضرورات السياسيّة إلى الصراع . فلم يرَ «تشرتشل» بدّاً من الانحناء أمام الأخيرة .

في ٧ آذار أخذت القوّات البريطانيّة تنزل إلى البرّ اليونانيّ . فوجدت بلداً مدقع الفقر ، وشعباً يتضوّر جوعاً ، وجبلاً قارّيّ البرودة ، ودروباً متقيئة . وبدأت أمطار الربيع تتساقط مولّدة طيناً لزجاً صفيقاً تغرق فيه العربات وتلصق فيه أقدام الرجال السائرين بصعوبة نحو مواقع القتال . ولكنّ العمليّات الحربيّة تأخّرت . واستمرّ حصار «يوغوسلافيا» السلميّ . لقد استقبل «هتلر» في شباط رئيس الحكومة «زفتكوفيتش» ووزير الخارجيّة «سنكار — مركوفيتش» . ولكنّ تحفّظاتهما أثارت غضبه ، فاستدعى وليّ العهد «بول» نفسه إلى «برغوف» ، فطلب هذا أن يُحاط اللقاء بالكتمان ، وأخذ يعارض أمام سيّد «أوروبا» في انضمام بلده إلى الحلف الثلاثيّ . فأعلن «هتلر» عن استعداده لضمان الحدود اليوغوسلافيّة ، وحتى عن استعداده للتخلّي عن المطالبة بمرور القوّات الألمانيّة في أرضه .



رقص في الهواء الطلق في «بلغاريا» . كانت حرب «البلقان» متعة للألمان ونزهة فولكلوريّة سبقتا تلك المحنة الشديدة المتربّصة بهم في الجبهة الشرقيّة .

مشيراً إلى أنّ رفضاً يطرأ بعد هذه التهدئات يُعتبر غير لائق بالصداقة على الإطلاق . وعاد «بول» إلى بلاده مزوّداً بهذا الإنذار اللبِق .

أمّا في «بلغراد» فكانت الأفكار في غليان ، وذرّت العصبيّات القوميّة اليوغوسلافيّة قرنها نتيجة للإنذار الألمانيّ ، فالكروات والسلوفين يؤيّدون انضماماً يضعهم تحت الحماية الألمانيّة أو في مأمن من المطاليب الإيطاليّة ، غير أنّ الصرب يستنكرون كلّ شراكة مع «هتلر» . وحين عُقد الاجتماع الملكيّ في ٢٠ آذار أيّد عشرة مستشارين الأميرَ «بول» ، معربين عن تأييدهم للحلف عن اقتناع أو عن قبول بالأمر الواقع ، وامتنع خمسة عن التصويت ، وصوّت اثنان ضدّه . وألقى بطريرك بلغراد «جبرائيل دوزتش» خطبة حقّر بها «الرايخ الثالث» . ولكنّ وليّ العهد تحدّى هذه المعارضة ، ووقّع اليوغوسلافيّون الاتفاقيّة في ٢٥ شباط في «فيينا» ، في جوّ مثقل بالريبة والكراهية .

وعندما عاد القطار بالموقّعين بعد يومين . كانت العاصمة في حكم المحاصَرة . فأُوقفا لدى نزولهما من القطار وقيل لهما إنّ الأمير «بول» قد وُضع تحت المراقبة في قصره . حصل الانقلاب من غير أن تُراق قطرة دم واحدة ؛ فلقد اعتقل الجيش كبار مؤيّدي التحالف الألمانيّ وهم في أسِرّتهم . وتسلّم السلطة الجنرال «دوسان سيموفتش» قائد سلاح الطيران وقضى بالنفي على الأمير «بول» . معلناً بلوغ الملك «بيار» الثاني . ابن «اسكندر» المغتال ، السنّ القانونيّة . وكان إذ ذاك في السابعة عشرة . أمّا الصرب فقد غمرتهم نشوة الغبطة ، فاجتمعوا بالألوف في القرى ينشدون نشيد «أوي صربيو» وغيره . وخُيّل لهم في نشوتهم أنّهم يغيّرون مجرى التاريخ إذ يتحدّون الطاغية الذي دمّر «فرنسا» . أمّا في «كرواتيا» فكان نصف الرجال لا يمتثلون لأمر التعبئة الذي أصدره «سيموفتش» . كان لهذا الانقلاب على الانكليز مفعول عجيب ؛ فقد عرف به «إيدن» و «ديل» في «مالطة» وهما عائدان إلى «انكلترا» . فعادا على أعقابهما . ولكنّ حرارة الاندفاع بردت في «أثينا» ؛ قبل «سيموفتش» استقبال الجنرال «ديل» ولكن بشرط أن يحضر بلباسه المدنيّ . وفضّل بقاء الوزير «إيدن» في «اليونان» . ثمّ وردت انطباعات «ديل» من «بلغراد» مخيّبة : لم يكن «سيموفتش» ذاك الرجل القويّ الذي تصوّروه ؛ ثمّ إنّ مجلس الثورة مقسوم على نفسه . فإذا كان الشعب مقتنعاً بأنّ «يوغوسلافيا» ستوقف نجم «ألمانيا» الصاعد . فإنّ المسؤولين يسبرون غور الخطر الذي رموا بأنفسهم فيه . وكلّف «سيموفتش» من يقول «لبرلين» إنّ الانقلاب لا يبدّل شيئاً في اتّجاه بلاده المحبّذ «لألمانيا» ، ورفض الاستماع إلى العروض الانكليزيّة وقوامها : معاهدة تحالف يتلوها اجتياح صاعق «لألبانيا» قصد تنظيفها من الإيطاليّين ، قبل أن يتسنّى «لألمانيا» أن تتحرّك ، ثمّ استدراج «تركيا» إلى معسكر الحلفاء وبناء جبهة هائلة تهاجم «ألمانيا» من الوراء .

لم تكن تلك إلاّ أضغاث أحلام ! ذاك أنّ ردود الفعل الألمانيّة أتت سريعة للغاية . حصل انقلاب «بلغراد» في ليل ٢٦–٢٧ . ومنذ ظهر ٢٧ عُقد اجتماع لرؤساء الجيش والطيران في مكتب الفوهرر الذي أعلمهم بأنّه قد عزم على «سحق يوغوسلافيا كقوّة عسكريّة وكدولة» ؛ واتُّخذت للأمر عدّته في الحال : كان على الجيش ٢ بقيادة الجنرالوبرست «فون فيتش» أن يبادر إلى التجمّع في «ستيري – كارنتي» ، وعلى الأسطول الجوّيّ ٤ الذي يقوده الجنرالوبرست «لوهر» أن يجهّز سبع مجموعات مطاردة وثلاث مجموعات «شتوكا» تقوم مهمّتها الأولى على تدمير «بلغراد» بلا شفقة ولا رحمة . وعُدّلت مهمّة الجيش ١٢ في الجنوب فبات على قوّاته الضخمة أن تهاجم «اليونان» وتنقضّ على الجانب اليوغوسلافيّ في آن معاً بغية تصديع خطوط المقاومة بين «سكوبلي» و «نيش» ، ثمّ تنفتح على صورة مروحة من «مناستر» إلى «بلغراد» . وكلّف «هتلر» الجنرال «فون رنتلن» موفده العسكريّ في «إيطاليا» بأن يحمل إلى «موسوليني» رسالة تكاد تأخذ لهجة الأمر ، يطلب فيها إليه الامتناع عن أيّة مبادرة في «ألبانيا» ؛ فكلّ ما عليه هو الصمود بما تسعه الحال في وجه الهجمات التي سيشنّها عليه اليوغوسلافيّون .

ولقد لخّصت المذكّرة رقم ٢٥ مخطّط العمليّات الجديد بهذه الجملة التي ستترتّب عليها نتائج ضخمة : «في هذه الظروف يؤجّل البدء بمشروع «بربروسا» أربعة أسابيع في أقصى حدّ ! ...» ذاك أنّ الهجوم على «روسيا» بحملة صاعقة تبيد الجيش الأحمر في ظرف أربعة شهور . كان قد حُدّد لأواخر فصل الربيع . فإذا بالنزوة الموسولينيّة في «البلقان» تؤجّله إلى الصيف .

أوّل انتصار يحرزه «رومل» في «أفريقيا»

ومرّة أخرى عرف «البلقان» ركوداً موقّتاً . فتوقّفت المعارك تقريباً في «ألبانيا» ؛ وفي «تراقيا» و «تيساليا» اندمجت القوّات اليونانيّة بالتي هي أحسن مع المفارز البريطانيّة القادمة من «مصر» ؛ وفي «بلغاريا» و «النمسا» واصلت القوّات الألمانيّة تمركزها ؛ وفي «يوغوسلافيا» حملت الأمّة المحرورة السلاح . ولكنّ الحكومة الجديدة كانت ما تزال تأمل في أن تُبعد عن أرضها الويلات التي كانت تهدّد جيرانها .

وعادت نيران الحرب إلى الاندلاع في «ليبيا» . وقد كُتب على الانكليز فيها أن يدفعوا ثمن الخطإ الذي ارتكبوه حين راحوا يحملون بطّيختين بيد واحدة ! ففي ٢١ شباط رأت إحدى طائرات الاستطلاع البريطانيّة في الصحراء مركبةً ألمانيّة ، وبعد ذلك بأيّام وصلت معلومات من «طرابلس الغرب» تفيد أنّ وحدة من الدبّابات ، قد تكون فوجاً ، كانت تنزل إلى الشاطىء ؛ وفي ٨ آذار كشفت معلومات أخرى عن اسم الجنرال قائد القوّات الألمانيّة : إنّه «رومل» ؛ فهذا الاسم لم يكن نكرة بعد حملة «فرنسا» وظهوره في «أفريقيا» يقود إلى الاستنتاج بأنّ العدوّ كان ينوي القيام بعمليّات عسكريّة . ولكنّ القيادة الانكليزيّة لم تقلق ؛ ففي بداية آذار ، ثمّ في نهايته ، قام «ويفل» بتحديد الوضع الراهن : إنّ وجود المصفّحات الألمانيّة ، والغارات الجوّيّة العنيفة التي عطّلت مرفأ «بنغازي» ، كانت أدلّة جديرة بالاهتمام . ومن جهة أخرى ، وعلى الرغم من الامكانات المتوافرة في ميناء «طرابلس الغرب» . كان إنشاء قوّة قادرة على القيام بعمليّات ناشطة يتطلّب شهرين كاملين ؛ وكان محتملاً كذلك أن تجري مناوشات محليّة ، غير أنّ موسم الحرّ المُحرق سيحين قبل أن يغدو بالإمكان القيام بعمليّات نشيطة . فالخطر . والحالة هذه ، يمكن أن يبرز في الخريف ، وليس في الربيع .

لم يكن «ويفل» مخطئاً في تقديره ؛ «فرومل» لم يصطحب معه فرقته الخفيفة الخامسة بكاملها ؛ وأمّا إنزال فرقة الدبّابات الألمانيّة ١٥ فلم يتمّ قبل آخر أيّار ، وكانت محرّكاتها مفتقرة إلى المرشّحات المناسبة للصحراء ؛ أمّا الآليّات التي كانت تسير على عجلات من الطراز العاديّ فقد كانت تغوص في الرمال بصورة فظيعة . وأرسل الإيطاليّون فرقتهم المصفّحة «آريبي» ، وفرقتهم الآليّة «ترينتو» ، ولكنّهما لم تكونا كاملتين ؛ وأمّا الجنرال «غاريبولدي» ، ذو الشاربين العريضين ، والذي كان «رومل» خاضعاً له اسمياً ، فهو لا يكاد يفوق سلفه إقداماً . وحتى في صفوف القيادة الألمانيّة العليا كانوا ينظرون إلى حملة المصفّحات الألمانيّة في «أفريقيا» بتحفّظ شديد ؛ فقد طلب «هالدر» رئيس الأركان إلى «رومل» أن يقدّم له في ٢٠ نيسان مخطّطاً لاسترجاع «برقة» ، كما طلب إليه أن يلزم الحذر في انتظار ذلك وألاّ يجازف بالتوغّل ما وراء «أجدابية» ؛ إذاً كان استنتاج السير «أرشيبالد» مصيباً : فالنشاط يقتصر على المناوشات ولا ريب ، ولم يكن هنالك أيّ مشروع لعمليّات ألمانيّة شاملة .

في ٢٤ آذار امتحن «رومل» الانكليز بطردهم من مخفرهم الأماميّ في «العقيلة» ، فتراجعوا إلى «مرسى بريقة» حيث كانت الفرقة المدرّعة

الثانية قد تنظّمت في موقف دفاعيّ . وفي ٣١ هاجم «رومل» بحذر على طريقة الملاكم الذي يمتحن خصمه ؛ وبما أنّ المقاومة كانت شديدة ، فأنّه لم يثابر في مجهوده الجبهيّ بل استدار حول موقع العدوّ عبر ممرّ صعب بين الرمال العميقة . وأضاف إلى خططه العسكريّة عاملّ الحيلة . فقام بتمويه الشاحنات حتى بدت وكأنّها دبّابات . مصطنعاً بذلك تفوّقاً لم يكن حائزاً عليه . وجعل بعض الآليّات تثير غيوماً كثيفة من الغبار توهم بتحرّكات قوافل جبّارة . ومنذ أوّل نيسان خُيّل إليه أنّ الانكليز كانوا يركنون إلى الفرار بلا قتال ؛ فقد انطلقت في البداية بقصد شنّ غارة . وكانت التعليمات توعز إليه بألاّ يتعدّى «أجدابية» . ولكنّه أيقن في تلك اللحظة أنّه إذا ما تجرّأ على عصيان الأوامر أصبحت «برقة» ملك يده .

لقد تمّ الاستيلاء على «أجدابية» . وانتصر الإغواء على الأوامر : فإذا «بروميل» يعكس عمليّة «أوكونور» ويجسّدها . إذ قام بتقسيم قوّاته ثلاثة أرتال ؛ فزحف رتل منها إلى «بنغازي» سالكاً الطريق الساحليّة . وكان مؤلّفاً من مجموعة استطلاع الفرقة المصفّحة الخفيفة الخامسة . ومن فرقة «بريسكيا» ؛ وقطع الرتل الثاني «الجبل الأخضر» في خطّ منحرف ، وكان مؤلّفاً من فوج الدبّابات الخامس ؛ وأمّا الثالث ، وكان يضمّ فرقة «آريبيّ» ومعظم الفرقة المدرّعة الخفيفة الخامسة ، فقد لفّ الجبل من جهة الصحراء . وما ان بدأت هذه العمليّة حتى وصل إنذار من «هتلر» يقول إنّ «رومل» مدعوّ إلى تجنّب ركوب المخاطرات . وخصوصاً ألاّ يعرّض جيشه بالانبساط نحو «بنغازي» . ولكنّ البارون الشابّ «فون فخمار» . الذي كان في رأس المقدّمة . كان قد باشر مسيرته باتّجاه عاصمة «أفريقيا الشماليّة » الإيطاليّة . فتوسّل إلى «رومل» أن يسمح له بالاستمرار . فوافق «رومل» معرّضاً منصبه للخطر . إنّ القائد الحقيقيّ هو الذي يعرف أن يتحدّى رؤساءه أيضاً !

وفي صبيحة ٤ نيسان دخل «فخمار» «بنغازي» وسط هتافات المستعمرين الإيطاليّين ؛ وفي الوقت نفسه كان «رومل» يتعرّض لهجوم شخصيّ عنيف : فقد هبّ «غاريبولدي» في أثره ولحق به في مركز قيادته الأماميّ . وأمره بأن يُقلع في الحال عن فعلته الجنونيّة : فالوحدات الألمانيّة الإيطاليّة قد تبعثرت . وقد أفرغت الشاحنات حمولتها في قلب الصحراء لتعود إلى المؤخّرة سعياً وراء الوقود ؛ واستشاط «غاريبولدي» غيظاً وراح يهدّد . وأجابه «رومل» بكلام قاس . وفي أحرج مرحلة من المشادّة وصلت إلى «رومل» برقيّة تحمل إليه النجدة : إنّ الفوهرر لم يكن قادراً على تقدير الوضع المحلّي وهو في «برلين». ولذا فإنّه يعطي قائد «الحملة الأفريقيّة» مطلق الصلاحية ! فانصرف «غاريبولدي» قائلاً إنّه سيعرض القضيّة على القيادة العليا الإيطاليّة . وعاد «رومل» إلى قتاله .

في المعسكر البريطانيّ كانت الفوضى غامرة ؛ فبعد ما استُدعي «أوكونور» البارع إلى «مصر» تسلّم الجنرال «نيم» القيادة . وكان حديث عهد بالقتال كجنوده . وسارع «ويفل» من «القاهرة» معيداً «أوكونور» كمستشار «لنيم» . ولكنّ تحرّكات الأرتال الألمانيّة الإيطاليّة السريعة قد أفسدت جهاز المعركة وشوّهت صورتها ؛ فالقوّات التي كانت في الجبهة لم تكن كافية في وجه عدوّ يضاعف عدده بفضل حركته ؛ واللواء الهنديّ الثالث الذي وصل للمساندة لبضعة أيّام خلت كان بلا مدفعيّة ولا دبّابات ؛ والفرقة الأوستراليّة السابعة قد تقلّصت إلى لوائين ؛ والفرقة المدرّعة الثانية لم تكن تملك سوى ٤٧ دبّابة نصفها من طراز «م ٣» وهي غنيمة من الإيطاليّين . ولم تقم في وجه العدوّ المهاجم أيّة مقاومة منسّقة أو أيّة عمليّة معاكسة .

وحلّق «رومل» فوق الجبل في طائرته فوقعت عيناه على مستودعات «المخيلي» و «درنة» ؛ وبعد ما فكرّ بالموارد التي يمكن أن يجدها فيها عمل على تقويم سير «آريبيّ» والفرقة المصفّحة الخامسة باتّجاه الشمال. وفي ليل ٦ نيسان أسرت دوريّة ألمانيّة سيّارة انكليزيّة . وفيها ثلاثة جنرالات نيام : «أوكونور» و «نيم» و «كومب» . فانتقلوا بسرعة من الرقاد إلى الأسر ! وأسر جنرال رابع في «المخيلي» هو «غامبي باري» . واستسلم خامس هو «ريمنغتون» في «درنة» . كان «رومل» قد انطلق من حدود «طرابلس الغرب» وهدفه شنّ غارة بسيطة . فإذا به يحمل مواقع «المحور» إلى الحدود المصريّة في غضون عشرة أيّام ؛ هذا وفرقة دبّاباته الـ ١٥ . وهي أكبر قطعة في «جيشه الأفريقي» . لم تكن قد بدأت بالنزول في «طرابلس الغرب» بعد .

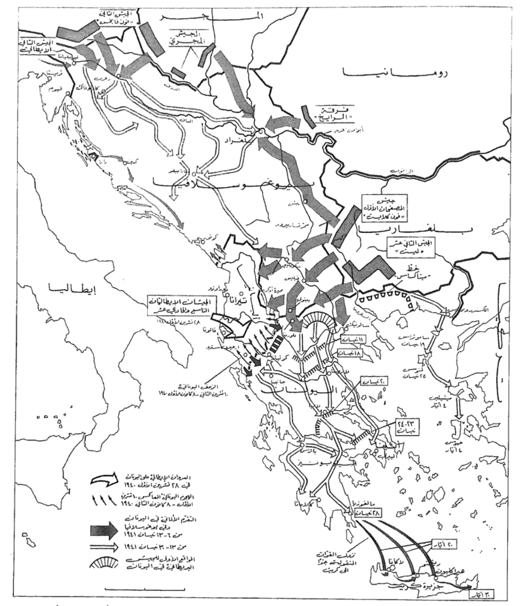
لم يبقّ غير هدف واحد: «طبرق» . ويشاء حظّ البريطانيّين أن يأتي لواء آخر ، وهو اللواء الثامن عشر . فيدعم الحامية المؤلّفة من اللواء الأوستراليّ الرابع والعشرين . بعد ما نزل إلى الشاطىء ليلحق بجيش «برقة» . وتمكّن الجنرال «لافاراك» من تحطيم هجوم مفاجىء . فكانت النتيجة أن قُتل أثناء هذا الهجوم الليوتنان جنرال «فون بريتفتيز أوند غافرون» قائد فرقة الدبّابات الألمانيّة الخامسة عشرة بعدما تقدّم رجالَه إلى ساحة القتال . وبعد مضيّ أيّام قليلة لقي هجوم آخر المصير نفسه . وبدأ بذلك تنظيم الحصار ، وكانت المؤن تصل إلى البريطانيّين الـ ٣٦،٠٠٠ من البحر . فأصبحوا يسيطرون على دائرة محصّنة مساحتها ٤٨ كلم لم تكن لدى «رومل» الإمكانات الماديّة لخرقها .

حرب صاعقة في "البلقان"

لقد شهد ليل ٥–٦ نيسان حدثاً فريداً : فقد أُوقظ الوزير اليوغسلافيّ في «موسكو» ، «غابريلوفتش» ، من نومه . ودُعي للذهاب إلى «الكرملين» حيث كان «ستالين» ينتظره؛ وقدّم «ستالين» للوزير وثيقة عدم اعتداء بين «الاتّحاد السوفياتيّ» و «يوغوسلافيا» جاهزة للتوقيع . كانت كلّ من الدولتين تتعهّد بموجبها بأن تحترم استقلال الأخرى وحقوقها الشرعيّة . وسيادتها الوطنيّة الذاتيّة ؛ وفي حال تعرّض إحداهما لهجوم كان على الدولة الأخرى أن تلزم حيالها موقفاً مصادقاً ... هذا ، في الوقت الذي كانت القوّات الألمانيّة فيه تتجمّع حول «يوغوسلافيا» . والعدوان مرتقّب بين لحظة واخرى ...

لم يكن لهذه البادرة السوفياتيّة العجيبة أن تفسّر بوضوح . فالغموض الذي يكتنفها مدفون في ملفّات قد تظلّ سريّة إلى الأبد. ففي ذلك الوقت ظنّ البعض أنّ ما قام به «ستالين» كان يهدّد بقيام حرب عنيفة بين «الاتّحاد السوفياتيّ» و «الرايخ الثالث» . وقد قبلت «بلغراد» الحلف في الحال مهلّلة ، فأثار آمالا عميقة ، وظنّ الصربيّون أنّ حليفتهم الكبيرة التقليديّة . وحامية «السلاف» منذ قرون . قد سارعت إلى نجدتهم . ولكنّ شيئاً من هذا لم يحدث . ونحن نجهل حتى اليوم الدافع الذي حدا المسؤولين السوفيات إلى إيقاظ «غابريلوفتش» من رقاده في وسط تلك الليلة .

وبعد ذلك بساعات كانت أعنف الغارات وأسخفها تعصف «ببلغراد» . وهنا تميّزت معاملة «هتلر» بطابعين مختلفين : ففيما كان



العمليّات الحربيّة في البلقان (تشرين الأوّل ١٩٤٠—أيّار ١٩٤١)

«البرنس زو إرباخ شونبرغ» الوزير الألمانيّ يسلّم في «أثينا» إعلاناً بالحرب نتيجة لدخول الانكليز إلى «اليونان». كانت حكومة «الرايخ» تتّهم «الزمرة المجرمة الناكثة» التي استولت على السلطة في «يوغوسلافيا»؛ وهكذا انصبّت النيران الهتلريّة من السماء لمعاقبتها.

وباستثناء البطولة في الدفاع. تعتبر الحرب اليوغوسلافيّة تكراراً للحرب البولونيّة في ١٩٣٩؛ فقوّاد «بلغراد» بتفاخرهم الشديد. وباقتناعهم بقيمتهم العسكريّة الرفيعة. قد رفضوا سماع النصائح الانكليزيّة. وأصرّوا على الدفاع عن حدودهم بكاملها. فقد كانت مجموعة أولى من الجيوش تحمي «كرواتيا» من «فيوم» حتّى «برود»؛ وكانت مجموعة أخرى منتشرة حتّى «أبواب الحديد»؛ وكانت مجموعة ثالثة منتشرة على طول الحدود البلغاريّة وفي نيتّها اجتياح «ألبانيا» ولكنّ كلمة «جيش» لم تكن تعني غير مجموعة مؤلّفة من ثلاث فرق

أو أربع . لا وجود فيها للآليّات المدرّعة ولا للأسلحة المضادّة للدبّابات . وكان سلاح الجوّ يضمّ ٧٠٠ طائرة قديمة سُحق اكثرها على الأرض منذ اليوم الأوّل . ففي وجه جيش كهذا يرجع إلى جيل آخر . كانت الحملة الألمانيّة رائعة بالمقدرة العجيبة التي أظهرتها وحداتها الآليّة في التغلّب على العقبات الطبيعيّة ؛ فقد استولى «كلايست» عنوةً على مضايق «تزاريبور» على خطّ حديد الشرق السريع . واحتلّ «نيش» . ثمّ أرسل فرقة دبّاباته الخامسة إلى «ألبانيا» . وانحدر إلى وادي «مورافا» بالفرقتين الآليّتين ١١ و ٦٠ . وفاجأ «بلغراد» من الوراء ؛ ثمّ انطلق جنوباً وحاصر حطام الجيش اليوغوسلافيّ الذي كان قد التجأ إلى «بوسينا» . وكان «ستومي» بدوره يقوم بعمليّاته في منطقة قليلة المسالك . ومع ذلك فقد استولى على «سكوبلي» . ثمّ قسّم رتله وأمّن الاتّصال بالإيطاليّين على بحيرة «أوكريدا» . وأحاط بالمواقع الانكليزيّة اليونانيّة في منطقة «فلورينا» . وفي «كرواتيا» تألّفت حكومة انفصاليّة مركزها «زغرب» في الوقت الذي دخلتها المصفّحات . إنّ «يوغوسلافيا» . هذا المخلوق المصطنّع . قد بدأت تتفكّك باندحار جيشها .

إنتهت الحرب في أحد عشر يوماً . وعلى أثر اختفاء «سيموفتش» أمر خلفه . الجنرال «كاتافاتوفتش» . بإلقاء السلاح . ولم يحتفظ الألمان إلاّ بالأسرى الصربيّين وعددهم ٣٤٤،٠٠٠ . لقد أحرز الجيش الألمانيّ أرخص نصر له . إذ لم يكلّفه إلاّ ١٥١ قتيلاً و ١٥ مفقوداً و ٣٩٢ جريحاً .

شُنّ الهجوم على «اليونان» في الوقت الذي شُنّ فيه على «يوغوسلافيا» ؛ وعلى الرغم من النصائح الانكليزيّة لم يتخلّ اليونانيّون عن خط «ميتاكساس» الممتاز الذي أُنشىء في وجه غارة بلغاريّة حلّت محلّها الغارة الألمانيّة ! وفي سبيل حماية هذا الخطّ كان الجنرال «باكوبولوس» يملك اللوائين «إيفروس» و «نيستوس» . وفرق المشاة ٧ و ١٤ و ١٨ و ١٩ . وكانت هذه الفرقة الأخيرة تسمّى فرقة آليّة . غير أنّها لم تكن كذلك ؛ كان مجموع هذه القوّات مؤلّفاً من ٢٥ كتيبة . و ٣٧ بطّاريّة مدفعيّة ، و ٢٤ مُنشأة من الإسمنت . ولم يكن «باباغوس» قد ترك مع الانكليز . الذين استقرّوا في موقع يبعد ٥٠ كلم إلى الوراء . غير فرقتي المشاة ١٢ و ٢٠ . وهكذا قسّم الجيشان الحليفان قوّاتهما . وكأنّهما يستعدّان لمعركتين مختلفتين . في وجه عدوّ ساحق .

ولكنّ اليونانيّين محاربون من طينة غير طينة اليوغوسلافيّين ؛ فالفرق الألمانيّة الثلاث التي هاجمت على «اللستوس» قد أُوقفت بضراوة ؛ وفي ممرّ «روبيل» شهدت الفرقة الجبليّة الخامسة إخفاقاً دامياً ، فيما كانت الفرقة السادسة تتقدّم بعجز شديد على القمم الواقعة غربي «ستروما» . وخلال ثلاثة أيّام توالت على خطّ «ميتاكساس» هجمات بريّة وجويّة عنيفة . ولكنّ الخطّ بقي صامداً لا يتزعزع .

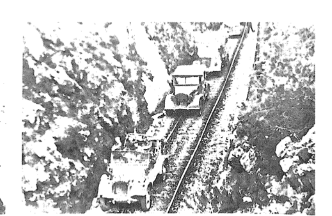
إلا أنّ الكلمة الأخيرة في هذه المعركة عادت إلى إحدى فرق دبّابات «سيدان» الألمانيّة . وهي فرقة الدبّابات الثانية . بقيادة الجنرال «فيير» ؛ فقد دخلت إلى «يوغوسلافيا» من وادي «ستروميتزا» . فوصلت إلى «ستروميتزا» من غير أن تلقى مقاومة . وكان الوادي يمتدّ نحو الغرب . غير أن حدس «فيير» هو الذي أملى عليه خطّ سيره . فتحوّل باتّجاه الجنوب . وصعد بفرقته حتّى بحيرة «دويران» عبر طريق جبليّة وعرة . واستدار حول البحيرة من الغرب . ثمّ عبر الحدود الصربيّة اليونانيّة وانحدر مارّاً بطريق مدوّخة إلى وادي «فاردار» . ولكنّ الفرقة الآليّة ١٩ . وهي احتياطيّ «باكوبولوس» الوحيد . لم تكن في مكانها فتوقف هذه الفرقة المتقدّمة. وفي ٨ نيسان قطع « فيير » ٩٠ كلم ودخل إلى «سالونيك» في منتصف الليل . وهكذا طُوّق المدافعون عن خطّ «ميتاكساس» ؛ ثمّ تلقوّا من «باباغوس» إذناً بالاستسلام ؛ وأغدق الألمان عليهم المديح والإطراء . وراحوا ينظرون إلى تحصيناتهم بإعجاب . ناطقين بهذا الثناء الذي ردّده «هتلر» بعد أيّام : « أنتم وحدكم صمدتم في وجه طائرات «شتوكا» » .

ولم يبقَ بالإمكان الدفاع عن موقع الجنرال «جومبو ويلسون» نظراً لعجز ميسرته . وحاول «باباغوس» أن يستدرجه إلى الداخل بغية دمج القوّة البريطانيّة بجيش «الإيبير» الذي كان تحت إمرته . بيد أنّ القائد الانكليزيّ كان يؤثر الانقطاع عن اليونانيّين على الابتعاد عن البحر . فأتى تراجعه شبيهاً بصفحة تاريخ قديمة . مرهقاً . عبر طرقات رهيبة . والجبل في حلّة شتويّة ؛ وكثيرون هم الأوستراليّون الذين أبصروا الثلج لأوّل مرة في حياتهم في تلك الأثناء . وكانت مراحل السير تتعرّض تارة للمطر الجليديّ . وطوراً لعدوّ جويّ متفوّق . فكأنّني بالدروب دروب جلجلة .

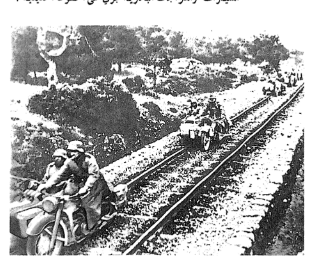
في ١٨ عُقد اجتماع في قصر «ثانوي» الملكيّ ضمّ «ويلسون» و «باباغوس». افتُتح الاجتماع في جوّ حدث كئيب : فقد انتحر رئيس الوزارة «كوريتزيس» في صبيحة النهار نفسه . كما فعل الكونت «تيليكي» وزير الخارجية المجريّة منذ أيّام . إذ انهار تحت وطأة تحالف العبوديّة الذي شدّ بلده بالسلاسل إلى «الرايخ» الهتلريّ ؛ فكان عرض «باباغوس» على جانب من الحزن يضاهي فقدان ذاك الرجل الشريف الذي ذهب ضحيّة القَدَر الساحق ؛ قال : إنّ جيش «الإيبير» قد طُوّق تقريباً نتيجة لتقدّم ألمانيّ سريع باتّجاه «يانينا» . والرصاص يتساقط على الطرقات من غير شفقة ولا هوادة ، والمعنويّات متدهورة . لقد انتهت الحرب بالهزيمة ، ولم يبقَ هنالك أيّ معنى لوجود القوّات الانكليزيّة في «اليونان» ، فكان من الأفضل أن تركب البحر عائدة إلى موطنها . على أن يبذل اليونانيّون قصارى جهدهم في سبيل حمايتها ؛ وكان عليهم بعد ذلك أن يلقوا سلاحهم لوضع حلّ لاجتياح بلدهم ، ولسوف يواصلون القتال في جزرهم بما تبقّى لهم من إمكانات .

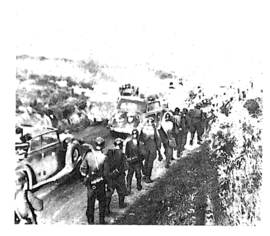
كان الموقف اليونانيّ شريفاً ومقداماً وواقعياً حيال القوّات البريطانيّة. أمّا موقف «تشرتشل» فكان ، على العكس ، نموذجاً للخبث ؛ فقد أبرق إلى «ويفل» قائلاً : «نحن لا نستطيع البقاء في «اليونان» رغم إرادة اليونانيّين وأن نعرّض بلدهم للاجتياح» . وراح ينتقد الانهيار اليوغوسلافيّ والقياده اليونانيّة ، وانحلال الجيش اليونانيّ ؛ لقد انتقد كلّ شيء وكلّ إنسان . ما عدا «ونستون تشرتشل» الذي كان سبباً في وقوع القوّات البريطانيّة في الفخّ .

وهبّ البحر مرّة أخرى إلى نجدة البرّ . وعادت عمليّة الإجلاء تلعب دورها . كان عدد الرجال ٥٥،٠٠٠ ، وهو أقلّ من عدد الذين كانوا في «دنكرك» ، ولكنّ إمكانات بحر «إيجه» ليست كإمكانات بحر الشمال . ولحسن الحظّ ، كان «كاننغهام» قد أصاب الأسطول الإيطاليّ بأضرار فادحة في يومي ٢٨ و ٢٩ آذار في عرض رأس «ماتابان» ، ففقد الإيطاليّون الطرّادات الثلاثة «بولا» و «فيومي» و «زارا» ، وكادوا يفقدون «فيتوريو فينيتو» . ولكن ، من جهة أخرى ، لم يبقَ للفايس مارشال «جون دالبياك» غير القليل من طائرات «هاريكان» ، فبات عاجزاً عن منازعة الطيران الألمانيّ السيطرة على الجوّ . وفي سبيل الحدّ من المجازفة تقرّر أن توزّع عمليّات الإجلاء البحريّة على المرافىء العديدة الصغيرة والمرافىء الطبيعية في «اليونان» . كانت العمارة مؤلّفة من ٧ طرّادات و ٢٠ مدمّرة و ٣ سفن ذات شراع واحد ، تساندها البواخر



السيّارات والدرّاجات البخاريّة تجري على الخطوط الحديديّة !



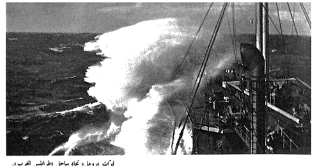


القوّات الألمانيّة في طريقها إلى « أثينا ».

الساحليّة وحتّى قوارب التجذيف المنتشرة على الساحل بكثرة .

وفي «التيرموبيل» كانت تدور معركة تأخيريّة ؛ فهذا الموقع الذي كان اللواء النيوزيلانديّ السادس يتنازعه مع فرقة الدبّابات الألمانيّة الخامسة لم يكن ذلك الممرّ الضيّق الذي دافع عنه «ليونيداس» قديماً ، بل أصبح سهلاً ساحليّاً تكوّن بفعل تراجع البحر . وكان البريطانيّون يتخلّصون من الاحتكاك بالعدوّ بسهولة ، ويتابعون بعد ذلك تراجعهم . واستمرّت عمليّات الإجلاء البحريّ في مجراها على الرغم من بعض الكوارث ، ككارثة «نوبلي» التي أغرقت طائرات «شتوكا» خلالها الباخرة الهولنديّة «سلامات» والمدمّرتين «ديامان» و «رينيك» ، مسجّلة خسائر فادحة في الأرواح . وبعد ذلك ، فيما كان جنود الدبّابات الألمان يحتلّون «أثينا» ويرفعون فوق «الأكروبول» راية الصليب المعقوف ، كان المظليّون الألمان يهبطون فوق ترعة «كورنثيا» ويفتحون أمام القوّات الآليّة طرقات البرزخ . وكانت آخر أيّام هذه الحملة سباقاً فوق طرقات «البيلوبونيز» الضيّقة الفاسدة . فقد تمّت عمليّات الإجلاء البحريّ الأخيرة في ليل ٣٠ نيسان — ١ أيّار في مرفإ «كالاماتا» . وهكذا لم يبقَ للأسد البريطانيّ موطىء قدم على القارّة الأوروبيّة إلاّ في «جبل طارق» .

ومرّة أخرى كان للأمواج فضل كبير في حصر الأضرار . فمن أصل ٥٣،٠٠٠ جنديّ بريطانيّ تمّ ترحيل ٤١،٠٠٠ وُجّهوا إمّا نحو جزيرة «كريت» أو نحو «مصر» . ولكنّهم تخلّوا عن عتادهم بكامله كما حصل في «دنكرك» . فبفضل هذه الحرب الصاعقة الجديدة في شبه جزيرة تغطّيها الجبال ، ولا وجود للطرقات فيها ، برهنت القيادة الحربيّة الألمانيّة عن براعة وقوّة فائقتين . لقد بلغ «هتلر» ذروة مجده ، أو كاد ؛ فاللوحة التي رسمها عن نصره في ٤ أيّار كانت من أروع اللوحات التي رسمها فاتح في أيّ وقت مضى : ٦٦٠،٠٠٠ أسير في ظرف ٢٥ يوماً ، فيما لم تتعدّ الخسائر الألمانيّة ١،٦٨٤ قتيلاً ومفقوداً . فالحرب الهتلريّة بقيت محافظة على صفتها البارزة ، ألا وهي حقن الدماء ؛ فقد كان «هتلر» ما يزال محقّاً في أن يتكلّم باحتقار على جزّاري حرب ١٩١٤ .



قوّات «رومل» تجاه ساحل «طرابلس الغرب».



سيّارة ألمانيّة من سيّارات القيادة في الصحراء.

دبّابات ألمانيّة يجري إنزالها في «طرابلس الغرب».

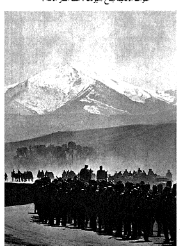
«ستكون الأشهر المقبلة بالغة القسوة، فضلاً عمّا يجري في «اليونان».

(«ويفل» نقلاً عن «مذكرات تشرتشل»)



طريق الحرب من «اليونان» إلى «طرابلس الغرب» يقتفي طريق «أوذيسيوس»

القوّات الألمانيّة تجتاح «اليونان» تحت أنظار الآلهة!



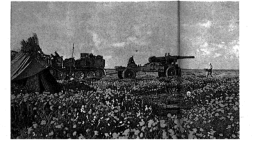
مدفع ألمانيّ مضادّ للدبّابات تحت سماء «برقة» المحرقة.





الجنرال «ستانزر» قائد الجيش الكرواتيّ الخاضع للرقابة الألمانيّة يتفحّص عتاد فوج بوسنيّ أنشىء حديثاً (آب – أيلول ١٩٤١).

بطّاريّة ألمانيّة على عتبة إحدى الواحات في «برقة».





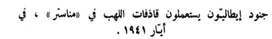
في «السلوم»، على تخوم صحراء «برقة»، في آب ١٩٤١: جنديّان ألمانيّان ينتسبان إلى فوج من أفواج الدبّابات، وقد حاولا اتّقاء عواصف الرمل بالّتي هي أحسن.



جنود إيطاليّون يتقدّمون على أحد المنحدرات في «مناستر».

دخول الإيطاليّين إلى «أرجيرو كاسترو» في «ألبانيا» في نيسان ١٩٤١.





جنود إيطاليّون يستعملون قاذفات اللهب في «مناستر» ، في أيّار ١٩٤١ .



في حين كان المارشال «ليست» يجتاح «مقدونيا» ويسحق اليونانيّين على رأس الجيش الألماني الثاني عشر ، كان الكولونيل – جنرال «فون كلايست» (في الصورة) يحتلّ «بلغراد» ويقود المجموعة المصفّحة الثانية عبر «صربيا» .



في «البلقان» : كشّافون على مفترق طرق .





«بولونيا» الجديدة : إحتلال «البلقان» في غضون أحد عشر يوماً

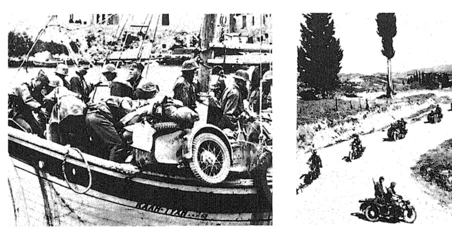


أيّار ١٩٤١ : القوّات الإيطاليّة تعمل على الجبهة اليونانيّة الألبانيّة ، في «مناستر» .

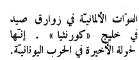
لم يكلّف تدمير الجيش اليوغوسلافيّ –الشديد الثقة بنفسه– الألمان غالياً ؛ لم يخسروا سوى ١٥١ قتيلا و ١٥ مفقوداً .



« ألبحر يسارع إلى نجدة البرّ »



زحف الدرّاجات البخاريّة يمهّد الطريق أمام الجيوش القادمة من خليج «كورنثيا».



السوّات الألمانيّة في زوارق صيد في خليج «كورنثيا» . إنّها الجولة الأخيرة في الحرب اليونانيّة.

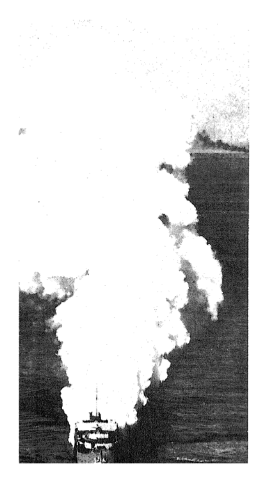


الدرّاجات البخاريّة الألمانيّة تجتاز إحدى مدن جزيرة «أوبي» اليونانيّة . إنّها تمهيد لغزو جزيرة «كريت» الذي ستقوم به الجيوش الألمانيّة المنقولة جوّاً .



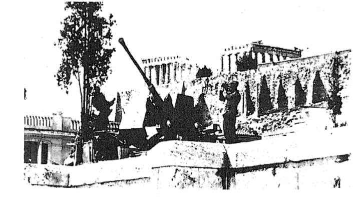
القوّات الألمانيّة تجتاز خليج «كورنثيا» في المرحلة الأخيرة من الحرب اليونانيّة .

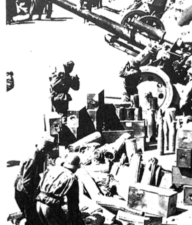
أصيب الجنود الألمان في سياحتهم عبر «اليونان» بصدمة كتلك التي أصابت جنود «بونابارت» في «مصر» ، ولكن اختلفت الأسباب : لم يكن الجفاف المحرق هو سبب الصدمة هنا ، بل البرد ، والوحل ، والهواء القاسي المنصّب من «مقدونيا»



غارة جوّية تشنّها القاذفات البريطانيّة على قافلة من سفن «المحور» في بحر «إيجه» .

مدفع ألمانيّ مضادّ للطائرات على أقدام «الأكروبول» .





نصب مدفع ألمانيّ على إحدى طرق «اليونان» الوعرة .

في ٢٤ نيسان استسلمت «اليونان» ، فلم يبقَ أمام القوّات البريطانيّة ، والحالة هذه ، إلاّ أن ترحل ، كما رحلت عن «فرنسا» لسنة مضت .

كانت العمليّة شاقّة ، لأنّ «بريطانيا العظمى» لم تكن تسيطر على الجوّ هنا كما كانت الحال في «دنكرك» . إنّها أشبه بعمليّة «نامسوس» في «نروج» ، ولكنّها أضخم وأخطر : فهنالك ٥٠،٠٠٠ جنديّ كان يجب إجلاؤهم تحت وابل من قاذفات الأعداء .

ومع ذلك كُتب للعمليّة النجاح ، ولكنّ الثمن كان باهظاً ، إذ بلغ عدد القتلى ١١،٨٤٠ .



الجنرال «جيلوزو» قائد القوّات الإيطاليّة في «اليونان» يحيّي العلم ، يحيط به أركان حربه .

يوم البهجة والحبور في «الأكروبول» ، وقد خفقت الأعلام الهتلريّة والإيطاليّة واليونانيّة جنباً إلى جنب.





عمليّة الحَزْر في الهجرة على الطرقات اليونانيّة : السلم الجرمانيّ بعد العاصفة ...



في جنوب «اليونان» : طيّارون وبحّارة انكليز يتّجهون ناحية احدى الطائرات الجوماليّة التي كانت تنتظرهم لتقلّهم إلى «مصر» .

أسرى انكليز في «اليونان» .



دبّابة بريطانيّة محطّمة في «اليونان» .

قوّات انكليزيّة في «الاسكندريّة» ، بعد انسحابها من «اليونان».



في الطريق إلى «الاسكندريّة»







اقتيد الشخص الغريب إلى ثكنة «ميري هيل» في «غلاسكو». كان قـد أعلن أنّه يدعى «ألفرد هورن»، وأنّه يودّ التحدّث إلى الدوق «هاملتن» شخصياً.

في اليوم التالي . الأحد ١١ أيّار . قصد الدوق . أحد قادة السلاح الجوّي الملكيّ . إلى الثكنة . فرفع الرجل نحوه وجهاً شاحباً . ذا عينين غائرتين وقسمات مضطربة . وقال : «هل عرفتني ؟ لقد تناولت الغداء عندي أثناء الألعاب الأولمبيّة التي جرت في «برلين» ... أنا «رودلف هيس» ...»

ومرّت لحظات . ثمّ تذكّر «هاملتن» أنّ «رودلف هيس» كان ممثّل «الفوهرر» لدى الحزب القوميّ الاشتراكيّ . وأنّه قد اجتمع به فعلاً في «برلين» . وأخبره «هيس» أنّه قد طار من «أوغسبورغ» في العشيّة . على أن يهبط في مطار «دنجئل» . ثمّ خشي أن تسقطه المدفعيّة المضادّة للطائرات ففضّل الهبوط بالمظلّة . وأنّه قد طلب مقابلة الدوق «هاملتن» إيماناً منه بأنّه واحد من الانكليز الواعين القادرين على نصرته في المهمّة التي انتدب نفسه لها تلقائيّاً : لقد أتى . معرّضاً نفسه لأخطار شخصيّة كبيرة . بغية وضع حدّ لهذا النزاع الأخويّ الدمويّ الناشب بين «ألمانيا» و «انكلترا» .

لم يشأ «هاملتن» أن يسمع المزيد ؛ فضلاً عن أنّه لم يكن متأكّداً من هويّة الرجل . لم يكن يتمتّع بأيّة صفة تخوّله حقّ التباحث مع هذا الرسول العجيب الغريب الهابط من السماء . إلاّ أنّ موفداً من وزارة الخارجيّة . هو السير «إيفون كرباتريك» الذي كان موظّفاً في «برلين» . عرف «هيس» معرفة أكيدة وسجّل أقواله . كان «هيس» يسعى لإرساء أسس المصالحة الانكليزيّة - الألمانيّة : فمن جهة تتعهّد «ألمانيا» باحترام الامبراطوريّة البريطانيّة احتراماً تامّاً . وحتّى بالاتّفاق معها لدرء المطامع الأميركيّة ؛ ولا تطلب مقابل ذلك إلاّ أن تترك لها حريّة العمل في القارّة الأوروبيّة. وألحّ «هيس» مؤكّداً أنّه قد اتّخذ هذه المبادرة من غير ان يكون «هتلر» أيّ علم بها ، وأنّه واثق من أنّه يعبّر عن أمانيّ زعيمه الداخليّة ورغبته الصادقة .

لا مجال للشكّ اليوم بأنّ «هتلر» لم تكن له ضلع في المغامرة الغريبة التي قام بها الرجل الذي كان أمين سرّه ، وبقي أقرب المقرّبين إليه ؛ وحين علم بالأمر من رسالة أرسلها إليه الهارب أبدى من الذهول أكثر ممّا أبدى من الغضب . ويعلّق «كيتل» على ذلك بقوله : «لا أزال أراه يذرع أرض مكتبه طولاً وعرضاً ، ويرفع إصبعه إلى جبهته ويقول : «لا شكّ أنّ مسّاً من الجنون قد أصاب «هيس»...» كان «هيس» رجلاً متحمّساً كثير الهواجس ، شديد الإخلاص «لهتلر» ، ولقد اعتقد فعلاً أنّه مقبل على فتح باب المفاوضات ، فإذا بالحكومة البريطانيّة تبلّغه أنّها ستعامله معاملة أسير حتّى نهاية الحرب !

ذُهل «هيس» إذ كان يؤمن بقوّة التهديد الذي كان يدعم به مشاعره حيال «بريطانيا» ، وقال «لكرباتريك» : «يجب أن تقتنعوا بأنّ «ألمانيا» واثقة من كسب الحرب ؛ إنّ ما يقوم به «هتلر» يتّسم بالضخامة والعبقريّة ، ولا يسعكم أن تتصوّروا عدد الطائرات والغوّاصات

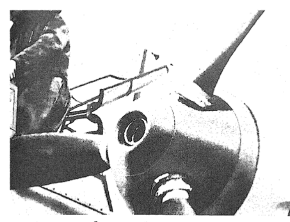
السفينة «ربنون» تتقدّم «الهود» ؛ وقد برزت في عمليّة القضاء على «البسمارك» .

التي يبنيها...» ثمّ استشاط غيظاً إزاء برودة «كرباتريك» وأضاف: «إنّ رحلتي توفّر لكم فرصة أخيرة ، فإن لم تغتنموها حقّ «لهتلر» أن يستعبدكم ... سيكون ذلك من حقّه ، لا بل من واجبه .»

كانت «انكلترا» تدرك حقّ الإدراك ما يعنيه «هيس» بوعيده ؛ فهي تكافح وحدها منذ عشرة أشهر ، في سبيل المحافظة على البقاء . فما زالت الغارات الجوّية تعيث فيها فساداً ، يشهد بذلك قصف ١٩ نيسان الذي فجعها بـ ٢،٣٠٠ قتيل ، ولم ينفتح أمامها أيّ منفذ يخرج بها من هوّة الدم والعرق والدموع كما وعدها زعيمها .

لم يبق الربيع من انتصارات الحلفاء الباهرة غير نتيجة واحدة هي تدمير «أفريقيا» الشرقيّة الإيطاليّة؛ أمّا المكاسب الباقية التي حقّقت على حساب الإيطاليّين فقد أبطلها الألمان : فقُد الجزء القارّيّ من «اليونان» ، واجتاح المظليّون جزر بحر «إيجه» ، وغدا كلّ ما تطمح إليه «بريطانيا» هو الحفاظ على جزيرة «كريت» ؛ ولكنّ حاميها ، الجنرال النيوزيلنديّ «برنارد فريبورغ» ، البطل ذا الندوب الستّة والثلاثين ، أنذر حكومة «ويلنغتن» بأنّ قوّاته في مأزق . في «أفريقيا» وصل «المحور» إلى الحدود المصريّة ، وبلغ خوف الانكليز من الفرقة المصفّحة ، التي كانت وحداتها تصل إلى «رومل» ، درجةً قبلت معها قيادة البحريّة باقتراح «تشرتشل» القاضي بإغراق البارجة «برهام» لسدّ مرفإ «طرابلس الغرب» . فاحتجّ الأميرال «كاننغهام» مستفظعاً هذه الذبيحة تذهب ضحيّتها إحدى قطع القتال الكبرى ؛ وبدلاً من أن يرضى بها ، أخذ على نفسه مسؤوليّة قيادة أسطوله لقصف «طرابلس الغرب» . كانت المفاجأة تامّة، وصبّ الأسطول على المرفإ في ٤٢ دقيقة ٥٣٠ طنّاً من القنابل ؛ إلاّ أنّ النتائج لم تأت مرضية ، إذ تابعت فرقة الدبّابات ١٥ نزولها إلى الشاطىء .

وفجأة انفتح جرح آخر ، فتساءلت «انكلترا» عمّا إذا كان العالم العربيّ يناصبها العداء ؛ كانت قد استمالته أثناء الحرب السابقة إذ أثارته على الأتراك ، أسياده آنذاك ؛ إلاّ أنّ دور الحامية الذي نهضت به لصالح الصهيونيّة قد وجّه عطف المسلمين وميلهم ناحية «المحور» .



«رودلف هيس» ، خليفة «هتلر» رقم ٢ ، يتدرّب على استعمال الطائرة التي ما كان ليخطر ببال أحد أنّها ستطير من «أوغسبورغ» إلى «سكوتلاندا» .

واذا كان «سيدي موسوليني» قد أثار السخرية بإعلانه نفسه «سيف الإسلام» ، فإنّ «هتلر» قد ألهب الشرق الأدنى بعدائه للساميّة ، وانتصاراته المدوّية . ما كان الانكليز يجهلون أنّ «القاهرة» تزدان بالصلبان المعقوفة فيما لو دخل إليها «رومل» ، ولا كانوا يجهلون أنّ الحقد يختمر من «الهندوس» حتّى «النيل» .

أتى نيسان فاشتعلت نار الثورة في «العراق» . كانت معاهدة ١٩٣٠ تمنح القوّات البريطانيّة قاعدتين إحداهما هي «الشعيبة» بجوار «البصرة» ، والثانية هي «الحبّانية» في وادي «الفرات» ؛ إلاّ أنّ حركة عسكريّة قلبت وليّ العهد عبد الإله معيدة إلى الحكم «رشيد عالي الكيلاني» عدوّ الانكليز اللدود ؛ فاتّجهت القوّات العراقيّة نحو قاعدة «الحبّانيّة» وركّزت مدافعها على الهضبة المشرفة عليها . كانت القاعدة تحيا حياة السلم وراء حاجز بسيط من الأسلاك المتشابكة ، وتقيم العائلات فيها بين الجنود ؛ ولكنّ الخطر بدا من الجدّة بحيث أنّ «تشرتشل» سمح لنائب قائد سلاح الطيران «ستيوارت» باستخدام القوّة لتشتيت التجمّعات المعادية ، رغم ما أبداه «ويفل» من ميل إلى المفاوضة ؛ طُلبت من «الهند» نجدات ، وأوقف لواء كان مبحراً إلى «ماليزيا» . فنراءت «لهتلر» ثورة عربيّة كبيرة ، ووعد بتقديم العون للعراقيّين . وهكذا قُضي على القوّات البريطانيّة بتشتّت متزايد ، مع أنّ معركة من أجل البقاء كانت تدور رحاها في مياه الأطلسيّ . لم يكن في ما أطلقه «رودلف هيس» من تهديد ما هو أفجع من التهديد التالي : «لا يسعكم أن تتصوّروا عدد الغوّاصات التي يبنيها «هتلر» ...»

ومن حسن الحظّ أن تكون تصريحات ممثّل «الفوهرر» أقرب إلى المبالغة الخطابيّة ؛ فإنّ الأفضليّة الممنوحة لبناء الغوّاصات كانت بعيدة عن أن تحقّق ما طالب به «ريدر» و «دونتز» ؛ فبعد ما أتمّ الألمان صنع غوّاصة ممتازة هي «٧ ك أطلنتيك» (٧٧٠ طنّاً ، ١٢ طوربيداً ، ١٨ عقدة ، ١٥،٠٠٠ ميل) أخذا يحاولان منذ ١٩٣٩ فرض صنعها على نطاق واسع ، ولكنّ «هتلر» كان يعتقد أنّ الحرب ضد «انكلترا» ستكون قصيرة ، وأنّ أميراليه ينظران إلى بعيد . كانا يطالبان بـ ٨٥٠ غوّاصة ، فخُفّض برنامجهما إلى ٣٧٢ . ففي ربيع ١٩٤١ كان عدد الغوّاصات الجاهزة يقارب عددها عند بدء الحرب ؛ أمّا

فداحة الخسائر البريطانيّة التي قفزت من ٣٢٠.٠٠٠ طنّ في كانون الثاني إلى ٦٥٤،٠٠٠ طنّ في نيسان . فكان مردّها قبل كلّ شيء إلى تطوير الأساليب وإلى بسالة القوّاد الألمان المتزايدة .

كان أوّل من نال الشهرة من قوّاد الغوّاصات أولئك : «غونثر برين» ؛ وما لبث آخرون أن اقتفوا أثره ؛ فكُرّم «شيبكي» لتدميره أكثر من ٢٠٠،٠٠٠ طنّ من السفن التجاريّة . وما عتّم أن فاقه «كرتشمر» بإغراق ٣٠٠،٠٠٠ طنّ و ٣ مدمّرات .

وعبثاً وجّهت قاعدة «لوريان» في ٨ آذار نداءها إلى الغوّاصة أو — ٤٧ المعقودة اللواء «لبرين» ، وكانت آخر برقيّة له قد أشارت إلى غطسة مفاجئة سريعة . وفي ١٧ آذار لقيت النداءات الموجّهة إلى أو — ٩٩ المعقودة اللواء «لكرتشمر» ، وإلى أو—١٠٠ المعقودة اللواء «لشيبكي» ، الصمت عينه ؛ وهكذا ، وفي ظرف ٩ أيّام لاقى أبطال سلاح الغوّاصات حتفهم ؛ غرق «برين» بغوّاصته بعدما نسفتها «الولفيرين» ، وطاردت «الفانوك» «شيبكي» فسحقته بين برج غوّاصته وصدر المدمّرة، أمّا «كرتشمر» ، الذي قُذف إلى البحر حين هاجمته السفينة «ووكر» ، فقد وقع في الأسر .

خفّفت هذه الانتصارات من المحنة الانكليزيّة ، إلاّ أنّ الوضع ما زال حرجاً ؛ فميناء «لندن» لم يحتفظ إلاّ بربع طاقته ، إذ انخفض معدّل الواردات إلى النصف ، فيما غصّت الورشات بـ ٢،٦٠٠،٠٠٠ طنّ من السفن المعطوبة . أمّا بناء سفن المواكبة والسفن الشراعيّة الحربيّة البسيطة فكان قائماً على قدم وساق ، وكان العمل جارياً في تحسين وسائل القتال ضد الغوّاصات ولكنّ الألمان مضوا في تحسين وسائل الهجوم . ولقد دعم «خطّة الذئاب» دخولُ طائرات «فوكي — فولف ٢٠٠» ذوات المحرّكات الأربعة إلى الميدان ، وقيامها بدوريّات واسعة بين «برست» و «برجن» . ولو أنّ «غورنغ» القائل «كلّ ما يطير هو لي» قبل بتسليمها للأميرال «دونتز» لازدادت فعاليّتها إلى حدّ بعيد . كم من قافلة آل مصيرها إلى مأساة ! هاجمت ٧ غوّاصات إحداها فأغرقت منها ستّ سفن ؛ وهاجمت ٩ غوّاصات قافلة أخرى فأغرقت منها عشر سفن . وهكذا دخلت حياة رجال البحريّة التجاريّة عامّة ، ورجال ناقلات الزيت خاصّة ، في كابوس من الذعر .

ويضاف إلى الخطر الناجم عن الغوّاصات الخطرُ الناجم عن السفن العائمة ؛ والواقع أنّ القراصنة الألمان قد حملوا الدمار إلى أقاصي الأرض . إنّها في الأصل سفن تجاريّة زُوّدت بالمدافع ، فإذا هي طرّادات مساعدة تجوب البحار البعيدة ، وتجدّد زادها في لقاءات خفيّة ، وتحيل الجزر المقفرة ، كجزر «كرغولن» ، إلى قواعد سرّيّة ، محقّقة من أعمال الجلَد والدهاء ما يثير الإعجاب ؛ «فالأطلنتيس» مثلاً جاب محيطات ثلاثة طوال عشرين شهراً ، فأغرق ٢٢ سفينة يبلغ مجموع حمولتها ١٤٥،٦٩٧ برميلاً ، قبل أن يتلفه الطرّاد «ديفونشاير» في جنوب الأطلسيّ ؛ ولكنّ بحّارته عادوا إلى «ألمانيا» في سفينة التموين «بيتون» ، بعد ما أنقذتهم الغوّاصة أو — ١٢٦ . وتوغّل «البنغوان» في جليد المنطقة القطبيّة الجنوبيّة حيث عثر على الأسطول النروجيّ الخاصّ بصيد الحيتان فدمّر ٣ سفن — مصانع وما يرافقها من زوارق ، ثمّ عاد يتابع عمله التخريبيّ في البحار الحارّة ، إلى أن دمّره في المحيط الهنديّ الطرّاد «كورنوول» . تلك كانت نهاية أكثر سفن القراصنة التي أغرقتها ضربات عدوّ لا يلين ؛ إلاّ أنّ بعضها «كالكورموران» تمكّن من العودة إلى «أوروبا» ، وبعضها الآخر «كالثور» قد عاد بأسلاب . ولسوف تنطلق تانك السفينتان في جولة ثانية ولكنّهما لن تعودا منها أبداً .

هذا ، ولم تقف سفن الحرب الكبرى وقفة المتفرّج ؛ فلقد ظلت بارجة الجيب «أدميرال شير» خمسة أشهر في البحر ، قطعت خلالها ٤٦،٤١٩ ميلاً ، مغرقة ١٠٠،٠٠٠ طنّ فضلاً عن الطرّاد المساعد «جرفيس باي» . وعاد الطرّادان «شارنهورست» و «غنايزناو» إلى البحر في أوائل ١٩٤١ . بعد ما أقاما طويلاً في الأحواض لتصليح ما أصابهما من أضرار في «النروج» . فعبرا مضيق «الدانمرك» ، وإذا بهما في منطقة تفرّق القوافل ، في عرض «الأرض الجديدة» ؛ فكانت حصيلة صيدهما ٢١ ضحيّة ، بين ٢٢ شباط و ١٣ آذار ، عقبتها عودة ظافرة إلى «برست» .

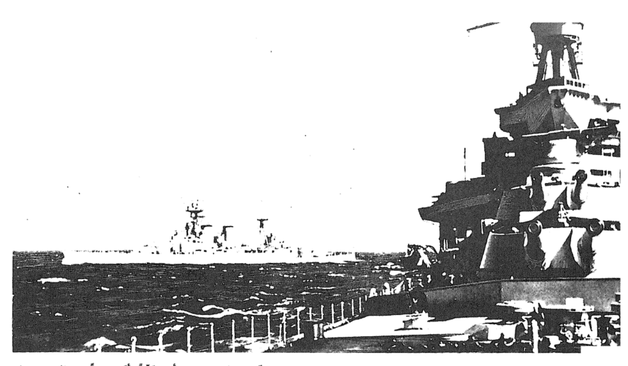
مطاردة البسمارك

في غمرة هذه الأحداث تلقّت الأميراليّة البريطانيّة نبأ كانت ترقّبه بخوف شديد منذ أسابيع عديدة : لقد نزل «البسمارك» إلى البحر ! في ٢٢ أيّار اكتشف استطلاع جوّيّ موقع السفينة الكبيرة التي كانت تستعدّ للإبحار جنوبيّ «برجين» ، وعقب ذلك بساعات لم يجد إستطلاع جوّي آخر أيّ أثر للسفينة . وفي هذه الأثناء كانت قوافل انكليزيّة خمس قد أبحرت ، منها اثنتان كان يمكن أن تقعا في خطّ سير البارجة الألمانيّة، في مدخل مضيق «الدانمارك»، وواحدة كانت تنقل جنوداً إلى «مصر» ؛ أمّا السفن المواكبة جميعها ، بما فيها «الراميليز» و «الريفنج» ، فلم تكن غير أشياء تافهة في وجه أقوى السفن الحربيّة هذه . فزنتها ٤٢،٥٠٠ طنّ ، وسرعتها ٢٨ عقدة ، وفيها ثمانية مدافع من عيار ١٥ بوصة . وحتّى البارجتان البريطانيّتان اللتان انضّمتا إلى الأسطول حديثاً ، وهما «الملك جورج الخامس» و «برنس أوف ويلز» ، لم تكونا لتضاهياها .

بظهور «البسمارك» بات يُخشى من هجوم شامل يشنّه الأسطول الألمانيّ العائم . كان يرافق «البسمارك» طرّاد ثقيل هو «برنتز أوجين» الحديث الصنع . وكان الأميرال «ريدر» يملك طرّاد الجيب «لوتزوف» ، والطرّادات «هيبّر» و «كولن» و «إمدن» ، وكانت لديه في «برست» فرقة قويّة من طرّادات القتال مؤلّفة من «شارنهورست» و «غنايزناو» ؛ وقد وجد السير «جون توفي» ، خلف الأميرال «فوربز» على رأس الأسطول البريطانيّ ، نفسه إزاء معركة قد يتوقّف عليها مصير «المملكة المتّحدة» .

ولكن الحظّ — وهو حظّ مفعم بالبطولة — ابتسم للانكليز ؛ ففي ٦ نيسان طار الضابط الجويّ «كامبيل» فبلغ مرفأ «برست» الصغير ، وهناك نسف «الغنايزناو» منتحراً . وهذه المأثرة ردّت الأميراليّة الألمانيّة عن عزمها في إشراك فرقة «برست» ، التي باتت مؤلّفة من قطعة واحدة ، في عمليّات «البسمارك» . فالسفينة الجبّارة ، التي كان الأميرال «لوتجنس» قد أبحر على متنها ، أصبحت وحيدة تواجه المصير .

في ٢٣ أيّار كانت الأوضاع غريبة في مضيق «الدانمرك» . ففي هذا الصقع الشماليّ لم يكن ليل أيّار غير غسق متواصل ، ولكنّ الضباب كان يجعل من النهار غسقاً من نوع آخر مُفعَماً بضوء أبيض وهّاج يزعج النظر . وكان الجليد يسدّ المضيق ، تاركاً من ناحية «ايسلندا» ممرّاً مائيّاً ضيّقاً لا يتعدّى بضعة أميال . وكان طرّادا الكونتر أميرال «ويك ووكر» ، «سافولك» و «نورفولك» ، وهما من فئة ٨ بوصات يقومان بدوريّة في حدود كتل الجليد ؛ وفي الساعة ١٩،٢٢ أبصر «سافولك» «البسمارك» يتبعه «البرنتز أوجين» على مسافة ٨ أميال ،



الطرّاد «هود» الذي كان له من العمر عشرون سنة ، والذي كانت مدفعيّته الأساسيّة تضاهي مدفعيّة «البسمارك» .

الطرّاد «ريبالس» ، وهو أدنى قوّة وأقدم عهداً من «الهود» ، وذو دائرة في العمل ضعيفة .

فتستّر بالضباب وتابع تعقّبه العدوّ بواسطة الرادار . وبعد انقضاء ساعة واحدة ، وعلى أثر انقشاع موقّت ، كان «النورفولك» يتلقّى بلا ضرر ، على مسافة أقلّ من ٦ أميال ، أوّل قذيفة تطلقها «البسمارك» على الأعداء؛ فدخل بدوره في غمرة الضباب وراح يتتبّع أثر السفينتين الألمانيّتين في خطّ مُواز «لسافولك» .

ومن مكان يبعد ٦٠٠ ميل إلى الجنوب الغربيّ هرع الأميرال «هولاند» للنجدة . كان على ظهر الطرّاد «هود» ، وهو أكبر سفينة حربيّة في العالم ، وقد لحق به «البرنس أوف ويلز» الذي كان يُعتبر أقوى سفينة حربيّة في العالم بعد «البسمارك» . ولكنّ «الهود» كان عتيقاً — عمره أكثر من ٢٠ سنة — وكان «البرنس» حديث السنّ ، فقد غادر المصانع البحريّة لتوّه ، ولم ينجز تمرينه بعد . وكان الأميرال « توفي » على وشك إرسال إشارة يأمر فيها « البرنس أوف ويلز » بالسير في المقدّمة ، ولكنّه تمنّع عن ذلك مراعياً كرامة «هولاند» .

كان التقدّم صعباً ؛ « فهولاند » لم يرد استخدام راداره ولا اللاسلكيّ بغية مفاجأة العدوّ ، فانفصل عن المدمّرات الأربع التي لحقت بسفينتيه الكبيرتين والتي تاهت وسط عاصفة ثلجيّة . وفي الساعة ٥،٣٥ عثر «الهود» على العدوّ الذي كان يعترض طريقه بشكل يسمح له باستخدام مدفعيّته كاملة ، بينما لم يكن الانكليز يستطيعون أن يستعملوا إلاّ جزءاً من مدفعيّتهم . وبسبب البطء لم يكن « هولاند » قادراً على الاقتراب للقتال ، وفي المجالات البعيدة كانت زاوية سقوط القذائف التي يطلقها «البسمارك» خطرة بالنسبة «للهود» الذي لم يكن محمياً بجسر مصفّح . وفي الساعة ٥،٥٣ أطلقت السفينتان الانكليزيّتان النار على بعد ٢٦،٥٠٠ ياردة ، وأجابتهما المدافع الألمانيّة على الأثر وكأنّها الصدى . وأصابت ثالث صلية أطلقها «البسمارك» السفينة «هود» ، فتصاعد اللهب من مقدّمة المدخنة ؛ وما هي إلاّ ثوان حتى دوّى انفجار رهيب مزّق أكبر سفينة في العالم . لقد قضى «الهود» ضحيّة لعطل في البناء كان يمكّن الحريق من الامتداد إلى مخازن الذخيرة . ومن مجموع ٩٥ ضابطاً و ١،٣٢٤ بحّاراً ، لم تنتشل النسّافات الانكليزيّة من المياه الجليديّة غير ثلاثة رجال !

وبعد ما بقي «البرنس أوف ويلز» وحيداً أُصيب أربع مرّات في ظرف دقائق أربع ؛ وأمر الأميرال «ويك ووكر» هذه البارجة بترك القتال على أن يقود هو نحو «البسمارك» ، برفقة «سافولك» و «نورفولك» ، القوى الساحقة التي جنّدتها الأميراليّة للعمل .

من جهة ثانية لم ينجُ «البسمارك» تماماً من أذى المعركة ؛ فمن خلال جنبه المبقور الذي أصابته إحدى قذائف «البرنس أوف ويلز» سال دفق من المازوت ؛ وكان الحذر يملي على «لوتجنس» أن يعود بسفينته الجريح نحو المناطق الشماليّة وأن يلتجىء إلى أحد المرافىء النروجيّة حاملاً معه النصر الباهر الذي حقّقه لبحريّة «هتلر» ، ولكنّه أصرّ على النزول جنوباً ، لأسباب سيحمل معه سرّها إلى قبره البحريّ ؛ وفي الساعة ٨،٠١ بلّغ الأميراليّة أنّه يجري بسرعة ٢٨ عقدة ، وأنّ في نيّته الذهاب إلى «سان نازير» .

وجُنّدت أساطيل الأطلسيّ لمجابهته ؛ أتى «توفي» من «سكابا» «بالملك جورج الخامس» و «الريبالس» وبحاملة الطائرات «فيكتوريوس» ؛ وأما «رامبليز» و «ريفنج» و «رودني» فقد تخلّت عن مهمّتها في المواكبة وانضمّت إلى المطاردة ؛ وأتى «سوميرفيل» من «جبل طارق» «بآرك رويّال» و «الرينون» ، وبالطرّادين «شيفلد» و «دورسيتشاير» .

وأصدر الألمان من جهتهم أوامرهم إلى الغوّاصات بالتوجّه إلى «البسمارك» حتى ولو كانت طوربيداتها قد نفدت ، بغية التهويل . هذا وقد كانت الغوّاصة «أو — ٥٥٦» قد أطلقت آخر طوربيداتها فعلاً ؛ وفي غمرة البحر الهائج وقف قائدها وراء منظاره يرى إلى حاملة الطائرات «آرك رويال» ، وإلى البارجة «رينون» ، تسيران بأقصى السرعة . إنّه لمنظر رائع وممزّق في آن واحد ! فقد نفدت قذائفه فبات عاجزاً عن إيقاف هذا التقدّم الوثّاب !

وطوال نهار ٢٤ استمرّ «البرنس أوف ويلز» و«السافولك» و «النورفولك» في مواكبة «البسمارك» و «البرنتز أوجين» على مسافة حذرة . وفي الساعة ١٨ افترقت السفينتان الألمانيّتان ، فواصل الطرّاد السليم طريقه شطر الجنوب بينما انحرفت البارجة باتّجاه الجنوب الشرقيّ . وفي منتصف الليل أبصر «البسمارك» سرباً من طائرات «سورد فيش» كان قد أقلع من ظهر «الإيلوستريوس» ، وعلى الرغم من الظلام ، والعاصفة ، وقلّة خبرة ملاّحيه ، أفلح في إصابة «البسمارك» في وسطه بإحدى الطوربيدات . ولكن بعد ثلاث ساعات صُعق الملاحقون : فعلى أثر انتهاء «السافولك» من سير تعرّجيّ لتفادي هجوم الغوّاصات فُقد أثر «بسمارك» على راداره ؛ أمّا «تشرتشل» ، الذي كان يتتبّع مراحل الملاحقة دقيقة دقيقة ، فقد نزلت عليه المفاجأة نزول الصاعقة ؛ كان مجلس العموم على وشك الاجتماع في المقرّ العامّ لكنيسة «انكلترا» ، بعد ما تدمّرت صالة اجتماعاته خلال إحدى الغارات . فبأيّ وجه يُعلم «تشرتشل» أعضاء البرلمان بأنّ «البسمارك» الذي اغتال «الهود» قد عاد إلى قاعدته ناعم البال ؟

وانقضى النهار ، وانقضى الليل ؛ وتلاشت الملاحقة بطبيعة الحال ، فراحت السفن تلجأ إلى أقرب المرافىء ، الواحدة تلو الأخرى ، بعدما جفّت صهاريجها أو كادت تجفّ . أبحر «الريفنج» شطر «الأرض الجديدة» وتوجّه «الفيكتوريوس» و «البرنس أوف ويلز» و«الريبالس» نحو «ايسلندا» ، كما أنّ «الملك جورج الخامس» و «الرودني» لحقا بها فيما بعد . وعلى كلّ حال كانت الأميراليّة مقتنعة بأنّ الجهود الأخيرة لم تكن تجدي نفعاً . فبعد ما صعد «لوتجنس» نحو الشمال أصبح بعيد المنال . وراحت الطائرات تبحث عنه تبرئة للذمّة من «بريتانيا» حتى «ايسلندا» ، وكان من المتوقّع أن يُعثر عليه في جوار المنطقة الأخيرة وهو بعيد عن الخطر ...

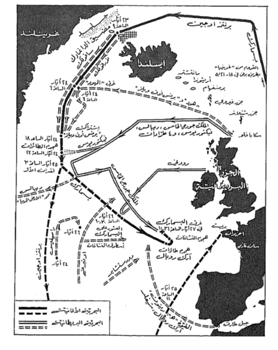
كان الضابط الطيّار «د. أ. بريغز» من السرب ٢٠٩ ، الملحق بالأسطول الجويّ الساحليّ ، قد توغّل كثيراً إلى الجنوب ، وكانت الأحوال الجوّية سيّئة ، والسماء مكفهرّة ، والغيوم متلبّدة . وفي الساعة ١٠،٣٠ من يوم ٢٦ أبصر «بريغز» سفينة كبيرة . كان عليه أن يهوي بطائرته كثيراً للتعرّف إليها ، إلاّ أنّ المدفعيّة المضادّة للطائرات كانت في غاية الدقّة ، فكادت أن تقضي عليه. وعاد إلى الصعود وسط الانفجارات حتى غاب وراء ستار الغيوم بينما كان عامل اللاسلكيّ في الطائرة يبرق الخبر السارّ : عُثر على «البسمارك» ثانية ! كان المطاردون يعتقدون أنّه في مكان ما من القطب الشماليّ ، وإذا به على بعد ٦٩٠ ميلا غربيّ «برست» . فهل كان «لبسمارك» أن ينجو ؟ بلا ريب ! فهو قد سبق قوّة الأميرال «توفي» الرئيسة بمئة ميل ، وسيكون في أيّة لحظة تحت حماية الطيران الألمانيّ . أمّا السفن الوحيدة التي كان بإمكانها أن تعترض طريقه فهي تلك التي كانت قادمة من «جبل طارق» ؛ ولكنّ «الرينون» الهرم لم يكن ليناهض «البسمارك» ولو كان هذا الأخير جريحاً ؛ فالآمال إذاً معقودة على حاملة الطائرات «أرك رويال» ...

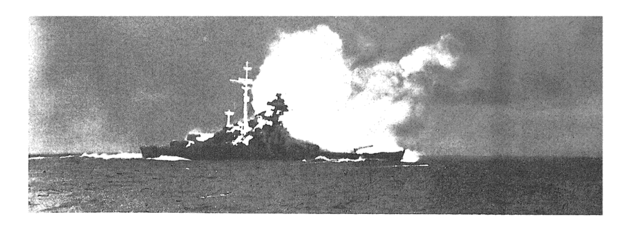
وهكذا أقلعت طائرات «سورد فيش» بصعوبة فائقة ، وكانت الغيوم ملتحمة بالأمواج ؛ وعُثر بواسطة الرادار على سفينة في الموقع الذي أشار إليه «بريغز» . فانطلقت الطوربيدات على مستوى البحر المائج . بينما كانت الطائرات تحلّق على ارتفاع قليل فوق السفينة . ويا لهول ما رأت ! لقد تعرّفت الطائرات إلى ضحيّتها ، فإذا هي السفينة البريطانيّة «شيفلد» ! ولكنّها تمكّنت من تفادي الطوربيدات بمناورة سريعة . فما كان من الطائرات إلاّ أن عادت إلى سطح «أرك رويال» في حالة يُرثى لها .

ولكنّ السانحة هذه لم تكن لتتكرّر بعد ذلك ؛ وعادت ١٥ «سورد فيش» إلى الانطلاق بقيادة الملازم الطيّار «ت. ب. بول» ، فأقلعت في الساعة ١٩،١٠ والنور قد بدأ ينحجب بسبب رداءة الطقس . فإن هي أخطأت هذه المرّة حجبت الظلمة رؤية البارجة التي ستتمكّن عند طلوع النهار من النجاة في ظلّ الدفاع الجويّ القويّ ...

في الساعة ٢٠،٤٧ كانت الظلمة حالكة ، وبعد ما فرّقت العاصفة شمل الطائرات كان على كلّ طائرة منها أن تهاجم منفردة . واستغرق العمل ٣٨ دقيقة ؛ وأصابت إحدى الطوربيدات «البسمارك» ولكنّها لم تحدث فيه غير أضرار ثانويّة إذ أنّها أصابته في درعه كالليلة الفائتة . وانطلق طوربيد آخر نحو مؤخّرته . وبسبب الإنارة السيّئة ، واضطراب البحر ، تأخّرت مناوره تفادي الطوربيد بضع ثوان ؛ بضع ثوان تعادل بضعة أمتار . وهذه الأمتار القليلة كانت الفارق بين النصر والهلاك . فعطّل الطوربيد مراوح السفينة واقتلع دفّتها . فتدنّت سرعتها إلى ثلاث عقد . وبقي «البسمارك» في وضعه ذاك لا حول له ولا قوّة ! وهكذا ابتدأ ليل احتضاره . ففي الساعة ١،٢٠ دخلت إلى مسرح المعركة فرقة مؤلّفة من ٥ مدمّرات يقودها الكابتن «فيان» . وراحت هذه السفن الصغيرة تدور حول «البسمارك» الساكن وتمكّنت من نسفه مرّتين متتاليتين . وعند الفجر ، حين أقبل «الرودني» و «الملك جورج الخامس» ، كان «البسمارك» قد أُوقف بصورة فعليّة .

رحلة «البسمارك» و «البرنتز — أوجين» الأسطوريّة .





في الساعة العاشرة والربع كان «البسمارك» قد تحوّل إلى شعلة من نيران بعدما صمتت مدافعه كلّها .

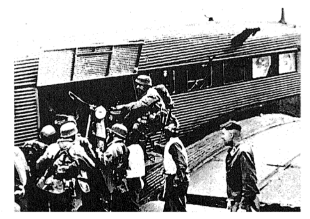
في ذلك الحين اشتدّت قوّة البحر والريح ، مؤخّرة إلى الساعة ٨،٤٧ بداية القصف . وتضاءلت ردّة فعل «البسمارك» بسرعة ؛ وفي الساعة ١٠،١٥ لم يبقَ غير كتلة من لهيب ، وصمتت مدافعه كلّها . وأمّا «توفي» الذي كادت صهاريجه أن تجفّ وسط البحر الصاخب فقد أُرغم على العودة باتّجاه «انكلترا» موعزاً إلى الطرّادات أن تجهز على العدوّ المهزوم ؛ فتكفّل «النورفولك» و «الدورسيتشاير» بذلك . وفي الساعة ١٠:٣٦ اختفى «البسمارك» تماماً ، وقد تمكّن المنتصرون من انتشال ١١٠ من بحّارته على الرغم من رداءة الأحوال الجوّية .

ألالمان يحتلّون «كريت» من الجوّ

انتصار هنا ، وانكسار هناك ؛ فما أن بلغت مطاردة «البسمارك» نهايتها حتى رضي «تشرتشل» بالتخلّي عن المشروع الذي كان يتشبّث به معانداً . لقد أبرق بالأمس إلى «ويفل» يقول إنّ إحراز النصر في جزيرة «كريت» أمر لا بدّ منه ، وها هو اليوم يأخذ باقتراحات لجنة رؤساء الأركان ، القاضية بإخلاء الجزيرة التي كان يأمل أن يجد فيها بديلاً احتياطياً عن الجبهة البلقانيّة المفقودة . وهكذا فُقدت جزر «اليونان» بعدما فقدت «اليونان» نفسها .

تردّد «هتلر» قبل أن يقدم على غزو «كريت» جوّاً ؛ إلاّ أنّ قائد المظلّيين الجنرال «كورت شتودنت» أفلح في إقناعه بأنّ العمليّة باهرة سهلة ، قد يستغرق تنفيذها ثمانية أيّام ، وتكاد لا تكلّف شيئاً ، فضلاً عن أنّها تبعد قاذفات القنابل البريطانيّة عن مناطق النفط الرومانيّة ، وتؤمّن حماية «البلقان» ، وتدعم السيطرة الجوّية الألمانيّة في المتوسّط . وقد ظفر هذا المشروع بموافقة «هتلر» . إذ لا بدّ من أن تكون قوّات النخبة كلّها جاهزة يوم تبدأ الحملة على «روسيا» .

مظلّيّون ألمان يركبون الطائرة إلى «كريت» .



بدأ الغزو في ٢٠ أيّار ، وفقاً لمخطّط وضعته أركان سلاح الطيران على أن تخضع له سائر القوّات المشتركة في الحملة بما فيها الفرقة الجبليّة ؛ وقد تطلّبت عمليّة الإعداد جهوداً جبّارة ، إذ توجّب توفير ما يلزم من القواعد جنوبيّ «اليونان» لإيواء ٢٢٨ قاذفة قنابل ، و ٢٠٥ طائرات «شتوكا» ، و ١١٩ مطاردة ، و ١١٤ مدمّرة تابعة للفوج ٨ الذي يقوده «فون ريشتوفن» ، فضلاً عن ٥٢٠ طائرة لإنزال جنود الفوج ١١ ، مظلّيي الجنرال «شتودنت» . وكذلك وجب استحداث بعض المطارات في مناطق شتّى ، واحتلال الجزر المجاورة «لكريت» لتحويلها إلى مراكز تجمّع : فغدت «سيتير» و «انتيسيتير» قاعدتين للمدفعيّة المضادّة للطائرات ، و «ميلو» قاعدة للقوّات البرّية ، و «سكربنتو» قاعدة لطائرات «مسر شميت» و «شتوكا» . ومع هذا فقد أُسيء تقدير بعض المصاعب الماديّة ، وإحداها البطء في ملء الخزّانات ، والبطء في نقل ٣،٦٠٠،٠٠٠ ليتر من الوقود يومياً باليد . ونتجت الثانية عن سحب الغبار الهائلة التي كانت تثيرها الطائرات المقلعة على مدارج من تراب ، معطّلة الانقشاع تماماً كما يعطّله الضباب الكثيف .

تمتدّ جزيرة «كريت» ، على بعد ١٠٠ كلم من أصابع «البيلوبونيز» واجهةً بحريّة يبلغ طولها ٢٦٠ كلم ، وتنتصب وراءها سلسلة جبال ترتفع قممها فجأة إلى ٢٧٠٠ متر . وفيما يضمّ الساحل الشماليّ المدن والطريق الوحيدة والحياة كلّها عملياً ، تسود الساحل الجنوبيّ فوضى عظيمة يضربها البحر بسخطه وأنوائه . إذاً فاحتلال الجزيرة في الواقع هو احتلال مطارات «فاليم» و «هيراكليون» و «ريتيمو» فضلاً عن العاصمة «لاكاني» . ولذا قصر الجنرال «فريبورغ» خطّته الدفاعيّة على احتلال هذه القطاعات الأربعة . كانت قوّاته تتألّف من اليونانيّين والبريطانيّين مناصفة . وكان نصف القوّات البريطانيّة من الأوستراليّين

والنيوزيلنديّين ؛ أمّا توزّعها فكان كما يلي : ١١.٨٥٩ رجلاً في «ماليم» . و ١٤،٨٢٢ في «لاكاني–سودا» . و ٦١.٧٣٠ في «ريتيمو» ، و ٨،٠٢٩ في «هيراكليون» . أمّا المدفعيّة فكانت شبه معدومة . ولم يكن لهم من الدبّابات غير ١٦ بين خفيفة ومتوسّطة . وكانت الحامية تفتقر أشدّ الافتقار إلى الطيران ؛ ففي عشيّة الغزو أعاد «فريبورغ» إلى «مصر» طائرات «الهاريكان» الأربع المسكينة و «الغلادياتور» الثلاث الحزينة ، وهي كلّ ما تبقّى من الأسراب ٣٣ و ٨٠ و ١١٢ و ٨٠٥ . وبقدر ما كان التفوّق الألمانيّ مطلقاً ، كان الضعف البحريّ الألمانيّ تامّاً . فقد صادر الأميرال «شوستر» قوارب بحر «إيجه» ، وهي مراكب كبيرة من ذوات المحرّك تتراوح حمولتها بين ١٠٠ و ٢٠٠ برميل ، ولا تتعدّى سرعتها ٦ عقد ، وذلك لنقل الفرقة الجبليّة الخامسة إلى «كريت» . وكان تحت تصرّف الأميرال «كاننغهام» مقابل ذلك ٤ بوارج ، وحاملة طائرات واحدة ، و ١١ طرّاداً ، و ٤٠ مدمّرة ؛ لم يكن ليخشى شيئاً من الأسطول الإيطاليّ الذي زهد بالبحر بعد الضربة التي نزلت به في رأس «ماتابان» ، ولكنّه مع ذلك كان يعزف عزوفاً تامّاً عن المجازفة بسفنه تحت سماء معادية ... وهكذا كانت عمليّة «كريت» مجرّد اختبار ، موضوعُه : نزاع بين سيادة الجوّ وسيادة البحر !

في تمام الساعة ٧,٠٥ راح مظلّيّو فوج الهجوم يهبطون على قطاع «ماليم» ، فيما هبط غيرهم على قطاع «لاكاني» . ثمّ عادت الطائرات لنقل الفوجين الآخرين وإلقائهما فوق «هيراكليون» و «ريتيمو» . لم يتخلّف من الطائرات الـ ٤٩٣ سوى ٧ ! وأعلن الملاّحون أنّ عمليّات الهبوط أحرزت نجاحاً رائعاً . ولكنّ هذا غير صحيح ؛ فقد بلغ تشتّت الرجال أقصاه ، وأربت خسائر المنقولين كثيراً على خسائر الناقلين . لقي الليوتنان جنرال «سوسمان» قائد الفئة الوسطى حتفه في جزيرة «ايجين» على أثر حادث وقع له ، وأُصيب الماجور جنرال «مايندل» قائد الفئة الغربيّة بجرح بليغ لدى وصوله إلى الأرض . لم يتمكّن الانكليز من ابادة العدوّ ، ولكنّ الألمان لم يتمكّنوا من دحر المقاومة الانكليزيّة . أزف المساء وما زال مطار «ماليم» أرضاً حراماً ، وما زال فوج يوناني يسدّ «وادي المساجين» المؤدّي إلى «لاكاني» .

لم تنعم مُهاجمة الموجة الثانية «لهيراكليون» و «ريتيمو» بشروط أفضل من الأُولى ، لأنّ الغبار وبطء التموين بالوقود ضعضعا التوقيت المفروض ؛ فلم يسقط أيّ مطار ، ولم يتحقّق أيّ من أهداف ذاك اليوم .

أدرك «شتودنت» ما ينتظره من الهزيمة وفقدان الحظوة اذا لم يتغلّب على المحنة ، فألقى في الغد بما تبقّى من مظلّييه على «ماليم» ، فيما أمر الطائرات بالهبوط في المطار بالرغم من المدفعيّة والقنّاصة الانكليزيّة . وهكذا ترجّلت كتيبة من كتائب الفوج الجبليّ ١٠٠ وسط مجزرة الطائرات ! وسقطت «ماليم» مع حلول الليل .

حفل البحر في تلك الليلة بالمآسي ؛ فقد قرّر الألمان إيصال أوّل قافلة من الزوارق ذوات المحرّك ، فتكدّس ٢،٣٠٠ من جنود المشاة في ٢٥ مركباً أقلعت من «ميلو» تواكبها نسّافة إيطاليّة واحدة . وعند انتصاف الليل كانت الزوارق قد قطعت أربعة أخماس المسافة ،



مظلّيّون ألمان تحت شجر الزيتون في «كريت» .



أسرى بريطانيّون .



الجنرال «شتودنت» بين جنوده في «كريت» .



الكولونيل «براوك» ورجاله المظلّيّون .

في بحر مخمليّ ناعم ، فإذا بالرادار يفضحها ، فتهبّ إليها القوّات البحريّة التابعة للأميرال «غليني» ، والمؤلّفة من ٣ طرّادات و ٤ مدمّرات ؛ فتفرّقت الزوارق ، وراح الانكليز يطاردونها ، فنُسفت ١٠ زوارق وغرق راكبوها ، أمّا المراكب الأخرى فعادت على أعقابها . وهكذا لن تصل أيّة نجدة إلى «كريت» عن طريق البحر .

ولكنّ هذا النصر البريطانيّ لم يكن رخيصاً ؛ فالخسائر البحريّة في تفاقم مخيف . أُصيب الطرّادان «ناياد» و «كارلايل» بأضرار ، وأُصيبت «الوارسبايت» «أوفر السفن حظّاً» بقنبلة من العيار الثقيل . وفي صباح ٢٢ أبصرت المدمّرة « غريها وند » زورقاً يسعى في اللجوء إلى «سيتير» فانفصلت وأغرقته ، إلاّ أنّها لفتت إليها انتباه طائرتي «شتوكا» فثأرتا منها بقصف شطّرها شطرين . وإذ أرسل الطرّادان «غلاوسستر» و «فيجي» للنجدة أصابهما ما أصابها . وفي الأيّام التالية غرقت المدمّرتان «كيلي» و «كاشمير» . أمّا البارجتان «فاليانت» و «برهام» ، وهما أثمن سفن الأسطول ، فقد أصيبتا بأضرار عطّلتهما . وحتى «الفورميدبل» ، حاملة الطائرات الوحيدة في المتوسّط الشرقيّ ، كادت تلاقي حتفها : كانت قد أُبقيت في البدء بعيدة عن القتال ، ولكنّ «كاننغهام» وقع على ١٢ طائرة «الباكور» فزوّدها بها ، وأرسلها لقصف وكر «الشتوكا» في «سكاربنتو» ، فأُصيبت مرّتين ، فرجعت إلى «الاسكندريّة» وهي مشرفة على الغرق .

وشهد الأميرال «كاننغهام» بتفجّع احتضار أسطوله ، فحاول توفيره بسحبه من المياه الخطرة نهاراً ، ولكنّ «لندن» أرسلت تؤنّبه تأنيباً جارحاً ؛ «فتشرتشل» يصرّ على أن تُدار معركة «كريت» إدارة ضارية عنيدة ، فلا يحقّ للأسطول أن يخشى التعرّض لا نهاراً ولا ليلاً ، بل عليه التصدّي للنجدات الألمانيّة .

كان «تشرتشل» فريسة أوهامه إذ كان يعتقد أنّ رجال الحامية مسيطرون على الموقف ما داموا يواجهون قوّات منقولة جوّاً . والواقع أنّ مصير «كريت» قد تقرّر حين أخفق الهجوم المعاكس الذي شنّه البريغادير «هارجيست» على «ماليم» لاسترجاعها . وشرعت الطائرات تحمل النجدات في حركة لا تنقطع ، فتعرّضت جبهة «لاكاني» لضغط شديد متزايد ، والقصف الجوّي مستمرّ ؛ وإذا بعشرة أعمدة هائلة من الدخان ترتفع من سفن عشر تلتهمها النيران في خليج «سودا» ؛ فأبرق «فريبورغ» الباسل يقول إنّه سيصمد بعدُ ساعاتٍ «إذا كان الوضع في الشرق الأوسط من الخطورة بحيث تكون هذه الساعات ذات أهميّة حيويّة» ، وإنّ الدفاع لا يجدي . وفي ٢٧ أخذ «ويفل» على عاتقه إصدار الأمر بالانسحاب ، بعدما أنذر «لندن» بأنّ «تمديد النزاع ، إذ يستنفد إمكانات القوّات الثلاث ، يفسد الدفاع عن الشرق الأوسط أكثر ممّا يفسده ضياع كريت» . فوافق رؤساء الأركان ، وأذعن «تشرتشل» للأمر الواقع .

ولجأ الانكليز مرّة أخرى إلى الإبحار ، لكن لا كلّهم ؛ استسلمت حامية «ريتيمو» ، أمّا حامية «هيراكليون» فنقلتها مدمّرات غرقت منها اثنتان في مضيق «كازو» وهما «الامبريال» و «الهريوارد» المثقلتان بالجنود . أمّا الذين نجوا من القطاع الأوسط فراحوا يتسلّقون ما سمّاه «فريبورغ» بـ «درب الآلام» ، وهو ذاك الدرب الجبليّ الوعر الذي يخترق الجزيرة . وهنا أيضاً قصّر الألمان في الحؤول دون هذا الجلاء الصعب المرهق ؛ كان بوسع قبضة من المظلّيين أن تقطع الطريق على الراحلين ، ولكنّ الألمان لم ينزلوهم . وبعد التعب المضني تحت شمس محرقة وصل الهاربون إلى «سباكيا» ، وهي قرية قاسية يقطنها صيّادو الأسماك تقع عند أصل جبل يبهر العيون ببياضه . كان الإبحار غاية في الصعوبة على هذا الشاطىء المشرّع لأمواج البحر العاتية . والغريب أنّ «الشتوكا» لم تعكّر الإبحار إطلاقاً !

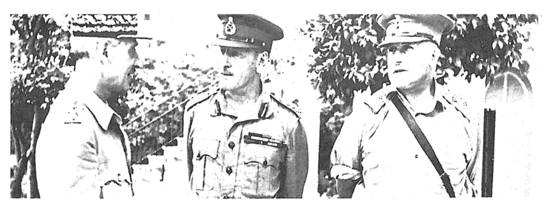
فقد الجيش البريطانيّ ١٬٧٤٢ قتيلاً ، و ١٬٧٤٧ جريحاً ، و ١١٬٨٩٣ أسيراً ، وفقدت البحريّة ١٬٨٢٨ قتيلاً . أمّا مجزرة السفن الحربيّة فكانت مريعة : غرق منها ٩ بينها ٣ طرّادات ، وأُصيبت ١٥ بأضرار بينها ٣ بوارج وحاملة طائرات واحدة ؛ فلم يبقَ لأسطول «الاسكندريّة» موقّتاً أيّ شأن . ولو أنّ الأسطول الإيطاليّ الذي ما زال يضمّ ٤ سفن قتال شنّ هجومه إذ ذاك لضمن لنفسه السيطرة على البحر . بيد أنّه لم يفعل .

كانت الخسارة المعنويّة أفدح من الخسارة المادّية ، وقد أُضيفت إلى هزائم أخرى في «أفريقيا الشماليّة» حيث أُخفقت محاولة فكّ الحصار عن «طبرق» ، فبدت «انكلترا» في قعر الهاوية ، وبدا الشعور بمناعة الجيش الألمانيّ أقوى منه في أيّ وقت مضى .

كلّف احتلال «كريت» «ألمانيا» بعض الدماء ؛ فمن أصل ٢٢٬٠٠٠ رجل رمت بهم في المعمعة بلغت خسارتها ٦٬٦١٦ رجلاً بينهم ١٬٩٩٠ قتيلاً .وارتفع بذلك عدد القتلى الذين فقدتهم في حملة «البلقان» إلى ٥٬٦٥٠ رجلاً ، مما أبقى على طابع الحرب الهتلريّة الذي يعتزّ به صاحبها ، ألا وهو حقن الدماء . ولكنّ ما خسرته فرقة الطيّارين السابعة أثار قلق «هتلر» ، ولذا لم يتورّع من أن يقول «لشتودنت» حين قلّده صليب الفروسيّة : «لقد أثبتت «كريت» أنّ أيّام المظلّيين المجيدة قد انطوت ، فإنّ استخدامهم يفرض مباغتة باتت غير قابلة التحقيق» . كانت «ألمانيا» أسبق الدول إلى استخدام المظلاّت في ميادين القتال ، فإذا بها تصرف عنها النظر عقب انتصارها الأكبر . ولكنّ «أميركا» و «انكلترا» ستحضنانها وتتعهّدانها بالعناية .

صدّت الحامية البريطانيّة في «طبرق» المحاصَرة ، تحت سماء «برقة» الشديدة القيظ ، هجمات الأعداء كلّها .





الجنرال «كاترو» في «سوريا» في حديث مع الجنرالين البريطانيّين «أوكنلك» (إلى اليسار) و «ويلسون».

«ديغول» و «سوريا» و «لبنان»

ما أن سقطت «كريت» حتى تحوّلت الأنظار إلى «سوريا» و «لبنان»؛ فالحرب التي اندلعت فيهما لم تكن غير ردّة فعل لحوادث «العراق». وسرعان ما اخمدت نار الثورة هناك! فالعون الذي وعد به «هتلر» قد اقتصر على تدخّل بعض الطائرات؛ ولم يلبث البريطانيّون أن عادوا فاحتلّوا «بغداد»، وفي ٣١ أيّار فرّ «رشيد عالي» إلى «ألمانيا». إلاّ أنّ الجنرال «دنتز»، المفوّض السامي الفرنسيّ في الشرق، قد أمدّ العراقيّين ببعض الأسلحة إذعاناً منه لأوامر «فيشي»، وسمح بمرور بعض الطائرات الألمانيّة «بدمشق». كان في ذلك ما يبرّر التدخّل البريطانيّ، فبادر «تشرتشل» إلى الإفادة من الظرف.

لم يحظَ هذا التدبير بموافقة «ويفل» الذي مضى للمرّة العاشرة يصف تبعثر قيادة الشرق الأوسط ويطالب بالامتناع عن فتح جبهة جديدة لا تدعو إليها الحاجة؛ فضاق به «تشرتشل» ذرعاً وغدت قضيّة تنحيته عن منصبه قضيّة أيّام. وظلّ «تشرتشل» مصرّاً على احتلال «سوريا» و «لبنان» مع أنّ مبرّرات الاحتلال قد زالت بزوال الثورة العراقيّة.

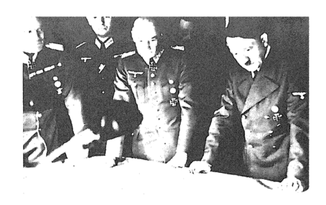
ووجد «ديغول» نفسه أمام معضلة شائكة شبيهة بالتي واجهها في «دكار»، بل لقد كانت من الخطورة والتعقيد بحيث لا يجدي معها إقناع ولا تهويل؛ فهناك نزاع يذرّ قرنه، وهناك عدوان بريطانيّ يوجّه ضدّ «فرنسا»؛ أفيكون من واجب «ديغول» أن يحول دون وقوعه؟ أم أن يُسهم فيه؟ أم أن يقف منه على الحياد؟

كانت الأشهر التي تلت إخفاق «دكار» بالنسبة له فترة صعبة عرّضت استمرار حركته نفسها للخطر؛ فحركته كانت ضعيفة هزيلة، فيما الأمّة الفرنسيّة في ممتلكات ما وراء البحار، كما في الوطن الأمّ، قد وقفت بكاملها تقريباً إلى جانب «بيتان». ثمّ انّ أفضل ما في الديغوليّة، أي تلك الشراذم الصغيرة التابعة «للوكلير» و «أورنانو»، و «لوجنتيلوم»، و «جينان»، و «موزوليه»، قامت بغزو ناجح في الصحراء الإيطاليّة، واشتركت في معارك «إريتريا»، وتمثّلت في قوافل الأطلسيّ، ولكنّها لم تشترك في التحام الشعوب وصراعها؛ إنّها لم تُسهم في النزاع بمقدار ما أسهم البولونيّون والهولنديّون والنروجيّون. و «ديغول» نفسه كان متردّياً في وضع شاذّ؛ فقد يكون ادّعاؤه تمثيل «فرنسا» وتجسيدها موقفاً نفسياً ممتازاً، وتدبيراً سياسياً غاية في البراعة. إلاّ أنّ حكومة غريبة لا يسعها أن تقبل به من الوجهة القانونيّة. كان للأوروبيّين الذين قذفت بهم الفتوحات النازيّة إلى شواطىء «بريطانيا» حكومات حملت السيادة الوطنيّة معها في غربتها. أمّا سيادة «فرنسا» الفعليّة والشرعيّة فقد بقيت، من غير شكّ، على الأرض الفرنسيّة.

بذل «ديغول» جهوداً جبّارة لإقرار شرعيته، ولكنّ جهوده باءت بالإخفاق إزاء معارضة الخارجيّة الانكليزيّة المبدئيّة، فلم تعترف له إلاّ بصفة واحدة هي زعامة الفرنسيّين الأحرار. كان وضعه أشبه ما يكون بالنبيّ وبالمرتزق في الوقت الذي همّت فيه «انكلترا» بمهاجمة أراضٍ يظلّلها العلم الفرنسيّ! شاور «ديغول» مستشاريه في أوّل آذار في الموقف الذي ينبغي اتّخاذه لو تدخّل الانكليز في «سوريا» و «لبنان»؛ فعارض أكثرهم، وحتى الداهية «لوكلير»، فكرة الإسهام العسكريّ الفرنسيّ. إلاّ أنّ حكومة «فرنسا الحرّة» لم تكن مؤسّسة جماعية، ولذا تخطّى «ديغول» نظريّة الأكثريّة، وقرّر أن يمثّل صليب «اللورين» في العمليّات. وهكذا نشبت في نطاق الحرب العالميّة حرب أهليّة فرنسيّة؛ وقد برّر «ديغول» موقفه بضرورة الحؤول دون ضياع حقوق «فرنسا» بانتصار انكليزيّ صرف. لم يكن أمر الحفاظ على الانتداب السوريّ – اللبنانيّ وارداً، وكان «ديغول» لا يرى مفرّاً من إلغائه بعد الحرب؛ إذاً جُلّ ما كان يسعى إليه هو أن يحفظ «لفرنسا» حقّ التخلّي عنه.

بدأت العمليّات في ٨ حزيران، فتألّفت القوّات الانكليزيّة من الفرقة الأوستراليّة ٧، ومجموعة ألوية هنديّة، وفوجين من الخيّالة، وفوج من الدبّابات، وبعض المغاوير. وقد أضاف إليها الفرنسيّون الأحرار، بقيادة الجنرال «لوجنتيلوم»، ٦ كتائب هزيلة، و ٨ مدافع، وعشر دبّابات، أي ما مجموعه ٦،٠٠٠ رجل، في حين كان «لدنتز» ١٨ كتيبة، أي ٤٠،٠٠٠ جنديّ و ٩٠ دبّابة.

إنهارت الآمال المعقودة على مقاومة رمزيّة؛ صحيح أنّ الكولونيل «كوليه» ساق إلى «لوجنتيلوم» كوكبة الشركس الخاضعة لإمرته، ولكنّ الفرنسيّين المخلصين «لبيتان» قاتلوا الانكليز بضراوة وقاتلوا الديغوليّين بنقمة وغضب. وعند استسلامهم في ٢٤ تمّوز، بعد ما استحال عليهم كلّ تموين، أصرّوا على تجاهل الجنرال «كاترو» ممثّل لجنة «فرنسا الحرّة»، ولم يقبلوا بتوقيع اتّفاقيّة «عكا» إلاّ مع الانكليز. كان «ديغول»، استناداً إلى وهم السيادة التي انتحلها، يودّ ضمّهم إلى جيشه، ولكن، بعدما فرض الانكليز مبدأ حريّة الاختيار، لم يقتنع بالانضمام غير ٥،٦٨٨ ضابطاً وجندياً من أصل ٣٧،٧٣٦؛ أمّا الباقون فقد عادوا إلى «فرنسا» والأسى يحزّ في نفوسهم.



الفوهرر في مقرّه العامّ . ويبدو إلى يمينه «براوشيتش» و «كيتل» ، وإلى يساره «هالدر» رئيس أركان حرب الجيش .

مخطّط الحملة الألمانيّة على «روسيا»

إنّ أحد ألغاز الحرب في «سوريا» و «لبنان» هو التخلّف الألمانيّ ؛ فمن «كريت» إلى «بيروت» لا تبلغ المسافة ٨٠٠ كلم . وأمّا «رودس» فهي أقرب من ذلك. ومنذ مجزرة أسطول «الإسكندريّة» كان من الضروريّ احتلال «قبرص» . أمّا تهوّر «تشرتشل» ، والإسهام الديغوليّ في «سوريا» و «لبنان» ، فقد فتحا مسرحاً جديداً للعمليّات وجد فيه «هتلر» تحقيق التعاون العسكريّ الفرنسيّ الألمانيّ الذي نشده في «مونتوار» ؛ ومع ذلك تمنّع عن التدخّل . وفي ذلك الحين لم يتساءل الناس كثيراً عن السبب .

إنّ هذا السبب العظيم هو : لقد أسدل الستار على مسرح المتوسّط ! ومن «البلطيق» إلى «البحر الأسود» تحرّك ٣ ملايين رجل ، و ٦٠٠،٠٠٠ حصان ، و ٦٠٠،٠٠٠ من الآليّات السيّارة ، و ١٩،٠٠٠ قطار . فالموعد مع القدر الذي ضُرب لهذه الحشود هو أحد أهمّ المواعيد في التاريخ : فقد بوشر تنفيذ مخطّط «بربا روسا» ، أي غزو «روسيا» !

وعملاً بتوجيهات «هتلر» كان تحضير الحرب ضدّ «روسيا» قد بدأ منذ صيف ١٩٤٠ ؛ وكان أوّل ضابط من أركان الجيش العامّة كُلّف بوضع الدراسة الستراتيجيّة رجلاً يمقته «هتلر» ، هو الجنرال «إريك ماركس» ، أحد الأعوان السابقين للجنرال «شلايخر» الذي اغتيل في حركة التطهير سنة ١٩٣٤ . وكان «ماركس» من المعجبين «بمولتكي» ، ومن كبار خبراء عمليّات ١٨٧٠ ؛ فجهّز أكبر معركة في التاريخ : كان على الجيش الألمانيّ أن يهاجم «أوكرانيا» ، ثمّ يصل الى «روستوف على الدون»، وبعد أن يدور بنسبة ٩٠ درجة حول مداره يزحف إلى «موسكو» للإطباق على الجيوش الروسيّة من الوراء ! كانت هذه النظريّة عبقريّة ، غير أنّ «هتلر» رفضها مصرّحاً بأنّها ثمرة دماغ معقّد .

وحلّ «باولوس» محلّ «ماركس» ، فانتابه الذعر حين وقف على حقيقة المسافات وضعف المواصلات ، فأزال «أوكرانيا» من منطقة العمليّات السريعة بسبب انعدام الطرقات الكلّي تقريباً ، وأمسى المجهود الرئيس موجّهاً إلى «موسكو» على محور تجسّمه طريق مرتفعة متينة وخطّ حديديّ مقبول . وبعد المعركة الأوليّة كان على الزحف الألمانيّ أن يتريّث بمحاذاة «سمولنسك» كي يتسنّى إعادة تنظيم المواصلات ، وتكييف الخطوط الحديديّة وفقاً للخطوط الأوروبيّة. ولكنّ «هتلر» رفض هذا المخطّط الضيّق المنسّق ؛ كان يريد خارطة هجوميّة أكثر اتّساعاً ، واستمراراً للعمليّات لا يعرف انقطاعاً ؛ فحرب «روسيا» يجب أن تنتهي بحملة واحدة قبل الشتاء !

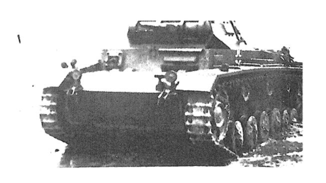
وأخيراً ، في ٨ كانون الأوّل ، وضع «هتلر» الخطوط الستراتيجيّة الكبرى بنفسه ، في مذكّرته رقم ٢١ المسمّاة «بربا روسا» ، وفيها سرد المبادىء العامّة للحرب ضد «روسيا» : حملة قصيرة ، تطويق قوّات العدوّ الكبرى ، منع الروس عن التراجع العامّ إلى مناطقهم الشاسعة ، غزو خطّ «فولغا — أرخانغلسك» من حيث يستطيع الطيران الألمانيّ تدمير مستودعات الذخيرة والأسلحة السوفياتيّة في مصانع «الأورال» . وكان على مجموعات جيوش ثلاث أن تتقاسم هذه المهمّة : اثنتان منها في الشمال ، والثالثة جنوبيّ مستنقعات «بريبي» ؛ وكان يترتّب أن تنتهي التحضيرات في ١٥ أيّار ، كي يتسنّى العمل عقب ذوبان الثلوج... وكلّنا يعلم كيف أخّر الهوس الموسولينيّ في «البلقان» مشروعَ الربيع إلى الصيف .

كان عمل الأركان العامّة يجري في «زوسن» قرب «برلين» حيث كان منزل «براوشيتش — هالدر» ، أي القيادة العليا لجيوش البرّ ، قد استقرّ بعد الانتصار على «فرنسا» . لم يتدخّل «هتلر» بالتفاصيل ، بعكس ما جرى قُبيل تحضير حملات الغرب ؛ وكذلك «جودل» ، وهو رجل «هتلر» الستراتيجيّ الخاصّ ، بقي في معزل ، أو أُبقي فيه . وقال «فاريليمونت» بهذا الشأن : « لم يحضر «جودل» مرّة واحدة هذه اللعبة الحربيّة لحملة «روسيا» ، لا كمشترك ولا كمراقب ... » وأمّا «هتلر» فقد كان ينظر إلى ما وراء الحاضر ، متخيّلاً غد النصر الموثوق ، وإعادة تنظيم الشرق ، ودفع الروس إلى «آسيا» والاستعاضة عنهم بالشعوب الجرمانيّة بما فيها المستوطنون الهولنديّون والانكليز . كان «هتلر» يبوح للمقرّبين إليه قائلاً: «سأجعل من الأراضي المحتلّة جنّة عدن ... »

وواصل الفوهرر جهده لإقناع القوّاد الباقين ، ومنهم «غورنغ» ؛ ففي مستهلّ ١٩٤١ كان «هتلر» قد صرّح له عن عزمه على مهاجمة «روسيا» متذرّعاً بتزايد التجهيزات السوفياتيّة المهدّدة وبسياسة التطويق التي انجلت له في حديث «مولوتوف» . وطلب «غورنغ» السماح بأن يفكّر بحجج الفوهرر على أن يبدي بها رأيه في اليوم التالي . وفي الغد راح يوضح أنّ الحرب في الشرق كانت تعني قطع الهجوم الجوّي على «انكلترا» في الوقت الذي كان فيه هذا الهجوم قد دخل مرحلة النتائج الباهرة ؛ وهو يخشى على القوّة الألمانيّة أن تتكبّل في الصقع الروسيّ المترامي ؛ واقترح مخطّطاً معاكساً لمخطّط «هتلر» ، أي تحويل معاهدة «موسكو» إلى حلف ، وإلقاء «روسيا» في وجه «الهند» . وقال «غورنغ» فيما بعد : «لقد أصغى إليّ الفوهرر بهدوء ، ولكنّ البراهين التي قدّمتها لم تزعزعه » .

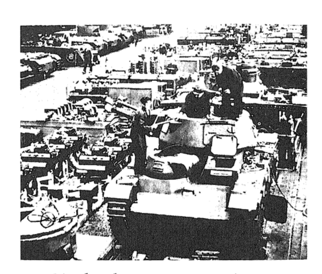
وتمّ تحديد الاستعدادات «لبربا روسا» في المؤتمر الحربيّ الكبير المنعقد في ٢ شباط : ستنظّم أربع دفعات للنقل ؛ وستنضمّ إلى الفرق الـ ٢٥ الموجودة في «بولونيا» وفي «رومانيا» ٧ فرق في آذار ، و ١٣ فرقة في نيسان ، و ٣٠ فرقة في أيّار ، و ١٥ فرقة في حزيران ، على أن

١



تجمّد أكثر الحشود أهمّية حتى آخر لحظة غربيّ الخطّ «رادوم — فرصوفيا — نايدنبرغ» . وعلى الرغم من الطرقات العريضة الطويلة ، ومن كثافة الخطوط الحديديّة الألمانيّة ، تحرّكت وحدات كثيرة مشياً على الأقدام ، فقطع بعضها بهذه الطريقة ٨٠٠ كلم عائداً من «البلقان» .

وأمّا القيادة ، فقد بقيت كما كانت في حرب «فرنسا» . وعلى الرغم من أنّ «هتلر» كان يجد ضيقاً متزايداً في تحمّل المارشال «فون براوشيتش» والكولونيل جنرال «هالدر» ، وعلى الرغم من أنّه كان



إندفعت «ألمانيا» في إنتاج الدبّابات اندفاعاً محروراً . ولكنّها كانت ما تزال تجهل وجود الدبّابة الروسيّة الجبّارة ت ٣٤ التي تنتظرها عبر الحدود .

يتذمّر من عدم تبصّر الأوّل ، ومن كثلكة الثاني ، فقد أبقاهما في منصبيهما : الأوّل كقائد أعلى ، والثاني كرئيس للأركان العامّة . وأمّا هيئة قوّاد الجيش والأسطول الجوّي فقد كانت تضمّ الوجوه العريقة نفسها ، فعاد مثلّث منفّذي ١٩٤٠ الكبار ، «فون ليب» و «فون بوك» و «روندشتاد» ، إلى رئاسة مجموعات الجيوش .

في الشمال كان «ليب» على رأس مجموعة «جيوش الشمال» ؛ فبسط على نهر «نييمن» جيش «كوخلر» الـ ١٨ ، ومجموعة «هوبنر»

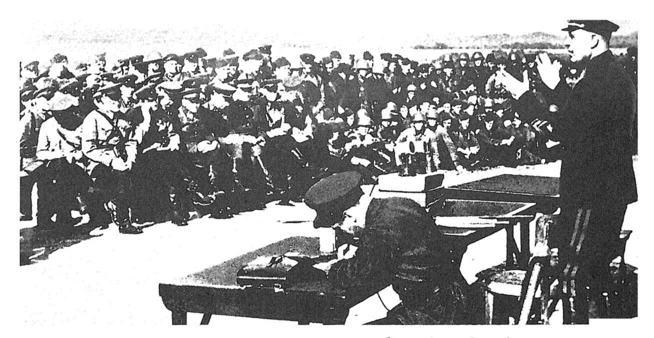
> **«يسهل على الجيوش الدخول إلى «روسيا» ، ولكن يصعب عليها الخروج منها » .**
>
> (البارون «دو جوميني» ، الكاتب العسكريّ السويسريّ).

المصفّحة الرابعة . وجيش «بوش» الـ ١٦ ، أي ما يعادل ٢٩ فرقة و ٥٧٠ دبّابة . وقد أُلحق به أسطول الكولونيل جنرال «كيلر» الجوّي الأوّل . وكانت هنالك طريقان جيّدتان توفّران له محورين للعمليّات ، الأولى باتّجاه «ريغا» والثانية باتّجاه «دونا بورغ» ، وهما تلتقيان جنوبي بحيرة «بايبوس» وتتّجهان إلى «لينينغراد» . وفي الوسط كان «بوك» على رأس مجموعة جيوش الوسط . وهو مكلّف بالدور الأساسيّ ، وقد وُضعت بتصرّفه أكثر الإمكانات أهميّة : جيش «شتراوس» التاسع ، ومجموعة «هوث» المصفّحة الثانية ، ومجموعة «غوديريان» المصفّحة الثالثة ، وجيش «فون كلوغي» الرابع ، أي ٤٩ وحدة كبرى و ٩٣٠ دبّابة ، فضلاً عن خدمات أهمّ الأساطيل الجوّية . عنيت الأسطول الجوّي رقم ٢ بقيادة المارشال «كسلرنغ» . وكانت مهمّته الأوّليّة أن يحطّم قلب الجهاز السوفياتيّ ، متّخذاً له اوتوستراد «بريست — موسكو» محوراً لجهوده . أمّا «براوشيتش» فقد كان يودّ أن تكون «موسكو» هي الهدف . ولكنّ «هتلر» رفض ذلك بشدّة مجيباً بكلام قاسٍ عنيف : «ليس هنالك غير الأدمغة المتصلّبة في المعتقدات المتحجّرة تقف مسحورة أمام عاصمة للعدوّ . ليست «موسكو» غير اسم فحسب . وحصنا «البولشفيّة» هما «لينينغراد» و «ستالينغراد» ؛ وستنهار البولشفيّة باحتلالهما» . وعلى هذا الأساس كان على مجموعة الوسط أن تبلغ منطقة «سمولنسك» ثمّ تتلقّى أوامر وفقاً للأوضاع الراهنة .

وفي الجنوب كان «روندشتاد» على رأس مجموعة جيوش «الجنوب» : جيش «فون رايخناو» السادس ، ومجموعة «فون كلايست» المصفّحة الأولى ، وجيش «فون شتولبناغل» السابع عشر ، وجيش «شوبرت» الحادي عشر ، أي ٤٢ فرقة و ٧٥٠ دبّابة ، وأسطول الكولونيل جنرال «لوهر» الجوّيّ الرابع . وكانت مهمّة هذه المجموعة أن تحتلّ «أوكرانيا» ؛ ونظراً لوجود مستنقعات «بريبي» ، وهي بمساحة «فرنسا» ، لم يكن التعاون بين «روندشتاد» و «بوك» ممكناً ما لم يبلغا نهر «دنيبير» .

وأمّا المساعدون ذوو الأهميّة الثانويّة فقد كانوا يحتلّون موقعاً في جناحيّ القوّات المنبسطة ، على الطريقة التقليديّة المتّبعة في كتائب الرومان ؛ ففي الجناح الأيسر اعتُبرت «كاريليا» مسرحاً مستقلاً يربض فيه الجيش الفنلنديّ المؤلّف من ١٦ فرقة ، تسانده فرق ألمانيّة خمس ، من بينها الفرقتان الجبليّتان التابعتان للجنرال «ديتل» ؛ وفي الجناح الأيمن تُقدّم «رومانيا» الجيشين الثالث والرابع يتخلّلهما الجيش الألمانيّ الحادي عشر ؛ وعبر جبال «الكاربات» تنطلق من «المجر» ثلاث فرق سريعة ، وترسل «سلوفاكيا» فرقتين ضعيفتين ؛ وكان على القيادة الألمانيّة والحالة هذه أن تزوّد الأركان الفنلنديّة والرومانيّة والمجريّة والسلوفاكيّة بقسط ضئيل من المعلومات الضروريّة في سبيل تنظيم التعاون ، على الرغم من حرصها على الاحتفاظ بالسرّ .

ولكنّ الألمان لزموا صمتاً مطبقاً حيال «القيادة الإيطاليّة العليا» والصديق الكبير «موسوليني» ! وفي ٢ حزيران جرت مقابلة جديدة في «بريتر» بناء على طلب «هتلر» ، على الرغم من نفور «الدوتشي» الذي كان يقول : «لقد سئمت تلبية هذه النداءات» ؛ فراح «هتلر» يخطب بإسهاب عن خسارة «البسمارك» ، وتطرّق إلى مغامرة «هيس» وعيناه



المارشال «تيموشنكو» يوجّه تعليماته في الهواء الطّلق .

مغرورقتان بالدموع . وبعد ما انصرف «هتلر» قال «موسوليني» الفطن لصهره إنّ الفوهرر لم يكن يملك مخطّطاً معيّناً ، وإنّ سلمَ تسوية بات منتظراً ...

في الجبهة الشرقيّة كان «لألمانيا» ١٣٩ فرقة تضاف إليها ٥١ فرقة حليفة . وكانت فرقتان من الدبّابات وإحدى عشرة فرقة من المشاة ما تزال في أراضي «الرايخ» ، وكانت وحدتان مدرّعتان كبيرتان تحاربان في «ليبيا» . وقد أوكلت مهمّة حماية الفتوحات إلى البقيّة الباقية من القوّات الألمانيّة ، فبقي «ليست» في «البلقان» مع جيشه الثاني عشر الذي تدنّى إلى ٧ فرق ؛ وفي «فرنسا» كان المارشال «فون فيتزليبين» يتولّى قيادة المجموعة «د» المؤلّفة من جيش «هاسي» الخامس عشر ، وجيش «دولمان» السابع ، وجيش «فون بلاسكوفيتز» الأوّل ، أي ما مجموعه ٣٨ فرقة؛ وكانت تسيطر على «نروج» ٧ فرق بقيادة «فون فالكنهورست» ، وكانت فرقة ثامنة تحتلّ «الدانمرك» .

فمن ناحية العدد بلغت القوّات الألمانيّة ٦،٦٧٣،٠٠٠ رجل ، منهم ٤،٩٠٠،٠٠٠ في القوّات البرّية (بنسبة ٧٢،٥٪) ، و ١،٤٨٥،٠٠٠ في الطيران (٢٢٪) و ٢٩٨،٠٠٠ في البحريّة (٤،٤٪) ، و ٨٠،٠٠٠ في فرق الصاعقة (١،١٪). غير أنّ التعبئة العامّة لم تكن قد شملت الرجال الأصحّاء كلّهم ، وعدد القتلى والمقعدين منذ أيلول ١٩٣٩ لم يتعدّ ١٠٠،٠٠٠ رجل ؛ فالطاقة البشريّة في «الرايخ» باقية إذاً على حالها .

لم يتميّز مخطّط العمليّات ضدّ «روسيا» بطابع العبقريّة ؛ فهو ينبسط في المدى الروسيّ كالمروحة ، أي أنّه يسهّل تملّص الجيش الأحمر ، وهذا ما كان «هتلر» يحاول تجنّبه . ولكنّ الفوهرر كان يعتزم أن يُجري انعطافات واسعة في سبيل تطويق حشود العدوّ وأسرها بعد تضعضع الجبهة الوسطى ؛ فهو يتوقّع أن تنقسم مجموعة الوسط بعد وصولها إلى منطقة «سمولنسك» ، فتعطي مجموعة الشمال قسماً من وحداتها السريعة بغية احتلال «لينينغراد» ، وتعطي مجموعة الجنوب القسم الآخر

لاحتلال «أوكرانيا» . ولكنّ شغل «هتلر» الشاغل كان ألاّ يحذو حذو «نابوليون» ، وهو في رأيه عسكريّ من الدرجة الثانية ، أدنى منه ومن «فريدريك الثاني» مرتبة ! فهذا الأمر قد لعب ، ولا ريب ، دوراً في التقليل من قيمة «موسكو» كهدف عسكريّ . غير أنّ «هتلر» لم يتغاضَ عن اختبارات سلفيه في غزو «روسيا» ؛ فهو يعلم حقّ العلم أنّ «شارل الثاني عشر» و «بونابارت» قد مُنيا بالهزيمة بسبب المسافات والطقس وتبختر العدوّ ، وبسبب الأصقاع المترامية الأطراف التي كانت تستنفد القوى . ولكنّه ظنّ أنّه قادر على مجابهة المسافات بالسرعة ، والتغلّب على المساحات الشاسعة بفضل المحرّكات . لقد طارد «نابوليون» «كوتوزوف» ماشياً ؛ وكان «لوفنهوبت» يستخدم العربات التي تجرّها الأبقار لتزويد الملك «شارل» بالخبز الذي يطلبه لاحتلال «موسكو» ، وأمّا هو ، «هتلر» ، فلديه مصفّحاته التي تنتقل بظرف عشرة أيّام من «إيفل» إلى «المانش» ، ومن «سدرة طرابلس» إلى «مصر» ، ومن «الدانوب» إلى «إيجه» ، ولديه وسائل النقل الجوّيّ إن أعياه النقل البرّيّ ؛ فسوابق القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لا تنطبق على جيشه .

بقي اعتبار واحد ، هو العدوّ ؛ فمن بين الشعوب كافّة كان الألمان في وضع يخوّلهم معرفته معرفة يقينيّة . فحتّى نهاية جمهوريّة «فايمار» كان ضبّاط عديدون من القوّات الألمانيّة ، ومن بينهم «براوشيتش» ، قد أمضوا فترات من التدريب في «الاتّحاد السوفياتيّ» بغية استخدام الأسلحة التي حرّمتها معاهدة «فرساي» . ولكن يبدو أنّ المعلومات الألمانيّة عن العدوّ كانت على جانب من الفوضى ، وأنّ تقدير الجيش الأحمر كان لا يثبت على رأي ؛ فقد وُصف الجيش السوفياتيّ تارة بأنّه قوّة مريعة جاهزة لابتلاع «الرايخ» ، وطوراً بأنّه متداع لا يلبث أن ينهار تحت وطأة الصدمة الأولى . كانوا أحياناً يستشهدون حرب «فنلندا» ، وأحياناً أخرى يتحدّثون عن الاستعدادات الهائلة التي تجعل من «روسيا» معسكراً ومستودعاً للسلاح . وفي ٢ شباط

قدّم «هالدر» بياناً مقتضباً عن الجيش الأحمر أفضى إلى الاستنتاج التالي : «إنّ قوّاتنا تعادل قوّاته من حيث العدد ، وهي متفوّقة من حيث النوعيّة». وفي أوائل نيسان رسم القسم الأجنبيّ في جيش الشرق لوحة أعمق ؛ فعلى أساس مليون ونصف مليون من الرجال في الصفّ الواحد كان بإمكان «روسيا» أن تجنّد ١٢ مليون شابّ ، وليس لجيشها حدود إلاّ إمكاناتها الصناعيّة . فالقوّات الروسيّة المتحرّكة في «أوروبا» تبلغ ١٤٥ فرقة مشاة ، و ٢٦ فرقة خيّالة ، و ٤٠ لواء متحرّكاً آليّاً ، أي ما مجموعه ٢١١ وحدة كبرى ، مقابل ١٩٠ وحدة «لألمانيا» وحلفائها ؛ وتبقى للروس في الشرق الأقصى ٢٥ فرقة مشاة ، و ٨ فرق خيّالة ، و ٥ ألوية آليّة ، ولكن يتعذّر تقدير ما يمكن تجهيزه منها نظراً لمعاهدة عدم الاعتداء التي وُقّعت لأسابيع خلت بين «الاتّحاد السوفياتيّ» و«اليابان». وأمّا المعدّات فكانت فائضة ، ولكنّها قديمة مبعثرة ؛ وقد وضع الروس دبّابات في كلّ مكان ، فكانت فرقهم العاديّة تضمّ كتائب مصفّحة آليّة ؛ وكان عدد الآليّات يقدّر بـ ١٠،٠٠٠ ، أي ما يوازي ثلاثة أضعاف ما عند الألمان ، ولكنّ الجيش السوفياتيّ لم يكن يملك فرقاً مصفّحة ، وكانت الدبّابات التي يستعملها من فئة «ت ٢٦ ب» زنة ٨ أطنان ، التي تعتبر نسخة عن «الفيكرز» الانكليزيّة ، ومن فئة «ب ت ٣٤» ، زنة ١٠ أطنان ، وهي نسخة عن «الكريستي» ، وهي ضعيفة في القتال غير مكتملة . وكان الألمان يعلمون أنّ نماذج أقوى كان قد جرى اختبارها في «اسبانيا»، ولكنّهم يعتقدون بأنّ عددها لا يؤهّلها للعمل الحاسم .

وبالنتيجة لم يكن الألمان يرتابون بشأن تفوّقهم العسكريّ ؛ كانوا على يقين من أنّ انهيار الجيش الروسيّ سيكون أسرع من انهيار الجيش الفرنسيّ وأعمق أثراً . أمّا الخوف المبهم الذي كان يسيطر على الكثيرين من الألمان ذوي الرتب العالية عند دخولهم إلى «روسيا» فلم يكن ناجماً عن مقارنة تقنيّة مروّعة بين الإمكانات السوفياتيّة والإمكانات الهتلريّة ، بل كان نتيجة لذكريات ١٩١٤–١٩١٧ ، وللقلق إزاء المدى الروسيّ الشاسع ، ولمحاربتهم على جبهتين ، وللارتياب المتزايد في مصير حرب لم تكن انتصاراتها المتراكمة إلاّ لتقود إلى معارك جديدة .

كان الجيش الألمانيّ رائعاً في الظاهر ؛ فقد رفّع مجموع فرقه إلى ٢٠٨ فرق ، وانتقل عدد فرقه المصفّحة من ١٠ إلى ٢١ ، وعدد الفرق الآليّة من ٨ إلى ١٧ . وكان عتاده قد جُرِّب تجربة صادقة في الحملات العديدة ، وكانت حميّة المعارك قد أكسبت رجاله صلابة فولاذيّة . وكان «هتلر» يقول : «إنّ أقلّ الجنود الألمان قدْراً لأفضل من أفضل جنديّ أجنبيّ » . لم يكن الجيش الألمانيّ متفوّقاً في الميادين التقنيّة فحسب ، بل كان كذلك متفوّقاً من الناحية البشريّة ، وهذا لعمري أولى بالاعتبار من جودة السلاح . وقد أتت انتصاراته المتوالية الصارخة دليلا ساطعاً على ذلك .

هذا في الظاهر . ولكنّ الواقع الصارم كان يلقي على هذه الإشعاعات الباهرة ظلالاً قاتمة . صحيح أنّ عدد الفرق المصفّحة قد تضاعف ، ولكنّ عدد كتائب الدبّابات بلغ ٥٧ كتيبة فحسب ، بعدما كان ٣٥ ، وقد انخفض معدّل الآليّات في الفرقة الواحدة من ٢٥٨ إلى ١٩٦ . أمّا الصناعة فقد سجّلت أوّل عجز لها : كان عليها أن تسلّم ٦٠٠ دبّابة في الشهر ، وإذ بها لا تسلّم غير ٢٢٧ . وهكذا ارتمت «ألمانيا» في «روسيا» الشاسعة وعدّتها ٣٣٣٠ دبّابة بدلاً من ٢٥٧٤ استخدمتها في «فرنسا» . وأمّا فرقها الآليّة الـ ١٥ التي ألقت بها على الجبهة الروسيّة فلم تكن تؤلّف غير ثمن مشاتها ، فكتب على سبعة أثمانها الباقية أن تتقدّم في السهوب الروسيّة المحرقة مشياً على الأقدام ، حتى في الوحل والثلج . وكان معظم مجموعات المدفعيّة والقُطُر الحديديّة تجرّه الخيول ، ولم تكن البهائم ولا العربات مناسبة للأراضي الموحلة التي كانت تخوضها ؛ مع العلم أنّ دور قوّات المشاة هذه لم يبقَ مقتصراً على مواكبة

كانت «ألمانيا» تخطىء تقدير عدد الدبّابات الروسيّة وقوّتها . وتبدو في الصورة طائفة من الدبّابات الروسيّة « ت ٢٦ أ» و «ت ٢٦ ب» .

« في ربيع ١٩٤١ سمح «هتلر» لبعثة ضبّاط روسيّة بزيارة مدارسنا ومصانع دبّاباتنا مع توصية بأن نطلع الضيوف على كلّ شيء . ولما بصر الروس بدبّابتنا «٤» لم يصدّقوا أنّها أثقل طراز في حوزتنا » .



الدبّابات لالتقاط الأسرى ، فواجبها أن تنبسط وأن تقاتل من غير انقطاع .

ومن ناحية أخرى لم يكن الطيران الألمانيّ قد تلقّى مدداً يناسب مهامّه المتزايدة ؛ فقد أُبقيت ١،٥٠٠ طائرة لمواصلة المعركة الهجوميّة الدفاعيّة ضدّ «انكلترا» ، ولم يكن الطيران الملحق بالجبهة الروسيّة يتضمّن غير ٧٢٠ مقاتلة و ١،١٦٠ قاذفة و ١٢٠ طائرة استكشاف ، وهي عدّة غير كافية إجمالاً ، أو قل هي ضئيلة بالنسبة لاتّساع الجبهات وعمقها .

وقبل أن تبدأ العمليّات بدأت صعوبات التموين . فصناعة المطّاط الاصطناعيّ كانت تافهة من ناحية الجودة والكمّيّة لدرجة أنّ الألمان راحوا يعتمدون على شحنات المطّاط الطبيعيّة القليلة الّتي كان يأتي بها خارقو الحصار المفروض عليها . أمّا وسواس «هتلر» في حماية آبار النفط الرومانيّة فيمكن تفسيره بالسببين التاليين : ففي «لونا» ، من ناحية ، كانت كمّيات الوقود المستخرجة من الفحم تغطّي أقلّ من ٣٠٪ من الحاجات ، ومن ناحية أخرى كانت كمّيات الوقود المخزونة لا تكفي لأكثر من ثلاثة أشهر من العمليّات ، ولم تكن مخزونات البنزول لتكفي لأكثر من شهر واحد .

وهكذا كان «هتلر» يهاجم «روسيا» بأداة حربيّة بادية الضعف ، فهذا الجهاز العسكريّ كان كافياً للانتصارات الساحقة الّتي أحرزت بين ١٩٣٩ و ١٩٤١ ، أي في وجه جيوش أضعف منه بكثير ، كما في «بولونيا» وفي «البلقان» ، أو في وجه جيوش كانت فريسة للمفاجأة التقنيّة ، كما في «فرنسا» ؛ أمّا في «روسيا» فالخصم ضخم جبّار ، والبلد يشلّ السرعة بسبب طبيعة أراضيه فضلاً عن مسافاته الشاسعة . ولما أراد «براوشيتش» بحث هذا الموضوع أسكته «هتلر» بقساوة ، وهو مشمئزّ من اعتراضات هؤلاء العسكريّين الذين كانوا ، في زعمه ، دائمي الخطأ .

وكان «هتلر» قد رفض الإصغاء إلى الطلبات الّتي قُدّمت إليه بشأن حماية الجيش من البرد الروسيّ ، بحجّة أنّ صناعة الأجهزة الخاصّة بكمّيات كبيرة تثير الانتباه ، فضلاً عن أنّ المبدأ الأساسيّ يقضي بتدمير الجيش الأحمر قبل موسم الصقيع . وكان على خُمس القوّات الألمانيّة تقريباً أن يبقى في «روسيا» لحماية الحدود الأوروبيّة الجديدة من بحر «قزوين» إلى «البحر الأبيض» ، وعلى هذا الأساس أجري تقدير كمّيات الثياب والموادّ الأساسيّة اللازمة لموسم الشتاء . وقد أعلن الفوهرر إذ ذاك قائلاً : «سأسرّح بقيّة الجيش ، .وسأستمرّ في الحرب ضدّ «انكلترا» جوّاً وبحراً » .

وقد أحدثت طبيعة الحرب نزاعاً بين «هتلر» وقوّاده ؛ قال «جودل» : «لقد قام بينه وبينهم اختلاف مبدئيّ بصدد طبيعة الحرب ضدّ «روسيا» . فكان القوّاد يرون فيها نزاعاً بين جيشين ، بينما كان الفوهرر يصرّ أن يرى فيها معركة فناء بين شكلين متناقضين من أشكال الحضارة » .

في ٣٠ آذار استُدعي قوّاد الجيش إلى دار المستشاريّة ؛ وقدم «هتلر» عابساً وعيناه تقدحان شرراً ، فقال : « إنّ الحرب ضدّ « روسيا » لا يمكن خوضها تبعاً لقوانين الشرف . إنّها معركة عقائديّة ، ومعركة أجناس بشريّة ، تتطلّب درجة من القساوة لم يسبق لها مثيل . يجب على الضبّاط أن يتخلّوا عن مبادىء الشهامة البالية ، وألاّ يتصوّروا بعدالآن أنّ الأمر سينتهي بعقد هدنة يعود المنتصر والمنهزم بعدها إلى التصافي وكأنّ شيئاً لم يكن . إنّني أعلم أنّ ما أطلبه يفوق إدراك قوّادي ، ولكنّني أطلب الطاعة . لم تعترف «روسيا» باتّفاقيّات «جنيف» ، وهي لن ترأف برجال فرق الصاعقة . فأنا أطلب إذاً ألاّ يُعتبر مفوّضو الجيش الأحمر السياسيّون كمحاربين ، وأن يُقضى عليهم بلا توانٍ في حال وقوعهم في الأسر ...» ولم يتمكّن القوّاد من إبداء أيّ اعتراضٍ ، فقد غادر «هتلر»القاعة على الأثر وهو يقرع الأرض حنقاً . وللحال أحاط قوّاد مجموعات الجيوش الثلاث بالقائد العامّ «براوشيتش» معلنين أنّهم قد أُهينوا وطالبين منه أن يحتجّ باسمهم ؛ فأبلغ «براوشيتش» المتحطّم المعارضين أنّهم مصيبون ، وقال إنّه يجب ألاّ يُغاظ الفوهرر ، وإنّه سيفكّر بوسيلة لطيفة ترجعه عن غيّه . ولكنّ جهوده الضعيفة لم تحُلْ دون إصدار القيادة الحربيّة العليا أمراً بتاريخ ٦ حزيران يقضي بإبادة المفوّضين .

وفي ١٣ أيّار اتُّخذ قرار أبعد عاقبة من القرار الأوّل ؛ يجب أن تنظّم مؤخّرات الجيوش الألمانيّة في «روسيا» بطريقة جديدة تماماً ، فتتوقّف سلطة القوّاد عند حدود المقدّمة ؛ وعلى أعقاب المحاربين يصل «الحزب» ، و «الغستابو» ، ورجال الصاعقة ، أي العناصر العقائديّة والزجريّة والنهّابة في الدولة الهتلرية ! وقد عُيّن مفكّر نظريّ نصف مجنون ، هو «ألفرد روزنبرغ » ، وزيراً لمقاطعات الشرق ، وأُنشئت منظّمة لنهب الأراضي المجتاحة بطريقة نظاميّة ، وقُسّمت «روسيا» ستّ حكومات اقتصاديّة تُرك أمرها لأكثر الحكّام قسوةً أمثال «كوخ» و «تربوفن» . كان واجباً عليهم ألاّ يأخذوا بعين الاعتبار تباريح السكّان ، أو حتّى حياتهم ؛ فالذين يموتون منهم جوعاً يخلّون المجال أمام المستوطنين الألمان الجدد تلقائيّاً بدلاً من أن يُلجأ إلى طردهم .

وهنالك بالطبع سياسة أخرى كان يجب تبنّيها ، وهي تلك الّتي تنصّ على استمالة الشعب الروسيّ ؛ فالطغيان الستالينيّ أورث النظام أعداء كثراً ، والسياسة الزراعيّة أقلقت الريفيّين ؛ فلو عمد الجيش الألمانيّ إلى حلّ الكولخوزات، وإلى توزيع الأراضي على الفلاّحين ، لأحدث بالنتيجة هزّة عنيفة . ولكنّ تعليمات وزير مقاطعات الشرق أتت فيما بعد معاكسة : يجب أن تُبقى المزارع الجماعيّة على حالها ، وأن يُفرض على الكولخوزيّين تسديد ما كانوا يسدّدونه للسلطات السوفياتيّة ؛ لم تكن الغاية تحرير الشعب الروسيّ ، بل طرده إلى «آسيا» . فقد قال «روزنبرغ » : إنّ المستقبل يدّخر للروس العديدَ من السنين القاسية . ولكنّهم بعد مئة سنة سيشكروننا لكوننا أعدناهم إلى مأواهم الطبيعيّ ؛ فالروسيّ في نظره رُجَيل لا أكثر ، وكانت واجبات الرجل الألمانيّ المتفوّق حياله كواجباته حيال الحيوانات : لا إسراف في القساوة ، ولكنّ حقّ مطلق في التصرّف بحياته وموته .

إحتضار صداقة

إحتفلت «موسكو» في أوّل أيّار بتكريم الصداقة الألمانيّة ، فحيّاها «ستالين» والمارشال «تيموشنكو» في رسالتين وُجّهت أولاهما إلى الأمّة والثانية إلى الجيش ؛ ولم تمضِ على ذلك خمسة أيّام حتّى تسلّم «ستالين» شخصيّاً إدارة الحكم ، فضلاً عن لقب «رئيس مجلس مفوّضي الشعب» ، ولم يكن له حتّى ذاك الحين غير لقب «السكرتير الأوّل للحزب الشيوعيّ » ، فانزلق «مولوتوف» المخلص الأمين بصمت إلى الصفّ الثاني .

كان سفير «ألمانيا» الكونت «فون — در — شولنبرغ » سيّداً

كبيراً يكره «هتلر» ، إلاّ أنّه كان يخدم «ألمانيا» ، ويحاول الإبقاء على سلم يبعث زواله كابوس الحرب على جبهتين . كانت برقيّاته إلى الخارجيّة الألمانيّة تشير باستمرار إلى أنّ « «ستالين» و «مولوتوف» يبذلان قصارى الجهد لتحاشي النزاع » ، وأنّهما إذا لزم الأمر «على استعداد للقبول بأقصى ما يمكن من التنازل» . كان «الاتّحاد السوفياتيّ» يقوم بالالتزامات التجاريّة الّتي ارتبط بها ، فلم تتعرّض موادّ التموين الرئيسة كالنفط والقمح والخشب والقطن لأيّ تأخير ؛ أمّا المناورات الّتي قامت بها «انكلترا» في «موسكو» فقد باءت بالإخفاق . وعاد السير «ستافورد كريبس» ، الارستوقراطيّ الأحمر . الذي اوفده اليها «تشرتشل» ، إلى «لندن» ، وقالت الشائعات إنّه قد يئس ولن يعود .

بيد أنّ تحرّكات القوّات الألمانيّة لم تخفَ على أحد ؛ فقد علمت بها أجهزة الاستخبار العالميّة كلّها ، ولحظ الدبلوماسيّون في «برلين» ازدحام الخطوط الحديديّة والطرقات بالنقليّات العسكريّة المتّجهة نحو الشرق . كان قرب نشوب الحرب الألمانيّة الروسيّة موضوع حديث السفارات كلّها ، فيما كان المسافرون العائدون من «موسكو» يعجبون ويعلنون أنّ الاطمئنان يسود «روسيا» ؛ «فستالين» في رحلة استجمام على شاطىء «البحر الأسود» ، و «مولوتوف» يجيب عن الإنذارات السريّة الّتي أبلغه إيّاها «تشرتشل» ببلاغ نشرته وكالة «تاس» بتاريخ ١٣ حزيران يقول : «ترى الأوساط السوفياتيّة المسؤولة من واجبها أن تعلن أنّ الشائعات المتعلّقة باحتشادات القوّات الألمانيّة ونيّاتها العدوانيّة إنّما هي مناورات مفضوحة يقوم بها أولئك الذين لهم مصلحة في توسيع الحرب وإطالة أمدها» . إذاً فالحكومة الروسيّة مخلصة كلّ الإخلاص لاتّفاقيّة «موسكو» . ولم يمضِ على بلاغ وكالة «تاس» يوم واحد حتّى عُقد اجتماع للأقطاب العسكريّين في دار مستشاريّة «الرايخ» الجديدة ؛ وثارت في «برلين» على الأثر تكهّنات تقول إنّ اجتماع المارشالات ينذر بهبوب عدوان وشيك ضد «روسيا» . كان يحيط «بهتلر» «كيتل» و «جودل» و «فاريليمونت» كبار ضبّاط قيادة الجيش العليا ؛ و «براوشيتش» و «هالدر» و «باولوس» من القيادة العليا لجيش البرّ ؛ و «غورنغ» و «ميلش» و «جيشونك» و «بودنشاتز» من القيادة العليا لسلاح الجوّ ؛ و «ريدر» و «فريكي» من القيادة العليا لسلاح البحريّة ؛ ومثل أمامه على التوالي «فلكنهورست» و «ستومبف» قائدا جبهة «نروج» ، و«روندشتاد» و «رايخناو» و «شتولبناغل» و «كلايست» و «شوبرت» و «لوهر» من مجموعة جيوش الجنوب ؛ و «كارل» و «شموندت» من «البلطيق» ؛ و «ليب» و «بوش» و «كوخلر» و «هوبنر» و «كيلر» من مجموعة جيوش الشمال ؛ ثمّ «بوك» و «كلوغي» و «شتراوس» و «غوديريان» و «هوث» و «كسلرنغ» من مجموعة جيوش الوسط ؛ فأطلعوا الفوهرر على استعداداتهم وأجابوا عن أسئلته . تخلّل هذه الاجتماعات غداءٌ اشترك فيه أيضاً الكولونيلان — جنرالان «فروم» و «أوديت» ، وألقى فيه «هتلر» خطاباً عالج فيه موضوعه المألوف ، وفحواه أنّ «انكلترا» ستسارع إلى طلب الصلح متى هُزمت «روسيا» . أمّا إخضاع «روسيا» فمعركة حامية الوطيس تستغرق أربعة أسابيع ، تتلوها أعمال عنف تبرد حدّتها شيئاً فشيئاً . ولا بدّ من أن يعود معظم الجيش توّاً إلى «ألمانيا» وأن يتّخذ العالم وجهه الجديد قبل عيد الميلاد . لم يعوز هذا العرضَ غير تفصيل واحد ، ألا وهو موعد الزحف ؛ ففي ١٧ حزيران قُرّر أن يبدأ الهجوم يوم الأحد في ٢٢ حزيران ، على أن يُتّخذ القرار النهائيّ يوم ٢١ في تمام الساعة الواحدة بعد الظهر ؛ فكلمة «ألتونا» ستعني إلغاء الأمر بالزحف . وكلمة «دورتموند» ستعني تثبيته .

كانت كلمة «دورتموند» قد أُبلغت منذ ساعات حين استدعى «مولوتوف» الكونت «شولنبرغ» في ليلة ٢١–٢٢ ، فكشف له عن سريرة قلبه وصارحه بهمّه ؛ ذاك أنّ «الاتّحاد السوفياتيّ» يشعر بشيء من الاستياء لدى الحكومة الألمانيّة ، وهو يودّ معرفة أسبابه علّه يستطيع معالجته . فوعد «شولنبرغ» بنقل هذه الرغبة إلى «برلين» . ولكن ما ان عاد إلى سفارته حتّى كانت مصلحة الشيفرة قد حلّت رموز برقيّة وردت من «ريبنتروب» تأمره بأن يسلّم الهر «مولوتوف» إعلان «الرايخ» الحرب !

كان للساعات الأخيرة ، ولليلة الأخيرة ، وطأة من الكآبة ثقيلة ؛ قام «هالدر» رئيس الأركان بجولة جويّة فوق ميدان القتال ، فإذا به يعود مرهقاً بهول المسافات الرحبة الذي أحسّ به . وقضى قائد الفيلق «فون مانشتاين» ليلة ٢١ حزيران في بيت صديق له في «بروسيا الشرقيّة» . فإذا به يطيل الوقوف على الشرفة ، يثقله شعوره بقيمة الثواني الّتي لا تقدّر بثمن. و«غوديريان» نفسه اتّخذ مكانه على رأس مجموعته المصفّحة ، أمام «بريست ليتوفسك» الّتي احتلّها خلال الحملة البولونيّة ، والّتي عليه أن يحتلّها في غد من جديد ؛ كان نهر «البوغ» الطامي يلتمع تحت النجوم. راح «غوديريان» يراقب الضفّة الشرقيّة بإمعان ، فلم يلحظ أثراً لأيّ تأهّب دفاعيّ ؛ وفي القلعة القديمة كان الجنود الروس يقومون بتدريب استعراضيّ ... هذه المرّة أيضاً سيؤخذ العدوّ على حين غرّة . إلاّ أنّ ترقّب صفحة جديدة من العمل والمجد لم يكن ليزيح عن الصدور ذاك الكابوس الذي يرهبها منذ أن عُرف عن الفوهرر أنّه ينشط لحرب جديدة في الشرق ، قبل أن يتمّ له الظفر في الغرب .

أمّا الرجال فقد حلّ أكثرهم في الدبّابات والشاحنات منذ ثلاثة أيّام ، فيما راح آخرون يتمّون مسيرة الاقتراب على دروب «بولونيا» الشرقيّة العريضة الرمليّة ، وقد نالوا كمّيات من اللفائف والمشروب ؛ وعلى الرغم من هذا السخاء كان الكثيرون لا يصدّقون أنّهم ماضون إلى الحرب. «الروس حلفاؤنا ، وهم يناصبون «انكلترا» العداء . إنّهم يفتحون لنا أراضيهم كي نذهب للقاء «رومل» عن طريق «القفقاس» . لقد باعونا «أوكرانيا» ونحن ماضون لاحتلالها ...» وفي الساعة الثانية دوّى صفير قاطرة تجتاز جسر «بريست ليتوفسك» ؛ كان ذاك قطارَ قمح سوفياتيّاً يدخل إلى «ألمانيا» ، فقام رجال الجمارك يتمّون المعاملات العاديّة في كلا الجانبين . هذا والجبهة نائمة ، والروس في ثكناتهم نيام ، و «ستالين» ينام ، أو لعلّه — وهو المعروف بحبّه للسهر — يحيي إحدى لياليه الحافلة في دارته على شاطىء «البحر الأسود» .

وفي «برلين» أُوقظ السفير «ديكانوزوف» ، لأنّ «ريبنتروب» كان ينتظره في وزارة الخارجيّة وهو يذرع أرض ديوانه طولاً وعرضاً مكرّراً أنّ «هتلر» محقّ في سعيه للتخلّص من «روسيا» . لم يكن السفير يعرف الألمانيّة ، فاضطرّ الترجمان «بافلوف» إلى أن يترجم المرافعة المسهبة الّتي اعتقد «ريبنتروب» أنّ الظرف يقضي بإلقائها. وإذ أدرك «ديكانوزوف» أنّ هذا الكلام يعني الحرب، انتصب واقفاً ، ثمّ انحنى في تحيّة صغيرة جافّة ، ولم يفتح فاه إلاّ ليطلب جوازات سفره . عند ذاك انتقل «ريبنتروب» إلى قاعة كان الديبلوماسيّون والمراسلون الأجانب قد دُعوا إليها ، فإذا فيها عشرات من الرجال قد هبّوا من أسرّتهم وبينهم نساء ما زلن في فساتين السهرة ! أثارت الحميّة بعضهم فراحوا يتحدّثون عن أطول ليلة عرفها التاريخ ، فيما استبدّ الذعر والإعياء بالبعض الآخر . وعندما خرجوا لينقلوا النبأ الخطير إلى العالم ، كان النور يذرّ قرنه ، وكانت العصافير تغرّد في حديقة القصر .

وفي الجبهة بدأت المدفعيّة تطلق نيرانها في تمام الساعة ٣،١٥ ، وقد أخذ جانب من السماء فوق «روسيا» يصطبغ بلون زَهريّ .

٢٢ حزيران - ٢٣ آب ١٩٤١

«لينينغراد» أم «كييف» أم «موسكو» ؟

أوّل صوت ارتفع على موجات الأثير منذ الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم الأحد ٢٢ حزيران هو صوت «جوزف غوبلز» ؛ فلقد راح يقرأ تصريحاً «لهتلر» يعرض فيه الأسباب التي أوجبت مهاجمة «روسيا» .



وقد خُتم التصريح بالعبارة التالية : «لقد عزمت على أن أضع من جديد مصير الشعب الألمانيّ و «الرايخ» الألمانيّ و «أوروبا» بأكملها بين أيدي جنودنا» . وفي الوقت الذي كان فيه «غوبلز» يتكلّم . كان السفير الألمانيّ «فون شولنبرغ» يغادر «الكرملين» ، أمّا اعلان الحرب فقد أُبلغ عقب نشوبها بساعة ونيّف . فبدا «مولوتوف» مشدوهاً لا يصدّق . وانقضى الصباح كلّه قبل أن تعلم الامبراطوريّة السوفياتيّة المترامية الأطراف . في ما عدا المدن التي تعرّضت القصف ، أنّ أضخم آلات الحرب في التاريخ وأقواها قد باشرت الزحف عليها . وأخيراً تكلّم «مولوتوف» في الساعة ١٢،١٥ فأعلن بدء العدوان ، وخرق الحدود ، وقصف «جيتومير» و «كوناس» و «كييف» و «سيباستوبول» ، وسقوط ٢٠٠ قتيل وجريح . وبعدما أعاد إلى الأذهان ذكرى هزيمة «نابوليون» عام ١٨١٢ ، دعا الشعب الروسيّ إلى السلاح . كان في لهجته قلق وحرقة . فخلّف تصريحه حزناً مبرحاً وذهولاً ، بكت نساء كثيرات ، ولم تبدر أيّة ظاهرة عدائيّة في أيّ مكان .

مضت بضع ساعات . ثمّ ارتفع صوت ثالث هو صوت «تشرتشل» . لقد أيقظوه من نومه في الرابعة صباحاً لكي يخبروه بالزحف على «روسيا» . فاستشاط غيظاً وصاح : «لقد قلت إنّني لا أريد أن أوقَظ إلاّ في حال الزحف على «انكلترا» ، وعاد إلى النوم . ثمّ أعدّ في سريره الخطاب الذي سيلقيه في التاسعة مساء . وفي الواقع كان «تشرتشل» آنذاك في أفضل حالاته : فقد بلغت حملة التشهير والتجريح التي شنّها على «هتلر» ، فضلاً عن وصف «سلسلة الفظائع النازيّة» ، ذروة البلاغة المتشفّية : ذكّر بأنّه باقٍ على عدائه للشيوعيّة ، وأنّه لا يتنكّر لشيء ممّا قاله أو كتبه بهذا الصّدد ، ولكنّه أضاف أنّ كلّ شيء يمّحي الساعة ويزول أمام مشهد الشعب الروسيّ يزحف عليه جيش الجراد الهائل التابع «لهتلر» ، رجلِ الأزقّة السفّاح . ولسوف تهبّ «انكلترا» لمساعدة «روسيا» بكلّ ما لديها من قوى ، ولسوف تسعف بذلك نفسها ؛ وأردف يقول : «يريد «هتلر» تدمير «روسيا» ليتسنّى له إخضاع هذه الجزيرة ، فإمّا أن يقهرها وإمّا أن يدفع غالياً ثمن ما جنت يداه . وما زحفه إلى «روسيا» إلاّ مقدّمة لزحفه إلى «بريطانيا العظمى» ...»

كان ذلك هو اعتقاد العالم بأسره ؛ فقد سلّم «ستمبسون» ، وزير الحربيّة ، الرئيس «روزفلت» مذكّرةً يقدّر فيها أنّ إخضاع «روسيا» سيشغل «ألمانيا» «طوال شهر على الأقلّ ، وثلاثة أشهر على الأكثر» ؛ وهو يرى أنّ هذه هي فرصة ثمينة غير منتظرة يجب أن يُفاد منها لتنشيط العمل الأميركيّ في الأطلسيّ . ولقد أثارت مهاجمة «روسيا» في عامّة الناس شعوراً هو أقرب إلى السخرية والشماتة منه إلى الاستنكار : كلّ ما هنالك أنّ وغدين سافلين يتقاتلان ، وأنّ على «ستالين» أن يكفّر عن

الزحف في «أوكرانيا» في حمارّة القيظ . ولكنّ «هتلر» لم يزوّد رجاله بثياب خفيفة .

الخسة التي اقترفها إذ أقدم على التحالف مع «هتلر» !

أمّا الصوت الرابع الذي ارتفع على موجات الأثير فكان صوت «روزفلت» الذي حمل على العدوان الهتلريّ بسلسلة من النعوت المحقِّرة الشائنة مثل « غدّار ، شائن ، مُخاتل ، حقود ، مجرم ، وحشيّ ، يائس » ؛ ولكنّ الرئيس كان يرمي الشيوعيّة والنازيّة بحجر واحد . لم يقف من الناس فوراً إلى جانب «روسيا» غير الشيوعيّين ؛ ففي «هارلم» وصل المشتركون إلى اجتماع «المناضلين من أجل الحرّية» وسط سلسلة من الحراب فاضحين مؤيّدي فكرة التدخّل متّهمينهم بأنّهم لعبة الاستعمار البريطانيّ وخدّام «وول ستريت» ؛ ولدى خروجهم من الاجتماع كانت الحراب قد اختفت : ذاك أنّ خبر الاعتداء على «روسيا» كان قد انتشر ، فإذا بالحزب الشيوعيّ في «أميركا» ، شأنه في أيّ مكان ، ينتقل بطرفة عين من موقف التزهيد بالحرب إلى أقصى وأعنف حدود الحثّ عليها .

وأخيراً تحرّكت «روما» . كانت الساعة الثالثة صباحاً حين حمل الكونت «دي بسمارك» إلى «الدوتشي» رسالة طويلة من «هتلر» يعلمه فيها بعزمه على اجتياح «روسيا» ، وذاك قبل موعد التنفيذ بربع ساعة ! وقبل «موسوليني» الغريب الأطوار هذا الأمر الواقع الجديد بلا احتجاج ، وأصدر أمره بإعلان الحرب على «روسيا» في الحال ، كما أمر بتقديم فيلق إيطاليّ إلى الجيش الألمانيّ ؛ فاستدعى «تشيانو» السفير السوفياتيّ الذي كان يقضي يومه على الشاطىء وبرفقته موظفو السفارة . ولمّا وصل صافح الوزير ، ثمّ انصرف حاملاً وثيقة إعلان الحرب وكأنّه قد تسلّم دعوة إلى غداء ! وهكذا اتّسعت رقعة الحرب ، وقُيّض للأقدار أن تجري مجراها .

نحن لا نعرف حتّى اليوم ، من مصدر روسيّ ثقة ، وضع القوّات السوفياتيّة الصحيح يوم بدأ العدوان . ونحن لا نعرف عامّة سوى القليل القليل استناداً إلى المصادر الروسيّة ؛ نُشرت في «موسكو» مؤلّفات ضخمة ، أوّلها الأجزاء الستّة من «تاريخ الحرب الوطنيّة الكبرى التي خاضها الاتّحاد السوفياتيّ» ، نشرها المعهد الماركسيّ اللينينيّ ، ثمّ «تاريخ الحرب العالميّة الثانية» ، كتبه جماعة من الضبّاط ونشره أحدهم الليوتنان جنرال «س. بلاتونوف» ؛ وهناك أخيراً كتاب «ب. س. تيبولشوفسكي» وعنوانه «تاريخ الحرب الوطنيّة الكبرى» ؛ إلاّ أنّ هذه المؤلّفات لا تتضمّن دروساً ستراتيجيّة تكتيكيّة تقنيّة إلاّ نادراً . فحجاب السرّية ما يزال مسدلاً حول حرب مرّ عليها ربع قرن . ولكنّ المؤلّفات السوفياتيّة كلّها تلتزم بحميّة شديدة مواضيع دعائيّة تصف من جهة ميل «الاتّحاد السوفياتيّ» إلى السلام، وبطولةَ شعبه، ودور الحزب الشيوعيّ الرئيس ، ومن جهة أخرى فظائع المعتدين الحيوانيّة ، وخبث الدول الغربيّة التي ما انفكّت تعمل مع «هتلر» لإتمام القضاء على الدولة البروليتاريّة .

وهكذا يكتنف الشهورَ الستّة الأولى خصوصاً ظلامٌ يكاد يكون مُطبقاً . يوم كان «ستالين» على قيد الحياة كان المعتقَد السائد أنّه قد نظّم بنفسه مناورة عبقريّة ، وأنّ كلّ شيء قد جرى على ما توقّعه له . إلاّ أنّ الحقيقة قد تبدّلت ؛ «فتيبولشوفسكي» مثلاً يعدّد بلا رحمة أخطاء الدكتاتور الذي كان قد اعتبره معصوماً عن الخطإ حتّى عام ١٩٥٤ : فهناك أخطاء تقدير في ما يتعلّق بنيّات «هتلر» ، وأخطاء استعداد انتهت إلى إنعاش الصناعة الحربيّة في وقت متأخّر جدّاً ، وأخطاءتنظيم نتج عنها إلغاء فيلق المصفّحات سنة ١٩٣٧ ، ثمّ أخطاء توزيع سهّلت أعمال الغزو . وهو يكذّب الادّعاء القائل بأنّ ثمّة خطّة قد وُضعت للتراجع المنتظم شبيهة بخطّة ١٨١٢ ، ويقرّ بأنّ أجزاء هامّة من أرض الوطن لم تُفقد إلاّ بسبب استحالة الدفاع عنها . ومع هذا فإنّ السرد المبيّن لحيثيّات العمليّات ، والعرض الموضوعيّ للهزائم الفادحة التي مُنيت بها روسيا في بدء الحملة ، لا يزالان شبه مفقودين .

عُبّىء الجيش السوفياتيّ في ٢٢ حزيران بمعدّل ٨٠ بالمئة ، إلاّ أنّه حُشد في نطاق أضيق بكثير ، ولم يكن لتوزيعه أيّ طابع هجوميّ؛ فقد قُسّم إلى خمس جبهات تمثّل مجموعات من جيوش : الجبهة الشماليّة بقيادة الجنرال «م.م. بوبوف» وتضمّ الجيشين ١٤ و ٧ ؛ والجبهة الشماليّة الغربيّة بقيادة الجنرال «ف. ا. كوزنيزوف» وتشمل الجيوش ٨ و ١١ و ٢٧ ؛ والجبهة الغربيّة بقيادة الجنرال «د.ج. بافلوف» وتضمّ الجيوش ٣ و ١٠ و ٤ ؛ والجبهة الجنوبيّة الغربيّة بقيادة الجنرال «ه. ب. كيربونوس» وتضمّ الجيوش ٥ و ٦ و ١٢ و ٢٦ ؛ وأخيراً الجبهة الجنوبيّة بقيادة الجنرال «ا. و. تيلونجيف» وتشمل الجيش ٩ وفيلق الخيّالة ٢ والفيلق الآليّ ٢ . هذا وقد بقيت وحدات كثيرة في معسكرات بعيدة عن الحدود تحيا حياة أيّام السلم العاديّة . وحشد الروس معظم قوّاتهم في «أوكرانيا» تحسّباً للمطامع الألمانيّة ، فجعلوا فيها ما يقارب نصف الفرق وما يزيد على نصف المصفّحات . وهكذا اشتبكت مجموعة جيوش الجنوب الألمانيّة بقيادة «فون روندشتاد» بخصم يفوقها عدداً وعتاداً .

ولكنّ المفاجأة التي حقّقها كانت تامّة مدهشة ؛ فقد حضن الجيشان ٦ و ١٧ مجموعة المصفّحات التي يقودها «فون كلايست» وزحفا

القوّات الألمانيّة تعبر نهر «البوغ» في ٢٢ حزيران ١٩٤١ .





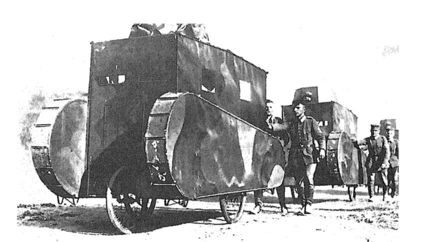


ـه يومذاك من انتشار واسع وحماسة جنونية



استعمل الجيش الألمانيّ في مناوراته ، تقيّداً منه بروح معاهدة « فرساي » ، مصفّحات من الورق المقوّى (الكرتون) تحملها عجلات درّاجات . ولكنّ هذه المظاهر لم تمنعه من القيام بمناورات من نوع آخر على الأرض السوفياتيّة بدعوة وجّهها إليه الجيش الأحمر ، استعمل فيها مصفّحات حقيقيّة سوفياتيّة الصنع .

تحت : خلال مناورات جرت في « ألمانيا » ، يبدو من اليسار إلى اليمين : الجنرال « بوش » ، والليوتنان « سايفرت » ، والجنرال « فون سيكت » .



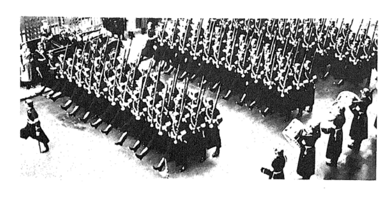




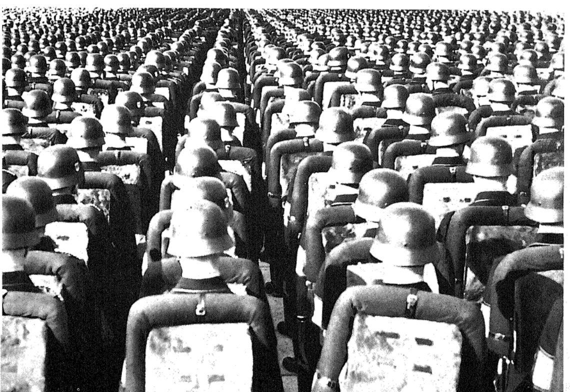


افتُتح المؤتمر التاسع للحزب القوميّ الاشتراكيّ سنة ١٩٣٨ في « نورنبرغ » في جوّ محموم . فقد كان « هتلر » على أتمّ الاستعداد لغزو « تشيكوسلوفاكيا »، وقد حُملت إليه من « هوفبورغ » شعارات الامبراطوريّة الرومانيّة الجرمانيّة المقدّسة : التاج ، والصولجان ، والسيف ، والكرة الأرضيّة ، والأحذية القرمزيّة . ولقد صرّح « هتلر » قائلا : « نحن « ألمانيا » الأخيرة . وحين تؤول حركتنا إلى زوال بعد قرون لن يبقى « لألمانيا » وجود ، إذ لا حياة ولا بقاء لها إلاّ بنا ، مع ما يحيطنا به العالم من بغض » .





فرق الصاعقة في عرض عسكريّ يشهده « هتلر » في « برلين » . ولا يوخذنّ المرء بهذه المظاهر العسكريّة الخادعة ، فإنّ أعضاء فرق الصاعقة لم يكونوا في الواقع جنوداً بكلّ معنى الكلمة ، بل كانوا رجال شرطة دُرّبوا في « ألمانيا » نفسها على أعمال وأساليب ووسائل نشرت الذعر في « أوروبا » طوال أربع سنوات : فمن تعذيب ، إلى تقتيل ، إلى تهم باطلة ، إلى نفي في معسكرات الموت . فكأنّ العقيدة التي ضمّها كتاب « هتلر » « كفاحي » وجدت في فرق الصاعقة نتائجها الحتميّة . هذا ، ومعسكرات « رافنشبروك » و « داشاو » و « بوشنفالد » تكتظّ باليهود وبمعارضي النظام القائم .





"همْلر"، قائد فرَق الصّاعقة و"روهم" الذي أمَر "هتلر" باغتياله وألفاً مِن أتباعِهِ



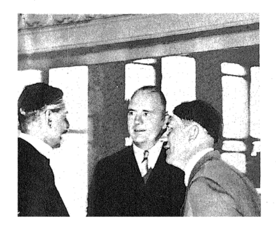
حرص وزير الدفاع الجنرال « فون شلايكر » على مصافحة الملحقين العسكريّين الأجانب خلال الزيارة الرسميّة التي قام بها سنة ١٩٣٢ إلى ساحة المناورات العسكريّة الكبرى التي أجراها الجيش الألمانيّ . ويبدو في الصورة في حديث ودّيّ مع الضباط السوفيات الستّة الذين مثّلوا بلادهم في المناورات .



« هتلر » في « النمسا » بعد ضمّها إلى « ألمانيا » . ويُرى الضبّاط النمساويّون في زيّهم الألمانيّ الجديد .

مونيخ

جاء « دالادييه » (إلى اليسار) و « تشامبرلين » (إلى اليمين) يطلبان إلى « الفوهرر » أن يرفع يده عن بلاد « السوديت » ، أو ، على الأقلّ ، أن يحترم المظاهر القانونيّة . ولقد قال « هتلر » عنهما فيما بعد : « يا لهما من دودتين ! » (ويبدو في الوسط ، في الصورتين ، الترجمان «شميدت») .





تحت جنح الظلام على ضفاف «البوغ» و «السان» الجرداء . فإذا بهما ينقضّان على الروس وهم نيام . ويحتلاّن الجسور وهي سليمة . ويعبران النهرين من غير أن يُفقد رجل واحد . إلاّ أنّ ردّة الفعل الروسيّة أتت سريعة مذهلة بالنسبة لقوّات قد اعتادت أن تحرز على العدوّ تفوّقاً لا مردّ له ؛ فمنذ مساء ٢٢ كان على فيلقي «رايخناو» و «شتولبناغل» أن يواجها هجمات معاكسة عنيفة ؛ ومنذ ٢٣ اكتشف رجال الدبّابات في مجموعة «فون كلايست» دبّابةً من طراز جديد هي ت — ٣٤ رائعة الشكل ، قويّةَ التسليح ، لا يؤثّر فيها المدفعُ الألمانيّ المضادّ للدبّابات من عيار ٣٧ مم. إلاّ في الزناجير وفي شبكة المحرّك . كانت المناورة الألمانيّة تهدف إلى اختراق الجبهة والسير قُدُماً إلى «كييف» بعد تركيز فيالق المجموعات المصفّحة الثلاثة ٣ و ١٤ و ٤٨ على محور قوامُه طريق «جيتومير» ؛ بيد أنّ المقاومة الروسيّة العنيدة حالت دون فتح ثغرة كهذه . فإذا بالنزاع يتّخذ طابع حرب الجبهات .

كان ميدان القتال عبارة عن سهل يموج ببساط كثيف من القمح والذرة ودوّار الشمس . لم تكن مدن «روفنو» و «دوبنو» و «تارنوبول» و «لوك» و «كوفيل» الصغيرة ، البولونيّة بالأمس والمسلّمة إلى «روسيا» بموجب معاهدة «موسكو» ، غير قرى تعجّ فيها القذارة . لم تكن القرى سوى مزارع من خشب تُحدق بها أسوار من دوّار الشمس ؛ أمّا القرويّون فكانوا يستقبلون الألمان استقبال المحرّرين ، ويستأذنونهم في إعادة فتح الكنائس وإقامة الشعائر الدينيّة. بيد أنّ البلاد كانت بائسة ، وكان القيظ لافحاً . لم تكن للجنود ثياب خفيفة ، فإذا بهم ينضحون عرقاً في ثيابهم الخشنة ، ويترنّحون ويهوون تحت لفح الشمس . ويضطرم الجوّ بعد ظهر كلّ يوم ، وتهبّ ريح عاصفة فتثير زوابع من الغبار ، ثمّ تنفجر العاصفة بعنف مذهل فتغرق السهل في مدى ثوان ، ويبدأ إذ ذاك الصراع مع الوحول . كانت العربات عامّة ، وسيّاراتٌ التموين والشاحنات الصغيرة التي صودرت في «فرنسا» خاصّة ، مصنوعةً لتسير على طرقات صالحة ، أو على الأقلّ في حقول معقولة ؛ فلا عجب إذاً أن تقعد بها الوحشة والغربة هنا . هذا ، وما برح المهاجمون على عتبة «روسيا» !

تقدّم الألمان بصعوبة فائقة ؛ فدفع الجيش السادس العدوّ بمحاذاة مستنقعات «البريبي» ، وشقّت المجموعة المصفّحة طريقها إلى «ستير» . بيد أنّ «لمبرغ» التي لم يكن يفصل بينها وبين مواقع الانطلاق غير ٥٠ كلم ، لم تسقط إلاّ في ٣٠ ، فوقع فيها الجيش ١٧ على بقايا مجزرة مريعة: بضع مئات من الوطنيّين الأوكرانيّين أعدمهم الروس رمياً بالرصاص لمنعهم من التعاون مع الألمان ، فإذا بالحادثة توفّر فرصة رائعة «لهتلر» المتحرّق شوقاً إلى أن يثبت بالدليل أنّ الجهاد ضدّ البولشفيّة لا يمكن أن يقوم على أساس من دستور الفروسيّة والشرف؛ فطار الدكتور «غوبلز» الرقيق القلب إلى «لمبرغ» ، ثمّ أذاع عن المجزرة وصفاً غاية في الإثارة : «يا للهول ! ...يا للفظاعة ! ... أكاد أفقد وعيي! » ووجد الألمان فضلاً عن ذلك أولى جثث جنودهم وقد شُوّهت ونُكّل بها . لقد بدأت حرب «روسيا» .

إتّسعت رقعة القتال في ٢ تمّوز ، فأغار الجيش الألمانيّ ١١ بقيادة «شوبرت» ، يرافقه الجيشان الرومانيّان الصغيران بقيادة «أنطونيكو» ، على جنوب «الكاربات» ، فعبرت القوّات نهر «بروث» وفتحت من جديد «بيسرابيا» . وهكذا انتزع «روندشتاد» من الروس ما كان «ريبنتروب» قد منحهم إيّاه منذ عشرين شهراً ، إلاّ أنّه لم يحطّم جبهتهم .

كانت كثافة القوّات السوفياتيّة التي تعترض طريق «لينينغراد» ، في الطرف الآخر من الجبهة ، أخفّ ممّا كانت عليه في الجنوب بثلاث مرّات ؛ شنّ «ليب» هجومه متّبعاً خطّة «روندشتاد» ، فجعل جيش «كوخلر» الـ ١٨ في الشمال ، وجيش «بوش» الـ ١٦ في الجنوب ، وبينهما مجموعة «هوبنر» المصفّحة ٤ . نَفَذَ الهجوم هنا أكثر ممّا نفذ في «أوكرانيا» ، وكان الفيلق المصفّح ٥٦ بقيادة «مانشتاين» ، ذاك الذي خطرت له فكرة ثغرة «سيدان» في الوقت الذي خطرت فيه «لهتلر» ، فما كان منه إلاّ أن اندفع وسط صفوف العدوّ ليبلغ وادي «الدوبيسا» الضيّق منذ ٢٢ ، فيسيطر على الجسر ويعبره على حين غفلة ، ثمّ يتابع طريقه نحو «دونابورغ» قاطعاً مسافة ٢٠٠ كلم في أربعة أيّام ، ويحتلّ جسور «الدونا» الكبيرة قبل أن يفكّر الروس بنسفها . وهكذا لم تكن الحرب الصاعقة مجرّد كلام وعبث !

بيد أنّ الضعف الأساسيّ في الجيش الألمانيّ قد أخذ يظهر ، رغم المأثرة التي حقّقها «مانشتاين» ؛ فالفوج المصفّح ٥٦ لا يتضمّن إلاّ مجموعة واحدة من الدبّابات ، هي الفرقة ٨ المؤلّفة من ثلاث كتائب للدبّابات فحسب . كانت فرقته الآليّة ترافق الدبّابات ، إلاّ أنّ الفرقة الثالثة من الفيلق ، وهي الـ ٢٩٠ ، فرقة كبيرة من المشاة العاديّة ،

في اليوم الأوّل من الهجوم إلى الشرق . ويبدو المشاة الألمان يقطعون المستنقعات وراء «البوغ» .



منذ ٢٢ حزيران مساء كان على جيوش «رايخناو» و «شتولبناغل» أن تواجه هجمات معاكسة ضارية .





سكّان «سافوروف» في «أوكرانيا» يستقبلون الألمان استقبال المحرّرين .

فتأخّرت عن مجاراة الرّكب . أمّا الفيلق المصفّح الآخر ٤١ فكان يتقدّم باتّجاه «الدونا» في طريق «جاكوبشتاد» ، ولكنّ قائده «راينهارت» لم يعطه الاندفاع ذاته ، إمّا لنقص في الجرأة وأمّا لقلّة في الحظّ ؛ فظلّ «مانشتاين» في طليعة المجموعة ، وقد سبقها مسافة تزيد على ١٠٠ كلم ، يعاني طوال ثلاثة أيّام معركة دفاعيّة ضارية مجدية للاحتفاظ «بدونابورغ» .

في ٢٩ ذُلّلت الأزمة بوصول مجموعة الجيوش كلّها إلى «الدونا» ، فطهّر الجيش ١٦ منطقة «كوفنو» ، واحتلّ الجيش ١٨ «ريغا» ؛ واستأنف الزحف سرعته بعد عبور النهر ، حتّى أدرك ، في ١٠ تموز ، بحيرة «بيبوس» حيث كانت تنتهي حدود «جمهوريّة إستونيا» المستقلّة منذ سنتين . ويكون الألمان بذلك قد اجتازوا ثلثي الطريق المؤدّية إلى «لينينغراد» في ١٨ يوماً . دُمّر أو عُطّل ما يقارب العشرين فرقة من فرق الأعداء ، على أنّه لم ينجح تطويقٌ واحدٌ ذو شأن ، بل لقد وقفت خلف تحصينات الحدود القديمة قواتٌ روسيّة ضخمة تحول دون سقوط «لينينغراد» دفعة واحدة في يد العدوّ .

كان زحف «روندشتاد» و «ليب» وتوغّلهما البعيد عمليّتين ثانويّتين ؛ أمّا القوّات التي وقفت في وجه «بوك» والمؤلّفة من ٣٨ فرقة مشاة و ٨ فرق خيّالة و ١٤ لواء آليّاً متحرّكاً ، فهي أضخم من القوّات التي تحمي بلاد «البلطيق» ، ولكنّها أقلّ من التي تدافع عن «أوكرانيا» . فكانت تلك الناحية هي الناحية الوحيدة التي يغير فيها الألمان إغارة القويّ على الضعيف ، تساندهم خمسة فيالق مصفّحة من أصل عشرة .

بدأ الهجوم على «البوغ» متّسماً بطابع التسرّع . فبعد عبور قطار الحبوب على جسر «بريست – ليتوفسك» عاد كلّ شيء إلى الهدوء ؛ وفي تمام الثالثة والربع ، حين أطلقت البطاريّات الألمانيّة نارها ، اندفعت السريّة ٣ التابعة لفوج المشاة ١٣٥ إلى الجسر . لم يُنسف الجسر ، بل انطلقت من مرقب الحارس الروسيّ طلقة بندقيّة واحدة لم تصب أحداً ؛ وهكذا ، في ظرف دقيقة واحدة ، عبر الجيش الألمانيّ أحد أعرض الأنهار الأوروبيّة .

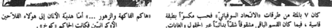
ولم يكن عبور «البوغ» شماليّ «بريست» بأقلّ نجاحاً وروعة . كانت ٨٠ دبّابة غوّاصة ، من التي هُيّئت لتنطلق من «المانش» إلى الشواطئ الانكليزيّة ، قد أُعدّت وسُلّمت لفرقة الدبّابات ١٨ ، فغطست متوارية تحت الماء ، ثمّ عادت فظهرت على الضفّة الشرقيّة رامية بصورة آليّة أغمادها العازلة ، وانتشرت في السهل ؛ وهبّ بناة الجسور على أثرها إلى أعمالهم ، وعبر المشاة النهر في قوارب من كلّ نوع .

بقيت هنالك عظْمة واحدة هي قلعة «بريست» القديمة ؛ إنّها قلعة واسعة تضمّ بين حصونها البساتين والمراعي فتشمل ثلاثاً من جزر «البوغ» . لم تُفلح الغارة المفاجئة التي شنّها فوج المشاة الـ ١٣٥ في انتزاع الجزيرة الوسطى حيث كان الروس ينظّمون مقاومتهم ؛ ولسوف يصمدون حتّى ٣٠ حزيران رغم قصف المدافع الثقيلة وطائرات «شتوكا» ، بيد أنّ الشعب الروسيّ لم يطّلع على تلك الحلقة المجيدة إلاّ بعد خمس عشرة سنة : فقد منع «ستالين» إذاعتها ، لأنّ من بقي من رجال الحامية قد استسلموا بعد نفاد المؤن والذخائر ، ولم يغادروا معسكرات الأسر في «الرايخ» إلاّ لينتقلوا إلى معسكرات النفي في «سيبيريا» !

على حدود «ليتوانيا» وقف هذا الجنديّ الألمانيّ يحاول تلمّس طريقه أمام لوحة اتّجاهات كُتب عليها : «غرودنو» ١٠٣ كلم ، «باستوني» ٢٠ كلم .

«غرودنو» ، وقد احتلّها الألمان في ٢٣ حزيران ١٩٤١.





كان ٧ بالمئة من طرقات «الاتّحاد السوفياتيّ» فحسب مكسوّاً بطبقة قاسية ، فيما كان القسم الباقي مشقوقاً شقّاً بدائيّاً عبر الحقول والغابات.

«هاكم الفاكهة والزهور ...» أمّا هديّة الألمان إلى هؤلاء الفلاّحين الأوكرانيّين فكانت الحاكم «كوخ» .

عبرت المجموعة المصفّحة الجبّارة التابعة «لغوديريان» نهري «البوغ» و «الليا» عن جانبي نواة المقاومة تلك . وكانت تتألّف من ١٥ فرقة من ضمنها ٥ فرق مصفّحة و ٩٣٠ دبّابة ؛ فإلى الشمال فوج الدبّابات ٤٧ بقيادة الجنرال «ليملسن» ؛ وفي الوسط الفوج ١٢ بإمرة الجنرال «شروث» ؛ وفي الجنوب فوج الدبّابات ٢٤ بإمرة الجنرال «غير فون شويبنبورغ» ؛ وفي الاحتياط فيلق الدبّابات ٤٦ يقوده الجنرال «فيتنغهوف» . وهكذا انطلق السيل الفولاذيّ البالغ ١٠٠ كلم عرضاً هادماً كلّ شيء في طريقه ، تغلّفه سحابة ضخمة من الغبار ، وهو كتلة من الرجال والآليّات تندفع باتّجاه «سلونيم» و «بارانوفيتش» . وزحف الجيش الرابع بفيالقه ٤ و ٧ و ١٣ و ٤٣ وراء هذا الخضمّ ، فيما راح «غوديريان» يتميّز حنقاً لأنّه قد أُخضع لرئيسه الفيلد مارشال «فون كلوغي» .

أمّا الكتلة الثانية السريعة التابعة لمجموعة جيوش الوسط ، أي المجموعة المصفّحة الثالثة الخاضعة لسلطة الكولونيل جنرال «هوث» ، فقد احتشدت على تخوم «بروسيا» الشرقيّة و «ليتوانيا» . وهنا أيضاً أُخضع قائد الدبّابات «هوث» لقائد المشاة «شتراوس» ، قائد الجيش ٩ .

ولم يكن «هوث» أقلّ من زميله «غوديريان» حنقاً لهذا الوضع . ضمّ «هوث» تحت إمرته فيلق الدبّابات ٣٩ بقيادة الجنرال «رودلف شميدت» ، وفيلق الدبّابات ٥٧ بقيادة الجنرال «كونترن» ، فضلاً عن الفيلقين ٥ و ٦ ، أي ما يعادل ٢٥٠،٠٠٠ رجل و ٨٤٠ دبّابة . كانت نقطة انطلاقها على بعد ٥٠ كلم من نهر «نييمن» ، ولكن ، نظراً لأنّ المفاجأة كانت تامّة ، اتّخذ الكرّ سرعة مكّنت من احتلال جسر «مركين» وجسريّ «دوليتا» سليمة بعد ظهر ٢٢ ؛ بيد ان المصاعب بدأت في اليوم التالي ، في رمال «بوزكا رودنيكا» المتحرّكة المخيفة ؛ وقد أكّد «هوث» أنّها لم تعرف قطّ سيّارة ، فهي تحطّم السيّارات الفرنسيّة كلّها بلا رحمة . إلاّ أنّ التقدّم احتفظ بسرعته ، فإذا بالفاتحين يبلغون في ٢٥ حزيران «مالوديتشنو» حيث كان «نابوليون» العائد من «روسيا»

في «أوكرانيا» ، في الطريق إلى «لفوف» التي سقطت في ٣٠ حزيران .
«ستنهار أكداس البطاطا هذه بعد ثلاثة أسابيع من هجومنا» .
(من كلام «جودل» إلى «هتلر»)



٣ تموز ١٩٤١ . قافلة تحميها المدافع المضادّة للطائرات تتّجه إلى «ليبل» بعد سقوط «مينسك» في «بيولوروسيا» حيث وقع في يد الجنرال «فون بوك» ٣٠٠،٠٠٠ أسير .

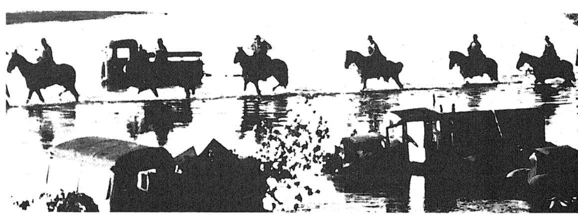
قد تكرّم فأبلغ شعوبه، في النشرة ذات الرقم ٢٩؛ بأنّ صحّته على ما يرام ، وبأنّه قد فقد ٦٠٠.٠٠٠ رجل !

وفي اليوم التالي تسلّلت فرقة الدبّابات ٢٠ بين تحصينات خطّ «ستالين» وبلغت «مينسك» عاصمة «روسيا البيضاء» السوفياتيّة . وفي ناحية الشرق قطعت فرقة الدبّابات ٧ طريق «موسكو» في «بوريزوف» على نهر «بيريتزينا» ، وبذلك توغّل «هوث» مسافة ٢٠٠ كلم وراء الجيوش الروسيّة ٣ و٤ و١٠ المتمركزة على ضفّتي «النييمن» . ووصل «غوديريان» قادماً من «بارانوفيتش» ليمدّ يد المساعدة لزميله . بعد ما عهد إلى الجيشين ٤ و٩ بمهمّة إغلاق الجيب الذي فصّلته المصفّحات .

يشكّل النهران الكبيران «دونا» في الشمال و «دنيبير» في الجنوب في امتدادهما من «البلطيق» إلى «البحر الأسود» . خطّاً مائيّاً لا يقطع اتّصاله غيرُ برزخ يبلغ ٦٠ كلم عرضاً بين «فيتبسك» و «أورشا» ؛ فاعتقد «هوث» أنّ أوّل أهداف الحملة هو فتح باب «روسيا» هذا الكبير ؛ وودّ بعد ذلك أن يحاصر جيوش «روسيا» الشماليّة بين مجموعة مصفّحاته ومجموعة «هوبنر» ، قبل أن يرتدّ نحو «موسكو» ليلتقي «بغوديريان» القادم من «سمولنسك» ؛ إلاّ أنّ هذه التحرّكات كانت أرفع من أن تدركها مخيّلة جنرالات جيش المشاة الذين وُضع جنرالات الدبّابات تحت إمرتهم ؛ فطلب «بوك» من «هوث» و «غوديريان» ألاّ يبالغا كثيراً في التقدّم على جيش المشاة ، وأن يسهما في المواقع التي يواجهها ؛ فأرسل «هوث» إلى «أنجربورغ» ضابطاً يحاول التأثير على قيادة جيش البرّ . بيد أنّ نظريّة «براوشيتش» و «هالدر» كانت أضيق من نظريّة «بوك» ، فأصرّا على أن تكتفي المجموعات المصفّحة بالقيام بدور الحلقة الخارجيّة أثناء تصفية الجيوش السوفياتيّة المطوّقة .

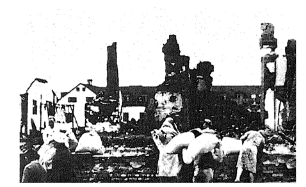
إنتهت المهمّة في أوّل تمّوز حول «بارانوفيتش» و «ليدا» و «نوفوغروديك» ، ثمّ بعد أيّام جنوبيّ «مينسك» . ولم تكن المقاومة الروسيّة واحدة : فبينا بادر بعض الوحدات إلى الاستسلام فوفّر على الألمان أحياناً مشقّة قتل المفوّضين السياسيّين ، تفرّقت وحدات أخرى في الغابات ، فيما عمد بعضها الآخر إلى مقاومة شديدة عنيفة .

أعلن بلاغ قيادة الجيش العليا في ١١ تموز انتهاء المعركة المزدوجة



عبور نهر «بيريتزينا» . يا لها من ذكرى ! أمّا اليوم فلا ثلج ولا جثث متجمّدة ، بل شاحنات هجرها الروس في تراجعهم .

٢ تمّوز ١٩٤١ . عودة بعض المدنيّين إلى «مينسك» بعدما غادروها إبّان المعركة .



وأسر ٣٢٨،٨٩٨ رجلاً ، و ١،٨٠٩ قطع مدفعيّة ، و ٣،٣٣٢ جهازاً مصفّحاً . إنّه لنصر مُبين يعوّض عن الخيبة التي سبّبها بطء التقدّم في «أوكرانيا» . وقُدّر عدد الفرق السوفياتيّة الموزّعة على مجمل الجبهة في ٢٢ حزيران بـ ١٦٤ فرقة أُبيد منها ٨٩ فرقة إبادة كلّيّة أو جزئيّة . وسجّل «هالدر» في يوميّاته أنّ الهدف الستراتيجيّ الأوّل الذي سعت إليه مرحلة العمليّات الأولى ، وهو إبادة القوّات السوفياتيّة غربيّ «الدونا» و «الدنيبير» ، قد تحقّق ؛ ولكنّه أردف يقول : «إنّ اتّساع مسرح العمليّات ، وعناد المقاومة ، سيفرضان علينا أسابيع كثيرة من الجهاد ...»

كسوف «ستالين» ثمّ عودته إلى الظهور

لقد بدا عقاب «جوزف ستالين» في وضع كهذا وكأنّه أمر طبيعيّ ؛ فكان على هذا الرجل الذي تحالف مع «هتلر» ، وأتاح المجال لأن يفاجيء العدوّ جيشَه وبلده ، أن يدفع من سلطته ثمناً لعجزه . وراحت الصحف المحايدة تعلن أنّه قد أُعدم رمياً بالرصاص ، أو أنّه التجأ إلى «تركيا» أو «إيران» أو «الصين» ، يدفعها إلى هذه التقديرات خيال يسهب في التخمين والاحتمال ؛ فعشرة أيّام من الكسوف ومن الاعتصام بالصمت كانت كفيلة بتوليد هذه الشائعات . ولكنّ هذه الأيّام العشرة من عمر الدكتاتور يكتنفها الغموض حتّى يومنا هذا . أمّا الأسطورة التي تقول إنّ «ستالين» قد أنقذ وطن العمّال بتسلّمه قيادة الحرب منذ اليوم الأوّل ، فقد شقّ «نيكيتا خروشتشيف» حجابها خلال المؤتمر العشرين للحزب الشيوعيّ السوفياتيّ المنعقد في ٢٥ شباط ١٩٥٦ ؛ فبدل أن يُعدّ «ستالين» العدّة لكلّ احتمال ، أهمل أشدّ الإنذارات دقّة ؛ وبدل أن يحضّر كلّ شيء بإتقان ، ترك الجيش السوفياتيّ يخوض غمار الحرب بعدّة ناقصة وباطلة ؛ وبدل أن يحرّك كلّ شيء ، وأن يُلبس الوضع مظهراً حيويّاً ، ظنّ أن الأمر قد قُضي فأركن إلى اليأس ؛ وهو ، على ذمّة «خروشتشيف» ، لم يعد إلى الإمساك بزمام الحكومة والجيش إلاّ « بعد ما زاره بعض أعضاء المكتب السياسيّ » . ولكنّ «خروشتشيف» لم يستطع النفاذ بهذه البراهين الغامضة . فنحن ما نزال نجهل حتّى اليوم ما كانت عليه أيّام «ستالين» ، وما كان عليه الحكم البولشفيّ في بدء العدوان .

وانقطع الصمت الستالينيّ في ٣ تموز ؛ ففي الساعة ٦،٣٠ صباحاً كانت إذاعة «موسكو» تباشر تلاوة أولى نشراتها الإخباريّة ، وفجأة حمل الأثير ذلك الصوت الجهوريّ المتميّز باللهجة الجيورجيّة ؛ وبدأ «ستالين» بتعليل تحالفه مع «هتلر» ، مؤكّداً أنّ هذا التحالف أعطى «الاتّحاد السوفياتيّ» فسحة ضروريّة من الراحة ، ثمّ وجّه تعليماته بشأن القتال ضدّ الغزاة : كان على «روسيا» أن تحرق أرضها مرّة أخرى ، وأن تواجه تفوّق الغرب التقنيّ بنيران الثورة الشعبيّة ؛ قال : «يجب ألاّ تُترك للعدوّ قاطرة واحدة ولا شاحنة واحدة ولا كيلوغرام واحد من القمح ولا ليتر واحد من الوقود . وفي المناطق المحتلّة يجب على الأنصار والخيّالة أن ينظّموا صفوفهم للقيام بحرب إرهاق ، ولنسف الجسور والطرقات ، ولإحراق المخازن والغابات . يجب أن يشدّد الخناق على العدوّ إلى أن يباد ...» وهكذا قُمع الذعر المحتمَل ، وأُعيدت السيطرة على القيادة التي كانت قد ارتكبت هفوات عديدة ، فعوقب عدد من القوّاد عقاباً صارماً على تقاعسهم كما كانت الحال بالنسبة «لبافلوف» ، فمنهم من أُعدم ، ومنهم من أقدم على الانتحار أثناء مأموريّته . وقام قوّاد سوفياتيّون ثلاثة ، وهم من دعائم الحكم ، بأعباء القيادة في الشمال والوسط والجنوب ، وكلّ منهم برتبة مارشال ، متصدّين للمارشالات الألمان الثلاثة المنفّذين ، فإذا «فوروشيلوف» ضدّ «ليب» ، و«تيموشنكو» ضدّ «بوك» ، و «بودييني» ضدّ «روندشتاد» .

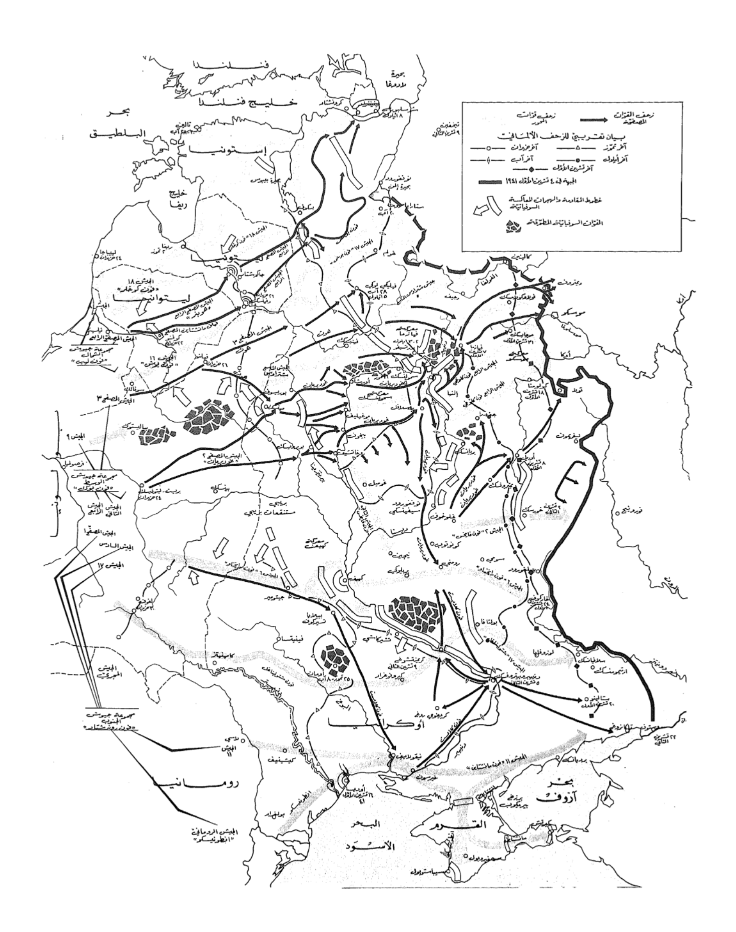
كان أوّل هؤلاء القوّاد الثلاثة في السابق عاملاً من عمّال الصناعة الثقيلة ، وكانت مأثرته الحربيّة الوحيدة هي قمع عصيان بحّارة «كورنشتاد» سنة ١٩٢٠ ؛ وكان الثالث ضابط صفّ قديماً في الخيّالة ، قاد الخيّالة السوفياتيّة خلال الحرب الأهليّة ، وهو كثّ الشاربين ، شرس . جاهل ؛ وكان الثاني ، «تيموشنكو» ، هو الوحيد الحاصل على الكفاءات المهنيّة التي يتميّز بها كلّ قائد حربيّ ؛ وكان حليق الرأس ، قاسياً كالحصاة ، متجهّماً كالبوم ، وهو الذي قوّم الوضع العسكريّ في «فنلندا» ؛ وها هو الآن يتولّى الجبهة التي انهارت تحت وطأة الضربة الألمانيّة الهدّامة . ويؤمّن حماية الطريق المؤدّية إلى «موسكو» .

وبعد انقضاء ١٢ يوماً على خروج «ستالين» من صمته الغريب عيّن نفسه مفوّضاً للدفاع ؛ ولم يمضِ على ذلك وقت طويل حتّى ارتدى حلّة القيادة المطلقة في ٧ آب ، جامعاً في يده وظيفتي «براوشيتش» و «هتلر» مجتمعتين . أمّا وظيفة «هالدر» فقد قام بها في الجيش الروسيّ رئيس الأركان العامّة الجنرال «بوريس تشابوشنيكوف» الذي كان أحد خبراء الجيش القيصريّ برتبة كولونيل عام ١٩١٧ . ولكن ليس بالإمكان تكوين فكرة مرضية عن الظروف التي كانت تعمل فيها القيادة السوفياتيّة ، وبالتالي تقدير عبء المسؤوليّة ونصيب الظفر العائديّن إلى كلّ واحد من القوّاد الكبار .

وفي ٥ تمّوز تحرّكت مجموعة جيوش الجنوب الألمانيّة لمهاجمة خطّ «ستالين» ، وكان مكوّناً من مجموعة منشآت من الإسمنت تدعمها تحصينات ريفيّة تظهر براعة الجنود الروس في استخدام الأرض . وصرّح أحد المقاتلين الألمان بقوله : «نحن سكّان المدن لا نستعمل المجرفة إلاّ باشمئزاز كثير ، فيما هي بالنسبة للروس رفيقة تلازمهم على الدوام . فأشغالنا تبدو أمام أشغالهم لهو أطفال . كلّ ملجإ روسيّ فرديّ هو ثقب بعرض مقياس الكتفين لاأكثر ، فيتعذّر بالتالي أن تُكتشف من فيه على بعد أكثر من عشرة أمتار ...»

في ساحة القتال المحصّنة هذه كان المشاة والدبّابات الألمان يتقدّمون ببطء . وقد تطلّب اجتياز المقاطعة المحصّنة والاستيلاء على «جيتومير» من المجموعة الألمانيّة المصفّحة والجيش السادس عشرة أيّام . وأمّا الجيش السابع عشر المتوغّل في الجنوب فقد بلغ «بوغ» «أوكرانيا» في «فينيتسا» ، وهو سميّ «البوغ» البولونيّ. وقد تخلّى المارشال «روندشتاد» ، الذي عاف القتال البطيء ، عن مسيرته الجبهيّة على «كييف» ، واستدار نحو الجنوب الشرقيّ ، وفي نيّته أن يطبق على حشد العدوّ بحصره بين مجموعة جيوشه والقوّات الألمانيّة — المجريّة — السلوفاكيّة — الرومانيّة القادمة من «دنييستر» . وحاول المارشال «بودييني» أن يحبط هذه العمليّة بشنّ هجوم معاكس على جانب الأرتال الألمانيّة ، ولكنّ وحداته المصفّحة الكبيرة كانت أصعب تحريكاً من كوكبات خيّالته القديمة ، فأخفقت الهجمات الروسيّة . وفي ١٢ آب أطبقت الكلاّبة حول مدينة «أومان» الصغيرة الشهيرة ببساتينها ، فبات «روندشتاد» مسيطراً على معركته الحصاريّة . وبين ٢ و ٨ آب أُبيد الجيشان السوفياتيّان السادس والثاني عشر ، تاركين للمنتصر ١٠٣،٠٠٠ أسير ، و ٨٥٨ مدفعاً ، و ٣١٧ دبّابة . وفي جملة الأسرى كان الجنرال «موسيتشنكو» والجنرال «ب. ج. بونيديلين» .

لقد حطّم انتصار «أومان» مقاومة الروس غربيّ «أوكرانيا» ؛ فالجيش الرومانيّ الرابع يحاصر «أوديسا» ، والجيش الألمانيّ الحادي عشر يتّجه نحو منافذ «دنيبير» ، والجيشان السادس والسابع عشر يحتلاّن منعطف هذا النهر الكبير . وكان الجنود يتقدّمون ليلاً ، وفي أوقات الحرّ اللاهب ،خلال فترة القيلولة ، ينامون متستّرين بسنابل القمح الطويلة . وكان جلال «دنيبير» يملك عليهم مشاعرهم ؛ فهذا النهر العريض ينساب ببطء عبر الجزر المحرّجة ، تحت منحدرات ضفّته اليمنى الوعرة ، وأمّا عرض ضفّته اليسرى فكان يغوص عبر الأفق اللامتناهي



زحف القوات المصفحة
زحف قوات المحور
بيان تقريبي للزحف الألماني
آخر تموز
آخر حزيران
آخر أيلول
آخر آب
آخر تشرين الأول
الجبهة في ٤ تشرين الأول ١٩٤١
خطوط المقاومة والهجمات المعاكسة السوفياتية
القوات السوفياتية المطوقة
فنلندا
خليج فنلندا
بحر البلطيق
إستونيا
خليج ريغا
ليتوانيا
موسكو
أوكرانيا
رومانيا
بحر آزوف
البحر الأسود
القرم
مجموعة جيوش الشمال «فون ليب»
مجموعة جيوش الوسط «فون بوك»
مجموعة جيوش الجنوب «فون رونشتادت»
الجيش الروماني «انطونيسكو»

وسط ضباب من القيظ . وكما في «بولونيا» السابقة استُقبل الألمان هنا استقبال المحرّرين ، فكان القرويّون يأتونهم بالخبز والملح . وهنا تمّت لهم السيطرة على أولى المغانم الاقتصاديّة الكبرى : أراضي الحبوب ، ومنطقة «خرسون» القطنيّة ، ومانغانيز «نيكوبول» ، وحديد «كريفوي — روغ» . ولكن ، من جهة ثانية ، لم تكن «كييف» في جملة هذه اللائحة ، وهي الهدف الأساسيّ للهجوم . ولقد شُنّ عليها هجوم سريع ولكنّه باء بالإخفاق ؛ فهذه المدينة الكبيرة القائمة في وسط دائرة تلالها قد بقيت كرأس جسر قويّ على الضفّة الغربيّة من «الدنيبر» .

حديد ومانغانيز في الجنوب ، ونيكل في الشمال الأقصى ؛ فمنذ ٢٢ حزيران كان فيلق «ديتل» الجبليّ التاسع عشر قد أجتاز الحدود النروجيّة ، ونهر «بتسيبوكي» الصاخب بالقرب من رأس «الشمال» ، واستولى على المناجم التي تحدّاها . كانت الأهداف الاقتصاديّة والستراتيجيّة في تلك المناطق الشماليّة العالية واسعة المدى ؛ فشبه جزيرة «كولا» هو أحد أجزاء «الاتّحاد السوفياتيّ» التي كان «هتلر» يعتزم الاحتفاظ بها «لألمانيا» نظراً لمواردها المعدنيّة الثمينة ؛ وأمّا «مورمانسك» فهو مرفأ «روسيا» الوحيد على المحيط الذي لا يتجمّد طوال السنة ، وهو بالتالي نقطة الوصل بين «الاتّحاد السوفياتيّ» ، وحلفائه الحاليّين أو المقبلين ، «انكلترا» و «أميركا» . فاحتلال «مورمانسك» بالنسبة «لألمانيا» على جانب كبير من الأهميّة ، وهذه الأهميّة تبدو أعظم لو أنّ «هتلر» كان يعترف بأنّ حربه مع «روسيا» لن تنتهي حتماً قبل الشتاء .

وأكبّ «ديتل» على هذه المهمّة . ففي ٢٩ حزيران توغّل جنوده الجبليّون في الأراضي الصعبة مثيرين أسراباً من البعوض الفتّاك ؛ وتعدّى الحدود الروسيّة الفنلنديّة القديمة حتى بلغ نهر «ليزا» الصغير الذي كان ما يزال متجمّداً بين شجيرات الصفصاف . ولكنّه لم يتمكّن من التقدّم أكثر من ذلك ، فالأراضي المحيطة «بمورمانسك» كانت لها حزاماً واقياً أمتن من الإسمنت .

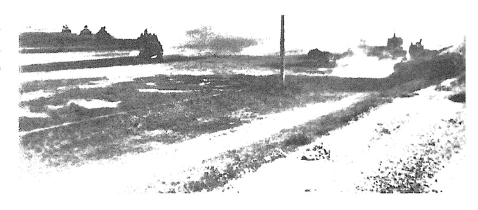
أمّا الانكليز فقد أرادوا أن يقوموا بعمل ما ؛ «فستالين» ، الذي شاهد «لندن» تنهار تحت قصف القنابل النازيّة من غير أن يحرّك ساكناً ، راح يطالب بفتح جبهة ثانية في القارّة وكأنّ له في ذلك حقّاً شرعيّاً . وإذ كانت الاستجابة لهذا الطلب غير معقولة ، فقد غمر «تشرتشل» المقاومة الروسيّة البطوليّة بورود كلامه ، ووعد بأن يرسل للجيش الأحمر ثلاثة ملايين حذاء ؛ وبعد ذلك قرّر أن يخاطر بإرسال حاملتي الطائرات «فكتوريوس» و «فيوريوس» إلى المحيط الشماليّ على الرغم من مخاوف أميراليّته . وذهبت الحاملتان بقيادة «ويك ووكر» فقصفتا «كيركينيس» و «بتسامو» . ولحسن حظّ هاتين السفينتين كانت طائرات «شتوكا» منهمكة في مكان آخر ، ومع ذلك فإنّ ثلث الطائرات الانكليزيّة تخلّف عن قواعده . أتت نتيجة الغارة صفراً من الناحية العمليّة ووقف الروس منها غير مكترثين .

وبما أنّه قد تعذّر الاستيلاء على «مورمانسك» ، فقد فكّر الألمان بعزلها ، وذلك بقطع طريقها الحديديّة ؛ فتوغّل الفيلق السادس والثلاثون عبر مستنقعات رهيبة ، حتى وصل إلى ٣٠ كلم من «كاندالاكشا» عاصمة «كاريليا» السوفياتيّة . ولكنّ قواه كانت قد أُنهكت ، فتوقّف هناك وهو على مرمى حجر من الخطّ الحديديّ الثمين المنشود .

وفي نقطة أبعد إلى الجنوب ، كانت «لينينغراد» هي الهدف الذي يعلّق عليه «هتلر» آمالاً جساماً من الناحيتين العمليّة والرمزيّة . كان الفنلنديّون على بعد ١٠٠ كلم منها على الرغم من التراجع الذي لحق بحدودهم عام ١٩٣٩ ، ولكنّ «هتلر» لم يكن يريد أن تقوم بالاحتلال أيد غريبة ، فضلاً عن أنّ المارشال «مانرهايم» لم يعد إلى القتال إلاّ باشمئزاز شديد قانعاً من المطمح باستعادة الأراضي المفقودة في ١٩٣٩ . فالوثبة الوطنيّة التي اتّصفت بها حرب الشتاء في «فنلندا» قد زالت ، ولذلك انتظر الفنلنديّون ٣١ تمّوز لمباشرة عمليّاتهم ، فانقضى شهر آب بكامله قبل أن يسترجعوا «فيبروغ» ويبلغوا خطّ «سفير» بين بحيرتي «لادوغا» و «أونيغا» .

هذا وقد دارت معركة «لينينغراد» جنوبيّ المدينة . المنطقة جليديّة تتخلّلها البحيرات ، وأرضها ذات تربة نفطيّة تغطّيها الأحراج ، وهي رطبة قاتمة . فبحيرة «بيبوس» بقعة من الماء مستطيلة ، قليلة العمق ، يصلها بخليج «فنلندا» نهر «نارفا» الذي شهد مرور «شارل الثاني عشر» وفرار «بطرس الأكبر» ؛ وبحيرة «إلمن» حوض صغير داخليّ متّصل ببحيرة «لادوغا» بحفرة «فولشوف» ؛ وهنالك بحيرات أخرى ليست أكثر من بقع مستنقعة تركد في قعرها طبقة مياه رقيقة . وهنالك أيضاً كتل صخريّة جرفتها الانهيارات الجليديّة ، وهي لا تؤلّف غير نواتىء منخفضة ، ولكنّها صعبة الاجتياز بما فيها من حواجز ذات قيمة . فجليّ إذاً أنّ الأرض لم تكن مؤاتية للدبّابات . وهنالك كذلك بعض القرى النظيفة المجتهدة الناطقة باللغة الفنلنديّة ، وهي تشهد أنّ المنطقة كانت في الماضي خاضعة للتاج الأسوجيّ. ولكنّ السكّان كانوا عابسين ، قذرين ، بؤساء ، عدائيّين ؛ وكان معظم الرجال قد رحلوا مع الأولاد مخلّفين النساء والعُجّز الذين كانوا يستعطون لقمة العيش . كانت دعوة «ستالين» إلى حرب العصابات قد بلغت كلّ مسمع ، فإذا بجنود المارشال «ليب» ، الذين رشقهم السكان في البلاد البلطيقيّة بالورود ، يعانون الآن افتقار الأمان في المؤخّرات ، وفخاخ الأنصار ، والحرب التي لا تعترف بالبزّة العسكريّة ، والتي لا يمكن لجيوش العالم كافّة إلاّ أن تردّ عليها بحرب لا تعرف الرحمة .

ومنذ أوّل تمّوز كانت مجموعة «هوبنر» المصفّحة قد اجتازت الحدود القديمة وأحدثت ثغرة في خطّ «ستالين» . وكان قائدها يريد أن يلقي بها دفعة واحدة على «لينينغراد» التي كانت على مسافة ١٨٠ كلم فحسب ، ولكنّ الإشارات الصادرة عن القيادة استبعدت هذه العمليّة التي تفتقر إلى الكثير من عوامل النجاح ؛ ينبغي أن تطوّق «لينينغراد» ، وأن تقوم بالمجهود الرئيس ميمنةُ المجموعة المصفّحة ، وهي فيلق «راينهارت» المصفّح الواحد والأربعون الذي كان يزحف إلى «لينينغراد» في طريق «لوغا» ، وفيلق «مانشتاين» السادس والخمسون الذي انحرف باتّجاه الشمال دائراً حول بحيرة «إلمن» ليستولي على مدينة «نوفغورود» التجاريّة القديمة ، وليصل من ثمّ إلى «تشودوفو» فيقطع خطّ «موسكو — لينينغراد» الحديديّ . وكان جيشا المشاة على مسيرة أسبوعين من ذلك المكان ، إذ أنّ الجيش الثامن قد تأخّر في تطهير البلاد البلطيقيّة ، والجيش السادس عشر قد انصرف إلى تفريق تجمّعات العدوّ في منطقة «فيلنا» . وعلى الرغم من ذلك لم تتردّد القيادة الهتلريّة في أن تبسط بشكل مروحة ، وعلى جبهة طولها ٢٥٠ كلم ، المجموعةَ المصفّحة الضعيفة المؤلّفة من ٥ فرق ، بجناح منفتح على ٣٠٠ كلم ، في بلد لا يناسب الحرب السريعة ، وأمام عدوّ أبعد ما يكون عن الهزيمة الكاملة! وتبيّن أنّ الصعوبات في التنفيذ كانت فائقة ؛ فعلى طريق «لوغا» كان «راينهارت» يتقدّم خطوة خطوة ، بعدما تعذّر عليه بسط دبّاباته ؛ وأكّد «هوبنر» أنّ الأوضاع أفضل عند جناحه الأيسر على مقربة من



تمثّل هذه الصورة الحيّة دبّابات مجموعة «فون روندشتاد» في حركة تطويقيّة حول مدينة «نيقولاييف» التي ما لبثت أن سقطت في أيدي الألمان .

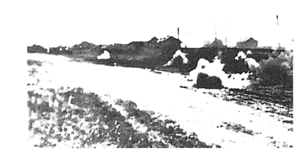
«نيقولاييف» المحاصَرة .

خليج «فنلندا» ، ولذلك قرّر أن يقيم الفيلق الواحد والأربعين وراء الجبهة ، مع ما في ذلك من احتمال شلّه تماماً وسط المستنقعات الحالية من الطرقات التي كان على الفيلق أن يجتازها . وكانت الأمطار الغزيرة تغرق الجنود ، فكان على النقّابين أن يمدّوا أمام العربات بساطاً من الاسطوانات الخشبيّة لتتمكّن من المرور . وجرى التحرّك في النهاية ، ففاجأ العدوّ وآل الى نجاح باهر ؛ وتمّ اجتياز «لوغا» ، وهو آخر نهر كبير قبل «لينينغراد» ، في ١٤ تمّوز . أمّا الروس فقد سارعوا إلى إرسال طلاّب المدرسة العسكريّة في «لينينغراد» إلى تلك الناحية ، فضلاً عن الألوية البروليتاريّة التي جنّدوها في المدينة الكبيرة . وهناك عثر الألمان لأوّل مرّة بين القتلى على جثث نساء مجنّدات .

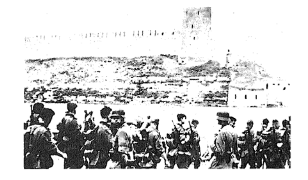
وفي الجناح الآخر من المجموعة المصفّحة كان «مانشتاين» يمرّ بظروف عصيبة : فقد حوصر جنوبيّ بحيرة «إلمن» على أثر هجوم مضادّ قام به الجيش السوفياتيّ الأوّل ؛ وأسرع راديو «موسكو» يعلن أنّ فيلقاً نازيّاً قد وقع في الفخّ ؛ ولكنّ «مانشتاين» استطاع الإفلات، مخلّفاً في أيدي الأعداء بعض عتاده ،وبعض وثائق الأركان العامّة ، الأمر الذي عرّض منصبه للخطر . وتلاشت الأزمة تماماً في ١٨ تمّوز ، غير أنّ الفيلق المصفّح السادس والخمسين لم يواصل مسيرته على «تشودوفو» بعد ما ثبت أنّ ضفاف بحيرة «إلمن» غير صالحة للدبّابات .

وانقضت إثر ذلك أيّام ثمينة ؛ فقد حصلت في أوساط القيادة الألمانيّة العليا مشادّة كلاميّة : أإلى اليسار نوجّه ضغطنا ، أم إلى اليمين ؟ وأصرّ «هوبنر» على أنّ جناحه الأيسر هو الذي يجب أن يواصل الهجوم في منطقة تكاد تكون خالية من الأعداء ؛ ولكنّ أساليب العقليّة الإداريّة في القيادة كانت مسيطرة على الجيش الألمانيّ ؛ فالقيادة العليا لجيوش البرّ ، والقيادة الحربيّة العليا ، قد أجابتا : «مركز الثقل إلى اليمين ! » فكان على «هوبنر» بالتالي أن يتقيّد بهذه المذكّرة . وعلى أيّ حال ، تبيّن فجأة أنّ زحف المصفّحات وحدها مجازفة شديدة ، فينبغي إذاً أن ينتظر اقتراب الجيشين الثامن عشر والسادس عشر من «لوغا» قبل أن تعود المسيرة إلى الانطلاق قدُماً .

وفي ٨ آب استؤنف الهجوم ؛ فهاجم «هوبنر» بين «نارفا» و «لوغا» بالتعاون مع مقدّمات الجيش الثامن عشر ؛ وفي سبيل الاشتراك في هذا النشاط قطع «مانشتاين» ٢٠٠ كلم في مسيرة جانبيّة عبر طرقات فظيعة ، ليتمركز في نسق ثان وراء «راينهارت» . ولم يكد يصل إلى «سامرو» ، مقرّ قيادته الجديد ، حيث أمر ضبّاط أركانه الذين علاهم الغبار بأن يغتسلوا في البحيرة ، حتى اتّصل به «هوبنر» ؛ ففي القطاع الذي كان الفيلق المصفّح السادس والخمسون قد غادره لتوّه ، كان الوضع قد تطوّر بطريقة خطيرة ، إذ نزلت حشود سوفياتيّة من مرتفعات «فالداي»



في «نارفا» ، في «إستونيا» ، صدّ الجيش الأحمر الفتيّ في ٢٣ شباط ١٩١٨ جحافل الألمان التي كانت تهدّد «بيتروغراد» .



سقوط «نوفغورود» . وتُرى الشاحنات ، وفوقها الطائرات ، تقتفي الطريق الذي سلكته الفرق المصفّحة . لقد بدا أنّ مصير «لينينغراد» بات محتوماً .



وطوّقت الفيلقين الأوّل والعاشر اللذين أخذا على عاتقهما الاستيلاء على «نوفغورود» ! وهو يطلب من «مانشتاين» أن يعود أدراجه لتقويم الوضع . يا لها من مسيرة معاكسة ! عاد الفيلق المصفّح السادس والخمسون إلى الغوص في الأغوار الموحلة التي انتشل نفسه منها منذ لحظات ؛ ولم يكن قد تبقّى لديه غير الفرقة الآليّة الثالثة وفرقة «توتنكوبف» الصاعقة . وكالجنديّ البصير الذي يتريّث في إطلاق النار مترقّباً الفرصة السانحة . أفسح «مانشتاين» أمام الروس مجال التقدّم واجتياز «اللوفا» ، ثمّ انقضّ على جنبيهم بعدما أيقنوا أنّ النصر بات حليفهم ، فقُطّع الجيش السوفياتيّ الثامن والثلاثون إرباً وفقد ١٢،٠٠٠ أسير ، و ٢٤٦ مدفعاً من جملتها أولى القطع ذوات الفوهات المتعدّدة التي ذاعت شهرتها فيما بعد باسم «أرغن ستالين» . تميّزت الفرق الروسيّة بالشجاعة وبثبات الجنان ، ولكن لم تكن لها في العمليّات مقدرة الجيش الألمانيّ ولا منجزاته الفنيّة . ولكنّ الجيش الألمانيّ كان رازحاً تحت عبء المهمّات الثقيلة التي تفوق طاقاته ؛ ففرق المشاة غير الآليّة ترهق قواها في الأراضي الروسيّة المهلكة ؛ والفرق المصفّحة ، التي انتقص عدد دبّاباتها بصورة ملموسة يعوزها التحفّز للانقضاضات المتتالية .

وجليّ كذلك أنّ مجموعة «هوبنر» كانت بحاجة إلى فيلق مصفّح ثالث ، إلّا إذا كان توريط الوحدات الآليّة في منطقة غير ملائمة يعتبر خطأً مبدئيّاً . كان «هتلر» قد درس بدقّة كلّ بقعة من غابات «الأردين» ، ولكنّه لم يأبه البتّة لمستنقعات «ليفونيا» !

ومهما يكن من أمر فقد كان الجيش الألمانيّ ينتصر ؛ ففيما كان «مانشتاين» يحقّق نصره في معركة بحيرة «إلمن» ، كان الفيلق الأوّل يستولي على «نوفغورود» المشتعلة . وكان الجناح الأيسر يجتاز «اللوغا» . وبعدما أفلح القسم الأكبر من الجيش الثامن عشر في الإجهاز على المؤخّرات الروسيّة في «إستونيا» قدم يسهم في العمليّات ، بينما كان الفيلق المصفّح التاسع والثلاثون ، في الجناح الآخر ، ينفصل عن مجموعة جيوش الوسط ليُحكم إطباق الطوق حول «لينينغراد» .

كان مصير العاصمة السابقة محتّماً ؛ فكّرت القيادة الروسيّة بإخلائها ، إلّا أنّ «ستالين» رفض هذا الحلّ ، وأرسل إلى المدينة ربيبه «جدانوف» للدفاع عنها . وقام الجنرال «ساشفاروف» بتجميع قوّاته ، وهي ١٢ فرقة كانت تؤلّف الجيشين ٤٢ و ٤٨ . وتمّ كذلك تجنيد فرق بروليتاريّة جديدة من المصانع . وقد كُلّف السكّان ببناء خطّ مزدوج من تحصينات الجبهة ، ينطلق من «شلوسلبرغ» على بحيرة «لادوغا» ، ملازماً مجرى «النيفا» على عشرين كيلومتراً ، ومنعطفاً بعد ذلك بشكل نصف دائرة حول مدينة «كولبينو» الصناعيّة ؛ كانت «لينينغراد» تتجهّز لمواجهة الحصار .

وفي وسط الجبهة ، القطاع الرئيس ، كان احتلال «سمولنسك» هدف مجموعة الوسط ؛ لقد كُتب على هذه المدينة أن تمثّل دوراً هامّاً وحاسماً في تاريخ الغزوات التي اجتاحت «روسيا» ؛ فالغزاة جميعاً ، في مسيرتهم على «موسكو» ، يحطّون رحالهم فيها للاستراحة وللتبصّر في إمكانات الإخفاق والنجاح . كان «نابوليون» سنة ١٨١٢ قد قرّر ألّا يتعدّى حدودها ، فقال حينذاك : «سأتوقّف في «سمولنسك»، وسيحتلّ الجيش فيها مواقعه الشتويّة . إنّ حملة ١٨١٢ قد انتهت ، وسنة ١٨١٣ ينتهي الباقي» . ولكنّ أملاً حداه إلى الاستمرار ، هو الإمساك بذلك السراب البعيد المنال ، عنيت الجيش الروسيّ الذي كان يبتعد متهرّباً كأنّه الأفق .

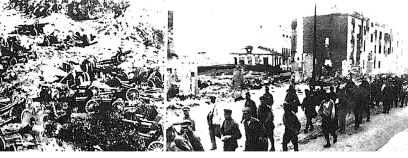
وأمّا مجموعتا الوسط المصفّحتان فقد تحرّكتا بسرعة إلى الأمام ، فتوجّه «هوث» نحو «فيتبسك» ، وزحف «غوديريان» باتّجاه«الدنيبير» ؛ كانت المقاومة التي تتصدّى لهما غير منتظمة ، وكان جنودهما محافظين على ثقتهم بأنفسهم ، وهذا ما جعلهم يتغلّبون على طابع تلك الأراضي الحزينة الذي تنهار إزاءه المعنويّات . هذا والحرّ غاية في الشدّة ، والماء قليل ، والغبار كالوباء ، والتموين يجري بصعوبة فائقة ، والموارد المحليّة لا تجدي ، والمساكن الخشبيّة الناجية من خطّة الأرض المحروقة تعجّ بالقمل . وراحت رفوف كبيرة من الغربان تحلّق سعيدة في السماء مضفية عليها لباس الحداد ، وانهال على الرجال مليارات من الذباب المرهق ؛ ومع ذلك بقيت المعنويّات مرتفعة ، لأنّ الجنود كانوا مظفّرين، ولأنّهم كانوا يسيرون إلى «موسكو» .

كان القوّاد أشدّ قلقاً على عتادهم الفولاذيّ منهم على عتادهم البشريّ ؛ فالغبار يتلف المحرّكات ، ولم يكن أيّ نوع من المرشّحات ليوقفه . كانت الاسطوانات تنقرض ، والمفحّمات تختنق ، والنتاج يتضاءل ، وحوادث العطب تتكاثر ؛ أضف إلى ذلك أنّه لم يكن يصل من المؤخّرات لا دبّابات تعويض ولا محرّكات تبديل . فكلّ آلة تتوقّف عن العمل تحدث فراغاً لا يمكن سدّه بأيّ شكل .

كان «غوديريان» في ذلك الوقت يواجه مشكلة «الدنيبير» . فلو انتظر «غوديريان» وصول فرق المشاة لاجتياز هذا النهر لتوجّب عليه التريّث مدّة خمسة عشر يوماً ، ممّا يتيح للعدوّ مجال التماسك والتنظيم . ولكنّه في هذه المرّة كذلك لجأ إلى حلّ الجرأة المغامرة : سيجتاز «الدنيبير» كما اجتاز «البوغ» لأربعة عشر شهراً خلت ، من غير أن يقيم وزناً لعرض النهر ولتصلّب المدافعين عنه ؛ فقام قوّاد فيالقه الثلاثة يستكشفون نقاط عبورهم على الوجه التالي : «غير» قائد الفيلق المصفّح الرابع والعشرين في «ستاري بيشوف» جنوبيّ «موهيليف» ؛ و «فيتنغهوف» قائد الفيلق المصفّح السادس والأربعين ، و «ليملسن» قائد الفيلق المصفّح السابع



قطار روسيّ يشتعل قرب «سمولنسك» .



أسرى روس يجتازون «فيتبسك» .

عتاد روسيّ محطّم على أثر معركة «سمولنسك».

والأربعين ، في «شكلوف» وفي «كوبيس» بين «موهيليف» و«أورشا» . وتعيّن يوما ١٠ و ١١ تموز موعدين لمباشرة عمليّات العبور .

وأعاد التاريخ نفسه ؛ فكما في «سيدان» ، تدخّل قائد أعلى لكبح جماح «غوديريان» ، وكان القائد هذه المرّة هو «فون كلوغي» ذو الضمير الحيّ والمراس الصعب . وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ تعديلاً في القيادة كان قد وَضع تحت إمرة هذا القائد المجموعتين المصفّحتين ٣ و ٤ ، في الوقت الذي كانت فيه فرق المشاة قد جُمعت في جيش ثان بإمرة الكولونيل جنرال «فون فايخس» . كان «كلوغي» يرى انتظار هذا الأخير ، ولكنّ «غوديريان» وُفّق إلى إقناعه بأنّ عجلته كانت مطابقة لنيّات الفوهرر ، وللقرار الذي يقضي بالإجهاز على «روسيا» قبل الشتاء . وقد أبدى له «كلوغي» هذه الملاحظة : «إنّ عمليّاتك مربوطة على الدوام بخيط من حرير . فأنت اليوم تعرّض نفسك لخطرين اثنين : خطر الإخفاق في عبور النهر ، وخطر التطويق بعد عبوره ...»

أمّا التخوّف من الخطر الأوّل فكان في غير محلّه : لقد تمّ اجتياز «الدنيبير» من غير خسارة تقريباً ؛ ففي مساء ١٢ تدفّقت فرق «غوديريان» السريعة التسع على «أورشا» وطوّقت «موهيليف» ، فإذا بها على الضفّة اليسرى وقد فتحت ثغرة تبلغ المئة كيلومتر على ثاني الأنهر الروسيّة . وكانت مقدّمات الجيش الثاني ما تزال على «بيريتزينا» ، على مسافة ١٢٠ كلم إلى الوراء ، ولم تكن قوّاته الرئيسة قد تجاوزت «مينسك» بعد .

فوجىء «تيموشنكو» على «الدنيبير» مفاجأة كاملة ، لذلك حاول تحقيق التخوّف الثاني الذي توجّسه «فون كلوغي» ، ألا وهو تطويق «غوديريان» . كانت مجموعة مؤلّفة من نحو ٢٠ فرقة قيد التجهيز من جديد في منطقة «غوميل» ، فألقى بها «تيموشنكو» في جنب الثغرة الألمانيّة . ولكنّ فرقة الخيّالة الوحيدة في الجيش الألمانيّ ، وبعدها الفرقة المصفّحة الرابعة بقيادة «فون أرنيم» ، صدّتا هذه الصدمة . وفي تلك الأثناء انطلقت الوحدات الكبرى الباقية من المجموعة الألمانيّة المصفّحة نحو الشرق كالسهم ، متجاهلة هذا التهديد المحدق ، فاتّجهت الفرقة المصفّحة الثالثة شطر «روسلاف» ، واستولت الفرقة المصفّحة العاشرة ، بالاشتراك مع فرقة «الرايخ» ، على «جيلنا» ، وبلغت الفرقة الآليّة التاسعة والعشرون «سمولنسك» في ١٦ تموز ، فوجدت أنّ المدينة القديمة لم يمسّها أذى ، فعادت إلى اجتياز «الدنيبير» لإنجاز احتلالها بعد الاستيلاء على مناطقها الصناعيّة على الضفّة اليمنى .

وفي الوقت نفسه وصل «هوث» إلى شمال المدينة بالفيلقين المصفّحين ٣٩ و ٥٧ . كان قد شنّ هجوماً عنيفاً كهجوم «غوديريان» ، مقتحماً «الدونا» ، مستولياً على «فيتبسك» ، دافعاً نحو الجنوب بقايا الجيشين السوفياتيّين ٣ و ١١ . وبصورة تلقائيّة تمّ التعاون بين المجموعتين الألمانيّتين المصفّحتين ؛ فقامت الفرقة المصفّحة ١٧ مع فرقة «الرايخ» بتجاوز «سمولنسك» ، وفي ٢٦ تموز ، في «دوروغوبوش» ، أغلقت الدائرة التي كانت قد باشرتها المجموعة المصفّحة الثالثة . وراح الروس يقاتلون بضراوة ، لا يحاولون الإفلات من التطويق فحسب ، بل يسعون كذلك إلى استعادة «سمولنسك» التي كانت خسارتها تنبىء بخسارة «موسكو» ، والتي كانت صدمة معنويّة قاسية ، حتى انّ الحكومة السوفياتيّة أصرّت على إنكار هذه الخسارة طوال أسابيع عديدة . وفي أواخر تموز بدأت انتفاضات الطريدة الواقعة في الفخّ تهمد شيئاً فشيئاً في الدائرة المطوّقة .

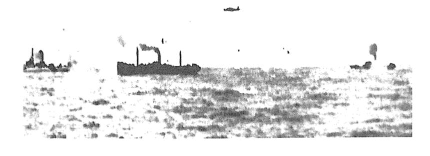
إلاّ أنّ الخطر لم يزُل تماماً عن الجيش الألمانيّ ؛ فقد بقي جانب مجموعة «غوديريان» الأيمن مفتوحاً ، وعاد «تيموشنكو» إلى الهجوم . فبعد ما دُفع إلى وادي «الدنيبير» عاد فبسط هجومه المعاكس حتى «الديسنا» بفرق الجيش ١٣ الأربع عشرة ؛ وفي الشرق كانت فرق الجيش ٢٣ الإحدى عشرة تركّز ثقلها على الناتئة التي أنشأها الألمان حول «جيلنا» ؛ فالمعركة إذاً غير مستقرّة . واستُدعي «غوديريان» إلى المقرّ العامّ لقيادة مجموعة الجيوش في «بوريسوف» ، فإذا بالقيادة تعبّر عن قلقها الشديد بشكل لوم مبطّن موجّه إلى تهوّره ؛ وتبلّغ مندهشاً مذكّرة إداريّة جديدة من الفوهرر تشجب تحرّكات التطويق الشاسعة ، وتوصي بالتعاون الوثيق بين المشاة والدبّابات. كان «غوديريان» يتوقّع أمراً بالسير على «موسكو» ، فإذا به يعلم أنّ «هتلر» يحظّر على المصفّحات تجاوز «جيلنا» . الأمر الوحيد الذي كانت القيادة تطلبه موقّتاً من مجموعته هو تدعيم الوضع في الوسط بالقضاء على قوّات العدوّ بين «روسلافل» و «غوميل» .

وأتمّ «غوديريان» مهمّته بنجاح باهر ، على النحو الذي قام به «مانشتاين» على بحيرة «إلمن» ؛ فقد جهّز هجوماً جبهيّاً شنّته فيالق المشاة ٧ و ٩ و ٢٠ التي وُضعت تحت تصرّفه . وفيما كان الروس يتصدّون لهذه القوّات كان الفيلق المصفّح ٢٤ يخترق جناحهم الأيسر . ودخلت الفرقة المصفّحة الألمانيّة الرابعة بقيادة الجنرال ماجور «فون لانغرمان» كحدّ المنشار في المؤخّرات الروسيّة ، واجتازت مسافة ٨٠ كلم بخطّ موازٍ لخطّ النار ، ثمّ استولت على «روسلافل» في ظهر العدوّ . وفي المخافر الأماميّة قرب المدينة ، أبصر «غوديريان» من خلال الغبار الكثيف المتصاعد من ساحة المعركة حشداً من الدبّابات ، فأصدر أمراً بتدميرها في الحال ، ولكنّه أدرك في اللحظة الأخيرة أنّها دبّاباته ! وهمدت المقاومة السوفياتيّة في ٥ آب ، وتمّ تطهير جيوب «موهيليف» و«سمولنسك»و«روسلافل» ؛ وقد بلغ عدد الرجال الذين اسرتهم مجموعة «الوسط» وحدها أكثر من ٦٥٠،٠٠٠ رجل منذ ٢٢ حزيران . وراح الألمان يتقدّمون نحو «أوكرانيا» على هواهم ، إلاّ أنّ الاستكشافات الجوّية كانت تشير إلى تجمّعات للعدوّ في حشدين كبيرين ، الأوّل بين «كالينين» و «رجيف» في الشمال الغربيّ ، والثاني بين «فيازما» و «غزايك» غربيّ «موسكو» . كان الروس يحشدون بسرعة آخر قوّاتهم ليخوضوا أمام عاصمتهم معركة يائسة .

حالة العالم إبّان غزو «روسيا»

قال «هتلر» : «حين تبدأ حملة «روسيا» سيحبس العالم أنفاسه ...» أجل ، لقد غدا تتابع المعارك في «روسيا» حدث الحرب الأوحد تقريباً ، وانتقلت «انكلترا» نفسها إلى صفّ المتفرّجين ؛ فقد توقّفت الغارات الجوّية على «لندن» ، وقال شاهد عيان : «إنّ فترة الاستراحة هذه وَسَمت الوجوه بانفراج لا يصدّق ، ولكنّها ولّدت قلقاً من نوع جديد». كانت القنابل بمثابة حوافز كبيرة تنشّط المعنويّات بما تثيره من تحدٍّ ؛ والواقع أنّ شعور المرء بالعياء والسأم وقبح الحرب يزداد بعد زوال الخطر .

وركدت العمليّات الحربيّة في «أفريقيا» ، وكان الحصار المضروب على «طبرق» ضعيفاً . وتخلّص «تشرتشل» من «ويفل» بإرساله إلى «الهند» ، ولكنّه فوجىء بخيبة مريرة لأنّ القائد الأعلى الجديد «كلود أوكنلك» بدا أعند من سلفه ، فرفض رفضاً باتّاً أن يقوم بهجوم يعتقد أنّه لا يملك وسائله الضروريّة كلّها . ومهما يكن من أمر فإنّ معارضة القيادة البريطانيّة العليا المبدئيّة لعمليّات المتوسّط لم تلن قط ؛ فقد أنذر السير «جون ديل» رئيس أركان الامبراطوريّة «تشرتشل» بأنّ دعم «مصر» المستمرّ يعرّض الدفاع عن الوطن الأمّ للخطر ؛ وأضاف أنّ «سنغافورة»



قافلة بحريّة حليفة في طريقها إلى «الاتّحاد السوفياتيّ» في المحيط المتجمّد الشماليّ تتعرّض لهجوم القاذفات الألمانيّة على مسافة ١٠٠ ميل من الساحل الأوروبيّ، وقد تصدّت لها طائرة مطاردة انكليزيّة (وهي الأقرب في الصورة) .

في رأيه أجلّ شأناً من «السويس» . وقد تعذّر على «تشرتشل» والحالة هذه أن يحيي الحرب في الصحراء بعد ما خدّرها الصيف الصحراويّ المرهق .

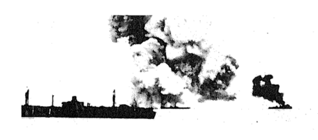
وكذلك لم يكن في قدرة «رومل» أن يحييها ؛ فالأوامر تحرّم عليه ذلك بشكل حاسم هذه المرّة ، وقيادة جيش البرّ ، رغبةً منها في الابتعاد عن أيّة مجازفة ، أوفدت إلى القائد الإيطاليّ الأعلى الجديد «باستيكو» ممثّلاً لها هو الجنرال «ألفرد غوزي» ومهمّته مراقبة «ذاك الجندي المجنون» ؛ في الواقع كلّ ما يُطلب من «رومل» هو احتلال «طبرق» ، وإنّها لمهمّة لم تكن لتوافق مزاجه ولا إمكاناته . وفي ما عدا ذلك يكفي الفيلق الأفريقيّ أن يحتفظ بما حقّقه من نجاح ؛ ذاك أنّ القيادة الألمانيّة كانت تعتقد أنّ الحرب في «روسيا»ستنتهي في الخريف، فيتسنّى لها إذ ذاك أن تنصرف لفتح الشرق بقوّات لا حصر لها .

حدّد الغربيّون نهاية المقاومة الروسيّة كما حدّدها الألمان تقريباً . كانت ضراوة المعارك تثير قلق «تشرتشل» أكثر ممّا تثير اطمئنانه ، إذ كان يعتقد أنّها تدرّب ملايين المقاتلين الألمان فتجعل منهم أعداء مخيفين يوم تدقّ ساعة الانقضاض على «بريطانيا» . أمّا في «أميركا» فما زال التقدير الأوّل هو المقبول : ثلاثة أشهر ويقضي «هتلر» على «روسيا». وهكذا كتبت صحيفة «التايم»: «تحملنا المقارنة بحملة «نابوليون» على الاعتقاد بأنّ المجتاحين إذا ما توغّلوا في «روسيا» المترامية الأطراف سيُهزمون كما هزم «نابوليون» بفعل الطقس والأبعاد؛ إلاّ أنّ «هتلر»، بفضل طائراته وشاحناته ، يبدو خفيفاً على ساقيه رشيقاً كراقصة الباليه . ولسوف يدمّر الجيش الأحمر الثقيل قبل أن يتّسع أمامه وقت استدراجه بعيداً لإتلافه ...»

إنّ «روسيا» ، هذه الباسلة المقضيّ عليها ، تثير مشكلة : أينبغي مساعدتها ؟ إنّ ما تمثّله من شيوعيّة وإلحاد ودكتاتوريّة يثير مقت «أميركا» كما تثيره النازيّة ؛ فالواقعيّة السليمة تقضي بإفساح مجال الاقتتال أمام النظامين الدكتاتوريّين الطاغيين المتساويين في سفك الدماء وفي امتهان حقوق الفرد ؛ ولقد وفّرت «روسيا» «لانكلترا» و «أميركا» فرصة انتهاج هذه السياسة السلبيّة لأنّها أتاحت للعدوان الهتلريّ فرصة مناسبة واستمرّت في مساعدة «ألمانيا» حتى آخر لحظة . إذ ذاك يشهد العالم الهتلريّة عرضة لحربين متوازيتين قد استقلّت الواحدة منهما عن الأخرى: حرب الديمقراطيّات وحرب الشيوعيّة ؛ هذا فضلاً عن الفرصة الرائعة التي توفّر لكلّ من الدكتاتوريّتين وسيلة دفن الأخرى .

لقد جعل اندفاع «تشرتشل» اعتماد مثل هذه السياسة أمراً مستحيلاً . في الواقع وضع بطل العداء للشيوعيّة هذا نفسه تلقائيّاً في خدمة «روسيا» يوم أخذ على نفسه عهداً بمساعدتها قبل أن تطلب منه ذلك . ثمّ مرّت أيّام فإذا به يوقّع معها معاهدة رسميّة يتعهّد فيها الطرفان بتبادل المساعدة والامتناع عن القبول بصلح منفرد . مذ ذاك توافرت لمتطلّبات «ستالين» أسس قانونيّة، وكان على «تشرتشل» أن يرفض باستمرار تهديدات تزداد قحتها يوماً بعد يوم ؛ فها هو السفير «ميسكي» يتّهمه مواجهة بالتنكّر للتحالف بإفساحه مجال نقل ٤٠ فرقة ألمانيّة من الغرب إلى الشرق ؛ وها هو «ستالين» يطالب بـ ٣٠ فرقة انكليزيّة لمعركة «روسيا» إذا لم تُفتح جبهة ثانية . وهذا لن يمنع المؤرّخين السوفيات من اتّهام الغربيّين بأنّهم قد أرادوا إرسال بعض القوّات إلى «الاتّحاد السوفياتيّ» بغية إحياء الرأسماليّة . ولكنّ «انكلترا» ، سعياً منها لدعم المجهود الحربي الروسيّ ، أخذت تقتطع مذخوراتها ، وتقسم المعونة الأميركيّة ، ثمّ احتلّت «إيران» ونظّمت قوافل «مورمانسك» و «أرخانجلسك» التي ستكون أفظع قوافل الحرب . ومع هذا لن تعرف من الشكر غير سوء الظنّ والإهانات .

أمّا «روزفلت» فقد كان أكثر تحفّظاً في أوّل الأمر نظراً لحساسية الرأي العامّ المرهفة عنده ؛ فأوفد سفيره الخاصّ ، «هاري هوبكنز» إلى «موسكو» بحثاً عن فكرة دقيقة عن الأوضاع . ولكنّ «هوبكنز» كان مصاباً بخوف غريزيّ من الطائرات ، فسافر من «إرلندا» إلى «البحر الأبيض» على متن طائرة بطيئة ، معرّضاً نفسه لخطر القواعد الألمانيّة في «نروج» فضلاً عن الخطر الجوّيّ المنتشر في النقاط الشماليّة النائية . ومن «أرخانجلسك» ركب قاذفة قنابل روسيّة طارت به على ارتفاع الغابات وحطّت به في «موسكو» وهو في ما يشبه النزاع ؛ فاكتشف هناك



قافلة بحريّة في المحيط المتجمّد الشماليّ تحمل الذخائر إلى «الاتّحاد السوفياتيّ» وفقاً لاتّفاقيّات «الإعارة والتأجير» . وقد وُفّقت إحدى القاذفات الألمانيّة إلى إصابة إحدى سفنها على الرغم من حماية الطائرات البريطانيّة .

الارتياب الروسيّ ، والخوف المرَضيّ من التجسّس ، واستحالة الحصول على أيّة معلومات عسكريّة أو اقتصاديّة . وعاد مزوّداً بطلبات لا تقلّ فيها الضخامة عن الغموض ، ولكنّه عاد مقتنعاً بأنّ الوضع الروسيّ أقلّ مدعاة لليأس ممّا كان يبدو من بعيد . وهكذا سقط أحد الاعتراضات التي قامت في وجه المساعدة ، وهو القائل بأنّ العون لن يصل إلاّ بعد فوات الأوان .

ومع هذا كلّه لم يُمنح الروس في الحال حقّ الإفادة من مبدإ الإعارة والتأجير ؛ فلقد خوّلهم «روزفلت» حقّ الإفادة من قانون الحياد ، وسمح بتسليم شحنات أميركيّة عن طريق مرافىء المحيط الهادىء ، ورضي باستقبال بعثة عسكريّة أذهلت سلطات «واشنطن» باعتدادها وخشونتها . بيد أنّه كان يترتّب على «الاتّحاد السوفياتيّ» أن يدفع ثمن اللوازم التي يتسلّمها في مهلة أقصاها آخر تشرين الأوّل . أوصي على عتاد قيمته ٩٢ مليون دولاردفع منها نقداً ٤٢ مليوناً؛ ثم ما لبث «روزفلت» أن قبل بإشراك «الاتّحاد السوفياتيّ» بمشروع الإعارة والتأجير ، مستغلاّ الحركة العاطفيّة التي ولّدتها البسالة الروسيّة .

حصلت أوّل بادرة عدائيّة اميركيّة ضدّ «ألمانيا» في ١٠ نيسان : فبعد ما أنقذ الليوتنان «ا.ر. دورجين» ، قائد المدمّرة «نبلاك» ، بحّارةً أشرفوا على الهلاك ، لم يتمالك نفسه فأصلى الألمان الذين أغرقوا سفينتهم بعض الطوربيدات ؛ وفي الشهر التالي أغرقت الغوّاصة الألمانيّة أو ــ ٦٩ سفينة الشحن الأميركيّة «روبين مور» . صحيح أنّ «هتلر» قد عاقب قائد الغوّاصة ، إلاّ أنّ «روزفلت» أفاد من الفرصة لبسط منطقة الأمان الأميركيّة حتى الدرجة ٢٦ من خطّ الطّول الغربيّ . وأخذت «أميركا» تقوم بأعمال الدوريّة في ثلثي المحيط الأطلسيّ الشماليّ ، وتستقبل السفن البريطانيّة في قوافلها ، وتسعف البحريّة الملكيّة في تحديد مواقع الغوّاصات ، وتعلن أنّ دخول أيّة قطعة حربيّة في منطقة أمنها عمل عدوانيّ ، إلاّ إذا كانت السفينة تابعة لدولة لها ممتلكات في النصف الغربيّ من الأرض . كان مبدأ «واشنطن» أن توفّر «لبريطانيا العظمى» أقصى مساعدة ممكنة ؛ وهكذا أخذ السلم يضعف أسبوعاً بعد أسبوع .

في ٧ تمّوز احتلّ الأميركيّون «ايسلندا» ؛ فقد واكبت «تاسك فورس ١٩» ، التابعة للبحريّة الأميركيّة ، لواء البحّارة الأميركيّ الأوّل إلى «ريكيافيك» ، وكان بإمرة البريغادير جنرال «جون مارستن» . وقد انتُزع الإذن الإيسلنديّ في اللحظة الأخيرة من رئيس الوزارة «هرمان جوناسون» ؛ أمّا الانكليز الذين كانوا يقيمون في الجزيرة منذ اجتياح «الدانمرك» في آذار ١٩٤٠ فقد تخلّوا بسرور عن مركزهم لأبناء عمّهم ؛ علّل «روزفلت» هذا القرار بحجّة الدفاع عن النصف الغربيّ من العالم ، ولكنّ ذلك لم يخدع أحداً ؛ فالحركة هجوميّة ، و «أميركا» تقترب من «ألمانيا» وتضع رجلها في بلد ينتمي اسمياً إلى «أوروبا» . كانت احتجاجات الانعزاليّين وتصريحات «ويلر» و «ليندبرغ» بمثابة نداءات تدعو إلى الثورة ، بيد أنّ زعماء الكونغرس أيّدوا الرئيس .

إتّسعت حرب المحيط الهادىء في الوقت الذي اتّسعت فيه حرب الأطلسيّ ؛ ذاك أنّ هذين المحيطين لم يبقيا ، كما كانا ردحاً من الزمن ، تينك الحفرتين الفسيحتين اللتين تحميان « أميركا» المنطوية على نفسها ، بل أصبحتا على العكس تشركانها في النزاع الشاسع بشكل لا تستطيع إلى دفعه سبيلاً .

في ١٣ نيسان وقّع «ماتسووكا» ، وزير خارجيّة «اليابان» ، معاهدة عدم اعتداء مع «الاتّحاد السوفياتيّ » ؛ ويبدو غريباً أن تكون «ألمانيا» قد شجّعته على ذلك ، ولكنّ عملها منطقيّ في الواقع . صحيح أنّ «هتلر» كان يوشك أن يشنّ الحرب على «روسيا» ، بيد أنّه كان مقتنعاً من أنّه في غنى عن أيّة معونة لربحها ؛ مع العلم بأنّ «انكلترا» هي العدوّ الأخير . إذاً فمن المهارة صرف «اليابان» عن المغانم السوفياتيّة لتوجيهها نحو جنوبيّ شرقيّ «آسيا».وقد قال «ريبنتروب» «لماتسووكا» : «إنّ الفوهرر هو أكبر خبير عسكريّ في أيّامنا . فباستطاعته أن يساعدكم في الاستيلاء على « سنغافورة» بإطلاعكم على الخطط التي نجحت نجاحاً باهراً في احتلال التحصينات الغربيّة». بيد أنّ الرجل الأصفر لم يفهم .

مضت أسابيع قلائل فإذا «بألمانيا» تنقضّ على «روسيا» ؛ إذ ذاك فهم «ماتسووكا» أنّ ماكيافيلّي «برلين» قد خدعوه ، فألّح على «اليابان» في أن تعمد إلى مناورة معاكسة فتهاجم في الحال الجيش الأحمر المرابط في الشرق الأقصى ،لأنّ المغانم رائعة مغرية : فهناك «فلاديفوستوك» والولاية البحريّة ، ووادي «الآمور» ، ولن يتمكّن «الاتّحاد السوفياتيّ» من الدفاع عن هذه الممتلكات القاصية فيما يتلّقى بصدره صدمة الجيش الألمانيّ .

إستنفد «ماتسووكا» ما له من مكانة ، غير أنّ سيطرة البحريّة كان لها الفضل في تقرير الأركان ، فكانت الغلبة للاتّجاه الجنوبيّ ؛ ذاك أنّ الخيرات الفائضة السهلة المتناول ، والأرزّ، والنفط ، والقصدير ، والمطّاط ، كلّها في «الفيليبين» و «الهند الصينيّة » و «ماليزيا» و «الهند الهولنديّة» ، فيما كانت «اليابان» تشرف على الموت من شدّة العوز ، وكانت تحارب «الصين» منذ أربع سنوات . صحيح أنّها قد عاثت في «الصين» فساداً ، ولكنّ قواها قد نفدت ، وساد فيها البؤس ؛ فالأرزّ مقنّن ، والسكّر قد اختفى ، واللفائف لا وجود لها ، والموادّ الاوّليّة غير متوافرة ، وصناعة النسيج تعمل بنسبة ٤٠ بالمئة من طاقتها . إنّ فتوحات الشمال ، كفتح «منشوريا» مثلاً ، تعني استثماراً يزيد في إرهاق البلاد موقّتاً على الأقلّ ، بما يستلزمه من توظيف أموال ، أمّا فتوحات الجنوب فتعني مغانم وأسلاباً . وهكذا مرض «ماتسووكا» دبلوماسيّاً ، واستقالت الوزارة بكاملها ، وأعاد تأليفها الأميرُ «كونوي» البالغ من العمر ثمانين سنة ، وتسلّم وزارة الخارجيّة أميرال شاحب مهمّته تنفيذ تعليمات الأركان .

كان الأميرال «كيشيزابورو نومورا» قد عُيّن سفيراً في «واشنطن» منذ أربعة أشهر ؛ كان يعرف «أميركا» لكونه قد عُيّن فيها ملحقاً عسكرياً سنة ١٩١٧ ، ولكونه قد تردّد إذ ذاك على سكرتير البحريّة المساعد ، «فرانكلين روزفلت» . وقد بذل جهوداً صادقة لم تعرف الكلل لمنع نشوب حرب يابانيّة أميركيّة ، فعقد أربعين اجتماعاً مع وزير الخارجيّة الهرم «كورديل هلّ» الذي كانت صحّته المتداعية ونكساته المتتالية تقطع المفاوضات باستمرار . بيد أنّ نشاط «نومورا» لم يثمر ؛ ففيما تضاربت التيّارات في «طوكيو» بين مُسالم وعدوانيّ ، ساد في «البيت الأبيض» تصلّبٌ يستمدّ وحيه من سبب سرّيّ : ذاك أنّ البحريّة قد تمكّنت من حلّ الشيفرة اليابانيّة ، وغدا الأميركيّون على بيّنة من نيّات اليابانيّين التوّسعيّة ؛ كانوا يدركون أنّهم لا يستطيعون تفادي النزاع في المحيط الهادىء إلاّ إذا وافقوا على تحقيق تلك النيّات . فقد أعلن الأمير «كونوي» للسفير الأميركيّ «غرو» : «تودّ «اليابان» أن يتحقّق توسّعها جنوبيّ غربيّ «آسيا» بصورة سلميّة ، إلاّ إذا كانت الظروف لا تسمح بذلك ! ...»

عجّلت الحرب الروسيّة ــ الألمانيّة في مجرى الأحداث ؛ وقلق العسكريّون اليابانيّون خوفاً من أن تفوتهم فرصة تاريخيّة . ففي ١٥ تموز أعلمت الحكومة الفرنسيّة سفير «روزفلت» ، الأميرال «ليهي» ، بأنّ «اليابان» تطالب باحتلال «الهند الصينيّة» احتلالاً شاملاً ، فراح «ليهي»

يحرّض على المقاومة، إلاّ أنّه ماكان بوسع «فيشي» إلاّ أن تكشف عن عجزها ، ولذا فقد فضّلت أن تضحّي هذه المرّة أيضاً ، فتمدّد لصالح «اليابان» الحكمَ المشترك الذي عرفته سنة ١٩٤٠ . وهكذا وُقّع على الاتّفاق ؛ بقي العلم الفرنسيّ خافقاً ، واستمرّت الإدارات الفرنسيّة في القيام بوظائفها ، واحتفظ الأميرال «ديكو» بمركزه . غير أن «سايغون» وخليج «كام ران» استحالا قاعدتين يابانيّتين تجري فيهما علناً الاستعداداتُ لاحتلال جنوبيّ شرقيّ «آسيا» . وكان جواب «روزفلت» على ذلك تجميد الأموال اليابانيّة ، وقطع التبادل التجاريّ مع «اليابان» . ولما حذت الحكومة البريطانيّة ، والحكومة الهولنديّة في المنفى . حذو «واشنطن» ، وجدت «اليابان» نفسها محرومة من الموّاد التي هي بأمسّ الحاجة إليها في اقتصادها الحربيّ ، ألا وهي النفط ، والمطّاط ، والحديد العتيق ، والقصدير . كانت الحرب مختمرة ، ومع هذا لم تنشب . عاد «نومورا» يجدّد حملته ، فاستؤنفت المحادثات ، وجرى العمل في إعداد مشروع لقاء بين «روزفلت» و «كونوي» ، وراح بعض الكتّاب العسكريّين يبيّنون أنّ قيام نزاع بين «أميركا» و «اليابان» أمر مستحيل؛ فلقد كتب أحد هذه المراجع يقول : «صيّادان وقف واحدهما على ضفّة نهر عريض فيما وقف الآخر على الضفّة الثانية ، وراح كلّ منهما يهدّد الآخر بقصبته . ولكنّ المحيط الهادىء سيبقى جديراً باسمه ...»

أحوال «أوروبا» الأسيرة

في «أوروبا» كان الجوع والفاشستيّة في تقدّم مطّرد؛ كان الغذاء مقنّناً في بلدان القارّة الأربعة والعشرين ، بما فيها العجائبيّتان الحياديّتان «أسوج» و «سويسرا» ؛ فالحصص اليوميّة توازي ٨٠٠ حُرَيرَة في «بولونيا» ، و ٩٦٠ في «بلجيكا» ، و ١،٥٠٠ في «النروج» ، و ١،٦٠٠ في «فرنسا» ، و ١،٩٠٠ في «هولندا» ، و ٢،٢٥٠ في «ألمانيا» ، و ٢،٨٠٠ في «انكلترا» ؛ أمّا في «اليونان» فقد ولّد فقر الموارد الغذائيّة ، وانقطاع المواصلات ،وتصلّب العاطفة عند المنتصرين، مجاعة هائلة ؛ ففي «أثينا» ، التي اكتظّت باللاجئين ، انخفضت حصّة الخبز اليوميّة إلى ٣٠ غراماً ؛ وكانت العربات تلتقط الجثث من الطرقات وتفرغها من ثمّ في حفر عموميّة .

مجاعة ، وطغيان ... فقد أصبح «الغستابو» ، وهو الشرطة السريّة الألمانيّة ، في المرتبة الأولى بين المنّظمات الأوروبيّة ، وقد حظي في كلّ مكان بالمساعدات المحليّة التي أمدّه بها التعصّبُ ، والطمع في المكسب ، والجبن . وقد نظّم بيان «الليل والضباب» نفي الأفراد الذين اعتُبروا خطراً على «الرايخ» الألمانيّ . وأمّا معسكرات الاعتقال ، التي افتُتحت منذ ١٩٣٣ لتلتهم خصوم النظام الهتلريّ ، فقد اتّخذت طابعاً أوروبيّاً وتطوّرت بصورة وحشيّة ؛ فتحت وطأة الرقابة والاستبداد الإداريّ والرهبة البوليسيّة كانت «أوروبا» تغوص في الرعب والهول .

وأصاب اليهودَ من هذه المأساة النصيبُ الأكبر . فقد حُدّد وضعهم بالقوانين المدعوّة قوانين «نورنبرغ» . وازدادت هذه القوانين عنفاً في «ألمانيا» ، وصُدّرت إلى الخارج : فحَمْلُ النجمة الصفراء الذي فُرض على يهود «ألمانيا» في ١ أيلول ١٩٤١ قد عُمّم بسرعة في أنحاء «أوروبا» المحتلّة ، باستثناء «فرنسا» التابعة «لفيشي» التي رفضت العمل به . كانت النجمة الصفراء تحظّر على حاملها ارتياد الأماكن العامّة الرئيسة «كالشانزيليزيه» مثلاً ، وارتياد المخازن إلاّ في ساعات محدّدة ، فتطوّر بذلك وضع اليهود الغذائيّ بشكل مفجع ، نظراً للنقص في التموين . وكان هنالك حكم آخر يضطرّهم إلى العمل الشاقّ . ولكنّ إجراءات أخرى فائقة الأهميّة كانت تتمخّض في مخيّلات الحكّام النازيّين ، متجسّدة في مخطّط معيّن يرمي إلى إبادة اليهود عن بكرة أبيهم .

في البداية كان المذهب القوميّ الاشتراكيّ يقضي بطرد اليهود ليس إلاّ . كان على اليهوديّ أن يطهّر الأرض الألمانيّة من وجوده ، بعد أن يعيد ما كان لديه من ممتلكات حصل عليها بطريقة غير مشروعة . وكانت الحكومة الهتلريّة قد شجّعت الهجرة إلى «فلسطين» ، وفكّرت بانتزاع جزيرة «مدغشقر» من «فرنسا» المنهزمة لجعلها محميّة إسرائيليّة . وإذ بقيت المُحيطات مغلقة في وجه «ألمانيا» فقد عادت إلى الحلول القاريّة . إلاّ أنّ تطبيق مبدإ «هتلر» القاضي بإبعاد يهود «أوروبا» إلى ما وراء «الأورال» قد أُرجىء بسبب المقاومة السوفياتيّة ، فاقتصرت بذلك منطقة النفي على القسم البولونيّ الذي نُظّم على شاكلة«حكومة عامّة» برئاسة « هانز فرانك» وزير العدل السابق . ففي هذه المنطقة كانت الأحياء اليهوديّة تعجّ بالسكّان ، وقد فاضت أكثر فأكثر بقدوم الحشد البائس الذي انتُزع من مساكنه في «ألمانيا» أو في «أوروبا» الغربيّة ؛ وكان كلّ باب للرزق مسدوداً في وجه هؤلاء المهاجرين ، كما كان مسدوداً في وجه أولئك الذين ازداد وضعهم سوءاً بقدومهم . فهنالك قانون يحظّر على اليهود تعاطي الزراعة ، وقد حكم قانون آخر بطردهم «من كلّ تجارة ، وخصوصاً تجارة الموارد الزراعيّة والغذائيّة» ؛ وقد حرمهم قانون ثالث من إعاشات «اللحم ، والموادّ اللحميّة ، والبيض، والموادّ النشائيّة (باستثناء الخبز) ، والحليب ... وفي مذكّرات ضمّنت ٤٣ دفتراً كتب الحاكم العامّ «فرانك» أنّه يجب التفكير بالقضاء على ١،٢٠٠،٠٠٠ يهوديّ بإنهاك قواهم ، ويجب اتّخاذ إجراءات أخرى إذا لم تنجح هذه الخطّة . وهكذا تحوّلت سياسة النفي إلى إبادة جماعيّة . ولكنّ «فرانك» كان مصيباً في ظنّه : لقد كان الجوع سلاحاً بطيئاً ؛ فلم يطل الأمر بوزير العدل السابق ، ورئيس المشترعين القوميّين الاشتراكيّين ، حتّى تذمّر من الصعوبات الإداريّة ومخاطر انتشار الأوبئة التي يحدثها تكديس اليهود . وقد كتب بتاريخ ١٦ كانون الأوّل ١٩٤١ : «علينا أن نبيد اليهود حيثما وُجدوا» . وهكذا باشرت آلة الإبادة عملها ! وفي ٢٠ كانون الثاني ١٩٤٢ انعقد في «وانسي» مؤتمر ضمّ رؤساء إدارات «الرايخ» الرئيسة ، فقرّر أن يجد للقضيّة اليهوديّة «حلّاً نهائيّاً» ، إمّا بالنفي ، وإمّا بالإجراءات الأخرى الملائمة .

وفي قلب «أوروبا» المستعبَدة بقيت «فرنسا» غير المحتلّة معقلاً لحريّة جزئيّة . فما كان منها إلاّ أن تصلّبت بدورها . فبعد إقالة «لافال» استدعى «بيتان» لوزارة الخارجيّة أحد قادة النظام المنحلّ ، وهو «بيار إتيين فلاندان» ؛ كان هذا الخيار تعبيراً عن ميول «بيتان» العميقة والمتقلّبة في آن معاً ؛ فقد كان «فلاندان» في الماضي أحد أنصار «مونيخ» المتحمّسين ، ولكنّ أساسه الاشتراكيّ ، ومذاهبه السياسيّة ، وروابطه ، ومصالحه ، جعلت منه انكليزيّ الهوى . وإزاء هذا الوضع بدأت «أميركا» ، التي عيّنت في «فرنسا» سفيراً عالي القدر هو الأميرال «ليهي» ، صديق «روزفلت» الشخصيّ ، تعبّر عن فضولها وأملها .

إلاّ أنّ هذه التجربة دامت ستّة أسابيع ؛ فقد رفض «ريبنتروب» و «أبيتز» الاعتراف بوزير الخارجيّة الجديد ، فقدّر «فلاندان» الوضع ، وطلب إعفاءه من منصبه .

وعلى أثر ذلك سنحت الفرصة «لدارلان» . فقد تسلّم زمام السلطات كلّها وجعل أميرالاته يحكمون «فرنسا» . ولكنّ «بيتان» كان يبحث

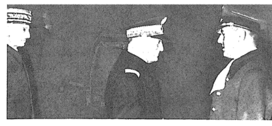
بدهاء عن عناصر توازنيّة . فأنشأ مجلساً وطنياً عيّن أعضاءه بنفسه . وأدخل إلى الحكومة أعياناً مثل «روميبه» و ««بارتيليمي» . وأتاح مجال البروز أمام بعض الوجوه الجديدة مثل «بوشو» و «ماريون» ، مغيظاً بذلك سلطة «دارلان» الاستبداديّة المتصلّفة . مذكّراً إيّاه بأن لسيادته حدوداً . ومع ذلك كان أكبر إخفاق مُني به «دارلان» هو تعذّر فرض نفسه تماماً على المنتصر الذي بقي «لافال» بالنسبة له «كويسلنغ» آخر . وهكذا كانت عودة العلاقات بين «لافال» و «بيتان» أكثر التهديدات خطورة وأكثر الإنذارات شؤماً في وجه سلطته . كانت العلاقات قد عادت منذ ١٨ كانون الثاني ١٩٤١ ، بغير علم «دارلان» . في قلب الريف ، وكأنّها موعد بين متآمرين ؛ أمّا البلاغ الذي وضعه الرجلان مشتركَين فقد وقع وقوع الصاعقة على الأميرال المُهان .

لم يتغيّر شيء في الظاهر ، وفي الباطن تغيّر كلّ شيء ؛ فقد بقي «فيغان» في «أفريقيا» ، ولكنّه كان في وضع مضطرب ، عرضة لوابل من الوشايات الصادرة عن الهتلريّين الفرنسيّين والألمان . وبدأ الأميرال «ليهي» يلاحظ تدريجياً الطابع الخرافيّ الذي اتّخذته الآمال في سبيل تقويم حكومة «فيشي» في وجه القوّة المحتلّة ؛ فقد كانت قوّات النفوذ الدكتاتوريّة والمناصرة للألمان تتجمّع قويّة حول المارشال العجوز .

في ١٢ آب كان الإخراج المسرحيّ في «فيشي» على قدم وساق ؛ ففي «الكازينو الكبير» كان السفراء ونخبة المدينة يشاهدون تمثيليّة «بوريس غودونوف» ؛ ولكنّ العرض توقّف برهة كي تُتلى على الجمهور رسالة «بيتان» تقول : «أيّها الفرنسيّون ، هنالك أمور بالغة الأهميّة أودّ أن أفاتحكم بها ...» وكانت الرسالة تعدّد الإجراءات الاستبداديّة المتّخذة : إلغاء الأحزاب السياسيّة كلّها ، مضاعفة قوى الشرطة ، محاكم استثنائيّة ، إعادة تنظيم الاقتصاد على أساس تعاونيّ ، وهلمّ جرّاً . فهذه الخطوة التي خطتها الحكومة الفرنسيّة نحو القوميّة الاشتراكيّة لم تمنع بعض هتلريّي «باريس» من التنديد بالحكومة بلا هوادة ، إذ كانوا يرون فيها بقاء ثوريّاً ، وخليّة مضادّة للألمان ، ورفضاً باطلاً للاستدارة باتّجاه الشمس المشرقة . كان هؤلاء يعتبرون أنّ «روسيا» قد غُلبت على أمرها ، وأنّ «انكلترا» قد خسرت الحرب ، وأنّ «أميركا» كانت سخافة لا أكثر ، وأنّ البولشفيّة والرأسماليّة واليهوديّة والتحرّريّة لا مناص من زوالها ، وأنّ مستقبل شعوب «أوروبا» رهن بالنظام الجديد، هذا النظام الذي لم تأتِ به الثورةُ الوطنيّة الفرنسيّة الهرمة ، بل أتى به «هتلر» !

وانتصبت في وجه التخاذل الحكوميّ الفرنسيّ المُخاتِل مقاومةٌ راحت تتطوّر تدريجياً ؛ فقد برز إلى حيّز الوجود حدث لم يسبق له مثيل في تاريخ الحروب كافّة .لم يكن هذا الحدث مقتصراً على «فرنسا» بل تعدّاها إلى أنحاء «أوروبا» جمعاء ، وحتّى إلى «ألمانيا» نفسها . فمن ناحية كان الصليب المعقوف يغطّي القارّة بكاملها ، وكانت السلطات القائمة في البلدان المحتلّة تساند «الرايخ» الثالث وجيشه عن اقتناع مبدئيّ أو عن إذعان للقسر . وكانت الموارد الاقتصاديّة ، وقوّة العمل ، وأدوات التحكّم بالعقول ، تحت تصرّف المنتصر بصورة مطلقة . ولكن من ناحية أخرى كانت الأرض تلتغم تحت خطاه ؛ فانتصاره يبقى بلا معنى ما لم يحظَ بتأييد المنهزمين ؛ وإذا بالعكس قد حصل : فالمنهزمون قد أُخضعوا في البدء ووقعوا في التجربة أحياناً ، ولكنّهم بدأوا بالنهوض في تحرّك بطيء ، ولكنْ قويّ .

في «فرنسا» كانت أوّل ظاهرة عامّة لروح المقاومة موكباً طالبيّاً حاول بتاريخ ١١ تشرين الثاني أن يصل إلى قبر الجنديّ المجهول ، وكان المشتركون فيه ينشدون النشيد الفرنسيّ ويلوّحون بهراوتين يرمز



لقد استولى الأميرال «دارلان» على السلطات كلّها . والصورة تمثّله مع «أوتو أبيتز» سفير «ألمانيا» .

اسمهما بالفرنسيّة إلى «ديغول» ، وهم يحيّون بهذا الرمز «رجل لندن» الصامت الذي كان ما يزال الغموض يحيق به ، والذي كان ما يزال موضعاً للارتياب . وكانت نتيجة الواقعة المفاجئة التي وقعت خلال الموكب مع الجنود الألمان أن سقط ستّة جرحى وقتيل واحد . ومن جرّاء ذلك كان الجزاء إقفال جامعة «باريس» مدّة ستّة أسابيع .

في تلك الحقبة كانت تباشير المقاومة قد بدأت تلوح ؛ ففي المنطقة الشماليّة كانت أولى المجموعات ، على الأرجح ، مجموعة «متحف الإنسان» التي أنشأها في أيلول ١٩٤٠ بعضُ رجال الفكر ؛ وفي المنطقة الجنوبيّة تعود الأسبقيّة إلى مجموعة «القتال» التي ابتدعها الكابتن «هنري فريني» والمُسعفة الاجتماعيّة الهولنديّة «برتي ألبرخت» التي قَطع رأسها فيما بعد جلاّدٌ ألمانيّ ؛ وكانت دائرة الاستخبارات البريطانيّة تسعى إلى إعادة شبكات الاستخبارات في «أوروبا» قاطبة ، وفي «النروج» و «هولاندا» خاصّة ؛ وكان المهاجرون في «لندن» ، من فرنسيّين وغيرهم ، يحاولون الانطلاق من عزلتهم مستندين إلى مواطنيهم المتمرّدين على الخنوع . ومنذ صيف ١٩٤٠ راحت بعثات اتّصاليّة توجّهها الأركان العامّة الديغوليّة تجوب «بروتانيا» و «نورماندي» .

وحين كان «ستالين» ما يزال حليفاً «لهتلر» كان الشيوعيّون من دعاة التعاون الفرنسيّ الألمانيّ ؛ وقد صرّحت لجنتهم المركزيّة بوجوب اعتبار الهزيمة الفرنسيّة «بمثابة انتصار» ، واعتبار الاستعمار الألمانيّ «كحليف عرَضيّ» . وقد سعوا في التفاوض مع سلطات الاحتلال لإعادة إصدار جريدة «أومانيتي» ، وطالب نقابيّوهم بأن يعاد العمل في الصناعات الباريسيّة الثقيلة لخدمة العدوّ المحتّمة ؛ وقد قذفوا «ديغول» بالشتائم نفسها التي كان يمطره بها الهتلريّون الفرنسيّون ، فكتبت صحيفة «أفان غارد» تقول : «يجب على الشّباب الفرنسيّ ألاّ يتوقّع خيراً من قائد قد استحال عميلاً للاستعمار الانكليزيّ ...» وكانت نشرات شيوعيّة أخرى تؤكّد أنّ القوميّة الاشتراكيّة تعمل لخير العمّال ، وراحت تطالب بسلم صالح مع «الرايخ» ، تمثّلاً «بالاتّحاد السوفياتيّ» .

ولكنّ ثمّة انقلاباً فوريّاً وقع في ٢٢ حزيران ١٩٤١ ؛ لقد انضمّ الشيوعيّون إلى المقاومة ، فاتّخذ القتال ضدّ المحتلّ طابعاً أكثر ضراوة ، مخالفاً تمام المخالفة روح الاتّفاقيّات الدوليّة التي حاولت تشريع الأعمال الحربيّة والحدّ منها . وفي ٢١ آب افتتحت يد شيوعيّة سلسلة الاعتداءات على العسكريّين الألمان، بقتل «موزر» ، مرشّح الضابط في البحريّة الألمانيّة ، على رصيف محطة مترو «باريس — روشوار» ؛ فأمر «هتلر» سلطات الاحتلال باعتقال مئة رهينة وإعدام خمسين منها في الحال رمياً بالرصاص ؛ غير أن «فيشي» استطاعت إنقاذ الرهائن ، ولكنْ كان عليها أن تفتدي الدم بالدم ، فأرسلت إلى المقصلة ستّة

أشخاص ، ثلاثة منهم شيوعيّون ، والثلاثة الآخرون من مجرمي الحقّ العامّ . إنّها بداية لدورة رهيبة !

لم يكن الوقت قد حان بعد للتكلّم على مقاومة شاملة ؛ فالمنظّمات الرئيسة ، كمنظّمة «التحرير للشمال والجنوب» ، و «القتال» ، و «الجبهة الوطنيّة» ، و «المنظّمة المدنيّة والعسكريّة» ، لن ترى النور ، او بالحريّ لن تعرف ثباتاً وقوّة إلاّ في ١٩٤٢ ؛ وكانت الصحف السريّة قد بدأت تظهر ، ومنها «أجنحة فرنسا الصغيرة» الّتي تطبعها «برتي ألبرخت» على الآلة الناسخة ، وهي صحيفة لم تكن قد بدأت عملها إلاّ في نيسان ١٩٤١ في «ليون» . والواقع أنّ الهزيمة كانت ما تزال قريبة ، وكان الشعور الذي أحدثته القوّة الألمانيّة ما يزال قويّاً ، وكانت الثقة الّتي وضعها الناس «ببيتان» ما تزال كبيرة تعوق الأمّة عن الانخراط في معركة فعّالة ضدّ المحتلّ .

هذا فضلاً عن أنّ المناوئين للتعاون مع «ألمانيا» لم يكونوا قد بدأوا بالعمل الفعليّ . ولكنّ العميل الذي كان مكلّفاً بتجنيدهم ، «فريتز شاوكل» ، وهو بحّار سابق ، ومفوّض «الرايخ» لليد العاملة ، كان قد أكبّ على عمله ؛ كانت مهمّته أن يوفّر للاقتصاد الحربيّ الألمانيّ سبعة ملايين ونصف المليون من العمّال الأجانب ، فكان نصيب «فرنسا» من هذا الرقم ، حسب حسابات «شاوكل» ، مليوناً واحداً ؛ ولكنّ الأمل في التعاون الوثيق ، الذي كان ما يزال قائماً ، ردع «شاوكل» عن التجنيد القسريّ ؛ فراح يحاول استدراج المتطوّعين مغرياً إيّاهم بأجور مرتفعة وغذاء أفضل . وكانت النتيجة أن استجاب لندائه ١٠٠،٠٠٠ من الفرنسيّين الشبّان بين تشرين الأوّل وحزيران ١٩٤١ . ولكن بعد نشوب الحرب الألمانيّة الروسيّة تدنّى عدد المتطوّعين الشهريّين إلى النصف ، وكنتيجة لإعادة الناس إلى أوطانهم انتقص عدد المدنيّين العاملين في «ألمانيا» بدلاً من أن يرتفع ، فانخفض هذا العدد في تموز ١٩٤٢ إلى ٧٠،٠٠٠ . واعتبر «شاوكل» هذا العدد تافهاً ، وأنذر حكومة «فيشي» بإبطال محاولاتها في عرقلة جهوده . وقد نتجت عن هذا الإنذار ولادة «مصلحة العمل الإجباريّ» الّتي ستؤدّي إلى نفور الكثيرين وانضمامهم إلى المقاومة في الأدغال .

ولنتابع دراسة أحوال «أوروبا» الأسيرة في الوقت الذي اتّخذت فيه الحرب انعطافاً جديداً بسبب الاعتداء على «روسيا» . ففي «بلجيكا» كان الكولونيل الخبير «لنتز» قد نظّم أوّل حركة للمقاومة في ١٩٤٠ ؛ وفي «هولندا» اتّخذت ملاحقة اليهود أشكالاً مفجعة ، ولكنّ بعض التسامح حيال «ألمان البحر» مكّن «شاوكل» من تجنيد ١٤٠،٠٠٠ عامل هولنديّ في بضعة شهور ؛ وفي «النروج» لم يتمكّن «كويسلنغ» من الوفاء بوعده في جرّ شعبه الآريّ الشماليّ في التيّار الهتلريّ . لقد كانت «أوروبا» بكاملها تتصلّب بأشكال شتّى تختلف بفارق بسيط تمليه الأوضاع والأمزجة القوميّة المختلفة . وفي «ألمانيا» نفسها لم تكن انتصارات الجيش الألمانيّ لتزيل صورة وسائل العنف الّتي راحت تشتدّ يوماً بعد يوم ؛ فباستثناء الأحكام الّتي أصدرتها المحاكم العسكريّة ، أبرزت ملفّات وزارة العدل أنّ عدد أحكام الإعدام الّتي صدرت بحقّ الرعايا الألمان لأسباب سياسيّة قد بلغ ١،١٤٦ سنة ١٩٤١ ، و ٣،٣٩٣ سنة ١٩٤٢ ؛ أمّا البلدان المحتلّة فإنّها لم تعرف هذه الأرقام في ذلك الوقت .

غير أنّ المقاومة المسلّحة كانت قد ظهرت مبكّرة في البلدان البلقانيّة والسلافيّة الّتي كانت عرضة لضغط لا يعرف الرحمة ؛ فقد بدأت في «اليونان» بتاريخ ٣١ أيّار ١٩٤١ ، يوم قام صبيّان يونانيّان بتسلّق واجهة «الأكروبول» لانتزاع العلم النازيّ . وفي



أوقف الكونت «إيتيين دورف» ، الضابط في بحريّة «فرنسا الحرّة» ، أثناء قيامه بمهمّة في «فرنسا» ، وأعدم في آب ١٩٤١ بتهمة القيام بنشاط سرّيّ ضد «ألمانيا» . وقد أعدم بعده في ٢٢ تشرين الأوّل ١٩٤١ الفتى «غي موكي» وعمره ١٧ سنة (إلى اليمين) . وقد خلّف الضابط وصيّة فكريّة صافية المعاني عميقة الوطنيّة في وثيقتين : «مذكّرات عائلة» (وهي موجّهة إلى أولاده)، و«مذكّرات سجين» .

«يوغوسلافيا» لم يكن هنالك حلّ استمراريّ بين القتال العسكريّ ، الذي كان ضعيفاً ، والقتال الثوريّ : فبعد ما أبى الكولونيل «دراغا ميخايلوفيتش» الاستسلام ، التجأ إلى «الهرسك» . وفي «رافنا غورا» القاسية شرع يعدّ حرب عصاباته . ولم يبرز «تيتو» إلى الساحة إلاّ بعد مرور شهور ثلاثة ، بعد نشوب الحرب بين «ألمانيا» و «الاتّحاد السوفياتيّ» بزمان قصير .

وكان الوضع مماثلاً في «بولونيا» ؛ ففي غد الهزيمة كان الجنرال الكونت «كوموروفسكي» في «كراكوفيا» يستعدّ للجوء إلى «المجر» . ولكنّه عاد فاعتبر أنّ من واجبه البقاء على أرض الوطن للقتال ، فاتّخذ اسم «بور» الحربيّ ، وأنشأ ، بالاشتراك مع الحكومة البولونيّة المنفيّة ، عصبة «نصر بولونيا» . وكان قبو صندوق التوفير في «فرصوفيا» مهداً لهذا الجيش السرّيّ الذي كان يتضخّم بالهاربين من الحاكم العامّ «فرانك» ، منفّذ أوامر «هتلر» الرامي إلى تحطيم «بولونيا» كي يتسنّى «لألمانيا» أن تعبّ ما طاب لها من خزّانها الغنيّ باليد العاملة . فمنذ ١٩٣٩ ، وقبل أن يحرّك الشيوعيّون ساكناً ، كانت «عصبة نصر بولونيا» قد بدأت بنسف القُطُر ، وبمهاجمة المفارز الألمانيّة ؛ كانت تضمّ في سنة ١٩٤١ ٤،٠٠٠ ضابط ، و ١٦،٠٠٠ صفّ ضابط ، و ١٠٠،٠٠٠ رجل ، و ١،٥٠٠ وحدة . وكنتيجة لمظاهر النشاط هذه أُنزلت بالسكّان عقوبات جمّة ، كتوقيف أساتذة جامعة «كراكوفيا» جميعهم ، وإعدام ١٠٧ رهائن في «فافر» قرب «فرصوفيا» .

وفيما كانت «أوروبا» تئنّ وترتعش تلقّت رسالة مفاجئة من «العالم الجديد» ؛ فقد اجتمع «روزفلت» و «ونستون تشرتشل» سرّاً في أحد خلجان «الأرض الجديدة» في ٨ آب . كان «تشرتشل» قد قدم إلى مكان الاجتماع على ظهر «برنس أوف ويلز» الذي شُفي من الجروح الّتي أثخنه بها «البسمارك» ، أمّا «روزفلت» فقد ذهب تحت ستار رحلة لصيد الأسماك ، ولكنّه ما لبث أن أمر يخته بمتابعة طريقه على سبيل التضليل وانتقل إلى ظهر الطرّاد «أوغوستا» . كانت دوائر الاستخبارات العدوّة تجهل كلّ شيء عن هذه المقابلة ، لذلك أتت «شرعة الأطلسيّ» مفاجأة «لهتلر» ، غير أنّه اكتفى بهزّ كتفيه مكرّراً أنّ «روزفلت» لم يكن غير

أداة لليهوديّة ، وأنّ «تشرتشل» كان في وضع يائس ؛ وأصدر «غوبلز» أوامره إلى الصحافة الألمانيّة والصحافة الأسيرة بأن تسخر من البيان الأنغلو ساكسونيّ. وقد تناول هو نفسه القلم فكتب : «إذا ربح «ستالين» الحرب سيرى «روزفلت» و «تشرتشل» ما سيفعله بورقتهما الصغيرة ...»

هذه الورقة الصغيرة العقائديّة أرادها«روزفلت» ، أمّا «تشرتشل» فقد كان يسعى خصوصاً إلى بحث المساعدة الأميركيّة ، وإمكان المقاومة الروسيّة ، ومدى المطامح اليابانيّة . ولكنّ الأميركيّ كان يرى لزاماً على الدولتين شبه الحليفتين أن تعلنا بطريقة شرعيّة عن أهداف القتال الذي لم يكن قد بدأ بعد بالنسبة لإحداهما . وقد تمّ الاتّفاق من غير جدال على مبادىء ثمانية : تجرّد الحلفاء ، استبعاد أيّ تغيير إقليميّ إلاّ إذا كان نتيجة لقبول السكّان ، حريّة اختيار الشعوب أنظمتها ، حريّة الحصول على الموادّ الأوليّة ، تعاون اقتصاديّ ، القضاء على الخوف والعوز ، حريّة استخدام البحار ، نزع السلاح . أمّا العالم الذي كانت هذه البنود الدينيّة التقيّة موجّهة إليه فقد كان مقتنعاً بأنّها تحجب اتّفاقيّات سريّة ، وأنّ رئيس الحكومة البريطانيّة لم يقم برحلته البحريّة الخطيرة للاشتراك في التوقيع على حقائق بديهيّة ، وأنّ اشتراك «أميركا» في الحرب قد تمّ الاتّفاق عليه في خليج «أرجانتيا» . ولم يحاول «تشرتشل» تبديد هذا الوهم .

ويوم الأحد ١٠ آب ، وهو اليوم التالي للتوقيع على الشرعة ، أُقيمت على سطح «برنس أوف ويلز» الحلفيّ خدمة إلهيّة لتكريس النيّات الأنغلو ساكسونيّة ، اشترك فيها الرئيسان بترنيمة «إلى الأمام أيّها الجنود المسيحيّون» ، تحت فوّهات مدافع من عيار ١٤ بوصة ؛ فبهذا تكون «شرعة الأطلسيّ» قد حصلت على معموديّة ديمقراطيّة ودينيّة . ولم يكن ينقصها غير إسهام رفيق السلاح الفريد الذي كانت «انكلترا» و «أميركا» متحالفتين معه !

"هتلر" يقرّر : "أوكرانيا" أوّلاً.

بدأ «هتلر» في ٢٣ حزيران حياة العزلة الّتي سيلازمها حتّى مماته . حملت قُطُر خاصّة قيادةَ الجيش العليا نحو «بروسيا» الشرقيّة حتّى محطّة «فورست غورليتز» الواقعة على ٥ كلم شرقيّ مدينة «رستنبورغ» الصغيرة ، في غابة باردة صامتة عطِرة . هنالك أُقيم«جُحر الذئب» وسط حقل سداسيّ الشكل زُرعت فيه الألغام ونُصبت فيه الأسلاك الشائكة . انتثرت بين الأشجار بيوت ريفيّة تزيّنها الأزهار جُعلت مكاتب ومساكن «لكيتل» و «جودل» و «بورمان» و «شبير» ، ولعدد ضئيل جدّاً من الضبّاط والخدم . وكانت هناك أيضاً قاعة الخرائط الخاصّة «بهتلر» ، فضلاً عن قطاره المصفّح وهو دوماً على أهبة الرحيل . لقد ساد المكانَ الضيّقَ فضيلةٌ رهبانيّة ، وعزلةٌ أشبه بعزلة النسّاك ، وسأم لا تلين له قناة .

في «جحر الذئب» كان الفوهرر يفيق من نومه في الساعة ١٠ ، فيتناول فَطوره في سريره ، ويطّلع على العرض الصحافيّ الذي تهيّئه له وزارة الخارجيّة . وبما أنّه لم يكن يعرف أيّة لغة أجنبيّة فقد كانت مقتطفات الصحف الغربيّة تُترجم له ؛ وبما أنّه كان ضعيف النظر كانت النصوص تُطبع بأحرف كبيرة جدّاً على آلة كاتبة خاصّة . أمّا التقرير اليوميّ الكبير فيبدأ ظهراً ويمتدّ حتّى الساعة الثانية . ويُخصّص ما بعد الظهر لقيلولة تمتدّ حتّى الساعة ٦ أو ٧ . إذ ذاك يُجري «هتلر» بعض المقابلات ، ويتناول طعام العشاء ، ثمّ يخطب بإسهاب حتّى حوالي الرابعة صباحاً في حلقة من المقرّبين والزوّار . لم تكن تلك حياة متعبة ، «فهتلر» كان يكره عمل المكتب ويثق بحدسه أكثر ممّا يثق بالدرس ؛ إنّما كانت حياة هادئة منظّمة . في مطلع الحرب كان يزور الأفواج أحياناً ، وربّما تناول بين جنوده بعض الوجبات ؛ إلاّ أنّ هذه الاتّصالات قد انقطعت منذ الحملة الروسيّة ، فباتت الجبهة الّتي يسقط فيها الكثيرون من الألمان عالماً مجهولاً بالنسبة للفوهرر . كيف لا وهو لن يعرّض حياته قط لأهواء قذيفة ، كما أنّه لن يعرّض إحساسه لمشهد مستشفى ؟ أمّا الحرب بالنسبة له فقد انقلبت مع الأيّام فكرة مجرّدة يسودها تحكّم الخريطة وخرافة إرادته الجبّارة الّتي فرضت شريعتها على الناس والأحداث .

حلّت قيادتا الجيش والطيران في «أنغربورغ» على ضفّة بحيرة تبعد ٤٠ كلم من «رستنبورغ» . وما كان قائدا الجيش «براوشيتش» و «هالدر» يؤمّان مقرّ الفوهرر إلاّ بدعوة منه ، فينتقلان بواسطة قطار قديم ليس فيه غير عربة واحدة . لقد عرفا من الاستقلال الذاتيّ ما لم يتوافر لهما أثناء الحملة على «فرنسا» لأنّ تدخّل «هتلر» في التفاصيل بات أقلّ . إلاّ أنّ خططهما كانت تحت رحمة قرارات «جحر الذئب» وعرضة للتبديل في كلّ لحظة . هكذا بلغهما أحد هذه الأوامر في المذكّرة رقم ٣٥ في ١٩ تموز ، آمراً بتجزئة مجموعة الوسط وبتوجيه قسم من قوّاتها المصفّحة نحو «لينينغراد» ، ثمّ بتوجيه القسم الآخر نحو «أوكرانيا» لمساعدة مجموعة الجنوب في إنشاء قاعدة انطلاق نحو «القفقاس» . ظلّ «هتلر» أميناً لاعتقاداته السابقة ، فوضع أمر احتلال «موسكو» في المرتبة الثالثة من اهتمامه . كان العالم كلّه يتوقّع احتلالاً قريباً لعاصمة البلشفة ، وكانت الضربات الهائلة المنهالة على محور «فيلنا — فيبسك — سمولنسك» تبدو وكأنّها تثبت أنّ «هتلر» يقتفي آثار «نابوليون» . ولكنّ الواقع لم يكن كذلك .

حاول «براوشيتش» و «هالدر» في ٢٣ تموز إقناع «هتلر» بالعودة عن قراره مبيّنين أنّ «موسكو» هي الهدف الرئيس حتّى ولو لم تُراعَ إلاّ الاعتبارات العسكريّة البحتة ، مظهرَين أنّ «موسكو» هي مركز مواصلات العدوّ ، والرابطة الوحيدة الّتي تصل «روسيا» الشماليّة «بروسيا» الجنوبيّة و «روسيا» الأسيويّة «بروسيا» الأوروبيّة . واستشهدا «بهتلر» ضد «هتلر» الذي كان دوماً يقول إنّ الهدف الذي ترمي إليه الحملة إنّما هو تحطيم القوّات المعادية ؛ وها هم الروس يحشدون كلّ ما يستطيعون جمعه من إمكانات أمام «موسكو» للذود عن حياض عاصمتهم ، إذاً فلا بدّ من القيام بعمليّة الإبادة هناك .

ويظهر أنّ حجج الجنرالين قد زعزعت «هتلر» أكثر ممّا بدا عليه ؛ فقد كتب «هالدر» في يوميّاته مساء ذلك اليوم : «موسكو» لا تثير اهتمام الفوهرر في الوقت الحاضر ، بل «لينينغراد» . ففي ٣٠ تموز علّقت مذكّرة الفوهرر رقم ٣٤ إرسال المجموعة المصفّحة ٣ إلى مرتفعات «الفلداي» آمرة بأن تُتاح للدبّابات استراحة قصيرة يعاد فيها تنظيم المواصلات . والواقع أنّ الحاجة إلى ذلك كانت مُلحّة ، لأنّ الطرقات القليلة قد أُصيبت بأضرار فادحة . ولقد تبيّن أنّ تطوير الخطوط الحديديّة الروسيّة بإرساء سكّة ثالثة عمليّة طويلة ، مع العلم بأنّ عمليّات التدمير الّتي تقوم بها القوّات الروسيّة المتقهقرة ضخمة هائلة ؛ ففيما تنظّم هذه المؤخّرات الصعبة تستعيد فرق الدبّابات أنفاسها ، ويرتاح رجالها ، وتنظّف وحداتها . وعاد «براوشيتش» و «هالدر» يأملان بأن تُهمل تحرّكات الجناح الّتي طالما دغدغت خيال الفوهرر

ويُستعاض عنها بمعركة بسيطة واضحة المعالم تهدف إلى احتلال «موسكو» . وإذا «بهالدر» يتنفّس الصعداء في يوميّاته ويقول : «لقد أخذ الكابوس يتبدّد . أخيراً لمعت في الأفق بارقة أمل ...»

وفجأة عاد كلّ شيء فتبدّل ! ففي ٤ آب استُدعي قوّاد جيوش مجموعة الوسط إلى «نوفي بوريسوف» ، مقرّ «بوك» العامّ . وصل «شتراوس» و «فون كلوغي» و «فون فايخس» و «هوث» و «غوديريان» . فإذا «بهتلر» ينتظرهم هناك ، ولم يكن أيّ منهم قد رآه منذ بدء الحملة . فأعلن الفوهرر أنّه قد أتى يستشيرهم في أمر تحديد هدف العمليّات المقبلة ، ولكنّه أردف أنّه يود استمزاج رأي كلّ منهم على حدة ، فلا يشاور أحد أحداً ولا يضغط أحد على أحد . وهكذا عُزلوا في مكاتب مختلفة على أن يمثلوا واحداً واحداً أمام كرسي الاعتراف ؛ فإذا بهم مجمعون مصمّمون على احتلال «موسكو» .

عُقد بعد ذلك اجتماع عامّ ، فشرح «هتلر» ضرورة السعي إلى «لينينغراد» أوّلاً نظراً لأنّ احتلالها يعزل الروس عن «البلطيق» ، ويزيل كلّ تهديد يتعرّض له استيراد المعادن الأسوجيّة ، ويفقد العدوّ أثمن مستودعات سلاحه . وبعد ذلك تُطرح مسألة الاختيار بين «موسكو» و «أوكرانيا» . وقال «هتلر» : «لم أتّخذ قراري بعد ، إلاّ أن «أوكرانيا» تبدو لي أنسب مبدئيّاً ، نظراً لثرواتها الزراعيّة والصناعيّة . واحتلال «القرم» يفرض نفسه كذلك ، لأنّ «القرم» أشبه بحاملة طائرات تهدّد البترول الرومانيّ بالخطر . ثمّ يبقى لنا بعد ذلك متّسع من الوقت كافٍ لاحتلال «موسكو» قبل فصل الشتاء » .

وبعدما تمّ الأخذ بهذا الرأي انتقل البحث إلى التفصيل ؛ فانتهزها الجنرالات فرصة نادرة لإطلاع القائد الأعلى على مصاعب الحملة وعقباتها . فالدبّابة الروسيّة الممتازة ت ٣٤ (٢٦ طنّاً ، مدفع من عيار ٧٦ مم ، درع مصفّحة لا يؤثّر فيها المدفع الألمانيّ ٣٧) آخذة في التكاثر ؛ هذا وقد برزت إلى الميدان دبّابات أخرى جبّارة لم يُحسب لوجودها حساب ، وهي ت ٣٥ وزنتها ٤٦ طنّاً ، ودبّابات «كليم فوروشيلوف» من ذوات ٥٥ طنّاً ، وحتى ١٠٠ طنّ . يضاف إلى ذلك مفاجأة مزعجة أخرى هي «أرغن ستالين» أو «الكاتيوشكا الروسيّة» : فقذائفها الـ ٣٢٠ المنهالة في ظرف ٢٥ ثانية تُحدث شعوراً بالانسحاق يفقد أفضل الجنود صوابهم . تشدّد الجنرالات في ضرورة تزويد الجيش الألمانيّ بدبّابة أقوى ومدفع مضادّ للدبّابات أفعل ، أمّا في ما يتعلّق بالظرف الراهن فقد طلبوا دبّابات مناوبة لإعادة ما فقدته فرق الدبّابات من القدرة على القتال .

رفض «هتلر» ذلك قائلا إنّ الدبّابات التي تنتجها المعامل ضروريّة لتشكيل فرق مصفّحة جديدة . كلّ ما قبل به هو أن يخصّ مجموعة الجبهة الشرقيّة بـ ٣٠٠ محرّك تبديل ، وهو عدد تافه . وأفلت منه هذا الاعتراف إذ قال «لغوديريان» : «لو صدّقت أنّ في حوزة الروس ذاك العدد الضخم من الدبّابات الذي ذكرته في كتابك : «تأهّباً يا بنزر !» لما كنت شرعت في هذه الحرب » . كان «غوديريان» قد ذكر أنّ لدى الروس ١٠،٠٠٠ دبّابة ، ويظهر أن تقديره أتى أقلّ من الواقع بنسبة ٥٠ بالمئة .

بيد أنّ «هتلر» بقي مترجّحاً : . ففي ١٢ آب اكتفى ملحق بالمذكّرة رقم ٣٤ بأن يوجّه إلى «لينينغراد» الفيلق المصفّح ٣٩ ، فبدا لجنرالات مجموعة الوسط وكأنّ الزحف إلى «موسكو» هو الذي سيميل إليه «هتلر» . أمر «بوك» بسحب الفرق السريعة من الجبهة والاحتفاظ بها متأهّبة للقيام بهجوم عامّ ؛ فأرض الميدان ممتازة بعد ما أيبسها الصيف ، والروس منصرفون إلى أعمالهم المحليّة ، والاستطلاعات الجوّية تصوّر احتشادات عسكريّة ومدنيّة هائلة تقيم للدفاع خطّاً وراء خطّ بين «فيازما» و «موسكو» . غير أنّ معنويّات الجنود الألمان كانت رفيعة ، فراحوا يكتبون على دبّاباتهم وشاحناتهم عبارة «إلى «موسكو» » .

في ٢٣ آب وصل «هالدر» إلى «نوفي بوريسوف» ، حاملاً تعديل «هتلر» الأخير : لا «لينينغراد» ولا «موسكو» ، بل «أوكرانيا» . ذاك أنّ العدوّ ما انفكّ يقاوم أمام «كييف» ، وقد سبقت مجموعة «بوك» مجموعة «روندشتاد» ٣٠٠ كلم فاذا بها في جناح «بوديبني» ، فلا بدّ أن تنشأ من هذا الوضع الممتاز معركة إبادة لا تبقي ولاتذر ؛ فعلى «غوديريان» أن يستدير حول «روسلافل» ويهاجم باتّجاه الجنوب ، أمّا «كلايست» فيعبر «الدنيبير» قرب «كريمنتشوغ» ثمّ يهاجم باتّجاه الشمال ، فيحدث التقاؤهما أعظم تطويق عرفته الحرب . لا يسعى «هتلر» من احتلاله «أوكرانيا» إلى الحصول على مكاسب اقتصاديّة فحسب ، إذ من شأن هذه المرحلة الستراتيجيّة أن تنهي الحملة بتدمير آخر كتلة سليمة تملكها العدوّ .

أُرتج على «هالدر» وهو يحمل هذا القرار ، وأرتج على «بوك» وهو يتسلّمه ؛ ففي رأيهما أنّ صرف النظر عن الزحف على «موسكو» في الحال يعني الرضوخ لحملة شتويّة . وحين استُدعي «غوديريان» شاطرهما اقتناعهما وخيبتهما ، فاقترح عليه «بوك» أن يطير إلى الفوهرر لمحاولة حمله على تبديل رأيه ؛ فليس لأحد ما له من نفوذ ، وهو صاحب ثغرة «سيدان» ، ومحقّق انتصار «مينسك» ، وصاحب نظريّة المصفّحات ومطبّقها الأوّل ؛ فقبل «غوديريان» المهمّة ، وذهب برفقة «هالدر» ولكنّه اصطدم في «انغربورغ» «ببراوشيتش» الذي مانع وحظر عليه إعادة البحث في قضيّة «موسكو» بحجّة أنّ القرار قد اتّخذ ، وأنّ أيّ إلحاح يبدو مثاراً لعاصفة لا نفع فيها ... يجدر به أن يطلع الفوهرر على الوضع في الجبهة ، ولكنّ لا بدّ من أن يأخذ على نفسه عهداً بألاّ يذكر اسم «موسكو» .

كان يحفّ «بهتلر» جماعةٌ منهم «كيتل» و«جودل» و «شموندت» وغيرهم من ضبّاط قيادة الجيش العليا ، ما عدا «براوشيتش» و«هالدر» . فتح «هتلر» النار وسأل «غوديريان» ما إذا كانت قوّاته ما تزال قادرة على النهوض بجهد خطير بعد كلّ ما قاسته من المشقّات ، فأجاب «غوديريان» : «إذا كانت الغاية كبيرة بمتناول إدراك كلّ جنديّ ، فجوابي هو نعم » فقال «هتلر» : «أنت طبعاً تعني موسكو ؟» فردّ «غوديريان» : «نعم يا زعيمي» . وهكذا خرجت اللفظة المحرّمة .

ولكنّ «هتلر» لم يستشط غيظاً كما كان «براوشيتش» يخشى ؛ فطلب «غوديريان» أن يُسمح له بعرض الأسباب التي تستوجب الزحف على عاصمة العدوّ ، فسُمح له بذلك ، وعرضها عرضاً وافياً ؛ وأصغى إليه «هتلر» من غير أن يقاطعه ، ثمّ أجاب بإسهاب وقوّة ، وسأل بعد ذلك الحاضرين رأيهم ، فاستنكروا الأمر وأعلنوا أنّ القضيّة واضحة جليّة كالبلّور : «أوكرانيا» أوّلاً !

وحين خرج «جودل» مال إلى «غوديريان» وهمس في أذنه : «لا تقلق يا «غوديريان» . للفوهرر حدس لا يخطىء قطّ : فالحقّ دوماً إلى جانبه ...»

«ستكون «روسيا» بالنسبة لنا «كالهند» بالنسبة «لانكلترا» ... سنعْمرُ هذه الصحراء الروسيّة ، فنجرّدها من صبغتها الأسيويّة ، ونلقّحها باللقاح الأوروبيّ» . (هتلر)

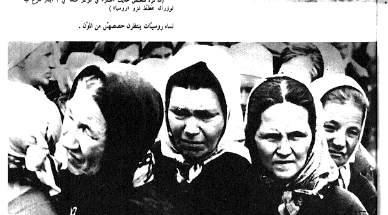
الزحف الألمانيّ في طريق «سيلاز — سوكال» في ٢٢ حزيران ١٩٤١ .



«ستوقّف عجلة الحرب ما لم ننتزع من «روسيا» نفسها ما نطعم به جيوشنا كافّةً خلال هذه السنة الثالثة للحرب . وما من شكّ في أنّ ملايين الأشخاص سيقضون جوعاً إذا ما عصرنا هذا البلد لسدّ حاجاتنا» .

(مذكرة تلخص حديث «هتلر» في مؤتمر عُقد في ٢ أيّار شرح فيه لوزرائه مخطّط غزو «روسيا»)

نساء روسيّات ينتظرن حصصهنّ من المؤن .





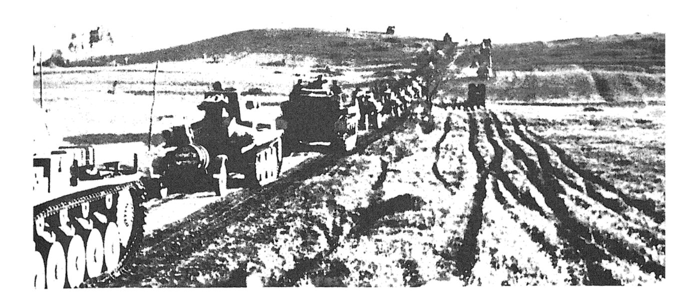
«سَنعمُر هـذه الصَحرَاء الرّوسـيّة ...»

«إنّي لأرى بعين الخيال تلك القرى الروسيّة الـ ١٠٠،٠٠٠ التي تنتزع لقمة العيش من الأرض انتزاع الجاهد ، وحيث ما نزال نجد اللذّات الإنسانيّة الطيّبة الفطريّة ... وأرى الآلة الحربيّة النازيّة البشعة تنقضّ على هذا كلّه يقودها ضبّاط بروسيّون في أناقتهم وحسن هندامهم» .

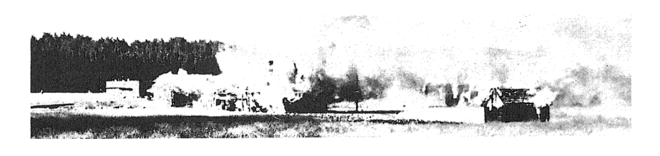
(«ونستون تشرتشل» في خطابه من الإذاعة البريطانيّة الأحد ٢٢ حزيران)



شتّان ما بين الغبار الروسيّ والغبار الألمانيّ ، وما بين حرّ الصيف الروسيّ وحرّ الصيف الألمانيّ ! أمّا البرغش فحدّث عنه ولا حرَج ! كان الألمان يحاولون اتّقاء لذعه بتغطية وجوههم ، في حين كان الأوكرانيّون يمرّون به مرور الكرام ! هذا فضلاً عن تلك العفويّة المفاجئة في العواصف الصاعقة التي كانت تغرق السهول في ثوانٍ فتفيض منها الأنهار .



لقد أبدعت القوّات المصفّحة



▲ معركة للسيطرة على ضفاف «الدونا» الشماليّة .

➤ الطائرات الألمانيّة تغير شماليّ «نوفغورود» ؛ وقلّما تصدّت الطائرات السوفياتيّة لمطاردتها . أمّا الخطر الذي كان يتهدّد «الشتوكا» فكان يأتيها من المدافع الروسيّة الرائعة التصويب .

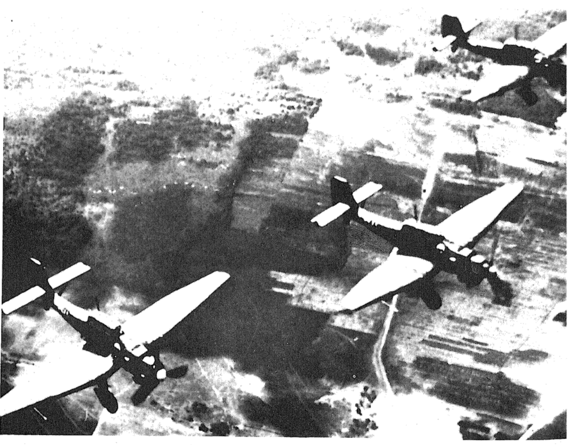


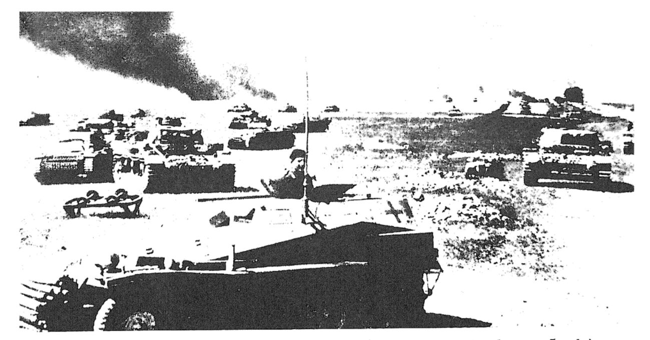
➤ كان الألمان يتقدّمون بصعوبة في منطقة مستنقعات «البريبي» ، أحد سواعد «الدنيبير» .



ها هي القوّات المصفّحة تعود إلى إبداعها بعد منجزاتها الرائعة في «فرنسا» و «بلجيكا» و «بولونيا» .
«كلّ ما في الأمر أنّه كان علينا هنا أن نسرع أكثر ممّا كنا نفعل في الماضي ، وأن نبقى في حركة على الرغم من نيران العدوّ ، حتى لا نفسح له مجال إقامة جبهة جديدة ، وحتى تنفذ الصدمة الهجوميّة إلى أعماق جهازه الدفاعيّ » .
(«غوديريان» في «مذكرات جنديّ»)

مثّل الحصان دوراً بارزاً في حرب «روسيا» . كان في الجيش الأحمر ٦٠٠،٠٠٠ حصان ، وهو رقم ما بلغته قط حربٌ من حروب الماضي .





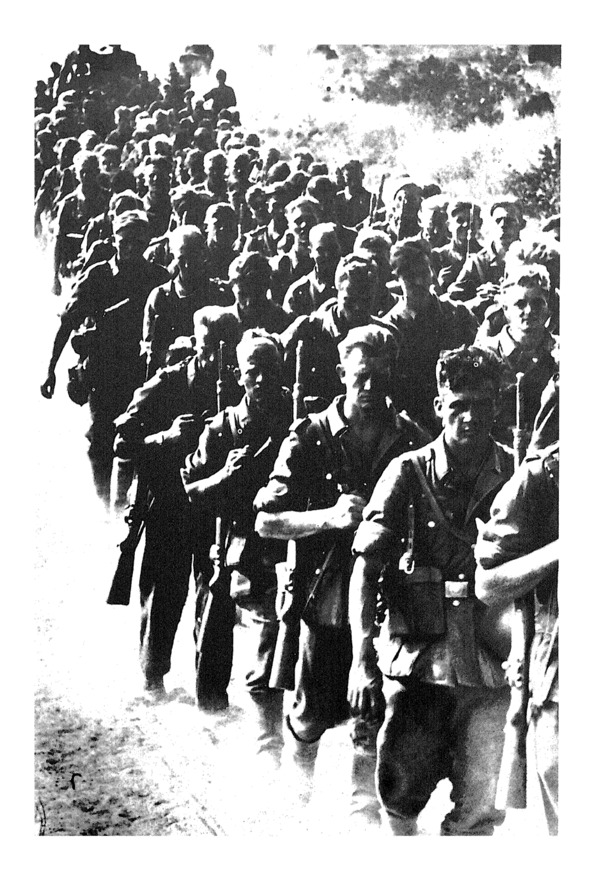
في تموز وآب ١٩٤١ دعّمت الانتصارات في «روسيا» تفاؤل القيادة الهتلريّة ؛ ففي غضون أيّام وصلت مصفّحات «فون ليب» إلى خليج «فنلندا» مهدّدة «لينينغراد» ، ووصلت مصفّحات «فون مانشتاين» إلى «البحر الأسود» .

«أيّها الجنود الألمان ، إنّكم لتقاسون حرباً ضروساً حافلة بالمسؤوليّات الجسام ، ذلك أنّ مصير «أوروبا» ، ومستقبل «الرايخ» ، وكينونة شعبنا ، باتت ودائع في أعناقكم . فليكن الله معنا جميعاً في هذه المعمعة » .

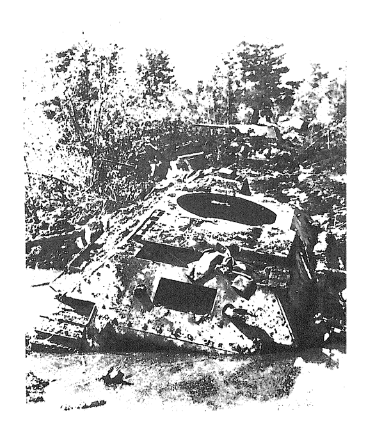
(خاتمة أمر وجّهه «هتلر» إلى الجيش في ٢٢ حزيران ١٩٤١)

جنود ألمان يتقدّمون إلى قرية روسيّة مشتعلة ، في حين كانت المقاومة الروسيّة تشتدّ يوماً بعد يوم معرقلة زحف الجيوش الألمانيّة في الاتّجاهات الستراتيجيّة الرئيسة . فهل يُتاح «لهتلر» والحالة هذه أن يسدّد ضربته القاضية قبل حلول الثلوج ؟





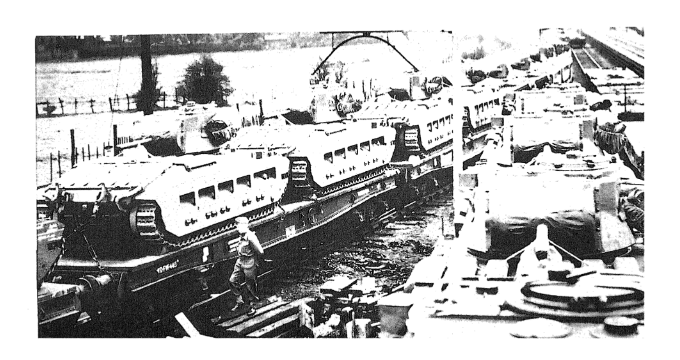
«ألولايات المتّحدة» و«بريطانيا العظمى» تهبّان إلى نصرة «روسيا»

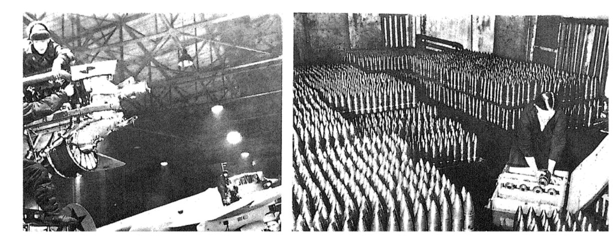


دبّابات روسيّة محطّمة في المستنقعات .

لقد تحرّكت أخيراً الآلةُ الاقتصاديّة الأميركيّة . وها هي قوافل بحريّة تحميها السفن الحربيّة والطائرات تحمل إلى الروس ، في «مورمانسك» ، ما هم بأمسّ الحاجة إليه ، أي الطائرات ، والشاحنات ، والدبّابات .

هذة الدبّابات صُنعت في «انكلترا» لحساب «روسيا» . ولسوف تصل إلى ضفاف «البلطيق» بطرق محفوفة بأدهى الأخطار .





في مصنع «فلاديمير ايليتش» في «موسكو» : النساء يعبّئن القذائف .

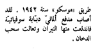
في أحد مصانع الطائرات في «موسكو» : تركيب قاذفات القنابل .



فريق من المشاة الألمان يتقدّمون عبر حقول الذرة في «القفقاس» سنة ١٩٤٢ وسط المهالك والأهوال .

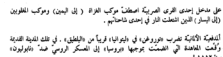


عبرت المصفّحات الألمانية نهر «البوغ» وراحت تتسلّق الضفاف التي يحتلّها العدوّ . وتمثّل الصورة دبّابة « ب ز. ك ف. ٣» وهي تحمل في مؤخّرتها عصياً غليظة تُفرش لها في الوحل لتمرّ عليها .



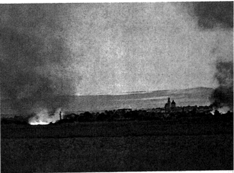
طريق «موسكو» سنة ١٩٤٢ . لقد أصاب مدفع ألمانيّ دبّابة سوفياتيّة فاندلعت منها النيران وتعالت سحب الدخان .





على مدخل إحدى القرى الصربيّة اصطفّ موكب الغزاة (إلى اليمين) وموكب المغلوبين (إلى اليسار) الذين اشتعلت النار في إحدى شاحناتهم .

أالمدفعيّة الألمانيّة تضرب «نوروغن» في «ليتوانيا» قريباً من «البلطيق» . في تلك المدينة القديمة وُقّعت المعاهدة التي انضمّت بموجبها «بروسيا» إلى المعسكر الروسيّ ضدّ «نابوليون» سنة ١٨١٢ !

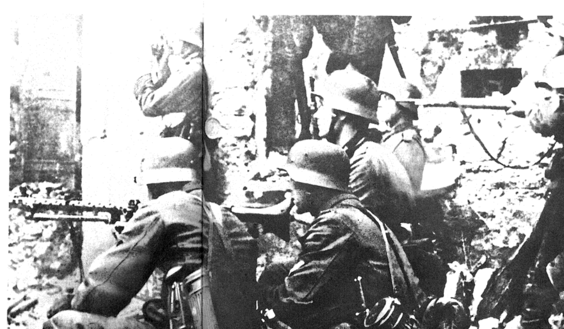


الفوهرر دوماً على صواب ! لم تؤيّد الأحداث قطّ ثقة الجنرال « جودل » العمياء كما أيّدتهـا هذه المرّة ، لأنّ ما أسفرت عنه موقعة « أوكرانيا » فاق الآمال كلّها وفاق السوابق قاطبـةً .

ألفصل الثاني عشر

٢٥ آب - ٧ كانون الأوّل ١٩٤١

حتى أبواب «موسكو»



لقد أسهم «بوديني» بتهوّره في تحقيق الانتصار الألمانيّ . إذ حشد في الثالثة الشاسعة التي يؤلّفها نهرا «الدنيبير» و «الديسنا» ستّة جيوش سوفياتيّة قوامها مليون رجل . ولم يكن تحت تصرّفهم من خطوط العمليّات سوى خطّي الحديد المكشوفين اللذين يصلان «كييف» «بكورسك» و «خاركوف» . أمّا الهدف من هذه الحماقة الكبرى فكان الاحتفاظ «بكييف» ، كانت المدينة الكبيرة تشكّل على ضفّة «الدنيبير» الغربيّة رأس جسر تحميه ١١ فرقة . ولم يكن أمر انتزاعها بمتناول الجيش الألمانيّ السادس . باستطاعة الدعاية السوفياتيّة أن تتبجّح بأنّ ما من مدينة واحدة من كبريات مدن «الاتّحاد السوفياتيّ» سقطت في أيدي الهتلريّين مع أنّ الحرب كانت قد بلغت أسبوعها العاشر . ولكنّ مجموعة جيوش بكاملها عُرِّضت للتهلكة من أجل هذه النتيجة الدعائيّة.

هنالك نتيجة إيجابيّة أسفرت عنها مقاومة «بوديني» ، ألا وهي إجلاء الصناعات عن «أوكرانيا» ، صدر الأمر بذلك في مطلع آب . فبدأ نقل مصنع الأنابيب من «دنيبير وبيتروفسك» في ٧ آب . وفي ١٤ منه بوشر نقل مصنع الصلب المختصّ بالفولاذ الممتاز من «زابوروجي» ، وما لبثت عمليّة النقل أن شملت الأراضي الواقعة غربيّ «روسيا» الأوروبيّة . وهكذا سيعمل بين تموز وتشرين الثاني مليون ونصف من عربات القُطُر بين مسقوفة ومكشوفة على نقل ١،٣٦٠ مؤسّسة صناعيّة. ٤١٩ منها من «أوكرانيا» و ٤٩٨ من «موسكو» . فيُعاد بناء ٤٥٠ منها في جبال «الأورال» ، و ٢١٠ في «سيبيريا» الغربيّة ، و ٢٥٠ في «كازاخستان» في قلب «آسيا» . إنّ حركة كهذه ، تقوم على شبكة حديديّة ضعيفة مزدحمة بنقل الجنود ، لهي في الواقع عمل من الأعمال الروسيّة الجبّارة التي لا نجد لها تفسيراً في مقاييس الغرب الفنيّة .

ربما كانت هذه المصانع المنقولة هي التي جعلت قيادة جيش البرّ تعتقد أنّ «بوديني» يخلي غربيّ «أوكرانيا» ، ولذا رمت التدابير المتّخذة إلى إقفال الملقط أقصى ما يكون شرقاً ، منعاً لانكفاء الكتل المعادية في المدى الروسيّ الرحب . حقّاً إنّ المناورة جبّارة بكلّ معنى الكلمة ؛ فبين «كريمنتشوغ» الواقعة على «الدنيبير» والتي سينطلق منها الهجوم الجنوبيّ ، ومنطقة «روسلافل» التي سيندفع منها الهجوم الشماليّ مسافة ٦٠٠ كلم بخطّ مستقيم . أضف إلى ذلك أنّ الطرقات القليلة ، ومثلها أهمّ مجاري المياه ، تتّجه من الشرق إلى الغرب ، بحيث أنّ عمليّات عسكريّة تمضي باتّجاه خطوط الطول تستفيد حتماً بأقلّ قسط ممكن من التسهيلات ، وتصطدم بأكبر قسط ممكن من العراقيل . كان لا بدّ من تعديل محاور الاتّصال بمقدار ٩٠ درجة ، وإرسال التموين عبر الفيافي ، وتحاشي المرور في الغابات والمستنقعات والرمال . إنّ عمليّة

كانت المقاومة الروسيّة تشتدّ كلّما ازداد الجيش الألمانيّ قرباً من «موسكو».



أيلول ١٩٤١ . أطواف ألمانيّة تجتاز «الدنيبير» .

تصادف هذه العقبات الماديّة . فضلاً عن مقاومة ينهض بها عدوّ متفوّق عدداً ، وتنتهي بنجاح تامّ شامل . تجعل من موقعة «أوكرانيا» تحفة الجيش الألمانيّ على الإطلاق !

بدأ الزحف شمالاً في ٢٥ آب بقوده الجيش الثاني (فون فايخس) الذي يضمّ الفرق ١٣ و٣٣ و٣٥ . فضلاً عن المجموعة المصفّحة ٢ التي لا تشمل سوى فيلقي الدبّابات ٢٤ و ٤٧ . شعر الجنود الداخلون إلى «أوكرانيا» بعد خروجهم من «روسيا البيضاء» البائسة الكئيبة بما هنالك من فرق نسبيّ وسرّوا به ؛ «فالغابات الكثيفة غدت نادرة . والبلاد وأهاليها أقرب إلى القلب ، والبيوت مزدانة بالزهور . والناس أكثر نظافة وأحسن لباساً وأقرب إلى الصداقة» ؛ إلاّ أنّ المسافات ما برحت مرهقة . والغبار أكثف مما كان عليه في ضواحي «مينسك» و «فيتبسك» .

برز «الديسنا» كعقبة كبيرة أولى . وهو نهر يكاد يضاهي «الدنيبير» عرضاً وصعوبة بسبب تلك المتاهة من الجزر الصغيرة المكسوّة بالأشجار التي تعقّد مجراه . أرسى الجيش الثاني بكثير من المشقّة رأس جسر في ميمنة الجبهة ،جاراً في تقدّمه الجيش السادس الذي أتمّ تطويق «كييف» ، ووسمت فرق «غوديريان» المصفّحة الانقضاض بطابع السرعة والعنف . فشتّتت الفرقتان ١٧ و١٨ الروس في مجرى «الديسنا» العالي ، وانقضّت الفرقة ٣ بقيادة الليوتنان جنرال «موديل» اللامع على «نوفغورود — سيفيرسكي» ، حيث يعبر النهرَ جسرٌ خشبيّ يبلغ طوله ٧٠٠ متر ، فاقتحم الأوبرلوتنانت «بوختير كيرش» حاجزاً عنيفاً من المدفعيّة على رأس جماعة مصفّحة صغيرة وانتزع الجسر قبل أن يتسنّى للروس وقت إضرام النار فيه ؛ فردّ «بوديني» بهجمات معاكسة نشيطة ، وضحّى بطيرانه فوق الجسر المحتلّ ، وزجّ بدبّاباته كتلاً كتلاً ، وحاول القيام بمناورة في مؤخّرات الأعداء ، مرغماً رجال الخدمة الأعداء على حمل السلاح ، وفيهم رجال فرن للميدان تسربلوا بالمجد في «كوروب» . إلاّ أنّ تقليد الألمان في أساليبهم كان يتطلّب تدريباً دامياً لم يتوافر للروس آنذاك . مرّ أسبوع ، وانهارت المقاومة على «الديسنا» ، وعبر «السيجن» بدوره . وقُطع خطّ «كورسك» الحديديّ في «كونوتوب» . وسقطت «رومني» ، وإذا بالدبّابات التابعة «لغوديريان» تندفع لملاقاة الدبّابات التابعة «لفون كلايست» ، وذلك على مسافة ٢٥٠ كلم وراء حامية «كييف» .

ولقد أتاح عبور نهر «الدنيبير» العريض . بعد «كريمنتشوغ» . لمجموعة الجنوب فرصة تحقيق مأثرة جديدة ؛ ففي ٣١ آب . في الثانية بعد الظهر . في موضع يبلغ ١٥٠٠ م عرضاً . أطلق فوج القنّاصة الـ ٢٠٧ قوارب الانقضاض ونزل على الضفّة اليسرى . ولمّا أرخى الليل سدوله تسلّق القنّاصة جانب النهر الوعر واحتلّوا رأس جسر يبلغ ٣ كلم طولاً . وعبر الفوج الآخر ، التابع للفرقة الخفيفة ٩٧ . بدوره ، يتبعه الفيلق ٥٢ بكامله . وبذل الروس جهوداً يائسة كما فعلوا على «الديسنا» لإعادة تماسك حاجز «الدنيبير» . وقذفوا رأس الجسر بعدّة ألوية مصفّحة ؛ كان الانسجام رديئاً في الجانب الألمانيّ : فإنّ الدبّابات الأماميّة التابعة للفرقة ١٦ ، التي تشكّل طليعة مجموعة «فون كلايست» المصفّحة ، لم تعبر النهر إلاّ في ١١ أيلول . وهكذا أتيح لفيلق معزول ، قد أسند ظهره إلى واحد من أعرض أنهار «أوروبا» ، أن يحطّم موجات متدافعة من سلاح المشاة والخيّالة والدبّابات بلا كلالة طوال أحد عشر يوماً . وهكذا كان بوسع القيادة الألمانيّة أن تعوّض عن أخطائها بتفوّق جنودها التكتيكيّ .



أيلول ١٩٤١ . جسر مرتجَل على «الدنيبير» .

في ١٦ أيلول تمّ التقاء المجموعتين المصفّحتين . فإذا ببقايا مجموعة جيوش «بوديني» محصورة في مثلّث «كييف — تشيركاسي — بريلوكي» . كان الجيش الثاني يضغط على الجانب الشماليّ . فيما تُحكم المجموعتان المصفّحتان الخناق على الجانب الشرقيّ . وعادت دوريّات الاستطلاع الجوّيّ تحمل صوراً لا تصدّق عن هذا الجيب الهائل الذي يتخبّط فيه عددٌ من المحاربين يفوق ما طوّقه الجيش الألمانيّ في «الفلاندر» : فهناك أرتال كثيفة من المشاة ، وكتل ضخمة من الخيّالة والدبّابات ، وقوافل من كلّ نوع ، تتحرّك في فوضى تحت سحابة مخيفة من الغبار ؛ هذا وفيلق الطيّارين ٨ يقصف المهزومين بلا شفقة . لم يبقَ هنالك أثر لأيّة إدارة أو قيادة ؛ وقد أصابت القوّات الألمانيّة غنائم ضخمة طائلة . واستولت على مصانع موضوعة في صناديق ومحمّلة على قُطُر لم تُتَح لها فرصة الرحيل !

في ١٨ آب أخفقت المحاولة الأخيرة في فكّ الحصار عن مجموعة «بوديني» ؛ وفي ١٩ منه سقطت «كييف» . إذ ذاك قُسم الجيب الشاسع اقساماً ، فعزل الجيشُ ٦ كتلة روسيّة ضخمة بين «بوريسبول» و «الدنيبير» ؛ واتّصل الجيش ٢ بميسرة الجيش ١٧ . فيما أدارت الميمنة ظهرها للمعركة المحتضرة ، وكانت تشمل الفرقتين ٥٢ و ٥٥ ، وباشرت اجتياح «أوكرانيا» الشرقيّة فاحتلّت «بولتافا» و «كراسنوغراد» . لم يسبق للجيش الألمانيّ قط أن جمع في شبكة واحدة هذا العددَ الضخم من الأسرى: ٦٥٥،٠٠٠ رجل. ولسوف يلقى الكثيرون منهم حتفهم جوعاً، لأنّ تأمين الغذاء لهذا العدد الضخم من الأسرى ، في بلاد عاثت فيها الحرب فساداً ، أمر محال .

لم يَشُب هذا الانتصارَ الذي يكاد لا يكون له نظير في التاريخ غيرُ شائبة واحدة ، هي الزمن ؛ فلقد بدأ المطر يهطل في ٣ أيلول ، وفهم الألمان في الحال أنّه مختلف تمام الاختلاف عن زوابع أوّل الصيف . إنّه لمطر هادىء ، غزير ، لا تعقبه تلك الشمس الحامية التي كانت تجفّف في دقائق معدودات المستنقَع السطحيّ الذي تحدثه الأمطار الغزيرة ؛ بل انّ الوحول التي تنشأ عن هذه الأمطار المستمرّة المنتظمة لتكتسب تماسكاً وقوّة في الامتصاص خارقين ؛ فإذا الأرض بؤرة من وحول ، وإذا بأقلّ انتقال في هذا البلد المفتقر إلى الطرقات المعبّدة يتطلّب من الجهد ومن الوقت ما لا يعقل . وهكذا قضى «غوديريان» خمس ساعات ليقطع ٧٥ كلم ، وتبلبلت المناهج الألمانيّة غير مرّة بسبب رداءة أحوال الأرض؛ مع أنّ هذا كلّه لم يكن بعدُ الفترة المعروفة «بفصل انعدام الطرقات» : لم يكن ذلك إلاّ مقدّمة لها .

«هتلر» يقرّر : إلى «موسكو!»

كان الانتصار في «أوكرانيا» نصراً شخصياً «لهتلر» ؛ ففي تلك المرّة أيضاً كسا راياته بالظفر على الرغم من معارضة قوّاده؛ فبعد ما لقّنهم في الماضي دروساً عديدة في الجرأة . ها هو الآن يلقّنهم درساً في الحذر . فالقوّاد كانوا يبتغون السير على «موسكو» . بعدما بهرهم اسم المدينة كما بهر «بونابارت» من قبل . معرّضين جنبهم لجيش يعدّ مليون رجل ! أمّا «هتلر» فقد بقي معتصماً بالحقيقة الستراتيجيّة مفضّلاً أن يزيل خطر التهديد بادىء ذي بدء . وقد برهن في هذه العمليّة البارعة عن مرونة ، وعن موارد دائمة التجدّد في عبقريّته . لقد أتت معركة تطويق «أوكرانيا» نقيضة معركة «سيدان» ، فالفوهرر ، بوسائله التقليديّة والثوريّة ، وبتفكيره الستراتيجيّ والنفسانيّ ، وبخططه وخياله ، قد استحقّ اللقب الذي أضفاه عليه المقرّبون إليه ، وهو : أكبر رجل حرب في تاريخ العصور كافّة .

في تلك الفترة بالذات تسلّم «هتلر» قيادة العمليّات في «روسيا» ؛ فقد تبيّن له أنّ القيادة العليا لجيوش البرّ جهاز لا يجدي نفعاً ، ووسيط مشوّه بين إرشاداته الحثيثة واستجابة المنفّذين . وابتداء من معركة «أوكرانيا» لم تبقّ «أنغربورغ» غير مركز لنقل الأوامر . أمّا النظريّات الستراتيجيّة الواسعة التي استمرّ «هالدر» في وضعها فقد أضحت تجاوزات بسيطة ليوميّاته السرّيّة؛ إذ أنّه بات لا يستطيع كلاماً أمام الفوهرر . وباعتبار أنّ «كيتل» و «جودل» لم يكونا غير آلتين مطواعتين في يد «هتلر» ، فقد أضحى يعقد جلساته وكأنّه منفرد بنفسه .

وجد «هتلر» نفسه أمام وضع يتطلّب أخطر قرار عرفه خلال حرفته الطويلة المغامرة . كان مبتغاه أن يقضي على «روسيا» في حملة واحدة . وأن يحسم أمرها قبل نهاية ١٩٤١ ؛ فهل كان هذا الأمر ممكناً ؟ أم أنّه كان يجب الاعتراف بأنّ افناء الدولة السوفياتيّة ينبغي أن يؤجّل إلى السنة المقبلة ، فيضطر «هتلر» ، والحالة هذه ، إلى القبول بحملة شتويّة ؟ لقد انتهت معركة «أوكرانيا» في ٢٦ أيلول ؛ وفي ذلك التاريخ كانت الحرب قد دخلت شهرها الرابع ؛ فقد كرّس إذاً «لروسيا» حتى ذلك الحين ضعفا الوقت الذي كرّس «لفرنسا» ، في حين كان الخبراء جميعهم قد قدّروا قيمة الجيش الفرنسيّ بضعفَي قيمة الجيش الروسيّ أو ثلاثة أضعافها ؛ أمّا المفاجأة فقد سبّبتها شجاعةُ المقاتلين ؛ بينما كان الخبراء يعتقدون أنّ الوطنيّة قد ذهبت ضحيّة للبولشفيّة ؛ وأنّ انهيار المعنويّات كان محتّماً ؛ والمفاجأة الثانية كانت نتيجة لغزارة العتاد ، وخصوصاً لعدد الدبّابات الروسيّة ؛ وقد تجسّدت المفاجأة الثالثة في السرعة التي تميّز بها الجيش السوفياتيّ — على غرار بعض الأجهزة البدائيّة — في إعادة تنظيم صفوفه . أمّا «هالدر» ، الذي كان قد وصف «روسيا» بعملاق ذي قدمين خزفيّتين ، فقد اتّضح له هذا الواقع إذ قال : «لقد بدأنا الحرب ونحن نعتمد على أنّ للعدوّ ٢٠٠ فرقة ، فإذ به يجهّز ٣٦٠ فرقة . فإذا ما دمّرنا منها عدداً ، عاد عدد مماثل إلى الانبثاق !» ولم تكن دهشة «هتلر» بأقلّ من دهشة «هالدر» ؛ فقد عاد يكرّر أمام مقرّبيه الكلمة التي بدرت منه أمام «غوديريان» ، وهي : «لو كنت عالماً بذلك لما خضت هذه الحرب . هذه أمور يمكن قولها الآن بعدما وثقنا بالنصر» . وبعبارة أخرى كان الفوهرر يشعر بأنّه قد اجتاز مرحلة مجازفة ؛ ولكنّه في الوقت نفسه كان يشعر بأنّ حسن طالعه لم يتخلّ عنه ، وبأنّ الخطر قد تلاشى .

معسكر اعتقال قرب «خاركوف» جُمع فيه الأسرى الروس في ٢٤ تشرين الأوّل ١٩٤١.

وقد غذّت هذا الاقتناعَ الأخيرَ معركةُ «أوكرانيا» . إذ بدت تبشّر بأنّ طاقة العدوّ على إعادة تنظيم صفوفه قد قاربت أجلها ، وأنّ إرادته القتاليّة قد تحطّمت أخيراً . فالأسرى الروس الذين سارعوا إلى الاستسلام لا يُحصى لهم عدد ، وكثيرون هم الضبّاط من ذوي الرتب العالية الذين لعنوا الحكم وأهانوا القيادة الحمراء العليا . أمّا جنود الاحتياط المسنّون فكانوا كُثُراً ، وكانت هنالك وحدات كثيرة ناقصة التسلّح . ولكنّ قيمة الجيش الأحمر كانت أكبر مما قدّرته قيادة الأركان الألمانيّة . وقد تطلّب تحطيم هذا الجيش من الجهود أكثر مما كان متوقّعاً ؛ بيد أنّ النتيجة كانت واضحة : فلقد كان العدوّ على آخر رمق .

ومن جهة أخرى لم يكن وضع الجيش الألمانيّ ليثير القلق ؛ ففي ١ أيلول ، وهو الذكرى السنويّة الثانية لدخول الحرب ، وضع «جودل» بين يدي الفوهرر لائحة تشبيهيّة: بلغت الخسائر الألمانيّة خلال السنتين ٤١٨،٨٠٥ رجال ، منهم ٩٠،٤٤١ قتيلاً و ٢٩،٦٨٧ مفقوداً ؛ فيما بلغ الرقم خلال السنتين الأوليين من الحرب العالميّة الأولى ٣،١١٧،٧٩٧ منهم ٤١٦،٦٧٢ قتيلاً و ٣٧١،٣٢١ مفقوداً . فالحرب الهتلريّة قد كلّفت إذاً ثُمن ما كلّفته الحرب الأولى ، وبهذا الثّمن الزهيد كان « هتلر » في مرحلة طرد « روسيا » إلى « آسيا » بعدما تمّ له احتلال «أوروبا».

ولكنّ العتاد كان قد قاسى أكثر من الرجال ؛ فتقارير الجيوش مفعّمة بإحصاء الدبّابات، والمدافع، وعربات نقل المؤن ، والشاحنات . وسيّارات الإسعاف التي أتلفتها النيران أو التي كبّلتها الوحول. وكانت خسارة الخيول مرتفعة جدّاً لأنّ الخيول الألمانيّة كانت تتحمّل بصعوبة الظروفَ القاسية التي مرّت بها . إلاّ أنّ «هتلر» كان يعلم أنّ تدمّرَ قوّاد الوحدات لم يكن ليثير قلقاً مفجعاً ؛ فكلّ حرب تُكتسب بواسطة البقايا التي تتصدّى للبقايا . فبالنسبة للروس ، الذين تكبّدوا خسارة ثلاثة ملايين من الأسرى ، وكمّية من العتاد هائلة ، كانت هذه البقايا مجرّد أنقاض ، بينما كانت البقايا الألمانيّة مهيبة : فعدّة المشاة لم تتدنَّ إلاّ بنسبة ١٥٪ ؛ والمجموعات المصفّحة ١ و ٣ و ٤ تعود إلى التكامل بنسبة ٧٠ أو ٨٠ بالمئة من دبّاباتها ؛ والمجموعة الوحيدة التي لم تكتمل إلاّ بنسبة ٥٠٪ هي المجموعة المصفّحة ٢ التي دفعت ثمن انعكافها الطويل عبر «أوكرانيا» . وفي سبيل إنهاء الحملة كانت هذه النسبة المئويّة ما تزال مُرضية .

والاعتبار الوحيد الشاغل كان اعتبار الوقت ؛ فقد انتهى فصل الصيف ، وأمطار أيلول قد توقّفت ، ولكنّ موسم الوحول كان على الأبواب . فالوحول تشلّ الحرب كما تشلّ أيّة حركة أخرى ، ويليها برد قارس يتجلّى بكامل شدّته . فإذا لاذ الجيش الألمانيّ بالوقوف في الوقت الحاضر ، وعمل على إنشاء مقرّاته الشتويّة وتقويم مواصلاته وتنظيم الأماكن التي احتلّها ، أقام على جبهة حربيّة باهرة ، وسهل عليه أن يتلقّى بظروف مقبولة هجومَ الشتاء . وبعكس ذلك ، فمن الجنون أن تُشنّ في شهر تشرين الأوّل سلسلةُ العمليّات الواسعة النطاق التي تضمّنها منهج الجيش الألمانيّ للعام ١٩٤١ ، حتّى ولو كانت هذه العمليّات موجّهة ضدّ عدوّ متحطّم . وقوام هذه العمليّات الباقية : إكمال احتلال «أوكرانيا» ، غزو «القرم» ، خرق «القفقاس» ، احتلال «موسكو» ، وبلوغ خطّ «استراخان — أرخانغلسك» ! فالمساحات الشاسعة ، وضعف المواصلات ، كانت وحدها كفيلة بأن تقف عائقاً يصعب التغلّب عليه .

إلاّ أنّ «هتلر» كان أسير المناهج التي اختطّها ؛ فالتخلّص من «روسيا» في ١٩٤١ أمر كان ضروريّاً بالنسبة لسير مخطّطاته ، والتفكير بحملة شتويّة كان يعني أنّ الجيش الألمانيّ سيظلّ مجمّداً في الشرق حتى صيف ١٩٤٢ ، وبهذا تكون «انكلترا» ، التي كان مفروضاً أن يُقضى عليها في الربيع ، قد حصلت على فرصة نادرة . أمّا «أميركا» فقد وقفت تقريباً موقفاً عدائيّاً منذ «شرعة الأطلسيّ» ؛ فبامكان «روسيا» إذاً أن تجدّد نشاطها بالمساعدات الغربيّة ؛ واحتلال «أميركا» و «انكلترا» «إيران» يشير بوضوح إلى أنّهما كانتا على استعداد لبذل أقصى الجهود لمساندة «روسيا» . وأمّا نقل القوّات الروسيّة من الشرق الأقصى إلى «روسيا» الأوروبيّة — وهو نتيجة للتقارب الروسيّ اليابانيّ الذي شجّعه «هتلر» — فقد كان في حيّز التنفيذ . وقد وصف أحد المسافرين في قطار «سيبيريا» تحرّكات النقل هذا بقوله : «من «شيتا» إلى «كراسنويارسك» أحصيت ٢٠٠ قطار عسكريّ متّجه نحو الغرب . وكان كلّ قطار مؤلّفاً من ٢٥ شاحنة ، عشر منها للجند ، والباقية للعتاد ، بما فيه الطائرات الموضوعة في الصناديق ...» فلو انقضى الشتاء والألمان مكتوفو الأيدي لغدا ممكناً إعادة تكوين الجيش الروسيّ ، لبات ضروريّاً إذ ذاك إعادة الحملة التي كان الألمان على وشك ربحها .

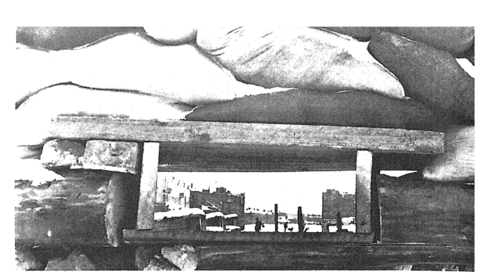
هنالك سبب نفوذيّ كان يؤثّر في موقف «هتلر»؛ فخلال تجهيز الحملة كان قد قاوم بشدّة نظريّة إحراز النصر على مرحلتين زمنيّتين . تلك كانت نظريّة «براوشيتش» الذي كان يرى الاكتفاء بالاستيلاء على «لينيغراد» في سنة ١٩٤١ ، ونظريّة «روندشتاد» الذي كان يعتبر احتلال خطّ «أوديسا — كييف — أورشا — ريغا» حدّاً أبعد ، ونظريّة «كلوغي» الذي كان يرى وجوب إحداث مسيرة جبهيّة حتّى بلوغ «موسكو» . يليها وضع مخطّطات جديدة لـ ١٩٤٢ . وفي وجه هذا التكتّل من العقول المتخوّفة ، عاد «هتلر» يصرّ على أنّ الأهداف الستراتيجيّة والاقتصاديّة يمكن بلوغها ، ويجب بلوغها ، في ١٩٤١ . ولهذا السبب ، كان يرفض بحزم أن يصغي إلى الذين كانوا يتكلّمون على تجهيز الجيش لمجابهة البرد الشديد ؛ فقد صرّح قائلاً : «لا أريد أن أسمع بعد الآن ذكر المصاعب التي قد يلاقيها جندنا خلال الشتاء ، اذ لن تكون هنالك أيّة حملة شتويّة ...» والآن ينبغي أن يكذّب نفسه ، في حين لم يكن شهر أيلول قد انقضى بعد ، وفي الوقت الذي أصبح الطقس فيه رائعاً ، وانخفضت الحرارة الفائقة ، وتضاءل عنف الغبار ،وغدت الأرض صلبة كالاسفلت ، واندحر العدوّ ، وراح الجنود الألمان يغطّون جدران معسكراتهم وجنبات مصفّحاتهم بعبارات : «إلى «موسكو» !»

في ١٥ أيلول أمر «هتلر» باستئناف الهجوم على الجبهات كلّها . وقد حدّد ٢ تشرين الأوّل موعداً للعمليّات ، ووجّه للجيش وللشعب الألمانيّين نداءين يبرز فيهما الطابع الضخم الذي يتميّز به الوضع الراهن : «إنّ هذه المعركة الأخيرة للسنة الحاليّة تهدف إلى سحق جميع المسؤولين عن الحرب ، بما فيهم «انكلترا» ! فأنتم بهذا ستبعدون عن «الرايخ» الألمانيّ وعن «أوروبا» خطراً مماثلاً للخطر الذي كان يشكّله «الهون» و «المغول» ... وأنا أقول هذا ليقيني بأنّ العدوّ قد صُرع ولن يعود إلى النهوض أبداً ...»

وفي سبيل هذه المعركة الأخيرة من الحرب الروسيّة أدخلت على الجهاز الألمانيّ تعديلاتٌ هامّة ؛ فالهجوم سيستأنف من خليج «فنلندا» حتّى بحر «آزوف» ، ولكنّ طريقة توزيع القوّات كانت تعبّر عن أهميّة الأهداف .

في الشمال يكتفي «ليب» بتضييق الحصار على «لينينغراد» ؛ كان عليه ألاّ يستولي على المدينة لأنّ الفوهرر كان يعتبرها متلاشية ، ولم تكن به رغبة في إطعام سكّانها البالغ عددهم مليوني نسمة . قال : «يجب رفض أيّ استسلام ... إنّ الثغرات الضيّقة ستكون كفيلة بتوفير مجال النزوح

في الصورة إلى هذا الكلام: حاجز أقيم في ساحة «سمولنسك» في «موسكو».

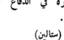


حواجز مضادّة للدبّابات في شارع «كالوغا» في «موسكو».

«موسكو»، تشرين الأوّل ١٩٤١ . هل كانت تلك الحواجز كافية لصدّ دبّابات العدوّ ؟ ومهما يكن من أمر فإنّ العمل على إقامتها كان يبعث الشجاعة والإقدام في سكّان المدينة .



«إنّه لمن دواعي حظّنا وسعادتنا أنّ الشعب الروسيّ لم يهبّ إلى طردنا في تلك الآونة العصيبة . ففي أيّ بلد آخر ما كان تعاقب الحدثان إلاّ ليولّد انفجار الغضبة الشعبيّة ؛ أمّا الشعب الروسيّ فقد أولانا ثقته ، ومنحنا فرصة غالية أخيرة في الدفاع عن عاصمته ».



(ستالين)



أمام السكّان إلى داخل الأراضي الروسيّة ، وكلّ شخص يحاول مغادرة «لينينغراد» للجوء إلى خطوطنا سيردّ إليها بقوّة النار ... » إذاً لا حاجة إلى الدبّابات في مثل هذه المهمّة . وعلى هذا الأساس اقتصر جيش «كوخلر» الثامن عشر على عشر فرق للمشاة كان عليها أن تستمرّ في حرب الخنادق ضدّ الحامية الكبيرة الموجودة في المدينة .

وكان جيش «بوش» السادس عشر ، وهو الجيش الآخر من مجموعة الشمال ، قد تمركز حول بحيرة «إلمن» ، محتفظاً ، فضلاً عن فرق مشاته الثلاث عشرة ، بفيلق «شميدت» المصفّح الـ ٣٩ ، وبفرقتي دبّابات ، وبثلاث فرق آليّة . وبسبب هذا التجهيز بالوحدات السريعة عائد إلى الهجوم الخارق الذي عهد به إلى «بوش» ؛ فقد كان عليه أن يجتاز «الفولشوف» ، وأن يهاجم باتّجاه الشمال الشرقيّ . وفي هذا الاتّجاه لم يكن هنالك غير هدف ستراتيجيّ واحد هو «ارخانغلسك» التي تفصلها عن المواقع الألمانيّة مئتا كيلومتر من الغابات الكثيفة التي بدأ الشتاء يغمرها . ومع ذلك رفض «هتلر» التخلّي عن هذا التحرّك الشاذّ ؛ فعلى «بوش» أن يستولي على عقدة «تيشفين» للسكك الحديديّة أوّلاً ، وأن يسيطر على حقول «البوكسيت» في «بوكسيتنوغورسك» ، وأن يؤمّن بعدئذ اتّصاله بالفنلنديّين على «السفير» .

رُكّزت أضخم الحشود في مجموعة جيوش الجبهة الوسطى . فقد تخلّى لها «ليب» عن مجموعته المصفّحة التي نقلت إلى قلب الجبهة ، وكانت تشمل ٥ فرق للدبّابات ، وفرقتين آليّتين ، وفرقتين للمشاة ؛ وتجرّد «روندشتاد» من ٥ فرق للمشاة ، وفرقتين للدبّابات ، وفرقة آليّة واحدة . وهكذا وُضعت تحت إمرة «فون بوك» في الهجوم على «موسكو» قوّة جبّارة تتألّف من ٢٢ فيلقاً ، و٤٦ فرقة للمشاة ، وفرقة للخيّالة ، و١٥ فرقة مصفّحة ، و٩ فرق آليّة ، و٦ فرق شرطة ، ولواء للخيّالة الصاعقة ، أي ما مجموعه ١٠٠ وحدة كبيرة تضمّ نحو مليون ونصف مليون من الرجال . وشملت القوّات الجوّيّة فيلقَي الطيّارين السابع والثامن اللذين يؤلّفان الأسطول الجوّيّ الثاني بقيادة المارشال «كسلرنغ» .

إنّها لإمكانات هائلة ولا ريب ! «فهتلر» يخوض معركة «الموسكوفا» بأعتدة تفوق بعشرة أضعاف الأعتدة التي وضعها «نابوليون» في خطّ القتال في «بورودينو» . وقد كانت مشكلة «هتلر» مشكلة «نابوليون» ذاتها : القضاء على الكتلة الروسيّة الأساسيّة بصورة حاسمة قبل أن يدخل «موسكو» . إلاّ أنّ إمكانات «فون بوك» لا يمكن

تقدير أهميّتها إلاّ من وجهة نسبيّة على الرغم من ضخامتها .

فمن «فيليكي لوكي» إلى «رومني» كانت جبهة مجموعة جيوش الوسط تمتدّ على ٧٥٠ كلم بخطّ مستقيم ، فكان «فون بوك» إذاً يغير على جبهة هجوميّة تفوق أربعة أضعاف جبهة الجيش الألمانيّ بكامله في ١٢ أيّار ١٩٤٠ ، فيما لم تكن شبكة الطرقات المتوافرة لديه لتمثّل عُشر الشبكة الفرنسيّة البلجيكيّة . وكانت قوّاته الجوّية على جانب مذهل من الضعف ؛ فأيّ مفعول يُرجى من ٥٤٩ طائرة ، منها ١٥٨ قاذفة ولا أكثر من ٢٥ طائرة استكشاف ، فوق تلك المساحات الشاسعة التي تغطّيها الغابات الكثيفة ؟ في «سيدان» كان لفيلق مصفّح واحد أن يتلقّى مساندة جوّية تضاهي هذه المساندة أهميّة !

تشعّبت مجموعة جيوش «فون بوك» القويّة هذه إلى كتل ثلاث . تضمّ كلّ واحدة منها جيشاً ومجموعة مصفّحة ؛ في الشمال ، كان «شتراوس» و «هوث» على رأس الجيش التاسع والمجموعة المصفّحة الثالثة ، وهما يشملان معاً خمس فرق للدبّابات ، و ١٧ فرقة للمشاة منها اثنتان آليّتان ؛ وفي الوسط كان «فون كلوغي» و «هوبنر» على رأس الجيش الرابع والمجموعة المصفّحة الرابعة المؤلّفين من خمس فرق للدبّابات ، و ١٥ فرقة للمشاة منها اثنتان آليّتان ؛ وفي الجنوب «فايخس» و «غوديريان» ، أي الجيش الثاني والمجموعة المصفّحة الثانية ، وفيهما ٥ فرق للدبّابات ، و ٢٠ فرقة للمشاة منها أربع آليّة . وكان على هذه القوّات بكاملها أن تشترك في البدء في معركة التطويق التي كانت تهدف إلى «إبادة مجموعة جيوش تيموشنكو» ، حسب تعبير المذكّرة الحربيّة رقم ٣٥ ، وبعد ذلك يقوم الجناح الأيسر والجناح الأيمن بالتمركز على ضفاف «الفولغا» بين «ريبينسك» و «غوركي» ، ويبقى على قوّات الوسط أن تطوّق «موسكو» وتستولي عليها .

إنّ «مجموعة جيوش تيموشنكو» ، التي كان الألمان يستهدفون القضاء عليها بصورة حاسمة ، كان قد تمّ القضاء عليها على هذا النحو في «مينسك» و «بوريسوف» و «فيتبسك» و «سمولنسك» و «روسلافل» ؛ تميّزت هذه المجموعة بسهولة فائقة في استعادة تنظيم صفوفها ، الأمر الذي كان يذهل «هالدر» ؛ ففي تمّوز كانت طريق «موسكو» مفتوحة . وقد اكتشف الطيران فراغاً كاملاً شرقيّ «سمولنسك» . وفي أوائل تشرين الأوّل قدّر المكتب الثاني الألمانيّ أنّ مجموعة جيوش «تيموشنكو» قد جدّدت قواها ضامّة ٦٢ فرقة للمشاة و ٩ فرق للخيّالة و ١١ لواء أو فرقة مصفّحة ، فضلاً عن نحو عشرين فرقة لم يجرِ التعرّف إليها بشكل واضح . وكانت هذه القوّات قد بدأت الهجوم بإلحاح ، مواجهة بلا كلالة سلسلةً من الإخفاقات الدامية ، مرغمة الألمان على اخلاء ناتئة «جيلنا» بفضل ما بذلته من تضحيات . وبعد ذلك ، في شهر أيلول ، توقّفت الهجمات . فاعتصم الروس بوضع دفاعيّ ، مما ثبّت الاعتقاد بأنّ شيئاً قد تحطّم في الجيش السوفياتيّ . وفي الوقت نفسه كانت أعمال التحصين مستمرّة بنشاط مثابر : فلم يحدث قط ، قبل ذلك الوقت ، أن قام الروس بحفر مساحات من الأرض أمام «موسكو» على النحو الذي عرفوه في خريف ١٩٤١ .

وجنوبيّ مجموعة الوسط كانت مجموعة الجنوب تستعدّ كذلك لاستئناف الهجوم . وفي «أوكرانيا» الشماليّة أخلى انتصار أيلول المنطقة كليّاً ؛ وقد أشار الطيران إلى أنّ جنود العدوّ قد أخلوا مناطق شاسعة . وكان «روندشتاد» ما يزال يملك ٣٥ فرقة للمشاة ، وثلاث فرق آليّة ، فضلا عن ٦ ألوية رومانيّة ، ولوائين مجريّين ، ولواء سلوفاكيّ ، وفوج كرواتيّ ، و ٣ فرق إيطاليّة تمكّن «موسوليني» من فرضها على «هتلر» . كان بإمكان هذه القوّات أن تسهم في العمليّات ضدّ «موسكو» : إمّا بتمديد جبهة قتال مجموعة الوسط نحو «فورونيج» ، أو بتشكيل كتلة احتياطيّة . ولكنّ «هتلر» كان يرى غير هذين الرأيين ؛ ففي الجنوب ، كان وقت استغلال النصر قد حان ، والأهداف الاقتصاديّة الرئيسة كانت في الجنوب لا في موضع آخر ؛ فبدلاً من أن يتجمّع الجيش الألمانيّ لدعم المجهود النهائيّ ، رأيناه يفتح مروحته أكثر فأكثر .

ولسوف يستولي جيش «رايخناو» الـ ٦ على «خاركوف» ، ولسوف يحتلّ جيش «شتولبناغل» الـ ١٧ الأماكن الآهلة الصناعيّة على عطفة «الدونيتز» ، وهي «لوسوفايا» و «سلافجانسك» و «أرتيموسك» وغيرها ؛ وستقوم مجموعة «كلايست» المصفّحة بمساعدته في هذه المهمّة ، بأن يحتلّ جناحها الأيسر «ستالينو» في حين يحتلّ الجناح الأيمن «روستوف» ، ويعمل على إقامة رأس جسر على «الدون» باتّجاه «مايكوب» و «باتوم» . وأمّا الجيش الـ ١١ ، فقد كان عليه أن يتوغّل بعيداً عن مركز الانطلاق ، فيستولي على «القرم» تدعمه الفرقة الرومانيّة الثالثة الصغيرة ، ويقوم من ثمّ باجتياز مضيق «كيرتش» للاشتراك بالهجوم على «القفقاس» . وإذ قضى قائده «فون شوبرت» نحبه اثر هبوطه في حقل من الألغام ، فقد استدعى «هتلر» «فون مانشتاين» الحاذق ليحلّ محلّه بعدما سُحب من جبهة «لينينغراد» . في وجه مجموعة جيوش «روندشتاد» ، التي كانت مكلّفة بمهمّات عديدة متباعدة على أفق جبهيّ يبلغ طوله ١٢٠٠ كلم ، أحصى المكتب الثاني الألمانيّ مجموعتي جيوش سوفياتيّتين ، على الجبهة الجنوبيّة الغربيّة والجبهة الجنوبيّة ، وهما مؤلّفتان على التوالي من الجيوش السوفياتيّة الـ ٤٠ ، و ١١ ، و ٣٨ ، و ٦ ، و ١٢ ، و ١٨ ، و ٣٧ ، و ٩ ، و ٥٦ ، و ٥١ ، ويبلغ مجموعها ٨٢ وحدة كبيرة . وإذا بدت «أوكرانيا» الشماليّة بلا دفاع تقريباً ، فإنّ طريق «القفقاس» ومنافذ «القرم» كانت ، بالعكس ، في حماية قوّات ضخمة . ولكنّ المراقبين اعتبروا أنّ هذه التشكيلات أقرب إلى الضعف ، وأنّ بإمكان الجيش الألمانيّ ألاّ يحسب لها حساباً .

٩ تشرين الأوّل : الثلوج الأولى .

كان يوم ٢ تشرين الأوّل ، موعد الزحف الألمانيّ ، يوماً رائعاً لطيف البرودة نيّراً . لقد تمّ في «موسكو» حدثٌ جسيم بالغ الخطورة ، إذ وقّعت بعثة انكليزيّة — أميركيّة يرئسها اللورد «بيفربروك» و «إيفزيل هاريمان» مع «ستالين» اتّفاقيّة تحدّد فيها الدولتان الغربيّتان المساعدة التي تلتزمان بتقديمها «للاتّحاد السوفياتيّ» ، منذ أوّل تشرين الأوّل ١٩٤١ إلى أوّل تموز ١٩٤٢ ، وهي : ٣٠٠٠ طائرة ، و ٤٠٠٠ دبّابة ، و ٣٠،٠٠٠ شاحنة ، و ١٠٠،٠٠٠ طنّ من المحروقات ، الخ . ومقابل ذلك تعلن الحكومة السوفياتيّة شبه انضمام إلى «شرعة الأطلسيّ» ، مستثنية من النعم التي تتعهّد بتأمينها حرّية الرأي والمعتقد . نظر الروس إلى هذا العون الذي مُنحوه نظرة استعلاء وازدراء ، وأعلنوا أنّه ليس إلاّ تعويضاً ضئيلاً عن عدم فتح جبهة ثانية .

كانت «موسكو» ما تزال بعيدة عن الحرب ؛ فمنذ ٢٢ تموز كان الطيران الألمانيّ يشنّ على المدينة بعض الغارات المتباعدة فيصطدم بمدفعيّة جهنّميّة ولا يُحدث غير أضرار طفيفة ؛ كانت الملاجىء نادرة الوجود ، فراحت البعثات الدبلوماسيّة تنشد السلامة منتشرة في المساكن الريفيّة . أمّا عمليّة تمويه معالم المدينة فقد كانت تثير الإعجاب :

فقد حُوّل «الكرملين» إلى بيت من بيوت السكن . واستبدل مسرح «بولشوي» بشبكة من الأزقّة . وبدا السكّان متعَبين قليلي الاكتراث ؛ فالأخبار الواردة من الجبهة ، والتي لا تُنشر إلاّ متأخّرة جداً ، تدور على المعارك في الجناحين في «أوكرانيا» و«لينينغراد» . أمّا القطاع الأوسط فلم يأت ذكره في آب إلاّ لتمجيد الدفاع الباسل عن «سمولنسك» . وفي أيلولَ للتغنّي باستعادة «جيلنا» . خُيِّل لسكّان «موسكو» أنّ نصراً دفاعياً قد أُحرز أمام العاصمة ، وأنّ الجبهة التي يهمّهم أمرها قد ثبتت على وضعها للشتاء . وكان «تيموشنكو» مقتنعاً بذلك أيضاً ، ولذا أتى هجوم مجموعة الوسط مفاجأة تامّة : فالتحصينات التي بناها الروس . والأرض التي قلبوها ، والفرق التي أعادوا تنظيمها ، هذا كلّه لا يجدي فتيلاً ؛ وأخذ الجيش السوفياتيّ ينهار مرّة أخرى جداراً عقب جدار أمام كرّ الجيش الألمانيّ . ففي شماليّ جبهة الهجوم عبرت وحدات الدبّابات التابعة للمجموعة المصفّحة ٣ الموقعَ المحصّن ، في النصف الأوّل من النهار ، بحماية فيلق الدبّابات ٤١ ، وفرقة الدبّابات ١ ، والفرقة الآليّة ٣٦ ، التي راحت تبعثر الوحدات الروسيّة المدافعة عن عقدة الطرقات في «بليجوي» ؛ وهجم فيلق الدبّابات ٥١ ، وفرقتا الدبّابات ٧ و ٦ . رأساً على «فيازما» . فإذا «بشولم» أمامهم . وإذا «بالدنيبر» في موضع قريب من ينبوعه. وشنّ لواء سوفياتيّ مصفّح هجوماً معاكساً ، إلاّ أنّ التحام الدبّابات انقلب هذه المرّة أيضاً لصالح الألمان الذين رموا جسراً فوق النهر الناشىء وتابعوا كرّهم نحو الجنوب الشرقيّ . أمّا «فيازما» فهي مدينة صغيرة ترتع في واد خَضِل ، ويبلغ عدد سكّانها عشرين ألفاً . لم يبدِ الروس فيها مقاومةً تُذكَر ، فاحتلّتها المجموعة المصفّحة في ٧ تشرينَ الأوّل ، ولمّا ينقضِ على بدء الحملة غير خمسة أيّام ؛ فإذا بالقوّات الآليّة الألمانيّة تقاتل من جديد في جبهة مقلوبة ، وظهرها إلى الشرق ، فيما تتقدّم الفيالق ٦ و ٥ و ٨ لملاقاتها عبر تكتّلات الأعداء.

لم يفُت ذراعَ كمّاشة «فيازما» الجنوبيّ شيءٌ من قوّة الاختراق ولا من سرعة استغلال الثغرة ؛ ففي ٨ تشرين الأوّل التقت فرقة الدبّابات ١٠ التابعة «لهوبنر» فرقة الدبّابات ٧ التابعة «لهوث» فوق حلبة تبعثرت فيها كمّية هائلة من عتاد العدوّ . لم يدم النزاع هنا سوى خمسة أيّام استسلم الروس على أثرها جماعات جماعات ؛ وعادت أرتال من الأسرى لا أوّل لها ولا آخر تسير باتّجاه الغرب ناثرة في طريقها الموتى والزحار والحرمان .

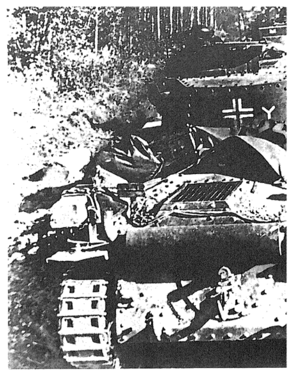
أمّا ميمنة مجموعة الجيوش فقد لاقت مزيداً من العنَت ؛ ذاك أنّ معركة «أوكرانيا» قد أبعدت «غوديريان» جنوباً حتّى «رومني» الواقعة



ظنّ «هتلر» في أواخر تشرين الأوّل أنّ الجيش الأحمر قد هُزم . ولذلك رأيناه يدفع بالجيش الألمانيّ قُدُماً بلا شفقة ولا رحمة .

بين «كييف» و «خاركوف» . على بعد ٧٠٠ كلم من «موسكو» . فبات لزاماً عليه أن يصعد نحو الشمال في مهمّة مزدوجة تقضي أوّلاً بتطويق الفرق الروسيّة الموجودة في منطقة «بريانسك» ، وثانياً بقطع المواصلات بين «موسكو» وجنوب «روسيا» ، في «تولا» . هذا وقد بلغت الطرقات من رداءة الحال مبلغاً غدت معه تتحفّر لدى مرور أصغر قافلة من الشاحنات ، وتستحيل ورطات لدى كلّ مَطرة ، ممّا أثار في نفس «غوديريان» ، الذي كان لا ينفكّ يطير من مركز قيادة إلى آخر ، شعوراً مزعجاً بهذا النوع من الانحلال الذي يستولي على جمعه المقتدر الوافر العدد أمام هذه البطاح الشاسعة . فهنالك ١٠٠ دبّابة استبدال تمكّن من انتزاعها من «هتلر» ، ولا تزال عقبات الخطوط الحديديّة تجمّدها في «أورشا» ، وما برحت فيالق المشاة ، والفيلق المصفّح ٤٨ ، التابعة له ، في قلب «أوكرانيا» ؛ فما كان منه إلاّ أن قسم الفرقتين اللتين بين يديه ، فسار الفيلق ٢٤ بقيادة «غير — فون — شويتبورغ» نحو الشمال الشرقيّ بسرعة مكّنت الدبّابات الألمانيّة من اقتحام شوارع «أوريل» فيما كانت الحافلات الكهربائيّة لا تزال تجول فيها ! وانعطف الفيلق ٤٧ بقيادة «ليميلسن» نحو الشمال الغربيّ ليقطع الطريق على الجيشين ٣ و ١٣ السوفياتيّين وقد قذف بهما الجيش الثاني نحو الشرق . لم يكن هنالك بدّ من القتال باستمرار ، وفي الغالب ضدّ دبّابات ت ٣٤ التي يكاد يستعصي عليهم تدميرها . وفي ٩ تشرين الأوّل تمّ إغلاق جيبين ، الأوّل جنوبيّ «بريانسك» ، والثاني شرقيّها ، في أرض بيضاء كستها الثلوج الساقطة في اليوم السابق ، وهي أولى ثلوج السنة . غير أنّ ضعف الجيش الثاني حال دون تطهير غابات المنطقة العميقة تطهيراً تامّاً ، ممّا أتاح لوحدات كاملة الانضمام إلى الأنصار فيها .

ولكنّ هذا لم يقلّل في شيء من قيمة الانتصار المزدوج الذي تحقّق في «فيازما» و «بريانسك» ؛ إنّه ليعادل موقعة «أوكرانيا». فلقد تمّ تدمير ٨٠ فرقة وأسر ٦٦٣،٠٠٠ رجل . ونظرة واحدة إلى الظروف التكتيكيّة التي امتازت بها هذه الانتصارات الكبرى تكفي لإثبات درجة الكمال التي بلغتها . سُلِّط الهجوم على عدوّ متحصّن وراء جبهة متماسكة كان لا بدّ من صدعها بانقضاض مجابه قبل القيام بعمليّة الالتفاف والتطويق ؛ بيد أن هذه الصعوبة الإضافيّة لم تؤخّر الانتصار يوماً واحداً : بل ثُقبت الجبهة في كلّ مكان منذ الوثبة الأولى . صحيح أنّ الروسيّ خصم عنيد ، يحسن استخدام الميدان وغالباً ما يحارب بضراوة ، إلاّ أنّه ، حتّى في القتال الدفاعيّ الذي يلائمه أفضل ملاءمة ، كان عاجزاً عن الصمود في وجه جيش المشاة الألمانيّ . جزم «هتلر» بأنّ أسوأ جنديّ من جنوده أفضل



دبّابات ألمانيّة متحفّزة للقتال في ضواحي «فيازما» ، في ٢١ تشرين الأوّل ١٩٤١ .

من أفضل الجنود الآخرين . وإذا بالعمليّات تدعم ما ذهب اليه . وهكذا بقيت العصمة تجلبب الفوهرر . ربما لم تثر عمليّات الجناحين ما أثارته غلبة الجبهة الوسطى من دويّ ، إلاّ أنّها لم تسبّب كارثة واحدة من تلك الكوارث التي تخوّف منها الجنرالات نظراً لذاك التبدّد الواسع في الجهود .

ففي الشمال كانت «لينينغراد» على وشك السقوط حين سحب «هتلر» من المهاجمين في ١٥ أيلول ما كان لديهم من طائرات ودبّابات . كانت «شلوسلبرغ» قد سقطت في يد الفرقة الآليّة ٢٠ ، وكان الفيلق المصفّح ٤٦ قد اخترق مراكز الدفاع وبلغ تخوم المدينة ، وكانت الفرقتان ١ و ٢٩١ قد شقّتا طريقاً حتّى خليج «فنلندا» ، عازلتين عدّة فرق سوفياتيّة في جيب «أوريانيبوم» ؛ فحلّت حرب الحصار محلّ هذا الزحف ، تحت مطر بارد يجمّد الجنود . أمّا الجيش ١٦ فقد عبر «الفولشوف» وراح يقترب من «تيشفين» .

أمّا في الجنوب فقد تقدّم الجيشان ٦ و ١٧ عبر مناطق «الدونيتز» الصناعيّة الكبيرة ؛ ففي أقصى الجنوب وقع «كلايست» و «مانشتاين» على جيش روسيّ بشاطىء بحر «آزوف» فبدّداشمله وأسرا منه ٦٥،٠٠٠ رجل . وتابع الجمع المصفّح مسيرته باتّجاه «روستوف على الدون» ، فيما أخذ الجيش ١١ على عاتقه أمر احتلال «القرم» بعد اقتحام برزخ «بيريكوب» .

كان من شأن تحرّكات متباينة إلى هذا الحدّ أن تخلق بين الجيوش فراغاً يتخوّف منه القوّاد ويحاولون الحدّ منه ؛ ولكنّ «هتلر» كان يمنعهم من الاستسلام لمخاوفهم . إستاء من «فون شتولبناغل» فعزله من قيادته واستبدل به «هوث» على رأس الجيش ١٧ ، فسلّم هذا جمعه المصفّح «لراينهارت» ؛ ثمّ تدخّل مرّتين لمنع جمع «روندشتاد» من الصعود شمالاً ومحاولة السير بمحاذاة الهجوم الأوسط . كان ينبغي الوصول إلى «الفولغا» وإلى بحر «قزوين» قبل الميلاد ، وكان ينبغي أن يباشر «القفقاس» تغذية الاقتصاد الحربيّ الألمانيّ في عام ١٩٤٢ .

وفجأة استبدّ الذعر «بموسكو» . فلقد جعل سقوط «أوريل» و «فيازما» الاجتياح الوشيك واقعاً محسوساً . خنقت الرقابة الأخبار ، بيد أنّ الشائعات المتردّدة في العاصمة راحت تصف الوضع بأقتم الألوان . وفي ١٥ تشرين الأوّل لم يكن بوسع أحد أن يخفي عن سكّان «موسكو» رحيل الهيئات الدبلوماسيّة والحكومة عن المدينة : فقد حمل قطار غاصّ بالركاب السفراءَ إلى غاية مجهولة ، وحمل قطار آخر الوزراءَ وكبار الموظّفين وفرقة باليه «بولشوي» . أصبحت الموادّ الغذائيّة قليلة ، وبات التوقّف لإفساح مجال المرور للقُطُر العسكريّة يستغرق ساعات . وبعد خمسة أيّام حلّت الحكومة في «كيوبيتشيف» على «الفولغا» ، على بعد ٩٠٠ كلم من «موسكو» . وجه واحد كان ينقص القطار الحكوميّ ، ألا وهو وجه «ستالين» . ولكنّنا حتّى الآن لا نعلم ما إذا كان عقد العزم إذ ذاك على الموت تحت أنقاض «الكرملين» ، أو أنّه كان ينوي الالتحاق بالعاصمة الموقّتة في آخر لحظة .

لم نُعرف بالضبط تفصيل ما جرى في «موسكو» يومذاك . فبحسب التاريخ الرسميّ تسلّم الحزب الشيوعيّ بيده زمام الدفاع . فجمّد الجماهير ، وجنّد العمّال ، وحفز باسم العاصمة واسم الأمّة تلك الوثبة الوطنيّة الكبرى . وتزعم مصادر أخرى أنّ الحزب الشيوعيّ قد انحلّ فلاذ زعماؤه بالفرار واختفى الأعضاء العاديّون ، فانفجرت الاضطرابات ، ونُهبت المخازن ، وقُتل بعض رجال الشرطة . أمّا الذين «أمسكوا» بزمام العاصمة فهم العسكريّون : تسلّم «جورج جوكوف» القادم من «سيبيريا» قيادة الجبهة الوسطى ، مكان «تيموشنكو» الذي أرسله «ستالين» ليتولّى القيادة في الجنوب ، فأعلن حالة الطوارىء ، وشرع يردع الاضطرابات ويرمي بالرصاص الجنود الفارّين الذين يظهرون في الضواحي ؛ وصودر السكّان ، وأخذت مواكب من النمل البشريّ تغادر «موسكو» وتتّجه نحو الحفرتين المضادّتين للدبّابات اللتين أمر «جوكوف» بحفرهما حول العاصمة . كانت الطائرات الألمانيّة ترى من كبد السماء خطّاً رفيعاً أسود ، أو حزاماً بشريّاً حقيقيّاً ، فتمطره بعض أبيات من الشعر البسيط : «لا تحزنّ هكذا يا سيّدات «موسكو» الصغيرات ، لأنّ دبّاباتنا الضخمة قادمة إليكنّ ، وستملأ حفركنّ الصغيرة !» كانت الإذاعة تستنهض الشعور الوطنيّ وتذكّر بعام ١٨١٢ ؛ بيد أنّ جموع المشرّدين ملأت طرقات الشرق ، وحاصرت جموع غفيرة محطّتي «قازان» و «ياروسلافل» .

في ١٤ تشرين الأوّل تلقّت جيوش المجموعة الوسطى تعليمات جديدة تفرض عليها تطويق «موسكو» ، وذلك بأن يتّجه الجيش ٩ والجمع المصفّح ٣ نحو «رجيف» و «كالينين» ، فيما يداهم الجمع المصفّح ٤ المدينةَ من الشمال ، ويدرك الجيش ٤ الجبهة في «موجايسك — كالوغا» ثمّ يتابع تقدّمه حتّى الضواحي الغربيّة . أمّا الجيش ٢ فيتّجه نحو الجنوب الشرقيّ ، بعد تطهير جيب «بريانسك» ، بغية تعشية الثغرة التي انفتحت بين المجموعة الوسطى والمجموعة الجنوبيّة . أمّا مجموعة «غوديريان» ، التي رُفّعت إلى رتبة الجيش المصفّح ، فكان عليها أن تستولي على «تولا» و «كولومنا» . وهنا أيضاً منع الفوهرر قبول استسلام المدينة : كان لا بدّ من إكراه السكّان على الهرب بواسطة التجويع والقصف ، كيما تزيد برحيلها الفوضى التي ضربت أطنابها في الولايات الشرقيّة من «روسيا» . ولا تدخل القوّات إلى «موسكو» إلاّ

بعد أن تخلو من السكّان . وإذ ذاك يُنسف قصر «الكرملين» بناء لأمر خاصّ صادر عن الفوهرر .

كان رأي القوّاد مخالفاً لتوجيهات «هتلر» ؛ فقد اعتبرها «بوك» غير قابلة للتنفيذ : هو يودّ حشد قوّاته والانقضاض رأساً على «موسكو» لاحتلال المدينة بهجوم مواجه ، والاكتفاء بذلك لعام ١٩٤١ . أمّا «هتلر» فقد شرع يرسم على خرائطه محاور التقدّمات المقبلة : «كالينين — ياروسلاف ، موسكو — غوركي ، كورسك — ساراتوف» ؛ ذاك أنّه لم يتخلّ عن نيّته في احتلال خطّ «الفولغا» بكامله قبل الميلاد .

في الواقع ، حتّى هذه الحركة المحدودة الّتي كان «فون بوك» يفكّر بها أضحت مستحيلة في ذاك الوقت . لأنّ كارثة جوّيّة قد انقضّت على الجيش الألمانيّ ، ألا وهي الوحل .

لقد بدأ موسم الأمطار في ١٠ تشرين الأوّل يتخلّله سقوط ثلوج مبكرة . كان الألمان في انتظارها ، إلاّ أنّهم ، مع ما خبروه منها في «بولونيا» خلال الحرب العالميّة الأولى ، ما كانوا ليتصوّروا خطورة هذه الظاهرة في قلب «روسيا» : فمجاري المياه قد فاضت جميعها ، وامتدّت الفيضانات على مدّ النظر ناصبة في وجههم حواجز وعقبات كأداء . والطرقات قد غرقت في طين لا قاع له ؛ فغاصت العربات حتّى أوساط عجلاتها والجياد حتّى بطونها . وغدا السير مجهداً في وحل يفيض فوق الجزمات ، ويلحق بالثياب ، ويلطّخ الوجه ، ويوسّخ الأسلحة ، ويدنّس الأطعمة . إستحالت إقامة المعسكرات في الهواء الطلق . وكانت المنازل قد أُحرقت ، فاضطرّ الجنود التّلِفون إلى الاستلقاء في الوحول . لم يكن البرد قد اشتدّ بعد ، غير أنّ الرطوبة كانت تزيد من وطأته ؛ ومع هذا لم تلقَ طلبات الملابس الشتويّة أيّ جواب .

على الجرّارات ذات الزناجير لقطر العربات ؛ ولسوف يجري التفكير بذلك لحملات الخريف المقبلة . كان العالم يعتبر الجيش الألمانيّ أداة حربيّة لم يُعرف لها مثيل في دقّة التجهيز والصلابة ، ولم يخطر ببال أحد أنّ التحسّب والحيطة قد افتُقدا إلى هذا الحدّ المُطبق . وأنّ المغامرة الّتي انساق إليها «هتلر» في «روسيا» كانت مجرّد ارتجال .

بلغت حمأة الوحل حدّها الأقصى في «أوكرانيا» ، في الأرض السوداء . ويقول المثل الأوكرانيّ : «إنّ ملعقة ماء تسقط في الخريف تعطي دلواً من الطين» . ويقول مثل آخر : «إنّك لو شئت زجر كلب في «أوكرانيا» لما وقعت على حصاة ولا على عود» . لم تكن الطرقات الصلبة معروفة إلاّ في المناطق ذات الكثافة الصناعيّة الكبرى . وهكذا غاصت في الوحل مجموعة «كلايست» بكاملها (وقد أضحت الجيش المصفّح الأوّل) وهي في طريقها إلى «روستوف» . فاضطرّت إلى انتظار موعد الصقيع كيما تنتشل معظم عرباتها من بحر الوحل ذاك . إنقطع كلّ تموين . وغدا الجنود لا يقتاتون إلاّ بالبطاطا الّتي يحصلون عليها في المزارع . كان اتّساع الخراب مثيراً للذهول ؛ فقد أُحرقت القرى كلّها ، وعُطّلت المصانع كلّها ، ونُسفت الجسور كلّها ، فيما أنتنت جثث الماشية بالألوف في الأرياف. وإن كان الألمان ، مع هذا كلّه ، قد احتفظوا بشيء من القدرة على التحرّك ، فالفضل في ذلك يعود إلى الجياد المأسورة والمربوطة إلى طنابر الفلاّحين الخفيفة ؛ ذاك أنّ العدد الأكبر من جيادهم قد مات من الحرمان ، أمّا جياد البلاد فكانت في الواقع مدهشة . إذ كانت تتحمّل كلّ حرمان . لم يكن الوضع بأحسن حالاً في الوسط ؛ صحيح أنّ هنالك خطاً جليلاً على الخارطة هو أوتوستراد «موسكو» ، ولكنْ ما قيمة طريق فرديّة تكاد

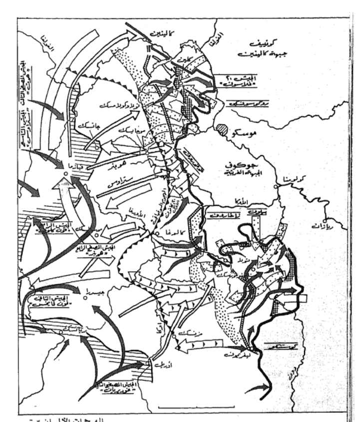


الألمان يتقدّمون في إحدى الغابات تحفّ بهم الأهوال .

المشاة الألمان يشنّون هجوماً في «روسيا» .

وعلى كلّ حال لم يصل من المؤخّرات شيء ما عدا القليل من الخبز . أعاد النقّابون بناء السكك الحديديّة حتّى «سمولنسك» و «غوميل» و «دنيبر» و «بتروفسك» ، باذلين في ذلك جهوداً جبّارة ، إلاّ أنّ مدّ السكّة الثالثة لم يتمّ ، وبقيت النتيجة المحقّقة ضئيلة للغاية ، نظراً لعدم توافر العربات الروسيّة : كان بإمكان قطارين فحسب من حمولة ٤٠٠ طنّ أن ينتقلا يومياً على خطّ «موسكو» ! ... ويبقى هنالك بين أكثر المحطّات تقدّماً ، ووحدات الجبهة ، مسافةٌ قد تبلغ ٢٠٠ كلم أحياناً . أمّا الشاحنات المصنوعة للسير على طرق «أوروبا» فكانت تعلق في الوحل وتتحطّم . كانت الحاجة تقضي بتزويد الأُطُر بالسلاسل، والاعتماد

تفتقر إلى التمديدات الفرعيّة كلّ الافتقار ، حين تدعو الحاجة إلى تزويد جيوش خمسة ؟ وفي أيّة حال ، لم تكن الأوتوستراد غير ركّة لم تُنجز بعد، ينقطع الاسمنت فيها مسافةَ أميال ويغطّي الأقسامَ الصلبة منها طبقةٌ من الطين تبلغ متراً . ولا عجب إذاً ألاّ تتقدّم سيول المركبات المتدفّقة عليها إلاّ بصعوبة لا حدّ لها ؛ ففي ٢٠ تشرين الأوّل هبطت سرعة انسياب النقل الآليّ بين «جياسك» و «موجايسك» إلى ٣ كلم في الساعة ؛ وفي اليوم التالي هبطت إلى الصفر ، فعلق في الوحل ٥،٠٠٠ شاحنة تحمل الزاد والذخيرة والمحروقات ، ولم يكن هنالك أيّ أمل في إنقاذها . بذلك تعطّلت الأوتوستراد نهائياً .



معركة «موسكو» .

حاول الألمان العودة إلى الطريق القديمة ، فإذا السهل أفضل منها ؛ وأخيراً لم ينقذ مجموعة الجيوش من الشلل التامّ سوى الجياد البلدية وطنابر الفلاحين ، تماماً كما جرى في «أوكرانيا» .

وكأنّ هذه الظاهرة الطبيعية لم تكف ، فإذا بظاهرة أخرى بشرية لم يُحسب لها أيّ حساب تبرز إلى حيّز الوجود : ألا وهي ظهور الأنصار . أمّا النظرية فقد تضمّنتها تعاليم «كارل ماركس» : « لا يُفرض على أمّة تناضل في سبيل حريّتها أن تتقيّد بقوانين الحرب ، فتجنيد الجماعات ، والأساليب الثورية ، وحرب العصابات المعمّمة ، هي الوسائل الوحيدة التي تمكّنها من الصمود في وجه عدوّ يفوقها بقوّاته المادية ... » ولقد وجدت هذه النظرية لها تطبيقاً في سابقة ١٨١٢ التاريخية ، يوم هبّ الفلاحون الثائرون وراحوا يغيرون على «الجيش الكبير» ، ويختطفون السعاة ويقتلون المتخلّفين من الجند . ومع خوف الألمان من المناضلين غير النظاميين ، فإنّهم لم يأخذوا بعين الاعتبار خطراً يبدو وكأنّه ينتسب إلى ماضٍ رومنطيقيّ ؛ فلقد أسند أمن المؤخّرات إلى ستّ من الفرق المدعوّة «بفرق الأمن» والتي تتألّف من جنود الاحتياط القدامى ، العزّل تقريباً . وأضافت إليها قوّةُ جنود الاحتياط ، وهي فرع «الغستابو» العسكريّ ، بعضَ أخصائيّي القمع ، إلّا أنّ إمكاناتهم العسكريّة كانت سخيفة ضئيلة : ٤ مجموعات انقاض لا يتجاوز عدد رجالها ٤،٠٠٠ . لم يكن أحد يتوقّع أن يأخذ الكفاح ضدّ الأنصار طابع العمليّات العسكريّة الأصيلة ، بل ساد الاعتقاد بأنّ شنق البعض يكفي للقضاء على كلّ رغبة في التحرّش بالجيش الألمانيّ .

ولكن سرعان ما خاب هذا الظنّ ، فمنذ ٢٥ تموز نبّهت قيادة البرّ جيوشها إلى خطر تخريب طرق المواصلات ؛ وفي تشرين الأوّل أصدر «رايخناو» العاتي إلى جيشه السادس أوامر زجريّة علّق عليها «هالدر» قائلاً إنّ «على كلّ ضابط يحترم نفسه أن يرمي بها عرض الحائط» . إلاّ أنّ «هالدر» لم يكن يستطيع ، وهو في «بروسيا» الشرقيّة الآمنة ، أن يدرك طابع هذا القتال الذي لا يعرف قانوناً ولا هوادة . فإذا انفرد بعض الجنود ووقعوا في أيدي الانصار كان نصيبهم التنكيل ، والرفع على الخازوق ، والتشنيع . وعبثاً ردّ الألمان على هذه الأعمال بمثلها ، فقد أخذت مناطق الاضطراب تتّسع ، حتّى أُحصي منها في الخريف إحدى عشرة منطقة في نطاق مجموعة جيوش الشمال . هذا وقد بلغ قطر المنطقة الواقعة بين «دنو» و «شولم» وحدها ١٠٠ كلم . وفي الوسط غدت مناطق الغابات في «بريانسك» و «أورشا» و «فيتبسك» ، ومناطق المستنقعات في «بورودينو» و «نيفل» و «غلوسك» ، ملاجىء يتطلّب تطهيرها عشرات الألوف من الرجال . وهكذا راحت هجمات الوطنيّين على مواصلات الجيوش الألمانيّة الضعيفة تزداد عنفاً يوماً بعد يوم .

وبالرغم من هذه العقبات كان الزحف مستمرّاً . سقطت «أوديسا» في ١٦ تشرين الأوّل ، إلاّ أنّ ٧٠،٠٠٠ رجل من رجال الحامية أمكن ترحيلهم إلى «سيباستوبول» بقدرة مدهشة عن طريق البحر . وبعد يومين بوشر فتح «القرم» : حمل الجيش ١١ على خطوط «بيريكوب» وانتزعها بعد قتال دام عشرة أيّام . وفي «أوكرانيا» انتزع الجيش الأوّل المصفّح مدينة «ستالينو» ، وفي ٣٠ تشرين الأوّل عبر «الميوس» ، وهو الحاجز الأخير قبل «روستوف على الدون» ، عتبة «القفقاس» . وفي «أوكرانيا» الجنوبيّة دخل الجيش ٦ «خاركوف» في ٢٤ تشرين الأوّل بعدما غاص في الوحل بشكل غريب . وبين ١٧ و ٢٥ تشرين الأوّل أفرغ جيبا «بريانسك» في المجموعة الوسطى ؛ وفي ٣٠ منه وصل الجيش المصفّح الثاني أمام «تولا» التي كان جيش «ألمانيا الكبرى» يحاول عبثاً انتزاعها على حين غرّة . وحطّ «كلوغي» ، مارشال الطلائع ، رحال قيادته أمام «موسكو» في «مالوياروسلافيتش» الواقعة على خطّ النار تقريباً ، فاغتصب فيلقه ١٣ «كالوغا» ، واحتلّ فيلقه ٥٧ «بوروفسك» الواقعة على بعد ٨٠ كلم من «الكرملين» . وشماليّ هذه النقطة تقدّمت المجموعة المصفّحة ٤ على محور الأوتوستراد ، فانتزعت فرقة المشاة ٧ ، وفرقة الدبّابات ١٠ ، قرية «دوروشوفو» ومحطّتها ، حيث تعرّفت على الفرقة السوفياتيّة ٨٢ الواصلة من «مغوليا» الخارجيّة بعد سفر في القطار دام ثلاثة أسابيع . وأخيراً أشرف الجيش ٩ والمجموعة المصفّحة ٣ على مدينة «رجيف» .

أمّا في «رستنبورغ» فلم يكن ثمّة ما يحمل «هتلر» على الاعتقاد بأن حملة «روسيا» قد أخفقت ؛ بل انّ بطء الزحف كان يثير غضبه ، فيقيس بفارغ صبر ما تبقّى من الطريق حتّى «الفولغا» ، ويستحثّ «بوك» ، ويقول «لغوديريان» إنّه لا يفهم السبب الذي يحول دون «توسيعه رأس جسره على «الأوكا» باستخدام وحداته السريعة» . بيد أنّ إنجاز المخطّط كان يتمّ بشكل عامّ ، ولم تكن قيادة البرّ هي الأخرى على شيء من التشاؤم ؛ فالقوّاد ، أمثال «هالدر» ، الذين سيتبجّحون في ما بعد بذكائهم الثاقب في نظرتهم إلى ما جرى ، يعتبرون أنّ الوضع ما زال مؤاتياً ، وأنّ الروسيّ قد هُزم ، وأنّ بلوغ أهداف الحملة الأساسيّة ما برح ممكناً قبل الشتاء . ولا عجب ، فلا «هتلر» ، و لا «براوشيتش»

ولا «كيتل» ، ولا «جودل» ، ولا «هالدر» ، ذهب مرّة واحدة إلى الجبهة ليرى بأمّ عينه وضع الميدان والقوّات والأعداء . أجل ، سقطت القيادة العليا الألمانيّة في الزلّة المميتة القاضية التي تردّت فيها القيادة العليا الفرنسيّة في العام المنصرم : لقد أخذت تدير الحرب إدارة نظريّة .

في الواقع استنفد الجيش الألمانيّ قواه ، وها هو الوحل يجهز عليه . فلكي يتمكّن «غوديريان» من السير إلى «تولا» فرش الطريق بالاسطوانات الخشبيّة ، ولكنّ الأخشاب ما لبثت أن غارت في الأوحال ، فإذا بالوحدات السريعة ، التي لامه «هتلر» على عدم استعمالها ، عاجزة عن أن تفوق سرعة رجل يسير سيراً عادياً . ومهما يكن من أمر فقد بلغت هذه الوحدات حدود التلف ، فلم يبقَ من الفوج المصفّح ٢٤ غير ٥٠ دبّابة أعاد «غوديريان» جمعها تحت إمرة الكولونيل «إيبرباخ» ، صاهراً فرقتين مصفّحتين في حدود لواء ضعيف .

وكذلك تلف جيش المشاة . صحيح أنّ الخسارة التي تشير إليها الإحصاءات لا تتعدّى نسبة ٢٠ بالمئة من القوّات التي زُجّ بها في الميدان في حزيران ، إلاّ أنّ أكثر السريّات هوت بعددها إلى حدود الفصائل . أضف إلى ذلك أنّ المدفعيّة قد غارت في الطين ، وأنّ الرجال قد جاعوا ؛ فقد أشار الجنرال «هاينريتشي» إلى أنّ فيلقه لم ينل خبزاً منذ عشرة أيّام . والحذاء أيضا قد تهرّأ ، وكثيرون هم المشاة الذين راحوا يسيرون بلا جوارب ، وبأحذية مثقوبة . أمّا اللباس العسكريّ فكان يبدو أرقّ يوماً بعد يوم تحت لسعات الزمهرير التي تزداد قساوة. وأعوزت الحرامات جنوداً كثيرين لأنّهم رموها أيّام القيظ . صحيح أنّ الجيش يسير متجلّداً ، بيد أنّ المعنويّات تبدّلت بتأثير صدمة معاكسة للدعاية التي روّجت إثر انتصار «فيازما» ، والتي أعلنت أنّ الجيش الأحمر قد زال من الوجود ؛ فإذا بالرجال الذين يحاربون كلّ يوم عدوّاً لا يقبل الفناء يمضغون تبجّحات «غوبلز» بمرارة وحنق .

إنّ ما امتاز به هذا الزحف من الناحية السّراتيجيّة هو افتقاره التامّ إلى قوّات الاحتياط ؛ فالفرق كلّها في خطّ النار ، ولم تبقَ المناورة ممكنة في جيش حقّق انتصاراته منذ شهور بالمناورة اكثر مما حقّقها بالقتال . وخشي «هتلر» أن تخور العزائم ، فمنع تنظيم أيّ موقع للتراجع ، ورفض توزيع ثياب شتويّة دفعاً لفكرة حملة شتويّة ، وحظر حفر الأرض منعاً للتقهقر . ولكنّه رفض الذهاب إلى الميدان ، فكأنّه بذلك يلغي الطين والثلج والطرقات الفاسدة وتهرّؤ المصفّحات والأحذية !

في ١٣ تشرين الثاني عُقد في «أورشا» مؤتمر دعا إليه «هالدر» رؤساء أركان الجيوش ، وراح يستمع إلى شكاواهم واقتراحاتهم ؛ فأعرب ممثّل «فون ليب» عن شكّه بإمكانيّة مواصلة الزحف على «تيشفين» ، وحمل ممثّل «فون روندشتاد» رأي مارشاله الجازم : لقد خارت قوى الجيش ، وأمسى الشتاء على الأبواب ، وقد حان وقت إيقاف الزحف ؛ أمّا ممثّل «بوك» فقد أعلن عكس ذلك تماماً ، وأصرّ على وجوب متابعته : لقد حلّ الصقيع فجمّد الأرض موفّراً فرصة إنقاذ العربات الغارقة في الوحل وإعادة تنظيم المواصلات . ثمّ انّ البرد ما فتىء معتدلاً مشمساً ، ويمكن الاعتماد على فترة تمهيديّة للشتاء تدوم أربعة أسابيع ، تسبق البرد الشديد والثلوج العميقة . أمر واحد لم يكن ممكناً في نظره ، هو قضاء الشتاء على الخطوط الحاليّة وسط بلاد لم تُبقِ فيها يد التخريب شيئاً ؛ فإمّا احتلال «موسكو» وإمّا العودة إلى مواقع أوّل تشرين الأوّل ، والتقهقر مسافة ٢٠٠ كلم ، والتخلّي عن الظفر للعدوّ ، والتخلّي عن أرض أروتها الدماء... فالأفضل أن يُبذل جهد أخير ، وأنّ الجنود لعلى استعداد لبذله تحقيقاً للهدف الذي ما برح هدفهم منذ بدء الحملة : ألا وهو «موسكو» .

لم يكن لرأي رؤساء الأركان أيّ شأن ، لأنّ «هتلر» كان قد اتّخذ قراراته ، ولم يكن «هالدر» سوى آلة تسجيله . فما كان منه إلاّ أن بلّغ الأوامر التي حملها حول ما دُعي بزحف الخريف : لن يُكتفى بفتح «موسكو» ، بل تبقى الأهداف المحدّدة لعام ١٩٤١ قائمة وهي : «مايكوب» ، «ستالينغراد» ، «غوركي» ، «فولوغدا» ، «إيارو سلافل» ، والفوهرر يلحّ في ألاّ يتوقّف الجيش الألمانيّ على الأقلّ قبل خطّ ينطلق من بحيرة «أونيغا» ليبلغ «روستوف» مارّاً «بريبنسك» و«تاربوف» ومجرى «الدون» الأسفل . كان ذلك يعني بالنسبة للجيوش تقدّماً يتراوح بين ٢٠٠ و ٦٠٠ كلم . ولكنّ «هالدر» يرى أنّ المقاومة أمام «موسكو» هي آخر انتفاضة ينتفضها جيش أحمر قد أدرك ساعة النزاع . لم يبقَ بوسع العدوّ أن يحافظ على جبهة متماسكة تبدأ في «البلطيق» وتنتهي في «البحر الأسود» ، فها هو يجلو عن البلاد الواقعة ما بين «الدون» و «الفولغا» بغية التشبّث بمثلّث «موسكو — ساراتوف — فولوغدا» . ذاك هو المعقل الذي كان ينبغي تقويضة نهائياً .

لقد اختارت «اليابان» الحرب

يا له من تهوّر هتلريّ مفجع ! ففيما كان «هتلر» يرهق نفسه في «روسيا» ، كانت حرب الغرب ، التي لم يُكمل إنجازها ، تنقلب عليه من غير رحمة ؛ ذلك أنّ قوّات جبّارة راحت تنهض لمحاربته .

فبالنسبة «لانكلترا» كانت مهلة الراحة شاملة تقريباً ؛ فالغارات الجويّة قد توقّفت عملياً ، وقوبلت هجمات الغوّاصات الألمانيّة بهجمات معاكسة فعّالة ، حتى انّ عدد ضحايا هذه الغوّاصات تدنّى من ١٥٤ سفينة في نيسان إلى ٣٤ في تشرين الثاني . وبعد ما تحسّن تموين الصناعة الانكليزيّة بالموادّ الأوّليّة ، وبعد خلاصها من نذير الخطر الذي كان يؤخّر إنتاجها ، عادت إلى زيادة طاقة الأمّة العسكريّة بسرعة مطّردة . أمّا الطيران البريطانيّ ، الذي توافرت لديه ٢،٠٠٠ طائرة من النسق الأوّل ، فقد بات مسيطراً على الطيران الألمانيّ فوق مسارح العمليّات كافّة ، الأوروبيّة منها والأفريقيّة . وقد بلغ عدد الفرق في جيش البرّ ٩٩ فرقة : ٥٧ فرقة ، ومنها ١٢ فرقة للمدفعيّة المضادّة للطائرات ، كانت تحرس المملكة المتّحدة ، و١٦ فرقة في جيش «النيل» ، و ٩ فرق في «العراق» و «إيران» ، و ٨ فرق في «الهند» ، وهلمّ جرّاً . وقد أثارت قضيّة استخدام هذه القوّات المسلّحة مشكلة : فإنّ الرأي العامّ البريطانيّ ، الذي كان الشيوعيّون يحرّضونه ، سأل «تشرتشل» عمّا إذا كان يعتزم البقاء مكتوف اليدين بينما كان الاتّحاد السوفياتيّ يحارب بمفرده ضدّ «هتلر» .

كانت «انكلترا» تعتبر أنّ المسرح الوحيد الذي يمكنها أن تزيد فيه نشاطها البرّي هو دائرة «المتوسّط» ؛ فالوضع هناك ملائم ، والقوّات الجويّة الألمانيّة في «كريت» وفي «صقلية» قد اختفت بعدما اجتذبتها الجبهة الروسيّة. وعادت القوافل الانكليزيّة تستخدم طريق «الاسكندريّة» المستقيمة . وبعدما عاشت «مالطا» في خطر عمليّة مماثلة لعمليّة «كريت» أصبحت مجدّداً قاعدة هجوميّة ، بحيث بات الانكليز يتصدّون لشبكة النقل التجاريّ المتّجهة نحو «أفريقيا» الشماليّة الإيطاليّة ؛ فقد بلغت نسبة الخسائر الألمانيّة الإيطاليّة خلال عبور البحر ٣٣ بالمئة



هاهو الخريف الروسيّ ، بأمطاره الغزيرة المتواصلة ووحوله المهلكة .

في آب ، و ٦٣ بالمئة في تشرين الأوّل ؛ وفي تشرين الثاني أطلع «رومل» القيادة العليا على أنّه لم يتسلّم غير ٨،٠٩٣ طنّاً من العتاد من مجموع الـ ٦٠،٠٠٠ طنّ التي وُعد بالحصول عليها . كان جيشه الأفريقيّ يشمل في ذلك الوقت ثلاث فرق : الفرقة المصفّحة ١٥ ، والفرقة المصفّحة ٢١ ، والفرقة الخفيفة ٩٠ . وأضاف الايطاليّون إلى هذه القوّات سبع فرق للمشاة وفرقةً سريعة ، ولكن كان على هذه القوّات أن تتابع حصار «طبرق» ، وكان النقص في تموينها يشلّ حركتها . فقد تضافرت إذاً «لانكلترا» العوامل التي تمكّنها من استعادة المبادرة في «ليبيا» .

أمّا «تشرتشل» فقد كان يطمح إلى أكثر من ذلك . فقد راح يدرس مشروعاً ، باسم «ويبكورد» الاصطلاحيّ ، لغزو «صقلية» بقوّات مستقدمة من «انكلترا» يتمّ إنزالها إلى الشاطىء بغتة . ولكنّ رؤساء الأركان عارضوا هذا المشروع ؛ فهذا شهر تشرين الأوّل لم ينقض بعد ، والجيش الألمانيّ ما زال منتصراً ، وبإمكان «هتلر» سحب ثلث جيشه من «روسيا» في غضون الشهرين المقبلين . فالحكمة إذاً تقضي بعدم التعرّض لردّة فعل ألمانيّة وبعدم إضعاف دفاع «المملكة المتّحدة» ، فيما كانت عمليّة غزو «انكلترا» ما تزال ممكنة .

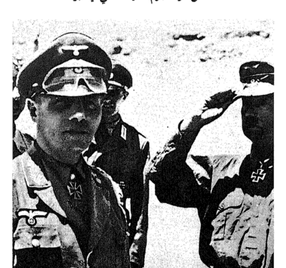
وقرّ الرأي على الاكتفاء باسترجاع «برقة» ، وهي عمليّة حملت اسم «الصليبيّ» الاصطلاحيّ ؛ فوُضع الجيش الثامن (وهو الاسم الجديد لجيش «النيل») تحت إمرة فاتح أفريقيا الاستوائيّة الإيطاليّة الليوتنان جنرال سير «غوردون كانينغهام» . وكان أخوه ، الأميرال سير «اندرو براون كانينغهام» ، قائداً للقوّات البحريّة ، وكان قائد الطيران يحمل اسم العائلة نفسها ، وهو فايس مارشال الجوّ النيوزيلانديّ «آرثر كانينغهام» ! وقد اتُّفق أن تخرج حامية «طبرق» بألويتها الخمسة للإسهام في الهجوم . كان الانكليز يقدّرون تفوّقهم بمعدّل ٢ مقابل ١ بالنسبة للدبّابات ، وبمعدّل ٤ مقابل ١ بالنسبة للطائرات . فهم يتوقّعون ، حسب رأي «تشرتشل» ، صفحة من التاريخ تكون بمستوى «واترلو» ...

وانطلقت عمليّات الهجوم في ١٨ تشرين الثاني تحت سيول من المطر عارمة . وقبل ذلك بخمسة أيّام كانت البحريّة البريطانيّة قد لبست ثوب الحداد : فإحدى الغوّاصات الأولى التي بعث بها «دونتز» إلى «المتوسّط» قد نسفت «أرك رويال» الشهيرة ، وذهبت الجهود التي بُذلت لإنقاذها أدراج الرياح .

وفي «الأطلسيّ» كانت الحرب بين «ألمانيا» و «أميركا» تحتدم أكثر فأكثر ؛ ففي ١١ أيلول ، بعد مهاجمة المدمّرة الأميركيّة «غرير» ، أصدر «روزفلت» الأمر التالي : «لا تتوانوا في أن تكونوا البادئين بإطلاق النار» . وهو موجّه إلى السفن التي تقوم بأعمال الدوريّات في منطقة الأمن . إلاّ أنّ المدمّرة «روبين جيمس» لم تتمكّن من فتح النار بالسرعة اللازمة في ٣١ تشرين الأوّل . فنسفتها غوّاصة ألمانيّة ، وأغرقت حاملةً معها إلى الأعماق ١١٥ بحّاراً أميركيّاً .

في تلك الأثناء كانت المفاوضات مع «اليابان» مستمرّة بجهد وعناء . كان الامبراطور يرغب في إنقاذ السلم ، فتدخّل غير مرّة لفرض اللجوء إلى الوسائل الدبلوماسيّة قبل اللجوء إلى السلاح . وكان الأمير «كونوي» ، والسفير «نومورا» ، وكثيرون من رجال الدولة ، وبعض الأميرالات ، وقلّة ضئيلة من الجنرالات ، يشاطرون الامبراطور هذه الرغبة ؛ فباستثناء فئة قليلة من المتعصّبين ، كان الجميع يقدّرون القوّة الأميركيّة حقّ قدرها ، وينظرون بخشية إلى احتمال وقوع حرب بينهم وبين عملاق ما وراء الأطلسيّ ؛ ولكنّ «اليابان» كانت تختنق . لقد تورّطت في الحرب الصينيّة ، فهل يمكنها أن تتخلّى عن الأراضي التي احتلّتها وتعود إلى مبدإ الباب المُشرّع ، وأن تتخلّى عن مجال توسّعها الذي دفعت ثمنه غالياً ؟ لقد اختارت «اليابان» الجنوب ــ الشرقيّ الأسيويّ سعياً وراء الموارد الغنيّة في «الهند الصينيّة» و «أندونيسيا» ، فهل يجدر بها أن تُفجع بفقدان هذه المغانم ، وأن ترضى بالبقاء عيالاً على غيرها في هذه الموادّ التي لا غنى لصناعاتها عنها ؟ هذا ما كانت «أميركا» تطلبه منها ، فكانت بالتالي تخنقها ؛ لقد خلق لها الحجر المفروض على المحروقات وضعاً مميتاً ، وخزّنت «اليابان» من الوقود ما يكفي لتغذية العمليّات الحربيّة مدّة سنة واحدة ؛ فإن استهلكت هذا الاحتياط الذي لا يعوّض أمست بلا مازوت لسفنها ولا وقود لطائراتها . وإذا كان لا مفرّ من الحرب فلتكن الحرب حالاً ، لأنّ في التريّث ندامة .

«رومل» يستمع إلى تقرير الكابتن «باخ» ، حامي مدينة «حلفاية» ، على أثر الهجوم الحليف الثاني في «برقة».

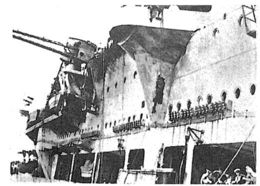


في ٦ أيلول عُقد في «طوكيو» مؤتمر برئاسة الامبراطور ضمّ قادة «اليابان» المدنيّين والعسكريّين. وكان التوتّر شديداً، إذ أنّ الشعب اليابانيّ معروف بشدّة تأثّره ، وكان طابع المناقشة الحتميّ ظاهراً للجميع . وقد تمّ وضع لائحة تضمّنت «أدنى ما يمكن من المطالب» : عدم التدخّل الانكلو – أميركيّ في حسم النزاع الصينيّ ، إغلاق طريق «برمانيا» ، قطع المساعدة عن «تشانغ كاي تشك» ، وحريّة «اليابان» في الوصول إلى الموادّ الأوّليّة ؛ فإذا تبيّن في مطلع تشرين الأوّل أنّه قد تعذّر فرض هذه المطالب بالطرق الدبلوماسيّة ، عندئذ يُلجأ إلى الحرب . وبهذا الحلّ تكون «اليابان» قد منحت السلام مهلة شهر واحد .

وأمّا الأمير «كونوي» فقد حاول الإفادة من هذه الفرصة القصيرة ؛ كان رجلاً شديد الهرم ، واسع الحكمة ، بقي طافياً في غمرة الاضطرابات العنيفة الّتي اجتاحت السياسة اليابانيّة لنصف قرن خلا . وفي سبيل دعم الأميرال «نومورا» بعث إلى «واشنطن» بأكثر الدبلوماسيّين تقرّباً من الغربيّين ، «سابورا كوروسو» ، وهو متزوّج بأميركيّة ؛ كان ما يزال يأمل بإيجاد تسوية للوضع . ولكن في ٧ تشرين الأوّل طلب الجنرال «توجو» ، وزير الحربيّة ، مقابلته ؛ وقد قدّم «توجو» خلال المقابلة إنذار الجيش الأخير : لا يرضى الجيش بأن يؤتى في المفاوضات مع «الولايات المتّحدة» على ذكر إخلاء الصين . وفهم «كونوي» القصد ، فاستقال لغير رجعة .

لم يكن رئيس الوزارة اليابانيّة الجديد غير «توجو» نفسه ، فتمّ بذلك اجتياز الخطّ الفاصل بين الحرب والسلم . كان الهجوم على «بيرل هاربور» قيد التحضير منذ عشرة أشهر ، بمعزل عن التقلّبات السياسيّة . أمّا المحرّك الأوّل لهذه الفكرة فهو القائد الأعلى للأساطيل اليابانيّة ، الأميرال «إيسوروكو ياماموتو» ؛ فقد كان عالماً بقوّة «أميركا» ، وكان يفضّل ألا تقع حرب المحيط الهادىء . أمّا في حال تحتّم هذه الحرب ، فقد كان من اللائق أن تجري لصالح «اليابان» بأفضل الطرق الممكنة . لذلك كان يجدر «باليابان» ألاّ تتباطأ في العمل ، وأن تأخذ بعين الاعتبار ضآلة مواردها ، وأن تستولي بسرعة فائقة على الغنائم الثمينة الّتي تطمح إليها : «هونغ كونغ» ، و «ماليزيا» ، و «سنغافورة» ، و «سومطرا» ، و «بورنيو» ، وخاصّة «جاوا» الّتي تُعتبر ثروة الجنوبيّ الشرقيّ من «آسيا» . فهل كان تحقيق هذا الأمر ممكناً ؟ أجل . لقد أرهقت حرب «الصين» قوى الأمّة اليابانيّة ، والقوّات البريّة المتوافرة كانت محدودة العدد ، ولكن ، من جهة أخرى ، كانت القوّات الانكليزيّة والأميركيّة والهولنديّة في جنوبيّ شرقيّ «آسيا» غير كافية ، عاديّة من حيث النوعيّة ، متشتّتة ، فيما كانت السيادة البحريّة تبيح للعدوان اليابانيّ أشباه الجزر والأرخبيلات جميعها . كانت البحريّة اليابانيّة أحدث بحريّة في العالم ؛ كانت تضمّ عشر بوارج ، وعشر حاملات للطائرات ، وخمسة وثلاثين طرّاداً ، وأربعاً وستّين غوّاصة ، فضلاً عن سفينتي القتال الجبّارتين «ياماتو» و «موساشي» اللتين كانتا قيد الإكمال في الأحواض العائمة ، وهما أكبر سفينتين تمّ بناؤهما على الاطلاق : ٦٣،٠٠٠ طنّ ، ومدافع من عيار ٤٠٠ مم . فهذه القوّة البحريّة ، فضلاً عن المفاجأة ، مكّنت «اليابان» من تحقيق نجاحات أوّليّة باهرة .

غير أنّ «ياماموتو» كان قلقاً بشأن المستقبل ، إذ لا ريب في أنّ «أميركا» ستشنّ هجوماً معاكساً . وقد كانت «هاواي» موقعاً مناسباً للإطباق على خطوط المواصلات البحريّة ؛ ولذا كان من الحكمة أن تكبّد البحريّة الأميركيّة خسائر تبلغ من الفداحة ما يجعلها تقلع عن أيّ هجوم لفترة من الزمان . لم يكن «ياماموتو» يجهل أنّ «أميركا» ستعود إلى استبدال سفنها المدمّرة وأكثر ، ولكنّ ثلاثة أعوام كانت لازمة للقيام بهذا



إخلاء حاملة الطائرات «أرك رويال» الّتي نُسفت في ١٣ تشرين الثاني ١٩٤١ قرب «جبل طارق» .

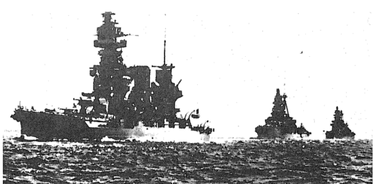
العمل ، وهذه المهلة تمكّن «اليابان» ، الّتي تكون قد ازدادت غنى بفضل الممتلكات الّتي تحتلّها ، من التمركز في دائرة بحريّة ، ومن أن تتحدّى الهجمات ، كما ستمكّنها من أن تنتظر مظفّرةً ساعةَ السلم .

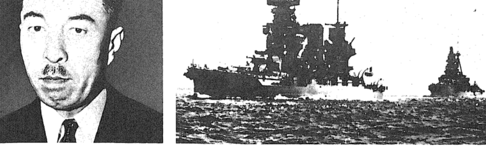
لقد بوشر تحضير مفاجأة «بيرل هاربور» في كانون الثاني ، فأوكل «ياماموتو» هذه المهمّة إلى الأميرال «تاهيجيرو أوهنيشي» ، الذي ضمّ إليه خبيراً لامعاً في الشؤون البحريّة الجوّيّة هو الكابتن «مينورو جندا» ، البالغ من العمر ستّاً وثلاثين سنة . أمّا دكّة التجربة المنتقاة فقد كانت خليج «كاجوشيما» الصغير ، في جزيرة «كيوشو» في الجنوب الأقصى من الأرخبيل ، وذلك بسبب مشابهته مرفأ «بيرل هاربور» . وقد كانت التعليمات اللازمة تُستمدّ من شبكة جاسوسيّة ممتازة مركّزة حول القنصليّة اليابانيّة العامّة في «هونولولو» . أمّا تجارب الهجوم فقد تكرّرت غير مرّة .

ولكنّ مخطّط «ياماموتو» لم يلقَ في الأوساط العليا للقيادة غير الاعتراضات ؛ فرفضته الأركان العامّة بحزم ؛ ولم يكن قائد حاملات الطائرات يؤمن بنجاحه ؛ والأميرال «أوهنيشي» نفسه أصيب باليأس فنصح لصديقه «ياماموتو» بالإقلاع عن مخطّطه . إلاّ أنّ «ياماموتو» كان أكثر اليابانيّين عناداً على الإطلاق : فهو لن يحتفظ بقيادة الأساطيل الموحّدة ما دامت الأركان العامّة تعترض على الهجوم المفاجىء على «بيرل هاربور».

وقد انتصر عناد «ياماموتو» في ٥ تشرين الثاني . وباستثناء تدبير دبلوماسيّ يمكن اتّخاذه في آخر لحظة ، حُدّد موعد عمليّة «بيرل هاربور» في ٨ كانون الأوّل ، وهو تاريخ يابانيّ معادل لتاريخ ٧ كانون الأوّل في جزر «هاواي» . إنّ تاريخ ١٠ كانون الأوّل كان أفضل من التاريخ المحدّد نظراً للأوضاع القمريّة ، ولكنّ ٧ يوافق نهار الأحد ، وقد جرت العادة عند الأميركيّين أن يُدخلوا سفنهم إلى المرفأ نهار السبت كي لا يحرموا بحّارتهم من متع نهاية الأسبوع .

في ١٠ تشرين الثاني بدأت القطع الّتي تمّ اختيارها للإسهام في الهجوم بمغادرة قاعدة «كور» ؛ وقد أبحرت هذه القطع إلى خليج «إيتوكابو» المقفر ، في «الكوريل» . وكان الشتاء قد حلّ في ذلك المكان. وكان الثلج يغطّي الأرخبيل ، فراح البحّارة المرتجفون من البرد يتساءلون عن سبب تجمّع تلك السفن العديدة في ذلك الصقع الحزين . أمّا الطيّارون فقد كانوا يعلمون السبب ؛ كان «ياماموتو» قد جمعهم في ٥ تشرين الأوّل على ظهر «الأكاجي» في خليج «سيبيوشي» ، فحدّثهم عن تفاصيل العمليّة الّتي كانوا يعملون من أجلها ليل نهار . وقد اعتبروا العمليّة غارة انتحاريّة . ومُنحوا إجازة ثمانية أيّام ، فتفرّق في أنحاء «اليابان» شبّان





كانت البحريّة اليابانيّة أحدث بحريّة في العالم .

الأمير «كونوي» .

يبلغ عددهم المئة تقريباً يحملون أكبر أسرار الحرب إطلاقاً . وهم موقنون بأنّ أيّامهم الباقية باتت معدودة . ومع ذلك لم يتسرّب قط أيّ سرّ من الأسرار التي كانوا يحملونها .

أمّا «هتلر» فكان من الذين فاتهم كلّ شيء عن هذا المخطّط . فقد كال له اليابانيّون بالكيل الذي كان يكيل به للآخرين !

على بعد ٢٢ كلم من «موسكو» إرتدّ الجيش الألمانيّ على أعقابه .

في الجبهة الروسيّة أخذت الحياة تدبّ في الجيش الألمانيّ ؛ وكما يلتئم الجنود المتخلّفون واحداً واحداً حول العَلَم ، هكذا طفقت المدافع تستعيد أماكنها في مجموعات المدفعيّة ، وطفقت الشاحنات تلتحق بقُطُر القتال . تحطّم منها الكثير حين حاولت الجرّارات انتزاعها من الوحل المتجمّد . غير أنّ ما وصل منها كان كافياً لإعادة التوزيع وملء الفراغ . وأعيد السير على الخطوط الحديديّة حتّى «رجيف» و «موجايسك» ؛ وارتفعت معنويّات الجنود . صحيح أنّ الحرارة كانت تهبط ليلاً حتّى الدرجة ١٥ تحت الصفر ، إلاّ أنّ زمهرير ساعات الليل بقي محمولاً ، وفكرة احتلال «موسكو» كانت تشدّ العزائم ؛ كان ذاك الأسم السحريّ ملازماً لفكرة انتهاء الحرب . فلسوف يعود الجنود إلى «ألمانيا» ويبدأ تسريح الجيش في عيد الميلاد !

بيد أنّ الظروف تبدّلت تبدّلاً جذريّاً؛ فمن ناحية شنّ الجيش الألمانيّ هجومه وقد بلغ نهاية الشوط ، وأهمل «هتلر» في غلوائه أمر تغذية انتصاراته بحيث لم تتوافر الأمداد ، ولا عدّة التبديل ، ولا الوسائل الفعّالة اللازمة لإعادة بناء المؤخّرات . وهكذا شنّ الجيش الألمانيّ هجومه الأخير من «البلطيق» إلى «البحر الأسود» بأقلّ من ١،٩٠٠ دبّابة و ١،٠٠٠ طائرة . أمّا ما التحق به من القوّات الجديدة منذ بدء الحملة فلا يتعدّى فرقتين مصفّحتين ، وبعض الوحدات الخاصّة ، وفيلقاً إيطاليّاً ، وفرقة «آزول» الإسبانيّة ، و ٣ كتائب من المتطوّعين الفرنسيّين الذين تلقّوا معموديّة النار بقرب ميدان «الموسكوفا» . أمّا «روسيا» فقد انثنت على مواردها : فمصانع «الأورال» تعمل منذ ستّة أشهر من غير أن تحدّ من نشاطها قنبلةٌ واحدة ؛ وقوّات الشرق قد دخلت الميدان ؛ و «موسكو» تزخر بكلّ حسنات المدن الكبرى : من المعسكرات ، إلى اليد العاملة ، إلى مخزونات الموّاد الغذائيّة والمحروقات ، إلى المطارات المفروشة بالاسمنت ، إلى شبكة الخطوط الحديديّة . وغير ذلك . أمّا الموقع الأماميّ الذي أنشأه «جوكوف» فهو منطقة محصّنة يبلغ عمقها عدّة كيلومترات ، تنطلق من «كلين» بمحاذاة مجرى نهر «الإيسترا» ، فتخترق «الموسكوفا» في «سفيرينوغوغ» ، والطريق الرئيسة في «كوبنسكوي» ، ثمّ تسير و «النارا» حتّى نقطة التقائه «بالأوكا» . حتّى تستند في النهاية إلى دعامة «تولا» . ولقد أسهمت الغابات المحدقة «بموسكو» بقسطها في الدفاع بتركيزها محاور هجوم على الطرقات ، تحميها الحصون الكثيرة ، وتفرش أرضَها الألغامُ ، وتسدّ منافذَها جذوعُ الأشجار ، وتحشو جسورَها المتفجّرات .

بدأ الهجوم في ١٧ تشرين الثاني ، والسماء صافية ، والبرد لاسع قارس . أمّا الاشتباكات فكانت ضارية ؛ فوجئت فرقة الدبّابات الألمانيّة في الشمال الغربيّ من «موسكو» برؤية فرقة كاملة من الخيّالة المغول تبرز من أحراج «فولوكولانسك» ، وتكرّ عليها بسيوفها المسلطة تحت وابل من نار المدفعيّة والدبّابات . وبعد أيّام أسرت الفرقة الألمانيّة عينها أوّل دبّابة انكليزيّة وسجّلت أقوالَ رجالها الساخرة حول «علب التنك التي يرسلها إلينا «تشرتشل» . إلاّ أنّ هذه المقاومة لم تحُل دون إحراز تقدّم ملموس في جناحيّ الهجوم ؛ ففي الشمال دنت مجموعتا المصفّحات ٣ و ٤ من «كلين» وبلغتا قناة «موسكو — الفولغا» ، ثمّ توغّلتا بثبات داخل الحزام الحصين ؛ وفي الجنوب كافح «غوديريان» في منطقة قلّت أشجارها وكثُر سكّانها وانتشرت فيها المجموعات الصناعيّة . فاستولى على «جيفريموف» و «جيبيفان» و «ديديلوفو» و «بولوشوفو» ، كما وضع يده على مزرعة «يسنايا بوليانيا» مهد كتاب «الحرب والسلم» «لتولستوي» ، حيث أدرك في آخر لحظة أنّ الروس قد لغموا قبر المؤلّف المذكور . وحاول توجيه جيشه ناحية الشمال ليعبر به «الأوكا» ، ولكنّ جانبه الأيمن قد غدا مكشوفاً ، وما «تولا» غير شوكة مغروزة في جانبه .

كانت الأخبار الواردة من مجموعة الجنوب إلى القوّاد القاعدين سعيداً في «رستنبورغ» ممتازة ؛ فقد استولى «روندشتاد» في ٢١ تشرين الثاني على «روستوف على الدون» باب «القفقاس» ، وحاصر «مانشتاين» «سيباستوبول» بعدما فتح ما تبقّى من «القرم» عَدْواً ؛ وفي الشمال احتلّت مجموعة جيوش «ليب» مدينة «تيشفين» مكذّبة في ذلك رئيسها الذي كان ينفي أن يكون لديه العدد والعدّة الماديّة اللازمة لحملة كهذه وفي جوّ كهذا . فازداد «هتلر» تشبّثاً بمبدأ قيادته . وهو التشدّد في طلب ما يدعوه الجنرالات مستحيلاً للحصول على الأقلّ .

بيد أنّ الوضع تأزّم فجأة في المجموعة الوسطى ؛ ففي ٢٠ تشرين الثاني انهالت على «روسيا» الوسطى ، في غير موسمها المعهود ، موجة



١٩ تشرين الأوّل ١٩٤١ ، في ضواحي «موسكو» . ألمدنيّون يحتفرون الخنادق .

عاتية من الصقيع يرافقها تساقط ثلوج كثيفة ؛ فسقط الميزان إلى ٣٠ درجة تحت الصفر ، فتعطّلت بذلك عربات سيّارة كثيرة ، لأنّ الغليسيرين الخاصّ بأجهزة التبريد لم يوزّع ،فجمّد الثلج والصقيع حركة النقل ، وتوقّفت شحنات الزاد والمحروقات . وبما أنّه لم يكن بالإمكان ترك المحرّكات دائرة باستمرار ، فقد كان لا بدّ من إحماء الدبّابات بنيران الحطب إذا ما أريد لها أن تستأنف السير . أمّا ما كان يعانيه الجنود فبات لا يطاق : أشار بعض الأفواج إلى ٤٠٠ حادثة تجمّد ، وأمسى قضاء الحاجة عسيراً جدّاً ، وأخذ الجرحى يجمدون تحت الخيام — المستشفيات وهم أحياء . وأصبح الرجال لا يتناولون أقلّ وجبة ساخنة ، وكان بعضهم يرتدي سراويل شهر آب المصنوعة من النسيج المشبّك . هذا والجيش لا ينفكّ يزحف ؛ استولت المجموعتان المصفّحتان ٣ و ٤ على « كلين » ، ثمّ عبرتا قناة « موسكو — الفولغا » ، وقطعتا الخطّ الحديديّ بين «موسكو» و «لينينغراد» . بيد أنّ القوى البشريّة كادت تبلغ نهايتها ، والخسائر في صفوف الضبّاط غدت فادحة . فكم من كتيبة قادها رقيب ! وكم من فوج أمّر عليه ملازم !

في ٢٣ غادر «غوديريان» مركز قيادته في «ياسنايا بوليانيا» واستقلّ الطائرة إلى «أورشا» ليطلع «فون بوك» على حالة الجبهة ؛ اقترح عليه تعليق الزحف ، واستخدام الدبّابات كمتاريس ، وتجهيز المؤخّرات ، وتأجيل احتلال «موسكو» إلى الربيع ، فاستمع إليه «بوك» ، ثمّ أمسك بسمّاعة الهاتف وطلب «أنغربورغ» ؛ وبعد ما ناول مرؤوسه السمّاعة الثانية أعاد بأمانة ما سمعه منذ لحظة ، فأجابه صوت «هالدر» البعيد بأنّ إرجاء احتلال «موسكو» ليس وارداً إطلاقاً ، ولا بدّ للزحف من أن يستمرّ بمنتهى النشاط ، فلقيادة جيش البرّ علم بقرار الفوهرر ، وهي بالتالي تأبى أن تنقل إليه شكاوى المكلّفين بالتنفيذ .

لم تمرّ أيّام خمسة حتّى تلقّت القيادة العليا إنذاراً فريداً ، فإذا بالمارشال «فون روندشتاد» ، القاهر الظافر الأوّل في حملة «فرنسا» ، يُعزل من منصبه ! لقد استولى على «روستوف على الدون» ، فإذا بالمدينة الملغومة بكاملها تنفجر تحت أقدام الفرقة النموذجيّة «أدولف هتلر» ، طليعة الفيلق المصفّح ٣ . نُسفت الجسور ، وتشبّث المحاربون الروس غير النظاميّين بالضواحي ، فيما شنّت الفرقة السوفياتيّة ١٢٨ هجوماً معاكساً مركّزاً على «الدون» المتجمّد. أمّا في شمال المدينة فقد اقتحم الجيشان السوفياتيّان ٣٨ و٩ ثغرة في الجبهة ، مهدّدين بالتطويق جناح الجيش المصفّح الأوّل برمّته ؛ فاستدارت فرقتا الدبّابات ١٣ و ١٤ التابعتان «لمنتويفل» ، وتمكّنتا من صدّ الهجوم ، بيد أنّ «روندشتاد» أمر بالتراجع العامّ إلى ما وراء «الميوس» ، اعتقاداً منه بأنّ رأس «روستوف»



«موسكو» ، ١٩٤١ . محاربو إحدى الوحدات يتدرّبون في جادّة «تشيستوبرودني» .



دبّابات روسيّة في «تولا» ، جنوبيّ غربيّ «موسكو» .

إصلاح مستودع للخضار في «موسكو» على أثر غارة جوّيّة . ولقد أثبتت المرأة الروسيّة للعالم منذ بدء العدوان أنّها أخت الرجال في طاقاتها التي لا تعرف كلالاً .



نقطة كثيرة التوغّل بالغة التعرّض . كانت هذه هي المرّة الأولى منذ نشوب الحرب يلجأ فيها أحد جيوش «ألمانيا» إلى التقهقر ! وهكذا لم تؤخذ «روستوف» ، مفتاح «القفقاس» ، إلاّ لتُفقد بعد أسبوع ! فكان للحدث دويّ عالميّ .

لمّا قدّم «روندشتاد» تقريره عن التراجع الذي أوعز به ، أردف بقوله إنّه لن يرضى بالاحتفاظ بمسؤوليّته عن مجموعة جيوش الجنوب ما لم يوافَق على قراره ؛ فإذا بالأمر القاضي بتسليم قيادته للمارشال «فون رايخناو» يبلغه على الأثر ، وإذا «برايخناو» يتلقّى الأمر باسترجاع «روستوف» على الفور ؛ فاستقلّ الطائرة إلى مقرّ قيادة «فون كلايست» . واطّلع على خطورة الموقف ، وتجاسر ، وهو الهتلريّ القديم ، على أن يخاطب الفوهرر مباشرة ، فقال له إنّ كلّ ما يمكن القيام به في الواقع هو تقصير الجبهة بالتراجع حتّى «الميوس» ؛ فلم يلحّ «هتلر» . ولكنّ «روندشتاد» كان قد عاد إلى «ألمانيا» ، ولم يُنقض التدبير المتّخذ بحقّه .

إنّ نهر «الدون» ، الذي ينتهي قرب «روستوف» ، ينبع بجوار «تولا» ؛ وفي ٢٦ تشرين الثاني عبره أحد فيالق «غوديريان» ، وهو فيلق الدبّابات ٥٣ ، إثر عمليّة باهرة أسفرت عن أسر ٤،٠٠٠ رجل و ٤٢ مدفعاً . ولكن سرعان ما أجاب الروس على ذلك ، إذ دفعوا بالفرقة السيبيريّة ٢٣٩ على الفرقة الآليّة ٢٩ ، فانثنت هذه تحت وطأة الصدمة ، ناثرة جثثها على الثلج ، ثمّ استقامت إثر جهد جهيد ساعةَ وصل «غوديريان» على جناح السرعة . ولم تفلح الجهود في أن توفّر للألمان نجاحاً نهائياً في هذا القطاع .

واصل «هوبنر» تقدّمه شماليّ «موسكو» ، فاستولى على «ديميتروف» الواقعة على قناة «موسكو – الفولغا» ، على بعد ٣٢ كلم من «الكرملين» ؛ ثمّ احتلّ «إيسترا» إثر معارك ضارية بين رجال «فرقة الصاعقة» والفرقة السيبيريّة ٧٨ . إلاّ أنّ الأحوال كانت تتأزّم بصورة مطّردة ، فالظلمة لا تتبدّد قبل الساعة العاشرة صباحاً لتعود فتحلّ في الثالثة بعد الظهر . وتهبط الحرارة إلى الدرجة ٤٠ تحت الصفر ، ثمّ ترتفع قليلاً لتعود إلى الهبوط فتجمّد الرجال حتّى العظام . جمّد الصقيع القُطُر في المؤخّرة ، وفي المقدّمة أبت فوهات المدافع أن تنفتح ، وحرنت الأسلحة الآليّة رافضة كلّ عمل ، بسبب تجمّد الزيت وتحجّر الشحم . هُجرت دبّابات كثيرة لاستحالة سلخ زناجيرها عن الأرض . واستحالت الزبدة رخاماً ، وغدا الخبز لا يُقطع إلاّ بالفأس . فكّرت القيادة بإرسال قطار من الخمر الفرنسيّة لدعم معنويّات الجنود ، فوصلت الخمرة – في حين لم تصل القنابل – قطعاً من الجليد الزهريّ اللون ! وأمسى أقلّ جرح مميتاً ، لأنّ صرر الضمادات الشخصيّة أصبحت يابسة كالحطب . وإذا توقّف الجريح تجمّد خلال دقائق . وغدا قضاء الحاجات الطبيعية شديد الخطر : فالبول يتجمّد حال خروجه من الجسم ، والرجال يموتون من تجمّد المخرج . لم يكن للجنود غير معطف من النسيج الصناعيّ ، وحذائين من الجلد المقلّد ، ولم يكونوا مزوّدين دائماً بقفّازين ؛ ولذا كانوا يكتسون بما تقع عليه أيديهم ، من أكياس بالية ، وأسمال فراء يعثرون عليها في الأكواخ . أمّا جثّة العدوّ فقد غدت طوف الإنقاذ ، لأنّ الروس يكثرون من الثياب ، وكانت أحذيتهم الصوفيّة خصوصاً جديرة بإنقاذ رجل . ولذا كان الألمان يليّنون الجثث حول مواقد المخيّم الليليّ ، ثمّ يقتسمون بطريقة القرعة ما يستطيعون انتزاعه من الملابس !

ما فتىء «غوديريان» و «هوبنر» يستحثّان المارشال «فون كلوغي» ، لأنّ جيشه الرابع الثقيل التزم جانب الاستقرار بعد ما توسّط هجوميهما بين «الموسكوفا» و «الأوكا» . وقف الجيش على ضفّة «النارا» ، أحد روافد «الأوكا» ، مقابل غابات كثيفة شاسعة ؛ وكان الحرّاس الليليّون يشاهدون أذرع النور المنبعثة من المدفعيّة الروسيّة المضادّة للطائرات تتراقص في السماء . أفاد الرجال من هذا التوقّف ، وراحوا يتّقون القرّ قدر المستطاع ، معتقدين أنّ المسيرة ستُستأنف كالعادة متى تمّ للوحدات المصفّحة أن تطوّق العدوّ . بيد أنّ جمود «كلوغي» أثار احتجاجات «هوبنر» و «غوديريان» ، إذ أنّه ، وإن كان موافقاً للمخطّط الموضوع . أصبح غير مؤاتٍ للظروف إطلاقاً ؛ فالأمل الأخير في الاستيلاء على «موسكو» هو في أن يخرج «كلوغي» من خطوطه ويهاجم معهما في آن معاً . وأخيراً رضي «كلوغي» بذلك : فسيشترك الجيش ٤ في هذا المجهود الأخير ويشنّ هجومه في ٣٠ تشرين الثاني .

أخذ بعض النور يلوح . هناك ، في مراكز الأركان البعيدة الدافئة ، حول وضع القوّات الألمانيّة ؛ فذكرت نشرات الأخبار المتعلّقة بالعدوّ دخول ٣٤ فرقة جديدة إلى الميدان ، تمركز ٢٠ منها أمام «موسكو» ، وهي من القوّات السيبيريّة الشديدة البأس والمجهّزة خصّيصاً للشتاء . أمّا في الجانب الألمانيّ فلم يبقَ غير فرقة احتياطيّة واحدة هي فرقة المشاة ٢٥٥ . واعترف «هالدر» بخطورة الوضع في مذكّراته ، قال : «لقد استُنفدت قوانا كلّها» . وفي أوّل كانون الأوّل نقل «فون بوك» من «أورشا» بلاغاً هاتفياً طويلاً تضمّن هذه الجملة التي توجز الوضع تماماً : «لم يبقَ للهجوم أيّ معنى ، خاصّة وأنّ الوقت الذي ستُستنفد فيه قوى الجنود قد بات وشيكاً» ؛ فتسلّح «براوشيتش» بهذه الوثيقة ، وذهب لمقابلة «هتلر» وفي نيّته أن يعرض عليه تعليق الزحف على «موسكو» ؛ وإذا به يخرج من المقابلة منهار الأعصاب ! فقد قطع «هتلر» عليه الكلام ، وأوسعه شتماً ، وأهان في شخصه طائفة العسكريّين المحترفين البالية الرعناء . فالكلمة لن تكون لهم ! والزحف سيستمرّ ! «أريد «موسكو» ! سأنال «موسكو» ! لن تمنعوني من الاستيلاء على «موسكو» ! »

هناك ، في الجبهة ، عبر الجيش ٤ «النارا» وتوغّل في غابات ضفّتها اليسرى . كان الزمهرير يكسح أمامه ثلجاً قاسياً كالرصاص ، أمّا آلات النظر والتصويب فتغشّت ، وتجمّد البنزين ، وصار الفولاذ يحرق كما لو كان أحمر متوهّجاً . وبين «تولا» و «ديميتروف» كان المهاجمون يتقدّمون مترنّحين في العاصفة ؛ وكان جنود «هوبنر» أسبق الكلّ في التقدّم . وتوغّلت الفرقة ١٠٦ حتّى «كراسنايا بوليانيا» ، وهي ضاحية صناعيّة تقع على بعد ٢٧ كلم من «موسكو» . وفي ناحية «إيسترا» احتلّت فرقة المشاة ٣٥ التابعة للجنرال «بارون دي رومان» قرى «ألابوشيفو» و «كاجوكوفو» و «ماتوشكينو» ، ورأت على أحد المفارق هذا النصب : «موسكو» ٢٢ كلم . ووصلت طليعة فرقة المشاة ٢٥٨ التابعة للجيش ٤ إلى نهاية خطّ الحافلات الكهربائيّة ، وتراءت لها في دخان المعركة أبراج «الكرملين» نفسه ! ولكنّ ذلك كان مجرّد ثغرة ضيّقة ؛ أمّا هجوم الجيش الرابع بمجمله فقد مُني بالإخفاق ، فأخذ «فون كلوغي» على عاتقه أمر إيقافه .

حاول «غوديريان» في جنوب الجبهة إسقاط معقل «تولا» ؛ ففي ٤ كانون الأوّل نجح فيلقه ٤٣ بتطويقه تطويقاً محكماً ، وبات سقوطه قضيّة ساعات . بيد أنّ «غوديريان» أحسّ بأنّ الهجوم الروسيّ المعاكس قد بات وشيكاً ؛ فقد لوحظت تجمّعات ضخمة على «الأوكا» ، وكان حشد الجيوش على خطّ «ريازان» قائماً على قدم وساق ؛ فإذا انقضّت هذه القوّات الضخمة على الجيش المصفّح ٢ المشتّت المنهوك صدّعت صفوفه ودمّرته .

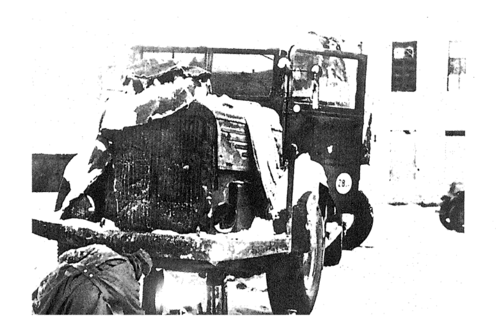
بزغت شمس الأحد الموافق ٦ كانون الأوّل ، وهو اليوم ١٦٨ من الحملة الروسيّة ، في سماء طرحت بأعجوبة معطف الرصاص الذي كانت متّشحة به ؛ فإذا السهل كلّه من بلّور ، وإذا غابات الشربين والصنوبر تتلألأ تحت قبّعات الجليد . ولكنّ البرد لم يبلغ قطّ ما بلغه ذاك اليوم ؛ ففي

«يسنايا بوليانيا» هبطت درجة الحرارة في الميزان المعلّق خارج بيت «تولستوي» إلى ٥٠ تحت الصفر . إذ ذاك قرّ رأي «غوديريان» بما لم يترك مجالاً للتردّد ، فاتّصل «بفون بوك» هاتفياً وأعلمه بأنّه سيصدر إلى جيشه أمراً بالجلاء عن ناتئة «تولا» . حاول «بوك» ، المعلّق بين معركة مخفقة وفوهرر مخيف ، أن يماطل ، فطلب إلى «غوديريان» أن يذهب إلى الجبهة فيرى الوضع عن كثب قبل أن يتّخذ قراراً بهذه الخطورة . فأجاب «غوديريان» : «أفتظنّني في «أوريل» ؟ إنّني في «يسنايا بوليانيا» ، والقتال دائر على مقربة من مركز قيادتي ...»

في الوقت ذاته ، وكما لو انّ تفاهماً روحياً كان يجمع بين قوّاد المصفّحات ، أوقف «هوبنر» أيضاً زحفه وقرّر العودة بمجموعته إلى «الإيسترا» . وهكذا أدرك الألمان أبواب عاصمة العدوّ ثمّ قفلوا راجعين ! ولقد كلّفهم هذا التراجع غالياً : مئات الدبّابات والشاحنات قد سُمرّت في أماكنها لعدم توافر الوقود ، أو لأنّ الصقيع قد سمرّها في الأرض ، فلم يكن بدّ من نسفها ؛ وقلّت الجياد في الوحدات المجرورة ، فلم يكن بدّ من التضحية ببعض العتاد لإنقاذ البعض الآخر . ولسوف يقع الروس بين ٦ و ١٢ كانون الأوّل على ٣٨٦ دبّابة ، و ٧٠٤ جرّارات ، و ٣٠٥ مدافع ، الخ . لم يدم الصحو طويلاً بل عادت السماء فتلبّدت ، وهبّت الريح ، ومشى الجنود الألمان جماعات صغيرة ، وسلاحهم على أكتافهم ، وسط ذاك الأصيل الذي يملأ به غبار الثلج ساعات النهار . وهكذا عادت السابقة الخطيرة الّتي ما فتئت تراود العقول منذ بدء الحملة ، لتفرض نفسها بقوّة جنونيّة . أجل ، لقد بدأ «تراجع روسيا الثاني» !

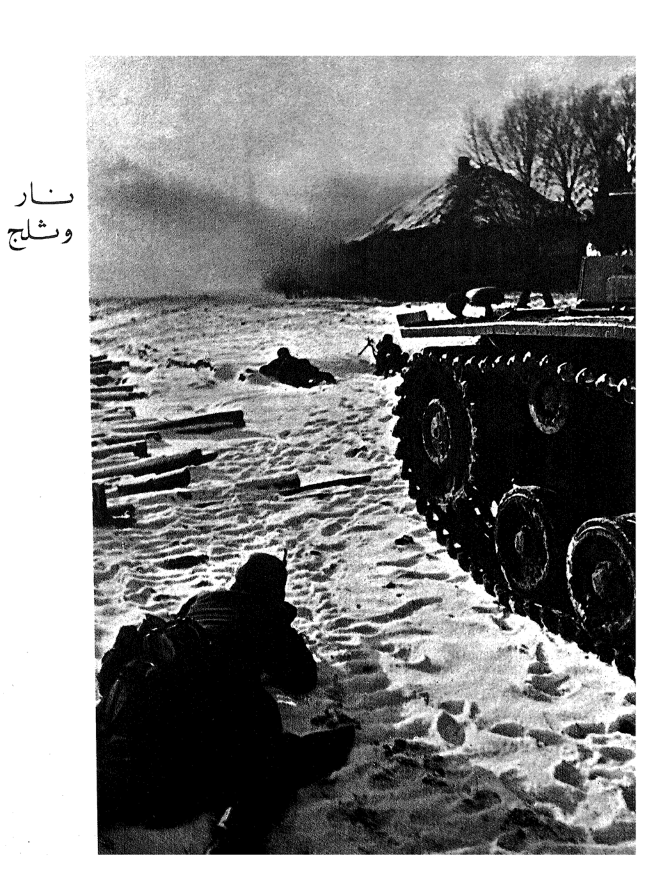
أنقذت «موسكو» ، ولم تبقَ «ألمانيا» دولة لا تقهر . فقد «هتلر» معركة «موسكو» ، فقد الحرب الروسيّة ، بل فقد الحرب كلّها : كان على ذاك الملاكم الخفيف أن يصرع خصمه الجبّار منذ الجولة الأولى ، ولكنّ الضربات الّتي كالها له لم تكن كافية ؛ فاستعادت روسيا نَفَسها الثاني ، ذاك النفس العميق الذي تستمدّه من رحابة بلادها . لن تنهار بعد اليوم ، وقد استندت إلى العالم الانغلو – سكسونيّ سيّد البحار ، بل ستضغط على «ألمانيا» ، تلك الأمّة الأوروبيّة الصغيرة ، بثقل قارّتها كلّه ؛ ولن يكون عمل «هتلر» بعد تلك اللحظة إلاّ احتضاراً بطيئاً .

كان وضع الجيش الألمانيّ الراهن مخيفاً رهيباً ؛ فمنذ ٦ كانون الأوّل شنّ الروس هجومهم المعاكس على الجناح الأيسر من المجموعة الوسطى ، ومنذ ٧ كانون الأوّل شنّوا هجومهم على الجناح الأيمن . لم يبقَ بتصرّف القيادة الألمانيّة أيّة قوّة احتياطيّة ، فكان لزاماً على القوّات المتقهقرة نفسها أن تستقرّ لتتمكّن من الصمود . كانت العمليّة من الصعوبة بحيث أنّ بعض القوّاد الكبار اعتبروها محالاً . فإلى أيّ خطّ يلجأون ؟ الخطّ الوحيد المُرضي هو خطّ «الدونا» و «الدنيبير» ، ويعني ذلك وجوب التراجع مسافة ٥٠٠ كلم حتّى «ريغا» و «فيتبسك» و «كييف» . وتعود السابقة النابوليونيّة إلى البروز ؛ ذاك أنّ التراجع ، في براثن الشتاء الروسيّ ، قد قضى على «الجيش الكبير» ، جيش «نابوليون» ، فلِمَ لا تكون سنة ١٩٤٢ كسنة ١٨١٢ ؟ فالبرد شديد للغاية ، وطرق المواصلات على أسوإ حال ، وكمّية هائلة من العتاد تثقل الجيش ، فضلاً عن أنّ التوزيع سيّئ للغاية ، طالما أنّ ثلثي القوّات الألمانيّة موجودان حول «موسكو» ، بين «ديميتروف» و «تولا» ، أي في قطاع من ٣٠٠ كلم ، وطالما أنّ الجناحين ضعيفان جدّاً . وبات الروسيّ اليوم في بيته سيّدين ، سيّداً بسيطرته على البلاد ، وسيّداً بفعل الشتاء . أمّا المعنويّات الألمانيّة فقد حطّمها شرّ تحطيم إفلاسُ ذاك الحلم الذي منّاها بالاستيلاء على «موسكو» . حتّى انّ نفساً صامدة كنفس «غوديريان» قد غمرها اليأس ، إذ كان يجوب سهلاً أبيض إثر سهل أبيض ، في غبار من الثلج يلفّ أشباحاً في أسمال كانت في ماضٍ غير بعيد قاهرة «سيدان» . وهكذا يأتي زمان تنحلّ فيه أفضل الجيوش بأساً ورباطة جاش وتغور في اليأس والقنوط . أجل ، كان الجيش الألمانيّ على شفا الهاوية ... وذلك في الوقت الذي أخذت فيه الحرب تتّسع من جديد بشكل هائل ، حين دقّت ساعة «بيرل هاربور» !



جنديّ ألمانيّ يُحمي محرّك شاحنته قبل أن يباشر عمليّة الإقلاع المستعصية .

نـار
وثـلج





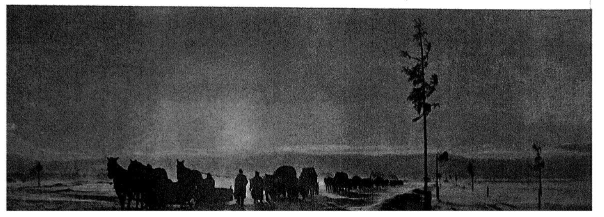
▲ روّاد ألمان يحاولون التقاط الألغام التي بثّتها الروس تحت الثلج .



◄
لقد آلت مسؤوليّات القتال في حملة «روسيا» إلى المشاة ، وعادت الدبّابات إلى دور الحامي .

◄ ثلج شاحب ، وضباب ، ودخان حرائق . أمّا الجنديّ الروسيّ فهو ذلك المجهول في تلك المجاهل .

صورة تمثّل الشتاء الروسيّ الكالح . يا لها من لوحة فنّان !
▼



الفصل الثالث عشر
٧ - ٣١ كانون الأول ١٩٤١

صاعقة

«اليابان» تهاجم

لقد كانت الرحلة البحريّة مضنية للغاية . أبلغت سفن عديدة عن فقدان بعض رجالها الذين اجتاحتهم الأمواج وابتلعتهم . كان البرد قارساً ، والضباب يزيد الملاحة صعوبة . إنهـــا لفدية قاسية تُدفع ثمناً لاختيار طريق الشمال الآمنة . لم يلتقِ المهـــاجمون في طريقهم بغير سفينة تجارية صغيرة واحدة ، يابانيّـــة .

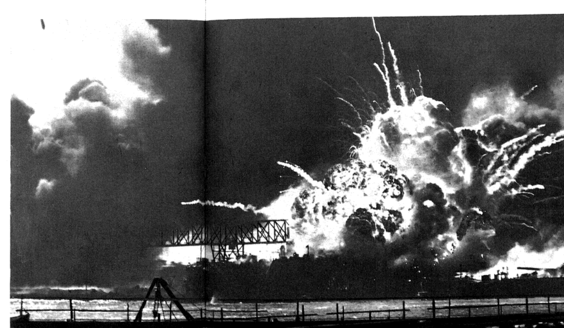
أبحرت حاملات الطائرات في خطّين متوازيين تتقدّمها بارجتان عتيقتان هما «هيي» و «كيريشيما» . وكانت مدمّرتان تحميان الجانب الأيسر . وغوّاصات ثلاث تحمي الجانب الأيمن . وقد احتلّ كلّ من الطرّادين الثقيلين «تون» و «شيكوما» مكانه عن جانبيّ التشكيلة ، وكانت سبع مدمّرات أخرى تضفي على المقدّمة درعاً واقية . وقد لحقت بهذا الأسطول ثماني ناقلات للنفط كانت سبباً في بطء الموكب .

ومن جملة حاملات الطائرات الستّ هذه . كانت اثنتان . وهما «أكاجي» . و «كاغا» . من سفن القتال أصلاً ، وكانت حاملتان أخريان . وهما «هيريو» و «سوريو» . لا تتعدّى زنة الواحدة منهما ١٧٬٠٠٠ طنّ . أمّا أحدثها فالحاملتان «شوكاكو» و «زويكاكو» . وحمولة الواحدة منهما ٢٦٬٠٠٠ طنّ . كانت هذه الحاملات كلّها تحمل ٤٢٣ طائرة بين مقاتلات . وقاذفات أفقيّة . وقاذفات انقضاضيّة. ونسّافات ، وهذه أضخم قوّة جويّة تمّ إقحامها في البحر حتّى ذلك الحين.

وقد أثار إشراك الطائرات النسّافة صعوبات جمّة ، فالطوربيد الذي تطلقه الطائرة يغوص تحت الماء عشرين متراً ليعود إلى الصعود منقضّاً على هدفه ، ولم يكن عمق مرفإ «بيرل هاربور» أكثر من ١٢ متراً . ممّا جعل «جندا» يكبّ بعناد على حلّ هذه المعضلة. وقد صنع في آخر لحظة اجنحة صغيرة خاصّة كان متوقّعاً ان تحول دون وصول الطوربيدات الى القاع .فإن قُدّر لهذا الجهاز أن يعمل على الشكل الذي أريد له فستكون المفاجأة أكبر . إذ كان الأميركيّون يعتقدون أنّه ليس بالإمكان نسف سفنهم في ذلك الممرّ البحريّ الضيّق بين «فورد آيلند» ومستودع ذخيرة «بيرل هاربور» .

وقد ألحق اليابانيّون بعض الغوّاصات بالأسطول الجوّي ، فقد سبقت حاملات الطائرات ٢٧ غوّاصة ،من الغوّاصات البعيدة المدى ، فتمركزت حول «هاواي» . ولسوف تطلق خمس منها غوّاصات جيب يبلغ طولها خمسة عشر متراً ، مسلّحة بطوربيدين مصغّرين وفي جوفهما رجلان. وقد كان يُرتجى ان تتمكّن هذه الغوّاصات الصغيرة من التسلّل الى المرفإ مجتازة الشباك التي كانت تسدّ مدخله الضيّق . وكان بعض الضبّاط الشبّان قد تسابقوا على شرف ركوب هذه الآليّات الانتحاريّة !

في ٢٦ تشرين الثاني غادرت قوّة الهجوم مكان التجمّع في «الكوريل» وعلى رأسها الأميرال «ناغومو» ، وفي «واشنطن» كانت المفاوضات مستمرّة ، وكان الأميركيّون يستبشرون بها خيراً . إذ أنّ اليابانيّين لم ينسحبوا بعد ما قدّم لهم «كورديل هال» شروط «روزفلت» المستحيلة وهي : الجلاء عن «الصين» و «الهند الصينيّة» . فضّ التحالف الثلاثيّ ، الاعتراف



لقد صدر الأمر بالهجوم ؛ وحلّقت ٤٢٤ طائرة يابانيّة فوق «بيرل هاربور» تذرّ قنابل الويل . وما هي إلاّ ساعات حتّى استحال الأسطول الأميركيّ في المحيط الهادىء إلى قطع من الحديد المفكّك المشتعل . إنّها هزّة أيقظت «أميركا» النائمة الغافلة ونشرت الحرب في أنحاء المعمور .

«بتشانغ كاي تشك» . وغيرها من الشروط . وكانوا يراقبون بقلق الاستعدادات التي تقوم بها «اليابان» في جهات «الفيليبين» . ولكنّهم مع ذلك كانوا يعتبرون أنّ الأمل في إيجاد تسوية لم يمت بعد .

كانت التعليمات التي تلقّاها الأميرال «ناغومو» تقضي بأن ينتظر تثبيت أمر الهجوم خلال رحلته البحريّة . وقد تمّ الاتّفاق على أن يعود أدراجه فيما لو توصّل العدوّ إلى اكتشاف خطّته قبل موعد الهجوم بيومين . وفي حال افتضاح أمره بفترة أقلّ كان عليه أن يتّخذ القرار الذي يراه مناسباً . وعلى كلّ حال كان «ناغومو» شديد التشاؤم . فكان يقضي لياليه ذارعاً مقصورته على ظهر «أكاجي» ذهاباً وإياباً .

في أوّل كانون الأوّل التقط الأسطول التثبيت المرتقب : «تسلّقوا جبل نيتاها» . كان هذا يعني أنّ حكومة «طوكيو» قد اتّخذت قرارها . وأنّ الحرب قد رجحت كفّتها . وهذا يعني كذلك أنّ آلة الحرب اليابانيّة كاملة قد تحفّزت للانطلاق : فالقوّات التي كانت مكلّفة بالاستيلاء على «هونغ كونغ» راحت تقترب من المدينة ، والقوّات المكلّفة باجتياح «ماليزيا» و «الفيليبين» قد باشرت عمليّات الإبحار . وكانت حملة الأميرال «ناغومو» هي الوحيدة التي لا تضمّ جنوداً ؛ فقد سبق أن فكّر اليابانيّون باحتلال جزر «هاواي» وطرد «أميركا» من المحيط الهادىء الأوسط كلّيّاً ، بيد أنّ هذا المشروع قد اعتُبر مهمّة ثقيلة الأعباء . فالغارة على «بيرل هاربور» الجريئة في تكوينها ، العدائيّة في شكلها ، كانت في الواقع عمليّة دفاعيّة ، ومغامرة حذرة لكسب الوقت .

في ٢ كانون الأوّل أبلغ «ناغومو» بحّارته ما كان الطيّارون وحدهم واقفين عليه ، ألا وهو هدف الرحلة . فكانت فرحتهم عارمة . وعادت السفن فترة إلى الحياة العاديّة الرتيبة ، فراح بعض الملاّحين يقضون أوقاتهم في اللعب ، وراح البعض الآخر يحرّرون رسائل مفخّمة إلى الأجيال الآتية بشكل وصايا . واستمرّت معلومات الجواسيس تفد من «هونولولو» ، تنقلها إحدى محطّات الإذاعة بطريقة سرّية مموّهة في إعلاناتها التجاريّة . وهكذا تلقّى «جندا» وربّان السفينة «ميتسوو فوشيدا» ، وهو قائد الموجات الجوّية ، نبأين مختلفين : نبأ سارّاً ونبأ سيّئاً ؛ أمّا النبأ السارّ فمفاده أنّ سلطات «هاواي» لم تكن قد نشرت بعد البالونات والشباك الواقية من الطوربيدات ؛ وأمّا النبأ السيّىء فمضمونه أنّ حاملات الطائرات الثلاث في أسطول المحيط الهادىء ، وهي «انتربرايز» و «لكسنغتون» و«ساراتوغا» ، لم تكن في «بيرل هاربور» . وقد تأثّر «فوشيدا» كثيراً لعدم وجود هذه السفن الهامّة ، حتى أنّه فكّر بالإقلاع عن العمليّة ؛ ولكنّ «ناغومو» ، وهو أميرال من النسق القديم ، اعتبر أنّ البوارج الثماني الموجودة في «بيرل هاربور» تؤلّف العمود الفقريّ للقوّة البحريّة التي كُلّف بتدميرها . فتابعت السفن سيرها .

في صباح ٧ ، بتوقيت «هاواي» ، بلغ الأسطول موقع هجومه في خطّ العرض الشماليّ ٢٦ وخطّ الطول الغربي ١٣٨ ، على بعد ٢٧٥ ميلاً شماليّ «أواهو» ؛ وفي الساعة ١٦ بدأ إطلاق أوّل موجة . كانت السماء ما تزال معتمة ، وحاملات الطائرات تتراقص في اليمّ ؛ وعلى الرغم من ذلك أُنجزت العمليّة في وقت لم يُعرف له مثيل خلال التمارين . كان الطيّارون جميعاً قد استحمّوا ولبسوا ثياباً داخليّة نظيفة ، وكثيرون منهم قد لفّوا حول قلانسهم «الهاشيكامي» ، وهو شال «ساموراي» ، بعد ما قدّموا فروض العبادة أمام المذابح التي نُقلت إلى مدارج الإقلاع . وطلع النهار في الوقت الذي كانت فيه التشكيلات تتّخذ مواقعها . ورُفعت على صاري «أكاجي» الراية التي رفعها الأميرال «توغو» في ٢١ أيّار ١٩٠٥ ، يوم أمر الأسطول اليابانيّ الفتيّ بملاحقة بوارج «قيصر روسيا» ومقاتلتها في مضيق «تسوشيما» .

مفاجأة وفاجعة في «بيرل هاربور»

«أواهو» هي من الأرخبيل الهاوايي في القلب ... وفيها سلسلتان جبليّتان ، «كولو» و «وايناي» ، تحدّان أخدوداً مخضوضراً تقع فيه «هونولولو» و «وايكيكي» بشاطئهما المرجانيّ . أمّا «بيرل هاربور» ، وهي تبعد ١٥ كلم عن «هونولولو» ، ففيها مدخل يبلغ عرضه ٣٥٠ متراً يؤدّي إلى الخليج الصغير الذي تقوم «فورد أيلند» في وسطه . ليست المياه في ذلك المكان بالغة العمق ، إلاّ أنّها تتيح للسفن الكبيرة المرور . كانت هذه السفن تلقي مراسيها حول «فورد أيلند» ، في الممرّ الضيّق الجنوبيّ المسمّى «باتلشيب رو» . وتجاه «فورد أيلند» ، وبالقرب من «باتلشيب رو» ، كانت تقوم الأرصفة والعنابر والمستشفى ، وما يسمّونه «تانك فارم» ، أي غابة الخزّانات المحتوية على المازوت الضروريّ لتموين أسطول المحيط الهادىء . أمّا مُنشآت الجيش ، بما فيها مطار «هيكهام فيلد» الكبير ، فكانت تمتدّ ناحية الممرّ الضيّق . وثمّة مطار كان قائماً وسط الجزيرة ، وأربعة مطارات أخرى موزّعة في محيط الدائرة ؛ ولم تكن أيّة حيطة قد اتّخذت لتمويه هذه المنشآت .

وعلى الرغم من المساحات البحريّة المحيطة «ببيرل هاربور» لم يكن الهجوم على المدينة مستحيلاً ؛ ففي ٢٤ كانون الثاني ١٩٤١ كان وزير البحريّة «فرانك فوكس» قد أشار إلى هجوم محتمل في رسالة إلى زميله وزير الدفاع . إذ قال : «الاحتمال كبير بأن تبدأ الحرب مع «اليابان» بهجوم مفاجىء وسريع على أسطول «بيرل هاربور» أو على قاعدتها ... وأمّا الأخطار المحتملة فهي التالية : قصف جوّيّ ، هجوم بواسطة الطوربيدات الجوّية ، تخريب ، هجوم بواسطة المدفعيّة ...» وبعد انقضاء شهرين على تلك الرسالة قام قائد القاعدة البحريّة ، الأميرال «بيلنجر» ، بالاشتراك مع قائد القوّات الجوّية الجنرال «مارتن» ، بتحرير مذكّرة تصف مسبّقاً ما حدث فيما بعد في ٧ كانون الأوّل : عمليّة تسبق إعلان الحرب ، هجوم جوّيّ صباحيّ يرافقه هجوم الغوّاصات ، استخدام ستّ حاملات طائرات على سبيل التقدير ، الخ . وفي أوّل نيسان أضاف رئيس العمليّات البحريّة هذا الإنذار : «إنّ السوابق تشير إلى أنّ قوّات المحور تسدّد في الغالب ضرباتها أيّام السبت والأحد . فمن الضروريّ ألاّ تضعف الاحتياطات خلال هذين اليومين» ؛ والدليل على ذلك أنّ يوم ٧ كانون الأوّل ١٩٤١ كان يوم أحد !

في ذلك الأحد بالذات كانت لدى الأميركيّين أسباب توجب الحذر والحيطة ؛ ففيما كانت «واشنطن» تطّلع على برقيّات الشيفرة اليابانيّة علمت أنّ الشروط الستّة التي قدّمها «كورديل هال» اعتُبرت صفعة للكبرياء اليابانيّ . وراح «روزفلت» ورؤساء أركانه يقرأون نصّ البرقيّة التي بعث بها وزير الخارجيّة اليابانيّة «توغو» إلى «نومورا» و«كوروزو» ؛ تقول البرقيّة : «لقد قمتما بجهود فائقة في مهمّتكما كسفيرين . إلاّ أنّ «الولايات المتّحدة» قد عرضت علينا شروطاً مذلّة . لقد انتهت المفاوضات . ولكن عليكما أن تتصرّفا وكأنّ شيئاً لم يحدث . ليس عليكما سوى أن تقولا إنّكما تنتظران التعليمات اللازمة ...» واستناداً إلى التقليد اليابانيّ في الهجوم المفاجىء السريع ، وإلى سابقة «بورت آرثر» الشهيرة ، كان لهذا النصّ أهميّة فائقة .

على أيّ حال لم ينتظر الأميركيّون التقاط هذه الرسالة لكي يدركوا أنّ المذكّرة التي ضمّنوها شروطهم في ٢٦ تشرين الثاني كانت بمثابة دعوة إلى الحرب . ففي عشيّة ذلك النهار نفسه وجّه الأميرال «ستارك» ، رئيس الأركان العامّة البحريّة ، إلى الأميرال «هازبند أ. كيميل» ، قائد

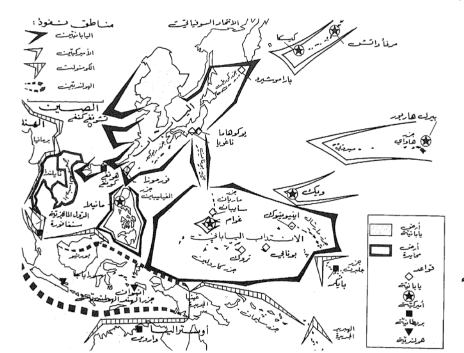
أسطول المحيط الهادىء في «بيرل هاربور» ، تعليمات استهلّها بالجملة التالية : «ينبغي اعتبار هذه الرسالة كإنذار بالحرب ...» . ووجّه «جورج ك. مارشال» رئيس أركان الجيش العامّة إنذاراً مماثلاً إلى الليوتنان جنرال «ولتر ك. شورت» قائد القوّات البريّة : «من المحتمل وقوع عمليّة عدوانيّة في أيّة لحظة ...» وقد دُعي «كيميل» و «شورت» إلى «الاستعداد الدفاعيّ التمهيديّ» وفقاً للخطّة الموضوعة للحرب ضدّ «اليابان» . وتلقّيا تعليمات تحتّم «إجراء استطلاعات واتّخاذ ما يلزم من احتياطات الأمن اللازمة » ؛ إلاّ أنّه أُوعز إليهما «بألاّ يثيرا الذعر في أوساط السكّان المدنيّين» .

في ٢٦ تشرين الثاني كانت قوّة الهجوم اليابانيّة قد أبحرت منذ وقت قصير ؛ كانت تفصلها عن هدفها أيّام ُ ملاحة ستّة . فقد كان إذاً لدى سلطات «هاواي» الوقت الكافي لاتّخاذ الإجراءات الدفاعيّة . وكانت الإمكانات متوافرة لديها : ٩ بوارج ، ثلاث حاملات طائرات ، ١٢ طرّاداً ثقيلاً ، ٩ طرّادات خفيفة ، ٦٧ مدمّرة ، ٢٧ غوّاصة ، فرقتان للمشاة ، ٤٣،٠٠٠ رجل ، ١٠٠١٧ مدفعاً مضاداً للطائرات على اليابسة أو على ظهور السفن ، ٢٢٧ طائرة منها ١٥٢ مطاردة . وقد قال الجنرال «مارشال» فيما بعد : «لقد كنّا نعتبر «بيرل هاربور» القاعدة الوحيدة المجهّزة بطريقة لائقة . لم نكن قلقين ...»

ولكنّ سلطات «بيرل هاربور» كانت تعتقد أنّها بعيدة عن خطّ النار ، فقد تكون «الفيليبين» هي الهدف الأوّل ، أو ربّما «غوام» ، أو «ويك» ، أو «ميدوي» . أمّا «هاواي» فلا ! فحين أبلغ ضابط الاستعلامات الأميرال «كيميل» أنّ الاستخبارات الأميركيّة قد فقدت أثر فرقتين من حاملات الطائرات اليابانيّة قال الأميرال ساخراً : «أتعني أنّ اليابانيّين يستديرون الآن حول رأس «دياموند» من غير أن نعرف عن الأمر شيئاً !؟..»

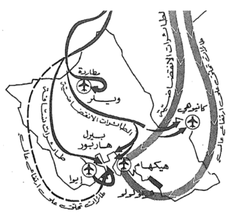
لم يتغيّر شيء في حياة القاعدة الرتيبة ؛ فغياب حاملات الطائرات الثلاث عن مرفإ «بيرل هاربور» كان لأسباب بسيطة : «فأنتربرايز» تسلّم طائرات «لويك» ، و «لكسنغتون» تسلّم طائرات «لميدوي» ، و «ساراتوغا» قيد التصليح في «سان دييغو» . وكان نظام أيّام السلم سارياً كالعادة . سوى أنّ الجيش كان ساهراً حذراً خوفاً من التخريب (فهنالك ١٠٠.٠٠٠ يابانيّ في الأرخبيل) وأنّ البحريّة كانت قد أمرت بإغراق كلّ غوّاصة مجهولة في مياه «بيرل هاربور» . ولم تكن الشباك الواقية قد بُسطت في أماكنها باعتبار أنّها تعوق حركة السفن ، ولم يُنشر حاجز البالونات لأنّ نشره يثير مخاوف السكّان المدنيّين . وأمّا المراقبة بواسطة الرادار فلم تكن مؤمّنة إلاّ من الرابعة حتّى السابعة صباحاً . ولم تتعدّ الاستطلاعات الجوّية بعض القطاعات الغربيّة والجنوبيّة . كان الأميرال «كيميل» النشيط الصارم بحّاراً ذائع الصيت ، مما حدا السلطات العليا إلى تقليده زمام قيادة أسطول المحيط الهادىء والقيادة العليا للأسطول الأميركيّ . متخطّية بذلك ٣٢ ضابطاً أقدم منه. ولكنّه كان يعتبر أنّ واجبه الأساسيّ هو تدريب بحّارته ، وأنّ إعلان حالة الطوارىء يسيء إلى هذا التدريب إن هو عمّمه .

لم تترك الكتب والأفلام من وقائع ليلة ٦ إلى ٧ كانون الأوّل شاردةً إلاّ أحاطت بها ووصفتها بإسهاب : سكينة سماويّة ، حريّة تامّة في التصرّف . جموع من البحّارة والجنود في طرقات «هونولولو» الطريفة ، حفلات استقبال . رقص ومغازلة في اندية الضبّاط . وبعد ما تناول «كيميل» كأس الخمرة الأسبوعيّة أوى في الساعة العاشرة إلى فراشه في منزله القائم على مرتفعات «ماكابالا» ، بعد ما تخلّى عن مقصورته على ظهر بارجة الأميراليّة «بنسيلفانيا». لم يكن ثمّة ما يعكّر عليه أوقاته ، مع أنّ دائرة الاستخبارات الأميركيّة قد أبلغته أنّ قنصل «اليابان» العامّ كان يحرق أوراقه ، وأنّ مخابرة هاتفيّة مريبة قد تمّ التقاطها بين «طوكيو» وصحيفة يابانيّة في «هونولولو» . كان «كيميل» على موعد مع الجنرال «شورت» في صبيحة اليوم التالي ، ولكن ليلعب معه «الغولف» لا أكثر . وانقضت الساعات ، واستسلمت المدينة والقاعدة والأسطول لسبات عميق. وفي الساعة ٣،٤٢ أبصر «ماكلوي» ، أحد بحّارة زارعة الألغام «كوندور» ، أثراً لخطّ ضئيل في الماء ، ورأى بعد ذلك شبح غوّاصة ، فاتّصل بالمدمّرة «وورد» ونقل إليها هذا الخبر : «غوّاصة غائصة ، متّجهة نحو الغرب ، سرعتها ٩ عقد» ؛ فأمر الضابط «أوتربردج» بالتأهّب للقتال . ولكنّ الجهاز الصوتيّ لم يلتقط أيّ صدى من الأعماق ،



الوضع الستراتيجيّ في المحيط الهادىء عشيّة حادثة «بيرل هاربور» .





الهجوم الجوّيّ على «بيرل هاربور».

فأيقن «أوتربردج» أنّ بحّار «الكوندور» قد أخطأ التقدير ، وأمر رجاله بالعودة إلى أسرّتهم !

في الساعة ٦،٣٠ انقشع غشاء الظلمة . وأقلعت إحدى طائرات الاستكشاف في «فورد أيلند» لتقوم بدوريّة الفجر . وكان «الوورد» يقترب من الممرّ الضيّق بغية الدخول إلى المرفإ ، وكذلك القاطرة «أنتار» التي كانت تقطر زورقاً ، وهي التي أبصرت غوّاصة صغيرة على مستوى الماء في الوقت الذي أبصرتها فيه طائرة الاستكشاف التي ألقت بعلبتين مدخّنتين لتحديد موقعها . وانقضّ «أوتربردج» على الغوّاصة فأصلاها نار مدفعيّته وقذائفه ، فغرقت الغوّاصة دفعة واحدة وكأنّها حجر ثقيل ؛ وهكذا تكون أولى غوّاصات الجيب اليابانيّة قد زالت .

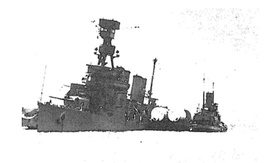
وعلى بعد ٥٠ كلم إلى الشمال ، في أقصى نقطة من«أواهو» ، كانت نوبة مراقبة الرادار على وشك الانتهاء ؛ ولم يكن قد بقي للجنديّين «لوكارد» و «إليوت» سوى إقفال باب المركز حتى المساء . ولكنّ «إليوت» كان مجنّداً جديداً ذا حميّة ونشاط ، وبما أنّ الشاحنة التي تقلّه إلى حيث يتناول فطوره لم تكن قد وصلت بعد ، فقد أبقى شاشة الجهاز مضاءة ؛ وإذا به ينتفض : فقد رأى طائفة من البقع البرّاقة ترتسم أمامه على الشاشة ! كانت الساعة ٧،٠٢ وفي الساعة ٧،٢٠ ، اتّصل «لوكارد» و «إليوت» هاتفياً بالقاعدة ، قالا : «طائرات عديدة على بعد ١٣٢ ميلاً في الدرجة الثالثة شرقاً بشمال » ؛ أمّا ضابط الحراسة ، الملازم «تايلر» ، فقد أجاب : «دعك من ذلك» ؛ وسيظلّ هذا الجواب إحدى الكلمات التاريخيّة في معركة «بيرل هاربور» .

في تلك اللحظة بالذات انقشعت الغيوم ، وأبصر «ميتسوو فوشيدا» أمامه جبال «أواهو» المخضرّة . كانت القوّة التي يقودها مؤلّفة من ١٤٣ طائرة ، منها ٤٣ مقاتلة «زيكي» مكلّفة بتحطيم المقاومة المحتمل وقوعها وقصف المطارات ، و٥١ قاذفة انقضاضيّة «فال» مكلّفة بسحق «فورد أيلند» و «هيكهام فيلد» و «ويلرفيلد» ، و ٤٠ طائرة من طراز «كاتي» مجهّزة بالطوربيدات مكلّفة بمهاجمة سفن قتال «باتيلشيب رو» . وكانت الـ ٤٩ طائرة الباقية ، وهي من طراز «كاتي» كذلك ، قاذفات أفقيّة مكلّفة بضرب الهدف نفسه بقنابل خرّاقة . وكانت التعليمات قد صدرت إلى الملاحين بألاّ يضيّعوا أيّة قذيفة سدى ، وأن يحوّموا ما لزم الأمر في سبيل إحكام ضرباتهم . ولقد حسبت «طوكيو» أنّ خسرانها حاملتين من حاملات طائراتها ، وخمسين بالمئة من طائراتها ، ليس بالثمن الباهظ إزاء نجاح العمليّة .

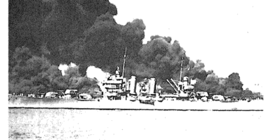
راح المهاجمون يحوّمون فوق «أواهو» في حركة دوران معاكسة

منظر عامّ «لبيرل هاربور» صبيحة السابع من كانون الأوّل . وتبدو المدافع المضادّة للطائرات في العمل .



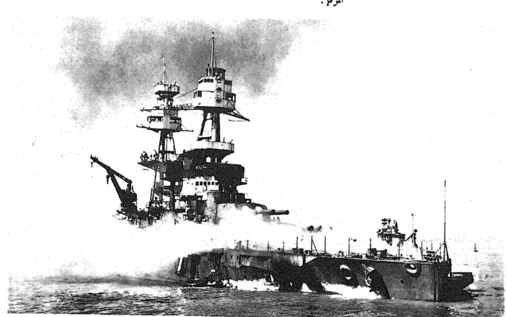


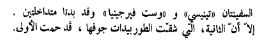
الطرّاد الخفيف «رالي» ، وقد وقفت إحدى القاطرات إليه تدعمه بعدما أُصيب بالطوربيدات والقنابل . ولسوف يُشفى من جروحه ويرجع إلى الخدمة خلال شهور .



في حين كان الهجوم المسعور ينقضّ على «بيرل هاربور» ، أقلعت «الفينكس» سالمة .

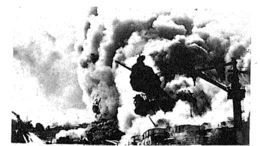
السفينة «نيفادا» تحاول الإقلاع . وقد أحرقتها الطائرات اليابانيّة وكادت تغرقها عند مدخل المرفإ .

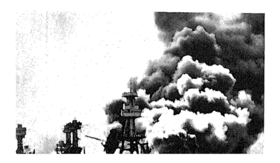




السفينتان «تينيسي» و «وست فيرجينيا» وقد بدتا متداخلتين . إلاّ أنّ الثانية، التي شقّت الطوربيدات جوفها ، قد حمت الأولى.

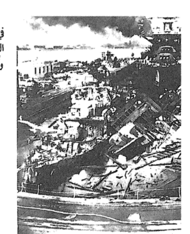
السفينة «أريزونا» وقد استحالت كتلة من لهب .





لدوران عقرب الساعة ، كانت «بيرل هاربور» هادئة آمنة في وهج الضياء الصباحيّ النقيّ . وإن كانت حاملات الطائرات غير موجودة ، فقد كانت سبع بوارج تلازم مواقعها في «باتيلشيب رو» . وكانت بارجة ثامنة ، وهي «بنسيلفانيا» في الحوض ، في الناحية الأخرى من الممرّ المائيّ . وحتّى تلك اللحظة لم تكن قد سوّدت أديمَ السماء ولا طلقةٌ واحدة من المدفعيّة المضادّة للطائرات ، ولم تكن الأرض والسفن تحرّك ساكناً . وأطلق «فوشيدا» الإشارة المصطلَح عليها للدلالة على نجاح المفاجأة : «نمر ، نمر ، نمر » ؛ وبضرب من ضروب الحظّ الخارق طارت هذه الإشارة الضعيفة عبر آلاف الأميال ووصلت إلى خليج «هيروشيما» حيث التقطتها البارجة اليابانيّة «ناغاتو» . كانت تلك أوّل إشارة حيّة تصل إلى «ياماموتو» عن حملته المغامرة ، فغمرت فؤاده حبوراً .

وعلى أوّل منحدر من منحدرات بركان «ماكالابا» القديم كان قائد أعلى آخر ينظر مصعوقاً إلى الطائرات تحوّم فوق سفنه في غمرة الشمس

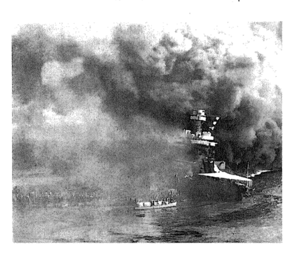


في الحوض الجافّ أصيبت البارجة «بنسيلفانيا» بحريق ، وأصيبت «الكاسين» بأضرار .



منظر عامّ «لبيرل هاربور» بعد الغارة الجويّة .

الدامية ؛ فالأميرال «كيميل» السيّئ الطالع كان قد لبس ثياب «الغولف» ، وكان مرافقه الكومندان «مورفي» قد اتّصل به هاتفياً ليعلمه — بلهجة يشوبها بعض الارتياب — بأنّ «الوورد» قد دمّر غوّاصة صغيرة ، فأجابه «كيميل» بأنّه ذاهب لتوّه إلى القاعدة . وكان ما يزال بانتظار سائقه حين دوّت انفجارات عنيفة طرحته على أعمدة الرواق . واشتعل في السفينة «أوكلاهوما» التي كانت راسية جنب «ميريلاند» أتّون متأجّج ؛ وحدثت انفجارات أخرى ، وتعالت في الجوّ سحب الدخان ، وأطلق لصفّارات الإنذار العنان . ووصلت سيّارة مسرعة يقودها طيّار مذعور فنقلت «كيميل» إلى مركز قيادته ؛ ولكنّه في تلك اللحظة لم يكن سوى شاهد عاجز إزاء الفاجعة التي أطاحت وظيفته . وبعدما أصيب «كيميل» بشظيّة خفيفة في صدره ، تلفّظ بجملة المارشال «ناي»



السفينة «كاليفورنيا» تجنح غارقة .



لم تسلم مطارات «بيرل هاربور» من المعمعة .

المأثورة في «واترلو» : « يا ليتها نفذت » ؛ ولكنّ أيّ أميرال يابانيّ لم يكن ليرضى بالبقاء على قيد الحياة لو وُجد في وضع كوضع «كيمبل» !

وشرع المهاجمون بالانسحاب مجموعةً مجموعةً ، بعد إنجاز مهمّتهم ؛ وبات «فوشيدا» ينتظر قدوم الموجة الثانية بعدما أفرغ قنابله . كانت الموجة الثانية مؤلّفة من ١٧١ طائرة بقيادة الليوتنان كوماندر «شيمازا كي» ، فوصلت فوق «كاهوكو» في الساعة ٨،٤٠ ، فتفرّقت وبدأت هجومها في الساعة ٨،٥٤ . كانت مهمّتها أصعب من مهمّة الطائرات الأخرى . فالصفو قد استحال إلى جحيم ، وكان ضباب كثيف من الدخان الأحمر الذي تتخلّله الانفجارات يحجب الأهداف ، وكانت المدفعيّة المضادّة للطائرات قد انتظمت وراحت تنفث في وجه السماء نيراناً قاتلة . ومع أنّ الموجة الثانية كانت لا تملك طائرات نسّافة فقد أنجزت التدمير الذي قامت به الموجة الأولى ، ثمّ عادت فتوارت باتّجاه الشمال . وقبل أن يلحق «فوشيدا» بها قام بالتحليق مرّة أخيرة فوق الجزيرة . كانت المطارات جميعها كتلة من لهب . وكان منظر «باتيلشيب رو» منظراً مروّعاً : كانت السفينة «كاليفورنيا» تغرق شيئاً فشيئاً وخيمتها الكبيرة البيضاء

في جزر «هاواي» ، قرب «هونولولو» ، أُقيم جنّاز عن نفس ١٥ عسكريّاً أميركيّاً قُتلوا يوم ٧ كانون الأوّل .



ممدودة فوق سطحها الخلفيّ . وراياتها المتعدّدة الألوان ترفرف على حبال شراعها . وإلى جنب «ميريلاند» ، التي أصيبت بأضرار ، كانت «أوكلاهوما» قد انقلبت تماماً . وأمّا «تينيسي» و «وست فيرجينيا» فقد تشابكت صواريهما فظهرا وكأنّهما متداخلان . وتفجّرت خزّانات «أريزونا» فلم تبقَ غير كتلة مشوّهة تتأجّج أجيجاً جهنّميّاً . وفي حوض التصليح الجاف قُطّعت مدمّرتان إرباً . وشبّت النيران على متن «بنسيلفانيا» . وحاولت البارجة «نيفادا» الإبحار فأحرقتها الطائرات وكادت أن تغرقها في الممرّ الضيّق موفّرة بذلك لليابانيّين ما كانوا يرتجونه من عرقلة في «بيرل هاربور» . أمّا الطرّادات والمدمّرات والسفن التابعة التي غرقت أو تفجّرت فكثيرة ، حتّى انّه ليصعب التعرّف إلى أسمائها . وكان المرفأ نفسه يشتعل بسبب دفق المازوت الذي انصبّ عليه . أمّا «تانك فارم» ، التي كانت هدفاً سهلاً ، فقد سلمت . وكذلك مخازن مصنع الذخيرة .

وحين عاد «فوشيدا» إلى السفينة «أكاجي» كان معظم الطائرات قد هبط على متنها . كانت الخسائر طفيفة بصورة فاقت كلّ تقدير : نحو ثلاثين طائرة . أي أقلّ من التقديرات بخمس مرّات . وكان الرجال يتحرّقون للعودة إلى المعركة ؛ وحاول «فوشيدا» أن يقنع «ناغومو» بأنّه قد بقي تدمير المنشآت البرّية . وبأنّه كان محتملاً أن تعود حاملات الطائرات الأميركيّة إلى المرفأ . ولكنّ «ناغومو» قد تنفّس الصعداء بعدما لاقت العمليّة هذا النجاح . حتى أنّه قد أصدر على الفور أمر العودة إلى «اليابان» . وعبثاً اغتاظ «فوشيدا» . فقد انطلق الأسطول بأقصى سرعته ؛ واتّصلت قاذفتان ضالّتان بالأسطول طالبتين تحديد موقعه . ولكن بلا جدوى !

في الوقت نفسه قصفت المدمّرتان اليابانيّتان «سازانامي» و «أوشيو» جزيرة «ميدوي» ؛ وهوجمت «ويك» و «غوام» ؛ وقُصفت «هونغ كونغ» ، وأُنجزت ثلاث عمليّات إنزال في «سيام» و «ماليزيا» ؛ وكان إنزالٌ آخر قيد التحضير في «بورنيو» ؛ وفي «الفيليبين» دُمّرت قاعدة «كلارك فيلد» الجوّية . كانت الأركان العامّة الأميركيّة تقدّر أنّه لم يكن بوسع اليابانيّين أن يقوموا بغير عمليّة جوّية بحريّة واحدة في آن معاً ، فإذا بهم قد قاموا بسبع ، منها ثلاث رئيسة في « بيرل هاربور » ، و «الفيليبين» ، و«ماليزيا» !

إلاّ أنّ قصف الرعد الذي دوّى في «بيرل هاربور» قد أيقظ العملاق من غفوته ، فأطلقت «أميركا» صيحة الغيظ : «يا لهم من صُفر لقطاء!» ونوى «روزفلت» بالعدوّ شرّاً قائلاً : «سيبقى هذا اليوم رمزاً للعار» ، وحكم عليه بالإعدام . في وضع عاديّ لم تكن «أميركا» مستعدّة لخوض الحرب بعد . ولكنّ قنابل «بيرل هاربور» دفعتها إليها بعفويّة وسرعة وسخط وحماسة عارمة ؛ ففي مجلس الشيوخ تمّ التصويت على الحرب بإجماع أصوات الأعضاء الـ ٨١ الحاضرين ؛ وفي مجلس النوّاب كان العضو الوحيد المعارض عانساً عجوزاً من «مونتانا» اسمها «جانيت رانكن» . وكانت قد اقترعت ضدّ الحرب في سنة ١٩١٧ ، وإذا بها تعيد الكرّة سنة ١٩٤١ بيد أنّ زعماء الانعزاليّة جميعهم ، مثل «هوفر» و «لندبرغ» و «لاندون» و «لويس» و «ويلر» ، وضعوا أنفسهم تحت تصرّف رئيس الدولة.

في ٧ كانون الأوّل كان «تشرتشل» يتناول العشاء مع «جون وينّنت» السفير الأميركيّ ، و «أفريل هاريمان» مبعوث «روزفلت» ؛ ودار الحديث حول المعركة التي ابتدأت في ١٨ تشرين الثاني في «برقة» . كانت الأنباء تشير إلى تحسّن مرموق ، فقد أعلن «أوكنلك» عن تراجع «رومل» في الوقت الذي تأكّد فيه تحرير «طبرق» . ولكنّ القتال كان قد عرف مراحل مفعمة بالقلق المبرّح ، ذلك أنّ الانتصارات الأوّليّة ، والتقدّم

حتى «سيدي براني». قد كسفتها عملية مضادة قام بها «رومل» ؛ فقد حشد هذا الأخير فيلقه الأفريقي . وأضنك الفيلق البريطاني الثلاثين. ومن ثم حاول تطويق الجيش الثامن بكامله . بعدما اتجه صعداً نحو «البردية» ؛ ولكن «أوكنلك» أظهر من الجدارة ما يليق بذلك الظرف العصيب . فغادر «القاهرة» على جناح السرعة وتولى قيادة العمليات بنفسه. وأخفقت محاولة «رومل» نظراً لفقدان القوات الملائمة . ومع ذلك لم تكن المعركة لتحقق الآمال العظام التي عقدها عليها «تشرتشل» . فالدبابات البريطانية التي كانت متفوقة من الناحية العددية كانت أضعف قوة من الدبابات الهتلرية ؛ وكلف فرض التفوق البحري غالياً نتيجة لعمليات الغواصات الألمانية في المتوسط ، فغرق «بارهام» في أعقاب «الأرك رويال» . وعلى الرغم من أن «ألمانيا» كانت قد جمدت ثلثي قواتها في «روسيا» . فقد بقيت «بريطانيا العظمى» عاجزة عن التفوق البين في مسرح «أفريقيا الشمالية» الثانوي ، كما كانت لا تتوقع فتح الجبهة الثانية التي طالب بها «ستالين» غاضباً ! ولم يكن متوقعاً حدوث انقلاب في الوضع ما لم تعتزم «أميركا» التدخل . فماذا كانت تنتظر ؟

وهز «هاريمان» و «وينَنت» رأسهما ؛ فإعلان «أميركا» الحرب على «ألمانيا» أمر لم يكن وارداً ما لم يرتكب «هتلر» هفوة ضخمة . أو يلجأ إلى التحدي السافر . ولكن «هتلر» قد حد من عمليات الغواصات من يوم صدر الأمر الأمريكي إلى السفن بأن تكون السباقة إلى إطلاق النار ، وذلك منعاً لكل اشتباك . أضف إلى ذلك أن اهتمام «أميركا» قد تحول إلى المحيط الهادىء حيث نشبت حرب أعصاب عنيفة بين «أميركا» و «اليابان». فلقد رد «توجو» على مذكرة «كورديل هال» بصيحة ألم واغتياظ . وبات «روزفلت» يفكر بأن ينظم على طريق «برمانيا» قوافل برية تحميها طائرات أميركية . وما دام الخطر المباشر على «انكلترا» قد تضاءل ، فقد أصبحت معارك «أوروبا» لا تثير مشاعر الشعب الأميركي كما كانت تثيره من قبل .

وفي إحدى زوايا المكان الذي اجتمع فيه «تشرتشل» بضيفيه الأميركيين كان الراديو يذيع بهدوء نشرة إخبارية . ولم يكن الرجال الثلاثة ليعيروها انتباهاً . وفجأة ، وفي تضاعيف وصف المعارك المألوف ، طرق المسامع اسم غير عادي : «هاواي»... فسأل «تشرتشل»: «أصحيح ما سمعت ؟ هل قصف اليابانيون السفن الأميركية في «هاواي» ؟ ولكن «وينَنت» لم يسمع شيئاً . وأما «هاريمان» فقد سمع ذكراً «لسفن أميركية» . كانت النشرة قد انتهت ، وأعلنت المذيعة عن ابتداء برنامج «المشاريع الفنية» . وأقبل أحد النُدُل وقال مؤكداً : «سيدي إن هذا لصحيح ! لقد سمعنا النبأ في غرفة الخدم . لقد هاجم اليابانيون الأميركيين في «بيرل هاربور» !

وهب «ونستون» كالمجنون إلى أمانة سره طالباً الاتصال الهاتفي «بروزفلت» . وبلغه صوت الرئيس عبر الأطلسي مثبتاً نبأ الهجوم ووحشيته وغدره ، فتألق وجه «تشرتشل» . قال «روزفلت» : «ها ان المصير قد جمعنا !» يا لها من كلمة إلهية ! فقد أزفت اللحظة التي قامر عليها «تشرتشل» بثروته وبمصير بلده في ظروف ساحقة ! قبل ثلاثة أسابيع كان «تشرتشل» قد أكد «لليابان» انه سيعلن عليها الحرب في الساعة التي تلي قيام النزاع بينها وبين «الولايات المتحدة» ، وذلك على الرغم من روابط الصداقة التقليدية . ولم يكن عبء هذا الوعد بثقيل ، إذ أنه كان يجمع في المصير الواحد «انكلترا» المترجرجة ، و «أميركا» التي لا تقهر . ونص «تشرتشل» وثيقة اعلان الحرب بلذة شديدة ، موجهاً للسفير الياباني في ختامها عبارة «خادمك المطيع» !

في «اليابان» أثار نجاح عملية «بيرل هاربور» حماسة بالغة ، وأحدثت عودة المنتصرين هيجاناً وطنياً . وتخطى الامبراطور التقاليد فطلب مقابلة «فوشيدا» ، وهو من عامة الشعب . ومن مجموع ٨٠ مليوناً من اليابانيين الذين سكروا فرحاً ظل رجل واحد راغباً عن الشرب هو «ياماموتو» ؛ كان يفكر بأن حاملات الطائرات في «بيرل هاربور» لم تصب بأذى ، وبأن البوارج التي دُمرت لم تكن غير سفن عتيقة ، وبأن القوة الأميركية جبارة ، وبأن معارك يائسة تقف بالمرصاد . وفي «رستنبورغ» ، مقر القيادة الألمانية ، وقعت أنباء المحيط الهادىء في جو من التوتر العصبي ؛ فالقيادة العليا هناك قد تبينت فداحة الوضع في الجبهة ، وأمرت المذكرة رقم ٣٩ بإيقاف الهجوم بحجة «حلول الشتاء قبل أوانه» ، معلنة ضرورة «انتعاش» القوات . وفضلاً عن ذلك كانت الدلائل تشير إلى أن الهجوم الروسي المعاكس لم يكن عملية محلية لحل الطوق عن عنق «موسكو» . هذا الجيش الألماني الذي كان مظفراً بالأمس قد بات اليوم معرضاً للخطر . وفي غمرة هذا الاكتشاف المروع وقعت أحداث «بيرل هاربور» وقوع الصاعقة !

لم يسجل أحد قط انطباعات «هتلر» حيال ذاك الحدث ؛ فقد كان يمقت اليابانيين ، ويتهمهم بالكذب ، ويعتبر قوتهم العسكرية ضرباً من المخاتلة . بيد أنه في ١١ كانون الأول غادر «رستنبورغ» سراً وأعلم البرلمان الذي دُعي إلى جلسة سرية بإعلان «ألمانيا» الحرب على «الولايات المتحدة» . ولم يجرِ حتى الآن تفسير لهذا القرار المعجل ، ولعدم رغبة «هتلر» إلى «اليابان» في أن تعلن الحرب على «الاتحاد السوفياتي» . لقد زاد النزاع في تلك المرحلة اتساعاً ، شاملاً مناطق جديدة شاسعة ، إلا أن حدود «الاتحاد السوفياتي» و «اليابان» بقيت آمنة مطمئنة كليلة صيف .

وإليك لوحة لما كان عليه العالم في ١٥ كانون الأول ، بعد «بيرل هاربور» بأسبوع واحد :

كانت ٤٣ دولة في حالة حرب ، منها ١٥ دولة دخلت الحرب منذ أقل من ثمانية أيام وهي : «ألبانيا» ، و «ألمانيا» ، و «أوستراليا» ، و «بلجيكا» ، و «بلغاريا» ، و «كندا» ، و «الصين» ، و «كولومبيا» ، و «كوستاريكا» ، و «كرواتيا» ، و «كوبا» ، و «الدانمرك» ، و «جمهورية الدومينيك» ، و «الإكواتور» ، و «مصر» ، و «الولايات المتحدة» ، و «الحبشة» ، و «فنلندا» ، و «فرنسا» ، و «بريطانيا العظمى» و «اليونان» ، و «غواتيمالا» ، و «هاييتي» ، و «هوندوراس» و «ايسلندا» و «إيطاليا» ، و «اليابان» ، و «اللوكسمبورغ» ، و «ماندشوكو» ، و «نيكاراغوا» ، و «النروج» ، و «زيلاندا الجديدة» ، و «باناما» ، و «باراغوي» ، و «هولندا» ، و «بولونيا» ، و «رومانيا» ، و «سلفادور» ، و «سلوفاكيا» ، و «اتحاد جنوبي أفريقيا» ، و «الاتحاد السوفياتي» ، و «تشيكوسلوفاكيا» ، و «يوغوسلافيا» . بعض هذه الدول كان في حالة حرب بصورة سلبية ، مثل «الدانمارك» الذي كان يحتله الألمان ، و «ايسلندا» التي كان يحتلها الأميركيون ، و «مصر» التي كان يحتلها الانكليز ، و «فرنسا» التي كانت تعيش ، باستثناء «فرنسا الحرة» ، تحت حكم معاهدة سلم حزيران ١٩٤٠ . وكانت دول أخرى كثيرة ، مثل «البرازيل» ، قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع المحور ، وراحت تنضم خطوة خطوة إلى الحلفاء . لم يكن تكتل العدو يضم غير عشر دول ، إلا أن أوضاع الحرب كانت لصالحه . فكانت سيطرته تشمل «أوروبا» القارية ، وأغنى أقسام «الاتحاد السوفياتي» ، وأكثر المقاطعات سكاناً في «الصين» ؛ وستصبح هذه الأوضاع أكثر ملاءمة بفضل الفتوحات اليابانية في المحيط الهادىء . ومع ذلك فقد بدا واضحاً أن كفة الميزان باتت تميل ضد مصلحة المثلث «برلين ـ روما ـ طوكيو» :

ذلك أنّ التفوّق الأوّليّ الناتج عن العدوان لن يلبث أن يتضاءل شيئاً فشيئاً ، في حين تتّضح معالم التفوّق العميق الناتج عن طاقة الموارد ، وعن القوّة الصناعيّة ، وعن السيطرة على البحار .

إستسلام «ويك» واجتياح «الفيليبّين»

«ويك» واحدة من أكثر جزر المرجان عزلةً ووحشة في المحيط الهادىء ، وهي أشبه ما تكون بقمّة بركان منطفىء كادت تغمره المياه ؛ بل هي في الواقع مجموعة من جزر صغيرة ثلاث ، لا ماء عذباً فيها ولا نبات ، ائتلفت بشكل ذراع سرطان حول بحيرة اجتاحها المرجان . ولقد أحدق بها عاملان من عوامل الضوضاء والصخب هما هدير المحيط الهادىء ، وأسراب ضخمة من طيور البحر الزاعقة الشرسة . إكتشفت «أميركا» جزيرة «ويك» سنة ١٨٤١ وضمّتها إليها سنة ١٨٩٩ ، ولكنّها تركتها خلاء قفراً إلى حين انفتح المحيط الهادىء لحركة الطيران ؛ ففي ١٩٤١ شيّدت فيها شركة «بان أميركان» الأميركيّة فندقاً لاستقبال الطائرات العاملة على خطّ «الصين» ، وراح ١،١٤٦ عاملاً مدنياً يعملون لتحويل «ويك» إلى قاعدة جويّة ، أو بالحريّ إلى حاملة طائرات تهدّد الممتلكات اليابانيّة في جزر «مارشال» ، وكُلّفت بحمايتهم فصيلة من جنود البحريّة بقيادة الميجر «ديفرو» .

قُصفت «ويك» في ٨ كانون الأوّل ، ثم لم تمضِ ثلاثة أيّام حتى مثلت أمامها قوّة يابانيّة يقودها ثلاثة طرّادات قديمة . إعتقد اليابانيّون أنّ الحامية ستستسلم لدى الإنذار الأوّل ، ولكنّ فألهم قد خاب . كان رجال «ويك» مزوّدين ببنادق من طراز «إنفيلد» ، وخوذات يعود عهدها إلى الحرب العالميّة الأولى ، ولم يكن لديهم سوى ستّ من قطع المدفعيّة القديمة التي كانت في الأصل على سفن عتيقة مهملة . صمد «ديفرو» أمام تخاذل المدنيّين الذين رفضوا الإسهام في الدفاع وطالبوا بالاستسلام ، فترك السفن المعادية تقترب إلى ٤،٥٠٠ ياردة ثمّ أصلاها ناره ، فيما أقلعت طائرات «وايلدكات» الأربع التي سلمت من قصف ٨ كانون الأوّل لمهاجمتها . وأسفر القصف البرّي والجوّيّ عن نتيجة رائعة : فقد أُغرقت مدمّرتان ، وأصيبت الطرّادات الثلاثة بأضرار ، ولقي بضع مئات من اليابانيّين حتفهم ، فيما لم يُقتل غير أميركيّ واحد . وتراجع العدوّ يجرّ أذيال الخيبة !

تعالى اسم «ويك» في «أميركا» ، التي حزّ في فؤادها ما أصاب «بيرل هاربور» ، كما تتعالى أناشيد الظَّفَر . وفي الجزيرة هتف الجنود بحياة قائدهم حين علموا ، بواسطة الإذاعة ، بجوابه عن البرقيّة التي سئل بها عمّا هو بحاجة إليه ، إذ قال : «إبعثوا إلينا بالمزيد من اليابانيّين ! ». لقد أنكر «ديفرو» في ما بعد أن يكون قد تلفّظ بهذه «الحمرنة» الملحميّة ، ولكنّ ذاك لم يمنع «أميركا» كلّها من ترديدها بخشوع .

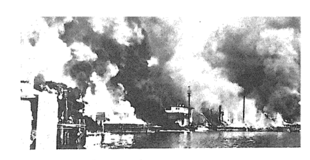
أمّا الأميرال «كيميل» الذي باتت ساعات قيادته معدودة ، فقد هبّ إلى نصرة حماة «ويك» ، فوضع مخطّطاً تُسهم فيه حاملات الطائرات الثلاث في المحيط الهادىء . بيد أنّ المحيط الكبير قد غدا ، بالنسبة للبحريّة الأميركيّة ، حافلاً بالرعب والهلع ، عقب يوم ٧ كانون الأوّل الرهيب ؛ فالقوّة اليابانيّة الضاربة توارت من غير أن يلمح الأميركيّون منها سفينة واحدة ، ممّا جعل حاملات الطائرات تخرج إلى عرض البحر حذرة خائفة . وصلت «الساراتوغا» في ٢٣ كانون الأوّل إلى بعد ٤٢٥ ميلاً من «ويك» ، إلاّ أنّ الذعر قد استبدّ بالأميرال «فليتشر» لخوفه من الوقوع في كمين . ثم انّ «نيميتز» ، خليفة «كيميل» ، كان ما يزال في «واشنطن» . وأدرك الأميرال «باي» ، البديل المؤقت ، فداحة النكبة التي قد تنزلها «بأميركا» وبه خسارةُ سفينة أو أكثر من حاملات الطائرات ، ولذا رأى أن يأمرها بالعودة إلى «بيرل هاربور» . وهكذا تُركت «ويك» وشأنها . وأوفد اليابانيّون للإجهاز عليها فرقة من قاهري «بيرل هاربور» ، أي السفينتين «السوريو» و «الإيريو» ، بقيادة الأميرال «آبي» ؛ وتعاقب القصف الجوّي ستّة أيّام خارت في نهايتها قوى الحامية . ثم أغارت على «ويلكي» ، وهي إحدى الجزر الثلاث ، فصيلة احتلّتها إثر معركة بالسلاح الأبيض . وعندما اطّلع «ديفرو» على تراجع «فليتشر» رفع الراية البيضاء .

في أثناء ذلك سقطت «غوام» بلا مقاومة ، وبدأ احتلال «الفيليبين» .

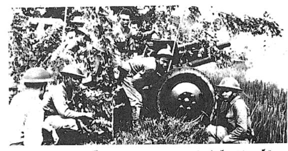
لم تكن مجموعة هذه الجزر الـ ٧،٠٠٠ ، المقفرة في الأغلب ، ذات شأن بحدّ ذاتها بالنسبة «لليابان» ؛ إلاّ أنّه ما كان بالإمكان تركها في أيد أميركيّة إذا أُريد الاحتفاظ بثروات «الهند الصينيّة» و «ماليزيا» و «بورنيو» و «سومطرة» و «جاوا» ، فكُلّف الأسطول الثالث ، بقيادة الفيس أميرال «تاكاهاشي» ، والجيش ١٤ ، بقيادة الليوتنان جنرال «هوّما» ، بتنفيذ هذه العمليّة الثانويّة التي هي بمثابة تركيز حامية جانبيّة واقية . لم يكن أيّ منهما ذا شأن كبير ؛ فالأسطول لا يشمل لا حاملات طائرات ولا سفن ميدان ، بل يضمّ ما يقارب عشرة طرّادات وعشرين مدمّرة . أمّا الجيش فقوامه فرقتان هما ١٦ و ٤٨ . ذلك أنّ قوّات كثيرة كانت مجمّدة في «الصين» ، وأنّ «اليابان» كانت من الفقر بحيث يتعذّر عليها استخدام طاقتها البشريّة بكاملها .

أمّا في الجانب الأميركيّ فقد عُهد بحماية جزر «الفيليبين» إلى ألمع شخصيّة عرفتها الحرب على الإطلاق ، ألا وهو «ماك أرثر» ؛ ففي «الفيليبين» حمل السلاح أوّلاً بعد تخرّجه برتبة ملازم ثانٍ من معهد «ويست بوينت» سنة ١٩٠٣ . كانت «أميركا» إذ ذاك قد انتزعت الجزر من «إسبانيا» ، ولكنّ الوطنيّة الفيليبينيّة لم ترَ في ذلك إلاّ استبدال عدوّ بآخر ، واستمرّت حرب العصابات ضدّ الأميركيّين . كان والده ، وهو محارب قديم في حرب الانفصال ، قائداً للقوّات الأميركيّة فيها ؛ وتعرّض الابن لرصاص الثوّار ، ثم كسف أباه لمعاناً وشهرة : قاد أثناء الحرب العالميّة الأولى فرقة من فرق النخبة ، ثمّ غدا أفتى مدير عرفه معهد «ويست بوينت» ، وأفتى رئيس أركان عرفه الجيش . وعندما عصفت به أحقاد الحسّاد وفّرت له «الفيليبين» مجالاً جديداً للعمل والترقّي ؛ كانت الجزر إذ ذاك تتدرّب على شؤون الاستقلال الذي وُعدت بأن تحصل عليه سنة ١٩٤٦ ، فعرض زعيم الجزر «مانويل كيزون» المسلول الفصيح ، على «دوغلاس ماك أرثر» ، أمرَ تنظيم الجيش ؛ فاعتمر «ماك أرثر» قبّعة مارشال «الفيليبين» وأقام في «مانيلا» كالأمراء ، وطلب إمهاله عشر سنين كيما يجهّز الأمّة الجديدة بجيش يقيها الغزو . وكان ذلك في ١٩٣٧.

في ١٩٤١ امتازت فرقة واحدة من الفرق الكبيرة التي نظمّها «ماك أرثر» بتدريب وتسليح لائقين ، وهي فرقة «كشّافة الفيليبين» ؛ أمّا التسع الأخرى فكانت تضمّ ١٠٠،٠٠٠ متطوّع ما زالوا في بدء تدريبهم ، يشرف عليهم ٦،٠٠٠ مدرّب أميركيّ لا يفقهون واحدة من اللغات الستّ والعشرين المتداولة في جيش المارشال «ماك أرثر» ؛ أمّا هو فكان في «مانيلا» موضوع جدل كما كان في كلّ مكان حلّ به ؛ رأى فيه البعض نبيّاً ، والبعض الآخر خطيباً أو ممثّلاً ، واعتبره البعض مهرّجاً . فقد تكلّف أحياناً رباطة جأش مسرحيّة ، وأعاد رسم قبّعته ليزيد من رونقها ! وكم من ليلة قضاها يذرع سطح جناحه ، في فندق «مانيلا» المطلّ على الجون الخلاّب ! وإذا تحدّث عبّر بلغة منمّقة مشرقة عن نظريّاته الجليلة السامية حول مستقبل المحيط الهادىء. أمّا ضبّاط أركانه



بعد قصف المطارات نزلت القوّات اليابانيّة بقيادة الجنرال «ماشاهارو هومّا» على الشاطىء الشماليّ من جزيرة «لوسون» (الفيليبين) ، فيما راحت الطائرات تقصف قاعدة «كافيت» .



قوّات فيليبينيّة في التدريب غداة الهجوم اليابانيّ على «بيرل هاربور» .



مدينة «مينداناو» الفيليبينيّة التي سقطت في أيدي اليابانيّين على الرغم من المقاومة الضارية التي أبداها الأميركيّون .



في ٢٤ كانون الأوّل نزل اليابانيّون على الساحل الغربيّ من جزيرة «لوسون» . ويبدو إلى اليسار مشهد من مشاهد الغارة الجويّة على مرفإ «أريا» .

المجهّدون فكانوا فريقين : فريقاً أحبّه وأُعجب به . وفريقاً مقته واحتقره . شأن الكومندان «دوايت ايزنهاور» الذي خدم تحت إمرته لبضع سنين خلت . إتّهمه المفوّض السامي الأميركيّ . «فرنسيس سير» . بأنّه قد طمع في تمديد معاش كان يبلغ أربعة أضعاف ما يمكن أن يتقاضاه من عمله في خدمة «أميركا» ؛ بيد أنّ البعض الآخر يجزم بأنّ تصرّفات «ماك أرثر» الشاذّة لا تعدو أن تكون ستار العبقريّة المسخيّ .

أقلق أمر الدفاع عن «الفيليبين» «واشنطن» في مطلع الصيف. وبعد تردّد طويل أعاد «مارشال» «ماك أرثر» إلى الجيش . ممّا سمح له بتوحيد القوّات الفيليبينيّة والأميركيّة تحت إمرته . وكان قوام هذه الأخيرة فوجاً من المشاة . وعنصراً ضعيفاً من الدبّابات . فضلاً عن نواة من سلاح الطيران . وقد وُضع مخطّط يرمي إلى مضاعفة هذه القوّات فتبلغ ٧٥.٠٠٠ رجل . على أن يباشر تنفيذ المخطّط في كانون الثاني ١٩٤٢ .

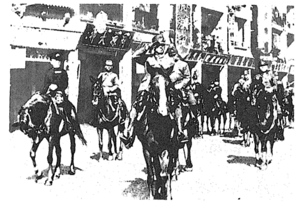
كانت تفصل «مانيلا» عن «سان فرنسيسكو» ٥.٠٠٠ ميل . يستغرق اجتيازها خمسة عشر يوماً . وتقطعها طائرات المحيط الهادىء . قافزة تحت الخطر من جزيرة إلى جزيرة . في مدى أربعة أيّام . ولذا كان التعاون العسكريّ متعذّراً بين البحر والجوّ . وكلّ ما كان يفرضه المشروع «البرتقاليّ» . في حال نشوب حرب مع «اليابان» . هو أن تتحصّن حامية من ١٠.٠٠٠ رجل في جزيرة «كوريجيدور» . وأن تصمد ريثما يحقّق الأسطول الأميركيّ انتصاره الوحيد الحاسم الذي من شأنه أن يضع حدّاً لمشكلة المحيط الهادىء . كان بعض المدافع من عيار ١٢ بوصة يحول دون ولوج خليج «مانيلا» . فيما تولّى نفقٌ حُفر تحت هضبة «مانيلا» إيواءَ رجال الحامية ووقايتهم من أشدّ عمليّات القصف عنفاً . وإذا تحدّث أحدهم عن «كوريجيدور» قال هي «الصخرة» . كما يقال في «جبل طارق» .

بيد أنّ «ماك أرثر» اعتبر اللجوء المبدئيّ الشامل إلى «كوريجيدور» فكرة انهزاميّة ، واعتقد أنّ بوسع جيشه الفيليبينيّ ـ الأميركيّ . فيما لو دعمته القلاع الطائرة من طراز ب ١٧ . أن يصدّ هجوماً قد تتعرّض له جزيرة «لوسون» الرئيسة . فقسم قوّاته فيلقين . الأوّل بقيادة «وينرايت» في شمال «مانيلا» . والثاني بقيادة «جونز» في جنوبها . واحتفظ بعض الجزر الأخرى . «كمند ناو» . بحاميات بسيطة . واستُخدمت إحداها . وهي جزيرة «باناي» . كقاعدة بحريّة خلفيّة للأسطول الأسيويّ الصغير الذي يقوده الأميرال «هارت» . والذي لا يضمّ غير طرّاد واحد ثقيل . أمّا الجزر المتبقّية فقد تُركت لمصيرها .

إمتازت أولى العمليّات اليابانيّة في النزول إلى البرّ بطابع الخوف والتردّد . ولم يبدأ الاجتياح فعلاً إلاّ في ٢١ كانون الأوّل . حين رسّخت الفرقة ٤٨ أقدامها في قلب خليج «لينغاين» . كان «هوما» قائد قوّات الاجتياح خصماً «لتوجو» . ومعارضاً للسياسة المتهوّرة التي تسير عليها «اليابان» منذ حرب «الصين» ؛ وكان متخوّفاً من النزول إلى البرّ فشاب قيادتَه الكثيرُ من التردّد . ولكنّ الأميركيّين كانوا قد أرسلوا نحو «أوستراليا» حفنة قاذفات القنابل التي بقيت في حوزتهم . ولم تغرق غوّاصاتهم غير سفينة نقل واحدة . أمّا على الأرض فقد تخاذلت الفرقتان الفيليبينيّتان ١١ و ٧١ . فعبر اليابانيّون نهر «أغنو» وساروا باتّجاه «مانيلا» . ونزلت الفرقة اليابانيّة ١٦ في الجهة المقابلة ، ثمّ سارت لملاقاة الفرقة ٤٨ . فأخفق بذلك مشروع «ماك أرثر» القاضي بالدفاع عن الشواطىء إخفاقاً ذريعاً .

كان لا بدّ من العودة سريعاً إلى المخطّط «البرتقاليّ». عرفت «مانيلا» عيد ميلاد محموماً ، إذ دمّر الطيران اليابانيّ المدينة المسوّرة ، والمرفأ ، ومستودع الذخيرة ، فاندلعت النيران في صهاريج الوقود وأثقلت الجوّ اللاهب بدخان خانق . وغصّت الطرق بأرتال متماسكة من عربات

مختلفة الأنواع تقلّ جموعاً من المدنيّين والعسكريّين إلى شبه جزيرة «باتان» ، وهي آخر معقل قبل «كوريجيدور» . وفي الخليج الغاصّ بالمراكب صدمت سفينة العبور المدعوّة «كوريجيدور» لغماً فغرقت بركّابها الـ ٥٠٠ . وأبحر «مانويل كيزون» المحتضر المرتجف بعد ما أمر عدداً من وزرائه بالبقاء في «مانيلا» للتعاون مع اليابانيّين . كانت المدينة تحترق ، إلاّ أنّ الأندية ظلّت مفتوحة ، وراح رجال الأعمال الغربيّون يخطّطون لمشاريع المستقبل ، وهم على يقين من أنّ الظافرين لن يستغنوا عنهم . ورحل «ماك أرثر» فيمن رحلوا أخيراً مع امرأته الفتيّة وابنه الصغير . فنزل رابط الجأش في ثكنة «توبسايت» الطويلة البيضاء على قمّة «كوريجيدور» ، وراح يصبّ جام استنكاره في نبوءات قاتمة معقّباً على خطاب لـ «نوكس» كان محوره : «هتلر اولاً» ! » إذاً فقد ارتكبت «أميركا» الخطأ الأساسيّ الجسيم بإهمالها الجوهر ، أي المحيط الهادىء ، للتعلّق بالعَرَض، أي «أوروبا» ! كان ذلك يعني آنذاك فقدان الأمل بأيّة مساعدة تقدّم «للفيليبين» ، كما يعني انقطاع الأمل برفع الحصار عن «كوريجيدور» .



القوّات اليابانيّة تدخل إلى «هونغ كونغ» ، يتقدّمها قائداها الليوتنانت جنرال «ساكاي» والفيس أميرال «هييمي» .

الاستيلاء على «هونغ كونغ» والنزول في «ماليزيا»

كانت «هونغ كونغ» هي ركيزة القوّة البريطانيّة في الشرق الأقصى ؛ فجزيرة «فيكتوريا» ، التي تشرف عليها منحدرات «البيك» الوعرة ، تفوق «جبل طارق» مناعة . وعلى القارّة كانت «الأراضي الجديدة» بمثابة الدرع العريضة الواقية للقاعدة . إلاّ أنّ هذه الحسنات تضاءلت شيئاً فشيئاً مع التطوّرات التي طرأت على الحرب ، ثمّ مع تمركز «اليابان» في «الصين» . واعتُبرت «هونغ كونغ» سنة ١٩٤١ موقعاً لا يمكن الدفاع عنه ، إلاّ أنّ تسليمها بلا قتال لم يكن وارداً ، فبدلاً من إخلائها أرسلت إليها كتيبتان كنديّتان فبلغت حاميتها ستّ كتائب .

شُنّ الهجوم في ٨؛ وفي ١٣ غادر البريطانيّون «الأراضي الجديدة»؛ وفي ليل ١٩ أغار اليابانيّون على جزيرة «فيكتوريا» ، فشتّتوا شمل الكتيبة الكنديّة التي كانت تدافع عن «نورث بوينت» و«ألدريتش باي»، وتسلّلوا في الوادي الوعر الذي يفصل ما بين جبل «باركر» وجبل «كامرون»، فشطروا الجزيرة شطرين باستيلائهم على فندق «ريبالس باي» الفخم . وطُرد الكنديّون إلى شبه جزيرة «ستانلي» الصغيرة . فيما دُفع رجال «رويل سكوت» . و «ميدلسكس» . والهنود. نحو المدينة التي غدت طعمة للنيران . والتي أخذت تغلي فيها جماهير الصينيّين ؛ فاستسلم الحاكم سير «ماركس يانغ» يوم عيد الميلاد . إلاّ أنّ أعمال السلب والنهب والاغتصاب استمرّت عدّة أيّام .

كانت «هونغ كونغ» موقعاً اماميّاً مقضيّاً عليه سلفاً ؛ أمّا «سنغافورة» فكانت . على العكس من ذلك . تعتبر نفسها أمنع من أن ينالها خطر . لم يُحدث فيها نشوب الحرب مع «اليابان» أيّ انفعال : فالتفاؤل ما انفكّ سائداً. والازدهار منتشراً . والصيف الأبديّ يغذّي في النفوس شعوراً بالاستقرار الدائم . والرياضة والسلوى وحبّ الظهور من أبرز أنواع النشاط : فمن كرة المضرب . إلى الغولف . إلى الكريكيت . إلى السباق . إلى السباحة وركوب الزوارق نهاراً . إلى حفلات الكوكتيل واللعب والرقص والولائم حتى ساعة متأخّرة من ليالي الحرّ الرخيّة . كان الانكليز القادمون من الوطن الأمّ الرازح تحت عبء القصف والتقنين يُصدعون بادىء ذي بدء بما يرون من وفرة الخبز والطيش . وكثرة النساء الرافلات في فساتين السهرة . والمدنيّين الخاطرين في أثواب «السموكنغ» . والضبّاط المتأنّقين في أزيائهم. ثمّ لا يلبثون أن يحذوا حذو الآخرين ويستسلموا لرغد من العيش بات نادراً في العالم . أمّا الخدمة المحليّة فتعمل عمل أهدأ أيّام الامبراطوريّة البريطانيّة . بما يرافق ذلك من أوامر صارمة في ما يخصّ اللباس . ومن تمييز شديد بين الضبّاط والجنود .

ما من أحد كان يخشى اليابانيّين ؛ فملفّات الاستخبارات السريّة حافلة بالتقارير التي تثبت حالة الجيش البالية والطيران القديم والبحريّة السيّئة التدريب . أضف إلى ذلك أنّ عطباً طبيعيّاً خاصّاً بالعين اليابانيّة كان يفسد على الطيّارين نظرهم ويعميهم ليلاً . والدليل على ضعف «اليابان» يوفّره نزاعهم مع «الصين» المستضعَفة الصامدة الذي مرّت عليه أربع سنوات . وساد الاعتقاد بأنّ العقوبات الاقتصاديّة التي فرضتها «أميركا» ستفتّ في عضدها وتليّن موقفها ؛ فإذا بها ، على العكس تماماً، ترمي بنفسها في الحرب كما يرمي اليائس بنفسه من الدور السادس ! إنّها لعمليّة انتحار ! ظلّت «سنغافورة» موضوع نقاش طوال عشرين سنة : أكان من الواجب أن تُبنى فيها قاعدة بحريّة تخلف قاعدة «هونغ كونغ» ؟ وفي حال الإيجاب ، أين كان ينبغي أن تقام ، في الخارج على مضيق «ملكّا» ، أم في الداخل على مضيق «جوهور» الضيّق ؟ ثمّ كيف توجّه التحصينات ؟ ألِلى ناحية البحر فحسب ، أم يُحسب حساب خطر أرضيّ قد يصدر عن «ماليزيا» ؟ أيُركن في ذلك إلى الجيش المألوف ، أي إلى المدفعيّة الساحليّة ، أم يؤخذ برأي أصحاب النظريّات الثوريّة الذين يريدون نقل الدور الأوّل من المدفع إلى الطائرة ؟

وأخيراً أُنشئت القاعدة، فحظي بالأفضليّة مضيق «جوهور» من حيث الموقع . والمدفع من حيث السلاح ؛ فقد اعتُبر الهجوم البرّي أبعد ما يكون احتمالاً نظراً للمسافات والمستنقعات والأدغال . وزُوّدت «سنغافورة» بأضخم التحصينات والأسلحة . إنّما ضدّ البحر فحسب ؛ فنُصبت في «بوبنافيستا» ، وفي رأس «شنجي» ، خمسة مدافع من عيار ١٥ بوصة يبلغ مجال رمايتها ٣٥ كلم ، وكانت إذ ذاك أقوى قطع المدفعيّة المعروفة في العالم ؛ وأُقيمت في «تيكونغ بيسار» وفي «بلاكانغ ماتي» بطّاريّات من عيار ٩،٢ بوصات ، ووزّعت بطّاريّات من عيار ٦ بوصات على طول الساحل . فغدت «سنغافورة» بذلك دارعة لا يمكن إغراقها . وُجّهت قطع مدفعيّتها الرئيسة والثانويّة ناحية البحر ، واقتصرت

الحامية الأرضيّة على ستّ كتائب مجهّزة للدفاع القريب المدى . أمّا الحصار الوحيد المرتقب فهو ذاك الذي قد يقوم به أسطول يابانيّ يحمل فيلقاً صغيراً من فيالق النزول إلى البرّ : وفي هذه الحال يترتّب على «سنغافورة» أن تقاوم ريثما تصل قوّة بحريّة بريطانيّة فتفكّ عنها الحصار . أمّا فترة المقاومة هذه فقد حُدّدت بسبعين يوماً ، ثمّ بمئة يوم ، وعلى أساس هذه الفترة جرى حساب المؤن من الموادّ الغذائيّة والذخائر . كان لهذه المؤن خطورة حاسمة ، طالما أنّ «سنغافورة» المنيعة لا يمكن إخضاعها إلاّ بالحصار .

في ٢ كانون الأوّل كهرب المدينةَ نبأٌ هامّ : فلقد وفت «انكلترا» بالوعد الذي قطعته في أن تحشد في «سنغافورة» قوّة بحريّة هامّة تواجه بها حالة التوتّر المتفشّية جنوبيّ شرقيّ «آسيا» . أمّا السفينتان الكبيرتان اللتان احتلّتا مركزهما في مضيق «جوهور» فهما «البرنس أوف ويلز» ، وطرّاد القتال «ريبالس» . وقد فرض «تشرتشل» نفسه إرسال أحدث البوارج الانكليزيّة . كانت الأميراليّة قد فكّرت بإيفاد «الرودني» و«النلسون» اللتين يعود تاريخ بنائهما إلى ١٩٢٠، فضلاً عن «رويال سوفرين» و «ريفنج» و «ريزوليوشن» و «راميليز» ، الناجية من الحرب العالميّة الأولى ، والتي جُدّدت سطحيّاً ؛ فقال «تشرتشل» : «إنّ مدرّعاتكم القديمة لنعوش عائمة . فاحتفظوا بها لمهمّة المواكبة في الأطلسيّ . وإنّ سفينة حديثة واحدة ترسو في «سنغافورة» لقادرة على تجميد الأسطول اليابانيّ . وإذا كانت السفينة الألمانيّة «تيربيتز» تستحوذ على تفكيركم بعد «البسمارك» . فاقلبوا الوضع إذاً واستحوذوا على اليابانيّين بواسطة «البرنس» ...»

كان من المفروض أن ينضمّ إلى هذه القوّة سفينة ثالثة كبيرة هي حاملة الطائرات «إندوميتابل» . ولكنّها اصطدمت بصخرة من المرجان لدى خروجها من مرفإ «كينغستون» ، في «جامايكا» ، فلم يكن بإمكانها أن تنضمّ إلى أسطول الشرق الأقصى إلاّ بعد إصلاح عطبها .

ولكن لم يكن ما يحمي «سنغافورة» من جهة البرّ ؛ فمضيق «جوهور» يبلغ عرضه بضع مئات من الأمتار فحسب ، وقد خفّف من قيمته الدفاعيّة بناءُ ركّة يمرّ عليها الطريق والخطّ الحديديّ . ومع هذا فإنّ نبأ نزول اليابانيّين في برزخ «كرا» لم يثر أيّ قلق : فالأعداء ما زالوا على بعد ١٠٠٠٠ كلم من «سنغافورة»، والدفاع عن «ماليزيا» لا يعتمد على الحواجز الطبيعيّة فحسب . كانت «ماليزيا» تنتج ٣٨ بالمئة من المطّاط و ٥٨ بالمئة من القصدير المستهلكَين في العالم ، وتشكّل بالنسبة «لانكلترا» ما دعاه الحاكم ، السير «شنتون توماس» ، «معمل دولارات» ؛ وفي ذلك ، لعمري ، من الأسباب ما يوجب اتّخاذ تدابير جدّيّة إضافيّة للدفاع عنها . وهكذا أُوفدت اليها نجدات متتابعة أتت بالفوج الهنديّ الثالث ، والفرقتين التاسعة السيخيّة ، والحادية عشرة البنجابيّة . يضاف إليها لواءان . كانت الحاجة تقضي باستقدام فرقة بيضاء . فتعهّدت «أوستراليا» بتقديمها ، وارتضت الأميراليّة بإيفاد السفينة «الكوين ماري» لنقلها دفعة واحدة . وهكذا بلغ عدد الجنود ، فضلاً عن لوائي «سنغافورة» المتحرّكين ، ١٠٠٠٠٠ رجل تقريباً ، وهو عدد ضخم بالنسبة لحرب تنشب في المنطقة الحارّة ، وضدّ عدوّ يعمل على بعد ٥٠٠٠ كلم من قواعده ، وفي بلد لا يمكن للعمليّات أن تجري فيه إلاّ على محورين من الطرقات . كان قائد جيش «ماليزيا» هو الليوتنان جنرال «برسيفال» ، الموسوم بسنّين بارزتين هما أشبه ما تكونان بسنّي أرنب ؛ أمّا رئيسه فهو القائد الأعلى لجنوبيّ شرقيّ «آسيا» ، السير «روبرت بروك — بوبهام» ، ذو الوجه الأحمر والشاربين الكثّين ، الميّال إلى الضحك، والشديد الجهل شأن أكثر كولونيلات جيش «الهند» . وأمّا مرؤوسه فضابط صعب المراس يدعى «غوردون بينيت» ، يقود الفرقة الثامنة الأوستراليّة . وهو سياسيّ في بزّة جنرال ، يطمح إلى مركز رئيسه . وقد استخلص من حكومته حقّ رفض الانصياع لكلّ أمر لا يتّفق ومفاهيمه . لم يكن «لبرسيفال» علم بنيّات العدوّ . ولذا فرّق قوّاته . فترك بجوار «سنغافورة» لوائي «بينيت» ؛ وفي قلب شبه الجزيرة وضع الفرقة التاسعة الهنديّة التي تفصل بين عناصرها مئة كلم من الأدغال ؛ وفي الشمال دفع بالفرقة الحادية عشرة بكاملها حتّى حدود «سيام». وكانت خطة «ماتادور» تفرض أن تهبّ الفرقة لمهاجمة اليابانيّين حال نزولهم فتلقي بهم في اليمّ .

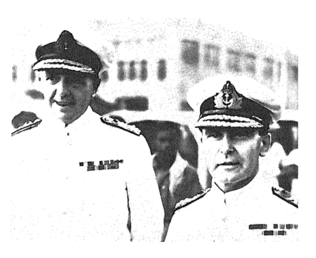
سبق الهجومُ على «ماليزيا» ، من حيث التوقيت ، الاعتداءَ على «بيرل هاربور» ؛ فقد وطئت البرّ أوّلُ دفعة من اليابانيّين في الساعة الثالثة من صباح ٨ كانون الأوّل ، حسب التوقيت المحلّي . وكان ذلك يوافق الساعة ١٧،١٥ من مساء اليوم السابق حسب توقيت «غرينتش» . ومعلوم أنّ القنبلة الأولى لم تسقط على جزر «هاواي» إلاّ في تمام الساعة ١٨،٢٥ .

إنقسمت القافلة اليابانيّة القادمة من «الصين» ومن «الهند الصينيّة» في خليج «سيام» ، فيمّم قسم منها شطر «كوتابهارو» ، واتّجه قسم آخر نحو «باتاني» ، وسار القسم الثالث ، وهو أضخمها ، نحو المرفإ التايلنديّ الصغير «سينغورا» . وفي «سينغورا» كانت المفاجأة كاملة : فقد برز المهاجمون من زبد الأمواج ، واقتصرت محاولة الدفاع عن الحياد التايلنديّ على بضع طلقات من مدفع رشّاش صدرت عن مركز للشرطة ، فأسكتها ترجمان يابانيّ إذ صاح : «نحن الجيش اليابانيّ ، ولقد اتينا ننقذكم من البيض !»

لم تكن القوّات الزاحفة من الضخامة بمكان ، شأنها في ذلك شأن أخواتها من «الفيليبين» . ولم تكن تسميتها بالجيش الخامس والعشرين غير تسمية طنّانة جوفاء ؛ فمن أصل الفرق الأربع التي يضمّها هذا الجيش مبدئيّاً ، بقيت واحدة في «اليابان» لعدم توافر وسائل النقل . وقامت فرقة أخرى بدورة على«بانغكوك» لإخضاع الحكومة التايلنديّة . أمّا الفرقتان الأخريان ، وهما الخامسة والثامنة ، فلم يكن تشكيلهما قد تمّ بعد : كان بعض الوحدات ما زال في «الصين» ، فيما أبحر أحد ألويتها نحو «بورنيو» . فحين انطلق الجيش الخامس والعشرون لفتح «سنغافورة» لم يكن عدد محاربيه ليربو على ١٧،٢٣٠ نفراً ، ولم يكن يضمّ غير أربعة أفواج من المشاة هي : الفوج ٥٦ في «كوتابهارو» ، والفوج ٤٢ في «باتاني» ، والفوجان ١١ و ٤١ في «سينغورا» . كان قائد الحملة هو الليوتنان جنرال «تومويوكوياماشيتا» ، وهو رجل ضخم غليظ أُعدّت رقبته سلفاً لحبل المشنقة التي سيعلّق عليها مجرمو الحرب . أمّا المهلة التي أعطيها لاحتلال «سنغافورة» المنيعة فهي مئة يوم .

لم يكن الجنود اليابانيّون الذين فتحوا فصلاً جديداً في هذه الحرب المترامية الأطراف فتياناً حديثي العهد بالجنديّة ؛ فهم قادمون من مناطق «شانغهاي» و «كانتون» حيث كانوا يقمعون فرق الأنصار الوطنيّة . لم يكن ثمّة ما يفوقهم صموداً وطاعة في العتاد البشريّ ؛ فلقد تحمّلوا عذاب رحلة طويلة ، وهم في قعر السفن غارقون في روائح تعفّن مقيتة تنبعث من المراحيض الفائضة وممّا كانت تقذف به بطونهم بفعل دوار البحر . وقد حُكم عليهم بالصمت والظلمة ، وقُتّر عليهم في المكان بمعدّل مترين مربّعين لكلّ ثلاثة رجال ، كما قُتّر عليهم في الطعام بمعدّل قصعة من الأرزّ أو الشعير لكلّ زمرة في كلّ يوم . لقد أخضعهم النظام اليابانيّ ، الذي يقوم على قسوة لا تقبل اللين ، وعلى تقليد متزمّت دقيق ، وعلى أخوّة في السلاح مؤثّرة ، لأدقّ ما يمكن أن تكون عليه الطاعة ، من

غير أن يفقدهم المبرّرات المعنويّة والأدبيّة التي من أجلها يحاربون . وإنّ أقلّ جنديّ فيهم يدرك أنّه يسهم في الجهاد الذي تنهض به أمّته في سبيل الحياة، ولذا كانت الهبة التي أعطاها من ذات نفسه كاملة لا يشوبها تحفّظ . كان الضبّاط يتضايقون من السيف الطويل الخاصّ بطبقة المحاربين ، ويتبرّمون بالسترة القديمة ذات الطوق القاطع ، إلاّ أنّ رغبتهم في البذل جعلت منهم قادة للرجال من نوع فريد . جرى الاستعداد لمسرح العمليّات في «ماليزيا» وفقاً لتعاليم مركز الأبحاث الخاص بالحرب في المناطق الحارّة ، والذي أنشئ في «فورموزا» ؛ فكان المحاربون على بيّنة من أوضاع الأدغال ، ويعرفون أنّ بوسع رجال يمتازون بالتقشّف والجلد أن يشقّوا لأنفسهم فيها دروباً . وأنّ ضحايا الحيّات السامّة قليلون ، وأنّ النمل الأحمر يؤلم أكثر ممّا يشكّل خطراً على الحياة ، وأنّ هنالك في الواقع حيوانين لا نجاة تُرجى من أذاهما هما : «السيدالنغ» ، وهو ضرب من الجواميس الأسيويّة القويّة البلهاء ؛ وزنبور صغير ذو



إلى اليسار ، الأميرال سير «توم فيليبس» ، وإلى اليمين ، الأميرال «باليسير» رئيس أركان حربه .

حزام أصفر تكفي خمس لسعات منه لتودي بالحياة . وتقول التعليمات التي يتلقّونها : «يخاف الغربيّون من التوغّل في الأدغال لأنّهم جبناء مخنّثون ، وهم بالتالي يعتبرونها مستعصية على كلّ راجل. ولذا علينا أن نستخدمها في مداهمتهم ...»

يومان اثنان كانا كافيين ليثبت هؤلاء الجنود تفوّقهم على القوّات الهنديّة التي أفسدت نوعيّتها التعبئةُ الكثيفة . ثمّ هطلت أمطار غزيرة جدّاً فأفقدت المدافعين حميّتهم وضعضعتهم ، وأغرقت مدفعيّتهم ، وقطعت مواصلاتهم ، وكانت سبباً في تخلّيهم عن خطّة «ماتادور» ؛ ولم يؤخّروا تقدّم اليابانيّين الذين قطعوا مسافة ١٢٠ كلم في ستّين ساعة ! فالتقت أرتال «سينغورا» و «باتاني» واجتاحت غربي «ماليزيا» . وراح رتل «كوتابهارو» يتقدّم في الشرق غير آبه لفقدان الطرقات الشامل . ولم تسفر المحاولات المبذولة لإيقاف العدوّ على أنسب المواقع وأفضلها ، كخطّ «جيترا» أو مجرى «المودا» ، عن أيّة نتيجة . وهكذا تمّ الاستيلاء على «ماليزيا» الشماليّة كلّها قبل عيد الميلاد .

زوال «البرنس أوف ويلز»

في تلك الأثناء نزلت بالبحريّة البريطانيّة كارثة كبيرة : فقد زال «الريبالس» و «البرنس أوف ويلز» من الوجود !

كان قائد القوّة البحريّة هو الفايس أميرال سير «توم فيليبس» القصير القامة نظير سلفه الأميرال «نلسون» الشهير . وكان «فيليبس» أوفر الأميرالات البريطانيّين انطباقاً على ذلك المثال الخالد. كان من الضروريّ أن يقود المفرزة البحريّة القويّة المغامرة ، التي أوغلت بعيداً عن المياه الإقليميّة ، بحّارٌ يطفح بالإقدام ، فلم يعارض أحد في إسناد ذلك المنصب المجيد الحسّاس إلى «فيليبس» .

في ٨ كانون الأوّل انعقد على ظهر «البرنس» مجلس حربيّ ، وتمّ التأكّد من نزول القوّات اليابانيّة . وقد لوحظ بأسف أنّ الاحتياطات لم تكن على ما يرام . كانت إحدى الطائرات قد اكتشفت موضع أسطول الاحتلال في خليج «سيام» ، ولكنّ المسؤولين أهملوا إصدار الإنذار ! ودُمّرت معظم الطائرات وهي جاثمة على الأرض في مطارات الشمال ، وقُصفت «سنغافورة» وهي تشعّ بألف نور، لأنّ رئيس الدفاع السلبيّ كان غير موجود لإصدار الأمر بخنق الأنوار ! ولحسن الحظّ لم يُصب «الريبالس» و «البرنس أوف ويلز» بخدش واحد . أمّا السؤال الذي راح ينطلق في تلك اللحظة بشأنهما فقد كان التالي : أيّ دور يتعيّن على هاتين السفينتين الجبّارتين أن تلعباه في الدفاع عن «ماليزيا» ؟

ذهب الأميرال «ليتون» ، الذي كان أقدم من «فيليبس» خدمة ، والذي لم يكن إلى ذلك ذا سلطة عليه ، إلى أنّ السفينتين الكبيرتين يجب أن تبقيا في مرساهما في مضيق «جوهور» . وحجّته هي أنّ جنوح «الاندوميتابل» قد حرمهما الحماية الجويّة التي لا يمكن المجازفة بإرسال وحدات النخبة إلى عرض البحر إلاّ بوجودها . غير أنّ «فيليبس» رفض أن يصغي إلى هذا الكلام الحذر ، قائلاً إنّ الأمر منوط بشرف البحريّة ، ورفض أن يقبع خائفاً وراء الشباك الواقية من الطوربيدات فيما كان اليابانيّون يجتاحون «ماليزيا» ؛ «فالبرنس» و «الريبالس» قادران على الإطباق على القوافل اليابانيّة وتدميرها ، ولا ريب في أنّ عدم وجود حاملة للطائرات أمر مؤسف ، إلاّ أنّ مدفعيّة السفن المضادّة للطائرات قويّة للغاية ، فضلاً عن أنّ فايس مارشال الجوّ «بولفورد» ، وهو قائد القوّات الجويّة التي على اليابسة ، قد وعد بأن توفّر أسرابه المساندة اللازمة . أضف إلى ذلك أنّ معظم القوّات الجويّة اليابانيّة وأفضلها كانت منهمكة في «بيرل هاربور» ، وأنّ ما تبقّى منها في الجنوب الشرقيّ الأسيويّ ليس بذي شأن .

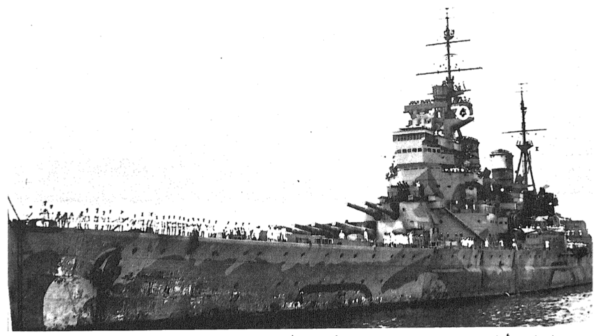
في الساعة ١٧،٣٥ من ٨ كانون الأوّل ، كانت القوّة «ي» تغادر بوقار مضيق «جوهور» . وكانت ترافق عملاقَي البحر المدمّراتُ «إليكترا» و «إكسبرس» و «تينيدوس» و «فمباير» . وما كادت القوّة تبلغ عرض البحر حتّى تسلّم السير «توم» رسالة من «بولفورد» تقول : «آسف لعدم تمكّني من تأمين حماية المطاردة» . فدسّ السير «توم» الرسالة في جيبه وقال : «أنا بغنى عنها» .

كانت الثقة تسود السفن كافّة ؛ وفي مطعم «الريبالس» كان الضبّاط الشبّان يتحدّثون بمرح عن الطيّارين اليابانيّين الذين لا يحسنون قيادة الطائرات ، والذين يعشى بصرهم في الليل . وتدخّل الصحافيّ الأميركيّ «سيسيل براون» قائلاً : «أنتم معشر البريطانيّين لا تقلعون عن عادتكم في التقليل من شأن العدوّ . فقد فعلتم ذلك في «النروج» وفي «فرنسا» وفي «كريت» ، وأنا اخشى أن تكونوا في هذه المرّة كذلك ...»

وكان الردّ عليه جلبة استنكار تصاعدت من الحاضرين ، ففي اعتقادهم أنّ اليابانيّين . لو كانوا حقّاً صالحين . لأثبتوا ذلك منذ زمان طويل بالقضاء على الصينيّين ! وهم يرون كذلك أنّ وقت اشتراك «الريبالس» في القتال قد أزف : فهو منذ بداية الحرب لم يشترك في اشتباك واحد وكأنّ القتال كان يفرّ منه !

وانقضى الليل . وانقضى الصباح . كانت السماء متلبّدة بالغيوم فوق بحر يزبد ويرغي . وكانت السفن الستّ تشقّ طريقها بسرعة ٢٥ عقدة مولّدة بصدورها موجاً عارماً . كانت المدمّرات تستهلك وقودها بسرعة في جريها على تلك الشاكلة ، بيد أنّ ذلك كان ضروريّاً للإفادة من حماية الغيوم التي حلّت محلّ الحماية الجوّية المفقودة . ولكنّ الانقشاعات بدأت تتخلّل السماء بعد الظهر ، وازدادت بذلك إمكانات الافتضاح . وأمّا «فيليبس» الثابت الجنان ، والذي كان يعتريه قلق قاتل . فقد عرض على كانت من طائرات العدوّ ؟ وهل أبصرت الأسطول؟ وما السبيل إلى التحقّق من ذلك ؟ وراح «فيليبس» يقلّب أوجه الوضع : أكان عليه أن يثابر في هذا التهوّر الذي قد ينتهي بظفر نلسوني ؟ أم يجب الإصغاء إلى داعي الحذر الذي يوعز بالرجوع ؟ .. ولم تنقض دقائق حتّى أبلغت «التينيدوس» أنّ وقودها قد بدأ يشحّ . فأمرها «فيليبس» بالعودة إلى «سنغافورة» . ثمّ سار في الاتّجاه الشماليّ الشرقيّ بغية الوصول إلى خليج «سيام» . وفي ليل حالك السواد استمرّت السفن في اتّجاهها الجديد مدّة خمس وعشرين دقيقة . وفجأة ، في الساعة الـ ٢١ ، صدر عن «البرنس أوف ويلز» أمر جديد موجّه بواسطة الإشارة الضوئيّة : الرجوع .

وتفجّرت فوق «الريبالس» ثورة غضب ؛ ووجّه الكابتن «تيننت» كلامه إلى البحّارة بواسطة الهاتف الداخليّ محاولاً تعليل قرار الأميرال . فما كان من الرجال إلاّ أن لعنوا سفينتهم المنحوسة ؛ فكأنّما قد كُتب



وصول «البرنس أوف ويلز» إلى «سنغافورة» . كانت البارجة أوّل سفينة زُوّدت «ببيانوهات شيكاغو» .

أركان «البرنس أوف ويلز» الرأي الذي أنتهى اليه : إذا سارت الأمور على ما يرام حتّى حلول الليل فسوف تستمرّ السفن في خطّ سيرها ، وسيتمّ الوقوع على العدوّ في مطلع النهار . وإلاّ فستعود القوّة «ي» أدراجها إلى «سنغافورة» . كل شيء كان وقفاً على المفاجأة . وإن لم تتوافر هذه المفاجأة يبقى على الأميرال واجب مقدّس هو أن يؤمّن سلامة السفن الثمينة التي وُضعت تحت تصرّفه .

كان النهار على وشك أن يولّي وقد بدأ الليل الاستوائيّ يربض بثقله وكأنّه جلمود صخر . كانت الساعة ٢٠،١٥ ، ولن تنقضي دقائق قليلة حتّى تسيطر الظلمة كليّاً ... في تلك اللحظة بالذات بلغ مسمع الرجال هدير محرّكات ؛ وأبصر المراقبون ثلاث طائرات كانت تطير على مسافة بعيدة ، فلم يمكن التعرّف اليها . ثمّ اختفت هذه الطائرات في غمرة الليل ؛ فهل عليها أن لا تطلق في تلك الحرب قذيفة واحدة !

وعلى بعد ٢٥٠ ميلاً إلى الشمال ، كانت نفوس أخرى توّاقة إلى القتال تصاب بالخيبة ذاتها ؛ ففي السماء ، فوق مصبّات أنهار «كوشنشين» الواسعة ، كانت محرّكات ثمانين قاذفة تملأ الليل أزيزاً ؛ فقد كان الأسَيْطيل الجويّ اليابانيّ الثاني والعشرون في طريق عودته إلى قاعدته في «سايغون» من غير أن يعثر للسفن الانكليزيّة على أثر .

والحقيقة أن أمر «فيليبس» كان قد اكتُشف بأسرع ممّا كان يعتقد . فالطائرات الثلاث التي أبصرها مراقبوه عند الغسق لم ترَ سفينته قط ، إلاّ أنّه ، في خضمّ الأمواج المتلاطمة ، لم يبصر الغوّاصة اليابانيّة «إ—٥٦» التي كانت قد حدّدت للأميرال «كوندو» ، منذ الساعة ١٣،٤٠ ، موقع القوّة الانكليزيّة . ونُقل الخبر إلى الأسيطيل الثاني والعشرين ، الذي كان



السفينة «اكسبرس» تقترب بجرأة من «البرنس أوف ويلز» المحتضرة وتحاول التقاط بحارتها .

يتأهّب للإقلاع لقصف «سنغافورة» مجدّداً . وعلى الأثر تمّ إبدال القنابل بالطوربيدات في قسم من طائراته ؛ فتدمير «البرنس أوف ويلز» يكسو أولئك الطيّارين ثوباً من الظفر شبيهاً بذاك الذي تجلبب به منتصرو «بيرل هاربور» . لذلك انطلقوا في الجوّ بهمّة وحميّة .

إلاّ أنّ الطائرات عادت تتأكّلها الخيبة ؛ فبعد ما حلّقت فوق بحر خال ، وبعدما كاد وقودها ينفد ، عادت إلى «سايغون» بصعوبة وهبطت في قاعدتها عند منتصف الليل .

في ذلك الوقت كان «فيليبس» ينام بثيابه في غرفة المراقبة في «البرنس أوف ويلز» . فحمل إليه أحدهم رسالة من رئيس أركانه ، الكونتر - أميرال «باليسير» ، وكان قد تركه في «سنغافورة» لتأمين الاتّصال مع الجيش . وقد تضمّنت الرسالة ما يلي : «بلغنا أنّ قوّات العدوّ نزلت في «كوانتان» ؛ ولكنّ الرسالة كانت تخلو من التفصيل ، ومن أيّ تقدير لصحّة هذا الخبر . ولم يكن «فيليبس» بقادر على استعمال اللاسلكيّ لطلب الإيضاحات .

وعاد «فيليبس» إلى حيرته . إنّ «كوانتان» مرفأ صغير على الساحل الشرقيّ ، في قلب الأدغال ، على بعد ٢٥٠ كلم من «سنغافورة» . فالذهاب إليها للاستطلاع يعني تمديد المغامرة المتهوّرة التي كان على وشك الخروج منها من غير أذى . فلو استمرّ في طريقه باتّجاه الجنوب طوال الليل لوصل في الصباح على مرأى من «سنغافورة» ، بينما كانت العطفة نحو «كوانتان» تعني تعريض «البرنس أوف ويلز» للخطر يوماً آخر . ومن جهة أخرى كان وجود اليابانيّين في «كوانتان» يوفّر تعليلاً مقبولاً للرحلة المهيبة الباطلة التي قامت بها القوّة «ي» . كانت تعود أدراجها إلى «سنغافورة» بعد ارتداد مُذِل ، وبعد ما أنفقت ثروة من المازوت ، وهي لم تُسهم في الدفاع عن «ماليزيا» أيّ إسهام . وحتّى لو لم تكن هنالك في «كوانتان» غير سريّة يابانيّة واحدة فقد كان ضروريّاً أن تقوم البحريّة الملكيّة بإفنائها . وفي الساعة ١٢،٥٢ بعد منتصف الليل أمر «فيليبس» بإدارة الدفّة باتّجاه الشرق - الجنوب - الشرقيّ شطر «كوانتان» .

كانت الغوّاصة اليابانيّة «إ - ٥٨» عيناً ساهرة وهي في وضع نصف غائص . إنّها آخر غوّاصة من الغوّاصات التسع التي بسطها الأميرال «كوندو» لتغطية عمليّات الإنزال . وفي الساعة ٢،٤٠ أبصر ربّانها «تانيزاكي» في منفاقه الليليّ شبح «البرنس أوف ويلز» و«الريبالس» . كان البحر مضطرباً ، إلاّ أنّ المسافة كانت ضئيلة ، فاعتزم «تانيزاكي» القيام بالمجازفة . وفجأة انطلقت من صدر غوّاصته باتّجاه سفن العدوّ طوربيداتٌ خمسة ؛ إلاّ أنّ شيئاً لم يحدث ؛ ولم يدوِّ انفجار واحد . فقد كان الحظّ والإغفال مستمرّين في حماية الانكليز : فهم لم يتنبّهوا للأثلام التي تخلّفها الطوربيدات ! وهم لم يسمعوا كذلك لاسلكيّ «تانيزاكي» القريب، الذي كان يقدّم ، مغتاظاً ، لقائده الأعلى ، تقريراً عن اللقاء الذي تمّ وعن الإخفاق الذي تلاه !

كان «كوندو» مع فرقته بعيداً جدّاً عن مكان هذا اللقاء ، فتعذّر عليه أن يتدخّل . ولكنّ كان بإمكان الأسيطيل الثاني والعشرين أن يكرّر المحاولة . وفي غمرة الليل السايغونيّ الثقيل راح الميكانيكيّون يملأون خزّانات الوقود . ونام الطيّارون ساعتين . وقبل بزوغ الفجر ، أقلعت عشر طائرات للاستطلاع ؛ وما أن طلع النهار حتّى كانت ٣٤ قاذفة أفقيّة ، و ٥١ قاذفة طوربيدات ، تقلع بدورها . وكانت الأوامر تقضي بأن يطير كلّ سرب على انفراد على طول خطّ الهاجرة الخامس ، ولا يُصار إلى الرجوع قبل بلوغ خطّ العرض الشماليّ الثاني ، وهو المرحلة القصوى لمدى الطائرات .

في الوقت الذي كانت فيه القاذفات اليابانيّة تجتاز الساحل الهنديّ الصينيّ ، كانت السفن الانكليزيّة تقترب من الساحل الماليزيّ . وأصدر «فيليبس» إلى المدمّرة «إكسبرس» أمراً باستطلاع مرفأ «كوانتان» ، فأتى تقريرها متهكّماً : «كلّ شيء هادىء هدوء يوم أحد يغمره المطر !..» إذاً كان نبأ نزول القوّات اليابانيّة كاذباً ! وحقيقة الأمر أنّ بعض الجواميس اجتاح حقلاً للألغام ، فحملت الانفجارات على الاعتقاد بأنّها كانت قصف مدفعيّة !

لقد زجّ «فيليبس» نفسه في متاهة ، وأضاع ساعات من الظلمة ثمينة في سبيل لا شيء ! فلم يتبقّ لديه سوى العودة إلى «سنغافورة» . ولكنّ حقل الألغام الكبير المزروع بين جزيرتي «تيومان» و «أنانبا» كان يفرض عطفة طويلة نحو الشرق .

إنقطع الصمت اللاسلكيّ في الساعة العاشرة . فمن على بعد ١٧٥ ميلاً إلى الجنوب الشرقيّ أبرقت «التينيدوس» تبلغ بأن تسع طائرات يابانيّة قد هاجمتها وأنّها تسلّلت بين القنابل وواصلت طريقها نحو «سنغافورة» . كانت الرسالة تثبت أنّ قوّات العدوّ الجوّيّة قريبة لدرجة خطيرة ، وأنّ اليابانيّين لم يكونوا بارعين في إطلاق النار . ورجع الأسيطيل الثاني والعشرون بخفّي حنين ، وقد أصاب رجاله الإعياء والإرهاق . فلو أنّ السفن الانكليزيّة كانت في عرض البحر لتمّ العثور عليها ! وأمّا ملازم البحريّة اليابانيّ «تادوميشيما» ، الذي كان يقود طائرة الاستطلاع رقم ٣ ، فقد تبادرت إلى ذاكرته المهمّة الطنّانة التي أرسل الكونتر أميرال «ماتسوناغا» بموجبها الطائرات لمطاردة أحدث بارجة انكليزيّة إذ قال : «إنّها لسانحة ذهبيّة لا تتكرّر...» وها هي السانحة تؤول إلى زوال ؛ فالطائرات كانت راجعة إلى قواعدها ، وكان «ميشيما» يكاد يتلاشى من الجوع والنعاس ، وكانت أوصاله ترتجف برداً ، وبه حاجة ماسّة إلى التبويل . ولكنّه أبقى نظره عالقاً بالبحر بدافع ضميريّ لا أكثر ، إذ أنّ الأسيطيل كان يغادر المنطقة التي يحتمل وجود الانكليز فيها .

وفجأة انتصبت السفن أمامه ! ونسي «ميشيما» على الفور الجوع والبرد والنعاس ، وحاجاته الجسديّة الأخرى ، فانخفض وراح يقترب . يا له من مشهد رائع ! فقد كانت ثلاث مدمّرات تؤلّف مثلّثاً متساوي الأضلاع في وسطه «البرنس أوف ويلز» يتقدّم «الريبالس» . وابتعد «ميشيما» قليلاً ، فيما راح جهازه اللاسلكيّ يبثّ الخبر بأقصى السرعة : «سفن عدوّة كبيرة على مقربة منّي ، خطوط عرض أربعة إلى الشمال ، ١٠٤ درجات ٥٥ دقيقة خطّ الطول الغربيّ ، سفن عدوّة كبيرة على مقربة منّي ...»

وفي الجانب الانكليزيّ أُطلق إنذار الخطر فهبّ كلٌّ إلى مركزه للقتال . لم يكن القلق الشديد مستبدّاً بأحد ، فقد كانت مدفعيّة «البرنس أوف ويلز» قويّة لدرجة تجعل البارجة منيعة . وفضلاً عن أسلحتها الثانويّة ، وعن مدافعها ذات الثماني فوهات ، فقد كانت أوّل سفينة تلقّت آلات القصف الأميركيّة المدهشة الّتي أطلق عليها البحّارة اسم «بيانوهات شيكاغو» ؛ فبطّاريّاتها الأربع ذات الأنابيب الـ ٢٥ قادرة على إطلاق ٦٠،٠٠٠ قذيفة في الدقيقة الواحدة ، فتنصب فوق السفينة قبّة قاتلة . وكان «الريبالس» مجهّزاً بإحدى أفضل قوى المدفعيّة المضادّة للطيران . فعلى الرغم من عدم توافر تغطية جويّة ، لم تكن هاتان السفينتان فريسة سهلة .

وقد كُتب على «الريبالس» أن يتلقّى الهجوم الأوّل ؛ فقد انقضّت عليه من على علوّ ١٥،٠٠٠ قدم قاذفات «ساداو تاكاي» الأفقيّة التسع صابّة عليه حممها . وراح البحّارة القدامى المشمئزّون في «الإليكترا» ينظرون نظرة الخبرة ، وهم يعلمون أنّ القاذفات الأفقيّة تحدث من الضجّة أكثر مما تحدث من الأضرار .

كانت حالة الذهول لا توصف ! وراح البحّارة القدامى يصيحون من القلق ، فقد غاب طرّاد القتال وسط المياه الّتي تعالت كالجبال . لم يطلق اليابانيّون النار من قبل بهذه البراعة قط ، ولم يسبق أن أحاطوا بالهدف بهذه الدقّة الرائعة ! وعاد «الريبالس» إلى الظهور ، فأطلق بحّارة «الإليكترا» هتافات الغبطة . ولكنّ هتافات الغبطة تلك اختنقت في حناجرهم : فقد أُصيب «الريبالس» بجروح ، وتعالى الدخان الكثيف من سطحه المبعوج . وفي قلب السفينة راح المذياع الداخليّ يبثّ أخبار الحريق بنبرة بحّاء . إلاّ أنّ السفينة حافظت على سرعتها . وأعلن الكابتن «تيننت» بلهجة باردة : «أصابت إحدى ضربات العدوّ هدفها ، ولكنّ المدفعيّة ما تزال سليمة ، وما نزال نسيطر على الموقف » .

كان الضابط اليابانيّ «هاريكي إيكي» يقود مجموعة من الطائرات النسّافة ، فانقضّ على «البرنس أوف ويلز» الذي أحاط به لهب «بيانوهات شيكاغو» ، فبات يشبه بركاناً بحريّاً ثائراً. غير أنّ هذه الثورة لم تكن لتجدي نفعاً ، وأتى مفعول الطوربيدين اللذين أصاباه بالغ الأهميّة ؛ فقد تعطّلت الدفّة ومروحتا الجهة اليسرى ، ومالت السفينة ١٥ درجة ، وانخفضت سرعتها إلى ١٣ عقدة .

وتوالت الهجمات ، الواحدة تلو الأخرى ، وسارعت الأسراب تُصلي السفينتين ناراً قاتلة. وراح «الريبالس» ينتفض كالطريدة المحاصَرة ، محاولاً تفادي الضربات ، متعرّجاً في سيره ، محافظاً على سرعته القصوى . وفي الساعة ١٢،١٠ أصابته طوربيدات ثلاثة في آن معاً ، فبلغ انحراف السفينة ٣٠ درجة ، وراحت الحرائق تلتهم أعماقها ، فأصدر الربّان أمره بالتخلّي عنها . وحاول نحو من أربعين بحّاراً النجاة عبر المدخنة الزائفة ، ولكنّهم علقوا داخل الشبكة المعدنيّة الّتي تغطّيها فقضوا نحبهم مفحّمين ! وفي الساعة ١٢،٣٣ انقلب «الريبالس» ومقدّمته إلى السماء ، وغاص غائباً في العباب .

كان «البرنس أوف ويلز» ما يزال عائماً . كانت سرعته قد انخفضت إلى ٨ عقد ، وقد غمرت المياه سطحه الأماميّ ، فاقترب منه «الاكسبرس» بجرأة وباشر التقاط البحّارة ؛ ولكنّ البارجة استمرّت في قتالها ، فاستدرجت دفعة جديدة من القاذفات . وكأنّ «بفيليبس» كان ما يزال يأمل في تخليص سفينته ، فطلب من «سنغافورة» أن ترسل إليه قاطرات لسحبها . كان هذا آخر أمر أصدره الأميرال الذي حلم بالظفر الذي تكلّل به «نلسون» ؛ ففي الساعة ١،٢٠ توارى «البرنس أوف ويلز» حاملاً معه قائده .

لم يفقد اليابانيّون غير أربع طائرات . وحرّك النصر شهامتهم فأبلغوا المدمّرات أنّ باستطاعتها أن تلتقط الناجين . ومن الـ ٢،٩٢١ ضابطاً وبحّاراً كانوا على «البرنس أوف ويلز» و «الريبالس» نجا ٢،٠٨١ وعادوا إلى «سنغافورة» .

ألشّتاء الرّوسيّ
يَضَع الجَيش الألمانيّ على شَفير الهَاوِيَة

فيما امتدّت الحرب إلى المناطق الحارّة كانت معركة القرّ ما تزال ناشبة في «روسيا» . فقد اتّسع الهجوم السوفياتيّ المعاكس أمام «موسكو» ، وكانت القوّات السيبيريّة تشكّل ثلث وحداته العاملة . كان الروس مزوّدين بألبسة محشوّة بالصوف الناعم ، وجزمات من اللبّاد ، وقبّعات من الفرو ، وقمصان بيض يرتدونها فوق معاطفهم الطويلة . وكانت عرباتهم السيّارة كلّها مزوّدة بتلك الهنات الّتي لا غنى عنها في «روسيا» الشتويّة ، ألا وهي السلاسل . أمّا الزيوت فلقد صُنعت خصّيصاً لتحمّل درجات البرودة المنخفضة . وحتّى الجياد كان لها من طاقة الاحتمال والقوّة والصمود ما يثير الدهشة والعجب ، وإن لم يكن لها من القوت غير القشّ المتجمّد الذي تغطّى به سطوح البيوت القرويّة. لقد هبّ الروس يثأرون لأنفسهم ، فأخذت دوريّات الخيّالة تجوب البطاح ، وطفق السعاة الخيّالة يتعاونون على نقل الأوامر ، فيما اضطرّت الثلوج راكبي الدرّاجات الناريّة الألمان إلى الترجّل ؛ هذا فضلاً عن أنّ القرّ قد عطّل أجهزة الاتّصال اللاسلكيّ . وهكذا أثبتت فرق الخيّالة في الجيش الأحمر تفوّقها على الفرق المصفّحة في التحرّك والفعالية .

في شمال «موسكو» ركّزت ثلاثة جيوش من مجموعة « جوكوف » جهودها في وجه المجموعة المصفّحة الثالثة الّتي قادها «راينهارت» بعد حلوله محلّ «هوث» . إجتاز الجيش الثلاثون، بقيادة «ليليوشنكو» ، بحر «موسكو» على الجليد ، وقطع غربيّ « كلين » خطّ التراجع الوحيد الذي كان بوسع «راينهارت» أن يسلكه ، وهو طريق «فولوكولنسك» . وتفشّى الذعر في المؤخّرات الألمانيّة ، وراح الرجال يسيرون نحو الغرب بغير نظام ، وسط العواصف الثلجيّة ، وفي حركة فراريّة رعناء عبر مسافات شاسعة من الفلوات المتجمّدة . وأخضع «بوك» المجموعة المصفّحة الثالثة للرابعة ، وطلب إلى «هوبنر» أن ينجد جاره ، فأطلق «هوبنر» فرقتي الدبّابات الأولى والثانية في هجوم معاكس أسفر عن تطهير طريق «فولوكولنسك» ؛ ولكنّ «راينهارت» أُرغم على التخلّي عن « كلين » لجيش الصدام السوفياتيّ الأوّل ، كما أُضطرّ في ١٤ كانون الأوّل إلى إعادة مجموعته المصفّحة إلى نهر «لاما» . بلغ التراجع بذلك مسافة ١٠٠ كلم ، وتحطّمت الذراع الشماليّة من الكلاّبة الّتي كانت تضيّق الخناق على «موسكو» .

وسواس ١٨١٢ ... «ألا فليعلم كلّ ضابط وكلّ نفر أنّ أيّ تراجع من شأنه أن يجعل الشتاء الروسيّ أخطر من الصمود والمقاومة بمقدار» . (هتلر)



ما كاد «هوبنر» ينتشل «راينهارت» من محنته حتى انقضّ على مجموعته المصفّحة خطرٌ جسيم ؛ ذاك أنّ الخيّالة الروسيّة قد شنّت هجومها على «الموسكوفا» حاملة على جانب الفيلق التاسع ومهدّدة بتطويقه. وازدادت أوضاع ميدان القتال رهبة وهولاً. ذاب الثلج، ثمّ انخفضت درجة البرودة حتى الأربعين تحت الصفر. فإذا بالسهل كلّه ميدان تزلّج يترنّح عليه الرجال والدوابّ والعربات. ولو لم يكن الهجوم الروسيّ، في الواقع، رخواً إلى حدّ، لما خرج من جبهة «إيسترا» البارزة فوجٌ واحد من أفواج المجموعة المصفّحة الرابعة. بيد أنّ الاشتباكات غالباً ما تتوقّف تلقائياً، إذ يغدو شغل الألمان والروس في آخر النهار هو العثور على موقد، حتى ولو في كوخ قد التهمته النيران ودكّته، وذلك كي لا تتجمّد أجسامهم خلال الثماني عشرة ساعة التي تسود فيها الظلمة. تمكّن «هوبنر» من الجلاء عن «إيسترا» واعادة تمركزه على «الروسا». فبلغ بذلك تقهقره من «كراشنايا بوليانا» ١٠٠ كلم أيضاً. وغدت «موسكو» بمأمن.

إحتفظ الجيش الرابع الصامد على «النارا» بموقعه في الجبهة الوسطى. أمّا عن يمينه فقد اضطرّ الجيش المصفّح الثاني (غوديريان) والجيش الثاني (فايخس)، اللذان توغّلا بعيداً إلى الشرق، إلى الانسحاب سريعاً. كانت عمليّة الانسحاب البالغة ١٥٠ كلم طولاً. وفي درجة من البرد تبلغ الثانية والخمسين تحت الصفر، أشبه ما تكون بدرب الجلجلة ؛ فتحطّمت معنويّات الجنود، ولو انّ الاستسلام للروس كان معقولاً لاستسلموا، ولكنّ خوف الوقوع في الأسر كان الحافز المعنويّ الذي



أسرى ألمان في شوارع «موسكو».

ما برح يحرّك الجيش الألمانيّ. أمّا من برّح بهم الإعياء والقنوط فكانوا ينتحرون بالرصاص، أو يتهالكون على الثلج ليموتوا فيه.

تسلّم «غوديريان» قيادة الجيشين، وأخذ يكتب إلى امرأته رسائل حداد في كلّ مساء. كان من الواجب، في نظره، إعادة المجموعة الوسطى حتى الخطوط التي كانت عليها في تشرين الأوّل، لانّ في ذلك اقتراباً من «بريانسك» و «فيازما»، عقدتي الخطوط الحديديّة الوحيدتين اللتين تؤمّنان الاتّصال بالجبهة الوسطى التي يبلغ طولها ١٠٠٠٠ كلم. ولقد بلغ الازدحام عليهما حدّاً قضى معه مئات الجرحى نحبهم وهم في انتظار ترحيلهم ؛ وبات من العسير وصول أكثر من عشر قُطُر في اليوم لتزويد الجيوش.

ولقد شاطرت مجموعة الجيوش «غوديريان» نظرته. فمنذ ٩ كانون الأوّل رسم «بوك» على الخارطة موقعاً شتوياً يمتدّ على مجرى «الأوكا» و «الأوغرا»، ماراً غربيّ «ميدين» وشرقيّ «جياسك» و «رجيف». لم يكن الموقع منظّماً، بل كان جبهة مصغّرة تساعد على صدّ الاندفاع الروسيّ وإيقافه.

بيد أنّ أمراً معاكساً تماماً هو الذي هبط في ١٦ كانون الأوّل من مرتفعات «رستنبورغ» الدافئة: لن يُسمح بالتراجع خطوة واحدة بعد الآن! لن يُسمح بالتخلّي عن بوصة واحدة من الأرض! وقال «هتلر» في أمره: «اعتماداً على ما يتميّز به قوّاد الوحدات الكبرى، ورؤساء الأفواج، والضبّاط، من الاندفاع الشخصيّ، يجب أن تُفرض على الجنود مقاومة عنيدة، حتى ولو داهمهم العدوّ في جنباتهم أو في المؤخّرات. ذاك أنّ السير بالقتال على هذا النحو هو وحده كفيل بكسب الوقت الكافي لوصول النجدات التي أمرت بإيفادها ... ألا فليعلم كلّ ضابط وكلّ نفر أنّ أيّ تراجع من شأنه أن يجعل الشتاء الروسيّ أخطر من الصمود والمقاومة بمقدار. أمّا طيف التراجع النابليونيّ فلا بدّ من طرده نهائياً».

الواقع أنّ الوسواس ما زال مستحوذاً على العقول. فقد رفض «هتلر» الزحف مباشرة إلى «موسكو» لأنّه أراد أن يتحاشى تكرار حملة ١٨١٢. وحين أمر جيوشه بالتوقّف كان ذلك خوفاً من أن تتكرّر المأساة التي أودت «بالجيش الكبير»، جيش «نابوليون»؛ أمّا الأسباب التي يتذرّع بها الآن فذات شأن لا يُستهان به. ذاك أنّ التقهقر الألمانيّ، انطلاقاً من ضواحي «موسكو»، قد رافقته خسارة فادحة في العتاد وخسارة متفاقمة في الأرواح. وماذا يبقى من الجيش الألمانيّ يا ترى فيما لو اضطرّ إلى الانسحاب حتى «الدنيبير» أو «النييمن»؟ سبق لجيش «نابوليون» أن أُتلف من غير أن يواجه معركة واحدة منتظمة، إذ قضى عليه القرّ والمسافات والمناوشات. ولكي لا يعرّض «الفوهور» جيشه لمثل هذا المصير أمر بتسميره حيث هو.

إستولى على قوّاد الجبهة ذهولٌ عميق ؛ كانوا يرون في التراجع وسيلة لتقصير خطوطهم، وحشد أجهزتهم، والإفراج عن قوّات الاحتياط، وإعادة تنظيم وسائل الاتّصال والنقل. وخُيّل إليهم أنّ «رستنبورغ» لم تكن على بيّنة من حقيقة الوضع، وأنّها لا تدرك واقع ما يعانيه الجنود من عذاب وتهرّؤ وعوز، ولا تقدّر كثافة الثلوج، وقساوة البرد، وتفوّق الروس عدداً وعتاداً، والخطر الذي يهدّد الجيوش الألمانيّة بالتفكّك. كان لابدّ من أن يأخذ قائدٌ مطلق السلطة على نفسه قضيّة إطلاع «الفوهرر» على حقيقة الأمر. فإذا «بغوديريان» يتطوّع للقيام بهذه المهمّة من جديد. ولن ينسى «غوديريان» البتّة تلك الساعات التي حلّق فيها فوق السهول التي غمرتها الثلوج: لقد زجّت فيها «ألمانيا» بثلاثة ملايين من الجنود، وها هي تبدو فارغة! كان عيد الميلاد سيحلّ بعد خمسة أيّام، وقد كان مفروضاً أن يشهد العيد عودة الظافرين. فإذا بالجيش الألمانيّ يكافح من أجل البقاء! كان اليوم السابق قد شهد تبدّلاً كبيراً: فقد عمد «هتلر» إلى طرد «براوشيتش»، فغادر المارشال موقع القيادة من غير أن تقام له حفلة وداع، ومن غير أن تصافحه يد. كان «هتلر» في الواقع قد حلّ محلّه، وأضحى منذ ذلك الحين يقود قوّاته البريّة بنفسه من غير وسيط، معلناً ما يلي: «واجب قيادة سلاح البرّ هو بناء جيش قوميّ اشتراكيّ. وبما أنّي لا أرى جنرالاً واحداً قادراً على النهوض بهذه المهمّة، فأنا آخذها على عاتقي».

وثمّة تغيير آخر قد طرأ: فقد انتُزعت قيادة مجموعة جيوش الوسط من «بوك» الذي استبدل «هتلر» به المارشال «فون كلوغي» عدوّ «غوديريان» اللدود. وهكذا أخذت أغصان القيادة الألمانيّة العليا تتساقط في مهبّ الهزيمة!

الكارثة السعيدة ...

في الساعة السابعة والنصف من ٧ كانون الأوّل ١٩٤١ انبثقت الطائرات اليابانيّة من السحب فوق «بيرل هاربور» وراحت تلقي بهدوء حمولتها من القنابل على المطارات والسفن الراسية . ولم تتمكّن المدفعيّة المضادّة للطائرات من الردّ إلاّ عند قدوم الموجة الثانية . إلاّ أنّها لم تحُل دون الغارة الثالثة التي أجهزت على ذلك الأسطول الرائع . واشتعلت النيران طوال النهار ، وأغرقت ١٨ سفينة من أصل الـ ٩٦ ، وفيها ٨ بوارج و ٣ طرّادات . ولقد وصف «ميتسوو فوشيدا» ، قائد الحملة ، العمليّات بقوله : « ما ان أنجزت قاذفاتنا مهمّتها حتى كان ذلك الأسطول المهيب قد ذاب كما يذوب الثلج في وجه الشمس» .



لقد أتى الهجوم على «بيرل هاربور» منسجماً مع التقاليد اليابانيّة من حيث تصميمه وتنفيذه . لقد أمّن هذا الهجوم للامبراطورية اليابانيّة سيادة البحر، ومكّنها بالتالي من احتلال «أندونيسيا». ولكنّه ألّب عليها الشعب الأميركيّ كلّه الذي هبّ إلى النضال وشعاره : «أذكروا بيرل هاربور»!

شدّ ما كانت المقابلة الثانية بين «غوديريان» و «هتلر» شبيهة بالأولى . إلاّ أنّ مأساة «موسكو» أضفت على عين «الفوهرر» تلك النظرة الزجاجيّة الفارغة . التي لن تفتأ حتّى النهاية تؤثّر في الذين يقربون منه . راح «غوديريان» يصف آلام الجنود ، ويلحّ في ضرورة الوصول إلى موقع يسهل الدفاع عنه ، وأخذ على نفسه عهداً بالاستيلاء على «موسكو» في الربيع إذا سلم الجيش . ودفعته الجرأة إلى القول إنّ جماعة «رستنبورغ» لم يدنوا قط من خطّ النار ، وإنّ الواجب يقضي باستبدال حاشية «هتلر» بضبّاط يدركون ماهيّة الحرب في سنة ١٩٤١ . فأجاب «هتلر» بأنّ الجنود وُجدوا ليتألّموا ، وأنّ «غوديريان» مخطىء في الاستسلام للتأثّر ، وأنّ جنود «فريدريك الثاني» أنفسهم كانوا يموتون بلا لذّة ، وأنّ البعد يؤمّن حكماً أصلح على الأمور ، وأنّ الدفاع عن الأراضي المكتسبة واجب بحيث لا يسمح بالتراجع خطوة واحدة ! دام الاجتماع خمس ساعات كاملة بحضور «كيتل» و «جودل» اللذين كانا يهزّان كتفيهما ساخرين لدى كلّ حجّة يقدّمها الرجل الذي أراد لهما أن يتعرّفا على ريح القذائف .

كانت تلك آخرة «غوديريان» ؛ فلن يعود جنرال المصفّحات إلى جيشه إلاّ ليُقال من منصبه بعد أيّام . فإذا به يعود إلى «برلين» مهزوماً في ٣١ كانون الأوّل .

اليوم الأخير من سنة ١٩٤١

شهدت «ماليزيا» يوم ٣١ كانون الأوّل انسحاب القوّات البريطانيّة العامّ . أُخليت جزيرة «بينانغ» رغم استنكار المقيمين البيض الذين لم يفهموا لماذا يرغمهم الجيش البريطانيّ على هجر منازلهم بدل أن يدحر اليابانيّين . إلاّ أنّ أهل البلاد الماليزيّين كانوا أكثر الناس دهشة وذهولاً ؛ ذلك أنّهم كانوا يرون في وجود البريطانيّين وقوّتهم إحدى تلك المعطيات النهائيّة التي كان لها أن تخلد خلود الخضرة في الأوراق . وها هم يرحلون ! ولسوف تنشأ عن تزعزع الإيمان هذا نتائج لا تقدّر .

وفي «اليابان» المستحمّة في الزهو والكبرياء دُعيت السنة المطلّة سنة «السلام السنّي» . ولقد زوّدها الامبراطور بموضوع شعريّ جميل هو :

لقد بادر «غوبلز» إلى جمع أكسية الصوف والفرو ، وأدوات التزلّج ، لإرسالها إلى الجنود في الجبهة الشرقيّة .



«سحابة فوق جبل» . فقد أشرفت القوّات اليابانيّة على إتمام احتلال «ساراواك» ، وهي القسم البريطانيّ من «بورنيو» ، وفي «الفيليبين» ستدخل «مانيلا» غداً ، في اليوم الأوّل من كانون الثاني . أمّا في شبه جزيرة «باتان» الرديئة المناخ فقد أنهى الأميركيّون سنتهم وفي قلوبهم شعور مرير بالخيبة . وفي ٣١ كانون الأوّل هذا عاد «تشرتشل» من «أوتاوا» . كان قد وصل إلى «أميركا» في ٢٢ ، ثم علّق مباحثاته مع «روزفلت» ليزور «كندا» زيارة سريعة . وغداً ، في اليوم الأوّل من كانون الثاني ، سيجري التوقيع على إعلان الأمم المتّحدة المشترك الذي يجعل من فوز مبادىء شرعة الأطلسيّ هدفاً أسمى للحرب الدائرة . ولقد أرخت الحرب ما بينه وبين «روزفلت» من تزمّت الشكليّات البروتوكوليّة . فنزل «ونستون» في البيت الأبيض ، ولم يتورّع عن دفع كرسيّ الرئيس الأميركيّ المتحرّك بنفسه ، وراح الرجلان يتبادلان الزيارات من غرفة إلى غرفة ؛ وإذ فوجىء الرئيس الانكليزيّ يوماً لدى خروجه من الحمّام أعلن قائلاً : «ليس لرئيس حكومة «بريطانيا العظمى» ما يخفيه عن رئيس «الولايات المتّحدة» !» ومع هذا فقد اتّسمت علاقاتهما بطابع الاحترام من ناحية «تشرتشل» الذي كان يقول : «سيّدي الرئيس» ، وبطابع التفوّق من ناحية «روزفلت» الذي كان يقول : «ونستون» . ولا شكّ في أنّ هذه العلاقات الوديّة قد سهّلت سير التحالف ، إلاّ أنّها كانت كذلك تخفي تبايناً كبيراً في وجهات النظر من حيث الفلسفة السياسيّة والنظريّات المثاليّة .

وفي «أفريقيا الشماليّة» شهد اليوم الأخير من ١٩٤١ «رومل» وقد أُعيد إلى موقع «أجدابية» ، الذي منه انطلق لثمانية أشهر خلت لاحتلال «برقة» ؛ فبعد ما فُكّ الحصار عن «طبرق» رأى أنّ انسحاباً طويل المدى يستهلك التفوّق البريطانيّ بتمديد مرحلة توقّف الجيش الثامن . إحتجّ الجنرالان الإيطاليّان «باستيكو» و «غامبارا» على هذه الخطّة المجحفة بحقّ السمعة الفاشيّة . ولقد وجدا سنداً لهما في شخص المارشال «كسلرنغ» ، الذي فُصل عن «روسيا» وسُلّم قيادة المسرح المتوسّطيّ بمجمله . وراح يفرض نفسه خصماً «لرومل» . بيد أنّ ذلك لم يمنع «رومل» من فرض وجهة نظره ، بالتخلّي عن «غزالة» ، «فدرنة» ، «فبنغازي» . لم تكن خسارته ليُستهان بها . ولكنّ فرق «القوّة الأفريقيّة» الثلاث ، أي فرقتي الدبّابات الخامسة والخامسة عشرة ، والفرقة الخفيفة التسعين ، قد سلمت بمجملها . أمّا الأذى الأهمّ فقد لحق بالإيطاليّين الذين فقدوا ٤٨ بالمئة من رجالهم ؛ ولقد وقع القسم الأكبر منهم في الأسر .

وفي «ألمانيا» انتهت السنة بخيبة أمل رهيبة ؛ ففي ٢٢ كانون الأوّل شنّ «غوبلز» ، حاكم «برلين» العسكريّ ، حملة لجمع الألبسة الصوفيّة والفراء ولوحات التزلّج من أجل الجنود في الجبهة . ولم تفلح يقظة الرقابة البريديّة ، ولا العناية التي تُخفى بها ضحايا التجمّد ، في إخفاء الهزائم عن الأهالي ؛ ففقدان «روستوف» ، والتقهقر أمام «موسكو» ، يشهدان بها . هذا وقُطُر الجنود تخترق «ألمانيا» من الغرب إلى الشرق فتزجّ في الجحيم الروسيّ بالنجدات التي سُحبت من الدفء النورمانديّ . وقد أتى عزل «براوشيتش» يزيد الطين بلّة ، ويؤيّد الفكرة القائلة بأنّ أخطاء جسيمة قد اقتُرفت ؛ فأوعز «غوبلز» إلى الأجهزة المختصّة بالتلميح إلى أنّ خطط الفوهرر قد خانها عجز الجنرالات وسوء نيّتهم .

وكان الخبر الأخير الذي تلقّاه سكّان «برلين» في نهاية السنة هو التالي : لقد نزل الروس في «فيودوسيا» في «القرم» . إذاً فإنّ هجومهم المعاكس يشتدّ على الجبهة كلّها بدلاً من أن يتباطأ ويضعف .

في الأدغـــال...



جنديّ ماليزيّ يقف بالمرصاد في أحد الأدغال.

في جحيم الغابات الماليزيّة راحت هذه الدوريّة البريطانيّة تشقّ طريقها بعناء وجهد.



إبتدع الأميركيّون لحرب الأدغال سلاحاً صامتاً يرمي السهام المسمّمة ، وأطلقوا عليه اسم «جو الكبير» . ولكنّه لم يخرج قط عن الطور التجريبيّ .



كثيراً ما كان الجنود اليابانيّون يمتطون الفيلة في «جاوا» وغيرها ، كوسيلة للنقل لا للقتال .



الفصل الرابع عشر

أوّل كانون الثاني - ٣١ آذار ١٩٤٢

تصدّع

من القطب الشمالي إلى « غينيا الجديدة »

في « بروسيا » الشرقيّة انعقدت محكمة عسكريّة في أوائل كانون الثاني ١٩٤٢ ، برئاسة الرايخ مارشال « هيرمان غورنغ » . أمّا المتّهم ، الجنرال كونت « شبونيك » ، فقد حُكم عليه بالإعدام .

كان جرم الجنرال كونت «شبونيك» أنّه عصى «الأمر الأساسيّ» الصادر في ٢٠ كانون الأوّل والقاضي بضرورة صمود القوّات المهاجِمة كافّة في مراكزها ، دون اعتبار خطر تطويقها . ووجد «شبونيك» نفسه في حيرة من أمره بين الأمر الهتلريّ ، والتقليد البروسيّ الذي ينصّب القائد المرؤوس حَكَماً في الأوضاع ، فاختار التقليد . وهو العسكريّ الأرستوقراطيّ . ولم يجرّ قراره هذا إلى أيّة كارثة قطّ . بيد أنّ الفوهرر أراد أن يثبّت سلطانه ، فعلى القوّاد في زعمه أن يطيعوا ، لا أن يعملوا وفقاً لما يقدّرون ويرتؤون .

كان «شبونيك» قد ذاق طعم الظّفر في أيّار ١٩٤٠ . كان يقود الفرقة المنقولة جوّاً التي أرغمت «هولندا القلعة» على الاستسلام في ظرف أربعة أيّام ، وفي «روسيا» أسهم ، على رأس الفيلق ٤٢ ، بخرق برزخ «بيريكوب» . وفيما كان معظم الجيش ١١ يحاصر «سيباستوبول» ، احتلّ شرقيّ «القرم» بما فيه شبه جزيرة « كيرتش » . وشبه الجزيرة هذا مؤلّف من سلسلة تلال جلحاء تعجّ في ثناياها براكين وحل . وهو يغلق بحر «آزوف» بصورة تامّة تقريباً . ولا يخلّف بينه وبين شاطئ « كوبان » غير مضيق سهل العبور يبلغ عرضه ٥ كلم . وأمّا الأهمّيّة التي كان «هتلر» يعلّقها على لسان الأرض هذا فمردّها إلى مجاورته «القفقاس» . إذ لم يكن يفصل « كيرتش » عن «مايكوب» ، وهو أوّل حقول النفط الكبرى ، غير مئتي كيلو متر .

حين غزا الكونت «شبونيك» « كيرتش » كان فيلقه الـ ٤٢ يتألّف من فرق المشاة الـ ٤٦ و الـ ٧٣ و الـ ١٧٠ . إلاّ أنّ «مانشتاين» الطموح كان يلجّ في الاستيلاء على «سيباستوبول» . فاستعاد اثنتين من هذه الفرق تاركاً «لشبونيك» الفرقة الـ ٤٦ وحدها للدفاع عن شرقيّ «القرم» بكامله . وكان الأنصار يزيدون الوضع حرجاً ، فقيما وجد الألمان في «القرم» جماعات مُصادقة ، وجدوا كذلك منظّمات للأنصار مركّزة في سلسلة «جايلا» الساحليّة بين «يالطا» و «فيودوسيا» . وراح الفيلق الجبليّ الرومانيّ يجدّ في أثرهم بدلاً من أن يعمل على تقوية السلك الضعيف الذي مدّه «شبونيك» حول شبه جزيرة « كيرتش » .

شنّ الروس هجومهم يوم عيد الميلاد ، فاجتازوا المضيق الذي اجتاحه الجليد جزئيّاً ، وهم يغوصون حتّى رقابهم في مياهه . وتمكّن «شبونيك» من صدّهم . ولكنّه بات بلا احتياط . وأعلم «مانشتاين» بوضعه ، وطلب منه إذناً بالانسحاب إلى برزخ «بارباتش» الذي كان الدفاع عنه أسهل بكثير . وردّ عليه «مانشتاين» بالأمر الذي أصدره الفوهرر : المقاومة وعدم القيام بخطوة إلى الوراء .

وفي ٢٩ كانون الأوّل وقع حدث بالغ الخطورة : لقد نزل الروس إلى «فيودوسيا» في ظهر الفيلق ٤٢ . لم تكن تلك عمليّة فدائيّة بسيطة ، فقد اشتركت فيها قوّات مؤلّفة من طرّاد ثقيل ، وعدّة سفن قتال ، وأسطول من سفن النقل ، فضلاً عن الجيش السوفياتيّ الـ ٤٤ ، فبات الخطر بليغاً



جنود ألمان في بزّة الشتاء .

بالنسبة لمحاصِري «سيباستوبول»: فهم معرّضون للحجر في «القرم» إذا ما زحف العدوّ بجرأة إلى ممرّ «بيريكوب» البرّيّ الضيّق. وكان الخطر أعظم بالنسبة للفيلق ٤٢ الذي كان مهدّداً بالتطويق. فقرّر «شبونيك» إعادته إلى برزخ «بارباتش»، ونقل إلى «مانشتاين» باللاسلكيّ ما انتهى اليه.

وكانت ردّة فعل «مانشتاين» منسجمة مع «الأمر الأساسيّ». فحظّر على «شبونيك» أن يتحرّك. ولكنّ «شبونيك» كان قد سارع إلى فكّ هوائيّ اللاسلكيّ. فلم يبلغه هذا الأمر. وكان رجاله الـ ١٠.٠٠٠ قد بدأوا يتقهقرون ودرجة الحرارة ٣٠ تحت الصفر. في طريق يغطّيها الجليد: «فالقرم» اللطيفة قد غدت جحيماً. فتجمّدت الأصابع والأنوف بالمئات. وهلكت الخيل. ووجب التخلّي عن المدافع. وكان شبح الأسر يثير الذعر في الرجال، مما حفزهم على اجتياز مسافة ١٢٠ كلم في ٧٢ ساعة. فأفلتوا بذلك من المصيدة التي كانوا قد وقعوا فيها. وراحوا يحاربون لقطع الطريق على تقدّم العدوّ.

جابه «مانشتاين» الخطر بعقله الحازم المعتاد. فأوقف هجوم «سيباستوبول» في الوقت الذي كان فيه الكولونيل «فون شولتيتز» قد بلغ خليج «سفيرناجا» الصغير. وبعد ما سُحبت فرقتا المشاة ٢٢ و ١٧٠. ضُمّتا إلى الفرقة ٤٦، واستعاد الألمان «فيودوسيا». واحتفظ الروس بشبه جزيرة «كيرتش». ولكنّ سانحة الإيقاع بالجيش الألمانيّ قد أفلتت من أيديهم. ولم يضرّ تراجع الكونت «شبونيك» بعمليّة «مانشتاين» المعاكسة، بل خدمها ودعّمها. إلاّ أنّ هذا الواقع لم يحُل دون الحكم عليه بالإعدام لكونه قد عصى أمر «هتلر» بملء إرادته ووعيه.

ولكنّ «شبونيك» لم يُعدم توّاً؛ فقد استبدل «هتلر» حكم الإعدام بالسجن. وبعد مؤامرة ٢٠ تمّوز ١٩٤٤ وجد رجال «الغستابو» قائد الفيلق الـ ٤٢ السابق في قلعة «جيمير شايم»، فأعدموه رمياً بالرصاص من غير محاكمة. وبعد محاكمة الجنرال كونت «شبونيك» بأيّام قليلة أصابت القيادةَ الألمانيّةَ العليا أذيّةٌ أخرى: فقد أُقيل الكولونيل جنرال «هوبنر» من قيادته. وهو قائد مصفّحات ذو شهرة ذائعة لا تفوقها غير شهرة «غوديريان»، وطُرد من الجيش بتهمة «العصيان والجبن».

كانت مجموعة «هوبنر»، التي رُقّيت فعُرفت بالجيش المصفّح الرابع، تواجه ضغطاً عنيفاً على خطّ «الروسّا». فطلب «هوبنر» من القائد الجديد لمجموعة الوسط السماح بتقصير جبهته؛ ولكنّ المارشال «فون كلوغي»، ذلك الجنديّ الصارم المتعصّب الذي كان يتمتّع بشجاعة جسديّة بطوليّة، فيقيم مركز قيادته في أكثر الأماكن تعرّضاً للنار. ويفرد سريره في المخافر الأماميّة، كان يفتقر إلى الشجاعة المعنويّة؛ فردّ على «هوبنر» بأن يتوجّه بطلبه إلى الفوهرر مباشرة. وأمضى «هوبنر» نهاراً كاملاً يحاول الاتّصال «برستنبورغ» بلا جدوى، فما كان منه إلاّ أن أخذ على عاتقه تعديل وضعه بشكل طفيف. كانت القضيّة تافهة للغاية، حتى انّ المستشار القانونيّ للقيادة الحربيّة العليا رفض إقامة دعوى ضدّ الجنرال، غير أنّ «هتلر» وسم هذا الأخير بالرجس وطرده من الجيش محظّراً عليه ارتداء البزّة العسكريّة. ثمّ ردّ على تحفّظات القانونيّين بأن حمل المجلس النيابيّ على إقرار قانون يخوّله سلطات قانونيّة غير محدودة، تخوّله حقّ التصرّف القانونيّ بحياة مواطني «الرايخ» أو موتهم. ولم يخطئ القوّاد في تقديرهم: فأداة الترويع هذه قد هُزّت لهم في الدرجة الأولى.

وتوالت العقوبات القاتمة، فزال ذكر «روندشتاد» و «شتولبناغل» و «براوشيتش» و«غوديريان» و «هوبنر». وبعد وفاة «رايخناو»، على أثر نزيف في الدماغ، نُصّب «بوك» على رأس مجموعة «الجنوب» بعدما أُقيل من مجموعة «الوسط»، ولكنّ علاقاته بالقيادة الحربيّة العليا عادت ففسدت بسرعة. وصرّح المارشال الوقور «فون ليب» بأنّ قيامه بمهامّ القيادة لم يبقَ ممكناً، وأنّه بات عاجزاً عن الاحتفاظ بمسؤوليّة مجموعة «الشمال». فاستُبدل به «فون كوخلر». وأمّا الكولونيل جنرال «شتراوس»، قائد الجيش ٩. فقد تمارض. وقد أُعيد إلى «ألمانيا» قوّاد فيالق وفرق عديدون. وتفاقم بين «هتلر» وقوّاد الجيش الحذَرُ والبغض المتبادلان. وحتّى «كيتل» المتذلّل لم ينجُ من غضبة «هتلر» الذي وصفه بأنّه «حاجب سينما». وفي وجه الجيش النظاميّ فكّر «هتلر» جدّيّاً بإنماء فرق الصاعقة الحربيّة على نطاق واسع.

في البدء كان ينبغي قمع الهجوم الشتويّ الروسيّ. وكان ضروريّاً إنقاذ الجيش الألمانيّ.

كان الوضع بالنسبة لمجموعة الوسط ميؤوساً منه أو يكاد؛ فقد كان «لفون كلوغي» ٦٨ فرقة. موزّعة على جبهة متعرّجة طولها ١.٥٠٠ كلم لم يكن مسموحاً له أن يقوّمها أو يقصّرها. وفي المعسكر المقابل أحصى مكتب استخبارات الجبهة الشرقيّة ١٢ جيشاً سوفياتيّاً. و٨٨ فرقة للمشاة. و ١٥ فرقة خيّالة. و ٢٤ لواء آليّاً. أي ما مجموعه ١٩٠ وحدة كبرى موزّعة بين جبهة «كالينين» التي يقودها «كونييف». والجبهة الغربيّة التي يقودها «جوكوف». والجناح الأيمن للجبهة الجنوبيّة الغربيّة الذي يقوده «ساخاروف». ولم يأتِ برد كانون الأوّل مجرّد موجة عابرة، بل كان طليعة موسم قاسٍ؛ فكانت الحرارة تنخفض يوميّاً إلى ٣٠ درجة تحت الصفر، وغالباً إلى ٤٠، وأحياناً إلى ٥٠. ووُزّعت الثياب الدافئة التي جمعها «غوبلز»، ولكنّها كانت غير كافية وغير مناسبة. وراح تجمّد الانسجة الجسديّة يبيد الأفواج. فكان الثلج يوهن الرجال والبهائم. ويشكّل عائقاً أكبر بالنسبة لأرتال السيّارات التي انخفضت سرعتها إلى كيلومترين في الساعة. وبالنسبة للجنود الألمان جميعاً سيبقى أوّل شتاء في حرب «روسيا» كابوساً رهيباً.

في قلب مجموعة الوسط وُضع الجيش الرابع تحت إمرة الكولونيل جنرال «هاينريتشي»؛ فثبت في مواقعه، إلاّ أنّ مقاومته الجبهيّة كانت تزيد من الخطر على أجنحة جيشه. وكان عليه أن ينتظر النصف الثاني من شهر كانون الثاني، حتى يسمح له «هتلر» بإخلاء المواقع البالغة التقدّم «ككالوغا» و«ميدين». وفي الوقت نفسه أذن للجيش المصفّح الرابع حيث حلّ «رووف» محلّ «هوبنر»، وللجيش التاسع حيث حلّ «مودِل» محلّ «شتراوس»، بالتخلّي عن «روشا» و «فولوكولانسك» والانسحاب إلى «الموقع الشتويّ». إنّ ما حدث في الماضي مع «روندشتاد» قد تكرّر، فعاد «هتلر» إلى تثبيت القرارات التي كان يرفض الأخذ بها والتي حطّم من أجلها قوّاده.

كان «الموقع الشتويّ» مجرّد خطّ مرسوم على الخارطة. فالموقع لا وجود له إطلاقاً. كانت الأرض المجلّدة تحول دون ركم التربة؛ وأمّا نصيحة «هتلر» بإيجاد أقماع تحدثها القنابل فقد أتت وكأنّها سخرية، إذ أنّ تموين المدفعيّة كان ضعيفاً. كانت كلّ فرقة تحتلّ قطاعات تتراوح بين ٢٠ و ٤٠ كلم، بسريّات انخفض عدد رجالها إلى ٥٠، ولذا لم يبقَ أمر إيجاد جبهة متّصلة وارداً. وراحت كلّ وحدة صغيرة تتنظّم بشكل نقطة استناد مغلَقة، محاولةً جهدها أن تحمي بالنار نقط الاستناد المجاورة. أمّا دوائر المؤخّرة، ومراكز القيادة، فقد كانت شبيهة بالقنافذ بتحويلها القرى والمدارس والكولخوزات إلى متاريس. وأمّا مقرّات الجيوش العامّة كمقرّ «هاينريتشي» في «جوشنوف»، فلم تكن بعيدة عن خطر الوقوع في أيدي العدوّ بهجمات مفاجئة. كان الأمن مفقوداً إلاّ في أقصى المؤخّرة، هذا إذا كانت المنطقة تخلو من الأنصار. وكانت الجبهة في الواقع منطقة عميقة تبلغ بين ١٠٠ و ١٥٠ كلم، وكان كلّ من فيها في خطّ النار، من الجنرال إلى الجنديّ البسيط، ومن رامي الرّشاش إلى

ضابط التموين . وقد حصل تراجع الجيش الرابع متأخّراً لدرجة بدا معها أنّ حظّه في النجاة من التطويق بات ضعيفاً . فقد أطبقت عليه كلاّبتان راحتا تتّجهان نحو عصبه الحيويّ ، ألا وهو طريق «موسكو» . وبين ميمنة الجيش الرابع وميسرة الجيش المصفّح الثاني ، حيث حلّ «رودولف شميت» محلّ «غوديريان» ، انفتحت ثغرة واسعة اندفعت عبرها الجيوش السوفياتيّة العاشر ، والخمسون ، والتاسع والأربعون . فلم تلقّ في وجهها غير فرقة المشاة الـ ٢١٦ المستقدمة من «فرنسا» وعلى رأسها الجنرال بارون «فون أوند زوغيلدا» . وجلّ ما استطاعت هذه الفرقة القيام به هو الاحتفاظ بمدينة «سوخينيكي» الصغيرة ، وهي شبكة الخطوط الحديديّة «سمولنسك – كورسك» و «بريانسك – موسكو» . ولكنّ حشوداً سوفياتيّة حاصرتها هناك ، وكانت حشود أخرى تهدّد طريق «روسلافل – جوشلوف» المرصوفة ، وهي حيويّة في نظام التموين الألمانيّ . كان جانب الجيش الرابع معرّضاً كلّه ، فلو انهارت ركيزة «سوخينيكي» لاعتُبر هذا الجيش في حكم المفقود .

ووسط الأنقاض التي تكدّس فيها الجرحى راح «غيلدا» يقاوم بضراوة . وفي سبيل إخراجه من ورطته استدعت مجموعة الجيوش فرقة الدبّابات الثامنة عشرة ، التي يقودها «نهرنغ» رئيس أركان «غوديريان» السابق . واستغرق خروج هذه الفرقة من قطاع «أوريل» ، واجتيازها الـ ١٥٠ كلم التي تفصلها عن قاعدة انطلاقها ، عشرة أيّام من الجهود المتواصلة . عشرة أيّام كانت القيادة الألمانيّة خلالها تتوقّع سقوط «سوخينيكي» ساعةً بعد ساعة .

إلاّ أنّ الهجوم قد أصاب النجاح : فقد تمكّنت فرقة الدبّابات الثامنة عشرة من خرق الدائرة الروسيّة ، وأنقذت فرقة المشاة الـ ٢١٦ ، ثم أعادتها إلى الخطوط الألمانيّة ، وعملت على تقوية الجبهة الركيكة التي تغطّي طريق «روسلافل» . وكما حدث في «القرم» ، لم يعرف الجيش الروسيّ كيف يستغلّ النصر الأوّليّ . ذلك أنّ الطقس كان يؤثّر فيه هو الآخر ؛ فالروس ليسوا بأنصاف آلهة ، فمن جنودهم من تجمّد وهو حيّ ، ومن فرقهم ما شلّها الصقيع كما يشلّ غيرها .

وفيما زال الخطر مؤقّتاً عن جناح «هاينريتشي» الأيمن ، عاد إلى الظهور في الجناح الأيسر ، بشكل أوسع وأقوى ؛ فخطر التطويق الضخم لم يبقَ يهدّد الجيش الرابع فحسب ، بل وكذلك الجيش المصفّح الرابع ، والجيش التاسع ، والجيش المصفّح الثالث ، أي ما يشكّل ثلث القوّات الألمانيّة في «روسيا» .

أتت الضربة من الشمال ؛ ففي ٥ كانون الثاني شنّ الجناح الأيسر من جبهة «كالينين» هجومه ، وكان مؤلّفاً من الجيوش السوفياتيّة التاسع عشر ، والثلاثين ، والتاسع والثلاثين . كان الهجوم يستهدف المؤخّرات البعيدة من مجموعة «كلوغي» : «فيليكي – لوكي» ، «فيتبسك» ، «سمولنسك» ، «فيازما» ، وطريق «موسكو» مع خطّها الحديديّ . وقد ضاهى هذا التحرّك من حيث الشمول أكثر تطويقات الجيش الألمانيّ اتّساعاً ، وكان الهدف السّتراتيجيّ منه تدمير قلب العدوّ تدميراً كاملاً . فالمطمح السوفياتيّ كان موازياً لمطمح «هتلر» : لقد أراد «هتلر» أن يبيد الجيش الستالينيّ بحملة صيفيّة وجيزة ، وها هو «ستالين» يحاول بدوره أن يبيد الجيش الهتلريّ بحملة شتويّة وجيزة ! وإنّنا لنأسف لكوننا لا نعرف اليوم أساس هذا المخطّط المحكَم معرفة أوثق ، لكوننا لا نفقه تماماً بأيّة وسيلة ، وبأيّة جهود ، وبأيّة مآثر رائعة ، تمّ بعث قوى ضخمة كتلك ، وإعادة تنظيمها وتجهيزها . فبأيّة وسيلة انبثق من جيش تشرين الثاني المنسحق جيشُ كانون الثاني الروسيّ الجبّار ، الذي ناهز النصر ، وأشرف على «سفَيْتَة» «أوروبا» بكاملها منذ سنة ١٩٤١ .

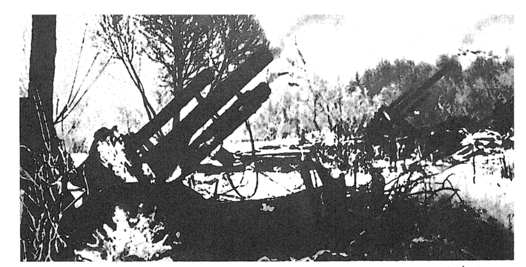
وتحوّل أوّل مجهود سوفياتيّ نحو «رجيف» ، وهي الركيزة الشماليّة للجيش التاسع . ووصل جنرال القوّات المصفّحة «مودل» ، وهو القائد الجديد لهذا الجيش ، إلى المقرّ العامّ في «سيتشيوا» في الوقت الذي كان يتخبّط فيه في غمرة أزمة عارمة ؛ فقد هاجم الروس المقرّ العامّ حيث راح أمناء الأركان ، والحجّاب ، وضبّاط البريد ، يطلقون النار جنباً إلى جنب ؛ وهاجموا محطّة القطار الحديديّ حيث جرى نهب بعض القُطُر المحمّلة بالكونياك ، ممّا ساعد الهجوم المضادّ الذي قام به أحد عناصر فرقة الدبّابات الأولى على النجاح . وأمّا خطّ السكّة الحديديّة ، وهو السبيل الوحيد لتموين الجيش ، والذي كان متشعّباً في «فيازما» على خطّ «سمولنسك» ، فقد بقي في أيدي الألمان . ولكنّ هذا لم يحُل دون تفاقم الأزمة . وحين تولّى «مودل» إمرة الجيش ، بعدما كان لأسابيع خلت يقود فرقة مصفّحة عاديّة ، سأله ضبّاطه وهم قلقون عمّا أتاهم به ، فما كان منه إلاّ أن ضحك وأجاب : «أنا» ! فالقيادة الحربيّة العليا ، وقيادة جيوش البرّ ، ومجموعة الجيوش ، لم يبقَ لديها أيّ احتياط ، فكان على القيادة المحليّة أن تتدبّر أمرها بنفسها .

كان الجيش التاسع محاصَراً من جهات ثلاث ؛ ففي اتّجاه الشرق كان يدافع عن «الموقع الشتويّ» الموهوم متّصلاً على الطريق الكبيرة بالجيش المصفّح الرابع ؛ وفي اتّجاه الشمال كان يحتلّ طرف «رجيف»

دبّابات ومدافع محطّمة ، وجثث ألمانيّة ، في الطريق إلى «موسكو» .





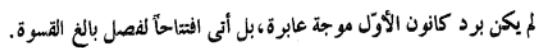


المدفعيّة الألمانيّة تنشط قرب «موسكو» .

الضيّق ؛ وفي اتّجاه الغرب كانت الثغرة الروسيّة ترغمه على تكوين جبهة ثالثة راحت تمتدّ يوماً بعد يوم تحت وطأة تقدّم الجيش السوفياتيّ التاسع والثلاثين . وبلغت الخيّالة الحمراء منطقة «فيازما» ، يعاضدها الأنصار ، واقتربت من الطريق الكبيرة ، فبات الجيش التاسع ، وكذلك الجيش المصفّح الرابع ، مهدّدَين بتطويق شامل .

في ٨ كانون الثاني مدّد الروس هجومهم نحو الشمال ، فاشتركت فيه ميمنة جبهة «كالينين» وميسرة الجبهة الشماليّة الغربيّة ، بما في ذلك الجيوش ١١ و ٢٢ و ٣٤ العاديّة ، وجيشا الصدام الأوّل والثالث . وُجّهت أعنف الهجمات إلى نقطة التحام مجموعتي الجيوش التابعتين «لكلوغي» و «كوخلر» في منطقة بحيرة «ساليجر» . أمّا جيشا الصدام اللذان وجّها الضربة فقوامهما تشكيلاتٌ نخبة ، تمتاز بحسن تموينها وصلابة أُطُرها ، وقوّة عقيدتها السياسيّة . كان السير في هذه المنطقة يكاد يكون محالاً في الصيف نظراً لكثرة البحيرات فيها والمستنقعات ؛ بيد أنّ الشتاء قد جمّد المستنقعات ، وصلحت البحيرات نفسها لمرور الدبّابات بعدما تغطّت بطبقة من الجليد تبلغ كثافتها المتر . ومن هذه المياه المتجمّدة سيشهد الألمان بروز أخطر الهجمات .

كان عيب المخطّط الروسيّ يكمن في مراميه المتباينة ومطامحه الشاسعة . ففيما يخرق الروس الجبهة باتّجاه «فيتبسك» ، تراهم يهاجمون ما بين بحيرة «ساليجر» وبحيرة «إلمن» بقصد احتلال نجد «فلداي» الرازح تحت طبقة مخيفة من الثلوج . هذا ، وفي نقطة أبعد إلى الشمال ، أُعدّ هجومُ ثلاثة جيوش على «الفولشوف» ، الواقع بين بحيرتي «إلمن» و «لادوغا» ، لفكّ الحصار عن «لينينغراد» . وهكذا نرى «ستالين» يسقط في الخطإ الذي سقط فيه «هتلر» ، فيحتقر الخصم بدوره ، ويفتح جيوشه بشكل مروحة ، ويوهن فعلَ الضربات التي يكيلها بمضاعفة عددها . وليس بمحال ، والحالة هذه ، أن يكون الجيش الألمانيّ قد سلم نظراً لهذا الاعتداد .



لم يكن برد كانون الأوّل موجة عابرة ، بل أتى افتتاحاً لفصل بالغ القسوة .



تطايرت الجبهة الألمانيّة شظايا على بحيرة «ساليجر» . وغلُب مجرى «اللوفا» الأسفل على أمره ، رغم مقاومة يائسة صمدت فيها السرايا عدّة أسابيع بعد تطويقها ، وظلّت تقاتل حتى أبيدت . غير أنّ جيش الصدام الأوّل ، بدل أن يبذل في تقدّمه نحو «فيتبسك» أقصى ما لديه من قوّة وسرعة ، استدار نحو الشمال ، فما لبثت الفرقة الآليّة ١٨ أن أوقفته أمام أنقاض «ستارايا روسّا» . وتقدّم جيش الصدام الثالث في أرض خالية أوّل الأمر ، قاطعاً ١٢٠ كلم ، وفتح لنفسه ثغرة بين مجموعة الشمال ومجموعة الوسط ؛ فبادر الجنرال الألمانيّ «شيرر» إلى الاعتصام في مدينة «شولم» الصغيرة الواقعة على مجرى «اللوفا» الأعلى ، حيث أوقف العناصر المتفكّكة وجمعها ثم صهرها بتشكيلات المؤخّرة . وكوّن منها قوّة متباينة العناصر ، التقت فيها أقسام من فرقتي المشاة ١٢٣ و ٢١٨ ، فضلاً عن قنّاصة الألب التيروليّين ، وبعض المتطوّعين الدانمركيّين ، وفصيلة من البحريّة ، وبعض الطيّارين ، الخ . لقد طوّقه الروس فجعل من مدينة «شولم» معقلاً تتحطّم عليه الغارات كلّها . ولم

«روسيا» على الإطلاق . فإذا بها تغدو اسماً لإحدى أطول المعارك وأبلغها دلالة على مسرح الحرب الشرقيّ .

كان للهجوم الروسيّ أن يكمل نجاحه ويُجدي فيما لو اتّجه ناحية منطقة «فيتبسك — سمولنسك» ؛ فلو تمكّن الروس من بلوغها لحاصروا قلب العدوّ برمّته شرقيّ «الدونا» و «الدنيبير» . أتت البداية تبشّر بالخير . إذ استولى جيش الصدام الثالث على «توروبيز» حيث أسهمت مستودعات أجهزة التموين الألمانيّة في تغذية الهجوم بتغذية المهاجمين . فطُوّقت فرقة ألمانيّة كاملة في «بجيلجوي» . وفي نهاية كانون الثاني وصل الروس أمام «فيليكي — لوكي» ، و «نيفيل» ، و «أوسفيستي» ، و «فيليش» ، و «ديميدوف» . بعد زحف دام عشرين يوماً . ولم يبقَ بينهم وبين خطّ «سمولنسك» الحديديّ غير ٣٠ كلم . وبينهم وبين الأوتوستراد إلاّ ما يقارب ضعف هذه المسافة . كاد هجوم «ستالين الشتويّ» يحقّق غايته ! لم يقف بينه وبين تطويق مجموعة جيوش الوسط سوى قوّات النجدة القادمة من «فرنسا» . أي الفيلق ٥٩ بفرق المشاة ٨٣ و ٢٠٥ و ٣٣٠ التابعة



فريق من الكشّافين المتزلجين في «بودكون» ، ٢١ شباط ١٩٤٢ .

يفكّ الحصار عنه إلاّ في أيّار ، بعد صمود دام أكثر من ثلاثة أشهر ؛ لم يكن له خلاله مدفع واحد ، ولم تكن تموّنه غير الطائرات الصامتة .

حقّق الروس تطويقاً أهمّ بكثير على مرتفعات «فلداي» ؛ فبناء «للأمر الأساسيّ» القاضي بالتوقّف والصمود كانت قوّات الاحتلال ، التي تشمل الفيلق الثاني برمّته وأقساماً من الفيلق العاشر ، باقية في مكانها ، حين قام جيش الصدام السوفياتيّ الأوّل بالالتفاف حول النجد . والتقى بالجيش الحادي عشر على «اللوفا» ؛ فلم يبقَ لستّ فرق تعدّ ١٠٠،٠٠٠ رجل ، بإمرة الكونت «بروكدورف — أهليفيلت» ، غير طريق واحدة مفتوحة هي السماء . وهكذا تمّت إحدى أشهر عمليّات التطويق التي عرفتها الحرب ، والتي ستترتّب عليها أعمق النتائج ، بما سيكون لها من تأثير على قرار «هتلر» ، حين تأزف ساعة «ستالينغراد» . كانت «ديميانسك» ، وهي قلب «الفلداي» ، أكلح دسكرة في أفقر مناطق

لقيادة الجنرال «كورت فون در شوفاليري» .

كانت هذه الوحدات قد سُحبت من «بروتانيا» و «نورمانديا» ، وأُعطي رجالها في «بولونيا» مهلة أسبوعين ليألفوا فيها المناخ . وتسلّموا جزمات مبطّنة بالفراء ؛ فلم يتأثّروا بالبرد أوّل الأمر ، قدر تأثّرهم بطابع الضراوة الذي اتّسمت به تلك الحرب . تعجّبوا من أن تكون المحطّات في حالة حصار ، ولكنّهم سرعان ما أدركوا مدى النشاط الذي يبذله الأنصار ، بفضل ما شهدوا من كمّيّة العتاد المتحرّك المسجّى على طول الخطّ ؛ وبتوقّفاتهم التي كانت تكاد لا تنتهي ، والتي لم تُحل فيها مدافىء العربات المحماة حتى التوهّج دون تجمّدهم وهم أحياء . أمّا الترجّل من القُطُر فكان يأتيهم بالدواهي ، فلقد تعرّضت إحدى الكتائب لنار مدفعيّة حامية لدى نزولها من القطار ، على بعد ١٠ كلم من «فيتبسك» ؛ وفيما كان فوج للمشاة يشقّ طريقه إلى «فيليكي — لوكي» ، عبر ثلوج مرهقة ،



«فليكن لكم في حربكم هذه عظة وعبرة تتخذونهما من أسلافكم الميامين ، أمثال «الكسندر نيفسكي» ، و «ديمتري دونسكوي» ، و «كوزما مينين» ، و «ميخائيل كوتوزوف» ...» وبعدما دعا «ستالين» دعوته إلى تقليد الأجداد أردف قائلاً : « وليُظلّكم وليوحّدكم علم «لينين» العظيم ...» وانضوى تحت هذا العلم فتيان في السادسة عشرة من مؤسّسات «الروّاد» الشيوعيّة .

تعرّض لهجوم جانبيّ عنيف أنزل به خسائر فادحة . أضف إلى ذلك أنّ وحدات كثيرة قدمت من «بولونيا» سيراً على الأقدام ، رغم الحاجة الملحّة إليها ، مجتازة أراضي خربة ، وغابات مليئة بالكمناء ، ومدناً مهدومة ليس فيها غير أولاد في أسمال لا يعرفون سوى كلمة ألمانيّة واحدة : خبز . فكانوا لدى كلّ خطوة يخطونها في تلك المفازات الشاسعة المشؤومة يحنّون إلى الجنّة المفقودة ، «فرنسا» !

لم تكن «لكورت فون شيفاليري» إلاّ فكرة غامضة عن الوضع الراهن ، ولكنّه أدرك خطورته ؛ فقرّ رأيه على دفع كتائبه تباعاً لدى وصولها إلى الدساكر المهدّدة ، فكان الجنود يلفون بوادر الانحلال أينما حلّوا : فهنا رجال مشتّتون من غير المحاربين ، وهناك زاحفون تابعون لسلاح الطيران قد تركوا معدّاتهم ومضوا . وطفق رجال هذا الجيش يجمعون فئات صغيرة من الرجال المنهوكين الذين التهم الجليد أنوفهم وآذانهم وأصابع أيديهم وأرجلهم ، وما هم غير بقايا لواء الخيّالة الصاعقة ، وفرقتي المشاة ١٢٣ و ٨١ ، ووحدات قوى الأمن التي فُتك بها في «أوستشكوف» و «أندريابول» و «توروبيز» . كان الروس يتعقّبونهم ، فيشتبكون معهم في معارك طويلة الأمد وسط عواصف الثلج الشباطيّة العاوية . ولكنّ العياء كان يدرك الروس أنفسهم ، فلا يمرّون . وفُرض على مدن «فيليكي — لوكي» و «ديميدوف» و «فيليش» و «بجيلجوي» حصار ضيّق خانق ، وتعرّضت لهجمات عنيفة ، إلاّ أنّها واجهتها بمقاومة صامدة لا تلين . لم يفلح الروس في بلوغ «فيتبسك» و «أوتوبان» ، وأخذ عنف الهجوم الذي شنّوه يتضاءل رويداً رويداً .

بيد أنّه كان لفترة الاستراحة هذه سببٌ آخر ، هو ذاك الظفر الباهر الذي أحرزه «مودِل» غربيّ «رجيف» . كان الزحف الروسيّ البارز من «الفولغا» المتجمّد قد شطر ميسرة الجيش التاسع نصفين ، عازلاً بذلك الفيلق ٢٣ عزلاً تامّاً ، فما كان من «مودِل» إلاّ أن ترك السيل العرم يمرّ ، ثمّ عاد فاستولى على مجرى «الفولغا» ، في ظهر الجيش السوفياتيّ التاسع عشر ، وأعاد اتّصاله بالفيلق الثالث والعشرين ، ثم أتمّ فيلق الدبّابات ٤٦ المطلّ من «زيتشيفكا» تطويق الجيش التاسع عشر . دام القتال من ٢٣ كانون الثاني إلى ١٧ شباط ، في جوّ متقلّب تنتقل فيه الحرارة من حالة الذوبان إلى الدرجة ٥٢ تحت الصفر . وبلغت الهجمات الروسيّة الرامية إلى فكّ إسار الجيش العالق في الشرك عنفاً خارقاً . فتكبّد الألمان خسائر فادحة ، فلم يبقَ من فوج الصاعقة «الفوهرر» المدافع عن «الفولغا» غير ٣٥ مقاتلاً ؛ إلاّ أنّ «مودِل» لم يتح لفريسته فرصة الإفلات ، بل أباد سبع فرق روسيّة . وكال للهجوم الروسيّ كلّه ضربة قضت عليه بالتوقّف . ومع هذا كلّه فقد ترك البلاغ الصادر عن قيادة الجيش العليا في ٢٢ شباط الألمانَ واجمين ، وهم الذين ما زالوا يذكرون بلاغات الظفر ، وأحاديث المغانم الهائلة من الرجال ، التي كانت تذاع عليهم في الخريف السابق : «خلّف العدوّ ٢٧.٠٠٠ جثّة في حومة القتال ، وتمكّنا من أسر ٥.٠٠٠ رجل ...»

هذا ، وفي شماليّ بحيرة «ساليجر» ، أي في قطاع مجموعة الجيوش التابعة «لفون كوخلر» ، شغلت الفصلَ الأوّل من سنة ١٩٤٢ مواقعُ أخرى ضارية عنيدة ؛ في ٢٢ كانون الثاني حمل جيش الصدام الثاني على «الفولشوف» حملة أطاحت الفرقة الألمانيّة ٢١٦ ، وفتحت في الجبهة ثغرة ضيّقة لا تتعدّى ١٥ كلم عرضاً ، بيد أنّ الروس زجّوا فيها عدّة فرق ألّفت في مؤخّرة الخطوط الألمانيّة جيباً ضخماً غير واضح المعالم ، قطع فيه الجنود نصف المسافة التي تفصلهم عن «لينينغراد» ، أي ١٥٠ كلم ، في خمسة أيّام . وشنّ الجيش السوفياتيّ ٥٤ بدوره هجوماً جنوبيّ «شوسلبورغ» وفي نيّته إيقاع الفيلق الألمانيّ الأوّل ، «فيلق بروسيا الشرقيّة» ، ضمن كلاّبة . قليلة هي المعارك التي بلغت من الغرابة والرهبة ما بلغته تلك الاشتباكات التي حصلت جنوبيّ «لينينغراد» ؛ فالغابة تغطّي المنطقة بكاملها ، والأرض المتجمّدة تشبه الحديد صلابةً وانكماشاً ، والسكّان من القلّة بحيث تندر القرى التي يجد الجنود فيها ملجأ . أمّا ضريبة العذاب التي فرضها الزمهرير فمريعة مخيفة ، بدليل أنّ فوج المشاة ٤٢٦ فقد نصف رجاله خلال ساعات ، من غير أن يقاتل ، لسبب واحد هو هبوط درجة الحرارة المفاجىء ، والبرد القارس الذي شوّه الجنود وصعقهم صعقاً .

ومع هذا لم يوفَّق الروس في إنجاز ما قصدوا إليه ؛ فانصرم شباط بكامله ، والأسبوعان الأوّلان من آذار ، في محاولات مبهَمة . أمّا جيش الصدام الثاني ، وقد تعذّر تموينه ، فقد كاد يموت بؤساً في أحراجه الكبيرة ، ولم يتمكّن الجيش ٥٤ من الاتّصال به . وهنا استعاد الألمان زمام المبادرة فقرّروا قطع درب الغاب البسيط الذي يصل «إيريكا» «بشنيز» ، والذي بواسطته يتصّل جيب «الفولشوف» بمؤخّراته ؛ فسحب «فون ليندمان» ، القائد الجديد للجيش ١٨ ، فرقة المشاة ٥٨ ، من القوّات التي تحاصر «لينينغراد» ، ودفع بها إلى الثغرة . ففيما تشنّ هجومها من الجنوب إلى الشمال ، تقوم فرقة الشرطة الصاعقة بهجومها من الشمال إلى الجنوب ؛ ويساند هذه العمليّة ٢٥٠ طائرة تابعة لأسطول الجوّ الأوّل مساندة جويّة لم تعرف حرب «روسيا» لها مثيلاً في الكثافة .

إنّه لمن حقّ هذه العمليّة أن تخلد في التاريخ ؛ فقد جرت في ١٥ آذار ودرجة البرودة قد تدنّت إلى الخمسين تحت الصفر ، وبلغ الثلج المتكاثف في الغابة قامات الرجال . مع ذلك تكلّل الهجوم المزدوج بالنجاح ، فقُطع مَسرب «إيريكا» الحرجيّ ، وطُوّق جيش الصدام



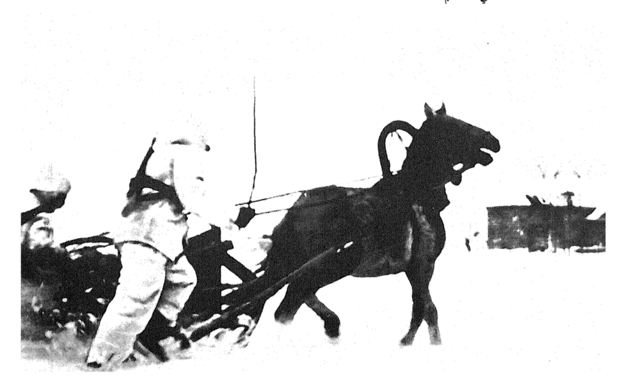
الدرجة عشرون تحت الصفر ... لا بأس !

الثاني . ولسوف ينتج عن هذا النجاح الألمانيّ نتائجُ متعدّدة . منها أنّ «ستالين» . رغبة منه في إنقاذ جيش النخبة . سيبعث إلى جيب «فولشوف» جنرالاً فذّاً . سبق له أن تقلّد عدّة مهامّ بارزة في موقعَي «كييف» و «موسكو» . هو «أندريه أندرييفتش فلاسوف» ...

طُوّق الروس شماليّ بحيرة «إلمن». ولكنّهم طوّقوا في الجنوب. إذ أغلقوا جيب «ديميانسك» في ٨ شباط على «بروكدورف — أهليفيلت» ورجاله الـ ١٠٠٫٠٠٠ و جياده الـ ٢٠٫٠٠٠ . إذ ذاك أُنشئ أوّل جسر جويّ عرفه التاريخ : فقد كان لزاماً على خمس فئات من طائرات يو—٥٢ أن تنقل ٣٠٠ طنّ يومياً وُزّعت على الأساس التالي : للرجال ثلثا حصّة عاديّة . وللأسلحة نصف حصّة . وللجياد ربع حصّة . كانت الحاجة تقضي بتسخير ٨٥ طائرة في ظرف عاديّ . غير أنّ الخسائر والأحوال الجويّة قد فرضت على الأسطول الجويّ الأوّل مضاعفة عدد رحلاته . كان المحاصَرون يعانون آلاماً مبرّحة . ومع ذلك استمرّوا في القتال . وفي ١٥ شباط ألقت القيادة السوفياتيّة في هذا الجيب عدّة كتائب من المظلّيين . فتمكّن الألمان من القضاء عليها . وشُنّت حملة ألمانيّة لفكّ الحصار ولكنها لم تفلح . بل ظلّ جيب «ديميانسك» معزولاً لا يربطه بالخارج غير أسراب الطائرات التي تجتاز الضباب والثلج والمدفعيّة المضادّة . لتحطّ على الأراضي التي عاثت المدفعيّة فيها فساداً . فتنزل حمولتها من صناديق القنابل وأكياس العلف ثم تعود محمّلة بالجرحى .

لم تتوقّف المعارك في أيّة ناحية من نواحي جبهة الصقيع المترامية الأطراف ؛ فلقد تعرّضت ميمنة المجموعة الوسطى للهزّات مراراً . وبخاصّة في ٢٠ شباط . إذ أقدم الروس على استخدام بعض الوحدات

كان الجواد الروسيّ الصغير الحجم الطويل الشعر خير معوان للألمان في شدائدهم .





جهاز واقٍ من البرد على وجه ساعٍ ألمانيّ .

المنقولة جوّاً في محاولة جديدة لفصل الجيش الرابع عن الجيش المصفّح الثاني . وفي وجه المجموعة الجنوبيّة حاول الجيش السوفياتيّ ٤٠ أن يسترجع «كورسك» . كما حاول الجيش ٣٨ استرجاع «خاركوف» .

بيد أنّ الكارثة الكبرى أوشكت أن تقع على مجرى «الدونيتز» خصوصاً . ولقد حملت مذكّرات «هالدر» بتاريخ ٢٤ كانون الثاني . وهو اليوم الـ ٢١٧ من حملة «روسيا» . الهتاف التالي: «أمّا في ما يتعلّق بالجيش ١٧ فالوضع حقّاً خطير !» ففي الوقت الذي بلغ فيه الوضع ذروة التأزّم والخطورة شماليّ «سمولنسك» . تعرّض القسم الجنوبيّ من الجبهة الألمانيّة بكامله للنسف والزوال !

سعت القيادة الروسيّة إلى تحرير «أوكرانيا» الصناعيّة ، فقامت الجيوش ٦ و ٥٧ و ٩ و ٣٧ بهجومها على جبهة بلغ طولها ١٥٠ كلم . ممتدّة من «بلاكليا» إلى «كريمينايا» . فانهارت نقطة التحام الجيش ٦ بالجيش ١٧ الألمانيّين . واندفع الروس في زحف حملتهم إلى مسافة ١٢٠ كلم خلال ثمانية أيّام . ومكّنهم من استرجاع «كراماتورسك» و «برفنكوفو» و «لوزوفايا» ، وربّما خامر قلوبهم أسفٌ شديد لتدميرهم ذاك التدمير الشامل مناجمَ ومصانعَ قد عادوا إليها الآن بعد غياب قصير . وقُطع في «بوستيشيفو» الخطّ الحديديّ « دنيبير وبيتروفسك — ستالينو » . وهو حيويّ بالنسبة لمجموعة جيوش الجنوب . فإذا بمصير الجيوش الألمانيّة هنا . كما في الوسط والشمال . متوقّف على خيط عنكبوت .

أمّا الرجل الذي كان له فضل إنقاذ الموقف فهو المارشال «فون كلايست» . فبعدما جمع تحت إمرته الجيش السابع عشر وجيش دبّاباته الأوّل . أنشأ ثلاث مجموعات مشتركة من المشاة والدبّابات . متزوّداً من جبهة «الميوس» . ثم أفاد من فترة إعياء أدركت القوّات المهاجمة فشنّ هجمات معاكسة مركّزة على فتق العدوّ الذي كانت تخنقه دعامتا «بلاكليا» و «سلافيانسك» . فتقهقر الروس متكبّدين خسائر جسيمة . وهكذا لم تصل منجزاتهم على «الدونيتز» وفي غيره من الميادين . إلى مستوى مطامحهم . إذ أنّهم لم يحسنوا تطوير النجاح الأوّل إلى ظفر مبين .

حان وقت الذوبان . وبدأ معه فصل الوحول الثاني بالنسبة للجيوش الألمانيّة في «روسيا» . فحمل إليها هي فترة استراحة . خلافاً لما فعله فصل الوحول الأوّل ! قد يستطيع الروس أن يقاتلوا في أشدّ أوقات الزمهرير . ولكنّهم . كغيرهم . يعجزون عن القتال عندما تتّسع الأنهار إلى غير ما حدّ . ويستحيل السهل بكامله بحراً من طين . ومهما يكن من أمر . فإنّ تتابع الجهود التي بذلوها منذ عشرة أشهر قد استنفد قواهم .

غنيّ عن البيان أنّنا نفتقر إلى القرارات والوثائق التي قد تمكّننا من معرفة كيفيّة تقدير القيادة والحكومة السوفياتيّتين لمعركتهما الشتويّة . نحن نجهل ما إذا كانتا راضيتين عن تعريض الجيش الألمانيّ لأوضاع سيّئة متردّية شائكة . أو أنّهما قد منّيتا بالخيبة إذ سمحتا له بالانتفاض غير مرّة. نحن نجهل طريقتهم في نقد عمليّاتهم ، أمّا الانتقاد الذي يفرض ذاته في النظرة الموضوعيّة فهو تشتّت الجهود . ويبدو أنّ الروس لم يكونوا قد أدركوا إذ ذاك مبدأ «مركز الثقل» الذي يجب أن يسخّر من أجله كلّ شيء ، فهم يهاجمون على الجبهات كلّها في آن معاً وبشكل حملات متعاقبة . ففيما قُيّد الجنرالات الألمان . بموقف دفاعيّ لا تلين له قناة . يبدو . على نقيض ذلك . أنّ الجنرالات

«لو تعرّض أيّ جيش لما تعرّض له الجيش الألمانيّ لما نجا من المصير المحتوم » .
رتل ألمانيّ للتموين في شباط ١٩٤٢ .



يا له من زيّ غريب ! إنّهم الجنود الألمان في ثياب الثلج .

٢٢ كانون الثاني ١٩٤٢ : المجد للبرد والثلج ليس المجد للآليّات الألمانيّة !

في أبعاد الجليد المترامية لم تهدأ شرّة القتال يوماً . إنّه قتال جيشين أنهكهما الضرّ .
في الصورة : مدفع ألمانيّ مضادّ للدّبابات يجرّه جوادان .

السوفيات قد ألزموا بموقف هجوميّ آليّ . ولقد كلّفتهم هذه المبادرة المستمرّة ، التي رافقت الظروف كلّها ، غالباً ، من غير أن توفّر لهم نجاحاً حاسماً .

أمّا في الجانب الألمانيّ فقد أنقضت معركة الشتاء بشيء من الرضا النسبيّ ؛ فلقد اجتاز الجيش الألمانيّ تجربة ما كان أيّ جيش غيره إلاّ لينوء تحت عبئها ؛ ولكنّ الخسارة كانت ثقيلة فادحة ، إذ بلغت في ٣١ آذار الرقم التالي : ١،٠٧٤،٦٠٧ ، أي ما يعادل ٣٥ بالمئة من العدد الذي دخل الميدان في ٢٢ حزيران ١٩٤١ ، وفيهم ٣٣،٢٢٣ ضابطاً . وقد وُزّعت الخسائر كما يلي : بلغ عدد القتلى ٢٢٣،٥٥٣ رجلاً ، وعدد الجرحى ٧٩٩،٣٨٩ ، وعدد المفقودين ٥١،٦٦٥ ، ممّا يدلّ على أنّ الروس بالرغم من عمليّات التطويق الكثيرة ، لم يوقعوا في الأسر غير عدد ضئيل من الألمان ؛ ذلك أنّ الوحدات المطوّقة التي تفوق معدّل كتيبة قد استماتت في مقاومتها أو ما انفكّت تقاوم ظافرة . كما أنّ التفوّق التكنيكيّ والتكتيكيّ ما زال ميزة الجيش الألمانيّ . ثمّ انّ شيئاً آخر قد تغلّب على محنة الشتاء ، ألا وهو عصمة «هتلر» ! فلقد أثبتت النهاية التي آلت اليها الموقعة صحّة «الأمر الأساسيّ» ، الذي صدر بتاريخ ١٦ كانون الأوّل ، وتجسّدت بذلك عقيدة رسميّة تقول إنّ «هتلر» هو الذي أنقذ الجيش الألمانيّ الذي دهمه الشتاء ببكوره وقساوته ، إذ أوعز إليه بالتزام المقاومة في مواقعه. فلو أنّ أقوال الجنرالات المتخوّفين أخذت بعين الاعتبار ، لقُضي على الجيش الألمانيّ بالانحلال في تراجعه نحو «الدنيبير» و «البوغ» و «النيمن» . وما تمكّن من تحقيق الانتصارات الدفاعيّة التي أحرزها في شباط وآذار إلاّ لأنّ قوّات معادية أضخم كثيراً من القوّات المطوّقة كانت محتجزة حول «ديميانسك» و «شولم» و «فيليش» و «سلافيانسك» وغيرها. ولذا يجب التحرّر من خوف التطويق واعتباره في الغالب مفيداً . ولكن كان لا بدّ من «أدولف هتلر» لتلقين العسكريّين المحترفين مثل هذا الدرس !

عاد الربيع وعاد معه عبق النصر . لاشكّ في أنّ دخول «الولايات المتّحدة» حلبة الحرب قد عدّل الوضع العالميّ ، فانتُزعت من «ألمانيا»

فرصة وضع حدّ سريع للنزاع ؛ بيد أنّ الجيش السوفياتيّ قد استُنزف حتى الدنَف ، وبات تدميرُه الذي أرجأه ، عام ١٩٤١ ، عارضٌ من عوارض المناخ ، مهمّة عام ١٩٤٢ . إذ ذاك يكون «الرايخ» ، المعتمد على موارد «أ كرانيا» و «القفقاس» ، قد استعاد مقداراً من المناعة كافياً لمواجهة الديموقراطيتين الغربيّتين . ستدوم الحرب اكثر مما اعتقده «هتلر» . بيد أنّ النفوذ الهتلريّ سيبقى فيها ظافراً بقاءَ الجيش الألمانيّ حيّاً في الشتاء الروسيّ .

أمّا في «رستنبورغ» فقضيّة واحدة كانت تُعتبر قضيّة الساعة : ألا وهي إعداد العدّة لحملة ١٩٤٢ الصيفيّة .

«رومل» يعود إلى اجتياح «برقة»

كان يمكن أن تثير مأساة الجيش الألمانيّ في «روسيا» خلال الشتاء الثالث للحرب الانتباهَ العالميّ أكثر مما فعلت . لولا وجود شاغلين عظيمين : مآثر «رومل» ، والانتصارات اليابانيّة .

كان «رومل» يبدو ، في رأي الانكليز في بداية ١٩٤٢ ، قائداً منهزماً ؛ لقد أنقذ جيشه بفضل تراجع سريع ، إلاّ أنّه بات لا يملك إلاّ الوسائل التي تمكّنه من قتال المؤخّرات . وكان التفاؤل يسود جوّ أركان الشرق الأوسط العامّة . ومن «واشنطن» أبرق «تشرتشل» إلى «أوكنلك» يعرب له عن خيبته بعدما علم أنّ ٧ فرق ألمانيّة إيطاليّة تمكّنت من «الالتفاف حول الزاوية» والانكفاء إلى مقاطعة «طرابلس الغرب» ؛ فأجاب «أوكنلك» : «هذا صحيح ، ولكن ليس لهذه القوّات من الفرق غير التسمية . فهي متفكّكة ، قد أصابها الإعياء من جرّاء ضغطنا المستمرّ ، ومفتقرة إلى الضبّاط ذوي الخبرة ، وإلى العتاد ؛ فهي ، والحالة هذه ، لا تشكّل البتّة قوّة حربيّة متناسبة مع عددها . »

في ٥ كانون الثاني ، وتحت ستار من سيول المطر الجارفة ، تراجع «رومل» إلى موقع «مرسى بريقة» القصير ، بين البحر ومنخفض «الوادي الفارغ» ، واستقرّ على عتبة «طرابلس الغرب» ليخوض هناك آخر قتال دفاعيّ له . وفي الوقت نفسه قامت حاميات «البردية» و «ممرّ حلفاية» المحاصَرة بإلقاء السلاح . وذرّ الجنرال «شميت» على العلاقات الألمانيّة الإيطاليّة مقداراً آخر من السمّ حين صرّح لمندوب «الديلي هيرالد» أنّه أرغم على الاستسلام لأنّه كان يقود جنوداً إيطاليّين ! ورفع الـ ١٣،٨٠٠ أسير خسائر المحور إلى ٣٨،٠٠٠ رجل ، منهم ١٤،٠٠٠ ألمانيّ ، مقابل خسائر بريطانيّة دونها مرّتين . فعمليّة «الصليبيّ» ، أي إعادة غزو «برقة» ، قد نجحت ؛ وقد أزف الموعد لإعداد العمليّات التي ستتبعها ، وهدفها الأخير هو احتلال «أفريقيا الشماليّة» بكاملها .

إنّ تسلّم زمام المبادرة هذا في المتوسّط كان واحداً من موضوعات المؤتمر الانكلو – أميركيّ الكبير ، المسمّى «أركاديا» ، الذي ابتدأ في «واشنطن» في ٢٣ كانون الأوّل ، واستمرّ إلى أوائل كانون الثاني . وسلّم «تشرتشل» مذكّرة إلى «روزفلت» تضمّنت وجوب شنّ عمليّة في١٩٤٢ لاحتلال مجمل سواحل «أفريقيا الشماليّة» بما فيها «دكار» . وهذا المشروع كان قائماً منذ بداية عمليّة «الصليبيّ» ، في الوقت الذي كانت فيه «انكلترا» تحارب وحدها ؛ أمّا اليوم ، وقد دخلت «أميركا» الحرب فقد باتت إمكانات نجاحه أوسع ؛ ففضلاً عن ٣ فرق تُنقل من «انكلترا» إلى «الجزائر» ، تُنزل «أميركا» ثلاثاً من فرقها في «المغرب الأقصى» . وكان «تشرتشل» يرتجي أن يُنجز هذا المشروع الضخم بنجاح منذ شهر آذار . .

ولكنّ هذه العجلة التشرتشليّة أثارت التحفّظ لدى الأميركيّين ؛ فهم في مأمن تامّ وراء حفرة محيطهم التي ما يزال اجتيازها محالاً . ولذا فهم ينظرون إلى النزاع بغير معطيات الانكليز التاريخيّة . فقد كان الكثيرون يرتقبون حرباً تدوم عشر سنوات ، وقد وُضع منهج تسليح واسع النطاق : ٤٥،٠٠٠ طائرة و ٤٥،٠٠٠ دبّابة في ١٩٤٢ ، ١٠٠،٠٠٠ طائرة و ٧٥،٠٠٠ دبّابة في ١٩٤٣ ، وهلمّ جرّاً . وباشر «مجلس الإنتاج الحربيّ» عمله بإدارة «دونالد نلسون» رئيس المخازن الكبرى «سيرز وروبوك» ، يعاونه «كنودزن» رئيس «الجنرال موتورز» ، والنقابيّ «هيلمن» . ولكنّ تحويل الاقتصاد الأميركيّ من إنتاج السلم إلى إنتاج الحرب كان يقتضي زماناً طويلاً ؛ وفي تلك الأثناء كنت تجد تبايناً صارخاً بين قوّة الأمّة الصناعيّة وضعف تسلّحها . وكمثل على ذلك نذكر «ويك» التي كانت تحميها أربع طائرات ، والغوّاصات الألمانيّة التي كانت تسطو على السفن التجاريّة في مجازر دامية على مقربة من المرافئ الأميركيّة ، الخ . واستشاط الرأي العامّ ثورة ، غير أنّ المسؤولين عن الإنتاج طلبوا إمهالهم ، شارحين العقبات الجمّة التي كان ينبغي أن يتخطّوها قبل أن يتدفّق «منهج النصر» كالسيل العارم .

وكانت الأركان العامّة من جهتها تعارض أيّة مبادرة مبكرة ؛ فقد بقيت تعارض بشدّة كلّ عمليّة ذات أهميّة في منطقة المتوسّط ؛ وقال الجنرال «ستانلي د. إمبيك» : «إنّني لمقتنع بأنّ «أفريقيا الشماليّة» مسرح يلائم الألمان أكثر مما يلائمنا» . وقد أتت سابقة «اليونان» ، وتورّط قوّات بريطانيّة ضعيفة في مواقع خطيرة ، يدعمان الحجج الأميركيّة ، ويضعفان سلطة المسؤول عن هذا الخطإ الفادح وعن هذه الكارثة ، ألا وهو «ونستون تشرتشل» . وأمّا معاضدة «روزفلت» ، التي كانت تمليها اعتبارات شخصيّة أكثر منها عسكريّة ، فقد أمّنت لهذا الأخير مع ذلك نجاحاً جزئيّاً ؛ فقد تمّ الاحتفاظ بمبدإ نزول الأميركيّين في المغرب الأقصى ، إلاّ أنّ تاريخ العمليّة وشكليّاتها بقيت قيد الدرس . وعلى كلّ حال أُعطيت الأفضليّة موقّتاً لعمليّات «ليبيا» ، لأنّ احتلال «طرابلس الغرب» يستلزم من ثمّ نزول القوّات في «المغرب» و «الجزائر».

كان قائد الجيش الثامن جنرالاً شابّاً يدعى «نيل ريتشي» ، وهو ذو قامة مهيبة ، ولكنّه دون قوّاد فيلقه رتبة وخبرة . واعتقد «أوكنلك» أنّه يتّقي هذه العثرة إذا ما أخذ بيد «ريتشي» ؛ كان يرى أنّ الهجوم الجديد يجب أن يكون عمليّة جبهيّة يساندها نزول قوّات وراء خطوط «العقيلة» ، وإذ ذاك تُقطع الطريق الساحليّة ويُطبق على الفيلق الأفريقيّ .

ولكنْ كان يشوب هذه الآمالَ بعضُ الظلال القاتمة . فخلال الأشهر الأخيرة بلغت الخسائر البحريّة الانكليزيّة حدّاً خطيراً ؛ ففي ليل ١٨–١٩ كانون الأوّل ، أُلقي القبض على سبّاحَي قتال إيطاليّين فوق إحدى عوّامات مرفإ «الاسكندريّة» ، ولكنّهما رفضا الإدلاء بأيّ إيضاح عن سبب وجودهما ، حتى بعد ما حُجر عليهما في قعر البارجة «فاليانت» . وبقيا صامتين حتى الساعة الخامسة والنصف ، ساعة دوّى انفجار أعطب ناقلة النفط «ساغونا» ؛ حينذاك أعلما القبطان بأنّ سفينته ستتفجّر في غضون لحظات . وهكذا كان ! فبعد مضيّ ربع ساعة بقر بطنَ «الفاليانت» طوربيدٌ كان ملصقاً بهيكله ، وبعد أربع دقائق كانت «الملكة اليزابيت» ، وهي سفينة الأميراليّة ، تلقى المصير نفسه . أمّا أبطال هذه الغارة فهم ستّة مغاوير يقودون ثلاثة طوربيدات ،

وقد نقلتهم إلى مدخل مرفإ «الاسكندرية» الغوّاصةُ «سكيري» . فتمكّنوا بعملهم من تعطيل سفينتي القتال الوحيدتين الباقيتين في أسطول المتوسّط الشرقيّ . بعدما سبق للغوّاصات الألمانيّة أن دمّرت «أرك رويال» و «بارهام» .

لقد حرمت هذه الطوربيدات البشريّة عمليّات «ليبيا» المساندةَ البحريّة . ثمّ أتى تدعيم إمكانات العدوّ الجويّة يزيد الموقف خطورة ؛ فمنذ قدوم «كسلرنغ» شُلّت فعالية «مالطة» بشكل كامل تقريباً . وباتت قوافل المحور المنطلقة من «نابولي» و «باليرمو» تصل إلى «طرابلس الغرب» من غير خسارة . بفضل المواكبة القويّة . وهكذا فقد سلاح الجوّ الحليف السيطرة على السماء كرّةً ثانية .

وفي البرّ حافظ الألمان على تفوّقهم البشريّ والتقنيّ . لم يكن الجيش الثامن قد حصل بعد على شبيه لمدفع الجيش الألمانيّ ٨٨ . المضادّ للدبّابات وللطائرات . ولم تكن أيّة آليّة من آليّاته ذات شأن يُذكر ؛ فدبّابات «ستيوارت» الأميركيّة الصنع التي تملكها، دبّابات خفيفة. ولم تكن مدافع «الكروسيدر» و «الفالنتاين» و «الماتيلدا» لتتعدّى قط عيار ٣٧ . وهذا ضعيف جداً بالقياس إلى مدافع «ب ز ك ٣ و ٤» التي هي من عيار ٥٠ و ٧٥ . وتجدر الإشارة إلى أنّ الدبّابات الألمانيّة . التي كسفتها في «روسيا» الدبّاباتُ السوفياتيّة «ت ٣٤» . بقيت في «أفريقيا» سيّدة الساح في وجه الدبّابات الانكليزيّة .

وكان آخر عنصر من عناصر الضعف كامناً في ضعف قوّات الشرق الأوسط بسبب حرب المحيط الهادىء . كانت فرقة المشاة الـ ١٨ في طريقها إلى «مصر» . وما لبثت أن وُجّهت شطر «سنغافورة» . مع القافلتين «و س ١٤» و «وس ١٢٢» اللتين تقلاّن فوجين مضادّين للطائرات وفوجين مضادّين للدبّابات . وسُحب من «أوكنلك» ١٨ سرباً و ١٠٠ دبّابة ، أمّا الفيلق الأوستراليّ ، المؤلّف من فرقتي المشاة ٦ و ٧ ، فقد كان في طريقه إلى بلاده تحفّ به المهالك . وهكذا تضاءلت طاقة القوّات البريطانيّة المكلّفة بالقضاء على «رومل» بشكل ملموس .

إلاّ أنّ «أوكنلك» و «ريتشي» لم يكونا قلقين إزاء هذا الوضع ؛ فقد راحا يعملان على إعادة تجهيز الجيش الثامن بهدوء تامّ ، استعداداً للمجهود الهجوميّ الجديد . كانت القوّة الوحيدة المشتبكة بالعدوّ هي لواء الحرس المصفّح الـ ٢٢ . الذي ذاق الأمرّين يوم ٢٩ كانون الأوّل . وإلى الوراء . في «الجبل الأخضر» ، استُبدلت بالفرقة المصفّحة السابعة الفرقةُ الأولى القادمة من «انكلترا» ؛ والتي لم تكن قد خاضت أيّ قتال قطّ . وكانت الفرقة الهنديّة الرابعة موزّعة حول «بنغازي» . أمّا الوحدات الكبيرة الأخرى فقد كانت تستعيد قواها في منطقة «طبرق» . وكانت المعلومات الصادرة عن «طرابلس الغرب» ، والتي ثبّتتها شائعة منطلقة من «روما» ، تقول إنّ «رومل» يستعدّ للجلاء عن «العقيلة» . وإنّ الانفجارات المنبعثة من خطوط العدوّ تشير إلى أنّه يفجّر العتاد الذي يتعذّر نقله . وخُيّل للأركان البريطانيّة أنّه سيتراجع حتى مدينة «طرابلس الغرب» ، فأسفت لهذا التراجع الذي كان يعني تأجيلاً لمعركة الإبادة التي كان البريطانيّون يخطّطون لها .

في ٢١ كانون الثاني كان «نيل ريتشي» في «القاهرة» ، فبلغه أنّ رتلين ألمانيّين إيطاليّين قد خرجا من موقع «مرسى بريقة» ، الأوّل عبر طريق «بالبيا» ، والثاني على طول «الوادي الفارغ» ؛ فتهلّل لهذا النبإ ، وعلّق عليه بأنّ العدوّ يحاول تغطية انسحاب الفيلق الأفريقيّ تحت مظهر من مظاهر القوّة ، وهو لذلك قد أخرج عنقه من محاره . إنّ العناية الإلهيّة قد أوجدت هذه السانحة لضرب العدوّ بلا هوادة !

لم يخطىء «أوكنلك» الحكم حين قدّر أنّ وضع «رومل» كان حرجاً ؛



«رومل» المغلوب على أمره كما كان الانكليز يظنّون في مطلع ١٩٤٢ .

فقد رُفعت قيادته إلى مرتبة «جيش مصفّح» ، فيما بقيت تسمية «الفيلق الأفريقيّ» سارية على مجموعة فرقتي الدبّابات ٥ و ٢١ بقيادة الجنرال «كروفيل» . إلاّ أنّ إطناب هذا اللقب لم يكن ليغطّي عجز الجهاز ؛ فقد تدنّت العدّة الألمانيّة إلى ١٢،٥٠٠ رجل ، وكانت العدّة الإيطاليّة تبلغ ضعف هذا العدد ، بيد أنّ الفرقتين الوحيدتين اللتين كانتا تحت إمرة «رومل» المباشرة ، وهما الفرقتان الوحيدتان الصالحتان لحرب الصحراء ، كانتا فرقتي الفيلق السريع العشرين ، «أريبتي» و «تريستي» ، بقيادة قائد المصفّحات الممتاز الجنرال «زنغاليس» . وكان القائد الأعلى في «أفريقيا» هو إيّاه ، «باستيكو» المُعادي ، ولم يكن «رومل» ليتوقّع معاونة المارشال «كسلرنغ» ، القائد الألمانيّ الأعلى في المتوسّط ، لإصلاح ذات البيْن بينه وبين الإيطاليّين .

لم يكن لدى «رومل» غير حفنة من الرجال والآليّات ؛ إلاّ أنّ إحدى القوافل التي وصلت سالمة زوّدته بـ ٥٤ دبّابة من طراز «ب ز.ك و. ٣ و ٤» فارتفع عدد دبّاباته إلى ٢٧٠ ؛ وقد مكّنته ، فضلاً عن ذلك ، من تجديد احتياطه من الوقود . ويوم ١٣ قال «رومل» لضبّاطه بعد ما أمضى ليلته مكبّاً على خرائطه : «أيها السادة سوف نشنّ الهجوم» . فهل كان هذا القرار مسّاً من الجنون ؟ كلاّ ، إنّه لقرار حكيم . فقد نقل اللاسلكيّ إلى «رومل» نبأ تشتّت القوّات البريطانيّة ، وكان يعلم بأنّ تلك الفرصة لن تعود . فبقاؤه في وضع دفاعيّ كان يعني الرضوخ للهزيمة ، أمّا الهجوم فقد كان يوفّر حظّاً في الصمود في «أفريقيا الشماليّة» ريثما تدرك القيادة الحربيّة الألمانيّة العليا أهميّة المسرح المتوسّطيّ ، فتجنّد له القوّات الملائمة .

كانت السماء تساند الألمان ؛ فقد هبّت عواصف رمليّة حجبت استعدادات الهجوم ، ولذا أتت المفاجأة شاملة : فقد أبيد اللواء الـ ٢٢ عن بكرة أبيه ، ودخل «رومل» إلى «الجبل» متّجهاً نحو شبكة طرقات «مسوس» وفي نيّته تطويق الفرقة المصفّحة الأولى ؛ واغتاظ «باستيكو» لكونه قد ظنّ كما ظنّ الباقون أنّ العمليّة كانت عمليّة تراجع فحسب، ولكونه لم يُستشر في الموضوع ، فأمر «رومل» بالعودة إلى خطوط «مرسى

بريقة» . وإذ وجد أنّ أوامره لم تصب أذناً صاغية لجأ إلى «كافاليرو» رئيس الأركان العامّة . وحصلت بين «كافاليرو» و «روميل» مشادّة عاصفة ؛ فأعلن «روميل» للمارشال الإيطاليّ أنّه سيواصل الهجوم ما وسعته قوّته ، وأنّ الفوهرر وحده يملك السلطة في أمره بالتوقّف ؛ وأجابه «كافاليرو» بأنّه يسحب منه قوّاته الإيطاليّة ، فردّ «روميل» بفظاظة قائلاً إنّه بغنى عن مساعدتها !

وكان الشقاق مخيّماً عند الانكليز أيضاً . كان «غودوين — أوستن» ، قائد الفيلق الـ ١٣ ، قد أمر بتراجع معجّل ، غير أنّ «ريتشي» نقض هذا الأمر لعدم اقتناعه بأهمّية الهجوم . أمّا الفرقة المصفّحة الأولى ، السيّئة التوجيه والتكييف ، والّتي كانت أعاصير الرمال وزوابع الشتاء تخنق أنفاسها ، فقد مُزّقت إرباً . وانقضّ «روميل» على «بنغازي» .



في «ماليزيا» : مدفع أوسترالي يطلق النار عن قرب على دبّابة يابانيّة . وفي الوقت الذي التُقطت فيه هذه الصورة كان هذا المدفع قد دمّر ستّ دبّابات عدوّة .

مجتازاً الصحراء العاتية الّتي تحيط بها ، فدخل المدينة وسط عاصفة من التهليل قابله بها سكّانها . وأُسر في المعركة لواء هنديّ ، وراحت النار تلتهم كمّيات هائلة من العتاد المدّخر ، وتراجعت القوّات البريطانيّة بلا نظام متخلّية عن منحدر «درنة» ، ثم استقرّت بعد ذلك في «غزالة» على بعد ٥٠ كلم من «طبرق» ، لأنّ المنتصر عجز عن اللحاق بها لنفاد وقوده.

وبهذا يكون احتلال «برقة» الغربيّة بكاملها قد تمّ ثانية ، ولم تكن هذه البادرة غير جانب من النصر الألمانيّ . وقد كان من نتائجها البالغة الأهميّة تجميد المخطّط الحليف المتعلّق «بليبيا» ، وتأجيل نزول القوّات الانكليزيّة الأميركيّة في «المغرب» و «الجزائر» إلى أجل غير مسمّى . وقد دوّن «غوبلز» في يوميّاته ، وقد تملّكه العجب : « إنّ انتصارات «روميل» الأخيرة مدهشة ... » واتّخذت الإجراءات اللازمة لجعل انتصار «بنغازي» يغطّي على معارك «ديميانسك» و «خاركوف» في «روسيا» .

سُقوط «سَنغافورة» ، إحدى دَعائم الغَرب .

كان للانتصارات اليابانيّة من الطنين والرنين ما لم تبلغه انتصارات «روميل» . فلقد أثارت الاضطرابَ عند النازيّين أنفسهم . فأخذ العنصريّون الألمان يتساءلون عمّا إذا كان الشعب اليابانيّ الملوّن هو الذي سيكون الفائز الأكبر في تلك الحرب . دخل آخر البريطانيّين حصن «سنغافورة» مع إشراقة شمس ٣١ كانون الثاني . فسار على جسر «جوهور» الرجال التسعون المتبقّون من كتيبة «أرجيل» بخطاهم الموزونة . يتقدّمهم نافخان في مزمار يعزفان أحد أناشيد «الهايلاند» . وسار الليوتنان كولونيل «ماك ستيوارت» في المؤخّرة ؛ وما كاد يتوارى حتى دوّى على أعقابه انفجارٌ عنيف . فغمرت المياه المزبدة الثغرةَ المفتوحة في الطريق . وعادت «سنغافورة» من جديد جزيرة ... إلاّ أنّ عرض الثغرة ما كان يبلغ ٥٠ متراً . وما كان عمق الماء الذي يغمرها في فترة الجَزْر ليبلغ أربع أقدام .

كان جسر «جوهور» في الأيّام السابقة قد شهد إحدى عمليّات الرحيل الّتي تسبّبها الحروب في العالم . فتدفّقت مئات الألوف من الأشخاص من «ماليزيا» المتعدّدة الجنسيّات . جموعاً غفيرة . اختلط فيها الأوروبيّون والماليزيّون . ولقد نتج عن ذلك ازدحامٌ مريع ؛ ففي الأحياء الخاصّة بأهل البلاد راحت الجماهير تنام في العراء . وشحّت الموادّ الغذائيّة حتى قبل أن يبدأ الحصار . كانت عمليّات القصف الجوّيّ تودي ببعض الضحايا . أمّا المحاولات الّتي بُذلت لحفر الملاجىء فقد اصطدمت جميعها بظهور الماء على عمق متر واحد . وطفقت رائحة الحصار المنبعثة من الجموع السيّئة الاغتسال . ومن الجثث السيّئة الدفن . تملأ جواء «سنغافورة» .

لم يكن للحملة الّتي نقلت الجيش اليابانيّ الـ ٢٥ من برزخ «كرا» إلى مضيق «جوهور» في مدى ٦٥ يوماً ما يفسّرها ؛ كان اليابانيّون دوماً أقلّ عدداً من خصومهم : فقد نزلوا إلى البرّ بـ ١٢ كتيبة . فيما كانت حامية «ماليزيا» تعدّ ٣١ . ولقد ارتفعت القوّات اليابانيّة بعد ذلك إلى ٣٠ كتيبة بدخول فرقة «كونوي» للحرس حلبةَ القتال ، ولكنّ الانكليز تلقّوا من ناحيتهم نجدة مؤلّفة من ١٥ كتيبة . غير أنّ هذا التفوّق العدديّ الدائم لم يجدِ فتيلاً ؛ ففي معركة «جيترا» مثلا تمكّنت طليعة يابانيّة من كتيبتين ، بإمرة الليوتنان كولونيل «ساكي» ، من دحر الفرقة الهنديّة ٢٧ بكاملها ، فاستولت على ٥٠ مدفعاً وأسرت ٣،٠٠٠ رجل . ولم يكلّفها ذلك أكثر من ٢٧ قتيلاً . لم تكن السيطرة الجوّيّة والدبّابات لتفسّر وحدها هذه الظاهرة الفريدة ، إذ كانت المعنويّات هي العامل الحاسم . فقد كان اليابانيّون يزحفون إلى النار وكأنّهم سائرون إلى احتفال دينيّ ، حتى أنّ كلّ فوز يحرزونه ، وكلّ ضحيّة تسقط منهم يثيران موجة من النشوة والحميّة تعبّر عنهما سيول من الدموع . فالحرب في نظرهم جهاد دينيّ ، وثأر لكبرياء جريح ، يزول معها التعب ، ويتخدّر الخوف ، ويغدو فيها الموت شركة واتّحاداً ، والجيش كتلة من الإيمان متراصّة مكتسحة .

ولكنّ الإيمان نفسه بحاجة إلى ما يغذّيه ؛ فاحتلال «ماليزيا» ما كان ممكناً لولا مخزونات «تشرتشل» ، وهي التسمية الّتي أطلقها اليابانيّون العارفون بالجميل على الشاحنات والمدافع والمؤن والذخائر والمحروقات الّتي كانوا يستولون عليها . ففي «جيترا» جمعوا مؤونة ثلاثة أشهر ، وفي «ألور ستار» تحلّق قوّادهم المتضوّرون جوعاً حول مائدة الطعام الساخن في المطعم العسكريّ البريطانيّ . وهبطت طائراتهم على أرض المطار

التشرتشلي" فوقعوا على مئات من صفائح البنزين من عيار ٩٢ درجة أوكتان ، وعلى مخزون من القنابل ما كان عليهم غير نقله إلى طائراتهم! وتكررت هذه الحادثة بانتظام ، مما جعل اليابانيين يكادون لا يعتمدون الآن إلا على التموين الذي يزودهم به العدو . وقد ساعدهم في ذلك أمرٌ أصدره مقرّ القيادة البريطانية العام يمنع فيه تفجير الذخائر المخزونة وإحراق المخازن ، بسبب الذعر الذي يستبدّ بالجنود الهنود عندما يرون ألسنة اللهب تشبّ وراءهم ، أو يسمعون الانفجارات تدوّي في أعقابهم !

كانت مشكلة النقل تقلق القيادة اليابانية ؛ فقد حسبت حساب قطع الطرقات والخطوط الحديدية ، فألحقت بجيش الحملة ستاً من كتائب بناة الجسور وفوجين من أخصائيي الخطوط الحديدية . وأدار العمليات ضابطٌ ضخم من ضباط الأركان هو الكولونيل «هوندو» ، وكان يعرج كثيراً بسبب التواء أصابه في رجله لدى نزوله في أمواج «سنغورا» . إلا أن المصاعب قد هانت بفضل شاحنات «تشرتشل» التي توافر منها عدد كبير، حتى ان الفرقة الخامسة المتحركة زُوّدت بثلاثة أضعاف ما يحق لها مبدئياً . وكل ما لم يجرِ على عجلات أربع جرى على عجلتين ، بفضل الدراجات المستوردة من «اليابان» الموجودة هناك ، فراحت كلها تدرج على زفت «تشرتشل» الممتاز ! وهكذا اندفع جيش مشاة الغزو أفواجاً من راكبي الدراجات ، وكأنهم الدراجون المرحون في يوم أحد يغنّون ويصفّرون ويثرثرون !

ومع هذا لم يساور القلق «سنغافورة» ! فما حصل على القارة كان منتظراً ، مع أن السرعة فاقت ما كان في الحسبان . أما الشوط الحقيقي ، وهو الحصار ، فقد بدأ الآن . من المؤسف حقاً أن تقضي الظروف بنسف القاعدة البحرية — التي تبلغ قيمتها ٦٣ مليوناً من الجنيهات!— وبترحيل الموظفين الأخصائيين إلى «سيلان» ، وبإغراق الحوض العائم ، وبنسف الحوض الثابت ، وبإحراق مستودع الذخيرة ؛ ولكن قلعة «سنغافورة» بقيت سليمة منيعة . ففي أول شباط ، وهو يوم الاحتلال ، كان كوكتيل «الرافلز» أكثر ازدحاماً بروّاده من أي يوم مضى ، وكان الناس منصرفين إلى الرقص في «تانغلين كلوب» ، شأنهم في ذلك شأن كل مساء .

في «لندن» تمزّق الوهم السنغافوري فجأة في ٢٩ كانون الثاني ؛ فلقد وجد الجنرال السير «هنري إسمي» ، مدير غرفة «تشرتشل» العسكرية ، سيّده يرغي ويزبد حيال رعونة العسكريين ، مطلقاً لعنات وشتائم تليق «بأدولف هتلر» ! ذاك أن برقية من السير «أرشيبالد ويفل» ، الذي حلّ محلّ «بروك — بوبهام» في قيادة جنوبي شرقي «آسيا» ،



أنت تنبئه بأن «سنغافورة» موقع لا يمكن حمايته . ثار «تشرتشل» ثورة عارمة . إذ كيف أمكن إنفاق ٦٣ مليوناً من الجنيهات لبناء حصن هو بمثابة سفينة لا قاع لها ؟ كيف أمكن الاكتفاء بتجهيز «سنغافورة» بمدافع لا تتجه إلا ناحية البحر ؟ ثم كيف مرّ على بدء العدوان ثلاث سنوات من غير أن يفكر أحد القواد بإنشاء تحصينات الميدان ، أو بحفر خندق مضاد للدبابات ، أو بلغم المضيق ، أو بنصب الفخاخ في المستنقعات ؟ فها هم اليابانيون يصلون بأقصى سرعة بعدما استولوا على «كوالا لامبور» عاصمة دول «ماليزيا» الاتحادية . ولقد غدوا على مقربة من سلطنة «جوهور» ، وباتوا على وشك مهاجمة «سنغافورة» . وما أدراك ما «سنغافورة» ؟ إن هي إلا جزيرة عارية !

كان «تشرتشل» مصيباً . ولكن الاستنكار لا يجدي فتيلاً . لقد باتت «سنغافورة» بحكم المفقودة . فهل من المعقول أن يضحّى بجيش «ماليزيا» كله لتمديد الدفاع عنها بضعة أيام ؟ أيجوز ، والحالة هذه ، أن يزجّ فيها بقوات جديدة — إذا صحّ اعتبار الفرقة الـ ١٨ المنكودة جديدة — بعدما تقاذفتها الأمواج طوال ثلاثة أشهر في محيطين اثنين ؟ لا شك أن الواقعية كانت تقضي بترحيل ما أمكن من القوات بحراً ، وبنقلها للدفاع عن «برمانيا» ، مدخل «الهند» وباب تموين «تشانغ كاي تشك» . ولقد أذعن «تشرتشل» لهذا الحل .

أما من عارضه فهو «جون كورتن» ، رئيس الوزارة الأوسترالية الجديد ، وأحد أقطاب حزب العمال المعروفين بتصلبهم . كان قد تجاسر فنشر في صحيفة «ميلبورن هيرالد» مقالة أعلن فيها أنه لم يبقَ بوسع «أوستراليا» أن تعتمد على وطنها الأم القديم لشدّ أزرها في الدفاع عن نفسها ، وأن عليها بالتالي أن تتجه ناحية «أميركا» . ولما أُبلغ بمشروع الجلاء عن «سنغافورة» أبرق إلى «تشرتشل» يقول : «إن معنى ذلك الخيانة لا توصف ...»

وعادت السياسة تعطّل مفعول الستراتيجية ؛ الواقع أن «تشرتشل» ما كان يرغب في نشوب نزاع بينه وبين محميات المقلب الثاني من الكرة . فتراجع من أجل ذلك ، وخوفاً من موجة السخط التي قد يثيرها في «انكلترا» أمرُ التخلي عن «سنغافورة» ؛ ذاك أن وهم المناعة وأسطورة الحصن المنيع كانا ما يزالان شديدي السيطرة على أذهان العامة . فيما لم يكن على بيّنة من حقيقة الأمر غيرُ أعضاء الوزارة الحربية وحفنة من الخبراء . وما لبث «تشرتشل» أن قرّر ؛ فمجد «انكلترا» مدين لهزائمها ؛ بقدر ما هو مدين لانتصاراتها . في «دنكرك» حُوّلت الكارثة إلى عملية إنقاذ مدهشة . ولسوف يجري عكس ذلك في «سنغافورة» : سوف يستمرّ القتال فيها حتى النهاية ، فيتسنى للعالم أجمع أن يشهد الأسد البريطاني يقاتل في سبيل الشرف !

أشارت الأوامر المتعلقة بوجوب الدفاع عن «سنغافورة» صراحةً إلى أن احتمال الاستسلام غير وارد إطلاقاً، وإلى أن الواجب يقضي بأن يموت المدافعون تحت أنقاضها . وما مضى على هذا القرار الملحمي خمسة عشر يوماً حتى نشبت موقعة «سنغافورة» ، وهي إحدى أشهر مواقع الحرب على الإطلاق .

إرتفعت سحب ضخمة من الدخان تمزّقها ألسن من اللهب القاتم فوق مستودعات الوقود المشتعلة ، وتساقطت ثلوج دكناء محرقة بلا انقطاع . وحين تنفجر العاصفة اليومية تنهال على ميدان القتال سيول من الحبر وتغور في أقنية «سنغافورة» وسراديبها العميقة . ولا يتمالك ممثلو هذه المأساة من الضحك إذ ينظرون بعضهم إلى بعض : فإذا بهم جميعاً ، مدافعين ومهاجمين ، عسكريين ومدنيين ، أوروبيين وأسيويين ، زنوج سوّدهم السواد الهابط من السماء .

مِنَ القصفِ إلى الاستسلام: صُوَر «سنغافورة»





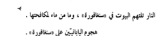
قبل الغارة على «سنغافورة» وقف هذا الطيّار الياباني يثبت على خوذة زميله شارة «الشمس الشارقة».



شبّت الحرائق على أثر الغارة. ويبدو هنا الحيّ الأوروبيّ وقد غشّاه الدخان المتصاعد من خزّانات الوقود.

الغارة على «سنغافورة». أمّا الصينيّون الذين يؤلّفون تسعة أعشار السكّان فقد كان عدد قتلاهم مرتفعاً.





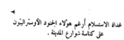
النار تلتهم البيوت في «سنغافورة»، وما من ماء لمكافحتها.

هجوم اليابانيّين على «سنغافورة».



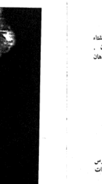
لم يدّخر البريطانيّون وسيلة من وسائل النقل المتوافرة في اللحظات الأخيرة لنقل جرحاهم.

«مع السلامة»! مصوّر «الاسوشييتد بريس» يصوّر سيّارته الخاصّة في طريقها إلى الماء عشيّة الاستسلام. لا، لن يحصل عليها اليابانيّون!

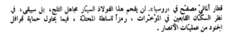


غداة الاستسلام أرغم هؤلاء الجنود الأوستراليّون على كناسة شوارع المدينة.

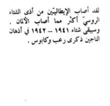




«كانت القوّات الألمانيّة تجتاز أرضاً مقفرة ، وغابات تعشّش فيها الفخاخ ، ومدناً لم يبقَ فيها حجر على حجر . أمّا الأطفال في أسمالهم البالية فكانوا لا يعرفون من الألمانيّة إلاّ كلمة «بروت» ، أي «الخبز» ! »

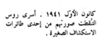


قطار ألمانيّ مصفّح في «روسيا». لن يقحم هذا الفولاذ السيّار مجاهل الثلج، بل سيبقى، في نظر السكّان القابعين في المؤخّرات ، رمزاً للسلطة المحتلّة ، فيما يحاول حماية قوافل الجنود من عمليّات الأنصار .



لقد أصاب الإيطاليّين من أذى الشتاء الروسيّ أكثر مما أصاب الألمان . وسيبقى شتاء ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ في أذهان الناجين ذكرى رعب وكابوس .





كانون الأوّل ١٩٤١ . أسرى روس التُقطت صورتهم من إحدى طائرات الاستكشاف الصغيرة .

إنبسطت المدينة بكاملها تحت نيران المدفعيّة ، وأخذت القنابل تسحق مباني أهل البلاد الخفيفة فتثير في الهواء غيوماً من الجصّ . وراحت الطائرات اليابانيّة تسفّ حتّى مستوى السطوح ، وتصلي السكّان نيران رشّاشاتها فتّرديهم بالمئات . وتلقي بين الحين والحين منشورات تدعو فيها السكّان إلى اختصار آلامهم بثورة ينقلبون فيها على المستعمرين الانكليز . إلتهمت النيران أحياء بكاملها . واستحال تنظيم أيّة نجدة لأنّ حطام المنازل قد سدّ منافذ الشوارع ، ولأنّ الماء قد نفد . وامتزجت رائحة الحريق برائحة كريهة من تعفّن وبراز . واختفت مصالح التنظيفات . وأخذت الجثث تنحلّ وتفسد في مدى ساعات في ذاك الهواء اللاهب .

قبيل سقوط «سنغافورة» : النار تلتهم المطّاط .

هذا ، وقد علقت في أذهان من أبقت عليهم الكارثة ذكرى رائحة أخرى لا تحول ولا تزول ؛ ذلك أنّ السلطات ، وقد تخوّفت من سكرة هائلة يشترك فيها القاهرون والمقهورون ، أصدرت أمرها بإراقة ما كانت قد خزنته في مستودعاتها من كحول تحسّباً لحصار طويل ؛ فغصّت المجارير بخمسة ملايين من غالونات المسكرات ، بين الويسكي والجنّ والنبيذ والكحول الصينيّة . وعبقت جواء «سنغافورة» المحتضرة بأنفاس ثمل سكّير !

شنّ اليابانيّون هجومهم على الجزيرة في ليل ٨–٩ شباط ، وبعد مضيّ أسبوع واحد ، لم يبقَ أمامهم غير ٥ كلم يتمّون احتلالها فيشطبون من الخارطة إحدى أشهر مؤسّسات العالم الأبيض فتنة وسحراً . ومرّة أخرى أخطأ الانكليز الظنّ : فقد نظّم «برسيفال» ثلثي قوّاته – أي الفيلق الهنديّ والفرقة الانكليزيّة ١٨ – شرقيّ جسر «جوهور» ، يقيناً منه بأنّ اليابانيّين سيستخدمون أرصفة القاعدة البحريّة للنزول إلى البرّ . أمّا الجهة الغربيّة ، وهي عبارة عن موحل تكسوها أدغال ذات جذور بارزة يستحيل اجتيازها على ما هو معروف ، فقد أسندت مهمّة الدفاع عنها إلى الفرقة الأوستراليّة الثامنة وحدها ، وقد هزلها موت الجنود وفرارهم . إلاّ أنّ «ياماشيتا» قد فعل عكس ما كان منتظراً : ففيما اكتفى بعمليّة إلهاء وتغطية ناحية القاعدة ، ألقى في الأدغال بفرقتين من فرقه الثلاث . وبدل أن تقف الأدغال حاجزاً دون تقدّم اليابانيّين ، باتت منطقة يستخدمونها للتسلّل . مع العلم بأنّ «تشرتشل» ، حتّى بعد خيبة الأمل الّتي سبّبها تقرير «ويفل» ، ظلّ يأمل بإمكانيّة صمود «برسيفال» في الدفاع عن ممرّ مضيق «جوهور» مدى شهرين !

لم تبلغ الروح المعنويّة اليابانيّة في السابق ما بلغنه إذ ذاك من الحميّة والاندفاع ؛ فلقد ذرفت أفواج بكاملها دموعاً تستعر بالكبرياء ، لدى رؤيتهم الجزيرة ذات الاسم الساحر الّتي أتوا لفتحها . وقبل الهجوم استبدل الضبّاط والجنود ملابسهم الداخليّة لأوّل مرة منذ بدء الحملة . فهبّوا لتحقيق الهدف الأخير ، الذي رمت إليه جهودهم الجبّارة الخارقة ، وهم في حالة من الطهر الروحيّ الحقّ .

في ١٠ شباط بلغ الهجوم اليابانيّ قلب الجزيرة ، أي المنطقة الّتي حلّ فيها البيض طلباً للاستجمام والسلوى . وكانت أعلى نقطة فيها ، ويبلغ



إجلاء النساء والأولاد عن «سنغافورة» قبل الهجوم اليابانيّ .

ارتفاعها ١١٧ متراً ، هي هضبة «بوكيت تيما» ، الّتي تكلّلها أشجار الياسمين الهنديّ الرائعة . أمّا المدفعيّة فلم تكن قد وصلت بعد ، ومع ذلك قرّر «ماتسوي» و «ماتاغوشي» ، قائدا الفرقتين ، مهاجمةالموقع . كانت سماء رؤيا غريبة تمزج غيوم الحرائقبغيوم خطّ الاستواء . وما كادت الجيوش تتحرّك حتّى مزّقها برق هائل ، وهبّت على أثره ريح عاصفة مخيفة ، فطفقت الأمطار ترجم الأرض . وإذا بالأصيل المشوّش يستحيل ظلمة مشؤومة تخترقها سهام الصاعقة وتهزّها انفجارات الرعد ؛ وراح رجال الحامية البيض يبحثون عن ملجإ يتّقون فيه شرّ الطوفان والزوبعة . أمّا المهاجمون الصفر فقد تموّهوا بها كما كانوا يتموّهون بجذور الأدغال البارزة . كان مدرّبوهم قد لقّنوهم أنّ لهم من العاصفة ومن الليل حليفين مخلصين ، فإذا المدرّبون محقّون . تسنّم المشاة اليابانيّون هضبة «بوكيت تيما» وأبادوا رجال الحامية المذعورين . وقد وصف التقرير البريطانيّ الرسميّ تلك الليلة بأنّها ليلة الكارثة والنكبة الكبرى . إذاً فقد انهار آخر خطّ للدفاع عن «سنغافورة» !

سمع قاهرو «بوكيت تيما» عن يمينهم عند الفجر دويّ انفجارات عنيفة ؛ نظروا فإذا الانكليز ينسفون مدافع الـ ١٥ بوصة التابعة لبطّارية «بيونا فيستا» ، تلك القطع الضخمة الّتي كان مفروضاً فيها أن تجعل من «سنغافورة» حصناً منيعاً عصيّاً ، ينسفونها ولمّا يتسنّ لها أن تطلق قنبلة واحدة !

وأطلّ النهار على عادته في جوّ من السلام والعظمة ، ومالت الريح القاريّة بمشعل الحرائق ناحية اليمّ ، وعادت العبرات تسيل على وجنات

اليابانيّين السريعي التأثّر ؛ كان المشهد الجميل الممتدّ عند أقدامهم يعدل كلّ ما قاسوه من مشقّات . وكلّ ما مُنوا به من تشويه وبتر وردى : هنا ميدان السباق ، والغولف ، وملاعب الكريكت ، وهناك مصنع للحليب نموذجيّ ، يحدق به سور من الحواجز البيضاء . وهنالك مغان فاتنة تنتصب وسط الأعشاب الغضّة النظيفة . وتمتدّ إلى اليسار ، في القريب القريب ، خزّانات «ماك ريشّي» و «بيرس» . بمياهها التي تشكّل قضيّة حياة أو موت بالنسبة لذاك المليون من سكّان «سنغافورة» ، وقد غدت هدف الفتح في غد ؛ وأخيراً «سنغافورة» نفسها تنبسط ها هنا ! وتخترق طريق «بوكيت تيماً» المزدوجة المستقيمة . وطريق «هولند» المتعرّجة ، كتلةَ البيوت ، ثم تلتقيان على محور طريق «أوركاد» الكبير الخارجيّ . وبدا البحر يلمع في البعيد . فإذا بصليبيّي الحملة الصليبيّة الأسيويّة وكأنّهم يشرفون على «أورشليم» !

في «لندن» بلغ الكبرياء «بتشرتشل» أقصى حدود الحساسية والتوتّر . قال : «إنّ شرف عرقنا لفي خطر . رجالكم أوفر عدداً من رجال العدوّ . يجب أن تستمرّ المعركة حتّى النهاية بالغاً ما بلغ الثمن . ليس أمر إنقاذ الجنود أو توفير السكان المدنيّين وارداً على الإطلاق . على الجنرالات أن يلقوا حتفهم برفقة جنودهم . إنّها لسانحة توفّر لكم فرصة الخلود ...» كانت هذه العبارات التي أمليت بصوت خفّاق في مكتب العمل «بدوننغ ستريت» موجّهة إلى رجل صارم مرّ الطباع . صحيح أنّ الفيلد ــ مارشال «ويفل» قد جعل مقرّ قيادته في «جاوا» ، إلاّ أنّه لم يكن له أيّ أمل في إمكانيّة الدفاع عن «الهند» الهولنديّة بعد سقوط «سنغافورة» . أمّا سقوط «سنغافورة» فقد بات رهن ساعات ، ولن تستطيع بلاغة «تشرتشل» أن تبدّل من الواقع شيئاً .

أرسل «ويفل» جوابه إلى رئيس الوزراء في فقرات خمس هي غاية في الجفاف . كان عائداً لتوّه من جولة تفتيشيّة في «سنغافورة» استغرقت أربعاً وعشرين ساعة ، لاحظ خلالها الحالة السيّئة التي تتردّى فيها الجيوش . صحيح أنّ «برسيفال» كان يملك التفوّق العدديّ ، إلاّ أن جيوشه كانت تناضل وقد تملّكتها مركّبات النقص . أمّا هو ، «ويفل» ، فقد بذل ما في وسعه لإنهاض الروح المعنويّة ، ولكنّه لا يشعر بأنّه قد أحرز في ذلك نجاحاً يذكر . وينتهي التقرير بفقرة سادسة ، مفادها أنّ «ويفل» نزل بعد انتهاء جولته إلى المرفإ لكي يستقلّ الزورق الذي أتى به من «جاوا» ؛ كان الرصيف غارقاً في الظلام ، فزلقت رجله وهوى ، وأبحر وهو يتلوّى من الألم . ولقد أعلمه الطبيب بأنّ عظمتين صغيرتين في أسفل ظهره قد كُسرتا . وأضاف «ويفل» : «الأمر ليس خطيراً . غير أنّي مضطرّ لدخول المستشفى حيث سأبقى طوال أسبوعين أو ثلاثة.»

إستسلام «سنغافورة» في ١٥ شباط ١٩٤٢ ، الساعة ١٩ . وقد جلس الجنرال «ياماشيتا» والجنرال «برسيفال» وجهاً لوجه .



ربّما ظنّ «تشرتشل» أنّ بلاغته قد تقنع القائد الأعلى بوجوب البقاء في «سنغافورة» ليعطي فيها القدوة الصالحة في الموت البطوليّ الذي يطلبه من جنرالاته ، فإذا بالقائد الأعلى يدخل المستشفى !

في «سنغافورة» انهارت المعنويّات تماماً . ولم يحدث نداء الغائبيّين الكبيرين ، «تشرتشل» و «ويفل» ، إلاّ عكس ما كان مفروضاً من انتفاضة وانتعاش . فما كان من بعض قوّاد السريّات إلاّ أن مزّقوه لاعنين شاتمين على مرأى من رجالهم . وتفكّكت الوحدات ، وراح الفراريّون البيض يجتاحون المدينة ، محاولين الاستيلاء بالقوّة على القوارب الأخيرة المزمعة على مغادرة المرفإ ، والمسدّسات في أيديهم . وعندما صُدّوا عن غرضهم عادوا يتدفّقون على قلب المدينة ، فاختلطوا بالرعاع وراحوا يمعنون في المحالّ التجاريّة ، التي بقرّتها عمليّات القصف ، سلباً ونهباً .

وغدت رائحة الجثث المنتنة تستحوذ على العقول وتستبدّ بالألباب ، فضلاً عن الظمإ والضنك والذعر .

يوم الأحد ١٥ استدعى «برسيفال» قوّاد القطاعات إلى مؤتمر . كان مقرّ القيادة قد انكفأ إلى «فورت كانينغ» ، في وسط المدينة . غير أنّ «سنغافورة» بكاملها كانت قد أمست في الجبهة . وأخذ الضغط اليابانيّ يشدّ الخناق على مدار المدينة كلّه . من نادي السباحة إلى مصنع الآجرّ في «بوكيت شرمين» . وصادف الجنرالات المدعوّون مشقّة غير معهودة في شقّ طريقهم إلى مقرّ الاجتماع . وما كادوا يبلغون «فورت كانينغ» حتى أنبأهم انفجار مدوّ بأنّ مستودع الذخائر في ثكنة «أليكسندرا» ، وهي إحدى ثروات المحاصَرين الأخيرة ، قد نُسف ! وأدرك اليابانيّون في الوقت عينه المستشفى المعروف بالاسم ذاته ، وراحوا يطعنون بالحراب كلّ ما ومن يقعون عليه ، بما في ذلك أحد الجرحى وهو على طاولة العمليّات ! أحدق الدخان «بفورت كانينغ» نفسه ، وشرعت القنابل تنهال عليه بلا انقطاع . وسُمعت الرشّاشات تطلق رصاصها على مرج «الرافيلز كوليج» القريب .

تلا الكاهن الصلاةَ ، ووزّع القربان على من رغب فيه من المؤمنين . ثم تناول الكلام البريغادير جنرال «سمسون» رئيس الدفاع السلبيّ ، معلناً أنّ الماء سينقطع تماماً بعد أربع وعشرين ساعة ، وأنّه لا بدّ من أن تمرّ عدّة أيّام بعد توقّف القتال قبل إعادة تأمينه ؛ فالخطر المنذر في هذا المناخ الحارّ الفاسد ليس الظمأ فحسب ، وإنما هو الطاعون !

ثم تناول الكلام قوّاد القطاعات معلنين أنّ الزحف قد أوقف في الشرق . أمّا في الغرب فقد انهارت الجبهة . وبعد ما أبلى اللواء الماليزيّ الأوّل بلاء تخطّى كلّ ما عُقد عليه من آمال ، انسحب فجأة على طول الشاطئ ، كاشفاً جانب الفرقة الأوستراليّة الأيسر ، فيما كشف تراجعُ اللوائين الانكليزيّين ٥٤ و ٥٥ جانبهما الأيمن . واتّخذ الجنرال «بينيت» احتياطاته للإفلات حالما يقرَّر الاستسلامُ الذي لا مفرّ منه ، ولكنّه امتنع عن إعلام المجلس بذلك ، مكتفياً بأن يعلن أنّ ما لديه من ذخيرة لا يمكن إطلاقه إلاّ دفاعاً عن قطاعه الخاصّ .

سُدّت النوافذ بأكياس من الرمل ، وتوقّفت المراوح الكهربائيّة عن العمل . وأخذ العرق يتصبّب على وجوه الجنرالات وأذرعهم وركبهم العارية . ولخّص «برسيفال» الوضع الراهن بصوت مخنوق على الشكل التالي : الماء يكاد يكون مفقوداً ، وكذلك المؤن والذخائر والمحروقات ؛ كانت الكمّيات المخزونة تحسّباً للحصار ضخمة للغاية ، ولكنّ اليابانيّين استولوا عليها . والوسيلة الوحيدة التي تسمح بتمديد المقاومة هي في استعادتها ؛ فهل يعتقد الجنرالات أنّ بالإمكان شنّ هجوم معاكس لاسترجاع «بوكيت تيما» والمخازن الكبرى التي ما تزال فيها رغم عمليّات التدمير ؟ كلاّ ، لا يرى الجنرالات ذلك ممكناً ، بل يعتقدونه محالاً وغير

وارد بالمرّة . إذ ذاك أعلن «برسيفال» : «ليس أمامنا والحالة هذه غير الاستسلام» . ثم أخرج برقيّة وردته منذ لحظات . فإذا بها تشير إلى أنّ التدابير الصارمة التي اتّخذت في «جاوا» و «لندن» في الأيّام السابقة قد لانت ؛ «فتشرتشل» يعتبر أنّه لم يبقَ للمجزرة أيّ هدف طالما أنّه لم يبقَ ثمّة أمل في الغلبة . وهكذا أبرق «ويفل» إلى «برسيفال» يقول إنّه يترك له أمر تقدير الوقت الذي يجب أن تتوقّف فيه المقاومة . وقرّر «برسيفال» إيقافها رأساً .

لم يلِ هذا القرارَ أيُّ مشهد من مشاهد الخطابة والطنين ؛ وعُيّن الميجر «وايلد» ليحمل عرض الاستسلام إلى العدوّ . وهُيّىء له علم أبيض من أحد سُمُط المطعم العسكريّ ؛ فاستقلّ سيّارة «لاندروفر» وراح يصعّد في جادّة «بوكيت تيما» وشارة الهزيمة تخفق في يده . كانت الجادّة مقفرة ، ولكنّ بعض المدنيّين والجنود وقفوا على الأرصفة يرون بكثير من اللامبالاة إلى امبراطوريّة في طريقها إلى الاستسلام . وإذا بياباني يبرز بعد ملتقى طرقات «أدامز رود» ويشير إلى «وايلد» بالتقدّم . وتوقّف إطلاق النار . وإذا برجل نحيل ، ذي شاربين كثّين ، قد تقلّد شارة الضبّاط وسيفاً ضخماً قصيراً ، يقبل مسرعاً : إنّه الكومندان «فوجيتا» . أحد ضبّاط الأركان اليابانيّة العامّة المدهشين الذين تجدهم دوماً في خطّ النار . أمّا انفتاح سترته ، مع كونه ينتسب إلى أشدّ الجيوش محافظة وتصلّباً ، فتفسيره أنّ كتفه المكسورة كانت في الجصّ ! إنّه ، لعمري ، لم يدخل المستشفى من أجل رضّة في العُصعُص !

إستسلام اذاً ؟ فليكن . رضي اليابانيّون بذلك شرط أن يكون استسلاماً لا قيد فيه ولا شرط ، وشرط أن يأتي في طلبه قائد جيش العدوّ الأعلى ، الليوتنان جنرال «برسيفال» نفسه ؛ هذا فضلاً عن مطلب آخر لا بدّ منه ، وهو أن يُحمل العلم البريطانيّ إلى جانب العلم الأبيض. هكذا تمّ إعداد الصورة التي ستُعتبر في التاريخ رمزاً لأوسع هزائم الغرب دويّاً وأوخمها عاقبة !

سُقوط إمبراطوريَّة أخرى : «ألهند الهولنديّة»

أقام الحلفاء في وجه الهجوم اليابانيّ سدّاً يحمل الحروف التعبيريّة التالية : «أ. ب. هـ. أ.» ، أي «أميركيّ – بريطانيّ – هولنديّ – أوستراليّ» . فلسوف تؤمّن الدفاع عن الجنوب الشرقيّ الأسيويّ قيادة موحّدة . وقد أسندت القيادة العامّة إلى «ويفل» ، وكان قائد أركانه انكليزيّاً ثالثاً هو السير «ريتشارد بيرس» . وأُسندت قيادة القوّات البحريّة إلى الأميرال الأميركيّ «هارت» ، وقيادة القوّات البريّة إلى الجنرال الهولنديّ «هين تير بورتن» . وكانت مهمّة «أ. ب. هـ. أ» هي الدفاع عن «الحاجز الماليزيّ» الذي يشمل «ماليزيا» و «أمبوان» و «تيمور» .ولكنّ الوسائل المتوافرة للقيام بأعباء عمليّة واسعة كهذه كانت ضئيلة وغير مناسبة في آن ؛ فقد كان كلّ من هذه الحروف التعبيريّة يمثّل اتّجاهاً متباعداً ونظريّات ستراتيجيّة متنافرة .

وفي المعسكر المقابل كان اليابانيّون يسعون وراء أهداف لا تعرف للطموح حدّاً ، بأساليب فائقة الحذر ؛ فوضعوا مخطّطهم وفقاً لحلف منعقد بين البحريّة والجيش ، قبل مهاجمة «بيرل هاربور» ببضعة أسابيع ؛ فقد أمتدّت أذرعٌ ثلاث عبر الارخبيلات الأندونيسيّة . إنطلقت الذراع الغربيّة من خليج «كمران» في «الهند الصينيّة» الفرنسيّة وتسلّطت على شماليّ «بورنيو» ، وراحت تلتفّ على «سومطرة» ؛



الجنرال «هين تيربورتن» وحاكم «جاوا» الهولنديّ «دان ستاركنبورغ» يستسلمان لليابانيّين.

وانطلقت الذراع الوسيطة من «فورموزا» وأطبقت على غربيّ «السيليب» وشرقيّ «بورنيو» و «لومبوك» و «بالي» من خلال مضيق «ماكاسّار» . مستندة إلى «الفيليبين» ؛ وأمّا الذراع الشرقيّة فقد انطلقت من أرخبيل «بالو» ، مستندة كذلك إلى «الفيليبين» ، ودخلت إلى بحر «مولوك» فاستولت على «أمبوان» و «تيمور» ، وراحت تهدّد «أوستراليا» . راحت هذه الأذرع تتحرّك من جزيرة إلى جزيرة بطريقة منتظمة ، لا تأتي تقدّماً جديداً إلاّ بعد أن توطّد غزواتها السابقة بواسطة قاعدة جويّة بحريّة . وكانت «جاوا» هي قلب الهدف الذي كانت تتّجه إليه ، لأنّ احتلال هذه الجزيرة الموسرة كفيل بتثبيت السيطرة على جزر الجنوب الشرقيّ الأسيويّ ، ولسوف يؤلّف هذا القلب نواة لإمبراطوريّة تقوم على «ماليزيا» و «الهند الصينيّة» و «سيام» و «برمانيا» و «الصين» و «منشوريا» ، إمبراطوريّة وهميّة تحمل اسماً متواضعاً أليفاً : «فلك الازدهار التعاونيّ» !

قبل سقوط «سنغافورة» ، وبعده ، استمرّ المخطّط المحكَم في سيره . فلقد تمّ احتلال القسم البريطانيّ من «بورنيو» في كانون الأوّل . وكذلك جنوب «منداناو» حيث أقام اليابانيّون في «داماو» قاعدة للمحطّات ؛ وفي كانون الثاني أُنزلت قوّات في «تاراكان» وفي «باليكابان» ، شرقيّ «بورنيو» ، وفي «مينادو» و «كنداري» ، في «السيليب» ، وكذلك في «أمبوان» . ثم جاء دور «تيمور» و «ماكاسّار» في شباط ، ثمّ دور «بالي» و «سومطره» . لم تكن تلك العمليّات باهرة قطّ : كان بعض الناقلات ، يواكبها عدد من الطرّادات ، يُنزل إلى البرّ كتيبة أو كتيبتين ، فيحاول الجنود الاستيلاء بلا أضرار على مرفإ ، أو على مخزون مطّاط ، أو على مصفاة بترول . وكانت المفارز الهولنديّة والبريطانيّة تقاوم كما يتيسّر ، وفي بعض الأحيان كانت تلجأ إلى الأدغال كما في «ساراواك» ، للنجاة من الأسر . لم يكن هنالك حائل جدّيّ يحول دون غزو «أندونيسيا» ؛ «فأميركا» لم تكن مستعدّة للهجوم المضادّ ، وكان جلّ ما يطمح إليه الأميرال «كينغ» والأميرال «نيميتز» هو إبقاء الاتّصال بين «كاليفورنيا» و «أوستراليا» قائماً . وكان من الواجب إعادة بناء أسطول قبل التفكير بأيّ مشروع أو عمليّة .

في النصف الثاني من شباط تمّ عزل «جاوا» ، وأطبقت الأذرع اليابانيّة القويّة عليها . في الغرب استولى فوج يابانيّ على «باليمبانغ» في جزيرة «سومطرة» حيث وجد ثروة سليمة من البترول . وفي الشرق حدث قصف جويّ جامح فقطع المواصلات بين «جاوا» و «أوستراليا» بهدمه مدينة «داروين» ومرفئها ومطارها . وبعد ذلك قامت الفرقة اليابانيّة الـ ٤٨

التي اقتُطعت من جيش «الفيليبين» ، باحتلال «بالي» التي لم يكن يفصل بينها وبين «جاوا» غير مضيق ضيّق وعر . وراح اليابانيّون ينظرون إلى الفريسة التي تتوّج مع «سنغافورة» مشروعهم العظيم . فالأمر الذي لم يبدُ معقولاً لشهرين خلتا ، وهو هدم الامبراطوريّتين الأوروبيّتين الكبيرتين ، وقلب نظام متوطّد منذ ثلاثة قرون ، قد تمّ بسرعة وسهولة سحريّتين . يا له من انتقام «لآسيا» جبّار !

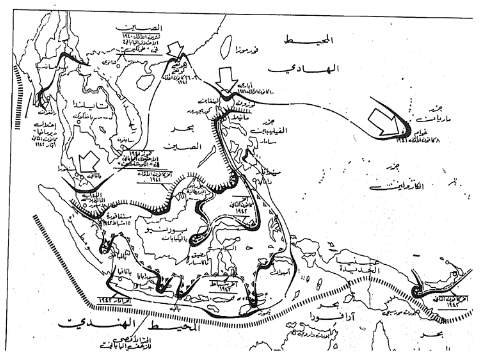
في «جاوا» كانت البلبلة تفوق الوصف ؛ فحطام الهزائم قد انصبّ على الجزيرة ، وقد تمكّن آلاف من المدنيّين والعسكريّين من مغادرة «سنغافورة» ومن بلوغ الممتلكات الهولنديّة ، بعضهم بفضل جلاء منظّم . كما كانت الحال بالنسبة لعشرة آلاف جنديّ من جنود الطيران الملكيّ ، والبعض الآخر هرباً أو فراراً . كانت المغامرات المفجعة قد فتكت بعدد كبير منهم ، ولكنّهم اندفعوا إلى «جاوا» جماعات كبيرة ضخّمها لاجئو «سومطرة» . أمّا «تانجونك بريوك» ، مرفأ «باتافيا» ، فقد رزح تحت عبء حشد مزدوج من الرجال والسفن .

وكان وضع «سورابايا» القاعدة البحريّة أحرج من ذلك ، بسبب عنف القصف . وراح الأندونيسيّون الهلعون يهربون هائمين على وجوههم محدثين بذلك خطر جوع ووباء أسيوي . لم يبقَ للموادّ الضروريّة أثر ، حتّى المازوت الذي لا غنى للسفن عنه ، في بلد مُشبَع بالبترول ، حيث كان اليابانيّون يستولون بسهولة فائقة على مخزونات من الوقود لا حصر لها . وكانت الشمس المحرقة والأمطار العنيفة ترهق الأوروبيّين وتثبّط معنويّاتهم بعدما انتُزعوا من رفاهية مستعمراتهم . فأضحوا كغيرهم لاجئين بلا مأوى . يا للانحدار ، ويا للهوان !

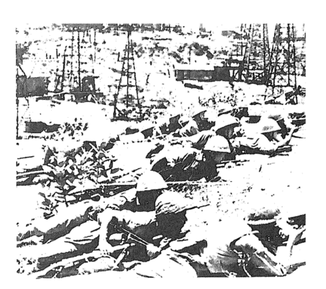
لم يكن «ويفل» بالرجل الشجاع فيسيطر على وضع متردّ كهذا ؛ فقد غادر المستشفى يجرّ خطاه منكسر الظهر ، يئنّ تباعاً من ظهره المجروح ومن مصيره المشؤوم . فالـ «أ. ب. هـ. أ.» لم تكن تقوم بوظيفتها . وكان «روزفلت» قد استدعى «هارت» ، الأميرال الأميركيّ الهرم الذي وصل من «الفيليبين» في غوّاصة ، على أثر مشادّاته مع الهولنديّين . إلاّ أنّ «ويفل» كان يشاطر «هارت» اقتناعه بأنّه لا يمكن الدفاع عن «الهند» الهولنديّة ، وبأنّ «جاوا» كانت فخّاً يتمنّى ألاّ يقع فيه . لذلك زهّد لجنة رؤساء الأركان بإرسال الفيلق الأوستراليّ الذي سُحب من الشرق الأوسط ، ثمّ طلب هو نفسه حلّ قيادته . وأمّا الأسف الذي أبداه على الشاكلة التالية : «إنّني أكره فكرة التخلّي عن هؤلاء الهولنديّين الشجعان» ، فمن المحتمل أن يكون مخلصاً ، ومع ذلك غادر الفيلد مارشال سير «أرشيبالد ويفل» «جاوا» في ٢٥ شباط بعجلة فائقة وبارتياح لا يوصف .

وبقي «هؤلاء الهولنديّون الشجعان» من غير سند ؛ يا له من قدر جائر ! فهم ، خلال حملة «ماليزيا» ، وأثناء حصار «سنغافورة» ، قد أسهموا بكامل قوّاتهم الضعيفة في دعم المقاومة البريطانيّة . وأغرقت غوّاصاتهم القديمة من سفن اليابانيّين أطناناً تفوق ما أغرقته الأسلحة البحريّة والجويّة التي جنّدتها «بريطانيا العظمى» و «الولايات المتّحدة» مجتمعتين !

وبما أنّه لم تبقَ لديهم غير «جاوا» فقد باتوا يدافعون فيها عن الوطن والمأوى . كان نصف مليون من الباتافيّين قد استقرّوا في الجزيرة دونما تفكير بالعودة ؛ فقد تمازجت الدماء بتزاوج العناصر المختلفة . ورسخت السيطرة الهولنديّة القديمة لدرجة يتعذّر معها على الاندونيسيّين والهولنديّين على السواء أن يصدّقوا إمكانيّة زوالها . وحين سقطت «هولندا» في أيّار ١٩٤٠ انتقلت روح المقاومة بكاملها إلى الممتلكات الهنديّة . فغزوها الآن كان بمثابة إبادة ثانية ، لذلك أبت المخيّلات الإذعان لهذا الأمر . وإزاء انهزاميّة الحلفاء أجابت السلطات الهولنديّة ، والحاكم العامّ الدكتور «فان «ستاركنبرغ — ستاشوير» ، والجنرال «هين تير بورتن» ، والأميرالات «هيلفريش» و «دورمان» ، بأنّ اليابانيّين ليسوا معصومين عن الهزيمة . ولما واجههم تخلّي الحلفاء عنهم



الزحف اليابانيّ إلى الجزر في مطلع ١٩٤٢ .



اليابانيّون يحاصرون آبار البترول البريطانيّة في «زينانغيونغ» في «برمانيا» .

صرّحوا بقولهم : «سنقاتل حتى النهاية» .

في ٢٧ شباط . في مطلع فترة ما بعد الظهر . عاد الأميرال «دورمان» إلى «سورابايا» بعد جولة لم تُجدِ فتيلاً . وفي المرفإ الكبير تلقّى من الأميرال «هلفريش» الأمر التالي : الهجوم على قوّات العدوّ التي ظهرت شرقيّ «باوبيان» . إنّها جزيرة صغيرة تبعد نحواً من ٦٠ ميلاً عن «سورابايا» ؛ فالهجوم على «جاوا» كان قد انطلق .

وقاد «دورمان» السفن الحليفة الناجية في الجنوب الشرقيّ الأسيويّ . وهي الطرّاد الانكليزيّ الثقيل «إكسيتر» . والطرّاد الأميركيّ الثقيل «هوستن» ، والطرّاد الأوستراليّ الخفيف «برث» ، والطرّادان الهولنديّان الخفيفان «دي رويتر» و «جاوا» ، فضلاً عن حفنة من المدمّرات . أمّا القوّة اليابانيّة التي هاجمها «دورمان» في الساعة ١٦،١٦ فلم تكن ساحقة ، بالرغم من تعطيل أحد أبراج «هوستن» . وبالرغم من أنّ الطرّادين اليابانيّين الثقيلين «هاغورو» و «ناشي» كانا مزوّدين بعشرين مدفعاً من عيار ٨ بوصات مقابل مدافع «دورمان» العشرة . بيد أنّ تنوّع عناصر الأسطول الحليف ، وفقدان الرمز المشترك في الإشارات ، وانعدام ثقة القوّاد بأميرالهم ، أثقلت كاهل الحلفاء . وأُصيب «الإكسيتر» في غرفة وقوده فغادر خطّ النار ولجأ إلى «سورابايا» ، ونسفت الطوربيدات «جاوا» و «دي رويتر» فغرقا . وحمل الثاني معه إلى الموت الأميرال «دورمان» الباسل ؛ وتمكّن «الهوستن» و «البرث» من بلوغ «تانجونك بريوك» . ولكنّهما أُغرقا في أوّل آذار أثناء محاولتهما التسلّل بين «جاوا» و «سومطرة» للهرب إلى المحيط الهنديّ . وكذلك لقي «الإكسيتر» الذي حاول الفرار عن طريق مختلفة ، المصيرَ نفسه في اليوم نفسه . وهكذا أُبيدت القوّات البحريّة الحليفة في الجنوب الشرقيّ الأسيويّ . فتقرّر بالتالي مصير «جاوا» .

في أوّل آذار نزل اليابانيّون في الشرق والغرب ، ولم تؤخّرهم تضحية «دورمان» غير أربع وعشرين ساعة . كانت الحامية البريّة مكوّنة من أربعة أفواج هولنديّة تضمّ ٢٥.٠٠٠ رجل . تدعمها كتيبة أوستراليّة وسريّة من الخيّالة الانكليز . أمّا الطيران فكان مؤلّفاً من ١٥٠ طائرة مشتّتة . وكان بميسور اليابانيّين أن يحشدوا في وجه الجزيرة ستّ فرق . وطيراناً بحريّاً ساحقاً . أي ما يناهز ثلاثة أضعاف القوّة اللازمة .

في الشرق تمّ النزول خلال ليل استوائيّ رائع الجمال ؛ فزحفت الفرقة الـ ٤٨ في آن معاً إلى مرفإ «تجيلاتجاب» الصغير . بغية شطر «جاوا» في وسطها . وإلى «سورابايا» بغية دكّ مصنع للأسلحة يتمتّع بشهرة تفوق شهرة الدفاع ضخامة . وقد تمّ بلوغ هذين الهدفين في ٧ بقليل من الخسائر .

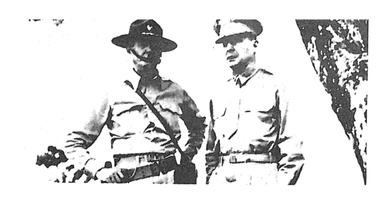
وفي الغرب أصاب نزول الفرقة الثانية نجاحاً مماثلاً . فتقدّم رتل باتّجاه «باتافيا» عبر الطريق الساحليّة . وتقدّم رتل آخر شطر «بيتنزورغ» عبر الطريق الداخليّة . أمّا فوج المشاة الـ ٢٣٠ . الذي أُنزل في نقطة متوغّلة شرقاً . فقد أشرف على الجبل من الجهة الأماميّة . وزحف إلى «باندونغ» . كانت هذه المدينة ، التي أوجدها الأوروبيّون جنّة نضرة فوق أتون السهول . تشكّل معقلاً للدفاع . وكان هنالك مشروع حرب عصابات لمواصلة المقاومة في الجبال المحيقة بها . ولكنّ المفاجأة كانت تنتظر الهولنديّين : فأهل البلاد تخلّفوا عن المساعدة بعكس ما عُرف عنهم سابقاً . وهذا من الاعتبارات التي جعلت الجنرال «تير بورتن» يرسم للوضع في مجلس الحرب المنعقد في ٥ لوحةً قاتمة . أُخليت «باتافيا» من غير مقاومة . واحتُلّت «بويتنزورغ» عنوةً . وباءت الهجمات المعاكسة بالإخفاق . وأخذت الأغذية والذخائر والوقود تنفد . وغصّت مستشفيات «باندونغ» بالجرحى . وكان السكّان المحليّون يستقبلون اليابانيّين وكأنّهم محرّرون .

ومع ذلك تقرّر الاستمرار في المقاومة ؛ ولكنّها لم تدم طويلاً : ففي ٧ بلغ اليابانيّون أطراف «باندونغ» قادمين من الغرب والشمال . فترتّب على الحلفاء إمّا الاستسلام ، وإمّا الموت في الموضع نفسه . وإمّا اللجوء إلى المقاومة في الأدغال ... وغلبت الإمكانيّة الأولى ، ولكنّ الوضع هنا كان شبيهاً بوضع «برسيفال» في «سنغافورة» : لم يحمل «تير بورتن» و «فان ستاركنبرغ» إلى مخافر اليابانيّين الأماميّة استسلام جيش فحسب ، بل استقالة امبراطوريّة برمّتها .

«ماك أرثر» يغادر «الفيليبين» قائلاً : «سأعود ...»

في أحد أطراف بقعة الزيت المنتشرة دخل اليابانيّون إلى «برمانيا» في ١٦ كانون الثاني ، واحتلّوا «رانغون» في ٧ آذار . وفي الطرف الآخر اجتاحوا أرخبيل «بسمارك» واحتلّوا «رابول» في ٢٤ كانون الثاني . كان الاحتلال الأوّل يعني أنّ الاتّصال البرّي مع «تشانغ كاي تشك» كان في عشيّة انفصامه ، وأنّ «الهند» في عشيّة تعرّضها للهجوم . وكان الاحتلال الثاني ، وهو يبعد أقلّ من ١،٢٠٠ ميل عن «بيسبين» ، يعني أنّ طريق «أوستراليا» باتت معرّضة للخطر .

وفي وسط البقعة كانت شبه جزيرة «باتان» ، وجزيرة «كوريجيدور» الصغيرة ، ما تزالان ترفعان العلم الأميركيّ . وقد سهّل اليابانيّون هذه المقاومة بأن اقتطعوا من «هومّا» أفضل وحداته الكبرى ، الا وهي الفرقة



في ١٠ آذار استدعي «مارك أرثر» (إلى اليمين) الجنرالَ «وينرايت» ، وأسلم اليه قيادةً كان مقدَّراً لها أن تؤول إمّا إلى الموت وإمّا إلى الأسر ...

الـ ٤٨ . بغية إرسالها لغزو «جاوا» . فلم يبقَ له في خطّ القتال إلاّ رهط الاحتياطيّين القدامى ؛ وكانت البحريّة الامبراطوريّة منهمكة في موضع آخر ، وكان الطيران من الدرجة الثانية . ولم تجد الأركان العامّة في «طوكيو» مبرّراً لبذل تضحيات كبيرة في موقع كانت قيمته الجوهريّة منعدمة ، وكان سقوطه محتّماً . والعائق الوحيد الذي كان ينمو أسبوعاً بعد اسبوع هو السطوة الّتي كانت «أميركا» تستمدّها من تمديد القتال : «فسنغافورة» المنيعة قد سقطت . فيما بقيت «كوريجيدور» التافهة صامدة !

ومع ذلك بقي وضع المدافعين مفجعاً ؛ وعلى الرغم من ضعف اليابانيّين كانت المعارك ضارية . بسط «ماك أرثر» فيلقيه باتّجاه «أبوكي» «و ينرايت» إلى اليسار . و «جونز» إلى اليمين . إلاّ أنّ الكولونيل «تاكيشي» الذي تسرّب عبر منحدر «ناتيب» الوعر انتزع من الأميركيّين نصف شبه الجزيرة . وحاول اليابانيّون من ثمّ أن يجهزوا على العدوّ بالنزول وراء خطوطه فأوقف زحفهم ، ولكنّهم التجأوا إلى مغاور رأسي «كينون» و «لونغوسكيوايان» ، وراحوا يقاومون في هذه الملاجىء البحريّة ببسالة ، حتى أن الأميركيّين لم يأسروا منهم غير جنديّ واحد ، بينما سقط المئات منهم ضحايا النار والجوع . إلاّ أنّ هذا المجهود قد أنهك المحاصرين ؛ وهكذا انصرم شهر شباط بهدوء شبه تامّ .

وتعاقبت الأيّام حاملة مدافعي «باتان» إلى حتفهم ؛ فقد كانت شبه الجزيرة العجيبة تلك ، ببركانيها ونباتاتها الوافرة ، وبيلة للغاية . وراحت الديزنتاريا والملاريا وغيرهما تعصف باطّراد ، وفُقدت الكينا ، ونقصت الأدوية ، وأصبح مستشفيا الجبهة مقبرتين ؛ وبات الأميركيّون يعيشون على نصف حصّة . أمّا الفيليبينيون فلم تكن حصّتهم سوى حفنة من الأرزّ ، إلى أن أقام «ماك أرثر» بعض المساواة في البؤس بينهم وبين غيرهم . وغدا الجنود يأكلون الجواميس البريّة والقردة والزحّافات ، وكان البؤس البدنيّ يهزل الأجسام ، والسأم واليأس يتأكّلان القلوب . وقد أتى تذمّر أحد الجنود شعراً معبّراً يغذّي مرارة الرجال المستسلمين إلى القدر الذين أيقنوا أنّهم لن يتلقّوا أيّة نجدة : «نحن المقاتلون اللقطاء في «باتان» — لا أب لنا . ولا أمّ . ولا العمّ «سام» — ولا يُعنى بنا إنسان» . في البداية كان «ماك أرثر» قد كذب كذبة رائعة إذ صرّح بأنّ المساعدة كانت قادمة ، وأنّ آلافاً من الرجال ومئات من الطائرات كانت في طريقها . أمّا الان فلم يبقَ أحد يكترث بسراب الأمل هذا .

كان المحاصَرون في «باتان» ينظرون إلى «كوريجيدور» وكأنّها الجنّة ؛ فالصخرة تعلو ١.٥٠٠ متر عن شبه الجزيرة ، فتبدو وكأنّها عالم من الأمان والرخاء ، يقطنها أناس أُنعم عليهم بإفراط . ولكنّها كانت في الواقع عشّاً للمشاجرات والحرمان .

كان الرئيس «كويزون» يغلي غيظاً . وأتى خطاب «روزفلت» الذي فيه أعطى الأفضليّة للحرب ضدّ «هتلر» يلقي به في غمرة ثورة من الغضب كادت تودي بحياته الركيكة . ورفع نفسه من على كرسيّه ذي العجلات صائحاً بأنّه لم يبقَ يحتمل ذكر «انكلترا» ولا ذكر «أوروبا» . وبأنّ شعبه يحترق ويموت في حرب كانت غريبة عنه ومن أجل راية كانت عاجزة عن الدفاع عنه . وأبرق إلى «روزفلت» معترضاً هاذياً طالباً أن يخلي الأميركيّون «الفيليبين» كي تستطيع إعلان حيادها. وفي النهاية تمكّن «ماك أرثر» من ترحيله . فنقلته غوّاصة إلى «منداناو» . وبقي عالقاً بالأرض الفيليبينيّة ثلاثة أسابيع . ثمّ قبل بالذهاب إلى «أوستراليا» ؛ وأخيراً مات في منفاه في «واشنطن» .

بقي «ماك أرثر» نفسه. فقد أذاعت «طوكيو روز». مذيعة الخيانة في الإذاعة اليابانيّة ، تنذره بأنّه سيُشنَق أمام القصر الامبراطوريّ . وبدلاً من أن يستسلم راح يفكّر بخرق خطوط الحصار للذهاب إلى الجبال بغية تنظيم حرب العصابات . غير أنّ «روزفلت» اتّخذ قراراً آخر ؛ ففي ٢٢ شباط اقترح على الأميرال «كينغ» وعلى الجنرال «مارشال» أن يستدعيا «ماك أرثر» من «كوريجيدور» ويعهدا إليه بقيادة جنوب المحيط الهادىء للحؤول دون تفشّي الفوضى الّتي سبّبها انهيار «أ.ب.هـ.أ» والخصام بين «تشرتشل» و «كورتن» . فوافق «مارشال» على الرغم من خصامه الطويل مع «ماك» . وأُرسل إليه الأمر في الحال .

كان «ماك أرثر» . مع ما اتّصف به من ميل إلى التهريج ، رجل شرف وشجاعة حقيقيّاً . وقد بدت له فكرة الذهاب بغيضة ، لأنّه بدا في عين نفسه كقبطان يسبق ملاّحيه إلى مغادرة سفينته الهالكة . وفي البداية رفض الانصياع وراح يماطل خلال خمسة عشر يوماً . وأخيراً ، في ١٠ آذار . استدعى «وينرايت» ووضع بين يديه قيادة لم تكن لتقود إلاّ إلى الموت أو إلى الأسر ، ثم ركب البحر من على رصيف «كوريجيدور» الذي اجتاحته القنابل . وبإباء رفض «ماك أرثر» ركوب الغوّاصة . وفضّل الزوارق النسّافة الأربعة الباقية في «كوريجيدور» ، وهي زوارق ركيكة مصنوعة من الخشب المعاكس . اكتست بلون أسود نتيجة لقتال دام أسابيع عدّة ، تقلّه مع زوجه وابنه وبعض الضبّاط إلى «كاغايان» ، ومن هناك تحاول طائرات «ب ١٧» نقله إلى «أوستراليا» . كانت المحاولة خطرة في مياه كان العدوّ فيها سيّداً مسيطراً ، إلاّ أنّ «ماك أرثر» كان يعتقد أنّ هذا الخطر الكبير وحده جدير بأن يعوّض عن طابع ذهابه المخزي .

ثمّ غادر «وينرايت» معتمراً قبّعته العسكريّة المذهّبة ، وصعد إلى ظهر مركبه وهو يقول : «سأعود ...» وقد استقبل «لقطاء باتان» هذه الكلمة بصياح استنكار وجلبة ، بعدما أُبلغوا نبأ تخلّي قائدهم الأعلى عنهم .

الفصل الخامس عشر
نيسان - حزيران ١٩٤٢

ثأر

معجزة في «ميدوي»

كان ربيع ١٩٤٢ بالنسبة « لليابان » بمثابة ذروة من ذرى الكمال والنشوة التي تتسنّمها الأمم واحدة تلو أخرى ، لفترات قصيرة سرعان ما تغرب وتمعن في الأفول . تلك كانت حال « أثينا » بعد « سالامين » ، و « انكلترا » بعد « بلينهايم » ، و « فرنسا » بعد « إيانا » ، و « ألمانيا » بعد « دنكرك » . . .

ينشأ الشعور بالمناعة عن رضى الخصم ، ويُحدث في الخصم ذاته أشبه ما يكون بحالة الشلل ، فيشعر الظافرون وكأنّ لا مُحال أمامهم ، ويشعر المغلوبون على أمرهم وكأنّ الإخفاق قد كُتب على كلّ محاولة ينهضون بها .

إستناداً إلى برنامج الحرب اليابانيّ كان من المفروض أن يستغرق فتح جنوبيّ شرقيّ «آسيا» خمسة أشهر ، فإذا به يتمّ في ثلاثة : ٧ كانون الأوّل (بيرل هاربور) — ٧ آذار (إستسلام «جاوا») . وكذلك كان من المفروض أن تستغرق إعادة تجهيز المنشآت المنجميّة والصناعيّة ستّة شهور ، ولكنّ ما أصاب الأرض من حروق كان سطحيّاً إلى حدّ أنّ ثلث هذه المهلة غدا كافياً . أمّا الثمن الذي اقتضته هذه المنجزّات العظيمة المجيدة فزهيد إلى حدّ يكاد لا يكون فيه معقولاً : لم تبلغ ضحايا الجيش اليابانيّ ٥٠٠٠ قتيل . ولم تخسر البحريّة غير ٢٣ سفينة أكبرها مدمّرة . كانت الانتصارات الألمانيّة تُعتبر تحفة الاقتصاد والسرعة ، فإذا بالانتصارات اليابانيّة تبزّها وتكسفها .

خطرت الغمامة الأولى على الشمس اليابانيّة الساطعة في ١٨ نيسان ، ذاك أنّ «بيرل هاربور» كانت تستصرخ الثأر وتطلبه ، وأنّ جسارة غوّاصة يابانيّة ، برزت أمام «لوس انجلوس» فأصلت الشاطىء الكاليفورنيّ بقنابل مدافعها لأوّل مرّة في تاريخه ، كانت ما تزال من غير عقاب . سأل «روزفلت» الأميرال «كينغ» عما إذا كان الثأر ممكناً بقصف «طوكيو» من الجوّ . كان الأمر عسيراً جداً ، إذ لم تكن أيّة طائرة جوميّة مهيّأة للقيام بهذه المهمّة . وقد حُلّت مشكلة إقلاع قاذفات القنابل الأرضيّة من على حاملة طائرات ، بيد أنّ مشكلة استقبالها في عودتها بقيت من غير حلّ . كان من الواجب ، والحالة هذه ، أن تعود إلى أرض صديقة . أمّا «روسيا» فلم يكن إسهامها ممكناً بسبب حيادها المتحفّظ حيال «اليابان» . إذاً فليس هناك غير «الصين» . ولكنّ المحافظة على السرّ كانت تحظّر إطلاع «تشانغ كاي تشك» على السبب الذي من أجله يُطلب منه استقبال قاذفات القنابل الأميركيّة . والواقع أنّه قد ارتاب من الأمر كثيراً ، بيد أنّه انتهى بتعيين خمس مطارات ، يحدق الخطر ببعضها نظراً لقربه من المناطق اليابانيّة ، فيما يحدق ببعضها الآخر نظراً لبعده وتوغّله داخل الأراضي الصينيّة . أمّا ميزاتها الخاصّة وشروط الاقتراب منها فكانت مجهولة . كانت الحملة الشاقّة التي طلبها «روزفلت» تقتضي الإقلاع من على جسر هو غاية في القصر ، فتنطلق منه طائرات ذات محرّكين تحمل ٢٣،٠٠٠ ليبرة لتقطع مسافة ٥٠٠ ميل فوق بحر معادٍ ، لا تغطّيها أيّة طائرة من طائرات المطاردة ، فتسدّد هجومها إلى مدينة جدّ حصينة ، ثم تعود فتجتاز ٧٠٠ ميل قبل أن تحطّ في المجهول !

ومع ذلك كلّه باشرت الجهات المختصّة إعداد العدّة لتحقيق المشروع . فُتح باب التطوّع في ثلاث مجموعات من مجموعات القصف

«اليورك تاون» ، التي استبسلت في معركة «ميدوي» البحريّة ، تنسحب من القتال وقد أثخنتها الجراح .

القيام بمهمّة خطرة للغاية : فتطوّع ٢٠٠ ، واختير منهم ٨٠ سيكونون ملاّحي١٦ طائرة «ب–٢٥» أمكن جمعها على أحدث حاملات الطائرات صنعاً ، وهي «الهورنيت» . بوشر تدريب الطيّارين وإعداد الأجهزة في «فلوريدا» ، واستمرّ في «كاليفورنيا» . سُحب السلاح ليصبح بالإمكان تركيز مستودعات إضافيّة ، إلاّ أنّ رشّاشات خشبيّة رُكّزت قصد تخويف المطاردات المعادية . وفي أوّل نيسان عبرت «الهورنيت» «الحاجز الذهبيّ» بحمولتها من الرجال والآلات ، وأبحرت من جزر «هاواي» حاملةً طائرات مواكبة هي «الانتربريز» فالتقت بها في ١٣ نيسان ، فضلاً عن ٤ طرّادات و ٨ مدمّرات و ٢ من الناقلات الصهاريج . كان قائد الحملة هو الأميرال «وليم ف. هالسي» ، أمّا الطيّار المكلّف بقيادة قاذفات القنابل فكان الليوتنان كولونيل «جيمس هـ. دوليتل» ، وهو كاليفورنيّ المولد وخرّيج المعهد التكنولوجيّ في «مساشوسيتس» ، فضلاً عن كونه مهندساً وطيّاراً .

في الساعة ٢ من صباح ١٨ اكتشفت أجهزة رادار الأسطول سفينتين اثنتين ؛ وفي الصباح أغرق الطرّاد «ناشفيل» إحدى هاتين السفينتين المزعجتين ، وهي سفينة الدوريّة «كاريتا مارو» . إذاً فقد أدرك الأميركيّون أنّ هناك عيوناً قد بُثّت حولهم ولمّا يزالوا على بعد ٨٠٠ ميل من الشواطئ اليابانيّة ، وكان الأسطول قد أقام الترتيبات للاقتراب منها خلال النهار حتى تُشنّ الغارة عند المغيب . فاقترح «هالسي» العدول عن الغارة ، إلاّ أنّ «دوليتل» رفض ذلك ، ورضي بالمجازفة الناتجة عن المسافة الإضافيّة ، كما رضي بتحويل القصف الليليّ إلى غارة نهاريّة .

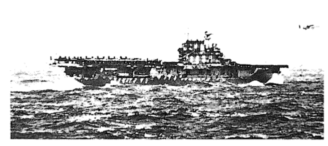
أقلعت الطائرة الأولى ، وهي طائرة «دوليتل» ، في تمام الساعة ٧،٢٥ ، والبحر متلاطم الأمواج يغمر سطح الإقلاع بالضباب ؛ وحلّقت الطائرة السادسة عشرة بعد ساعة كاملة . كان من المفروض أن تقصف الطائرات الثلاث عشرة الأولى «طوكيو» و «يوكوهاما» ، فيما تتوزّع الثلاث الباقية بين «أوساكا» و «كوبي» و «ناغويا» . إنّها لمجرّد بطاقات دعوة أرادت «أميركا» إلقاءها على «اليابان» !

حلّق «دوليتل» ورفقاؤه الاثنا عشر فوق «طوكيو» عند الظهر تماماً ، بُعيد انتهاء أحد التمارين الجويّة اليابانيّة ، فظُنّت الطائرات الأميركيّة طائرات يابانيّة ، فلم تصب المدفعيّة المضادّة للطائرات ، التي نشطت للعمل متأخّرة . غير طائرة واحدة ! جرى القصف على محاذاة السطوح ، أمّا الأهداف المعينّة فكانت تشكّل خطّاً مذهلاً من الجبخانات ، والثكنات ، والمستودعات ، والمصافي ، ومصانع الصّلب ، الخ ... ولم يستطع أحد تعيين مدى الأضرار وطبيعتها . وأرسلت العناية في مؤخّرة الطائرات ريحاً أسعفت المهاجمين في الابتعاد وعوّضت إلى حدّ ما المسافة الإضافيّة التي اضطرّوا إلى اجتيازها . ولكنّ ذلك لم يحدّ من صعوبة نهاية الغارة وخطرها ؛ فقد حطّت طائرة واحدة في مطار في «فلاديفوستوك» فاعتُقل ملاّحوها ، أمّا الطائرات الـ ١٥ الباقية فقد تمّ إخلاء ١١ منها بواسطة المظلاّت ، فيما هبطت ٤ أخرى هبوطاً اضطراريّاً على الأرض العراء . لم يُقتل إلاّ ثلاثة طيّارين في هذه العودة العنيفة إلى الأرض ، أمّا ملاّحو الملازمين «هلمارك» و «فارّو» ، الذين أسرهم اليابانيّون ، فقد حكمت عليهم بالموت محكمة عسكريّة ، فنُفّذ حكم الإعدام بالملاّحين الرئيسين ، كما نُفّذ بالرقيب قاذف القنابل « سانز » الذي اعترف تحت وطأة التعذيب بأنّه قد تعمّد تصويب قنابله إلى إحدى المدارس .

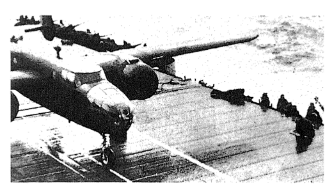
لقد كلّفت الغارة غالياً بالنسبة لما حقّقته من نتائج تافهة ، بيد أنّ



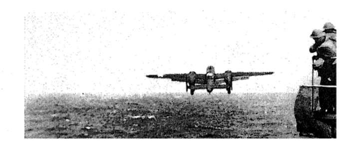
على ظهر «الهورنيت» : «جيمس دوليتل» يعلّق وساماً يابانيّاً على قنبلة ثقيلة ستلقيها إحدى الطائرات على «اليابان» .



طائرة «ب – ٢٥» وقد أقلعت من على «الهورنيت» في أوّل غارة جويّة حليفة على «اليابان» .



طائرة «ب – ٢٥» على أهبة الإقلاع عن «الهورنيت» .



إقلاع طائرة «ب – ٢٥» عن «الهورنيت» .

النتيجة المعنويّة الّتي نشأت عنها كانت ضخمة خطيرة ؛ فغدت عبارة «دوليتل حقّق ذلك» نداء حرب أميركيّاً . ونذيراً بعمليّات أشدّ إحكاماً تثأر للطخة العار الّتي وُصمت بها «بيرل هاربور» .

«اليابان» تولّي «هتلر» ظهرها

في الوقت الذي تمكّنت فيه حفنة من الشجعان من إصابة العاصمة اليابانيّة ببعض الخدوش . أحرزت «اليابان» انتصاراً سهلاً جديداً . ولامست «انكلترا» كارثة تفوق بخطورتها فقد «ماليزيا» .

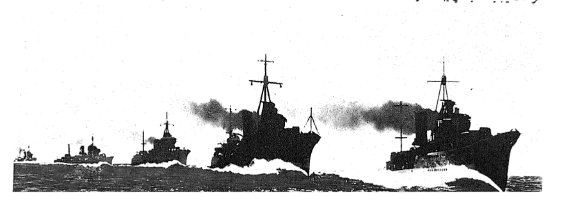
بعد سقوط «سنغافورة» انتقل سدّ الدفاع إلى «سيلان» . فبُذلت محاولات محمومة في سبيل تجهيزها للدفاع ؛ عُيّن الأميرال «لايتون» . الذي كادت إرشاداته توفّر المأساة الّتي حلّت «بالبرنس أوف ويلز» . قائداً للجزيرة . وعُيّن الأميرال «سومرفيل» قائداً للأسطول ؛ وأخذت الأميراليّة البريطانيّة تبحث عمّا تبقّى لديها من سفن توفّرها له . فقدّمت له ثلاثاً من حاملات الطائرات ، اثنتين كبيرتين وواحدة صغيرة . هي «اندوميتبل» ، و «فورميدبل» . و«هرميس» . كما قدّمت له «الووربسايت» بعدما التأمت جراحاته المتوسّطيّة . فضلاً عن السفن الأربع العتيقة : «ريزوليوشن» ، و «راميليز» ، و «رويال سوفرين» . و «ريفنج» . وقد انضمّ إلى هذا الخليط من القطع طرّادان من عيار ٨ بوصات . و ٥ طرّادات من عيار ٦ بوصات بما فيها الطرّاد الهولنديّ «هيمسكيرك» . و ١٦ مدمّرة . و ٧ غوّاصات . وأُعدّت لهذا الأسطول قاعدة سرّيّة أطلق عليها اسم «ت» ؛ كان ذلك ، والحقّ يقال ، أقصى ما استطاعت «انكلترا» أن تبذله من جهد بجزيّ شرقيّ «السويس» .

في ٢ نيسان غادرت قوّة الأميرال «ناغومو» الضاربة بحر «جاوا» وتوغّلت في المحيط الهنديّ . وكانت هذه القوّة الضاربة قد أبادت «داروين» بعد «بيرل هاربور» إبادة صاعقة . وغدت تشمل الآن ٥ حاملات طائرات ، و ٤ بوارج ، و ٣ طرّادات ، و ٨ مدمّرات ؛ فهي تمثّل الآن ، بلا منازع ، أوفر أساطيل العالم عزّةً ومجداً . وفيما كانت في طريقها إلى «سيلان» . كانت قوّة بحريّة أخرى ، بقيادة الأميرال «أوزاوا» ، تضمّ حاملة طائرات واحدة ، و ٦ طرّادات ، و ٨ مدمّرات ، تجتاز خليج «البنغال» في طريقها إلى «كلكوتا» . وهكذا تسنّى لقوّة تابعة لشعب ملوّن أن تخترق ، في موكب مهيب جليل . مياهاً طالما حرصت «انكلترا» على الاحتفاظ بها ، وعلى مرأى من أرض كانت ما تزال تُعتبر ركيزة الامبراطوريّة البريطانيّة !

كان الوضع في «الهند» غريباً ؛ فالكتلة البشريّة الضخمة لم تكن بعد قد استفاقت من وجومها : فهناك عشرات الملايين من البشر تجهل تمام الجهل أنّ حرباً ضروساً تدور رحاها على مقربة منها وهي آخذة في الدنوّ ؛ فبضعة آلاف من الجنود الانكليز . يضاف إليهم بضع مئات من موظّفي الخدمة المدنيّة الهنديّة . يؤمّنون من غير جهد ما عرف «بالسلم البريطانيّ» . أمّا الأمراء المهيمنون على ٨٠ مليوناً من الرعايا فمتمسّكون بولائهم «لانكلترا» . يقدّمون لها أكبر قسم من المليوني متطوّع الذين ينخرطون في جيوشها . بيد أنّ هيئتي «الهند» السياسيّتين الكبريين . وهما «جامعة جناح الإسلاميّة» و «مؤتمر غاندي ونهرو» . كانتا ترفضان إعلان تأييدهما «لانكلترا» في نضالها ضد الدكتاتوريّات المختلفة الأشكال ؛ ففي اعتقادهم أنّ ما يتهدّد «الهند» من أخطار سببه الوجود الانكليزيّ : ليغرب الانكليز . ولتعلن «الهند» حيادها . يزُل التهديد . هذا فيما كان آخرون يرون أنّ القضيّة الهنديّة على صلة وثيقة بالقضيّة اليابانيّة . نظراً لوحدة مصير الشعوب الأسيويّة . كما أنّها على صلة بالقضيّة الهتلريّة نظراً للكفاح الذي تنهض به «ألمانيا» ضدّ الامبراطوريّات الكبيرة المغتصبة . وقد غدا «شاندرا بوز» . الذي هجر البلاد ليعبّئ بمساعدة «طوكيو» و «برلين» جيش تحرير قوميّاً . ملكاً «للبنغال» غير متوّج . وهكذا كان من شأن قوّات يابانيّة تظهر ظافرة في المحيط الهنديّ أن تثير في «الهند» كلّها هزّات يستحيل التكهّن بعواقبها .

كانت للزحف اليابانيّ إلى «سيلان» نتائج أخرى يصعب تحديدها من الوجهة الستراتيجيّة ؛ فاتّصال اليابانيّين بالألمان عن طريق «مصر» لا يخرج إطلاقاً عن حدود الممكن ، لأنّ المسافة الفاصلة بين «كولومبو» و «السويس» أقصر من المسافة الفاصلة بين «كوبي» و «كولومبو» . وليس من عقبة شبيهة «بسنغافورة» تعترض الطريق . فالحاجز الوحيد هو أسطول «سومرفيل» المتنافر القطعات ؛ وإذا ما دُمّر هذا الأسطول فليس ما يمنع «ناغومو» من الذهاب لمصافحة «رومل» ! والحال أنّ «ناغومو» يبحث عن ذاك الأسطول . ولكنّ «سومرفيل» يخفيه بكثير من الحذق ؛ فهو على بيّنة من المسؤوليّة الملقاة عليه . ويقاوم بعناد تحريضات «تشرتشل» الذي يدعو على عادته إلى المعركة . كان يقيم شرقيّ «سيلان» ، قريباً من قاعدته السريّة الّتي حمتها العناية فلم يهتد اليابانيّون إلى وجودها . راحت طائرات «ناغومو» الـ ٣٠٠ تسدّد ضرباتها إلى «كولومبو» و «ترنكومالي» بعد «بيرل هاربور» و «داروين» ؛ ووقعت على الطرّادين الثقيلين «دورتشاير» و «كورنوول» . وحاملة الطائرات «هرميس» . والمدمّرة «فامباير» . والسفينة الشراعيّة «هوليّهوك» ، فأغرقتها كلّها . ومضى أسطول «أوزاوا» من جهته يشق

طرّادات يابانيّة خفيفة في إبّان المعركة .



عباب خليج «البنغال» . فأغلق ميناء «كلكوتا» . وعزل «برمانيا» . وأغرق أو أسر ١١٢،٠٠٠ طنّ من السفن التجاريّة . كانت تلك خسائر مفجعة ، شائنة ، لم يسجّل الانكليز قبالتها حتى ولا تدمير سنبوق واحد ! فقد أعاد «سومرفيل» السفن الأربع القديمة العديمة النفع . وهرب بحاملتَي طائراته خارج نطاق الدوريّات الجويّة التي كانت تذرع المناطق القريبة من «سيلان» . ولكن حتّامَ يدوم هذا الحظّ يا ترى؟. وفجأة حدثت المعجزة : لقد ابتعد «ناغومو» !

إبتعد عن الميدان ظافراً ملبّياً دعوة أركان «طوكيو» التي سُرّت كلّ السرور بجولته عبر المحيط ، وبالخسائر التي أنزلها بالعدوّ ، وبالتغطية التي أمّنها لحملة «برمانيا» ، وبالسيطرة المطلقة التي أثبتها في المحيط الهنديّ . في الواقع كان هذا الفوز اللامع يحجب خطأً لا يعوَّض : فلقد تخلّت «اليابان» عن وجهة الحرب الرئيسة ، مهملة فرصة تفجير الحركة الثوريّة في «الهند» ، واكتساب العالم العربيّ ، والجمع بين عمليّاتها وعمليّات حلفائها الأوروبيّين . بلغت «اليابان» في الساعة ٩ من صباح ٩ نيسان ذروة حظّها الظافر ، في عرض «ترنكومالي» ، و «سيلان» أمامها فريسة سائغة ! إذ ذاك أمر «ناغومو» سفنه بأن تتوجّه شطر «سنغافورة» .

إنّ قرار الأركان الامبراطوريّة هذا قد فرضه ما امتازت به الستراتيجية اليابانيّة من روح دفاعيّة تخالطها ميول عدائيّة فائقة العنف . فبعد ما حقّقت «اليابان» فتوحاتها الجوهريّة كلّها . أخذت تفكّر بحمايتها عن طريق توسيع نطاق الأمان الذي يُحدق بها . ففي الجنوب كان على النطاق الجديد أن يضمّ «غينيا الجديدة» ، وجزر «سليمان» ، وجزر «الهبريد الجديدة» ، و«كاليدونيا الجديدة» ، وجزر «فيدجي» ؛ وفي الوسط كان عليه أن يشمل «ميدوي» ؛ أمّا في الشمال فكان عليه أن يتشبّث بقوس «الجزر الأليوتيّة» . أمّا الجادّة السائلة الجديدة فتمتدّ باتّجاه «أميركا» فحسب ، حيث يكمن الخطر ، فيما زال الخطر في الجهة المعاكسة ، جهة «انكلترا» المستضعَفة المزعزعة . لم ينتقل خطّ الأمان إذاً . فهو ما فتئ قائماً في عرض جزر «السوند» ، و «سيام» ، و «برمانيا» . وهكذا لم تكن جولة الأميرال «ناغومو» اللامعة غير عرض باهر لم يعقبه مثيل .

ما ان عادت الفرقة الضاربة إلى المحيط الهادىء حتى تفكّكت ؛ فقد رجع «ناغومو» إلى «اليابان» ببوارجه وثلاث من حاملات الطائرات ، فيما يمّم نائب الأميرال «تادايشي هارا» شطر الجنوب الشرقيّ ، يقود السفينتين «زويكاكو» و «شوكاكو» نحو معارك جديدة .

لهبٌ في بحر المرجان

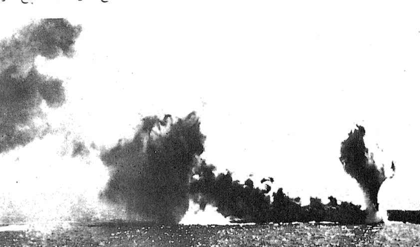
كانت مقدرة «ماك أرثر» التمثيليّة هائلة ؛ فلو كان جنرال آخر غيره قد تخلّى عن جنده بالطريقة التي أرغم هو عليها لوصل إلى «أوستراليا» يرزح تحت عبء مركّب نقص ثقيل . أمّا هو فقد دخلها دخول الأبطال !

وأسهم «روزفلت» في هذا الوضع ، فقد كان ينتظر الجنرالَ في «ملبورن» أرفعُ الأوسمة الأميركيّة ، وهو«ميداليّة الشرف الكونغرسيّة» . أمّا الرحلة الخطرة التي قام بها «ماك أرثر» انطلاقاً من «كوريجيدور» . وهو غارق في أفكاره ، تبلّله الأمواج المتلاطمة على السفينة ، فقد غدت لتوّها ملحمة ، وانتحل هو ، بقناعه الرخاميّ الغامض ، وجه رجل الأقدار . كان يجسّد النصر المقبل ، وإذا بالثقة تعود إلى الظهور حوله .

لقد تقاسمت «لندن» و «واشنطن» حماية العالم ، في ثلاث مناطق ستراتيجيّة ؛ ففي منطقة «أوروبا — الأطلسيّ» تؤمّن قيادةُ العمليّات بالتعاون ؛ وفي منطقة «الشرق الأوسط — المحيط الهنديّ» تسلّمت القيادةَ «بريطانيا العظمى» ؛ وفي منطقة «المحيط الهادىء» كانت المسؤوليّة من نصيب «أميركا» . فقسمت هذه الأخيرة منطقتها قسمين متفرّعين شاسعين : « منطقة المحيط الهادىء» و «منطقة جنوبيّ — غربيّ المحيط الهادىء»؛ ففي الأولى تدخل المسافات البحريّة الشاسعة ، وفي الثانية تدخل الجزر الكبيرة وهي «أوستراليا» و «غينيا الجديدة» و «الفيليبين» و «أندونيسيا» . وقد عُيّن «نيميتز» قائداً للأولى ، و «ماك أرثر» قائداً للثانية .

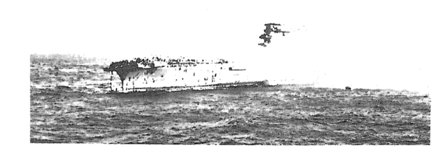
كان يسود «أوستراليا» تشاؤم مرير . فقد قدّر الأوستراليّون أنّهم بحاجة إلى ٢٥ فرقة ، كحدّ أدنى ، لحماية جزيرتهم — القارّة ؛ ولم يكن باستطاعتهم أن يجهّزوا أكثر من ١٢ فرقة من مجموع ٧ ملايين من السكّان ؛ وأملهم في الحصول على ١٥ فرقة انكلو أميركيّة كان يعتبر سراباً . وفكّر رؤساء الأركان بالتخلّي عن الشمال بكامله ، على أن يركّزوا الدفاع على خطّ «أديلاييد — بريسباين» الذي يغطّي الموارد الوطنيّة الرئيسة ؛ وكان هذا يعني جبهة طولها ١،٥٠٠ كلم لا يمكن تجهيزها .

ولم يقبل «ماك أرثر» بهذه العمليّة اللامعقولة . قال : إنّ الدفاع عن «أوستراليا» لا يمكن تأمينه من الخارج ؛ فالسدّ الذي ينبغي الحفاظ عليه هو «غينيا الجديدة» ، وأرخبيلات «بسمارك» و «سليمان» ؛ بهذا يصبح بعض أكثر الأصقاع انعزالاً جزءاً من الستراتيجيّة . إنّ «غينيا



في بحر المرجان . حاملة الطائرات اليابانيّة «شوهو» وقد اصابتها طائرة نسّافة اميركيّة .

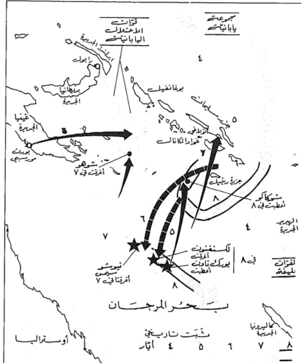
معركة بحر المرجان .

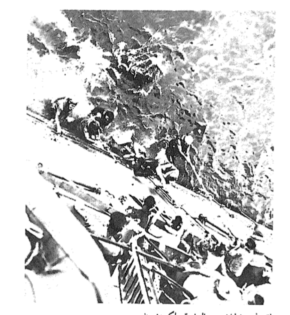


في حين أعلن ضابط الأمن أنّ الأمور على خير ما يرام ، اجتاحت السفينة «لكسنغتون» سلسلة من الانفجارات فدمّرتها .

الجديدة» شاسعة المدى رهيبة : مساحتها ٩٠٠،٠٠٠ كلم مربّع . وفيها جبال علوّها ٥،٠٠٠ متر . ومساحات غير مرتادة . وأكثر شعوب الأرض بدائيّة . وما يقال عنها يقال عن الجزر الأخرى . إنّ صراعاً خارقاً ، شبه مجهول في «أوروبا» ، سيجري في منطقة كانت تبدو خارجة عن نطاق كلّ نزاع بسبب طبيعتها وبعدها !

كانت مهمّة «ماك أرثر» الأولى أن يجهّز لنفسه جيشاً . ولم يكن هذا الأمر سهلاً ؛ فالانتصارات اليابانيّة الساحقة . وتحوّل الانعزاليّين السابقين إلى مبدإ «المحيط الهادىء قبل كلّ شيء» . لم تزعزع المبدأ الذي كان يسعى إلى هزيمة «هتلر» أوّلاً . وحين تلقّى «تشرتشل» . بواسطة «كورتن» . طلباً بإرسال فرقتين وحاملة طائرات بريطانيّة . سأل «روزفلت» مستهجناً عن تصرّفات «ماك أرثر» . ذاك الذي يجهل ، على ما يبدو ، مقرّرات الحلفاء . «فانكلترا» قد أطلقت الفيلق الأوستراليّ . ولكنّها وجدت سبيلاً لإبقاء الفرقة التاسعة في «ليبيا» . وها هو «ماك أرثر» يتحسّر لغيابها ! ولم تكن التشكيلات الأوستراليّة جاهزة للخدمة بعدُ نظراً لافتقارها إلى السلاح والتدريب ؛ فكان على «أميركا» ، والحالة هذه ، أن تبذل مجهوداً صادقاً . وهكذا كان . وصلت الفرقة الـ ٤١ ، وكانت الفرقة ٣٢ في طريقها . فيما يمّمت الفرقة ٣٧ شطر «زيلاندا الجديدة» حيث كان زمام القيادة بيد «نيميتز» . وفي أواسط آذار كان





لقد نجح الجلاء عن السفينة «لكسنغتون» .

في منطقة الجنوب الغربيّ من «المحيط الهادىء» ٣٤،٠٠٠ أميركيّ ، بينما كان ٢٣،٠٠٠ آخرون في طريقهم إليها . فأوّليّة «أوروبا» المبدئيّة لم تحُل دون حصول «ماك أرثر» ، منذ البدء ، على ضعفي ما حصلت عليه «انكلترا» من الرجال والطائرات . ومع ذلك فقد استمرّ في التذمّر ، مشدّداً بلا هوادة على أنّ بالإمكان التغاضي عن «أوروبا» ، وليس بالإمكان إهمال المحيط الهادىء الحيويّ .

في «غينيا الجديدة» كانت «بابوازيا» هي المنطقة الخطيرة التي تواجه «أوستراليا» . وكانت جبال «أووين ستانلي رينج» الوعرة تحصر أهميّة المنطقة في سواحلها . وبصورة أدقّ في عاصمة المؤسّسات الأوستراليّة الصغيرة ، «بورت مورسبي» . ولم تكن «رابول» ، حيث استقرّ اليابانيّون منذ شهر كانون الثاني ، إلاّ على مسافة ٥٠٠ ميل بحريّ . فاحتلال «بورت مورسبي» يوفّر لهم قاعدة عمليّات متقدّمة ، ممهّداً لعزل «أوستراليا» ولتحقيق الغزو . وتمّ الرأي بين «ماك أرثر» و «نيميتز» على اعتبار هذه العمليّة الهدفَ المقبل الذي سيسعى إليه العدوّ .



في «باتان» : النوم يداعب عيني هذا الجنديّ . ولكنّ إصبعه لا تفارق زناد بندقيّته !

وصدقت الظنون حوالي ١٥ نيسان ؛ فقد كانت إعدادات يابانيّة كبيرة قيد التحقيق . حشد اليابانيّون قوّات هائلة في «رابول» ، وفي قاعدة «تروك» الموقّتة في أرخبيل «الكارولين» . « فبحر المرجان» العجيب كان الموضع المنشود لساحة قتال مُغلّقة ، لأنّه يمتدّ بين جزر «سليمان» و «غينيا الجديدة» و «أوستراليا» . أمّا «حاجزه الكبير» فإحدى عجائب الدنيا : فأقلّ الجزر الصغيرة أهميّة محاطة بتكاوين مرجانيّة هي بهجة الناظرين . في هذا البحر الذي يفوق المتوسّط زرقة ووهجاً ونعومةً ستدور رحى أولى المعارك للسيطرة على المحيط الهادىء .

وتحسّباً لهذه المعركة أرسلت «أميركا» حاملتين للطائرات هما «يورك تاون» و «لكسنغتون» . كانت الأولى في المياه الأوستراليّة منذ شباط ؛ وأمّا الثانية ، وهي أعرق الحاملات الأميركيّة إطلاقاً ، فقدسارعت من «بيرل هاربور» . وتمّ اللقاء في أوّل أيّار ، على بعد ٢٠٠ ميل من «كاليدونيا الجديدة» . وتسلّم «فليتشر» ، أميرال «اليورك تاون» ، القيادة نظراً لأقدميّته . كان في حوزته ١٥٠ طائرة ، و ١١ مدمّرة ، و ٨ طرّادات منها الطرّادان الأوستراليّان «أوستراليا» و «هوبارت» ؛ وكان يعتزم أن يعترض سبيل قوّات الغزو القادمة من «رابول» في استدارتها حول رأس «غينيا الجديدة» للدخول إلى خليج «بابوازيا» .

إلاّ أنّ المخطّط اليابانيّ كان أكثر تعقيداً مما ظنّ الأميركيّون . فقد قرّر الأميرال «شيغايوشي إينويي» احتلال «بورت مورسبي» و «تولاغي» ، وهي جزيرة صغيرة مجاورة «لغواد الكانال» ، في آن معاً .

أثناء «مسيرة الموت» .



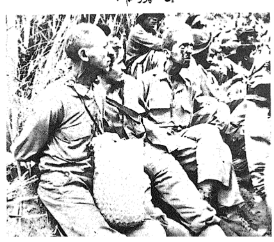
وقامت القوّة الضاربة ، المؤلّفة من حاملتيّ الطائرات «زويكاكو» و «شوكاكو» ، بعطفة نحو الشرق ، واستدارت حول جزر «سليمان» بدلاً من أن تدخل مباشرة إلى «بحر المرجان» . وفي ٧ أيّار عثرت طائراتها على ناقلة البترول الأميركيّة «نيوشو» ، وعلى مواكبتها المدمّرة «سيمس» ، فأغرقتهما ؛ وبعد ظهر اليوم نفسه انتقل الحظّ إلى المعسكر الآخر : فقد عثرت قاذفات «لكسنغتون» ونسّافاتها على حاملة الطائرات الصغيرة «شوهو» ، مرافقة قافلة النزول إلى البرّ ، وفي ظرف خمس دقائق جعلتها طُعمة للنار . وفي اليوم التالي تمّ لقاء حاملات الطائرات الكبيرة بعد ما بحث كلّ منها عن الأخرى طويلاً .



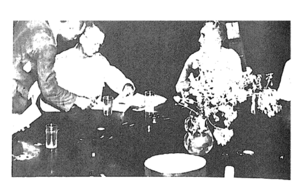
لا ماء ، ولا طعام ، بل شمس محرقة ، وسير لا يعرف هوادة . في «مسيرة الموت» هذه لم ينجُ إلاّ القليلون .

ولم تخرج سالمة من هذه المعمعة غير «زويكاكو» . فقد أصابت «اليورك تاون» قنبلة من زنة ٨٠٠ ليبرة اخترقتها حتّى جسرها الرابع ، فقتلت ٦٦ من رجالها وأشعلت فيها نيراناً عنيفة ؛ وأمّا «الشوكاكو» ، الّتي أصابتها الطوربيدات والقاذفات ، فقد قُتل من رجالها ١٠٨ فغادرت الحلبة تلتهمها نيران متأجّجة . وتلقّت «اللكسنغتون» طوربيدين

بعض الأسرى الذين اشتركوا في «مسيرة الموت» ، وقد رُبطت أيديهم إلى ظهورهم .



في ٦ استسلم «وينرايت» بعدما استُنفدت وسائل الدفاع كلّها وبعدما وافق «روزفلت» على إيقاف القتال .



نيران المدفعيّة والطيران في بثّ الذعر في الخطوط الفيليبينيّة الأميركيّة . وأمّا القائد المحلّي ، الجنرال «إدوارد كينغ» ، فقد بعث إلى اليابانيّين بضابط يعلن عن استسلام «باتان» ، وذلك من غير علم «وينرايت» الذي ارتكب من جهته خطأً بحبس نفسه في «كوريجيدور» في ذلك الظرف الدقيق . وقال «كينغ» : «أنا أعلم أنّني سأمثل أمام المجلس الحربيّ بعد عودتي إلى «أميركا» . غير أنّ حياة رجالي الـ ٧٨٠٠٠ أكثر أهميّة من حياتي ...» ولكنّ ١٠٠٠٠ من هؤلاء الرجال هلكوا في «مسيرة الموت» التي ستكون بعد أربع سنوات سبباً في شنق الجنرال «هوما» فاتح «الفيليبين» .

كانت «كوريجيدور» أكثر حزماً . فرفض «وينرايت» الإنذارات الأخيرة . وراح اليابانيّون يدكّون الجزيرة الصغيرة بمدافع الهاون من العيار الكبير . وغدا سرداب «مالينتا» جحيماً وموضع احتضار بعدما تكدّس فيه مئات الجرحى وآلاف الرجال الذين انهارت أعصابهم . وفي أوّل أيّار نزل العدوّ إلى البرّ ترافقه دبّاباته . وفي ٦ استسلم «وينرايت» بعدما استنفد وسائل الدفاع وحصل على موافقة «روزفلت» .



نفق «مالينتا» في «كوريجيدور» ، حيث الخبل والمرض والموت البطيء .

أسطول ضدّ جزيرة

في ٢٦ أيّار بدأ تنفيذ مخطّط «ميدوي» . فقد غادر الموانئ اليابانيّة أضخمُ أسطول بحريّ عرفه التاريخ ، متّجهاً إلى حيث يستدرج الأسطول الأميركيّ إلى تحدّ سافر .

كان الأميرال الكبير «ياماموتو» يقود العمليّة شخصيّاً ؛ وقد رفع رايته فوق عملاق البحار ، البارجة «ياماتو» ، التي كانت فريدة في بابها بأطنانها الـ ٦٣٠٠٠ وبمدافعها من عيار ١٨ بوصة . ولكنّه كان قلقاً ، وما آلام المعدة التي كان يقاسيها إلاّ من واقع معنويّاته . كان التحفّظ الذي أبداه في غمرة النشوة الوطنيّة التي أحدثتها غارة «بيرل هاربور» مبنيّاً على أسس متينة ؛ فضربة الجرأة والحظّ تلك لم تكن قد حسمت شيئاً قطّ .

وعدّة قنابل . ولكنّ ارتجاجها بقي ضعيفاً ، وبدا وكأنّ جروحها لم تكن مميتة . ولكن ما ان أعلن ضابط الأمن أنّ الوضع سليم حتّى عصفت بالسفينة سلسلة من الانفجارات وأضرمت فيها النار . وقد كانت عمليّة الإخلاء ناجحة للغاية ، فلم يغرق رجل واحد . وحين غادر الكابتن «شيرمان» سفينته ، بعد ما أخلاها الرجال جميعاً ، كان يحمل كلبه بين يديه . ووجّهت إحدى المدمّرات إلى الحاملة الضربة القاضية ؛ وهكذا انتهت المعركة البحريّة الأولى من غير أن تُطلق خلالها طلقة مدفع واحدة من على سفينة عائمة .

من الناحية التكتيكيّة كان التفوّق من نصيب اليابانيّين . غير أنّ القافلة التي كانت تقلّ الجنود إلى «بورت مورسبي» قد عادت أدراجها . واعتبر الأميرال «إينوييي» أنّ معاودة الكرّة ضرب من المُحال . وتمنّعت الأركان العامّة الامبراطوريّة عن إرغامه على ذلك ؛ فهنالك اعتبارات جديدة قد برزت إلى الميدان : لقد أيقن «ياماموتو» أنّه بحاجة إلى انتصار حاسم أكثر من الذي أحرزه في القضاء على بوارج «بيرل هاربور» العتيقة . فراح يركّز قوّاته لإحرازه . وأُوقفت العمليّات غير العاقلة ، كفز و «بابوازيا» مثلاً . فقد أزفت ساعة «ميدوي» .

في تلك الأثناء كان القتال قد توقّف في «الفيليبين» . ففي ٣ نيسان ، وهو يوم الجمعة العظيم ، هاجم اليابانيّون قطاع «باتان» الشرقيّ بنسبة واحد ضدّ عشرة . كان الدفاع ضعيفاً ؛ وأتت هزّة أرضيّة تسهم مع



«ميدوي» ، تلك الجزيرة العزلاء .

وقد أثبت «بحر المرجان» أنّ اسم «أميركا» لم يُشطب من البحار . وأمّا بحريّتها الجبّارة الّتي كانت تشيدها فهي تنذر بانقلاب في توازن القوى . كان ينبغي القيام بعمل وقائيّ . والحؤول دون اندماج أساطيل اليوم وأساطيل الغد .

كان مخطّط «ياماموتو» مركّباً معقّداً على غرار المخطّطات اليابانيّة كافّة ؛ فخروج الأسطول اليابانيّ كان يستهدف مرميين مختلفين يؤولان إلى غاية مشتركة . الهدف الأوّل كان احتلال جزر «أتو» و «كيسكا» و «أداك» ؛ وكان الهدف الثاني هو غزو جزيرة «ميدوي» . أمّا الغاية المشتركة فكانت استدراج الأسطول الأميركيّ للقتال بغية إبادته .

أبحر أسطول الأميرال «بوشيرو هوسوغايا» الخامس إلى الجزر الثلاث ، وكان يضمّ حاملتي الطائرات الخفيفتين «ريوجو» و «جونيو» ، فضلاً عن ٥ طرّادات وقافلتي إنزال . وكانت الجزر المقصودة أراضي مرتفعة قاحلة يكفّنها ضباب جليديّ ، مجرّدة من كلّ قيمة اقتصاديّة أو ستراتيجيّة . وأمّا السبب الذي أراد «ياماموتو» من أجله ضمّها إلى الممتلكات اليابانيّة فقد بقي غامضاً . وقد افتُرض أنّه كان يحضّر غزو القارّة الأميركيّة ؛ ولكنّ طرف هذه الجزر كان على ٣،٠٠٠ كلم من «ألاسكا» ، وهي طريق غزو لا يمكن اجتيازها إطلاقاً . وفي الواقع كانت الستراتيجيّة اليابانيّة تضيع في المنعرّجات ؛ فقد تبيّن أنّها غير صالحة لتركيز الجهود الذي يقوم عليه جوهر الفنّ العسكريّ. فلم تكن حملة الجزر في الواقع سوى إضعاف للمخطّط الرئيس . ألا وهو احتلال «ميدوي» .

إنّ «ميدوي» شبيهة «بويك» ؛ فهي جزيرة موحدة يقتصر النبات فيها على أشواك حادّة . وقد بقي سكانّها لزمان طويل أسراباً من الطيور البحريّة المتصارعة الصاخبة . وأمّا الفارق الوحيد الذي يميّزها من«ويك» فقد كان كامناً في موقعها : إنّ ألفاً من الأميال البحريّة ، بدلاً من ٢،٠٠٠ ، يفصلها عن جزر «هاواي» ؛ فبإمكان أيّة قوّة جوّية بحريّة متمركزة في «ميدوي» أن تشلّ «بيرل هاربور» وتُبقي أرضاً أميركيّة تحت تهديد الغزو .

كان ينبغي الاستيلاء على «ميدوي» في شهر كانون الأوّل . وقد لام «ياماموتو» نفسه لكونه لم يفعل ذلك . وعاد يكرّر المحاولة وهو يحسب أنّ «أميركا» لم تكن لترضى بفقدان موقع هامّ كذاك ، ولذلك كان يترتّب عليها حماية «ميدوي» ، وهي في حال خسارتها سوف تقوم إلى استعادتها . فالمعركة البحريّة العامّة الّتي كانت «اليابان» بحاجة إليها يجب أن تنتج عن هذا الوضع .

لقد دُعّم دفاع الجزيرة منذ كانون الأوّل . وهنا تجدر المقارنة مرّة أخرى : «ميدوي» هي «جبل طارق المحيط الهادىء» ؛ ومع ذلك كانت القوّات فيها أكثر تواضعاً ، والأوضاع أصعب . كان بلوغ الحوض عسيراً ، والإرساء الخارجيّ خطراً ، ومساحة الجزر المستخدّمة ، «ساند» و «إيسترن أيلند» ، ضئيلة . وراحت الآليّات والأسلحة والرجال تتكدّس ، إلاّ أنّ الجنود كانوا لا يعرفون للتجانس معنى : ففيهم الطيّارون التابعون للجيش الأميركيّ ، والطيّارون التابعون للبحريّة الأميركيّة ؛ وهنالك كتيبة جنود البحريّة المدعومة ، ٢،١٣٨ «ليذرنكس» (أي الأعناق الجلديّة) بإمرة الليوتنان كولونيل «هارولد د. شانون» ؛ وثمّة بضع مئات من «سي بيز» (النحل البحريّ) ، الذين كانت تسميتهم الشاعريّة المؤلّفة من حرفي « ك. ب. » ، أي «كونستراكشن باتاليونز» (كتائب البناء) تشير إلى نوع وحداتهم . أمّا المنشآت فكانت فاسدة جداً ؛ وقد جرى تقنين المياه العذبة ، وحُظّر تعاطي الكحول . وكان الخليط الفوضويّ ، والريح ، وصخب البحر ، وموسيقى الطيور الصمّاء ، وغبار المرجان ، وشعور الغرابة واللامعقول ، أموراً تهزّ الأعصاب ، وتثير خلافات كانت الدوريّات الساحليّة تقمعها بصرع المتقاتلين من غير محاباة . وعلى الرغم من هذا كلّه أتت المنجزات فعّالة ؛ فقد غُطّيت «إيسترن أيلند» ، الّتي لا يكاد حجمها يفوق حجم سطح حاملة للطائرات ، بمثلّث من المدارج الجوّية ، وخبّئت تحت الأرض خزّانات الوقود ، وبُنيت المخازن والثكنات والحظائر ، كما بني مستشفى ومركز كهربائيّ ووحدة لتكرير مياه البحر . وحين أتى القائد الكبير ، أميرال «المحيط الهادىء» «تشستر و. نيميتز» ، للتفتيش ، وجد الشاطىء مزروعاً بالألغام ، تزنّره قاذفات اللهب ، وتعجّ فيه الأسلاك الشائكة الّتي كانت ممتدّة حتّى إلى ما تحت الماء ؛ فهنّأ قائد الجزيرة «سيريل ت. سيمارد» على صنيعه . وما ان عاد إلى «بيرل» حتّى أبرق إليه يبلّغه الخبر التالي : « ستتعرّض لهجوم في ٤ حزيران ... »

ولكن من أين «لنيميتز» أن يعلم ذلك ؟ مسألة بسيطة ؛ فقد حلّ الأميركيّون شبكة الرموز اليابانيّة واستمرّوا في التقاط رسائل العدوّ . وقد كان آخر ما يعترضهم فيها هو تفسير معنى الحرفين « أ. ف. » اللذين يشيران إلى النقطة الّتي تستهدفها الاستعدادات الضخمة الّتي كانت قيد الإنجاز . وبدت للكوماندر « روشفور » خطّة مفاجئة : طلب من«ميدوي» أن تبرق خبراً صريحاً يعلن عن تعطّل آلة تكرير مياه البحر ؛ وفي اليوم التالي كانت نشرة المعلومات اليابانيّة تشير إلى أنّ «أ. ف.» كانت تفتقر إلى المياه العذبة ! وهكذا فضح اليابانيّون وجهتهم وأثبتوا أنّهم أقلّ حذقاً ودهاء مما كان الناس يظنّون !

حجّة «ناغومو» ذات الحدّين

لقد بدا زحف الأسطول اليابانيّ إلى «ميدوي» وكأنّه تكرار لرحلة «بيرل هاربور» ؛ فالعبور كان قاسياً ههنا كما كان هناك : الرياح قويّة ، والأمطار عاصفة ، والأمواج متلاطمة تجتاح متون الطرّادات والمدمّرات . وفي ٢ حزيران توغّل الأسطول في جوّ قذر تكسوه غيوم منخفضة ، وضباب كثيف ، تحت سماء متلبّدة مكفهرّة . وغدت الرؤية سيّئة لدرجة أنّ الاهتداء إلى ناقلات البترول بات صعباً ، فعزفوا اذ ذاك عن عمليّة ضخّ المازوت خوفاً من التصادم . وقد قاسى التناسق في العمل من جرّاء ذلك ، وأفلس مخطّط الاستخبارات . وكان أسطول غوّاصات الأميرال «كوماتسو» مكلّفاً بمدّ خطّ للإنارة ، فلم يتمكّن من ذلك بسبب انعدام السرعة . وكان من المفروض أن تقوم غوّاصة بتموين طائرتين جومائيّتين للاستكشاف على ضفّة المرجان بين «ميدوي» و «أواهو» ، ولكنّ العمليّة أخفقت لأنّ سفن العدوّ الحربيّة كانت تقف بالمرصاد . وراح «ياماموتو» يسبح في الضباب بالمعنيين المجازيّ والحقيقيّ للكلمة .

إلاّ أنّ قوّاته كانت فائقة القوّة لدرجة أنّ التفكير بتعرّضها للخطر لم يكن وارداً .

في المقدّمة كان «ناغومو» يقود قوّته الضاربة الشهيرة . كانت معركة «بحر المرجان» ، الّتي أصابت «الشوكاكو» بأضرار ، وعطّلت «الزويكاكو» عن العمل موقّتاً ، قد خفّضت هذه القوّة إلى أربع حاملات للطائرات هي «أكاغي» ، و «كاغا» ، و «هيريو» ، و «سوريو» ؛ وكانت تملك ٢٥٠ طائرة يقودها أفضل الملاّحين في العالم ، وهم متفوّقون عدديّاً وتقنيّاً على التشكيلات الأميركيّة الموازية كافّة . وكانت تكوّن

قوّة «ناغومو» الارتكازيّة البارجتان «هارونا» و «كيريشيما»، وطرّادان كبيران، و ١٢ مدمّرة. أمّا الجنود فكانوا يتمتّعون بروح انضباط رائعة يغذّيها الظفر والزهو لكونهم منتصري «بيرل هاربور». وقد اكتسب الأميرال نفسُه ثقة بعدما كان في بداية الحرب متردّداً، وإن كان أحياناً عرضة للغضب الناجم عن عصبيّة في المزاج.

راح الأسطول المكلّف بغزو «ميدوي» يقترب من الجزيرة، بقيادة الأميرال «كوندو»، من طريق أخرى. كان منقسماً إلى مجموعة تغطية، ومجموعة ارتكاز مباشر، ومجموعة إنزال، ومجموعة ناقلات للطائرات الحومائيّة، ومجموعة كاسحات ألغام. وكانت البارجتان «كونغو» و «هيبي»، و ٩ طرّادات، و ٢٠ مدمّرة، وعمارات معاونة عديدة، تؤمّن لهذا الأسطول قوّة ناريّة تفوق المطلوب ما دامت طائرات «ناغومو» ستقضي على المدافعين.

في المؤخّرة كان «الأسطول الكبير» يتقدّم وكأنّه الكلمة الفصل في النزاع. كانت البارجتان الحديثتان «ناغاتو» و «موتسو» تؤلّفان مع «ياموتو» الجبّار سرب خطّ أوّل، وكانت البوارج «إيزي» و «هيوغا» و «فوزو» و «ياماشيرو» تؤلّف السرب الثاني؛ وكانت ثلاثة طرّادات خفيفة، وفرقتان من المدمّرات، وحاملة الطائرات «هوشو»، وناقلات الطائرات الحومائيّة «شيودا» و «نيشين»، تكمل حرس البحر الامبراطوريّ هذا.

وبصرف النظر عن السفن المرسلة إلى الجزر كان الأسطول اليابانيّ يعدّ في مجموعه أكثر من مئتي سفينة، منها ١١ بارجة، و ٥ حاملات طائرات، و ٢٢ طرّاداً، و ٦٥ مدمّرة. وعلى ذمّة دوائر الاستخبارات كانت قوّات «المحيط الهادىء» الأميركيّة أدنى منها بكثير: بارجتان كحدّ أقصى، ٣ حاملات طائرات، ٩ طرّادات، ونحو ٣٠ مدمّرة. ولم يكن بوسع الكثير من هذه السفن، ومن بينها حاملة طائرات واحدة على الأقلّ، أن تشترك في أيّة عمليّة على مقربة من «ميدوي»؛ فلم يكن إذاً في وجه «اليابان» في تلك الحقبة غير حطام «بيرل هاربور».

وساء الطقس أكثر فأكثر في ٣ حزيران؛ وغاص سرب حاملات الطائرات في غيهب مطبق. كانت سفنه الـ ٢٦ تمخر العباب وبين الواحدة والأخرى مسافة ٦٠٠ متر، فلم تكن الواحدة منها تتمكّن من رؤية الأخرى. وقد تحتّم تخفيض السرعة خوفاً من الاصطدام؛ وبدأ القلق الشديد الذي ولّده الضباب يتسرّب حتى إلى مواقد السفن. وقد نجا الطيّارون وحدهم من كابوسه، إذ أنّهم كانوا ينتظرون الساعة التي يقلعون فيها بطائراتهم ليلعبوا لعبة الحياة والموت، فكانت مجالسهم الخاصّة تدوّي بضحكهم وأغانيهم. وعلى نقيض ذلك كان صمت



الأميرال «ناغومو».

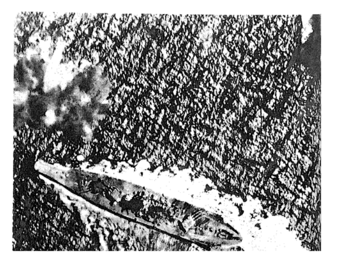
مفعم بالقلق يهيمن على «الأكاغي»، السفينة الأميرال.

تألّفت على «الأكاغي» مجموعتان: على ميسرة السفينة وقف قائد الحاملة «آووكي» يتقصّى الضباب برفقة ضبّاط الربع؛ وكان الأميرال «ناغومو» في الميمنة يحيط به أركانه، باستثناء الدماغ المفكّر «مينورو جندا» الذي كان طريح الفراش في المستوصف بسبب نوبة حمّى. وكانت اللحظة الحاسمة تدنو وتحدق بهم: ففي الغد، قُبيل الفجر، ستغدو «ميدوي» على مرمى القاذفات. وكان على «ناغومو» أن يختار إحدى مهمّتين: كانت الأولى تقضي بسحق الجزيرة لإفساح المجال في النزول؛ وكانت الأخرى تقوم على تدمير الأسطول الأميركيّ وإغراقه. فإن كان الأسطول الأميركيّ قريباً كانت الأفضليّة للمهمّة الأولى، على أن يكون التحرّش حذراً؛ أمّا إذا كان الأسطول الأميركيّ بعيداً فيجب إلقاء القوى بكاملها على «ميدوي».

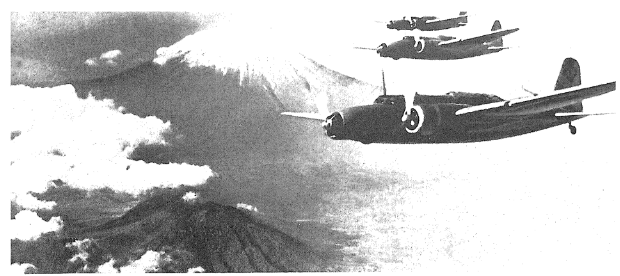
إستشار «ناغومو» رئيس مكتبه الثاني، الليوتنان «فوراكاوا»: لم تكن هنالك أيّة معلومات سوى أنّ الأسطول اليابانيّ كان يغادر منطقة الطقس السيّىء، وأنّ السماء بدأت تنقشع فوق «ميدوي». واستشار «ناغومو» رئيس أركانه، الأميرال «كوزاكا»، فأفاده أنّ ما من خبر وصل من الأميرال «ياماموتو» الذي كانت سفينته «ياماتو»، المزوّدة بأسباب التحرّي الأكثر فعاليّة، على بعد ٦٠٠ ميل إلى الغرب.

كان رئيس العمليّات، الكابتن «أوويشي»، أوّل من أخذ على عاتقه مسؤوليّة إبداء الرأي. قال: «إنّ الأوامر تحتم علينا القضاء على «ميدوي» لإتاحة النزول بعد غد، في ٥ حزيران. فعلينا أن نتقيّد بها حرفيّاً ما لم تردنا عن العدوّ أيّة معلومات قبل موعد الانطلاق». فسأله «ناغومو»: «ولكن أين العدوّ؟» فأجاب «أوويشي»: «في حال وجوده في «بيرل»، وباعتبار أنّه يعتزم الدفاع عن «ميدوي»، ينبغي عليه أن يقطع ١،١٠٠ ميل؛ فلدينا إذاً متّسع من الوقت لاستقباله. وفي أيّ حال هو ليس قريباً منّا الآن، فأنا بالتالي اعتقد أنّ واجبنا الأوّل هو تنفيذ الغارة المقرّرة على «ميدوي».

واقتنع «ناغومو» بهذا الرأي؛ وكأنّي بالسماء لم تكن تنتظر غير هذا



في بحر «سولو». قنابل إحدى الطائرات الأميركيّة تنقضّ على طرّاد يابانيّ.



طائرات يابانيّة تحلّق فوق بركان «فوجي – ياما».

القرار . فانقشع الضباب . وفي المساء لاحت النجوم في القبّة الزرقاء لأوّل مرّة منذ بداية الرحلة . وفي الساعة ٢،٤٥ صباحاً أطلقت مكبّرات الصوت الطيّارين من أسرّتهم ، واجتاح متونَ حاملات الطائرات فيضٌ من نور . وبدأ ضجيج المحرّكات التي كانت تُحمى يصمّ الآذان. وفي الساعة ٤،٣٠ أصدر «ناغومو» الأمر التالي : « أطلقوهم ! » فأضيئت فوانيس خضراء ، وانطلقت الموجة الأولى تشقّ كبد السماء القاتمة . تتقدّمها المطاردات . وبعد ربع ساعة كانت ١٠٨ طائرات قد أقلعت . فحلّقت برهة ثم اتّجهت شطر «ميدوي» التي تبعد ٢٤٠ ميلاً . وفي ذلك الوقت كانت المصاعد قد بدأت تعمل لرفع طائرات الموجة الثانية ، وهي قاذفات الطوربيدات والقاذفات الانقضاضيّة ، التي ستبقى احتياطاً على مدرج الإقلاع . مستعدّة للطوارىء ، ريثما تعود الطائرات المغيرة على «ميدوي» فتُعاد إلى حظائرها .

وفي الوقت الذي طار فيه المهاجمون أقلعت ٧ طائرات جومائيّة استكشافيّة من البارجتين «هارونا» و «شيكوما» . ومن الطرّاد «توني» . ومن حاملتي الطائرات «كاغا» و «أكاغي» . كان على كلّ واحدة منها أن تتوغّل إلى مدى ٣٥٠ ميلاً لاستكشاف قطعة دائريّة من عشرين درجة . ولم يُرَ ضرورياً تطبيق مبدأ الدوريّة المزدوجة كما يجري في كلّ مرة ترتدي فيها المعلومات طابع الأهميّة الفائقة . وعلى حدّ قول الكابتن «أوويشي» لم يكن أسطول العدوّ في الجوار . ويا ليته كان !

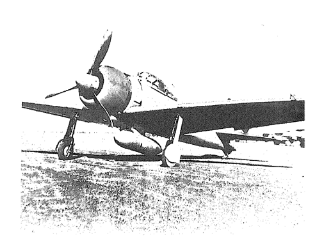
ومن ناحية أخرى واجهت طائرة الطرّاد «توني» الجومائيّة صعوبات في محرّكها ، وبدأ الميكانيكيّون بكشف غطائها في الوقت الذي غابت فيه الطائرات الأخرى في الأفق . ولكنّ هذا التفصيل يبدو تافهاً في الظاهر !

كانت «ميدوي» . بالنسبة للأركان العامّة الأميركيّة . حاملة طائرات لا يمكن إغراقها . لقد كدّسوا فيها ١٢١ طائرة فريدة نظراً لتنوّع أجناسها . فهي تابعة للبحريّة . و «المارينز» ، وسلاح الجوّ . وكأنّي بأصحابها قد أقاموا معرضاً للآليّات الطائرة! كانت أكبر مجموعة فيها تلك التي تضمّ ٣٢ طائرة جومائيّة « ب. ب. ي. » . منها ٥ طائرات «كاتالينا» برمائيّة متينة ومنتظمة . ولكن بطيئة وثقيلة . وكان سلاح المطاردة مكوّناً من ٢٠ طائرة «بوفالو» أثريّة تحمل التسمية المشجّعة «النعوش الطائرة» ! ومن ٧ طائرات «وايلدكات» . وهي أفضل منها بشكل واضح . وكانت القاذفات الانقضاضيّة تتّصف بالتنوّع الغريب نفسه : ١٦ «دانتلس» مقبولة . و ١١ «فنديكيتر» عتيقة حوّل رجالها اسمها إلى «فايبريتر» (أي المرجرجة) . ولم يكن يمثّل الطيران الحديث في هذا الخلط . إلاّ مجموعة صغيرة مؤلّفة من ٦ «أفينجر» . وهي نسّافات البحريّة . وخصوصاً مجموعة من سلاح الجوّ : ٤ « ب — ٢٦ مارودر » . و ١٩ «ب — ١٧ قلاع طائرة» ، وهي من أوائل القاذفات ذوات المحرّكات الأربعة .

الساعة ٥،٢٥ . والصباح جميل صاف . والنسيم عليل . والرؤية حسنة . كانت «ميدوي» مستعدّة للطوارىء منذ الساعة ٣ صباحاً . وكان الرجال إلى جانب طائراتهم . ومن بينهم كثيرون راحوا ينظرون إلى بزوغ الشمس لآخر مرّة في حياتهم ؛ فمند الليلة البارحة . ٣ حزيران . كان الملازم «دجويل.ريد» قد اكتشف . وهو في طائرته «كاتالينا» . قافلةً يابانيّة ، فهاجمتها طائرات « ب — ١٧ » من غير جدوى . وقد أتت الرسائل الأولى التي بعثت بها طائرات « ب .ب. ي. » قبل الفجر تؤكّد أهميّة تحرّكات العدوّ . فقد كانت السفن تملأ البحر . وكانت غمائم من الطائرات تتّجه صوب «ميدوي» . وقد ورد في الساعة ٥،٥٢ . تثبيت من جهاز الرادار في الجزيرة يقول : « طائرات عديدة . ٨٩ ميلاً . ٣٢٠ درجة ... » لقد كانت إخباريّة الأميرال «نيميتز» إذاً صحيحة .

وبعد قليل كانت ملايين الطيور في «ميدوي» تحتجّ صاخبة : فقد انطلقت شبيهاتها الآليّة إلى الجوّ في غمرة من الضجيج لا يُطاق . وقد نُحّي عن العمل بعض طائرات « ب.ب.ي. » ، وبعض الطائرات المقعّدة . وصدرت الأوامر إلى القاذفات بمهاجمة السفن المعادية . وإلى المطاردات بأن تقوم بمهمّتها في الذود عن «ميدوي» .

كانت المعركة غير متكافئة ؛ فقد كانت تواكب الـ ٣٦ «كاتي» . القاذفات الأفقيّة اليابانيّة ، و الـ ٣٥ «فال» ، القاذفات الانقضاضيّة . ٣٦ طائرة « زيرو » نسبتُها إلى «البوفالو» . وحتّى إلى «الوايلدكات» . كنسبة النسر إلى الباز ! وحلّق الماجور «باركز» بأسرابه إلى ارتفاع ١٧،٠٠٠ قدم ، آملاً أن يتمكّن من الانقضاض على القاذفات . إلاّ أنّ طائرات «زيرو» كانت تفوقه سرعة وسلاسة . فلحقت بالمطاردات الأميركيّة وأحدثت في الجوّ مجزرة رهيبة . كان ٢٦ طيّاراً قد انطلقوا من مدرج «إيسترن أيلند» ؛ ولكنّ ٩ منهم ، ومن بينهم اثنان فحسب عادا بطائرة سليمة . قد لبثوا الأمر بالهبوط بعد مرور ٢٥ دقيقة .



إستطاع فنّيو الطيران الأميركيّ أن يصنعوا طائرة «زيرو» يابانيّة من حطام خمس طائرات من النوع نفسه .

وأمّا الآخرون فقد هلكوا .

لقد بدا وكأنّ الجزيرتين الصغيرتين تشتعلان ، راح خزّان يشتعل مصعّداً دخاناً هائلاً ، وتهدّم المستشفى ، وفقدت مبان كثيرة رؤوسها ، وبقرت بطن الأرض فوهاتٌ عديدة . ومع ذلك كانت الأضرار تافهة : فمدارج «إيسترن أيلند» لم يمسّها سوء ، ولم يفقد المدافعون قطعة سلاح واحدة . أمّا الخسائر في الأرواح فقد اقتصرت على بعض القتلى والجرحى . فلولا مجزرة طائرات «بوفالو» لاعتُبرت الغارة على «ميدوي» إخفاقاً تامّاً . وقد كان قائد الغارة ، الليوتنان «جويشي توموناغا» ، يعلم ذلك حقّ العلم ، ولذلك بعث بالرسالة التالية وهو في طريق عودته بعدما فقد عشراً من طائراته : «ينبغي شنّ هجوم ثانٍ ...» كلمات ثلاث ستلعب في مصير «المحيط الهادىء» دوراً حاسماً .

كانت الساعة آنذاك ٧،١٠ ؛ وقد بدأت في تلك الساعة مرحلة جديدة . كانت القاذفات الأميركيّة تقترب من السفن اليابانيّة ، فقادتها طائرات «ب.ب.ي.» نحو حاملات الطائرات وهي مرام لها الأفضليّة التامّة مع أنّها شديدة الحماية . وكانت الخطّة أن يتمّ الهجوم بالجملة وأن ينقضّ الجميع في آن معاً لتفريق جهود سلاح المطاردة العدوّ . ولكن ، لسوء الحظّ ، تتابعت الهجمات بدلاً من أن تنطلق دفعة واحدة ، وكان «ناغومو» قد احتفظ بقسم من طائرات «زيرو» الرهيبة لحماية سفنه .

كانت الدفعة الأولى تضمّ ٦ «أفينجر» ، وهي الطائرات النسّافة ؛ فطارت على مستوى الماء ، ولكنّ طائرات «زيرو» أسقطت منها خمساً قبل أن تبلغ المرمى . أمّا السادسة فقد قُتل رامي رشّاشها ، ونال من جناحيها وابلٌ من الرصاص ، فبلغت «ميدوي» وتحطّمت فيها .

وتبعتها طائرات «مارودر» الأربع ، فتصدّت لها مدفعيّة مضادّة للطائرات كثيفة كالحائط ، وقد سُمع باللاسلكيّ صوت طيّار أطلق آخر صيحة له قائلاً : «آه ! يا أمّي ! لو أنّك تريني الآن ! » وتطايرت اثنتان من «المارودر» شظايا ، ونجت اثنتان ، ولسوف يُحصي الميكانيكيّون في إحداهما أكثر من ٥٠٠ إصابة .

في الساعة ٧،٥٥ ، بعد انقضاء نصف ساعة على إخفاق الطائرات النسّافة ، قامت طائرات «دانتلس» تجرّب حظّها . ومن بين طيّاريها الـ ١٦ كان ١٣ عديمي الخبرة . وعلى هذا الأساس استعاض الماجور «لوفتون ب. هندرسون» عن القصف الانقضاضيّ بالقصف الأفقيّ الذي يفترض زاوية أضيق ، ويتطلّب بالتالي مهارة أقلّ ؛ ولكنّ عنف النار ، وتدخّل طائرات «زيرو» المروّعة التي كانت تغوص بين قذائف مدفعيّتها المضادّة الخاصّة ، قد قطّعت أوصال الهجوم . فلم تصب قنبلة واحدة هدفها . وقد فقد الأميركيّون نصف هذه الطائرات .

بيد أنّ تشكيلة مهيبة قد لاحت عالية جدّاً في السماء : إنّها «القلاع الطائرة» الـ ١٥ ، بقيادة الليوتنان كولونيل «سويني» . وانطلقت «الزيرو» في اثر هذه العمالقة . إلاّ أنّها ذاقت طعم نيرانها الحامية ، وشعرت بدقّة هجومها الجناحيّ . فلزمت منها مسافة حذرة . وقد بقي « سويني » مالكاً رباطة جأشه فألقى ببساط قنابله على حاملات الطائرات التي تجمّعت بصورة طائشة . وتصاعدت من البحر جبال من ماء غطّت السفن . فظنّ الطيّارون من فوق أنّهم بتروا أسطول العدوّ . إلاّ أنّ الأميرال «ناغومو» قد دوّن على دفتره في غمرة المعركة العبارةَ التالية : «لا إصابات ! ...»

فهل انتهى كلّ شيء ؟ لا . فها قد أقبل المتخلّفون . أي طائرات «فنديكيتر» الـ ١١ . التي كان أحد قوّاد الطيران قد نصّ بشأنها القاعدةَ التالية : « يجب اعتبار كلّ «فنديكيتر» تخوض المعركة مفقودة » . إلاّ أنّ تلك التي أقلعت في ٤ حزيران قد كذّبت هذه القاعدة ، إذ أنّ ستّاً من جملة الـ ١١ قد عادت إلى قاعدتها . غير أنّها لم تكن قد تمكّنت من مقاربة حاملات الطائرات . فانقضّت على البارجتين «هارونا» و «كيريشيما» فأخطأتهما قيد شعرة ...

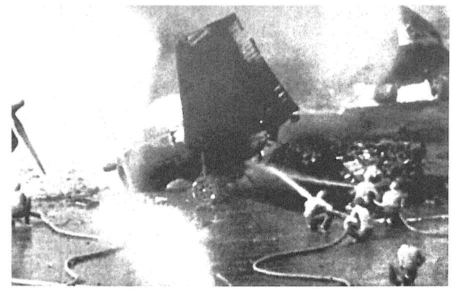
الساعة ٨،٢٥ . لم تُصب السفن اليابانيّة بخدش واحد . فيما كان طيران «ميدوي» قد دُمّر باستثناء طائرات « ب ١٧ » . لم يكن «ناغومو» قد أشرك غير ثلث قوّاته ، وها انّ إزالة مطاردات العدوّ تخوّله الآن القيام بأيّ عمل جسور يشاء . وفضلاً عن سفنه كانت قوّات ساحقة تتّجه نحو حفنة الأميركيّين المحاصَرين على رصيفهم المرجانيّ : إنّها قوّة الأميرال «كوندو» ، بأسطول إنزاله . والأميرال «ياماموتو» ، بقصور بحره المحصّنة . غداً تزهو «اليابان» بانتصار لها جديد ، ويغدو مخفر جزر «هاواي» الأماميّ طوع بنانها ، وترتعد أوصال «كاليفورنيا» ، وتُقطع مواصلات العدوّ في «المحيط الهادىء» . النهار ما يزال في أوّله . ٤ حزيران ١٩٤٢ . يا له من يوم جميل !

حقّاً إنّها لخمس دقائق حاسمة !

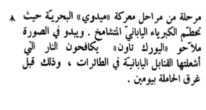
وأخيراً تمكّنت طائرة الطرّاد «توني» الجومائيّة من بعث الحياة في محرّكها . فأقلعت في تمام الساعة ٥،٠٥ . وقد تأخّرت عن موعدها ٤٥ دقيقة . لم يرَ أحد ضرورة استبدالها . ولذا لم تصل «الأكاغي» برقيّةُ الرقيب الأولى إلاّ في الساعة ٧،٢٨ . فبعد البرقيّات الاخرى كلّها التي أشارت إلى أنّ المحيط في ذاك القطاع قد بات خالياً تماماً . أعلنت طائرة «التوني» أنّها تشهد حشداً من السفن قد تبلغ العشر .

كان الأميرال «ناغومو» . قبل ذلك بثلاث عشرة دقيقة بالضبط ، قد أمر بإنزال قاذفات القنابل الـ٩٣ . التي كان يحتفظ بها لمثل تلك السانحة ، إلى الحظائر . كانت قرارات كشّافيه السلبيّة قد أقنعته بخلوّ البحر من الأعداء ؛ فهل كان باستطاعته الآن إعادة الطائرات إلى سطح الإقلاع ليقذف بها على السفن المشار اليها ؟ ! ربما استطاع ، ولكن لا في الحال . ذاك أنّه كان قد أوعز باستبدال القنابل بالطوربيدات . من أجل





< جنود أميركيّون يبنون جسراً مرتجلاً في أدغال «غوادا الكانال»، في جوّ من الحرّ والبرغش والإعياء. وانتصبت الرشّاشات تحمي العمّال من العدوّ – الحرباء الذي كان يتخفّى في الجوار بألف لون ولون.



^ مرحلة من مراحل معركة «ميدوي» البحريّة حيث تحطّم الكبرياء اليابانيّ المتشامخ. ويبدو في الصورة ملاّحو «اليورك تاون» يكافحون النار التي أشعلتها القنابل اليابانيّة في الطائرات، وذلك قبل غرق الحاملة بيومين.



^ جنديّ أميركيّ من مشاة البحريّة. وقد تفتّحت عظمة هؤلاء الجنود في حرب المحيط الهادىء، وخصوصاً في «غوادا الكانال»، حيث واجهوا اليابانيّين مواجهة الندّ للندّ.



لجأ اليابانيّون إلى الدرّاجة في طرقات «برمانيا»، خصوصاً لنقل أمتعتهم. وهكذا عادت الدرّاجة إلى الظهور على مسارح العمليّات المختلفة في الحرب العالميّة الثانية، من الأدغال إلى طرقات «نروج» المتجمّدة.

غارة جديدة على «ميدوي» ، انصياعاً لاقتراح الليوتنان «توموناغا» . كان العمل جارياً تحت ، وتنفيذ الأمر المعاكس يستغرق بعض الوقت . وعلى كلّ حال كان لا بدّ من الاحتفاظ بالجسور حرّة حتى تتمكّن من الهبوط مجموعاتُ الإغارة الأولى ، المرتقَبة بين حين وحين .

مضى ما يقارب الساعة ولمّا تعُد بعدُ طائرات «ميدوي» ؛ إلاّ أنّ «ناغومو» لم يقلق . وحين عاد رقيب «التوني» يذيع في تمام ٨،٠٩. أنّ «قطع العدوّ تتألّف من ٥ طرّادات و ٥ مدمّرات ...» غمره شعور بالاطمئنان التامّ . إذاً فليس ثمّة ما يقلق : إنّه لأُسَيطيل، لا أسطول ، ولسوف يوليه اهتمامه بعد أن يتمّ تعطيل «ميدوي» .

وتكلّمت الإشارات الضوئيّة من على «الهيريو» . كانت الرسالة صادرة عن نائب الأميرال «ثامون ياماغوشي» ، قائد الفرقة الثانية من حاملات الطائرات . كان يُعتبر خليفة «ياماموتو» المرتقّب ، وكانت سمعته الرفيعة تسمح له بإسداء النصح لرئيسه . قال : « أنصح بمهاجمة السفن المعادية في الحال » . وتطوّع «ناماغوشي» نفسه للقيام بهذه المهمّة ، فهو لم ينزل بعد قاذفات قنابله الاحتياطيّة إلى العنابر ، فثمّة ٤٢ طائرة من طراز «فال» ما تزال مصفوفة على جسور «الهيريو» و «السوريو» ، وهي لا تنتظر غير إشارة .

فاستشار «ناغومو» «جندا» الذي نهض من فراشه المحموم ليحضر قرارات المعركة . نظر «جندا» إلى السماء ، فإذا بالطائرات العائدة من قصف «ميدوي» قد طفقت تظهر وقد أشرف وقود أكثرها على النفاد ، فيما راح بعضها ينفث الدخان من الجراح التي أُصيب بها . واستأذنت المطاردات التي صدّت الهجوم عن حاملات الطائرات في الهبوط هي الأخرى ، بعدما استنفدت وقودها وذخيرتها . فقال «جندا» : «واجبنا ، في رأيي ، أن نستعيد أجهزتنا أوّلاً لنجدّد تموينها ، ثمّ نهاجم بقوّاتنا كلّها » .

لم تمض ثوان حتى بلغت الأميرالَ رسالةٌ أخرى صادرة عن طائرة «التوني» تقول : « يرافق العدوّ ما يبدو أنّه حاملة طائرات » . عضّ إذ ذاك «ناغومو» على شفتيه ؛ فلو أنّه عرف ذلك من قبل لما كان قد وجّه سهامه إلى «ميدوي» . أمّا الآن فهو عاجز عن مواجهة هذا التطوّر الجديد ، فنصف طائراته عائد من غارته ، بينما النصف الآخر قد بات في العنابر .

بيد أنّ الأميرال «ناغومو» لم يكن يعرف كلّ شيء بعدُ ؛ لم يكن أمامه حاملة طائرات أميركيّة واحدة ، بل ثلاث ، هي : «انتربريز» ، و «هورنيت» ، و «يورك تاون» . أمّا كيف غدت هناك فبتحفة من الجرأة والإقدام ، وبمعجزة من المبادرة والسرعة . ألواقع أنّها لـ ١٥ يوماً خلت كانت في جنوب المحيط الهادىء . تأخّر وصول «الهورنيت» و «الانتربريز» فلم تشتركا بموقعة بحر المرجان، وكانت «اليورك تاون» قد أُصيبت بجرحها البليغ ؛ فاستدعى «نيميتز» إلى «بيرل هاربور» الحاملتين الصحيحتين والحاملة الثالثة الجريح ، وقد عقد عزيمته على مقاومة فتح «ميدوي» وعلى منازلة العدوّ .

كانت القوّات الموضوعة تحت تصرّفه محدودة ومبعثرة ؛ فهناك بوارج قديمة العهد قد جُمعت في «سان فرنسيسكو» حيث راحت تغامر ببعض الجولات الساحليّة ؛ وكانت حاملة الطائرات «ساراتوغا» ما تزال قيد التصليح في «سان دياغو» . كان «نيميتز» يعرف أنّ الجزر الأليوتيّة ستتعرّض للهجوم يوم يُشنّ الهجوم على «ميدوي» ، ولذا رأى أنّه لا يستطيع إهمالها ، فخصّها بأحد أفضل مرؤوسيه ، وهو الأميرال «تيوبالد» ، ووضع تحت إمرته مجموعة من الطرّادات ؛ واحتفظ من أجل الدفاع عن «ميدوي» بالقوّة الضاربة رقم ١٧ التي تشمل «الانتربريز» و «الهورنيت» يحميهما ستار ضعيف مؤلّف من طرّادين و٦ مدمّرات ، وبالقوّة الضاربة رقم ١٦ التي تشمل ٥ طرّادات ثقيلة ، والتي تعتمد على «اليورك تاون» التي قد تحطّم نصفها . وخلاصة القول أنّ سفن «نيميتز» بحالتها وأوضاعها الخاصّة كانت توفّر له كلّ أسباب الامتناع والتهرّب !

ولكنّه اتّخذ قراراً آخر ؛ فما وصلت القوّة الضاربة رقم ١٧ إلى «بيرل هاربور» في ٢٤ أيّار حتى تلقّت أمراً بالإبحار في ٢٨ . ولكنّ رئيسها الأميرال «هالسي» دخل إلى المستشفى لمعالجة مرض جلديّ ألمّ به ، فيما أبحرت سفنه للقتال ، فاستبدل به «نيميتز» » نائبَ الأميرال «ريموند ا. سبروينس» وزوّده بتعليمات فيها من الإيجاز بقدر ما فيها من الغموض : « الدفاع عن «ميدوي» ، وتكبيد العدوّ أقصى ما يمكن من الأضرار » . وبعبارة أخرى فقد تركه للظروف تلهمه ما يفعل .

بقيت هنالك القوّة الضاربة رقم ١٦ . خرجت «اليورك تاون» من الماء في ٢٧ أيّار فحُدّد لسبر جراحاتها الأوّل مهلة ثلاثة أشهر لا بدّ منها لإعادة تجهيزها للقتال ؛ فاستشاط «نيميتز» غيظاً : ألم يكن في وطنيّة عمّال «بيرل هاربور» ، وفي ذكرى ٧ كانون الأوّل ، ما يمكن استثارته لتحقيق مأثرة ؟ بلى ! فقد أكبّ ألفا رجل على العمل في السفينة كالمجانين ، فيما راحت المشاغل على الأرض تصهر الصلب وتطرّق قطع التبديل على قوالب من خشب لأنّ الوقت اللازم لوضع الرسوم لم يكن متوافراً . وفي ٢٩ — أي بعد يومين بدلاً من ثلاثة أشهر ! — غادرت «اليورك تاون» حوضها . وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي غادرت «أواهو» عقب ليلة من العمل المحموم ، فالتحقت «بالانتربريز» و «الهورنيت» في الموعد المحدّد على بعد ٣٠٠ ميل من «ميدوي» . ولمّا كان «نيميتز» قد قرّر البقاء في مكتبه في «بيرل هاربور» ليقوم بدور التنسيق ، أُسندت القيادة إلى أقدم الأميرالين ، أي إلى «فرانك ج. فليتشر» المقيم على متن «اليورك تاون» .

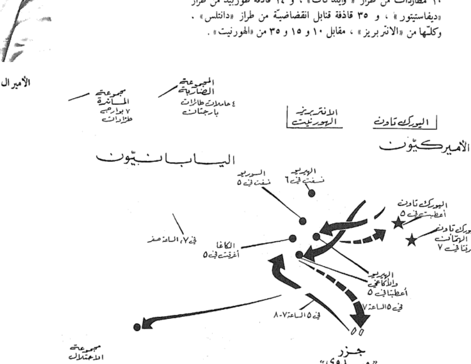
حلّ الرابع من حزيران ، فإذا السفن الأميركيّة تمضي في طريقها نحو الغرب بسرعة ٢٥ عقدة . قُدّمت وجبة الصباح على حاملات الطائرات في الساعة ١،٣٠. ، وعقبَ ذلك انتظارٌ طويل أثار أعصاب الطيّارين الذين أخذوا يطالبون بالإقلاع بصيحات مدوّية . هذا فيما كانت معركة «ميدوي» قد بدأت ، خارج نطاق السمع والبصر ، بقصف جزيرة المرجان . كان تتبّع التطوّرات يجري في غرف العمليّات بكثير من القلق ، كما يجري جمع المعلومات التي تذيعها أجهزة طائرات «كاتالينا» التي لا تعرف الكلل . وكان لا بدّ من الاعتراف بأن اليابانيّين من جهتهم قد باتوا على علم بوجود القوّات الضاربة ، لأنّ هدير محرّك غريباً ، ما أمكن تحديد موقعه بالضبط ، كان يُسمع بين الفينة والفينة . أرسل «فليتشر» من على «اليورك تاون» مجموعة من ١١ كشّافاً تنبسط كالمروحة ، فضايقه الأمر بسبب الضرورة التي كانت تحتم عليه أن يسترجعهم ؛ فراح يحث «سبروينس» على الهجوم ؛ بيد أنّ «سبروينس» ، وهو ضابط البحريّة التقليديّ ، كان يفضّل الاقتراب من العدوّ الذي كان ما يزال على بعد ٢٠٠ ميل وأكثر ، وفي رأيه أنّ الطريق والسرعة الراهنتين كانتا تكفيان لتقصير هذه المسافة إلى النصف إذا ما أُرجىء الهجوم حتى الساعة التاسعة .

كان «سبروينس» ، لحسن الطالع ، قد احتفظ بأركان «هالسي» ، وخاصّة برئيس الأركان «مايلز براونينغ» ، وهو رجل قليل النوم حادّ البصر . عارض هذا وجهة نظر الأميرال ، على اعتبار أنّ الطائرات قد صُنعت ليجازَفَ بها ، وأنّ الأمر الجوهريّ هو مداهمة العدوّ ساعةَ يكون أكثر تعرّضاً للإصابة ، ولسوف يكون كذلك عمّا قليل ، ساعةَ يُضطرّ إلى استقبال الطائرات العائدة من قصف «ميدوي» . ثمّ انّ

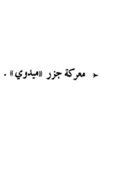


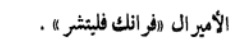
الفرصة العابرة في مداهمة سفن السطح اليابانيّة ، وقد غطّت جسورَها طائراتٌ غير جاهزة ، متوافرة الآن وفي متناول اليد ، شرط أن يبدأ الهجوم من غير تأخير . أدرك «سبروينس» ذلك ، فاقتنع ، ثم أقدم على المجازفة للإفادة من الفرصة السانحة ؛ غيّر «الانتربريز» و«الهورنيت» طريقهما في الساعة ٦،٥٦ ، فانعطفتا باتّجاه جنوب الجنوب الشرقيّ لتواجها الريح . وأقلعت الطائرات الاولى في الساعة ٧،٠٢ . وتمّ الإقلاع في تمام الساعة ٨،٠٦ . وتوارت باتّجاه الجنوب الغربيّ ١١٩ طائرة بعد ما تشكّلت أسراباً ، وهي أشبه ما تكون بمجموعات صغيرة من نقاط لا تلبث أن تتلاشى في الأفق البحريّ . وكانت موزّعة على الشكل التالي : ١٠ مطاردات من طراز « وايلدكات » ، و ١٤ قاذفة طوربيد من طراز «ديفاستيتور» ، و ٣٥ قاذفة قنابل انقضاضيّة من طراز «دانتلس» . وكلّها من «الانتربريز» ، مقابل ١٠ و ١٥ و ٣٥ من «الهورنيت» .

الأميرال «تشستر نيميتز» ، أميرال المحيط الهادىء .



◄ معركة جزر «ميدوي» .

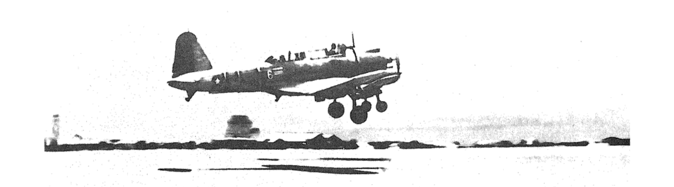




الأميرال «فرانك فليتشر» .



كان الطيّارون الأميركيّون فتياناً ، فلم تكن لهم قوّة التأثّر الشعريّة التي يمتاز بها خصومهم ذوو العيون اللوزيّة الشكل ، بل استقلّوا طائراتهم وهم يمضغون العلوك ويقذفون فاحش الكلام . فهم من غير شكّ يؤثرون العودة بالسلامة على أن يموتوا ميتة الأبطال ، ولكنّهم كانوا يخفون تأثّرهم وراء وجه جامد جمود لاعب البوكر ووقح قحة الجندي . أمّا الليوتنان «جون ك. والدورن» ، قائد سرب حاملات الطوربيد في «الهورنيت» ، فكان أحد القلائل الذين عبّروا عن شعورهم المكبوت ؛ كان من مواليد «داكوتا» الشماليّة ، وقد جرى في عروقه عن طريق جدّته نزرٌ من الدم الهنديّ . صافح «والدورن» قبل ذهابه رئيسه الكابتن «مارك ميتشر» وهو يقول : « أعرف حقّ المعرفة أنّ مصير سربي هو الدمار الشامل ، وأنّه ليس لي أيّ حظّ في العودة إلى حاملة الطائرات هذه ، ولكن



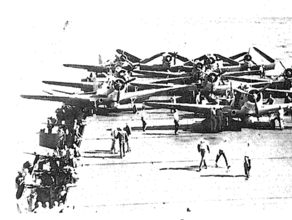
واجه اليابانيّون في بداية الحملة هذه الطائرات النسّافة الضعيفة من طراز «ديفاستيتور» . إلاّ أنّ الأميركيّين ما لبثوا أن استبدلوا بها «الدانتلس» .

بإمكانك أن تعتمد عليّ يا سيديّ ...» ثمّ انطلق في طليعة ١٤ طائرة .

بعد قليل ، أي في ٨،٣٨ ، شرعت «يورك تاون» تطلق طائراتها ، فأقلعت منها ١٠ مطاردات و ١٢ قاذفة طوربيد و ١٧ قاذفة قنابل ، ممتطية متن الرياح لشنّ هجومها على حاملات الطائرات اليابانيّة .

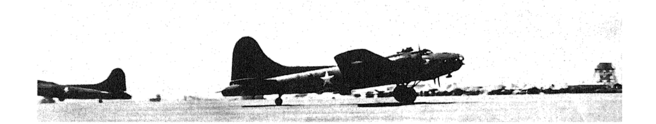
كان ينبغي العثور عليها أوّلاً ، ولم يكن ذلك من السهولة بمكان : فالمحيط الهادىء واسع ، والسفن تمضي في سيرها مسرعة ، ولم تكن الطائرات قد جهّزت بعد بالرادار ؛ فلم يجد الليوتنان كومندر «ستانهوب ك. رينغ» ، قائد مجموعة قاذفات القنابل الانقضاضيّة التابعة « لهورنيت » ، غير بيداء من المياه ، حيث كان يتوقّع أن يجد العدوّ ؛ ذاك أنّ «ناغومو » كان قد غيّر وجهة سيره قصد منازلة الأسطول الأميركيّ ، فابتعد عن «ميدوي» وانعطف في سيره نحو الشمال . أمّا «رينغ » فقد انحرف بعكس ذلك نحو الجنوب ، ففقدت المعركة قاذفات قنابله الانقضاضيّة الـ ٣٥ ، فضلاً عن المطاردات العشر التي اقتفت أثرها خطأ (وقد كان عليها أن تواكب قاذفات الطوربيد) ، فابتعد عن المعركة بذلك ما يعادل ربع القوّة الجويّة الأميركيّة . وأمّا المطاردات العشر فقد فُقدت نهائيّاً لأنّها هوت جميعها إلى المحيط بعدما نفد منها الوقود .

إتّجهت قاذفات الطوربيد بمجموعاتها الثلاث نحو الشمال الغربيّ ، وكان «والدرون» المتوثّب أوّل من اكتشف العدوّ ؛ ولقد سمع الملازم «جورج ه. غاي» ، الذي كان يقتفي أثره في الهجوم ، صيحاته وهو يقول : «حذار هذه المطاردات ! ... لأبذلنّ مليوناً من أجل أن



طائرات «الدانتلس» المسدّدة كالسهام .

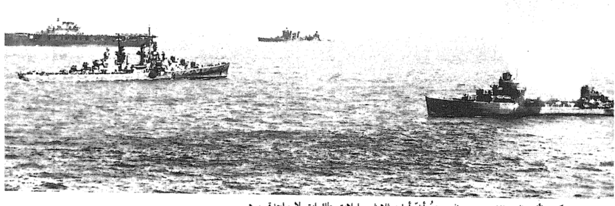
ألقلاع الطائرة تظهر على مسرح العمليّات في المحيط الهادىء .



أعرف من ... لقد هوى جاراي إلى الماء ! .. » ثم سمع الملازم «غاي» كذلك صيحة رامي رشّاشه يقول : «لقد أصابوني ! » وسمع الملازم «غاي» بعد ذلك قنبلة تنفجر بالقرب منه ، ثم جلبة طائرته تصطدم بالماء . كان قد قذف طوربيده ووثب من فوق حاملة الطائرات التي كان يهاجمها وراح يطفو بأعجوبة في مياه أثار خفق المراوح سخطها . وتراقص على مقربة منه زورق من مطّاط ، ولكنّ «غاي» امتنع عن نفخه كي لا يثير انتباه طائرات «الزيرو»، فما كان منه إلاّ أن غطّى رأسه بوسادة المطّاط وتظاهر بالموت على الطريقة البحريّة ، فيما كان اليابانيّون يمرّون حوله بسرعة فائقة . وفي اليوم التالي التقطته طائرة «كاتالينا» . وما لم يكن الملازم «غاي» يعرفه بعد ، هو أنّه الناجي الوحيد من الرجال الثلاثين الذين انقضّوا على «الكاغا» و «الأكاغي» . كان اليابانيّون روّاد النسف الجويّ بالطوربيد ، ولذا كانوا يخافونه أكثر من أيّ نوع آخر من القتال البحريّ. فكانت مطارداتهم تنقضّ من السماء ، ومدفعيّتهم المضادّة للطائرات تركّز نيرانها على خصومهم المقبلين على ارتفاع قليل من سطح الماء . كان سرب «والدرون» قد اجتذب ما لا يقلّ عن ٥٠ طائرة «زيرو» لم تترك له

كان مفجعاً لأنّهما قد استنفدنا قواهما في غارات ثلاث غير مجدية، ولسوف تشهدان عمّا قليل ردّة الخصم الذي لم تصيباه . كانت قاذفات القنابل وقاذفات الطوربيد قد أصبحت جاهزة منذ زمن بعيد على متن «السوريو» و «الهيريو» . ولو أنّ «ناغومو» لم يشأ إلاّ أن تشنّ الهجمات كلّها في آن واحد لكانت طائراته تحلّق الآن فوق رأس العدوّ . أمّا على متن «الأكاغي» و «الكاغا» فلم تتوقّف عمليّات ملء الخزّانات وتحميل القذائف خلال مجزرة «الدیفاستيتور» . كانت الطائرات تُرفع من العنبر إلى السطح الأعلى واحدة تلو الأخرى . فيما أخذت المحرّكات تَحمى ، وقد استقلّ الملاّحون متونها . في تمام الساعة ١٠،٢٠ أوعز «ناغومو» باطلاق الطائرات حالما يتمّ استعدادها . وما حانت الساعة ١٠،٢٤ حتى دوّت مكبّرات الصوت في «الأكاغي» معمّمة أمر التنفيذ . وتحرّكت طائرة «زيرو» لتفتح المسيرة ، ثم انطلقت بأقصى سرعتها في الجوّ... وفي تلك اللحظة بالذات دوّت صرخة هائلة تعلن : «قاذفات قنابل» !

ما من أحد رآها قادمة . لأنّها قد برزت من خلال الشمس ،



لم يكن الأميرال «ناغومو» يعرف بعدُ أنّ أمامه ثلاث حاملات طائرات لا واحدة ، هي «الانتربريز» ، و «الهورنيت» ، و «اليورك تاون» .

أيّ حظّ في النجاة ، فأخذ الضبّاط والبحّارة اليابانيّون يصفقون من على سفنهم الجبّارة .

واستمرّت مجزرة الطائرات النسّافة على هذا النحو ؛ هاجم سرب «الانتربريز» ، بقيادة الليوتنان ـ كومندر «يوجين ا. لندسي» ، «الكاغا» التي كانت طائرات «الزيرو» تحوّم حولها كالذباب حول سلّة القمامات ، فأسقطت ١٠ طائرات من أصل ١٤ . وهاجم سرب «اليورك تاون» ، بقيادة الليوتنان ـ كومندر «لانس ا. ماسّي» ، «السوريو» ، فأبيدت ١٢ طائرة من أصل ١٣ . لم تُلْقِ غير ٧ طوربيدات أخفقت كلّها في إصابة المرمى ، ولم ينجُ من قاذفات الطوربيدات الـ ٤١ التي دخلت حومة القتال سوى ٥ فحسب أفلتت من المطاردات اليابانيّة وعادت إلى حاملات الطائرات .

صارت الساعة ١٠،٢٠ ، ولمّا تُصَب السفن اليابانيّة بخدش واحد ، فبدا الانتصار اليابانيّ باهراً . أدرك «ساغومو» ، نظراً لعدد الطائرات التي هاجمته ، أنّ أمامه حاملتي طائرات على الأقلّ ، ولكنّ وضعهما

وكانت طائرات «الزيرو» أشبه بطيور جارحة متخمة عقب المجزرة التي حقّقتها منذ قليل ، فلم تتمكّن من التحليق عالياً . ما كان باستطاعة شيء أن يوقف طائرات «الدانتلس» المسدّدة كالسهام ، ولم يوقفها في الواقع شيء . كان صفيرها يملأ الآذان بحدّته، وإذا بصدمة عنيفة تزعزع «الأكاغي» من المدخنة حتى الحيزوم ، وتقذف بالرجال في كلّ ناحية ؛ ذاك أنّ ثغرة واسعة كالكهف قد فُتحت على مقربة من المصعد المركزيّ ، فالتوى المصعد ذاته وكأنّه في كفّ عملاق ، ثم هوى في العنبر ؛ وانتصبت ألواح الجسر الفولاذيّة بشكل عموديّ وكأنّها حراشف مسنّنة ؛ وراحت الطائرات المتلاصقة يشعل بعضها بعضاً ، فيما البنزين يضطرم بألسنة من اللهب الشاحب ، وفيما الذخيرة تتفجّر : أشرطة من الخرطوش تزفر ، وقنابل وطوربيدات تدوّي . ثمّ هزّت الأعماقَ انفجاراتٌ أخرى صمّاء قويّة : فهنا رجال يركضون ، وهنالك رجال يصرخون ويحترقون ، وهنالك رجال ينشجون بالبكاء ، شأن الكابتن «ميتسوو غوشيدا» الذي أبصر عند نهوضه أعمدة من الدخان

الكثيف ترتفع كذلك من «السوريو» و «الكاغا» . هكذا أصيبت حاملات الطائرات الثلاث في وقت واحد . وهكذا كانت خمس من الدقائق كافية لتحويل النصر الوطيد إلى كارثة .

لم يعثر قائد قاذفات القنابل الانقضاضية العائدة «للانتربريز» . «كلارنس ماك كلوسكي» . على العدوّ في المكان المرتقب . شأن زميله التابع «للهورنيت» . فتوجّه ناحية الشمال الشرقيّ . محلّقاً مسافة ٥٠ ميلاً فوق المحيط القفر . ثم أخذ يفكّر بضرورة العودة ، وفجأة بصر بثلم سفينة يمتدّ تحته كسلك من فضّة ؛ كانت تلك مدمّرة تتجه بأقصى سرعتها نحو الشمال الغربيّ . فافترض «ماك كلوسكي» أنّها تحاول الالتحاق بمجمل الأسطول . فراح يقتفي أثرها . وما لبث أن بدا له مشهد «ليسلي» السفينة المعادية نيران رشّاشه الحامية . أمّا طيّاروه المقتفون أثره فقد سجّلوا أربع إصابات : قنبلة في المصعد الأماميّ . وقنبلة بجوار المصعد الخلفيّ . وقنبلة في المؤخّرة اليمنى . وقنبلة في الوسط . فاندلعت ألسنة هائلة من اللهب . وأخذت كتل الفولاذ تتناثر في الهواء ، وإذا بقاذفات القنابل الانقضاضيّة ترتدّ من غير أن تصاب إحداها بأذى !

على «الأكاغي» أصاب الأميرال «ناغومو» ذهول وخبل . فراح رئيس أركانه يحثّه على نقل قيادته إلى الطرّاد «ناغارا» . ويشجّعه بهذا القول : «ما زالت غالبيّة سفننا سليمة. ولا بدّ من أن تتحمّل مسؤوليّة قيادتك .» أمّا الشيخ . الذي كان إلى حين مكابراً متغطرساً . فرفع رأساً مشدوهاً لا يعي . إذ ذاك عمد مرافقه «نيشيباياشي» إلى يده فأمسك بها



لم يسلم من سرب الطائرات النسّافة رقم ٨ إلاّ طيّار واحد هو «جورج غراي» ، الأوّل من اليمين ، في الصفّ الأوّل .

الطيّار «جورج غراي» .



حاملات الطائرات الثلاث المثير للنشوة . فأوعز إلى سربه بأن ينقسم بين الحاملتين القريبتين ؛ كانت أولاهما هي «الكاغا» . والثانية هي «الأكاغي» . وما مضت دقائق وجيزة حتّى بقرت القنابل تينك السفينتين الأبيّتين .

وكأنّ بسمات الحظّ لا تأتي إلاّ مزدوجة ، ففيما كان «ماك كلوسكي» يبصر أثر السفينة . كان زميله «ماكسويل س.ليسلي» . من «اليورك تاون» . يلحظ دخاناً . وقاده الدخان إلى ساح القتال . فإذا بأوّل سفينة تقع عليها عينه هي حاملة الطائرات الضخمة «سوريو» ؛ فما كان منه إلاّ أن انقضّ من زاوية يبلغ اتّساعها ٧٠درجة. ولكنّه شعر بطائرته تخفّ فجأة . ورأى جاره في الجهة اليمنى يرسم له بيده حركات واسعة فهم منها أنّه قد فقد قنبلته . يا لسوء الحظّ ! أيكون طيّاراً قد مارس الطيران منذ خمس عشرة سنة . وتدرّب بشوق وشغف من أجل هذه اللحظة الفذّة . ويفقد قنبلته !؟ ... وطالما أنّ الأمر كذلك فقد أصلى

وضفق يخاطبه كولد : «أيّها الأميرال . لقد التهمت النيران الممرّات الجانبيّة برمّتها . فلم يبقَ أمامك إذا شئت النجاة إلاّ أن تعمد إلى حبل فتهبط به إلى جسر المراسي . ثمّة مدمّرة في انتظارك . ولقد نُقلت إليها صورة جلالة الامبراطور . فهيّا اتبعني . » وامتثل «ناغومو» كشخص عديم الوعي والإرادة .

ألساعة ١٠.٤٦ : لقد أصيبت حاملات الطائرات منذ ٢٥ دقيقة فقُضي عليها بالهلاك . ستختفي «الكاغا» و «السوريو» بعد الظهر في وقت واحد تقريباً . فتحمل الأولى إلى اللجّة قبطانها الميت . وتحمل الثانية قبطانها الحيّ . «ياماغيموتو» . الذي عبثاً حاول ضابط معاون . هو بطل من أبطال المصارعة اليابانيّة . أن ينتزعه من على مقعد الحراسة . أمّا «الأكاغي» فظلّ عائماً طوال الليل . ولن تصيبه الضربة القاضية إلاّ عند الفجر بأمر من «ياماموتو» . أمّا قائد الطرّاد المكلّف بالقضاء على السفينة الضخمة فقد أعلن باكياً منتحباً : « إنّه لأوّل هدف أصوّب اليه النار في هذه الحرب » .

أفتكون موقعة «ميدوي» قد انتهت يا ترى ؟ كلاّ . فثمّة حاملة الطائرات اليابانيّة «هيريو» . وثمّة . عوضاً عن «ناغومو» المحطّم الخائر القوى . أشرسُ أميرالات البحريّة اليابانيّة . «ثامون ياماغوشي» . وثمّة قوّة هائلة من البوارج والطرّادات . يضاف إليها اثنتان من حاملات الطائرات كانتا قد أُرسلتا إلى «الجزر الأليوتيّة» . فبادر «ياماموتو» إلى استدعائهما في الحال . بسم الحظّ لليابانيّين أوّلاً . ثم تنكّر لهم فشدّ أزر الأميركيّين . ولكنّ انقلاباً جديداً ما زال كافياً ليجعل من «ميدوي» نصراً لصالح «اليابان» .

لم ينتظر «ياماغوشي» أمراً علياً ليقذف بطائرات «الهيريو» في غارة على حاملة الطائرات المعادية الوحيدة الّتي يعرف موقعها : وهكذا انطلقت نحو «اليورك تاون» ١٨ قاذفة قنابل و١٨ قاذفة طوربيدات تواكبها١٢ مطاردة . فألفتها وأصابتها فأحرقتها . وأصاب «اليورك تاون» ما أصاب «الأكاغي» . فأُخليت . وبعد ما عامت ساعات طوالاً أغرقها طوربيد صديق .

بيد أنّ الثأر كان في الطريق يحثّ خطاه : فأقلعت من على «الانتربريز» و «الهورنيت» ٢٤ قاذفة قنابل هي كلّ ما تبقّى «لفليتشر» و «سبروينس» : كانت الساعة تشير إلى الخامسة بعد الظهر . وكانت «الهيريو» تعاني ببسالة سكرات الموت . فرفعت سرعتها إلى ٣٠ عقدة . وراحت تتعرّج في سيرها على غير هدى واقيةً نفسها بنار مدفعيّتها المضادّة للطائرات . بيد أنّ جهودها ذهبت أدراج الريح ؛ فقد سبق لمطارداتها أن قُدّمت ذبائح ومحروقات اثناء الغارة على «اليورك تاون» فيما اندفع الطيّارون الأميركيّون في نشوة من الإعياء والغضب يقاتلون كالأبالسة : فانهالت على السفينة أربع قنابل متتالية متقاربة . وبدا فعلها في الحال حاسماً نهائيّاً : حتى ان طائرات «الدانتلس» . الّتي لم تكن بعد قد ألقت قنابلها . تركت حاملة الطائرات لمصيرها واتّخذت من البارجتين «هارونا» و «كيريشيما» هدفاً لها . ثمّ فرّت بكلّ ما وفّرته لها محرّكاتها من سرعة . وهكذا أمكن «فليتشر» أن يرسل إلى «نيميتز» تقرير النصر الوجيز التالي : «لقد غدوتُ سيّد الجوّ . »

قُضي على «الهيريو» كذلك بالهلاك : فقد تأجّجت نار الجحيم في أعماقها . وأخفقت المحاولات المبذولة للوصول إلى الآلات وإعادة الحركة إلى المضخّات أمام سجف النيران واللهب . وفي الساعة ٢،٣٠ من ٥ حزيران : أمر «ياماغوشي» الكابتن «كاكا» بجمع من تبقّى من الرجال على سطح السفينة ؛ فإذا هم ٨٠٠ بثياب مسودّة وجفون وشعور محروقة . كان القمر والحريق يضيئان كتلتهم الصامتة المتجمّدة في وقفة التأهّب . مع أنّ سطح السفينة كان يلذع أخمص أقدامهم . كان «ياماغوشي» رجلاً قصيراً مستدير الوجه . قد درس الانكليزيّة وعدوّه في جامعة «برنستون» . وكان التيّار قد انقطع في شبكة الاتّصالات الداخليّة . فعمد «ياماغوشي» إلى مكبّر للصوت قديم العهد وقال : «إنّي كقائد لفرقة حاملات الطائرات هذه . أعلن أنّي آخذ على نفسي تبعة ضياع «الهيريو» و «السوريو» كاملة . وفيما أنا ألزم متن السفينة آمركم بمغادرتها وبالاستمرار في خدمة جلالة الامبراطور بما يليق من الأمانة والإخلاص » .

إنصاع الرجال للأمر فانتقلوا إلى متن المدمّرة الّتي تجاسرت فوقفت إلى جانب حاملة الطائرات المقضيّ عليها . وطلب ضبّاط الأركان من «ياماغوشي» أن يوليهم نعمة البقاء معه . فرفض ذلك شاكراً لهم : بعدما تبادلوا الأنخاب . فشربوا الماء القراح لعدم توافر أيّ شراب آخر . انصرفوا مودّعين الأميرال بأوفر التحيّات جموداً وأُفقيّة . ما عدا الكابتن «كاكا» الذي كان هو الآخر سيّداً على متن سفينته ؛ فلقد قرّ رأيه . وهو الضابط الوضيع الذي غمره الامبراطور شرفاً يوم أولاه ثقته فعهد إليه بإحدى سفنه . على البقاء ليلقى حتفه مع «الهيريو» .

إبتسم «ياماغوشي» : فطالما أنّ «كاكا» يصرّ على الموت و «الهيريو» . فليكن له ذلك . واعتبر «ياماغوشي» أنّ في هذا القرار ما يشرّفه . إذاً فسيموتان معاً بطوربيد أُوعز إلى المدمّرة بإطلاقه حالما يكون قد غادر «الهيريو» رجالُها الأخيرون .

هنا انتهت موقعة «ميدوي» .

ما زال «ياماموتو» محتفظاً بأكثر قطع أسطوله . ولمّا تبصر أيّة من سفنه سفينة معادية . ولمّا تطلق أيّة سفينة طلقة واحدة غير طلقات المدفعيّة المضادّة للطائرات : بل وانّ أكثرها لم يطلق بعد أيّة طلقة : فقطع «الياماتو» الجبّارة ما انفكّت صامتة . والأطنان الـ ١٣ الّتي بإمكانها أن تقذفها دفعة واحدة لم تلعب بعد أيّ دور . وفي المجلس الحربيّ الذي عُقد ليلاً برز بعض الآراء المتوثّبة يطالب بمتابعة العمليّات وبشنّ الهجوم على «ميدوي» مهما كلّف الأمر . وبأن ينقضّ الأسطول كلّه على السفن الأميركيّة فيدفع في تحطيمها ما يلزم ثمناً لفقدان السيطرة على السماء . ولكنّ «ياماموتو» لم يقبل بشيء من ذلك . لأنّه كان يدرك أكثر من الشبّان الذين أعمتهم المذلّة وعبرات الهزيمة عجزَ السفن العائمة إذا ما وقعت تحت رحمة قاذفات القنابل . فما يقترحونه عليه لن يؤول إلاّ إلى خسائر جديدة . وإلى مزيد من الضعف الخطير يحلّ «باليابان» وهي على عتبة نزاع طويل غير متعادل .

وفي تمام الساعة الثانية من ٥ حزيران انطلق من «الياماتو» ذاك الأمر المشؤوم : «عودة شاملة» . واستبدّت الأقدار بالأسطول فاصطدم الطرّادان الثقيلان «ميكوما» و «موغامي» فيما كانا ينعطفان . فتركهما طرّادا الفرقة الباقيان يجرّان الأذيال ببطء . وساقت اليهما الغوّاصة الأميركيّة «طمبور» قلاعَ «ميدوي» الطائرة . فهُشّم «الميكوما» وغرق بعد ساعات . أمّا «الموغامي» فتمكّن بفعل أعجوبة من الوصول إلى إحدى القواعد اليابانيّة حيث بقي قيد الترميم طوال سنة .

ويبقى أنّ تلك الغارة الجليلة الضخمة لم تحقّق غير هدف واحد هو احتلال جزيرتي «أتو» و «كيسكا» المنعزلتين اللتين يكاد لا يسكنهما أحد . فأسر اليابانيّون فيهما ٣٩ «أليوتيّاً» وأحد المرسلين وامرأته ؛ ولم يجرؤ الأميرال «هوسوغايا» على احتلال «أداك» الّتي اعتبرها بالغة القرب من قاعدتيّ «داتش هاربور» و «كودياك» الأميركيّتين !

كانت «اليابان» في صبيحة ٤ حزيران تُعتبر منيعة لا تُقهر . فإذا بها في مساء ٤ حزيران نفسه مغلوبة مقهورة . والواقع أنّ تاريخ الحروب المتقلّب الطويل لم يسجّل قط من الانقلابات ما هو أعنف وأشمل .

الفصل السادس عشر
أيار - أيلول ١٩٤٢

ذروة

إن صيف ١٩٤٢ هو نقطة الأوج من الحرب . فإن كانت «اليابان» قد تلقت في «ميدوي» ضربة قاصمة ، فإن «ألمانيا» ،على نقيض ذلك ، قد أحرزت انتصارات أيقظت من جديد شعوراً بعدم اندحارها . بيد أنّ القوى الجبّارة التي قامت تتصدّى لها قد جعلت من مآثرها هذه انتصاراتٍ باهظة الثمن .

«النيل» و«القفقاس» و«الفولغا»



في الأطلسيّ أحدث ظهور الغوّاصات الألمانيّة في الشتاء على السواحل الأميركيّة انقلاباً ؛ فقد وضع «دونيتز» في الخدمة غوّاصةً ذات مدى عمليّ بعيد ، من الطراز ٩ ، وكذلك غوّاصة لتموين الغوّاصات تحمل ٦٠٠ طنّ من المازوت ؛ وقد أحدث هذا الجديد مفاجأة كاملة . دخلت الغوّاصة «أو – ١٢٣» ، بقيادة الكومندان «هارديغين» ، مرفأ «نيويورك» وأغرقت من السفن ما وزنه ٥٠،٠٠٠ طنّ بسهولة فائقة . وكان قوّاد آخرون يمارسون القرصنة في جوار رأس «هاتيراس» ، فدخلوا خليج «المكسيك» وحملوا طوربيداتهم حتى «الأنتيل» . وكان سكّان الشواطىء في «نيو دجرزي» و «كارولينا» يسمعون ضجيج الحرب من خلال الانفجارات البعيدة التي راحت تهزّ الأفق ؛ ومع ذلك حافظ الشاطىء على إنارته وكأنّه في حالة سلم ، مسهّلاً على العدوّ مهمّته . وبعدما صدر مرسوم يقضي بخنق النور ، رفضت «فلوريدا» العمل به كي لا يتأثّر من جرّائه موسمها السياحيّ . لقد قبلت «أميركا» الباسلة السعيدة بتضحيات الحرب ، ولكنّها لم تقبل بما تحمله من مضايقات . أمّا الحظر الخفيف الذي فُرض على الوقود ، وعلى الأُطر ، وعلى اللحوم ، فقد واجه مقاومة حامية .

وخلال أشهر ١٩٤٢ الأولى استمرّت مجزرة الأطنان على طول السواحل الأميركيّة . وقد بلغت في أيّار ٤٩١،٠٠٠ طنّ تمثّل ٩١ سفينة ، أي ما يوازي ثلثي الخسائر العامّة في الأطلسيّ ؛ وقد قال «تشرتشل» بهذا الصدد : «إنّه لجنّة الغوّاصات الألمانيّة»... ولحسن الطالع لم تكن لدى «دونيتز» الغوّاصات الكافية للإفادة من هذا التفوّق إفادة كلّيّة ، فثلث سفنه ، التي يبلغ عددها المئة تقريباً ، كان باقياً في المياه المتوسطيّة والسكاندينافيّة ؛ ولو اننّا أقمنا لرحلات الذهاب والإياب حساباً لوجدنا أنّه كان بإمكان ٧ غوّاصات أو ثمان أن تعمل – في آن معاً – في النصف الغربيّ من الكرة الأرضيّة . وراح الخطر يتضاءل في الوقت الذي قرّرت فيه «أميركا» أن تنظّم القتال جدّياً في مياهها الساحليّة ، يعاونها الأخصّائيّون الانكليز ؛ فمنذ صيف ١٩٤٢ اعتُبِرت «جنّة الغوّاصات الألمانيّة» جنّة مفقودة .

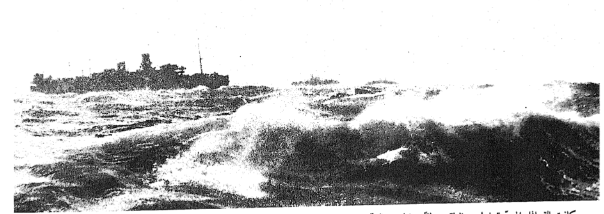
كانت رحى المعركة الحاسمة تدور في المصانع البحريّة . فمذ كان الحلفاء يباشرون دراسة مخطّطاتهم الستراتيجيّة ، كانوا يكتشفون أنّ حاجاتهم إلى السفن تتعدّى الإمكانات التي تستهلكها الحرب الجوّيّة والبحريّة يوماً بعد يوم . لم تكن القضيّة مقتصرة على تعويض الخسائر

حدث جديد في مظاهر الحرب العالميّة الثانية : تحولّت معركة «سيباستوبول» إلى معركة مدفعيّة .

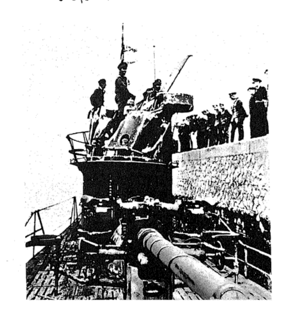
فحسب ، بل وكذلك قضيّة البناء بنسبة تفوق نسبة ما دمّره الألمان والإيطاليّون واليابانيّون. وقد أتى تحقيق هذا الأمر باهراً ؛ فقبل «بيرل هاربور» كانت مصانع «نود – كايزر» البحريّة قد صمّمت «لانكلترا» سفينة نقل حمولتها ١١،٠٠٠ طنّ ، على أن يجري صنعها على نطاق واسع ؛ فهذه السفينة ، التي حملت اسم «سفينة الحرّية» ، قد غدت أداة للنصر . كانت السفن الجاهزة الصنع تجمّع في مهلة قصيرة تدنّت نهائيّاً إلى أربعة أيّام . ولكنّ البحر مفجع حقّاً ؛ فقد راحت عشرات من سفن النقل وناقلات البترول تتفجّر ، وتحترق ، ثم تغرق ؛ وغدت كلّ رحلة بحريّة كابوساً مزعجاً طويلاً . ووجد البحّارة التجاريّون أنفسهم في غمرة تجارب أرهب من معارك الجنود ، فكانوا يتطايرون في اللهب ، أو يلفظون أنفاسهم الأخيرة ببطء في المياه الجليديّة . ومع ذلك لم يعد سلاح الغوّاصات إلى اكتساب الطابع الفتّاك الذي كان له خلال الحرب العالميّة الأولى ، حين كانت أعمال النسف تسدّد إلى الحلفاء الذين كانوا من الهزيمة على قيد أنملة . إنّ ١٩٤٢ تذكّر بـ ١٩١٧ ، ولكنّها ليست تكراراً لها .

ألهدف : "القفقاس"
ألمرمى الأوّل : "سيباستوبول"

في «روسيا» كان «هالدر» وغيره من الجنرالات يعتقدون أنّ الخسائر التي لحقت بالجيش الألمانيّ خلال الشتاء تحول دون استمراره في عمليّات هجوميّة واسعة النطاق ؛ ويعتبرون أنّه كان لزاماً على الجيش أن يلملم جبهته ، ويعيد تكوين احتياطه ، ويحسّن خطوط مواصلاته الموازية للجبهة، ويستدرج الروس إلى الهجوم بغية تكبيدهم هزائم متتالية بفضل ردّات فعل عنيفة . ولكن لم يكن أحد ليجرؤ على الدفاع عن هذه النظريّة



كانت القوافل الميمّمة شطر «مالطة» تتطلّب الحزم والقوّة .



أمام الفوهرر الذي دعّم تقلّبُ الأوضاع سلطته وزادها تصلّباً .

كان رأي «هتلر» أن تجنّد للهجوم الإمكاناتُ كافّة ، بغية الوصول في ١٩٤٢ إلى الهدف الذي كان الشتاء الروسيّ قد أبعده عنه ، ألا وهو إبادة الجيش الأحمر . كان يعلم أنّ تدخّل «أميركا» قد أبعد نهائيّاً أمل حرب قصيرة الأمد ، وكان لا يجهل أنّ مشاريع لغزو «أوروبا» كانت تختمر في الأركان العامّة الانكلو – أميركيّة . إنّ القضاء على الجيش السوفياتيّ ، وإلقاء الروس إلى ما وراء «الأورال» ، سيمكّنان «الرايخ الثالث» من استعادة القوى الضروريّة للحؤول نهائيّاً دون وقوع هذا الخطر. «فألمانيا» ، التي كانت محميّة في الغرب ، سوف تحتفظ بدور المبادرة في الشرق ، فتطلق من «البلقان» و «القفقاس» هجوماً قويّاً يستولي على الشرق الأوسط بكامله ، بمساعدة العمليّة الثانويّة التي يقودها «رومل» . وكان «هتلر» يرتجي بذلك إقامة وضع حربيّ سياسيّ اقتصاديّ يفقد استمرارَ القتال إلى أجل بعيد كلّ أهميّة . ولسوف يغدو بميسور

الكابتن الألمانيّ «كريمير» يعود بغوّاصته المُصابة .



سفينة شحن انكليزيّة حمولتها ٦،٠٠٠ طنّ تغرق قريباً من الشاطئ الأميركيّ . وقد التقط الصورة أحد بحّارة الغوّاصة الّتي أغرقتها .

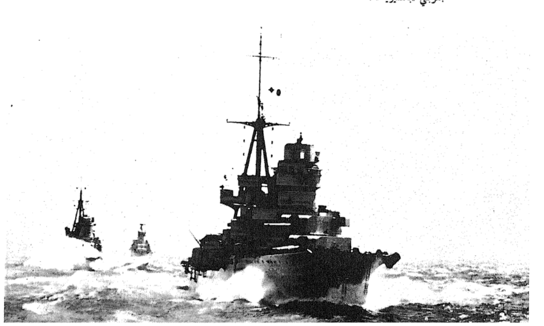
«ألمانيا» أن تنتظر وهن الدول البحريّة وخضوعها . إلاّ أنّه كان ينبغي تحطيم «روسيا» ، وهي آخر سيف قاريّ في يد تلك الدول .

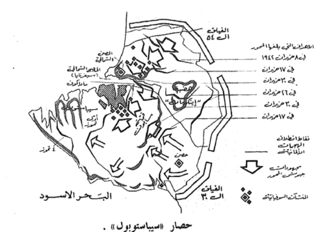
في ٥ نيسان وقّع «أدولف هتلر» مذكّرته رقم ٤١ . إنّها لوثيقة طويلة تضمّنت بحثاً في الفنّ العسكريّ وإسهاباً في الدعاية صُبّا في أسلوب ستراتيجيّ مقتضَب . بيد أنّ الأفكار العامّة قد برزت من خلالها واضحة : استمرّ «هتلر» في إهمال «موسكو» الّتي كانت الجبهة الألمانيّة ما تزال تبعد ١٥٠ كلم عنها ، وأصرّ على إيجاد الحلّ من خلال أجنحة الجيش . ففي الجنوب ، وعبر طريق «القفقاس» ، سوف يطلق الجيش الألمانيّ أوّل جهوده ؛ ولسوف تقوم عمليّتان تمهيديّتان إخفاقين شتويّين ، فتوفّران للجيش الألمانيّ قواعد انطلاق ؛ وفي «القرم» سوف يُعاد احتلال شبه جزيرة «كيرتش» ويبلغ حصار «سيباستوبول» الغاية المنشودة ؛ وفي «أوكرانيا» سوف يعمد إلى تقويم جبهة «الدونيتز» المحطّمة ؛ أمّا العمليّة الّتي ستعقب ذلك . وهي «العمليّة الزرقاء» . فتُقسم مراحل ثلاث تليها مرحلة نهائيّة : في المرحلة الأولى تهاجم جيوش المجموعة الجنوبيّة ميسرة الجيوش الروسيّة وتبيدها في منطقة «فورونيج» ؛ وفي المرحلة الثانية تطوّق هذه الجيوش الروسَ بين «الدونيتز» و «الدون» ؛ وفي المرحلة الثالثة يهبط الجناح الأيسر مع مجرى «الدون» فيما يرتقبه الجناح الأيمن . ولسوف يعود الجناحان إلى الاتّصال في منطقة «كالاتش» ويستوليان من ثمّ على «ستالينغراد» بعد أن يجتازا الـ ٥٠ كلم الّتي تفصل «الدون» عن «الفولغا» . إذ ذاك تأتي المسيرة العامّة إلى «القفقاس» تتويجاً لحملة الصيف .

كان مخطّط المذكّرة ٤١ إذاً قائماً على إرساء جنب دفاعيّ شاسع بين «ستالينغراد» و «فورونيج» . بقصد عزل «القفقاس» والمساعدة على غزوه . لم يسعَ «هتلر» وراء طريدتين في آن معاً ، كما ظُنّ ، بتعيينه هدفين يفصل بينهما ألف كلم من الجبال والسهول . فتناقُض الأهداف لن يظهر إلاّ فيما بعد . حين دفع «هتلرَ» مَلَلُه الأزليّ إلى الرغبة في السير إلى «باكو» قبل أن تنتهي معركة «ستالينغراد» . ولكن . في تصميم المخطّط البدائيّ . كانت «ستالينغراد» رزّة القفل الذي يبغي «هتلر» بحمايته الاستيلاءَ على منطقة كان امتلاكها يمكّنه . على حدّ ظنّه ، من القيام بأعباء الحرب إلى ما شاء الله .

إنّ ضعف التصميم الهتلريّ المشؤوم كامن في عدم التناسق في الأهداف والإمكانات . كانت مجموعة الجنوب تملك لهجومها الصيفيّ ٦٠ فرقة ألمانيّة منها ٩ مصفّحة فحسب ؛ وأسهم الرومانيّون والإيطاليّون والمجريّون بـ ٢٨ فرقة . وقد قدّرت قيادة الجيوش الألمانيّة هذه الفرق بنسبة نصف فرقة ألمانيّة في حالة الدفاع ، وبثلثها في حالة الهجوم . فضعفا هذه القوّات كانا إذاً ضروريّين . ومع ذلك اختصر «هتلر» القوّات الّتي كانت تشرف على ٢،٠٠٠ كلم من الجبهة الدفاعيّة ، بين «فورونيج» و «كاريليا» ، إلى ٨٥ فرقة فحسب ، أي إلى ما هو دون حدود الأمن .

قافلة بريطانيّة يهاجمها طرّادان إيطاليّان ، تساندهما طائفة من الطائرات والنسّافات ، جنوبيّ «بانتلّيريا» .





حصار «سيباستوبول» .

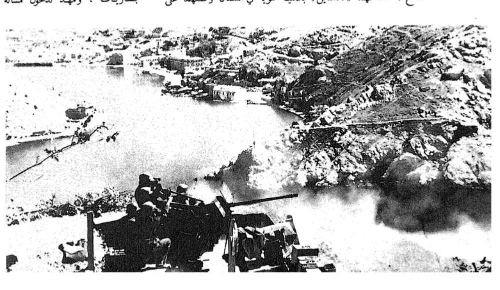
كان «هتلر» يحارب هذه التناقضات الجسيمة ، أو بالحريّ كان ينفي وجودها ، بقوله تكراراً إنّ الوهن قد أدرك العدوّ . فقد ورد هذا المبدأ في رأس المذكّرة رقم ٤١ . قال : «إنّ العدوّ ، في سعيه الحثيث لبلوغ نتيجة حاسمة ، قد استهلك خلال هذا الشتاء الحشودَ التي كان يحتاج اليها في عمليّاته اللاحقة ...» وأمّا دوائر الاستخبارات فلم تكن تصادق على هذه الحقيقة ، ولكنّ «هتلر» رفض رأيها زاعماً أنّها عديمة الكفاءة فاسدة الروح . وقد روى «هالدر» قائلاً : «لقد تفجّر «هتلر» غيظاً حين حاول بعضهم إعلامه بأنّ الروس ينتجون١،٢٠٠ دبّابة شهريّاً...» إنّ رجال الحرب جميعاً يعبرون طريقاً ضيّقاً تحيق به المهاوي ! فالرضوخ للأمور الراهنة ، والإقلاع عن فرض الإرادة عليها ، أمران يقودان إلى السلبيّة والدمار ؛ أمّا الاستهانة بالأمور الراهنة ، والظنّ بأنّ الإرادة هي صاحبة السلطان ، وأنّ الممكن لا حدّ له ، فأمور تقود إلى الإفراط والدمار. وقد سقط «هتلر» في ثاني هاتين الهوّتين بصورة عقيمة : فكلّ ما سيأمر به بعد ذلك الوقت سيشوبه بُعدٌ عن الحقيقة .

في ٨ أيّار بدأ أوّل هجوم تمهيدي ، وهو هجوم «مانشتاين» في «القرم» . كان الجيشان السوفياتيّان الـ ٤٤ و الـ ٥١ قد اعتصما في برزخ «باربانش» الصغير الذي شهد القضاء على الكونت «شبونيك» السيّء الطالع ؛ فخدعهما «مانشتاين» بعمليّة تمويه في الشمال وحملهما على التوغّل إلى الجنوب . ولم تنقضِ عشرة أيّام حتّى كانت استعادة «كيرتش» قد تمّت . وقد أسر الجيش الألمانيّ الـ ١١ ١٧٠،٠٠٠ رجل ، ولم يخسر إلاّ ٨،٠٠٠ رجل بين قتيل وجريح ومفقود .

هذا وقد بقيت تعترضه أصعب المهامّ ، وهي الاستيلاء على «سيباستوبول» .

كانت المدينة قد تحصّنت خلال الشتاء ، بعدما بقيت مواصلاتها البحريّة مؤمّنة . كان جيش الجنرال «ا. ج. بتروف» يعدّ ٩ فرق للمشاة ، ووحدات دبّابات عديدة ، وقوّة جوّية صغيرة ، و ١،٦٠٠ مدفع . وقد مكّنت طبيعة الشاطئ من إقامة موقع قصير نسبيّاً يمتدّ من وادي «بلْبيك» حتّى خليج «بالاكلاف» الصغير . في الشمال كانت الساحة خالية نسبيّاً ، إلاّ أنّ الروس قد كدّسوا فيها تحصينات تضمّ قلاعاً قديمة جُدّدت ، مسلّحة بمدافع من عيار ٣٠٥ ، وفرق مشاة للمساندة . وفي الشرق كانت طبيعة الأرض ركاماً : فالتلال القصيرة التي تغطّيها الأشواك ، وتملأ ها الفروض ، تجعل تقدّم المشاة أمراً صعباً ؛ وناتئة «سابون» الصخريّة بارزة كالحصن استقامةً ؛ أمّا «سيباستوبول» فهي إلى الوراء ، على الضفّة الجنوبيّة من خليج «سفيرنايا» الذي كان بالنسبة لها بمثابة حفرة تقيها أيّ هجوم صادر من الشمال . وعلى الرغم من التحصينات ، ومن حاجز الخليج ، قرّر «مانشتاين» أن يلقي بمجهوده الأوّلي على القطاع الشماليّ . فهذا الرجل ، الذي يُعتبر من أشياع الحرب السريعة البارزين ، قد تحوّل إلى تقنيّ في حرب العتاد . وراح يبحث في مصانع السلاح الألمانيّة عن أقوى العيارات وأكثرها خروجاً عن المألوف : عيار ٣٠٥ ، و ٣٥٠ ، و ٤٢٠ . وفضلاً عن هذا حصل على مدفعيّ هاون جبّارين من عيار ٦٠ سنتم ، «ثور» و «أودين» ؛ وفوق هذا كلّه «دورا» الوحش ، وهو مدفع كان قد صُنع خفيةً لخرق حصون خطّ «ماجينو» . إنّه أضخم وأقوى مدفع صُنع أبداً حتّى ذلك اليوم : «العيار : ٨٢ سنتم ؛ وزن القذيفة : ٧ أطنان ؛ طول الأنبوب : ٣٠ متراً ؛ علوّ المسند : علوّ منزل ذي دورين ! وقد وجب استخدام ستّين قطاراً لنقل هذا المدفع وقطعه ، وكان ٤،٠٠٠ رجل يخدمونه أو يحمونه . لم يكن هذا المدفع ليقذفَ أكثر من ٣ قذائف في الساعة الواحدة ، إلاّ أنّ قذائفه كانت كفيلة بسحق ملجإ تبلغ كثافته ٣٠ متراً .

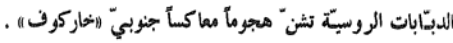
وهكذا كانت معركة «سيباستوبول» معركة مدفعيّة ، وهذا حدث جديد في الحرب العالميّة الثانية . أنزل «مانشتاين» إلى الميدان ٢٠٨ بطّاريّات ، ومهّد لدخول مشاته بقصفٍ استغرق خمسة أيّام



المدافع الألمانيّة المضادّة للطائرات تقصف سفن العدوّ في خليج «بالاكلافا» ، في «القرم» .

أيّار ١٩٤٢ . استسلام الجنود الألمان المطوّقين في الطريق إلى «خاركوف» .




الدبّابات الروسيّة تشنّ هجوماً معاكساً جنوبيّ «خاركوف».

في الطرقات التي تسبح في بحور الوحل كان حتماً على الألمان ان يؤمّنوا لأنفسهم ممرّاً.



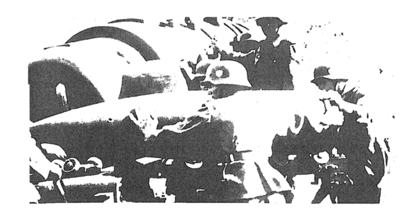
وقد أسهم الفيلق الجويّ الثامن ، بقيادة «فون ريشتهوفن» ، بقصفه الجوّيّ ؛ فكان شعور فرق الفيلق الـ ٥٤ الأربع المهاجمة في القطاع الشماليّ أنّ ما من روسيّ واحد تمكّن من النجاة من زوبعة النار . ولكنّها عادت عن هذا الاعتقاد إزاء مقاومة الروس الضارية الملحميّة . كانت المنشآت التي أطلق عليها أسماء «ماكسيم غوركي ١» ، و «ستالين» ، و «تشيكا» ، و «غيبيو» ، موضع معركة . وأمّا الحرّ ، وقد بلغ ٥٠ درجة مئويّة ، فقد حلّ بشدّة خارقة ، فكان له في المعركة تأثيره . كانت الخسائر جسيمة؛ وقد ذُكر أنّ سريّة ألمانيّة قد تدنّى عدد رجالها إلى٩ ، فكان على «مانشتاين» أن يستدعي من «كيرتش» مشاة الفرقة الـ ٤٦ لإحلالهم مكان مشاة الفرقة الـ ١٣٢ التي استُهلكت تماماً . وقد صرّح قائلاً : «إنّ المعركة قائمة على حدّ سكّين» .

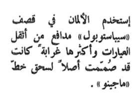
في ١٨ حزيران ، وهو اليوم الـ ١١ للهجوم ، بلغت فرقة المشاة الألمانيّة الـ ٢٢ أخيراً خليج «سفيرنايا» . وبعد مرور خمسة أيّام نقل «بتروف» دفاعه إلى الضفّة الجنوبيّة . وفي ٢٨ استولت فرقة المشاة الألمانيّة الـ ٥٠ على «إنكرمان» وهضبتها. وكانت في هذه الهضبة كهوف خُزّنت فيها كمّيات هائلة من الذخيرة ، وكان آلاف من النساء والأطفال قد حلّوا فيها سعياً وراء الملجإ . وقام الروس بتفجير المخزن ، فقذف الانفجار إلى علوّ ٣٠٠ متر جانباً من الهضبة ، ودفن تحت الأنقاض



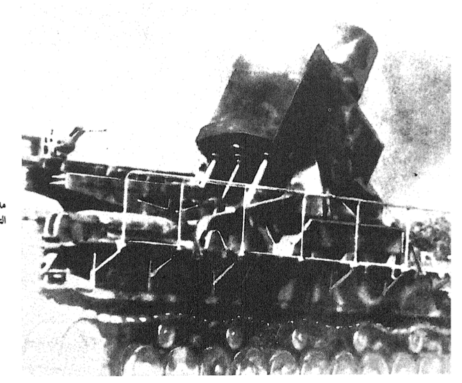
الجموع التي لجأت إلى حناياها .

وشهدت الليلة التالية ضربين من ضروب الجرأة الألمانيّة ؛ فقد أطلق «مانشتاين» على خليج «سفيرنايا» زوارق هجوم فأرست فيها رأس جسر للفيلق ٥٤ . وفي نقطة أكثر توغّلاً إلى الجنوب استولى الفيلق ٣٠ عنوةً على ناتئة «سابون» بهجوم صاعق ، بعدما تقدّم خطوةً خطوة . واحتُلّت هضبة «مالاكوف» فانتهى حصار «سيباستوبول» الثاني . واستمرّت بقايا الحامية في المقاومة أربعة أيّام في رأس «شيرسونيز» ، فيما راحت البحريّة الحمراء ترحّل أثمن العناصر ، ومن جملتها الجنرال «بتروف». وقد سقط في أيدي العدوّ ٩٠،٠٠٠ أسير . وفي «أوكرانيا» سبق الروسُ الألمان إلى المبادرة ؛ فالعمليّة التمهيديّة الثانية «للمخطّط الأزرق» ، المسمّاة «فريديريكوس» ، الرامية إلى إعادة إقامة خطّ «دونيتز» ، كان متوقّعاً بدؤها في ١٧ أيّار . ولكنّ الروس هاجموا في ٩ . وكان أوّل هدف يسعون إليه هو الهدف الذي فاتهم في الشتاء ، ألا وهو استعادة «خاركوف»،وبعد الاستيلاء على «خاركوف» كان





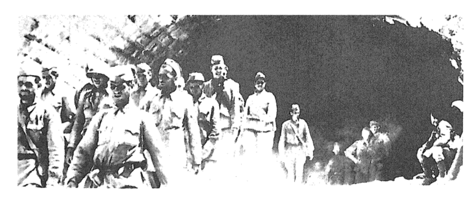
إستخدم الألمان في قصف «سيباستوبول» مدافع من أثقل العيارات وأكثرها غرابةً كانت قد صُمّمت أصلاً لسحق خطّ «ماجينو» .



مدفع الهاون الثقيل «تور» مذلّل التحصينات .

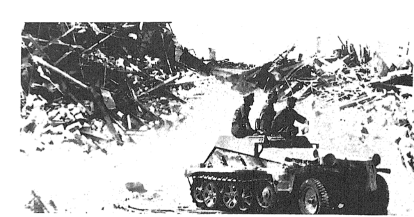


صورة تعود بالأذهان إلى حرب ١٩١٤، يوم كانت المدفعيّة الثقيلة تمهّد الميدان قبيل الهجوم .

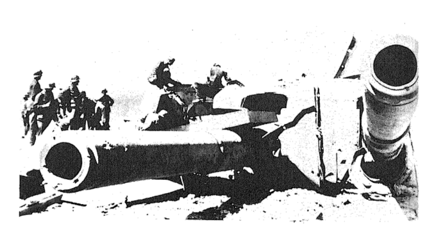


على أثر سقوط «سيباستوبول» خرج هؤلاء الأسرى الروس من النفق الذي احتموا به إبّان الحصار . ويبدو في أعماق الصورة ، إلى اليمين ، رهط من الجنود الألمان الذين أسروهم .

دخول دبّابات الكولونيل «مايزل» إلى «سيبباستوبول» الّتي رزحت تحت ٥٠،٠٠٠ طنّ من القذائف من كلّ لون .



مدافع روسيّة محطّمة وقع عليها الألمان بعد احتلالهم «سيباستوبول».





لقد انتهى حصار «سيباستوبول» الثاني . ويبدو بعض الجنود الألمان بين أنقاض مصنع «مكسيم غوركي» الذي قوّضت القذائف حيطانه القويّة .

بجبالها . وإذ رفض «ستالين» سارت الأمور في مجاريها . واستولى جيش «رووف» الألمانيّ السابع عشر على «إسجوم» على «الدونيتز» ، وذلك في ظهر الروس ؛ وعاد جيش «باولوس» يمسك بزمام الأمور ، وفي ٢٥ أيّار أقام اتّصاله بجيش «رووف» . وبهذا أضيف إلى لائحة الجيش الألمانيّ ٢٧٠،٠٠٠ أسير روسيّ . لقد استبشر الروس قبل الأوان «بمجرى الحرب الجديد» ؛ وقال المؤرّخ العسكريّ «بلاتونوف» مقرّاً : «إنّ الهجوم الذي أطلقناه في أيّار ١٩٤٢ قد انتهى بإخفاق ذريع . والمسؤوليّة في ذلك تقع على كاهل القيادة العليا التي لم تعرف كيف تنسّقه ، والتي لم تكترث لحماية الجنبات .» ولكنّ حزم الصدمة الأوليّة ونجاحها كانا نذيرين «لهتلر» يبرهنان أنّ الروس كانوا أقلّ مواتاً ممّا كان يصرّح به !

«روزفلت» يطالب بفتح جبهة ثانية في الحال

أمّا في المعسكر الأنكلو – أميركيّ فكان القلق الناجم عن خطر انهيار المقاومة الروسيّة يسيطر على المباحثات العسكريّة والحكوميّة . كان المبدأ القائل بأوليّة الحرب ضدّ «ألمانيا» قد أقرّ في كانون الثاني لدى انعقاد مؤتمر «أركاديا» ، فقبلت بلا نقاش فكرة «تشرتشل» القاضية بوجوب «إقفال الدائرة» . كان على الحلقة الفولاذيّة المزمع إقفالها حول «الرايخ الثالث» أن تشمل الجبهة الروسيّة فتمرّ «بانكلترا» ، والأطلسيّ ، و «أفريقيا الشماليّة» ، والشرق الأوسط ، و «إيران» ، لتلتحم فوق جبال «القفقاس» . وكانت العمليّة المعروفة «بسوبرجمناست» تعني تركيز الضلع الأفريقيّة في مكانها .

أمّا العمليّة المعروفة باسم «بوليرو» ، والتي أقرّها كذلك مؤتمر «أركاديا» ، فكانت تقضي بتحويل «انكلترا» إلى معسكر للحشد والتدريب تابع للحلف ، تُنقل إليه الفرق الأميركيّة تباعاً لدى تشكيلها ، لتُتمّ فيه تدريبها وتتأهّب لغزو «أوروبا» . ولم يُثِر هذا الهدف النهائيّ الذي رمت إليه السّتراتيجيّة الحليفة أيّ تباين في وجهات النظر ، ولم تنشب حوله أيّة مشادّة .

غير أنّ الوضع تبدّل ساعةَ انتقل البحث إلى الكمّيات والمراحل والفترات . ولم يُخفِ «تشرتشل» ، مع ما به من تسرّع وتوثّب ، رأيه في أنّ كلّ محاولة متسرّعة قد تقع تبعة النهوض بها على كاهل «انكلترا» وحدها ؛ من أجل ذلك تشبّث بعناد فائق بمبدإ النزول في «أفريقيا الشماليّة» الذي يفرض عدداً معقولاً من الرجال ومخاطر محدودة ، فيما نظر بكثير من التخوّف إلى عمليّة مماثلة على القارّة تفرض عدداً ضخماً من الرجال ومخاطرَ جسيمة جدّاً ، طالما أنّ القوّات الأميركيّة لم تركّز بعد في مواقعها لتتحمّل المسؤوليّة الكبرى . ولقد بذل الجهد مُثبتاً أنّ غزواً مخفقاً في «أوروبا» قد ينتهي بكارثة ، ويؤجّل هزيمة «هتلر» إلى سنوات .

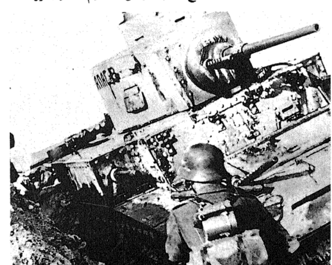
أمّا هزيمة «هتلر» تلك فكانت الاستعدادات الأميركيّة القائمة تحتّم وقوعها ؛ فقد أخذت «أميركا» تعمل على إنشاء جيش يضمّ ١٤٣ فرقة في آخر ١٩٤٣ ، و ١٩٢ فرقة في عام ١٩٤٤ ؛ كما أنّها كانت تنشئ قوّة جويّة بريّة تتألف من ٢٦٩ مجموعة ، وقوّة بحريّة يبلغ عدد رجالها ٤ ملايين . بيد أنّ معضلات التجهيز والتنظيم والتنسيق التي كان يفرضها ذلك المجهود الجبّار كانت هي نفسها جبّارة . كان تنفيذ مخطّط «بوليرو» محفوفاً بالمصاعب : فالطاقة البحريّة مفقودة ، وبناء سفن الإنزال تؤخّره عقبات فنيّة ومشادّات بين الجيش والبحريّة ، فضلاً عن



جنوبيّ «البوتانوفكا» توغّل هؤلاء الجنود الألمان في غابة تغطّيها المستنقعات ، وقد وضعوا الشاش على وجوههم يقيها البرغش .

حتماً على هجومهم أن يستمرّ باتّجاه «دنيبر وبتروفسك» وغايته هي تحرير «أوكرانيا» كلّها . وقد أعلن «تيموشنكو» ، قائد الجبهة الجنوبيّة الغربيّة ، عن ذلك للأوكرانيّين إذ قال : «لقد اتّخذت الحرب مجرى جديداً ...» وانصبّ الهجوم الروسيّ على الجيش الألمانيّ السادس ، الذي كان يقوده منذ كانون الثاني جنرال القوّات المصفّحة «فريدريك باولوس» ، فرزح جناحه الأيسر من غير أن يتحطّم ، فيما خُرق وسطه جنوبيّ «خاركوف» . وتغلّب الألمان على الأزمة إذ شنّ الجيش السابع عشر هجوماً معاكساً على جنب الجيب الذي فتحه زحف العدوّ ؛ فما كان إلاّ أن انهار الجيش السوفياتيّ التاسع ، وهو بإمرة الجنرال «ف. م. شاريتونوف» . وهكذا وجد «تيموشنكو» النجاح ، الذي كان مفعماً بالبشائر ، يتحوّل إلى خطر رهيب في غضون ساعات ؛ فاقترح على «ستالين» أن يعلّق الزحف إلى «خاركوف» ، وأن يسحب مجموعة الجيوش من الشبكة التي علقت

دبّابة أميركيّة الصنع خلّفها الروس عند قيام «العمليّة الزرقاء» .



أنّ الترتيبات الضروريّة المتعلّقة بإنشاء الثكنات والمعسكرات والمطارات كانت تثير مشاكل كبيرة في جزر بريطانيّة كثيرة الازدحام . ففي مطلع ربيع ١٩٤٢ لم تكن قد اكتملت بعدُ في «انكلترا» أيّة وحدة من الوحدات الأميركيّة الكبرى ؛ ففرقة المشاة ٣٤ ، وفرقة المصفّحات الأولى ، كانتا قيد النزول في «ايرلندا» الشماليّة ، ولم تبلغ القافلة الأولى التابعة للقوّة الجوّية الثامنة مدينة «ليفربول» إلاّ في ١١ أيّار .

كانت الأوضاع على ما ذُكر حين تلقّى «تشرتشل» في ٢ نيسان رسالة من «روزفلت» تعلمه بقرب وصول «هاري هوبكنز» و «جورج مارشال» . تقول الرسالة : «ولسوف يعرضان عليكم مخطّطاً آمل أن تهبّ «روسيا» إلى الترحيب به... » أمّا قوام المخطّط فلا أقلّ من المبادرة إلى فتح جبهة ثانية في أوروبا» ! ولقد دفع «روزفلتَ» إلى ذلك شكاوى «ستالين» وضغطُ الأوساط اليساريّة ، فضلاً عن نفوذ مستشاريه العسكريّين . كان في كانون الثاني قد اقتنع بوجهة نظر «تشرتشل» القائلة بإعداد غزو «أوروبا» للأمد البعيد والاكتفاء بفتح «أفريقيا الشماليّة » في الأمد الأقرب ؛ إلاّ أنّ «ستيمسون» ، وزير الحربيّة ، و «مارشال» ، رئيس الأركان ، أعادا عليه الكرّة مستخلصَين من الحرب العالميّة الأولى أنّ كلّ استطراد جانبيّ يشكّل خطأ جسيماً . كان الوضع كذلك بالنسبة «لسوبرجمناست» الذي وصفه «ستيمسون» بأنّه «أفظع أنواع التشتّت وتبذير القوى » . فالمهمّ هو إصابة العدوّ في الموضع الحسّاس ، أي في «فرنسا» ، بدلاً من الضرب في دروب التشرّد والدوران التي ينصح بها «تشرتشل» القائد الهاوي! والواقع أنّ ضابطاً فتيّاً برتبة ليوتنان — كولونيل ، نال نجمته الأولى بفضل التقدّم السريع الذي يوفّره زمن الحرب ، وهو «دوايت د. ايزنهاور» ، رئيس «شعبة التخطيط الحربيّ» ، قد وضع المشروع الذي حمله «مارشال» ، يسانده المستشار «هوبكنز» ، إلى «تشرتشل» .

جرت المقابلة يوم ٨ نيسان في «دونينغ ستريت» . كان المخطّط الذي وضعه «أيزنهاور» يقوم على غزو «فرنسا» خلال ١٩٤٣ ، بعد عبور «المانش» بين «كاليه» و «الهافر» ، على أن يشترك في هذه العمليّة المسمّاة «راوند — أب» (وهي صيحة التجمّع التي يطلقها رعاة البقر) ٣٠ فرقة أميركيّة ، و ١٨ فرقة بريطانيّة ، و ٥،٨٠٠ طائرة من ضمنها ٢،٢٥٠ طائرة بريطانيّة . غير أنّ عمليّة أخرى أضيق نطاقاً ، أُطلق عليها اسم «سليد جهامر» (المطرقة) قد وُضعت ليجري تنفيذها منذ ١٩٤٢ ، وكانت تقوم على احتلال شبه جزيرة فرنسيّة قد تكون «بروتانيا» أو خصوصاً «كوتنتين» . وكانت هذه العمليّة تتطلّب ثماني فرق ، على «انكلترا» أن تقدّم ستّاً منها .

بلغت حيرة «تشرتشل» أقصى حدودها ، فأثنى على «المخطّط البارع الضخم» الذي قدّمه الرئيس ، ولكنّه أقام في طريقه اعتراضات جمّة ، ثم انتهى إلى تقديم جنوده . أمّا «ألان بروك» اللاذع اللسان فرأى المخطّط «مدهشاً خارقاً» ، ولكنّ ذلك لم يمنعه من أن يسجّل في دفتره الصغير السرّي بعض الأحكام الصارمة بحقّ «مارشال» ، قال : «إنّه لرجل ساحر ، خطر جدّاً ... كثير الادّعاء بنفسه ، إلاّ أنّ مؤهّلاته الستراتيجيّة لا تثير إعجابي... أمّا مخطّطه فلا يتعدّى مرحلة النزول إلى الشاطئ : لم يبدأ بعدُ بدرس ما قد نقوم به بعد ذلك... أفترانا نذهب للّعب بالبكارا او بسكّة الحديد ؟...» ظنّ «مارشال» أنّه ناجح في مهمّته نظراً لما كان «تشرتشل» يغدقه عليه من معسول الكلام ، بيد أنّ «هوبكنز» أدرك أنّ الانكليز لم يقتنعوا .

إذ ذاك ظهر فريق غير منتظر أقحم نفسه في الجدل ، هو الإذاعة الألمانيّة ، التي أغرقت المشاورات اللندنيّة في لجّة سحيقة من الشكوك والاتّهامات ! من كان يوفّر المعلومات «لغوبلز» ؟ وكيف تمكّن من كشف هويّة « م.ا.ه. هونز » و «م.ك.ج. ملّ» ؟ وأين يتوارى ذاك الجهاز اللاقط للصوت ، الذي يفضح أسرار «دونينغ ستريت» الدوليّة ؟ قالت إذاعة العدوّ : «نحن نعلم أنّ «هوبكنز» الممالق للبلشفيّة ، والجنرال «مارشال» ، هما الآن في «لندن» للبحث في غزو «أوروبا» . ولا يسعنا بهذه المناسبة إلاّ أن نكرّر لهما العرض الذي تقدّم به الفوهرر : «فألمانيا» مستعدّة لأن تخلي من القارّة القسم الذي يرغب فيه الانكليز من أجل أن ينزلوا عليه بأكبر عدد ممكن ...»

غادر «هوبكنز» و «مارشال» «لندن» في ١٥ نيسان حاملَين ما يشبه موافقة مبدئيّة مبهمة . ووصل «مولوتوف» بعد ذلك بأيّام تحفّ به حاشية من الحرس الشخصيّ ، وقد لبس من الريبة درعاً . أُنزل في «الشيكرز» فأصرّ على تسلّم المفاتيح كلّها . ثم طرد الخدم ، وأوعز بسبر كلّ قطعة من قطع الأثاث . ورتّب سريره بحيث يتمكّن من مغادرته عند أقلّ إنذار ، ثم نام والمسدّس تحت وسادته . طالب بوعد جازم في ما يتعلّق بفتح جبهة ثانية خلال ١٩٤٢ ، فرفض «تشرتشل» أن يقطع له مثل ذاك الوعد .

وانتقل «مولوتوف» من «لندن» إلى «واشنطن» ، وسأل «روزفلت» ما إذا كان بوسعه أن ينقل إلى «ستالين» تصريحاً إيجابيّاً يفيد بأنّ الجبهة الثانية في طور الإعداد ؛ فاستدعى «روزفلت» «مارشال» ليجيب بنفسه ؛ فإذا الجواب إيجابيّ ، وإذا «مارشال» يثبت أنّ الجنود والمصفّحات والذخائر والقوّة الجوّية اللازمة قد غدت كلّها متوافرة لديه ، وأنّ العقبات المتعلّقة بالنقل ليست كأداء حتماً . فأمكن «مولوتوف» ، والحالة هذه ، أن يستنتج ، بمظهر من الحقّ ، أنّ الانكليز هم الذين ينسفون مشروع الجبهة الثانية ، هذا فضلاً عن أنّ الروس كانوا ، منذ هرب «رودلف هيس» ، على يقين من أنّ مفاوضات سرّية تقوم بين «لندن» و «برلين» ، ويعتقدون أنّ «تشرتشل» يريد أن يوفّر «لهتلر» فرصة سحقهم .

زد على ذلك أنّ نزاعاً آخر قد نشب حول قوافل المنطقة القطبيّة الشماليّة . ذاك أنّها كانت تمرّ سليمة في البدء ، ولكنّها الآن تصطدم بحاجز ضخم رهيب من الغوّاصات ، وقاذفات القنابل ، والسفن السطحيّة التي تشمل «التيربيتز» المخيف ، وهو توأم «البسمارك» . كان كلّ عبور يتطلّب ما تتطلّبه معركة بحريّة كبيرة . أمّا شروط الملاحة فكانت مقيتة للغاية : فالسفن كانت تتوارى وراء قشور صفيقة من الجليد ، فيما يغمر البحر الساخط المدرّعات ويعرّض العمارات الضعيفة الحمولة للخطر ، وفيما يدرك الملاّحون أنّ حظّهم في البقاء ضئيل جدّاً إذا ما نزلت بهم نكبة ما : فكلّ رجل يهوي إلى البحر مقضيّ عليه ، إذ لا تمرّ ساعات قلائل حتى يستحيل ما تقلّه زوارق الإنقاذ على متنها جثثاً متجمّدة ، متحجّرة . هذا ، والخسائر ثقيلة فادحة : فمقابل ٢٨ سفينة تجاريّة تمكّنت من بلوغ المرافئ الروسيّة ، خلال النصف الأوّل من عام ١٩٤٢ انتهت رحلة ٢٤ منها في قاع اليمّ ، شأنها في ذلك شأن الطرّادين «إدينبورغ » و «ترينيداد» .

هذا والروس يتذمّرون ويشتكون ؛ فهناك ٥٩ سفينة تغصّ بالمعدّات محتجزة في «ايسلندا» و «سكوتلندا» . كانت «موسكو» تتّهم «لندن» بوضع يدها على معونة الإعارة والتأجير الخاصّة بالجيش السوفياتيّ ؛ وتدخّلت «واشنطن» في الأمر طالبة من الانكليز أن يقوموا بما يقتضيه الظرف لتسيير الشحنات المتأخّرة ؛ فأجاب «تشرتشل» غاضباً بأنّ ما يُطلب منه محال . وأردف الأميرال «توفي» زاعماً أن لا مفرّ من الوقوع في كارثة إذا ما أُريد ، لأسباب سياسيّة ، الإبقاء على قوافل القطب الشماليّ مهما كلّف الأمر . كان الأميرال على حقّ كما ستثبت ذلك عمّا قليل حكاية الـ«ب.ك.١٧».



إنّها لصورة رائعة مؤثّرة لواحد من أحداث الحرب البحريّة ، تمثّل القافلة « ب ك ١٧ » الّتي تخلّت عنها سفن الحماية بتدبير يعجز المرء عن تبريره ، وقد باتت عرضة لنيران الغوّاصات والطائرات العدوّة .

«ب. ك. ١٧» هو اسم القافلة المؤلّفة من ٣٦ سفينة تجاريّة، الّتي أبحرت من «ايسلندا» في ٢٨ حزيران . كانت القافلة «ب.ك. ١٦» السابقة قد مُنيت بخسائر فادحة ، وكانت معلومات الأميراليّة تنذر بهجوم تشنّه السفن الألمانيّة الضخمة «تيربيتز» ، و «لوتزوف» ، و «شير» ، و «هيبر» ، المحشودة في «النروج» . وكانت قوّات الحماية قد شُكّلت على ذاك الأساس ، فضمّت ٦ مدمّرات ، و ٤ سفن حربيّة للمواكبة ، وكُلّفت فرقة من ٤ طرّادات بالحماية البعيدة ، فيما أخذت البحريّة الوطنيّة على عاتقها تأمين السيطرة العامّة على البحر ، يساندها في ذلك الطرّاد الأميركيّ «واشنطن» . كانت فترة اعتدال الصيف قد بدأت منذ قليل ، وكان النهار المستمرّ يؤاتي العمل الجوّيّ كلّ المؤاتاة ؛ ولكنّ ذلك لم يمنع الطقس من أن يكون سيّئاً مقيتاً ، والضباب نزقاً، والماء مثلّجاً. هذا فضلاً عن جبال الجليد الّتي كانت تذرع العباب .

يوم ٤ تموز دخل الموكب بحر «بارنتز» ، بالقرب من الشاطىء الجليديّ، عبر المضيق الفسيح الفاصل بين «رأس الشمال» و«السبيتزبرغ». وفي تمام الخامسة صباحاً أغرقت إحدى السفن طائرةٌ أفادت من فرجة صغيرة قد أنشقّ عنها ضباب كثيف لتنقضّ على فريستها . كانت البحريّة الوطنيّة قد بقيت على بعد ١٥ درجة إلى الغرب ، كي لا تعرّض بوارجها للخطر ؛ أمّا فرقة الطرّادات ، الّتي يقودها الأميرال «هاملتن» ، فظلّت ترافق السفن التجاريّة ، إلى أن انهالت عليها في تمام التاسعة مساءً مجموعةُ أوامر مستعجلة مفادها أنّ الأميراليّة تأمرها بأن تنسحب بأقصى سرعة ، كما تأمر مدمّرات المواكبة بأن تترك القافلة لتؤمّن حماية الطرّادات . أمّا السفن التجاريّة فدُعيت إلى التفرّق والتوجّه شطر «ارخنجلسك» منفردة . وهكذا شهد القطيع بمنتهى الذهول كلابَ حراسته تبتعد عنه ، لتمعن في الهرب نحو الغرب .

أثار هذا القرار مشادّة عنيفة ما تزال قائمة حتى اليوم ، ولكنّه قد وجد له مبرّراً في أنّ اثنين من طرّادات «هاملتن» كانا أميركيّين . كانت تلك هي المرّة الأولى في التاريخ الّتي وُضعت فيها قوّة بحريّة تابعة «للولايات المتّحدة» تحت إمرة أميرال بريطانيّ . ولما علمت الأميرالية بمغادرة «التيربيتز» شواطىء «نروج» استبدّ بها الذعر ، فتمثّلت معركة غير متعادلة القوى ، وتراءى لها تدمير السفينتين الحليفتين ، ثم الحساب الذي لا بدّ من تقديمه ، والنتائج الّتي سيخلّفها في العلاقات بين البحريّتين ، فآثرت التضحية بالقافلة !

عقبت ذلك مطاردة هي من أشدّ مراحل الحرب ضراوة ؛ لم تقم بها سفن السطح الكبرى الّتي أصدر إليها «هتلر» على حين غرّة أمراً بالانكفاء والعودة ، بل الغوّاصات والطائرات فحسب . غدت سفن الشحن وليس ما يحميها ، فتمكّن بعضها من دخول البحر الأبيض وإنهاء سفرته ، وولج بعضها منطقة الجليد ثم ارتمى على شواطىء « زمبل الجديدة» ؛ بيد أنّ غالبيّتها ، أي ٢٣ سفينة من أصل ٣٦ ، قد أُغرقت ، فلقّي مئات من بحّارة التجارة حتفهم ، في ظروف بغيضة منكرة . وما يزال بحّارة «صاحبة الجلالة» ، الذين خذلوا قافلة السفن وسلّموها إلى الأقدار ، ينوؤون تحت وخز ضمائرهم وتأنيبها !

"رومـــل" يزحف إلى "الســويس" ويقــاتل في ســبيل "بـيرحكيم"

في المتوسّط كان وضع الانكليز حرجاً . فبتاريخ ١ نيسان ١٩٤٢ كانت قوّاتهم البحريّة مقتصرة على ٤ طرّادات ، و ١٥ مدمّرة ، مقابل ٤ بوارج ، و ٩ طرّادات ، و ٥٥ نسّافة أو مدمّرة ، و ٥٠ غوّاصة إيطاليّة ، فضلاً عن ٢٠ غوّاصة ألمانيّة ممتازة .

كانت «مالطه» معرّضة للخطر . فهي تبعد عن «صقلية» مسافة تقطعها الطائرات بخمسين دقيقة ، فيما كان نصف المتوسّط يفصلها إمّا عن «جبل طارق» وإمّا عن «الإسكندريّة» . وقد بات تموين سكّانها الذين يبلغ عددهم ٣٠٠،٠٠٠ مشكلة صعبة . وكانت القوافل تتطلّب بسط القوى الّتي لم تكن مع ذلك لتصونها من الفناء . كانت قافلة شباط تتألّف من ثلاث سفن تجاريّة ، فلم تصل منها واحدة ؛ وتجنّدت لقافلة آذار مواكبة مؤلّفة من ١٨ سفينة حربيّة ، ولكن وصلت منها إلى «لافاليت» سفينتا شحن من أربع ما لبث القصف الجوّيّ أن دمّرهما في المرفإ .

في نيسان وأيّار تخلّت الأميراليّة عن كلّ محاولة جديدة ، وراحت «مالطه» تستهلك البقيّة الباقية من مواردها . أمّا «لافاليت» فقد دُمّرت بعدما انصبّ عليها القصف بلا هوادة . وعلى أثر إصابة الحاكم بنوبة عصبيّة استُبدل به طيف ذو أعصاب فولاذيّة ، هو لورد «غورت» الذي تسلّم منذ النقمة عليه قيادة «جبل طارق» . وكان الكثيرون يؤمنون بأنّه يجب التضحية «بمالطه» إذ أنّ الإرهاق الجوّيّ قد شلّها عمليّاً : ففضلاً عن أنّها كانت مهدّدة بالمجاعة ، كان هنالك خوف من هجوم على الطريقة الكر -ـيّة قد يقود إلى فقدان ١٣ كتيبة (٢٦،٠٠٠ رجل) هي قوام حاميتها .

في الواقع كان هنالك مخطّط «هركيوليس» الألمانيّ لغزو «مالطه» ، وكان «شتودنت» ، قاهر «كريت» ، مكلّفاً بتحقيقه ، تحت قيادة دوق «سافوا» الاسميّة . إلاّ أنّ «هتلر» رفض إعطاء إشارة الانطلاق ، وقام بقلب ترتيب العوامل : فبدلاً من أن تؤخذ «مالطه» لتمهيد انتصار مسهّل

في «أفريقيا الشماليّة»، سوف تؤخذ عندما يصل «روميل» إلى «السويس»، أو، على الأقلّ، إلى «طبرق»...

في ٢٩ نيسان عاد أحد التقاليد إلى الظهور؛ فقد استدعى الفوهرر الدوتشي إلى «سالزبورغ». ولم يتأثّر الاستقبال بشدائد الحرب، فقد استُقبل الإيطاليّون بحفاوة بالغة، وأقاموا في قصر الأمراء ـ الأساقفة الذي أعيد تأثيثه، كما لاحظ «تشيانو»، بمفروشات فرنسيّة لم تكلّف مالكيها الجدد غالياً! وكانت هذه أوّل مرّة يرى فيها «موسوليني» «هتلر» منذ انقلابات الوضع على الجبهة الشرقيّة، فوجده قد تغيّر: فإذا هو قلق، مغموم، ولكنّه بقي مهذاراً أكثر من ذي قبل. وقد وقّت «تشيانو» أحد المقاطع من حديث «هتلر»، فكان جملة متّصلة دامت ساعة و ٤٠ دقيقة، مزجت في خليط هائل الحربَ والدين، والفنّ والتاريخ، والعنصريّةَ والفلسفة. فهذه النجاوى المروّعة، وهذا الهذيان العنيف قد غدت ملامح مميّزة لاختلال «هتلر» العقليّ المتزايد.

وكما فعل «هتلر» إبّان انتصاراته في «بولونيا» و«فرنسا»، راح كذلك يقصّ على حليفه كيف أنّ إرادته قد هزمت الشتاء الروسيّ، وكيف أنّ جادّات النصر قد عادت إلى الانفتاح أمام جيوشه. فلسوف يعود المحور إلى المبادرة على الجبهات كافّة؛ وفي «أفريقيا» سوف يعود الجيش الألمانيّ ـ الإيطاليّ إلى الهجوم، وينجز غزو «برقة» متوغّلاً هذه المرّة حتى «السويس»؛ ولسوف يتمّ انتزاع «مالطه» بواسطة مظلّيي الجيشين، ويُعمل على طرد الانكليز من المتوسّط. وهكذا تؤول تجارب «إيطاليا» القاسية إلى نهايتها في غمرة الظفر.

إنّ اهتمام الفوهرر بالمتوسّط ظرفيّ وسطحيّ. وقد كان «روميل» على علم بذلك. وحين استُدعي إلى «رستنبورغ» في ١٧ شباط، كان في نيّته أن يدافع عن إمكانيّة قيام مسرح عمليّات أفريقيّ؛ بيد أنّ «هتلر» لم يكن ليبتعد بأفكاره وكلامه عن الجبهة الروسيّة، حيث كانت أزمة الشتاء قد بلغت ذروتها. وقد أقنع جوّ المقرّ العامّ قائدَ جيش المصفّحات الأفريقي بأنّ قضيّته كانت خارجة تماماً عن عالم المشاغل الذي كانت تعيشه القيادة العليا: فقد كانت انتصاراته ترّهات دعاية، وتمويهات باهرة «لألمانيا» القلقة، وهي عرضيّة إذا ما قيست بالجبهة العظيمة، الجبهة المرهقة التي كان مصير «ألمانيا» معلّقاً عليها. وبقيت إمكانات «روميل» بالتالي محدودة. أمّا المدد الوحيد الذي حصل عليه فكان لواء المظلّيّين الـ ١٥ الذي أتاه به الجنرال «رانكي» من «اليونان».

كان وجود الإيطاليّين قليل النفع، إذ أنّ أربعاً من فرقهم السبع لم تكن آليّة، ولم تكن بالتالي لتُستخدم إلاّ لأغراض دفاعيّة. وأمّا الثلاث الأخرى «آريِيتي»، و«تريِيستي»، و«ترنتو»، فقد كانت تشكو عجز الجيش المتّسم بالمظاهر الخدّاعة الذي أقامه حكم ركيك: ملاك عاديّ، روح معنويّة فاسدة، هوّة سحيقة بين الضابط والجنديّ، معدّات ضعيفة وقديمة.

ولم يسلم الانكليز من ناحيتهم من نقاط الضعف؛ فقد أنزلوا إلى الميدان مدفعاً جديداً مضادّاً للدبّابات، ولكنّه لم يكن يضاهي المدفع الألمانيّ من عيار ٨٨. وأمّا الآليّات المصفّحة البريطانيّة الصنع، «كروسيدر»، «فالينتاين»، «ماتيلدا»، فقد بقيت متخلّفة بسبب مدفعيّتها من عيار ٣٧ التافه. وكانت الدبّابة الأميركيّة «غرانت» المتوسّطة الحجم هي أثمن ممتلكاتهم: فهي شبيهة بالـ «ب» الفرنسيّة من طراز ١٩٤٠، بمدفعها الثابت من عيار ٧٥، والمركّز على انخفاض كثير. كانت مصنوعة وفقاً لمعطيّات زائلة، ولكنّها كانت تمكّن من مقاتلة «ب ز. ك و. ٤» قتالاً متكافئاً. ومن مجموع دبّابات الجيش الثامن الـ ٦٣٠، كانت ١٦٠ دبّابة من طراز «غرانت»، وكان العدوّ ما يزال يجهل وجود هذه الآلة الجديدة.

جزّئ الجيش البريطانيّ إلى فيلقين؛ فالفيلق الـ ١٣، بإمرة الليوتنان جنرال «و.هـ.ا. غوت»، يضمّ فرقتين أفريقيّتين جنوبيّتين كانت واحدة منها تحمي «طبرق»، والفرقة الانكليزيّة الـ ٥٠، فضلاً عن لوائَي دبّابات مستقلّين؛ والفيلق الـ ٣٠، بقيادة الليوتنان جنرال «ك.و.م.نورّي» يضمّ الفرقتين المصفّحتين الـ ١ و الـ ٧، ولوائين هنديّين، واللواء الفرنسيّ الأوّل الحرّ. وقد بقي «نيل ريتشي» قائداً للجيش، كما بقي تحت سيطرة «أوكنلك»؛ وقد استمرّ مرؤوسوه، الذين هم أقدم منه خدمةً، في الاعتراض عليه.

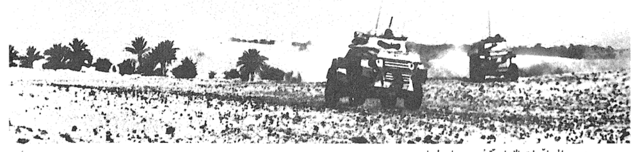
ودارت مناقشة حادّة أخرى بين «أوكنلك» و«تشرتشل»؛ فقد أصرّ رئيس الوزارة على شنّ هجوم في الحال، فيما طلب القائد أربعة أشهر لإنجاز الاستعدادات. وأراد «تشرتشل» أن يستبدل به «الكسندر» الذي كان يسحب جيشه الصغير بصعوبة فائقة في الأدغال البرمانيّة بعد خسارة «رانغون». وتمكّن «بروك» من تعليق هذا القرار؛ وبعد ما أُبلغ «أوكنلك» أنّ استعادة «بنغازي» كانت السبيل الأوحد لإنقاذ «مالطه» وعد، من غير اقتناع، بأن يشنّ الهجوم في النصف الثاني من حزيران، على الرغم من الزيادة الضخمة في استهلاك الماء والوقود الناجمة عن الصيف الصحراويّ.

واستمرّت العقدة الدفاعيّة في التسلّط على فكر الجنرالات الانكليز. فقد أقام «ريتشي» الجيش الثامن من «عين الغزالة»، وهي ليست سوى واحة ساحليّة صغيرة، إلى «بير حكيم» التي طُمر خزّان المياه الذي فيها. يا لها من ساحة قتال كئيبة! كانت هضبة «مارماريكا» الأفقيّة المعدنيّة، قاسية لا تلين في سوادها وقحلها؛ وكان التشابه مع البحر بعيد المدى: فالوحدات تجوب البحار مستعينة بالبوصلة، وأمّا جنديّ الصحراء فهو يتحرّى سُحب الغبار كما يرقب البحّار دخاناً في الأفق. غير أنّ ذلك لم يمنع «ريتشي» من بناء جبهة متّصلة، ومن تحضير حرب الصحراء البحريّة لتكون سريعة وعابرة، كما لو كان الأمر متعلّقاً بالدفاع عن موقع منظّم.

لم يكن هنالك أيّ حاجز طبيعيّ، فقام مقام الحواجز نصفُ مليون من الألغام؛ وكانت تؤمّن حمايتها سلسلةٌ من «العلب»، وهي مواضع سلاح تحيط بها وتبطّنها أردية من الأسلاك الشائكة ومن الألغام النصفيّة. وفي داخل هذه الحظائر بدأ الرجال يشعرون وكأنّهم سجناء. وحلّ القيظ شديداً، وعصفت الرياح الجنوبيّة، وباتت حصّة المياه لا تشفي غليلاً، وكادت مليارات الذباب تذهب بالعقول.

وأوعز «أوكنلك» إلى «ريتشي» في أن يحتفظ بفيلقه الـ ٣٠، وبفرقتيه المصفّحتين، بأن يجمعهما في كلتا ناحيتَي طريق «كابوتزو»، لتبقى متأهّبة للاندفاع مجتمعةً نحو الشمال أو نحو الجنوب. ولكنّ «ريتشي» لم يعره أذناً صاغية؛ فقد كان فيلقاه يتقاسمان الدفاع عن الموقع، الفيلق الـ ١٣ في الشمال، من جهة البحر، والفيلق ٣٠ في الجنوب من جهة الصحراء. وأمّا «بير حكيم»، التي كانت في الطرف الأقصى، فهي المرسى الذي رُبط الموقع اليه. وأمّا محيط الدائرة الذي كان يشبه المثلّث، والذي كان يحدّه ٥٠،٠٠٠ لغم، فكان يشمل ١٦ كلم مربّعاً. لم تكن هنالك تحصينات، إنّما عدد كبير من مواضع القتال التي حُفرت في الأرض الصلبة بعناء كثير.

وكان السلاح يضمّ ٢٦ مدفع جبهة، و ٦٢ مدفعاً مضادّاً للدبّابات، و ٤٤ مدفع هاون. وكانت الحامية التي يقودها ضابط من «نرفيك»، هو الجنرال «بيار كونيغ»، مؤلّفة من اللواء الفرنسيّ الأوّل الحرّ الذي ضمّ كتيبتين من الفرقة الأجنبيّة، وكتيبةً من مشاة البحريّة،



هجوم المصفّحات الفرنسيّة في صحراء «ليبيا».

وكتيبة من «المحيط الهادىء»، أي ما مجموعه ٣٠٥٠٠ رجل جاؤوا من كلّ أفق من آفاق امبراطوريّة ممزّقة كالوطن الأمّ الذي أنشأها.

والى ما وراء «بير حكيم» كان اللواء الهنديّ الآليّ الثالث يقوم بأعمال الدوريّة. وأبعد من ذلك المكان كان الفدائيّون يعيشون في الصحراء حياة البدو الرحّل.

لم يكن «ريتشي» يلتفت ناحية الصحراء. فقد كان مقتنعاً بأنّ «رومل» سيهاجم في القطاع الساحليّ بحثاً عن طريق «طبرق» المباشرة. وكانت العدّة قد أعدّت بالطبع احتراساً من خدع الثعلب الألمانيّ، إلاّ أنّ الأدلّة كانت في هذه المرّة قويّة جدّاً وغير مصطنعة. فالطيران قد اقتفى أرتالاً ألمانيّة مصفّحة كثّة كانت تتجمّع في ناحية «غزالة»، وفي الأفق كان الغبار الكثيف يشير إلى تسلّل القوّات الألمانيّة الإيطاليّة نحو طرف الجبهة المتوسّطيّ.

ولكنّ الأمر الذي لم يكن «ريتشي» يعرفه هو أنّ الأرتال التي شاهدتها طائراته كانت تعود أدراجها في الليل، وأنّ الدبّابات التي أعلم بتجمّعاتها كانت من القماش، وأنّ سحب الغبار كانت تولّدها محرّكات طائرات عتيقة تدور على ظهر بعض الشاحنات! وعندما بدأ في ٢٦ أيّار قصف المدفعيّة والطيران في قطاع «غزالة» شعر «ريتشي» بفخر لدقّة تنبّؤاته: فقد احتفظ جناحه الأيسر بأكثر قوّاته كثافة، واضعاً في الخطّ الأوّل الفرقة الأفريقيّة الجنوبيّة الأولى والفرقة الانكليزيّة الـ ٥٠. فهو إذاً على أهبة الاستعداد، يطفح ثقة، وينتظر.

في اليوم التالي هاجم المشاة الإيطاليّون بالفعل أمام «غزالة» بقيادة صديق شخصيّ «لرومل» هو الجنرال الألمانيّ «كروفيل». ولكنّ مجموع قوّات المحور السريعة قد برز جنوبيّ «بير حكيم».

واستعداداً لهذا الزحف كانت ١٠٠٠٠ سيّارة قد تحرّكت طوال الليل تحت ضوء قمر سحريّ؛ وكان الطيران الألمانيّ يرسم لها الطرق بإطلاقه أسهماً مضيئة تغمر السماء فوق «بير حكيم». وكانت فرقة «ترييستي» قد انحرفت وتأخّرت، إلاّ أنّ الفرق الأربع الأخرى، «آرييتي»، والمصفّحة ١٥، والمصفّحة ٢١، والخفيفة ٩٠، قد استدارت بهذا الترتيب حول طرف الجبهة الانكليزيّة. وكانت العمليّة تقضي بإبقاء الفرقة الخفيفة ٩٠ باتّجاه «طبرق» لتفكيك مؤخّرات العدوّ، فيما تستولي «آرييتي» على «بير حكيم»، ويطوّق أكثر الجيش الأفريقيّ الألمانيّ الجيشَ الثامن. وكان «رومل» يقود التحرّك في صفوف الفرقة المصفّحة الـ ١٥.

هذه الصولة الرائعة قد أحدثت بادىء ذي بدء تأثيراً صاعقاً؛ فقد فوجىء اللواء الهنديّ الثالث فيما كان الجنود يتناولون فطورهم في جوّ من الأمن شبيه بالأمن الذي يسود المناورات الكبيرة. وكان الحشد الآليّ الذي انقضّ عليه غزيراً لدرجة أوحت بأنّ الصحراء قد هبّت تحت رداء شاسع من الغبار كساه الفجر لون اللهب. وقد أبرق قائد اللواء إلى الفيلق هذه الكلمات: «أودّ أن ألفت انتباهك إلى أنّ أمامنا فرقة ألمانيّة مصفّحة كاملة لعينة...» غير أنّ الفيلق قد رجّح أنّ العمليّة كانت عمليّة تمويه، إذ أنّ النشاط الرئيس قد بُذل قرب «غزالة». وراح الألمان والإيطاليّون يجرّدون الهنود من سلاحهم ويطلقون سراحهم. ولسوف يموت البعض منهم عطشاً؛ وقد تمكّن آخرون من بلوغ «بير حكيم» وألسنتهم تتدلّى من أفواههم. وقد نال الانكليز وحدهم شرف الأسر على الطريقة النظاميّة. كان أحدهم متطوّعاً، وهو أميرال سابق يبلغ الثانية والسبعين من العمر يدعى «ولتر كووان»، كان قد نال ميداليّة الخدمة على «النيل» لستّ وأربعين سنة خلت، وذلك في حملة «كيتشينير» على الدراويش؛ وقد أطلق الإيطاليّون سراحه نظراً لعجزه. إلاّ أنّه سيثبت لهم عكس ذلك بهبوطه بالمظلّة في «يوغوسلافيا» للقتال إلى جانب الأنصار.

كانت مهاجمة «بير حكيم» هي الإخفاق الوحيد في تلك الصبيحة.



كان متوقعاً أن تؤخذ «العلبة» منذ الساعة الأولى ، إلاّ أنّ فرقة «آرييتي» قد خسرت أمامها من غير جدوى، وبصورة غامضة ، ٣٢ دبّابة و ٩١ أسيراً من بينهم كولونيل .

وفي الأماكن الأخرى واصلت المفاجأة فعلها الفتّاك . فكتيبة الفرسان الثامنة ، واللواء المصفّح الرابع ، اللذان كانا متناثرين ، قد أُبيدا . إنّ الدروس لا تُحفظ إلاّ ببطء : فبعد ثلاثين شهراً من حملة «بولونيا» بقيت القيادة الاعتداليّة تصاب بالتفكّك التامّ في وجه انقضاض مصفّح . وأمّا «ريتشي» ، الذي كان بعيداً جداً ، فلم يكن يعرف شيئاً . ونجا «نوريّ» من الأسر بعدما لجأ إلى «علبة العَدَم» . ووقع «ميسيرفي» ، قائد الفرقة المصفّحة السابعة ، في الأسر ، ولكنّه انتزع شارة رتبته وانتحل شخصيّة خادم أحد ضبّاطه وتمكّن من الهرب . بفضل هذا التواضع . وكان أحد الممرّضين الألمان قد قال له : « لقد انتهيتُ من «أفريقيا»، فسأبلغ الخامسة والثلاثين في غضون ثلاثة أيّام ، وهذا هو حدّ السنّ الأقصى للعمل في الجيش الأفريقيّ . ولكنّني أعجب لكون رجل في مثل سنّك ما يزال يقوم بالخدمة في الصحراء » . وأجاب «ميسيرفي» بلهجة فلسفيّة : «وماذا تتوقّع من جنديّ محترف أن يفعل؟...»

في نهاية نهار ٢٧ أيّار كان الجيش الثامن شبه مطوّق ؛ فقد وصلت المقدّمات الألمانيّة إلى المنحدر الساحليّ ، فأبصرت طريق «بالبيا» ، وهي خطّ التراجع الوحيد أمام جناح العدوّ الأيمن . وفضلاً عن مقاومة «بير حكيم» كانت مفاجأة أخرى قد أفسدت على «رومل» نهاره ، هي الدبّابة «غرانت» . فمنذ قيام المعركة كانت هذه الآلة ذات الشكل غير المألوف ، والتي ظنّها الألمان فزّاعة ، قد دمّرت بعض المصفّحات الألمانيّة . وفي المساء كان الإحصاء مخيفاً : فقد فقد الجيش الأفريقيّ ثلث دبّاباته ، ونفد الوقود لدى فرقة المصفّحات الـ ١٥ ، والفرقة الخفيفة الـ ٩٠ قد تورّطت بشكل خطير . أمّا «رومل» فقد استدار حول موقع «الغزالة» ، ولكنّه انعزل عن مؤخّراته بسبب حاجز الألغام ، وبسبب الموقعين الحصينين اللذين لم يصبهما أيّ أذى وهما : «أوالب» و «بير حكيم» . فبعد ما أوشك أن يطوّق العدوّ ألفى نفسه وهو على وشك أن يطوّق . وهكذا لم تحرز مفاجأة الفجر الباهرة النصرَ النهائيّ .

بيد أنّ «رومل» كان رجل مواهب . فقد أعاد جمع قوّاته ، وراح يدير عمليّات التموين بنفسه ؛ وفي سبيل إعادة مواصلاته أمر بفتح ثغرتين في حقول الألغام . واستقرّ الألمان في رأس جسر أطلق الانكليز عليه اسم «القِدر» ، مستنداً إلى السدّ الرئيس كما لو كان نهراً . وانتقل «رومل» إلى غربيّ السدّ ، تحت نيران علبة «أوالب» ، بغية إعادة تنظيم المعركة في جناحه الأيسر حيث كان «كروفيل» قد سقط في الخطوط الانكليزيّة بعد عطل أصاب محرّك طائرته . وعلى الرغم من أنّ «كسلرنغ» كان برتبة «فيلد مارشال» ، ومع أنّه لم يكن ليكنّ لثعلب الصحراء أيّ شعور بالصداقة ، فقد رضي بتسلّم قيادة الفرق الإيطاليّة التي كانت تهاجم «غزالة» . كان التقدّم بطيئاً ، إلاّ أنّ الضغط قد أراح جيش المصفّحات الأفريقيّ بعض الشيء .

في ٣١ أيّار تلاشت الأزمة . وكتب «رومل» إلى زوجه يقول : «لقد وقع «كروفيل» في أيدي الانكليز ، ولكنّني آمل أن أنقذه» ؛ وأضاف : «إنّ الانكليز يتتبّعون تحرّكاتي بكثير من الحذر . إنّ المتطلبّات العاديّة لكلّ عمليّة هي بالنسبة لهم أمل بالنجاح مئة بالمئة ...»

بيد أنّ النشوة كانت عارمة ؛ فبعد انقضاء أربع وعشرين ساعة من الريبة الناتجة عن أهميّة الخسائر وبلبلة المعركة ، أيقن «ريتشي» أنّ المناورة الألمانيّة قد أخفقت . فقد حوصر «رومل» في السدّ ، وبدا «لريتشي» وكأنّه في وضع يائس ، فكتب إلى «أوكنلك» يقول : «لقد أمسكت به ، وسوف أسحقه في القِدر » . وفي سبيل ذلك وضع مخطّط عمليّة بطيئة ومنسّقة ، بعد مؤتمرات لا نهاية لها ؛ ولكنّه لأسباب تتعلّق بالأشخاص لم يتمكّن من تعيين قائد فرد لها : فلسوف يتسلّم «بريغز» و «ميسيرفي» القيادة مناوبةً ، في الأيّام الشّفعيّة والأيّام الوَتريّة . أمّا العمليّة فتنطلق في ليل ٤ـ٥ حزيران . وتلقّت كلّ وحدة من الوحدات ، بما فيها اللواء الفرنسيّ الأوّل ، أوامر بالتحرّك تبدأ على الوجه التالي : «إنّ العدوّ يتراجع ...» .

في ٣١ أيّار وجّه «رومل» ضربته . كانت ريح رمليّة ، وغيوم منخفضة سوداء ، « تغدق على المنظر جمالاً غريباً » ، إلاّ أنّ هذا لم يحُل دون مهاجمة «أوالب» ، فسقطت «العلبة» بعد قتال استغرق بضع ساعات ، مخلّفة للعدوّ لواء المشاة الـ ١٥٠ بكامله (٣،٠٠٠ أسير ، و ١٢٣ مدفعاً) . وقد كتب «ريتشي» الغافل : «أنا آسف لكوني قد فقدت اللواء ١٥٠ ، ولكنّ وضعنا يتحسّن يوماً بعد يوم ...»

وها قد أتى دور «بير حكيم» . بدأ الهجوم في ٢ حزيران ، وبعد انقضاء ليلتين كانت المناورة الانكليزيّة المضادّة ، وهي عمليّة «أبيردين» ، قد انطلقت في ضوء القمر الباهت الذي أضفى على الصحراء مظهراً مروّعاً . وقد شهدنا خلال ثمان وأربعين ساعة معركتين مفترقتين تدوران على بعد ٤٠ كلم الواحدة من الأخرى : المحور يشنّ هجومه على «بير حكيم» ، والجيش الثامن يحاول تحطيم قلب «القِدر» للسيطرة على ثغرات السدّ وتعليل زهو «ريتشي» الذي قال : «لقد أمسكت به ! ...»

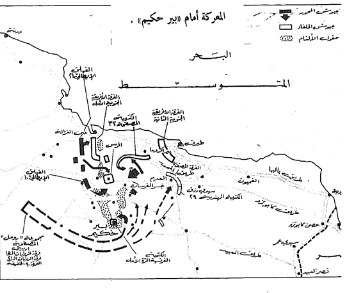


«ليس حصار «بير حكيم» بحاجة إلى التأويل والروايات...» (الجنرال كونيغ) .

تلك كانت معركة «بير حكيم» الشهيرة التي أعادت «لفرنسا» بارقة من مجد .

الألبسة فرنسيّة أو بريطانيّة ، ولكنّ الروح التي ضمّتها جنبات جنود «كونيغ» كانت واحدة موحّدة .

وانتهت المعركة «ابيردين» في البداية ، فأتت إخفاقاً ذريعاً . فمخطط الانكليز الغاشم قد ورّطهم بقطع مفكّكة وفقاً لجدول متصلّب وتحت قيادة منشقّة . صحيح أنّ «رومل» قد قاسى من المعركة الأمرّين . (فقد أعلن «نهرنغ» أنّه لم يبقَ له غير ١٣٠ من دبّاباته الـ ٣٢٠) إلاّ أنّ تفوّق القيادة والجند والعتاد قد انتصر مرّة أخرى . وقد أقام المدفع الألمانيّ ٨٨ المضادّ للدبّابات مجزرة في دبّابات «ستيوارت» الفائقة الضعف ، وفي «الكروسيدر» الحرقاء . وأمّا اللواء المصفّح الـ ٣٢ ، الذي هاجم قمّة «سدرة» ، وهي مفتاح ساحة القتال ، بدبّابات «ماتيلدا» الثقيلة الفاسدة التسليح ، فقد وقع وسط الألغام الانكليزيّة ، وفقد في بضع دقائق وتحت وطأة المدفعيّة الألمانيّة ، ٢٩ من وحوشه الفولاذيّة الـ ٣٦ . وحين انتقل الألمان إلى الهجوم ، قطّعوا كتائب «بريغز» و «ميسيرفي» المتفتّقة إرباً ، فدُمّرت ١٥٣ دبّابة، واستُهلكت قوات التحرّش كافّة في الجيش الثامن . وأمّا قلب الجيش المتفسّخ فلم يبقَ عالقاً إلاّ بنقطة



المعركة أمام «بير حكيم» .

استناد «جسر الفرسان» حيث انحجر لواء الحرس . فمناورة «رومل» ، أي تطويق الجناح الأيمن الانكليزيّ الذي بقي بلا حراك أمام «غزالة» ، قد سنحت لها الفرصة مرّة أخرى ، في اليوم العاشر للقتال .

إلاّ أنّ «رومل» قد ارتكب خطأ في تلك المرحلة ، إذ أكبّ بضراوة على «بير حكيم» .

في ٢٧ أيّار كانت أهميّة «بير حكيم» بالغة . وأمّا في ٥ حزيران فقد تلاشت الأهميّة تماماً . عادت مواصلات «رومل» إلى الاستقرار ، ووُسّعت ثغرات السدّ ، وزال كلّ تهديد إزاء الاندحار الانكليزيّ . كانت الأهميّة في تلك الحقبة كامنة في الشمال . فلو عمد «رومل» إلى قطع طريق «بالبيا» التي كان ينوي بلوغها منذ اليوم الأوّل من هجومه لأخذ الفيلق البريطانيّ الـ ١٣ بكامله ؛ فما شأنه وذلك اللواء الفرنسيّ الصغير المنعزل في الصحراء ؟

كان دور هذا اللواء ضئيلاً لدرجة أنّ «ريتشي» راح يفكّر بإخلاء «بير حكيم» ؛ ولو كان جنرالاً أقلّ اعتدالاً ، وأقلّ انهماكاً بالساحة ، وأكثر رغبة في المناورات ، لأمر حقّاً بذلك . ولكنّ نقيصته أفادته هذه المرّة ؛ فقد أمر «كونيغ» بالصمود إلى أقصى الحدود ، فما كان من «رومل» إلاّ أن انقضّ على الثانويّ محوّلاً اهتمامه عن الأهمّ !

واستُؤنف الهجوم في ٦ . كان «رومل» يقوده بنفسه ، بعدما أمال الفرقة المصفّحة الـ ١٥ موجّهاً إيّاها نحو الجنوب ليلحقها بالفرقة الخفيفة ٩٠ . وقد اشتعل صدره غيظاً إزاء المقاومة التي أبداها ذاك المركز الذي كان يفترض سقوطه ساعة واحدة ، والذي بقي صامداً مدّة أحد عشر يوماً ! كان ينبغي حسم هذا الأمر قبل استئنافه تطويق الجيش الثامن .

غير أنّ المقاومة الفرنسيّة لم ترزح تحت ضغط الجهود المتضاعفة . وراحت ١٥٠ «شتوكا» تنثر في السماء كمّيات من الرمال العجيبة ، ولكنّها لم توفّق إلى إصابة رجل واحد ، لفرط ما تعلّمه المدافعون من حرمة الحرب . وقُمعت كلّ محاولة في التسلّل بنيران حامية . وعلى الرغم من الخسائر التي تكبّدتها القوّات البرّيّة الانكليزيّة ، قامت بتنظيم أرتال «بريمروز» و «ديزي» و «باتركاب» للتفريج عن المحاصَرين بإرهاق المحاصِرين . وكان الطيران الجوّيّ الملكيّ يبذل نفسه بسخاء وفعالية ، حتّى أنّ «كسلرنغ» ، الذي كان أبعد بصيرة من «رومل» ، راح يعنّف هذا الأخير بحجّة أنّ «بير حكيم» كانت تبيد طيرانه . ولم يحرز الألمان تفوّقهم الأوّل إلاّ في ٨ ، باستيلائهم على المرتفع ١٨٦ ، داخل الدائرة المحصنة . وكانت المقاومة في أوج ضراوتها ، إلاّ أنّ المياه بدأت بالنقصان . ومع ذلك فقد تمكّن رتل صغير من الشاحنات — الصهاريج من الوصول إلى المعسكر المحصّن في ليل ٧—٨ ، وقامت الطائرات الانكليزيّة بإلقاء بعض ألواح الثلج التي خُصّص بها الجرحى دون سواهم . غير أنّ الساعة التي ينتصر فيها العطش على «بير حكيم» لم تكن بعيدة . وكان «ريتشي» يدرك ذلك ؛ وفي ٩ أمر «كونيغ» بأن يشقّ له طريقاً للإفلات .

من الصعب وصف الفرجة التي حصلت في ليلة حالكة السواد ، لكثرة المغامرات الفرديّة التي تخلّلتها . خرجت الحامية متّجهة نحو الغرب ، واستدارت من حول خطوط العدوّ بغية الوصول إلى المكان الذي ضرب لها اللواء الانكليزيّ السابع فيه موعداً . تسلّل بعض العناصر بلا قتال ؛ وكان على عناصر أخرى أن تقاتل ، وقد ضلّت الطريق أحياناً ، وهي لم تبلغ موضع اللقاء إلاّ بشكل سُبحة مبعثرة الحبّات . وانصرف «كونيغ» تقوده سائقة سيّارته ، «سوزان ترافرز» التي كانت قد عصت الأوامر برباطة جأش ، حين أُصدر للمعاونات الانكليزيّات الستّ أمرٌ بمغادرة «بير حكيم» . ولن يصل «كونيغ» إلى موضع التجمّع إلاّ بعدما تعرّض للأسر والموت غير مرّة . وقد كان الوضع مماثلاً بالنسبة «لأ ميلاكفاري» ، وهو أمير جيورجيّ وكولونيل في الفرقة الأجنبيّة ، وبالنسبة للكابيتين «ميسمير» الذي أصبح فيما بعد وزيراً للجيوش الرئيس «ديغول» . وكانت الأسهم المضيئة ، وتفجّر الألغام ، تشعل في الصحراء أضواء متلألئة استمرّت طوال الليل . وعلى الرغم من الجلبة لم يؤمن «رومل» بخروج عامّ ؛ وعند الفجر عاود قصف «بير حكيم» حيث لم يبقَ غير حفنة من الرجال معظمهم من الجرحى . فقد أفلت ثلثا اللواء الفرنسيّ الأوّل الحرّ من الوكر .

تلك كانت معركة «بير حكيم» الشهيرة التي أعادت «لفرنسا» بارقة من مجد . وكان القتال ما يزال قائماً حين راحت الإذاعة الفرنسيّة من «لندن» تُردّد اعتراضاً عنيفاً بدر عن «كونيغ» : «ليس حصار «بير حكيم» بحاجة للتأويل والروايات . أنا جنديّ ولست بمهرّج» . فعلى نطاق الحرب الشاسعة كان هذا المسلك الباهر الذي تحلّت به حفنة من الفدائيّين الفرنسيّين حدثاً ضئيلاً ؛ غير أنّ النهم الذي استُقبل به هذا النصر الوطنيّ كان في الوقت نفسه وليد الشين الذي وسم الاسم الفرنسيّ . وأمّا «انكلترا» فقد أبدت من ناحيتها مهارة بإغداقها أكاليل سخيّة من

الغار على المدافعين عن «بير حكيم».وكتب المؤرّخ«هنري مولد»يقول: «إنّ حكمة هذا الموقف ، التي كانت تتعمّد إيقاظ الشعب الفرنسيّ قد آتت ثمارها بسرعة. «ففرنسا» قد وجدت روحها من جديد ابتداء من موقعة «بير حكيم» اليائسة ، ومنذ ذلك الحين وثبت حركة المقاومة وثبتها الكبيرة بعد ما كانت بطيئة ضعيفة » .

كَارثة في "طبُرَق"
"تشرتشل" يترنّح ، ولكنّ شجاعته تنقذه

في مطلع حزيران قرّر «تشرتشل» أن يقوم برحلة جديدة إلى «واشنطن» ؛ فالواقع أنّ بعثة «هوبكنز – مارشال» لم تسفر في النهاية عن أيّة نتيجة . فعمليّة «بوليرو » ، أو نقل القوّات الأميركيّة إلى «انكلترا» ، تجري ببطء هائل؛ وعمليّة «راوند أب » ، أو غزو«أوروبا»خلال ١٩٤٣، تثير شكّاً متزايداً ؛ وعمليّة «سليد جهامر » ، أو التدخّل في «فرنسا» منذ ١٩٤٢ . قد غدت في حكم المهمَلة . أمّا عمليّة «جمناست» ، أو احتلال «أفريقيا الشماليّة» الفرنسيّة ، فقد واراها النسيان . وهكذا غدا الحلفاء وليس لديهم أيّة ستراتيجيّة ؛ فرأى «تشرتشل» ضرورة العودة إلى «أميركا» ليعيد إلى الفكر الحليف حياته وحركته .

كانت التطوّرات الأخيرة التي طرأت على معركة «ليبيا» قد أرضت «لندن» أوّل الأمر ، فاعتقدت أنّ «رومل» قد أخفق في هجومه ، وأنّه يتخبّط ليفلت من شرك الهزيمة؛وكانت تقارير «القاهرة»متفائلةبهذا الصدد.

وفجأة تشوّهت اللوحة في ١٤ حزيران ، وتغشّت معالمها ، حين وردت من «أوكنلك» برقيّة تفيد أن «ريتشي» ينوي الانسحاب إلى «الحدود القديمة» . فاضطرب «تشرتشل» : ماذا يجري هناك يا ترى ؟ ولمَ مشروع التراجع هذا حتّى «مصر» ؟ وأيّ مصير ينتظر «طبرق» في هذه الحال ؟ الواقع أنّ ما جرى مفجع في بساطته؛ فقد كانت أيّام ١١ و ١٢ و ١٣ مشؤومة بالنسبة للانكليز الذين انقضّ عليهم «رومل» حالما تخلّص من «بيرحكيم» . كانوا قد وُفّقوا في إقامة موقع من الحواجز يحمي «غزالة» ماراً بمعقلَي «جسر الفرسان» و «العدَم» . كان في حوزتهم دبّابتان مقابل واحدة للأعداء ، وثلاثة مدافع مقابل اثنين ، وكان لهم في «جسر الفرسان» ، وهو الاسم الساخر الذي أُطلق على ملتقى شعبين صحراويّين ، لواء الحرس الـ ٢٠١ الذي امتاز في قتاله ببسالة قال عنها الانكليز انّها تكسف بسالة جنود «كونيغ» . ولكنّ ذلك كلّه لم يجد نفعاً ، لأنّ الألمان أجروا في الدبّابات الانكليزيّة مذبحة جديدة ، وراحوا يهدّدون طريق «بالبيا» ، وهي خطّ المواصلات الوحيد الذي يعتمد عليه الفيلق الثالث عشر ، فلم يبقَ إنقاذ الجيش الثامن ممكناً إلاّ بتقهقر سريع . كانت فترة الاستراحة التي وفّرتها «بير حكيم» قصيرة وجيزة .

أمّا عمليّة التراجع فكانت مضنية ؛ ففي الصباح ينتشر ضباب مخضوضر يقرّح العيون ، ثمّ ترتفع الحرارة بعنف فتعتصر الأجسام وتجرّدها من نشاطها ، وتلتهب الشمس بعد الظهر فتكيل ضربات مطارقها على الأدمغة ، ويسودّ الرجال بفعل العرق والوسخ والغبار والشحم . كانوا ، في كثير من الأسى والندم ، قد أراقوا مخزونهم من الماء ، وبقروا البراميل الضخمة التي تبلغ سعتها ٨٠ غالوناً، وها هم الآن فريسة لظمإ ينمو فيهم وكأنّه العقوبة . غطّى طريق «بالبيا» ، على مسافة ١٥٠ كلم طولاً ، رتل طويل من العربات المتفكّكة الأوصال، والأعتدة الضخمة اللامعقولة التي يجرّها الجيش الآليّ خلفه ، والتي كانت تفتّت الطريق بثقلها ونتوءاتها . لم يكن يميّز هذا الرحيل من تحرّكات الجلاء في «فرنسا» إلاّ خلوّ هذه الجموع من المدنيّين . ولكنّ ذلك لم يغيّر شيئاً من بطء هذا الانسياب المميت . أمّا الطريق فتتلوّى وتضيق وتنحصر لتجاري الساحل ، ثم تنحدر لتعود فتتسلّق سفوح الأودية القاسية الشديدة الانحدار . كان أتفه حادث كافياً لعرقلة السير ، فيجمد الرتل إذ ذاك ، وتزيد المحرّكات الدائرة الحرارةَ المرهقة لهيباً واستعاراً .

من حسن الحظّ أنّ العدوّ لم يكن على الأعقاب ، وأنّ الطيران الألمانيّ كان مستضعفاً . وظهرت بوادر التذمّر في الجيش الأفريقيّ الألمانيّ كما تظهر أحياناً في وحدات النخبة . فحرن وشكا ذاك الجهد العنيف المفرط الذي فُرض عليه منذ ٢٧ أيّار ؛ فما كان من «رومل» إلاّ أن تحوّل جنديّاً من جنود المدفعيّة يطلق بنفسه النار على ذلك الدود المتّصل الدابّ في طواف لا نهاية له ؛ غير أنّ المسافة كانت شاسعة ، وظروف المراقبة سيّئة للغاية . والقنابل ثمينة قليلة العدد فلم تحرز نتائج هامّة . تمكّنت الفرقة الأفريقيّة الجنوبيّة الأولى من اجتياز طريق «بالبيا» بكاملها يقودها الميجر جنرال «بينار».أمّا الفرقة الانكليزيّة الـ ٥٠ الأكثر تعرّضاً للخطر . فقد شقّت طريقها نحو الغرب ، ودارت حول «بير حكيم» ، ثم اتّجهت نحو التخوم المصريّة في حركة التفاف عسيرة .

وانتصبت في وجه هذا الجيش المطارَد مشكلة «طبرق» . كان الأميرال «كانينغهام» – الذي غادر المتوسّط منذ وقت قصير ليلتحق بلجنة رؤساء الأركان المختلطة – قد نبّه «تشرتشل» منذ أربعة شهور إلى أنّ البحريّة لم تبقَ قادرة على تموين «طبرق» كما فعلت خلال حصار ١٩٤١ الطويل؛ فقرّر بالتالي قوّادُ الجيش والبحريّة والطيران الأعلَون في الشرق الأوسط أنّ حصاراً جديداً «لطبرق» لن يكون ؛ فلو شاء سوء الطالع أن تُعزل المدينة من جديد ، فسيُنسف المرفأ وتُحرق المؤن والأعتدة .

بيد أنّ اتّخاذ مثل ذاك القرار أسهل من تنفيذه . فسقوط «طبرق» ، إن حصل ، سيكون بمثابة صدمة معنويّة هدّامة ، بعد ذاك الفيض من التقريظ والأدب الملحميّ الذي أشاد بمقاومة قلعة الصحراء العنيدة المنيعة . فتدخّل «تشرتشل» ، الذي لم يكن قد أثار أيّ اعتراض في شباط ، فأبرق إلى «أوكنلك» يقول : « أودّ أن اعتقد أنّ الجلاء عن «طبرق» غير وارد في أيّ حال . »

وقع «أوكنلك» في حيرة من أمره ، وحاول الإفلات منها ؛ فبدا له أنّ ثمّة طريقة واحدة كفيلة بإبعاد خطر الجلاء أو الحصار عن «طبرق» ، ألا وهي المحافظة على مواصلاتها البريّة مع «مصر» . فطالما أنّ «جسر الفرسان» قد هُجر ، فلا بدّ من الإبقاء على علبة «أكرومة» كموقع أماميّ ، وعلى معاقل «سيدي رزق» و «العدم» و «غمبوت» و «بن أحمد» كحلقات تصل «طبرق» بالخطوط التي يستعدّ فيها الجيش الثامن لاستئناف القتال بقوّات جديدة ؛ فيغدو المستطيل الواسع ، ٢٥ كلم بـ ١٢ كلم ، بذلك ، رأساً هجوميّاً ومعسكراً ينطلق منه احتلال «برقة» .

ولكنّ هذا القرار قد أغفل الإجابة عن أحد الأسئلة : ما الحيلة فيما لو قُطعت المواصلات مع «طبرق» رغم تلك التدابير كلّها ؟ أفيكون من واجب الحامية أن تشقّ لها طريقاً كما فعلت حاميتا «بير حكيم» و «جسر الفرسان» ؟ أم يذعن للحصار الذي أعلن في شباط أنّه غير مقبول ؟

أمّا «أوكنلك» الشديد المراس في حومة الوغى ، والضعيف المتردّد في الاجتماعات ، فقد أجاب بوضوح لا مزيد عليه ، إذ ابرق إلى «تشرتشل» يقول : «تقديرات وزارة الحربيّة صادقة صحيحة . لقد ترك الجنرال «ريتشي» في «طبرق» من القوّات ما يعتبره كافياً للصمود حتّى ولو عزله العدوّ موقّتاً... وترك لها ما تحتاج إليه من الذخيرة والوقود والمؤن والماء . »

إطمأنّ «تشرتشل» ، وأبقى على سفره إلى «واشنطن» ، فإذا بحلقات السلسلة التي تربط «طبرق» بالحدود المصريّة تُنسف في ١٦ حزيران. أي



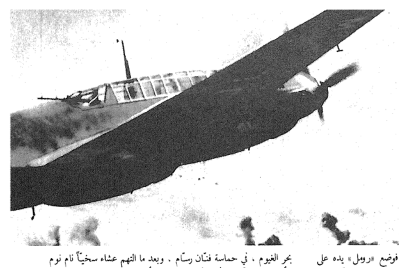
في جوّ يخنقه الهواء المثقل بالرمال ، والغيوم المنخفضة ، وفوق أرض سوداء يلهب حصاها الأقدام ، شنّ الجيش الأفريقيّ الألمانيّ هجومه في ٣١ أيّار .



ما أبطأ ما يتعلّم المرء من عبر الماضي ! بعد مرور ٣٠ شهراً على معركة «بولونيا» ، رتل آليّ ألمانيّ يجري إلى «طبرق» .



ألمدفعيّة الألمانيّة الثقيلة أمام «طبرق» .



طائرة «مسرشميت» تقصف قافلة شاحنات بريطانيّة .

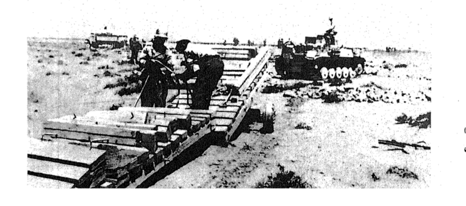
في اليوم الذي استقلّ فيه «تشرتشل» الطائرة ؛ فوضع «رومل» يده على «سيدي رزق» و «بن أحمد» ، وقطع أخيراً طريق «بالبيا» الّتي كان ينوي بلوغها منذ ٢٧ أيّار . أفلت الجيش الثامن بمجمله من الوقوع في الأسر ، غير أنّ ما نوى الانكليز تلافيه قد حصل : لقد حوصرت «طبرق» .

والواقع أنّ «طبرق» كانت مزوّدة بكلّ ما تحتاج إليه . كانت تؤمّن حمايتَها بإمرة «ه.ب. كلوبر» ، الجنرال الأفريقيّ ــ الجنوبيّ الذي كان قد رُقّيَ حديثاً ، الفرقةُ الأفريقيّة الجنوبيّة الثانية ، ومجموعتان من الألوية المستقلّة ، أيّ ٣٥،٠٠٠ رجل مزوّدين بلوازم القتال كلّها . كانت الحالة إذاً أفضل كثيراً ممّا كانت عليه في نيسان ١٩٤١ ، يوم لم تنقَذ «طبرق» إلاّ بفضل لواء أوستراليّ وُجد هناك صدفة ، وإلهام الجنرال «مورسهيد» . وقد تمكّنت «طبرق» إذ ذاك من الصمود ٢٤٣ يوماً .

في هذا السرد المفجع الرتيب لتاريخ الحرب يبدو لنا «تشرتشل» ينبوع عزاء وقوّة . لم يكن لتذمّر الجنود القدامى وخيبتهم أي تأثير عليه . ما كان بقدرة شيء أن يحطّمه ، بل كان كلّ شيء يثير حميّته وشغفه ؛ ولم تكن الرحلة الّتي يقوم بها في هذا الظرف العصيب من معركة «أفريقيا الشماليّة» غير استراحة واستجمام . وقبل أن يطير وضع وصيّته ، وكتب إلى الملك يوصيه بأن يعتمد «أنتوني إيدن» خليفة له إذا ما ألمّت به بليّة . وبعد ما اتّخذ هذه الاحتياطات بدا أدمث وأعذب ما يكون مزاجاً ؛ راح يصفر في كثير من النشاز ؛ وفي ذلك ما فيه من دلائل «الطقس التشرتشليّ الجميل» ، ثمّ زار الطائرة الجومائيّة الضخمة فأبدى إعجابه بحجمها وأسرّتها ومطبخها وحمّامها . وجلس إلى جانب الملاّح يتأمّل مشهداً لغياب الشمس فوق بحر الغيوم ، في حماسة فنّان رسّام . وبعد ما التهم عشاء سخيّاً نام نوم الأطفال سحابةَ ليل ثمين بكامله . كانت أحوال الطيران من الحسن بحيث أُلغيت وقفة التموين في «غاندر» ، إلاّ أنّ تموين «تشرتشل» كان أكثر إلحاحاً من تموين طائرة «البووينغ» . ولمّا طالب بوجبة العشاء قيل له : «سيّ يّ ، الساعة بالنسبة للشمس ما تزال ٤،٣٠ . ستبلغ «واشنطن» بعد ثلاث ساعات حيث ستتناول العشاء في السفارة ...» فغضب وقال : «أنا لا أتقيّد بساعة الشمس ، بل أتقيّد بساعة بطني .» فما كان منهم إلاّ أن جمعوا له ما تيسّر من بقايا مؤن الطائرة ، فالتهمها مع زجاجة من «الشمبانيا» وبقيّة من «البراندي» . وعندما حطّت الطائرة على مدرج «البوتوماك» ، في أصيل فرجينيّ رائع ، كان «تشرتشل» يشعّ هناءة ورغداً . وإلى مائدة السفير تصرّف تصرّف رجل جائع قد عبر الأطلسيّ ولمّا يتبلّغ بغير شطيرة !!! .

كان «روزفلت» في «هايد بارك» ، فدعي «تشرتشل» إلى موافاته هناك لقضاء عطلة نهاية الأسبوع . وبعدما بُذلت له مظاهر الحفاوة في البيت العائليّ ، وعُرض على ناظريه وادي «الهودسون» ، أطلع الأميركيّ الانكليزيّ على مدى التقدّم الذي حقّقه مشروع «تيوب الّويز» ، وهو اسم القنبلة الذرّية المستعار . لقد بات العلماء الفيزيائيّون يعتقدون بإمكان صنع قنبلة من الأورانيوم . فعلّق «تشرتشل» على ذلك بقوله : «آمل ألاّ تتسنّى لنا فرصة استعمالها» .

بعد العشاء أقلّ قطارُ الرئاسة رجليّ الدولة إلى «واشنطن» . كانت الحرارة لاهبة ، ولكنّ الذهول استولى على «تشرتشل» في نهاية سنوات ثلاث



ألروّاد الألمان قرب «طبرق» يفرشون للدبّابات طرقاً من الألواح .

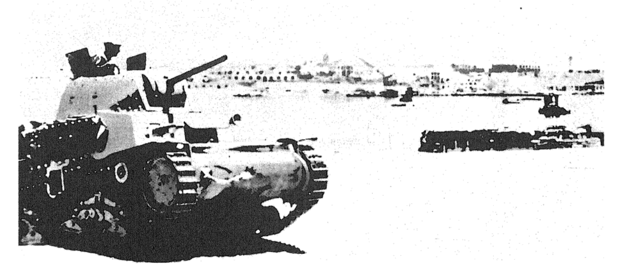
من التقنين ، والذعر ، والقصف ، والظلمة ، لما كان يحدق به من مظاهر البحبوحة والأمن . يا «لأميركا» السعيدة ! بوسعها أن تصنع بمنتهى الطمأنينة أسلحة الغد الساحقة . وكيف لا يربح الحربَ من كان هذا العملاق إلى جانبه ؟

ثقلت وطأة الحرّ في «واشنطن» بفعل الرطوبة المفرطة ، فشعر «تشرتشل» بفيض من الغبطة والسحر لدى ولوجه جناحه في «البيت الأبيض» واكتشافه الهواء المكيّف . إستحمّ فأفاض ماء المغطس بغوصه ونفخه فيه كالدلفين . وقاده «هوبكنز» بعد ذلك إلى المكتب البيضويّ الشكل ، حيث التحم نقاش حول موضوع أليف هو توزيع القوى بين «أوروبا» والمحيط الهادىء ؛ وكان النقاش ما يزال دائراً حين دخل «مارشال» .

كان «مارشال» يمسك بيده ورقة زهريّة اللون ، فناولها «روزفلت» من غير أن ينبس ببنت شفة ؛ فناولها «روزفلت» «تشرتشل» بصمت هو الآخر . كان فيها نبأ سقوط «طبرق» !

جرت الأحداث بشكل صاعق . عاد «رومل» فعمد إلى المخاتلة والحيلة ، إذ تظاهر بملاحقة الجيش الثامن ، وبالسير رأساً في طريق «حتّى الرجل الأخير والخرطوشة الأخيرة» ؛ فإذا به في السادسة يطلب الإذن بالاستسلام ! فأجاب «ريتشي» : «باركك الله ! لَنِعمَتَ القدوة أنتم بالنسبة لنا جميعاً . ولسوف تفخر بكم «أفريقيا الجنوبيّة» وتزهو ! » وفي المساء عينه أبرق «هتلر» إلى الظافر يقول له إنّه بعث إليه بعصا المارشاليّة . فقال «رومل» : «كان الأجدر به أن يرسل لي فرقة من الجنود.»

قصمت النكبة رحلة «تشرتشل» ؛ إذ كيف يمكن وضع الخطط حين يكون بوسع الجيش الأفريقيّ الألمانيّ أن يبلغ «السويس» خلال أيّام ثلاثة ؟ ... عبر «رومل» الحدود المصريّة منذ ٢٣ حزيران ، تسبقه شهرة خارقة كان المهزومون أوّل العاملين في خلقها ، إذ كانوا يتحدّثون عنه حديثهم عن «رجل خارق» ، مع أنّ «أوكنلك» قد صرّح بقوله : «لا يثير «رومل» في نفسي أيّ شعور بالغيرة . إذ ما «رومل» إلاّ جنرال ألمانيّ عاديّ » . أمّا في «مصر» ، حيث كان الحياد المبدئيّ يعيش جنباً إلى جنب مع الأحكام العرفيّة الانكليزيّة ، فكان «رومل» ملاك الطبقات الاجتماعيّة على اختلافها . من البرجاسيّة القبطيّة الرفيعة التي تميّزت بمقت الانكليز حتّى الشذوذ ، إلى طبقة الفلاّحين . الكلّ في انتظاره



في الساعة السابعة دخل الألمان إلى «طبرق» ، تلك الثمرة المرّة من جنَى الواحة .

«الاسكندريّة» . كان «كلوبر» وجنوده في «طبرق» يتأهّبون على مهل لحصار طويل مقبل . وما أزفت الساعة ٥،٣٠ من ٢٠ حزيران حتّى ثارت قاذفات القنابل التي تمكّن «كسلرنغ» من وضعها تحت تصرّف «رومل» ، بما فيها تشكيلة أتت من «كريت» ، وانهالت بقنابلها على الزاوية الجنوبيّة الشرقيّة من المحيط الحصين . ولم تمض ساعة حتّى برزت الدبّابات . كانت التحصينات في حالة سيّئة ، وقد رُدمت الحفرة المضادّة للدبّابات وغدا جزء من الأرض مجرّداً من الألغام . وقعت الصدمة على كتيبة من الهنود فلم يواجهوها حتّى بما يشبه المقاومة . وما حان الظهر حتّى تسنّم الألمان قمّة «بيلاسترو» ، وما حلّت السابعة حتّى دخلوا «طبرق» !

أمّا «كلوبر» المسكين فقد اعتقد بادىء الأمر أنّه إزاء هجوم زائف ، ولكنّه ما لبث أن شتّت رجال الأركان والتجأ إلى مركز قيادة أحد ألويته. كان في الثانية صباحاً يعد «ريتشي» ، بالهاتف اللاسلكيّ ، بأن يقاوم يتكهّنون بما ينفقه من وقت للوصول . أمّا «أوكنلك» ، الذي تسلّم بنفسه قيادة الجيش الثامن ، فقد تراجع حتّى «مرسى مطروح» ، ولحق به «رومل» على رأس حفنة من الدبّابات وهزمه ؛ فتقهقر الانكليز ناحية «العَلَمين» ، وهي نقطة توقّف بسيطة على الخطّ الحديديّ على مقربة من الصحراء ، بل في الصحراء ، أي في منخفض «القطّارة» ، وهي عبارة عن فوضى من الرمال المتحرّكة التي يستحيل اجتيازُها ، والمستنقعات المالحة ؛ ولا يفصل موقع الخطّ الأخير هذا عن «النيل» غيرُ مسافة لا تبلغ ١٠٠ كلم .

وبإحدى ردّات الفعل الغريبة التي أغدقتها الحرب ، أنقذ الانتصار الألمانيّ في «طبرق» جزيرةَ «مالطه» . ألحّ «كسلرنغ» للقيام بالهجوم الجويّ في حينه ، ولكنّ مجد «رومل» كان من الكبر بحيث جعله يقتنع بضرورة الاستيلاء على «السويس» أولاً . كان لا بدّ من إقناع «موسوليني»

الذي كانت الغيرة تتأكّله ، فكتب إليه «هتلر» يقول : «إنّ إلهة المعارك . أيّها الدوتشي . لا تزور المحاربين غير مرّة واحدة...» فتمالك «موسوليني» فكره الكثير التقلّب ، وقرّر ألاّ يترك لحليفه هذه المرّة فرصة التهام المجد. سوف يكون هناك ، ولسوف تتسلّط الأضواء عليه ؛ فانطلق في ٢٩ حزيران إلى «أفريقيا» يقود طائرته بنفسه . ويحمل معه جواده الأبيض ليدخل به «القاهرة» دخول «الفاتحين» . وقال : «سأنشىء فيها بعد خمسة عشر يوماً مفوّضيّة سامية إيطاليّة ...»

وهبّت في وجه «تشرتشل» عاصفة شديدة ؛ فلقد تبعته الأمّة البريطانيّة من كارثة إلى كارثة . وهي تصرّ بأسنانها وتمسك بأنفاسها . قبلت بتفسيره يوم فُقدت «اليونان» . ويوم سقطت «كريت» . ويوم أُغرقت «البرنس أوف ويلز» . ويوم عصفت «بماليزيا» الأقدارُ . ويوم اقتحم العدوّ «سنغافورة» عنوة . والآن أتى دور «طبرق» ! لقد شرع الانكليز يتساءلون عمّا إذا كانت الذاكرة قد خانتهم ، وما إذا كان «تشرتشل» الحقيقيّ لم يكن هو إيّاه طائش «الدردنيل» الذي قذف بالبوارج على الحصون وبالصدور على الأجراف . لم يتمخّض المحدّث اللّبق عن انتصار قط ، ولم يكن طوال حياته العامّة ، في الحرب كما في السلم . غير خطيب ومحبّ للحياة ومغامر . أتراه يقود «انكلترا» إلى الكارثة ، وراء ستار من الخطب الرنّانة والعناد ؟

عقَد مجلسُ العموم في ٢ تموز اجتماعاته في قاعته المؤقّتة لمناقشة الاقتراح القاضي بحجب الثقة الذي قدّمه النائب المحافظ «سير جون وارد لو ميلن» . وهاجم «تشرتشل» أعزّ أصدقائه : من «هور بيليشا» رفيقه في النضال ضدّ مباحثات «مونيخ» ، إلى الأميرال «كيس» الذي استُبدل به اللورد «لويس مونتباتن» في إدارة عمليّات الفدائيّين ضدّ «أوروبا» الأسير . فهم يصرّون على ضرورة فصل إدارة الحرب عن إدارة الحكومة ، فانكلترا غدت بحاجة إلى قائد أعلى ، ولم يبقّ بوسعها أن تكتفي برئيس وزارة مطلق السلطة .

أجاب «تشرتشل» ، فإذا جوابه تحفة في علم النفس رائعة . فبدلاً من تخفيف المُصاب وطمس معالم الهزيمة طفق يصفها بخطوط تلسع الكبرياء الانكليزيّ. قال : «كانت قوّاتنا تفوق قوّات المحور. كان لنا ١٠٠،٠٠٠ رجل يقابلها ٩٠،٠٠٠ رجل فيهم ٥٠،٠٠٠ ألمانيّ فحسب . كانت مدفعيّتنا تفوق مدفعيّتهم بنسبة ٨ إلى ٥ ، وكنّا نزوّد الميدان بمدافعنا الجديدة ذات الـ ٧٥ ليبرة . ومع هذا سقطت «طبرق» إثر قتال دام نهاراً واحداً ؛ فتراجعنا حتى «مرسى مطروح» جاعلين بين الجيش الثامن والعدوّ مسافة ١٢٠ ميلاً من الصحراء . مرّت خمسة أيّام فإذا «بروميل» يبرز أمام موقعنا الأخير فيرغمنا على النزوح من جديد والدخول إلى «مصر» والتراجع حتى «العلمين» . ولست أفهم شيئاً ممّا جرى ...»

إنّها لشجاعة فائقة ، وإنّها لمنتهى البراعة ! شهد الاجتماع انقلاباً مدهشاً غريباً ، فإذا بموجة من الثقة تتجسّد وتصعد نحو ذاك الرجل الذي بلغ من القوّة درجة عجزت معها كلّ حقيقة عن أن تخفض ناظريه ، والذي يحيّي الرجال الذين يخاطبهم باعتبارهم يعدلونه قوّة وبأساً . وعندما انقسم المجلس للتصويت لم يحجب الثقة غيرُ ٢٥ نائباً ، فيما منحها ٤٧٦ نائباً ؛ فتمّ بذلك عقدٌ جديد بين «انكلترا» و «تشرتشل».

وثبة نحو "القفقاس"، نحو "ستالينغراد" إخفاقٌ بريطانيّ في "دييب"

كانت الأسابيع التالية مشحونة بالانتظار المحموم ، فقد عاد النصر طوعاً لأوامر «هتلر» . كان جيشه الأفريقيّ على بعد خطوات من «السويس» . وأمّا جيوشه في «روسيا» فقد راحت تقترب من «الفولغا» ومن «القفقاس» . فهل تنهار المقاومة الروسيّة الآن بعدما بقيت صامدة بصورة تفوق كلّ الآمال ؟ وهل كان للقاء النسور الهتلريّة أن يحصل في «آسيا الصغرى» ؟ وهل ستقف «انكلترا» و «أميركا» موقفاً سلبيّاً حيال سحق «روسيا» ؟ وماذا سيحدث بعدئذ ؟ فهل ستحاولان إرهاق «ألمانيا» بفضل السيطرة على البحار والسيادة الجوّية؟ أم أنّهما تفاوضان «هتلر» . هادم البولشفيّة وامبراطور «أوروبا» ؟

هذا ، وقد سبق شنّ «العمليّة الزرقاء» . في ٢٨ حزيران . حادثٌ مؤسف ؛ فقد حمل الميجور «رايكل» معه في طائرة الارتباط أمرَ هجوم الفيلق المصفّح ٤٠ . ولكنّ الطائرة أُسقطت عبر الخطوط ؛ وحين وصلت دوريّة ألمانيّة لاستعادة الحطام . لم تجد لا جثثاً ولا وثائق ! وتمّ الاتّفاق بين الجنرالات على ألاّ يبلّغ الفوهرر الحادث إلاّ بعد ثمان وأربعين ساعة. ومع ذلك فقد تفجّر «هتلر» غيظاً. وما كان إلاّ أن مثل «شتومي» . قائد الفيلق الـ ٤٨ . وهو رجل مرح ذو طباع طيّبة . أمام المجلس الحربيّ . غير أنّ نصيبه كان ألطف من نصيب «شبونيك» . فحُكِم عليه بالنفي في حصن ولم يلبث أن أُعفي منه . فالروس إذاً لم يكونوا عرضة



الجنرال «فون بوك» في الوسط ، في مؤتمره الصباحيّ .

للمفاجأة؛ ولكنّ وضعهم كان ، في أيّ حال ، موغلاً في التورّط . وفي هذه المرّة كذلك ابتدأت «العمليّة الزرقاء» بنمط جدير بالجيش الألمانيّ . إنطلقت الجهود من الشمال ، من مجموعة الجيوش الثانويّة «فون فايخس» التي كانت تضمّ الجيش الثاني ، والجيش المصفّح الرابع ، والجيش المجريّ الثاني . وقام الجيش السادس ، بقيادة «باولوس» ، بمواصلة هذه الجهود بعد يومين ، ممّا حدا «هالدر» المتشائم إلى القول «إنّه لتطوّر مدهش» ، وهو الذي كان يرتاب في إمكانيّة مبادرة جديدة على الجبهة الشرقيّة . وتمّ عبور «الدون» ، واستولى الجيش المصفّح الرابع على «فورونيج» في ٨ حزيران . وبعد يومين بلغ الجيش السادس «الدون» على بعد ٢٠٠ كلم انحداراً . كانت المقاومة ضعيفة ، وكانت وحدات كثيره من التي اصطدم بها المهاجمون وحدات من العمّال أُنشئت بعجلة وسُلّحت تسليحاً مقتضباً . وهذا ما كان يثبّت فكرة «هتلر» المتصلّبة القائلة بأنّ «روسيا» قد أشرفت على النهاية .

في ١١ تمّوز وضعت القيادة الحربيّة الألمانيّة العليا جردةً أولى . لقد



رشّاش ألمانيّ يطلق نيرانه في ١٣ حزيران ١٩٤٢ .

تفكّكت الجبهة الروسيّة على طول ٣٠٠ كلم ، ولكنّ عدد الأسرى لم يكن مرتفعاً : ٨٨،٦٨٩ لمجموعة جيوش «فايخس» الثانويّة ولجيش «باولوس» . وأتى يوم ١٥ تمّوز يؤكّد هذه الملاحظة . فبعد ما هاجم الجيش المصفّح الأوّل بقيادة «فون كلايست» ، التقى في «ميلّيروفو» بالفيلق المصفّح الـ ٤٠ القادم من الشمال . وأُغلق الجيب ، ولكنّه كان فارغاً ! فقد استعاض الروس بخطّة الدفاع المطّاط عن المقاومة في المواقع التي مكّنت الألمان من أسر العديد من الرجال في «كييف» وفي «فياسما» . وراحت الطائرات الألمانيّة ترهق أرتالاً كثّة كانت تتراجع عابرة «الدون» فوق جسرَي «كازانكايا» و «جيلانسكايا» ، وتوغل في سهوب «الفولغا» مقتربة من «آسيا» ...

وأتى تعليل «هتلر» على الشاكلة الآتية : إنّ «روسيا» ، التي نزفت دماؤها حتّى الموت ، تستنجد الشتاء لتلجأ اليه كما يلجأ حيوان جريح إلى جحره . وقد أثبتت إذاعة «موسكو» يقينه ، فراحت تبثّ ، بلهجة يعتريها عذابٌ مبرّح ، مشيرة إلى أنّ «روسيا» كانت تقاتل من غير سند ، وأنّ حلفاءها الخدّاعين لم يفوا بوعدهم في فتح الجبهة الثانية التي وعدوها بها . وها انّ حدس «هتلر» الذي لا يخطىء قد أنبأه بأنّ ساعة الإطباق على الفريسة قد دنت ؛ فكان ينبغي بالتالي حثّ الضربات والإكثار منها ، وتغيير مفاصل الجيش وسير المخطّط استعداداً لتحقيق النصر . وعلى هذا الأساس قسّم «هتلر»المجموعة الجنوبيّة في ٩ تمّوز ؛ فأسند قيادة الجناح الأيمن ، الذي أُسمي «مجموعة أ» ، إلى المارشال «ليست» ، تاركاً الجناح الأيسر ، أو «مجموعة ب» ، تحت إمرة «فون بوك» . ولكن بعد مضيّ عشرة أيّام استغنى «هتلر» عن خدمات هذا الأخير بصورة نهائيّة في نوبة من الغضب . وحلّ «فون فايخس» محلّ «بوك» على رأس «المجموعة ب» ، تاركاً مجموعة جيوشه الثانويّة الخاصّة للجنرال «فون سالموث» . فبعد «روندشتاد» و «براوشيتش» و «ليب» ، ها هو آخر منفذّي أيّار ١٩٤٠ ، «بوك» ، يزول عن الجبهة الشرقيّة .

ألدبّابات الألمانيّة في زحفها إلى «الدون» .



في الواقع كان «هتلر» قد اعتزم إدارة العمليّات ضدّ «القفقاس» بنفسه ، متقلّداً قيادة مجموعة الجيوش ، بعدما تسلّم على التوالي قيادة الجيش الألمانيّ والقيادة الحربيّة العليا ؛ فغادر «بروسيا» الشرقيّة ، وأقام في «أوكرانيا» بالقرب من «فينيتزا» . ولكنّ الطقس قد أثّر عليه ، جاعلاً علاقاته مع جنرالاته أكثر حدّة . كانت الحرارة مضنية ، ولم تكن ظلال أحراج الصنوبر الخفيفة لتوفّر أيّ انتعاش . وعاود «هتلر» حنينٌ إلى «رستنبورغ» ، وخصوصاً إلى «برختسغادن» .



جنود روس يناضلون لاسترجاع «غوزيل» في شمال «القفقاس» .

في ٢١ و ٢٣ تموز صدرت على التوالي مذكّرتان حربيّتان رقم ٤٤ و ٤٥ ، فقلبتا المناورة الألمانيّة رأساً على عقب . وبذلك يكون توازن «العمليّة الزرقاء» قد تحطّم . وتحت سماء «أوكرانيا» المحرقة ، وفي جوّ قاعة للخرائط يكتنفه الغموض ، بلغت الحرب ذروتها . لقد انعقدت مأساة «ستالينغراد» ، وقد هزّم «هتلر» نفسه بيديه .

كانت المذكّرة ٤٤ تتعلّق بالجيش الـ ١١ . كان «مانشتاين» قد ذهب إلى «رومانيا» لقضاء عطلة استراحة بعد ما استولى على «سيباستوبول» وحصل على عصا المارشاليّة ؛ وكان يعتزم ، بعد عودته ، اجتياز مضيق «كيرتش» واجتياح «الكوبان» واحتلال «باتوم» . ولكنّ الأوامر التي

كانت تنتظره في مقرّ قيادته العامّة قد حوّلته لاحتلال «لينينغراد» ! كان عليه أن يترك في «القرم» جنده الرومانيّين ، وفرقتين ألمانيّتين ، وأن يرسل فرقة ألمانيّة إلى «كريت» ، وأن يترك فرقة رابعة لمجموعة الوسط التي كانت احتياطاتها منعدمة . وأمّا ما تبقّى من الجيش الـ ١١ ، أي الفيلقان الـ ٣٠ و الـ ٤٥ ، وعدّة المدفعيّة الضخمة ، ومدافع حصار «سيباستوبول» الجبّارة «ثور» و «أودين» و «دورا» ، فكان يجب شحنها بالسكّة الحديديّة على شبكة منهوكة ، متعرّضة لهجمات الأنصار ، فتقطع «روسيا» من أسفلها إلى أعلاها ! وقد رأى «هتلر» أنّ مجرى العمليّات يمكّنه من إنعاش الهجوم في الشمال من غير انتظار . وهكذا كانت المذكّرة ٤٤ تضعف «العمليّة الزرقاء» ، وكانت المذكّرة ٤٥ تفكّك أوصالها . وحين انتزع «هتلر» من المارشال «فون بوك» نصف مجموعة جيوشه ، دوّن هذا الأخير في يوميّاته أنّ المعركة سوف تُشطر شطرين . والواقع أنّ «هتلر» كان قد عقد على هذا الأمر نيّته .

هذا ، وكان الملل الهتلريّ قد حوّل ، خلال الأسبوعين المنصرمين ، سيرَ «العمليّة الزرقاء» ؛ فقد تُخُلّي عن مناورة الملقط التي يقوم بها جناحا المجموعة الجنوبيّة ، وعاد المجهود الألمانيّ إلى الانتقال إلى مجرى «الدون» الأدنى ، وهو طريق «القفقاس» المباشرة . وأصبحت «روستوف» نقطة التقاء مجموعة «رووف» الثانويّة (الجيش الألمانيّ الـ ١٧ والجيش الرومانيّ الثالث) ، والجيش المصفّح الأوّل (فون كلايست) . فبعد ما كانت المدينة قد فُقدت في أوّل الشتاء السابق القاتم ، أُعيد احتلالها في ٢٣ تموز ، واجتاز «كلايست» «الدون» في اليوم التالي . أمّا العدوّ فقد تراجع بانتظام مخلّفاً وراءه القليل من العتاد .

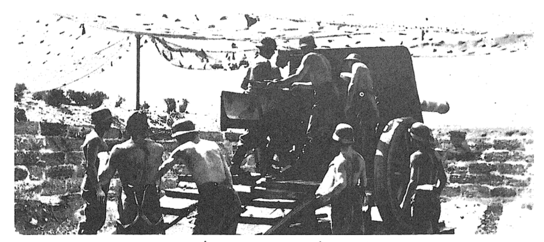
وقد أدركت القيادة الألمانيّة منذ ذلك الحين أنّ هذا التراجع كان معتَمداً . فقد علمت بصورة غامضة أنّ مؤتمراً حربيّاً قد عُقد في «موسكو» بتاريخ ١٣ تموز ، وأنّ مبدأ الدفاع المطّاط قد حاز قبول «ستالين» . ولكنّ «هتلر» أصرّ على الاعتقاد بأنّ الروس قد غُلبوا على أمرهم ، وأنّ بميسور الجيش الألمانيّ أن يهمل المناورات على اختلافها ، وأنّ يستغلّ انتصاره بالاندفاع إلى الجبهات جميعاً في آن معاً .

وقد اعتمدت المذكّرة رقم ٤٥ على هذا الاقتناع العنيد ؛ فأُطلقت مجموعة الجيوش «أ» لمهاجمة «القفقاس» ، وكانت مهمّة جناحها الأيمن أن يغزو «الكوبان» ، ويحتلّ ساحل «البحر الأسود» بكامله ، ويسيطر على فجاج الطريق الغربيّة ، ويحتلّ «باتوم» ، ويستولي على حقل البترول في «مايكوب» ؛ وكانت مهمّة جناحها الأيسر أن يغزو «أوسيتيا» ، ويستولي على حقل البترول في «غروزني» ، ويقتحم طريق «تيفليس» فيبلغ بحر «قزوين» «بغية الاستيلاء على باكو» . وكان المخطّط يحمل اسم زهرة متواضعة ، «إدلفايس» . الاسم متواضع ، ولكنّ البرنامج متهوّر . لم يكن لدى المجموعة «أ» غير ٣٠٠ دبّابة ، ولم يكن بإمكانها الاعتماد على أكثر من ١٥ فرقة ألمانيّة لكون الجيوش الرومانيّة والسلوفاكيّة سيّئة التسليح قليلة القيمة . وكانت المسافات مفرطة : فمن «روستوف» إلى منحدرات «القفقاس» الأولى : ٦٠٠ كلم ؛ ومن «الدون» إلى «باكو» : أكثر من ألف كلم ! وأمّا جبهة انطلاق المجموعتين «أ» و «ب» ، وهي «روستوف – زيملانسكايا – فورونيج» ، فيبلغ طولها ١،٢٠٠ كلم ؛ والجبهة التي أمر «هتلر» ببلوغها ، «باتوم – باكو – استراخان – ستالينغراد – فورونيج» ، فتبلغ ٤،١٠٠ كلم ! وكان تنظيم خطّ السكّة الحديديّة عاجزاً عن مجاراة تقدّم الجند ، وبعد تمديد خطوط المراحل أضحى النقل بواسطة قوافل السيّارات ضرباً من ضروب اللامعقول ، إذ أنّ الشاحنات كانت تلتهم من الوقود بقدر ما تستوعبه خزّاناتها ! وعرفت الخيل حرماناً من نوع آخر : نقص المياه المخصّصة لإروائها . كانت سهوب «الكوبان» المحرقة تجفّ في الصيف كالصحراء ، وقد سُيّرت فيها قوافل جمال تنقل صفائح البنزين إلى الدبّابات الألمانيّة !

في هذا الرحب الشاسع البرّاق بدأت القوّات الألمانيّة توغّلها . وفي آخر يوم من تموز دخل الجيش الألمانيّ إلى «آسيا» بعدما اجتاز منخفض «مانيتش» ، حيث حدود «أوروبا» . وكان قد أُعيد جمع القوّات الروسيّة في جبهة شماليّة قفقاسيّة وُضعت تحت إمرة المارشال «بوديني» الذي أُعيد إليه الاعتبار بعد النقمة التي حلّت به في «أوكرانيا» ، فكانت تنشد الإفلات بخوض قتال المؤخّرات على شقوق الأنهر التي أبقى ذوبان الثلوج على مياهها في جحيم الصيف . وتمّ عبور «الكوبان» ، واستولت مجموعة «رووف» على «كراسنودار» في ٨ آب . وفي الليلة التالية وجدت المجموعة المصفّحة الثالثة أنّ الأفق الممتدّ أمامها يشتعل : فقد كان الروس يضرمون النار في آبار «مايكوب» ، فكان على لواء المعادن الألمانيّ أن يخمدها منذ اليوم التالي . ولكنّ شهوراً من العمل كانت ضروريّة قبل أن يعود الاستثمار الفعّال إلى مجراه . لقد تسلّط هذا البترول على حواسّ «هتلر» فقال إنّه لولاه يضطرّ إلى «إنهاء هذه الحرب» . وإذا به لا يحصل من فيضه إلاّ على بضع نقط ، وهي جزء تافه من دفق الوقود الذي استهلكه في سبيل الحصول عليه .

واستمرّ التقدّم ، وراح المشاة يقطعون ٥٠ كلم في اليوم الواحد وهم يكادون يموتون عطشاً . وتغيّرت طبيعة البلاد ، فارتفعت الأرض ، وغدت الأودية وعرة ، وبرز من الأفق خطّ مرتفع تكسوه الثلوج . وتغيّر الرجال كذلك ، وتضاءل عدد الروس ، وكان السكّان من «القوزاق» و «الشركس» وغيرهم يأتون خاضعين لإرادة الغزاة ، فيستقبلهم شيوخهم بخطب التأهيل الطويلة بلغات لم يكن بإمكان أيّ مترجم أن يفقه لها معنى ومع ذلك ازداد تشتّت مجموعة الجيوش الضعيفة أكثر فأكثر ؛ فمن بحر «آزوف» إلى وسط «القفقاس» كان قياس جبهة مسيرتها ٧٠٠ كلم صدّاً . وقد طارت صيحات اليأس من قادة الوحدات الكبرى إلى المقرّ العامّ في «ستالينو» ، التي تبعد مئات الكيلومترات عن ساحة القتال ، حيث كان المارشال «ليست» عاجزاً عن القيام بأيّة مبادرة ، ويرئس اسميّاً مشروعاً لا يفهمه ؛ فالوقود قد فُقد في كلّ مكان ، والصعوبات في التموين تعوق سير العمليّات . إلاّ أنّ هذا لم يمنع «هتلر» من إجراء بعض التعديلات التي زادت في غرابة مخطّط «إدلفايس» وتهوّره . كان على المجموعة «أ» أن تزيد في تمديد خناقها ، وأن توسّع فتحة أجنحتها ، وأن تدخل إلى «القفقاس» نفسه مخلّفة بين عناصرها المبعثرة جبالاً شاسعة لا طرقات لها . فها هو «هتلر» يستخفّ بالطبيعة كما استخفّ بالعدوّ .

ولكنّ مقاومة هذا العدوّ راحت تتصلّب . فكان «رووف» يشقى أمام مدن «البحر الأسود» ، أمام «أنابا» ، و «نوفوروسيرك» ، و «تواسب» ، التي كان «تشير فيتشنكو» يدافع عنها بمهارة . وأمّا «كلايست» فقد أحرز نجاحاً أبهر ، فاتحاً فجاجاً مدوّخة ، مكتسباً ظفراً مدويّاً بغزوه قمّة «إلبروز» (٥،٦٣٠ متراً) ، وهي ذروة «القفقاس» التي تسلّقها ، من ١٨ إلى ٢١ آب ، ٢١ من القنّاصة الجبليّين بقيادة الكابتن «غروث» والكابتن «غيميلير» . واستولى كذلك على «ستافوبول» ، ومن ثمّ اجتاز سهوب «نوغي» واحتلّ «بياتيغورسك» مدينة «الجبال الخمسة» ، وسط ينابيعها الكبريتيّة وغاباتها . وأبعد من ذلك إلى الشرق بلغت فرقة الدبّابات الألمانيّة الـ ١٣ ، مع الفيلق الـ ٥٢ ، «التيريك» المتنحّي عن السلسلة الكبيرة بالمضايق التي كان جنود «القيصر» قد شقّوا فيها طريقاً عسكرية بغية إخضاع الجبليّين. وراحت المقدّمات الألمانيّة تقترب من «فلاديكوكاز» (أي «أبواب القفقاس») التي أطلق عليها البلاشفة اسم «أود جونيكيدزي».



مدفع من صنع فرنسيّ يستخدمه الألمان في حماية شواطىء البحر الأسود قرب «سيباستوبول».

وعلى سفح «الكازبك» كانت الطريق تنحدر بعد ذلك باتّجاه «تيفليس».

كان الهجوم يتعثّر في كلّ مكان وفي آن معاً. فقد وقف «رووف» عاجزاً عن الاستيلاء على «نوفوروسيرك»؛ وعجز «كلايست» عن اجتياز «التيريك»؛ وعجز الفوهرر عن إدراك سبب توقّف جيوشه عن التقدّم! وفي ٣١ آب استدعى «ليست» إلى «فينيتزا» وأشبعه تعنيفاً، قال: «إنّ الحرب ستبلغ عامها الثالث في الليلة المقبلة، وأنا قد سئمت هؤلاء الجنرالات الذين يساعدون على استمرارها بقلّة كفاءتهم، وبخمولهم، وبقلّة إيمانهم واندفاعهم ...»

وكانت الحرب مستمرّة كذلك أمام «ستالينغراد». لم تكن «ستالييننغراد» هدفاً حيوياً في المخطّط الألمانيّ، حتّى أنّ «هتلر» قد وافق على ألاّ تؤخذ المدينة، شريطة أن تبقى مصانعها فريسة لنيّران المدفعيّة، وأن توقّف الملاحة على «الفولغا». وهو، بموجب تدريب مطّرد، ولأسباب تبعد أكثر فأكثر عن المتطلّبات العسكريّة الضروريّة، سوف يعير معركة «ستالينغراد» المغزى الذي ستكتسبه.

أمّا بالنسبة للروس فقد كان الاحتفاظ «بستالينغراد» أمراً بالغ الأهميّة؛ كانت خسارتها تعني قطع الصلة الأخيرة بين «الأتّحاد السوفياتيّ» و«القفقاس». ففي ١٩١٨ كان الوضع هو إيّاه، حين كانت «ستالينغراد» تحمل اسم «تزاريتزين»، وحين لم يكن «ستالين» غير مفوّض في مهمّة يبحث على «الفولغا» عن القمح بغية إنقاذ «موسكو» من المجاعه. ولو أنّ قوزاق «كرازنوف» استولوا على المدينة آنذاك، لغدا انتصار القفقاسيّين الوطنيّين أكيداً بلا ريب. ولكنّ القفقاسيّ «ستالين» كان في الموضع والزمان الحاسمين للتصدّي لهذا الخطر.

في ١٢ تمّوز جهّزت القيادة السوفياتيّة العليا الدفاع عن «ستالينغراد». وقد أنشئت جبهة تحمل هذا الأسم بقيادة المارشال «تيموشنكو»، وكان رئيس أركانها الجنرال «ب.ا. بودين»، ومفوّضها السياسيّ «ن.س. خروشتشيف». كانت الجبهة تضمّ الجيوش الـ ٦٣، و الـ ٤٥٢، و الـ ٦٤، و الـ ٢١، والـ ٦٢، فضلاً عن الجيش الجوّيّ الثامن تحت إمرة الجنرال «ت.ت. شريبوكين». كان قطاعها يبتدىء من «بافلوفسك» ويتبع مجرى «الدون» حتّى «كلاتسكايا»، وهو في اتّجاهه من الشمال إلى الجنوب يقطع عقدة النهر ثم يعود إلى بلوغه في «ويرشني — كورموكاسكايا» حيث تبتدىء الجبهة الجنوبيّة الشرقيّة. وقد قبل الروس المجازفة بخوض القتال وظهورهم إلى النهر، بغية الزيادة من كثافة الحادّة القاريّة التي تحمي «ستالينغراد».

وقام الألمان وحلفاؤهم بالاصطفاف تباعاً على «الدون»، ووجههم إلى الشمال، لتغطية الهجوم على «ستالينغراد». وكان يؤازر الجيش الألمانيّ الثاني، والجيش المجريّ الثاني، الجيش الإيطاليّ الثامن بقيادة الجنرال «غاريبولدي» الذي دخل إلى الجبهة في النصف الثاني من شهر تمّوز. لم تكن التغطية مثاليّة إطلاقاً؛ «فالدون» لم يكن هادئاً فحسب، بل وكان كسولاً، وهو بذلك لا يشكّل حاجزاً ذا أهميّة قصوى. ومهما يكن من أمر فقد أبقى الروس على الضفّة اليمنى رؤوس جسور عديدة، منها رأس «سيرافيموفيتش» الذي يبلغ امتداده ١٠٠ كلم. وأمّا الجنرال «باولوس»، الذي كان مكلّفاً باحتلال «ستالينغراد»، فقد لفت انتباه مجموعة الجيوش إلى ضعف ميسرته، ولكنّ الازدواجيّة في المسيرة إلى «القفقاس»، وفي عمليّات «ستالينغراد»، قد سحبت من القيادة الألمانيّة القوّات المتوافرة لديها. وقد صرّح «هتلر»، من جهة ثانية، بأنّه يشعر بدنوّ نزول انكليزيّ في «فرنسا»، وأمر بسحب فرقتين سريعتين من الجبهة الشرقيّة لتدعيم حاميات الغرب.

كانت أواخر أيّام تمّوز حرجة بالنسبة للجيش السادس؛ فقد وجد نفسه مجزّءاً إلى كتلتين، الواحدة شماليّ «كالاتش»، والأخرى جنوبيّ أحد سواعد «الدون» الذي سيعرف الشهرة خلال الأشهر الثلاثة التالية، هو «التشير». وقد أتى التفكّك في المؤخّرات، الناجم عن ارتجاليّات «هتلر»، يحرم هذا الجيش من الوقود ويسمّره في مواقعه مدّة أسبوع كامل. وأمّا قائده، «فريدريك باولوس»، وهو ابن محاسب في إحدى الإصلاحيّات، فقد بلغ الرتب العالية بفضل اجتهاده الدائب في أعمال الأركان العامّة، إلاّ أنّه كان يفتقر إلى الاندفاع الرياضيّ القاسي، وإلى الصفات البارزة التي يتحلّى بها قادة الرجال من أمثال سلفه «رايخناو» بيد أنّه، مع ذلك، تمكّن من تذليل الأزمة بصورة مُرضية؛ ففي ١١ آب أغلق على قوّات «الدون» السوفياتيّة كلاّبة فيلقيه الـ ١٤ و الـ ٢٤ المصفّحين. وهكذا ربح الجيش الألمانيّ «معركة قدر» جديدة، خلّفت بين مخالبه ١٠٠،٠٠٠ أسير. وبعد مضيّ ثمانية أيّام ألقى الجيش السادس على «الدون» أربعة رؤوس جبهيّة وثبّت أقدامه في برزخ «دون — فولغا»، فلم يبقَ بينه وبين «ستالينغراد» غير ٥٠ كلم.

إلاّ أنّه لم يكن منفرداً في الهجوم على المدينة الكبيرة؛ فالجيش

المصفّح الرابع قد وصل للمساندة ، يقوده أحد كبار قوّاد المصفّحات التقليديّين ، الجنديّ القديم الكولونيل جنرال «هوث» . كانت مغامراته البرّية ، منذ ٢٨ حزيران ، تعبّر عن الإعصار الذي عصف بتفكير «هتلر» العسكريّ . فقد بدأ «هوث» باحتلال «فورونيج» على الحدود الشماليّة لمجموعة الجيوش ، ثم ، بناء على إلحاح القيادة العليا ، نزل بأقصى السرعة نحو الجنوب للإسهام في معركة تطويق ما لبث «هتلر» أن رغب عنها فجأة . عندئذ قام الجيش المصفّح الرابع باقتحام مجرى «الدون» الأسفل ، بالاشتراك مع الجيش المصفّح الأوّل الذي لم يكن بحاجة لمساعدته ، والذي عرقل مؤخّراته ليس إلاّ . وكان هذا الجيش قد انطلق لغزو «القفقاس» ، فأوقفه «هتلر» ، وأعاده إلى المجموعة «ب» ، وأرسله للإسهام في احتلال «ستالينغراد» بعد مسيرة جانبيّة طويلة ؛ فراح يتقدّم عبر أراضٍ عجيبة على تخوم «أوروبا» و «آسيا» . راحت قطعان من



من حرب الغابات إلى حرب الشوارع ! كم وراء تلك النوافذ من سلاح متربّص !

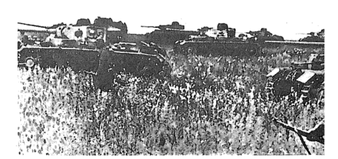
الخيول البرّية تفرّ في وجه راكبي درّاجاته الناريّة ؛ وكانت النسور تحلّق متهادية فوق أرتاله ؛ وكان رجال «الكلموك» ، ذوو الشعر الكثّ ، ينظرون إلى جيوش الغزو تمرّ من أمام أكواخهم المطليّة بلون أصفر . أمّا ميزان الحرارة فكان يشير إلى ٥٥ درجة مئويّة في الظلّ ، هذا إذا وُجد الظلّ في السهوب الروسيّة ، حيث كان الغبار يثور كالخضم . ولقد قاسى العتاد من جرّاء ذلك الكثير ؛ أضف إلى ذلك أنّ الجيش المصفّح الرابع قد جُزّئ لصالح الوحدات الكبرى الأخرى . ولم يأت «هوث» في الواقع بغير فرقة آليّة وفرقة مصفّحة لا تملك إلاّ خمسين دبّابة بدلاً من الـ ٢٠٠ التي يسمح لها بها النظام القانونيّ . فالعبارات العسكريّة كانت تفقد معناها في مثل تلك الأوضاع .

كانت «ستالينغراد» مصنعاً طويلاً على «الفولغا» أكثر منها مدينة . فأرباض المدينة تبدأ في الشمال بضاحية «رينوك» ، وتنتهي على بعد ٤٥ كلم جنوباً بضاحية «كوبيروسنوجي» . وكان مفتاح المدينة سلسلة صغيرة من التلال هاجمها الجيش المصفّح الرابع من الجنوب والجيش السادس من الشمال . وكما حدث على «التيربك» قاوم الروس بعزم اليائس . فساعة الانبساط المطّاط قد انقضت ، وعادت ساعة التشبّث بالأرض حتى الموت . إستولى الفيلق الألمانيّ الـ ٥٢ على أمر «لستالين» توجّه به إلى الشعب قائلاً ، بلهجة أبويّة خالية من التعنيف أو التهديد ، إنّه بات غير مسموح أن تفقد «روسيا» شيئاً من أراضيها أو من مواردها الصناعيّة . فيجب الذود بضراوة عمّا تبقّى .

في ١٩ حصل اضطراب حادّ في «فينيتزا» ؛ فقد نزل الانكليز إلى البرّ في «دييب» ! وكانت أوّل محاضر مجموعة جيوش الغرب (التي وُضعت منذ أوّل آذار تحت إمرة المارشال «فون روندشتاد») تشير إلى عمليّة واسعة المدى ، وإلى اجتياح الساحل الفرنسيّ على مساحة ٣٠ كلم ، وإلى اشتراك البحريّة والطيران على نطاق واسع . وقد جزم «هتلر» بأنّ الانكليز سيحاولون إمّا الاستيلاء على «الهافر» وإمّا إسقاط مراكز الدفاع في «با دي كاليه» .

إلاّ أنّ القضيّة توقّفت عند هذا الحدّ ، وصرّح الجنرال «كونتزن» ، قائد الفيلق الـ ٨١ ، بأنّه أقحم في العمليّات فرقة «أدولف هتلر» الصاعقة ، والفرقة المصفّحة العاشرة ، وهو يأمل بألاّ يبقى في «دييب» في العشيّة نفسها انكليزيّ واحد يحمل السلاح . وفي الواقع أخفق الهجوم الانكليزيّ تماماً ؛ فالنزول إلى البرّ لم يتعدّ قطّ شاطئ الحصى الضيّق . وأمّا الدبّابات الـ ٢٧ التي أنزلت بواسطة سفن خاصّة فقد دُمّرت على بعد ٢٠ متراً من المياه المالحة ، وكانت واحدة منها لا أكثر قد تمكّنت من اجتياز مسافة ١٠٠ متر . وأمّا المهاجمون – وثلثاهم من الكنديّين – فقد قُطّعوا إرباً . وأُصدر أمر معجّل بالعودة إلى السفن منذ التاسعة صباحاً . ولكن ، من مجموع ٦,٠٠٠ رجل اشتركوا في العمليّة ، بقي ٣,٠٠٠ في القارّة بين قتيل وأسير . وأشار تقرير «روندشتاد» إلى أنّ الحياة في «دييب» قد عادت إلى مجراها الطبيعيّ في الساعة ١٦ ، وأنّ المخازن كافّة قد عادت إلى فتح أبوابها . وأردف قائلاً إنّ موقف السكّان لم يكن خالياً من الشوائب فحسب ، بل كان كذلك مخلصاً للغاية . وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض المدنيّين كان قد قاتل إلى جانب الانكليز حين قام أحد الفدائيّين بنسف حوض «سان نازير» الكبير ؛ أمّا في هذه المرّة ، وحسب تقرير المقاومة الفرنسيّة ، فقد عاون بعض السكّان الألمان على أسر الجنود البريطانيّين ! وتهلّل الفوهرر لهذا الواقع وأصدر أمراً بإطلاق سراح أسرى حرب «دييب» وضواحيها . ووجّه كذلك كلمة شكر للانكليز ، فقال إنّها المرّة الأولى التي يقوم بها أناس بقطع البحر كي يقدّموا للعدوّ نماذج كاملة من أسلحتهم الجديدة !

إنّ الطارئ الوجيز الذي عبّر عن العجز الانكليزيّ لم يعش طويلاً في الأذهان ؛ الواقع الوحيد كان تلك المعركة القاسية التي كانت تعصف في سهوب «الدون» و «الفولغا» المحرقة . ففي ٢٠ آب ، أطلق الروس ، من رأس جسر «كريمسكايا» ، هجوماً عنيفاً استدعى تحطيمه تدخّل الفيلقين الألمانيّين الـ ١١ و الـ ٨ ؛ وبعد مضيّ ثلاثة أيّام قام الفيلق المصفّح الـ ١٤ ، بقيادة أحد قوّاد «غوديريان» السابقين ، «فون فيترشهايم» ، باجتياز «الدون» بحشد كبير عبر جسر «فيرتاشي» . أمّا الجنرال «هوبي» الأقطع فقد اندفع بجيشه المصفّح الـ ١٦ بأقصى سرعته ، وبتشكيلة متراصّة شبيهة بسريّة جنود مدرّعين في الحروب الغابرة . لم يعترض سبيله شيء ، فاجتاز ٦٠ كلم بقفزة واحدة . ولاح طيف «ستالينغراد» بمداخن مصانعها ، وقصورها المائيّة ، وخزّانات حبوبها ، من خلال الغبار الكثيف الذي تصاعد في فترة ما بعد الظهر . إنّ مجهوداً واحداً كان يكفي لتصبح «الفولغا» بمتناول اليد ! فهو يجري على أقدام ضفّة وعرة بعرض كيلومترين ، تغطّيها قُطُر الخشب ، ويكسبها المازوت



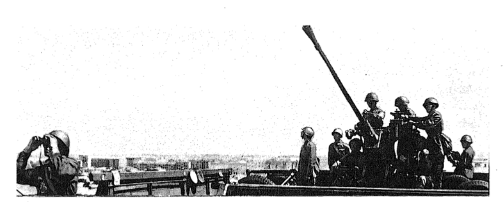
ألدبّابات الألمانيّة تقف على أهبة الاستعداد لمهاجمة آخر المعاقل الروسيّة على «الدون» .

ألواناً ألواناً ، وتملأ جنباتـها المراكبُ تحت أجنحة القاذفات الألمانيّة التي كانت تقصف «ستالينغراد» . وأمّا الضفّة الأخرى ، وكانت منخفضة ، فهي متاهة من الجزر المغطّاة بالخيزران ، وفيها خطوط ماء كبيرة كثيبة مترامية الأطراف .

لقد بلغ الجيش الألمانيّ «الفولغا» ! ولكنّ الثغرة لم تكن سوى ممرّ يبلغ عرضه كيلومترين أو ثلاثة . وخلال أسبوع كامل بقي الجيش المصفّح الـ ١٦ متمسّكاً بضاحية «رينوك» وهو في وضع حرج . وأمّا فرقتا «فيترشهايم» الأخريان الآليّتان الـ ٣ والـ ٦٠ ، ومن ثمّ الفيلق الـ ٥١ ، بقيادة الجنرال «فون سايدليتز- كورباخ» الذي فكّ لتوّه الحصار عن «ديميانسك» ، فقد قامت بتوسيع حدّ المنشار الذي رسمه «هوبي» . وفي ٣١ آب أُنشئت نقطة ثقل شماليّ «ستالينغراد» ؛ وقد أُنشئت نقطة أخرى في الجنوب بواسطة الجيش الرابع الذي احتلّ فيلقه المصفّح الـ ٤٨ مرتفعات «غابريلووكا» . وهكذا باتت مدينة «ستالين» في خناق حديديّ . لقدَ كانت الحرب في نهاية سنتها الثالثة ، وأصبح سقوط «ستالينغراد» رهن ساعات معدودات .

"تشرتشل" في "موسكو": لاجبهة ثانية

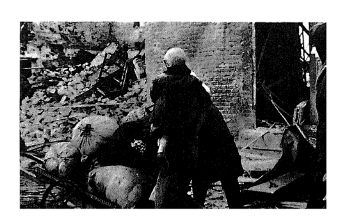
لم يكن صدى اقتحام «دييب» في المعسكر الغربيّ غير خطإ جسيم باهظ التكاليف أملته رغبة مفرطة في القيام بأيّ عمل أيّاً كان الثمن . فثمّة جيش كنديّ يستبدّ به السأم في «انكلترا» ، وثمّة «ستالين» الذي ما فتِىء يحتجّ على الجمود البريطانيّ ، فيما ألحّ اللورد «لويس مونتباتن» مطالباً بزيادة عمليّاته المشتركة . اعتُبرت الحملة عمليّة استطلاع وضيعة ومهيبة تعتمد القوّة : يجري احتلال المدينة في الصباح ، وتبقى محتلّة حتى المساء ، ثم يتمّ الجلاء عنها بتؤدة خلال الليل . وقد قدّر «جهاز الاستخبارات السريّة» الحاميةَ الألمانيّة بكتيبة واحدة من الطراز القديم . كان على حشد قويّ من سلاح الجوّ أن يطرد الطيران الألمانيّ من السماء ، إلاّ أنّ سحق «دييب» بقصف سابق قد أُهمل منعاً لوقوع



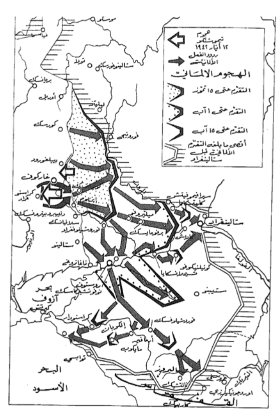
بطاريّة من المدافع الروسيّة المضادّة للطائرات ، بقيادة الليوتنان – رئيس « أ. كيسيلييف » ، تذود عن «ستالينغراد» .

مجزرة بين المدنيّين . ثم أُهملت العمليّة المنويّ القيام بها في ٧ تموز برمّتها ، حين حالت العاصفة دون مغادرة سفن الإنزال جزيرة «وايت» ؛ ثم أُعيد تنظيمها رغم معارضة «مونتغومري» القائد الأعلى لجنوبيّ شرقيّ «انكلترا» . ليس هنالك ما يثبت أنّ الألمان كانوا على علم بها ، إلاّ أنّ ذلك ليس محالاً ؛ فقد أتت المقاومة أعنف كثيراً ممّا كان الانكليز يتوقّعون ، ويبدو أنّ الهواء نفسه قد تنكّر لهم وخانهم : كانوا ينوون إيقاع الطيران الألمانيّ في شرك ، فإذا بهم يفقدون ضعفي ما أسقطوه من طائرات . أثبتت «دييب» ببرهان الدم استحالةَ غزو «أوروبا» خلال ١٩٤٢ . ولم يكن ما يوجب هذا البرهان على كلّ حال ، إذ أنّ النظر قد صُرف عن فكرة «سليد جهامر» ، فتغلّب الحذر البريطانيّ على روح المغامرة الأميركيّة .

كان النزاع شديداً ؛ «فمارشال» رجل عنيد ، وقد راح يلوّح بالتهديد التالي : إن لم يشإ الانكليز القبول بعمليّات في «أوروبا» فستضطرّ «أميركا» إلى قلب استراتيجيّتها رأساً على عقب . وكتب «مارشال» في مذكّرة إلى «روزفلت» يقول : «هدفي هو إرغام البريطانيّين على العمل ضدّ «ألمانيا» . وإذا استحال ذلك فينبغي أن نستدير في الحال شطر المحيط الهادىء بكلّ ما يتيسّر لنا من القوّات لنصفّي حسابنا مع «اليابان». أمّا



من مآسي المدنيّين بعد قصف «ستالينغراد» .



هجوم الجيش الألمانيّ باتّجاه «القفقاس» .

ما اقترحه «تشرتشل» من ضرورة اختيار واحدة من الخطّتين التاليتين: «جيمناست» ، أو احتلال «أفريقيا الشماليّة» ، فهو في رأي «مارشال» «باهظ الثمن وغير مجد» . أمّا وزير الحربيّة النزق المسنّ ، «ستيمسون» ، فقد صفّق بيديه قائلاً : «إنّني أؤيّد من كلّ قلبي الاقتراح القاضي بكشف الأوراق بيننا وبين البريطانيّين» .

لقد تضافرت على قلب الاستراتيجيّة الأميركيّة عوامل ومؤثّرات قويّة ؛ ففي «أوستراليا» غدا «ماك أرثر» صاحب مدرسة استقطبت أنصار الانعزاليّة السابقين ومجمل الرأي العامّ في الغرب . وأراد الأميرال «كينغ» ، قائد البحريّة ، إنهاء ما بوشر في «ميدوي» . وتصدّت للنظريّات الانكليزيّة فئتان متطرّفتان: فمن جهة ألدّ أعداء السوفياتيّة ، وهم لا يرون أيّة غضاضة في إفساح المجال أمام «هتلر» ليسحق «ستالين» ؛ ومن جهة ثانية أشدّ أنصار السوفياتيّة ، وهم يريدون فتح جبهة ثانية في الحال ومهما كان الثمن .

في ١٧ تموز ذهب «هوبكنز» و «مارشال» إلى «بريطانيا العظمى» يرافقهما الأميرال «كينغ» . كان جوّ من ضيق الصدر والعصبيّة يهيمن على أفراد البعثة عامّة ، وخاصّة على «هوبكنز» الذي اضطرّه السفر إلى تأجيل زفافه الثاني ، والذي لم يرضَ بالذهاب إلاّ تحت ضغط «روزفلت» الذي أصرّ على اشتراك ممثّله الشخصيّ بمفاوضات قد تكون حاسمة . ولقد أتى الحادث الأوّل يزيد الطين بلّة ؛ وصل الأميركيّون عن طريق «بريستويك» فاستقلّوا قطار «سكوتلندا» السريع الذي أوقفه «تشرتشل» في «الشيكرز» بصورة استثنائيّة . إلاّ أنّ «هوبكنز» رفض النزول مدّعياً أنّه يريد الاتّفاق مع الأركان الأميركيّة في «لندن» ، قبل لقاء رئيس الوزراء . وتلت ذلك مكالمة هاتفيّة بلغت من الحدّة مبلغاً فقد معه «تشرتشل» السيطرة على أعصابه ، فهدّد بطرد ممثّل رئيس «الولايات المتّحدة» الشخصيّ ! وقد كتب «هوبكنز» إلى «روزفلت» متظلّماً . قال : «لقد رماني بدستور «المملكة المتّحدة» . ولكنّ الضرر لم يكن جسيماً لأنّ هذا الدستور وثيقة غير مكتوبة ! »

عقد المؤتمر الانكليزيّ الأميركيّ الفائق السريّة في أقلّ الأماكن سريّة ، أي في الدور الرابع من فندق «كلاريدج» . أبدى «كينغ» معارضة شديدة لكلّ ما من شأنه أن يصرف عن المحيط الهادىء أيّ جزء من القوّات الأميركيّة ؛ وحصر «مارشال» عمليّة «سليدجهامر» باحتلال «الكوتنتين» ، ولكنّه تشبّث بها بعناد ؛ وأعرب الانكليز عن معارضتهم لكلّ نزول على القارّة سابق لأوانه . تردّت المفاوضات في مأزق ، وانحصرت المشكلة في معرفة ما إذا كان التهديد الذي يلوّح به «مارشال» ، وهو ارتداد القوّة الأميركيّة ضد «اليابان» ، سيوضع موضع التنفيذ . وكان «مارشال» في الواقع أوّل العارفين بأنّ شيئاً من ذلك لن يتمّ : ففي ١٦ تموز ، وقبل رحيله من «واشنطن» ، أعلمه «روزفلت» بأنّه لا يقبل بذاك التحويل ، وأنّه يرغب في فتح جبهة ثانية في «أوروبا» وبأقرب فرصة ممكنة لإنقاذ «روسيا» ، وأنّ معاقبة الانكليز ، باعتبار أنّ «ألمانيا» لم تبقَ الخصم رقم واحد ، غير واردة إطلاقاً ؛ فإن لم يكن من العدول عن «سليد جهامر» بدّ ، فإنّ «أميركا» سترتدّ إذ ذاك إلى العمليّة الأفريقيّة.

ربح «تشرتشل» الجولة ، فاستبدل ، وهو الرجل الشديد التأثّر بالألفاظ ، كلمة «تورتش» (مشعل) بالتسمية التقليديّة «جيمناست» التي وجدها مبتذلة . وتمّ الاتّفاق على توسيع المخطّط الموضوع سابقاً بتمديد عمليّة النزول التمهيديّة إلى مدينة «الجزائر» ، وبوجوب الاستيلاء على مدينة «تونس» بأسرع ما يمكن . كان ينبغي مباشرة تنفيذ العمليّة قبل نهاية تشرين الأوّل مبدئيّاً ؛ وقد أبلغ «مارشال» بصورة شبه رسميّة الجنرال «دوايت د. أيزنهاور» ، الذي كان إذ ذاك في «لندن» ، أنّ «روزفلت» يكلّفه بقيادة هذه العمليّة .

بقي إطلاع «ستالين» على قرار إرجاء الجبهة الثانية إلى أجل غير مسمّى ، فقبل «تشرتشل» القيام بهذه المهمّة . أقلع من «لندن» في ٢ آب على متن قاذفة قنابل ليس فيها من أسباب الرفاهية شيء . وبعد ما مرّ بجبل «طارق» «فالقاهرة» «فطهران» ، بلغ «موسكو» في ١٢ منه . وقد اتّصف اصطدامه «بستالين» بمنتهى العنف . قال له «ستالين» : «إنّكم تتنكّرون لالتزاماتكم لأنّكم تخشون منازلة الألمان» . فأجابه «تشرتشل» : «لقد كنتم حلفاءهم يوم كنّا نكافحهم وحدنا» . وانتهت المقابلة عند هذا الحدّ من تبادل اللوم والتقريع .

ووقف «رومل» في مكانه أمام «العلمين» . ذاك أنّ النصر قد أتلف صاحبه ؛ فالجيش الأفريقيّ ، الذي يزوّد عادة بـ ٣٧١ دبّابة ، لم يبقَ له منها غير ٥٠ ؛ وآلت الفرقة الخفيفة ٩٠ إلى ١٫٥٠٠ محارب . ولم يكن النهوُّ الإيطاليّ أخفّ وطأة : لم يبقَ للفيلق ٢٠ سوى ٥٤ دبّابة ، فيما هبط عدد الرجال في كتائب المشاة التابعة للفيلقين ١٠ و ٢١ إلى الثلث . زد على ذلك أنّ «رومل» بات عاجزاً عن تأمين الغذاء لشراذمه المستضعفة . ففي آب لم يتسلّم إلاّ ٨٫٢٠٠ طنّ من المؤن ، أي ٣٢٪ من الكمّيات اللازمة ؛ فقشّن الرجال ، وانخفضت حصصهم إلى النصف ، ولولا مستودعات «طبرق» لكان وضعهم أسوأ . وهكذا أخذ الجيش الألمانيّ — الإيطاليّ «يتأنكلز» و «يتيسكسن» : فهو يدخّن التبغ الانكليزيّ ، ويأكل المعلّبات الأميركيّة ، ويؤمّن ٨٥٪ من نقليّاته بواسطة عربات مصنوعة في «انكلترا» أو «أميركا» ، ويحصي في عتاده

بطّاريّات مدفعيّة كثيرة كانت مدافعها قد أُرسلت إلى «أفريقيا» لتدميره. إلاّ أنّ الغنائم لا تحلّ البتّة محلّ مجرى النقليّات المنتظم . كان بوسع الإيطاليّين وحدهم أن يقوموا بذلك ، بيد أنّهم لم يكونوا إطلاقاً على مستوى المهمّة . ولقد شخّص «رومل» أسباب عجزهم كما يلي : عدم فعالية النظام الفاشيّ ، وفساده ، وانهزاميّة تبلغ حدود التخريب لدى فريق من الضبّاط والرسميّين الذين يتمنّون هزيمة الألمان مع أنّهم يحاربون إلى جانبهم ! لذا أخفقت محاولات الضغط على «روما» أمام سلبيّة مطّردة ، وواجهتها أحياناً اقتراحاتٌ معاكسة تقول : «لنحتلّ "تونس» ! وكان الألمان يرفضون لعلمهم أنّ هذا العمل قد يجرّ « أفريقيا الشماليّة» الفرنسيّة إلى المعسكر الانكليزيّ .

كان الإيطاليّون يمقتون «رومل» ، أمّا «موسوليني» فقد أُترع هواناً ومذلّة ؛ فبعد ما انتظر في «ليبيا» طوال ثلاثة أسابيع اضطُرّ إلى العودة إلى «روما» مخلّفاً جواده الأبيض الذي كان قد حمله معه ليدخل به ظافراً إلى «القاهرة» . وخلال هذه الأسابيع الثلاثة لم يتنازل «رومل» فيزوره مرّة واحدة . ففي «إيطاليا» ، كما في «أفريقيا» ، كانت الغطرسة الألمانيّة ، وسرعة التأثّر الإيطاليّة ،مثاراً دائماً للحوادث ،ممّا جعل «تشيانو» يتذكّر تنبيه «فرنسوا بونسيه» إذ قال له يوم إعلان الحرب على «فرنسا» : «إنّ الألمان لأسياد قساة » . قساة ومُذلّون . فقد عبّر «هتلر» عن رأيه بالإيطاليّين إذ قال : « ما لم تستطع «بولونيا» و «النروج» و «فرنسا» و «روسيا» و «أفريقيا» فعله فقد حقّقه الإيطاليّون : إنّهم يفسدون معنويّات جنودي . »

أدرك التلف «رومل» كما أدرك جيشه ، وقد أشرف على النصر . لقد زعزع طقس الصحراء بنيته ، فشخّص طبيبه ، البروفسور «هورستر» ، حالته على الوجه التالي : «علّة معديّة مزمنة ، ونزلة معويّة ، فضلاً عن خناق أنفيّ ، وبعض الاضطرابات في الحركة الدمويّة ، يرافق ذلك كلّه آلامٌ تبلغ من التبريح درجة تفقده الوعي أحياناً» . وقد انتهى «هورستر» إلى هذه النتيجة : «ليس المارشال في وضع صحّيّ يسمح له بقيادة الزحف المقبل .» فما كان من «رومل» إلاّ أن أبرق في الحال إلى «هتلر» قائلاً إنّ «غوديريان» وحده يستطيع الحلول محلّه . ولقد أتاه الجواب في المساء ذاته موجزاً في كلمتين : «غير مقبول» ؛ فقرّر «رومل» البقاء .

بُذلت أثناء ذلك في الجبهة المقابلة حيويّة واسعة نشيطة ، كانت الكلمة الفصل فيها للقوّة . كانت «مالطه» تتضوّر جوعاً ، فإذا بالانكليز يحشدون من أجل إنقاذها بارجتين ، وأربع حاملات طائرات ، وسبعة طرّادات ، وخمساً وعشرين مدمّرة . أحاطت هذه القوّة البحريّة الضخمة بقافلة من ١٤ سفينة إحاطة السوار بالمعصم ، فاشتبكت ، بين ١١ و ١٣ آب ، بطائرات المحور الـ ٦٠٠ في معركة ملأ دويّها المتوسّط الغربيّ . أُغرقت حاملة الطائرات «إيغل» وطرّادان ، إلاّ أنّ خمساً من السفن التجاريّة ، بما فيها ناقلة البترول الضخمة «أوهايو» ، أدركت مرفأ «لافاليت» ، فأُنقذت «مالطة» . ودارت حول «الكاب» (رأس الرجاء الصالح) قوافل أخرى أوفر حظّاً ، فحملت إلى «مصر» قوّات متزايدة . وتمكّن «تشرتشل» ، وهو في طريقه إلى لقاء «ستالين» في «موسكو» ، من القيام بجولة تفتيشيّة طويلة في الشرق الأوسط ، وعمد بلا شفقة إلى تنفيذ بعض التدابير الضروريّة . فاستبدل «بأوكنلك» ، مع أنّه كان قد أوقف «رومل» في «العلمين» ، «الكسندر» ؛ وعيّن لخلافة «ريتشي» ، على رأس الجيش الثامن ، قائدَ الفوج الثالث عشر ، «غوت» ، الذي ظلّ يتمتّع بسمعة طيبّة من الخلق وقوّة الشكيمة على الرغم من هزيمته السابقة . إلاّ أنّ الوقت لم يسمح بإجراء هذا التبديل ، لأنّ «غوت» كان على متن طائرة تقلّه إلى «بومباي» في إجازة ، فلحقت بها طائرتا «مسر شميت» تمكّنتا من إدراكها في اللحظة التي كانت تغادر فيها «القاهره» ، فأرغمتاها على الهبوط ودمّرتاها وهي على الحضيض. فلقي «غوت» حتفه . وخلفه في قيادة الجيش الثامن «برنارد مونتغومري» الذي أوصى به رؤساء الأركان . كانت فرصة «رومل» الأخيرة تقوم على استباق القرار قبل أن تغدو القوّات المناوئة كبيرة ساحقة . ثم انّ جيشه كان قد استعاد قواه قليلاً ، وارتفع عدد دبّاباته الألمانيّة إلى ٢٢٩ ، وغدا احتياطيّه من الوقود يسمح له ببذل مجهود جديد . ولكنّه كان يدرك أنّ عليه بلوغ «القاهرة» خلال ٤٨ ساعة ، وإلاّ كان إلقاء ورقته الأخيرة جزافاً وعبثاً .

بدأ الزحف على خطوط «العلمين» في ٣٠ آب . وكانت الحرب قد بدأت في مثل هذا الوقت تقريباً ، لثلاث سنين خلت ، وسلاح الجيش الألمانيّ إذ ذاك فرق من المصفّحات رائعة عتيّة ، انطلقت تدكّ الحدود البولونيّة الهشّة في ثورة من القوّة والكبرياء . أمّا اليوم — وما أدراك ما يكون اليوم ؟ — فتبلغ المحنة الكبرى نصف شوطها . كانت دولتا العدوان قد انطلقتا من قوقعتهما بقوّة متفجّرة خارقة ، وفيما لامست الأولى «الهند» و «أوستراليا» بلغت الثانية حدود «النيل» و«القفقاس» . بيد أنّهما قد استنهضتا أعظم القوى في العالم ، فبات رؤساؤهما أنفسهم لا يجهلون أنّ الأمل في الوصول إلى حلّ ظافر تماماً قد تلاشى .

أجل، قطعت الحرب من الشوط نصفه، فأعطت «ألمانيا» و«اليابان» الدليل على طاقتهما في إحراز النصر والغلبة . ولكن بقي عليهما أن تعطيا الدليل على مناعتهما وعدم تعرّضهما للهزيمة .

مدفع إيطاليّ مضادّ للدبّابات في «العلمين» .





جنود كنديّون نزلوا في «دييب» في ١٨ و ١٩ آب ١٩٤٢ . ولسوف يفقد نصفهم حريّتهم أو حياتهم.



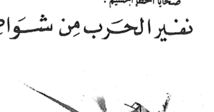
أسرى كنديّون في شوارع «دييب» (صورة وُجدت فيما بعد في حوزة أسير ألمانيّ) .



ضحايا الخطإ الجسيم .

غداة العمليّة : العتاد يغطّي الشاطئ

نفير الحرب مِن شواطِئ "نورماندي" إلى رمال "ليبيا"





طائرة ألمانيّة تدمّر دبّابة بريطانيّة على الساحل الليبيّ .



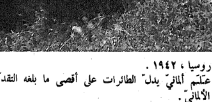
لقد حلّ «الكسندر» محلّ «أوكنلك» في قيادة القوّات البريطانيّة في الشرق الأوسط. ويبدو «الكسندر» واقفاً وقد حمل المنظار بيديه .



جنود نيوزيلنديّون في جبهة «العلمين» ، وقد انجحروا في «جحور الثعالب» ، وهي ملاجىء حفرتها القذائف والقنابل .



... ولكم تخلّل الحرب فترة من راحة أو غفلة من تأمّل . وها هي دبّابة ألمانيّة قد توقّفت أمام بقعة من أروع بقاع العالم .



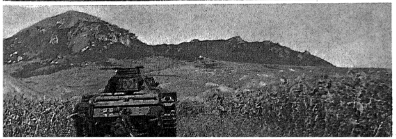
روسيا ، ١٩٤٢ .
علَم ألمانيّ يدلّ الطائرات على أقصى ما بلغه التقدّم الألمانيّ .



في مكان ما من «القفقاس» ، تحت السماء الصافية ، كادت هذه الدبّابة الألمانيّة أن تهلك ومَن وراءها . ترى ، من أين انبثقت هذه القذيفة الصغيرة ذات الدخان الخفيف ؟



غالباً ما يشعر المرء بحاجة إلى الملجإ بعد حلول الخطر . وها هم الجنود الخمسة يستترون ، ثلاثة خلف الدبّابة ، واثنان انبطاحاً وراء سنابل الذرة .



وما لبث دخان القذيفة أن تبدّد كليّاً. بيد أنّ حذر هذه السماء الصافية ، وهذه الحقول المسالمة ، لن يفارق الجنود بعد اليوم .

عند تخوم «أوروبا» و «آسيا»

نصب الألمان هذه البطّاريّة الجبليّة في جبل ««إلبروز» ، ذلك السور الفاصل بين «أوروبا» و «آسيا» على ارتفاع ٤،٢٠٠ متر .



ثَبَتُ أحداث الحَربُ العَالميّة الثانيَة

١ أيلول ١٩٣٩ - ٣١ آب ١٩٤٢



بقلم بيار دوفورك

آبُ ١٩٣٩ - نيسان ١٩٤٠

بدء النزاع

آبُ

١٢-٢١. المباحثات العسكرية الانكليزية الفرنسية السوفياتية في «موسكو» .
٢٣. «ريبنتروب» و «مولوتوف» يوقعان في «موسكو» ميثاق الصداقة الألمانية السوفياتية .
٢٤. «بريطانيا العظمى» تعلن عن تأييدها «بولونيا» تأييداً تاماً .
٣٠. الغستابو يحتل محطة «دانزغ» وذلك قبل هجوم الجيش الألماني على «بولونيا» بـ ٤٨ ساعة .

	الجبهة الغربية والسياسة الفرنسية الانكليزية	الحرب البحرية
أيلول	٢ . التعبئة العامة في «فرنسا» وفي «بريطانيا العظمى » . ٣ . «بريطانيا العظمى» و «فرنسا» تعلنان الحرب على «ألمانيا» . ٥ . اشتراك «تشرتشل» و «إيدن» في وزارة الحرب الانكليزية . ٨ . زحف الجيش الفرنسي الرابع في «السار» . ١٣ . «دالادييه» يخلف «بونيه» في «الكي دورسيه» . ٣٠ . تشكيل حكومة بولونية حرة في «باريس» (سيكورسكي) .	٣ . نسف الباخرة الانكليزية «أثينيا» قرب «الهبريد» . ١٧ . نسف حاملة الطائرات الانكليزية «كوريجيوس» .
تشرين الأول	٣ . تمركز الحملة البريطانية قرب «ليل» . ١٦ . انسحاب القوات الفرنسية من «اللورين» إلى خط «ماجينو» . ١٩ . توقيع معاهدة مساعدة فرنسية انكليزية تركية في «أنقرة» .	١٤ . نسف «رويال أوك» في «سكابافلو» .
تشرين الثاني	٨ . مؤامرة ضد «هتلر» في «مونيخ» .	٢٦ . «الشارنهورست» تغرق الطراد الانكليزي «راوالبيندي» .
كانون الأول	٢ . قانون يخوِّل الحكومة الفرنسية صلاحيات مطلقة ما بقيت الأحداث الحربية قائمة .	١٧ . السفينة «غراف فون شبي» الجريح في «مونتيفيديو» .
كانون الثاني	١٩ . إقرار قانون تجريد البرلمانيين الفرنسيين من مناصبهم .	
شباط		١٦ . النسافة الانكليزية «كوساك» تهاجم الطراد الألماني «ألتمارك» في «نروج» .
آذار	٢٠ . استقالت وزارة «دالادييه» وخلفتها وزارة «رينو» . ٢٨ . اتفق الفرنسيون والانكليز «على أن لا يجري أحد الفريقين أية مباحثات، وأن لا يعقد أية هدنة او معاهدة صلح ، من غير علم الآخر» .	

نرفيك



حملة نروج

نيسان

٦ . الحملة الألمانية بقيادة «ديتل» تبحر إلى «نروج» في «فيلهمسهافن» .
٧ . «فرنسا» و «انكلترا» تحيطان «نروج» علماً بأنهما قد لغمتا مياهها الإقليمية .
٨ . الأسطول الألماني يصل إلى «ترومسو» ويغرق النسافة الانكليزية «غلوورم» .
٩ . الجيش الألماني يحتل «الدانمارك» وينزل في «أوسلو» و«تروندهايم» و «نرفيك» .

ألفصول ١، ٢، ٣

المتحاربون الأوائل

ألمانيا ⟵ بولونيا - بريطانيا العظمى - فرنسا - كندا
أوستراليا - زيلندا الجديدة - إتحاد جنوب أفريقيا

منذ ١٩٣٧
الصين ⟵ اليابان

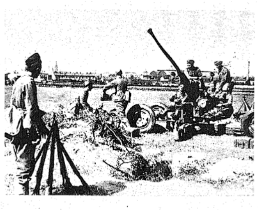
حملة بولونيا

١ . الجيش الألماني يجتاح «بولونيا» بلا إعلان حرب .
٦–٨ . احتلال ل «كراكوفيا» و «لودز» .
١٤ . محاصرة «فرصوفيا» .
١٧ . دخول القوات السوفياتية إلى «بولونيا» الشرقية .
٢٧ . استسلام «فرصوفيا» .
٢٨ . معاهدة ألمانية سوفياتية لاقتسام «بولونيا» .

٥ . «هتلر» في «فرصوفيا» .
١٢ . انشاء الحكومة الألمانية العامة في «فرصوفيا» .

١ . الاتحاد السوفياتي يضم المقاطعات البولونية في «أوكرانيا» وفي «روسيا البيضاء» .
٨ . ضم «بوزنان» إلى «الرايخ» .

مدفع بولوني مضاد للطائرات قرب «فرصوفيا» .



الموقف الأميركي

٥ . «روزفلت» يعلن عن سياسته :
أ . في الخارج : حياد «الولايات المتحدة» .
ب . في الداخل : حالة التأهب .

الاتفاق بين الاتحاد السوفياتي ودول البلطيق

٢٨ . معاهدة سوفياتية استونية .

٥ . معاهدة سوفياتية ليتونية .
١٠ . معاهدة سوفياتية ليتوانية .

حرب «فنلندا»

٢٩ . قطع العلاقات الدبلوماسية بين «فنلندا» و «الاتحاد السوفياتي» .
٣٠ . الجيش الأحمر يجتاح «فنلندا» .

٣ . لجوء الفنلنديين إلى «جمعية الأمم» – الروس يحتلون «بتسامو» .
٣٠ . انتصار الفنلنديين في «سيوموسالمي» .

١٠ . الروس يخرقون خط «مانرهايم» .

٢ . الروس يبلغون «فيبورغ» .
٧ . مباحثات روسية – فنلندية في «موسكو» .
١٢ . المعاهدة الروسية الفنلندية .

(الموقف الأميركي)

٢٤ . «ميرون تايلور» ممثل «روزفلت» في الفاتيكان .

رحلة «سمر ويلر» في «اوروبا» .

٢/٢٥ – ٣/١٢
«الفاتيكان» .
«روما» .
«برلين» .
«باريس» .
«لندن» .

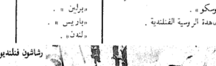
الحرب الصينية اليابانية

نزول اليابانيين قرب «كانتون»

١٥ . اليابانيون ينزلون في «باخوي» . في خليج «تونكين» .

هجوم صيني في «كوانغ–سي» .

١٨ . الصينيون يستعيدون «نانينغ» ويقيمون الاتصال مع «الهند الصينية» .

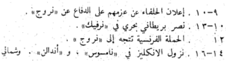


رشاشون فنلنديون



الجنرال الفنلندي «مانرهايم»





٩–١٠ . إعلان الحلفاء عن عزمهم على الدفاع عن «نروج» .
١٠–١٣ . نصر بريطاني بحري في «نرفيك» .
١٢ . الحملة الفرنسية تتجه إلى «نروج» .
١٤–١٦ . نزول الانكليز في «نامسوس» ، و «أندالن» . وشمالي «نرفيك» .
٢٠ . نزول الفرنسيين في نامسوس و (في ٢٨) بالقرب من «نرفيك» .

أيار - أيلول ١٩٤٠

حملة "فرنسا" ونتائجها

أيار

- ١٠. هجوم عام للجيش الألماني في الجبهة الغربية . «غاملان» يطلق عملية «ديل» .
- ١١. المظليون الألمان يحتلون حصن «ايبن – ايمايل» (لياج) .
- ١٣. الجيش الألماني يقطع نهر «الموز» في «هو» ، و «دينان» ، و«مونترمي» ، و «سيدان» .
- ١٥. استسلام الجيش الهولندي . إنكفاء الحلفاء على الحدود الفرنسية البلجيكية .
- ١٨. الألمان يعبرون نهر «الواز» ويقيمون رؤوس جسور جنوبي نهر «السوم» .
- ٢٠. الجيش الألماني يصل إلى «المانش» قرب «أبفيل» .
- ٢١. «فيغان» يجتمع «ببيوت» و «ليوبولد الثالث» في «إيبر» .
- ٢٢. خطة «فيغان» .
- ٢٤. الانكليز يغادرون «أراس» ويرتدون إلى «دنكرك» . «هتلر» يوقف زحف الدبابات .
- ٢٦. إخفاق خطة «فيغان» .
- ٢٨. استسلام الجيش البلجيكي بناء على أمر «ليوبولد الثالث» .
- ٢٩. بدء عمليات الجلاء عن «دنكرك»
- ٣١. سقوط «ليل» حيث حوصر فيلقان فرنسيان .

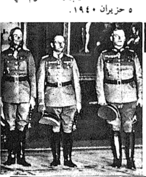
جنوبي «أميان»، آخر أيار ١٩٤٠.

حزيران

- ٣–٤. سقوط «دنكرك» . نهاية المقاومة الحليفة في «الفلاندر» .
- ٨–٩. امتداد الهجوم الألماني على «الإين» حتى «الأرغون» .
- ١٠. الألمان يقطعون نهر «السين» ويحتلون «إلبوف» .
- ١١. الألمان يقطعون نهر «المارن» في «شاتو – تيري» . بدء العمليات الحربية في الجبهة الايطالية .
- ١٢. الأمر بانسحاب بعض جيوش خط «ماجينو» .
- ١٤. دخول الألمان إلى «باريس» التي أعلنت «مدينة مفتوحة» .
- ١٥. الجيوش البريطانية تعتبر نفسها حرة التصرف مستقلة عن القيادة الفرنسية .
- ١٧. الألمان يحتلون «كان – نوفير – لوكروزو – بونتارلييه – بزنسون – بلفور» . تطويق مجموعة جيوش الشرق .
- ١٨. الألمان يداهمون جيش «الألب» الفرنسي من الخلف في قتاله المظفر ضد الإيطاليين .
- ٢٠–٢٤. «دارلان» يصدر أمره إلى الأسطول بالانتحار على أن يقع في أيدي العدو.
- ٢٢. استسلام جيوش الشرق .
- ٢٥. وقف القتال في الجبهات كافة .
- ٢٧–٢٨. الألمان يحتلون «بوردو» ويبلغون الحدود الفرنسية الاسبانية .

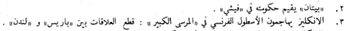
المشاة الألمان يعبرون «السوم» في ٥ حزيران ١٩٤٠.







"فرنسا" - "المانيا" - "بريطانيا العظمى"



تموز

- ٢. «بيتان» يقيم حكومته في «فيشي» .
- ٣. الانكليز يهاجمون الأسطول الفرنسي في «المرسى الكبير» : قطع العلاقات بين «باريس» و «لندن» .
- ٧–٨. الانكليز يهاجمون السفينة «ريشوليو» في «دكار» .
- ١٠. الجمعية الوطنية تمنح «بيتان» السلطة الدستورية .
- ١١. «بيتان» يمنح الصلاحيات المطلقة . تأجيل المجلس النيابي .
- ١٣. الألمان يصادرون الممتلكات الفرنسية كلها في «الألزاس» .
- ١٩. خطاب «هتلر» يعرض فيه السلم على «انكلترا» .
- ٢٢. «هاليفاكس» يرفض .

	"فرنسا" "فيشي" .	"فرنسا" الحرّة	معركة "انكلترا"
آب	٦–٧ . «الرايخ» يضم «اللوكسمبورغ» و «الألزاس» و «اللورين» . ٣٠ . «فيشي» تنشىء «فرقة المحاربين الفرنسية»	٧ . اتفاق «ديغول – تشرتشل» حول استعمال القوات الفرنسية الحرة . ٣١ «تاهيتي» تنضم إلى «فرنسا» الحرة .	١–٢٠. الطيران الألماني يغير على ساحل «انكلترا» الجنوبي .
أيلول	٢ . «بيتان» يحتج على ضم «الألزاس» و «اللورين» . «هتلر» يفرض على «فرنسا» ضريبة احتلال قدرها ٤٠٠ مليون فرنك في اليوم . ٦–٧ . «فيغان» مندوباً عاماً في «أفريقيا الشمالية » . ٢٧ . التعليمات الألمانية بشأن اليهود في المنطقة المحتلة .	٩ . انضمام الهند الفرنسية . ١١ . «ديغول» في «برازافيل» . ٢٤ . انضمام «كاليدونيا الجديدة » . ٢٣–٢٥. إخفاق عملية نزول انكليزية – ديغولية في «دكار» .	٧–١٥. الطيران الألماني يبدأ بشن غاراته على «لندن» . ١٦–١٧. «هتلر» يقرر «تأجيل» غزو «انكلترا» .

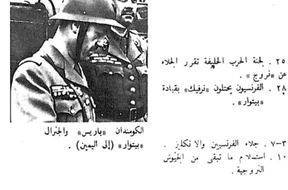
ألفصول ٤، ٥، ٦، ٧

السياسيّة في "أوروبا" الغربيّة والشماليّة

١٢ . الملكة «ولهلمينا» والحكومة الهولندية يلجأون إلى «لندن».
١٨ . «الرايخ» يضم «أوبن» و «ماليدي» .
تعديل حكومة «رينو» .
تعيين «بيتان» نائباً لرئيس الوزارة .
١٩ . «فيغان» يحل محل «غاملان» في قيادة الجيش .
٢٨ . الحكومة البلجيكية لا تقر استسلام «ليوبولد الثالث» .

١٠ . «بريطانيا العظمى» تحتل «ايسلندا».

٢٥ . لجنة الحرب الحليفة تقرر الجلاء عن «نروج » .
٢٨ . الفرنسيون يحتلون «نرفيك» بقيادة «بيتوار» .



الكومندان «باريس» والجنرال «بيتوار» (إلى اليمين) .

٥ . تعيين «دبغول» نائب سكرتير دولة في وزارة «رينو» .
١٠ . «ايطاليا» تعلن الحرب . الحكومة الفرنسية تنتقل من «باريس» إلى «تور» .
١٢ . انعقاد مجلس الوزراء في «كانجي» .
١٣ . انعقاد آخر مجلس فرنسي انكليزي أعلى في «تور» : نداء إلى «روزفلت» .
١٤ . الحكومة تنتقل من «تور» إلى «بوردو» .
١٦ . استقالة «رينو». «لوبران» يكلف «بيتان».
١٧ . «بيتان» يطلب الهدنة .
١٨ . نداء «ديغول» في «لندن».
٢٢ . توقيع الهدنة الفرنسية الألمانية في «روتوند» .
٢٤ . توقيع الهدنة الفرنسية الإيطالية في «روما» .
٢٢–٢٩. قيام «فرنسا» الحرة ، وانضمام «التشاد» و «الكامورون» » «والكونغو الأوسط» و «الا وبانغي شاري » اليها .
٣٠ . الحكومة تنتقل من «بوردو» إلى «كلبرمون – فيران» .

٣–٧ . جلاء الفرنسيين والانكليز .
١٠ . استسلام ما تبقى من الجيوش النروجية .

نتائج النصر الالماني

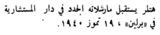
في "الاتحاد السوفياتي"

١٤–١٥ . الجيش الأحمر يحتل دول البلطيق .
٢٦ . إنذار سوفياتي إلى «بوخارست» يطلب التخلي عن «بيسارابيا» و «بوكوفينيا» اللتين احتلهما الجيش الأحمر في ٢ تموز .

في "الشرق الاقصى"

١٩ . إنذار ياباني يطلب الإشراف على حدود «تونكين» .
٢٩ . إقامة بعثة «نيشيهارا» اليابانية في «تونكين» .

١٥ . الانكليز يغلقون طريق «برمانيا» .
١٨ . تأليف حكومة «كونوي – ماتسووكا» اليابانية .
٢٠ . «ديكو» يخلف «كاترو» كحاكم عام للهند الصينية .



هتلر يستقبل مارشلاته الجدد في دار المستشارية في «برلين» ، ١٩ تموز ١٩٤٠.

"إيطاليا" تهاجم في "أفريقيا"

١–١٠ . الايطاليون يحتلون «الصومال» البريطاني.

١٤ . هجوم أيطالي بقيادة «غرازياني» على «ويفل» في «ليبيا» (السلوم – سيدي براني).

"برلين" و"موسكو" في "أوروبا الشرقيّة"

٣–٦ – الاتحاد السوفياتي يضم دول البلطيق .
٢٩ – تحكيم «هتلر» في «فيينا» : «رومانيا» تتخلى عن ثلثي «ترانسيلفانيا» «للمجر» .

٦ – تنازل «كارول» ملك «رومانيا» عن العرش لابنه «ميشال» . دكتاتورية «أنطونيسكو» .
٧ – «رومانيا» تتخلى «لبلغاريا» عن «دوبرودجا» الجنوبية .

"أميركا-الشرق الأقصى"

١٧ . اتفاق «روزفلت – كينغ» حول الدفاع عن «كندا» .
٢٩ . اتفاق سياسي فرنسي ياباني حول الهند الصينية .

٣ . «روزفلت» يمنح الانكليز ٥٠ سفينة حربية لقاء تخليهم عن قواعد «الأرض الجديدة» ، و «الانتيل» ، و «غويانا» .
١٦ . الخدمة العسكرية الإلزامية في «الولايات المتحدة» .
٢٢ . إتفاق عسكري فرنسي ياباني («ديكو – نيشهارا») .

٢٧ . توقيع المعاهدة الثلاثية بين «ألمانيا» و «إيطاليا» و «اليابان» في «برلين» .

تشرين الأوّل ١٩٤٠ - حزيران ١٩٤١

تشرين الأوّل

«فرنسا» «فيشي»

«هتلر» و «فرنكو» في ٢٣ تشرين الأول ١٩٤٠.

ألنشاط السّياسيّ الالمانيّ

٤ . إجتماع «هتلر» و «موسوليني» في ممر «برينير» .
٢٢ . اجتماع «هتلر» و «لافال» في «مونتوار» .
٢٣ . اجتماع «هتلر» و «فرنكو» في «إيرون» .
٢٤ . إجتماع «هتلر» و «بيتان» في «مونتوار» .
٢٨ . إجتماع «هتلر» و «موسوليني» في «فلورنسا».

تشرين الثاني

«فرنسا» «فيشي» تنحية «لافال» - سيطرة «دارلان»

٢٩ . محادثات «لافال – أبتز – دارلان» في باريس .

ألنشاط السّياسيّ الالمانيّ

١٢–١٣ . إجتماع «هتلر» و «مولوتوف» في «برلين» .
١٦–١٨ . «هتلر» يستقبل «ليوبولد الثالث »، و «بوريس» ملك «بلغاريا» ، و «تشيانو» ، و «سيرانو سونر» .
تشرين الثاني. غض «هتلر» النظر عن اجتياح «انكلترا» وقرر إعداد الحملة على «الاتحاد السوفياتي» .

ألحَرب في افـريقـيا

بريطانيا العظمى

١٤ . قصف « كوفنتري» .

كانون الأوّل

«فرنسا» «فيشي»

١٣ . «بيتان» يطرد «لا فال» . تعيين «فلا ندان» وزيراً للخارجية .
١٨ . تعيين «دو برينون» مندوباً للحكومة في «باريس» .
٢٥ . لقاء «هتلر – دارلا ن» في «بوفي » .

بريطانيا العظمى

٢٢ . « إيدن » يخلف «هاليفاكس» في وزارة الخارجية..
٢٩ . قصف «لندن»

"مصر-ليبيا"

٩ . هجوم «ويفل» المعاكس في «برقة» (البردية بنغازي) .

كانون الثاني

«فرنسا» «فيشي»

١٨ . قانون تنظيم و رش الشبيبة .

"مصر-ليبيا"

١١–٢٦ . عمليات « لوكلير » في «فزان».

"أفريقيا الشرقية"

انطلق الانكليز من «السودان» و «كينيا» ودخلوا «إريتريا » و «الصومال» الايطاليين.

شباط

«فرنسا» «فيشي»

٨–١٠ . تعيين «دارلان» نائباً لرئيس الوزراء ، ووزيراً للخارجية والداخلية ، وخلفاً «لبيتان» .
١٤ . لقاء «بيتان – فرنكو» في «مونبولييه» .
٢٦ . اتفاق «فيغان – مورفي » حول تموين «أفريقيا» الشمالية .

"مصر-ليبيا"

١ . «لوكلير » في « كفرة»
٩ . تجميد الجبهة في «العقيلة»..
١٢ . «رومل» في «طرابلس الغرب».

"أفريقيا الشرقية"

٢٦ . الانكليز في «موغاديشو» .

آذار

"مصر-ليبيا"

٣١ . هجوم «رومل» .

"أفريقيا الشرقية"

تحرير «الصومال» الانكليزي .

نيسان

الامبراطور الحبشي يخطب في فريق من مغاويره .

«فرنسا» «فيشي»

٢٣ الألمان ينشئون نظام العمل الاجباري في «اللورين» .

"مصر-ليبيا"

الألمان يعودون إلى احتلال «برقة» فيما بقيت «طبرق» بيد الانكليز .
١٢ . تجميد الجبهة حتى تشرين الثاني .

"أفريقيا الشرقية"

١٠ . دخول الانكليز الى «أديس أبابا» .

أيّار

«فرنسا» «فيشي»

٨ . نظام العمل الاجباري في «الالزاس» .
١١–١٢ . اجتماع «هتلر – دارلان – بينوا ميشان » في «برشتسغادن» بشأن «سوريا» و «لبنان» .
١٤ . حكومة «فيشي» توافق على ان يستعمل الألمان مطارات «لبنان» و «سوريا» .
٢٧–٢٨ . اتفاق «دارلان – فارليمونت » حول استعمال الألمان المرافئ الفرنسية في «أفريقيا » .

بريطانيا العظمى

١٠ . هرب «هيس» إلى «بريطانيا العظمى» .
٢٣–٢٧ . مطاردة «البسمارك» وتحطيمه في «الأطلسي»

"أفريقيا الشرقية"

١٨ . استسلام الدوق «آوستي» .

قضيّة "سوريا" و "لبنان"

١٠–٣٠ . ثورة «رشيد عالي» على الانكليز في «العراق» يؤيده الألمان. إخفاق الثورة .

حزيران

«فرنسا» «فيشي»

٣–٤ . «فيغان» يبذل جهوده في «فيشي» لمنع التصديق على اتفاق «دارلان – فارليمونت »..

قضيّة "سوريا" و "لبنان"

٨ . الانكليز والفرنسيون الأحرار يهاجمون قوات «فيشي» في «سوريا» و «لبنان» . «كاترو» يعد «سوريا» و «لبنان» بالاستقلال باسم «ديغول» .
١٤ تموز . اتفاقية وقف اطلاق النار بين الانكليز وقوات «فيشي» في «عكا» .

ألفصول ٨ ، ٩ ، ١٠

"ألبلقان" في الحرب

مبادرات المحور

٧ . الجيش الألماني يحتل «رومانيا» .
٢٨ . «إيطاليا» تهاجم «اليونان» .

٢٠–٢٤ . انضمام «المجر» و «رومانيا» و «سلوفاكيا» إلى المعاهدة الثلاثية .

مبادرات الحلفاء

٣١– الانكليز يحتلون «كريت» .

١ . الانكليز يهاجمون الأسطول الإيطالي في «تارنتو» .

الجبهة الايطالية ـ اليونانية

الجيوش الإيطالية بقيادة «كافالير و» تمنى بهزائم عديدة في «يانينا» ، و «كوريتزا» ، و «أرجير وكاسترو» ، وغيرها ...

الإيطاليون في «ألبانيا» .

٨ . قررت «انكلترا» دعم «اليونان» عسكرياً ونزلت جيوشها فيها في ٧ آذار .

٢ . الجيش الألماني يدخل إلى «بلغاريا» بعد انضمام «صوفيا» إلى المعاهدة الثلاثية .
هزائم إيطالية جديدة في الجبهة اليونانية .
٢٦–٢٨ . انقلاب مناوئ «لألمانيا» في «بلغراد» : الجيش يطرد الوصي «بولس» ، ويحل محله «بطرس الثاني» .
٢٨ . نصر انكليزي بحري على الإيطاليين في رأس «ماتابان» .

٥ . توقيع معاهدة صداقة سوفياتية – يوغوسلافية .
٦ . الجيش الألماني يتدخل فجأة في البلقان فيهاجم «يوغوسلافيا» و «اليونان» انطلاقاً من «رومانيا» و «بلغاريا» .

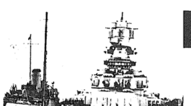
٧–٨ . الطيران الألماني يدمر «بلغراد» .
٩ . دبابات «ليست» في «سالونيك» .
١٠ . استقلال «كرواتيا» .
١١ . دخول المجريين إلى «يوغوسلافيا» .
١٧-١٨ . استسلام القوات اليوغوسلافية .
١٩ . دخول البلغاريين إلى «اليونان» .

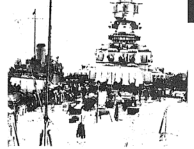
٢٠–٢٧ . مظليون الألمان يحتلون «كريت» .

١٨ . معاهدة صداقة وعدم اعتداء بين «ألمانيا» و «تركيا» .

"الهند الصينية ـ الشرق الأقصى"

٤ . دخول الجيوش اليابانية إلى «تونكين» على أثر اتفاق «ديكو – نيشيهارا» .





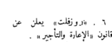
الهجوم على «تارنتو» .

الخلاف بين "سيام والهند الصينية"

٨ . حالة الحرب بين «سيام» و «الهند الصينية» .
٢٧–٣١ . الوساطة اليابانية . الهدنة الفرنسية السيامية .

السياسة الأميركية

إعادة انتخاب «روزفلت» رئيساً «للولايات المتحدة» .



٦ . «روزفلت» يعلن عن قانون «الإعارة والتأجير» .

١ . «روزفلت» يقر قانون «الإعارة والتأجير» .

استسلام «أثينا» .

٢٦ . «روزفلت» يعلن أن القوات الأميركية قد احتلت قواعد في «غرينلند» .

السياسة اليابانية

٢٠ . سفر «ماتسوكا» إلى «برلين» .
٣١ . «ماتسوكا» في «روما» .

١٣ . معاهدة صداقة وعدم اعتداء بين «اليابان» و «الاتحاد السوفياتي» .

٩ . معاهدة «طوكيو» («سيام – الهند الصينية») .
اتفاق فرنسي – ياباني حول استعمال مرفأ «هيفونغ» .





مظليون في «كريت» أيار ١٩٤١ .

حزيران ١٩٤١ - شباط ١٩٤٢

الحرب الالمانيّة - السوفياتيّة

حزيران

٢٢ . هجوم مجموعات الجيوش الثلاث بقيادة «ليب » و «بوك» و «روندشتاد» على «الاتحاد السوفياتي » .
٣٠ . «ليب » يحتل «ليتوانيا» .
٣١.٢٩ — معارك تطويق في «مينسك» و «بياليستوك» .

تموز

إنشاء الفرقة المناهضة للبولشفية في «فرنسا» ، و «الفرقة الزرقاء» في «اسبانيا» .

«بيتان» ، «دارلان» ، «بلاتون» .

٨ . بلغ «بوك» مجرى «الدنيبر » الأعلى قرب «موهيليف » .
١٦—٧ آب . معارك تطويق في «سمولنسك» و «روسلافل».
٢٠ . تعيين «ستالين» مفوضاً للشعب لشؤون الدفاع .

آب

فرنسا

١١ . «دارلان» وزيراً للدفاع الوطني .
٢١ . الألمان يعتبرون الفرنسيين الموقوفين رهائن .
٢٧ . مؤامرة ضد «لافال» و «ديا» في «فرساي» .
٢٩ . إعدام «إيتيين دورف » رمياً بالرصاص .

«ليب» يحتل «إستونيا» (احتلال «تالين» في ٢٥)
١٢—٣ . معركة تطويق في «أومان» .
«روندشتاد» يجتاح «أوكرانيا» . احتلال «كريفوي — روغ» ، محاصرة «نيقولا ييف » و «أوديسا» .
٢٠ . معركة تطويق «غوميل» .
٢١ آب — ١٩ أيلول . معركة تطويق «كييف » .

أيلول

قضيّة "ايران"

١٥ آب — ١٥ أيلول . «إيران» تقطع علاقاتها بالمحور تحت ضغط «انكلترا» و «الاتحاد السوفياتي» .
(تنازل «رضا شاه بهلوي» عن العرش) .

٢٠—١٦ . الألمان يرمون بالرصاص ٢٢ رهينة في «باريس» .

٨ . «ليب » يحاصر «لينينغراد» .
١٣ . التقاء قوات «روندشتاد» و «بوك» على بعد ١٥٠ كلم شرقي «كييف » .
١٩ . دخول الألمان إلى «كييف » .

تشرين الأول

٢٢ . إعدام رهائن في «شاتوبريان» ، و «نانت» ، و«بوردو».

١٣—٢ . معارك تطويق في «فيازما» و «بريانسك» .
٨ . «بوك» يحتل «رجيف » ، و «كالينين» ، و «كالوغا» ، ويزحف إلى «موسكو» .
٢٩—٢٠ . «روندشتاد» يهاجم «القرم» ويحتل «خاركوف » (٢٤) .

تشرين الثاني

١٤ . نسف حاملة الطائرات البريطانية «أرك رويال» قرب «جبل طارق».
١٨ . استدعاء «فيغان» من مدينة «الجزائر» بناء على أمر ألماني .
٢١ . «جوان» قائداً أعلى في «أفريقيا الشمالية » .

الحرب في "افريقيا"

١٨ . هجوم «كانينغهام» في «ليبيا» .
٢٦ . «ريتشي» يخلف «كانينغهام» في قيادة الجيش الثامن .

١ . «بوك» يحتل «موجايسك» (٩٠ كلم من «موسكو») .
١٦—٢ . «روندشتاد» يحتل «القرم» .
١٧ . إقامة الإدارة المدنية الألمانية في الأراضي الروسية المحتلة .
٢١ . احتلال «روستوف» (استعادها «تيموشنكو» في ٢٩) .

كانون الأول

١ . اجتماع «بيتان» و «غورنغ» في «سان فلورنتان» .
١٠ . اجتماع «دارلان» و «تشيانو» في «تورينو» .
١٤. إعدام ١٠٠ رهينة في «باريس».

٢٥ . انسحاب «رومل» حتى «العقيلة» (تجميد الجبهة حتى ٢١ كانون الثاني ١٩٤٢) .

٥ . «بوك» يحتل «أياخروما» ويحاصر «تولا » (٢٥ كلم من «موسكو») .
١١—٦ . الهجوم السوفياتي المعاكس وإنقاذ «موسكو» . استعادة «كلين» و «كالينين» ، وفك الحصار عن «تولا » .
١٩—١٨ . الجيش الألماني يعلن عن انتهاء حرب الحركة في الشرق.
أزمة عسكرية ألمانية : «هتلر» يصرف «براوشيتش» و «ليب » و «بوك» و «روندشتاد» ويتولى قيادة الجيش بنفسه .
٤٢/١/٢٠—٣٠ . «تيموشنكو» يستعيد «كيرتش» و «ثيودوسيا» . تجميد الجبهة حتى أيار ١٩٤٢ .

كانون الثاني

الحرب البحريّة

هجوم الغواصات الألمانية في الأطلسي.
وزن السفن الحليفة المغرقة :
٢٩٧،٠٠٠ طن في كانون الثاني.
٣٨٤،٠٠٠ طن في شباط.



مدفعية ألمانية في «ليبيا».

٢١ . هجوم «رومل» المعاكس في «ليبيا» .
٢٩ . «رومل» في «بنغازي» .

شباط

١٢. السفن الألمانية «شارنهورست » ، و «غنايزناو» ، و «برنتز أوجين» تقطع «با دي كاليه » .

١٠ . استقرار الانكليز قرب «بير حكيم ». تجميد الجبهة حتى ٢٧ أيار ١٩٤٢ .

الفصول ١١ ، ١٢ ، ١٣

"الولايات المتحدة" تدخل الحرب تدريجياً

٢٣ . «روزفلت» يقرر عدم تطبيق «حالة الحياد» على «الاتحاد السوفياتي» .
حزيران – آب . محادثات يابانية أميركية طويلة بين «هال» و «نامورا» تنتهي إلى إخفاق ذريع .

٧ . القوات الأميركية تحل محل القوات البريطانية في «ايسلندا» .
١٦ . «تويودا» يخلف «ماتسووكا» في وزارة خارجية «اليابان» .
٢٦ . «كندا» تلغي معاهدتها التجارية مع «اليابان» .

١٤ . شرعة الأطلسي («روزفلت – تشرتشل») .
١٧ . اجتماع «روزفلت» و «نامورا» : إنذار «اليابان» .

٤ . غواصة ألمانية تهاجم الطراد الأميركي «غرير» في الأطلسي .
١٦ . «روزفلت» يأمر الأسطول الأميركي بإطلاق النار على سفن المحور بين «ايسلندا» و «الولايات المتحدة» .
١٦–٢٩ . «الاتحاد السوفياتي» يقبل المساعدة العسكرية الانكلو ساكسونية (بحث التفاصيل في «موسكو» بين «بيفربروك» و «هاريمان» و «مولوتوف») .

١٥ . غواصة ألمانية تغرق الطراد الأميركي «كيرني» .

١٨ . تسليح السفن التجارية الأميركية .
١٦ ، ٢٠ . «كوروزو» يسلم «واشنطن» مقترحات «اليابان» الأخيرة .
٢٦ . الجواب الأميركي : جلاء اليابانيين عن «الصين» و «الهند الصينية» .

"الهند الصينية"

٢٩ . اتفاق «فيشي» و «طوكيو» حول الدفاع المشترك عن «الهند الصينية» .
نزول القوات اليابانية في «كوشنشين» .

الأميركيون يحلون محل البريطانيين في «ايسلندا» .




قاذفات بريطانية ثقيلة في إحدى غاراتها .

"بيرل هاربور": "أميركا" تدخل الحرب - فتوح "اليابان" الأولى

٧ . هجوم ياباني جوي بحري على الأسطول الأميركي في «بيرل هاربور» و «ويك» : «اليابان» في حالة حرب مع «الولايات المتحدة» و «بريطانيا العظمى» .
٨–٢٥ . نزول اليابانيين في جزر «جلبرت» (في ٩) و «الفيليبين» («لوزون» في ١٠ ، مينداناو» في ٢٠) و «جزر ماريان» («غوام» في ١٢) و «بورنيو» (في ١٦) . نسف «الريبالس» و «البرنس أوف ويلز» (في ١٠) ، احتلال «بانغكوك» (في ١٢) و «هونغ كونغ» التي استسلمت حاميتها البريطانية (في ٢٥) .
٢٠ . «نيميتز» قائداً للأسطول الأميركي في المحيط الهادىء .
٢٢ . إنشاء لجنة أميركية انكليزية مشتركة لرؤساء الأركان في «واشنطن» .
٢٨ . «ويفل» قائداً أعلى لقوات الحلفاء في الجنوب الشرقي الأسيوي .

٩–١١ . «الصين» («تشانغ كاي تشك») و «الولايات المتحدة» تعلنان الحرب على «ألمانيا» و «ايطاليا» .

٧ . هجوم ياباني عام في «ماليزيا» واحتلالها في أربعة أسابيع – انكفاء الانكليز إلى «سنغافورة» . اليابانيون يحتلون «مانيلا» وينزلون في «غينيا الجديدة» (رابول) و «السيليب» و «المولوك» .

١٥ . استسلام الحامية البريطانية في «سنغافورة» .
نزول اليابانيين في ١٨ في جزر «السوند» ، وفي ٢٨ في «جاوا» ، ومهاجمتهم «بورت داروين» (أوستراليا) في ١٩ .



استسلام «سنغافورة» .

١ آذار - ٣١ آب ١٩٤٢

" فرنسا " في الحرب

آذار

محاكمة «ريوم» (بدأت في ١٩ شباط وانتهت في ١٤نيسان).
١٦–٢٦. محادثات «بيتان» و «لافال» في «فيشي» و «شاتلدون» .
٢٧ . هجوم بريطاني على «سان نازير» .
٢٨ . «ساوكل» مفوضاً لليد العاملة في الأقطار المحتلة .

نيسان

١٧ . استقالة «دارلان» والوزراء .
١٨ . «لافال» رئيساً للحكومة .
«دارلان» قائداً أعلى .
٢٠ . خطاب «لافال» : «إنني أرجو أن تنتصر «ألمانيا» .
٢١ . هرب «جيرو» من «كونيغشتاين» .
٢٣ . «روندشتاد» قائداً لجيوش الاحتلال الألمانية في «فرنسا» .

أيار

٥ . نزول البريطانيين في «مدغشقر» (دييغو – سواريز) .
«أوبيرغ» قائداً أعلى لفرق الصاعقة في «باريس» .
١١ . إجتماع «لافال» و «غورنغ» في «مولان» .
٢٩ . فرض حمل النجمة الصفراء على اليهود في «فرنسا» المحتلة .

على أثر الهجوم البريطاني على «سان نازير» .

السياسة الألمانية

٢٨ . إجتماع «هتلر» و «موسوليني» في «سالزبورغ» .

٥ . «سايس–إنكار» يفرض على اليهود الهولنديين حمل النجمة الصفراء .
٢٧ . اغتيال «هايدريتش» في «براغ» (محا الألمان قريتي «ليديسا» و «ليزاكي» إنتقاماً في ١٠ حزيران) .

آخر انتصارات المحور الكبرى

في « روسيا »

٨ . هجوم «مانشتاين» في «القرم» (احتلال «سيباستوبول» في ١ تموز) .
١٢–٣٠ . إخفاق الهجوم السوفياتي المعاكس على «خاركوف» .

في « ليبيا » و « مصر »

٢٧ . عودة «رومل» إلى الهجوم .
٢٨–١٠ حزيران . مقاومة الكتيبة الفرنسية بقيادة «كونيغ» في «بير حكيم» .

صمود الفرنسيين في «بير حكيم» .

٢٤–٣٠ . «رومل» يجتاز الحدود المصرية في ٢٤ ويزحف باتجاه «الاسكندرية» .

٥–١٠ . الجيش البريطاني الثامن يصمد في موقع «العلمين» فتذهب هجمات «رومل» سدى .
تجميد الجبهة حتى ٢٤ تشرين الأول .

في « روسيا »

الجيش الألماني يهاجم باتجاه «الدون» من «فورونيج» (سقطت في ٢٦) و «خاركوف» و «روستوف» (سقطتا في ٢٨) .

في آب : امتداد الهجوم الألماني .
٢٠ . الجيش الألماني يبلغ «الفولغا» في «دوبوفكا» ومنشآت الدفاع الخارجيه في «ستالينغراد» .
٢١ . الألمان يبلغون قمة «إلبروز» .
٢٧ . الألمان يبلغون «موسدوك» و «التمريك» (١٢٠ كلم من بحر «قزوين») .

نهاية التقدم الألماني

الحرب الجوية	النشاط الدبلوماسي الحليف
أولى الغارات البريطانية الواسعة على «الرايخ» . ١٠٠٠ طائرة تغير على «كولونيا» في ٣٠ أيار .	«مولوتوف» في «لندن» (٢١/٥) ، ثم في «واشنطن» . (٢٩/٥) . ٢٦ . توقيع معاهدة التحالف الانكليزية السوفياتية .
١٠٠٠ طائرة تغير على «إيسين» في ١ حزيران .	٩ . ٢١ دولة أميركية جنوبية تقطع علاقاتها بالمحور . ١١ . «الولايات المتحدة» ثم «انكلترا» (في ٢٧) تمنحان «الاتحاد السوفياتي» حق الإفادة من قانون «الإعارة والتأجير» .

حزيران

٢٢ . «لافال» يعلن مبدأ افتداء الأسرى بالعمال المتطوعين .

تموز

١٠ . الألمان يأخذون عائلات المتهمين بجرم الفارين منهم .
١٣ . «فرنسا الحرة» تتخذ اسم «فرنسا المقاتلة» .
١٦ . توقيف ٣٠٠٠٠ شخص ونفيهم .

آب

١١ . الألمان يعدمون ٩٣ «إرهابياً» .
١٨ . الهجوم البريطاني على «دييب» .
١٩–٢٥ . خضوع سكان «الالزاس» و «اللورين» لقانون التجنيد الإجباري في الجيش الألماني .
احتجاج الأسقف «ساليج» مطران «تولوز» .

البرازيل

٢٢ . إعلان الحرب على «ألمانيا» «إيطاليا» .

الفصول ١٤، ١٥، ١٦

مصاعب البريطانيين في "الهند"

٢٣ . مهمة سير «ستافورد كريبس» في «دلهي الجديدة» ، ومباحثاته مع الزعماء الوطنيين .
٢٧ . مباحثات «كريبس» و «غاندي» .

٤ . مؤتمر المقاطعات الاسلامية الهندية في «الله آباد» .

حرب الغوّاصات

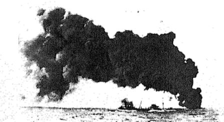


حملة الغواصات الألمانية على السواحل الأميركية .
كانون الأول ١٩٤١ — تموز ١٩٤٢ .

اشتداد عمليات الغواصات الألمانية في الأطلسي .
السفن الحليفة المغرقة (بالأطنان)

آذار : ٤٦٠،٠٠٠ — أيار : ٦٠٠،٠٠٠
نيسان : ٣٣٦،٠٠٠ — حزيران : ٦٢٧،٠٠٠
تموز : ٣٥٠،٠٠٠

انتهاء أزمة السفن الحليفة .



ناقلة نفط أميركية نسفتها غواصة ألمانية .

الهند

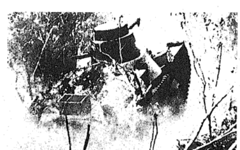
٨ . التئام المؤتمر الوطني الهندي في «بومباي» . قرر دعوة الانكليز إلى مغادرة «الهند» .
٩ . الانكليز يلقون القبض على «غاندي» و «نهرو» .

التقدّم الياباني في الشرق الأقصى

«برمانيا» . اليابانيون يهاجمون «برمانيا» بغية قطع «الصين» عن الخارج ، ويحتلون «رانغون» في ٧ آذار .
«أندونيسيا» . سقوط «باتافيا» في ٥ واستسلام آخر الوحدات الهولندية في «جاوا» في ٩ .

اليابانيون يتابعون استغلال انتصاراتهم في نيسان .
٥–١١ . هجوم جوي بحري على «سيلان» . نسف حاملة الطائرات البريطانية «هرمس» في المحيط الهندي – ٦ . احتلال «سومطرة» . – ٩ . استسلام الأميركيين في «باتان» (الفيليبين) .
في ١٨ : الأميركيون يشنون غارتهم الجوية الأولى على «طوكيو» .

٧–٨ . إخفاق بحري ياباني في بحر المرجان (ابتعاد الخطر عن «أوستراليا») .
١٦ . استسلام الأميركيين في «كوريجيدور» .
١٧ . اليابانيون ينهون احتلال «برمانيا» بعد احتلال «ماندالاي» (١٠ أيار) و «أكياب» (٤ أيار) . تجمع قوات «برمانيا» البريطانية في «إمفال» .



دبابة يابانية في الأدغال .

٣–٥ . هزيمة اليابانيين قرب جزر «ميدوي» .
٨–١٤ . نزول اليابانيين في جزيرتي «أتو» و «كيسكا» .
٢٠ . اليابانيون يقصفون جزيرة «فانكوفير» (كندا) .

تموز – آب . التقدم الياباني :
– في جزر «سليمان» : احتلال «غوادالكانال» (٤ تموز) .
– في «غينيا الجديدة» : النزول في «غونا» ، على الساحل الشمالي (٢١ تموز) . مهاجمة «بورت مورسبي» و «مايلن باي» (٢٧ – ٣١ آب) .

٧ . أول نزول أميركي في «غوادالكانال» (بدء الهجوم المعاكس الحليف) .
٩–٢٤ . معارك بحرية حول «غوادالكانال» (جزر «سافو» و جزر «سليمان» الشرقية) .

نهاية التقدّم الياباني

محتوى الكتاب

ألفصل الرابع

١٠-١٨ أيّار ١٩٤٠ - مأساة « سيدان » ـــــــــ ٧٢ - ١٠٣

ألفصل الخامس

٢٠ أيّار - ٥ حزيران - مأثرة « دنكرك » ـــــــــ ١٠٤ - ١٢٧

ألفصل السادس

٥ - ٢٤ حزيران ١٩٤٠ - إحتضار « فرنسا » ـــــــــ ١٢٨ - ١٤٥

ألفصل الحادي عشر

٢٢ حزيران - ٢٣ آب ١٩٤١ - «لينينغراد»، أم «كييف»، أم «موسكو» ؟ ٢٢٢ - ٢٥١

ألفصل الثاني عشر

٢٥ آب - ٧ كانون الأوّل ١٩٤١ - حتى أبواب «موسكو» ٢٥٢ - ٢٧١

ألفصل الثالث عشر

٧ - ٣١ كانون الأوّل ١٩٤١ - «اليابان» تهاجم ٢٧٢ - ٢٩٣

ألفصل الرابع عشر

أوّل كانون الثاني - ٣١ آذار ١٩٤٢ - من القطب الشماليّ إلى «غينيا الجديدة» ٢٩٤-٣١٧

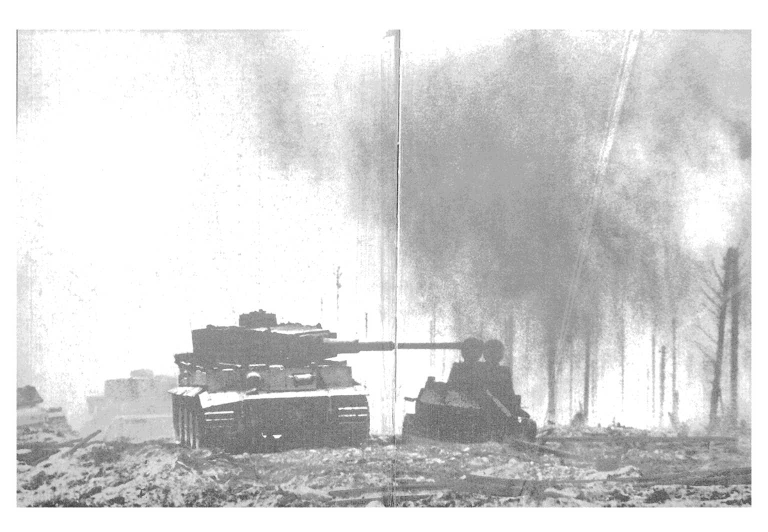
ألفصل الخامس عشر

نيسان - حزيران ١٩٤٢ - معجزة في «ميدوي» ـــــ ٣١٨-٣٣٧

ألفصل السادس عشر

أيّار - أيلول ١٩٤٢ - «النّيل» و«القفقاس» و«الفولغا» ـــــ ٣٣٨-٣٦٧

ثبت أحداث الحرب العالميّة الثانية ـــــ ٣٦٩-٣٧٩




يرقى اهتمامي بتاريخ الحرب إلى يوم كانت الأنقاض ما تزال دامية، حين أكببت على الوثائق التي جُمعت لمحاكمة كبار مجرمي الحرب في «نورنبورغ».
ومنذ ذلك الحين قال الكثيرون من أبطال الحرب وشهودها ما قالوه، فكتب «تشرتشل» و«ايزنهاور» و«ديغول» و«ماك ارثر» و«مانشتاين» وغيرهم مذكّراتهم، ساردين الأحداث ومعلّلين أوجهها: فضلاً عن الأشخاص الثانويين الذي القوا دلاءهم موضحين بعض ما قد غمض، أو مفصلين بعض ما كان مُجملاً.
ونشرت الدول مجلّدات ضخمة من الوثائق الدبلوماسية والعسكريّة، فلم يبق في الأحداث الكبرى ستر إلّا ورُفع، أو تفصيل إلّا وسُرد.
والتمست في هذا الخضم شمولاً جامعاً فلم أجد. ولذلك نهضت إلى العمل، تحدوني الرغبة في عرض وقائع الحرب كلّها في مظاهرها العسكريّة والسياسيّة والانسانيّة على السواء، فأتى هذا الكتاب ثمرة للجهد المبذول. إنّه لكتاب ضخم بصفحاته، ولكنّه، مع ذلك، مختصر إذا ما قيس بالمادة التي ضمّتها دفّتاه.
ولقد بذلت في تحقيق التّمام قصاراي، فآمل أن أكون قد وُفقت الى المبتغى. ومهما يكن من أمر فإنّ حسن النيّة كان رائدي وديدني في المهمّة.
ريمون كارتييه
ولما كان رائد
بالجليل المفي قد
عمدنا الى نشر هذا الكتاب بلغة الضاد،
و أملنا ان نكون قد أسدينا الخدمة التي دلّتنا على السبيل وسدّدت منّا الخُطى.
الناشرون